

تكنولوجيا المعرفة

فخذوها بثقة واطمئنان

الشيخ الدكتور
محمد بن حامد حواري



ولوج المعرفة

فخذوها بثقة واطمئنان

الشيخ الدكتور

محمد بن حامد حَوَارِيّ



(ردمك) ISBN 978-9957-05-172-3

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

دار الضياء للنشر والتوزيع

عمان - الأردن

صندوق بريد : ٩٢٥٧٩٨ - الرمز : ١١١٩٠

هاتف وفاكس : ٥١٦٧٨٥٠٢ ٦ ٠٠٩٦٢

البريد الإلكتروني : info@daraldia.com

الموقع على الإنترنت : www.daraldia.com



رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية ٢٠٠٧/١١/٣٥٦٨

٢١١

حواري ، محمد بن حامد

وليوج المعرفة : فخذوها بثقة واطمننان / محمد بن حامد حواري ...

عمان : دار الضياء للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٨

(٥٩٦ ص.)

ر.إ. (٢٠٠٧/١١/٣٥٦٨).

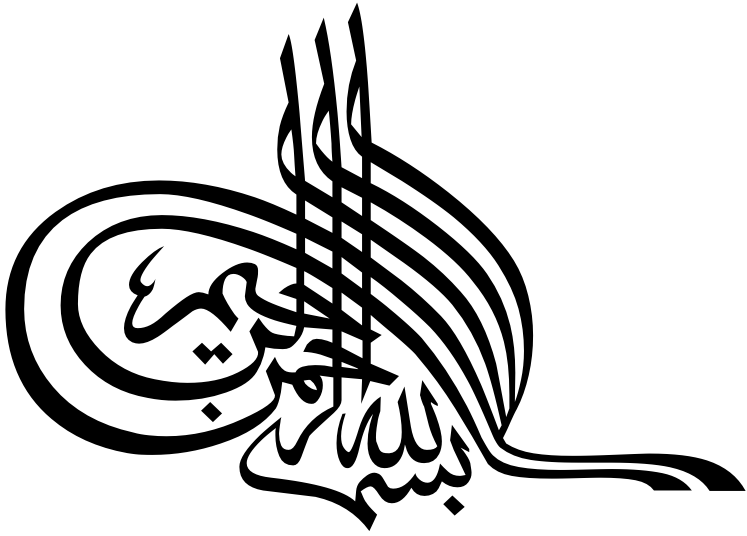
الواصفات : // الإسلام // العبادات /

■ تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

جميع الحقوق محفوظة

١٤٢٩ هـ | ٢٠٠٨ م

صمم الغلاف أنس أحمد الجدة



نبذة من سيرة المؤلف

انطلقت مجموعة من عائلة (حواريّ) مغادرين الحجاز ليستقروا في مختلف بلاد الشام.

إنها فرع من آل النبي محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، ومن نسل ابن عمته صفية بنت عبد المطلب المعروف بالزبير رضي الله تعالى عنهما، ذلك لأنه روي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال: [ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس يوم الخندق (ليأتوا بأخبار عدوهم)، فانتدب الزبير، ثم ندبهم، فانتدب الزبير، فقال صلى الله عليه وسلم: «إن لكل نبي حوارياً وحواريّ الزبير» (لأنه الوحيد الذي تكررت منه الاستجابة)].

وقد وُلد الكاتب في ربيع الثاني لسنة ١٣٥٠ للهجرة من نسل حواريّ رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم الزبير بن العوام رضي الله عنه، وهو ابن عمّة رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها، ويلتقي نسبه بنسب رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في سيد قريش قصي بن كلاب، وعمته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وأخواله حمزة والعباس رضي الله عنهما، وأولاد خاله علي وجعفر رضي الله عنهما، وحماه أبو بكر رضي الله عنه.

هذا وقد ولد الكاتب من أبوين حواريّين، واستشهد والده حامد وعمه الوحيد فارس في الجهاد ضد الاستعمار البريطاني وعملائه.

وقد التحق الكاتب صاحب هذه السيرة بالجامعة السورية بدمشق ليتخرج بإجازة (ليسانس) في الآداب ثم بإجازة (ليسانس) أخرى في التربية.

وباشر بعدها عمله في الكويت ليقضي ثلاثين عاماً من عمره هناك حتى عام ١٩٩٠م بين التدريس والإشراف الفني والإداري والدراسات والبحوث والترجمة والنشاط في مختلف المجالات الفكرية والسياسية.. ودرس خلالها مقرر درجة الدبلوم العالي في الدراسات الإسلامية العليا في القاهرة.

وقد كتب أكثر من مائة وعشرين دراسة شملت جميع الميادين التربوية والثقافية والعلمية والاتصالات، بالإضافة للعديد من سلاسل المقالات التربوية والثقافية والإدارية التي نشرت في دوريات يومية وأسبوعية كويتية.

وقد شملت مؤلفاته الكتب التالية :

١. دعوة من جامع الأحكام ، وهو دراسة لتفسير الإمام القرطبي في أربعة أجزاء، بالإضافة لدليل بموضوعات وأهداف السور.
٢. الإيمان يغير الإنسان ، في قسمين ، وقد ترجمهما وسجلهما على أشرطة
٣. أئمة الشريعة الإسلامية،
٤. لمن كان له عقل .. فليتبدر هذه البحوث الإسلامية الخمسة عشر،
٥. السلام .. إلى أين ؟ في أربعة أقسام،
٦. ولوج المعرفة.. في خمسة أقسام،
٧. الإمام جابر بن زيد رضي الله عنه إمام المذهب الإباضي .

وقد نال الكاتب درجتي (الماجستير) والدكتوراه في موضوع مقارنة الأديان السنة: الإسلام والنصرانية واليهودية والهندوسية والبوذية والكونفوشية، ثم نال درجة دكتوراه أخرى في مجال دراسة تفسير القرآن الكريم.

ونجد في هذا الكتاب حشداً من الأدلة والشواهد التاريخية والفكرية والسياسية على أن المعرفة بجانبها الإلهامي والكسبي هي السبيل القطعي للخير والسعادة للإنسان مادامت إلهامية من الله الخالق المدبر ، ولكنها تبقى السبيل الظني لخير الإنسان وسعادته مادامت من كسب الإنسان وصنعه .

وختاماً نسأل المولى سبحانه وتعالى أن يجعل في هذا الكتاب الخير للإسلام ودعوته، وأن يجزي مؤلفه خير الجزاء.

والحمد لله رب العالمين .

المشرف

admin@hawarey.org

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٩	تقديم
١٠	القسم الأول : ما المعرفة ؟
١١	١- دراسة كتاب زاد المعاد في هدي خير العباد
١٤١	٢- دراسة كتاب دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين
١٦٠	القسم الثاني : شروق الإسلام
١٦٠	١- دراسة كتاب شمس الإسلام تشرق من جديد
٢٠٠	٢- دراسة كتاب الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه
٢٠٩	القسم الثالث : رفاهية النفس
٢١٠	١- دراسة كتاب أفرح الروح
٢١٤	٢- دراسة كتاب حقائق عن التصوف
٢٧١	٣- دراسة كتاب تلبيس إبليس
٣٠٦	٤- دراسة كتاب تنبيه الغافلين
٣١٧	٥- دراسة كتاب تحفة الذاكرين من كلام سيد المرسلين
٣٢٨	القسم الرابع : برهان الحق
٣٢٩	١- دراسة كتاب حقوق أهل الذمة في الدولة الإسلامية
٣٣٨	٢- نظرات في إنجيل برنابا

٣٧٩	٣- دراسة مقارنة لكتابين عن الدروز : - الكتاب الأول : أضواء على العقيدة الدرزية
٣٩٢	- الكتاب الثاني : تاريخ الدروز
٤١٩	٤- دراسة كتاب تقليد الغرب أشكاله وعواقبه
٤٤٢	القسم الخامس : سطوة أمريكية على العالم
٤٤٣	١- دراسة كتاب الطريق إلى جهنم
٤٨٥	٢- دراسة كتاب صدام الحضارات
٥٣١	٣- دراسة كتاب الاختيار السيطرة على العالم أم قيادته ؟

تقديم

إن الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدي رسول الله وعلى آله وصحبه
ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد

فإن للمعرفة أبواباً ما أكثر من طرقها ولكنه عجز عن ولوجها كلها ! وعندما
يلج بابها الثاني ، باب سيرة النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، من
خلال كتاب أحد الأئمة الأفذاذ كابن قيم الجوزية في كتابه (زاد المعاد في هدي خير
العباد) فإنه يستكملها بعد أن كان قد ولج بابها الأول كتاب الله القرآن الكريم في فهم
أحكامه ومعانيه،

وعندما ينتقل إلى بابها الثالث، باب الوفاء بحق للبابين الأول والثاني، باب
إنزال ما اشتملا عليه من أفكار وأحكام على وقائع الحياة في دستور يجمع هذه الأمة
ولا يفرقها، يعزها ولا يذلها ، فإنه يكون قد
كاد يستكمل ولوج أبواب المعرفة كلها ويمسك بها جميعها ويعيش عليها بقضها
وقضيضها ولا سيما بعد

أن يلج الباب الثاني من هذا الكتاب الذي يتحدث عن شروق الإسلام وعن سبب تأخر
ذلك ، ولكنه يأبى إلا أن يلج الباب الثالث منه حيث يجد رفاهية نفسه، يجد الأجواء
الروحانية التي طالما افتقدتها النفس في زحمة الحياة، ثم يلج الباب الرابع حيث يجد
البراهين على الحق ناصعة مع حقوق أهل الذمة التي لا يمكن أن تتوفر إلا مع الكتاب
والسنة، ومع المسيحية الحقّة في برنابا وإنجيله ، ومع طائفة الدروز التي طالما
ابتعدت عن دينها الحق فأوقعت نفسها بالظلم العظيم، ومع البعد عن التقليد الأعمى
للغرب دون تمييز بين ما لديه من غث وسمين، ومع ولوج الباب الخامس
والأخير للمعرفة نجد أن سطوة أمريكة للسيطرة على العالم بكل أنواع القهر والظلم قد
دلفت في الطريق إلى جهنم من بابة العريض وأخذت تبدع في رسم أساليب السيطرة
والقهر على شعوب العالم باسم الخوف من الإرهاب، وأى إرهاب، إنه الإرهاب
الإسلامي المزعوم..

وإنه نطالما وجد رجال الحركات الإسلامية الحاجة الماسية في أنفسهم للمزيد
من الشواهد والأدلة على أن المستقبل للإسلام... الإسلام الذي يتعرض للمكر والكيد
والاضطهاد من أبنائه قبل أعدائه...

فإنني أقدم لهم هذا الجهد المزدحم بما يلبي رغباتهم... إنه لن ولن ولن
نرتضي لأنفسنا دخول حتى حجر ضبٍ وراءهم تقليداً لهم ، فبم نقلدهم وروائح العفونة
تنبعث من أفرادهم ومجتمعاتهم!؟

ها هي ثقافتنا الإسلامية تقدم لنا أصول الدستور لحياتنا ودولتنا... فليخسأ بنو صهيون وأمريكا التي تقف خلفهم متآمريين ضد ديننا وبلادنا...

فإنها والله منيعة بهؤلاء الأبطال الذين يقدمون أرواحهم رخيصة في سبيل الله... ولن يطول الزمن بعون الله تعالى حتى تشرق شمس الإسلام من جديد...

إن غربالهم مخروق مهما تفننوا في رتقه... فإنه لن يملك أن يمنع أشعة الشمس من احتراقه فكيف باختراقه...

وليخطط هانتنتون ما شاء له الشيطان من تخطيط... فحضارة الإسلام هي الغالبة والمنتصرة... {والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون} وعسى أن يحقق المولى سبحانه بهذا الجهد الخير للإسلام والمسلمين...

بهم ولهم... ويعجل يوم النصر... يوم تخفق راية الإسلام في الآفاق... في دولة العزة والكرامة...

دولة الإسلام المجيدة... دولة الخلافة الرشيدة...

المؤلف

القسم الأول

ما المعرفة ؟

تقديم

إنها إما أن تكون الهامية أو كسبية، فأما الألهامية فهي من المعجزات الربانية لمن اختارهم الله تعالى لنقل شيء من العلم الألهي إليهم كرسل مبشرين ومنذرين ، وقد تكون من الكرامات التي اختصهم بها سبحانه للتدليل بها على عظمة الله تعالى دون رسالة ،

وأما الكسبية فهي مما يجترح الإنسان نفسه من المعلومات التي تتوفر له من خلال ما يكتسبه من العلوم والخبرات ..

فأين نحن من ذلك كله مع هذا الحشد الهائل من المعارف والمعلومات والخبرات التي سنقف عليها من خلال هذا الحشد الطيب المبارك من الكتب القيمة ؟

١ - دراسة كتاب زاد المعاد في هدي خير العباد

للإمام ابن قيم الجوزية

الجزء الأول

الإسلام في العهد المكي

تذكر ترجمة المؤلف ص ١٩ بأنه كان (يرى أن الحسن والقبح في الأفعال عقليان يدركهما العقل، والله فطر عباده على استحسان الصدق والعدل والعفة والإحسان، ومقابلة النعم بالشكر، وفطرحهم على استقباح أضرارها، وأن الثواب والعقاب شرعيان يتوقفان على أمر الشارع ونهيه، ولا يجبان عن طريق العقل).

فكيف يفصل المؤلف بين الحسن والقبح وبين الثواب والعقاب عليهما؟ إن المرء عندما يحسن ما حسنه الشرع فإنه ينال الثواب، وعندما يقبح ما حسنه الشرع فإنه يتعرض للعقاب، فلا فصل بين التحسين والتقبيح وبين الثواب والعقاب.

وأما أن الشيء حسن في ذاته أو قبيح في ذاته وذلك بناء على ما يراه العقل، فإنه غير صحيح لأن العقل هنا قد استجاب لهوى النفس في تحسينها وتقبيحها للأشياء والأفعال، فهي عندما تحسن الميل لكذا وكذا، وتستطيب وتتلذذ به، فإن العقل يرى أن في ذلك الحسن وفي عكسه القبح، ولكن حكم العقل هنا ما هو في الحقيقة إلا استجابة لهوى النفس القائم على الميول العزيمية التي يلتقي فيها الإنسان مع الحيوان. ولكن العقل عندما يرى الحسن في ما حسنه الشرع والقبح في ما قبحه الشرع فإنه لا يستجيب لهوى النفس القائم على الغرائز وإنما التابع لأمر الله تعالى خالق الإنسان ومدبره والمشرع له والمبين الحسن والقبح له في الأشياء والأفعال.. وإلا فهو الإنسان الذي يستمتع بالزنى والقمار والخمر.. فيرى في أي منها حسناً تبعاً لما يشعر به من متعة ولذة: هل نقول أن عقله يدرك الحسن والقبح من ذات الشيء والفعل؟!!

وتذكر الترجمة ص ٢٠ بأن المؤلف يرى أن الاعتبار في العقود والأفعال بمقاصدها دون ظواهر ألفاظها.. وأن مقاصد العقود هي المرادة لنفسها.. وأن العبرة كما نقول القاعدة في العقود بالمقاصد والمعاني لا بالألفاظ والمباني..

صحيح أن هناك الكثير من الفقهاء ممن يقول بذلك ولكن الأرجح هو رأى الآخرين الذين يقولون بأن العبرة في العقود بالألفاظ والمباني لا بالمقاصد والمعاني، وذلك لأن التفريق بين كل ما يتصل بالمقاصد والمعاني المتعلقة بالمعبود وبين تلك المتعلقة بالعباد هو الحكم الفصل، وذلك لأن الأصل في العبادات كلها النية أو القصد،

فالصلاة بنية أو قصد غير طاعة الله هي من النفاق، وكذلك كل العبادات المباشرة للمعبود سبحانه، وأما التجارة وعقودها ومثلها كل العقود بين العباد فإن العبرة فيها بالألفاظ والمباني ولا قيمة للمقاصد والمعاني. ولذلك يصرف المعنى في حديثه عليه وآله السلام (إنما الأعمال بالنيات..) إلى العبادات بالذات بدليل ما ورد في تكملة الحديث. وعليه متى غاب هذا الدليل الجامع لمثل هذا القول فقد عاد الفريقان للأخذ بهذا التفريق وانتهى الإشكال.

ويرى المؤلف ص ٢٠ أن الشريعة مبنية على مصالح العباد.

ويجعل الشريعة تدور في أحكامها مع المصلحة حيث دارت، فيكون الحكم بالحلال حيث المصلحة والحكم بالحرام حيث المفسدة.. وهنا يقودنا القول إلى السؤال عن من هو مقدر للمصلحة والمفسدة، هل هو الإنسان وفقاً لما يراه عقله أم هو خالق الإنسان وفقاً لعلمه بخلقه وما يصلح لهم؟ لا شك أن قوله تعالى {وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً} وقوله سبحانه {وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون} يؤكدان أن الخير والشر مثل الحسن والقبح هما شرعيان وليسا عقليين.. ولذلك يعكس القول فتكون المصلحة حيث الحلال وتكون المفسدة حيث الحرام.

ويرى المؤلف ص ٣٧ بأن ابن بطل والقاضي عياض وغيرهما قالوا بأن المحبة ثلاثة أقسام: محبة إجلال وإعظام، كمحبة الوالد، ومحبة شفقة ورحمة، كمحبة الولد، ومحبة مشاكلة واستحسان، كمحبة سائر الناس؛ وأنه صلى الله عليه وآله وسلم قد جمع أصناف المحبة كلها في محبته عندما قال (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هو أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين).

فإذا جاز القول بأن محبة الرسول عليه وآله السلام كمحبة الوالد (محبة إجلال وإعظام) فكيف يجوز ذلك في القسمين الآخرين للمحبة: فنشفق على الرسول عليه وآله السلام كما نشفق على أولادنا، ونستحسنه كما نستحسن غيره من الناس؟! وإذا كان الرسول عليه وآله السلام قد نفى كمال الإيمان عن لا يحبه أكثر من ولده ووالده والناس أجمعين فكيف نجعل محبتنا له تجمع أصناف محبتنا لهم؟! إن الصحيح الواجب أن نحبه عليه وآله السلام أكثر منهم جميعاً مجتمعين ومتفرقين بل أكثر من محبتنا أنفسنا وليس أن نحبه بمقدار الجمع بين هؤلاء.. ويبقى السؤال: أين نضع محبتنا لله سبحانه؟!

ويرى المؤلف ص ٣٨ أن ما يفهم من الآية: {وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم}، بأن المؤمن لا خيار آخر له أمام حكم الله تعالى وحكم رسوله عليه وآله السلام.. فكيف ذلك؟

إن هذا يعني بأن الحكم في القرآن والسنة لا يجوز تركه لغيره ما دام صريحاً لا يحتمل الاجتهاد، وهذا معنى قاعدة [لا اجتهاد في موضع النص]، وأما إذا كان غير صريح

ويحتمل النص أكثر من معنى يمكن أن يستنبطه هذا المجتهد أو ذاك فيمكن الخيار بين اجتهاد هذا المجتهد أو ذاك، وذلك تبعاً لقوة الدليل، وقوة فهم الواقع وانطباق الحكم على هذا الواقع ومعالجته.

ويذكر المؤلف في مقدمته ص ٤٢ بأن اختيار الله تعالى لمن تاب وآمن وعمل صالحاً راجع إلى حكمته وعلمه سبحانه لمن هو أهل له لا إلى اختيار المشركين..

لاشك أنه تعالى بعلمه المطلق بمخلوقاته يعلم حال ومآل التائبين المؤمنين الصالحين وأنهم سيكونون يوم القيامة من المفلحين الفائزين، ولكن لماذا أضيفت الحكمة هنا إلى العلم مع أنها من الغيب الذي لا يعلمه أحد إلا الله تعالى إذا لم ترد في النص؟ كان يكفي لهذا الاختيار علمه تعالى ليبشر بذلك أمثالهم وينذر مخالفهم. ولو جاز وصفه تعالى بالحكيم، وهو كذلك قطعاً، فكيف يجوز وصف حكمه بالفوز والفلاح لأولئك على أعمالهم هم من توبة وإيمان وعمل صالح بأنه من اختيار الله تعالى الحكيم؟ إن الأمر هنا موضع مثوبة وجزاء على الأعمال وليس موضع تقرير اختيار منه تعالى لما اختاروه، وإلا فكل أمر وحكم من أوامره تعالى وأحكامه هو من اختياره، وبالتالي لا ثواب ولا عقاب عليه ما دام يعني هذا الاختيار الجبر والإلزام، وليس من اختيار عباده الذين سيثابون أو يعاقبون عليه.

وأما القول بأن السماء السابعة مفضلة على غيرها لقربها لله تبارك وتعالى فإنه من المسلم به أنه تعالى لا يحده زمان ولا مكان، فلا قرب ولا بعد لمخلوقاته إلا بالنسبة لرضاه وسخطه.. فكيف يقال ذلك؟!.

ويورد المؤلف ص ٦١ روايتين لحديث الرسول عليه وآله الصلاة والسلام (يوم عرفة، ويوم النحر، وأيام منى عيدنا أهل الإسلام) و(يوم عرفة، ويوم النحر، وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام، وهي أيام أكل وشرب).

والروايتان صحيحتان ومعناهما واحد إذ أيام منى هي أيام التشريق، وهي أيام أكل وشرب.

ويذكر المؤلف ص ٦٨ آيتين الأولى {سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين} والثانية {الخبثات للخبثين والخبثون للخبثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات} مستشهداً بهما على حال الناس في الدنيا والآخرة..

لاشك أن الكلام الخبيث والفعل الخبيث والزوجة الخبيثة هي للرجل الخبيث، فليحذر المؤمن الطيب من اختيار الزوجة الخبيثة لأنه طيب وكلامه وفعله طيبان، وجزاؤه الخلود في الجنة دون تطهير في النار لأنه طيب ولا تصاحبه الزوجة الخبيثة إلا إذا اجتمع فيها الطيب والخبيث، وعندها ستظهر من خبيثها في النار بمقدار هذا الخبيث، ثم بعد أن تصبح طيبة تنقل إلى الجنة، وهذا ما تؤكد الآية الأولى هنا.

ويستشهد ص ٦٩ ببيت من الشعر للمتنبي:

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

الذي يصيب به كبد الحقيقة في كل زمان، مما نلمسه في أيامنا هذه.

ويذكر ص ٧٦ معلومة طالما غابت عن أذهان المسلمين جميعاً وهم يروون قصة أهل الفيل، فيقول بأن أصحاب الفيل كانوا من نصارى أهل الكتاب، وكان دينهم خيراً من دين أهل مكة إذ ذاك، لأنهم كانوا عباد أوثان.. ويقول: ولكن الله تعالى نصرهم على أهل الكتاب إرهاباً وتقدمة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي خرج من مكة، ولتعظيم الحرم المكي.

وإذا كان قد نصر الله تعالى عباد الأوثان على أهل الكتاب النصارى فهو بلا شك نصر لا لأوثانهم ولكن لحماية بيته من الهدم والتخريب اللذين جاءوا من أجلهما.. وكما أنه بيان لجزاء الأعمال الشريرة ولو صدرت من مؤمنين فإن ما حصل في موقعة أحد من نصر للمشركين على المؤمنين هو أيضاً جزاء على العمل السيء بمخالفة أمر الرسول عليه وآله السلام.. وهكذا كل شيء ينال جزاءه كائن من كان مصدره.. فليحذر الذين يخالفون أمر الله من هذا المصير.

ويذكر المؤلف ص ٨٢ بأن عم الرسول عليه وآله السلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه كان رضيع الرسول عليه وآله السلام مرتين: مرة من ثويبة مولاة أبي لهب بعد العتق، ومرة من حليلة السعدية.

وهكذا صار معلوماً بأن المولى سبحانه قد جمع بين الرسول عليه وآله السلام وعمه حمزة رضي الله عنه في القرابة مرتين في النسب وفي الرضاع، ولم يكن هذا من أم واحدة بل من اثنتين، وكان في ذلك إرهاباً لمكانة هذا العم من ابن أخيه.

ويورد ص ٨٣ بأن بركة أم أيمن الحبشية كانت إحدى حاضنات الرسول عليه وآله السلام، وأنه عليه وآله السلام تقديراً لها زوجها من حبه زيد بن ثابت لتلد له أسامة رضي الله عنهم أجمعين.

وفي هذه المعلومة ما يضاف إلى مآثره عليه وآله السلام في تقديره لكل من كان يسدي إليه معروفاً، وكيف أنه قد أعد أسامة ليكون قائد الجيش الموجه لمحاربة الروم، مما يدل على أهمية خلفية الرجل القيادي، وأنه لا بد أن تكون موضع اعتبار قبل أن يسند له المركز، وهذا ما يؤكد قوله عليه وآله السلام (خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا).

وعلى ص ٨٦ يذكر المؤلف ما أسماه بمراتب الدعوة الإسلامية، وأنها: النبوة، فإنذار عشيرته الأقربين، فإنذار قومه، فإنذار العرب قاطبة، فإنذار جميع من بلغته الدعوة من الجن والأنس إلى يوم القيامة.

وكانه يتحدث عن مراحل الدعوة الإسلامية في مسيرته صلى الله عليه وآله وسلم في حملها. وإذا كانت النبوة من خصوصياته عليه وآله السلام فإن المراحل الأربعة من بيانه عليه وآله السلام لحملة دعوته، فيبدأ بمن هم أقربون له لأنهم أعرف الناس به وأشدهم حرصاً عليه، ثم تتسع المرحلة الثانية لتشمل جميع أقاربه والمحيطين به، ثم لتشمل جميع العرب، ثم لتشمل البشرية جمعاء. فتمر الدعوة من مرحلة الابتداء إلى مرحلة الانطلاق إلى مرحلة الارتكاز، من مرحلة إعداد حملتها، إلى مرحلة الصدع والجهر بهم، إلى مرحلة ارتكاز الدعوة في المدينة المنورة في دولة تطبق أحكام هذه الدعوة في الداخل وتحملها رسالة للخارج بجميع أنواع الجهاد والإعداد المادي، وهذا ما يحتاج علمه العودة الدقيقة لسيرته عليه وآله السلام في ذلك.

وعلى الصفحات التالية (٩٧ - ١٠٢) أخذ المؤلف، جزاه الله خيراً، يبين ما كان الرسول عليه وآله السلام والمؤمنون معه يقابلون من صعاب وأذى، وكيف كان عليه وآله السلام يتعامل معها:

فبعد اشتداد أذى الكفار للمسلمين أذن عليه وآله السلام لهم بالهجرة إلى الحبشة وقال لهم (إن بها ملكاً لا يظلم الناس عنده).

مما يدل على أنه عليه وآله السلام كان يبحث عن مكان آمن لهم.

وهاجر ١٢ رجلاً و٤ نسوة منهم عثمان بن عفان رضي الله عنه وزوجه رقية بنت الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام.

مما يدل على أن ابنته وصهره كانا ممن يطلب لهم الأمن.

ولكنهم رجعوا بعد أن وصلهم خبر كاذب بأن قريشاً قد أسلمت، مما جعل المشركين يشددون في أذاهم أكثر من ذي قبل.

مما يدل على أنه لا يجوز التعجل في العودة لمواطن الأذى والفتن.

فما كان من الرسول عليه وآله السلام إلا أن أذن في الهجرة ثانياً إلى الحبشة، فهاجر ٨٣ رجلاً و ١٨ امرأة.

مما يدل على أن العدد قد تضاعف عدة مرات عن ذي قبل بسبب شدة الأذى.

ولكن قريشاً لم تتركهم وشأنهم وقد ابتعدوا عنها بل أرسلت تطلبهم من النجاشي بوفد يقوده عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة، ولكن الله تعالى رد كيدهم في نحورهم فعاد وفدهم فاشلاً.

وهذا مما يتكرر في كل زمان ومكان فنجد حملة الدعوة الإسلامية يلاحقون خارج أوطانهم بكل أنواع الكيد ولكن الله تعالى يجعل من ذلك المزيد من الخير للدعوة ولو مع المزيد من الأذى والفتن.

وما كان من قريش إلا أن اشتدت في الأذى لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فحصرتة وأهل بيته في شعب أبي طالب لمدة ثلاث سنين، حتى خرج من الحصر وهو ابن ٤٩ سنة تقريباً، ولم يقف الابتلاء الرباني للرسول عليه وآله السلام عند هذا الحد إذ مات بعد أشهر عمه أبو طالب، ثم ماتت خديجة رضي الله عنها بعد مدة يسيره؛ مما جعل الكفار يشتدون أكثر فأكثر في أذاهم حتى خرج عليه وآله السلام إلى الطائف ومعه زيد بن حارثة يدعو إلى الله تعالى، ولكنه بدلاً من أن يجد المأوى الآمن وجد من أهلها الصد والأذى والرجم بالحجارة حتى أدموا كعبيه.

وهذا الابتلاء الشديد لرسوله عليه وآله السلام أكبر دليل على ما يجب أن يعد المؤمنون حملة دعوته أنفسهم له. ولكن هل تركه ربه سبحانه دون فسحة من أمل؟

إنه في طريقه إلى مكة لقي عداساً النصراني الذي آمن به وصدقته، وفي طريقه في موضع يسمى نخلة صرف إليه نفر من الجن عددهم سبعة من أهل نصيبين فاستمعوا إلى القرآن وأسلموا، وفي طريقه أرسل الله إليه ملك الجبال يأمره بطاعته ليطبق على قومه الأخشيين جبلي مكة إن أراد، ولكنه عليه وآله السلام قال له (لا بل أستأنى بهم، لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده ولا يشرك به شيئاً)، وفي طريقه دعا بدعائه المشهور (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي..)، وفي نهاية طريقه دخل مكة في جوار المطعم بن عدي، وهو يومئذ مشرك، وبعدها بقليل أسري به عليه وآله السلام جسداً وروحاً، إلى المسجد الأقصى ثم عرج به فوق السموات ليفرض عليه ربه سبحانه هناك الصلوات..

وهنا يظهر مدى التسرية الربانية عنه صلى الله عليه وآله وسلم عندما بدأت بإسلام عداس النصراني ثم بإسلام السبعة من جن نصيبين، وكان في ذلك تبيكت لمعشر قريش بأن الجن أولى بالإسلام منهم، ثم بهذه الإشارة الربانية من إرسال ملك الجبال ليدمرهم ولكن الرسول عليه وآله السلام لم يرض ذلك ودعا لذريتهم بالإيمان إن أصروا هم على الكفر، وفي ذلك بيان لهم للفرق بين موقفهم السيء منه عليه وآله السلام وموقفه الطيب منهم، ثم بدخول مكة بجوار مشرك مما يدل على مدى الاضطهاد والضعف للذين كان الرسول عليه وآله السلام وصحبه يعانين منهما في ذلك الوقت إذ لم يجد مؤمناً قوياً ينزل بحمايته وجواره، ثم بالإسراء والمعراج اللذين جاءا معجزة تسقط الضعاف في إيمانهم من المؤمنين كما تبرز أقوياء الإيمان استعداداً للمستقبل القريب سواء بصحبته عليه وآله السلام في الهجرة إلى يثرب لأبي بكر رضي الله عنه أو بإعلان أبي بكر قبل ذلك تصديقه للرسول عليه وآله السلام خبر الإسراء.

ويواصل المؤلف تتبع مسيرته عليه وآله السلام فيقول بأنه عليه وآله الصلاة والسلام قد أقام بعدها في مكة يدعو القبائل إلى الله تعالى، ويعرض نفسه عليهم في كل موسم، فالتقى بنفر من الأنصار كانوا ستة، فدعاهم إلى الإسلام فاستجابوا، ورجعوا إلى المدينة ليدعوا قومهم إلى الإسلام، فيفشوا الدين فيهم، فيرجعوا إلى مكة في العام التالي

وهم ١٢ رجلاً منهم خمسة من أولئك الستة، فبايعوا الرسول عليه وآله السلام بيعة النساء عند العقبة، ويعودوا إلى المدينة ليأتوا في العام التالي بـ ٧٣ رجلاً وامرأتين ليبايعوا بيعة النصرة ليرحل الرسول عليه وآله السلام إليهم هو وصاحبه بعد أن يبايع منهم ١٢ نقيباً، ويأذن لأصحابه بالهجرة إلى المدينة، ثم يتبعهم في ١٢ ربيع الأول من الاثنين، لتنزل ناقته في مبرد الأخوين سهل وسهيل من بني النجار حيث بنى مسجده ودور نسائه لينتقل إليها بعد سبعة أشهر من دار أبي أيوب، فيسمع بهجرته مهاجرو الحبشة فيرجع منهم ٣٣ رجلاً حبس منهم ٧ بمكة ورجع الباقي عام خيبر في السنة السابعة للهجرة.

فكان عليه وآله السلام قد بدأ طلب النصرة من زعماء القبائل بقوله للواحد منهم (تؤمن بي وتنصرني) للتخلص من الأذى أولاً ولإقامة حكم الله في الأرض، ولكن مكة وما حولها استعصوا واستجابت يثرب حتى بيعة النصرة فالهجرة فإقامة الدولة الإسلامية.. مما يرسم الطريق لحملة الدعوة الإسلامية في كل عصر بأنه لا استخدام للعنف أو القوة وإنما الدعوة الفكرية والبناء الثقافي حتى قيام الدولة وبعدها يبدأ البناء المادي وتأخذ الجيوش والفتوحات طريقها فتنتقل الدعوة إلى دولة، وينتقل حملة الدعوة الأوائل، أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى قادة الدولة..

وأورد المؤلف في فصل «كتبه ورسله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الملوك» ص ١١٩ - ص ١٢٤: فذكرهم جميعاً ومنهم: عمرو بن أمية الضمري، بعثه إلى النجاشي أصحمة بن أبجر، ويقال أنه أسلم وإن كان يقال إن النجاشي الذي أسلم غيره من كتب إليه.

وبعث دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر ملك الروم هرقل، وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إني مسلم، وبعث إليه بدنانير، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (كذب عدو الله ليس بمسلم، وهو على النصرانية) وقسم الدنانير.

وبعث عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى أبرويز بن هرم بن أنوشروان، فمزق كتاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (اللهم مزق ملكه) فمزق الله ملكه وملك قومه.

وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس جريج بن ميناء عظيم القبط فقال خيراً وقارب الأمر ولم يسلم وأهدى النبي عليه السلام مارية وأختها سيرين وميسرى، ففسرى عليه السلام مارية التي ولدت له إبراهيم، ووهب سيرين لحسان بن ثابت.

وبعث أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل إلى اليمن داعيين إلى الإسلام، فأسلم عامة أهلها طوعاً من غير قتال، ثم بعث إليها علي بن أبي طالب.

لقد غطت هذه البعوث بما حملته من كتب مع غيرها جميع الملوك والحكام في الأرض مما يدل على أمرين اثنين: الأول - التكليف لتبليغ الرسالة الإسلامية للناس

كافة، والثاني - الجرأة في الحق عند التبليغ. صحيح أن الرسول عليه وآله السلام قال (نصرت بالرعب مسيرة شهر) مما يعني أسبقية الرعب والخوف إلى قلوب أولئك الملوك والحكام، ولكن تباين مواقفهم، بغض النظر عن دوافعها، يدل على أن الرعب لم يحل بينهم وبين اختيارهم للإسلام، لمن أسلم، ورفضه لمن لم يسلم، وهم الأكثرية فلا حاجة للاحتجاج بأن تلك خاصية للرسول عليه وآله السلام ولا يملك حاكم من بعده، كائناً من كان، وخاصة في زماننا الحالي، أن يقوم بذلك. ولكن أسباب الاتصالات الآن أكثر وأسهل من أن تعد أو تتصور. وإذا كان التبليغ كفرض قد جرى بتلك الوسائل وبأسلوب واحد هو المكاتبة فما أكثر الأساليب والوسائل في الوقت الحاضر، والمهم أن الأسلوب يحدده نوع العمل كما يحدد العمل الوسيلة اللازمة لتحقيقه.

وذكر في فصل «أمرائه» ص ١٢٦ أنه عليه وآله السلام ولي أبا بكر إقامة الحج سنة تسع، وبعث في أثره علياً يقرأ على الناس سورة «براءة» ولهذا سأله الصديق: أمير أو مأمور؟ فقال: بل مأمور، وروى النسائي أنه قال: لا بل رسول أرسلني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بـ «براءة» أقرؤها على الناس في مواقف الحج..

ولكن التعصب المذهبي دعا من دعا إلى القول بأن الرسول عليه وآله السلام قد عزل أبا بكر بعلي، وهذا قول مردود.

ولو تحكمت النزاهة في القول ولما صدر مثل هذا القول ممن يزعمون أنهم يشايعون الإمام علي كرم الله وجهه، وإلا فكيف يواصل أبو بكر الصديق رضي الله عنه إمارة الحج وعلي رضي الله عنه يقرأ السورة في مواقف الحج؟ ولم يقل أحد بأن أبا بكر قد نزل عن إمارة الحج لعلي لولا هذه الأصوات البعيدة عن النزاهة.. وإلا فما الذي يمنع الرسول عليه وآله السلام أصلاً من أن يرسل علياً أميراً على الحج ودون حاجة لإرسال أبي بكر ثم إرسال علي محله في الإمارة؟! ومثل هذا التأخير والعزل في شخص واحد وفي مسألة واحدة لم يحصل من الرسول عليه وآله الصلاة والسلام.

وذكر في فضل (ملابسه صلى الله عليه وآله وسلم) أنه عليه وآله السلام ليس العمامة بقلنسوة وبغير قلنسوة كما ليس القلنسوة بغير عمامة، وأن عمامته كانت سوداء قد أرخى طرفيها بين كتفيه أحياناً ولم يرخ ذؤابة أحياناً أخرى. كما ليس القميص والجبة ص ١٣٥ والسراويل ص ١٣٩.

والظاهر من هذه الروايات أنه عليه وآله السلام كان يلبس ما هو شائع في ملابس عصره وقومه وإن كان ينهى عن الجبة الحمراء مثلاً كما نهى عن تقليد الأعاجم في أمثال ذلك وحرّم لبس الذهب والحريير على الرجال وأجازهما للنساء. فالمهم في اللباس ألا يظهر بمظهر الكفار أو بمظهر يخالف حكماً شرعياً كأن يلبس لباس رجال الدين النصاري أو اليهود لأن المسلمين لا رجال دين بينهم بل الكل مطالب بعلم الدين والعمل به، دون رهبة ولا رجال كهنوت يقابلهم رجال دنيا وسياسة. أما أن

يخصص آل البيت بعمامة سوداء وغيرهم من علماء المسلمين بعمامة بيضاء فهذا ليس من الأمر الإلهي ولا النبوي في شيء، وكذلك أن ترخي ذؤابة للعمامة أو لا ترخي فكل هذا جائز ولا حرج فيه كما أن للكل أن يلبس العمامة والجبّة أو لا يلبسونها، والمهم التقيد في الحلال والحرام من اللباس بالدليل الوارد وليس بالتقليد الأعمى، وبشرط عند التشبه للحديث (من تشبه بقوم فهو منهم) وللحديث الآخر (ليس منا من تشبه بقوم غيرنا)، وبشرط عدم الشهرة أو التكبر سواء كان اللباس وضيقاً أو رفيعاً.

وذكر بشيء من التفصيل على الصفحات (٢٧١ - ٢٨٥) أمر دعاء القنوت، وأن أقوى الأدلة في ذلك ما روي عن أنس بن مالك من أنه عليه وآله السلام قد قنت شهراً ثم ترك، وأنه كان يقنت باطالة الدعاء بعد الركوع في الصلوات الأخرى كما يقنت بذلك بين السجدين.

لاشك أنه عليه وآله وصحبه السلام قد قنت شهراً يدعو على رعل وذكوان بسبب قتلهم من قتلوا في بئر معونة، كما دعا يقنت عند النوازل سواء بعد ركوع فرض المغرب أو قبل الركوع، وفي كل الصلوات، وبعد الركوع في الفجر، الأمر الذي لا يجعل لدعاء القنوت المعروف وقتاً محدداً وإن كان عند النوازل قد يشمل جميع الفروض ويكون قبل الركوع أو بعده. وفي الوتر قبل الركوع وفي الفروض بعد الركوع. وما أروع هذا الجمع بين روايات أنس بن مالك رضي الله عنه بهذا الشكل مما يعطي تدريباً في بابه لمن له صلة بهذا الأمر.

وأورد المؤلف رحمه الله تعالى على الصفحتين (٣١٦ و ٣١٧) قوله بأن القرآن مداره على الخبر والإنشاء، وأن الإنشاء ثلاثة: أمر ونهي وإباحة، بينما الخبر نوعان: خبر عن الخالق تعالى وأسمانه وصفاته وأحكامه، وخبر عن خلقه. ثم قال بأن سورة «الإخلاص» خبر عنه وعن أسمانه وصفاته، ولذلك فإنها تعدل ثلث القرآن وتخلص قارئها المؤمن بها من الشرك العلمي، كما تخلص سورة «الكافرون» من الشرك العملي الإرادي القسدي ولذلك فإنها تعدل ربع القرآن وحديث الرسول عليه وآله السلام «إذا زلزلت تعدل نصف القرآن، وقل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن، وقل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن» يؤكد ذلك. فسورة «الكافرون» جاءت بالتأكيد والتكرار لإزالة الشرك العملي الذي ألفه الناس وأصبح صعباً في إزالته بينما لم تحتج سورة الإخلاص لهذا التأكيد والتكرار، وأما سورة الزلزلة فقد جاءت من أولها إلى آخرها خاصة بالآخرة وما يكون فيها من أحوال الأرض وسكانها ولذلك كانت تعدل نصف القرآن ولا سيما لأن القرآن شطران: شطراً في الدنيا وأحكامها وأمور أهلها، وشطراً في الآخرة وما يقع فيها.

ما أروع هذه الوقفة منه رحمه الله تعالى وهو يبين الرابط بين تلك السور الثلاث: الزلزلة والكافرون والإخلاص في توزيع ما يعدل كل منها من القرآن مع ما يشتمل عليه هو من أشياء، سواء في حق الشرك بين علمي وعملي، أو في حق أمور

الدنيا والآخرة.. الأمر الذي يستدعي من المسلم أن يحرص على تلاوة هذه السور في صلواته حيث ما استطاع، كما يستدعي الحرص على بناء عقيدته بشكل سليم صلب بحيث لا يعترها أي خلل من شرك علمي، ما أكثر ما يتردد على ألسنة الجهال بسبب ما أشيع بينهم من معتقدات باطلة، ومن شرك عملي، ما أكثر ما يقع فيه المسلمون ولا سيما من يتعاشون مع غير المسلمين منهم فيجاملونهم في المشاركة معهم في صلواتهم مثلاً. ومتى استقام أمر العقيدة، وهي أساس بناء الشخصية الإسلامية، فقد سهل إكمال البناء ولا سيما أن من يحرص على الأساس سيواصل حرصه على البناء بغض النظر عن زخم التركيز في وسائل الإعلام على تحطيمه ليتحقق لهم الوصول إلى الأساس. فالشخصية الإسلامية التي يقوم بناؤها على العقلية والنفسية الإسلاميتين تقوم في شطريها على العقيدة نفسها، إذ بدونها لا توجد عقلية المسلم في صلبها ولا نفسيته. ونرى ذلك واضحاً في حق الفرد المسلم بعقيدته وعباداته وأخلاقه ومعاملاته، فإن عقيدته هي أساس العناصر الثلاثة الأخرى، فمن يؤمن بالله ورسوله يلتزم بما جاء في القرآن والسنة من عبادات وأخلاق ومعاملات وإلا فلا شخصية مسلمة ولا التزام.

وذكر على الصفحتين (٣٢٢ و ٣٢٣) أمراً بديعاً بشأن مفهوم النافلة في حق الرسول عليه وآله السلام وحق أتباعه المسلمين، فهي في حقه عليه وآله السلام زيادة درجات لأنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأما في حق المسلمين فهي ليست زيادة درجات وإنما تكفير خطايا وذنوب.

ما أشرف مثل هذا البيان والتفريق فيه بين صلاة السنن في حق الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام وبينها في حق المسلمين، الأمر الذي يدعو المسلم إلى الحرص على المزيد من السنن لتصفو نفسه ويطمئن قلبه إلى قربه منه تعالى فيجد من عزمه الشيء الكثير لمقارعة الصعاب والخطوب في الحياة، وما أكثرها ولا سيما لحامل الدعوة الإسلامية.

ومن لطائف ما أورده المؤلف رحمه الله تعالى على صفحات عديدة ميزات يوم الجمعة على سائر أيام الأسبوع وذكر فيها المزية الثالثة والعشرين (ص ٣٩٨) مما استوفقتني عندها عندما قال بأن يوم الجمعة يوم عبادة، وأنه في الأيام كشهر رمضان في الشهور، وساعة الإجابة فيه كليلة القدر في رمضان، وأنه من صبح له يوم الجمعة وسلم سلمت له سائر جمعه، ومن صبح له رمضان وسلم سلمت له سائر سنته، ومن صحت له حجته وسلمت له صبح له سائر عمره، فيوم الجمعة ميزان الأسبوع، ورمضان ميزان العام، والحج ميزان العمر.

فما أظف هذه الكلمات النيرات لولا أن صحة يوم الجمعة وسلامته يكونان بالقيام فيه بخير الأعمال وتجنب سيئها، وأن في رأس خيرها حسب ما تفرضه الشريعة في الكتاب والسنة: فإذا غابت أو غيبت أحكام الله تعالى من الأرض فحق على من يريد أن يصح يوم جمعه ويسلم أن يعلم أن ألزم اللزوم في حقه هو العمل لإقامة أحكام

الشريعة في الأرض وإزالة كل القوانين الوضعية المفروضة بدلاً منها في بلاد المسلمين وعلى المسلمين.. ولاشك أن هذا هو شأن صحة رمضانه وحجته وإلا فأي صحة وسلامة لهذين اللذين يمنع فيهما المسلمون من العودة إلى الاحتكام للإسلام، ويبطش بهم بجميع أنواع القهر والاضطهاد استرضاء لنوازع الشر المتمثلة بطاغوت الكفر والكفار في الشرق والغرب معاً؟! ألا فلتحفظ يا رب لهذه الأمة دينها، ولتعد للحياة شريعته، ولترغم أنف أعدائها.. فأنت وحدك الناصر لعبادك مهما حاولوا الجهد وبذلوا السعي..

ومع نهاية الجزء الأول من الكتاب عقد المؤلف رحمه الله فصلاً (صفحة ٥٢٩) في صلاة الخوف فذكر لها ستة أوجه أو سبعة، ورأى أنها كلها جائزة. ولاشك أن تفصيل ذلك بحسب موقع الجيش وشدة المعركة والقرب من العدو، وفي ذلك كله تيسير ما بعده تيسير على المسلمين، كما فيه بيان فرض الصلاة ووجوب أدائها في جميع الأحوال.

الجزء الثاني - من زاد المعاد ..

عقد المؤلف رحمه الله في الصفحات الأولى من هذا الجزء (٥ - ٢٣) فصلاً في الصدقة والزكاة فذكر أنها جعلت في أربعة أصناف من المال تنصف بصفتين: هي أكثر الأموال دوراناً بين الناس، وهي حاجتهم إليها ضرورية، وحددها في: ١- الزرع والثمر، ٢- بهيمة الأنعام، ٣- الجواهران الذهب والفضة، ٤- أموال التجارة.

وظهر العدل في ذروته عندما أوجبها سبحانه وبينها رسوله عليه وآله السلام مرة كل عام، وجعله عند كمال الزروع والثمار، وحدد مقادير الواجب بحسب السعي في تحصيلها، وما فيه من سهولة ومشقة، فكان الخمس في الركاك الذي صادفه الإنسان محصلاً من الأموال، وكان نصف الخمس أي العشر في ما فيه مشقة وكلفة أكثر كالثمار والزروع التي تحرث أرضها وتبذر ولا تسقى، أي أن الله تعالى يسقيها، وكان نصف العشر فيما يتكلف على سقيها، وكان ربع العشر فيما كان نماؤه موقوفاً على عمل صاحبه وإدارته.. كالتجارة.

وتجلى العدل في ذروته عندما جعل النصاب يحقق المواسة للمعطي والآخذ، فلا إجحاف برب المال ولا بالمسكين، فكان مائتا درهم في الفضة، وعشرين مثقالاً أي ما يقرب من ٨٥ غراماً من الذهب، وخمسة أحمال من أحمال إبل العرب من الحبوب والثمار، وللغنم ٤٠ شاة، وللبقر ٣٠ بقرة، وللابل خمساً.

وظهر التجلي للعدل أكثر وأكثر عندما يلاحظ أن المولى سبحانه قد تولى إنفاقها بنفسه، وجزأها ثمانية أجزاء، يجمعها صنفان من الناس:

صنف أول - يأخذ لحاجة، وهم الفقراء والمساكين وفي الرقاب وابن السبيل،

وصنف ثان يأخذ لمنفعة، وهم العاملون عليها والمؤلفة قلوبهم والغارمون والمجاهدون.

فما أعظم هذا العدل وما أشد بروزه وظهوره لكل ذي بصر وبصيرة، مما ينهي قيمة حتى هذا التفاوت في الرزق بين العباد، ناهيك عما يؤدي إليه من التواد والتآلف بين الناس، ويجعل أهل الأديان والعقائد والمبادئ الأخرى يرون إلى أي نمط من الحياة يدعوهم الإسلام للعيش معه، فيجعلهم يقدمون لا على محاربتة، كما يفعل دعاة الصليبية والصهيونية وأزلامهم اليوم، ولكن إلى محبته واعتناقه، ولولا هذه الشلة العريضة ممن يدعون الإسلام من حكام البلاد والمنتفعين بهم لكان للإسلام والمسلمين شأن آخر من مجرد العمل بهذا الجانب من الإسلام ألا وهو الزكاة.. فكيف يكون حال الإنسانية كلها مع الجوانب الأخرى!؟

وما أطيب أثر موضوع هذا الفصل في أسباب شرح الصدور الذي عقده المؤلف رحمه الله تعالى على الصفحات التالية (٢٣ - ٢٨):

إنه يذكر تلك الأسباب التي تشرح صدر المؤمن كما يلي:

- ١- أعظمها التوحيد، وعلى حسب كماله وقوته وضعفه.
- ٢- العمل الذي يسع الدنيا ويتجاوزها.
- ٣- الإجابة إلى الله تعالى ومحبته بكل القلب والتنعم بعبادته.
- ٤- دوام ذكره تعالى على كل حال.
- ٥- الإحسان إلى الخلق ونفعهم بالمال والجاه والبدن وأنواع الإحسان الأخرى.
- ٦- الشجاعة التي تملأ قلب المرء فرحاً وسروراً بما تجلب لصاحبه من بركة النخوة والمروءة والعطاء.
- ٧- تخليص القلب من الصفات المذمومة.
- ٨- ترك فضول النظر وأمثالها من كلام واستماع ومخالطة وأكل ونوم التي تجلب الهموم والغموم.

فهل من شيء أعظم من الإيمان بالله تعالى وحده خالقاً ومدبراً لشرح الصدر وهو يملأ العقل قناعة والقلب طمأنينة؟! فإن إرادة الله تعالى قائمة بأمره المنصوص عليه على لسان رسله وأنبياؤه وخاتمهم محمد عليه وآله الصلاة والسلام بالإيمان به وحده خالقاً ومدبراً، وهذا معنى {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السم}، فهو سبحانه بتلك الإرادة قد وفر للإنسان ما يحقق له انشراح صدره، وما عليه إلا أن يلبي تلك الإرادة ويلتزم بذلك الأمر فيؤمن بوحداية الله تعالى في الخلق والتدبير، وإلا فإنه قد اختار الشرك والكفر والعياذ بالله فوق في الضلال والمجافاة للحق مما يضيق عليه صدره ضيقاً شديداً تبعاً لشدة كفره وضلاله فيظهر كمن يختنق من شدة الضيق..

أما العلوم الشرعية واتخاذها أساساً للعلوم الأخرى بحيث لا تناقضها بل تدعمها، فإنها ولاشك تجعل هذه الدنيا صغيرة دونها وهي تحيط بها وتتجاوزها للعلم بما عند الله تعالى مما أعده من الجزاء الأوفى للمؤمنين المطيعين مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وأنها ولاشك توفر المزيد من الطمأنينة والرضى بجانب الإيمان ذلك..

وبالعودة الدائمة إلى أمر الله تعالى ونهيه في كل شؤون وشجون الدنيا، والمصحوبة بمحبته تعالى التي تملأ القلب فلا يرضى إلا بما يرضيه ولا يسخط إلا بما يسخطه، فإن هذا المؤمن المحيط بما عند الله تعالى من المنوبة يشعر بالمتعة والنعمة الكبرى وهو يقبل عليه تعالى عبداً متبتلاً.

وإذا ابتلي أو اشتد عليه الابتلاء، والمؤمنون أشد الناس بعد الأنبياء ابتلاء، فإنه لا يتدمر ولا يشتكي لكثرة ذكره لله تعالى واطمئنانه بجانبه في قضائه وقدره كما في اختياره هو وممارسة إرادته، فلا ينسى لا في اختيار ربه استحضر أمره تعالى ونهيه ولا في اختياره فيبقى بأمن مهما اشتدت عليه الخطوب وازدحمت النوائب..

وهو إذ يستحضر الأمر والنهي، يستحضر ذلك كما يستحضر الإحسان، فإنه لا يتردد في تقديم كل عون ممكن لديه لعباد الله ومخلوقاته، مستشعراً الراحة والطمأنينة وقد قدر واستطاع على فعل ذلك ابتغاء مرضاته سبحانه..

وأى شجاعة تبعث مثل هذا الاطمئنان في النفس فتشرح الصدر غير تلك الشجاعة التي تحقق تنفيذ كل أمر ومنع كل نهى والوقوف بجانب كل إحسان يريدها ويأمر وينهى عنها المولى سبحانه؟ فهو لا يتردد في تلبية نداء كل مستغيث، والمحاولة لإزالة كرب كل مكروب، فيشعر بغاية الرضى والراحة النفسيتين مع كل عمل من ذلك، لا لشيء إلا لأنها تزيد قرباً من الله تعالى الذي ملأ عليه حبه كل جوانب قلبه..

وهو على جانب عظيم من الحرص لطرح كل الشوائب والأدران من نفسه ليبقيها في تصاعد على درجات سلم الكمال، فلا يأوي إلى فراشه ألا وهو يستشعر غاية الرضى بجانب ربه لما قدمه في ذلك اليوم ابتغاء مرضاته..

وهو لا يقبل لنفسه أن تنشغل في شيء من فضول أمور الدنيا كلها لا في قول ولا فعل ولا نظر وفكر، لأنه يعلم علم اليقين أن الوقت المعطى له من عمره كنز ثمين لا يجوز التفريط بشروى نقيير منه، فكيف يشغله أو يشغل شيئاً منه في تفاهات الدنيا والتي وفرها المولى سبحانه لاختبار خلقه في اختياراتهم..

وعقد بعدها فصولاً تتحدث عن صيام الرسول عليه وآله الصلاة والسلام (ص ٢٨-٩٠) فبين أن فرض الصيام كان في السنة الثانية من الهجرة، وأن الرسول عليه وآله السلام قد صام تسع رمضان قبل وفاته، وأن للصوم ثلاث رتب:

الأولى: الإيجاب مع التخيير {وعلى الذين يطيقونه فدية}.

والثانية: الوجوب حتى لو نام دون أكل الإفطار حرم عليه إلى الليلة القابلة.

والثالثة: الوجوب مع الإفطار والسحور وإتيان النساء لمن أراد في الليل {أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نساتكم} مما يدل على تحريم ذلك قبلاً، و{كلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الأسود من الفجر} مما يدل على أن ذلك لم يكن في الرتبة الثانية والأولى بالطبع.

مما يدل على مدى ما يكون عليه المسلم من الإيمان حتى يقبل على ترك شهواته وملذاته بالصيام، ويدل على أثر الصيام وتأثيره على الشهوات (فإن الصوم له وجاء)، الأمر الذي يستدعي من شباب المسلمين وبالذات حملة الدعوة منهم الحرص على اللجوء إليه أي الصيام ليتقوا به من توقد الشهوات وثورتها فيكملوا فترة الشباب إلى الزواج بأمان وأمن بجانب الرحيم الرحمن..

وأما الجمع بين النصوص الكثيرة بشأن صيام يوم الشك، يوم الثلاثين من شعبان، والمتردة بين المنع من ذلك وجوازه فقد ذكر المؤلف رحمه الله تعالى بأن النصوص كلها لا توجب صومه وإنما من يقول به يقول بذلك احتياطاً، ولا سيما أن من الصحابة من كان يصومه ومنهم من لم يكن يصومه.. وأن حديث الرسول عليه وآله السلام (إذا رأيتموه - أي الهلال - فصوموا، وإذا رأيتموه فأفطروا، فإن غم عليكم فأقدروا له ثلاثين يوماً) وفي رواية فإن غم عليكم فأكملوا العدة ثلاثين).

فهذا الجمع هو الحق المبين مما ينهي الخلاف فيكون جواز صوم يوم الشك من باب الاحتياط ليس أكثر ويكون يوم فطره من باب الجواز.

وأورد أن الفطر في رمضان بسبب قتال العدو هو الأولى لقوله عليه وآله السلام (أنتم قد دنوتم من عدوكم، والفطر أقوى لكم)، ولقوله تعالى في بيان ذلك بالإشارة {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة} والقوة أكدها الرسول عليه وآله وسلم بقوله (ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي)، ولقوله عليه وآله السلام لأصحابه يوم فتح مكة (إنه يوم قتال فأفطروا)، ولأنه عليه وآله السلام أفطر هو وأصحابه في غزوتي بدر وفتح مكة في رمضان.

مما يؤكد على أمر الجهاد في سبيل الله تعالى وأنه مقدم على الصيام الذي جعله الله تعالى له وهو سبحانه وحده الذي يجزي به، والجهاد سواء كان بالقتال المادي أو بغيره فإنه قد خصص هنا للمادي فقط، وأما الإشكال بأن الفطر كان للسفر فيحل مع النص الصريح من الرسول عليه وآله السلام إذ كان قوله محصوراً بقاء العدو وقاتله.

ثم وقف المؤلف رحمه الله مع هديه عليه وآله السلام في الحج والعمرة من الصفحة ٩٠ إلى الصفحة ٣١١ فحرص على بيان كل شاردة وواردة مع حل المسائل المشكلة، وبدأ بالعمرة فأكد أن الرسول عليه وآله وسلم قد اعتمر أربع عمر كلهن في

ذي القعدة: ١- عمرة الحديبية سنة ست، وفيها صده المشركون عن البيت فنحر البدن بالحديبية، وحلق وأصحابه رؤوسهم، وحلوا من إحرامهم، ورجعوا إلى المدينة، ٢- عمرة القضية في العام التالي، ودخل فيها مكة وأقام بها ثلاثاً ثم خرج بعد إكمال العمرة، وهي على الأرجح ليست قضاء لتلك العمرة وإنما سميت بذلك لأن الرسول عليه وآله وسلم قاضى المشركين عليها، ولأن الألف وأربعمئة الذين صدوا عنها معه لم يحضر أحد منهم بل حضر غيرهم في عمرة القضية، ٣- عمرته مع حجته قرناً، ٤- عمرته من الجعرانة عندما رجع إلى مكة بعد نصر الله تعالى له في حنين.

فلاشك أنه عليه وآله السلام كحاكم وقائد للجيش كان يحرص على فعل ما يقتضيه أمر ربه له مما يشرع لأتمته حتى يوم القيامة، فلم يعتمر إلا عمرة واحدة في العام الواحد مع أن ذلك مما بين جوازه لأتمته لأكثر من مرة في العام، ونبه على ما يمكن أن يشق من فعله على أمته لو اقتدوا به مما يشعر بخصوصيته له سواء في دخول الكعبة أو الاستقاء من زمزم أو العمرة في ذي القعدة وهو عليه وآله السلام القائل (العمرة في رمضان تعدل حجة).

ثم تتابع وصف رحلته عليه وآله السلام من المدينة إلى مكة والعودة منها بعد أداء العمرة والحج كما يلي:

أعلم الناس أنه حاج، فتجهزوا للخروج معه من المدينة وخارجها، والراجح أن خروجه بدأ يوم السبت، وقضى يوماً في ذي الحليفة حتى بات وطاف على أزواجه كلهن لأنهن كن معه جميعهن، بعد أن كان قد صلى الظهر أربعاً في المدينة وخرج بين الظهر والعصر، ووصل ذي الحليفة حيث صلى بها العصر ركعتين، ثم صلى بها المغرب والعشاء والفجر والظهر ركعتين، ثم أهل بالحج والعمرة من مصلاه بعد أن قلد بدنه نعلين وأشعرها من الجانب الأيمن، وكان إحرامه قارناً لا مفرداً ولا متمتعاً لأكثر من عشرين حديثاً صحيحة صريحة في ذلك.

لقد كانت تلك حجة الوداع، وهي الحجة الوحيدة التي حجها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد الهجرة، وأما قبل الهجرة فلم يكن هناك حج لأنه فرض في العام التاسع من الهجرة وإن قيل بأنه عليه وآله وسلم قد حج مرتين قبل الهجرة فكيف ذلك ولما يفرض الحج بعد بالطبع ولما توحى إليه مناسكه!!

وجماع ما فعله عليه وآله السلام في حجة الوداع هو القران بالرغم من الخلاف على ذلك بين قائل بالتمتع وقائل بالإنفراد وكل منهم يرد عليه، وقد رد المؤلف رحمه الله تعالى خير رد على ذلك فانتهى الإشكال.

فكم هي رائعة مثل هذه المناقشات للآراء المتعددة ورد ما يرد منها وتشببت ما يجب تشبثه، وكل ذلك دليل صحة وعافية لفقهِ هذه الشريعة وحرص أهلها الأجلاء عليها جزاهم الله تعالى عن الإسلام والمسلمين جميعاً خيراً وأي خير.

فقد أهل صلى الله عليه وآله وسلم بعد صلاة الظهر ثم لبي فقال: (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك)، وخير أصحابه عند الإحرام بين الأنساك الثلاثة: العمرة أو الحج والعمرة قراناً أو تمتعاً، ثم نديهم عند الدنو من مكة إلى فسخ الحج والقران إلى العمرة لمن ليس لديه هدى، ثم أكد ذلك عليهم عند المروة. وهكذا ينتهي الجمع بين الأحاديث المختلفة إلى الحل النهائي ويستقر فعله عليه السلام إلى القران وإن قال بأنه لو عاد في العام التالي لما ساق الهدى وأفرد بالحج.

وولدت أسماء بنت عميس زوجة أبي بكر رضي الله عنهما ابنه محمد فأمرها الرسول عليه وآله السلام أن تغتسل، وتسننفر، وبثوب، وتحرم وتهل مما يدل أن للمحرم أن تغتسل، كما أن للحائض أن تغتسل لإحرامها كما حصل مع عائشة رضي الله عنها أيضاً، وأن الإحرام يصح من الحائض، مما يوضح أحكام النفساء والحائض مع الإحرام للمسلمات إلى يوم الدين، ومما يظهر كم هو هذا الدين يسر لعباد الله تعالى فلا يحرم أحد من مثوبة الحج ولا سيما أنها ليست كالصلاة يومية ولا كالصيام سنوية وإنما هي واجبة في العمر مرة واحدة.

فقد أمر صلى الله عليه وآله وسلم عائشة رضي الله عنها بعد أن حاضت أن (افعلي ما يفعل الحاج، غير أن لا تطوفي بالبيت) وقالت (ففعلت، فلما قضيت الحج أرسلني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع عبد الرحمن بن أبي بكر إلى التنعيم فاعتمرت منه فقال (هذه مكان عمرتك) مما يدل على أنها كانت قارئة كالرسول عليه وآله السلام وأنه قد كفاها طواف واحد وسعي واحد لأنه عليه وآله السلام قال لها: (يسعك طوافك لحجك وعمرتك)

فهذه من بيان الأحكام في حق الحائض بالذات، وكيف أنه من الممكن أن يعتمر المفرد بعد الانتهاء من الحج بالذهاب إلى التنعيم حيث يحرم ويعود ويطوف ويسعى فتكمل عمرته فلا يتكلف الهدى ما دامت قدرته المالية تعجزه عن ذلك. وعليه فإن عائشة وأمثالها من المسلمات لها أن تحل أو تنقض عمرتها بسبب الحيض وتفرد حجها بعد أن تكون متمتعة أو قارئة، وبعد الانتهاء من الحج يمكنها أن تخرج إلى التنعيم فتحرم ثم تعتمر فتقضي العمرة التي أفسدها الحيض. ومن أدلة التأكد من جواز الحج للحائض أن عائشة رضي الله عنها لم تطهر إلا يوم عرفة، وإن كان ذاك الطهر مجرد غسل لعرفة فإنها تطهرت من الحيض نهائياً يوم النحر.

ودخل عليه وآله السلام مكة نهائياً من أعلاها ودخل المسجد ضحي من باب بني عبد مناف المسمى باب بني شيبه وقال عندما نظر إلى البيت (اللهم أنت السلام ومنك السلام، حيناً ربنا بالسلام، اللهم زد هذا البيت تشريقاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة، وزد من حجه أو اعتمره تكريماً وتشريقاً وتعظيماً وبراً). ولم يركع تحية المسجد بل بادر للطواف حول البيت، وعندما حاذى الحجر الأسود استلمه وقبله دون مزاحمة،

وقال بين الركنتين (ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار). وبعد الطواف صلى ركعتين في مقام إبراهيم عليه السلام قرأ فيهما الفاتحة وسورة «الإخلاص» وسورة «الكافرون»، واستلم الحجر الأسود ثم صعد إلى الصفا، فوحد الله وكبره عندما رأى البيت فقال (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده) ثم مشى إلى المروة وأسرع عند الميلين الأخضرين فرمل ثلاثة أشواط ومشى أربعة سواء في الطواف حول الكعبة أو عند السعي بين الصفا والمروة. وأقام بمكة يقصر الصلاة، ثم توجه إلى منى ضحى يوم الخميس حيث صلى الظهر والعصر جمعاً وقصراً وبات، وعند طلوع الشمس سار منها إلى عرفة، فنزل في قبة ضربت له في نمرة، ثم ألقى بهم خطبته الجامعة وهو واقف بعرنة، وصلى الظهر يوم الجمعة ركعتين، ولم يصل الجمعة، ثم العصر ركعتين قصراً وجمعاً، ووقف عند الصخرات، واستمر في الدعاء والتضرع والابتهاج إلى غروب الشمس، وروي عنه (ارفعوا عن بطن عرنة وارفعوا عن بطن محسر) وقال عليه وآله السلام عندما سألوه عن الحج (الحج عرفة، من جاء قبل صلاة الصبح من ليلة جمع تم حجه، أيام منى ثلاثة، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه)، وكان أكثر دعائه يوم عرفة (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، بيده الخير وهو على كل شيء قدير).

فلما غربت الشمس أفاض من عرفة بالسكينة، وركب ناقته وأردف خلفه أسامة بن زيد، وعندما أتى المزدلفة صلى بها المغرب والعشاء، وأمر الضعفة أن يذهبوا لمنى قبل طلوع الفجر وأمرهم (لا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمس) من باب الاستحباب، والنقط له ابن عباس سبع حصيات، وسار من مزدلفة مردفاً الفضل بن العباس فأسرع في وادي محسر حيث قيل أن أصحاب الفيل قد حسروا فيه، ثم رجع إلى منى حيث خطب الناس خطبة بليغة وكان يقول لكل من سأله عند التقديم في الذبح والحلق والرمي (لا حرج)، ثم جاء المنحر بمنى بعد الرمي فنحر ٦٣ بدنة بيده بعدد سني عمره عليه وآله السلام وأكمل علي نحر المائة، ثم حلق رأسه فقسم شعر الجانب الأيمن بين من يليه ودفع شعر الجانب الأيسر إلى أبي طلحة، ودعا للمحلقين ثلاثاً وللمقصرين مرة، ثم أفاض إلى مكة قبل الظهر راكباً فطاف طواف الإفاضة، طواف الزيارة، ثم أتى زمزم فشرب وهو قائم، ثم رجع إلى منى من يومه بعد أن صلى الظهر في مكة على الراجح، ولم يبيت بها، وبعد الزوال بدأ بالجمرة الأولى فرماها بسبع حصيات وهو يقول مع كل حصية (الله أكبر)، واستقبل القبلة عند الجمرة الأولى والبيت عن يمينه، ورمى الجمرة الوسطى وهو عن يساره وكذلك الجمرة الثالثة ومنى عن يمينه، ثم رجع من فورهِ، وخطب بمنى خطبتين خطبة يوم النحر التي أشير إليها سابقاً وخطبة في أوسط أيام التشريق، وأنزلت عليه سورة (إذا جاء نصر الله والفتح) في وسط أيام التشريق فعرف أنه الوداع، وأذن عليه وآله السلام للعباس ولرعا الإبل بالمبيت بمكة من أجل السقاية والبقاء خارج منى مع الإبل كما يجوز ذلك لأصحاب الأعداء لخوف ضياع مال أو مريض في نفسه أو غير ذلك، وأكمل عليه وآله السلام

أيام التشريق الثلاثة وأفاض بعد ظهر اليوم الثالث منها وصلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء في الأبطح ثم توجه لمكة فطاف للوداع ليلاً من السحر أي طاف بالبيت مودعاً قبل صلاة الصبح، وارتحل بعدها متوجهاً إلى المدينة.

فعمرة عائشة مع أخيها عبد الرحمن تمت والرسول عليه وآله السلام وصحبه في الأبطح أو المحصب للراحة واستعداداً للوداع والرحيل، وكبر ثلاثاً عندما رأى المدينة وقال (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون، صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده) ثم دخل نهراً من غير الطريق الذي خرج منه. فكان الأولى في ترتيب أفعال يوم النحر: الرمي فالنحر فالحلق فالطواف.

فما أوضح وأيسر هذه المسيرة المباركة له عليه وآله الصلاة والسلام في أداء حجه وتعليمه لأمته ذلك!! وكما كان عليه وآله السلام ميسراً على المسلمين إلى يوم الدين ذلك وهو الذي لم يدع موقف يسر إلا يسره ولا موقف ضيق ومشقة لا تجنبه!!

وعلى الصفحات (٣٣٤ - ٣٥١) أورد هديه عليه وآله السلام في الأسماء والكنى فذكر قوله عليه وآله السلام (أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن، وأصدقها حارث وهمام، وأقبحها حرب ومرة)، ونهى عن التسمية بأسماء تستثير التطير في النفوس كيسار ورياح ونجاح، وغير الأسماء القبيحة كعاص وخراب وشهاب، كما نهى عن التسمية بأسماء فيها تزكية للنفس كبرة سماها جويرية، وقياساً على ذلك كل اسم فيه تزكية لقوله عليه وآله السلام (لا تزكوا أنفسكم الله أعلم بأهل البر منكم) مثل: التقى، المطيع، المحسن، المخلص، المنيب، الرشيد، السديد. ونهى عن التسمية والتكنية باسمه وكنيته في حياته وسمح بها بعد وفاته، ونهى عن ترك الأسماء الشرعية لغيرها فقال (لا تغلبنكم الأعراب على اسم صلاتكم، ألا وإنما العشاء، وإنهم يسمونها العتمة) من أجل المحافظة عليها ولو سميت معها.

ففي ذلك ما فيه من الحرص على ربط النفوس بالله تعالى وتجنب ما يحرصها على مخالفة طاعته، والتواضع في التسمية بحيث لا يزكي نفسه حتى لا يصيبها الكبر، والتزام الشرع حتى في مصطلحاته حتى تبقى حاضرة في الأذهان ولا تغيب عن الذاكرة في زحمة التسمي بغيرها.

وعلى الصفحات (٣٥٢ - ٣٦٤) تحدث المؤلف عن هديه عليه وآله السلام في اختيار الألفاظ حتى تكون منضبطة مع الشرع: فنهى عن الفحش في القول، وعن وصف العبد بالمملوك بل بالفتى، وعن إلحاق مشيئة الله بمشيئة العبد مثل (ما شاء الله وشئت) بل ليقول: ما شاء الله ثم شئت، وعن سب الدهر لما في ذلك من الشرك، وعن سب الشيطان بل يسمى الله ويتعوذ من الشيطان، وعن استخدام كلمة (لو) بقوله عليه وآله السلام (إن لو تفتح عمل الشيطان) ولكن ليقول (قدر الله وما شاء فعل)، وأمره بالتقيد بمعاني الدعاء (اللهم اني أعوذ بك من العجز والكسل، والهمل والحزن، والجبن

والبخل، وغلبة الدين وقهر الرجال) وأنها قائمة على النهي عن العجز في التصدي لأمر الحياة كلها بالأخذ بالأسباب التي ربط الله تعالى بها مسبباتها النافعة، وليس بالقعود عن الأخذ بهذه الأسباب فيكون الكسل، فيجب أن يصحب هذا التصدي بالتوكل على الله تعالى فيربط بين قوته وعونه تعالى له فيجمع بين القوة المادية والقوة الروحية فيكون بلاشك أقوى ممن أخذ بالقوة المادية فقط..

فلاشك أن العجز عن الأخذ بالأسباب، والكسل بالقعود عنها والاكتفاء بالتوكل هي مما نهى الإسلام عنه وظهر عملياً وقولياً في سيرته عليه وآله السلام وسنته، وهذا هو معنى الكيس الذي يأمر به الشرع بترك العجز والأخذ بالأسباب للوصول إلى النتائج.. وبهذا يتحقق الجمع بين السنة في الدعاء في ما قال عليه وآله السلام (ضع مع دعائك شيئاً من القطران) وبين الأخذ بالأسباب ولا سيما وقد جهز الجيوش وخاض المعارك للوصول إلى النصر، ولم ينتظر النصر حتى يأتيه دون الأخذ بأسبابه، ولو فعل أحد من المسلمين ذلك لخالف الإسلام في أمر الله تعالى {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة} وخالفه في أمره وفعله عليه وآله السلام عندما تجهز وأمر المسلمين بالتجهز والخروج للقاء العدو، وخالفه في أمره تعالى {واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون} مما يفرض عدم أفراد التوكل دون التقوى لأن التوكل محله الأسباب وكماله باللجوء والاستعانة بالله تعالى للنجاح في العمل، فقد جعل التقوى تسبق التوكل، ورفض توكل العجز والتفريط، وربط النتائج بحسب المتوكل عليه إذا اتقاه، وجعل تقواه في فعل الأسباب المأمور بها لا باضاعتها أو التفريط بها. وفي هذا تحذير من الوقوع في القدرية الغيبية التي تبرز في أفعال من يجلسون بانتظار نصر الله تعالى لهم دون الأخذ بأسباب النصر التي جعلها الله تعالى لذلك من الإعداد للقوة وتوضيح رسوله عليه وآله السلام بأنها الرمي مما يشمل جميع أنواع الرمي إلى يوم القيامة، كما تبرز في أفعال العباد الفردية أو الخصوصية بحيث لو لم يحرث المزارع الأرض ويبذر الحب فلا ثمار يرجى من قعوده بحجة التوكل على الرزاق الكريم الذي يطالبه بالسعي {فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه} إذ بدون المشي والسعي بجميع مستلزماته وحسب مقتضياته لا تأتي ثمار الرزق المرجو..

وأورد في بقية هذا الجزء الكثير من جوانب هديه عليه وآله الصلاة والسلام: منها في السلام بعامية وعند الاستئذان بخاصة فإنه من أسباب المحبة بين المسلمين، أي إفشاء السلام، حتى كان يلقيه على الصبيان والنساء المحارم أو كبار السن فقط، وأما الكافر فلا يلقي عليه السلام إلا حسب الظرف القائم، وكذلك الرد عليه مع تجنب ذكر أكثر من السلام عند الإلقاء عليه، وأما الرحمة والبركات فلا، وأما عند الاستئذان فقد أُلزم المستأذن بالسلام أولاً سواء كان يستأذن لدخول البيت أو لطعام أو غيره.

وفي هذا ما فيه من إشاعة المودة بين المسلمين، وبينهم وبين أهل ذمتهم، ناهيك عن المثوبة والجزاء الطيب عند الله تعالى.

وعند الاستئذان لا بد من الرجوع بعد الثلاث (الاستئذان ثلاث، فإن أذن لك وإلا فارجع) دون شعور بالحرج. وليحرص على القول بما علمنا به الرسول عليه وآله السلام: السلام عليكم، أدخل؟ ومن ناحية أخرى أن يذكر اسمه أو كنيته أو لقبه المعروف به عندما يسأل عن المستأذن ولا يقول: أنا.

مما يبين حرمة البيوت، والحذر من انتهاك تلك الحرمة حتى أجزى أن تفتأ عين من نظر في بيت دون إذن صاحبه ودون أن يتحمل أي قصاص. ويظهر أثر الاستئذان بإشاعة الخير ودفع الشر عندما يسلم أولاً فيعرف عن نفسه فيؤذن له، وإلا فلتطرب نفسه بالرجوع عندما لا يؤذن له بعد أن يكرر السلام ثلاثاً دون أن يؤذن له.

وذكر بعدها السفر ودعائه وما يوصى به المسافر (أستودع الله دينك وأمانتك، وخواتيم عملك)، ويأمر بالسفر في جماعة لا تقل عن ثلاثة على أن يؤمروا عليهم أحدهم، وينهى المرأة أن تسافر بغير محرم لمسافة يوم وليلة، وينهى عن اصطحاب القرآن لأرض العدو مخافة أن يناله العدو، ويكبر عند كل مشرف وعال من الأرض، وكان ينهى عن أن يطرق أهله ليلاً دون أن يعلمهم، وكان يقبل القادم من سفره من أهله أو أصحابه المقربين، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين.

فكل هذا وأمثاله يكشف عن مدى حرصه عليه وآله الصلاة والسلام على المسلم وهو يدعو للسفر في جماعة، ويعتبر المسافر واحداً كأنه مع شيطان وفي اثنين كأنهما شيطانان، ثم وهو ينهى المرأة عن السفر بغير محرم خشية من أن تتعرض لأي انتهاك لحرمتها، ثم وهو يحرص على القرآن حتى لا تندس حرمة من أحد من العدو كما كانوا يفعلون، وأما اليوم فقد بات القرآن الكريم في كل مكان، ثم وهو يحرص على عدم تخوين الرجل أهله إذ عليه أن لا يفاجئهم بالوصول من السفر في الليل دون علم منهم حرصاً منه على سلامة البيوت من الشكوك مع سلامتها بحسن الاستعداد والاستقبال، ثم وهو يحرص على الإمارة بحيث حتى عندما يكونون في سفر فعليهم ألا يتجاوز العدد الثلاثة إلا وأمروا عليهم أحدهم، وهذه النقطة مما يعقب بها على المؤلف لأنه لم يوردها في بحث السفر وما يداخله مع أنها نقطة في غاية الحساسية، ثم وهو يعانق كل قادم من سفر من أهله ومقربي أصحابه وأما الآخرون فيكتفى معه بالمصافحة، ثم وهو يحرص على البدء بالمسجد عند وصوله فيركع فيه ركعتين: وأين نحن من المساجد هذه الأيام والتي لها مواعيد لا تفتح إلا فيها وتبقى مقفلة دون المسلمين بقية الأوقات خشية على الأمن، وأي أمن هذا؟! فيا حسرة على المسلمين وعلى هذا الضيق الذي وصل إليه فيه إسلامهم؟!!

وبعدها ينبه المسلم إلى ما عليه أن يقوله عند الزواج (اللهم أني أسألك خيرها وخير ما جبلت عليه وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلت عليه)، فيقال للمتزوج (بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما في خير) ويقول عند غشيانه زوجته (بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا).

وفي ذلك التنبيه على أهمية بناء الأسرة ونقائها في الأصل والفرع من عبث الشيطان، فعندما يقبل على الزواج يدعو الله تعالى الخير من زوجه والتخلص من كل شر محتمل قد يأتي منها، ويدعى للمتزوج بالبركة منها عليه وعليها منه وأن يجمع بينهما على الخير، ويطلب من الزوج أن يدعو بالبركة والبعد عن الشر وعبث الشيطان عندما يغشى زوجه ويأمل بالحمل تلك الليلة فما أروع كل هذا وأكرمه؟!

الجزء الثالث - من زاد المعاد..

بدأ المؤلف رحمه الله هذا الجزء بفصل عن جهاد الرسول عليه وآله والسلام فذكر الجهاد بالحجة والبيان كما حصل في مكة قبل الهجرة {فلا تطع الكافرين، وجاهدهم به جهاداً كبيراً} - ٥٢ - الفرقان، ثم ذكر جهاده للمنافقين وهم تحت سلطان الإسلام {يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغظ عليهم} - ٧٣ - التوبة، ثم ذكر جهاد النفس من حديثه عليه وآله السلام (المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه)، ثم ذكر ما يتعرض له المجاهدون من ابتلاء من أتباع الشيطان {ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم} - ٣١ - محمد، وجعل كل ذلك من وسع الإنسان المؤمن وطاقته، ووسع عليه غاية التوسعة حتى لا يقتط مهمما ارتكب من سيئات وذلك عندما جعل لكل سيئة كفارة تكفرها من توبة، أو صدقة، أو حسنة ماحية، أو مصيبة مكفرة، وجعل لكل عسر يمتحنهم به يسراً قبله ويسراً بعده وقال عليه وآله السلام (فلن يغلب عسر يسرين)..

فما أعظم هذا الإعداد للمسلم للجهاد الحربي بإعداد النفس أولاً ثم بالجهاد البياني ثم الجهاد بالحجة والقدوة معاً وبعدها يأتي الجهاد بالقوة.. وعندما يعرض المؤمنون للابتلاء من أعدائهم يفعلون لا يعلم سبحانه نتيجة ذلك وهو العليم بكل شيء وإنما ليكشف المؤمنون لبعضهم البعض كما ينكشف الصابر على الابتلاء من المتخاذل.. وها هو قد أعطى المؤمن فسحة كبيرة من الاطمئنان والثقة بجانب طاعته من أنه مهمما ارتكب من سيئات فهو قادر على الخروج منها بالتوبة وكفارتها، أو بصدقة يتصدق بها، أو بحسنة تمحو عنه تلك السيئة، أو بمصيبة يصيبه بها فيصبر عليها فتكفر تلك السيئة، وطمأنه أن لكل ضيق ومشقة يسر يسبقها ويسر يتبعها، وأكد عليه وآله السلام أن عسراً واحداً لن يغلب يسرين فليطمئن المؤمن تمام الاطمئنان مهما تعرض من ابتلاءات وفتن وضيق ومشقة..

وعلى الصفحات التالية (١٨ - ٣٣) أشار المؤلف رحمه الله تعالى الى من استجابوا للإسلام من الرجال والنساء وما وقع عليهم من أذى المشركين، وإلى إذن الله تعالى لهم بالهجرة الأولى إلى أرض الحبشة فكانوا ١٢ رجلاً و٤ نسوة في مطلعهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله عليه وآله السلام، وكان ذلك في رجب في السنة الخامسة من المبعث، وأشار إلى ما حل بهم من الأذى الأشد عندما رجعوا ظناً منهم بصحة ما سمعوا به من إسلام قريش، مما جعله عليه وآله السلام يأذن لهم

بالحجرة الثانية إلى الحبشة فكانوا في هذه المرة ٨٣ رجلاً و ٩ نسوة، وأنه قد رجع منهم ٣٣ رجلاً و ٨ نساء سمعوا بهجرة الرسول عليه وآله السلام إلى المدينة ومات منهم رجلان بمكة وحبس بها سبعة آخرون وشهد منهم بداراً ٢٤ رجلاً وتزوج الرسول عليه وآله السلام من أم حبيبة بنت أبي سفيان زوجه بها النجاشي وأصدقها أربعمانه دينار وذلك بعد أن تنصر زوجها عبيد الله بن جحش ومات هناك في الحبشة. وأشار إلى عمرو بن أمية الضمري الذي بعثه الرسول عليه وآله السلام بكتابه إلى النجاشي يدعو إلى الإسلام وأنه أسلم، وأنه رد عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص مبعوثي قريش للنجاشي لإعادة المسلمين، ردهما برفض طلبهما، وأشار أخيراً إلى ما حل بالرسول عليه وآله السلام وصحبه من الأذى المتزايد بعد أن أسلم حمزة رضي الله عنه وكثيرون فلجأت قريش لمقاطعتهم في شعب أبي طالب لمدة ثلاث سنين، ثم يذكر كيف نقضت تلك الصحيفة بعد مرور عشرة أعوام على البعثة، ثم ما تبعها من موت أبي طالب بعد ستة أشهر، فموت خديجة رضي الله عنها بعده بثلاثة أيام، ثم كيف اشتد الأذى أكثر فأكثر بعد موتها، مما جعله يخرج ومعه زيد بن حارثة إلى الطائف ليمكث فيها عشرة أيام ليس فقط دون استجابة بل ليخرج وجراح قدميه تنزف من حجارة سفهاتهم حتى شج رأس زيد وهو يتلقى عنه الحجارة، ثم نزول ملك الجبال، فدعاؤه المشهور بدعاء الطائف، فأيمان الجن بموقع نخلة، ثم بنزوله في جوار المطعم بن عدي الذي كان ما زال مشركاً حتى ذلك الوقت..

فهل من دارس بوعي وبصيرة لهذه السيرة النبوية المطهرة ورؤية هذه المواقف السامية منه عليه وآله السلام وما كان يلاقيه وصحبه من ابتلاء يتركه عبرة لمن يسير على ربه إلى يوم القيامة لا لمجرد العبرة بل للعمل والافتداء ولو مهما أصيب من ابتلاء.. هجرتان لأرض الحبشة لأصحابه يعذر فيهما رب العزة عبادته وهو العالم بحدود طاقتهم البشرية، ومقاطعة لثلاثة أعوام كاد الرسول عليه وآله السلام وصحبه أن يهلكوا من الجوع، وما أن تنتهي تلك المقاطعة حتى يتوالى الابتلاء بالرسول عليه وآله السلام بموت عمه أبي طالب الذي كان يحميه من أذى قريش ثم تموت زوجته المواسية الحنونة، ثم يأتي عنف الطائف، ولكن ليواسيه سبحانه بما رأى من لطفه تعالى به من الإرهاصات سواء إسلام عداس النصراني أو إسلام الجن في نخلة، أو رجاؤه أن يخرج من أصلابهم من يوحد الله تعالى أو نزوله في جوار مشرك... ثم تأتي المواساة الكبرى بالأسراء والمعراج وما رأى أثناء تلك المرحلة الربانية من آيات معجزات، وكيف استقبل خبرها (على الصفحات ٣٤ - ٤٢) وإن كان مما يلفت النظر بشأنها تحديد موضع أو مكان لله سبحانه وتعالى في السماء السابعة وعند سدرة المنتهى، وكيف أنه عليه وآله السلام كان يوصله إليه جبريل عليه آله السلام، وفي مثل هذا التحديد ما لا يليق نسبته لله تعالى الذي لا يحده زمان ولا مكان.. كما يلفت النظر الخلاف بين معاوية وعائشة في قولهما بأن الحادثة كانت بروحه عليه وآله السلام وبقي جسده، وبين الآخرين القائلين بأن الرحلة كانت بالجسد والروح معاً، والمهم أن أحداً من القولين لم يقل بأنه كانت رحلة منام.

ويُنْتَقَل المؤلف رحمه الله تعالى للحديث عن الهجرة من مكة الى المدينة، وما سبقها من توقعات إيمان النفر الستة من الخزرج ثم في العام التالي الاثنا عشر، وأرسل معهم عليه وآله السلام عمرو ابن ام مكتوم ومصعب بن عمير يعلمان الناس المسلمين القرآن ويدعون الى الله عز وجل، ثم رجع مصعب الى مكة فكان عدد كبير من المسلمين في ذلك العام قد تسلل منهم ٧٣ رجلاً وامرأتان ليبياعوا الرسول عليه وآله السلام بيعة النصرة والقتال، وكان أول من بايعه البراء بن معرور، واختار منهم ١٢ نقيباً ٩ من الخزرج و٣ من الأوس، والمرأتان هما نسيبة بنت كعب بن عمرو، وأسماء بنت عمرة بن عدي، وهنا يذكر كيف رفض الرسول عليه وآله وسلم أن يميلوا على أهل العقبة بعد تلك البيعة بأسيافهم، وأمرهم أن يعودوا الى رحالهم، ويذكر كيف حاسبتهم قريش على فعلتهم ولكن عبد الله بن أبي سلول الذي لم يعلم بالمبايعة طمأنهم وكذب الخبر مما جعل قريش تتركهم وهي تكيد لهم ثم ينكر إذن الرسول عليه وآله السلام للمسلمين بالهجرة الى المدينة، فكان أبو سلمة بن عبد الأسد وأمراؤه أم سلمة أول من خرج الى المدينة، ولكنها احتبست سنة بعده حتى سمحوا لولدها سلمة، ولم يبق في مكة الا الرسول عليه وآله السلام وأبو بكر وعلي اللذان أقاما بأمره، كما بقي من أكره على البقاء، ثم يصف خروجه مع أبي بكر، وبقاءهما ثلاث ليال في غار ثور، ومروره بخيمة أم معبد وما نزل بها من بركة، وذلك بعد حادثة سرقة بن مالك، ووصوله عليه وآله السلام المدينة في ١٢ ربيع الأول على رأس السنة ١٣ من النبوة ومكوثه ١٤ ليلة في بني عمرو بن عوف حيث أسس مسجد قباء أول مسجد بعد النبوة.

وفي هذا تصوير حي لحملة دعوته عليه وآله السلام ليقبضوا به وهو الذي كان {لا ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى} وهو الذي أمر ربه بالافتداء به {ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا}، فقد أخذ بيعة الإيمان مما يسمى بيعة النساء لأنها خلت من القتال أولاً مما يقتدى به في أخذ مثل هذه البيعة من عموم المسلمين للعمل بحمل الدعوة، وأخذ بيعة النصر والقتال ممن يمكنهم ذلك، مما يقتدى به في ذلك أيضاً من أهل النصرة والحماية، وأما ما جرى له وعلى يديه من معجزات سواء في الغار أو مع سرقة أو مع أم معبد فذلك بلاشك من خصوصياته وحماية ربه له مما لا يشك في إمكانية حصول مثل هذه الحماية لمن يكرمه الله تعالى بها من حملة الدعوة في مواقف كثيرة، وهي سواء حصلت أو لم تحصل فالأمر بالأخذ بالأسباب المؤدية لنتائجها مطلوب العمل به والتزامه في ذلك كله سواء وجدت هناك مثل تلك الحماية مما غيبه الله تعالى عنا أو لم توجد..

وعلى الصفحة (٦٥) يشير الى المواعدة التي وأدعها الرسول عليه وآله السلام مع يهود المدينة بكتاب وهم يومئذ بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، وأنهم جميعاً نقضوا العهد وحاربوه عليه وآله السلام: فمن على بني قينقاع، وأجلى بني النضير، وقتل بني قريظة، فكانت سورة «الحشر» في بني النضير وسورة «الأحزاب» في بني قريظة.

وفي هذا دليل على معاملتهم كدول وقع كتباً معها مما استدعى معاقبتهم على نقضهم العهد ومحاربتهم له عليه السلام.. فأين نحن مما يجري الآن من مهزلة الخيانة الاستسلامية تحت اسم التسوية أو السلام مع يهود فلسطين مما أسموه بإسرائيل!؟

وبعد ١٦ شهراً من الهجرة، وقبل وقعة بدر بشهرين، صرف عن القبلة من بيت المقدس إلى مكة (صفحة ٦٦) عندما استجاب له ربه {قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها، فول وجهك شطر المسجد الحرام} - البقرة ١٤٤ - فكان هذا التحويل للقبلة محنة للمسلمين والمشركين واليهود والمنافقين، فقال المسلمون سمعنا وأطعنا، وقال كل من الآخرين ما قاله مما يناسب حقه وكفره. وشرع سبحانه مع هذا التحويل الأذان (صفحة ٦٩) وبعد أن اشتدت شوكتهم، واشتدت العداوة لهم أذن سبحانه وتعالى لهم بالقتال دون أن يفرضه عليهم {أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير} - الحج ٣٩، ثم فرض عليهم قتال من قاتلهم فقط {وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم} - البقرة ١٩٠، ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة، وأمروا بالجهاد بالأموال والأنفس أو الأأنفس والأموال، بحسب حال كل منهم، وطمانهم عليه السلام (غدوة في سبيل الله أو راحة خير من الدنيا وما فيها) و (من أغبرت قدماء في سبيل الله حرمه الله على النار) وحذرهم (أن من جاهد يبتغي عرض الدنيا فلا أجر له) وأكد لهم أجر جهاد الكلمة والدعوة (إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر).

وهكذا يلمس المسلم تدرج الأمر بالجهاد في سبيل الله تعالى عندما بدأ بصيغة الإذن أولاً بسبب ما وقع على المسلمين من الظلم، ثم انتقل إلى الجهاد ضد من يقاتلهم فقط، ثم انتقل للجهاد ضد كل المشركين في الأرض..

ولم ينس عليه وآله السلام أن يؤكد لحملة الدعوة في جهادهم بالكلمة ما للواحد منهم من الأجر العظيم إن استشهد في جهاده من أي حاكم ظالم لأنه تصدى لظلمه وفضح خيانتة بكلمة العدل والحق الذي يعلمه عنه وعن الشرع في حقه.

وعلى الصفحة ٩٥ يشير إلى أنواع من البيعة التي عقدها الرسول عليه وآله السلام مع أصحابه: فمن بيعة لعدم الفرار، وبيعة على الموت، وبيعة على الجهاد، وبيعة على الإسلام، وبيعة على الهجرة قبل الفتح، وبيعة على التوحيد والطاعة لله ورسوله، وبيعة على عدم سؤال الناس شيئاً..

وكل ذلك مما يوضح هذا المجال الرحب ويعطي الرخصة بمثل هذه البيعة في كل مجال يرضي الله تعالى ورسوله عليه وآله السلام، الأمر الذي يطرد مثل هذا الاحتجاج عن أخذ هذه البيعة أو تلك بشأن أمر من أمور الإسلام والمسلمين ولو لمجرد الاستيثاق والاطمئنان بأن من أخذت منهم البيعة سيلتزمون بمضمونها.

وتحدث المؤلف بعدها عن الغزو والجهاد والغنائم بالعديد من النصوص فذكر (صفحة ١٠٣) ما كانوا يجرونه من شركة فيما بينهم في هذا الميدان فذكر نوعين منها: شركة الأبدان، وشركة المضاربة، عندما اشترك ابن مسعود وعمار وسعد فيما

يصيبون يوم بدر فجاء سعد بأسيرين ولم يجئ الآخرين بشيء، وعندما يدفع أحدهم بغيره أو فرسه الى الآخر على النصف مما يغنم.

مما يشير الى ما أقره الاسلام من الشركات التي أوردها الفقهاء في كتبهم وهي: العنان، والأبدان، والوجوه، والمضاربة، والمفاوضة. أما العنان فكان الشخصان يشتركان بماليهما ويعملان معاً بأبدانهما والربح بينهما فكان التصرف متساوياً كالفرسين في عنانيهما، وأما الأبدان فمشاركة ابن مسعود وعمار وسعد عندما يشترك إثنان أو أكثر بأبدانهم فقط دون مالهم، وأما شركة الوجوه عندما يشترك إثنان أو أكثر بمال الغير مضاربة فيكونون مضاربين في الربح بمال غيرهم وسميت وجوه لأنهم يشتركون أو يتعاملون بثقة التجار بهم وبجاههم المبني على تلك الثقة، وأما شركة المضاربة فتسمى القراض وتكون عند الاشتراك بالبدن والمال فيدفع رجل ماله الى آخر ليتاجر له به ويقتسمان الربح حسب الشرط. فهذه الأنواع الخمسة من الشركات الإسلامية تغطي جميع جوانب الحياة وتنقذ المسلم من التعامل بالشركات المساهمة الرأسمالية الباطلة لأنها تقوم على شركاء مجهولين ولأن المهم فيها هو تجميع رؤوس الأموال، فالمال عندهم هو المهم وأما الإنسان فليس بهم، ويبقى تعريف الشركة في الإسلام من أنها عقد بين إثنين أو أكثر للقيام بعمل مالي بقصد الربح، ويبقى هذا التعريف محدداً لأساس تحريم شركة المساهمة التي يعرفونها بأنها عقد يلتزم بموجبه شخصان أو أكثر بالمساهمة في مشروع مالي لاقتسام الربح أو الخسارة منه مما يكشف أنه لا يوجد عقد بايجاب وقبول بين طرفين كما يفرض الشرع وإنما الموجود مجرد تفاوض واتفاق على الشروط فقط التي توضع في صك نظام الشركة، وبعدها يوقع على هذا الصك كل من يريد الاشتراك مما يعتبر قبولاً به وشريكاً في الشركة مما يوضح أنه لا يوجد طرفان أجريا العقد معاً بايجاب وقبول بينهما وإنما هو طرف واحد يوافق على الشروط فيصبح شريكاً، مما يسمونه ضرب من الإرادة المنفردة.

وعلى الصفحة (١٠٦) بيان شدة تحريم النهب في الغزو حتى أنه عليه وآله السلام أكفأ قدور اللحم المنهوب وقال (إن النهبة ليست بأحل من الميتة، أو (إن الميتة ليست بأحل من النهبة).

مما يكشف عن مدى حرص الإسلام حتى في أشد حالات الضيق حرصه على الآخرين لأنه في جهاده دين إنساني لا دين لجمع أموال الآخرين، فها هم المجاهدون في جوع شديد، وينتظرون نضج ما انتهبوه من اللحم فيأتيهم الرسول عليه وآله السلام فيكفيهم قدورهم بقوسه ويلقي التراب على اللحم ويقول قولته بأن لحم الميتة ليس بأحل من اللحم المنهوب.

وعلى الصفحات (١٠٩ - ١١٤) تحدث عن حكم الأسارى فذكر بأن الرسول عليه وآله السلام كان يمنّ على بعضهم، ويقتل بعضهم، ويفادي بعضهم بالمال وبعضهم بأسرى المسلمين. واشهر حادثة في ذلك أسارى بدر عندما أشار الصديق بأن

يأخذ منهم فدية تقوي المسلمين على عدوهم ويطلقهم لعل الله يهديهم الى الإسلام، بينما أشار عمر بقتلهم لأنهم أئمة الكفر، فأخذ الرسول عليه وآله السلام برأي الصديق، وفي الغد التالي أنزل الله تعالى {ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يتخن في الأرض} - ٦٧ - الأنفال، ولكن الرسول عليه وآله السلام بكى لما عرض عليه من عذاب من أراد عرض الدنيا من القول بالفداء وليس مما اراده الرسول عليه وآله السلام وأراده أبو بكر رضي الله عنه، وهو ما استقر عليه أخيراً حكم الاسلام في الأسرى وإن كان ينبه ويشدد على استهداف الله ورسوله في قصد قتل الأسرى من عتاة المشركين وطغاتهم وليس لأي مغنم دنيوي، فكان رأي أبي بكر هو الأصوب لولا أن تداخله رأي الآخرين ممن قصد الدنيا ومتاعها مما جعل الرسول عليه وآله السلام وصاحبه أبا بكر رضي الله عنه يبكيان في الغد بسبب ما أريه الرسول عليه وآله السلام من عذاب من أراد بذلك عرض الدنيا ولم يرد الله ورسوله.

وفي هذا بالطبع التشديد في الحرص على طاعة الله ورسوله لا التطلع لأي عرض من عروض الدنيا لما لهذا الدين من الهدف السامي في الجهاد ألا وهو إنقاذ البشرية من الشرك وادخالهم في التوحيد وليس التطلع لما في أيدي الشعوب والبلاد المفتوحة من مغنم وأموال مهما كان فيها من تقوية للمسلمين، فالهدف ليس الدنيا وكل ما فيها ولكنه الآخرة وعظيم نعيمها.

كما ذكر (صفحة ١١٤) هديه عليه وآله السلام في الجواسيس، وكيف أنه قتل جاسوساً من المشركين من جهة، وأمر من جهة أخرى بعدم قتل حاطب بن أبي بلتعة مع أنه حاول التجسس على المسلمين لمشركي مكة وقال لعمر عندما استأذنه في قتله (وما يدريك لعل الله أطلع على أهل بدر فقال: إعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) مما يدل على أنه خصوصية لحاطب، وهي لا تنطبق على غيره.

فالأمر في التجسس يختلف بين جاسوس وآخر، بحسب فعلته، وذلك بتقدير الإمام. وأما خصوصية حاطب فإنها لا تؤثر في حكم القتل للجاسوس الذي يرى الإمام قتله لأن هذا ما فعله عليه وآله السلام عندما قال للصحابة في حق الجاسوس الآخر (اطلبوه واقتلوه) وأنه عليه وآله السلام قد نفذ حكم القتل بالفعل في حقه.

وعلى الصفحات (١٢٠ - ١٢٢) أورد المؤلف رحمه الله خمسة أسباب تدل على أن مكة فتحت عنوة وهي: ١- عدم نقل أي صلح مع أهلها زمن الفتح. ٢- حديثه عليه وآله السلام بأنها (لم تحل لأحد قبلي ولن تحل لأحد بعدي). ٣- جعله الأمان لمن دخل دار أبي سفيان، ولمن ألقى السلاح، ولمن أغلق بابه مما يدل على أنه لم يكن في فتحها إلا العنوة والحرب، ٤- أجار من أجارته أم هانئ عندما رفضت تسليم الرجلين من أحماتها اللذين أجارتهما لعل بن أبي طالب عندما أراد قتلهما، ٥- أمره عليه وآله السلام بقتل رجلين وقيل أربعة هما عبد العزى بن خطل، ومقيس بن صبابة، وعبد الله بن أبي السرح، والحويرث بن نقيد، ومعهم جاريتان هما أم سارة وأخرى. وبالرغم من

هذه المرجحات أن مكة فتحت عنوة إلا أنه عليه وآله السلام لم يقسمها بين المسلمين بينما نجده عليه وآله السلام قسم خبير مما يدل على أن أمر القسمة عائد للإمام ثم لأن مكة دار النسك والعبادة لعموم المسلمين فهي وقف من الله تعالى على عبادتهم.

والظاهر الراجح من هذه الأدلة أن الصواب فيما انتهى اليه القائلون بأن مكة قد فتحت عنوة ولكن لمالها من خصوصية للاشتغال على بيت الله الحرام (الكعبة) وعدم الإذن لأحد من بعد الرسول عليه السلام أن يعمل السيف فيها، وإن كان ما أذن به له عليه وآله السلام لم يتجاوز فترة قصيرة من النهار، لكل ذلك يؤكد تلك الخصوصية ويبعدها عن القسمة بين الفاتحين وإن أذن بالاستفادة من عقاراتها بالبيع والإجارة.

وعلى الصفحات (١٢٦ - ١٣٥) أوجز مواقف اليهود حول المدينة من بني قينقاع إلى بني النضير إلى بني قريظة، وكيف أن بني قينقاع نقضوا العهد المكتوب مع الرسول عليه وآله السلام بعد موقعة بدر، فطردهم عليه وآله السلام إلى أذرعات وما حولها وهناك انقضوا، وبني النضير وكيف نقضوا العهد المكتوب عقب غزوة أحد بعد أن حرضهم رئيسهم حيي بن أخطب على الصمود ورفض الإنذار لعشرة أيام الذي وجهه إليهم الرسول عليه وآله السلام وخانتهم قريظة وبني غطفان فحاصروهم الرسول عليه وآله السلام (كما ورد في سورة الحشر) وقطع نخلهم وحرق عليهم فأمرهم بمغادرتها بنفوسهم وذرائعهم وما حملت إبلهم إلا السلاح، ولذلك كان الاستيلاء عليهم دون حرب مما جعل الرسول لم يخمس عليهم. وأما بنو قريظة فقد عاد حيي الهارب إليهم يحرضهم بحجة أن قريشاً وغطفان معهم عند غزوة الخندق، فما أن كاد الرسول عليه وآله السلام يجلس ليرتاح من الخندق إلا وجبريل عليه وآله السلام يجيئه ويأمره بأمر ربه أن يبادر لغزوهم وقد نقضوا العهد فقال عليه وآله السلام لأصحابه (لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة) وحصرهم خمساً وعشرين ليلة ثم نزلوا على حكم حليفهم السابق سعد بن معاذ رضي الله عنه فحكم فيهم بقتل الرجال وسبي الذرية وقسمة الأموال فقال له صلى الله عليه وآله وسلم (لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات).

وفي ذلك بيان لكل ذي بصر وبصيرة لحقيقة اليهود، وكيف أنهم أهل غدر وخيانة ونقض العهود، وأنهم مهما أحسنت إليهم فلن يجدي معهم نفعاً إلا السيف يعمل في رقابهم ويقضي على أي كيان لهم في شرق البلاد الإسلامية وغربها، فكيف إذا كانوا في هذا الكيان المسخ المدعو إسرائيل القائم على أرض أولى القبليتين وثالث الحرمين الشريفين، وكيف يقبل أبناء هذه الأمة الإسلامية الماجدة بعقد معاهدات أسموها بالسلام معهم، وما هي إلا معاهدات خزي يلحق بكل من رضيها ووقعها؟!!

وعلى الصفحات (١٤٣ - ١٥٠) تحدث عن صلح الرسول عليه وآله السلام مع يهود خيبر بعد أن ظهر عليهم، وأن عليهم الجلاء عنها بحمل ركابهم فقط دون ذهب ولا فضة ولا سلاح، وبشرط عدم كتمان شيء، وأنهم إن كتموا شيئاً فلا ذمة لهم ولا

عهد. وأنهم عندما غيبوا أموال وحلي حبي بن أخطب سأل عمه (سعية) «ما فعل مسك حبي الذي جاء به من النصير؟ فادعى أن النفقات والحرب قد أذهبتة، فقال له عليه وآله السلام (العهد قريب، والمال أكثر من ذلك) فأمر عليه وآله السلام الزبير أن يحقق معه فاعترف أنه مخبأ في خربة، وبالفعل أحضروه من هناك، فقتل الرسول عليه وآله السلام إبنى أبي الحقيق، زعيمهم، وكان أحدهما زوج صفية بنت حبي بن أخطب، وسبى نساءهم وذريتهم، وقسم أموالهم، وأراد أن يجليهم عن خيبر إذ لم يعمهم بالقتل كما حصل لقريظة لأنهم لم يعلموا كلهم باخفاء المسك بينما أولئك الذين تأمروا عمهم القتل، وهكذا بقي حياً الآخرون ممن طلبوا من الرسول عليه وآله السلام أن يتولوا إصلاح الأرض والقيام على زراعتها فدفعها عليه وآله السلام إليهم على النصف فكانت دليلاً على جواز المساقاة لأنها كانت أرضاً شجرية. وأخذ يرسل إليهم من يخرصها عليهم كل عام ليقدر الثمار ويأخذ نصفها، ولكنهم في عهد عمر رضي الله عنه عدوا على ابنه عبد الله الذي أرسله إليهم خارصاً، والقوه من فوق بيت فكفوا يده، فأجلاهم عمر من خيبر الى الشام وقسمها بين من شهد خيبر من أهل الحديبية.

وفي هذا بيان لحكم الإسلام في الأخذ بالقرائن ضد المعتدي، وفي عدم معاقبة الإ من يشترك في الذنب، وفي جواز المصالحة وإجراء عقد المساقاة مع من صالحه أو غيره للأرض المشجرة، وفي جواز الخرص ولو بخبير واحد، وفي جواز العقوبة عليهم وعلى أمثالهم بعد أن نقضوا العهد وهموا بقتل الخارص الآخر عبد الله بن عمر. صحيح أن ابن القيم المؤلف رحمه الله قد أدخل جواز المزارعة مع المساقاة ولكنهما أمران مختلفان مما جعلنا نقف عند المساقاة فقط ولم نذكر المزارعة. وأما القول بأن المصالحة قد حصلت معهم دون تحديد بمهلة فإن ذلك مرتبط بالتخلي عن من لم ينقض العهد معه ابتداءً وإجراء عقد المساقاة معهم بعد أن أخلي عنهم بثبوت براءتهم بالقرائن، وكان ذلك قبل نزول حكم الجزية الذي نزلت به «سورة براءة» في السنة الثامنة من الهجرة (صفحة ١٥١).

وعلى الصفحات (١٥٢ - ١٥٨) تعرّض لحكم الجزية الذي نزلت به «سورة براءة» بعد فتح خيبر مما جعله عليه وآله السلام يقرهم على العقد القديم معهم ويكونون عمالاً في الأرض بالنصف، فلم يطالبهم بغير ذلك بينما طالب غيرهم من أهل الكتاب بالجزية، كنصارى نجران ويهود اليمن، ولكنهم بعد الاجلاء للشام رجعوا كغيرهم تحت حكم الجزية، علماً بأن هذا الحكم قد نزل عام تبوك بعد خيبر بثلاثة أعوام، مما جعل القرائن الكثيرة تكذب الكتاب المزور على الرسول عليه وآله السلام بأنه قد أسقط عنهم الجزية والسخرة، وأي جزية وأي سخرة كانت في ذلك العهد!؟

فقصة هذا الافتراء على الرسول عليه وآله السلام قد كشفها شيخ الاسلام أحمد تقى الدين عندما عرض عليه الكتاب فبصق عليه وكذبه.

وأما ممن أخذت الجزية فكان من العرب والعجم: من نصارى العرب، وعرب مجوس هجر، وعرب نصارى بني تغلب، وعرب يهود اليمن، وأخذت من كل حالم من الرجال دون النساء والصبيان.

والملاحظ أنها عندما فرضت لم يكن قد بقي من العرب مشرك إذ توجه بجيشه الى تبوك لمحاربة الروم ولم يتوجه لأحد في الداخل.

وفي بيان تعامله عليه وآله السلام مع الكفار والمنافقين منذ بعثته حتى لقي ربه (صفحتا ١٥٩ و ١٦٠) فقد ذكر أنه أمره ربه أولاً بالقراءة، ولم يأمره معها بالتبليغ، ثم أمره بالتبليغ {قم فأنمّر}، ثم أمره بأنذار عشيرته الأقربين، ثم قومه، فمن حولهم من العرب، ثم العرب قاطبة، ثم الناس عامة، فأقام عشرة أعوام ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية بل كان يؤمر بالكف والصبر والصفح، ثم أمر بالهجرة، فجاء الإذن بالقتال دون فرض، ثم بقتال من قاتله فقط، ثم بقتال المشركين كافة، فكان الكفار عندها ثلاثة أقسام: أهل صلح وهدنة، وأهل حرب، وأهل ذمة. وأمر بقتال الكفار والمنافقين المحاربين ومن نقض العهد، فأنقسم أهل العهد الى ثلاثة أقسام: قسم أمره بقتالهم لأنهم نقضوا العهد، وقسم عهدهم مؤقت أمره أن يتم لهم عهدهم لمدته، وقسم لا عهد ولا حرب وأمره أن يعطيهم مهلة أربعة أشهر، وهؤلاء أسلموا جميعاً، فاستقر حال الكفار بين محاربين وأهل ذمة وأهل عهد، وانتهى أهل العهد إلى الإسلام فبقي القسمان: المحاربون وأهل الذمة. وأما المنافقون فأمره بأن يقبل منهم علانيتهم ولكن يجاهدوهم بالعلم والحجة، ويعرض عنهم، ولا يصلي على موتاهم، ولا يستغفر لهم..

إنها سيرة تكشف عن بيان تفصيل موجز لمسيرة تعامله عليه وآله السلام مع الكفار بجميع صنفهم وأقسامهم ومع المنافقين... فأين هم المسلمون اليوم من هذه السيرة الربانية؟! أم باتوا يظنون أنهم غير مطالبين بذلك وأنه مجرد أحكام نزلت للرسول عليه وآله السلام وصحبه وانتهت مع ذلك الزمان؟! ومن أين جاء مثل هذا الظن إلا أن يكون قد نجح أعداء الإسلام من الكفار في تثبيت أهل النفاق حكماً على صدور أبناء هذه الأمة فلم تعد تملك من أمرها إلا القهر والاضطهاد!؟

وعلى الصفحات (١٧١ - ١٨٨) وصف لغزوة بدر، وأنها كانت في ١٧ من رمضان ويوم جمعة، وكان المسلمون ثلاثمائة وبضعة رجل، وأكد سعد بن معاذ للرسول عليه وآله السلام أنهم محاربون معه خارج المدينة كداخلها، وأشار عليه الحباب بن المنذر بالنزول على ماء بدر وطمر غيرها، وأمدهم تعالى بألف من الملائكة (الأطفال) بينما غزوة أحد (آل عمران) ثلاثة آلاف وخمسة آلاف إن التزموا الشرط، وتبارز علي وحمزة وعبيدة بن الحارث ضد عقبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عقبة فقتل علي وحمزة والوليد وعقبة ولكن شيبة قطع رجل عبيدة فأنجده علي وحمزة وقتلا خصمه، وأخذ رسول الله عليه وآله السلام ملء كفه من الحصباء فرمى بها وجوه العدو فلم تترك رجلاً منهم إلا ملأت عينيه فشغلوا بالتراب في أعينهم وشغل المسلمون بقتلهم

فنزلت {وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى} الأنفال - ١٧ مؤكداً أن الرسول عليه وآله السلام قد ابتداء برمي الحصى وأنه تعالى قد أوصله إلى عيونهم فأثبت لنبيه الحذف ونفى عنه الإيصال، وكره سعد بن معاذ أخذ أسرى لأنه أراد المزيد من القتل لكونها أول موقعة ضد عدوهم، وقتل عبد الله بن مسعود أبا جهل بعد أن وجده طريحاً، وقتل بلال أمية بن خلف بعد أن وجده أسير عبد الرحمن بن عوف. وقتل من المشركين سبعون وأسر سبعون، وضرب الرسول عليه وآله السلام في الطريق عنق النضر بن الحارث، وعنق عقبة بن أبي معيط، واستشهد من المسلمين ١٤ عشر رجلاً: ستة من المهاجرين وستة من الخزرج واثنان من الأوس.

إنها الموقعة الأولى في عهد الإسلام، وبقيادة الرسول عليه السلام، التي جمع فيها بين المسلمين والمشركين على غير ميعاد ونصر فيها المسلمون أعظم النصر سواء بالعون الملانكي بإيصال الحصى لعيونهم أو بالرعب قذفه في قلوبهم أو بالمطر ساعدهم في أرض المعركة... وأما ضربه عليه السلام لعنقي النضر وابن أبي معيط فذلك لأنه كان قد هدر دمهما قبل الموقعة لشدة أذاهما للرسول وصحبه قبل الهجرة.

وعلى الصفحة ١٩٠ غزا عليه وآله السلام بني قينقاع، وكانوا من يهود المدينة الذين نقضوا عهده، فحاصروهم خمسة عشرة ليلة حتى نزلوا على حكمه فشفع فيهم عبد الله بن أبي الذي كان وجمعه من المنافقين قد أظهروا إسلامهم بعد النصر في بدر، فاطلقهم له وهم قوم عبد الله بن سلام، وكانوا سبعمئة مقاتل.

وكم كانت إرهاباً لغيرهم من اليهود الآخرين الذين لم يعتبروا فتخلص المسلمون منهم ومن وجودهم في عقر دارهم وبجوار دولتهم الوليدة..

وأوعز صلى الله عليه وآله وسلم الى مجموعة من الصحابة للذهاب لبني النضير وقتل كعب بن الأشرف اليهودي الذي اشتد أذاه لمعادته لله ورسوله وتشببه بنساء الصحابة فقال لهم (من لكعب بن الأشرف، فإنه قد أذى الله ورسوله) وكان منهم محمد بن مسلمة وسلكان بن سلامة، وهذا كان أخ كعب من الرضاع وهو الذي بناء على الإذن من الرسول عليه وآله السلام خدعه بحجة ضيق الحال ورغبتهم في ابتياع طعام منه مقابل رهن سلاحهم عنده، مما جعله يخرج من حصنه ويمشي معهم فقتلوه..

وفي ذلك بيان بجواز قتل من يفعل فعلته فيؤذي الله ورسوله بشدة عداوته للإسلام وحملة دعوته وما أكثر هؤلاء في كل زمان! ولكن الذي يوعز بتصفية أمثاله جسدياً هو إمام المسلمين ورئيس دولتهم وليس رئيس أي جماعة منهم إذا لم يتحقق إيجاد الدولة الإسلامية بعد، ناهيك عن نتيجة مثل هذه الأعمال من وقوع الأذى بالدعوة ورجالها، مما نراه في كل مكان اليوم، ومما انجر إليه بعض الجماعات الإسلامية بظنهم أن ذلك جائز قبل قيام حكم الإسلام الشمولي في بقعة من بقاع الأرض، فوقعوا في مخالفة ما فعله الرسول عليه وآله السلام عندما رفض العنف المادي ضد المشركين في مكة، ولم يقدم عليه إلا بعد أن أذن بل أمر الله تعالى به في المدينة وبعد أن انتقلت الدعوة الى دولة..

وكانت بعدها موقعة أحد يوم السبت في ٧ من شوال سنة ثلاث للهجرة، وقد وقف المؤلف معها طويلاً على الصفحات (١٩٢ - ٢٤٢) فذكر ما خلاصته:

فبعد أن استشار الرسول عليه وآله السلام أصحابه بين الخروج والبقاء في المدينة، ووجد الأكثرية بجانب الخروج، [مما يدل على أن الشرع بجانب الأكثرية عند الرأي بعمل وليس عند الرأي بفكر]، مما جعله عليه وآله السلام يعزم على الخروج، فخرج بألف من الصحابة يقابلهم ثلاثة آلاف من قريش وحلفائهم، وتراجع رأس النفاق عبد الله بن أبي بنحو ثلث العسكر، ووضع على الجبل الرماة في خمسين بقيادة عبد الله بن جبير، وأمرهم بملازمة المكان سواء رأوهم انتصروا أو انهزموا، ودفع اللواء لمصعب بن عمير، وانتصر المسلمون أول النهار وانهزم أعداء الله المشركون مما جعل رماة الجبل يظنون أن ليس للمشركين رجعة فأخلوا الثغر ونزلوا في طلب الغنيمة فجاء فرسان المشركين منه وأحاطوا بالمسلمين فاستشهد منهم سبعون وجرح وجه رسول الله عليه وآله السلام وكسرت رباعيته اليمنى، وانتزع أبو عبيدة بن الجراح حلقتي المغفر من وجهه حتى سقطت ثنيتاه بسبب ذلك، وصرخ الشيطان بأعلى صوته: إن محمداً قد قتل، ففر أكثر المسلمين بسبب ذلك ولكن أنس بن النضر قال لهم محرضاً على الشهادة بعد موت الرسول المزعوم: ما تصنعون في الحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه. فابلوا بلاء حسناً، واستردوا أنفاسهم عندما علموا أن الرسول عليه وآله السلام لم يقتل، وقتل حنظلة الذي جاء للمعركة جنباً فقال عنه الرسول عليه وآله السلام (أن الملائكة تغسله)، وقاتلت أم عمارة نسيبة بنت كعب قتالاً شديداً، وقتل الأصرم بعد أن أسلم في ذلك اليوم فقال عنه الرسول عليه وآله السلام (هو من أهل الجنة) مع أنه لم يصل لله قط صلاة، ولم يجب أبا سفيان أحد عندما سأله فيما إذا كان وصاحبه أبو بكر وعمر موجودين أم قتلوا، ولكن عندما أخذته الخيلاء أن لعمر أن يجيبه بوجودهم ليذله، كما طلب عليه وآله السلام أن يردوا على قولهم: أعل هبل بـ (الله أعلى وأجل) وعلى قولهم: لنا العزى ولا عزى لكم بـ (الله مولانا ولا مولى لكم)، وأنزل الله عليهم النعاس أمانة منه كما حصل في بدر، وقاتلت الملائكة يوم أحد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقتل اليمان والد حذيفة من المسلمين خطأ فأراد الرسول عليه وآله السلام أن يدفع ديته إليه فقال: تصدقت بديته على المسلمين، فقبل منه الرسول عليه وآله السلام ذلك. واستشهد عمرو بن الجموح وكان شديد العرج بعد أن طلب الجهاد فأذن له الرسول عليه وآله السلام وطمأنه بأنه سيكون سليماً من العجز في الجنة، وقتل الرسول عليه وآله السلام أبي بن خلف عدو الله بطعنة في ترقوته نزفت حتى فارق الحياة في رابع...

فكم كانت هذه الواقعة حافلة بالأحكام الشرعية التي تغطي جميع جوانب الجهاد في سبيل الله، ومنها وجوب الجهاد على البالغ ١٥ سنة، وجواز جهاد النساء، وجواز الصلاة قاعداً للجريح، وجواز الدعاء للاستشهاد في سبيل الله وتحريم قتل نفسه إذا تألم لإصابة في المعركة، وعدم غسل الشهيد والصلاة عليه، ودفن الشهيد في مكان استشهاده وليس نقله لمدفن آخر، وجواز دفن الرجلين أو الثلاثة في قبر واحد.

وكم كان في هذه المعركة من عبر ومواعظ للمسلمين منها بل أولها تنبيههم على سوء عاقبة المعصية والتنازع، وتداول النصر والهزيمة بين المؤمنين والكافرين، وتمييز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب، وتطمئن المؤمنين بما أعد لهم من منازل الكرامة في الجنة، وإن الشهادة عند الله من أعلى مراتب المؤمنين، والتشديد على المؤمنين بعدم سوء الظن بالله فهو بعدله يحكم ويفضله ينصر وهو سبحانه القادر على كل شيء وبفضائه وقدره ينصر ويهزم فيمحص المؤمنين بابتلائهم بالهزيمة كما يمحصهم بمنحهم النصر..

وعلى الصفحة ٢٤٤ خبر غدر عضل وقارة بما يسمى وقعة الرجيع عندما أرسل معهم الرسول عليه وآله السلام عشرة من أصحابه ليعلموهم الدين ويقرنوهم القرآن وباعوا خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة لمكة لتقتلهم في قتلاهم ببدر.

خبيب هذا عندما أجمعوا على قتله بمكة سأله أبو سفيان: أيسرك أن محمداً عندنا نضرب عنقه وأنت في أهلك، فقال: لا والله، ما يسرنى أني في أهلي، وأن محمداً في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه.. مما هز عتاة مشركي قريش من أعماقهم لهذا الحب لله ورسوله. فهكذا يكون الحب والولاء لله ورسوله أيها المسلمون في كل زمان ليستحق من يستحق النصر على الكفر وأعدائه!

وذكر المؤلف على الصفحات (٢٤٦ - ٢٤٩) خبر وقعة بئر معونة التي جرت في صفر من السنة الرابعة عندما أرسل الرسول عليه السلام سبعين من خيار الصحابة الى بني عامر بن مالك بناء على طلبه ليدعوا أهل نجد الى الدين، فعدروا بهم عند بئر معونة عندما استجاب لطلبه الغادر عصية ورعل وذكوان، وقتلوه عن آخرهم إلا كعب بن زيد الذي اختفى بين الجرحى كأنه ميت، فرأى عمرو بن أمية الضمري والمنذر بن عقبة اللذان كانا يرعيان غنم المسلمين الطير تحوم على موضع الوقعة، فنزلا وقتلا المشركين فقتل المنذر وأسر عمرو وأطلق سراحه عندما علموا أنه من مضر، وفي طريق عودته فتك برجلين من بني كلاب ظن أنهما ممن قتلوا أصحابه، ولكن عندما تبين أن معهما عهد من الرسول عليه السلام لم يشعر به وأخبر الرسول به فقال (لقد قتلت قتيلين لأديتهما) فخرج الرسول عليه السلام الى بني النضير ليعينوه في ديتهما بناء على الحلف بينه وبينهم، ولكنهم دبروا أمر إسقاط حجر عليه أثناء جلوسه في ظل الجدار مع أبي بكر وعمر، فأعلمه جبريل عليه السلام بكيدهم فرجع مسرعاً للمدينة ليجهز نفسه ويعود اليهم محارباً وحاصرهم ست ليال حتى استسلموا.

ففي وقعة بئر معونة تأكيد آخر على أنه لا يجوز أن يؤتمن الكافرون مهما تظاهروا بالصدق لأنه من السهل أن يستجيبوا للشيطان وإيقاع الأذى بالمسلمين. كما أن فيها كيف يجب أن يتحمل الإمام دية من قتل خطأ من أهل العهد والأمان. وأما لجوؤه عليه وآله السلام الى محالفيه من بني النضير فهذا دليل قاطع على جواز مثل هذا التحالف وما يترتب عليه من التعاون بين المتحالفين والعقوبة القاسية للحليف الذي

ينقض عهد الأمان معه. وقد كان من نتائج تلك الواقعة أن قنت رسول الله عليه وآله السلام شهراً يدعو على قتلة أصحاب بئر معونة ثم تركه بعد أن جاؤوه تائبين مسلمين.

وأخلف أبو سفيان الموعد عندما جاء شعبان من العام التالي، موعد أحد، وخرجوا في الفين وخمسين فرساً ليلاقوا الرسول عليه السلام الذي كان ينتظرهم في ألف وخمسمائة وعشرة أفراس وكان خلفهم بحجة أنه عام جذب وسميت بدر الثانية.

وليس مثل الحلف هذا ببعيد على أي فريق من المشركين، سواء كانوا من العرب أو غيرهم، ما دامت الدنيا هي غاية مطلبهم، وبنس ما يبتغون ويستهدفون..

وعلى الصفحات (٢٥٦ - ٢٦٨) أخبار غزوة المريسيع في شعبان سنة خمس عندما بلغ الرسول عليه وآله السلام أن الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق قد سار في قومه يريد أن يحارب الرسول عليه وآله السلام، فتجهز لذلك وخرج ومعه زوجته عائشة رضي الله عنها وأغار عليهم، وأخذ منهم السبي وكانت منه جويرية بنت الحارث سيد القوم، فكانت من سهم ثابت بن قيس فكاتبها فآدى عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتزوجها فأعتق مائة من قومها بسببها وقد أسلموا، وفي هذه الغزوة سقط عقد عائشة فاحتبسوا في طلبه فنزلت آية التيمم بسبب فقدان الماء في الجيش، ذلك أنها تأخرت في طلبه، فنامت من التعب، فلم تصح إلا على صفوان بن المعطل وهو يردد: إنا لله وإنا إليه راجعون، وحملها على بغيره ولحق بها الركب، فتكلم الناس كل حسب نفسيته، وكان عبد الله بن أبي أشدهم خبتاً، فاستشار الرسول عليه وآله السلام أصحابه في ذلك فأشار عليه علي رضي الله عنه بفراقها وأشار عليه أسامة بإمسакها، فأراد علي أن يخلص الرسول عليه وآله السلام مما كان فيه من الهم والغم، وأراد أسامة ما يعلم من عفتها وبراعتها ومحبة الرسول عليه وآله السلام لها، فكانت الحادثة ابتلاء للرسول عليه وآله السلام ولجميع المسلمين الى يوم الدين ليظهر المحسن والمسيء بعد أن حبس الوحي عن الرسول عليه وآله السلام شهراً يكشف تماماً فيه المسيء بإساءته والمحسن بإحسانه، وجلد عليه السلام أصحاب الإفك ثمانين جلدة بعد أن نزل الوحي ببراعتها، وكانوا ثلاثة: مسطح بن أثاثة، حمنة بنت جحش، حسان بن ثابت، ولكنه ترك عبد الله بن أبي لنفاقة تأليفاً لقومه ومصالحة للمسلمين وتجنباً للفتنة الأخطر من الإفك (فكيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه).

فهذه الغزوة التي تسمى أيضاً بغزوة بني المصطلق في السيرة التي جاءت بأحكام الإفك والافتراء على أعراض المسلمين وإن نزلت في حق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، مما تشعر المسلمين الى يوم القيامة بضرورة الحذر من حصاد الألسنة ولا سيما بحق الأعراض، وكذلك تشعر بضرورة التريث حتى ممن يستشار في أمر كهذا مهما كان الدافع لذلك، وبعدها ليتحمل من تعجل في أي أمر مسؤولية تعجله، وهكذا نال أصحاب الإفك الثلاثة جزاءهم، وأما عبد الله بن أبي الذي كان يحرص على تجنب التعريض بعرض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الناس وإن تحدث به

في أصحابه فقد تجنب الرسول عليه وآله السلام إيقاع العقوبة في حقه تأليفاً لقلوب أتباعه وحرصاً عليهم. وأما رفضه عليه وآله السلام قتله كما طلب عمر فقد أوضح علة ذلك ولا سيما أن الناس كانوا مازالوا حديثي عهد بالاسلام مما تحتاج معه قلوبهم للتأليف فيعانون على وساوس نفوسهم بدلاً من أن تعان عليهم، والأمر كان متروكاً فعله وتنفيذه للرسول عليه وآله وسلم وهو الحريص على المسلمين ومنع أي فرجة تأتي منها الفتن أو ينشب التنازع، وهم ما زالوا مستهدفين للعدوان الخارجي بشكل خطير، فكيف يحتمل مع ذلك تعريض الجبهة الداخلية للتفكك والتنازع!؟

وأما غزوة الخندق (ص ٢٦٩ - ص ٢٧٦) فكانت في شوال من سنة خمس من الهجرة، وكان سببها تحريض اليهود بقيادة أشرافهم سلام بن أبي الحقيق وسلام بن مشكم وكنانة بن الربيع، لقريش بمكة على غزو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، واستجابة قريش لهم ومعها غطفان، وخروجهم بقيادة أبي سفيان في أربعة آلاف، وشاركهم في ذلك بنو سليم وبنو أسد وفزارة وأشجع وبنو مرة حتى بلغوا عشرة آلاف. وأخذ الرسول عليه وآله السلام بمشورة سلمان بحفر خندق حول المدينة أمام سلع، فكان الخندق بين المسلمين والكفار، وكان جبل سلع خلف ظهور المسلمين حيث تحصن الرسول عليه وآله السلام بثلاثة آلاف من المسلمين. ونقض كعب بن أسد زعيم بني قريظة العهد مع الرسول عليه وآله السلام إستجابة لطلب والحاح حيي بن أخطب، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتأكد من ذلك ممن بعثهم لمعرفة الخبر، فاشتد الكرب على المسلمين وظهر النفاق فاستأذن بعض بني حارثة في العودة إلى المدينة بقولهم {إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً} - الأحزاب ١٣ -، واستمر الحصار للمسلمين شهراً دون قتال بسبب الخندق، حتى تقدم بعض فوارسهم منهم عمرو بن عبد ود وجماعة معه، وطلبوا البراز، فانتدب لهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه فبارزه فقتله، فانهزم أصحابه.

ومع طول الحصار وشدة الضيق بالمسلمين أراد الرسول عليه وآله السلام أن يصلح رئيسي غطفان عيينة بن حصن والحارث بن عوف على ثلث ثمار المدينة، فاستشار السعديين في ذلك فقالا أثناء المراوضة والمفاوضة: يا رسول الله: إن كان الله أمرك بهذا فسمعاً وطاعة، وإن كان شيئاً تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك نعطيهم أموالنا؟! والله لا نعطيهم إلا السيف. فصوب عليه وآله السلام رأيهما قائلاً (إنما هو شيء أصنعه لكم لما رأيت العرب قد رمتكم على قوس واحدة). وجاء نصر الله تعالى ليس بعيداً عندما جاء رجل من غطفان يدعى نعيم بن مسعود بن عامر رضي الله عنه فأعلن إسلامه للرسول عليه وآله السلام وقال: فمرني بما شئت، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (إنما أنت رجل واحد، فخذل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة) فنجح في التخذيل، وأرسل الله على المشركين جنداً من الريح، وجنداً من الملائكة، فصدق الله

وعده، وأعز جنده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، فدخل المدينة ووضع السلاح، فجاهه جبريل يدعوه لغزوة بني قريظة الذين نقضوا العهد.

وفي هذه الغزوة ما فيها من البيان لما كان عليه حال الرسول عليه وآله السلام والصحابة معه من الشدة والضيق حتى فاوض المشركين من غطفان ليتخلوا عن مناصرة قريش مقابل ثمن معين، وأخذ برأي الخبير سلمان في مثل هذه الحرب بحفر الخندق، وجرى التحذير من الوقوع كبني حارثة في النفاق عندما استأذنوا هرباً من المعركة بحجة غير صحيحة، واستخدم (الحرب خدعة) بواسطة نعيم بن مسعود الغطفاني حتى نجح نجاحاً باهراً في التخذيل، وتولى المولى سبحانه وتعالى بقية مهمة إيقاع الهزيمة بالمشركين والنصر للمسلمين فكان جنده من الريح ومن الملائكة قد قام كل منهم بدوره في هزيمة المشركين ونصر المؤمنين، وكان أمر الله تعالى بالمبادرة في حسم الأمر مع نقضة العهود من يهود بني قريظة..

وعلى الصفحة ٢٧٧ خبر سرية نجد التي رجعت بثمامة بن أثال الحنفي سيد بني حنيفة، الذي ربطه الرسول عليه وآله السلام إلى سارية من سواري المسجد، فمر به ثلاث مرات كان أن أعلن إسلامه في الثالثة، وأكد لقريش بعد أن اعتمر بأنه لن يسمح لحبة من حنطة تصلهم دون إذن الرسول عليه وآله السلام، فكادوا يهلكون جوعاً لولا أن استأذنوا الرسول عليه وآله السلام في ذلك فأذن.

وفي ذلك بيان لحسن التآتي مع الزعماء العتاة الطغاة في تقريبهم إلى الإسلام وإدخالهم حظيرته، كما أن فيه كيف كان يدفع عليه وآله السلام الأذى بالحسنى إذ أذن لثمامة أن يرسل إلى قريش وقد جهدها الجوع لانقطاع طعام بني حنيفة عنهم حاجتهم من الطعام فكان لذلك أثره في نفوسهم وهم الذين بالأمس قاطعوا الرسول عليه وآله السلام وصحبه في شعب بني المطلب ثلاثة أعوام كادوا يهلكون فيها، فهو يبادلهم سوء أعمالهم بالحسنى وهو القادر بدلاً من هذا العفو على العقوبة.

وجاءت بعدها غزوة الغابة (غزوة ذي قرد) التي أغار فيها عيينة بن حصن الفزاري الغطفاني على لقاح النبي صلى الله عليه وآله وسلم في موضع يقال له الغابة يقع قرب المدينة من ناحية الشام، فاستاق الإبل وقتل راعيها، وكان الصريخ، فهبوا فاستنقذوا جميع اللقاح وثلاثين بردة زيادة، مما يجزم بلزوم النفير الفوري متى تعرضت ديار الإسلام لاعتداء أي معتد، فيلقتن الدرس الذي لا ينهي عدوانه فقط وإنما يربح الآخرين عن التفكير بالإقدام على مثل فعلته.

وعلى الصفحة ٢٨٣ يروي موسى بن عقبة عن ابن شهاب قصة أبي بصير ومعه أبو جندل وأصحابهما الذين اجتمعوا على ساحل البحر يقطعون غير قريش دون علاقة لهم بنقض الهدنة التي وقعها لعشر سنين الرسول عليه وآله السلام مع قريش، وكيف أنهم عندما مريهم أبو العاص بن الربيع، زوج زينب بنت الرسول عليه وآله السلام، وكان معه نفر من قريش، أخذوهم أسرى ولم يقتلوا منهم أحداً إكراماً لصهر

رسول الله عليه وآله السلام، وإن كان ما زال مشركاً، مما جعله يلجأ لزينب بالمدينة ليطلقوا سراح من أخذوه وما أخذوه، ففعلوا استجابة لتخيير الرسول عليه وآله السلام لهم في ذلك، وتوفي أبو بصير قبل أن يتمكن من العودة استجابة لطلب الرسول عليه وآله السلام وعاد أبو جندل، وأعاد أبو العاص بن الربيع لقريش رجالها وأموالها ثم أعلن إسلامه ورجع إلى المدينة.

وفي ذلك بيان لقصة من معجزات السيرة النبوية، قصة أبي بصير وأبي جندل، وأثرها على الهدنة مع قريش وفي إسلام من أسلم عن بينة وإطمئنان.

وقبل الوقوف مع قصة الحديبية لا بد من الإشارة إلى قصة العرينيين (صفحة ٢٨٥) والتي وقعت في ذي القعدة من سنة ست، عندما ادعى جماعة من عكل وعرينة للرسول عليه وآله السلام بأنهم أهل مواشي وليس زراعة وريف مما جلب الأمراض عليهم بالعيش في المدينة، فأمر لهم الرسول عليه وآله السلام بإبل من إبل الصدقة يخرجون بها ويشربون ألبانها وأبوالها استشفاء،

ولكنهم لما صحوا قتلوا راعي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسملوا عينيه واستقاوا الإبل وكفروا بعد إسلامهم، فبعث الرسول عليه وآله السلام في طلبهم وأمر بقطع أيديهم وأرجلهم وسمل عيونهم وتركهم في ناحية الحرة حتى ماتوا.

مما يدل على وجوب رعاية الإمام لجماعات المسلمين، ولكن دون السماح لأحد من هذه الجماعات بالخروج على الشرع وإعاثة الفساد في الأرض، كما أن فيها جواز تناول أبوال الإبل وهي نجسة في قول وإن قيل بطهارة بول ما يجوز أكل لحمه استشهاده بهذا الجواز في التداوي، ولكن التداوي حال ضرورة لا تفرض القول بطهارة البول بل بجواز التداوي فيه مع الكراهة وبقاء النجاسة قائمة على أصلها في ذلك القول، كما أن العدل في العقوبة بنفس نوعية المخالفة {إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا} - المائدة ٣٣ -.

ثم يأتي الحديث عن قصة الحديبية (الصفحات ٢٨٦ - ٣١٥) وأنها كانت سنة ست من ذي القعدة، وكان معه ألف وخمسمائة عندما خرج باتجاه مكة يقصد العمرة، وأنه عليه وآله السلام قلد الهدى وأشعره وأحرم بالعمرة بذى الحليفة، وبالثنية قريباً من الحديبية بركت القصواء فقالوا: خلأت القصواء، فقال عليه وآله السلام (ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل) ثم قال (والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمت الله إلا أعطيتهم إياه) ثم زجرها فوثبت به، حتى نزل بأقصى الحديبية قرب نبع قليل الماء، فشكوا إليه العطش فجعل في النبع سهماً من كنانته فجاش بالماء حتى صدروا جميعاً عنه. وفزعت قريش لنزوله عليهم فأرسل إليهم عثمان بن عفان ليدعوهم إلى الله والإسلام ويخبرهم بأنهم لم يأتوا لقتال وإنما عماراً، وعندما طال انتظارهم لعثمان ظنوا بأنه قد قتل، فدعاهم عليه وآله السلام إلى البيعة فعقدت تحت الشجرة، ورجع عثمان سالماً، ودارت المفاوضات بين الطرفين لم يوفق

منهم إلا سهيل بن عمرو الذي وقع كتاب الهدنة مع الرسول عليه وآله السلام أن يرجعوا من عامهم ليعودوا لعمرتهم في العام التالي، وأن يعيدوا كل من يلحق بالمسلمين من مكة ولو كان مسلماً، وكانت قصة أبي جندل وأبي بصير اللذين نجوا من قريش بعد أن أعادهما الرسول عليه السلام إليها وأخذاً يقطعان على قريش مع من لحقهم من المسلمين كل غير لقريش تخرج إلى الشام حتى ناشدته عليه وآله السلام ألا يرد أحداً يأتيه وأن يكفيهم أمر تلك العصابة، ففعل. وكانت الهدنة لمدة عشر سنين، وأن من الصحابة وعلى رأسهم عمر رضي الله عنه راجعوا الرسول عليه وآله السلام في شروط الهدنة على أساس ما رأوا فيها من إذلال للمسلمين، فأصر الرسول عليه وآله السلام على انفاذ ذلك قائلاً بأنه أمر الله ولن يضيعه. وذبح الرسول عليه وآله السلام البدن وحلق شعره منجزاً عمرته فتبعه الناس بعد أن كانوا في ذهول من ذلك وتردد، ودخلت خزاعة في عقد الرسول عليه وآله السلام ودخلت بنو بكر في عقد قريش، وجاء النبي عليه وآله السلام عندما رجع للمدينة نساء مؤمنات منهن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، فرفض إرجاعهن نسخاً للشرط في النساء.

ومن أحكام هذه الهدنة إعتماؤه عليه وآله السلام في أشهر الحج، وأفضلية الإحرام للعمرة من الميقات، وسوق الهدي في العمرة المفردة، وإشعار الهدي كسنة لا مثله، واستحباب إغاظة أعداء الله عندما أهدى جملاً كان لأبي جهل في أنفه حلقة من فضة، وإرسال العيون من أمير الجيش أمامه نحو العدو، والاستعانة بالمشرك الموثوق في الجهاد إذ كان عينه الخزاعي كافراً إذ ذاك، ومشاورة الإمام رعيته وجيشه عندما استشارهم بمحاربة قريش وقد منعتهم العمرة فأشاروا عليه بأنهم جاؤوا للاعتماؤ لا للقتال، وجواز سبي ذراري المشركين إذا انفردوا عن الرجال قبل القتال، ورد ما بطل من الكلام كقولهم (خلأت القسواء)، وجواز الحلف لتأكيد الحكم الشرعي، وإجابة طلب أهل البدع والفجور وإعانتهم في كل ما فيه تعظيم لحرمان الله تعالى ولو استنكر من استنكر من الأتقياء الصالحين ما دام في ذلك تقدير الإمام الخير للإسلام والمسلمين، وجواز ابتداء الإمام بطلب صلح العدو إذا رأى مصلحة للمسلمين فيه، ولا ينتظر الابتداء منهم، وقيام المغيرة بن شعبة على رأس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحرسه بالسيف مما يجيز ذلك في كل زمان للإمام، وعدم مقابلة قلة أدب رسل الكفار وجفوتهم بمثلها ابتغاء مصلحة المسلمين، وجواز مصالحة المشركين بشيء من الضيم على المسلمين للمصلحة الراجحة ودفع الشر عن المسلمين، وجواز نحر المحصر لهديه حيث أحصر من الحل أو الحرم، وأنه لا قضاء على المحصر، وجواز الأخذ بمشورة الواحد ولو كان امرأة عندما أخذ عليه وآله السلام برأي أم سلمة رضي الله عنها بأن يخرج دون كلام ويحلق رأسه وينحر هديه فيتبعوه، فكان، وجواز رد المسلم القادم من لدن الكفار في صلح معهم وعدم رد النساء والاكتفاء برد المهر لمن هاجرت إمرأته، ورد الرجل إذا جاء لبلد الإمام، أما إذا ذهب لغير بلده فلا ينطبق عليه الشرط.

ومن العبر المستخلصة من هذه الهدنة أنها كانت مقدمة لفتح مكة الأعظم كما فسحت المجال لمخالطة المشركين ودعوتهم للإسلام جهرة آمين، وأنها كانت أمراً من الله تعالى لا مجال للمشاورة فيه بل الكل مطالب بتنفيذه برضى واطمئنان، وأنها هيأت أمر فتح خيبر عندما أنهت هذه الجبهة الخطرة ووفرت الفرصة التامة لغزو غيرها..

فما أكثر الأحكام والعبر من هذه القصة، وما أحرى بالحاكم من أن يحرص عندما يكون مسلماً بحق على فقهاها والتزامها سواء في مجال القتال والجهاد أو عقد الهدنة أو تأدية نسك العمرة.. وأما الجرأة على الله ورسوله والزعيم بأن صلح الحديبية لا يبعد عما فعله حكام المسلمين من الصلح مع (إسرائيل) فهذا والله افتراء ما بعده افتراء، إذ أين هي مقاصد خدمة الاسلام والمسلمين لدى هؤلاء الحكام وهم يبطشون بهم يمناً ويسرة بالتواطؤ مع الكفار بأنواعهم!!؟

ويقف المؤلف رحمه الله مع غزوة خيبر على الصفحات (٣١٦ - ٣٥٤) ليكشف عن تفاصيلها الهامة وما خلفته من فقه وأحكام. فبعد عشرين ليلة من الحديبية خرج الرسول عليه وآله السلام غازياً الى خيبر، وصلى بالمسلمين فيها الصبح، وأعطى علياً رضي الله عنه الراية، وطلب منه أن يدعوهم الى الإسلام أولاً ويخبرهم بما وجب عليهم في حق الله تعالى، وقتل محمد بن مسلمة أحد زعماء اليهود مرحب، وقتل الزبير أخ مرحب المدعو ياسر، وحاصرهم الرسول عليه وآله السلام عشرين ليلة مما عرض المسلمين للجهد الشديد لأنها أرض حارة وخمة، وذبحوا الحمر الأهلية فنهاهم الرسول عليه وآله السلام عن أكلها، ثم تحصنت اليهود في قلعة أخرى فحاصرهم الرسول عليه وآله السلام ثلاثة أيام حولها حتى قطع ماءهم وقتلهم واحتل قلعتهم، ثم لاحقهم الى حصن ابن أبي الحقيق الأشد تحصناً وحاصرهم هناك ١٤ يوماً حتى سألوهم الصلح ووقع ابن أبي الحقيق على العهد الذي حقن دماءهم مقابل كل ما يملكون من مال وأرض وسلاح إلا الثوب الذي يلبسه الواحد منهم، واشترط عليهم (وبرنت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كنتمونني شيئاً)، فنقضوا العهد عندما غيبوا مال وحلي حبي بن أخطب الذي حمله معه الى خيبر بعد جلاء النضير. فقتل الرسول عليه وآله السلام إبن أبي الحقيق وكان أحدهما زوج صفية بنت حبي بن أخطب، وسبى نساءهم وذريتهم وقسم أموالهم وأراد أن يجليهم منها فطلبوا أن يبقوا في الأرض لرعايتها مقابل شطر الثمر، فأجاب طلبهم، وكان عبد الله بن رواحه يخرصه عليهم كل عام كما سبق ذكره. وقد فتحت خيبر عنوة وقسم الرسول عليه وآله السلام، كما قال المؤلف رحمه الله، نصفها بين المسلمين واحتفظ بالنصف الآخر لحاجته وحاجة المسلمين وإن كان يرجح أنها قسمت كلها ولم يبق شيء منها دون قسمة.

ويذكر أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وأصحابه قد قدموا في هذه الغزوة على الرسول عليه وآله السلام ومعهم الأشعريون أبو موسى وأصحابه، فأسهم لهم بعد أن قال (والله ما أدري بأيهما أفرح، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟)

واعترف عيينة بن حصن الذي ادعى للرسول عليه وآله السلام بأنه قد ترك أهل خيبر ولم يعنهم عليه بأنه سمع زعيمهم أبا رافع سلام بن أبي الحقيق يقول بأنهم يحسدون محمداً على النبوة إذ خرجت من بني هارون، وأن يهود لا تطاوعه على الإيمان به، وأن لهم منه ذبحين واحد بيثرب وآخر بخيبر، وأنه سيملك الأرض جميعاً، وأنه لا يجب أن تعلم يهود بقوله هذا.

وفي هذه الغزوة سمّت زينب بنت الحارث اليهودية امرأة سلام بن مشكم الرسول عليه وآله السلام في شاة مشوية سمّتها في ذراعها بالذات بعد أن علمت أنه أحب اللحم إليه عليه وآله السلام، فسأل اليهود عن ذلك فاعترفوا بحجة أنهم أرادوا التخلص منه عليه وآله السلام إن كان كاذباً وأن السم لن يضره إن كان نبياً، وأمر بقتلها بعد أن مات بالسم بشر بن البراء بن معرور.

ومن فقهه وأحكام هذا الفتح محاربة الكفار في الأشهر الحرم، وأن تحريم ذلك منسوخ على المذاهب الأربعة، وتقسيم الغنائم: ثلاثة أسهم للفارس وسهم للراجل، ولا يعطى غير المحاربين إلا من أذنوا هم بإعطائه كما حصل لأهل السفينة جعفر وصحبه، وتحريم لحوم الحمر الإنسية، ولم يرد تحريم المتعة في هذه الغزوة لأن الصحابة لم يتمتعوا باليهوديات فيها ولا سألوا الرسول عليه السلام ذلك، ولكنها حرمت عام فتح مكة فقط، وجواز المساقاة بتأجير الأرض المشجرة بجزء من الثمار والزرع، وجواز خرص الثمار على رؤوس الشجر، وجواز تعليق عقد الصلح والأمان بالشرط، وجواز تقرير أرياب التهم بالعقوبة إذا لزم، والأخذ في الأحكام بالقرائن والإمارات، وإسقاط ذمة أهل الذمة إذا خالفوا ما شرط عليهم، وإن للإمام في أرض العنوة أن يقسمها أو يتركها كلها أو بعضها، وأن للإمام أن يجلي أهل الذمة من دار الإسلام (نقرم ما أقرم الله أو ما شننا) وأجلهم عمر فعلاً بعد موته عليه وآله السلام، وجواز عتق الرجل أمته وجعل عتقها صداقاً لها وتزويجها بغير إذنها ولا شهود ولا ولي غيره ولا لفظ نكاح أو تزويج، وجواز قتل من قتل آخر بالسم، وجواز قبوله هدية الكافر، وأن خيبر فتحت عنوة وقسمت سهماناً بين المحاربين إلا ما استأذنه عليهم لأصحاب السفينة.

فلاشك أن خيبر في فتحها حافلة بالتشريع، والراجح أنها فتحت عنوة بلا ريب، وأن القول بأن شطرها فتح عنوة والشطر الآخر صلحاً فهذا مما أشكل على القائلين لإقرار الرسول عليه وآله السلام أهلها على إصلاحها وزراعتها لخبرتهم في ذلك ولعدم تفرغ المسلمين له، وأن ذلك كان لا مما يصلح لأن يسمى عهداً ولا صلحاً وإنما هو مساقاة لكونها أرضاً شجرية وإن كان بعض أرضها خالياً من الشجر فقد أتبع للمشجر وجرى الحكم عليه كغيره لكون الأكثرية شجرية. وأما العقوبة التي أنزلها الرسول عليه وآله السلام بهم عندما تبين أنهم أخفوا أموال حبي بن أخطب فقتل ولدي ابن أبي الحقيق واستباح الذراري والأموال، فهو لم يكن فقط لنقضهم ما التزموا به من عهد، وإن كان ذلك صريحاً فيما وقع منهم، ولكنه أيضاً لأن من فعل ذلك كان من فئة ذات عزوة وشوكة ولا مجال للتساهل معها. وأما إجلاؤهم من خيبر بعد ذلك فللنص الوارد

عن الرسول عليه وآله السلام من كونه اشترط عليهم البقاء بمشينة الإمام، ولقوله (لا يجتمع في هذه الجزيرة دينان).

وأورد ذكر توجه الرسول عليه وآله السلام وجيشه من خيبر إلى وادي القرى، وفتحها عنوة بعد أن حاربوا المسلمين، ولكن الرسول عليه وآله السلام عامل اليهود والعرب ممن كانوا معهم عليها كما عامل يهود خيبر إذ ترك الأرض والنخل بأيديهم، وكذلك فعل مع يهود تيماء وفدك الذين صالحوا الرسول عليه وآله السلام ولم يحاربوه وقد رأوا نتيجة حرب غيرهم. وكان أن أجلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يهود خيبر وفدك دون وادي القرى لأنها من الحجاز وأما أهل تيماء ووادي القرى فلم يخرجهم لأنهما داخلتان في أرض الشام.

وهذا بالطبع يؤكد ما ذهبنا إليه من كونه فهم ذلك من قول الرسول عليه وآله السلام من أن للإمام ذلك، ولأن أرض الجزيرة لا يقر عليها غير أهل الإسلام.

وعلى الصفحات (٣٦٨ - ٣٧٠) قصة سرية عبد الله بن حذافة السهمي الذي استعمله رسول الله عليه وآله السلام على سرية وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا، فأغضبوه في شيء، فأوقدوا ناراً بناء على طلبه فأمرهم أن يدخلوها ما دام يجب عليهم طاعته بأمر الرسول عليه وآله السلام فرفضوا، ولما عادوا أخبروا الرسول عليه وآله السلام الخبر فقال (لو دخلوها ما خرجوا منها إنما الطاعة في المعروف).

وهذا أقوى دليل على أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ولو كان الأمر هو ولي الأمر لأنها ستكون معصية، فالله تعالى قد نهاهم عن قتل أنفسهم، وهذا حكم من عذب نفسه طاعة لولي الأمر فكيف بمن عذب مسلماً لا يجوز تعذيبه طاعة لولي الأمر كما يحصل الآن في أقيية أجهزة الأمن كما يسمونها؟!

وتحدث على الصفحات (٣٧٠ - ٣٨٠) عن خبر عمرة القضية التي كانت في ذي القعدة سنة سبع، وفيها أمر عليه السلام أصحابه (اكشفوا عن المناكب، وأسعوا في الطواف) ليرى المشركون جلدتهم وقوتهم، ومع نهاية الأيام الثلاث طالبه المشركون بالخروج وفق عقد الحديبية فخرج، وحملت إليه ميمونة بنت الحارث إلى سرف من الحل حيث بنى بها بعد أن كان قد زوجها إليه عباس بن عبد المطلب، وقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بابنة حمزة إلى خالتها زوجة جعفر الذي طالب بها كل من علي وزيد قائلاً (الخالة بمنزلة الأم). واختلف في هذه العمرة أهي قضاء عن عمرة الحديبية أم ابتداء من المقاضاة فقبل بالقضاء لوجود الهدى {فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى} - ١٩٦ البقرة -، وقيل بالقضية بحسب اتفاق الحديبية. وبالنسبة للنحر فإن المحصر ينحر هديه وقت حصره بل مكان حصره كما فعله عليه وآله السلام وليس بسوقه إلى الحرم حتى ولو استطاع، وكذلك التحلل يقصر ويتحلل في موضع الحصر.

ولاشك أن في هذه العمرة أحكاماً كثيرة تنير السنة النبوية الشريفة أمام المسلمين فهم شريعتهم في هذا المجال إلى يوم القيامة سواء بالنسبة لقضاء ما يحصر

عن أدائه المسلم أو عدم قضائه، ومكان وزمن تحلله عند الاحصار، وجواز النكاح أثناء ذلك وموضعه، ولمن تلحق الصغيرة / الصغير إذا فقد ولي الأمر سواء كان الأب أو الجد، وأن الصغيرة للخالة حتى تكبر وإن كان الأصل للعم إذا طلب أو العممة ولكن الخالة بمنزلة الأم من حيث الحنان وإمكانية الحضانة.

وبعدها يرد ذكر غزوة مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان (صفحات ٣٨١ - ٣٨٥) وكانت بسبب قتل من أرسله الرسول عليه وآله السلام إلى ملك الروم ببصرى وهو الحارث بن عمير الأزدي، والذي قتله شرحبيل بن عمرو الغساني، فكان المبعوث الوحيد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي قتل، فاشتد غضب الرسول عليه وآله السلام لذلك، فأرسل جيشاً وأمر عليه زيد بن حارثة وقال (إن أصيب - أي زيد بن حارثة - فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة) فكان زيد الأمير الأول فجعفر الثاني فعبد الله الثالث.

وكان عدد الجيش ثلاثة آلاف وعدد الروم وأنصارهم يفوق المائتي ألف، فتردد الناس لهذه الكثرة بالنسبة لعددهم وأرادوا الكتابة للرسول عليه وآله السلام ليروا رأيه فقال ابن رواحة مشجعاً لهم: والله يا قوم إن الذي تكروهون للتي خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا به الله، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسنين، وإما ظفر وإما شهادة. واستشهد زيد فجعفر فابن رواحة وأسند الجيش القيادة لخالد بن الوليد فاتحاز بالجيش وحاش بهم وانصرف الناس فكانت الهزيمة كما قال صحيح بخاري على الروم وإن قال ابن اسحق بأنه لم يكن هناك منهزم بل كل فئة قد انحازت عن الأخرى، وأبدل الله جعفرًا كما قال عليه السلام (إن الله أبدله بيديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء) وأزور سرير ابن رواحة على رواية وسريرا زيد وابن رواحة على رواية أخرى لترددهما في البدء بالمعركة وكان سرير جعفر مستقيماً لا صدود فيه كما قال عليه السلام.

وفي هذه المعركة أحكام وعبر لم ترد في غيرها: فلا يجوز السكوت على مذلة يريد المشركون إلحاقها بالمسلمين بقتل رسول إمامهم، ويجوز تأمير عدة قادة على الجيش يتولون الأمر بالتالي عند الاستشهاد، وليحذر القادة من التردد في خوض المعركة، ولا يبالوا إذا فرضت عليهم المعركة لا بعدد ولا عدد، وليذكروا أنهم إنما يخوضون المعركة ابتغاء إحدى الحسنين: إما النصر أو الشهادة، ويجوز للمسلمين أن يؤمروا عليهم غير المعينين للقيادة إذا استشهدوا وعليهم التزام أمره ولو بالانسحاب من أرض المعركة انحيازاً إلى فئة المسلمين.

ثم أورد غزوة ذات السلاسل على صفحات (٣٨٦ - ٣٨٩) وكانت في جمادى الآخرة سنة ثمان، وهي تقع بعد وادي القرى، وسببها أن قضاة كانت قد عزمت على غزو المدينة، فعقد عليه وآله السلام اللواء لعمر بن العاص، ثم أمده فوق الثلاثمائة الذين كانوا معه بناء على طلبه بألفين آخرين بقيادة أبي عبيدة الذي أمره بالتطوع كما

جعله يصلي بإمامة عمرو في الصلاة، وحدث أن احتلم عمرو، وكانت ليلة باردة فخاف على نفسه من الماء فتيمم وصلى بأصحابه الصبح فأخبروا الرسول عليه وآله السلام بذلك فسأله (يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جنب؟) فأخبره بسبب عدم الاغتسال: إني سمعت الله يقول {ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً} - ٢٩ النساء - فضحك الرسول عليه وآله السلام ولم يقل شيئاً.

مما يدل على لزوم مبادرة الإمام بإرسال الجيش ضد من يريد العدوان على المسلمين وديارهم، وجواز أن يمد الإمام الجيش بمدد آخر بقيادة أخرى ويأمره بالتطاول مع القائد الأول، وجواز الصلاة للمتميم من جنابة بغيره.

ثم يأتي ذكر الفتح الأعظم، فتح مكة، بعد ذكر سرية الخبط (ص ٣٨٩ - ص ٣٩٤) التي قادها أبو عبيدة في رجب سنة ثمان إلى حي من جهينة على ساحل البحر، وفيها حل بالجيش جوع شديد فأكلوا الخبط، وألقى إليهم البحر حوتاً عظيماً أكلوا منه وعادوا دون قتال.

وفي هذه السرية أحكام جواز أكل ميتة البحر والادخار منها حتى أن الرسول عليه وآله السلام أكل مما حملوه معهم إلى المدينة، وجواز أكل العشب والشجر، ولزوم إطاعة الأمير بعدم ذبح الإبل لحاجة الجيش المحتملة إليها، وجواز الاجتهاد في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإقراره على ذلك.

وفي الحديث عن فتح مكة الكثير من الأحكام والبيان (الصفحات ٣٩٤ - ٤٦٥) فقد خرج الرسول عليه وآله السلام بكتائب الإسلام سنة ثمان لعشر مضين من رمضان بعد أن عدت بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة على خزاعة، وقتلوا منهم، وكانت بنو بكر في عهد قريش حسب عقد الحديبية وخزاعة في عهد الرسول عليه وآله السلام، وبعد رفض محاولة أبي سفيان توثيق العهد وتمديده، وبعدها انكشف ما فعله حاطب بن أبي بلتعة من الكتابة إلى قريش يخبرهم بمسير الرسول عليه وآله السلام، ولكن الرسول عليه وآله السلام عفا عن فعلته لأنه من أهل بدر.

وكان الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام والناس صياماً ولكنه أفطر بالكديد وأفطر الناس معه، وعمى الله الأخبار على قريش استجابة لدعاء رسوله عليه وآله السلام الذي كان في عشرة آلاف، وكان العباس قد لقيه في الجحفة بأهله وعياله مسلماً مهاجراً، ولقيه ابن عمه أبو سفيان بن الحارث وابن عمته عبد الله بن أبي أمية في الأيواء فأعرض عنهما لشدة أذاهما ثم قال تعقيباً على استشهاد أبي سفيان بـ {تالله لقد أترك الله علينا وإن كنا لخاطنين} - ٩١ يوسف - {لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين} - ٩٢ يوسف - وكان العباس قد أجاره وأدخله على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندما نزل بجيشه في ممر الظهران، فأسلم وشهد شهادة الحق، ورأى رايات القبائل تمر من أمامه حتى رأى الرسول عليه وآله السلام والمهاجرين والأنصار فقال للعباس: والله يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم

عظيماً، فقال العباس: يا أبا سفيان: إنها النبوة، فقال: فنعم إذاً، فقال العباس: النجاء إلى قومك. وأشعر الرسول عليه وآله السلام قاداته (اليوم يوم تعظم فيه الكعبة، اليوم يوم أعز الله فيه قريشاً) بأنه لا يقصد قتالاً ولا سفك دماء حتى نزع الراية من سعد بن عبادَةَ قائد الأنصار لأنه تهدد أبا سفيان بالملحمة، وسبقهم أبو سفيان إلى مكة ليدعوها لدخول داره أو المسجد أو البقاء في البيوت طلباً للأمان، ودخل عليه وآله السلام مكة من أعلاها حيث ضربت له قبة، وأمر خالداً بن الوليد أن يدخلها من أسفلها وأمره، وقيل أمر الأنصار، أن يقتلوا كل من يعترضهم من أوباش قريش وأتباعهم إذا تصدوا لهم (أحصدهم حصداً حتى توافوني بالصفاء).

ودخل عليه وآله السلام المسجد، فاستلم الحجر الأسود ثم طاف بالبيت وفي يده قوس كان يطعن به الثلاثمائة وستين صنماً واحداً واحداً ويقول {جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً} - ٨١ الإسراء - و{جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد} - ٤٩ سبأ - والأصنام تتساقط على وجوهها، ودخل الكعبة فرأى فيها الصور منها صورة إبراهيم واسماعيل يستقسمان بالأزلام فقال (قاتلهم الله، والله إن استقسما بها قط)، وأمر بالصور فمحييت وكسر بيده حمامة من عيدان، واغلق عليه وعلى أسامة وبلال، وكانا معه، الباب، وصلى هناك وكبر ووحده الله ثم فتح الباب، وخاطب قريشاً التي كانت رجالاتها قد اصطفت ينتظرون ما يقول فيهم فقال (يا معشر قريش ما ترون إني فاعل بكم؟) قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال (فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: (لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء)، ورد مفتاح الكعبة إلى عثمان بن طلحة وقال (هاك مفتاحك يا عثمان: اليوم يوم بر ووفاء) - ثم أمر صلى الله عليه وآله وسلم بلالاً أن يصعد فيؤذن على الكعبة، ثم دخل عليه وآله السلام دار أم هانئ بنت أبي طالب فاعتمل وصلى ثماني ركعات في بيتها وكانت ضحى وهي صلاة الفتح، وهي سنة كلما فتح الله على المسلمين حصناً أو بلداً، وأجارت أم هانئ حمويين لها فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ).

واستقر الفتح فأمن الرسول عليه وآله السلام الجميع إلا تسعة نفر هدر دماءهم ولو تعلقوا بأستار الكعبة قتل منهم بالفعل أربعة واستأمن الباقي وأسلموا وحسن إسلامهم وهم عبد الله بن أبي السرح، وعكرمة بن أبي جهل، وهبار بن الأسود، وسارة مولاة بعض بني عبد المطلب وإحدى القينتين اللتين كانتا تغنيان بهجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وخطب بعدها فيهم الرسول عليه وآله السلام خطاباً أعلن فيه تحريم مكة إلى يوم القيامة، وأنها لم تحل له إلا ساعة من نهار وعادت إلى حرمتها. ودعا أهل مكة بتكسير كل الأصنام في بيوتهم، وأرسل خالداً لتكسير العزى وهدمها وكانت بنخلة، وأرسل عمرو بن العاص لتكسير سواع صنم هديل، ففعل، وأرسل سعد بن زيد لتكسير مناة بالمشلل عند قديد، ففعل، وبعث خالداً بعدها إلى بني جذيمة داعياً لا مقاتلاً في ثلاثمائة وخمسين رجلاً، فوجدهم مسلمين ولكنهم كانوا شاكبي سلاحهم فقيدهم وأسروهم، وأمر بقتلهم ولكن الرسول عليه وآله السلام قال (اللهم إني

أبرأ اليك مما صنع خالد) وأرسل علياً وأودى لهم قتلاهم. وتلاسن خالد بسبب ذلك مع عبد الرحمن بن عوف فأسكته الرسول عليه وآله السلام قائلاً له (مهلاً يا خالد دع عنك أصحابي، فو الله لو كان لك أحد ذهباً ثم أنفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي ولا روحته).

فكان صلح الحديبية توطئة لهذا الفتح العظيم، ودخل بسببه كثير في الإسلام، مما استحق بسببه أن سماه الله فتحاً {إنا فتحنا لك فتحاً عظيماً} - الفتح ١ - وأكد الرسول عليه وآله السلام ذلك عندما سأله عمر: أو فتح هو؟ فقال (نعم). وما أكثر التقديم والتوطئة في الإسلام لعظائم الأمور: فقد قدم بقصة زكريا بهبة الولد له وهو كبير لا يولد له بين يدي قصة المسيح وخلقه من غير أب، وقدم بين يدي نسخ القبلية بقصة بناء البيت وتعظيمه بذكر النسخ، وقدم بين يدي مبعث رسوله عليه وآله السلام من قصة الفيل وبشارات الكهان، وقدم الرويا الصالحة لرسول الله عليه وآله السلام بين يدي الوحي في اليقظة، وقدم الهجرة بين يدي الأمر بالجهاد..

ومن أحكام هذا الفتح العظيم نقض عهد كل من حارب أهل الذمة من أهل العهد، ومن رضي بذلك ولم ينكره ويقف ضده، كما حصل مع بني بكر ضد خزاعة، وكما حصل مع يهود خيبر الذين أجلاهم عمر بعد اعتدائهم على ابنه، وكما حصل مع رسول الله عليه وآله السلام عندما قتل كل مقاتلة بني قريظة، وقبلهم كما أجلى بني النضير لأنهم همّ منهم رجلان بقتل الرسول عليه وآله السلام، وكما فعل قبلها بحق بني قينقاع، وهذا هو حكم قطاع الطرق والمفسدين في الأرض.

ومن أحكام صلح الحديبية التي أدت لفتح مكة جواز مصالحة أهل الحرب وعقد هدنة معهم لمدة محددة يمكن أن تطول أو تقصر تبعاً لمصلحة الإسلام والمسلمين وليس لمجرد الاستجابة وإلا لاستجاب الرسول عليه وآله السلام بتمديد العهد أكثر من عشرة أعوام لأبي سفيان وتوثيقه بالرغم من عدوانهم.

ومن أحكام الفتح أن رسول الكفار لا يقتل، وهذا ما فعله عليه وآله السلام بحق أبي سفيان عندما جاء المدينة يطلب توثيق العهد وتمديده، كما أنه يجوز تبييت الكفار وعدم إبلاغهم إذا كانت قد بلغت الدعوة من قبل ومباغتتهم بالغزو، ويجوز قتل الجاسوس ولو كان مسلماً لأن شهود حاطب بدرأ لا ينطبق على غيره، ويجوز تجريد المرأة وكشفها لمصلحة المسلمين، ويجوز نسب المسلم إلى الكفر والنفاق غضباً لله ورسوله ودينه لا لهواه وتقديره دون الوقوع في الكفر، ولا بد من ملاحظة تصاول قوة الإحسان ومرض العصيان فكلما قوي الإحسان غلب مرض العصيان ومحا إثمته {إن الحسنات يذهبن السيئات} - ١٤ هود - و{إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم} - ٣١ النساء - و{يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم باليمن والأذى} - ٢٦٤ البقرة -، ومن أحكامها تكثير المسلمين في الاستعراضات العسكرية التي تجري هذه الأيام لإظهار قوتهم وشوكتهم أمام العدو ليرهبهم كما فعل عليه وآله السلام أمام

أبي سفيان عندما أوعز للعباس أن يحبسه ليرى قوة المسلمين، ويجوز دخول مكة للقتال المباح بغير إحرام كما فعل الرسول عليه وآله السلام ولكن لا بد من الاحرام لمن أراد الحج أو العمرة. ومكة ولو فتحت عنوة إلا أن قسمتها قد منعت لأنها موقوفة على المسلمين جميعاً في الأرض إلى يوم القيامة لأنها دار النسك ومتعبد الخلق، وأن دورها تملك وتباع وتشتري وتورث ولكن لا خراج على أرضها لأن الخراج جزية الأرض والأرض عادت حراماً أمنياً يشترك فيه أهل الإسلام، ولا بد من تذكر قوله عليه وآله السلام (إن مكة حرمها الله، ولم يحرمها الناس) بأن التحريم شرعي لا عقلي ولذلك أمر بأن يقال لكل من يترخص بحجة قتال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لك) وإن قال مالك والشافعي باستيفاء القصاص والحدود في الحرم لعموم النصوص الدالة على ذلك، ولقتل الرسول عليه وآله السلام ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة، ويرد على ذلك بأن عموم تلك النصوص لا تحدد مكاناً ولا زماناً مما يجعل التخصيص يلحق بذلك ويبطل الاحتجاج، وأما قتل ابن خطل فكان وقت الحل (وإنما أحلت لي ساعة من نهار)، وهذا يختلف عن قتل في الحرم فهو يقام عليه الحد في الحرم لقوله تعالى {ولا تقتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم} - ١٩١ البقرة، كما أنه (ولا يعضد بها شجر) أو (ولا يعضد شوكها) أو (ولا يخبط شوكها) أو (لا يخنلى شوكها) فكله صريح في المنع لكل أنواع الشجر النابت أو المزروع وإن فرقوا بينها، كما (ولا ينفر صيدها) فيحرم التسبب في قتل الصيد واصطياده، كما (ولا يلتقط ساقطتها إلا من عرفها)، كما أن (ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين: إما أن يقتل وإما أن يأخذ الدية) في قتل العمد طبعاً، كما أن فيه استثناء شجر الإذخر (إلا الإذخر) بعد قول العباس له الا الإذخر، وفيه حكم كراهة الصلاة في المكان المسور، وفيه جواز لبس العمامة السوداء لأنه عليه السلام دخل مكة وعليه عمامة سوداء وإن كان لم يتخذ اللباس الأسود شعاراً دائماً له لا في اللباس ولا العمامة، وفيه حكم تحريم متعة النساء إذ حرمها قبل مغادرته لمكة وإن قال بعضهم بأنها حرمت يوم خيبر، وقد سبق رد هذا القول، والأكيد في ذلك المجزوم بصحته أن تحريم متعة النساء لم يكن مشهوراً في عهد الرسول عليه السلام ولا في عهد أبي بكر ولكنه اشتهر في عهد عمر ولذلك قيل أن عمر هو الذي حرمها وهو غير صحيح لأن التحريم حصل في فتح مكة وقبل خروج الرسول عليه وآله السلام منها عائداً إلى المدينة.

ومن أين لكاتب أن يحصي ما في هذا الفتح العظيم لمكة من أحكام، سواء في الطريق إليها بين المدينة ومكة، أو أثناء وجوده عليه وآله السلام فيها منذ دخولها ودخول المسجد والكعبة إلى خطبته عند دخولها وأثناء وجوده فيها، وما أبان لها من حرمان وكيف يجب أن تكون المعاملة لأرضها وعقاراتها وأشجارها وأشياتها حتى لقطتها، وكيف يعامل الإنسان فيها سواء المحرم أو غير المحرم، الصالح أو المذنب، وكيف يعامل الحيوان وما يستثنى منه من الفواسق الخمسة ومن شجره الإذخر، وكيف يتصرف الإمام في الغزو بشأنها مما يختلف عنه بحق غزو غيرها أو لا يختلف...

وينقلنا المؤلف رحمه الله إلى غزوة حنين أو أوطاس أو هوازن على الصفحات (٤٦٥ - ٤٩٥) وسببها تجميع مالك بن عوف النصري هوازن وغيرها من القبائل لمقاتلة الرسول عليه وآله السلام بعد أن سمع بفتح مكة حتى ساق مع الناس نساءهم وأموالهم وأبناءهم ليقاتلوا عنهم، فأجمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم السير إليهم، واستعار من صفوان بن أمية أدرعاً وسلاحاً مع أنه كان ما زال مشركاً فكانت مائة درع وسلاحها، وخرج الرسول عليه وآله السلام ومعه ألفان من مكة وعشرة آلاف من أصحابه الذين فتح بهم مكة، واستعمل عتاب بن أسيد أميراً على مكة ومضى للقاء هوازن، وعند انحدارهم في وادي حنين هاجمهم عدوهم هجمة رجل واحد، فأخذ المسلمون في الهرب لهول المفاجأة، فصاح بهم رسول الله (إلى أين أيها الناس؟ هلم إلي أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله) وثبت مع الرسول عليه وآله السلام نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، فكان أبو بكر وعمر، وكان علي والعباس وأبو سفيان وابنه والفضل بن العباس وربيعه بن الحارث وأسامة بن زيد وأيمن ابن أم أيمن الذي قتل يومئذ. وتكلم ضعاف الإيمان من أهل مكة حتى قال أبو سفيان: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر... وأخذ يعود الناس ويشتد القتال حتى نصر الله رسوله وجيشه بعد أن كان استصرخ عمه العباس وكان شديد الصوت: (يا عباس إصرخ: يا معشر الأنصار، يا معشر أصحاب السمرة) فأجابوا: لبيك لبيك حتى اجتمعوا واجتلد القوم فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يرى ذلك (الآن حمي الوطيس) ثم أخذ الرسول عليه وآله السلام حصيات فرمى بها في وجوه الكفار وقال (انهزموا ورب محمد) وقال (شاهت الوجوه) فامتألت عيونهم بالحصى والتراب فولوا مدبرين. وهرب مالك بن عوف وتحصن بحصن ثقيف، وأمر الرسول عليه وآله السلام بجمع السبي والغنائم وتوجيهها إلى الجعرانة، وقسمها وأعطى المؤلفلة قلوبهم أول الناس بدءاً من أبي سفيان بن حرب له ولولديه يزيد ومعاوية، مئة من الإبل لكل منهم وأربعين أوقية من الفضة، وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل فمائة أخرى طلبها ثانية، وأعطى النضر بن الحارث مائة من الإبل، والعلاء بن حارثة خمسين، والعباس بن مرداس أربعين فقال شعراً فكمل له المانة.

ونال الناس من الغنائم أربعاً من الإبل وأربعين شاة الا الفارس ١٢ بغيراً و ١٢٠ شاة، وتكلم الأنصار الذين لم ينلهم شيء فدخل سعد بن عباد على الرسول عليه وآله السلام فقال: يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظيماً في قبائل العرب ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء. فقال صلى الله عليه وآله وسلم (فأين أنت من ذلك يا سعد؟) فقال: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي، فقال عليه وآله السلام (فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة) فجمعهم فخطبهم الرسول عليه وآله السلام (يا معشر الأنصار، ما قالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها في أنفسكم، ألم أتكم ضلالاً فهداكم الله بي وعالة فأغناكم الله بي، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟) قالوا: الله ورسوله أمنّ وأفضل. فقال (ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟) قالوا: بماذا نجيبك يا

رسول الله، لله ولرسوله المنّ والفضل، فقال (أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم: أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فأويناك، وعانلاً فأسيناك، أوجدتم علي يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبغير وترجعون برسول الله إلى رجالكم؟! فوالذي نفس محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به، ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً ووادياً وسلكت الأنصار شعباً ووادياً لسلك شعب الأنصار وواديها، الأنصار شعار، والناس دثار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار) فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قسماً وحظاً، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتفرقوا.

ثم جاء وفد هوازن على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ١٤ رجلاً وسألوه أن يمن عليهم بالسبي والأموال، فخيرهم بين السبي والأموال فاختروا السبي فاستشفع لهم أن ترد عليهم فتردد من تردد ثم رد السبي كله إليهم وكسا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم السبي قبطية قبطية.

ومن فقه وعبر هذه الغزوة ما انتهت إليه من نصره سبحانه لرسوله عليه وآله السلام وخضوع العرب بعدها كلهم لدينه، وتأديب من أخذتهم الظنون بالنصر بالكثرة إذ هزمهم في البداية، وفيها تعويض الجيش الإسلامي الذي لم يجد ما يدعم شوكته بفتح مكة فجعل هوازن ومن لف لفيها يأتون بكل أسباب القوة ليحاربوه بها ويغنمها منهم، وفيها شبه وختام للغزو بها بدءاً من بدر إذ فيها اشتركت الملائكة في القتال، وفيها رمي بالحصباء، وفيها طفنت شوكة العرب بمحاربة الرسول عليه وآله السلام بما ألقى من رعب في قلوبهم في الأولى وبما استنفذوا من قوة في الثانية، وفيها ضرورة المبادرة بسير الإمام لمن ينوي العدوان على المسلمين، وله أن يستعير من المشركين السلاح والقوة، وفيها ضمان العارية كما اشترط لصفوان عندما استعار منه السلاح فقال (بل عارية مضمونة) بأن يضمنها إذا تلفت أو يردّها ذاتها إليه وكلاهما جائز إن لم يحدد سلفاً، وفيها جواز عقر مركوب العدو ليضعفه، وفيها جواز العفو عن من قتل ولم يفعل كما حصل مع شيبية فدعا له ومسح على صدره حتى عاد كأحب الناس إليه، وفيها معجزات كثيرة للرسول عليه وآله السلام منها إيصال قبضة من الحصاة والتراب بعيون أعدائه رغم بعدهم عنه، ونزول الملائكة للقتال معه، وفيها هذا التأليف للقلوب الذي فعله الرسول عليه السلام تنفيذاً لأمره تعالى بتقسيم الأنفال والغنائم على ما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين مما يبقى للإمام وحده حق تقريره في كل وقت مع عدوه لأن نظرة الإسلام ليس هي جمع أو توزيع الأموال ولكنه مصلحة الإسلام والتي لا تكون إلا حيث يراها الحكم الشرعي بغض النظر عما يراه الناس جميعاً، وفيها (من قتل قتيلاً، له عليه بينة، فله سلبه) ولو كانت البينة شاهداً واحداً.

وكم من أحكام وعبر في هذه الغزوة التي تعتبر بحق آخر غزوة أنهت قوة

العرب وعداؤهم للرسول عليه وآله السلام، سواء باستعارة السلاح ولو بالضمان من الكفار لمحاربة أمثالهم، أو بتوزيع الغنائم وتأليف القلوب عملاً بما يراه الإمام وليس هنا موضع توزيع زكاة أحد أبوابها ذلك وإنما هي الغنائم، وفيها التحذير للمسلمين أن تخدمهم كثرتهم للنصر على أعدائهم لأن النصر بيد الله يعطيه لمن يستحقه ولن يستحقه من غرته كثرتة ابتداء، ومنها التذكير للمسلمين بما فعله الأتصار وما انتهوا إليه مع رسول الله عليه وآله السلام عندما داخلت نفوسهم الرغبة في الغنائم وظنوا الظن السيء بالرسول عليه وآله السلام...

ويأتى بعدها الحديث عن غزوة الطائف (الصفحات ٤٩٥ - ٥٠٨) والتي جرت في شوال سنة ثمان وذلك بعد أن أرسل الطفيل بن عمرو ليهدم صنم ذا الكفين ويوافيه في الطائف مع قومه، فقدموا إليه في أربعمئة سراً لأنه كان قد سبقهم بأربعة أيام، وكان خالد بن الوليد على مقدمة جيشه عليه وآله السلام، وكانت ثقيف قد تحصنت بعد هزيمة أوطاس في حصنهم، فنزل الرسول عليه وآله السلام قريباً من حصنهم، فرموا المسلمين بالنبل رمية شديداً فجرح الكثير من المسلمين وقتل ١٢ رجلاً وحاصرهم ١٨ يوماً ورامهم بالمنجنيق الذي جاء به الطفيل وأمر جنده بدخول الحصن بدبابة أتى بها الطفيل أيضاً ولكن الكفار ردوهم بالحديد المحمى بالنار مما جعل الرسول عليه وآله السلام يأمر بقطع أعنابهم فسألوه تركها لله وللرحم فتركها لذلك ونزل من الحصن بضعة عشر رجلاً بناء على نداء منادي الرسول عليه وآله السلام بأن من ينزل من العبيد فهو حر فاعتقهم ودفع كلاً منهم لرجل من المسلمين يمونه، فقرر الرحيل دون فتح الطائف فشق على المسلمين ذلك فأمرهم بالقتال من غداة فأصابهم جراحات وعندها سروا وأذعنوا ورحلوا فقال صلى الله عليه وآله وسلم قولوا (آييون، تائبون، عابدون، لربنا حامدون) وطلبوا منه أن يدعوهم على ثقيف فقال: (اللهم اهد ثقيفاً وانت بهم). وخرج من الطائف إلى الجعرانة ثم دخل منها محرماً بعمرة ثم رجع إلى المدينة.

وهنا يظهر تصرف الإمام القائد وحكمته إذ بعد أن حاول أكثر من مرة فتح حصن الطائف فاستعصى عليه انتشار نوفل بن معاوية الديلي فقال: ثعلب في جحر، إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك فأمر الناس بالرحيل، ولكنه بحكمته عليه وآله السلام عندما شق عليهم عدم فتح الحصن أمرهم بالقتال في الغداة مما جعلهم يتحملون العديد من الجرحى فيقبلون برضى وسرور الرحيل عندما أمرهم في اليوم التالي بذلك فأخذ ينظر إليهم مبتسماً وهو يدعوهم للتوجه إلى الله تعالى بدعاء العائد من سفره، وظهر حلمه وهو يستجيب لطلبهم الدعاء على الطائف وثقيف وهو يدعو لهم بالهداية والقدوم إليه مسلمين، معطياً لقيادة المسلمين المثل ليقتدوا به لا في إيقاع الأذى بالمسلمين مستجيبين لشياطين الكفر الذين يوحون لهم بذلك وإنما في رعايتهم لهم والأخذ بأيديهم لنصرة الإسلام وإنجاح دعوته ونشر رسالته في ربوع الأرض وقد أصبحت أسباب ذلك مهياة لهم.. ولكن ألا ساء ما يعملون، وأنقذ الأمة والإسلام منهم ما داموا يصرون على عدم السماع لكلمة الحق ويبطشون بالعاملين لدعوة الحق.. فعندما يتأمل المسلم الحق في

غزوة الطائف يرى كيف استجاب سبحانه لدعاء الرسول عليه وآله السلام فجاءه عروة بن مسعود وهو زعيم قومه وأسلم ولكنهم قتلوه عندما عاد يدعوهم للإسلام، فذهب بعده ستة منهم بقيادة عبد يا ليل بن عمرو، فأسلموا، فأرسل الرسول عليه وآله السلام معهم المغيرة بن شعبه وأبي سفيان ليهدهما صنمهم اللات بعد أن رفض الإبقاء عليه لأي مدة ولكن رضي معهم ألا يهدموها بأنفسهم، فهدهما المغيرة الذي دفع مالها لأبي سفيان بأمر الرسول عليه وآله السلام تطيباً وتأليفاً لقلبه، وكتب الرسول عليه وآله السلام لهما كتاباً أخذوه معهم... وهكذا انتهت قصة ثقيف ليظهر منها الكثير من الأحكام والعبر: منها جواز القتال في الأشهر الحرم، ومنها القصر في الصلاة في تسع عشرة يوماً قضاها في مكة، ومنها اصطحاب الغازي لأهله إذ كان معه عليه وآله السلام أم سلمة وزينب، ومنها جواز الرمي بالمنجنيق ولو قتل النساء والذرية من الأعداء، ومنها جواز قطع شجر الكفار لإضعافهم، ومنها تحرير العبد الذي يلحق بالمسلمين، ومنها جواز الرحيل عن الحصن إذا استعصى على الفتح لما يراه الإمام أو قائده من خير المسلمين، ومنها الإحرام من الجعرانة بعمره في الدخول إلى مكة، ومنها جواز الإيثار في القربات عندما أثر المغيرة أبا بكر لتبشير الرسول عليه وآله السلام بمجيء وفد ثقيف، ومنها رفض بقاء مواطن الشرك والطواغيت مع القدرة على هدمها ولا يوماً واحداً، ومنها جواز صرف أموال الطواغيت في الجهاد وما يراه الإمام ومنها أن وادي أوج، واد بالطائف، هو من الحرم.

وعلى الصفحتين (٥٠٨ - ٥٠٩) يشير المؤلف رحمه الله إلى بعثه عليه وآله السلام للمصدقين العاملين على جمع الصدقات والزكاة إلى الناس بعد أن استقر في المدينة ودخلت السنة التاسعة، وكيف أنه عليه وآله السلام كان يحاسب من يرسله كما فعل مع ابن اللثبية الأزدي الذي بعثه إلى بني ذبيان فوجده يقول بأن هذا قد أهدي الي وهذا لكم، فرفض قوله وأفهمه أن مسؤوليته في جمع الصدقات هي التي جعلت الإهداء يجري إليه، وأنه لو جلس في بيته لما وجد مثل هذا الإهداء، مما يحرم ذلك.

وفي ذلك بيان لوجوب تولي الإمام تنظيم شأن جباية الزكاة، ومحاسبته عمال الجمع، وبيان أن كل مال يعطى للموظف هو من المال الحرام ولا يجوز أخذه باستثناء أي هدية كانت قبل الوظيفة أو المهمة مما يجري تبادلها بين الموظف وأناس معينين،، وأما هذه الرشوة التي أصبحت سائدة في دوائر الحكومات في البلاد الإسلامية والتي يجري تبريرها بحجة تقصير رواتبهم عن كفايتهم وأسرهم فإنها من المال الحرام والسحت الذي لا يجوز لموظف أن يمد يده له لا طلباً ولا قبولاً، ولتتحمل هذه الحكومات وزر التقصير في عدم كفايتهم، وما أقله من تقصير بجانب ما توقعه من ظلم بل مظالم بعدم تطبيق الأحكام الشرعية ليس فقط في الزكاة وجمعها وتوزيعها بل في كل الامور.

وعند ذكر أخبار السرايا والبعوث في سنة تسع (ص ٥١٠ - ص ٥١٩) ذكرت سرية علي ابن أبي طالب رضي الله عنه ليهدم صنم طيء، وأن أخت عدي بن حاتم كانت من السبي فمن الرسول عليه وآله السلام عليها ودعا لأخيها (إني أرجو أن يجعل الله يده في يدي) وبالفعل جاء وأسلم..

ومما سأله الرسول عليه وآله السلام عن إيمانه ودينه إذ كان نصرانياً فيما إذا كان له إله غير الله، وفيما إذا كان من شيء أكبر من الله، فكان ينفي، وأسلم، وسمع من الرسول عليه وآله السلام حديثاً طويلاً يروى عنه منه (ليق أحدكم وجهه النار ولو بشق تمره، فإن لم يجد فبكلمة طيبة، فإني لا أخاف عليكم الفاقة، فإن الله ناصركم ومعطيكم حتى تسير الظعينة ما بين يثرب والحيرة وأكثر ما يخاف على مطيتها السرق) قال عدي: فرأيت الظعينة ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز.. ورأى غيره فتح القسطنطينة، وسيرى غيرهم فتح رومية إن شاء الله...

وبعد أن أوضح كيف أنجز علي بن أبي طالب مهمته في هدم صنم طيء وسوق السبي ومنها أخت عدي بن حاتم، الذي جاء بعدها مسلماً، ذكر قصة توبة كعب بن زهير وإسلامه بين يدي الرسول عليه وآله السلام إذ جلس بين يديه فقال: يا رسول الله، إن كعب ابن زهير قد جاء ليستأنك تانياً مسلماً، فهل أنت قابل منه إن أنا جئت به؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: نعم، فقال زهير والرسول عليه وآله السلام لم يكن قبلنذ يعرفه: أنا يا رسول الله كعب بن زهير.

مما يكشف كيف أخذ أصحاب البيان والقلم يحجون إلى الرسول عليه وآله السلام تائبين مسلمين بعد أن نصر الله عبده وأعز جنده وأوصلت الركبان كلمة الحق إلى جميع أرجاء الجزيرة.. إنها لسنة الله تعالى في خلقه وقد كانوا كفاراً فكيف ودين الله الإسلام منتشر في كل مكان بغض النظر عما يلاقيه أهله وحملة دعوته من الظلم والاضطهاد؟! فلا بد من الابتلاء والتمحيص وبعدهما يأتي نصر الله تعالى، وهو ولا بد قادم بعون الله ومشينته..

وجاءت الصفحات (٥٢٦ - ٥٩٢) لتقف ملياً مع غزوة تبوك التي كانت في رجب سنة تسع، وفي زمن العسرة. فقد صارحهم الرسول عليه وآله السلام لبعده المسافة وشدة الحال. ومما حصل أثناء التجهيز لها ما قال عليه السلام للجد بن قيس (يا جد، هل لك العام في جلد بني الأصفر؟) فقال يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني؟ بحجة أنه شديد الإعجاب بالنساء ولا يأمن نفسه الفتنة عندما يرى النساء الجميلات.

فقال له الرسول عليه وآله السلام (قد أذنت لك) ونزلت {ومنهم من يقول إنذن لي ولا تفتني} - ٤٩ التوبة - ومنها قول بعض المنافقين لبعضهم: لا تنفروا في الحر، فنزلت {وقالوا لا تنفروا في الحر} - ٨١ التوبة - وحث الرسول عليه وآله السلام الناس على النفقة فأنفق عثمان بن عفان رضي الله عنه ثلاثمائة بغير مع لوازمها وألف دينار ذهباً فقال عليه وآله السلام (ما على عثمان ما فعل بعد هذه، ما على عثمان ما عمل بعد هذه)، ومنها قال للبكائين السبعة (لا أجد ما أحملكم عليه، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً أن لا يجدوا ما ينفقون)، ومنها قوله عليه وآله السلام لأصحاب أبي موسى (والله لا أحملكم، ولا أجد ما أحملكم عليه) وكان غضباناً ثم لما جاءته الأبل أرسل إليهم

وقال (ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم، وإنني والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير)، ومنها قبول عتبة بن زيد لتصدقته على كل مسلم بكل مظلمة أصابه فيها من مال أو جسد أو عرض، بسبب عجزه عن المشاركة في الجهاد فقال له الرسول عليه وآله السلام (أبشر، فو الذي نفس محمد بيده لقد كُتبت في الزكاة المتقبلة)، ومنها عدم قبول أعداء الأعراب وكانوا ٨٢ رجلاً، ومنها استخلاف الرسول عليه وآله السلام محمد بن مسلمة الأنصاري على المدينة وعلي بن أبي طالب على أهله.

ومنها عند المسير تخلف ابن أبي ومن كان معه من المنافقين، وتخلف نفر من المسلمين دون نفاق منهم الثلاثة المشهورون كعب بن مالك وهلال بن أمية ومُرارة بن الربيع وكان معهم أبو خيثمة وأبو ذر اللذان لحقا بجيش الرسول عليه وآله السلام، وكان تعداد الجيش ثلاثين ألفاً من الناس في عشرة آلاف فرس، ومنها قوله عليه وآله السلام لعلي عندما لحقه بسبب ما أرجف المرجفون به ضده بأنه تركه استنقلاً (كذبوا ولكني خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي) فرجع إلى المدينة مطمئن النفس، ومنها لحاق أبي خيثمة بالرسول عليه وآله السلام بعد أن حدثته نفسه بالبقاء، رافضاً ما رآه من راحة بجانب زوجته وقائلاً: رسول الله صلى الله عليه وسلم في الضح - أي الشمس - والريح والحر وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهياً وامرأة حسناء في ماله مقيم؟ ما هذا بالنصف، ومنها أمر الرسول عليه وآله السلام حين مرّوا بالحجر بديار ثمود (لا تشربوا من مائها شيئاً، ولا تتوضئوا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الأبل ولا تأكلوا منه شيئاً ولا يخرجن أحد منكم إلا ومعه صاحب له) إلا أن رجلين خرج أحدهما لحاجته والآخر لطلب بغيره، فاختنق الأول لولا دعاء الرسول عليه وآله السلام له، وحملت الريح الثاني إلى جبل طيء حتى أهدته طيء للرسول عليه وآله السلام حين رجع للمدينة، ومنها دعاء الرسول عليه وآله السلام بالغيث بعد أن شكوا فقدان الماء فأمطرت عليهم سحابة حتى أرتووا واحتملوا حاجتهم من الماء، ومنها إخبار الرسول عليه وآله السلام لهم بموضع ناقته التي ضلت في الطريق مما أسقط في يد المنافق زيد بن اللصيت، ومنها خرصه عليه وآله السلام حديقة المرأة بعشرة أوسق، ومنها لحاق أبي ذر وحده بالجيش ماشياً بعد أن قصرت ناقته فقال له الرسول عليه وآله السلام (رحم الله أبا ذر يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده) حتى روي أنه مات في الربذة خارج المدينة ودفن وحده فيها، ومنها قصة المنافقين الذين تحدثوا فيما بينهم عن صعوبة قتال الروم فأرسل الرسول عليه وآله السلام عمار بن ياسر ليخبرهم بخبرهم وينقذهم من النار فجاؤوا يعتذرون للرسول عليه وآله السلام وقال أحدهم: كنا نخوض ونلعب فنزلت {ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب} - ٦٥ التوبة - ومنها أمره للجيش بأن لا يأخذ أحد شيئاً من عين تبوك عندما يصلونها لأنها شحيحة، فخالف اثنان فغضب الرسول عليه وآله السلام منهما، ثم غسل الرسول عليه وآله السلام وجهه ويديه بما غرفوا له منها

وأعاده فيها فجرت العين بماء منهمر معجزة للرسول عليه وآله السلام حتى استقى الناس وقال عليه وآله السلام (يوشك يا معاذ إن طالت بك الحياة أن ترى ما هاهنا قد ملئ جناتاً).

وبعد أن وصل الجيش إلى تبوك أتى الرسول عليه وآله السلام صاحب أيلة ثم أهل جربا وأدرج وصالحوا الرسول عليه وآله السلام على الجزية، وكتب لصاحب أيلة كتاباً بأنه من أهل الذمة، وأثناء انتظارهم لجيش الروم أرسل عليه وآله السلام خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة من كندة، وكان نصرانياً، فجاء به خالد للرسول عليه وآله السلام فعرض عليه الإسلام فرفض فأقره على الجزية، ومنها دفنه عليه وآله السلام للمزني الذي توفي في تبوك ليلاً، ومنها قوله عليه وآله السلام وقد هم بالرجوع إلى المدينة (إن بالمدينة لأقواماً ما سرتهم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم) قالوا يا رسول الله وهم بالمدينة؟ قال (نعم حبسهم العذر). ومنها خطبته صلى الله عليه وآله وسلم بتبوك وصلاته فكان يجمع ويقصر الرباعية، ومنها نفاذ دعاء الرسول عليه وآله السلام فيمن قطع صلته إذ مر بحماره من أمامه عندما دعا عليه (اللهم اقطع أثره) فوقع مشلولاً لم يمش بعدها.

وأما أثناء رجوعه عليه وآله السلام من تبوك فقد هم المنافقون به كيداً فعصمه الله تعالى منهم وذلك عندما أرادوا طرحه من رأس عقبة في الطريق فطلب عليه وآله السلام من حذيفة وعمار أن يمنعوهم من ذلك وقد أخبر خبرهم، وسأل حذيفة فيما إذا عرفهم، وأخبره خبرهم وسماهم له، وحقق الرسول عليه وآله السلام معهم فرداً فرداً في اليوم التالي وتركهم مشرعاً بذلك ما يفعله الإمام أو قائده أثناء الجهاد، وقيل بأن أبا عامر كان رأسهم وله بنوا مسجد الضرار، وكانوا يسمونه الراهب فسماه الرسول عليه وآله السلام الفاسق، ومنها أن حذيفة وحده كان على علم بأسماء أولئك المنافقين حتى كان عمر يقول إذا مات من يشكون فيه: أنظروا، فإن صلى عليه حذيفة وإلا فهو منافق منهم. وأما أبو عامر فقد خرج طريداً إلى الشام بعد إسلام أهل الطائف ومات وحيداً غريباً، فلا مكان له في غزوة تبوك مطلقاً.

وأما مسجد الضرار فقد أخبر الرسول عليه وآله السلام وهو عائد من تبوك بأمره فأمر من يذهب إليه ويحرقه ويهدمه بدلاً من أن يأتهم كما طلبوا منه أثناء توجهه إلى تبوك ويصلي فيه {والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً} - ١٠٧ التوبة - ولا تقم فيه أبداً، لمسجد أسس على التقوى من أول يوم} - مسجد قباء - {أحق أن تقوم فيه} - ١٠٨ التوبة -.

وعندما دخل الرسول عليه وآله السلام المدينة بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ثم جلس للناس، وجاءه المخلفون يعتذرون، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، وقبل منهم عليه وآله السلام علانيتهم واستغفر لهم ووكّل سرائرهم إلى الله، إلا أن كعب بن مالك وهلال بن أمية ومُرارة ابن الربيع صدقوا الرسول عليه وآله السلام بأنهم لا عذر لهم

في التخلف، فتركهم الرسول عليه وآله السلام لحكم الله تعالى فيهم، وأمر بمقاطعتهم إلى أربعين يوماً، ثم أمرهم بعدم القرب من نسانهم في الأيام العشرة الأخيرة حتى تاب الله عليهم في اليوم الخمسين فقال صلى الله عليه وآله وسلم لمالك (أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك) فأراد أن يتصدق بماله كله كجزء من توبته فقال له عليه وآله السلام (أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك) فأمسك سهمه بخبير. وجاء عشرة آخرون {وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً} - ١٠٢ التوبة - هم أبو لبابة وأصحابه، أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد حتى يطلقهم رسول الله عليه وآله السلام ويعذرهم، فما نزلت {وآخرون} حتى {عسى الله أن يتوب عليهم أنه هو التواب الرحيم} أرسل الرسول عليه وآله السلام فأطلقهم وعذرهم وأخذ بأمر الله من أموالهم {خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها وصل عليهم} - ١٠٣ التوبة - وأما الثلاثة الآخرون فهم من سبق ذكرهم.

وأما ما في هذه الغزوة من فقه وعبر فهي أكثر مما يحصى:

فهناك جواز القتال في الشهر الحرام ولو كان العدو من أهل الكتاب الذين لا يحرّمون هذا القتال كمشركي العرب، ومنها إعلام الرعية بأمر القتال إذا كان مما يخبرون فيه، ومنها لزوم النفي لكل فرد إذا كان لا بد للمتخلف من الإذن، ومنها وجوب الجهاد بالمال كالنفس والتسابق في بذله، ومنها استخلاف الإمام عند السفر من يخلفه في رعيته وفي أهله، ومنها جواز الخرص على رؤوس الشجر، وعدم جواز شرب ماء أبار ثمود أو استخدامه في طبخ أو عجن أو طهارة، وأن على من يمر بديار المغضوب عليهم أن يسرع السير، ومنها الجمع والقصر في صلاة السفر مهما طالّت المدة لأنه فعل ذلك في تبوك العشرين يوماً كما فعل في غيرها تسعة عشر يوماً و ١٨ في زمن فتح مكة، وقصر سعد بالشام ٤٠ يوماً، وقصر ابن عمر بأذربيجان ستة أشهر وقد حبسهم الثلج، وقصر أنس بن مالك بالشام سنتين، وقال أنس أقام أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم برامهرمز سبعة أشهر يقصرون الصلاة، وقصر الحسن مع عبد الرحمن بن سمرة بكابل سنتين.. والأئمة الأربعة متفقون إذا أقام لحاجة ينتظر قضاءها وهو يقول: اليوم أخرج، غداً أخرج، فإنه يقصر أبداً، وقال ابن المنذر في (إشرافه): أجمع أهل العلم أن للمسافر أن يقصر ما لم يُجمع إقامة وإن أتى عليه سنون، ومنها جواز حنث اليمين إذا رأى غيرها خيراً منها ويكفر عن يمينه، وأن اليمين تتعقد أثناء الغضب إلا أن يكون لا يعلم ما يقول لقوله عليه وآله السلام (لا تطلق ولا عتاق في إغلاق)، ومنها عدم قتل المنافقين وإن ذكر عنهم الكفر الصريح إذا أظهروا التوبة، وهذا في حياة الرسول عليه وآله السلام وأما بعد وفاته فيؤخذ الواحد منهم بالتحقيق والاعتراف، ومنها محاسبة أهل الذمة إذا نقضوا العهد كأنهم لا عهد لهم، ومنها جواز الدفن بالليل فقد دفن أبو بكر، وفاطمة، وعائشة، وعثمان، وابن مسعود، فيجوز الدفن ليلاً لمصلحة الميت إذا خشي عليه، ومنها الغنائم للسرية التي غنمتها بعد تخميسها، ومنها تحريق أمكنة المعصية والضرار كمسجد الضرار، ومنها

جواز انشاد الشعر للشعر للقدام فرحاً وسروراً به، ومنها المبادرة بحرق أو إتلاف كل سبب للشعر ومعصية الله كما فعل كعب بن مالك في حرق كتاب ملك غسان الذي قصد به فتنته عن طاعة الله ورسوله، ومنها جواز الأمر للإمام لمن يعاقبه بالمقاطعة أن يعتزل زوجته، ومنها أن اللفظ (الحقي بأهلك) وأمثالها من صريح الطلاق أو العتاق لا يؤخذ إلا بقريئة وقصد، ومنها سجود الشكر عند حلول نعمة أو دفع نقمة، ومنها دفع بشارة لمن يبشر بخير، ومنها النذر لا ينفذ إلا في الثلث كمنعه عليه وآله السلام الصدقة بما زاد على الثلث، ومنها عظم مقدار الصدق وتعلق سعادة الدنيا والآخرة به..

فما أعظم بركة هذه الغزوة التي لم يحصل فيها قتال بين المسلمين والروم وإن حصل غزو جانبي لها. فقد رأى المسلمون من معجزات الرسول عليه وآله السلام عدة منها كما عايشوا قبلها وأثناءها وبعدها الكثير من التشريعات الربانية التي تلزمهم في حياتهم السلمية والحربية سواء فيما بينهم أو مع أعدائهم البعيدين أو أعدائهم المنافقين القريبين، كما رأوا صلاة الرسول عليه وآله السلام في الجمع والقصر في السفر، وما عليهم أن يفعلوه في أماكن الغضب والعذاب على الأمم السابقة، وما عليهم من أن يبذلوه من النفس والنفس ابتغاء مرضاة الله في الجهاد، وما عليهم أن يتصرفوه أمام الحنث باليمين إذا وجد صاحبها خيراً منها، وما عليهم أن يفعلوه إذا مات لهم صاحب سفر بدفنه ليلاً إذا دعت الحاجة، وما عليهم أن يفعلوا بصدد أي موضع منكر أو كتاب معصية من الإتلاف والهدم، وما على الإمام نفسه من وجوب الاستخلاف على المسلمين في المصالح العامة والاستخلاف في أهله وشؤنه الخاصة، وما يمكن أن يفعله صاحب الصلاحية من إمام وغيره من المقاطعة للمذنبين عقوبة لهم...

وبعد مقدمه عليه وآله السلام من تبوك سنة تسع بعث أبا بكر أميراً على الحج والناس ما زالوا على منازلهم من حجهم مع شركهم، فخرج في ثلاثمائة رجل من المدينة ومعهم عشرون بدنة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخمس بدات ساقها أبو بكر، ولما كان بالعرج لحقه علي بن أبي طالب رضي الله عنه على العضباء فسأله أبو بكر: أمير أو مأمور؟ فقال: لا بل مأمور، وقال: ولكن بعثني أقرأ على الناس براءة وأنبذ إلى كل ذي عهد عهده. وعند الجمره أذن علي في الناس بأمر رسول الله عليه وآله السلام وقال: أيها الناس، لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو إلى مدته، وقال: ومن لم يكن له عهد فأجله إلى أربعة أشهر.

مما يدل على أن يوم النحر هو يوم الحج الأكبر، وأن ما كان بالحديبية سنة ست هو ابتداء أو تهيئة لفرض الحج لأنه جاء {وأتموا الحج والعمرة لله} - ١٩٦ البقرة - إذ فيه الأمر بإتمام الحج إذا شرع، وأما آية فرض الحج فهي {ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً} - ٩٧ آل عمران - وهي نزلت أواخر سنة تسع عام الوفود وفيها فرض وجوب ابتداء الحج. وكان من الوفود وفد ثقيف الذي تقدم ذكره في غزوة الطائف والذي أسند أمرته بعد أن أسلموا إلى عثمان بن أبي العاص أصغرهم

سناً لحفظه سورة البقرة وحرصه على الفقه في الدين أكثر من أعضاء الوفد الستة الآخرين، وفيه خبر كيف داور الوفد قومهم ثقيف إذ سايروهم على كفرهم أولاً من التهجم على المسلمين بالتعريض حتى وجدوهم لا يملكون الا قبول الإسلام والخضوع لأحكامه ثم صارحوهم بما فعلوه مع الرسول عليه وآله السلام من الدخول في الإسلام والقبول بالتزام أحكامه من ترك الربا والخمر والزنى، ومن الرضى بهدم اللات صنمهم على أن يهدمه غيرهم، فهدمه المغيرة بن شعبة مع أنه حاول اللعب بأعصابهم بالتظاهر بأن الصنم قد أسقطه عن ظهره وهو يهدمه، ولكنه عاد وسخر من عقولهم وصارحهم بما فعله من استخفاف بعقولهم، وهدمه ونبش أساسه، وأمره الرسول عليه وآله السلام أن يقيم المسجد مقامه وعلى أنقاضه.

وبعد فتح مكة وغزوة تبوك وإسلام ثقيف توافدت على الرسول عليه وآله السلام الوفود من كل وجه يدخلون في دين الله أفواجا، وكان معه عتاتهم وفد بني عامر الذي جاء فيهم عامر بن الطفيل وأريد بن قيس وجبار بن سلمى، وقد تأمر الأولان على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن يشاغله الأول ويضربه الثاني بسيفه، فرد الله كيدهم إلى نحورهم إذ استجاب المولى عز وجل لدعاء رسوله (اللهم اكفني عامر بن الطفيل فأصابه الطاعون في عودتهم فقتله، وقتلت أربد مع جملة صاعقه.

فما أعظم حكمتك وقدرتك يا أقوى الأقوياء وأعز الأعرزاء وأنت تنصر رسولك على أعدائك وأعدائه كيف لا وأنت ولاشك ناصر أوليائك في كل حين متى صدقوا معك الوعد وأخلصوا الدعوة..

ووفد عليه صلى الله عليه وآله وسلم الجارود بن بشر في وفد عبد القيس، وكان نصرانياً، فدعاه عليه وآله السلام للإسلام فأسلم وأمره بالإيمان وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان ولم يذكر الحج مما يدل على أنه لم يكن مفروضاً بعد، كما أمره بخمس الغنائم، ونهاهم عن حفظ الشراب في أوعية الدباء والحنتم والنقير والمزفت التي كانت تحيل الشراب إلى خمر، وبعد أن استقر إيمانهم قال لهم (وكنتم نهيتكم عن الأوعية فانتبذوا فيما بدا لكم ولا تشربوا مسكراً)..

وفي حديثه عليه وآله السلام مع هذا الوفد أحكام عديدة بالاضافة لما ورد أعلاه منها وجوب التحلي بالحلم والأناة، وأنها ميزة يمتاز بها الخلق {ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها} من كون التقوى صفة جبل وفطر عليها الإنسان اذا تعهدا وسيطرت على تصرفاته ومعاملاته بدلاً من الفجور، وهي ولاشك غير الجبر إذ هذه غير تلك لأن الجبر لا اختيار فيه بينما الجبلة هي مجال الاختيار إذ وجد بها الخير والشر أو الفجور والتقوى في فطرة الانسان وأعطي لعقله القدرة على الاختيار بينهما والعمل بهذا الاختيار، ولاشك أن هذا تمييز رائع بين الجبر والجبلة.

وجاء وفد بني حنيفة وفيهم مسيلمة الكذاب، فأسلموا ولكنهم عندما وصلوا اليمامة ارتد عدو الله مسيلمة وتنبأ وزعم أنه أشرك في الأمر، أمر النبوة، مع الرسول

عليه وآله السلام فكتب اليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإن الأرض لله يورثها لمن يشاء من عباده والعاقبة للمتقين). وكان ذلك في آخر سنة عشر. وعندما جاء رسولا مسيلمة بكتابه سألهما الرسول عليه السلام (وأنتما تقولان بمثل ما يقول؟) قالوا: نعم، فقال: (أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما)..

وفي قصة هذا الوفد جواز مكاتبة الإمام لأهل الردة إذا كانوا أقوياء، ومخاطبتهم: سلام على من اتبع الهدى، وأن الرسول لا يُقتل ولو كان مرتدًا، وأن للإمام أن يأتي بنفسه لمن قدم عليه يريد لقاءه، وأن للإمام ولكل عالم أو مسؤول أن يوكل من يعلم قدرته على الإجابة. كما أن في رؤيا الرسول عليه وآله السلام بأنه رأى سوارين من ذهب في يديه فأوحى اليه بنفخهما فنفخهما فطارا، في هذه الرؤيا كذابان يخرجان من بعده هما العنسي صاحب صنعاء اليمن ومسيلمة الكذاب صاحب اليمامة. وفي هذا جواز تعبير الرؤيا بالاستئناس بالنصوص الشرعية..

وقدم وفد طيء على الرسول عليه وآله السلام بقيادة زعيمهم زيد الخيل فسماه الرسول عليه وآله السلام لحسن إسلامه زيد الخير، وعاد ولم يمهله الأجل فمات في الطريق بحمى أصابته، وكان له ولدان أسلما وصحبا الرسول عليه وآله السلام وشهدا قتال أهل الردة مع خالد بن الوليد.

وفي إكرام الرسول عليه وآله السلام رئيس الوفد دلالة لكيفية معاملة سادة القوم، وأثر ذلك حتى على ولديه من بعده..

وقدم وفد كندة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم برئاسة الأشعث بن قيس في ٨٠ ركباً فسألهم (أو لم تسلموا؟) عندما دخلوا على رسول الله عليه وآله السلام فقالوا: بلى. فقال: (فما بال هذا الحرير في أعناقكم؟) فشقوقه ونزعه وألقوه..

وفي قصة هذا الوفد جواز إتلاف المال المحرم استعماله ولا يعتبر ذلك ضياعاً أو مفسدة، وفيها أن من كان من ولد النضر بن كنانة فهو من قريش، وأن من انتسب إلى غير أبيه فقد نفى من أبيه ونسب الفجور لأمه، وأن من فعل ذلك في حق رجل جلد حد القذف.

وقدمه عليه وآله السلام وفد الأشعريين وأهل اليمن فقال (جاء أهل اليمن، هم أرق أفئدة وأضعف قلوباً، والإيمان يمان والحكمة يمانية، والسكينة في أهل الغنم، والفخر والخيلاء في الفدّادين من أهل الوبر قبل مطلع الشمس) وقال (أتاكم أهل اليمن كأنهم السحاب هم خيار من في الأرض). - والفدادون هم أصحاب الصوت الشديد -.

وفي خبر هذا الوفد دلالة على نوعية إيمان أهل اليمن والفرق بينهم وبين أهل الوبر من أصحاب الأصوات الشديدة في أنعامهم.. مما يشعر بتأثير البيئة ونمط العيش على النفوس، فأهل اليمن كانوا وما زالوا يعيشون على الجبال فكأنهم السحاب يرون عظمة الله تعالى في الأرض والسماء، كما يقل فيهم السمن لعيشهم كثير التأمل والتدبير..

وجاءه عليه وآله السلام وفد الأزدي برئاسة صرد بن عبد الله الأزدي، فأسلم وحسن إسلامه في وفده، فأمره عليهم، وأمره أن يجاهد بهم أهل الشرك ممن يلونهم من قبائل اليمن، فقاتلوا أهل جرش وحاصروهم شهراً حتى إذا تركوهم فظنوا أنهم غلبوا وتبعوهم كروا عليهم فأوقعوا بهم مقتلة عظيمة، وذلك على جبل يدعى شكر.

وفي قصة هذا الوفد تغيير اسم الجبل من كشر إلى شكر، ودعاء الرسول عليه وآله السلام للرجلين اللذين جاءا من الأزدي يتحسان الأمر أن يرفع القتل عن قومهم دون أن يعلم ما حل بهم من قبل، فلما عادا وعلما بما حصل عاد وفد جرش إلى الرسول عليه وآله السلام وأسلموا وحمى لهم حمى حول قريتهم.

وقدمه عليه وآله السلام وفد بني الحارث بن كعب في سنة عشر من نجران بعد أن كان قد بعث عليه وآله السلام خالد بن الوليد يدعوهم إلى الإسلام وإلا قاتلهم فأسلموا فجاء بوفدهم فسأله الرسول عليه وآله السلام (بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية؟) قالوا: لم نكن نغلب أحداً. فقال: (بلى)، فقالوا: كنا نجتمع ولا نتفرق ولا نبدأ أحداً بظلم، فقال (صدقتم) وأمر عليهم قيس بن الحصين.

وفي خبرهم دلالة على طيب أخبارهم في الجاهلية لوحدة كلمتهم وتجنب إيقاع الظلم على غيرهم، فأين هم من طغاة اليوم؟

وقدم وفد همدان من اليمن عليه صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن أرسل اليهم خالداً يدعوهم إلى الإسلام فلم يستجيبوا له، فأرسل اليهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فصلى بأصحابه في صف واحد ثم قرأ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فأسلموا جميعاً، فكتب للرسول عليه السلام بإسلامهم فخر عليه وآله السلام ساجداً عندما وصله الكتاب ثم رفع رأسه فقال (السلام على همدان، السلام على همدان).

وفي هذا الخبر دلالة على أهمية حسن التائي في دعوة الناس إلى الإسلام، وفي السجود شكراً لله لخبر إسلامهم والدعاء لهم بسبب حسن استجابتهم، مما يسر ذلك لكل حامل دعوة من دعاة الإسلام.

وقدم وفد مزينة على الرسول عليه وآله السلام ورئيسهم النعمان بن مقرن في أربعمانه رجل، ولما هموا بالانصراف أمر الرسول عليه وآله السلام عمر (يا عمر، زود القوم) فقال: ما عندي إلا شيء من تمر، ما (أظنه يقع من القوم موقعاً. فعاد الرسول عليه وآله السلام وقال (انطلق فزودهم) فصحبهم إلى منزله فأخذ القوم حاجتهم من التمر، وقال النعمان: فكنت في آخر من خرج، فنظرت فما أفقد موضع تمره من مكانها، فيا لبركة العطاء بعون رب السماء!

وجاء وفد دوس قبل ذلك على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو بخير برئاسة الطفيل بن عمرو الدوسي الذي حدث كيف حاولت قريش المشركه أن تثنيه عن اللقاء بالرسول عليه وآله السلام والسماع منه، ولكنه كشاعر استمع اليه عليه وآله

السلام وأسلم وطلب آية تعينه على قومه فكانت كالنور المعلق في رأس سوطه، فأمن معه والده ثم زوجته، واستعصى عليه قومه أولاً لحبهم للزنى فدعا لهم الرسول عليه وآله السلام بالهدى فأسلموا ولحق الطفيل بالرسول عليه وآله السلام بأكثر من سبعين منهم وهو بخير فأسهم لهم، وجاهد الطفيل وولده طليحة عندما ارتدت العرب ثم اليمامة حيث استشهد وجرح ابنه عمرو جرحاً بليغاً واستشهد في اليرموك..

فقد صدق الرسول عليه وآله السلام إسلامه وحمل الطفيل بإخلاص الإسلام إلى قومه وأخيراً استجابوا له فأشركهم الرسول عليه وآله السلام في غنائم خيبر لأنهم وصلوا كمدد قبل أن تنتهي الحرب، وواصل الطفيل وقومه مسيرة الجهاد في عهد الصديق حتى استشهد في الحرب ضد مسيلمة الكذاب في اليمامة، وواصل بعده ولده عمر والمسيرة حتى استشهد في عهد الفاروق في موقعة اليرموك.. الأ رضي الله عنهم وأرضاهم من مجاهدين صدقوا الله تعالى الجهاد فأكرمهم بنعمة الاستشهاد..

وبعد مرجعه عليه وآله السلام من تبوك كتب إلى نجران (أما بعد فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتكم فقد أدننكم بحرب، والسلام) فتشاور الأسقف مع رئيسهم شرحبيل بن وداعة ثم مع زعيم حمير عبد الله بن شرحبيل ثم مع زعيم من أهل نجران يسمى جبار بن فيض فاجتمعوا على احتمال النبوة، فسألوا الناس الرأي فأجمعوا على إرسال شرحبيل بن وداعة وعبد الله بن شرحبيل وجبار بن فيض كوفد للرسول عليه وآله الصلاة والسلام، فرفض الرسول عليه وآله السلام مقابلتهم وهم في الحلل والخواتيم الذهب وقابلهم بعدها بملايس السفر واستمهلهم حتى نزل قول الله تعالى في عيسى عليه السلام بناء على طلبهم الرأي فيه {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون. الحق من ربك فلا تكن من الممترين. فمن حاجك فيه من بعدما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين} (٥٩ - ٦١ آل عمران). فخافوا من المبالغة ونزلوا عند حكم الرسول عليه وآله السلام فكتب لهم كتاباً فيه بيان مقادير الجزية عليهم كاهل ذمة، فرجعوا به إلى قومهم، فتلقاهم الأسقف ووجوه نجران على مسيرة ليلة وكان مع الأسقف أخ له من أمه اسمه بشر بن معاوية، فلما عثرت ناقة بشر ذكر الرسول عليه وآله السلام بسوء فأنبه الأسقف، فتأثر وعزم ونفذ عزمه بالذهاب إلى الرسول عليه وآله السلام حيث لازمه حتى استشهد وانطلق الراهب بن أبي شمر الزبيدي يهدية إلى رسول الله عليه وآله وسلم منها البرد الذي يلبسه الخلفاء والقعب والعصا، ولكنه رغم طول الاستماع للوحي لم يسلم وعاد إلى قومه. ولكن الأسقف أبا الحارث قد أتى هو أيضاً الرسول عليه وآله السلام مع وجوه قومه، وأقاموا يستمعون للوحي فكتب الرسول عليه وآله السلام له ولأساقفة نجران بعده كتاباً آخر فيه نمتهم وتطمينهم على ملتهم. ويروى أن الرسول عليه وآله السلام قد أرسل مع الوفد الأول بناء على طلبهم أبا عبيدة بن الجراح أمين هذه الأمة، وأنه أرسل بعدها علي بن أبي طالب إلى أهل نجران ليجمع صدقاتهم وجزيتهم.

ومن فقه هذه القصة جواز دخول أهل الكتاب مساجد المسلمين وأداء صلاتهم فيها لأمر طارئ لا دائم، وأن من يقر بنبوّة الرسول عليه وآله السلام لا يدخله ذلك في الإسلام حتى يلتزم الطاعة والمتابعة، وأن من الواجب مجادلة أهل الكتاب وغيرهم من الكفار على اختلاف مللهم ونحلهم كما كان يفعل الرسول عليه وآله السلام، وجواز إهانة رسل الكفار بعدم الكلام معهم إذا ظهر منهم التكبر، وجواز دعوة أهل الباطل عند العناد إلى المباهلة، وجواز مصالحة أهل الكتاب بما يراه الإمام من الأموال والسلع كجزية عليهم، وجواز اشتراط الإمام إيواء رسله واستضافتهم، وجواز اشتراط استعارة ما يحتاجه المسلمون من سلاح مع الضمان له، ووجوب إلزام أهل الكتاب بعدم التعامل بالربا ولا تناول المسكر ولا اقرار اللواط والزنى، وإلا حدوا على ذلك، وأن عقد العهد والذمة مشروط بنصح أهل العهد والذمة وإصلاحهم وإلا فلا عهد ولا ذمة لهم، ولإمام أن يرسل لأهل العهد والذمة العالم الأمين لما فيه مصلحة الإسلام، ومن هذه القصة ومن مجيء خالد بن الوليد المشار إليه سابقاً بوفد نجران يظهر أن أهل نجران كانوا صنفين: نصارى وأميين، وأن الرسول عليه وآله السلام قد صالح النصارى على ما تقدم في عهد الذمة، وأما الأميون منهم فكانوا قد أسلموا وقدم وفدهم على النبي عليه وآله السلام مع خالد، وأمر عليهم قيس بن الحصين، وأرسل علياً إليهم وقصد به الطائفتين منهم، فيأتي بصدقات من أسلم منهم وجزية النصارى..

فما أروع هذا البيان لحقيقة ما جرى في نجران سواء مع خالد بن الوليد رضي الله عنه أولاً أو مع الآخرين النصارى. وتظهر روعة دراية الرسول عليه وآله الصلاة والسلام عندما أصر على إنقاذ وفدهم من تكبره وتعظمه بالتخلي عن ملابس ذلك، وعندما جعل كتابه يشتمل إليهم على كل ما يطمئنهم على ملتهم وأنفسهم وأموالهم، وعندما خص الأسقف ورجال الدين لديهم بكتاب آخر يطمئنهم على ملتهم ومكانتهم في قومهم، وعندما خلّى بين وفدهم ودخول المسجد وأداء صلاتهم فيه، وعندما ألزمهم في المعاملات والتشريع بما عليه الإسلام فلا معاملات ربوية ولا شرب خمور ولا ارتكاب الفواحش من لواط وزنى وإلا تقام عليهم الحدود الشرعية كالمسلمين.. وعندما دعاهم للمباهلة وهو عليه وآله السلام يعلم أنهم سيتحملون عاقبة ذلك ولن يجروا أحد منهم وهو عليه وآله السلام الذي لاحظ استعدادهم للدخول في الإسلام لولا عنادهم بسبب مكانتهم في قومهم، فلا يجروا أحد منهم أن يتحمل مسؤولية ذلك.

فهل تدبر المسلمون بدءاً من أولي الأمر فيهم بل في دعوتهم لعودة الإسلام للحياة وانتهاء بعلمانهم سواء الذين يكتفون بالعمل الفردي أو يسترضون الحكام على الأمل بخدمة الإسلام والمسلمين... فهلاً تدبروا جميعاً هذه المواقف النبوية التشريعية ليجدوا فيها ما يجعل بعودة الإسلام وشريعته للحياة؟!!

وجاء الرسول عليه السلام وفد فزارة بن عمرو الجذامي معلناً إسلامه ومهدياً بغلة بيضاء، مما جعل الروم الذين كان عاملاً لهم على من يليهم من العرب، متخذاً من معان منزلاً له، أن يعتقلوه ويضربوا عنقه ويصلبوه رحمه الله تعالى بوسع رحمته.

لقد أعطى بذلك مثلاً ندر أن نجده في ولاية الأمر العرب اليوم.. وأما أننا قد نجده في المسلمين غير العرب فهذا ما يرجى أن يكون هنا وهناك سواء في فلسطين أو في الشيشان أو أفغانستان أو غيرها..

وقد وفد بنو سعد بن بكر على رسول الله عليه السلام في رجل واحد هو ضمام بن ثعلبة، فأعلن الرجل إسلامه بعد أن نشد الرسول عليه وآله السلام بالله إذا كان قد أرسله الله وأمره بعبادته وترك الأنداد والتزام الطاعات من صلاة وزكاة وصوم وغيرها من الفرائض، وقال وهو منصرف: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وسأؤدي هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتني عنه، لا أزيد ولا أنقص. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ولي: (إن يصدق ذو العقيصتين يدخل الجنة)..

كم كان هذا الوافد صاحب ثقة وهو يكتفي بإيجاب الرد من الرسول عليه وآله السلام على أسئلته! وكم كان سريع الاستجابة لكلمة الحق وهي تلامس شغاف قلبه! وكم كان صاحب كلمة مستجابة في قومه حتى لم يمس من يوم وصوله عائداً إليهم رجل ولا امرأة إلا مسلماً! وكم كان صاحب أفضل عاقبة في قومه وهم ويستجيبون له!!

وجاء طارق بن عبد الله وقومه من أهل الربيعة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ذلك أن طارق هذا كان قد سمع بالرسول عليه وآله السلام في مكة، ثم جاء المدينة مع نفر من قومه بعد الهجرة بقصد ابتياع التمر، ودخلوا المدينة بعدها واستمعوا للرسول عليه وآله السلام وهو قائم يخطب في المسجد، وكان مما سمعوه (تصدقوا فإن الصدقة خير لكم، اليد العليا خير من اليد السفلى، أمك وأباك وأختك وأخاك وأنداك أنداك).. قال عليه وآله السلام لرجل من الأنصار طلب مالهم من دماء عند القوم في الجاهلية (إن أمأ لا تجني على ولد) وكرر ذلك ثلاث مرات.

مما يشير إلى أثر تلك الحادثة التي رأى فيها طارق وسمع في مكة من الرسول عليه وآله السلام وهو يقول (يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا) في نفسه عندما جاء في وفد قومه إلى المدينة واستمعوا من خطاب الرسول عليه السلام في المسجد، والذي شدد فيه على صلة الرحم بدءاً بالأبوين ثم الأخوة والأخوات ثم من بعدهم.. ثم عندما سمعوا منه عليه وآله السلام وهو يطرح دم الجاهلية مؤكداً ذلك.. فأين هي نقاء النفوس المسلمة لتجد في مثل هذه المواقف ما يهزها ويعيدها إلى رشدها؟!

ووفد إلى الرسول عليه وآله السلام وفد تُجيب في ثلاثة عشر رجلاً جاؤوا بصدقات أموالهم مما فضل عن فقرائهم فسر بهم الرسول عليه وآله السلام وأكرم نزلهم وقضى حوائجهم، ودعا لغلامهم بناء على طلبه (اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه) وقضى حوائجه، وكان له شأن إذ حفظ على قومه، وهم بطن من كندة باليمن، دينهم في وقت الردة، فأوصى به الصديق خيراً.

فيا الله! كم كان هذا الغلام خيراً على نفسه إذ لم ينظر قط إلى ما في أيدي غيره غناء عنه لا طمعاً فيه، وعلى قومه، إذ ذكرهم بالإسلام فلم يرتد منهم أحد مع من ارتد

من أهل كنده باليمن! فكم تحتاج البلاد، بلاد الإسلام، والعباد في مختلف ربوعها لمثل هذا الغلام، وهم ولاشك كثير لولا بطش الظالمين وقسوة الطغاة المستبدين!

وقدم وفد بني سعد هُذيم من قضاة على الرسول عليه وآله السلام وهو قائم يصلي على جنازة في المسجد، وبعد الصلاة سألهم: (أمسلمون أنتم؟) فقالوا: نعم، فسألهم لماذا لم يصلوا معه على أخيهم، فقالوا بأنهم ظنوا بأنه لا يجوز منهم ذلك حتى يبایعوه، فقال (أيضا أسلمتم فأنتم مسلمون) فكررُوا إسلامهم وبایعوا الرسول عليه وآله السلام عليه، وانصرفوا إلى رحالهم، فعادوا بغلام أصغرهم سنًا خلفوه على الرجال فبايعه الرسول عليه وآله السلام على الإسلام، فقالوا: يا رسول الله، إنه أصغرنا وإنه خادمنا، فقال (أصغر القوم خادمهم، بارك الله عليه). فكان خيرهم بدعاء الرسول عليه وآله السلام له، وكان أقرأهم للقرآن، فأمره عليه وآله السلام عليهم، وكان من يومها إمامهم، وأنصرفوا بما رزقوا من الإسلام والفضة.

إنها قصة تكرر شأن الصغير في قومه، كما تنبه إلى أخوة الإسلام ودعوة كل مسلم للمشاركة في الصلاة على أخيه الميت متى حضر الصلاة.. وتوضح كم كان عليه وآله السلام حريصاً على تكريم الوفود التي كانت تفتد إليه..

وقدم وفد بني فزارة على الرسول عليه وآله السلام لما رجع من تبوك في بضعة عشر رجلاً، ومنهم خارجة بن حصن، والحر بن قيس، ابن أخ عيينة بن حصن، وأقروا بين يديه عليه وآله السلام بالإسلام، وأخبروه جواباً لسؤاله بجذب البلاد وهلكة المواشي وجوع العيال، وطلبوا منه أن يدعوا لهم بالغيث، فصعد عليه وآله السلام المنبر، ورفع يديه في دعاء الاستسقاء وقال (اللهم اسق بلادك وبهائمك، وانشر رحمتك، وأحي بلدك الميت، اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً مريئاً مريعاً طيباً واسعاً عاجلاً غير آجل نافعاً غير ضار، اللهم سقيا رحمة لا سقيا عذاب ولا هدم ولا غرق ولا محق، اللهم اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء).

وكم ببركة دعائه عليه وآله السلام يغاث المكروبون.. فهلا أدرك أتباعه من المسلمين ذلك وأقبلوا على ما تركه لهم من كتاب وسنة ينهلون منها الماء الزلال في وقت باتوا لا يُسقون إلا الماء الضلال!؟

ووفد عليه صلى الله عليه وآله وسلم وفد بني أسد في عشرة رجال فيهم وابصة بن معبد وطلحة بن خويلد، فقال قائلهم بأنهم شهدوا الله بالوحدانية وله بالرسالة والعبودية، وأنهم جاؤوه دون إرسال أحد إليهم، فأنزل تعالى فيهم {يؤمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين} ١٧ - الحجرات، ونهاهم عن العيافة والكهانة وضرب الحصى وخط الرمل.

مما يستدعي من المسلم أن يخضع بين يدي الله تعالى وينذل لا أن يتناول ويمن بإيمانه وينسى أنه لولا ما أنزله تعالى من الهداية، وخلق الإنسان وجعل فيه الاختيار بين طريقي الخير والشر، لما كان له أن يعرف الإيمان والاهتداء إليه..

وأما العيافة، وهي زجر الطير والتفاؤل والتطير بها، والكهانة، وهي التنبؤ بالمستقبل، وكذلك ضرب الحصى، وخط الرمل، فإنها مما حرمه الإسلام، فقد كانت بنو الأسد تمارس ذلك كله في الجاهلية، فمنعهم عليه وآله السلام منها جميعاً.

وقدم وفد بهراء من اليمن على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ١٣ رجلاً، فاستقبلهم المقداد وأكرم ضيافتهم، وأرسلت القصعة الصغيرة التي شملت على ما بقي بعدهم من القصعة الكبيرة إلى الرسول عليه وآله السلام فأكل منها ومن معه في البيت ثم قال لضباعة ابنة عمه الزبير بن عبد المطلب (أذهبي بما بقي إلى ضيفكم)، فأقام الضيف عندهم ما أقاموا وهم يأكلون من تلك القصعة دون أن تنفذ، مما جعلهم يستغربون من توفر هذا الطعام الطيب عندهم، فأخبرهم أبو معبد مضيفهم بخبر الرسول عليه وآله السلام وأنه رسول الله وأنه أكل منها وردها، وأن هذه هي بركة أصابعه عليه وآله السلام، فقال القوم: نشهد أنه رسول الله، فازدادوا يقيناً مما كان يقصده الرسول عليه وآله السلام، وانصرفوا بعطايهم إلى أهلهم وقد تعلموا الفرائض.

إنها نموذج آخر من بركة الرسول عليه وآله السلام، والتي بلا ريب تزيد المؤمن إيماناً والمسلم يقيناً.. فهلا عدتم أيها المسلمون إلى سيرة نبيكم لتنفصوا عنكم ما علق بيايمانكم من الشوائب والأتربة وتروا الدرب الذي رسمه لكم فتحسنوا الاقتداء به عليه وآله الصلاة والسلام؟!!

ووفد عليه صلى الله عليه وآله وسلم وفد عُدرة في ١٢ رجلاً فسألهم (من القوم؟) فأكدوا له عليه وآله السلام بأنه لا ينكرهم لقرابات ورحم لأن بني عُدرة أخوة قصي لأمه، فرحب بهم عليه وآله السلام قانلاً (مرحباً بكم وأهلاً). أسلموا وبشرهم عليه وآله السلام بفتح الشام ونهاهم عن سؤال الكاهنة وعن الذبائح إلا الأضحية، وانصرفوا بعطايهم.

فما أكرمك وأبرك يا رسول الله صلى الله عليك وآلك وسلم، وأنت ترحب بهذه القرابات البعيدة وتؤهل؟؟ وما أطيب ما تحله وأخبت ما تحرمه عن ربك؟؟

وجاءه عليه السلام وفد (بلي) سنة تسع صحبهم رويغ بن ثابت البلوي اليه عليه وآله السلام بعد أن أنزلهم عنده فقال: هؤلاء قومي. فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم (مرحباً بك ويقومك)، فأسلموا فقال لهم الرسول عليه السلام (الحمد لله الذي هداكم للإسلام، فكل من مات على غير الإسلام فهو في النار) فأكد رئيسهم أن الضيافة ثلاثة أيام وفيها الأجر وما بعدها صدقة فقال (ثلاثة أيام، فما كان بعد ذلك فهو صدقة، ولا يحل للضيف أن يقيم عندك فيخرجك) وأكد له أن ضالة الغنم (هي لك أو لأخيك أو للذئب) بينما ضالة البعير (مالك وله، دعه حتى يجده صاحبه). ثم قدم لهم الرسول عليه السلام التمر ثم انصرفوا بعد ثلاث وقد أجازهم عليه السلام.

وهنا تأكيد على تحية (مرحباً) لمن يقدم عليك وليس لمن يلتقي بك أو يتصل بك أو يأتي إليك، كما هي العادات الغربية الشائعة اليوم. كما هنا التأكيد على عموم

الرسالة الإسلامية بأن كل من يميت من البشر على غير الإسلام هو في النار. كما هنا بيان الضيافة وأن مدتها ثلاثة أيام وما زاد ففيه صدقة ولو فيه حرج. كما هنا بيان الضالة وأنها إذا كان مما يتعرض للسرقه أو التلف كالغنم فهي مما يلتقط وأما إذا كانت مما يدافع عن نفسه كالبعير فلا يلتقط، ولا ننسى أن الواجب من الضيافة هو يوم وليلة فقط، والثلاثة من النافلة والزيادة عنها من الصدقة، وكذلك الضالة لا بد من تعريفها إذا التقت كالشاة لمدة سنة، وإلا فهي ملك الملتقط.

وقدمه عليه وآله السلام وقد ذي مرة بثلاثة عشر رجلاً يرأسهم الحارث بن عوف، فأخبر الرسول عليه السلام ما حل بالبلاد من جذب وطلب منه الدعاء بالغيث فقال عليه السلام (اللهم اسقهم الغيث) فسقوا وأخصبت بلادهم وانصرفوا بعطايهم.

مكرمة أخرى من مكارمه عليه وآله الصلاة والسلام، يدعو بالغيث لقوم فينزل بهم ويخصب بلادهم.. فعليك صلاة الله وسلامه يا رسول الله، أين أمتك اليوم من التزام طاعتك اقتداء بسنتك والتزاماً بكتاب ربك؟! لقد أضلهم (السامري) وما أكثر من هم على شاكلة هذا (السامري) اليوم!! فاللهم لطفك بأمة محمد واهدهم للخلاص من هذا الذل والضياع والعودة إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم!

وجاءه عليه وآله السلام وقد حوّلان في عشرة، فأكدوا له عليه وآله السلام صدق إيمانهم، وأنهم قدموا زائرين له فقال لهم (فإن من زارني بالمدينة كان في جوارى يوم القيامة)، وأخبروه بما تعرضوا له من فتنة الصنم عندهم المسمى (عم أنس)، وكيف كان يكلمهم فقال عليه وآله السلام (تلك الشياطين تكلمكم)، وتعلموا فرائض الدين وأمرهم بالوفاء بالعهد وأداء الأمانة وحسن الجوار وعدم الظلم، فرجعوا لقومهم وبادروا فوراً لهدم الصنم فهدموه.

وهنا بيان مثوبة من يزور قبر الرسول عليه وآله السلام، وتذكيرهم بأن ما كانوا يفعلونه لصنمهم (عم أنس) هو من الغرور والفتنة، وأن عليهم التخلص منه بهدمه وإخلاص العمل لله تعالى، ووضح لهم أن ما كانوا يسمعون من كلام يجيبهم به الصنم هو من الشياطين لإغوائهم وإبقائهم على كفرهم، وذكرهم بما كان ينقصهم من حسن التعامل مع الآخرين.

وقدم عليه صلى الله عليه وآله وسلم وقد محارب عام حجة الوداع، وكانوا أغلظ وأفظ العرب على رسول الله عليه وآله السلام وهو يعرض نفسه في المواسم على القبائل يدعوهم إلى الله. فجاءوا بعشرة منهم ينيبون عنهم فأسلموا. وكان أحدهم ممن اشتد سوءاً على رسول الله صلى الله عليه وآله السلام وهو يطوف على الناس فتذكره الرسول عليه وآله السلام وهو يديم النظر إليه فأخبر الرسول عليه وآله السلام بما كان منه من غلظة وطلب منه أن يستغفر الله له فقال له عليه وآله السلام (إن الإسلام يجب ما كان قبله من الكفر)..

فما أحلمك يا رسول الله وأنت ترى بين يديك من أساء إليك يطلب الصفح

فتطمئننه بأن إسلامه قد أذهب كل الكفر السابق ومساوئه عنه!! فكيف تصبح النفوس بين يديك وهي تسمع مثل هذا القول وتذكر ما كانت في كفرها وجاهليتها؟!!

ووفد عليه عليه وآله الصلاة والسلام سنة ثمان وفد صداء من اليمن بعد أن جهز جيشاً يسير اليهم فقدم رجل منهم فطلب من الرسول عليه وآله السلام أن يرد الجيش وهو كفيل بقومه، ففعل الرسول عليه وآله السلام ورد الجيش، وكان بقيادة قيس بن سعد بن عباد، وخرج الصدائي وقدم بعدها بوفد قومه في خمسة عشر رجلاً فأكرمهم سعد بن عباد ثم جاء بهم الرسول عليه وآله السلام فبايعوه على الإسلام ونجحوا في نشره في قومهم ثم عادوا في حجة الوداع في مائة منهم. وكان هذا الصدائي زياد بن الحارث الذي لازم الرسول عليه وآله السلام، وسار معه في ليلة ما، فأمره عليه وآله السلام أن يؤذن للفجر، ثم طلب منه الماء للوضوء فوجده قليلاً فوضع يده الشريفة فيه فنبع الماء من بين أصابعه حتى توضع القوم جميعاً، وعندما تقدم بلال ليقيم قال له عليه وآله السلام (إن أخا صداء أذن، ومن أذن فهو يقيم). وكان أمره على قومه وكتب له بذلك كتاباً.

واشكى رجل من عامله فقال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم (لا خير في الإمارة لرجل مسلم)، وطلب آخرون الصدقة فقال صلى الله عليه وآله وسلم (من سأل من الصدقة وهو غني عنها فإنما هي صداع في الرأس وداء في البطن). وعندها أعاد زياد الكتابين بالإمارة والصدقة للرسول عليه وآله السلام قائلاً له بأن يقبله الإمارة ولا يعطيه الصدقة لما سمعه منه عليه وآله السلام فقبل منه استقالته، وطلب منه أن يدلّه على رجل من قومه يستعمله فدلّه، فاستعمله. واشكى من بنر لهم تنضب في الصيف فأخذ سبع حصيات فعركها بيده ودفعها إليه وقال (إذا انتهيت إليها فالحق فيها حصاة حصاة وسم الله) قال: ففعلت، فما أدركنا لها قعرأ حتى الساعة.

وكم من أحكام في قصة هذا الوفد: جواز عقد الألوية البيضاء للجيش والرايات السوداء، وقبول خبر الواحد، وجواز السير في الليل طوله إلى الأذان، وجواز الأذان على الراحلة، وطلب الإمام الماء للوضوء من أحد رعيته، وأن التيمم يلزمه طلب الماء أولاً، وأن الإقامة لمن أذن وإن جاز التعدد، وجواز تأمير الإمام وتولية من سألّه إذا كان كفوفاً وقبول استقالة من يريد ذلك، وجواز شكاية العمال الظلمة للإمام، وجواز استشارة الإمام لذي الرأي من أصحابه فيمن يوليه. وهنا تظهر بركة من بركات الرسول عليه وآله الصلاة والسلام في ماء الوضوء أولاً ثم في ماء البئر ثانياً، فجزاك الله يا سيدي يا رسول الله عن أمتك أطيب وخير الجزاء..

وقدم عليه صلى الله عليه وآله وسلم وفد غسان في رمضان سنة عشر وكانوا في ثلاثة نفر فأسلموا ولكنهم لم يضمنوا إسلام قومهم، وبالفعل فإنهم لم يستجيبوا لهم عندما عادوا إليهم مما اضطروهم لكتمان إسلامهم حتى مات منهم رجلان على الإسلام وأدرك الثالث عام اليرموك فلقي أبا عبيدة فأخبره بإسلامه فكان يكرمه.

هنا دليل على ضرورة محاولة دعوة أهله وقومه الى الإسلام وإن لم يستجيبوا، وليصبر على ذلك وليكتم أمره إذا خشي على نفسه الهلاك ولم يملك الخروج عنهم الى حيث الأمن والأمان.

وجاءه عليه وآله السلام وفد سلامان في سبعة نفر، فأسلموا فقال رئيسهم: أي رسول الله! ما أفضل الأعمال؟ فقال (الصلاة في وقتها) فصلوا معه الظهر والعصر، ثم شكوا اليه جذب بلادهم فقال عليه وآله السلام (اللهم اسقهم الغيث في بلادهم، فسقوه في وقته كما علموا عندما رجعوا، وانصرفوا بعطايهم مسرورين.

مما يدل على ضرورة مراعاة السائل عند الإجابة عن أفضل الأعمال، وتعليمهم ما يلزمهم، وهنا استجابة أخرى لدعائه عليه السلام بالغيث وذهاب الجذب عن بلادهم..

ووفد اليه عليه وآله الصلاة والسلام وفد بني عيس، فاشتكوا مما سمعوه من قرائهم بأنه لا إسلام لمن لا هجرة له، وأنهم على استعداد لبيع مواشيهم والهجرة، فقال لهم عليه وآله الصلاة والسلام (اتقوا الله حيث كنتم، فلن يلتكم الله من أعمالكم شيئاً) وسألهم عن خالد بن سنان وذكره بخير.

مما يشير الى صعوبة الهجرة لمثل هؤلاء القوم، وقبول عدم القيام بها منهم وتطمينهم بأن الله تعالى لا ينتقصهم طاعتهم حيثما كانوا، ويظهر أن ذلك كان بعد أن قويت شوكة الإسلام أو أنه كان بعد الفتح.

وقدم عليه صلى الله عليه وآله وسلم وفد غامد سنة عشر وكانوا عشرة، فتركوا رجالهم في بقيع الغرقد بحراسة أصغرهم سنأ وجاؤوا الى الرسول عليه وآله السلام، وأسلموا وكتب لهم كتاباً فيه شرائع من الإسلام، فسألهم الرسول عليه وآله السلام عن خلفوه في رجالهم، فأخبرهم بأن عيبة أحدهم قد سرقت لأن الحارس قد نام ولكنها رجعت، فذهبوا ليجدوا صدق ما قال لهم الرسول عليه وآله السلام، فازدادوا إيماناً ورجعوا للرسول عليه وآله السلام وأخبروه الخير، وجاء الغلام فأسلم وعلمهم كعب القرآن وانصرفوا بعطايهم.

وهنا سبيل آخر من علم الله تعالى لرسوله ليزداد القوم إيماناً على إيمانهم.. إنه نصر الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم وجمع كلمة الناس عليه... فهلا حافظتم على ذلك يا ورثة هذه الرسالة ولم تفرطوا بها؟!!

ووفد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفد الأزدي في سبعة نفر، فأعجب بسمتهم وزيتهم فقال (ما أنتم؟) فقالوا: مؤمنون. فقال (إن لكل قول حقيقة، فما حقيقة قولكم وإيمانكم؟) فقالوا: خمس عشرة خصلة: خمس منها أمرتنا بها رسلك أن نؤمن بها، وخمس أمرتنا أن نعمل بها، وخمس تخلقتنا بها في الجاهلية، فسألهم (وما الخمس التي أمرتكم بها رسلي أن تؤمنوا بها؟) فقالوا: أمرتنا أن نؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، فقال (وما الخمس التي أمرتكم أن تعملوا بها؟)

فقالوا: أمرتنا أن نقول لا إله إلا الله، ونقيم الصلاة، ونؤتي الزكاة، ونصوم رمضان، ونحج البيت من استطاع إليه سبيلاً.

فقال (وما الخمس التي تخلقت بها في الجاهلية؟) فقالوا: الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء، والرضى بمر القضاء، والصدق في مواطن اللقاء، وترك الشماته بالأعداء، فقال: (حكما علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء) ثم قال (وأنا أزيدكم خمساً فتتم لكم عشرون خصلة إن كنتم كما تقولون، فلا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تنافسوا في شيء أنتم عنه غداً تزولون، واتقوا الله الذي إليه ترجعون وعليه تعرضون، وارغبوا فيما عليه تقدمون وفيه تخلدون) فانصرفوا من عند الرسول عليه وآله السلام وقد حفظوا وصيته ثم عملوا بها.

فكم هي أخبار هذا الوفد من الأزد ثرية طيبة سواء في البدء مع السؤال عن حقيقة إيمان القوم أو في النهاية مع التزامهم بوصية الرسول عليه وآله السلام لهم... أما ما بين البداية والنهاية فهذه الخصال الخمسة عشر التي استدلوا بها على إيمانهم وهذه الخصال الخمسة التي أوصاهم الرسول عليه وآله السلام بإضافتها إلى تلك الخمسة عشر فيكتمل الخير والإيمان والصلاح لديهم وفي أعمالهم.. انه عليه وآله الصلاة والسلام المجيب لكل امرئ بل لكل جمع بما يناسبهم ويلزمهم..

وجاءه عليه وآله الصلاة والسلام وفد بني المنتفق لقيط بن عامر وصاحبه نهيك بن مالك بن المنتفق وقد انصرف من صلاة الغداة وقام في الناس خطيباً فسأله لقيط بعد انتهائه من خطابه عما عنده من علم الغيب، فذكر عليه وآله السلام مفاتيح الغيب الخمس، ثم ذكر يوم البعث حين يخرج الناس من قبورهم، ويجيبه عليه وآله السلام بأن ذلك مثل خروج النبات من الأرض بعد موتها ونزول المطر عليها، ثم يذكر بعض مشاهد يوم القيامة من النظر إلى الله تعالى، ونضح الماء على البشر من رب البشر فيكون سلاماً للمؤمن وحميماً للكافر، ثم ورود الحوض والكل عطشى، ثم اختفاء الشمس والقمر، ثم بدء الحساب الحسنه بعشر أمثالها والسينة بمثلها إلا أن يعفو رب العزة، ثم وصف الجنة وأن لها ثمانية أبواب يبعد كل منها عن الآخر مسيرة سبعين عاماً للراكب، والنار وأن لها سبعة أبواب يبعد كل منها عن الآخر نفس المسافة، ثم يذكر أن فيها أنهار العسل واللبن والماء والخمر والفاكهة والأزواج المطهرة التي لا تلد، وعندما سأله عن أقصى ما يبلغه البشر وما ينتهون إليه لم يجبه لأن ذلك من موت وحساب علمه عند الله لم يطلع عليه أحد من خلقه، وهنا بسط لقيط يده للرسول عليه وآله السلام ليبيعه على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ومعاداة المشركين وتوحيد الله تعالى.. وعندما قال رجل من قريش بأن أباه المنتفق في النار سأل الرسول عليه وآله السلام عن مكان أهله فأكد له الرسول عليه وآله السلام بأن أهله هو أيضاً الذين ماتوا على جاهليتهم وشركهم هم أيضاً في النار.. فسأله لقيط: يا رسول الله، وما فعل بهم ذلك وقد كانوا على عمل لا يحسنون إلا إياه، وكانوا يحسبون أنهم مصلحون؟ فقال (نلك بان الله بعث في آخر كل سبع أمم نبياً، فمن عصى نبيه كان من الضالين، ومن أطاع نبيه كان من المهتدين).

هذا الحديث يؤكد المؤلف رحمه الله صحته للثقة في رواته كلهم، وأن كل ما ورد فيه مما تجمع الأحاديث الأخرى الصحيحة على صحته سواء بالنسبة لمفاتيح الغيب الخمسة: علم الساعة، والأرحام، والغد، والغيث والمنية، أو غيرها مما في الجنة من نعيم.. وأما التأكيد على أن أهله عليه وآله السلام الذين ماتوا على شركهم هم في النار فذلك مما لا يحتاج للجدل بحجة أن ذلك مما لا يوفر التكريم للرسول عليه وآله الصلاة والسلام، كيف ذلك وهو عليه وآله السلام المبلغ لرسالة ربه التي تقرر {وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى}.. وها هو عليه وآله السلام يشرح ذلك وهو يجيب على لقيط بأن ظن الإنسان بأنه مصلح وأنه على الإحسان لا يجعل منه مصلحاً ولا محسناً إذا كان في عمله عاصياً لنبيه وكان ضالاً، وأنهم قد كانوا كذلك في جاهليتهم إذ بدلوا عقيدة التوحيد واستبدلوا بالصنمية والشرك وعبادة الأنداد..

ووفد عليه صلى الله عليه وآله وسلم وفد النُّخَع في مائتي رجل مقرين بالإسلام بعد أن كانوا بايعوا معاذ بن جبل، فأخذ رجل منهم اسمه زرارة بن عمرو يعرض على الرسول عليه وآله السلام ما رأى من رؤى في طريقه من العجائب والرسول عليه وآله السلام يفسرها له وكان آخرها نار تخرج من الأرض فتحول بينه وبين ابنه عمرو وهي تصرخ: لظى لظى، بصير وأعمى، أطعموني آكلكم وأهلكم ومالكم، فقال له الرسول عليه وآله السلام (تلك فتنة تكون في آخر الزمان) قال يا رسول الله، وما الفتنة؟ قال (يقتل الناس أمالهم ويشترجون اشتجار أطباق الرأس، ويكون دم المؤمن عند المؤمن في أحلى من شرب الماء، وإن مات ابنك أدركت الفتنة، وإن مت أنت أدركها ابنك) فقال: يا رسول الله، أدع الله أن لا أدركها، فقال له رسول الله عليه السلام (اللهم لا يدركها) فمات وبقي ابنه وكان ممن خلع عثمان رضي الله عنه.

فهذا التعبير الأول دليل على أن أمثال ذلك ليس ببعيد عن الشرع، وليس كل أحلام هي أضغاث بل منها ما يدل على أمر خاص بصاحبه أو يتعداه إلى الآخرين.

وأخيراً يورد المؤلف رحمه الله مجموعة من كتب الرسول عليه وآله الصلاة والسلام إلى رؤساء الأقوام في ذلك الوقت: إلى هرقل، وكسرى الذي مزق الكتاب فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (مزق الله ملكه) فتمزق، وإلى النجاشي الذي أسلم وكتب للرسول عليه وآله السلام، وإلى المقوقس ملك مصر والاسكندرية والذي لم يسلم ولكنه رد رداً حسناً أرفقه بهدية من جاريتين هما مارية وسيرين وبكسوة وبغلة، وإلى المنذر بن ساوى أمير البحرين فأسلم وكتب بذلك للرسول عليه وآله السلام وكتب إليه وثبته على بلده وأمره بأخذ الجزية ممن رفض الإسلام من اليهود والمجوس من قومه، وإلى ملك عُمان جيفر وأخيه عبد فاستجاب عبد أولاً وتمنع أخوه جيفر، وبعد نقاش طويل مع مرسل الرسول عليه وآله السلام عمرو بن العاص استجاباً وأسلم، وإلى هوذة بن علي صاحب اليمامة فأجاب برد حسن ولكنه لم يسلم وأخبر جبريل عليه السلام الرسول عليه وآله السلام بموته وقال (أما أن اليمامة سيخرج بها كذاب يتنبأ يقتل بعدي)، وإلى الحارث بن أبي شمر الغساني بعد الحديبية، وقد تقدم ذكره.

ولو تدبر المتدبر هذه المكاتبات لوجدها تراعي في أسلوب خطابها ودعوتها وبياناتها كل مخاطب بحاله، فصاحب الكتاب من النصارى: من هرقل والنجاشي والمقوقس كان خطابهم بتذكيرهم بما عليه كتابهم الإنجيل، وأصحاب الإمارات سواء من الفرس أو الروم خاطبهم بما يدعوهم للإسلام ويبقيهم على إماراتهم.

وأما أسوأ الردود فقد جاء من كسرى ملك عبدة النار والمجوس، فقد بادر لتمزيق كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاستحق أن يدعو عليه وآله الصلاة والسلام على مملكته بالتمزيق، وبالفعل لم يطل به المقام حتى انتهت إلى التمزيق قبل أن ينتهي العهد الراشدي.

وقد لوحظ كيف أن حب الرئاسة والملك كان العامل الحاسم لدى كثير ممن كتب إليهم وجعلهم يرفضون الاستجابة، وإن كان هرقل قد بدر منه ما يدل على استعداده للاستجابة لولا سطوة رجال الكنيسة، وهذا ما حصل من النجاشي الذي كتب إليه الرسول عليه وآله السلام وهو غير النجاشي الذي أسلم وصلى عليه الرسول عليه وآله السلام كما أوضح صحيح مسلم.

وقد ظهر حب الرئاسة على ملك عُمان الذي طال تردده قبل إعلان الإسلام.. وأما أنتم يا حكام المسلمين اليوم فهل أنتم منتهون عما أنتم عليه من محاربة الإسلام وحملة دعوته لأن حاكم للكراسي والجاه والمنصب لن ينفعكم غداً.

الجزء الرابع - من زاد المعاد..

الطب النبوي

المرض نوعان: مرض القلوب، ومرض الأبدان. ومرض القلوب نوعان: مرض الشك ومرض الشهوة. أما الشك {في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً} - ١٠ البقرة - وأما الشهوة {يا نساء النبي لستن كأحد من النساء أن اتقين فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض} - ٣٢ الأحزاب.

فمرض الشك والشبهة هو الشائع بين المسلمين في هذا العصر بسبب حملات التشكيك الدائم في دينهم، ولن ينتهوا منه إلا بالوعي السليم على الدين، وبرؤية عدل تطبيق الشريعة في حياتهم مما يحميهم من الداخل والخارج من أسباب التشكيك.. وأما مرض الشهوة فالشهوة فطرة في الإنسان مسلماً كان أو كافراً ولكن أن تستخدم جميع وسائل الإعلام والترفيه لترويجها بل لجعلها هدفاً يسعى له المسلم كالكافر سواء بسواء فهذا هو الذي يحيل المسلم إلى حيوان لا يتردد في الركن وراء ملذاته وشهواته وبالذات الجنسية، الأمر الذي يحيلها إلى مرض، ولكن العلاج لن يكون إلا بالأمرين اللذين عولج بهما مرض الشك والشبهة وهما العلم الواعي السليم فردياً، وتطبيق الشريعة في الحياة اجتماعياً.. وعندها كما يتحول مرض الشك إلى الندرة كذلك يصبح

مرض الشهوة أكثر ندرة، كيف لا والدولة الإسلامية، ترعى الشباب بإعاتهم على الزواج المبكر متى عجزوا.

وأما مرض الأبدان {ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج} - ٦١ النور - وأمراض البدن ثلاثة وتحتاج إلى ثلاثة أصناف من العلاج: فإما لحفظ الصحة {فإن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر}، أو للحماية من الأذى {وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط، أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً} - ٤٣ النساء -، أو للتخلص من المادة الفاسدة {فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك} - ١٩٦ البقرة - . وأما العلاج لهذه الأمراض فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم (إن الله عز وجل لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه وجهله من جهله) فالقول بأن المرض قدر لا نملك له علاجاً ولا يجوز أن نتداوى منه هو قول الكفار الذين قالوا {لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا} - ١٤٨ الأنعام - وقولهم {لو شاء الله ما عبدنا من دونه شيء نحن ولا آباؤنا} - ٣٥ النحل -، فالأمر بالتداوي أمر بالأخذ بالأسباب التي قدر فيها تعالى الشفاء للأمراض، فهو أخذ بالقدر مما لا يتنافى مع التوكل بل هو التوكل عينه، وهذا ما يكشفه جواب الرسول عليه وآله السلام على أبي خزامة عندما سأله عليه وآله السلام: يا رسول الله، أرأيت رقى نسترقها، ودواء نتداوى بها، وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال عليه وآله السلام: (هي من قدر الله)، كما يوضحه أمره عليه وآله السلام بشأن وباء الطاعون (إذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه)، ويوضحه فهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما قدم من الحجاز إلى بلاد الشام فوجد فيها الوباء فأحتج على رجوعه عنها وعدم دخولها أبو عبيدة قائلاً: يا أمير المؤمنين أفراراً من قدر الله تعالى؟ فأجابته: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفر من قدر الله تعالى إلى قدر الله تعالى. وضرب له مثلاً توضيحياً فقال: أرأيت لو كان لك إبل فهبطت وادياً له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة، ألسنت إن رعيتها الخصبة رعيتها بقدر الله تعالى وإن رعيتها الجدبة رعيتها بقدر الله تعالى؟

ولاشك أن في هذا أنصع بيان لمفهوم القدر في العقيدة الإسلامية، وأنه هو ما خلقه الله تعالى من قدرات وخصايص في الأشياء، مما علمها من علمها من الأطباء وجهلها من جهلها، ولا بد للمريض من البحث عن الدواء المناسب لمرضه لدى أي طبيب أخصائي يمكنه ذلك، وإلا كان متكللاً لا متوكلاً، ناهيك عن إجراء الحجر الصحي.

والرسول عليه وآله السلام عندما أمر بالاحتماء من التخمة قال (ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا بد فاعلاً فثلاث لطعامه، وثلاث لشرابه، وثلاث لنفسه) فإنه عليه وآله السلام تحدث عن الإنسان كإنسان لا كمسلم لأن هذا الأمر يشمل الناس جميعاً، وبين الوضع السليم صحياً له بصدد كمية تناول الطعام ليتجنب التخمة ومضاعفاتها.

والطب المعاصر بعد كل اكتشافاته يؤكد هذا المعنى الذي أوصى به الرسول عليه الصلاة والسلام. انه {وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى} - ٣ و ٤ النجم

وهو عليه وآله السلام عندما يقول (إنما الحمى أو شدة الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء) فإنه وبين ما يفعله الأطباء اليوم عندما يهبون لأنقاذ المريض وخاصة الطفل إذا كان شديد الحمى وذلك بوضع كمادات من الماء البارد بشكل متواصل على جبهته إذا كان كافياً وإلا على أماكن أخرى إذا لم يكن كافياً. وبالطبع فإن هذا لا يمنع من مصاحبة ذلك بالأدوية المناسبة للمرض بسبب هذه الحمى.

وهذا ما تأكد من سلامة فعله أطباء العصر الحاضر ولا سيما مع قوله عليه وآله السلام (الحمى قطعة من النار فأبردوها عنكم بالماء البارد).

وهو عليه وآله السلام عندما كان يكرر لمن استطلق بطنه (اسقه عسلاً) ثلاث أو أربع مرات، حتى قال في الأخيرة (صدق الله وكذب بطن أخيك)، كان يؤكد صحة وصفه له بشرب العسل، وبعده كاف من الجرعات حتى تأتي بالمفعول اللازم.

وهو حال وصفات الأطباء اليوم بتناول الدواء المناسب بعدد معين من الجرعات تكفي للقضاء على أسباب المرض.

وهو عليه السلام يقول لرهط عرينة وعكل الذين اجتوا فانتفخت بطونهم بمرض الاستسقاء في المدينة (لو خرجتم الى إبل الصدقة فشريتم من أبوها وألبانها) - الحديث - كان يؤكد لهم الشفاء أين، وأنهم بالفعل شربوا البول واللبن فتمثلوا للشفاء..

فهذا دليل على جواز تناول البول مع أنه نجس في العلاج على قول مما يخرج من الحرمة الى الكراهية، وإن قيل بجواز أو عدم حرمة بول ما يجوز أكله. وهذا مما ينطبق على جواز تناول أي مادة نجسة للاستشفاء، فمثلاً: الكحول مادة مطهرة من الجراثيم ولكنها مادة مسكرة كالخمر فيجوز استخدامها للتداوي مع الكراهية .

وهو عليه السلام يوصي (الشفاء في ثلاث: شربة العسل، وشرطة محجم، وكية نار، وأنا أنهى أمتي عن الكي) فإنه عليه وآله السلام يشير الى أدوية أو معالجات تنفع في حق الكثير أو الغالب من الأمراض التي كانت شائعة في بلاد الحجاز، وهي مما يسمى اليوم بأصل من أصول الطب العربي أو الطب النبوي للأمراض المستوطنة.

فلاشك أن للعسل حسب هذا الطب العربي الذي أخذ الأطباء يعودون اليه كثيراً ولا سيما بصدد الكثير من الأمراض الباطنية، له التأثير الفعال سواء كان منفرداً أو ممزوجاً مع غيره من ماء أو أعشاب، وكذلك الحال بالنسبة للحجامة وما يشبهها من الفصد الذي يجري اليوم بأسلوب سحب الدم بالابرة من الوريد، الأمر الذي يخفف ضغط الدم وينقذ الكثير من مرضى هبوط القلب الشديد كما ذكر الدكتور عادل الأزهرى، وأن أفضل أوقات الحجامة أو الفصد عندما يكون الجسم بحاجة لها وليس في أي وقت، وكذلك الأمر بالنسبة للكي فهو آخر الدواء ولا يلجأ له إلا عند الضرورة.

والرسول عليه وآله السلام يخير المرأة التي جاءته تقول: أني أصرع، وإني أتكشف، فادع الله لي، فقال (إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله لك أن يعافيك) فقالت: أصبر، وقالت: فإني أتكشف، فادع الله أن لا أتكشف، فدعا لها. فإنه عليه وآله السلام كان يشير إما الى مرض الصرع بسبب الأرواح الخبيثة، وإما إلى مرض الصرع بسبب ما يلحق الدماغ من ضرر، ولذلك خيّرهما بين الصبر وجزائه الجنة وبين الدعاء لها بالشفاء وجزاؤها بأعمالها بعدئذ، فاخترت الصبر، وهذا مما يرجح أنه مرض الدماغ، وأما مرض الروح الخبيثة فقد حدث يعلى بن مرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أتته امرأة بابن لها قد أصابه لم فقال له النبي عليه السلام (أخرج عدو الله، أنا رسول الله) قال: فبرأ، فأهدت له كبشين وشيئاً من أقط وسمن فقال رسول الله عليه السلام: (يا يعلى، خذ الأقط والسمن، وخذ أحد الكبشين ورد عليها الآخر).

فهذا ما يؤكد صحة هذا النوع من الصرع والذي اشتهر بعلاجه عيسى عليه السلام كأحدى معجزاته التي يشير إليها القرآن الكريم. وأما الصرع الآخر فهو معلوم معروف لدى الأطباء في كل العصور، وهو أنواع وله أدوية غالباً ما تهدنه ولا تقضي عليه إذا كان من النوع المزمن.

وهو عليه وآله السلام يقول (دواء عرق النسا ألية شاة أعرابية تذاب، ثم تجزأ ثلاثة أجزاء، ثم يشرب على الريق في كل يوم جزء) فإنه وإن كان جرى مجرى العموم لكنه في خصوص أهل الحجاز والبادية مما يناسبهم هذه الوصفة لضعف أجسامهم وأن في الألية ما يلينها ويجري الإسهال في البطن فيتخلص العرق المدعو النسا من يبوسته ويعود لحالته السليمة.

إنها وصفة لهذا الصنف من الناس لهذا المرض أن يقدم عليه، وهو بلاشك محقق له الشفاء بإذن الله وعونه، وأما عامة الناس فقد حدد الطب لكل حالة من حالات هذا الألم العلاج الخاص به لأنه إما أن يكون بسبب انزلاق غضروفي في أسفل العمود الفقري أو التهاب روماتيزمي في العصب الإنسي، وعندها لا بد له من الراحة التامة بالاسترخاء على الظهر لمدة خمسة عشر يوماً على الأقل مع تناول المهدئات كالأسبرين، وأما الحجامة الجافة والكي فهما يساعدان أحياناً على العلاج.

وكذلك قوله عليه السلام (لو كان شيء يشفي من الموت لكان السنن) والسنن نبت حجازي مسهل، فإنه عليه السلام كان يتحدث عما هو الأنسب للحجازيين وأمثالهم، وخلطه مع العسل المخالط للسمن هو الأفضل لإصلاح السنن والإعانة على الإسهال.

فهذه وصفة يعرفها بحق ما يسمى بالطب العربي وهو في الحقيقة الطب النبوي.

وهو عليه وآله السلام يصف ويرخص لعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام رضي الله عنهما في لبس الحرير لحكة كانت بهما فإنه نبه لحكم الشرع (إن الله أحل لإناث أمتي الحرير والذهب وحرمه على ذكورها). فإنه عليه وآله السلام كان يرخص في ذلك لضرورة العلاج من مرض كما رخص بشرب البول لذلك.

وفي هذا بيان يجمع فيه وآله السلام التشريع لأمرين اثنين في آن واحد في حق عدم الجواز مع عدم وجود أسباب الرخصة في لبس الحرير والذهب معاً بالنسبة للرجال وهما المحرمان كملبس في الأصل لهما والمحللان للنساء فقط.

وهو عليه وآله السلام يقول (تداووا من ذات الجنب بالقسط البحري والزيت) فإنه عليه وآله السلام يشير الى مرض يصيب الإنسان في جنبه، وهو إما أن يكون ناتجاً عن مرض حقيقي هو التهاب الرئة، وإما أن يكون بسبب ضغط غازات البطن، والأول يحتاج لأدوية منها ما ذكر لوجوده متوفراً في ذلك الوقت أو ما يستخدم اليوم من المضادات الحيوية كحقن البنسلين، وأما الثاني فيكفي فيه ما ذكر.

وفي هذا إشارة لما كان عليه هذا المرض في ذلك الوقت لمحدودية وفردية الغذاء وعدم اللجوء للأغذية المركبة.

وعند بيانه عليه وآله السلام لعلاج الصداع والشقيقة كان يقول عن الحناء (أنه نافع بإذن الله من الصداع) فكان كلما أصابه الصداع يغلف رأسه بالحناء. ولكن لما كان للصداع أسباب كثيرة فهذه الوصفة تنطبق على نوع معين من الصداع وليس على جميع الأنواع، كما أنه عليه وآله السلام كان يعصب رأسه كلما دهمه الصداع. والحناء بما فيه من قوة قابضة نافع من الحروق والجروح وتشقق الأظافر وثبور الفم واللسان وتقوية الشعر وبنور الساقين والرجلين وسائر البدن.

فكم هي فوائد الحناء كثيرة سواء كشراب يغلى أو مرهم يدهن أو مسحوق يرش أو محلول يعض به.

وهو عليه وآله السلام يدعو الأطباء وذوي المرضى لعدم إعطاء المرضى ما يكرهونه من الطعام والشراب فإنه يقول (لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب، فإن الله عز وجل يطعمهم ويسقيهم) يقر الأطباء بعظيم الفوائد في ذلك منها حماية الجسم من مضاعفة المرض بسبب هذا الطعام والشراب، كما أن في قوله عليه السلام (فإن الله عز وجل يطعمهم ويسقيهم) إشارة إلى ما فطر الله تعالى الأجسام عليها من قدرة على تحمل الجوع والعطش وبالذات عن رغبة أثناء المرض تشغله أي المريض عنهما معاً ريثما تتمكن أجهزته ولا سيما بما تعطى من أدوية وعلاجات من الانتصار على أسباب المرض، بينما قد تكون الأطعمة والأشربة مساعدة للمرض على البقاء والمضاعفة.

إنها إشارة لطيفة الى الفطرة التي فطر الله الأجسام عليها إذ يظهر من غريزة البقاء ظاهرة الكره للطعام والشراب أثناء المرض، ولكنه ما أسرع ما يقبل على الدواء الموصوف ولا سيما من مصدر ثقة بالرغم من أنه قد يكون مرّاً وصعباً على الابتلاع..

وهو عليه وآله الصلاة والسلام يصف علاج احمرار الحلق أو التهابه وبالذات لدى الأطفال (خير ما تداويتم به الحجامه، والقسط البحري، ولا تعذبوا صبياتكم بالغمز من العذرة) والعذرة هي احمرار أو احتقان الحلق أو التهابه، فهو عليه وآله السلام أمر باستخدام العود الهندي ببرشه أو طحنه في الماء ثم تسعيط المريض به.

ذلك أن مثل هذا العلاج هو المنقذ للطفل بدلاً من إسالة دمه وتعرضه للنزيف، فالعطاس من السعوط كان وما زال يطرد ما تجمع من أسباب المرض في الحلق فيعمل عمل الغسل المطهر.

وعند حديثه عليه وآله السلام عن علاج المفوود أي المصاب بمرض في فؤاده كالمبطون الذي يشتكي بطنه قال لسعد (إنك مفوود فأنت الحارث بن كلدة من ثقيف فإنه رجل يتطبب، فليأخذ سبع تمرات من عجوة المدينة فليجأهن بنواهن، ثم ليلدك بهن) فإنه عليه وآله السلام يحدد تمر المدينة، فيطحن مع نواه، ويشرب، وعندها يشفى المريض بإذن الله. وهذا ولاشك يفيد لسكان الحجاز ولكل من شابههم..

وما أعظم قوله عليه وآله السلام (من تصبغ بسبع تمرات من تمر العالية لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر) لما في تمر تلك المنطقة من المدينة ولا سيما إذا مزج بالنوى المطحون من الفوائد. وعند تشكيل الغذاء بشكل يصبح مفيداً كامل الإفادة فإنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يأكل الرطب بالقتاء ليتكامل الاثنان في الفائدة الصحية، حتى قالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها بأن أي شيء آخر غير القثاء والرطب لم يساعد على تسمينها.

إنها إشارة لطيفة لهذا التعديل أو المزج بين الرطب والقتاء عندما لم ينجح أي طعام آخر في إعطاء السيدة عائشة رضي الله عنها السمنة المرجوة لها.

وعندما قال صلى الله عليه وآله وسلم لعلي رضي الله عنه عن طعام من شعير وسلق (من هذا أصب، فإنه أنفع لك) فإنه عليه وآله السلام كان ينبهه الى ضرر أكل الرطب الكثير على الناقة من المرض لأن معدته وجسمه لم يتكامل قوة وصحة بعد، وعندما سمح عليه وآله السلام لصهيب أن يأكل قليلاً من التمر وهو أرمد بينما أراد له أن يأكل الخبز مع التمر فإنه كان يشير الى أفضلية ما يلزم للمريض، مما يبين كيف تكون الحمية نافعة للناقة والسليم.

وقد ظهر ذلك جلياً عندما كان يسأل المريض عما يشتهي فيقول (إذا اشتهى مريض أحدكم شيئاً فليطعمه) لأن الصحة مع الاشتهاء تتكامل بعكس كراهة الطعام.

وها هو عليه السلام يدعو لقلّة الحركة والحمية علاجاً لرمد العين، فكان لا يأتي المرأة من نسائه حتى تبرأ عينها، وحمى صهيباً المرمد من التمر وكذلك علي.

فعلم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه زوجته المرمدة بأن تفعل ما يفعله الرسول عليه وآله السلام: تتضحين في عينيك الماء ثم تقولين (أذهب البأس رب الناس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً).

ووصف عليه وآله السلام علاجاً للخدر الكلي (قرسوا الماء في الشنان، وصبوا عليهم فيما بين الأذنين) بأن يبردوا الماء في القرب ويسكبوه على من خدرتهم أكلتهم من شجرة فيما بين أذان الفجر وإقامة صلاته، مشيراً الى ما يحتاجه الجسم

المخدر من الاستثارة بالماء البارد، والذي يكون في أبرد حالاته مع الفجر، وعندها تستعيد الأعصاب نشاطها ويختفي ما أصابها من خدر.

وعند وصف الذباب (إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فامقلوه، فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر شفاء) وفي نص آخر (أحد جناحي الذباب سم والآخر شفاء، فإذا وقع في الطعام فامقلوه، فإنه يقدم السم ويؤخر الشفاء) يوضح عليه وآله الصلاة والسلام ما في هذا النوع من الذباب السام من نفع..

ولاشك أن هذا نوع معين من الذباب وليس كل الذباب، وسبحان الله العزيز الحكيم الذي علم رسوله عليه وآله السلام بذلك..

ووصف عليه وآله السلام (الذريرة) وهي دواء هندي يتخذ من قصب الذريرة على شكل مرهم، وكان يستعمل من الطيب حتى قالت عائشة رضي الله عنها: طببت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيدي بذريرة في حجة الوداع للحل والاحرام، كما كانت تستخدم لانضاج البثور الجلدية.

وذكر (القانون) لابن سينا بأنها أفضل دواء لحروق النار وخاصة إذا مزجت مع دهن الورد والخل.

وعند بيانه عليه وآله السلام لكيفية علاج الأورام والخراجات التي جمعت الصديد قال (بُطُوا عنه) أي شقوه في جراحة طبية تخرج الصديد وتمنع من تجمعه في العضو ثانية يبين عليه وآله السلام نوع العلاج اللازم الذي يمارسه الأطباء حتى في العصر الحاضر وخاصة لأنواع معينة من الأورام كالخراجات، وأما الإستسقاء وهو جوى البطن فمنه ما ينفع معه البزل وهو بمنزلة الفصد ومنه ما هو خطر عليه.

وفي ذلك إشارة عامة تنفع في حق الخاص من الأورام والخراجات ولاشك.

وفي عيادة المريض والدعاء له قال عليه وآله الصلاة والسلام (إذا دخلتم على المريض فنفسوا له في الأجل فإن ذلك لا يرد شيئاً وهو يطيب نفس المريض).

ولاشك في تطيب نفس المريض ما يعينه على مرضه، كيف لا والرسول عليه وآله السلام دعا له وعلمنا الدعاء (لا بأس، طهور إن شاء الله) كما كان يسأل عن حاله وما يشتهي ويضع يده على جبهته ويصف له ما ينفعه.

وكان عليه السلام يراعي عادة البدن في تناول الأطعمة والأغذية فيصف للمريض من الدواء ما اعتاده، وهذا المعنى الذي ذهب إليه طبيب العرب الحارث بن كلدة عندما قال: الحمية رأس الدواء، والمعدة بيت الداء، وعودوا كل بدن ما أعتاد...

فمتى اعتاد الجسم على المواد الصلبة أو السائلة أو المزج بينهما كان الدواء المناسب لذلك هو الموافق لذلك في علاج أمراضه الباطنية بالذات والتي تبدأ من المعدة موضع هذه الأطعمة والأشربة الأولى.

كما كان عليه وآله السلام يصف من الغذاء ألطف ما اعتاد عليه من الأغذية، كما يصف ذلك لأهل الميت (التلبينة مجمة لفؤاد المريض، تذهب ببعض الحُزْن) و (عليكم بالتلبينة فحسوه إياها) ويقول عنها (والذي نفسي بيده إنها تغسل بطن أحدكم كما تغسل أحداكن وجهها من الوسخ)...

والتلبينة حساء دقيق الشعير لأنهم كانوا معتادين عليه لا على الحنطة التي هي تناسب من اعتاد عليها، وهذا في حق المريض، وأما بشأن أهل الميت فإنها (تذهب ببعض الحزن) لما تفعله من غسيل للمعدة وراحة للحزين.

وعندما أهدت له امرأة يهودية من خبير شاة مشوية مسمومة أكل هو والصحابة منها ثم قال لها عليه وآله الصلاة والسلام (هل سممت هذه الشاة؟) قالت: من أخبرك بهذا؟ قال: (هذا العظم لساقها) قالت: نعم. قال (لم؟) قالت أردت إن كنت كاذباً أن يستريح منك الناس وإن كنت نبياً لم يضرک، قال: فاحتجم النبي عليه السلام ثلاثة على الكاحل، وأمر من أكل من أصحابه أن يحتجموا، فاحتجموا ولكن مات بعضهم.

لقد كان عليه وآله الصلاة والسلام يحدد علاج المسموم بإخراج الدم الذي خالطه السم بالحجامة، فتجري مع الاستفراغ الذي يصفه الأطباء بتناول محلول الملح مما يسمونه بغسيل المعدة، وبعدها إعطاء المسموم مسهلاً لتنظيف أمعائه مما انتقل إليه من السم، إنه التسمم الغذائي بالمصطلح المعاصر، فالحجامة تطرد الدم الذي وصله السم، والاستفراغ يطرده من المعدة، والإسهال يطرده من الأمعاء وعندها يرجى من الله الشفاء، وأما لو قضى الله تعالى الموت على المسموم فسبق السم إلى القلب والدماغ فقد انتهى كل شيء.

وفي علاجه عليه وآله السلام لنفسه ضد السحر بالحجامة أولاً لأنها كانت من أبلغ الأدوية، ولكنه عندما أوحى إليه بأن ما فيه من الدوخة أو التخيل أحياناً كان من السحر، وعندها عدل إلى العلاج الحقيقي وهو استخراج السحر وإبطاله فسأل الله سبحانه فدلّه عليه فاستخرجه من مشط ومشاطة شعر من شعره كانت مخفية في وعاد طلع ذكر من النخل، وعندها ذهب ما به وعاد إلى حالته السوية..

مما يدل على أنه ليس بمستغرب ما يقوم به الناس من معالجات هذه النوبات بأنواع من الأدوية يرجى برؤهم بها، ولكن إن كان بالفعل ما بهم هو السحر فلن ينفع في علاجه إلا استخراجها، مما يدل على جواز اللجوء لمن يقدر على ذلك، والمعروف أن السحر له تأثيره على الناس ولكنه يختلف من إنسان إلى آخر فيكون ضعيفاً لأصحاب القلوب الكبيرة القوية ويكون قوياً لتلك المتعلقة بضعفها من الشهوات والدنيويات.. هذا وقد طعن في قصة سحر النبي عليه السلام هذه لأنها من جهة تتناقض مع حماية الله تعالى له ومع سلامته في وعيه من جهة أخرى ليسلم تبليغه لرسالة ربه..

وكان عليه وآله السلام يلجأ للقيء أحياناً، ويتوضأ بعده وضوءه للصلاة.

ومن الثابت طبعاً أن للقيء أسباباً كثيرة منها غلبة الصفراء أو البلغم أو الأكل الرديء، وأنه أحد الاستفراغات الخمسة: الاسهال والحجامة أو الفصد والعرق والأبخرة، وأنه قد يلجأ إليه بقصد وخاصة في الصيف أو الربيع، فهو ينقي المعدة ويقويها ويخلص الجسم من كثير من الآلام.

وكان عليه السلام يقول (أرسلوا إلى طبيب) فيسأله من سمعه: وأنت تقول ذلك يا رسول الله؟ فيقول (نعم، إن الله عز وجل لم ينزل داءً إلا أنزل له دواء) وفي نص آخر (إن الله لم يضع داءً إلا وضع له دواء) مما يؤكد ضرورة البحث عن الطبيب الحاذق العالم بالمرض، وذلك بدليل سؤاله في موقف آخر: (أيكما أطب؟) فأجاب المسؤول: أو في الطب خير يا رسول الله؟ فقال مجيباً عليه: (أنزل الدواء الذي أنزل الداء)..

وهذا ما يحسم تردد الزاعمين بعدم اللجوء للطب طلباً للاستشفاء، ويدل الجميع على ما يلزمهم عند طلب الدواء من البحث عن أحق الأطباء.

وعند دعوته عليه وآله السلام للمرضى بالبحث عن أحق الأطباء حمل الطبيب الجاهل أو المتحاذق ضمان ما فعل وأتلف أو أساء فقال (من تطب ولم يعلم منه الطب قبل ذلك فهو ضامن) مما يوضح مسؤولية الطبيب متى تبدأ ومتى تنتهي.

فالطبيب الحاذق لا يضمن ما أذن له في علاجه وإن كان أبو حنيفة ضمنه، وأما أحمد ومالك فلم يضمناه، وأما الشافعي فقد فرق بين المقدر، ورأه بمنزلة النص، وغير المقدر كالتعزير والقصاص أو التأديب، ورأها اجتهادية فضمنه في الثانية ولم يضمنه في الأولى، وأما الطبيب الجاهل فيضمن مالم يؤذن به ولا يضمن ما أذن له في طبيه، وأما الطبيب الحاذق المأذون فيضمن ما أخطأ فيه كجناية خطأ، وكذلك يضمن مالم يؤذن فيه عند الخطأ وإحداث التلف وإن كان قد يسقط الضمان عند إحسان العمل وظهور مضاعفات غير متوقعة، والمهم أن يراعي الطبيب الحاذق أسباب العلاج السليم الكثيرة المادية والنفسية.

وعند نهيه عليه وآله السلام من مخالطة المرضى بأمراض معدية مثل قوله للمجنوم (ارجع فقد بايعناك) وقوله (فر من المجنوم كما تفر من الأسد) وقوله (لا يوردن ممرض على مصح) فإنه عليه وآله السلام يحدد الأمراض ويزجر من مخالطة أهلها، وأما الأمراض غير المعدية فيقول بصدها (لا طيرة ولا عدوى)..

مما يؤكد ما توصل إليه الطب المعاصر من الأمرين وينفي أي تعارض بين الأحاديث الواردة في هذا المجال عن الرسول عليه وآله الصلاة والسلام.

وعندما نهى صلى الله عليه وآله وسلم عن التداوي بالمحرمات فقال (إن الله أنزل الداء والدواء، وجعل لكل داء دواء، فتداووا ولا تداووا بالمحرم) وقال عن شراب الخمر (إنه ليس بدواء ولكنه داء) وعن الخمر (أنها داء وليست بالدواء) وقال (من تداوى بالخمر فلا شفاه الله) فإنه عليه وآله الصلاة والسلام كان يؤكد ما رواه أبو هريرة عنه: نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الدواء الخبيث.

ولكن إذا تحدد الدواء بمحرم كالبول النجس فحكم الشرع فيه ليس بالإباحة وإنما الجواز مع الكراهية، وفي ذلك تأكيد أن سلامة الأبدان مقدمة على سلامة الأديان حيث رخص الشارع الحكيم وإن كان على سبيل الكراهة.

وقد أمر صلى الله عليه وآله وسلم كعب بن عُجرة، وكان محرماً للحج أن يحلق رأسه، وأن يطعم فرقاً بين ستة، أو يهدي شاة، أو يصوم ثلاثة أيام وذلك لما رأى عليه من القمل الكثيف على رأسه حتى قال (ما كنت أرى الجهد قد بلغ بك ما أرى)، كما أنه عليه وآله السلام حلق رؤوس بني جعفر بسبب القمل.

وهذا مما يدل على جوازه للمحرم بشرط إخراج الكفارة أو صوم ثلاثة أيام لأن الحلق أصلاً ممنوع للحاج أو المعتمر إلا عند التحلل.

وحدد عليه الصلاة والسلام علاج العين التي وصفها (العين حق، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين) فقال (علام يقتل أحدكم أخاه، ألا بركت، اغتسل له) كما رخص في الرقية من الحمة والعين والنملة، وقال أيضاً (إن العين حق، توضع له)..

فكان (اللهم بارك عليه) دعاء التبريك لإذهاب العين، كما كان قول (ما شاء الله لا قوة إلا بالله) من هذا الدعاء، كما كان من الرقية (باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك، باسم الله أرقيك) وهي رقية جبريل عليه السلام للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، كما أن يغتسل العائن ويصب ماء غسله على المعين من رأسه من الخلف، كما أن يحجب مواطن الملاحظة خشية العين كما فعل عثمان رضي الله عنه عندما رأى صبيّاً مليحاً فقال: دسموا نونته، أي سوّدوا نقرة ذقنه لتحجب العين عنه، كما تقرأ آية الكرسي والمعوذتان عليه، كما قال مجاهد: لا بأس أن يكتب القرآن وتغسل الكتابة وتسقى للمريض..

وهو عليه وآله السلام يقول (لا رقية إلا في نفس أو حمة أو دم يرقأ) لم يحدد الرقية لهذه الأمور فقط بل كان جوابه لها لأنها كانت موضع السؤال، ولذلك قال (من اشتكى منكم شيئاً، أو اشتكاه أخ له فليقل: ربنا الله الذي في السماء، تقدس اسمك، أمرك في السماء والأرض، كما رحمتك في السماء فاجعل رحمتك في الأرض، واغفر لنا حوبنا وخطايانا أنت رب الطيبين، انزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع، فيبرأ بإذن الله) مما لا يحصر أثر الدعاء والرقية في مرض دون مرض.

إنها رحمة الله تعالى الرحمن الرحيم التي يجدها كل من يطلبها صادقاً مخلصاً سواء طال ابتلاؤه أو قصر، وسواء في الدنيا أو في الآخرة.

وعندما أذن عليه السلام برقية من لدغته العقرب بالفاتحة قال (خير الدواء القرآن) ووضع أصبعه الذي لدغته فيه العقرب في محلول الماء والملح وقرأ مراراً الاخلاص والمعوذتين، كما كان رخص برقية النملة وهي قروح تخرج في الجنين، كما رخص في رقية الحشرات السامة من عقارب وحيات... بقراءة الاخلاص والمعوذتين

وبعض الأذكار بالإضافة لاستخدام بعض الأدوية المناسبة معها (ضع مع دعائك شيئاً من القطران) مما يدل على لزوم أخذ أسباب التداوي جنباً إلى جنب مع الأدعية.

وعندما وجه عليه وآله السلام من به قرحة أو جرح إلى وضع شيء من تراب الأرض عليه ويقول (بسم الله، تربة أرضنا بريقة بعضنا، يشفي سقيمنا بإذن الله ربنا) فذلك كما في بعض الأتربة من خاصيته الدواء.

فما بالك إذا أضيف لذلك التراب اسم المولى عز وجل والدعاء إليه؟!

وعندما اشتكى إليه عليه وآله السلام عثمان بن أبي العاص من وجع يشعر به في جسمه قال له (ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل: بسم الله ثلاثاً، وقل سبع مرات: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذرها). كما علم أهله بما كان يفعله إذ يمسح بيده اليمنى على الواحد منهم ويقول (اللهم رب الناس، أذهب الباس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، اشف شفاء لا يغادر سقماً).

ففي الحاليتين كانت أكمل رقية بما فيها من توسل بالله تعالى وبرحمته وشفائه:

وها هو عليه السلام يقول: (ما من أحد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبي وأخلف لي خيراً منها إلا أجاره الله في مصيبيته وأخلف له خيراً منها) فيتذكر المصاب قوله تعالى {وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون} - البقرة.

ويدرك أن باعترافه بأنه ملك لله وأنه عائد بحسناته وسيناته فقط إلى الله دون أهل ولا مال ولا ملك، وأنه ممن أحبهم الله فابتلاهم (إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى ومن سخط فله السخط، ومن جزع فله الجزع)، وأن (الصبر عند الصدمة الأولى)، وأنه سبحانه الذي يرحم ببلائه ويبتلي بنعمائه، وأنه عندما يكون من هؤلاء الصابرين المحتسبين فسيجد المتعة بما يرضي الله تعالى مهما كان ابتلاء فيخرج من دار الابتلاء هذه وقد صفى معدنه حتى لم يبق فيه شوائب ليلقى الله تعالى وهو راض عنه، وأي شيء يعدل ذلك؟!

وذكر عليه السلام مجموعة من الأدعية لعلاج المكروب والمهموم (لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب الأرض رب العرش الكريم). و (يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث) و (اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت) و (اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي) و (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) و (أعوذ بك من الهم والحزن، والجبن والبخل، والعجز والكسل، وغلبة الدين وقهر الرجال) ففي هذه الأذكار والأدعية ما فيها من التوحيد والتنزيه والتوبة والاستغفار..

وهذا كله مما يجعل العبد خالصاً بين يدي ربه، فلا يرجو إلا رحمته ولا يطلب إلا رضاه، وأي هموم وكروب وغموم وأحزان بعد ذلك تبقى تلازمه؟!

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يعلمهم من الفزع (أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه، وعقابه، وشر عباده، ومن همزات الشياطين، وأعوذ بك رب أن يحضرون) كما يعلمهم أي الصحابة غير هذا من الدعاء عند الفزع.

فإن الفزع حالة نفسية تلحق الإنسان لطارئٍ يحل به، وفي مثل هذا الدعاء تذكير بالقادر على دفعه.

كما كان يعلمهم (إذا رأيتم الحريق فكبروا، فإن التكبير يطفئه)

مما يشير إلى علو النار وشياطينها في الإفساد، وتكبير الله تعالى وذكر علوه وعظمته مدعاة للتقليل من تعالي الحريق وشره وفساده.

وأما قوله تعالى {وكلوا واشربوا ولا تسرفوا} فتعليم لما يقيم البدن من الطعام والشراب بشرط الاعتدال والإسراف وكان المرض، والرسول عليه السلام يذكر أتباعه بالعافية وأنها أجل النعم فيقول (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ) ويقول (سلوا الله اليقين والمعافاة فما أوتي أحد بعد اليقين خيراً من العافية) وفي رواية أخرى (سلوا الله العفو والعافية والمعافاة، فما أوتي أحد بعد يقين خيراً من معافاة): فالعفو من الشرور الماضية، والعافية من الحاضرة، والمعافاة من المستقبلية.

وهل بعد العفو من آثام الماضي، والعافية من شرور الحاضر، والمعافاة الدائمة المستمرة من شرور المستقبل من شيء أفضل وأجزل وأطيب للإنسان؟! فقد كان عليه وآله السلام يأكل ويأدم الطعام من الأغذية المتوفرة، وينوعه فتستوفي الصحة مطلبها وحاجتها ودون إكراه النفس على تناول ما لا تحبه.

وكان عليه وآله السلام يقول (لا أكل متكناً) فلا يعتمد عند الأكل على شيء فيجلس متوركاً ركبتيه ويطن قدمه اليسرى على ظهر قدمه اليمنى فيشعر براحة جسمه كاملة، ويأكل بأصابعه الثلاث، ولا يجمع في أكله بين نوعين قد يسببان الضرر له كاللبن والسمك، ويأمر بالعشاء، وينهى عن النوم على الأكل، ولا يشرب على الطعام، ويشرب العسل ممزوجاً بالماء البارد وليس الفاتر، ويشرب الماء العذب المصفى من الشوائب، ويشرب قاعداً إلا عند الحاجة، ويتنفس في الشراب أي أثناء الشرب ثلاثاً ويقول (إنه أروى وأمرأ وأبرأ)، ويقول (غطوا الإناء وأوكوا السقاء...) وكان ينهى عن الشرب من ثلثة القدح وعن النفخ في الشراب، وكان يشرب اللبن خالصاً تارة ومشوباً بالماء أخرى، وكان يشرب ما ينبذ له من تمر في الماء ثلاثة أيام فقط.

مما يعطي أفضل أنواع مأكله ومشربه عليه وآله السلام بحسب ما توفر لديه واعتاد عليه الناس هناك في الحجاز، كما كان يوضح أفضل أشكال الهينات أثناء الأكل والشرب، وما ذلك إلا للمحافظة على الصحة وتوفير العافية والمعافاة الدائمة...

وكان في ملبسه عليه وآله السلام يلبس الرداء والإزار ويحب لبس القميص ولا تتجاوز القدمين لسهولة الحركة، ويحب اللون الأبيض من ذلك كله، وإن لبس العمامة السوداء والبيضاء، ولبس الخف...

فلم تكن ملابسه عليه وآله السلام تميزه عن غيره من أصحابه في شيء.

وكذلك كان مسكنه عليه وآله السلام: يقيه من الحر والبرد، ويستتر عن العيون، ويمنع من دخول الدواب، وتتوفر فيه التهوية، ورائحته طيبة، وبلا كنيف يسيء لرائحته.

وهكذا كانت نماذج مساكنهم البعيدة عن الزخرفة والتفاخر، واللازمة للعيش المريح المستور من العيون والبعيد عن الأيدي.

وعندما ينام عليه وآله السلام كان ينام أول الليل ويستيقظ في أول النصف الثاني فيقوم ويذكر الله تعالى ويحمده ويستاك ويتوضأ ويصلي، ثم ينام على شقه الأيمن، إذا بدأ به ثم الأيسر عاد إليه، ويذكر الله تعالى في دعائه حتى ينام من ثانية، متجنباً الامتلاء ابتداءً، كما يتجنب النوم في النهار إلا قيلولة الصيف، ولا ينام في الشمس، وكان دعاؤه عند النوم بعد أن يتوضأ وضوءه للصلاة (اللهم إني أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وأجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك، أمنت بكتابك الذي أنزلت ونبئت الذي أرسلت) كما كان أحياناً يقرأ آية الكرسي والإخلاص والمعوذنين، وعند اليقظة يستيقظ مع صباح الديك فيحمد الله ويكبره ويهلله ويدعوه ويستاك ويتوضأ ويصلي إما ركعتي سنة الفجر أو ما قبلهما ثم هما... ثم صلاة الفجر...

فهذا النمط من اليقظة في الليل ومع الفجر وما يصاحبهما من صلاة مما أسنته عليه السلام لأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين في التهجد وقيام الليل بقدر ما يستطيع كل مسلم، ففي ذلك خير الدنيا والآخرة إذ مع النهار ينطلق طالباً رزقه ولا نوم طيلة النهار لينام مبكراً إلا من حاجة أموره وأمور المسلمين إلى السهر، ناهيك عن الرياضة سواء في الجهاد والاستعداد له أو بما يعد الجسد الأعداد اللازم للعافية والمعافاة...

وفي حديثه عليه وآله السلام عن الزواج (تزوجوا فإني مكثر بكم الأمم) و (يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحفظ للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء) و (الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة) وسئل صلى الله عليه وآله وسلم: أي النساء خير؟ فقال (التي تسره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه فيما يكره في نفسها وماله) وقال: (تنكح المرأة لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك)، وقال (لا ينظر الله إلى رجل جامع امرأته في دبرها) وقال (من أتى حائضاً أو امرأة في دبرها أو كاهناً فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم) و (من أتى شيئاً من الرجال والنساء في الأدبار فقد كفر) وقال (لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلاً أو امرأة في الدبر)..

وفي تفصيل ذلك بيان للجماع المفيد بأن يكون بعد هضم الطعام، وأن يكون هو من أعلى زوجته، وأن يكون عن رغبة وانتشار تامين وليس عن تكلف، كما يبين الجماع الضار الذي يأتي عن عكس ذلك كله، كما يبين الجماع المحرم سواء في الأدبار للنساء والرجال أو جماع المحارم أو جماع دون نكاح شرعي.

ويصف المؤلف رحمه الله العشق بأنه مرض من أمراض القلب ولا يصيب إلا من كان قلبه فارغاً من محبة الله ورسوله، وبالطبع ينفي هنا ما روي من فهم الآية { وتخفي في نفسك ما الله مبديه، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه } - ٣٧ الأحزاب - التي تتحدث عن نيته عليه وآله السلام أن يتزوج زينب بنت جحش إذا طلقها زوجها زيد بن حارثة الذي كان يتبناه الرسول عليه وآله السلام قبل أن يحرم التبني ويجيز رب العالمين لرسوله عليه وآله السلام الزواج من زوجة المتبني، كما ينفي حديث (من عشق فعف فمات فهو شهيد) الذي يرويه سويد بن سعيد الحدثاني لأنه حديث ضعيف وموضوع، ويشير إلى مرض العشق بين المتشابهين والمتماثلين من البشر وأن علاجه بين النساء والرجال هو الزواج إذا كان مما يجوز بينهما ذلك، وأما إذا كان مما لا يجوز فالإياس من المعشوق واستبداله بغيره إما كرهاً فيه وإما محبة لغيره هي العلاج..

فهذا الأمر ليس بأكثر من كثرة التعلق النفسي بين الرجال والنساء بدافع غريزة النوع التي من مظاهرها التجاذب بين الجنسين من أجل التزاوج والإبقاء على نوع الإنسان. وأما أن يتحول التجاذب إلى تعلق شديد فهذا ولاشك ممكن الحصول بين الجنسين، ويبقى على شدته ما دام هناك مانع من الزواج ولم يحل البديل في نفس المتعلق، وأما إذا تزوجا أو حل البديل فما أسرع أن يضعف هذا التعلق النفسي العاطفي ويذوي بعد أن يصل إلى مرغوبه ويشبع منه رغبته ويصبح ينظر إليه بتعقل، فيفكر ويقدر، وليس بشهوة تعمي التفكير والتقدير كما كان مع المنع ولا سيما عندما كان يترك لشهوة الرغبة أن تسير عقله، وأما عندما يصبح إما لتقدم السن وإعمال الفكر يترك لتفكير العقل القيادة وجعله المسير لشهوة الرغبة فإنه يضع ذلك التعلق أو الرغبة الشديدة في الشهوة الجنسية موضعها. وأما إذا لم يستطع أن يفعل ذلك فإنه قد عجز عن جعل عقله قائداً لسلوكه وأحاسيسه ورغباته وشهواته، ولا يكون الإنسان، رجلاً أو امرأة عاجزاً هكذا إلا عندما تسيطر الشهوة الجنسية على العقل وتستبد به وتحرمه من أي تفكير إلا بها، وهذا هو الجنون أو نوع من أنواعه.

فتعلق الأم بولدها لا يسمى عشقاً وإنما هو محبة الإنسان لبعض منه، وهو محبة الوالد لولده، وأما قوله عليه السلام (الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها إنترف، وما تناكر منها اختلف) فإنها إشارة إلى أصل ما يجري بين الناس من تآلف ومحبة، وهو قد يتحول بين جنسين مختلفين إلى عشق وقد لا يتحول تبعاً لشدة التآلف وعدمها بينهما، والعشق هذا لا يصبح مرضاً أو مشكلة إلا إذا كان بين طرفين يحرم الجمع بينهما، وعندما لا تحل المشكلة إلا بالبعد أو النسيان أو بالتكريه والنفور، وأما إذا كان مما يجمع في زواج بينهما فينظر إلى مدى التكافؤ بينهما فيعالج بالجمع وتحمل الشروط في ذلك.

وعند إشارته عليه السلام إلى محبته للروائح الطيبة، وأنه كان لا يرد الطيب ويقول (من عرض عليه طيب فلا يرده، فإنه خفيف المحمل طيب الرائحة)، وأنه عليه وآله السلام كان يحب المسك والتطيب به كما يحب النظافة ويدعو إليها، فهذا كله من حفظ الصحة والبدن، وحفظ النفوس التي تدعو للتآلف بين الناس بدلاً من التنافر.

ولذلك فإنه عليه وآله السلام كان يشدد على الاغتسال أيام الجمعة قبل الخروج للصلاة والتطيب، كما كان ينفر من أكل البصل والثوم دون إماتة رائحتهما لتجنب الروائح المنفرة بين المسلمين وتوفير أسباب التآلف بينهم ناهيك عن التجاذب بين الزوجين وتقوية أصرة الحياة الزوجية، وهو سبب تحريم استخدام المرأة للطيب عند خروجها من بيتها للحياة العامة لأنها ليست موضع تآلف وتجادب مع الرجال الأجانب.

وعند حديثه عليه وآله السلام عن حفظ صحة العين (عليكم بالأمثد فإنه يجلو البصر وينبت الشعر) و (فإنه منبته للشعر، مذهبة للقدى، مصفاة للبصر) فإنه عليه وآله السلام كان يتحدث عن الدواء المستعمل الشائع في الحجاز لحفظ الصحة على العين وذلك بناء على التجربة العملية.

ولهذا ليس من حق الأطباء في أي زمان بالقول بأن الأمثد يضر بالعين، لأنه لو كان يضرها فعلاً لما استخدمه أحد في عهد الرسول عليه وآله الصلاة والسلام ولا في غيره من العهود، ثم إن الرسول عليه وآله السلام الذي كان يوحى إليه من ربه بكل خير والبعد عن كل ضرر ما كان ليقدم عليه ولا يدعو له، فكيف وهو عليه وآله السلام يحدد منافعه؟!!

وعند تتبع الأدوية والأغذية المقررة التي أحبها الرسول عليه وآله الصلاة والسلام في نهاية هذا الجزء الرابع يستعرض ما سبق ذكره ويضيف إليه ما لم يرد من الفواكه والحبوب والخضار ولحوم الأسماك والطيور والحيوانات والبقول، وما كان عليه السلام يوصي منها باستخدامه كدواء وغذاء أو أحدهما، مع الزيوت في الغذاء والدواء، والروائح العطرة أو الطيب، مع ما في القرآن وآياته من أدعية تجلب الشفاء.. وتفصيلها كثير مما يؤكد كم كان عليه وآله الصلاة والسلام رحمة للعقول والنفوس والأبدان في كل مكان وزمان..

الجزء الخامس - في الأفضية والأنكحة والبيوع

أولاً: في الأفضية:

١- في الدماغ:

- قضى عليه وآله السلام بحبس رجل في تهمة، وسجن رجلاً أعتق نصيبه في عبد حتى باع غنيمة له ليكمل عتقه.

- وجلد رجلاً قتل عبده مائة جلدة ونفاه سنة وأمره بعق رقبة وإن قيل بقتله تعزيراً بحسب ما يراه الإمام، وأمر بحبس من أمسك المقتول حتى يقتل حبساً حتى الموت.
- وحكم بقطع أيدي وأرجل وسمل عيون من يفعل ما حصل بالرعاء من قبل عرينة وذكوان عندما سلموا عيونهم.
- وحكم بالعفو عن القاتل خطأ إذا قاد المقتول.
- وحكم بقتل من قتل جارية برض رأسه بين حجرين كما فعل بقتلها.
- وحكم على من قتلت حاملاً وجنينها خطأ بغرة وبدفع عصبتها الدية.
- وحكم بأن يقسم خمسون ممن وجد بينهم قتل، وإلا فأهل القتل يحلفون ويستحقون دم القاتل، وإن لم يخلف الخمسون يدفعون ديته.
- وأقر قضاء علي رضي الله عنه في أربعة سقطوا في بئر فتعلق بعضهم ببعض فهلكوا بأن على الأول ربع الدية على قبائل الذين ازدحموا على البئر وللثاني بثلثها وللثالث بنصفها وللرابع بالدية كاملة تبعاً لعدد من فوقه.
- وحكم بقتل من تزوج بمحرم كامراً أبيه أو أخته ويؤخذ ماله لبيت المال.
- وحكم بقتل من اتهم بأم ولده، فلما ظهرت براءته أمسك عنه، فقد أرسل علياً لقتله إذا وجده عندها، فلما رآه محبوباً لا ذكر له عفا عنه الرسول عليه وآله السلام.
- وقضى عليه وآله السلام بنصف دية القتل على الذين وجد في ديارهم لأنهم رفضوا الحلف كما رفض أهله الحلف مما اسقط نصف الدية الآخر.
- وأمر صلى الله عليه وآله وسلم بتأخير القصاص في الجرح حتى يندمل، فإذا تعجل المجروح سقط حقه في أي عطل يظهر عليه.
- وقضى عليه السلام بالقصاص في السن، فإذا حصل العفو وقبول الدية سقط القصاص.
- وحكم بهدر ما يتلف من المعتدي من يد أو غيرها عندما يسببه ذلك المعتدى عليه وهو يتخلص من المعتدي، كأن يعض يده فيسقط من أسنانه وهو يتخلص من يده.
- وقضى عليه السلام بإسقاط دية أو قصاص من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم ففقؤوا عينه.
- وحكم على الحامل إذا قتلت غيرها عمداً بعدم قتلها حتى تضع حملها ويكفل وليدها كما حصل مع الغامدية.
- وقضى عليه وآله السلام بعدم قتل الوالد بولده، وبعدم قتل المؤمن بالكافر وإنما بنصف الدية أو ثلثها في الخطأ والعمد بحسب ما يتبنى الإمام أو بها كلها، وأن عقل المرأة كالرجل، وأن دية الخطأ مائة من الإبل، وكذلك دية العمد، وما صولحوا عليه إذا رضوا بالدية، أو ما يعادل ذلك من النقود الذهبية أو الفضية.
- وقضى عليه وآله السلام بدية معينة لكل عضو من أعضاء جسم الإنسان بحسب عدد الأعضاء وأهميتها. وبهذا يظهر مدى حرمة دم المسلم رجلاً أو امرأة، سواء تعرض

كله أو عضو منه للتلف، كما تظهر حرمة أهل الذمة، وأن دماً واحداً لن يهدر
وسياخذه ولي الأمر بحقه.

٢- في الحدود:

- حكم عليه وآله السلام على ماعز والغامدية لأنهما أقرأ على نفسيهما بالزنا مع الإحصان بحد الرجم دون جلد، وأما الأعزب فحكم عليه بجلد مائة وتغريب سنة عن موطنه، وكذلك العزباء.
- حكم صلى الله عليه وآله وسلم على أهل الكتاب في حد الزنا بحكم الإسلام فرجم المتزوج منهم من أهل الذمة كما فعل مع رجل وامرأة من اليهود.
- وقضى عليه وآله السلام برجم من زنى بجارية امرأته دون أن تحلها له، وجلده مائة إن احتلها له.
- وقال عن اللواط (اقتلوا الفاعل والمفعول به) ولم ينفذ هذا الحكم في زمنه عليه وآله السلام على أحد، واختلف الصحابة بعده عليه وآله السلام في كيفية القتل رجم أو رمي من شاهق أو تحت حائط.
- وأما (من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوهام معه) فهو حديث ضعيف ولذلك قال إجماع الأئمة بالتعزير وليس القتل.
- وحكم عليه وآله السلام بالجلد مائة على أعزب أقر بالزنا على امرأة معينة كذبتة عندما سنلت عن ذلك.
- وقضى عليه وآله السلام بنصف الحد على الجارية إذا زنت، فيقيمه عليها سيدها وهي عزباء ويقيمه الإمام إذا أحصنت.
- وحكم عليه وآله السلام في مريض زنى بضربه ضربة واحدة بمائة شمراخ إذا لم يحتمل الحد.
- ونفذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حد القذف ثمانين في حسان بن ثابت ومسطح بن أثانة وحمنة بنت جحش عندما قذفوا المصونة عائشة رضي الله عنها في حديث الإفك المشهور.
- وحكم عليه وآله السلام بقتل من بدل دينه ردة ونفذ ذلك أبو بكر رضي الله عنه في امرأة يقال لها أم قرفة.
- وحكم بشارب الخمر بحد الأربعين، وما زاد عليها إلى الثمانين من باب التعزير وأمره إلى الإمام وكذلك القتل تعزيراً إذا استهتر بالحد وأصر على الشرب.
- وقضى عليه وآله السلام بعدم قطع يد السارق في أقل من ربع دينار.
- وحكم عليه وآله السلام بإسقاط القطع عن المنتهب والمختلس وخائن الوديعة وسارق الثمر يأكله.

- وحكم عليه السلام على من اتهم غيره بالسرقة بأن يجلد كالمتهم إذا ثبتت براءته.
- وقضى بإسقاط الحد إذا عفا صاحبه قبل أن يصل إلى الإمام (هلاً كان قبل أن تأتيه به) أي عفو صاحب المال المسروق (إذا بلغت الحدود الإمام فلعن الله الشافع والمشفع) فلا إسقاط بعدها.
- وقضى بأربعة شهود أو شهادات في حد الزنى، وإقرارين أو شاهدين في حد السرقة، مع التحقيق في كل حد قبل تنفيذه حتى يدفع ولو بالشبهة (ادراً أو الحدود بالشبهات).
- وقضى بإيقاع الضرب أثناء التحقيق مع المتهم إذا توفرت إمارات الريبة فيه قبل إيقاع أي حد من الحدود سواء بالسوط أو العصا أو غيرهما.
- وحكم عليه وآله السلام بقتل كل مسلم أو ذمي أو معاهد يسبه ولو علق بأستار الكعبة وإن كان عليه وآله السلام كان يعفو في حياته عمن كان يقدح فيه لعله تأليف الناس وإبعادهم عن الحديث بأنه عليه وآله السلام يقتل أصحابه.
- وقضى بقتل من سم أحداً فقتله إذ مات بشر بن البراء من سم اليهودية فقتلها به بينما عفا عنها في حقه عليه وآله السلام.
- وحكم عليه وآله السلام بقتل الساحر (حد الساحر ضربة بالسيف) وإن كان قد عفا عليه وآله السلام عن لبيد بن الأعصم اليهودي حين سحره.
- مما لا مجال بالتساهل في الحدود وهي حقوق الله تعالى حتى على أقرب المقربين بدليل (والله لو أن فاطمة سرقت لقطعت يدها).

٣ - في الشؤون الحربية:

- قضى صلى الله عليه وآله وسلم برد غنيمة سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة لترصد غير قريش، وودى القتل عمرو بن الحضرمي، وفدى الصاحبين سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بأسيري قريش عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان.
- وقضى عليه وآله السلام بالعفو عن حاطب بن أبي بلتعة عندما جس عليه لمشركي مكة عندما قال لعمر رضي الله عنه وهو يطلب قتله (ما يدريك لعل الله إطلع على أهل بدر فقال: إعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) مما جعل الجمهور إلا مالك يقول بعدم قتل الجاسوس والاكتفاء بجلده وحبسه.
- وخير رسول الله عليه السلام في الأسرى بين الفداء والمن والقتل والاستعباد كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، وهذا هو رأي الجمهور إلا أبو حنيفة والأوزاعي.
- وحكم صلى الله عليه وآله وسلم بأن ناقضي العهد كما فعل اليهود حول المدينة يسري نقضهم إلى نساءهم وذريتهم عندما ينقضون بالحرب وإن كان من على بني قينقاع، وأجلى بني النضير، وقتل بني قريظة.
- وحكم بالقتل لولدي أبي الحقيق لما نقضوا عهد الصلح بينه وبينهم في خيبر، وبإقرار الآخرين الذين لم يكونوا طرفاً في نقضه على أرض خيبر كمساقاة مقابل شطر الثمار.

- وحكم عليه وآله السلام في فتح مكة بالأمان لمن يغلق بابه ويدخل دار أبي سفيان أو المسجد أو يضع السلاح. كما حكم بقتل ستة سبق ذكرهم، وبعدم قتل كل جريح وأسير، وبعدم متابعة أي مدبر، وبوقف حلفائه خزاعة عن استمرار القتل في حلفاء قريش بني بكر (يا معشر خزاعة، ارفعوا أيديكم عن القتل) بعد أن سمح لهم بذلك إلى صلاة العصر.

- ونزلت سورة الأنفال بحكم الغنائم بأن قسمتها إلى حكم الله ورسوله وأنها تخمس، وأن ذلك بدأ في غزوة بدر ثم في غزوة بني قينقاع، فأعطى الفارس ثلاثة أسهم والراجل سهماً واحداً والباقي إليه عليه وآله السلام يضعه في الجهاد وفي حاجة أهله ولذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، ووزع أموال بني النضير بين المهاجرين فقط إلا ثلاثة من الأنصار هم: سهل بن حنيف، وأبي دجاجة، والحارث بن الصمة، لأنهم اشتكوا الحاجة، بينما بقية الأنصار ارتضوا استرجاع ثمارهم من المهاجرين مقابل أن يعطوا جميع ما بقي من أموال بني النضير.

- وقضى بإعطاء نصيبه من الغنائم كل من كلف بمهمة لها صلة بالجهاد ولو لم يحضر المعركة، كعثمان بن عفان الذي تخلف يمرض زوجته ابنة رسول الله عليه وآله السلام رقية، ولم يكن يسهم للنساء والصبيان والعبيد وإنما كان يحذيتهم من الغنيمة. وقضى في قسمة الإبل بالعدل وجعل كل عشرة من الغنم ببعير، بينما في الهدي جعل كل بعير عن سبعة كما جعل كل بقرة عن سبعة.

- وحكم عليه وآله السلام بكل السلب للقاتل دون أن يخمس، فيأخذه بشهادة واحد على القتل فكان قوله تعالى {واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه} عام وكانت أربعة أخماس الغنيمة الباقية لمن غنمها بشكل خاص.

- وحكم صلى الله عليه وآله وسلم بإعادة ما حازه المشركون من أموال المسلمين ثم ظهر عليه المسلمون أو أسلم عليه المشركون، فيعاد لأصحابه قبل أن يقسم، ولكن لا يضمن المشركون ما أسلموا عليه ويبقى في أيديهم.

- ولم يقبل عليه وآله الصلاة والسلام هدية محارب له قط وقبل هدية من طمع في إسلامه أو أحسن إلى مبعوثه من الملوك والحكام، وكان يأخذ منها لنفسه ويعطي الباقي لأصحابه حتى أنه قبل هدية المقوقس مارية أم ولده إبراهيم وهب أختها سيرين لحسان بن ثابت شاعره، وكان حكم الهدايا للأئمة بعده أنها للمسلمين سواء وضعت في بيت المال دون تقسيم أو قسمت بينهم كالغنائم، ويبقى الحكم فيها للإمام مسترشداً بما فعله الرسول عليه وآله السلام بشأن ذلك.

- وكان عليه وآله الصلاة والسلام لا يخص بالفيء أحداً دون أحد، فسوى بين خمس الغنائم وبين الفيء في الإنفاق، فكان ينفق سهم الله تعالى وسهمه في مصالح الإسلام، وأما أربعة أخماس خمس الغنائم فينفقها في أهلها حسب الأهمية والحاجة فيزوج الأعزب، ويدفع الديون ويقسم أربعة أخماس الفيء بين اليتامى والمساكين وأبناء السبيل وذوي القربى لا على السوية بل حسب الحاجة والأهمية.

- وحكم بعدم قتل الرسل (لولا أن الرسل لا تقتل لقتلنا كما) قالها لرسولي مسيلمة الكذاب، وأرجع رسول قريش إليها ولم يقبل منه البقاء، وأعاد أبا جندل المسلم إلى قريش بسبب التزام عهد الحديبية ولم يعد إليهم سبيعة الأسلمية التي جاءته مسلمة ودفع مهرها لزوجها، وأعلن إلغاء العهد لمن عاهد إما إلى مدته أو إلى مهلة محددة لكل من كان يخشى نقضه للعهد.

- وقضى عليه وآله السلام بتكافؤ دماء المسلمين فلا يقتل مسلم بكافر، ويقبول أمان كل فرد منهم حتى العبد، وبعدم تولية الكفار شيئاً من الولايات في الحكم لأن المسلمين يد على من سواهم، وبحق القاضي من المسلمين في الغنيمة كالقريب الذي غنمها سواء بسواء لأنه يرد عليهم أقصاهم.

- وقضى عليه وآله السلام بمشركي العرب إما الإسلام وإما القتل {تقاتلونهم أو يسلمون}، وبالمشركين مثل المجوس وبأهل الكتاب من يهود ونصارى خارج الجزيرة إما الإسلام أو الجزية أو القتال. ثم طرد اليهود من خيبر لأنه (لا يجتمع في هذه الجزيرة دينان).

- وحكم في مقدار الجزية حسب قدرة أهل البلد فيدفع المحارب ديناراً أو قيمته من أهل اليمن، بينما فرض عمر رضي الله عنه أربعة دنانير ذهباً أو قيمتها في بلاد الشام.

- وحكم عليه السلام بغدر قريش عندما رضيت بغدر حلفائها من بني بكر بحلفائه من خزاعة، واستباح غزؤهم لأنهم صاروا محاربيين و سقط عهدهم بغدرهم.

- وحكم بغدر اليهود ونقضهم للعهد معه عليه السلام حول المدينة فحاربهم وانتصر عليهم مع أنه كان قد عاهدهم على مدة مشروطة في عقود جائزة له فسخها .

ومن تتبع شؤون الجهاد ضد الكفار لاعلاء كلمة الله، سواء بعقد العهود معهم لمدة محدودة أو لشروط معينة، والمبادرة لنقضها إذا غدروا دون إعلامهم أو إذا لم ينقضوها بإعلامهم، وسواء بالنسبة للغانم وتقسيمها وتخمسها أو للفيء الذي ينال دون قتال عكس الغنيمة وأمره إلى الرسول عليه وآله السلام، وسواء بالنسبة للأسارى والمن عليهم أو الفداء أو القتل أو الاسترقاق، أو بالنسبة لمن كان يغدر فيلزم تخصيصه بالحرب دون غيره أو لمن كان يؤذي الله ورسوله فيهدر دمه ولو تعلق بأستار الكعبة، أو بالنسبة للأمان الذي أعطي لأهل مكة عند فتحها مما لم يعط لغيرهم، أو بالنسبة لقبوله الهدايا من الملوك والحكام المشركين ويكافئهم عليها تبعاً لموقف كل منهم من الإسلام والمسلمين، أو بالنسبة لصلون دماء الرسل فلا يقتلون أو بالنسبة لإعادتهم لمن أرسلوهم وفاء بالعهد في مثل هذه المراسلات بين الحكام، أو بالنسبة لتكافؤ دماء المسلمين وعدم السماح بتولي الحكم عليهم لأي مشرك، أو بالنسبة لعدم قبول الجزية من مشركي العرب وقبولها من مشركي غير العرب وأهل الكتاب، أو بالنسبة لمقدار الجزية الذي كان يراعى فيه قدرة أهل البلد المالية، فإن تتبع كل هذه الشؤون يكشف عن مدى حرص الإسلام وحاكم المسلمين على التزام العهود والمواثيق التي كانت توقع مع غيرهم، وعن مدى الجدية في معاقبة من يغدر بهم وينقض عهده

مباشرة أو غير مباشرة معهم، وعن مدى أهمية نظرتة إلى قاعدة المسلمين الأولى المتمثلة في العرب أهل لغة القرآن والإسلام ومن تعرب معهم باتقانه اللغة العربية من أجل إحسان تطبيق الشريعة الإسلامية في الأرض واستمرار هذا التطبيق بكل العدل، وعن مدى العدل في مراعاة إمكانات ومستويات البلاد المفتوحة في دفع الجزية وإسقاطها عن كل من كان يعتنق الإسلام لأن الرسول عليه وآله السلام بعث هادياً ولم يبعث جابياً كما قال الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

ثانياً - في النكاح وتوابعه:

- خير رسول الله عليه السلام البكر والثيب وقال (لا تنكح البكر حتى تستأذن، قالوا: يا رسول الله وكيف إذن؟ قال (أن تسكت) وفي رواية أخرى (البكر تستأذن في نفسها، وأذنها صماتها) وقال (لا تنكح البكر حتى تستأذن) لتأكيد ذلك بالنهي وليس بالأمر فقط، وبشأن الثيب والبكر معاً قال (ولا تنكح الأيم حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن) وقال (الأيم أحق بنفسها من وليها، والبكر يستأذنها أبوها).
- وقضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن اليتيمة تستأمر في نفسها بعد البلوغ فإن صمتت فهو أذنها وإن أبت فلا جواز عليها.
- وقضى عليه وآله السلام (لا نكاح إلا بولي) و(لا تزوج المرأة المرأة، ولا تزوج المرأة نفسها، فإن الزانية هي التي تزوج نفسها)، وإذا زوجها وليان فهي للأول منهما.
- وقضى عليه وآله السلام بجواز النكاح من غير تسمية صداق، وجواز الدخول قبل التسمية، واستقرار مهر المثل بالموت وإن لم يدخل بها، وجوب عدة الوفاة بالموت وإن لم يدخل بها الزوج.
- وحكم عليه السلام ببطلان نكاح الحامل من الزنى ووجوب المهر المسمى أو المثل وإيقاع الحد عليها لأنها بكر بالجلد بعد الولادة واستخدام ولدها كأنه عبد للزوج عقوبة لها.
- وأوجب عليه وآله السلام بالوفاء بشروط عقد الزواج فقال: (إن أحق الشروط أن توفوا ما استحللتم به الفروج) وحرم الزواج بشرط طلاق الزوجة السابقة (لا تسأل المرأة طلاق أختها لتستفرغ صحفتها ولتنكح، فإنما لها ما قدر لها).
- وحرم نكاح الشغار بأن يتزوج الرجل ابنة الآخر على أن يزوجه ابنته دون صداق بينهما، وكذلك الأخت، فكان بضع كل منهما مهراً للأخرى، فأما لو سمي مهر به استحل البضع فليس بحرام.
- ولعن رسول الله عليه السلام المحلل والمحلل له وسمي المحلل بالتيس المستعار.
- وقد أباح الرسول عليه وآله السلام نكاح المتعة في أول فتح مكة ونهى عنه في نهايته، كما نهى عنه يوم خيبر حتى قال علي لابن عباس: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نهى يوم خيبر عن متعة النساء وعن أكل لحم الحمر الأهلية. وورد في الصحيحين عن علي رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حرم

متعة النساء. وهكذا فقد جاء تحريم متعة النساء بعد الإباحة، ولكن بقي عند ابن عباس رضي الله عنه مثل تحريم الميتة والدم فيباح عند الضرورة وخوف العنت، ولذلك فإنه عندما رأى أن الناس توسعوا فيها ولم يقفوا عند الضرورة توقف عن الفتيا بحلتها ورجع عنها.

- وحرّم عليه السلام نكاح المُحرم بالحج أو العمرة فقال (لا ينكح المحرم ولا يُنكح) وأنه عليه السلام قد نكح ميمونة حلالاً بشهادة الوسيط بينهما أبو رافع الذي أكد ذلك.

- وحرّم ربُّ العالمين نكاح الزانية، واستأذن مرثد الغنوي الرسول صلى الله عليه وآله وسلم للزواج بعناق وكانت بغياً فقرأ عليه آية النور وقال (لا تنكحها).

- وأمر عليه وآله السلام من أسلم على أكثر من أربع نسوة أن (إختر منهن أربعاً) و (فارق سائرهن)، كما أمر من أسلم على أختين أن (إختر أيهما شئت).

- وأمر عليه وآله السلام علياً ألا يتزوج ابنة أبي جهل على ابنته فاطمة رضي الله عنها قانلاً (والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله في مكان واحد أبداً)، ونبه عليه وآله السلام بالإشارة إلى صهره الآخر (حدثني فصدقني، ووعدني فوفى لي) بأن الرجل إذا شرط لزوجته أن لا يتزوج عليها لزمه الوفاء بالشرط، ولها الفسخ متى تزوج عليها وخالف الشرط.

- وحرّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما حرم الله تعالى من النساء صراحة أو إشارة: الأمهات، والبنات، والأخوات، والعمات، والخالات، وبنات الأخ والأخت، والأم من الرضاعة، والأخوات من الرضاعة (يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب)، وأمّهات النساء بمجرد العقد دخل بالبنات أو لم يدخل، والربائب اللاتي في الحجر بعد الدخول في أمهاتهن، وحلائل الأبناء، وحلائل الآباء بعقد نكاح أو بملك اليمين، والجمع بين الأختين، والجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، والمحصنات إلا ملك اليمين فتطلق المتزوجة بهذا الملك ويستخلى حملها ويستبرأ رحمها لحیضة واحدة .

- وحكم صلى الله عليه وآله وسلم أن الزوجين إذا أسلما فهما على نكاحهما، وإذا أسلم أحدهما فرق بينهما الإسلام إلا إذا أسلم الآخر وقت العدة، وإن قيل لها أن تنتظر بعد العدة بدون زواج حتى يسلم زوجها ثم تعود إليه دون نكاح ولا مهر.

- وقضى صلى الله عليه وآله وسلم بجواز العزل حتى قال لمن ذكر أن اليهود تراه الموءودة الصغرى (كذبت يهود، لو أراد الله أن يخلقه ما استطعت أن تصرفه) وروى جابر قال: كنا نعزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن ينزل.

- وقضى عليه وآله السلام بعدم منع الوطء أثناء الرضاع وأنه الغيل الذي كره خشية الحمل فيفسد الرضاع على الطفل.

- وقسم الرسول عليه وآله السلام للبكر سبعاً ولللثيب ثلاثاً عند الدخول ثم سوى بينهما إلا أن تتنازل لضررتها كما فعلت سودة حينما وهبت يومها لعائشة رضي الله عنهما، وكان عليه وآله السلام يقرع بين زوجاته ليسافر بإحداهن حسب القرعة.

- وحرّم صلى الله عليه وآله وسلم وطء المرأة الحبلى من غير الواطئ من السبايا أو غيرهن فقال (لا توطأ حامل حتى تضع، ولا غير حامل حتى تحيض حيضة) وهذا شأن السبية إذ قال عليه وآله السلام هذا القول في سبايا أوطاس.
- وقضى عليه وآله السلام بعق الأمة وجعل عتقها هو صداقها.
- وقضى صلى الله عليه وآله وسلم بوقف صحة النكاح على إجازة المرأة.
- وقضى عليه وآله السلام أن الكفاءة في النكاح هي للدين والنسب بخاصة والحرية والصنعة والسلامة بعامّة.
- وحكم صلى الله عليه وآله وسلم أن الخيار للمعتقة بين البقاء على زوجها العبد وبين تركه، وأن ولاءها لمن أعتقها، وهذا كما جرى مع بريرة عندما كتبت أهلها على تسع أواق من الفضة في كل سنة أوقية وطلبت من السيدة عائشة رضي الله عنها أن تعينها فدفعت التسع أواق، وخيرها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين البقاء تحت زوجها العبد الذي كان يحبها ويكي على فراقها وبين تركه فاختارت تركه لأنها لم تكن تحبه، وعندما قال صلى الله عليه وآله وسلم لأهلها الذين طالبوا بولائها (إنما الولاء لمن أعتق) وأنهم لو شرطوا بأن الولاء لهم لكان شرطاً لا قيمة له، وقوله عليه وآله السلام (إذا أعتقت الأمة فهي بالخيار مالم يطأها، إن شأعت فارقته، وإن وطنها فلا خيار لها ولا تستطيع فراقه) هو الفاصل في ذلك، لسقوط الكفاءة بينهما إذا أصبحت حرة وهو ما زال عبداً.
- وقضى عليه وآله الصلاة والسلام بما قل وكثر في الصداق، وبصحة النكاح على ما يعلمه الزوج من القرآن (إن أعظم النكاح بركة أيسره مؤونة) و (فالتمس ولو خاتماً من حديد) و (وقد زوجتكها بما معك من القرآن)، ولم يتزوج عليه وآله السلام أو زوج أحداً من بناته بأقل من خمسمائة درهم.
- وحكم صلى الله عليه وآله وسلم هو وخلفاؤه من بعده أن لأحد الزوجين أن يفسخ عقد النكاح إذا وجد بصاحبه شيئاً يرد به كالبرص والجنون، وعليه أن يرد عليها الصداق ويتحمل وليها الذي غر في ذلك.
- فقال عمر رضي الله عنه (أيما امرأة غر بها رجل، بها جنون أو جذام أو برص، فلها المهر بما أصاب منها، وصداق الرجل على من غره).
- وحكم عليه وآله السلام بخدمة المرأة لزوجها، كما حصل مع ابنته فاطمة التي جاءته تشتكي الخدمة، ومع أسماء زوجة الزبير رضي الله عنهم أجمعين، ولكن نبه الأزواج على حسن معاملة زوجاتهم فقال: (اتقوا الله في النساء فاتهن عوان عندكم).
- وقضى عليه وآله الصلاة والسلام بأن للمرأة أن تخلع نفسها من زوجها مقابل أن ترد عليه ما أخذت منه، كما أمر ثابت بن قيس أن يطلق زوجته في الخلع تطليقة واحدة، وأمرها أن تعتد حيضة واحدة لمجرد استبراء الرحم بدليل أنه فسخ وليس طلاقاً ولو كان بلفظ الطلاق.

- وقضى رسول الله صلى عليه وآله وسلم بـ (ثلاث جدهن جد وهزلهن جد: النكاح والطلاق والرجعة) وقال (إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) وقال (لاطلاق ولا عتاق في أغلاق) وقال (رفع القلم عن ثلاث: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يفيق) وقال (إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تكلم أو تعمل به)، والاعلاق هو الغضب أو ضيق الصدر الذي يغلق على المرء عقله فلا يعي ما يقول أو لا يعي نيته.

- وقضى عليه وآله الصلاة والسلام بـ (لا طلاق قبل النكاح ولا عتق قبل ملك) و (ولا نذر لابن آدم فيما لا يملك، ولا عتق له فيما لا يملك، ولا طلاق له فيما لا يملك) و (لا طلاق قبل النكاح).

- وقد حكم صلى الله عليه وآله وسلم بتحريم طلاق الحائض أو النفساء المدخول بها، وأحل طلاق الحامل البائن حملها بعد الوطء وقبله، وحرم الطلاق في طهر الإصابة وأجازه قبله، وأجاز تطليق غير المدخول بها طاهراً وحائضاً. وهكذا كان الطلاق المحرم في الحيض أو في الطهر الذي واقعها فيه أو في جمع الثلاث، وأما الطلاق الحلال فهو الطلاق وهي طاهر من غير جماع أو وهي حامل ظاهر حملها. وقد اعتبر من طلق إمرأته ثلاث تطليقات جميعاً في مرة واحدة بأنه (أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم) وكأنه تلاعب بحكم الطلاق. وهناك خلاف بين الفقهاء في وقوع الطلاق المحرم: فمنهم من أوقعه ومنهم من لم يوقعه. وقد طلق ابن عمر رضي الله عنه زوجته وهي حائض فقال صلى الله عليه وآله وسلم بأنها إذا طهرت فليطلق أو ليمسك وعليه أن يردّها حتى تطهر، وقال: ابن عمر (فردّها عليّ ولم يرها شيئاً).

- وفي التقديم لبيان حكم الله تعالى وما بيّنه الرسول عليه وآله الصلاة والسلام في شأن الطلاق ثلاثاً قالوا بأنهم كانوا يطلقون في الجاهلية بغير عدد ثم يراجعون مما يسبب الإضرار بالمرأة فنسخ سبحانه ذلك بثلاث، وقصر الزوج عليها، وجعله أحق بالرجعة ما لم تنقض عدتها، فإذا انقضت حرمت عليه، فكان في ذلك رفقاً بالزوج والزوجة. وأما وقوع الثلاث بكلمة واحدة ففيها أربعة آراء:

١ - أنها تقع، كما يرى الأئمة الأربعة والتابعون وكثير من الصحابة رضي الله عنهم.

٢ - أنها لا تقع، وترد لأنها بدعة محرمة لقوله عليه وآله السلام (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)، وهو رأي أبي محمد بن حزم والإمامية من الشيعة.

٣ - أن الطلاق يقع كواحدة رجعية، كما يرى ابن عباس، وطاؤوس، وعكرمة، وابن تيمية.

٤ - أنها تقع كثلاث بحق المدخول بها وتقع كواحدة بحق غير المدخول بها، وهو رأي جماعة من أصحاب ابن عباس وابن راهوية.

وروي أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب والإمام علي بن أبي طالب، وأمير المؤمنين عثمان بن عفان، وعبد الله ابن مسعود، وعبد الله بن عمرو بن العاص قالوا

أن من طلق ثلاثاً لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره، فرد عليهم المانعون من وقوع الثلاث بأنهم ما داموا في موقف تنازع معهم فلا بد من الاحتكام إلى كتاب الله وسنة رسوله، فكتاب الله تعالى بين أحكام الطلاق، وبين حلاله وحرامه ولم يشرع طلاقاً بئناً بغير عوض لمدخول بها إلا آخر العدد، والسنة لا تقول بأن الملائع امرأته ثلاثاً يشبه المطلق ثلاثاً لأن الملائع غير الطلاق، كما أنها لا توضح معنى القول بأن من طلق زوجته ثلاثاً فتزوجت بأنه طلقها الثلاث بغم واحد وجملة واحدة فكيف تحمل على ذلك؟! وأن قول عمر رضي الله عنه بأنهم استعجلوا فيما جعل لهم فيه أناة ومهلة فألزمهم بما ألزموا أنفسهم به عقوبة لهم فكان من تأديب عمر لرعيته في إلزامه بالثلاث، وليس بصحيح القول بأن الناس كانوا يطلقون واحدة إلى بعض من خلافة عمر ثم طلقوا ثلاثاً فأمضاه عمر عليهم لأن الطلاق ثلاثاً كان معروفاً في عهد الرسول عليه وآله السلام فتجعل واحدة في حق من لم يدخل بها، وكذلك في عهد أبي بكر وصدرأ من خلافة عمر، وهذا ما قاله ابن عباس رضي الله عنه.

فعمر رضي الله عنه لم يخالف إجماع من تقدمه بل رأى إلزامهم بالثلاث عقوبة لهم لما علموا أنه حرام وتساهلوا فيه، وهذا مما يجوز للأئمة أن يلزموا الناس بما ضيقوا به على أنفسهم لأنهم تخلوا عن الرخصة بالتوسعة وأخذوا بالتشدد. فعمر رضي الله عنه لم يغير أحكام الله تعالى فجعل الحلال حراماً وإنما هو ألزمهم بما كان الرسول عليه وآله السلام يلزم به من يتشدد على نفسه.

- وحكم العبد كالحرة والأمة كالحرة في الطلاق، فإذا طلقها تمام الثلاث فإنها لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره، وإن طلقها دون ذلك فله أن يراجعها، والأدلة الأربعة التي تقول بأن طلاق الأمة ثنتان وعدتها حيضتان كلها ضعيفة ولذلك يؤخذ من إطلاق النصوص الدالة على أن الطلاق الرجعي طلفتان بدون تفريق بين حر وعبد وبين حرة وأمة.

- وحكم رسول الله عليه السلام بأن الطلاق، سواء كان للحر أو العبد، هو بيد الزوج لا بيد غيره.

- وحكم عليه السلام في الطلاق دون الثلاث والمراجعة بعد زواج أنها على بقية الطلاق، وهذا ما يقول به الجمهور باستثناء أبو حنيفة الذي يرى أن النكاح والطلاق جديان.

- وحكم عليه وآله الصلاة والسلام في المطلقة ثلاثاً بأنها لا تحل للأول حتى يطأها الزوج الثاني (لا تحل للأول حتى يجامعها الآخر) و(حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك)، وقال صلى الله عليه وآله وسلم (العسيلة الجماع ولو لم ينزل).

- وقضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (إذا ادعت المرأة طلاق زوجها، فجاءت على ذلك بشاهد واحد عدل استحلف زوجها، فإن حلف بطلت عنه شهادة الشاهد، وأن نكل فنكوله بمنزلة شاهد آخر، وجاز طلاقه). فالطلاق يثبت بشاهد ونكول الزوج أي برفضه الحلف.

- وخير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أزواجه بين الحياة الدنيا وزينتها، وبالتالي فراقهن له بأن يطلقهن، وبين أن يردن الله ورسوله والدار الآخرة فيبين زوجات للرسول عليه وآله السلام، ولهن إن اخترن أن يطلقهن أن يمتعن، وإن اخترن البقاء معه فقد أعد لهن بحسن الاختيار أجراً عظيماً. وقد اختلف الصحابة والتابعون والفقهاء في هذا التخيير في أي شيء كان، وفي حكمه، فرأى الجمهور أنه كان بين المقام معه والفرار، وأما حكمه فقد رأى بعضهم أنه لا شيء ورأى آخرون أنه طلاق واحدة رجعية ورأى غيرهم أنه طلاق ثلاث بائن، وكان سبب هذا الاختلاف في تحديد معنى التخيير: هل هو تملك أو توكيل أو بعضه تملك وبعضه توكيل أو هو تطبيق منجز أو لغو لا قيمة له. وقد طال تقلب الأمر بين التملك والتوكيل وترجح أمر التوكيل لأن الطلاق للرجل وله أن يوكل فيه من يشاء بينما لا يملك أن يجعله بالتملك للزوجة، ولذلك قال ابن عباس لمن قالت لزوجها بعد أن جعل أمرها بيدها بأنها طلقتها ثلاثاً: خطأ الله نوعها، وأنها كان يمكن أن تطلق نفسها منه لا أن تطلقه منها. وأما أنه تطبيق منجز فهو ضعيف، وأما أنه لغو لا قيمة له على اعتبار أن ليس للزوجة شيء لا في النكاح ولا في الطلاق بل كله للزوج.

- وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حكم الله تعالى في حق من حرّم أمته أو زوجته أو متاعه {لم تحرم ما أحل الله لك} - التحريم ١ - فجاء في مناقشة هذا التحريم أكثر من عشرين مذهباً يمكن حصرها في الأسس التالية:

- ١- فمن قال بأن هذا التحريم كله لغو لا شيء فيه، بحجة أن الله تعالى لم يجعل لرسوله تحريم ما أحل له فلا يمكن أن يجعل لغيره، والرسول عليه وآله السلام يقول (كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد) وهذا التحريم كذلك فهو رد باطل.
- ٢- ومن قال بأنه ثلاث بكل حال على أساس أن التحريم كناية عن الطلاق، وهو أعلى أنواع الطلاق، ولأنه تحريم مطلق فينصرف إلى الثلاث.
- ٣- ومن قال بأنه ثلاث في حق المدخول بها، وواحدة في حق غيرها، على أساس أن هذا هو الذي في حق كل منهما، ولأن معنى التحريم الإبانة المطلقة التي لا تعني إلا الثلاث.
- ٤- ومن قال بأنه واحدة في حق المدخول بها وغيرها، لأن التحريم لا يفيد عدداً فيؤخذ بالطلقة الرجعية البائنة بينونة صغرى.
- ٥- ومن قال بأنه واحدة رجعية، لأن التحريم يفيد مطلق انقطاع الملك المتيقن وهو الواحدة فلا يصرف لأكثر من ذلك.
- ٦- ومن قال يسأل عن إرادته من ظهار أو طلاق رجعي أو محرّم أو يمين فيكون ما أراد من ذلك بحجة أن اللفظ لم يوضع لإيقاع الطلاق خاصة وإنما يحتمل ذلك كلها فلا بد للنية ليصرف إليها حتى لو نوى عتق أمته عتقت، وكذلك لو نوى الطلاق ثلاثاً أو واحدة أو اثنين فهو كما نوى.

٧- ومن قال بأنه ظهار إلا أن ينوي به الطلاق لأن التحريم منكر وزور فينصرف إلى الظهار كأنه قال أنت علي كظهر أمي، ولكن إن نوى به اليمين فإنه يكون يميناً ويكفر عنها.

٨- ومن قال بأنه ظهار وإن نوى به الطلاق بحجة أنه لا يخرج عن ذلك، وأما إذا نوى به اليمين فيكفر عنها، ولكن يبقى عليه أن يلتزم بكفارة الظهار إذا كان غير ذلك.

٩- ومن قال بأنه يمين مكفرة على كل حال بحجة أن تحريم الحلال من طعام وشراب ولباس هو يمين مكفر بالنص والمعنى وأعمال الصحابة، وهي في حق الزوجة يمين كبرى كفارتها كفارة الظهار كما قال ابن تيمية وفي حق غيرها يمين صغرى كفارتها كفارة اليمين بالله.

- وأما من حرم شيئاً غير الزوجة من أمته أو طعامه وشرابه ولباسه فهناك خلاف هو:

١- أنه لا يحرم، وهذا قول الجمهور، وقال أبو حنيفة يحرم تحريماً مقيداً تزيله الكفارة كالظهار من امرأته، وهذا أحد قولي الإمام أحمد أيضاً الذي رأى التحريم ثابتاً إذا لم يلتزم الكفارة وسقوط التحريم إذا التزمها.

٢- أنه يلزمه كفارة بالتحريم، وهو بمنزلة اليمين وإن قال الشافعي ومالك بأنه لا كفارة عليه وقال الآخرون بالكفارة لمن يأتي المحلوف عليه {قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم}.

٣- أنه لا فرق في التحريم في غير الزوجة بين الأمة وغيرها عند الجمهور إلا الشافعي وحده الذي أوجب كفارة يمين في الأمة لتأثير التحريم في الإبضاع ولأن سبب النزول تحريم الجارية مما يقوي الحجة وإن رد عليه الآخرون بأن تحريم الحلال أعم من تحريم الأمة فيجب التحريم حيث وجد السبب.

- وحكم رسول الله عليه السلام بمن قال لزوجته: الحقي بأهلك بأنه طلاق إذا كان يقصد ذلك وإلا فهو ليس بطلاق، فقد قال عليه وآله السلام للجونية (ابنة الجون) التي جاءت ليخطبها فدخل عليها ليكلما بذلك وهي لم تعرفه فقالت: أعوذ بالله منك، فقال (قد عدت بمعاذ) وفي لفظ آخر (قد أعدتكم مني) وفي لفظ (عدت بعظيم الحقي بأهلك) فكان يقصد صرفها عنه وعدم خطبتها، ولو كان كما قال بعضهم أنه كان قد خطبها ودخل عليها كان دخول الزوج على زوجته، وهو احتمال ضعيف، فإنه يقصد الطلاق.

- وحكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الظهار وفقاً لما نزل بالوحي بأنه من قال لزوجته أنت علي كظهر أمي فقد وقع في المنكر لأنه جاء به خلاف المعروف، ووقع في الزور لأنه جاء به خلاف الحق، ولذلك فقد وجب عليه الكفارة بسبب هذا القول وبسبب العود. فأوس بن الصامت عندما ظاهر من زوجته خولة بنت مالك بن ثعلبة جاءت تشكيه للرسول عليه وآله السلام فاستمهلها الرسول عليه وآله السلام نزول الوحي في أمرها (ما عندي في أمرك شيء) فقالت: اللهم إني أشكو إليك فنزلت

قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير}- الآية الأولى من سورة المجادلة - فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم (ليعتق رقبة) فقالت: لا يجد، فقال (فيصوم شهرين متتابعين)، فقالت: يا رسول الله، إنه شيخ كبير ما به من صيام. فقال (فليطعم ستين مسكيناً) فقالت: ما عنده شيء يتصدق به، وقالت: فأنتي ساعتئذ بعرق من تمر، وقالت: يا رسول الله، فإني أعينه بعرق آخر، فقال عليه وآله السلام (أحسن، فاطعمي عنه ستين مسكيناً وارجمي إلى ابن عمك). وتكرر الظهار من سلمة بن صخر ولكنه واقع زوجته قبل أن يكفر فأمره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يكفر بتحرير رقبة، فاعتذر بعجزه، فأمره بصيام شهرين متتابعين، فاعتذر لعجزه عن تحمل ذلك، فأمره بإطعام ستين مسكيناً، فاعتذر لعدم وجود ما يطعم به، فأمره بأخذ صدقة قومه ويطعم منها ستين مسكيناً ويأكل الباقي هو وعياله.

وتكرر الظهار من شخص ثالث والوقوع بزوجه قبل التكفير فسأله الرسول عليه وآله السلام (ما حملك على ذلك يرحمك الله) فقال: رأيت خلخالها في ضوء القمر أو رأيت ساقها في ضوء القمر، فأمره صلى الله عليه وآله وسلم (فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك به الله) وفي رواية أخرى (أمسك عنها حتى تكفر).

وهذا يدل على إبطال ما كانت عليه الجاهلية من ان الظهار طلاق مهما صرح بنيته له ما دام قد قال: أنت علي كظهر أمي، وهذا ما قاله أحمد والشافعي وغيرهما.

كما يدل على أن الظهار حرام لا يجوز الإقدام عليه لأنه منكر من القول وزور ولولا أن الله تعالى قال {وإن الله لعفو غفور} عن قوله أول مرة لوقع عليه الإثم.

كما يدل على أن الكفارة لا تجب بنفس الظهار وإنما تجب بالعود كما قال الجمهور ثم يعودون لما قالوا {فجعلها كظهر أمه ثم يعود فيطؤها فيجب عليه تحرير رقبة.

فهذه الآية بيان لحكم من يظاهر في الإسلام، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أمر أوس بن الصامت وسلمة بن صخر بالكفارة بسبب الظهار وبسبب العزم على العود وهو الوطء، ولكن اختلف الجمهور القائل بوجود الكفارة بالعود بعد الظهار في معنى العود: هل هو تكرار لفظ الظهار بعينه أم هو أمر آخر؟ فقال أهل الظاهر بأنه إعادة لفظ الظهار، بحجة معنى النص في الآية الذي لا يدل إلا على ذلك، وبحجة أن أوس بن الصامت كان بسبب ما فيه من لم يكرر لفظ الظهار، وبحجة أن أحداً من الصحابة لم يقل بأن معنى العود هو الوطء أو العزم أو الإمساك.

ولكن الجمهور نازعهم في ذلك بأن معنى العود ليس إعادة اللفظ الأول وإنما هو تحريم الزوجة بتشبيهها بالمرحمة، فهو عود إلى المحرم أي فعل له ثانية وليس هو بالوطء، وأن أحداً من الصحابة ولا التابعين ولا من بعدهم قد قال بإعادة اللفظ وإنما هو إعادة الفعل وهو أن يرجع إلى الحال التي كان عليها قبل التحريم. والرسول عليه وآله السلام لم يسأل أحداً من الاثنين لا أوس ولا سلمة فيما إذا قال أي منهما لفظة الظهار

مرة أو مرتين، ولو كان ذلك شرطاً لسأل عنه، ذلك فهم السلف بان العود هو الإصابة أو الوطء أو اللمس أو العزم على إمساكها، وأن ذلك يؤكد قول عائشة رضي الله عنها، ويؤكد ما أمر به الرسول عليه وآله السلام لأوس وسلمة وغيرهما بان يكفروا لأنهم وقعوا أو يعزمون على ذلك. كما تدل الآيات أن العجز عن الكفارة لا يسقطها، فقد أعان أوس وأمر سلمة بأخذ صدقة قومه ويكفر بها عن نفسه، وإن قال آخرون بسقوطها بالعجز كما تسقط الواجبات وأن ما فعله الرسول عليه وآله السلام هو أن غيره كفر عنه وصرفها إليه ولو لم تسقط عنه لما صرفت إليه.

كما يدل النص على أنه لا يجوز وطء المظاهر منها قبل التكفير {من قبل أن يتماسا} وإن قال أبو حنيفة بالتفريق بين الوطء ودواعيه، فقد أجزت الدواعي في الحائض والصائم والمسبية.

كما قيل أن الوطء قبل التكفير قد جاء بشأن الإطعام فقط وليس العتق والصيام، فأطلق في حق الإطعام وقيد في حق الآخرين.

وقيل بأن الله سبحانه قد أمر بالصيام قبل المسيس، سواء كان ليلاً أو نهاراً، وذلك لمدة شهرين متتابعين، فكان الأمر بالتتابع وقيل التماس.

وقيل بإطلاق إطعام المساكين دون تعييد بقدر ولا تتابع، فلو أطعمهم جملة أو متفرقين، وكان غداء وعشاء من غير أن يملكهم شيئاً من طعام أو تمر لجاز.

وقيل بأن الإطعام لا بد أن يستوفي الستين فلا يجوز إطعام واحد ستين يوماً، وهذا قول الجمهور وإن قال أبو حنيفة بجواز إطعام الواحد.

وقيل بعدم جواز دفع الكفارة إلا إلى المساكين بما فيهم الفقراء وإن أدخل أصحاب أحمد غيرهم معهم من ابن السبيل والغارمين والمكاتبين، ولكن القرآن يخص بها المساكين ولا يتعداهم.

وقيل بأن الرقبة لم تقيد بالإيمان كما قيد في كفارة القتل، وهذا قول أبو حنيفة وأهل الظاهر وأما الجمهور فقيده بالاستدلال بنصوص أخرى تتحدث عن أهمية العمل الصالح. وأما أن يكتمل تحرير الرقبة أو تحرر كلية فهذا يلزم معه تحقيق المناط.

وأما الكفارة فإنها لا تسقط بالوطء قبل التكفير ولا تتضاعف بل تبقى واحدة كما فعل صلى الله عليه وآله وسلم وقال لأوس بن الصامت وسلمة بن صخر.

- وحكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الإيلاء، وهو الامتناع باليمين عن وطء الزوجة، بما حكم به تعالى {للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر، فإن فإؤوا فإن الله غفور رحيم. وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم} - ٢٢٦ البقرة -، فجعل سبحانه للأزواج مدة أربعة أشهر يمتنعون فيها من وطء نسائهم بالإيلاء، أي بيمين الامتناع عن الوطء، فإذا مضت فإما أن يفيء وإما أن يطلق، وأن الإيلاء يكون في حالة الغضب وليس الرضى كما حصل مع الرسول عليه وآله السلام مع نسائه، وهذا ما رآه الجمهور.

وأما ما تدل عليه الآية من أحكام فهي:

١- الحكم السابق: إذا مضت الشهور الأربعة وهو ممتنع عن الوطء فهو إما أن يفيء أو يطلق، والفيء يعني الوطء.

٢- والحكم الثاني إذا حلف على ترك الوطء أقل من أربعة أشهر لم يكن مؤلياً، وهذا هو قول الجمهور.

٣- والحكم الآخر أن حكم الإيلاء لا يثبت حتى يحلف على أكثر من أربعة أشهر، وبعد انقضائها إما أن يطلق وإما أن يفيء، وهذا هو قول الجمهور، إلا أن أبا حنيفة جعله مؤلياً بالأربعة وهو إما أن يفيء قبل نهايتها وإما أن يطلق، والجمهور يأخذ عشرة أدلة من آية الإيلاء وهي:

(١) أن مدة الإيلاء للأزواج فلهم إما أن يفينوا أو يطلقوا كانهاء مدة الدين.
(٢) وذكر الفينة بعد المدة بفاء التعقيب مما يدل على أن الفيء يكون بعد المدة.
(٣) وقوله تعالى {وإن عزموا الطلاق} دليل على أن العزم على الفعل أو تركه يكون بعد المدة.

(٤) والتخيير بين الفينة والطلاق يفرض أن تكونا معاً في المدة وليس بعدها لا أحدهما ولا كليهما وإلا كان التخيير في حالتين مختلفتين وليس في حال واحدة، وهذا يفسده.

(٥) والتخيير بين الفينة في المدة وبين أن يتركها ويعزم الطلاق بعدها لا يجعل تركها يعني العزم على الطلاق.

(٦) والتخيير بين أمرين يفرض أن يكون فعلهما إليه ليصح الاختيار.

(٧) وقوله تعالى: {وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم} يدل على أن الطلاق قول يُسمع.

(٨) إن تحديد مدة أربعة أشهر لوفاء الدين مثلاً يعني إذا مضت يتعرض للحبس وليس قبل المضي.

(٩) إن تحديد مدة الإيلاء بأربعة أشهر يعني أنه لا حق للزوجة في الوطء أثناءها، وأن المدة إذا انقضت صار لها الحق أو عاد لها الحق في ذلك بموجب العقد فتطالب بذلك.

(١٠) أن للمؤلي أن يتربص الشهور الأربعة وعليه إما الفينة وإما الطلاق عند انقضاء لمدة.

ولا يرد القول بأن الفينة بعد المدة لأن المدة للصبر ومتى انقضت يستحق عليه الحق للزوجة ولها أن تعجل المطالبة بهذا الحق أو تنتظر الزوج كأبي حنيفة.

والآية تدل على أن كل من يؤلي بأي يمين كان فهو مؤل حتى يبر إما بالفيء أو الطلاق، فإن فاء لم يقع به طلاق وإن لم يفئ ألزم بالطلاق.

- وحكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في اللعان بحكم الله تعالى {والذين يرمون أزواجهن ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين. ويدرونها عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين} (٦-٩ النور) فذكر أن هلال بن أمية قذف امرأته عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشريك بن سحماء فقال النبي عليه وآله السلام (البينة أو حد في ظهرك) وكررها عليه فنزلت الآيات بعد أن قال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، ولينزلن الله ما يبيريء ظهري من الحد.

فشهد هلال والنبي يقول (إن الله يعلم أن أحكما كاذب فهل منكما تائب؟) فشهدت ولكنها تلكأت عند الخامسة فظنوا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفصح قومي سائر اليوم، فمضت، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم (أبصروها، فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الأليتين، خدج الساقين فهو لشريك بن سحماء) فجاءت به كذلك، فقال صلى الله عليه وآله وسلم (لولا ما مضى من كتاب الله كان لي ولها شأن).

وجاء سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله، أرأيت الرجل يجد مع امرأته رجلاً أيقنته؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (لا)، فقال سعد: بلى والذي بعثك بالحق، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (اسمعوا إلى ما يقول سيديكم، أنه لغير، وأنا أغير منه، والله أغير مني).

واستنبط من هذا الحكم النبوي عدة أحكام هي:

١- يصح اللعان من كل زوجين سواء كانا مسلمين أو كافرين، عدلين أو فاسقين محدودين في قذف أو غير محدودين أو أحدهما، وقال أهل الرأي والأوزاعي والثوري وآخرون لا يكون اللعان إلا بين زوجين مسلمين عدلين حرين غير محدودين في قذف، وجاء الخلاف بسبب أن اللعان يجمع بين اليمين والشهادة، وروي عن الرسول عليه السلام (لولا الأيمان لكان لي ولها شأن) فسماه يميناً، والبخاري يرويه (لولا ما مضى من كتاب الله...) فمن غلب حكم الأيمان قال يصح من كل من يصح يمينه، ومن غلب حكم الشهادة قد حصره في مضمون حديث الرسول عليه السلام (أربعة ليس بينهم لعان: ليس بين الحر والأمة لعان، وليس بين الحر والعبد لعان، وليس بين المسلم واليهودية لعان، وليس بين المسلم والنصرانية لعان). والمدقق في الأمر يرى أن اللعان يجمع بين اليمين والشهادة، فهو شهادة مؤكدة بالقسم أو التكرار، وهو يمين مغلظة بلفظ الشهادة والتكرار ولهذا جاء فيه التأكيد على عشرة أنواع:

(١) أورد لفظ الشهادة،

(٢) أورد القسم باسم الله تعالى الجامع للأسماء الحسنى،

(٣) تأكيد الجواب بما يؤكد به المقسم بـ (إن واللام) واستخدام إسم الفاعل بدل الفعل،

- ٤) التكرار أربع مرات،
 ٥) لعنه لنفسه إن كان من الكاذبين،
 ٦) إيجاب عذاب الله عليه في الخامسة،
 ٧) ربط العذاب عليها بلعانه، فإما الحد أو الحبس، وجعل لعانها يدرأ العذاب عنها،
 ٨) وأن اللعان يوجب العذاب على أحدهما إما في الدنيا وإما في الآخرة،
 ٩) التفريق بين المتلاعنين،
 ١٠) تأبيد الفرقة ودوام التحريم بينهما.

ولهذا كان اللعان يميناً مقروناً بالشهادة، وشهادة مقرونة باليمين، ولا تثبت أحاديث الاستثناء بشكل مرجح فتبقى الملائمة شاملة.

٢- وإذا لم تلتعن المرأة فهل تحد أو تحبس حتى تقر أو تلعن؟ قال الشافعي وأهل الحجاز: تحد، وقال أحمد: تحبس حتى تقر أو تلعن وهو قول أهل العراق لأنهم رأوا أنه لم يتحقق زناها فكيف تحد، ولأن النكول لا يوجب الحد، ولأن الشافعي نفسه لا يرى القضاء بالنكول في ما دون الدرهم فكيف بالحد وهو من أعظم الأمور، ولأن العذاب المذكور في الآية {ويدروا عنها العذاب أن تشهد} لا يفرض الحد بل قد يراد به الحبس ولا بد من مرجح وقد يرجح قول عمر وعلي رضي الله عنهما: إن الحد لا يكون إلا بالبينة أو الاعتراف أو الحمل. وأصر القائلون بالحد على قولهم على اعتبار أن اللعان شهادة، وأن العذاب لا يرتفع عنها إلا باللعان، والعذاب يرتفع عن الزوج باللعان وكذلك الزوجة، فلو لم يلعن الزوج لحد حد القذف وكذلك هي. ولكن بالنظر لتعادل اللعانين فلا يجوز حدها بمجرد لعان الزوج. ولكن كونها لم تأخذ باللعان فقد رجحت جانب عدم الأخذ بما ينقذها من العذاب فاستحقت الحد. ولكن لعانها قد شرع للدفع لا للإيجاب {ويدروا عنها العذاب أن تشهد} فلعانه هو الموجب للحد ولعانها دافع لا موجب له فلا قياس بين اللعانين، فلعانه يوجب سقوط حد القذف عنه فقط ولا يوجب عليه. ولكن الشافعي فرق بين نكول مجرد من كل قوة وبين نكول مدعوم بقوة اللعان مؤكد ومكرر، فلا حجة عليه بهذا القيد للنكول. ولا حجة له صرف العذاب إلى غير الحد لأنه هو الوارد من قبل وهو المقصود هنا وهو الذي مكنها النص في دفعه بلعانها.

٣- وأما إذا نكل الزوج عن اللعان بعد قذفه فإنه يحد حد القذف عند الجمهور إلا أبو حنيفة الذي رأى بالحبس حتى يلعن أو تقر الزوجة على أساس أنه زوج وله حق وليس كالأجنبي، ولكن الزوجية تزيد من قوة الحد في حقه إذا نكل ولا تنقصه لأنها تفرض عليه عدم النكول.

٤- إن الرسول عليه وآله الصلاة والسلام كان يقضي بالوحي لا بما رآه هو، كما حصل مع المتلاعنين فقال لعويمر (قد نزل فيك وفي صاحبك، فاذهب فات

بها)، وهذا يشمل جميع الأقضية والأحكام والسنن الكلية، وأما الأمور الجزئية التي لا علاقة لها بالأحكام فتلك إما من الأمور التي جاءت بها نصوص عامة فيفرع عليها وإما أن تكون من شؤون الدنيا التي لا تدخل في الأحكام مما وصفه عليه وآله السلام بشأن تأبير النخل (أنتم أعلم بشؤون دنياكم) وقوله (إنما هو رأي رأيته).

٥- أن اللعان يجب أن يكون بحضرة الإمام أو نائبه وليس لأحد من الرعية أن يلاعن بينهما، وليس لأحد إقامة الحد إلا الإمام أو نائبه أيضاً.

٦- وأنه يسن أن يحضر التلاعن جماعة من الناس ويشهدونه، لأنه بني على التغليظ مبالغة في الردع والزجر.

٧- وأنهما يتلاعنان قياماً، فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم لهلال بن أمية (قم فاشهد أربع شهادات بالله)، والمرأة قامت فشهدت، فإيراهما الحاضرون فيتحقق أثره البليغ.

٨- وأن التلاعن يبدأ بالرجل، فلا يعتد بلعانها لو بدأت هي وإن اعتد بذلك أبو حنيفة، لأن الله تعالى ورسوله عليه وآله السلام قد بدأ به، وأما في الزنى فقد بدئ بها لأن إفسادها للزوجية وفرادها أبلغ بينما في التلاعن الزوج هو الذي قذفها وهتك عرضها وفضحها ولهذا وجب عليه الحد إذا لم يلاعن فكان البدء به في اللعان أولى منها.

٩- يوعظ ويذكر كل من المتلاعنين عند الشروع في اللعان سواء قبل المباشرة فيه أو عند الخامسة بتذكيرهما بأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة.

١٠- لا يقبل من الزوج والزوجة أقل من خمس مرات ولا بتبديل اللعنة بالغضب والإبعاد والسخط بل يجب الالتزام في النص المحدد لذلك. فهو يكرر: أشهد بالله بأني فيما رميتها به لمن الصادقين، ويقف عند الخامسة ويقول: لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، والمرأة تقول مثل ذلك.

١١- وأن الحمل ينتفي بلعانه إذا كانت حاملاً من غيره، وأما لو كانت قد زنت وهي حامل منه فالولد له قطعاً ولا ينتفي بلعانه.

١٢- وأن الرجل إذا قذف امرأته بالزنى برجل بعينه ثم لاعنها سقط الحد عنه لهما، وإن لم يلاعن فعليه الحد لكل منهما، وإن كان في هذا اختلاف: فقال الشافعي مرة عليه حد واحد، ومرة أخرى عليه لكل واحد حد، وقال أبو حنيفة ومالك: يلاعن للزوجة ويحد للأجنبي، وقال أحمد يسقط عنه الحد لهما بلعانه، وقول الرسول عليه السلام (البينة وإلا حد في ظهرك) وقيل على الحد الواحد، وأما لو قذف أجنبية بالزنى برجل سماه فعليه حدان لأنه قاذف بكل واحد منهما.

١٣- وأنه إذا لاعنها وهي حامل وانتفى من حملها انتفى عنه وانتهى الأمر ولا يحتاج إلى شيء آخر، واختلفوا في ذلك، فقال أبو حنيفة لا يلاعن لنفيه

لاحتمال أن يكون ربحاً عند الوضع وليس حملاً، وقال الجمهور له أن يلاعن في حال الحمل كما في قصة هلال بن أمية، فقد نفاه الرسول عليه وآله السلام عنه عندما قال (انظروها، فإن جاءت به كذا وكذا)، وهذا يعني أنه لا بد من علمه بالحمل، وأما لو لم يعلمه وظهر فلا بد أن يلاعن إذا أمكنه الحاكم من اللعان وإلا لم يكن له أن ينفيه فيما بعد.

١٤- وفرق رسول الله عليه السلام بينهما، وألا يدعى ولدها لأب، ولا ترمى، ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد، ولا بيت لها عليه ولا قوت لأنهما افتراقاً بغير طلاق ولا وفاة عنها. فكان ابنها يدعى إلى أمه وهو يرثها وترثه. ولا مال له عندها وما صدقها به فهو بما استحل من فرجها، وفي ذلك عشرة أحكام هي:

(١) التفريق بين المتلاعنين:

- إما بمجرد القذف: فتقع الفرقة بلعان الزوج وحده، وقال بذلك الشافعي، أولاً تقع إلا بلعانهما معاً، وقال بذلك أحمد ومالك والظاهرية، أولاً تقع إلا بلعانهما وتفريق الحاكم، وقال بذلك أبو حنيفة

(٢) فرقة اللعان فسخ وليست طلاق، قال بهذا الشافعي وأحمد وغيرهما.

(٣) أن هذه الفرقة توجب تحريماً مؤبداً.

(٤) أنها لا يسقط صداقها بعد الدخول فليس له الرجوع به عليها، وإن كان قبل الدخول فيلاحظ من يتحمل الفرقة: الزوج وحده أو هما معاً. ففي اللعان هما معاً فعليه نصف المهر وعليها النصف

(٥) أنها لا نفقة لها عليه ولا سكنى كما قضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(٦) انقطاع نسب الولد من جهة الأب، وهو قول الجمهور وخالف الظاهرية في ذلك بحجة أن التلاعن يسقط الحد ولا ينفي الولد.

(٧) إلحاق الولد بأمه عند انقطاع نسبه من جهة أبيه.

(٨) أنها لا ترمى ولا يرمى ولدها، ومن رمى أحدهما فعليه الحد، وهو قول الجمهور.

(٩) أن هذه الأحكام ترتبت على لعانهما معاً وليس لعان الزوج وحده.

(١٠) تجب النفقة والسكنى للمطلقة والمتوفى عنها إذا كانتا حاملين، ويسقطان إذا كان الحمل من غير الزوج.

١٥- في قوله عليه وآله السلام (أبصروها، فإن جاءت به كذا وكذا فهو لهلال بن أمية، وإن جاءت به كذا وكذا فهو لشريك بن سحماء) إرشاد إلى اعتبار الحكم بالقامة وأن للشبه مدخلاً في معرفة النسب، وإلحاق الولد بمنزلة الشبه.

١٦- والقول بأن من وجد رجلاً مع امرأته يقتله فيقتل به دليل على أن من قتل رجلاً في داره بدعوى أنه وجدته مع امرأته لا تقبل دعواه ويقتل به خشية من استخدام مثل هذا الادعاء وسيلة للقتل فتهدر الدماء. فاختلف في ذلك عمر

وعلي رضي الله عنهما فقال عمر لا يقتل به إذا كان المقتول مع امرأته فعلاً، وقال علي يقتل به لأن نهاية حديث سعد بن عبادة أنه أقره عليه وآله السلام على غيرته ولم يوجب عليه القصاص ولا نهاه عن قتله...

- وحكم رسول الله عليه السلام بإلحاق النسب بالزوج إذا خالف لون ولده لونه. فسأل عليه السلام من تساءل عن ذلك: (هل لك من أبل؟) قال: نعم، فقال عليه وآله السلام (ما لونها؟) فقال: حمر. فسأله عليه السلام (فهل فيها من أورك؟) قال: نعم، فقال عليه وآله السلام (فأني أتاها ذلك؟) قال: لعله يا رسول الله يكون نزعه عرق. فقال عليه وآله السلام (وهذا لعله يكون نزعه عرق)، مما يدل على أن التساءل والتعريض لاحد فيه، وأن مجرد الريبة لا يسوغ اللعان ونفي الولد، وأن من الجائز بل الشائع ضرب الأمثال والأشبهاء والنظائر في الأحكام ليفهم السائل ويدرك الناس واقعهما.

- وحكم صلى الله عليه وآله وسلم بأن الولد للفراش، وأن الأمة تكون فراشاً، وفي جواز استلحاق الولد لأبيه بعد موته أي موت الأب. فقد حكم عليه وآله السلام بغلام اختصم فيه سعد بن أبي وقاص وعبد بن زمعة بأنه (هو لك يا عبد بن زمعة، الولد للفراش، وللعاشر الحجر، واحتجبي منه سودة) لأن عبد قال: هذا أخي يا رسول الله ولد علي فراش أبي من وليدته، فكان الحكم لأن (الولد للفراش)، ولأن الأمة تكون فراشاً بالوطء، ولأن الشبه يسقط إذا تعارض مع الفراش، ولأن أحكام النسب تتبعض فتثبت من وجه دون وجه آخر، ولأن القافة حق وأنها من الشرع.

وختلف الفقهاء في كيف تصبح الزوجة فراشاً: فقال أبو حنيفة بمجرد العقد ولو لم يجتمع بها، وقال الشافعي وأحمد لا بد من العقد مع إمكان الوطء، وقال ابن تيمية لا بد من العقد مع الدخول المحقق، والراجح هو هذا الرأي الأخير القائم على التحقيق من الدخول. وأما الأمة التي تصير فراشاً فهي بالوطء كما يرى الجمهور.

- هذا بالنسبة لإلحاق الولد بالفراش، ولكن إلحاقه بطريقة الاستلحاق جائز للأب، وأما الجد فليس له ذلك إذا وجد الأب وأما إذا عدم وكان الجد هو وريثه الوحيد فجائز، وهذا هو حال الاستلحاق بالأخ، وهذا قول الشافعي وأحمد. فالاستلحاق يثبت النسب إلا إذا نازع المستلحق غيره من الورثة وعندها سقط الثبوت.

- وأما الطريق الثالث لثبوت النسب فهو البينة وذلك بأن يشهد شاهدان بأنه ابنه أو ولد من زوجته على فراشه أو من أمته، ويكفي اثنان من الورثة.

- وأما الطريق الرابع والأخير لثبوت النسب فهي حكم الرسول عليه وآله السلام بالقافة واعتباره لها وإلحاق النسب بها. فسر عليه وآله السلام بكلام القائف عن أقدام زيد بن حارثة وأسامة بن زيد بأن هذه الأقدام بعضها من بعض، وصرح عليه وآله السلام بصحة القافة في حديث الملاعنة بأنه إن جاءت به كذا وكذا فهو لهلال بن أمية وإن جاءت به كذا وكذا فهو لشريك بن سحماء، وقال (لولا الأيمان) وفي رواية أخرى (لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن)، وأن عمر وعلياً قد حكما بها ولم يعرف من الصحابة مخالف لهما. ولكن الحنفية ترد شبه القافة لأن الرسول عليه وآله

السلام رده فلم يثبت به نسباً، فيرد عليهم القائلون به بأن الشبه بالقافة هو الظن الغالب والإمارة الظاهرة التي يعمل بها أهل الخبرة مما يجعله أولى بالأعمال.

وأما إلحاق الولد بأبويه لوجود الشبه بهما فهو أمر موضع خلاف: فالشافعي ومن وافقه لا يلحقونه بأبويه لأن لكل ولد أباً واحداً، بينما الجمهور قالوا بإلحاقه بأبويه تبعاً لما يراه القائف وإقرار الورثة، وقال أحمد بجواز إلحاقه بثلاثة ظناً باختلاط مياهم في الرحم مع أن الواقع أن الجنين ما أن يتكون من حيوان منوي لرجل مع بويضة الأم حتى ينتهي الأمر ولا علاقة لمياه الآخرين مهما كثروا في تكوينه.

- وقال عليه السلام (لا مساعاة في الإسلام، من ساعى في الجاهلية فقد لحق بعصيته، ومن ادعى ولداً من غير رشدة فلا يرث ولا يورث)، والمساعاة هي الزنى، فكانت الإماء في الجاهلية يسعين لمواليهن فيكتسبن لهم وكان عليهن ضرائب مقررة، فأبطل الرسول عليه السلام هذه المساعاة في الزنى ولم يلحق النسب بها والحق النسب بالأب أو السيد إذا كانت أمة. ولا يلحق الولد إذا كان أبوه قبل موته ينكره، وإما إذا لم يكن ينكره وكان من أمة لا يملكها أو من زنى بحرة فإنه لا يلحق ولا يرث.

- وأقرع الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه بين جماعة وقعوا على امرأة في طهر واحد ثم تنازعا الولد، فضحك النبي صلى الله عليه وآله وسلم لذلك ولم ينكره. وقد اختلف الفقهاء في هذا الحكم، فقد رجح الإمام أحمد القافة على القرعة وقال:

حديث القافة أحب إلي، وقال به الشافعي في القديم، ففي هذا الأمر:

- (١) دخول القرعة في النسب، ويرجح ذلك عندما يعدم سواها من بينة وغيرها .
- (٢) تغريم من خرجت له القرعة ثلثي دية ولده لصاحبيه، لأنه بمنزلة من أترف عليهما الولد فضمن ثلثه لكل منهما.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم لمطلقة أراد مطلقها أن ينزع منها ابنها (أنت أحق به ما لم تنكحي) فحدد عليه وآله السلام من أحق بالحضانة. وقضى صلى الله عليه وآله وسلم ابنة حمزة لخالتها فقال (الخالة بمنزلة الأم).

وخير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غلاماً بين أبيه وأمه فاختر أمه فانطلقت به. وخير عليه وآله السلام بنتاً بين أبيها المسلم وأمها غير المسلمة التي أتت تطالب بها فاخترت أبيها فأخذها.

ولقد استند الأئمة الأربعة على الحديث الأول في أحقية الحضانة للأب أو الجدة للأب ما لم تتزوج.

والولاية نوعان:

- (١) ولاية المال والنكاح، ويقدم فيها الأب على الأم ومن في جهتها.
- (٢) ولاية الحضانة والرضاع، وتقدم فيها الأم على الأب.

فهل قدمت الأمومة في الحضانة لأنها مقدمة على الأبوة أو لأن الأمومة أنسب للحضانة والتربية؟ وعن الإمام أحمد روايتان: تقديم أقارب الأم على أقارب الأب، وتقديم أقارب الأب على أقارب الأم، وهذه اختارها ابن تيمية لأن أقارب الأب من الرجال مقدمون على أقارب الأم حتى قال أحمد والشافعي أن لا حضانة إلا لرجل من العصابة محرم أو لإمرأة وارثة أو مدلية بعصب أو وارث. وكذلك قال أبو حنيفة مما يرجح جهة الأبوة على جهة الأمومة في الحضانة.

وهذا هو ما قضى به القاضي شريح عندما قضى في خصومة بين عم وخال في طفل فقضى للعم ولكن عندما احتج الخال بأنه ينفق عليه من ماله دفعه إليه.

فإذا كانت صافية بنت عبد المطلب رضي الله عنها قد طالبت بابنة أخيها جعفر ومنعها منها الرسول عليه وآله الصلاة والسلام وأعطاها لخالتها فهذا لا سبيل لمناقشته ورده بأن الخالة مقدمة على العممة وأن الأم ومن يمت لها من النساء مقدمات على العممة ومن يمت لها من الرجال، ولكن إذا كانت السيدة صافية لم تطالب بحضانتها لعجزها عن ذلك بسبب تقدم السن ففي ذلك قول آخر يدعم جانب الأب على جانب الأم.

ويمكن وضع ضابط في الموضوع: فكل عصابة تقدم على كل امرأة هي أبعد منه ويتأخر عن من هي أقرب منه، وإذا تساويا فعلى وجهين. فالأب يقدم على أمه وعلى أم الأم ومن معها، ويقدم الأخ على ابنته وعلى العممة، والعم على عممة الأب، وتقدم أم الأب على جد الأب... فإذا عدم الأمهات ومن في جهتهن انتقلت الحضانة إلى العصابات، وقدم الأقرب فالأقرب منهم كما في الميراث.

ومن خلال الضوابط تبين أن ضابط ابن تيمية رحمه الله تعالى هو الخالي من التناقض عندما قال: لما كانت الحضانة ولاية تعتمد الشفقة والتربية والملاطفة كان أحق الناس بها أقومهم بهذه الصفات وهم أقاربه يقدم منهم أقربهم إليه وأقومهم بصفات الحضانة، وعندما يجتمع اثنان منهم تقدم الأنثى على الذكر إذا استوت درجاتهم، فتقدم الأم على الأب والجدة على الجد والخالة على الخال والعممة على العم والأخت على الأخ، وإن استوت درجاتهما وكانا ذكرا أو أنثيين قدم أحدهما بالقرعة، وإن اختلفتا قدم الأقرب إليه إذا كانوا من جهة واحدة، فتقدم الأخت على ابنتها.

- وأما قوله عليه السلام (أنت أحق به ما لم تنكحي) ففيه دليل على أحقية الأم بالحضانة، واختلفوا: هل لمن له الحضانة أن يتنازل عنها فيأخذ أجره إن كانت الحضانة له، ولا يجوز أن يأخذ أجره إن كانت الحضانة عليه، اللهم إلا إذا كان فقيراً. وفي قوله عليه وآله السلام (أنت أحق به) دليل على أن الحضانة حق لها وليس عليها.

وفي قوله عليه وآله السلام (ما لم تنكحي) علة لسقوط الحضانة ولعودتها بالطلاق، وهو قول الجمهور باستثناء مالك رحمه الله تعالى. ولكن التنازع جرى بين عودتها بالطلاق الرجعي أو عدم عودتها إلا بانقضاء العدة. وكذلك جرى التنازع بمجرد العقد أو مع الدخول فرأى الجمهور العقد فقط ورأى مالك بالدخول.

وعند إجراء الزواج هل تسقط الحضانة؟ على أربعة أقوال:

١- تسقط بالزواج مطلقاً، وقال بذلك الشافعي ومالك وأبو حنيفة والمشهور من أحمد.

٢- لا تسقط بالزواج مطلقاً، وقال بذلك الحسن البصري وأبو محمد ابن حزم.

٣- لا تسقط حضانة البنت بزواج أمها وتسقط حضانة الذكر، والأم أحق بحضانة البنت وإن تزوجت حتى تبلغ، وهو قول آخر لأحمد.

٤- لا تسقط الحضانة إذا تزوجت بنسيب من الطفل فقط أوله إيلاء للطفل كالجد أو محرم. والأم لا تسقط حضانتها عند الزواج لابنها إلا عندما يطالب به أقاربه، فإذا انفقت مع زوجها وأقارب طفلها يبقى في حضانتها.

- وعندما قضى صلى الله عليه وآله وسلم بالولد لأمه لا يفيد عموم القضاء لكل أم ولو كانت كافرة أو رقيقة أو فاسقة أو مسافرة، ولذلك اشترط في الحاضن ستة شروط:

* اتفاهما في الدين، فلا حضانة لكافر على مسلم لأنه لا يؤمن أن ينصره أو يهوده، كما أن الكافر لا ولاية له على المسلم والحضانة من أقوى أسباب الموالاة، وأن قيل بجواز ذلك مع خلاف الأولى.

* وأما القول بأنه لا حضانة لفاسق فضرر الكفر الذي يحتمل الجواز أشد وأعظم من الفسق، ناهيك عن أن أبا أو أمًا لم تنزع حضانة أي منهما بسبب فسقه.

* والعقل بلاشك شرط في الحضانة لأن المجنون بحاجة لمن يحضنه لا أن يحضن غيره.

* والحرية، قال مالك بأن الأم أحق بالحضانة إلا أن تباع لقوله عليه وآله السلام (لا نوّله والدة عن ولدها). وقال (من فرق بين الوالدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة).

* واتحاد الدار وعدم السفر فإنه لا يسقط الحضانة إذا كان السفر مؤقتاً لحاجة ثم يعود المسافر، والمهم أن لا يعرض السفر الطفل للضياع.

وأما أن تسقط الحضانة بحكم الحاكم فغير صحيح لأن الأم أحق بها ما لم تتزوج، فإذا تزوجت وحصل تنازع بين من لهم الحق فإن حكم الحاكم هو الذي يحسم الأمر عندما يأمر بتنفيذ أمر رسول الله عليه وآله السلام، وكذلك الحال إذا نازع الأم منازع فحكم الحاكم يحسمه ويدفعه لها ما لم تتزوج.

وأما شأن التخيير بين الأبوين فقد احتج من لا يراه بظاهر الحديث (أنت أحق به) فلا اختيار مع الأحق به. فأبو بكر الصديق رضي الله عنه حكم لأم طفل عمر المطلقة لعدم التمييز. وعمر بن الخطاب رضي الله عنه خير غلاماً بين أبيه وأمه فاختر أمه فقال: هو مع أمه حتى يميز ويختار، وخير بين أم طفل وعمه فاختر أمه فقال: إن لطف أمك خير من خصب عمك، وخير علي رضي الله عنه بين أم طفل وعمه فاختر أمه، فقال عن أخيه الصغير، هذا إذا بلغ مبلغ هذا خير أي سبع أو ثمان سنين، وخير أبو هريرة رضي الله عنه غلاماً بين أبيه وأمه...

والخلاصة أن الطفل، ذكراً كان أو أنثى، أمه أحق بحضانتها إذا كان ذكراً ابن سبع أو دونها، ولا تخيير في ذلك، وأما إن كان له سبع فيخير، فإن لم يختر يقرع بينهما، أو الأب أحق به دون تخيير، أو الأم أحق به كما قبل السبع. وإما إذا كان أنثى فأمها أحق بها دون السبع وبدون تخيير، وأما السبع وفوق فالأم أحق بها حتى التسع ثم الأب أحق بها دون تخيير، أو الأم أحق بها حتى تبلغ، أو تخير بعد السبع كالذكر. وهذا مذهب أحمد، وأما الشافعي فالأم أحق به ذكراً أو أنثى إلى السبع، وعندها يخير كل منهما بين الأب والأم. وأما مالك وأبو حنيفة فلا تخيير بحال، فالأم لدى أبو حنيفة أحق بالأنثى حتى تبلغ وبالذكر حتى يخدم نفسه في الأكل والشرب واللبس، ثم يكونان لدى الأب. وأما مالك فالأم أحق بالذكر والأنثى حتى يثغر ولا تخيير. فالكل يضع في اعتباره مصلحة وخير الطفل، ذكراً أو أنثى، قبل السبع أو بعدها، وفيما إذا كانت مع الأب أو الأم أو يتساويان فيخير بينهما أو لا يريد التخيير فيقرع بينهما، فعلى من يتولى الأمر أن يراعي ذلك سواء كان بالاتفاق ودون نزاع يصل للقاضي أو كان القاضي بعد نشوب النزاع، فالأمر فيه فسحة لخير الطفل. وحديث ابنة حمزة بالحضانة لخالتها لكونها أنثى قدمت على قرابة الأب، ولا يوجد فيه دليل بأن قرابة الأم أحق بالحضانة من العصبية قرابة الأب، وإنما الحكم جاء لكون خالتها متروجة بقربى للطفلة ولأن الطفلة أنثى، ولأنه لا يمكن أن يتزوجها لحرمة الجمع بين الطفلة وخالتها فهي محرمة عليه وقد وضح ذلك المزيد من الحديث عندما قال صلى الله عليه وآله وسلم (وأنت يا جعفر أولى بها، تحتك خالتها، ولا تتكح المرأة على عمتها ولا على خالتها).

وأما حكمه صلى الله عليه وآله وسلم في النفقة على الزوجات فقد ثبت أنه عليه وآله السلام لم يقدرها بمبلغ معين، ورد الأزواج إلى العرف عندما قال (واتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف)، وقال عليه وآله السلام لهند زوجة أبي سفيان عندما اشتكت إليه عليه بأنه شحيح ولا ينفق عليها وولده إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم (خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف). وهذا الحكم مطابق لقوله تعالى {وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف} - ٢٣٣- البقرة وأما المقدار فقد قال تعالى: {من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم} - ٨٩- المائدة، وصح عن ابن عباس رضي الله عنه: الخبز والزيت، وعن ابن عمر رضي الله عنه: الخبز والسمن، والخبز والتمر، والخبز واللحم.

فيكون الواجب في حق الزوج حصول الكفاية من الطعام واللباس، وما التقدير الذي ورد لدى الفقهاء إلا اجتهاد بتقدير زمنهم في حق الموسر والفقير، لأنه لم يحفظ عن أحد من الصحابة تقدير النفقة بمقدار معين وإنما الذي ورد في الكتاب أو السنة في الكفارات والنفقات هو الإطعام لا التملك، والإطعام كان وفق ما كانوا عليه في ذلك الزمن من الطعام المتوفر لديهم. والجمهور إلا الشافعي على عدم التقدير. والفرق بين الكفارة والنفقة أن الكفارة لا تختلف باليسر والعسر ولا مقدرة بالكفاية وإنما هي واجب شرعي بالإطعام المحدد {من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم} من حيث النوعية وأما الكمية فكما ورد النص في ذلك.

- وفي حديث هند دليل على تفرد الأب بنفقة أولاده دون مشاركة الأم وإن ورد قول شاذ بأنها تشارك بقدر نصيبها من الميراث، فالعصبة تنفرد بالنفقة، كما أن فيه دليل على أن نفقة الزوجة والأقارب مقدرة بالكفاية، وأن ذلك بالمعروف، كما أن فيه دليل على أن للإنسان أن يأخذ من غريمه بقدر حقه الذي جده وإن كان هذا يتناوله حديث آخر (أد الأمانة إلى من ائتمك ولا تخن من خاتك)، كما أن فيه دليل على أن نفقة الزوجات والأقارب تتعرض لاحتمال السقوط بمضي الزمان على ثلاثة أقوال:

١- قول أبي حنيفة ورواية لأحمد أنها تسقط بمضي الزمان.

٢- قول للشافعية أنها لا تسقط إذا كان القريب طفلاً.

٣- مشهور للشافعية وأحمد ومالك أنها تسقط للقريب دون الزوجة.

وقالوا بالسقوط لأنها على وجه المواساة للإبقاء على الحياة بحيث إذا أيسر المنفق عليه سقطت عنه من المنفق وتحمل هو نفقة نفسه، وأما عدم السقوط فهي للطفل الصغير المضطر لها. والفرق بين نفقة الزوجة والقريب أنها للقريب صلة بينما للزوجة واجب في اليسار والإعسار اللهم إلا إذا استغنت عنها بمالها بينما القريب تجب له عند إعساره وحاجته، والزوجة يجب لها الإنفاق حتى ما مضى عند الطلاق بينما القريب لما يأتي فقط منذ العسر والحاجة. وبالخلاصة يلاحظ أنه لا فرق بين نفقة الزوجة والقريب فكلاهما من أجل الحياة، وعند الحاجة ولا يسر لديهم، ويوماً بيوم دون ارتباط بما مضى ما دام هناك زوجية، وأما عند الطلاق فلا حاجة للمقارنة بين الزوجة والقريب. وأما استبدال نفقة الطعام والكسوة بدراهم فلا أصل له لا في كتاب ولا سنة، وإن كان من الممكن أن يتم بالاتفاق بين المنفق والمنفق عليه.

- وأما حكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بتمكين المرأة لفراق زوجها إذا أعسر بنفقتها فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم (أفضل الصدقة ما ترك غنى) وفي رواية (ما كان عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول)، فقيل: من أعول يارسول الله؟ فقال (إمرأتك تقول: أطعمني وإلا فارقتي، خادمك يقول: أطعمني واستعملني، ولدك يقول: أطعمني إلى من تتركني؟)

فهل يفرق بين الرجل وزوجته إذا أعسر عن الإنفاق عليها؟ في ذلك أقوال:

١- يجبر على الإنفاق أو الطلاق، وهو قول سعيد بن المسيب رضي الله عنه.

٢- يطلقها عليه الحاكم طليقة رجعية إذا أعسر (مالك)، وتخبر للإقامة معه ونفقتها دين في ذمته إن شاعت حتى يوسر أو يلزم بطليقة رجعية، أو يفسخ الزواج بأمر الحاكم الذي أثبت الإعسار (الشافعي). ويعطى مهلة شهر ونحوه (مالك)، ولها أن تقيم أو تفسخ بأمر الحاكم الذي يجبره على الطلاق أو يفسخ عليه حتى لو قبلت أصلاً إعساره من البداية (أحمد) وإن كان قبولها بالإعسار قد يسقط حقها في طلب الفسخ. وقال جماعة من السلف والخلف بأن الزوج لا يملك حبسها إذا أعسر ولم يكفها المؤنة.

٣- عليها أن تواسيه إذا أعسر وتتقي الله وتصبر وينفق عليها ما استطاع {لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها، سيجعل الله بعد عسر يسراً} - ٧ الطلاق - ، فهذا القول بعدم التفريق هو مذهب جميع أهل الظاهر لأن نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم ونساء الصحابة رضوان الله عليهم لم تطلب واحدة منهن الطلاق بسبب الإعسار، والله تعالى أوجب الصبر على المعسر أو ندب إلى الصدقة، فإما أن تنظره إلى ميسرة وإما أن تصدق، وأما الأحاديث بالتفريق ففيها كلها مقالة ضعف.

والخلاصة أن من خدع زوجته ببسره أو ترك الإنفاق مع اليسر، وعجزت عن أخذ كفايتها من ماله بنفسها أو بالحاكم، فلها الفسخ، وإن تزوجته معسراً أو أصابته جائحة لماله فلا فسخ لها.

- وجاء حكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم موافقاً لكتاب الله بأنه لا نفقة ولا سكنى للمبتوتة أي المطلقة طلاقاً نهائياً، فقد اشكت إليه عليه وآله السلام فاطمة بنت قيس لأن زوجها طلقها البتة وهو غائب، فقال لها (ليس لك عليه نفقة) وأمرها (اعتدي عند ابن أم مكتوم، فإنه رجل أعمى، تضعين ثيابك، فإذا حللت فأذنيني) فجاءته بعد عدتها وأخبرته بان أبا جهم ومعاوية بن أبي سفيان قد خطباها، فنهاها عنهما لأن أبا جهم كان (لا يضع عصاه عن عاتقه) ولأن (معاوية صلوك لا مال له) أنكحها إلى أسامة بن زيد.

وفي رواية أخرى قال لها صلى الله عليه وآله وسلم (لا نفقة لك ولا سكنى)، وقال صلى الله عليه وآله وسلم في رواية أخرى (إنما النفقة والسكنى للمرأة إذا كان لزوجها عليها الرجعة).

وعليه فإن أحكام المطلقات الرجعيات غير المبتوتات:

- ١- فليس للأزواج أن يخرجوهن من بيوتهن.
 - ٢- وأنهن لا يخرجن من بيوت أزواجهن.
 - ٣- وأن للأزواج إمساكهن بالمعروف قبل انتهاء العدة أترك الإمساك والتسريح بالمعروف الحسن.
 - ٤- وأن إشهد ذوي عدل على الرجعة إما واجب أو مستحب.
 - ٥- وأن يتوفر للمطلقات الرجعيات السكنى {اسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم}.
- وأما المبتوتات فليس لهن لا نفقة ولا سكنى لأنهن أصبحن أجنبيات وعليهن الاعتداد منه فقط.

وقد وردت عدة مطاعن على حديث فاطمة بنت قيس قديماً وحديثاً:

- ١- طعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأنه لا يترك سنة رسول الله ولا كتاب الله لقول امرأة حفظت أو نسيت، وأن لها السكنى

والنفقة. وهذا الطعن مردود بأنه كذب على أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لم يقله لأنها من جهة مشهورة بالحفظ، ومن جهة أخرى أن ما نسب لعمر رضي الله عنه لا علاقة له بالمطلقة ثلاثاً، ومن جهة ثالثة ما كان لفاطمة ولا لأهلها أن يسكتوا على رفض عمر لحديثها في مثل هذا الموقف.

٢- طعن عائشة رضي الله عنها وأسامة بن زيد وسليمان بن يسار وغيرهم بأن خروج فاطمة من المنزل كان بسبب سوء خلقها مع أهل زوجها وليس لأنه لا حق لها بالسكنى. وهذا مطعن مردود لأن فاطمة كانت من خيار الصحابة وأوائل المهاجرين ولم ينكر عليها الرسول عليه وآله السلام شيئاً من هذا، وكان هو الأولى بذلك.

٣- وطعن في روايتها بأنها جاءت مخالفة للقرآن، وهذا الطعن مردود أيضاً لأن حديثها إما أن يكون تخصيصاً لعموم القرآن، أو بياناً لما لم يتناوله وسكت عنه، أو بياناً لما أراده، والرسول عليه وآله السلام لا يمكن أن يحكم بما يخالف كتاب الله تعالى أو يعارضه حتى أنكر الإمام أحمد قول عمر رضي الله عنه بشأن ذلك.

٤- وطعن في روايتها بأن الراوية امرأة لم تأت بشاهدين يتابعانها على حديثها. وهو طعن مردود أيضاً لأن كون الراوي امرأة مطعن باطل، والعلماء جميعاً على خلافه، والكثير من السنن رواها النساء سواء من أمهات المؤمنين أو غيرهم، وعمر رضي الله عنه نفسه مما لا يصح أن ينسب إليه هذا الطعن لأنه بالإضافة لكثير من مواقف النسيان التي رويت عنه فقد كان رجاعاً بمجرد التذكير ولو ذكر حديث فاطمة أمامه عن المبتوتة لما وصفها بذلك الوصف من الحفظ والنسيان ورجع إليه.

- وكان حكم رسول الله عليه وآله السلام بوجوب النفقة للأقارب موافقاً لكتاب الله تعالى، فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم لمن سأله: يارسول الله، من أبر؟ قال (أمك وأباك وأختك وأخاك ومولاك الذي يلي ذاك، حق واجب ورحم موصولة)، وقال (يد المعطي العليا، وأبدأ بمن تعول: أمك وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك)، وفي رواية أخرى (أبوك ثم أدناك أدناك) و (أباك ثم الأقرب فالأقرب) و (إن أطيب ما أكلتم من كسبكم، وأن أولادكم من كسبكم فكلوه هنيئاً)... فهذا مطابق مع قوله تعالى {واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى} ٣٦ النساء، وقوله {وأت ذى القربى حقه} - ٢٦ الاسراء - فجاء حق ذى القربى بعد حق الوالدين، وقوله {لا تضار والدة بولدها ولا مولود بولده وعلى الوارث مثل ذلك} - ٢٣٣ البقرة - فجعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه النفقة على الوارث مثل المولود له، وقال بذلك زيد بن ثابت رضي الله عنه أيضاً وكذلك قال به عطاء وجمهور السلف. ولكن الفقهاء اختلفوا في حكم المسألة:

١- كان ذلك برأ وصلة وليس جبراً، قال بذلك الشعبي، ويظهر أنهم كانوا بدافع تقوى الله يؤدون تلك النفقة دون حاجة لجبر الحاكم.

- ٢- وتجب على الأم والأب إذا كانا فقيرين، وعلى الإبن حتى يبلغ والبنبت حتى تزوج، مع اختلاف الدين واتحاده وقال بذلك مالك.
- ٣- وتجب نفقة عمودي النسب خاصة فقط بشرط اتفاق الدين ويسار المنفق وحاجة المنفق عليه وعجزه عن الكسب، وتسقط عن الولد عندما يبلغ صحيحاً، وقال بذلك الشافعي.
- ٤- وتجب على كل ذي رحم محرم لذى رحمه مع اتحاد الدين واختلافه بالنسبة للأولاد والآباء، ومع اتحاده فقط مع غيرهم، وفي كلتا الحالتين عند حاجة المنفق عليه وقدرة المنفق، وقال بذلك أبو حنيفة.
- ٥- وتجب نفقة عمودي النسب مطلقاً، الوارث وغير الوارث، وأما غير عمودي النسب فيجب التوارث حتى تجب النفقة. ويجب اتحاد الدين لتجب النفقة إلا في عمودي النسب في قول، وتجب نفقة زوجة من وجبت نفقته في قول، وقال بذلك أحمد، وهو أوسع من مذهب أبي حنيفة.

فالنفقة تستحق بشينين: بالميراث بكتاب الله، وبالرحم لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

- وأبان حكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الرضاعة ما يحرم بها وما لا يحرم، والمقدار المحرم منها، وأثرها في الكبير فقال (إن الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة)، وقال عن ابنة حمزة (أنها لا تحل لي، إنها ابنة أخي من الرضاعة، ويحرم من الرضاعة ما يحرم من الرحم)، (لا تحرم المصاة والمصتان) (لا تحرم الإملاجة والإملاجان)، (إنما الرضاعة من المجاعة)، (لا يحرم من الرضاعة إلا ما فتق الأمعاء في الثدي وكان قبل الفطام)، (لا رضاع إلا ما كان في الحولين)، (لا يحرم من الرضاع إلا ما أنبت اللحم وأنشز العظم). ورخص رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لسالم مولى أبي حذيفة بأن قال لزوجته (أرضعيه) ليدخل عليها وقال (قد علمت أنه كبير) وسارت عانثة على هذه الطريقة مع بنات إخوتها وأخواتها بالإرضاع خمس رضعات، ولكن أم سلمة وغيرها من أمهات المؤمنين رفضن ذلك وقلن لعانثة: والله ما ندري، لعلها كانت رخصة من النبي صلى الله عليه وآله وسلم لسالم دون الناس.

وفي هذه المسألة أحكام كثيرة منها المتفق عليه ومنها لا:

١- (الرضاعة تُحرّم من تُحرّم الولادة) حكم متفق عليه، ولا يتعدى التحريم إلى غير المرتضع ممن في درجته من الإخوة والأخوات، فيباح لأخيه نكاح من أرضعت أخاه وبناتها وأمهاتها، ويباح لأخته نكاح صاحب اللبن وأباه وبنيه... وهكذا كل من ليس في درجته. وكذلك يحرم نظير المصاهرة بالرضاع، فيحرم الجمع بين الأختين من الرضاعة أو بين المرأة وعمتها أو خالتها...

وبالخلاصة: لا يستلزم ثبوت أحكام النسب من وجه ثبوتها من كل وجه أو من وجه آخر. ففساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمرن بالاحتجاب عن حرم عليه نكاحهن من غير أقاربهن ومن بينهن وبينه رضاع فقط بحيث لا يتعدى إلى أقاربهن، فبناتهن لسن أخوات المؤمنين فيحرم على رجالهم، ولا بنوهن أخوة لهم يحرم عليهم بناتهن، ولا أخواتهن وإخوتهن خالات وأخوالاً، بل هن حلال للمسلمين بالاتفاق، فكانت أسماء بنت أبي بكر أخت عائشة رضي الله عنها تحت الزبير، وكانت أم عائشة تحت أبي بكر، وأم حفصة تحت عمر.... فلم تنتشر الحرمة من أمهات المؤمنين إلى أقاربهن، وقوله تعالى في المحرمات {وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم} - ٢٣ النساء - لا يدخل ابن الرضاع مع ابن الصلب.

فالنزاع يبقى قائماً من حيث التحريم بلبن الفحل أو الغاء ذلك، فقال قوم: لا تأثير له، وقالوا: إنما التأثير لمصاهرة النسب لا لمصاهرة الرضاع.

والثابت بالسنة الصحيحة التحريم بلبن الفحل، وآية التحريم لم تجعل أم الرضاع وأخت الرضاع داخلة تحت الأمهات والأخوات عندما قالت {حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم} ثم قالت {وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة} - ٢٣ النساء - فلفظ الأم مطلقاً يدل على الأم من النسب فقط فيكون {وأمهات نسائكم} مثل قوله {وأمهاتكم} فهن أمهات نساننا من النسب ولا يتناول أمهاتهن من الرضاعة. وقد ظهر من قوله {يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب} أن من حرم على الرجل من النسب حرم عليه نظيره من الرضاعة ولكن لا يدل على من حرم عليه بالصهر أو بالجمع حرم عليه نظيره من الرضاعة بل يدل على خلاف ذلك بدليل {وأحل لكم ما وراء ذلكم} - ٢٤ النساء من مفهوم العموم. ولذلك صح الزواج من بنت الزوجة أي الربيبة التي لم تكن في الحجر بعد أمها لقوله تعالى {وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم} - ٢٣ النساء - لأنها لم تكن في الحجر فقط، وهذا ما قال به عمر وعلي رضي الله عنهما مع أنها ابنة إمرأته من النسب فالشرع وضع ثلاثة قيود في تحريمها: أن تكون في حجره، وأن تكون من إمرأته، وأن يكون قد دخل بأمرها.

٢- إن لبن الفحل يُحرم وينتشر منه التحريم كالمراة، وإن قال بغير ذلك الكثير عندما حصروا التحريم فقط من جهة الأم بقوله تعالى {وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة} - ٢٣ النساء - وبأدلة يوردونها من السنة التي يؤكدتها قول الصحابة رضوان الله عليهم: إن الرضاعة من قبل الرجل لا تحرم شيئاً. ولكن من يرون تحريم لبن الفحل يردون عليهم بأن القرآن إما أنه يتناول الأخت من الأب من الرضاعة فيحرمها وإما أنه لا يتناولها فيكون ساكتاً عنها فتأتي السنة بالتحريم ابتداءً وتخصيصاً للعموم من قوله تعالى {وأحل لكم ما وراء ذلكم} - ٢٤ النساء - والظاهر أن لفظ الأخوات بعمومه يتناول من الأم ومن الأب لأن الأخت من الأب كالأخت من الأم، والرسول عليه وآله السلام قال لعائشة رضي الله عنها: (إنذني لأفلق، فإنه عمك) فأثبت العمومة بينها وبينه بلبن الفحل وحده، فإثبات العمومة تثبت الأخوة بطريق الأولى. فالسنة لم تخالف

الكتاب بل بينته فأثبتت تحريم ما سكت عنه أو خصصت عمومها. ثم أن الصحابة غير صحيح أنهم لا يرون التحريم بلبن الفحل، فهذا هو علي رضي الله عنه يثبت هذا التحريم، وكذلك ابن عباس رضي الله عنه وعائشة رضي الله عنها عندما كانوا يقولون بأن لبن الفحل ينشر الحرمة. ولكن هل تثبت أبوة صاحب اللبن وإن لم تثبت أمومة المرضعة فيكون ثبوت الأبوة فرعاً لثبوت الأمومة؟ وهذه المسألة فيها وجهان:

(١) انفصال ثبوت الأبوة عن ثبوت الأمومة لأن بنات الأب لو كن خمسة وأرضعن طفلاً خمس رضعات لقول الشافعي أو أقل من ذلك على قول غيره فهن لا يصرن أمهات له بالرضاعة إذا لم يكتمل عدد الرضعات المحرمات من كل منهن ولكن الأبوة تثبت لأن الرضعات بعددها تجاوز الحد المحرم.

(٢) لا تثبت الأبوة لذك الأب وإن انفصلت إذا كان له أم وأخت وابنة وزوجة ابن، وارضعن طفلة رضعة لكل منهن فإنهن لا يصرن أمهات له ولا يصير هو أباً له ولا جدّاً ولا أخاً ولا خالاً.

وهكذا تكون الخلاصة:

إن التحريم بلبن الفحل يفرض التحريم بماء الزاني من باب الأخرى والأولى، وهذا قول الجمهور حتى قال الإمام أحمد بقتل من تزوج أبنته بالزنى بالسيف محصناً كان أو غير محصن بغض النظر عن انقطاع الإرث بين الزاني والبنات.

٣- أنه لا تحرم المصّة والمصتان، بنص الحديث السابق، ولا يحرم إلا خمس رضعات، وهذا موضع خلاف بين العلماء. فمالك وأبو حنيفة يقولان بتحريم قليل الرضاع وكثيره، وهو رواية عن أحمد. وفي رواية ثانية عن أحمد وقول مجموعة أخرى من العلماء: أبو ثور، أبو عبيد، ابن المنذر، وداود أنه لا تحريم بأقل من ثلاث رضعات. وقالت مجموعة أخرى: ابن مسعود، وابن الزبير، وعطاء، وطاوس، ورواية عن عائشة رضي الله عنها بأنه لا تحريم بأقل من خمس رضعات، وهذا مذهب الشافعي، وهناك رواية أخرى عن عائشة بسبع رضعات، ورواية ثالثة بعشر رضعات.

فأصحاب التحريم بالقليل والكثير مهما كان يأخذون بمطلق النص في القرآن والسنة، وأصحاب الثلاث يقفون عند النص بعدم التحريم بالمصّة والمصتان ولا لإملاجة ولا إملاجان فيردون بالثلاث لأنهن أقل الجمع وبعد الإثنتين. وأصحاب الخمس لديهم الأحاديث الصحيحة الصريحة ويكفي منها قوله عليه وآله السلام لعائشة رضي الله عنها (أرضعي سالمًا خمس رضعات تحرمي عليه) وقد نقل ذلك نقل تواتر وليس آحاد كالأحاديث الأخرى.

والسؤال: ما هي حقيقة الرضعة الواحدة؟

إن في تحقيق ذلك اختلافاً بين العلماء، فمنهم من روى إذا ترك الثدي فهو رضعة، وإذا عاد فهو رضعة أخرى، ومنهم من يرى أن الانقطاع للتنفس أو الراحة أو

الإنتقال إلى الثدي الآخر يبقى في إطار الرضعة الأولى، ومنهم من يرى الرضعة لكل ثدي إذا إنتقل بينهما، ومنهم من يرى الرضعة إذا قطع الرضاعة باختياره وليس بفعل المرضعة. ولو جرى القياس على الأكلة والجلسة فإن التقطع لا يجعل أياً منهما أكلتين ولا جليستين بل أكلة وجلسة، وكذلك الرضعة ما دام عاد إلى الرضاعة عن قريب، وهذا هو مذهب الشافعي، وهو الأرجح.

٤- أن الرضاع المحرم ما كان قبل الفطام في زمن الارتضاع المعتاد. واختلف الفقهاء في ذلك: فقال الشافعي وأحمد وصاحبنا أبو حنيفة بأنه ما كان في الحولين. وقال آخرون منهم أم سلمة وابن عباس وغيرهما بأن الرضاع المحرم ما كان قبل الفطام دون تحديد بزمن. وقال آخرون منهم ابن عمر وابن المسيب وغيرهما بأنه كان في الصغر دون تحديد بزمن. وقال أبو حنيفة وزفر: ثلاثون شهراً. وقال مالك يحرم في الحولين وما قاربهما. وقال جماعة من الكوفة بأنه ثلاث سنين وما زاد عليها لا يحرم. وقال عمر بن عبد العزيز مدته إلى سبع سنين. وقالت طائفة من السلف والخلف: يحرم رضاع الكبير ولو كان شيخاً برضاع سالم.

وأصحاب الحولين يستندون إلى قوله تعالى: {والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة} - ٢٣٣ البقرة. مما يدل على أنه لا حكم لبعد الحولين في التحريم، وهو معنى الرضاع في الثدي ومعنى (لا رضاع إلا ما فتق الإيماء) أي قبل الفطام، ويؤكد حديث ابن عباس (لا رضاع إلا ما كان في الحولين) وحديث ابن مسعود (لا يحرم من الرضاعة إلا ما أنبت اللحم وأنشز العظم) وهذا لا يكون في حق الكبير، ولحديث (فإنما الرضاعة من المجاعة) أي زمن الرضاع وهو الحولين. ويردون حديث سهلة في رضاع سالم بأنه كان أول الهجرة، وأما الأحاديث الأخرى فكانت عام الفتح لمكة ولخيبير، وهذا يؤكد أنها كانت بعد ذلك الحديث.

فيرد عليهم القائلون بتحريم رضاع الشيخ بأمر سهلة بنت سهيل في إرضاعها لسالم مولى أبي حذيفة وكان كبيراً ذا لحية (أرضعته تحرمي عليه) وهو صريح صحيح، ورأوا الرضاعة في الحولين إنما هي الموجبة للنفقة على المرضعة {والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف} - ٢٣٣ البقرة - فليس في هذا تحريم الرضاعة بعد الحولين ولا قطع للرضاعة بتمام الحولين ولا سيما أن قوله تعالى {وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة} - ٢٣٣ النساء - لم يذكر الحولين، كما أن آثار تحريم رضاع الكبير جاءت متواترة، مما لا يجعل للرافضين لذلك إلا القول بأن ذلك كان خاصاً بسالم، وإن كان هذا القول من الظن لأن نساء النبي عليه وآله السلام اللاتي قلن بذلك: ما نرى هذا إلا خاصاً بسالم، وما ندرى لعلها كانت رخصة لسالم، وهذا الظن لا يعارض السنن الثابتة، فشتان بين احتجاج أم سلمة بظنها وبين احتجاج عائشة بثباتها حتى أن أم سلمة سكنت ولم تنطق بحرف عندما قالت لها عائشة: أما لك في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أسوة حسنة؟ ثم إن سؤال سهلة للرسول عليه وآله السلام: كيف

أرضعه وهو رجل كبير؟ يدل على أنه قد جاء بعد نزول الآيات المذكورات. ثم إن قول الرسول عليه وآله السلام (إنما الرضاعة من المجاعة) يؤكد أن شرب الكبير اللبن يؤثر في دفع المجاعة عنه قطعاً كما يؤثر في الصغير، ولأن ذلك يؤكد أن المصاة الواحدة لا تغني من جوع ولا تثبت لحماً ولا تنتشر عظماً.

وأحاديث الحولين وفي الثدي قبل الفطام لا تبعد عن قوله عليه وآله السلام (لا رباً الا في النسيئة) مع أنه لم يمنع ثبوت ربا الفضل بأدلتها، وسنة الرسول عليه وآله السلام لا تتضارب بل تستعمل كلاً في وجهه ولا سيما أن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها هي التي روت هذا وهذا، وهي كانت تدخل عليها الكبير إذا أرضعته في كبره، مما يلزمنا بالقول بأن فعلها هو الحق، وأن رضاع الكبير يقع به التحريم كرضاع الصغير، كما أن القول بأن رضاع سالم كان في أول الهجرة يردونه بأن رواه لم يصرحوا بسماعه من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولم تحتج أحداً من نساء النبي عليه وآله السلام على عائشة بذلك بل قلن بتخصيص سالم، وأن عائشة التي روت الحديثين تعلم أنه ليس بمنسوخ وإلا لقاتل بذلك، وأن عائشة نفسها ابتليت بالمسألة فكانت تعتني بها. ولو كان الحديث مخصوصاً بسالم، كما رأت أم سلمة ومن معها من نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن تبعهن عندما ذكرن أن سهلة قد سألت الرسول عليه السلام بعد نزول آية الحجاب مما يجعل التخصيص يحتاج لدليل، وهذا ما حصل بالنسبة لسالم إذ حرم أبداء الزينة لغير محرم وأبيح لسالم وهو غير محرم فكان ذلك رخصة خاصة به تخرج من عموم التحريم، وهذا القول يؤدي للعمل بجميع الأحاديث ولا ينسخ أيها منها لأن العلم بالتقديم والتأخير غير متحقق. ثم إن حديث (الرضاعة من المجاعة) يؤكد أنه للصغير الذي يشبع باللبن وليس كالكبير الذي لا يشبع إلا بالطعام.

ويمكن القول بعد هذا النزاع بأن حديث سهلة ليس بمنسوخ ولا مخصوص ولا عام وإنما هو رخصة للحاجة والضرورة للرجل الذي لا يستغني عن دخوله على المرأة كحال سالم مع امرأة أبي حذيفة، وأما من عداه فلا يؤثر إلا رضاع الصغير، وهذا قول ابن تيمية رحمه الله تعالى، وهذا أولى من النسخ ودعوى التخصيص وأقرب إلى العمل بجميع الأحاديث من الجانبين.

- وأما حكمه صلى الله عليه وآله وسلم في العِدِّد، جمع عدة، فقد جاء واضحاً أتم الوضوح وهو يذكر أربعة أنواع من العِدِّد هي:

النوع الأول - عدة الحامل بوضع الحمل مطلقاً {وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن} - ٤ الطلاق - ، وهو حكم يعم أولات الأحمال، ويعم الأجل بحيث يكون وضع الحمل هو جميع أجلهن، وأن أجلهن هو وضع حملهن حتى لو كانت الحامل المتوفى عنها زوجها عدتها عند وضع حملها ووضعته والزوج على المغتسل كما قال صلى الله عليه وسلم لسبيعة الأسلمية.

النوع الثاني - عدة المطلقة التي تحيض، وهي ثلاثة قروء {والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء} - ٢٢٨ البقرة -.

النوع الثالث - عدة التي لا حيض لها. وهي نوعان صغيرة لا تحيض، وكبيرة ينست من الحيض {واللاني ينسن من المحيض من نسانكم إن أرتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللاني لم يحضن} - ٤ الطلاق - أي فعدتهن كذلك.

النوع الرابع - عدة المتوفى عنها زوجها {والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً} - ٢٣٤ البقرة - ويشمل الدخول بها وغيرها، والصغيرة والكبيرة باستثناء الحامل المحددة عدتها بوضع الحمل.

وجرى اختلاف في فهم المراد من القرآن ولكن السنة دلت على ذلك:

١- فقد اختلف السلف في المتوفى عنها زوجها إذا كانت حاملاً، فقال علي وابن عباس وجماعة من الصحابة: أنه أبعد الأجلين من وضع الحمل أو أربعة أشهر وعشراً، وهذا أحد قولي مالك. وابن مسعود يرى أن {وأجلهن أن يضعن حملهن} هي في المتوفى عنها ومثلها المطلقة، ولكن الحامل تختلف عنها في أن عدتها لا تنقضي إلا ببيان خلق المولود، فإذا كان بيد أو رجل عتقت الأمة وانقضت العدة، وإذا كان في بطنها ولد آخر لا تنقضي العدة إلا بعد أن تلده، وهذا كلام أحمد. وحكمت أم سلمة لأبي هريرة الذي نازع ابن عباس القائل بأقصى الأجلين بأن العدة وضع الحمل، واستندت في ذلك لحديث سبيعة، وقيل بأن ابن عباس تراجع عن قوله وأصبح جمهور الصحابة والأئمة الأربعة من بعدهم على رأي واحد بأن عدة الحامل وضع الحمل ولو كان الزوج على المغتسل، وأجابوا على القول بأقصى الأجلين إن صريح السنة يدل على اعتبار الحمل فقط، فقال صلى الله عليه وآله وسلم لمن اعترض على سبيعة الأسلمية التي توفى عنها زوجها وهي حامل فأرادت أن تنكح بعد وضع حملها فقال لها: ما أنت بناكحة حتى تعتدي آخر الأجلين، فسألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال (كذب أبو السنايل، قد حلت فانكحي من شئت).

٢- أن {أولات الأحمال} نزلت بعد {والذين يتوفون منكم} كما قال ابن مسعود وهذا يعني نزول سورة الطلاق التي تسمى سورة النساء القصوى بعد سورة البقرة التي تسم سورة النساء الطولى مما يجعل آية الاعتداد بها ناسخة لآية البقرة أو مخصصة أو مبينة أو مقيدة مما يفرض تقديمها على عموم تلك وإطلاقها.

٣- أن اعتبار السنة الصريحة للحمل وتأخر آية الطلاق يفرضان وجوب تقديمها لو لم يقعا بسبب العمومات الثلاثة فيها أي في الآية. وكل ذلك مما يؤكد بأن العدة للحامل وضع الحمل، ولكن الحامل بتوأمين لا تنقضي عدتها حتى تضعهما جميعاً، سواء كان أو كانا أحياء أو موتى، تامي الخلقة أو ناقصيها.

واختلفوا في الإقراء، الحيض أو الطهر، فقال أكابر الصحابة من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود وأبي موسى وعبادة بن الصامت وأبي الدرداء وابن عباس ومعاذ بن جبل رضي الله عنهم بأنه الحيض، وهو قول أئمة الحديث وفي مطلعهم الإمام أحمد رحمه الله تعالى. وقال آخرون منهم عائشة أم المؤمنين وزيد بن

ثابت وعبد الله بن عمر والفقهاء السبعة ومالك والشافعي ورواية عن أحمد بأنه الطهر، وعليه تعدد القول باحتساب بقية الطهر الذي طلقها أثناءه كقرء أم لا، فقيل تحتسب، وقيل لا تحتسب، وقيل لا تحتسب بقية الطهر الذي جامعها فيه.

ولكن متى تنقضي العدة:

١ - حتى تغتسل، وهو قول أكابر الصحابة، فمتى اغتسلت من الحيضة الثالثة فقد انقضت عدتها.

٢ - بمجرد طهرها من الحيضة الثالثة دون ربط ذلك بالغسل، وهو قول سعيد بن جبير والأوزاعي....

٣ - حتى يمضي عليها وقت صلاة طهرها في وقتها، وهو قول الثوري وأبو حنيفة.

وبالنسبة لمعنى الطهر فقد اختلفوا فيما إذا كان الطهر مسبقاً بدم أم لا، فرأى الشافعي وأحمد بأنه يحتسب لأنه طهر بعده حيض، فهو قرء، ولكن الشافعي في الجديد رأى أنه لا يحتسب لأنها لا تسمى من ذوات الإقراء إلا إذا رأت الدم.

كما اختلفوا بانقضاء العدة عند الطعن بالحيضة الثالثة وأنه لا بد من الحيض يوماً وليلة، فرأى الشافعي وأحمد إذا حاضت للعادة انقضت العدة، وإن كانت لغير العادة لم تنقض حتى يمر يوم وليلة.

- فالقول بأن الإقراء هي الحيض أخذ من {يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء} - ٢٢٨ البقرة - لأنه لا بد من الثلاثة وهذا ما لا يحتاج إليه في الأطهار إذ يكفي أثنان ولحظة من الثالث. ولأن الشارع استعمل القرء للحيض ولم يستعمله أبداً للطهر، فقوله تعالى {واللاني ينسن من المحيض من نسانكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر، واللاني لم يحضن} - ٤ الطلاق - فكل شهر بجانبه حيضة، فالحكم معلق بعدم الحيض لا بعدم الطهر من الحيض. وقال عليه وآله السلام (طلاق الأمة تطليقتان، وعدتها حيضتان)، والمختلعة من زوجها أمرها صلى الله عليه وآله وسلم أن تعتد بحيضة. والأصل في العدة هو استبراء الرحم فكان الحيض الحاصل بعد الطلاق هو الدال على البراءة وليس الأطهار من الحيض. كما ورد بصريح السنة عن الإستبراء بالحيض لا بالطهر، وهذا ما قال به الشافعي، وهو قول الجمهور، وحيض المرأة هو الذي يرتب عليها أحكام وتستمر هذه الأحكام في الطهر الثاني ولا يتغير منها شيء.

- وأما القول بأن الأقراء هي الأطهار فجاء من الأدلة ومن الرد على أدلة الآخرين بأنه الحيض فأية {يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن} - الطلاق - تبين أن الطلاق لا يكون إلا في وقت العدة وهو الأطهار، وهذا ما أمر به الرسول عليه وآله السلام ابن عمر رضي الله عنه أن يفعله بأن يراجعها لأنه طلقها وهي حائض ثم يطلقها وهي في الطهر وقبل أن يمسه. {والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء} - ٢٢٨ البقرة - قال الشافعي هي الأطهار. والمعروف من اللسان العربي أن الحيض دم يرخيه الرحم فيخرج بينما الطهر دم يحتبس في الرحم فلا يخرج. وسئلت عائشة

{ثلاثة قروء} ما القروء؟ فقالت: الأقرء هي الأطهار. وقال زيد بن ثابت: إذا طعنت المرأة في الحيضة الثالثة فقد برئت، أي إذا دخلت فيها فقد برئت منه، وبرئ منها، ولا ترثه، ولا يرثها.

وأما الرد على أدلة الآخرين القائلين بأنها الحيض فالرسول عليه السلام أعلم بتفسير القرآن من غيره، وقد فسر العدة بالأطهار وليس بالحيض، ونساؤه عليه وآله السلام وفي طبيعتهن عائشة رضي الله عنها قلن بالأطهار، واللغة تجعله يصلح للحيض والأطهار فلا يجوز حمله على الحيض من دون الأطهار والشرع هو الذي يحمله، والرسول عليه السلام وزوجه عائشة بالذات هما المفسران والمرجحان والآية {فطلقوهن لعدتهن} تعني لاستقبال عدتهن لا فيها إذ الطاهر لا تستقبل الطهر إذ هي فيه وإنما تستقبل الحيض بعد حالها التي هي فيها، ثم إن العدة يجب أن تتأخر عن الطلاق مما يفرض معنى {لعدتهن} أي بعده مباشرة وبمجرد أن تغتسل من الحيضة الثالثة فتدخل في الطهر. والطهر يأتي بعد الحيض ويسبقه ويبقى يحمل الاسم لأنه يجيء بعده.

وفي الحديثين عن المستحاضة (تدع الصلاة أيام إقرانها، ثم تغتسل وتصلي) وهذا ينسب إلى عدي بن ثابت، والحديث الآخر المعروف باسم حديث فاطمة بنت أبي حبيش التي اشتكت الدم للرسول عليه وآله السلام فقال لها (إنما ذلك عرق فاتظري، فإذا أتى قرؤك فلا تصلي، فإذا مر قرؤك فتطهري ثم صلي ما بين القرء إلى القرء)، وكذلك الحديث الثالث حديث أم حبيبة بنت جحش التي استحاضت فأمرها النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن تدع الصلاة أيام إقرانها. فهذه الأحاديث تؤكد المعنى الشرعي للقرء بأنه الحيض وليس الطهر، والآية {واللاني ينسن من المحيض من نسائكم} - ٤ الطلاق - تؤكد هذا المعنى.

- وأما حكم العدة فقد احتج الأقلية منهم مكحول وابن سيرين بأن عدة الأمة مثل عدة الحرة في الطلاق والوفاة، وهذا يؤكد ابن حزم، لأن الآيات في البقرة والطلاق لا تفرق بين الحرة والأمة وتجعلها ثلاثة قروء للمطلقات، وأربعة أشهر وعشراً للوفاة، وثلاثة أشهر للاني لم يحضن، ووضع الحمل للحوامل.

وأما الأكثرية من فقهاء المدينة: سعيد بن المسيب والقاسم وسالم... ومالك، وفقهاء مكة: عطاء ومسلم وغيرهما، وفقهاء البصرة كقتادة، وفقهاء الكوفة كأبي حنيفة والثوري، وفقهاء الحديث كأحمد والشافعي وأبو ثور، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم وعبد الله بن عمر.. فقد قالوا بأن عدة الأمة حيضتان وعدة الحرة ثلاث حيض، وقال عمر: ينكح العبد إنتين، ويطلق تطليقتين، وتعد الأمة حيضتين، فإن لم تحض فشهريين أو شهراً ونصف إن أمكن، وهذا ما عليه عمل المسلمين من بعيد، وقال ابن مسعود: تجعلون عليها نصف العذاب ولا تجعلون لها نصف الرخصة، ومن باب القياس طبعاً للمعاني والنظائر.

ولكن ابن حزم رد هذا القول المنسوب إلى ابن مسعود رضي الله عنه، وإن كان هذا الرد ليس قوياً. كما أن الاستناد إلى أن الآيات تتحدث عن الحرائر لا الإماء وإن

كانت عدة وضع الحمل مشتركة بينهما يقوي موقف المساوين بينهما، ولكن رد قول ابن سيرين ومكحول على أساس ضعفهما يرجع إلى التفريق بينهما، ثم إن القول بالشهر والنصف ممكن لأن التصيف في الأشهر ممكن بخلاف القروء.

وأما عدة «الأيسة» والتي لم تحض، فقد جاءت صريحة في قوله تعالى {واللاني ينسن من المحيض من نسانكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللاني لم يحضن} - ٤ الطلاق - فجعلها ثلاثة أشهر وإن اختلف العلماء في ذلك على أساس واقع المرأة: ففي رواية عن أحمد وقول إسحق بأن المرأة لا تحيض بعد الخمسين مستنديين في ذلك إلى قول عائشة رضي الله عنها: إذا بلغت خمسين سنة خرجت من حد الحيض. وفي رواية أخرى عن أحمد بأنه ستين سنة، وفي رواية ثالثة بأنه ستون في نساء العرب وخمسون في نساء العجم، وفي رواية رابعة عنه بأنه ما بين الخمسين والستين. والشافعي يرى سن اليأس بيأس أقاربها مهما تعددت الأحوال، وفي قول آخر له بأنه يأس جميع النساء. وأصحاب مالك لم يحدوا سن اليأس بحد مطلقاً. وابن تيمية يرى أنه ليس له حد يتفق فيه النساء، فالإياس إما يكون بسبب معلوم فيتكرر الإنقطاع أحوالاً متتابعة فهذه تتربص ثلاثة أشهر عند الطلاق مهما كان عمرها، وأما إذا ارتفع بعد الطلاق دون أن تدري سببه فعليها أن تنتظر تسعة أشهر ثم تعدت ثلاثة أشهر، وقال ابن تيمية: وليس في الكتاب ولا السنة تحديد اليأس بوقت، وقوله تعالى {إن ارتبتم} هذا راجع إلى الرجال، فإنهم إن شكوا في حكم النساء، فهذا هو الواجب عليهن ليزول الشك والريب...

وأما عدة الوفاة فتجب بالموت للدخال بها أو لا، كما يتوارثان قبل الدخول كبعدة ويستقر المهر وإن اختلفوا في وجوب مهر المثل إذا لم يكن مسمى، فأوجبه أحمد وأبو حنيفة والشافعي في أحد قوليه، ولم يوجبه مالك والشافعي في القول الآخر، والمشهور من حديث بروع بنت واشق أن الرسول عليه وآله السلام قد أوجبها. كما اختلفوا في تحريم الربيبة بموت الأم كالدخول بها، ولأحمد روايتان في ذلك. واختلفوا في عدة الوفاة، فمنهم من أوجبها قبل الدخول ومنهم بثلاثة قروء وبراعة الرحم، ومنهم بثلاثة أشهر لمن يقطع ببراعة رحمها. فعدة الوفاة دليل لإنقضاء النكاح ورعاية لحق الزوج فتكون العدة فاصلاً بين نكاح الأول ونكاح الثاني.

وأما عدة الطلاق فقد وجبت ليمن الرجعة كحق للزوج، ولتلازم المنزل كحق لله، ولكي لا يضيع نسب الولد كحق للولد، ولتتال حقها في النفقة والميراث كحق للزوجة. ولكنهم اختلفوا متى تبلغ أجل نهاية مدة العدة فقيل بقرب انتهائه بقرب الحيضة الثالثة أو الإنتهاء من دمها، وقيل هو فعلها بالإغتسال لأن به يحل عقد النكاح ويحل وطء النكاح.

ولكنهم اختلفوا في شرط الإغتسال هذا: فقال أهل الظاهر بأنه ليس شرطاً لا في النكاح ولا في الوطء، وقال أحمد وجمهور الصحابة بأنه شرط فيها، وقال مالك والشافعي بأنه شرط في الوطء لا في العقد، وقال أبو حنيفة بأنه شرط فيهما لأن به

يتحقق كمال الحيض وتماحه سواء للوطء أو لنكاح غيره. {ولا تقربوهن حتى يطهرن، فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله} - ٢٢٢ البقرة - فإذا بلغت أجلها إما أن يمسه بمعروف أو يسرح بإحسان، وعندها تحل للخطاب. ولذلك إن أمسكها فاعتسلت عنده فهي له وإن سرحها فتغتسل وتنكح غيره. فهو مخير طيلة العدة وهي منتظرة فهو يملك حبسها مدة العدة وإذا لم يمسه عليه تسريحها بإحسان {فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتوهن وسرحوهن سراحاً جميلاً} - ٤٩ الأحزاب - بشأن المطلقة قبل الدخول، فعليه بالتسريح دون عدة. وبذلك فقط يتم تطليقها وتخليتها، وقبل ذلك كان له أن يمسه أو يسرحها وإن كان مطلقاً، ويؤيد هذا:

(١) - أن الشارع جعل للمختلعة حيضة واحدة لاستبراء الرحم ولم يجعلها ثلاثاً لأنها افتدت نفسها وبانت.

(٢) - أن المهاجرة من دار الحرب تستبرئ بحيضة واحدة أيضاً.

(٣) - أن للمرأة بعد الدخول طلاقاً الثالثة الباءنة وما قبلها رجعيّاً، وهذا يختلف عن المختلعة.

وأما الفرق بين عدة الرجعية والبيان فظاهر لأن عدة الرجعية لأجل الزوج وللمرأة لها فيها النفقة والسكنى، بينما البائن كما قال عليه وآله السلام لفاطمة بنت قيس (لا نفقة لك ولا سكنى)، وللزوج أن يلغي الرجعة ويطلقها طلاقاً بانئاً بالتراضي على الخلع وإن رد المؤلف هذا القول بحجة أن الرجعة حق لله لا يملك أحد الاتفاق على إلغائه، ولكن أحمد يجوزها إذا كان طلاقاً ولا يجوزها إذا كان فسحاً لأن الله تعالى لم يملك الزوج أن يحرم الزوجة ابتداءً تحريماً تاماً من غير تقدم تطليقتين.

وأما حكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المختلعة فإنها تعتد بحيضة واحدة كما قال عثمان وابن عباس واسحق ورواية من أحمد وقول ابن تيمية. والرسول عليه وآله السلام قال لثابت بن قيس لأنه ضرب زوجته وكسر يدها (خذ الذي لها عليك، واخل سبيلها) ففعل فأمرها عليه وآله السلام أن تتربص بحيضة واحدة وتلحق بأهلها. وقال عليه وآله السلام لمریم المغالية زوجة ثابت بن قيس بالخلع والتربص حيضة واحدة، فهي كالمسبية والأمة المستبرأة والحرّة والمهاجرة والزانية إذا أرادت أن تنكح.

وحكم صلى الله عليه وآله وسلم باعتداد المتوفى عنها زوجها في منزلها الذي كان مع المتوفى قبل وفاته، وإن هذا الحكم متفق مع حكمه بخروج المبتوتة واعتدادها حيث شاءت، فقد أمر صلى الله عليه وآله وسلم الفريضة بنت مالك أخت أبي سعيد الخدري أن تعتد بعد وفاة زوجها في بيت الزوجية السابق فقال لها (أمكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله) فبقيت فيه أربعة أشهر وعشراً. وقد رد ابن حزم هذا الحديث لأنه طعن في روايته زينب بنت كعب بأنها مجهولة، فرد عليه بأن جهله بها لا يضعف من حديثها الصحيح المشهور في العراق والحجاز واعتمد عليه مالك في مذهبه.

ولكن الصحابة ومن بعدهم اختلفوا في هذه المسألة: فرأت عائشة رضي الله عنها بالخروج في عدتها، وقال بذلك ابن عباس على أساس أن الآية لم تذكر مكان

اعتداها، وقال بذلك جابر بن عبد الله وعلي بن أبي طالب الذي كان يرحد المتوفى عنهن أزواجهن في عدتهن، كما قال عطاء وطاوس أنها والمبتوتة سواء تحجان وتعمران وتنقلان وتبببان وقال بذلك عمر بن عبد العزيز وأهل الظاهر، واستشهد هؤلاء بأن قوله تعالى {فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن} يترك لها العدة حيثما شاءت، ورأت طائفة أخرى من الصحابة والتابعين والعلماء من بعدهم أنها تعتد في منزلها التي توفي زوجها وهي فيه، فرد عمر من خرجن للحج والعمرة وقد توفي عنهن أزواجهن، وردهن أيضاً عثمان، وأمر ابن عمر ابنته المتوفى عنها زوجها أن تببب في بيتها مع زوجها المتوفى، وكذلك رأى زيد بن ثابت وابن مسعود وأم المؤمنين ام سلمة وسعيد بن المسيب وعطاء وجابر والأئمة الأربعة وكلهم يعتمدون على حديث الفريفة بنت مالك، وحسم الأمر بقول الزهري بأن المترخصين قد أخذوا بقول عائشة رضي الله عنها، وأخذ أهل العزم بقول ابن عمر.

والسكنى في المنزل حق لها إذا تركه الورثة لها أو كان لها أولاً تتضرر فيه، ولكن إن حولها الورثة أو طلبوا منها الأجرة لم يلزمها السكن فيه وجاز لها الانتقال منه. وأما أين تنتقل؟ فإن عذرت لأي سبب كان كان لها أن تنتقل إلى أي مسكن، وقال بذلك أحمد والشافعي. ولكن قال أحمد إن كانت حائلاً لا سكنى لها في التركة وإن كانت حاملاً فكذلك أو لها السكنى حق ثابت في التركة تقدم به على الورثة والغرماء، ولا يجوز نقلها عنه إذا اتفقت مع الوارث لأنه حق الله تعالى كما قال أحمد في رواية عنه. وأما مالك فلها السكنى واجبة حاملاً كانت أو حائلاً وذلك مدة العدة وهي مقدمة على الورثة والغرماء إذا كان الملك للميت. وأما الشافعي فيرى السكنى لها حاملاً أو حائلاً في قول ولا سكنى لها حاملاً أو حائلاً في قول آخر ويجب ملازمتها للمنزل مدة العدة بانئة أو متوفى عنها وإن كانت المتوفى أخف إذ لها أن تغادر المنزل نهائياً لتقضي حوائجها، ولكن أحمد يؤكد المتوفى عنها أكثر من البانئة.

والرأي الثاني أن ملازمة المنزل واجبة عليها إلا بوجود الضرر فتسقط. فالأحناف يلزمونها بالسكنى في المنزل الذي توفي فيه زوجها ولها أن تخرج لتصلح شأنها لأنها لا نفقة لها.

وأما حكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في إحداد المعتدة فهناك ثلاثة أحاديث الأول عن زينب بنت أبي سلمة أن أم حبيبة رضي الله عنها مست الطيب في اليوم الثالث بعد وفاة أبيها أبو سفيان بناء على قول الرسول عليه وآله السلام الذي سمعته (لا يحل لأمرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً)، وتكرر سماع زينب من زينب بنت جحش رضي الله عنها التي مست الطيب بعد ثلاث لوفاة أخيها وسمعتها تردد نفس الحديث، وتكرر سماع زينب من أمها أم سلمة رضي الله عنها بأن امرأة سألت الرسول عليه وآله السلام أن تكحل ابنتها التي توفي عنها زوجها فرفض قائلاً (لا، إنما هي أربعة أشهر وعشراً، وقد كانت إحدانك في الجاهلية ترمي بالبعرة على رأس الحول) وقال عليه وآله السلام (لا تحد المرأة على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر

وعشراً، ولا تلبس ثوباً مصبوغاً إلا ثوب عصب، ولا تكتحل ولا تمس طيباً، إلا إذا ظهرت نبيذة من قسط أو أظفار)....

وتتضمن هذه الأحاديث وغيرها الأحكام التالية:

- ١ - يجب الإحداد على الزوج ويجوز على غيره من باب الرخصة.
- ٢ - يتبع الإحداد للعدة بالشهور، فقد يزيد للحامل حتى تضع حملها عن أربعة أشهر وعشراً وقد ينقص عنها.
- ٣ - تستوي جميع النساء المسلمة والكافرة والحررة والأمة والصغيرة والكبيرة بالإحداد كما قال الجمهور إلا أن ابن نافع قال لا إحداد على الذمية لأنها ليست ممن وصفهم الحديث بالإيمان بالله واليوم الآخر، وقال أبو حنيفة لا إحداد على الصغيرة.
- ٤ - يحل الإحداد للأمة وأم الولد لأنهما ليست بزوجات ولا يجب عليهما.
- ٥ - لا يجب الإحداد على المعتدة من طلاق أو وطء شبهة أو زنى أو استبراء وإنما هو جائز في حدود الأيام الثلاثة.
- ٦ - على الحادة أن تتجنب أربعة خصال لكل منها أدلته:

- (١) - الطيب (لاتمس طيباً) ومثله كل طيب من مسك وعنبر وكافور وغيرها.
- (٢) - الزينة في بدنها كالحمرمة والنقش والخضاب وغيرها، فقد نهى عليه وآله السلام عن الخضاب وما في حكمه إلا إذا كان دواء كالكحل فيجوز وضعه في الليل ومسحه في النهار كما قال عليه وآله السلام وكما قال الأئمة الأربعة تبعاً لقوله عليه وآله السلام.
- (٣) - زينة الثياب (ولا تلبس ثوباً مصبوغاً) مما يعم كل معصفر مزعفر بأي لون للزينة، وأما ما كان لغير الزينة كالبرود فمأذون به، وكذلك مثل السواد، وقال الشافعي الأبيض لأنه ليس للزينة وهو ما يقوله مالك وأبو حنيفة وأحمد. وقالوا بتجنب النقاب والبرقع لأنها تشبه المحرمة في الحج والعمرة. وأما الصبغ لغير الزينة كالعصب فيجوز لبسه لأنه لغير التحسين وقد أجازته الرسول عليه وآله السلام.

- وقد حكم صلى الله عليه وآله وسلم بوجوب استبراء الإماء، ذلك أنه عليه وآله السلام بعث يوم حنين جيشاً إلى أوطاس فأصابوا سبايا فترح الصحابة من غشيانهن بسبب أزواجهن المشركين فنزلت {والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم} - ٢٤ النساء - فهن حلال لكم إذا انقضت عدة الواحدة منهن. وقال عليه وآله السلام في سبايا أوطاس (لا توطأ حامل حتى تضع، ولا غير ذات حمل حتى تحيض حيضة) وقال (لا يحل لإمرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقع على امرأة من السبي حتى يستبرئها) وقال (ولا يقعن رجل على حامل ولا حائل حتى تحيض).

ففي هذه السنن الأحكام التالية:

١- لا يجوز وطء المسبية حتى يعلم براءة رحمها، فإن كانت حاملاً حتى تضع حملها وإن كانت حاملاً حتى تحيض حيضة واحدة، فروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أن الأمة العذراء لا تستبرأ إن شاء، فلا بد من غلبة الظن بين أمن الحمل أو عدمه، وبين استبراء الصغيرة التي تطبق الوطء والآيسة، وبين استبراء الأمة التي يظن بها الوطء، واستبراء المكاتبه والبكر، واستبراء من حالتها تسمح بإتيانها أو التي لا تسمح.. فإن علمت البراءة أو غلبت على الظن فلا استبراء وإلا لا بد منها. وأما مقدار عدتها فهو نصف عدة الحرة أي شهرين وخمسة أيام إذا مات عنها زوجها وإن قال آخرون بأنها كالحرة، وقال آخرون بأنها كالمطلقة فتعد بثلاثة قروء، والأرجح أنها تستبرأ بحيضة لأنها كافية لبراءة رحمها ولا تحتاج إلى ثلاثة قروء كعدة الحرة المطلقة لتطويل زمن الرجعة وإعطاء الزوج فرصة طويلة للندم.

٢- لا يكفي الاستبراء بطهر أبداً بل لا بد من حيضة، وهو قول الجمهور وإن قال أصحاب مالك والشافعي في قول له بأنه يحصل بطهر كامل ولكن قول الرسول عليه وآله السلام (لا توطأ حامل حتى تضع ولا حائل حتى تستبرأ بحيضة) يرد هذا القول، فكيف بالأحاديث الأخرى التي تعلق الحل بالحيض وحده لا بالطهر.

٣- لا يحصل الاستبراء ببعض حيضة في يد المشتري اكتفاء بها، وهذا متفق عليه، ولكن جرى اختلاف على أن تكون جميع الحيضة وهي في ملكه أو معظمها، والعبارة أن يكون أكثرها عند البائع وبذلك لا تبرئها، وأما إذا كان أكثرها عند المشتري فيكفي للاستبراء، وتكون مستبرأة حسب حالة الأمن في ذلك فلو كانت تحت يد شخص للاستبراء أو بالوديعة أو لا تخرج ولا يدخل عليها سيدها أو تملكها امرأة، أو ولد صغير أو كان سيدها غانباً أو أمثالها فتكفي في أي حالة من هذه الحالات الحيضة السابقة ولا يحتاج إلى حيضة أخرى ولا بعضها..

٤- تتحقق البراءة للحامل بوضع الحمل، وهذا لا خلاف فيه.

٥- لا يجوز وطؤها قبل وضع حملها من غيره لقوله عليه وآله السلام (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسقي ماءه زرع غيره) مما يشمل الزرع الطيب بالحمل الحلال والزرع الخبيث بالحمل الحرام. فالشرع حرم وطء الأمة الحامل حتى تضع، سواء كان الحمل محرماً أو غير محرر، ما دام الحمل من غيره.

٦- لقد استنبط من قوله عليه وآله السلام (لا توطأ حامل حتى تضع ولا حائل حتى تستبرأ بحيضة) بأن الحامل لا تحيض، وأن ما تراه من دم بمنزلة الاستحاضة ولا يمنعها من الصلاة والصوم والطواف وقراءة القرآن. ولكن في هذا خلاف بين الفقهاء فقال أبو حنيفة وأصحابه والأوزاعي وأحمد في المشهور من مذهبه والشافعي في أحد قوليه بأنه ليس بدم حيض، وقال مالك وربيعه وقتادة والليث واسحق بأنه دم حيض، وهو قول آخر لأحمد. وقالت عائشة رضي الله عنها الحبلى لا تحيض فإذا رأت الدم صلت، وقيل بأنها رجعت عن هذا القول بأنها

تحيض وقالت بما رواه المدنيون بأنها لا تحيض. وقد بنى المانعون من الحيض عن الحامل على قوله عليه وآله السلام (مره فليراجعها ثم ليطلقها طاهراً أو حاملاً) مما ينفي الحمل مع الحيض، وعلى قوله عليه وآله السلام (لا يحل لأحد أن يسقي ماءه زرع غيره، ولا يقع على أمة حتى تحيض أو يتبين حملها) فجعل الحيض دليلاً على براءة الرحم من الحمل، وقال علي وابن عباس رضي الله عنهما بأن الله رفع الحيض عن الحبلى وجعله رزقاً للولد.

وقال القائلون بالحيض بأن الحامل قد ترى الدم على عادتها، وهذا لاخلاف عليه، ولكن الخلاف في تسميته، فالاصل أنه تابع للحيض وفي محله فهو منه ولا سيما أنهما بنفس اللون، ثم أن هذا الدم ليس استحاضة تزيد على دم الحيض بل هو في وقته ومكانه مما يستدعي القول بأنه حيض، ثم أن قول عائشة رضي الله عنها بأنها لا تصلي هو الأرجح والأثبت من قولها بأنها تصلي، ثم أن تقسيم الرسول عليه وآله السلام النساء إلى قسمين: حامل فعدتها وضع حملها وحائل عدتها بالحيض لم يتعرض عند رؤية الحامل للدم للصوم والصلاة، ثم إن قوله عليه وآله السلام في شأن ابن عمر رضي الله عنه (مره فليراجعها ثم يطلقها طاهراً قيل أن يمسه) فيه إباحة الطلاق في الطهر وحل الوطء فلم يتعرض لحكم الدم أثناء الحمل، ثم أن الرسول عليه وآله السلام أباح طلاقها بالشرطين المذكورين دون ذكر أن دم الحامل دم فساد بل حالها تخالف غيرها في الطلاق لأن غيرها تطلق طاهراً بغير وطء وهذا لا يشترط في الحامل وإن رأت الدم، ثم إن حيضة الحامل لا تنهي العدة لأن عدة الحامل بوضع الحمل وعدة الحائل بالإقراء، ثم إن الحائض قد تحبل فقد دل ذلك على إمكانية الجمع بين الحمل والحيض بغض النظر عن سبق الآخر، ثم إن تحول دم الطمث إلى لبن يتغذى به الولد مما يجعلها لا تحيض عندما تحمل، هذا يعتبر للقائلين بالحيض لأنه لا يظهر انقطاع الحيض إلا عند الرضاع لأن المرضع قد لا تحيض، وأنها إن رأت دمًا وقت عادتها فهو حيض باتفاق، وهذا بالأولى أن يجعل الدم مع الحمل وقبل استحكام حاجة الولد للبن أولى، ثم إن جواز الاستمتاع بالمستبرأة بغير الوطء من قبله وغيرها سواء كانت صغيرة أم لا ظاهر ولا دليل على تحريم ذلك، لأن تحريم الوطء لا يفرض تحريم دواعيه كالحائض والصائمة، ثم إن جواز الاستمتاع بالمسبية بغير الوطء يستوي مع غير المسبية بعدم الجواز في قول، ويلتقي معها في الجواز وعدم التحريم في قول ابن عمر رضي الله عنه الذي يروى عنه أنه قبل مسبيته قبل الإستبراء، ثم إن وقت الاستمتاع المهم فيه الاستبراء من الحمل سواء كان أول الملك أو أول القبض، ثم إن الشارع قد جعل عدة الحرة ثلاثة قروء وجعل عدة الأيسة والتي لم تحض ثلاثة أشهر بعدد القروء فكان لكل حيضة شهر واحد، فمن أجل الحمل الذي لا يظهر في أقل من ثلاثة أشهر جعلت ثلاثة قروء وعندما تطلق الأمة تعتد بشهر لأنه دليل براءتها من الحمل كما أن القرنين أو الشهرين علم على براءة المطلقة مما يجعل الدليل الراجح الإكتفاء بشهر واحد لأن الثلاثة أشهر تسويها بالحرة، ولأن الشهرين تسويها بالمطلقة، فكان الشهر هو الأولى بها. وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأن عدتها حيضتان أو

شهران إذا لم تكن تحيض، وأما إذا رفع حيضها دون أن تدري سبب ذلك فقال أحمد تعدت تسعة أشهر للحمل وشهراً مكان الحيضة، فجعل شهراً للحيضة، وأكد هذا المعنى الشيخ ابن قدامة في المغني عندما قال بأن الله تعالى جعل الشهر مكان الحيضة فكانت عدة الحرة الأيسة ثلاثة أشهر مكان الثلاثة قروء، وعدة الأمة شهرين مكان القريين، وللأمة المستبرأة إذا ارتفع حيضها عشرة أشهر تسعة للحمل وواحد مكان الحيضة مما يؤكد أن أصح الأقوال وأرجحها هو الشهر الواحد للأمة المستبرأة.

وقبل أن ننتقل إلى القسم التالي والأخير من هذا الجزء الخامس بل الكتاب كله والذي يتحدث عن أحكام البيوع لابد من تعقيب على هذا القسم الرابع، وذلك بعد أن كنا عقبنا على المواضيع الثلاثة الأولى من هذا الجزء والتي جاءت:

١- بشأن القصاص، ٢- بشأن الحدود، ٣- بشأن الأمور الحربية.

إن هذا القسم الذي تحدث عن أحكام النكاح وتوابعه جاء مستفيضاً أشد الاستفاضة لكثرة ما يتداخله في كل موضوع من مواضعه من قضايا ولا سيما أنه يتصل ببناء الأسرة المسلمة وهي النواة الأولى في المجتمع المسلم وبالعلاقة الرجال بالنساء وهي التي تشكل النظام الاجتماعي بحق في نظام الإسلام الذي أنزله الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليحقق الرحمة الحقة في سياسة العباد.

فهو سبحانه وتعالى عندما يلزم الأب أو ولي الأمر بتزويج الثيب والبكر ويجعل ذلك له يسعى للمحافظة على حقوق كل منهما وعلى صلاية استمرار بناء الأسرة المسلمة، وعندما يضع الشروط المعينة في النكاح بحيث لا تبنى البيوت على خراب بعضها البعض فإنه يحافظ على سلامتها من ذلك، وعندما يرفض نكاح الشغار ويرفض المحلل ويرفض المتعة ونكاح المحارم والزانيات فإنه يحافظ على طهارة البيت والنسب والولد ويحافظ على صلة الأرحام، وعندما يحدد الزواج بأربعة فإنه ينهي عن زواج الجاهلية الذي كان بلا عدد ويجعله بقيوده المناسبة للرجل والمرأة على حد سواء، وعندما يحرم عدداً من الزواج بهن يحافظ على صلة الأرحام وبقائها دائماً في أوجهها، وعندما يفسح المجال لعودة الزوجة لزوجها إذا أسلمت قبله فإنه يحرص على هذه المودة القائمة بينهما، وعندما يبيح العزل فإنه يجيز لموانع الحمل أن تأخذ طريقها في المجتمع الإسلامي ما دامت لا تقتل جنيناً دبت فيه الروح، وعندما ينيب إلى خطورة وطء المرضعة من الحمل وفساد اللبن على طفلها مما يعرضه للهلاك يحرص على سلامة الأطفال، وعندما يلزم الأزواج بالمساواة في القسمة بين الزوجات يحرص على العدل فيما يملك الرجل، وعندما يحرم وطء السبايا وهن حوامل حتى يضعن حملهن ويستبرئن بحيضة فإنه يحرص على سلامة الولد والنسب، وعندما يجعل عتق الأمة صداق زوجها يسعى لتحريرها وإكرامها، وعندما يجيز نكاح الكارهة إذا رضيت به فإنه يراعي سلامة البناء الصلب للأسرة، وهو سبب حرصه على الكفاءة في النكاح، وسبب ما يعطي للمعتقة من خيار في البقاء تحت زوجها السابق العبد أو التخلي عنه،

وعندما يجيز الزواج بما قل أو أكثر من المهر حتى لو كان تعليمها بما يحفظه من القرآن فإنه ييسر بناء البيوت والأسر ولا سيما أن أكثرية مشاكل الشباب في كل العصور هو تمنعهم عن الزواج لغلاء المهور ناهيك عن تكاليف الحياة الأخرى، وعندما يجيز فسخ الزواج بعيب أي مرض أو عائق عن المعاشرة الزوجية فإنه يحافظ على سلامة ونقاء الأسرة والأطفال من تناقل أو توارث هذه الأمراض، وعندما يلزم الزوجة بالمسؤولية المنزلية فإنه يلزم الزوج بالمسؤولية الخارجية، وعندما يحل مشكلة الشقاق بين الزوجين بالتحكيم فإنه يحرص على استمرار الأسرة بتحمل أهل الزوجين مسؤوليتهما في ذلك، وعندما يجيز للزوجة أن تفدي نفسها باعطاء الزوج ما يتفقان عليه مقابل تخليتها فإنه يحافظ على نوعية الحياة الأسرية الطيبة المليئة بالمودة والرحمة، وعندما يحل الطلاق وهو أبغض شيء عند الله تعالى فإنه يضع له قيوداً كثيرة حتى يقبل من الزوج فلا يكون سكراناً مثلاً ولا مغلقاً وبذلك يحافظ على بقاء الأسرة، وهو سبب تحريم الطلاق للحائض والنفساء والموطوءة في طهرها وجعله ثلاثاً دفعة واحدة، وعندما أجاز للعبد أن يعود إلى مطلقته بعد أن يعتقها سيدها دون زوج آخر فإنه يراعي هذا الجانب الإنساني بينهما في ذروته، وعندما يضع الطلاق بيد الزوج فقط فإنه يحمي بقاء الأسرة من هزات سرعة وكثرة تقلب مزاج وهوى الزوجة، وعندما يجيز للزوج أن يراجع زوجته التي طلقها أقل من ثلاث فإنه يحذر الزوجين من بينونة الطلاق ويضع الزوج أمام مسؤولياته ليفكر ألف مرة قبل أن تصدر منه المرة الثالثة البانئة بينونة كبرى وزواج آخر ثانية ويعرض أسرته وأولاده للضياع والتشرد، وهو سبب عدم جواز مراجعته المطلقة ثلاثاً إلا بعد أن يطأها زوج آخر، وسبب عدم قبول شهادة الشاهد الواحد في الطلاق، وعندما يعلم الرسول عليه وآله السلام الرجال التخيير للنساء بالبقاء معهم أو مفارقتهم، فإنه ينبه كل طرف إلى مسؤولياته لتستمر الأسرة من طرفين حريصين عليها، وعندما يبين أن تحريم الزوجة أو الأمة أو المتاع إنما هو يمين يكفره بكفارة اليمين فإنه يحرص على صيانة الأسرة من اعتبار ذلك من الطلاق، وعندما يضع قيوداً للألفاظ والعبارات حتى تعتبر طلاقاً يراعي تلك الصيانة للأسرة، وعندما يكفر عن اعتبار زوجته كأمه عن ذلك بكفارة مشددة فإنه تحذير قوي له لكي لا يعرض أسرته للهزات والتمزق، وعندما يقسم الرجل بالامتناع عن وطء زوجته يحمله مهلة أربعة أشهر إما أن يرجع لزوجته أو يطلقها فإنه يحذره من التسرع في ذلك حتى يحافظ على أسرته، وعندما يفرض اللعان بين الزوجين إذا اتهمها بالزنى وأنكرت ذلك فإنه يحملها مسنولية الإثم الكبير الذي يحمله كل منهما عند الإقدام على ذلك، وعندما يحكم بإحاق نسب الطفل ولو خالف في اللون بالزوج فإنه يحافظ على طهارة النسب، وهو سبب الحكم بأن الولد للفراش الذي ولد عليه، وسبب القرعة بين من تنازعا الولد من امرأة وقعوا عليها في طهر واحد، وعندما يحكم بالحضانة للأُم ما لم تتكح ولأختها لأن الخالة بمنزلة الأم فإنه يحرص على الرعاية الحقة للأطفال، وعندما يحدد النفقة على الزوجات من إتمام وكسوة وإسكان بأنه للمثل فإنه يراعي قدرة الزوج المالية كما يحافظ على حق الزوجة مما يحافظ على منع أي عوامل تؤثر

على سلامة استمرار الحياة الزوجية، وهو سبب يمكن المرأة من فراق زوجها إذا أعسر بنفقتها، وهو سبب حرمان المبتوتة من النفقة والسكنى، وعندما فرض نفقة للأقارب فإنه يحرص كل الحرص على التراحم، وعندما يحرم بالرضاعة ما يحرمه بالولادة ويحدد الرضعات التي تحقق التحريم وتأثير الرضاعة للكبير فإنه يضع كل هذه القيود التي تحافظ على نقاء النسب وطهره، وعندما يحدد مدة كل عدة من العدد للمطلقات الحوامل وغير الحوامل، الأيسات واللاتي لم يحضن، والمتوفى عنهن أزواجهن، والمختلعات، ومفهوم القرء وهل هو الطهر أو الحيض وتأثير ذلك على المطلقات، والفرق بين الحيض والإستحاضة، والطلاق الرجعي والبانن بينونة كبرى بالطلاق لمرة واحدة أو مرتين والطلاق ثلاثاً، فإنه يضع كل هذه القيود العديدة على العدد ليحمي حقوقه وحقوق كل من الزوج والزوجة في ذلك والتحذير من التعجل بالطلاق مهما كان سببه أو مبرره، وعندما ذكر بالجواز للمتوفى عنها زوجها بالإعتداد في منزلها الذي توفي زوجها عنها وهي فيه بينما سمح للبينونة أن تعتد حيث شاعت فإنه راعى كلاً منهما فحافظ عليها وعلى حقها في السكنى وفي الزواج من جديد، وعندما سمح للزوجة فقط التي مات عنها زوجها بعدة تختلف عن غيرها مهما كانوا أقارب للزوج فإنه راعى فقط قيمة عقد الحياة الزوجية الكبيرة ليحافظ عليه كل منهما في حياته وقبل مماته... فإن تتبع كل هذه الأحكام وتفصيلها يظهر كم كان النظام الاجتماعي في الإسلام حريصاً على بناء الأسرة وعلاقة النساء بالرجال.

ثالثاً - في البيوع:

- حكمه صلى الله عليه وآله وسلم فيما يحرم بيعه: روى جابر بن عبد الله أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول (إن الله ورسوله حرم بيع الخمر، والميتة، والخنزير، والأصنام)، وسئل عليه وآله الصلاة والسلام عن شحوم الميتة لطلاع السفن ودهن الجلود..

فقال (لا، هو حرام) وقال (لعن الله اليهود، لعن الله اليهود، لعن الله اليهود، إن الله عز وجل حرم عليهم الشحوم، فباعوها، وأكلوا أثمانها، إن الله إذا حرم على قوم أكل شيء حرم عليهم ثمنه).

فجاء التحريم يشمل ثلاثة أنواع: شراب يفسد العقول، وطعام يفسد الغذاء، وشيء يفسد الدين، فصان العقول والقلوب والأديان عن الفساد ولا سيما أن تحريم الخمر يشمل تحريم بيع كل مسكر مهما كان شكله (كل مسكر خمراً) كما يحذر من التلاعب (ليشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها). كما أن تحريم بيع الميتة يشمل كل ما يسمى ميتة كلها أو بعضها أو حتى شحمها، وهذا لا يشمل الانتفاع فقال جمهور العلماء بجواز الانتفاع بالزبل النجس في عمارة الأرض للزرع حتى جوز بعض أصحاب مالك وأبو حنيفة بيعه، وقال أحمد والشافعي بجواز الاستصباح بالدهن النجس. ولكن تحريم بيع الميتة لا يدخل الشعر والوبر والصوف في التحريم وقالوا

بأنها طاهرة إذا كانت من حيوان طاهر وإن قال بعض العلماء بنجاسة الشعر (ادفنوا الإظفار والدم والشعر، فإنها ميتة)، و (ماأبين من حي فهو ميتة) ولكن حديث (إنما حرم من الميتة أكلها أو لحمها) وقوله في الشاة الميتة (ألا انتفعتم بإهابها) ترشد إلى الانتفاع بالشعر. والجلد إذا دبغ يصبح طاهراً في اللبس والفرش وغيرهما فيجوز بيعه وإن قال بعضهم بعدم الجواز لاختلاف الدباغ عن الذكاة. كما هناك اختلاف في بيع الدهن النجس تبعاً لإمكانية غسله.

وبيع العظم جرى اختلاف في جوازه لإمكانية دخوله في الميتة أو لا، ويرجح الجواز. وتحريم بيع الخنزير يشمل كل أجزاء الباطنة والظاهرة. وتحريم بيع الأصنام يشمل تحريم بيع كل أداة للشرك من صنم أو وثن أو صليب أو كتاب.

فالأشياء المحرمة نوعان: نوع حرمت العين والانتفاع كلية كالخمر والميتة والخنزير، ونوع حرم الأكل وأبيح الانتفاع كجلد الميتة بعد الدباغ وكالحمر الأهلية والبيغال، وينطبق ذلك على كل شيء فالعنب إذا بيع للأكل فهو حلال وإذا بيع للعصر خمرًا فهو حرام. ولكن لأن الخمر حلال عند أهل الكتاب فقد جوزوا بيعها لهم مع أن عمر رضي الله عنه قد طلب من عماله أن يولوهم بيعها ويأخذوا منهم ما عليهم لا أن يبيعوها هم لهم فقال (لا تفعلوا، ولوهم بيعها) ثم ليأخذ من ثمنها منهم ما عليهم من جزية، وهذا ما كان يأمر به الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أيضاً.

- وقال صلى الله عليه وآله وسلم بشأن ثمن الكلب والسنور بأن ذلك حرام عندما نهى عن ثمن الكلب ومهر البغي وُلوان الكاهن، ونهى (في سنن أبو داود) عن ثمن الكلب والسنور، وقال (شر الكسب مهر البغي وثمر الكلب وكسب الحجام)، فحرم بذلك بيع الكلب، وإن أجاز ذلك أبو حنيفة ومالك، والخلاف جاء تبعاً لحرمة المنافع من الكلاب أو عدم حرمتها، كما ذكر أن استثناء كلب الصيد (أن الرسول عليه السلام قد نهى عن ثمن الكلب إلا كلب الصيد) عن جابر رضي الله عنه قد أخرج كلب الصيد من التحريم ولا سيما أن أحاديث أخرى تقول بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد (نهى عن ثمن الكلب العقور) وإن كان أحمد يضعف هذين الحديثين ويؤكد أن ثمن الكلب خبيث بجميع أنواع الكلاب للحديث الثابت عن ابن عباس رضي الله عنهما (ثمن الكلب ومهر البغي وثمر الخمر حرام).

وأما تحريم بيع السنور فتأبى جابر الصحيح المتفق عليه من الصحابة ولكن منهم من حملة على الهر وأخذ بحديث (الهرة ليست بنجس) فقد نسخ التحريم وإن قال بأنه يشبه الهر المتوحش ولكنه حمل ضعيف فيبقى التحريم.

- وأما مهر البغي وهو أجرة الزانية على الزنى بها فقد حكم عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأنه خبيث سواء كانت حرة أو أمة، ولكن الفقهاء فرقوا بين الحرة المكرهة والأمة المطاوعة، فأروا أن في الحرة المكرهة أربعة أقوال: لها المهر بكرًا كانت أو ثيبًا، ولها المهر فقط إن كانت بكرًا، ولها المهر فقط إن كانت أجنبية لا ذات

محرم، ولها المهر فقط إن كانت تحل ابنتها كالعمة والخالة. وهذه الأقوال الأربعة لأحمد، وأما أبو حنيفة فلم ير للمكرهة على الزنى مهراً مهما كان حالها.

وأما الأمة المطاوعة فقد رأى الشافعي وأكثر أصحاب أحمد بأن لها المهر لأن منفعتها لغيرها فلا تسقط مجاناً، ولكن حكم البغي ينطبق عليها فلا مهر لها لأنه خبيث كثر الكلب وأجر الكاهن، والله تعالى لم يجعل عوضاً للزنى إلا العقوبة فمنعتها هدر الله ورسوله فلا منفعة لسيدها ولا يرد القول بسقوطها مجاناً في الأصل. وأما إذا أرادت الزانية التوبة فليس لها أن ترد ما أخذته من الزناة اليهم ما داموا دفعوه باختيارهم مقابل فاحشتهم بها وإنما لها أن تنتفع بحاجتها منه وتتصدق بالباقي. وهذا يشمل عدم جواز الأجرة على أية منفعة محرمة كأجرة نقل الخمر أو الميتة أو الخنزير، فالأجرة محرمة على المسلم لأن النقل قد جاء لمحرمات عليه، فكل عوض لمنفعة محرمة حرام وإن قيل بكرهه مثل ذلك مع تحريم عوض الزنى وغيرها من الفواحش.

وأما حلوان الكاهن وهو ما يعطى له مقابل كهنته فهو أكل لمال باطل، ويشمل عطية المنجم والزازج وضاربة الحصى والعراف والرمال ونحوهم ممن يطلب منهم الأخبار عن المغيبات وذلك لقوله عليه وآله السلام - (من أتى عرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل عليه عليه وآله وسلم). وهذا كله يختلف عن علم عبارة الرؤيا فإنها جزء من أجزاء النبوة وكلما كان الرائي والمعبر أصدق وأبر وأعلم كان التعبير أصح...

وأما خبث كسب الحجام، ومثله الفاصد والشارط ولا يدخل في ذلك الطبيب ولا الكحال ولا البيطار، فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد حكم بخبثه فقال جابر بن عبد الله (أنه حكم بخبثه وأمر صاحبه أن يعلفه ناضحه أو رقيقه) ولكن صح أنه عليه وآله السلام قد احتجم وأعطى الحجام أجره، وهذا لا يقاس على تحريم ثمن الكلب لأن الحديث الصحيح عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أمر بقتل الكلاب إلا كلب الصيد أو كلب غنم أو ماشية، فلا نسخ في ذلك، وأما وصفه كسب الحجام بالخبث فهو كوصفه عليه وآله السلام للبصل والثوم بأنهما خبيثان مع إباحتهم، فإعطاه الحجام أجرته إما جائز أو مستحب أو واجب من طرف ومكروه أو محرم من الطرف الآخر.

- وأما حكمه صلى الله عليه وآله وسلم بالنهي عن بيع ضرب الفحل أو عسبه، فلا يجوز أخذ العوض عن ذلك، كما قال جمهور العلماء من أحمد والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم وإن قال مالك بجوازه لأنه أجره مقابل نزو الفحل على دفعات معلومة وليس أجره على لقاح الأنثى، وهذا التأويل مردود لأن النهي منصب ليس على مجرد النزو بل المقصود منه ثمرته ولذلك حرم بذل المال المقابل لذلك، وقال عليه وآله السلام (إن من حقها إطراق فحلها وإعارة دلوها) فأوجبها الشريعة مجانية البذل. وأما الهدية أو العطية لصاحب الفحل بعد الحمل فيجوز أخذها إذا لم تكن مقابل ذلك.

- ونهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن بيع فضل الماء فقال (لا يمنع فضل الماء ليمنع به الكلاً) وقال (من منع فضل مائه أو فضل كلته منعه الله فضله يوم

القيامة) وقال (ثلاثة لا يمتنع: الماء والكلأ والنار) أو في رواية أخرى (المسلمون شركاء في ثلاث: الماء والنار والكلأ، وثمنه حرام).

فإذا كان قد فضل من الماء عن حاجة صاحبه وحاجة بهائمه وزرعه، واحتاج إليه غيره، كان عليه بذله بغير عوض ما دام الماء ليس من جمعه ولا كلفته ولا منزله ولا أرضه، بمعنى أنه ليس من الضرورات التي تتفرق الجماعة طلباً لها وإنما من الممكن أن يتوفر ولا سيما في البنين للناس جميعاً. وهذا ينطبق على المعادن الجارية في الأملاك كالغاز والنفط والملح. فهذه الأشياء تتبع حاجة الجماعة إليها: فإن كانت ضرورة تتفرق في طلبها فلا يجوز أن يملكها أحد من دون أحد، ولا يدفع عوضاً لبذلها، وإن كانت مما يملكها كل فرد كما هي المياه في بيوت المدن والقرى فهي مما يملكها الأفراد ويقبضون ثمنها لو بذلوا لغيرهم إذا رغبوا. ويجوز بيع البئر والعين الموجودة في ملك معين لشخص معلوم كما قال صلى الله عليه وآله وسلم (من يشتري بئر رومة يوسع بها على المسلمين وله الجنة) فاشترها عثمان رضي الله عنه من يهودي وسبيلها للمسلمين بعد أن كان اليهودي يبيع ماءها.

وأما المياه الجارية فلا تملك المياه العامة كالبحار والأنهار الكبار والبحيرات، وأما إذا كان الماء يسيراً كالبركة فيجوز ملكها وهذا ينطبق على البحيرات الاصطناعية التي لا يجوز الأخذ منها إلا بإذن صاحبها.

ونهى الرسول عليه السلام عن بيع ما ليس عندك فقال (لا تبع ما ليس عندك) وقال (لا يحل سلف وبيع، ولا شرطان في بيع، ولا ربح ما لم يضمن، ولا بيع ما ليس عندك)، لأن مثل هذا البيع نوع من الغرر وبيع المعدوم، والمعدوم ثلاثة أقسام: إما موصوف في الذمة، وهذا هو السلم، ويجوز بيعه، وإما تابع للموجود كبيع الثمار بعد بدو صلاح ثمرة منها، فيجوز بيعه، سواء كان بستاناً واحقلاً، وإما لا ثقة لباعه بحصوله والمشتري فيه على خطر، فلا يجوز بيعه وهو الغرر. والعلماء في بيع الغائب يرون: من يجوز مطلقاً لا معيناً كالشافعي، ومن يجوز مطلقاً ولا يجوز مطلقاً كأحمد وأبي حنيفة، لأن الحديث لم ينفه عن السلم المؤجل ولا الحال مطلقاً وإنما عن الحال إذا لم يكن عند البائع مما يجعله يربح في ما لا يملكه وقد لا يستطيع أن يملكه.

و(نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن بيع الحصاة وعن بيع الغرر)، و(نهى عن الملامسة والمناذرة) وبيع الحصاة أن يرمي الحصاة فعلى أي ثوب أو سلعة وقعت فهو ملك للمشتري بدرهم مثلاً، وهذا فيه من الضرر والخطر الذي يشبه القمار، وأما بيع الغرر فهو كبيع الملاقيح وبيع العبد الأبق والفرس الشارد والطيور في الهواء والسمك في الماء والتمر قبل بدو صلاح وبيع المضامين، و(المضامين بيع ما في أصلاب الفحول) و(الملاقيح بيع ما في البطون من الأجنة)، فالغرر هو بيع ما لا يعلم حصوله أو لا يقدر على تسليمه أو لا تعرف حقيقته ومقداره. وبيع الملامسة هو أن يلمس كل واحد منهما ثوب صاحبه بغير تأمل، وبيع المناذرة هو أن يبتذ كل واحد منهم

ثوبه إلى الآخر دون أن ينظر إلى ثوب صاحبه... فهذه البيوع كلها حرام لما فيها من جهالة المبيع، وإن كان الغرر يسيراً كبيع اللفت والجزر والفجل والبصل والبطيخ والجوز واللوز والفسق، أو كان لا يمكن الاحتراز منه لم يكن مانعاً من صحة عقد بيع.

وأما العقد على بيع اللبن في الضرع فعليه أقوال ثلاثة:

١ - منعه بيعاً وإجارة، وهو مذهب أحمد والشافعي وأبو حنيفة.

٢ - جوازه بيعاً وإجارة. ٣ - جوازه إجارة لا بيعاً، وهو مذهب ابن تيمية.

أما أدلة القول الأولى فهي (نهى أن يباع صوف على ظهر، أو سمن في لبن، أو لبن في ضرع) و (نهى الرسول عليه السلام عن شراء ما في بطون الأنعام حتى تضع، وعمّا في ضروعها إلا بكيل أو وزن، وعن شراء العبد وهو أبق، وعن شراء المغنم حتى تقسم، وعن شراء الصدقات حتى تقبض، وعن ضريبة الغنص).

وأما أدلة القول الثاني فلأنه نظير بيع لبن موصوف في الذمة كبيع عشرة من كومة معينة. وكبيع ثمر حائط بعد بدو صلاحه، وكلبن شاة معينة بكيل أو وزن.

وأما أدلة القول الثالث فاللبن في الإجارة يحدث في ملك المستأجر بعطفه الدابة كما يحدث الحب على ملكه بالسقي، فلا غرر في ذلك، وإن نقص أو انقطع فهو بمنزلة نقصان المنفعة أو انقطاعها، وعندها للمستأجر حق الفسخ أو ينقص من الأجرة بقدر نقص المنفعة، وإن اختار الإمسك لزمته الأجرة كاملة، فهو كمن يرضى بالمبيع معيباً، وإن كان مثل هذا الإمسك أو الرضى له الحق في العوض عنه، ويظهر ذلك من حكمه عليه وآله السلام بوضع الجوائح باسقاط قدر ما أتلفتها الجائحة من الثمر عن المشتري وذلك لأن الثمر لا ينضج دفعة واحدة فيتعرض في مسار نضجه للجوائح، فالإجارة تشبه بيع الثمار مما يعطيه الحق باسقاط قدر العيب من الأجرة، ويبقى هذا من باب تلف المنفعة المقصودة بالعقد أو فواتها، وفيها يضمن البائع بلا خلاف.

- وأما النهي عن بيع الصوف على الظهر فأجازه أحمد مع الجز في الحال، وإن أجاز التدريج فهو كالثمار فيؤخذ في الوقت المحدد في العقد كما تؤخذ الثمرة وقت كمالها.

ولو تتبعنا هذا القسم (في البيوع) وبالذات بيان ما يحرم منها، لأنه بالتالي سيكون الباقي مما لا يحرم، فإننا نجد الشارع الحكيم قد حدد بغاية الدقة والوضوح الأشياء التي يحرم بيعها وبالتالي يحرم شراؤها، ولو نظرنا فيها لوجدناها تنحصر فعلاً في ثلاثة أصناف هي: صنف يشمل كل المشروبات التي تفسد العقل، وصنف يشمل كل المأكولات التي تفسد الجسم ولا أقول كما قال المؤلف رحمه الله تفسد القلب والقول بالجسم أشمل وأولى وإن كان القلب أخطر عضو فيه بعد الدماغ والعقل، وصنف يشمل كل الأشياء التي تفسد الدين.

صحيح إن ما يفسد العقل والبدن بعامة والقلب بخاصة يؤثر في إفساد الدين على صاحبه، فمن فقد عقله الوعي على واجباته الدينية بتناول الخمر فقد أدى فساد

العقل إلى فساد الدين وحمل الآثام، ومن يفسد جسمه بحيث لا يستطيع بسبب تناول الأطعمة الخبيثة من أداء الحقوق الدينية له أو لغيره فقد أفسد عليه دينه.. وصحيح أن فساد الدين أظهر ما يكون عليه عندما يضيع الإنسان ما عليه من حقوق نحو الله تعالى بالتزام أوامره واجتناب نواهيه ولكن سلامة الأبدان المقدمة على سلامة الأديان تفرض عليه وضع حراسة مشددة على سلامة جسمه ليتمكن من القيام بتبعاته الدينية على وجهها الكامل.

وبالخلاصة عندما نقف على نوعي المحرمات من الأشياء: سواء التي حرمت عينها ومنفعتها معاً أو التي لم تحرم عينها وإنما منفعتها فقط فإننا نجد الأمر يدور فيها جميعاً حول جلب المصلحة للإنسان تبعاً لما يراه المشرع الحكيم من مصلحة لا ما يراه الإنسان نفسه، أو حول درء مفسدة كما يراها الشارع الحكيم من مفسدة من أجلها يحرم هذه العين أو تلك كما يحرم منفعتها أو يحللها. فما دام التحسين وبالتالي المصلحة، شرعياً، والتقبيح، وبالتالي المفسدة، شرعياً فلم يبق إلا الوقوف عند النصوص الشرعية التي تحرم هذه الأعيان ومنافعها أو تبيح تلك الأعيان وتحرم فقط منافعها.

واستعراض بسيط لهذه الصفحات الأخيرة تري القائمة من الأعيان المحرمة هي ومنافعها كما تري مجموعة أخرى حرمت في أكلها وأبيح الانتفاع بها، كما تري قائمة من البيوع المحرم التعامل بها سواء بتحريم البيع والإجارة معاً أو بجوازهما معاً أو بجواز الإجارة دون البيع.

وإن ذلك كله يضعه الخالق سبحانه وتعالى {ألا له الخلق والأمر} وهو الحكيم في خلقه وتدبيره، يضع ذلك لخلق من باب تدبيره الحكيم لهم وهو سبحانه العالم بما خلق، بما يصلحه وما يفسده.. وهو العليم الحكيم... وهو نعم المدبر الحكيم...

وبذلك انتهت دراسة كتاب زاد المعاد

والحمد لله رب العالمين

٢ - دراسة كتاب دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين

للامام محمد الغزالي

صدرت الطبعة الثالثة من هذا الكتاب عام ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م عن دار القلم بدمشق، وهي موضوع هذا العرض والمناقشة.

يبدأ المؤلف رحمه الله تعالى بمقدمة يتحدث فيها عما يتعرض له كتابه هذا من حاضر المسلمين ومستقبلهم من محاولات القضاء على الإسلام والمسلمين من أعدائه، ومحاولات إنقاذ المسلمين من ذلك من رجال كان للإمام حسن البنا دور أساسي في ذلك وفي تجديد القرن الرابع عشر للهجرة، مما جعله ملهماً للمؤلف في تأليفه هذا الكتاب وبالتالي ساعياً لتأصيل القواعد العشرين التي وضعها ذلك المجدد ولاسيما أن الظروف في عهده ما زالت قائمة والتي تصدر عن نبعين أساسيين هما الاستعمار العالمي والفساد الداخلي.

فالاستعمار العالمي ما زال هو هو بوجهه السياسي-الاقتصادي، واشتد حقه بوجهه الثقافي ليأتي على العقلية الإسلامية، وليحول دون النجاح في شؤون الدنيا ويركز التعليم بشقين مدني وديني ليفصل الدين عن الحياة، وليضرب المسلمين بعضهم ببعض، وليدعم نشوء الأحزاب الحاكمة على الإسلام لتساعده في القضاء عليه.

والفساد الداخلي جعل من المسلمين عبئاً ثقيلاً على الإسلام مما يفرض غربة ما لديهم من أفكار ومذاهب وأعراف وتقاليد لطرح كل ما يجانب الحق جانباً والوقوف بكل غال ونفيس مع الحق وطريقه ودعوته...

والدعوة الإسلامية تواجه تحديات كثيرة، وأكثرها من الداخل، فالتاريخ الإسلامي لم يشوه من أعداء الإسلام أكثر من أهله ومن يعيشون على أرضه، ونظام الخلافة لم يتحول إلى ملك عضوض من أعدائه بل من أهله، والتتار لم يسقطوا الخلافة في بغداد بل أسقطتها قصور الإثم وملذات الحرام، والصليبيون لم يسقطوا دولة الإسلام في الأندلس بل أسقطها المترفون طلاب الكراسي العالية من ملوك الطوائف.

لقد تعرف أعداؤنا على كل شيء من ديننا وثقافتنا وأرضنا.. ولم نتعرف نحن على شيء مما لديهم.. تعرفوا على العلم المادي وأبدعوا فيه مبتدئين مما كان لدينا ونحن تخلينا عما كان لدينا ولم نستطع أن نسير في طريق الإبداع الذي ساروا فيه لأننا تركنا لهم توجيهنا...

إنهم يحرفون ديننا بأقلامنا ووسائل إعلامنا، ويحفرون لنا المدافن قبل أن نفيق من كبوتنا ونقف عمالقة في صحوتنا...

إننا على يقين من نهاية هذه التحديات الداخلية يوم يعود المسلمون إلى إسلامهم الحق حكماً وشعباً.

كم هي نورانية هذه الكلمات الحقة من مفكر إسلامي جسور وعالم واسع الاطلاع وداعية صادق الدعوة... ألا رحم الله تعالى ذلك الرجل الذي حاول العديد من رجال الحكم استمالته ليكون داعية لعظمتهم باسم الإسلام فما استطاعوا تحقيق ذلك وإن أشار إليهم أو أشاد بحسن مواقفهم المعينة... ولكن هل لنا في هذه الكلمة التي قدم بها كتابه ما نقدم بها لأعمالنا أيها الناس في إنقاذ الإسلام والمسلمين مما يكاد لهم

ويدبر ليل نهار من الداخل قبل الخارج؟ اقرءوا لهذا الرجل كتابه هذا بل كل كتبه ومؤلفاته وستجدون صراخ الداعية الذي قضى نحبه وهو يستثيتمكم لا لإنقاذه بل لإنقاذ أنفسكم بإنقاذ إسلامكم.

وتحت العنوان الأول من الكتاب (هيمنة الإسلام على الحياة كلها) يشير رحمه الله إلى محاولات أعداء الإسلام لجعل أهله يقبلون بإسلامهم منقوصاً، وكيف أنهم نجحوا في ذلك حتى لم يعد هناك صورة مكتملة له في أي بلد إسلامي، فالاستعمار العالمي لم يترك بلداً ويسحب جيوشه منها (إلا بعد أن يضع مقاليد هذا البلد في أيد تعمل له، وتضرب بسيفه، وتفكر بعقله). بل كانوا أشد ضراوة في العمل لتحطيم الإسلام والمسلمين منه.. والحق يقال: لولا خور المسلمين وضعفهم، فكراً قبل أي شيء آخر، لما استطاع عدونا أن ينجح في مكائده وتدبيراته، ولما وجد أحداً من رجال الفكر والثقافة والسياسة يسير في ركابه ويضرب بسيفه.

لقد مزقنا أمتنا الإسلامية بما لقننا من الدعوات ، فلم نحاول أن نذيب الفوارق بيننا وبين الترك والعجم والهنود والزنوج وغيرهم بل زدناها تركيزاً، ولم نستطع أن نحافظ ولا ننشر لغتنا العربية، لغة ديننا، ليسهل على الآخرين معرفة هذا الدين، ولم نجد من ولاة أمور بلادنا إلا من يفتخر بزج الآلاف المؤلفة من المسلمين في السجون... لقد ابتعدنا عن ديننا مسافات شاسعة، ولا بد من عودة صادقة إليه (إذا أردنا أن نحيا ونرشد)..

ولا بد أن نتذكر أن ضياع الأديان على مر العصور قد جاء من التحريف مثلث الأشكال:

- الحذف والزيادة للوحي الإلهي اتباعاً للهوى وغلواً في الدين،
- التأويلات الفاسدة والتفاسير الباطلة للنصوص في القرآن والسنة،
- تعطيل العمل بالكثير من الأوامر والنواهي.

ولكن من حسن حظنا أن القرآن محفوظ بعناية الله، فلم يستطع أحد من الحاقدين أن ينال منه بتحريف كلمة، وما على العاملين لإعلاء كلمة هذا الدين إلا أن يغذوا السير بصدق وإخلاص لوضع هذا الدين بكل أحكامه موضع العمل والتطبيق في حياة إسلامية كاملة متكاملة وأن لا يقبلوا بهذا التمزيق له..

فما أطيبها من كلمات تحاول أن تضعف محاولات أعداء الإسلام والمسلمين لصرف المسلمين عن تطبيق إسلامهم كاملاً في حياتهم، وما أشدها من مرارة تفريط المسلمين في العمل لنصرة دينهم بل المشاركة لأعدائهم في تحريف فكرهم وتمزيق أمتهم وتقسيم بلادهم، وما أخطرهما من تحريفات يقع بها المسلمون ضد دينهم وأنفسهم... ولكن ليطمئنوا أن شيئاً من ذلك لن يتجاوز القشور إلى اللباب، إلى العقائد، إلى الأصول.. ولذلك ليعلموا أنهم متعرضون للمزيد من الفتن والإبتلاءات ليس من الخارج، وإن كان هو الذي يطالب ويلح في ذلك، أكثر من الداخل الذي يتولى بكل ضراوة وقسوة وهمجية القيام بذلك...

ثم يأتي المؤلف رحمه الله تعالى إلى العنوان التالي (الكتاب والسنة معاً) فيؤكد أن القرآن والسنة هما المصدران الوحيدان للمسلمين في دينهم، فلا قرآن غير هذا المحفوظ بين أيدينا سنة وشيعة وخوارج ومتصوفة، وكذب من ادعى وزعم غير ذلك... وأين من القرآن في مضمونه ونظمه العهد القديم والعهد الجديد اللذان لا يقرأهما قارئ ويقارن بين ما اشتملا عليه إلا ويعلق بأعلى صوته أن هذا القرآن هو فقط الكتاب الحق عن الله تعالى...

وأما السنة النبوية فهي المصدر الثاني والأخير لهذا الإسلام، والتي مهما حاول دعاة الاكتفاء بالقرآن من دونها إلا سقطوا في افتراءهم على الله ورسوله.

وأى سنة يمكن أن تنكر إذا كانت تسجيلاً موثقاً أكثر من كل تاريخ بينما نجد كتب التاريخ يتداولها الناس بل الأجيال يشبه تسليم وثقة بينما هي بأمس الحاجة إلى الغرلة وإعادة النظر في كثير بل أكثر من الكثير من حقائقها؟ صحيح أن أهل السنة مقصرون في بيانها الحق والمنافحة عنها الواعية ولكن متى كانت مسؤولة عن جهل أهلها وتقصيرهم بحقها؟!

إن السنة يا مسلمون تشتمل على حقائق موثوقة.

إن في السنة الأحاديث المتواترة لفظاً أو معنى، وهي كثيرة، وهي في قوتها تشبه القرآن الكريم في ما تورده من أحكام مما لا يسمح بالطعن أو الرد.

إن في السنة الأحاديث الظنية لأنها رغم صحتها تعتبر كذلك ظنية لأن عدد روايتها أقل من عدد رواة المتواترة، ولكنها بالرغم من ذلك يحصر جمهور العلماء عملها في الأحكام العملية والفروع الفقهية ولا يدخلها في ميدان العقيدة التي لا تقوم إلا على القطع واليقين.

إن الفقهاء متفقون على أن الأحاديث أو السنن الظنية تتقوى بقرائن تساندها لترجح هذا الحكم الشرعي على ذلك.

فالسنة تحتاج لخبراء في فهم الكتاب وفهم اللغة العربية وفهم طرق الاستنباط الفقهي لأنه (لا فقه بغير سنة ولا سنة بغير فقه)...

فما أروع هذه الكلمات وهي تحذر وتنذر من أولئك الجهلة إن لم نقل الغربان والحاقدين الذين أشار إليهم الرسول عليه وآله السلام بأنهم يزعمون الاكتفاء بالقرآن الكريم بحجة أنه الثابت المحفوظ الوحيد والتخلي عن السنة النبوية بحجة أنها غير ثابتة ولا محفوظة كالقرآن! إنه والله الحقد الدفين ضد هذا الدين إذ بشطب مصدره الثاني ينهار المصدر الأول، فهلا أعاد دعاة السنة طريقة حرصهم عليها بالعلم الحق بها لا بالجهل المنفر عنها؟! لاشك أن هذه النبذة البسيطة من المؤلف رحمه الله تعالى تشكل هذه الدعوة للحرص على الجمع بين مصدري الإسلام وعدم التساهل بالتفريط في الالتزام بأحدهما دون الآخر.. وأن ما طرحه من حقائق مشهود لها كفيل لكل صادق في

عمله ومخلص في حرصه ليقف عن علم ووعي بجانب المصدرين معاً ولا يضعف أمام تلك الغربان الناعقة...

وعند حديثه عن (الحقائق لا الأوهام أساس الإسلام) أوضح أن شطحات المتصوفة من مثل ما روي عن محي الدين بن عربي من أن فرعون قد تاب ومات مؤمناً طاهراً يجب الحذر منها ورد كل مخالف منها للقرآن والسنة الثابتة من أمثال هذه الرواية المناقضة للقرآن الكريم في آياته الكثيرة بحق فرعون وموته كافراً.

صحيح أن المولى سبحانه قد مدح أولي العلم عندما قرنهم بذاته وبالملائكة وذكر شهودهم لله الواحد وتسليمهم بعدله المطلق {شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم} (الآية ٣ من سورة آل عمران) ولكن البشر بين متبع للهوى ومتبع للهدى، وما أبعد المسافة بينهما، وكل تدين لا يعتمد الحقائق العقلية والشرعية مرفوض، والتسليم للطيبين بحجة طيبتهم بأن ما يقولونه ويحكمون به على الأشخاص والأشياء هو الحق ليس من الدين في شيء إذا لم يكن الحكم قائماً على الدليل الشرعي من كتاب أو سنة.. والإيمان بالغيب خطر إذا تجاوز الحدود المرسومة له شرعاً لأنه يدخل في دائرة الخرافات والأساطير، والعقائد لا تؤخذ إلا عن يقين أو ما ثبت بطريق اليقين، ووجود الله تعالى مدرك من وجود المحسوسات المخلوقة له، ولكن ذاته ليست في دائرة الإدراك العقلي البشري، فالملائكة من الغيب المقطوع بوجوده لأنهم ثبت وجودهم من طريق القرآن المقطوع بصحته ووجود ما يذكر ويقرر وجوده، وكذلك الجن، وأما الاستسلام للعاطفة والوجدان الديني دون حراسة من الفكر الديني فإنه طريق إشاعة الباطل وترويج الخرافات. والإنسان بطبعه الضعيف يضعف أمام الرغبة في الشفاء فيطلب معرفة المستقبل فيقدم وهو المتعلم على قراءة الكف وطوالع النجوم مبتعداً عن الإيمان الحق عن علم أو جهل...

لاشك أن مثل هذا التنبيه لخطورة اللجوء إلى الأوهام من هذا المرجع أو ذاك، مهما زعم وادعى من كشف، لمما يحمي عقيدة المسلم من الخرافات التي يسهل على الجهلة ترديدها، والعجب العجيب كيف يرددها المتعلمون ولا نقول المثقفين وبالذات بالثقافة الإسلامية الحقبة التي تحمي بكل تأكيد أصحابها من الزيغ والانحراف عن الوعي السليم بإيمانهم... أما القول بحقائق العلوم الكسبية التي لا نقاش فيها لأنها كل العلوم المتوصل إليها بالجهد والمتابعة والمدارسة، وخلطها مع ما يسمونه بالعلوم الإلهامية التي يكتسبها بعض الناس بما يسمونه الكشف والرؤى والخواطر، فإن هذا الخلط يبعد الحقائق العلمية عن دائرة الحق ويدخلها في الأوهام والخرافات لأن هذه العلوم الإلهامية كما يسمونها لا تجد لها سنداً عقلياً ولا شرعياً... إنه من المعلوم بأن إيمان العجائز يقوم على الوجدان أو العاطفة الدينية، ولذلك نجد ندهن يكثرن من اللجوء للخرافات والأوهام كقراءة الكف والفتجان والودع والرمل لمعرفة الغيب. ولو توفر لإحداهن المحاكمة الشرعية المبنية على الفكر والتفكير لرفضت ذلك كله وأدركت أن سلامة الإيمان تفرض تجنب ذلك والاكتفاء بالحقائق التي يضعها الإسلام في مصدره من كتاب وسنة بين يديها.

وعند الوقوف على ما تحت العنوان (بين النص والمصلحة) نجد أن المؤلف رحمه الله تعالى يوضح لكل من يهمله الأمر معنى حقيقة ما فعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه كأمر للمؤمنين وخليفة للمسلمين عندما أوقف صرف سهم المؤلفه قلوبهم في الزكاة، وعندما أوقف قطع يد السارق في المجاعة، وعندما كره زواج المسلمين من الكتابيات... إنه تقييد المباح من دائرة العفو التي تركت للحاكم التصرف بها والتبني لها وهو الوحيد الذي له حق تبني الأحكام الشرعية لرعاية شؤون رعيته... وأن ذلك كله ليس من باب توقيف الأحكام أو تعطيل النصوص بل هو من باب تطبيق النصوص بإحسان أي بمراعاة جميع شروطها وليس كما يسمونها من باب مراعاة المصلحة على حساب النص، إذ لا مصلحة بلا حكم شرعي، فالأحكام هي التي تحدد المصالح وليست المصالح هي التي تحدد الأحكام... وإذا لم يوجد نص يدل مباشرة وصراحة على مصلحة ما فما أيسر من الاجتهاد في النصوص المتصلة بتلك الواقعة لاستنباط الحكم الذي يحددها ويوجهها شرعياً لا عقلياً ولا مزاجياً.

فنظام الحكم في الإسلام حددته الكثير من النصوص في السنة وإجماع الصحابة، ناهيك عن إشارات الكتاب بأنه نظام خلافة وخليفة، وأنه دون تحديد للخليفة بمدة معينة، وإن قال بعض العلماء بأنه لم يحدد بدقة في كلا الأمرين. وما قام به الصحابة في العهد الراشدي هو الإجماع التنفيذي على نظام الخلافة سواء سمي الحاكم خليفة أو أمير مؤمنين أو إمام، فالمعنى واحد لأنها كلها تدل على من يتولى رعاية شؤون المسلمين نيابة عنهم، وأنه باق حاكماً عليهم مادام متقيداً بالشرعية التي أنابتها الأمة لرعاية شؤونها وفقاً لها (وليت عليكم ولست بخيركم، أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم).

ونكتفي بهذا البيان الذي يصلح جزءاً من التعقيب على قول المؤلف رحمه الله تعالى بأن الإسلام لم يحدد (أسلوب الحكم في الإسلام) كما قال، لأن للموضوع تفصيلاً أكثر في موضعه ومراجعته...

وإذا جاز لنا أن نضيف بشأن علاقة النص بالمصلحة في نظر الإسلام المزيد بالإضافة لما أشرنا إليه آنفاً فهو التأكيد على ترجيح القاعدة الأصولية بأن المصلحة تدور مع النص وليس العكس، وأن هذا ما حرص المؤلف رحمه الله تعالى أن يركز عليه في هذا الموضوع عندما رفض المزاعم بأن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد عطل النصوص المتعلقة بتلك الأمور الثلاثة، وإنما فعل ما فعل حرصاً على إحسان تطبيق تلك النصوص عندما راعى الشروط التي تقيد التنفيذ في كل شأن من تلك الشؤون الثلاثة. واما رأي الإمام ونائبه فيما لا نص فيه فهناك قاعدة الأصل في الأفعال التقيد بالأحكام الشرعية والأصل في الأشياء الإباحة، وهذه قاعدة أصولية راجحة لا مرجوحة، مما لا يجعل لأي من الأعمال والأشياء مجالاً للاصطدام بأي قاعدة شرعية، مع رفض القول بأن الأحكام تتغير حسب الأزمان لأن ما يتغير هو تفاصيل الوقائع وهذه تخضع للتحقق منها عند التطبيق للحكم الملائم لها.

وتحت عنوان (الخلاف الفقهي وتعدد المذاهب) يقف المؤلف رحمه الله تعالى ملياً مع الإمام ابن تيمية في كتابه (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) للاختلاف الفقهي وتعدد المذاهب فيما بين الأئمة أصحاب المذاهب. فبعد أن يؤكد أنهم اعتمدوا على الكتاب والسنة في مذاهبهم كلهم بينما اهتم أصحاب الحديث بالأسانيد والروايات أكثر من المتون والدرايات مع أنه كما قال: لا سنة بلا فقه ولا فقه بلا سنة، وبعد أن يؤكد ما ارتكبه أتباع أولئك الأئمة الأعلام من أخطاء عندما وقفوا على آراء أئمتهم كأنها الدين ولا دين غيره، جاء لذكر أمثلة على هذا الالتزام المذهبي المفرط لوجود أدلة أخرى صحيحة في نفس المسألة لدى المذاهب الأخرى ولكنها لسبب أو لآخر لم تصل إلى إمام ذلك المذهب، ثم للإشارة إلى أن ما بين أيدي المسلمين خاصتهم وعامتهم من الأفكار المتعلقة بالعقيدة والعبادات والمعاملات والأخلاق ما يستوي فيه الجميع ويكفيهم وإن وجد بعد ذلك ما يحتاج إلى المتخصصين من أهل الذكر أو أهل الاستنباط والاجتهاد، ثم لبيان أسباب وجود المذاهب الفقهية المتعددة، موطناً لذلك بثلاث حقائق هي:

١. أن الكثير جداً من الأفكار المتصلة بالعقيدة والأحكام موجود لا خلاف فيه ولا عليه.
٢. وأن الاختلاف بين المذاهب الإسلامية الكبرى محصور في الفروع لا في الأصول مما يسهل التعاون بينهم.
٣. وأن معرفة أسباب تركة هذا الاختلاف من ترف عقلي واستبداد سياسي تيسر تجاوزها مع صدق النوايا.

وأما أسباب الخلاف بين الأئمة فيعرضها في اثنين:

١. الطبيعة اللغوية إذ قد تفيد الكلمة الشيء وضده أو الشيء وغيره مع أن السنن المروية والمتواتر منها بالذات كثيرة وكفيلة بإعادة النظر بهذا الخلاف بشكل تولى الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه بيانه في رسالة له رد فيها عن يدعون الاستغناء بظاهر القرآن عن السنن المفسرة له مما يدعو لإزالة القطيعة أو شبهها بين ذوي الآراء أو وجهات النظر أو الأفهام - سمها ما شئت - المختلفة.
٢. أحاديث الأحاد ودورها في التشريع، وقد كفانا الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى ورضي عنه بيان ذلك في رسالة أوضح فيها أسباب الخلاف بين الأئمة دون التحيز لأحد منهم وذكر لذلك عشرة أسباب هي:

- عدم وصول الحديث إلى الفقيه المجتهد، بسبب ضعف أسباب الاتصال.
- قد يصل الحديث إليه ولكنه يرفض سنده لعله تقدر فيه حرصاً على سلامة الرواية.
- قد يختلف هذا الفقيه عن الآخر في شروط الاطمئنان للتأكيد على شرعية الخبر.
- قد يرى الفقيه ضعف الحديث كالحجازي الذي لا يعتد بحديث رواه عراقيون أو شاميون، وكالشيعي الذي لا يعتد بحديث رواه من غير أهل البيت وأشياهم.

- قد ينسى الفقيه الحديث مع أنه قد روي عن استخدامه في فقهه.
 - قد يختلف العلماء بفهم الحديث لاشتراك اللفظ أو إجماله، لتردده بين الحقيقة والمجاز.
 - قد يرد الفقيه دلالة الحديث بسبب عنده وإن فهمها كالسابق.
 - قد يصعب ترجيح وجهة على أخرى لتساوي الدلالات المتعددة في إفادة معان كثيرة.
 - قد يخطئ الفقيه في نفي وجود حديث معين يدل على ما يخالف حكمه في الأمر.
 - قد يرد الفقيه الحديث الصحيح لمخالفته القياس الجلي أو لمخالفته عمل أهل المدينة، والحديث أولى بالتقديم.
- فما أروع هذا البيان السهل البسيط لخاصة المسلمين وعامتهم عن أسباب تعدد أو اختلاف الآراء والمذاهب الفقهية! وما أروع القصد من ذلك من أن نعمل معاً فيما اتفقت عليه هذه المذاهب، ونعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفت فيه مادامت الاختلافات محصورة في الفروع لا في الأصول! وما أطيب هذا العرض الميسر لما أوضحه الإمامان أحمد بن حنبل وابن تيمية في أسباب تعدد المذاهب واختلاف الآراء الفقهية. فهلاً أقلع علماء اليوم والغد عن التعصب المذهبي وأقبلوا على الحرص على قوة الدليل وانطباق الحكم على المسألة من أي مذهب كان، وتجنبوا استرضاء أحد مهما كان مركزه على حساب رضى الله تعالى!؟

وعند الحديث تحت عنوان (أخبار الآحاد ووزنها العلمي) نجد المؤلف رحمه الله تعالى يؤكد أن أخبار الآحاد لا ولن تفيد إلا الظن، لأن الفرد قد ينسى أو يخطئ وهو كثير في مرويات الآحاد، مما يفرض عدم الاستدلال بها في العقائد التي لا يمكن أن تقوم إلا على اليقين ولاسيما أن وراءها الهلاك المحقق في النار لجميع الكفار، بينما اليقين ومنه المتواتر هو وحده الدليل القطعي مما يجعله وحده مستنداً للعقائد. واما القول بإرسال الرسول عليه وآله السلام آحاد الرسل والمعلمين فإنهم مجرد مبلغين باليقين والثابت به ولا تأثير لقلتهم أو كثرتهم في يقيننا.

ويتحدث بعدها عن الفرق بين مدرسة الرأي ومدرسة الأثر في الفقه الإسلامي، وكيف أن مدرسة الرأي كانت تأخذ النص وتفسره في ضوء الملابس المحيطة به وتستدل به على المشكلة القائمة في ضوء ما يتصل به من القرآن، بينما مدرسة الأثر كانت تستند على ظاهر النص مع بعد عن الحرفية التي سيطرت على مذهب ابن حزم الظاهري. والثغرات التي وقعت فيها المدرستان محدودة كتجاوز مدرسة الرأي لأحاديث صحيحة لا مبرر لتركها كما فعل الأحناف بالوقوف على عصير العنب ليس غير في حق الخمر وحصر الخمر بصفة معينة، وتأويل الأحاديث الصحيحة بشكل غير مقبول لتوافق رأيهم، وكما تفعل مدرسة الأثر عندما تقع في جعل المكروه مباحاً والمباح مكروهاً والنافلة فرضاً والمباح محرماً كمصافحة الأجنبية وهم يرونه كبيرة مع وجود حديث أم عطية الذي يفيد الإباحة، وإن أفيد مع الجمع بين الأحاديث شيء آخر فلن يتجاوز الكراهة.

ثم يتحدث عن نشوء مدرسة الموازنة والترجيح في القرن السابع على يد ابن تيمية وتلامذته بما استوعبته من المدرستين السابقتين وإن مالت إلى مدرسة الأثر أكثر من الأخرى.

ثم نشأت مدارس أخرى في القرن الثالث عشر، انتفعت بجميع المدارس السابقة ورجعت إلى مصدري الفقه الإسلامي مباشرة: الكتاب والسنة، ومثلها الصنعاني والشوكاني والسيد سابق وغيرهم ممن كانوا أفضل تصويراً للإسلام من مؤلفي المتون المذهبية وإن كانوا كغيرهم بشراً يخطنون في اجتهادهم ويصيبون.

وكما نشأت مدرسة ابن تيمية بميل إلى مدرسة الأثر ظهرت مدرسة أقرب إلى مدرسة الرأي هي مدرسة محمد عبده ورشيد رضا وتلامذتهم من محمود شلتوت وقبلهم محمد الخضري ومعهم محمد أبو زهرة، هذه المدرسة روجت للعقل وتراه أصلاً للنقل، وتقدم الكتاب على السنة، وترفض فكرة النسخ، وتكرر التقليد الأعمى المذهبي، وتحترم الأئمة ولكن لا ترى في مذاهبهم أكثر من فكر إسلامي ينفع به دون أن يكون ملزماً لأحد.. ولكنها غيرها بشر تصيب وتخطئ في اجتهاداتها، فتفسير محمد عبده للملائكة لا يقبله أحد، وتذمر أبو زهرة من حد الرجم مردود، وفتوى بل فتاوى محمود شلتوت ولاسيما في إباحة الربي بحجة المصلحة مردودة.. ولكن تبقى هذه العقول المتفوقة رغم هناتها محل تقدير.

كم هو هذا الموضوع، قيمة أخبار الأحاد العلمية، على غاية من الأهمية والخطورة، ولاسيما عندما يدخل مجال العقائد ولا يقف عند الأحكام؟! لاشك أن منافحة المؤلف رحمه الله تعالى عن سلامة العقائد بالنظر لمصير صاحبها بين جنة ونار، مما يقتضي التأكد والاطمئنان والثقة التامة بالأدلة المستندة إليها، فلا يقبل إلا النص القطعي الثبوت القطعي الدلالة، أما أخبار الأحاد الظنية فليس هذا مجالها وإنما مجالها الفروع، مجالها الأحكام التي لا تترك شاردة ولا واردة إلا كان لها تدخل فيها. إن أحداً من المجتهدين من الأئمة الأعلام وغيرهم لم يدع العصمة عن الخطأ في اجتهاده بل كان الواحد منهم يردد: إن صح الحديث فهو مذهبي وإلا فاضربوا بقولي عرض الحائط، مما يدل على مدى تواضعهم العلمي وحرصهم على النزاهة وهم يستحضرون مسئولية الكلمة بين يدي الله تعالى المحاسب على ما صدر عنهم... ولو سرنا مع المدارس الفكرية أو الاجتهادية أو المذهبية- سمها ما شئت - لوجدناها في مسيرتها لا تتخذ غير الكتاب والسنة مصدرين لاستنباطات أحكام مذهبها، سواء القديمة منها أو الحديثة، وسواء ما يسمى مدرسة الرأي أو مدرسة الأثر. فهلاً توقف تلاميذ هذه المدارس اليوم وغداً عن التعصب لواحدة دون الأخرى، وحرصوا على التمتع بصفة الاجتهاد ولو في المسألة الواحدة معتمدين على قوة الدليل عند الترجيح، وعلى دقة فهم المسألة المطروحة أو الواردة، وعلى سلامة تطبيق الحكم على الواقعة أو المسألة؟

وعند حديثه بعنوان (الاجتهاد الفقهي علامة صحة وهو شرف لتاريخنا) يرى المؤلف رحمه الله تعالى أن الرسول عليه وآله السلام قد أقر اجتهاد أصحابه بين يديه

وقضى بالأجرين للمصيب وبالأجر الواحد للمخطئ، مما لا يرفض معه هذا التعدد أو الاختلاف في الاجتهاد ويستدعي احترام كل مجتهد للآخر ولرأيه مهما خالفه، وأن ذلك يستوي في العبادات من صلوات وغيرها مع ما في المعاملات، وإن ذلك يفرض عدم تكفير أو تفسيق المخالف في الرأي أو المذهب مهما كان الخلاف مستقبلاً، فالكثير من أحاديث اللعن تحمل على الكراهة لا التحريم من طوائف أخرى من الفقهاء، مما لا يجيز تكفير أو تفسيق من يقول بجواز العمل بمضمونها ولو مع الكراهة، وذلك من مثل لعن العاصر والمعاصر، ولعن الواصلة والموصولة ولعن المحلل والمحلل له.

وأما أن يرفض بعضهم هذا الخلاف، ويحاول هدم أولئك الأعلام بحجة خلافاتهم فيما بينهم، وبحجة أن أحدهم يبرأ من تاريخ مليء بمثل هذه الاختلافات.. فإن ذلك دليل جهل وكبر لا يستحق إلا المقت والازدراء.

ما أروع هذه النظرة لهذه الفئة المسعورة التي تريد بحجة الحرص على الإسلام والمسلمين أن تهدم تاريخها بسبب الاختلاف الفقهي! لكانهم يريدون عقولاً بشرية صاغت المسطرة فلم تعد تملك كالذي يسمونه (الروبوت) أو الإنسان الآلي إلا الوفاق في السكنة والحركة؟! إن الله تعالى الخالق لجميع خلقه قد جعل فيهم هذا الاختلاف والتفاوت في الفهم والإدراك، وجعل لهم التدبير وفقاً لهذه الطبيعة البشرية التي خلقهم عليها، فأقر هذا الاختلاف ورسوله الذي لا ينطق عن الهوى قد أقر ذلك ...

ويأتي المؤلف رحمه الله تعالى بعدها إلى الحديث عن (التعصب المذهبي) فيرى أن هناك أفتين، كما يسميهما، تفتكان بالمتعصبين هما:

١. العجز العلمي، ولو أنهم على معرفة بالمذاهب الأخرى وأدلتها لما حصل ذلك.

٢. سوء النية والأمراض النفسية من حب الظهور والكبر والقسوة، كما ظهر ممن تهجم على الرسول عليه السلام عند قسمة غناتم حنين: أعدل، هذه قسمة ما أريد بها وجه الله! مما جعل الرسول عليه وآله السلام يرد عليه (ويحك)، من يعدل إذا لم أعدل؟ خبت وخسرت إن لم أعدل)، وهذا من هذا وأمثاله دليل ضعف في الإيمان.

وأما تلك الفئة المتعصبة الجديدة المسماة بأهل الحديث فإنهم ما أسرع ما يتهمون من يخالفهم في فهم الحديث بأنه يخالف السنة أو يخاصم الرسول عليه السلام!

لاشك أنها من البلاء الذي شاع في الأمة الإسلامية في قديمها وحديثها، ولكنك إذا وجدت ما كان يغطي عليه في الماضي من قوة المسلمين ووجود الإسلام في الحياة نظام حكم وسلطان وحرب وسلام فماذا تجد اليوم غير التمزق للمسلمين والمحاولات العديدة لإحياء وتطبيق الإسلام في الأرض ومقابلتها المحاولات الشرسة من أعداء الإسلام والمسلمين في الداخل، كما سبقت الإشارة أكثر منه في الخارج لتحطيم دعوته والقضاء على رجاله، وهم يسخرون الكثير من هذه الحركات لخدمة أغراضهم الخبيثة تلك، والناس في أكثريتهم الساحقة أمام ذلك بين خائف مرتعب ومندهب مشلول وطالب للشهادة، وما أقل هذه الفئة الأخيرة لقسوة المطاردة ووحشية الاضطهاد!

ويعقد المؤلف رحمه الله بعدها (حوار جاد حول التقليد والاجتهاد) فيورد عدة وقائع حديثة وقديمة، وكيف اختلف الناس حولها، فيتصدى له أحد السامعين لحديثه، فيدور الحوار بينهما. إنه يذكر حادثة وقعت في الإسكندرية قتل فيها الأب ولديه ليتخلص من نفقتهما، فيرفض المفتي بدافع من مذهبه الحنفي التصديق على إعدامه، ولكنهم يعدمونه بالقانون الوضعي، فيسأله سامع عن رأيه في المسألة فيجيبه بأنه مع مالك بإعدامه مراعاة لجميع ما يتصل بالحدث، وهذا ما يراه أبو حنيفة الذي يحكم بذلك عند مراعاة الملابسات للحدث. ثم يذكر تدخل مستمع آخر هائج فينبيه إلى أمرين مهمين في الحوار: أدب النفس وحسن الفقه، ومن أسس الأدب تجنب التهجم على الآخرين وإلصاق التهم بهم.. وفي ما حصل في صلاة العصر التي أمر الرسول عليه وآله السلام بأدائها في بني قريظة من خلاف بين من صلاها في الطريق وبين من أجلها لبعدها وقتها فصلاها في بني قريظة، وأن في ذلك الدليل على الأدب إذ لم يعتب منهم أحد على أحد ولا عيب الرسول عليه وآله السلام على أحد من الفريقين، وأن من الأدب أن يقف الإنسان في الحوار عند حدود علمه وفقهه ولا يتناول على الأئمة، فلا يجوز لمن يريد إنشاء فقه جديد يستند على الكتاب والسنة مباشرة أن يتهجم على أئمة الفقه ويرى نفسه فوقهم..

وأورد الفهم الخاطئ الذي يقوله هؤلاء من أن شن الحرب على الأعداء يتم بدون دعوة إلى الإسلام مستندين في ذلك إلى هجوم الرسول عليه وآله السلام غرة على بني المصطلق، وذكرهم بالفهم الخاطئ لغارة الرسول عليه وآله السلام تلك إذ أنها ما حصلت إلا بعد أن دعا وتريث وتأمل الخير فيهم، ولكنهم عندما أخذوا يحشدون القوة للهجوم عليه بادر بالإغارة عليهم.

ثم أورد ما يقوله هؤلاء بأن الزكاة لا تؤخذ إلا من الحبوب التي تدخر، وأن رأي أبي حنيفة بأخذها من كل حبوب وثمار لها أهميتها لا يقيمون له وزناً، فرد عليه بخطأ ذلك لأن أبا حنيفة اعتمد في رأيه على القرآن الصريح. ثم ذكر كيف أوصى كمدبر للمساجد الخطباء على ترك من يصلي أو لا يصلي تحية المسجد والإمام يخطب لشأنه.

ثم ذكر لمحدثه قيمة فقه الرجال في مثل ترك أمير المؤمنين عمر الأرض المفتوحة دون تقسيم بين المقاتلين بينما خمس غيرها. وأخيراً ذكر محدثه بحديث الرسول عليه وآله السلام (ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقّه) وأن ليس من حق أحد أن ينكر على المجتهد أخطأ أم أصاب العذر والأجر، مما يفرض عدم التطاول والأذى...

ما في هذا التوجيه لأدب الحوار شك، ولكن ليس من حق الساترين في درب العلم والتعلم الفقهي على من سبقوهم فعلموا أكثر منهم أن يأخذوا بأيديهم سواء في تذكيرهم كما فعل المؤلف هنا رحمه الله تعالى وذلك بأدب الحوار أو بالفقه الحسن؟ إن من المعلوم أن المتعلمين الجدد كانوا طيلة العهود الإسلامية يعيشون في حلقات الدراسة

والحوار مع العلماء المعلمين، فإذا برز سريعاً أحدهم أسندوا إليه مهمة التدريس مبكراً، وإذا ذكرنا أن أفضل أسلوب للتفقه والتعلم هو الحوار فإننا نجد بالفعل هو الأسلوب الذي ساد طيلة عصور الدولة الإسلامية، وإذا ذكرنا معه قوله وأمره عليه وآله السلام (بلغوا عني ولو آية، فرب مبلغ أوعى من سامع) أو شاهد أو كما قال عليه وآله السلام، فإننا نجتمع بين أسلوب الحوار والأمر بالتبليغ المبكر، وليس حتى يصبح المتعلم فقيهاً، بالتذكير الدائم بمضمون أسلوب الحوار والدعوة، أي بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن بحسب الطرف الآخر...

ويأتى بعدها المؤلف رحمه الله تعالى إلى (نحو سلفية واعية) فيفرق بين المذهب والفرقة، وأن الأول لا يختلف عن المذاهب الأخرى إلا في الفروع بينما الفرقة تختلف عن الأخرى في العقائد والأصول. ويشير إلى كيف كان سلفنا الأول يعيدون عن الاشتغال بما وراء المادة، ولكن هذه الفرق اشتغلت بالفلسفة اللاهوتية والمناظرات الكلامية، فكان الخوارج والمعتزلة والمرجئة... فأبعدت المسلمين عن نبههم الصافي وأشغلتهم بهذه المجادلات.

فالسلفية الحقة هي التي ترتبط عقلياً وعاطفياً بخير القرون، وتلتزم بالكتاب والسنة، وتحشد المسلمين لإعادة الإسلام للحياة في دولة إسلامية تعمل لإعلاء كلمة الله في الأرض دون تمييز بين لون ولغة وعرق.. فهي ليست مذهب أحمد بن حنبل ولا غيره من المذاهب بل هي كل المذاهب وغيرها حتى تسع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.. إنها ليست مدرسة الأثر ولا الرأي بل هما معاً... إنها دعوة تعيد للمسلمين رقيهم الفكري والحضاري وتستخدم الرقي المادي لتحقيق ذلك...

لاشك أن الوعي على الإسلام وثقافته ونظمه في فكرته وطريقته كما وضعها الرسول عليه السلام وطبقها في سيرته لهو السبيل الوحيد لتخليص الأمة الإسلامية مما هي فيه من تخلف حضاري ومادي... وأن ذلك لن يتحقق بين يوم وليلة، إنه يحتاج إلى العمل الدؤوب والصبر الطويل والحرص التام لا على استمرارية الجهد فقط بل على نقاء مضمون هذا العمل من أن يتسرب إليه الفكر الغريب عنه والأشخاص الغرباء عنه.

وأما مبحث (المذاهب الفقهية وسلطات الدولة) فالمؤلف رحمه الله تعالى يقول بشأنها بأن العبادات شأن فردي ولكن المعاملات والعقوبات مما يسمى بالشؤون المالية والاجتماعية والإنسانية، شؤون الأموال والأعراض والدماء، لا يمكن فصلها عن الحكم سواء تبنت الدولة مذهباً معيناً وأهملت غيره أو تبنت أحكاماً تعالج جميع هذه المسائل في نظم شاملة لكل مجال من هذه المجالات.

صحيح إن المذاهب الأربعة المنتشرة في العالم الإسلامي تقدم الكثير من المعالجات ولكن هناك مسائل جديدة تحتاج لاجتهاد وتين جديدين من رئيس الدولة الإسلامية... فما أكثر القضايا الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والإدارية والحكم التي باتت ملحة وتتطلب التنظيم والمعالجة الشرعية بدلاً من هذه النظم الوضعية التي ما زادت المسلمين إلا بعداً عن إسلامهم وشقاء في حياتهم...

والدولة الإسلامية ممثلة برئيسها الخليفة يقوم بتبني هذه الأحكام والنظم بدءاً من القواعد والأحكام العامة في دستور إسلامي وانتهاء بالأحكام الجزئية لفروع كل نظام بعينه، والاجتهاد في آفاق المعاملات كفيل بتقديم هذه النظم كحلول لا تترك مجالاً واسعاً أو ضيقاً إلا وضعت له حلاً.. ومتى تحقق للمسلمين وجود هذه الدولة والنظام تحقق لهم جذب العيون والعقول والقلوب إليهم والى دينهم، وتوفرت لهم أقوى عملية لنشر الإسلام في الأرض.

وجاء بعدها حديث المؤلف عن (الخلافت الموروثة: قيمتها وأثرها) فذكر أن الكثير من الأمور العابرة قد تسربت إلى العقيدة الإسلامية عن حسن ظنهم حتى قالوا بأن أبا الحسن الأشعري قد تاب وآب إلى السلفية عندما تخلى عنها ومنها بأنه آمن بأن الدعاء لموتى المسلمين والصدقة عنهم بعد موتهم تصل إليهم، وأن السحر موجود والساحر كافر، وأن الميت يموت بأجله والمقتول يقتل بأجله، وأن الرزق حلاله وحرامه من الله تعالى، وأن الشيطان يوسوس للإنسان ويشككه ويخطبه، وأن السنة لا ينسخها القرآن، وأن الأشعري كان زانغاً حتى اعتنق هذه الأفكار.. فما قيمة هذه الأفكار في عقيدة الإسلام؟ إننا إذا نظرنا في واقع الأمة الإسلامية نجدها تتمزق إلى فرق منها أصحاب المذاهب الباطنية من نصيرية وإسماعيلية ودروز وكلهم ينتمون إلى الإسلام انتماء غامضاً، فمن المسؤول عن ذلك، إنهم المسلمون بعامة والحكام بخاصة، ولو أولوهم من خلال مناهج التعليم والإعلام ما يجب من الاهتمام لأصبحت نسبتهم إلى الإسلام واضحة. كما أننا نجد الانقسام الكبير بين المسلمين إلى الشيعة وأهل السنة مع أن أقوى عوامله عاطفية، إلا أنها لا تخلو من العلمية، ولذلك وبدافع صداقته الحميمة مع كثير من الشيعة اقترح طريقاً للتصالح بين الفئتين على الشكل التالي:

- يتفق الفريقان في مؤتمر جامع على أن القرآن الكريم والسنة النبوية هما المصدران الوحيدان للتشريع.
- ويتفقان على النظر لما وقع من خلاف في القرن الأول للعبرة وإنهائها من حاضر المسلمين ومستقبلهم.
- ويتفقان على إقامة مستقبلهم على الأصول المشتركة وعلى التسامح في الفروع والآراء المذهبية المختلفة.
- وليعلم كل مسلم بأن كل ما غير المسلمين من أهل الكتاب والوثنيين والماديين قد اتفقوا على القضاء على المسلمين فإلى متى يستمر التفرق والتباعد؟

إنها صرخة من قلب مسلم غيور طالما انطلقت من الكثير من الحناجر المؤمنة واستجابت العقول النيرة المخلصة لها، ولكن لماذا لم يبادر هؤلاء إلى استخدام هذا الأسلوب، المؤتمر العام الجامع، أو غيره من الأساليب لحسم هذا الاختلاف بين السنة والشيعة سواء بإنهاء البقاء فرقتين تختلفان في العقائد أو بعضها والأصول أو بعضها، ثم بالنقلة إلى مذهبين يلتقيان في العقائد والأصول ويختلفان كما يختلف أي مذهبين

آخرين في الفروع والجزئيات؟ إن مذاهب السنة لا تجد حكماً يأخذ في العالم الإسلامي بتطبيق فكرها وإن ادعى بعضهم ذلك، ولكن الشيعة لديهم ما يسمونه جمهورية إيران الإسلامية التي تحكم بالفكر الشيعي والذي بدأ مع مؤسس الدولة لا يعرف تمييزاً بين سنة وشيعة ثم انتكس بعد تلك المجزرة الرهيبة للكثير من قادة الفكر الإسلامي الشيعي وعلى رأسهم بهيشتي وإخوانه وعاد إلى النظرة الضيقة المحصورة بالشيعة الإيرانية، فلماذا؟ إنهم يحاولون أن يفتحوا على المسلمين السنة هنا وهناك ولكن لا يبدو وجود أي حافز يحفزهم في ذلك أبعد من القضايا السياسية فيما بين دولة إيران وغيرها من الدول في محاولة للتخلص من الضغوط السياسية الدولية التي يتعرضون لها سواء على مستوى التكتيك والمناورة أو مستوى الحقيقة الاستراتيجية. صحيح أن هناك من العلماء الشيعة من يحاولون إزالة هذه الفرقة مع أهل السنة ولكنها ما زالت محاولات متعثرة، فمتى تنجح؟ عسى أن يكون ذلك قريباً..

وينتقل المؤلف رحمه الله تعالى إلى (معنى الابتداع وأنواع البدع) فيذكر خمسة أسباب لرفض الإسلام للبدع:

١. فيها طعن في الدين بالنقص،
٢. فيها إعطاء حق للبشر في التشريع،
٣. فيها استنفاد طاقات المبتدعين بدلاً من خدمة الدين والدنيا،
٤. فيها استبعاد السنن الأصلية،
٥. فيها مخالفة لعمومية الدين.

فيؤكد أن الأصل في الدين الاتباع وفي الدنيا الابتداع، وأن المتدين الذي يضعف إيمانه هو الذي يقع في تعطيل النصوص والجرأة على دين الله بالابتداع، أو يجهد نفسه في النوافل من الدين وترك العظام منه، ويجرؤ على التحسين والتقييح النفسي وإضافة ما ليس من الدين إليه من البدع التي قد يصغر خطرها أو يكبر، تبعاً لنوعيتها، وقد تكون مما يطلب فعله أو يطلب تركه كأن يفرض قراءة سورة الكهف كلها أو بعضها قبل صلاة الجمعة، ويلزم نفسه بأوراد قبل أو بعد الصلوات، ويردد الصلاة على النبي عليه السلام من المرات ما لا سند له، ويبني السرادقات التي يتلى فيها القرآن للعزاء... وكل ذلك مما لم يفعله الرسول عليه وآله السلام ولا صحابته.

فكم كان عظيماً لو تحول هذا الابتداع في الدين إلى الدنيا وشؤونها، ولكن شدة التدين المبنية على العاطفة والوجدان والخالية من التفكير والعقل هي التي تلحق بالدين ما ليس منه سواء في الأصول ومنها العقائد كاللجوء للأضرحة للاستشفاء أو الفروع كاختراع صلوات أو أدعية قبل الصلاة أو بعدها لم يرد بها سنة ولا نافلة.

ويأتي بعدها إلى موضوع (الحب والبغض في الله ومعنى الولاية، والسنة في زيارة القبور وبناء المساجد) فيقول بأن احترام العظام، عظام العلم الغزير،

والشمانل الطيبة، واليقين الحي، والجهد المخلص، احترامهم واجب، والإزرء بالسفلة ومسالكهم واجب، كيف لا ورب العالمين قد أثنى على الصالحين من خلقه، والمودة في الله رباط وثيق بين الطيبين... ولكن عواطف العامة تشوهها الأساطير فينسبون الكرامات وخوارق العادات لمن يرونه بطلاً، والله تعالى يحدد الأولياء {ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون} (٦٢ و ٦٣ من سورة يونس)، بأنهم من يتوفرون على الإيمان والتقوى... واما أن ترى قدراً رث الثياب فتنسب له الكرامة والولاية فهذا ليس من الولاية في شيء... وهذه القبور التي دعينا لزيارتها لتذكرنا بالموت والآخرة ليست مزارات نطلب منها أو بها العون من دون الله، ولا يجوز إنشاؤها داخل المساجد ليطوف حولها المصلون كأنهم حول الكعبة، وإن كان لايد من الروية والحكمة في تخلص بلاد المسلمين منها... وأن يأتي من يزعم أنه داعية إلى الله فيرى مسجد الإمام الحسين بأنه مسجد الصنم فهذا سفة لا يحبب الناس به ولا بدعوته...

فالحب والكره في الله صفتان قل أن تجدهما هذه الأيام إلا لدى من زكت نفوسهم وأخلصت قلوبهم واستقامت جوارحهم، والولاية أن تصفى من هذه الشوائب التي ألحقت بها وتقف لكل مؤمن تقى لا تجعلها حكراً على خوارق البشر إن جاز التعبير، وزيارة القبور للعبرة تفرض إبعادها عن المساجد أماكن العبادة حتى لا تختلط الأمور في طلب العون بين الله تعالى وبين صاحب هذا القبر الذي لسبب ما كان في مكان ما من هذا المسجد.

وأما (التوسل: ما يجوز منه وما لا يجوز) فقد أراد المؤلف رحمه الله تعالى أن يحسم هذا الموضوع الذي طالما أشغل به من أشغلتهم صغار الأمور عن كبارها...

فأورد الصور الخمس التي يظهر فيها هذا التوسل وهي:

١. التوسل إلى الله تعالى بذاته وبأسمائه الحسنى، وهو ولاشك جائز،
٢. التوسل إلى الله تعالى بطاعته وبصالح الأعمال، وهو جائز أيضاً،
٣. التوسل بدعاء الصالحين، كدعاء العباس عم الرسول عليه وآله السلام في صلاة الاستسقاء، وهو جائز،
٤. التوسل بذات الرسول عليه السلام ومكانته عند الله تعالى، واختلف الناس فيه بين من يرده لأنه لم يرد في كتاب ولا سنة، وبين من يؤيده بدليل التشفع بالنبي إلى ربه، والأمر كله فرع من فروع العبادة لا يحتاج لاتهام من يفعله بالشرك،
٥. التوسل إلى الله تعالى بدعاء المقبورين، وهو مرفوض باتفاق العلماء.

وأما أن ينشغل المسلمون بجواز أو عدم جواز التوسل بالرسول عليه وآله السلام فإن هذا دليل هبوط فكري وصلت إليه الأمة الإسلامية فأصبحت لا تجد من

مصائبها ما يستحق الانشغال به أو أنه أريد لها ذلك، فضاعت. وصدق شوقي حين قال:

شعوبك (يا رسول الله) في شرق كأصحاب كهف في عميق سبات
بأيمانهم نوران : ذكر وسنة فما بالهم في حالك الظلمات!؟

ولولا ما قاله شوقي تعقياً على الانشغال بمثل هذه الأمور لكان من الممكن التعقيب، ويا ليتنا نجد من يتوسل إلى الله تعالى بذاته أو بصالح أعماله ليس فقط لمصلحة فردية أنانية عابرة وإنما لخير الإسلام ونصرته، وعزة المسلمين وكرامتهم.

وأما موضوع (تقاليد المسلمين غير تعاليم الإسلام) فقد تحدث المؤلف رحمه الله تعالى عن كيف كانت تقاليد مجتمع الصحابة ومن تبعهم تمثل الإسلام، وكيف انحرفت تقاليد من بعدهم قليلاً قليلاً حتى كادت تصبح تقاليد المسلمين اليوم لا علاقة لها بالإسلام. ويورد أمثلة على ذلك فيذكر الزي الإسلامي وأن المطلوب فيه ستر العورة وتزيين صاحبه بعيداً عن السرف والكبر، وأما شكله في هذه المنطقة الحارة أو تلك الباردة فلا يفرض شكل ولا طراز معين. ثم يذكر تعليم البنات وكيف ما زال بعض المتدينين يراه منكرًا، ويفرض على ابنته قعر البيت، وأين ذلك من علم الصحابييات وجهادهن؟! ويشير إلى غطاء الوجه فيجد حتى الإمام أحمد لا يفرضه، ثم يشير إلى أخطاء في فهم الشريعة يرتكبها الفقهاء الجدد سواء بالنسبة للشورى أو مسؤوليات الخليفة المقبل...

بلا ريب أن هناك العديد من الحركات الإسلامية قد اكتفت بأحكام معينة من الإسلام دون بقية أحكامه الشاملة لجميع جوانب الحياة، فكانت عبئاً يضاف على كاهل المسلمين المثقل بالأعباء في طريق النهضة، ولكن مثل هذه الحركات ما كانت لتؤثر في تأخير النهضة الفكرية الإسلامية لهذه الأمة لو تصدى أولو المنعة والنصرة للعمل الإسلامي الشامل الحق، فأقاموا سلطانه في الأرض فجرف تيارهم الفكري الشامل مثل هذه العثرات أو الانحرافات في طريقه.. وإذا كان المؤلف رحمه الله تعالى يرى في استثنائه لبعض الحكام من لا يحرص على كرسي الحكم لفقده السابق أو من تفرض عليه الجماهير البقاء في سدة الحكم لعدله أو لحبها له، فلا ندري لماذا لم يظهر من هؤلاء القادة الاستثناء نصرته العمل لرفع راية الإسلام، أم أن المؤلف رحمه الله تعالى قد أخذ يكتفي منهم بما هم عليه!؟

وعند الحديث عن (الانحرافات النفسية والبدنية) يركز المؤلف على المتدينين المنحرفين الذين هاجموه بالذات واتهموه بإنكار السنة عندما رفض حديث تعذيب والد الرسول عليه السلام، ورفض حديث المعراج بأن الله تعالى قد دنا فتدلى، وأنكر حديث توالي الشر في هذه الأمة.. فدافع عن رأيه ببيان ما يقوله بصدده هذه الأحاديث الثلاثة، وأخذ يهاجم أمثال هؤلاء المتدينين باسم أصحاب الأمراض النفسية والقلبية بما فيهم من الجهل والكبرياء وقسوة القلب وسوء الأدب و.. وبالطبع قارن بينهم وبين ذوي النفوس الكبيرة والعقول البصيرة من غيرهم سواء المتدينين أو غير المتدينين، ووصفهم بالزنانير الهانجة التي تلسع الآخرين باسم الحديث النبوي والدفاع عن السنة.

لاشك أن في الأمة الإسلامية أمثال هؤلاء وأكثر، ولكن لماذا يا سيدي رحمك الله تعالى لم تأخذ بوسيلة الإعذار لهم كما طالبتهم ماداموا يهاجمونك دفاعاً عن السنة ولو كنت اعتبرت فعلتهم هذه افتراء على السنة والحديث النبوي؟! كنت كبيراً وأنت توضح كل حديث هاجمك بصدده، ولكن هل يا ترى بقيت كذلك وأنت تندفع في طريق الهجوم الشخصي عليهم بغض النظر عن تجنب ذكر الأسماء ولكن الوقوف طويلاً مع الصفات والخط منها كان بارزاً في هجومك؟! ما كنت وأنا أتدبر كل كلمة كتبتها أتوقع منك أن تجر بسهولة لمثل هذه المعركة بأكثر من بيان الحق لوجه الحق، وأما أبعد من ذلك فليس من شيم من وقف نفسه لدعوة الله.

وجاء دور الحديث عن (المستوى الثقافي للأمة الإسلامية) فوقف المؤلف رحمه الله تعالى مع معنى بناء العقل والعاطفة في الإسلام، وكيف أن عبارة ﴿أولي الألباب﴾ قد وردت في خمسة عشر موضعاً من القرآن الكريم لتؤكد أن العقل أثنى هبة وهبها الله لعباده، وأنه لا بد من تقدير نتاجه عند الآخرين بالاستفادة والافتباس، وإلا بقينا في تخلف عن الأمم الأخرى، ولكن المؤلف رحمه الله تعالى خلط بين الأفكار المرتبطة بعقيدة أهلها كالديمقراطية، والأفكار التي تيسر الأعمال كالإدارة، ونعى على من يقولون بأن الديمقراطية كفر مع أنه يردد بأنها نظام سياسي ينظم علاقة الحاكم بالمحكومين، واستشهد بما فعله الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب عندما نسخ الدواوين عن الفرس مع أن هذا من الإدارة وهي أسلوب لا صلة له بعقيدة إيمان أو كفر وإنما بتسهيل تطبيق النظام سواء المالي أو السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي التي تقوم على عقيدة الإيمان في الإسلام أو الكفر أو فصل الدين عن الحياة في الديمقراطية.

ثم يشير إلى أمثلة من ذوي العقول المستنيرة من أمثال موريس بيكاي المستشرق الفرنسي الذي أسلم عندما أطلع على ما في القرآن من المعجزات التي تؤكد أن مبلغه رسول الله عليه السلام ولا شك في ذلك وذلك في ميدان تخصصه في الطب، ثم ذكر الدكتور محمد علي الباز وما أكده من تطابق ما في القرآن مع ما في الطب من كشوف حديثة، مما يزيد المؤمن إيماناً ويدعو أصحاب العقول الحيادية لا المتعصبة إلى الإيمان بالإسلام.. وينتهي إلى التأكيد بأن القرآن كتاب عقائد وعبادات وأخلاق ومعاملات وليس كتاب أحياء وطب وكيمياء وفيزياء، وأن من المهم الحذر من الاختلاف أو التباين بين ما يسمى بالنظريات العلمية التي لما تصبح حقائق علمية وبين الأفكار الظنية في الإسلام، ذلك لأن كلا الأمرين نظر إنساني فيه قابلية مثل هذا التناقض، ولأن شيئاً من ذلك لن يقع بين حقيقة علمية وحكم قطعي من الإسلام...

تمنيت على المؤلف رحمه الله تعالى أن لا يتعجل الحكم على من يخالفه في فكر كالقول بأن الديمقراطية كفر بأنه كذا وكذا، وأن يحاول إعادة النظر في فهمه فيهم نفسه، كما هو ديدن العلماء والنزيهين ولا أظن إلا أنه منهم، قبل أن يتهم غيره.. وما هذا القول عن د. موريس بيكاي ود. محمد علي الباز وكيف تأثرا كما تأثر غيرهما من

الكثير من العلماء المسلمين وغير المسلمين في معجزات القرآن التي اكتشفها الطب أو غيره من العلوم متأخراً إلا تأكيد لقيمة الاطلاع الواسع على العلوم والثقافات الأخرى لمن يتصدى لحمل الدعوة الإسلامية... وسأبقى أخيراً أطلب أمثال المؤلف رحمه الله تعالى أن يعرفوا حقيقة ما يكتبون للدفاع عنه كالديمقراطية ولا يسارعون في طلب الأخذ بها لمجرد أنها تنقذ الأمة الإسلامية كما يقولون من الاستبداد السياسي الذي عانى منه المؤلف رحمه الله تعالى الكثير، فتأتي مطالبته بها كرد فعل ضد سبب معاناته، بينما المفروض أن نقف بجانب الأمر بعد تأكد من دراسته الحققة سواء كان مردوده الفردي على حملة الإسلام ودعوته عسلاً أو بصلاً.

وعند الحديث عن (الدائرة الإسلامية) فإن المؤلف رحمه الله تعالى يحاول تحديد حقيقة الإسلام حتى لا يتهم من هو في إطارها بالكفر، فيرى أنها ثلاثة:

١. توحيد الله تعالى في الذات والصفات فهو منزّه عن النقص ومتصف بالكمال.

٢. الإقرار بالعبودية له والطاعة لأمره ونهيه.

٣. الإيمان بالرسول محمد عليه وآله السلام الخاتم ورسالته الشاملة الناسخة الخالدة. ويأتي بعدها المؤلف رحمه الله تعالى إلى الإشارة لنماذج من الملنزمين أو المقصرين أو المفرطين أو الجاحدين لهذه القواعد الثلاثة كلها أو بعضها، وأين هم من دائرة الإسلام: هل في داخلها أو على حافتها أو في خارجها؟ ويحزم الأمر مع الأدلة والاستشهادات من غيره بأنه لا بد من التوقف عن تكفير أحد بعينه والاكْتفاء بتكفير النوع أي من يقول كذا من المكفرات أو يعمل كذا من المكفرات فهذا يمكن أن يقال عنه بأن من يقول كذا أو يفعل كذا فهو كافر، ولكن مثل هذا الحذر في تكفير الآخرين المعينين لن ينقذ من يكفر بالشهادتين أو بإنكار المعلوم من الدين بالضرورة من الكفر بعينه وليس بنوعه فقط ولو كان في الأصل مسلماً.

لولا أن مثل هذا الأمر، تكفير الآخرين، قد شاع أو بات يسهل على المسلم قذف الآخرين به، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، لما كان لمثل هذه الأمور موضع للبحث، كيف لا وما هي عليه الأمة الإسلامية من التمزق والضياع، وقيادتها من الكفر الصليبي والصهيوني باستجداء، لفي أمس الحاجة للإنقاذ من ذلك كله... ويصل بنا المؤلف رحمه الله تعالى بالموضوع السابق للخاتمة (التكفير) ليحذر وينذر من الفتانين في مجال الدعوة، والرحماء بالكفار، والقساة بالمسلمين، ويستشهد على هذا النوع بما قالته جماعة المسلمين التي كانت تدعى التكفير والهجرة، وكيف انهم كفروا الإخوان المسلمين واتهموا رئيسها حسن البنا بالماسونية، وكفروا المسلمين منذ القرن الرابع الهجري، وادعوا أنهم هم الجماعة الإسلامية الوحيدة في العالم.. ورأى في رئيس تلك الجماعة المرحوم المهندس شكري مرض الجهل والغرور الذي قاده إلى الأخذ بتلك الأفكار.. وانتهى من موضوعه ليحذر الشباب المسلم من أمثال هؤلاء، وليعلموا أن الحملة الصليبية الصهيونية ضد الإسلام لن تنال منه إلا بجهل اتباعه وبالأخص قادة حركاته الإسلامية.

لاشك أن تاريخ الهجمات الكافرة الحاقدة على الإسلام وأهله وبلاده حافل بمحاولات الكيد والظعن من الداخل والخلف من خلال التسرب سواء في المجال الفكري والثقافي أو العسكري أو السياسي... ونظرة في تاريخنا الإسلامي منذ العهد الراشدي وبالذات ما سمي بفتنة مقتل عثمان ودور السبئية اليهودية الحاقدة فيه، وانتقالاً إلى الوقت الحاضر الذي حفل بالحركات الإسلامية التي تمزق أكثر مما تجمع، تري كيف حاول قادة تلك الهجمات الحاقدة البطش بالإسلام وأهله وبلاده بالعمل من الداخل بعد أن لمسوا أن العمل الصليبي من الخارج قد فشل.

وأعطى المؤلف رحمه الله تعالى نفسه الحق، وله الحق كما لكل حريص على الدعوة للإسلام، أن يضع قواعد إضافية عشرة يمكن أن تقبل أو ترفض لمن يشاء، وهي في أكثريتها تحتاج إلى وقفة مع كل منها لا مجال لها هنا. والسلام.

وبذلك انتهت دراسة كتاب دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين

والحمد لله رب العالمين

القسم الثاني

شروق الإسلام

تقديم

وهل في ذلك شك بأن الإسلام سيشرق من جديد، وبشكل لن يقدر على تقديره إلا من يرى حقيقة دعوته ورسالته، وأما أولئك الذين يصرون على الضلال ورفض عودة الحياة الإسلامية للأرض من جديد فإنهم سيقفون يرفضون رؤيته ورؤية نوره مهما كان أبلج لأن أبصارهم قد غطوها بستائر كثيفة تحتاج معها إلى معالجة قوية حتى تسقط ويرون النور .. فأقبلوا يا قوم الى الخير والحق قبل أن تضطروا غيركم ليدلكم عليه، وعندها سيكون الفضل في هدايتكم لغيركم لا لأنفسكم ، وعندها سيقع الندم، وهيئات !!

المحرر

١ - دراسة كتاب شمس الإسلام تشرق من جديد

للمفكر الإسلامي محمد عثمان عثمان

يقع هذا الكتاب في ثمانية فصول مع مقدمة جاءت كما يلي:

الفصل الأول: نهضة الإسلام في أفريقية،

الفصل الثاني: نهضة الإسلام في روسية وبريطانية وأمريكا،

الفصل الثالث: الإسلام يتحدى ومواضيع أخرى،

الفصل الرابع: حقائق سارة تبشر بخير ومواضيع أخرى،

الفصل الخامس: مستقبل الإسلام المشرق في لقاءات ومقالات مع مفكرين

وعلماء مسلمين،

الفصل السادس: المفكرون الأوروبيون يبشرون بمستقبل الإسلام،

الفصل السابع: علماء ومفكرو الغرب يندرون بسقوط حضارتهم،

الفصل الثامن: تصريحات كبار الغربيين تنذر بخطر الإسلام عليهم.

فبعد (المقدمة) التي يؤكد فيها المؤلف - جزاه الله خيراً عن الإسلام والمسلمين - أنه بالرغم مما حل بالمسلمين من ضعف لعدم التزامهم بطاعة ربهم وتعرضهم لمكائد أعدائهم من صليبيين وصهيونيين إلا أنه لن يطول سباتهم وسيعود

مجدهم قريباً بعون الله، وأن هذه تباشيره باتت تملأ الآفاق في الغرب والشرق، وأن هذا يقتضي نفض غبار الكسل عن كواهل المسلمين، وشطب اليأس من نفوسهم، بعد هذه المقدمة التي تفيض ثقة بالله تعالى وبنصره لدينه مهما ادلهمت الخطوب يأتي:

الفصل الأول - نهضة الإسلام في أفريقية

لقد وزع المؤلف هذا الفصل تحت موضوعات فرعية سبعة كما يلي:

١- الأثر الحضاري للإسلام في أفريقية: فذكر كيف قضى الإسلام على كثير من الرذائل الاجتماعية من أمثال أكل لحوم البشر وتقديم الإنسان قرباناً وواد الأطفال والعري ووساخة الأجسام وتناول المسكرات وتشتت القبائل وتنازعها وغيرها.. كما يقول توينبي.

ويقول «دريدش وسترمان» الألماني بأن البلاد كانت لا تعرف نظاماً ولا قانوناً فنظمتها الإسلام وأصبحت بسلطات مركزية وإدارة منظمة وقوانين عادلة وأمن مستتب ورخاء موفور، وتحررت قبائل كثيرة من الرق وانتظمت العلاقة بين الملاك والعمال بشكل سوي، كما أصبحت العلاقة بين الحاكم والمحكوم علاقة سوية لا علاقة عبودية.

وقد وصف «بازل ديفيدسون» موكب الحج المهيب الذي ذهب فيه العاهل المالي منسا موسى مع أتباعه إلى مكة في الربيع الأول من القرن الرابع عشر كدليل على سعة انتشار الإسلام ووصفه وتحدث عن دلالاته لأوربة ليزداد بعدها التفكير الأوربي في كيفية التصدي للإسلام في أفريقية ولاسيما بعد أن أفرزت الحضارة الإسلامية جمهرة من العلماء في عهد سنفي حتى انضم عدد منهم لسلك التدريس في الأزهر.

وبالفعل اشتدت الحملات التبشيرية في أفريقية أكثر فأكثر لطمس هذه الحضارة الإسلامية، متخذة أساليب متنوعة، مما استدعى ضرورة استنفار المسلمين في المشرق، كيف لا والمكاند لا تعرف القيود والحدود بدليل قول م. وليامز الأستاذ في جامعة أكسفورد الذي قال في مؤتمر عقد بلندن عام ١٨٧٥م لبحث شؤون البعثات التبشيرية في الخارج: (فإنه ما لم تكن هناك وسائل جديدة تضاف إلى جهود البعثات التبشيرية المسيحية فإن الإسلام سوف يكتسح جميع القارة الأفريقية)

٢- حول مستقبل الإسلام في أفريقية: وكيف أن طريقة تعامل المسلمين مع سكان أفريقية قد تركت وما زالت أثرها القوي في نفوسهم كما حدث مع فريق طبي من المسلمين في سيراليون مما جعل اثنين من زعماء القبيلة يعلنون إسلامهم فتنبئهم القبيلة كلها، ومما رفع نسبة المسلمين هناك في سنة واحدة من صفر في المائة إلى ستين في المائة.

ولنا أن نتصور أن حملات التنصير كانت قد وضعت عام ٢٠٠٠م لتنصير إفريقية كلها ولكنها بعد تجربتها الفاشلة عدلت الموعد إلى ٢٠٢٥م، وأن تلك الحملات قد أخذت تلجأ إلى عملية تشويه الإسلام لتبعد الأفريقيين عن اعتناقه، وتنفق الملايين

من الدولارات على الخدمات وتشارك في ذلك (إسرائيل) المجرمة في طول البلاد الإفريقية وعرضها، ولكن بالرغم من كل المثبطات إلا أن الإسلام في انتشار متزايد هناك وما على المسلمين إلا أن يحسنوا العمل لدعوة الله هناك ويتذكروا بأن في أفريقية مسلمين يتمسكون بدينهم ويدافعون عنه على ما هم فيه من ضنك وجوع حتى أن قرية ديبل في كينية قد رفضوا التنصير تحت غواية مركز تدريب أنشأته لهم الكنيسة الكاثوليكية للزراعة وتوزيع الطعام فتوقفت الكنيسة عن مساعدتهم فجاءتهم كنيسة إفريقية داخلية فرفضوها مفضلين الموت مسلمين على التنصير. كما أن مناظرة بين داعية مسلم وقساوسة في تشاد قد انتهت بإسلام ١٧ قسيساً وشماساً، وفي اليوم التالي وصل العدد ٣٢ شخصاً ثم تحول عدد من المؤسسات الكنسية إلى الإسلام.. مما يبشر بالخير الكثير بالرغم من كل حملات الكيد والتنصير.

٣- حوار حول التبشير والاستعمار في أفريقية: جرى بين الصحفي الأمريكي لويس لامكس وبين سيلون ديكا عضو اللجنة التنفيذية للحزب الديمقراطي في روديسيا الجنوبية سابقاً عندما سأله فيما إذا كانت المسيحية تتحسر فأكد له ذلك، كما أكد له أن المستقبل للإسلام لأن المسيحية تعمل للاستعمار بينما الإسلام يحررهم من الاستعمار، والكنيسة لا تساعد على الحرية والإسلام يساعدهم لنيلها، فسأله فيما إذا كان هو مسيحي فأكد له ذلك ولكنه لا ينضم للكنيسة لسبب سياسي، ولكنه يقول (إنني أسف لتطور الأحداث لصالح الإسلام).. إنه لم يستطع إلا أن يعبر عن سخطه على الإسلام وانتشاره رغم اعترافه بأنه قد جاء بالخير لأفريقية ولم تأت به المسيحية!!

٤- الإسلام هو المنتصر في أفريقية: يتحدث مدير جامعة جنيف في محاضراته بأن الإسلام وإن تعرض لركود في أفريقية إلا أنه عاد الآن إلى النهوض والنشاط، وأن مقارنة بسيطة بينه وبين مردود النصرانية يري أن الكفة بجانبه ليس فقط من الناحية العددية بل الاجتماعية والفكرية والخلفية والإدارية.. وهو بالإضافة لسمو تأثيره يتلاءم مع النفس البشرية بطريقة أخاذة حتى أن جميع الكتب التي صدرت عن كثير من المؤلفين الغربيين كلها تؤكد تأثير الإسلام وسهولة انتشاره بين الشعوب الأفريقية، ويرى فيه الأفريقي بأنه دين ذو رجولة بجانب البساطة والقوة، وهو بعيد عن مجازاة أحد في عاداته أو تقاليد بل يفرض عليه التغيير سواء في اللباس أو غيره، حتى قال أستاذ علم الأجناس البشرية بجامعة النمسة الوطنية نادل النموسي بأن الإسلام في بلاد النيجر يطوي جميع الشعائر والعقائد ويجمع حوله الأتباع ولا يجمع شرانم ممزقة.

٥- تقدم الإسلام وازدياد المسلمين في أفريقية: فأجهزة التبشير لا تخاف اليهود والهنود والبوذيين لأنها أديان محصورة في محيطها بينما تخاف الإسلام الذي لا يعرف الحدود حتى قال بابا الفاتيكان: إن الخطر الذي يهدد المسيحية والغرب في أفريقية من ناحية الإسلام أكبر من خطر الشيوعية...

والملاحظ رغم ضعف الدعوة الإسلامية في أفريقية إلا أن الإسلام ينتشر بسرعة هناك لأن السود يجدون فيه ملجأ المظلومين، حتى اعترفت مؤسستان

بلجيكتان بأن عدد المسلمين كان في ناحية من الكونغو في بداية القرن العشرين أربعة آلاف وبلغ عددهم اليوم في كل ناحية من مانيه وكبور وستانلي ويل ٢٣٦ ألفاً.

وكما ذكرت مجلة يرد الباريسية عن أحد المتخصصين بدراسة الإسلام في أفريقية بأن الإسلام لم يعد دين الأمراء وأبناء الملوك في أفريقية بل دين عامة الناس، وأنه ينتشر بسرعة مذهلة، وهذا ما كررته مجلة «ريو دو باريس» بأن معدل من يسلمون في كل عام في أفريقية خمسمائة ألف شخص، وأن حسرة المسيحيين لا تقف عند أفريقية بل يزيداها ألماً هذا الازدياد المطرد لعدد المسلمين بين السود في أمريكا حيث يمارسون شعائرهم بصراحة ويتخلون عن كل عاداتهم القبيحة. ومن ناحية أخرى فإن المبشرين الأوروبيين يلاحظون الفرق بين إقبال السود الأفريقيين على دخول الإسلام دون المسيحية إذ يشعر المسلم منهم بأنه جزء من العالم الإسلامي الذي فتح له أبوابه بينما لا يعتبرونه الأوروبيون إلا كالوثني الأسود لمجرد انه اسود.. فكيف يقبلون على المسيحية وأهلها يعاملونهم سوء المعاملة؟!!

٦- من أقوال المجلة الإسلامية الإنجليزية عن أفريقية: فقد تحدث شارلز وطسن عن مؤتمر أدنبرج وما ذكرته اللجنة الأولى من لجانة الثمانية في تقريرها من إحصائية للمسلمين في كل قطر وأنهم بازدياد سريع بقدر تناقص الوثنيين، وأن موقف المبشرين قد أصبح حرجاً لزحف الإسلام على القارة من جميع الجهات، مما يجعلهم يختصرون الموقف بشأن القارة في جملة واحدة وهي هل ينبغي أن تكون إسلامية أو نصرانية؟

٧- واجب المسلمين في أفريقية: فقد ظهر سواء مما ذكرته تلك المجلة الإنجليزية أو غيرها بأن الجهود الضخمة تبذل والأموال الطائلة تنفق في سبيل التبشير والتنصير والوقوف في وجه المد الإسلامي في أفريقية، الأمر الذي يفرض على المسلمين المبادرة بالعمل الجاد وعدم ترك حركة الإسلام لذاتها بل بدعمها بكل جهد ومال للحيلولة دون حملات التنصير والتشكيك، فالإسلام حضارة البشرية ومبعث تقدم جميع تجمعاتها فكيف يحال بينه وبين أي شعب، فالواجب الإسلامي يستدعي من جميع المسلمين أن يهبوا لنجدة إخوانهم في أفريقية وفي العالم اجمع وذلك أشرف الأعمال.

لاشك أن الدعوة الإسلامية واجبة في كل شعب وفي العالم العربي أوجب الواجبات طالما بيده القيادة للأمة الإسلامية ولذلك نجد الحرب الصليبية الجديدة وبمساندة الصهيونية الحاكمة لا تترك مجالاً إلا وتخوضه ضد الإسلام وحركات دعوته في كل مكان وبالذات في العالم العربي... فهلا أدرك المسلمون ذلك وأعطوه حقه والله ناصرهم؟؟

الفصل الثاني - نهضة الإسلام في روسيا وبريطانية وأمريكا

فقد وزع المؤلف هذا الفصل تحت موضوعات خمسة هي:

١. نهضة الإسلام في روسيا،
٢. نهضة الإسلام في بريطانيا،
٣. نهضة الإسلام في أمريكا،
٤. الإسلام في فرنسا،
٥. الإسلام في إسبانية.

١- نهضة الإسلام في روسيا وجوارها

فقد أخذ الشباب المسلم يقبل على الإسلام بشكل كاسح لأن المسلمين لا يريدون الانتظار ليعرفوا ماذا بعد الشيوعية كما يفعل الشيوعيون الروس، فبعد العنت والفقر منذ سيطرة الشيوعية عام ١٩٢٠م انطلق المسلمون يسعون للحل الإسلامي دون ثورة كما قال جون لوتون في استطلاع بعنوان (لقاء الهلال والنجمة) وأكد أهمية النسبة العددية للمسلمين واتساع الرقعة الزراعية والصناعية التي يعملون عليها من الجمهوريات السوفيتية السابقة إذ يشغل ٧٥% منهم مساحات شاسعة ضمن خمس جمهوريات هي وفق إحصاء يناير ١٩٨٩م:

أوزبكستان، وعدد سكانها ١٩,٩٢٠ مليون كلهم مسلمون ويعمل ٧٠% منهم في الزراعة،

كازاخستان، وعدد سكانها ١٦,٥ مليون معظمهم مسلمون،

طاجاكستان، وعدد سكانها ٥,١١ مليون منهم ٧٢% مسلمون،

قرغيزيا، وعدد سكانها ٤,٣١ مليون ٥٥% منهم مسلمون،

تركمانيستان، وعدد سكانها ٣,٥٤ مليون ٧٠% منهم مسلمون،

أذربيجان، وعدد سكانها ٦,٩ مليون منهم ٨٠% مسلمون.

وقد أكد مفتي طشقند في مقابلة معه الإقبال الشديد على تعلم الشباب الإسلام وأصبح في طشقند وحدها ٥٠٠ مسجدا بعد أن كانت ١٧ فقط في العهد الشيوعي وكان لا يرتادها إلا كبار السن.

كما أكد مساعد مفتي كازاخستان أن المساجد أصبحت الآن ٥٠٠٠ مسجدا بعد أن كانت ٦٧ فقط عام ١٩٩٠م، وقال بأن عام ١٩٧٤م فقط قد شهد إشهار ٦٣% من سكان القوقاز إسلامهم مقابل ١٢% أعلنوا مسيحيتهم.

ولكن ما يجري من مكر التحالف مع دول الاتحاد السوفييتي السابقة ذوات الأكثرية الإسلامية، وحتى الصين ضمن تعاون شنغهاي للتصدي للحركات الإسلامية لأكبر دليل على الخشية من الصحوة الإسلامية فيها.

٢- نهضة الإسلام في بريطانيا

فمساجدها لم تخل منها مدينة بل حي من الأحياء الواسعة بسبب تجمعات المسلمين بأعداد كبيرة فيها. وأبرز المساجد المركز الإسلامي في لندن، ومثله في هايز، ومساجد في بولتون وسيشتر وجلاسكو وليشستر وأولدهام... فقد أشارت الإحصائية القديمة على وجود مليون ونصف مسلم في بريطانيا كلهم تقريباً يحضرون الصلاة، وهناك شهريا عدد يعتنق الإسلام حتى أن صحيفة صندي تايمز ذكرت في دراسة لها بأن عام ٢٠٠٢م سيشهد تفوق عدد المسلمين المتدينين في بريطانيا على عدد النصارى المتدينين من أتباع الكنيسة الإنجيلية الرئيسية في بريطانيا بأربعة آلاف شخص، وأن عدد المساجد سيفوق المائة خلال هذه الفترة. وتعتبر مدينة ليدز من أكبر المدن سكانا وفيها عدد من المساجد والمصليات الصغيرة ومراكز الجمعيات الإسلامية. وفي كل يوم جمعة يشهر أمام المسجد الكبير (مسجد عمر بن الخطاب) ثلاثة أشخاص على الأقل إسلامهم. وقد حصل أن أسلم شابان هندوسيان فأعلنت والدتهما الحرب عليهما فاشتكى لإمام المسجد فذكرهما بقصة سعد بن أبي وقاص مع أمه فداوما على زيارة والدتهما أسبوعيا فخفت حدة معارضتها لهما.

وفي مهرجان العالم الإسلامي الذي استمر لمدة ثلاثة أشهر عام ١٩٧٦م حدد له مهامه بول كيلر بأنها عرض الثقافة الإسلامية على الشعب البريطاني طيلة هذه الفترة ليملاً بها فراغه الروحي والثقافي وتنتهي بذلك أزمته الروحية التي يعاني منها.

فالملاحظ تزايد انتشار الإسلام وتنامي دعوته في الجزر البريطانية بالرغم من جميع محاولات التدخل الخارجي وبالذات من بلدان عربية بدافع المصالح الاقتصادية لعرقلة ذلك بحجة تصدير (الإرهاب) إليها.

٣- نهضة الإسلام في أمريكا

فقد بدأ وصول المسلمين لأمريكا منذ عام ١٨٩٩م واستمر بكثافة حتى عام ١٩١٠م حين استقروا في مناطق متباعدة، ثم انتشر الإسلام بواسطتهم وبواسطة الدعاة إلى جميع فئات المجتمع الأمريكي. وقد بلغ عدد المسلمين عام ١٩٨٠م حوالي أربعة ملايين، ولكن التقديرات الحالية تشير إلى أنهم قد بلغوا (١١) مليوناً وأن الإسلام سيصبح الدين الثاني عام ٢٠٠٠ في أمريكا.

هذا وقد بني أول مسجد عام ١٩١٩م ووصل عدد المساجد حتى عام ١٩٥٠م إلى ثلاثة ولكنها وصلت إلى (١٥٠٠) عام ١٩٩٦م مع وجود كليتين إسلاميتين وعشرات المدارس الدينية.

ومن أبرز من اعتنق الإسلام محمد علي كلاي ومايك تايسون، وهناك حالياً أكثر من (٧٨٠) ألف مسلم أبيض، كما أن المسلمين من أصل أفريقي يعدون بالملايين، ويدخل في دين الإسلام (١٠٠) شخص أسبوعياً، ويرأس الدكتور محمد مهدي مجلس الشئون الإسلامية.

ويعمل المسلمون في مختلف القطاعات، فمنهم العلماء والأطباء والمهندسون وأساتذة الجامعات والتجار، ومنهم من دخل المعتزك السياسي... وهناك العديد من المنظمات والجمعيات العربية والإسلامية تتولى القيام بنشاطات الدعوة الإسلامية وتتصدى لبيان موقف الإسلام من القضايا السياسية وتدعو الناس للإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالحسنى.

وقد نجح المسلمون بالاعتراف بالأعياد الإسلامية عام ١٩٩٧م وهي أول رمضان وأول الفطر وأول الأضحى وأول الهجرة...

ولا ندري من أين جاء عيد أول رمضان أو يوم الهجرة! كما لا ندري ما الدافع لرفع الهلال والنجمة بجانب شجرة الميلاد والشمعدان اليهودي في شهر ديسمبر من كل عام! وهل هو محاولة لإثبات الوجود في ذهن الشعب الأمريكي كإسلام متسامح!!

أما انتشار الحقد ضد الإسلام في أمريكا فمنشأه كراهية البيض المسيحيين للسلود الزوج، وهم الذين أظهروا إسلامهم بعد أن أخفوه طويلاً إذ جلبوا كرقيق في الأصل من أفريقية، فتصارح البيض القادمون الجدد معهم لسلبهم أرضهم، وحصلت، واستمرت الكراهية وانتقلت إلى المسلمين وبخاصة بعد أن برز التجمع الإسلامي بشكل مرهوب الجانب.

وأما في جزيرة ترينيداد، والبالغ عدد سكانها ما يفوق النصف المليون فإن هناك (٣٥٠٠٠) مسلماً كلهم من أصل هندي، وقد أقاموا خمسة مساجد لهم في الجزيرة، وهم يعملون بشكل دووب على إقناع بني قومهم من الهندوس البالغ عددهم (١٢٥٠٠٠) نسمة لاعتناق الإسلام... والأمل بالله كبير أن ينجحوا في ذلك فيؤثروا على بقية السكان.

٤ - نهضة الإسلام في فرنسا

فقد احتفل المسلمون منذ عهد قريب بافتتاح مسجد (ليون) الكبير الذي يتسع لـ (٢٠٠) ألف مصل، والذي كلف ستة ملايين من الدولارات جمعت من تبرعات المسلمين ومن بعض الدول العربية.

هذا وقد بدأت الجالية الإسلامية في فرنسا في مطلع القرن العشرين حتى وصلت إلى ثمانين ألفاً عام ١٩٢٨م ثم مائة ألف عام ١٩٣٩م وقفز العدد عام ١٩٦٠م إلى أربع مائة ألف، ولكن عددهم اليوم قد تجاوز خمسة ملايين منهم ثمان مائة ألف من أصل فرنسي والباقي من الوافدين المسلمين والعائلات المسلمة القديمة... ولهذا يعتبر الدين الإسلامي في فرنسا هو الدين الثاني بعد الكاثوليكية...

وما زال المسلمون يكافحون التعصب الصليبي الحقود ليفرضوا وجودهم إذ ما زالت المدارس تطرد الفتاة المسلمة لحجابها بحجة العلمانية التي تسير عليها الدولة وهي حجة منهافتة أمام مسابرة أهل الأديان الأخرى...

٥- نهضة الإسلام في إسبانية

فيعتبر الإسلام في المرتبة الثانية الآن بعد أن كان في المرتبة السادسة بين الأديان وفقا لما أوضحه رئيس جمعية الثغرة الإسلامية في مدريد. والحكومة الإسبانية تعطي حرية الحركة للمسلمين وتساعدهم بمقتضى الاتفاقية التي عقدت بين الطرفين مؤخرا، ولهذا فإن الاهتمام بالإسلام في إسبانية يفوق اهتمام أي دولة أوروبية أخرى، وأنه قد بدأ يزداد منذ عشرين عاما وإن كان نشاط الدعوة الإسلامية يتركز على السكان (المورسكوس) ذوي الأصول الإسلامية، وأن ما ينقصهم هو وجود من يوضح لهم قواعد وأفكار وأحكام الإسلام ويفقههم فيه ليعودوا إليه.

هذا وقد أقر العالم دوزي المتعصب ضد الإسلام بالاعتراف بأن أكثرية المسلمين الذين كانوا في إسبانية قد اعتنقوا الإسلام عن عقيدة وبعد تفكير اختياري وليس بالسيف ولا الإكراه كما يزعم دعاة الصليبية الحاقدة...

والمعلوم الآن أن الكثير من المناطق التي يسكنها من هم من أصول إسلامية والتي تسمى بالاندلس ما زالوا مترددين بين الإكبار لأصلهم الإسلامي، متمنين العودة إليه بعد أن يوضح لهم ما يستدعي اعتناقه والتزامه من جديد، وبين استنكار الأصل الإسلامي ورفض التفكير فيه وذلك بسبب هذا التمزق والتشتت والهوان الذي يعيشه المسلمون في عالمهم الإسلامي بعامة والعربي بخاصة وبالذات بعد هذه الهزائم والاستسلام المسمى بالسلام مع الصهيونية الماكرة.

الفصل الثالث - موضوعات متفرقة

وقد وزعها المؤلف على أربعة عشر موضوعا كما يلي:

الموضوع الأول: الإسلام يتحدى:

وفيه يشير إلى ما تعرضت له البلاد الإسلامية من هزائم منذ القرن الرابع عشر وبشكل خاص في العالم العربي والتي جعلته ينغلق على نفسه كالحارس الأمين الذي طوى سلاحه لا ليتركه للصدأ ولكن لينتظر ما يعده له وفي الوقت المناسب... ولهذا فقد اعتمدت جميع حركات المعارضة عليه عندما انطلقت في جميع البلاد الإسلامية لتقول للمحتل: إرحل! ولكن هل تركت لتفهم إسلامها بعيدا عن تدخل العدو المتربص؟ بالطبع لا لينجح بكل طاقاته الرهيبة في أن يفسد عقلية المسلمين ولكن دون أن يتمكن من الوصول إلى جوهر الإسلام ورسوخه في نفوسهم منتظرا من يحسن بعثه

من مرقد، ذلك أنه مكن الإرادة الإلهية التي أين منها الإرادات البشرية، إنه الذي بات العالم يتلفت بحثاً عنه يمناً ويسرة رغم كل المؤامرات والمكائد لمنع وضوحه، إنه الذي وجد فيه الكثيرون من قادة الفكر الغربي ضالته المنشودة فتلقفوه على مهل وروية ودرس ودراسة وأصبحوا ينادون بملء أفواههم: وجدتها، وجدتها! إنها عقائده ونظمه التي تتحدى كل ظروف وأسباب المكر والخداع والتضليل وتقول بمجرد اللمسة الحانية: إنني هنا، إنني بانتظار من يمد يده وعقله وقلبه بصدق وإخلاص لأقول: ليبيك!

الموضوع الثاني: تاريخ الإسلام يدل على انتصاره عندما تمسك أهله به:

وهنا يقول بأنه بالرغم من عهود قوة الدولة الإسلامية وضعفها المتعاقبة إلا أن الإسلام لم يتوقف عن مسيرته في التوسع والانتشار حتى رأيناه ينتشر في أندونيسية في عهد الاحتلال الهولندي الذي ظن فيه مشغلاً للسكان عن الاحتلال فشحهم عليه، وكذلك الحال في نيجيرية التي تعتبر أكبر بلد أفريقي حيث استطاع أن يصل إلى قلوب الأكرية الساحقة من سكانها فاعتمدوا عليه في التخلص من الاحتلال والمحتلين... صحيح أن أكثر الحكومات التي ظهرت باسم الاستقلال كان أكثر حكامها من المسيحيين، مما جعلهم يقفون في وجه سير حركة توسع الإسلام، إلا أن أحدا منهم لم يستطع القضاء عليه والحيولة دون بقائه في مواطنه التي وصل إليها...

وصحيح أنه في الوقت الذي يتخلص فيه من العوائق المادية الواقفة في سبيل مسيرته في الأرض إلا أن شيئاً لن يستطيع أن يحول دون انتصاره وسيطرته في جميع أقطار المعمورة، فهو دين العقل والفضة الإنسانية وليس دين الخرافات والخزعات...

الموضوع الثالث: أن قوة الإسلام في عقيدته:

وهنا يتحدث عن الحركات التبشيرية التنصيرية وما تملكه من التنظيم والوسائل والدعم المالي وهذا مما لا يملكه ولا نصف معشاره جميع الحركات الإسلامية ناهيك عن موقف الحكام المعارض بل المحارب للإسلام ودعوته، ولكن هيهات لهم أن يتمكنوا من إزالته فهو أرسخ من الجبال الراسيات وإن تمكنوا من إيقاف مده التوسعي إلى حين... فعليهم والحالة هذه أن يكفوا عن محاربتة ووضع الحواجز المادية في طريقه وعندها سيرون مصير هذه الأقطار العطشى له كيف ستقبل عليه إقبال الأرض الجدي على الغيث تلتهمه وتستسيغه وتمثله بينما تدبر عن الوثنية والتثليث الغريبة على النفس والعقل الإنسانيين مهما تذرعت من ذرائع.

الموضوع الرابع: مبادئ القرآن أثبت:

وهنا يذكر المؤلف حادثتين وقعتا في فرنسا تكشفان عن ثبات من يؤمن بهذا القرآن بحق مهما تعرض له من محن وفتن: فقد انتقت فرنسا عشر فتيات مسلمات جزائريات وأدخلتهن المدارس الفرنسية ليعشن الحياة الفرنسية ثقافة ولباساً حتى

أصبحن كالفرنسيات تماما، ولكن ما أن جاء موعد حفلة التخرج بعد أحد عشر عاما حتى فوجئت بهن يظهرن بلباسهن الإسلامي المحتشم فثارت ثائرة الصحف الفرنسية ليرد عليها وزير المستعمرات الفرنسي: وماذا أصنع إذا كان القرآن أقوى من فرنسة؟!

وفي الواقعة الثانية، وهي حديثة ومشهورة، رفضت الطالبة المسلمة الجزائرية خلع حجابها كشرط لتعود إلى المدرسة وأصرت عليها مدرستها في جرونوبل بأنه الشرط الوحيد فردت شهرزاد بلعربي بكل إصرار وإباء: لن يحصل. وأضربت عن الطعام ووجدت أختا لها في الإسلام فرنسية تتعاطف معها وتتشد من أزرها، كما وجدت الكثير ممن عرفن وضعها من المسلمات يقفن بجانبها...

فهل هذا من التاريخ الحديث إلا أقوى دليل على صحة التاريخ الأول لصحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهم يرددون مع الابتلاء والافتتان: أحد، أحد!!

الموضوع الخامس: مع محمد فريد وجدي ومحمد إقبال:

فقد كتب محمد فريد وجدي في كتابه (الإسلام في عصر العلم) ما يكشف عن قدرة الإسلام الرائعة على استعادة المجد العريق ومجيء الغد المشرق مما يفرض على رجال الفكر والعلم المسلمين أن يشقوا هذا الطريق ليس فقط بألسنتهم وأقلامهم بل بأظافرهم، فهو واجبهم وعزهم ودنياهم وأخراهم، وهو ما ينتظره الإسلام بل الأرض كلها منهم. وليسمعوا الشاعر المسلم الهندي محمد إقبال وهو يعلن لهم بماء فمه (إنك أيها المسلم في العالم كله حق وحدك وما عداك سراب خادع ووهم باطل، وأن إيمان المسلم هو نقطة دائرة الحق وكل ما سواه في هذا العالم المادي وهم وظلم)... فهل يظن ظان بأن معجزة ازدهار الإسلام مرت وانتهت من حقب التاريخ؟ لا إنه دين الخالق والرسالة الحققة والقرآن الذي حفظه رب العالمين والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه... ولكنه يحتاج لسنة الله في خلقه، يحتاج إلى عزائم الرجال الذين إذ يشعلون فتيلة سراجهم يضيئون الأرض للشعوب التائهة فتعرف دربها وتسير طريقها الحق المنير...

فهي يا دعاة الحق، الإسلام بين أيديكم، والطريق واضح أمامكم، ونداء الحق يدعوكم، فلا تهنوا ولا تحزنوا مهما تعرضتم له من ابتلاءات ومحن، فالله معكم وناصركم ولن يترككم أعمالكم...

الموضوع السادس: كيف بدأت الحرب على الإسلام، وكيف أصبح مظفرا؟

فما أن ضعفت الخلافة في العهد الأموي حتى تحركت عام ١٠٣١م القوات الصليبية في شبه الجزيرة الأيبيرية، إسبانية والبرتغال، وشجعها الصليبيون في فرنسة وإطالية وحرصها بابا الفاتيكان كحرب مقدسة، فأخذوا ينقضون عليها مدينة تلو أخرى لأنهم وجدوها متشاحنة بما كان يجري بين ما سمي بملوك الطوائف من خصومات،

وجاء هذا الزحف الصليبي مدعوما بالنداءات الصليبية في جميع أنحاء أوربة للزحف على المشرق والقضاء على الإسلام وخلافته... وبالفعل نجحوا عندما سيطروا على بيت المقدس عام ١٠٩٩م حيث ذبحوا ما لا يقل عن سبعين ألف مسلم، وحيث أسسوا لهم أربع إمارات أو ممالك في بلاد الشام... ولكن هل استقر حالهم ودام استعمارهم؟ لقد تملل المسلمون ضد سبات حكاهم، وأخذوا يستصرخونهم في بغداد والشام وكل المدن الإسلامية أن هبوا لإنقاذ البلاد والعباد من هذه الصليبية المجرمة... فتحرك أمراء الموصل نور الدين زنكي وعماد الدين زنكي ووحدا الصفوف وخاضوا معارك ناجحة ضد المحتلين طردوهم فيها من بلاد الشام كلها ثم وحدوها مع مصر في دولة إسلامية واحدة كانت كلمتها هي الفاصلة بنصر الله على الصليبيين...

الموضوع السابع: دور صلاح الدين الأيوبي:

فبعد أن توفي نور الدين زنكي عام ١١٧٣م تولى عامله على مصر المهمة من بعده، فقام بتوحيد وطيد لبلاد الشام ومصر إذ ما أن جاء عام ١١٨٦م حتى كانت كلها دولة واحدة وتحت لواء واحد. وجاء الموقف الحاسم مع الصليبيين فكانت موقعة حطين الحاسمة عام ١١٨٧م وكان النصر فيها للإسلام والمسلمين بقيادة هذا القائد والسلطان صلاح الدين الأيوبي الذي لو أحسن قادة المسلمين بالأمس واليوم التفكير والعمل وفق ما عمل لما تمزقت البلاد العربية والإسلامية هذا التمزق المخجل، ولما تولى من يسمون بحكام المسلمين مقاليد الحكم فيها بعيدا عن الإسلام والوحدة الإسلامية التي بدونها لن يكون للأمة عزة ولا كرامة...

الموضوع الثامن: الجهد والجهاد :

وهنا يضمن التاريخ علينا بتفاصيل الحديث عن جهد الأمة غير الرسمي في الجهاد، ولذلك يكفينا الإشارة إلى ما كان يفعله العلماء والخطباء والدعاة وهم ينتقلون في البلاد يدعون الناس للقيام بالجهاد ضد العدو الصليبي الذي احتل بلادهم واستباح بيضتهم، وإلى تحرك المسلمين بالفعل هنا وهناك حتى كان للمسلمين التركمان القدم الراسخة الأولى في العمل الفدائي ضد الصليبيين حتى زرعوا وجودهم في شمال بلاد الشام والعراق، وإلى تحرك المسلمين في مصر عندما تصدوا لحملة الصليبية الخامسة التي ظنت أن احتلالها سيتيح لهم النصر على بلاد الشام والإسلام كلها، فكان للمسلمين الدور الأساسي عندما فكر أميرهم الملك العادل الأيوبي بالتفاوض مع الصليبيين للتخلص من احتلالهم وإن كانوا لم يفكروا إلا في التصدي لجيوش الصليبية ففتحوا قنوات الترغ وقطعوا الجسور فغمرت المياه أرض الدلتا فاضطرب الصليبيون وتشجع الملك العادل وتصدوا لهم فانسحبوا من حيث أتوا، وكان ذلك في حزيران من عام ١٢٢١م.

الموضوع التاسع: الخطر المغولي وفشله في النهاية :

فكان ظهور هذا الخطر من عظم الابتلاء للأمة الإسلامية في المراحل الأخيرة من صراعها مع الخطر الصليبي، ذلك أن جنكيزخان كان قد اجتاح بين عامي ١٢٠٦ و ١٢٤١م جميع البلاد الممتدة من سواحل الصين الشرقية إلى شمال البحر الأسود في أوربة، وكانوا يطعمون بالبلاد الإسلامية لما يسمعون عنها من غنى وثروات، وهذا ما جعله يجتاح عام ١٢١٨م خوارزم ويستولي على بلاد التركستان فيما وراء النهر ويخرب العواصم الإسلامية مثل بخارى وسمرقند وطشقند، ولكن موت جنكيزخان عام ١٢٢٧م هدا العاصفة لفترة بسبب الخلاف بين ولديه على العرش، ثم واصل أجداي الذي خلفه نشاط الغزو المغولي في بلاد الروس حتى اجتاح المجر، بينما واصل أخوه شفتاي الذي تأثر هو وأبناؤه بالإسلام، واصلوا هدوءهم ضد البلاد الإسلامية. ولكن تسرب المسيحية إلى قصر أجداي أوجد لهم مندوبا بابويا عند التشاور لخلفه بعد موته عام ١٢٤١م، وحاول هذا المندوب أن يجعل العرش يؤول إلى ابنه جويوك ذي الميول المسيحية ولكن الله سلم وأنقذ البلاد الإسلامية بموته عام ١٢٤٨م قبل أن يصير إليه العرش وإنما صار إلى منجوالبعيد في ميوله عن المسيحية والذي اقتسم البلاد مع أخويه قوبلاي للجناح الشرقي وهولاكو للوسط والغرب، وهو الذي تولى احتلال بغداد عام ١٢٥٨م بتحريض من عدد من القساوسة للقضاء على البلاد الإسلامية نهائيا، وكانت تعينهم في ذلك إحدى زوجاته المسيحية.

ومن ناحية أخرى كان المسلمون يهيبون بسultan المماليك سيف الدين قطز للسير لحرب المغول وردهم عن البلاد الإسلامية، ولكن الخوف من المغول كان قد سيطر على المماليك مما رفضته جماهير الأمة وواصل علماءها الضغط على قطز حتى تحرك وقاد أمة الشهادة إلى موقعة عين جالوت عام ١٢٦٠م في فلسطين حيث قضوا على خطر كان يتهدد البشرية كلها، مسلمها و(مسيحيا)... ولكن ويا للأسف لم تهدأ الخواطر الصليبية الحاقدة فعادت للتحريض ضد بلاد الإسلام والمسلمين إذ حرضوا أباقيا الذي خلف هولاكو لإعادة غزوها بتشجيع من زوجته المسيحية البيزنطية فدخل حلب وخربها ولكن سلطان مصر سيف الدين قلاوون تصدى له وهزم جيوشه قرب حمص عام ١٢٨٢م هزيمة منكرة وفر أباقيا إلى بغداد حيث توفي وخلفه أخوه المسيحي تكودار الذي أسلم وتسمى بأحمد، فحاول إنشاء علاقات صداقة مع المسلمين كما فعل أبناء عمومته الذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام في عهد السلطان بيبرس، ولكن المسمى أحمد قد عاد وارتد عن الإسلام بتأثير زوجته النصرانية التي أخذت تحرضه لإعادة غزو البلاد الإسلامية، وحاول الاستنجاد بالبلاد الأوروبية ليتحدوا معه في ذلك وسفيره يطوف بها بلدا بعد بلد طيلة عهده من ١٢٨٤-١٢٩١م

الموضوع العاشر: الإسلام قوة ونصر:

فإن الله تعالى يأبى إلا أن ينصر جنده فأسلم قازان وحسن إسلامه وانتهى خطر المغول فكان هذا هو السبب الرئيسي الثاني بعد موقعة عين جالوت الذي أنقذ به تعالى البلاد الإسلامية وإن كانت جماهير الأمة بقيادة علمائها المحرك والمحقق لذلك.

ومن مظاهر القوة الإيمانية ما شيده المسلمون من مساجد بجانب الكنائس على نفقتهم في قرقورم عاصمة جنكيزخان والتي تقع في وسط ما يعرف اليوم بجمهورية منغولية في شمال الصين. كما استطاعت مجموعة من الموظفين المسلمين العاملين في جنوب غرب الصين مستعينين بحاكمها المسلم أن ينشئوا في تلك المقاطعة الواسعة جالية إسلامية ضخمة حولت المقاطعة إلى بلد إسلامي امتد الإسلام منها إلى مقاطعات الصين الجنوبية والغربية حتى خلف هذه الجالية الإسلامية التي يربو عددها الآن في الصين عن المائة مليون مسلماً...

إنها قوة الإيمان التي تجتريح العجائب متى حركت أصحابها فجاءت على الخطرين الصليبي والمغولي معا وهما ما هما من الخطر الكاسح... فأين ذلك من أخطار الصليبية والصهيونية اليوم؟ إنها حركة إيمانية جادة تأتي بالحكم الإسلامي الصادق المخلص المجاهد... وينتهي كل شيء...

الموضوع الحادي عشر: إن في ذلك لذكرى:

وأى ذكرى لأولي الألباب المؤمنة... فهم يرون كم من الأزمات قد تعرض لها دينهم منذ ظهوره في مكة المشركة، وصدامه مع الامبراطوريتين الرومانية والفارسية وقد انتهى من صراعه مع اليهودية الماكرة، ودخوله في فتوحات وصلت إلى عمق فرنسا وأسوار فينة في الغرب وعمق الصين في الشرق، وخوضه غمرات الموت والشهادة مع الحروب الصليبية والغزو المغولي... فلهم في ذلك كله وما اقترفه مصطفى كمال من جريمة هدم الخلافة عام ١٩٢٤م وبناء الكيان العلماني الهش على أنقاضها، وما يفسدونه دعاة التغريب من العقول والقلوب... لهم أعظم الذكرى وأشدّها ولا سيما مع هذه الكيانات الهزيلة التي تعمل ليل نهار لمنع عودة هذا الدين للحكم والحياة...

الموضوع الثاني عشر: إسلام ملة نتيجة جهود داعية:

فقد فوجيء الشيخ جمال الدين البخاري وصحبه ببقعة خضراء فنزلوا يرتاحون فيها من تعب السفر، ولكن جنود الامبراطور ساقوهم ليشتمهم بحجة تعديهم بالدخول إلى ملكه دون إذن، وأنهم كالكلاب في فعلتهم... وهنا انبرى الشيخ جمال الدين يرد عليه بهدوء المؤمن الواثق بربه العالم بدينه، وأخذ يعرض عليه الإسلام حتى كاد يعلن إسلامه لولا أن استمهله خشية تمزق ملكه... وتمر الأيام ويحاول الشيخ رشيد ابن الشيخ جمال الدين الوصول إلى الامبراطور ليكمل ما بدأ به أبوه، فيصل ويبلغه رسالة والده فيعلن الرجل إسلامه وينطق بالشهادتين ويعرض ذلك على أمرائه فيكتشف أن أحدهم (طوليك) كان قد أسلم منذ ثلاث سنوات ولكنه لم يجرؤ على إشهار إسلامه خوفاً منه، ويتعاون الامبراطور مع الشيخ رشيد في عرض الإسلام على رجال الدولة فيسلمون جميعاً لولا أن علق الامبراطور إسلامه على نتيجة مباراة

يخوضها الشيخ رشيد الرجل النحيف ضد خادم الإمبراطور العملاق، فيأبى الله تعالى إلا أن يتم نوره فيسقط العملاق أمام النحيف بوكزة واحدة فينهض مرددا الشهادتين ويهوي مقبلا قدمي الشيخ فتنتلق حناجر الحاضرين بالاستحسان ويعلن أكثر من مائة وستون ألفا من التتار إسلامهم ويقصوا شعورهم ويعتسلوا من وثنياتهم.

فما أروع الصدق في الدعوة وما أعظم نصر الله تعالى لها!!

الموضوع الثالث عشر: لماذا وكيف انتشر الإسلام؟

فقد سار خلفاء الرسول عليه وآله السلام على نهجه فحملوا الإسلام للأرض دون أن يكرهوا أحدا على اعتناقه، وسار العلماء والدعاة في أطراف المعمورة من بعدهم يحملون رسالة هذا الدين، فانتشر في أفريقية كما انتشر في أوروبا وأسية ثم في أمريكا... فهل كان يعلم أولئك النفر الثلاث والثمانون رجلا والثمانية عشرة امرأة الفارون بدينهم من ظلم قريش المشركة إلى الحبشة بأنهم جيش يخلف من ورائه عشرين مليوناً من المسلمين؟! وهل كان يعلم هذا الجهد المحدود من المسلمين الذين جاسوا ديار الروس بأنهم يخلفون أكثر من ستين مليوناً على أرضهم؟! وهل كان يعلم ذلك العالم المسلم كريم المخزومي الذي نزل في جزر الفلبين بأنه سيخلف وراءه سبعة ملايين من المسلمين؟! وهل... وهل... إنه الإسلام الذي ما أن تفتح أمامه الحدود وتزول السدود حتى يجد طريقه إلى العقول والقلوب بلا سيف ولا مدفع... فهل أدرك ذلك دعاة الحقد ومروجو الأكاذيب!؟

الموضوع الرابع عشر: سيف النور ساطعاً:

فإما أن يختار المسلمون الاستقلال عن الشرق والغرب ويشقوا طريقهم بإسلامهم كما فعل أسلافهم ليجدوا الله تعالى معدا نصره لهم تبعاً لأحقيتهم وجدارتهم وصدق جهادهم، وإما أن يضمحلوا ويفنوا عن الأرض مما لا ولن ترضاه لهم رسالة ربهم الخاتمة المرسله رحمة وخيراً لكل البشرية وحتى قيام الساعة... فهل يدركون ذلك ويعملون ويستحقون النصر!؟

وهنا يهيب المؤلف بالمسلمين، جزاه الله خيراً، ليبادروا لحمل أمانة هذا الإسلام الذي آمنوا به وحملوه كما آمن به أجدادهم وحملوه ليكونوا خير خلف لخير سلف، وأن يذكروا أن رسالة هذا شأنها وخطرها لن تسير بين الأمم دون عقبات وابتلاءات، وأن الله تعالى قد تكفل بنصرهم إذا آمنوا بها بصدق وحملوها بإخلاص، وتحملوا في ذلك بكل صبر واحتساب كل ما يتعرضون له من آلام وصعاب... ليذكروا أن الله تعالى قد ابتلى رسولهم محمداً وصحبه حتى استحقوا بإيمانهم وصبرهم ودأبهم وإخلاصهم وصدقهم النصر... كما ليذكروا أنهم ما منحهم الله تعالى الخيرية بين الأمم إلا لمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما يشمل الإسلام كله ويشمل الحكام والمحكومين...

وليذكروا أن الذل ما لحق بأمتهم إلا لأنهم تخلوا عن الجهاد (وما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا)، وأن العزة البديلة لن تكون إلا بالجهاد تحت رايات الإسلام الخفاقة، وأن من يبتغي ذلك فعليه بالعمل لرفع هذه الراية أولا بإقامة دولة الخلافة التي تتولى رفعها، ثم ينضوي ويدعو الناس للانضواء تحت رايتها ويجاهد وينال شرف الشهادة... إنها أمانة الإيمان بالإسلام وحمل رسالته: فإما الحفاظ عليها والوفاء لها وإما الخزي والندامة!! ليستحضروا دائما قوله تعالى {ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم} وإلا!!

الفصل الرابع - مواضيع متفرقة أخرى

وقد وزعه المؤلف على ثلاثة عشر موضوعا كما يلي:

الموضوع الأول: حقائق سارة تبشر بخير:

يورد المؤلف أمورا أصبحت عادية من مثل انتشار الكتاب الإسلامي بأكثر من خمسين لغة كدليل على الصحة الإسلامية، ومن مثل اعتناق مثقفي الغرب الإسلام وانزواء تيارات الإلحاد وتضاؤل صحبات العلمانية ودعوات تحجيم الدين في العالم الإسلامي ورجوع كثير من المسلمين إلى دينهم عن توبة وفهم وحب لله تعالى..

فإن هذه الأمور دليل على قوة هذا الدين لموافقته للفطرة وإقناعه للعقل وسهولة انتشاره حتى دون دولة ترعاه وتحمل دعوته.

الموضوع الثاني: سر قوة الإسلام وأسباب خلوده:

وذكر المؤلف مجموعة من الأسباب يمكن دمجها فيما يلي:

١. صحة العقيدة الإسلامية عقيدة التوحيد وما يتصل بها من عقائد، وذلك بسبب بنائها على العقل وموافقتها للفطرة.
٢. صحة التشريعات الإسلامية المنبثقة عن تلك العقيدة، وشمولها لجميع جوانب الحياة بحلول صالحة لكل زمان ومكان ودون تمييز بين أبناء البشر.
٣. لما في الإسلام من قيم سامية وأخلاق فاضلة تحقق الخير وتجنب الشر بقدر التزام الأفكار المرتبطة بها من قبل جميع البشر.
٤. لما في الإسلام من عبادات تربط المسلم بخالقه مباشرة ودون وسيط.
٥. لما تكفل به تعالى من حفظ لكتابه من الضياع أو التحريف أو التبديل ليبقى المعجزة الخالدة النقية.
٦. لما في القرآن من معجزات علمية تشهد على قدرته تعالى في خلقه وصلاحيته شرعيته من مثل قيمة رضاعة الطفل من حليب أمه، وضرر إتيان الزوجة أثناء

الحيض، ومضار شرب الخمر، ومنافع معدن الحديد، وفوائد التغذية بالعسل، وضيق التنفس في طبقات الجو العليا، وفساد لحم الخنزير والميتة والدم، ومعجزة البصمة والبنان، ووحدة نشأة الأرض والسماء، ومراحل نمو الجنين.

الموضوع الثالث: المستقبل للإسلام :

للأسف لم يزد المؤلف هنا عن الكلمات الجميلة والعبارات الأخاذة والمعاني العامة وذلك كحال الكثير من الكتاب الإسلاميين، وكنت أرجو أن أجد الوقفات اللازمة مع العقيدة الإسلامية وصحتها، والتشريعات وسلامة حلولها...

الموضوع الرابع: الإسلام قوة الغد العالمية في نظر باول شميتز :

يتحدث المؤلف هنا عن كتاب هذا الرحالة الألماني (الإسلام قوة الغد العالمية) وكيف أنه لم يكن ينتزه في رحلته في ربوع العالم الإسلامي وإنما كان يتدبر كل ما يرى وعلاقة الإسلام به ليحذر قومه وينذرهم... فهو يرى أن في توجه المسلمين في صلاتهم إلى قبلة واحدة وحجهم إلى مكة وتبادلهم أخبار أحوال معاشهم ما يوحد فكرهم وشعورهم ويعيدهم قوة خطيرة ضد أوربة ولا سيما أن لديهم كما يقول إمكانات بشرية ومادية هائلة مما يمكنهم من الاكتفاء الذاتي وعدم الاعتماد على أوربة في شيء، فيحذرهم ويدعوهم إلى (أن يتضامن الغرب المسيحي شعوبا وحكومات، ويعيدوا الحروب الصليبية في صورة أخرى ملائمة للعصر وفي أسلوب نافذ حاسم)... كما يذكرهم بأن قوة المسلمين في تماسكهم الإيماني بالإسلام وفي توحيد كلمتهم، وأنهم كما كانوا قوة عالمية في صدر الإسلام الأول قادرون على العودة كذلك إذا أدركوا كيف يعودون لمنابع إسلامهم وكيف يكتسبون العلوم والتكنولوجية التي سبقتهم أوربة إليها... كما ينذرهم بأن هذا العملاق الإسلامي الذي بدأ يصحو من سباته هو صوت نذير لأوربة وهتاف لها يدعوها للتجمع لتقف في وجهه... ويؤكد لهم بأن قوة الإسلام الروحية الكامنة في نفوس المسلمين لم يصبها الضعف والوهن وأن زعماءهم قد جذبتهم الأحداث للتكاتف والتساند ضد الغرب بدافع الروح الإسلامية...

إنه رحالة صليبي يعميه حقدته عن رؤية الحق ولا سيما إذا حركته الصهيونية...

الموضوع الخامس: الإسلام قوة وصمود :

وهنا يؤكد المؤلف ما سبق أن أورده من ذكر قوة الإسلام وذلك منذ نشأته وانتصاره على الفرس والروم ثم الحروب الصليبية فالمغول ثم في وقوفه شامخا في وجه الدول الاستعمارية وحركات التبشير، فيورد شهادتين الأولى من توينبي والثانية من كروبر تؤكدان قوة الإسلام وتكامله كدين ودولة منذ عهده الأولى... ثم يذكر كيف صمد الإسلام أمام حرب التبشير في أفريقية وآسية لولا نفر ممن تربوا في مدارس التبشير وبلاد الغرب من أبناء المسلمين الذين تسلموا مراكز الحكم والنفوذ والسيطرة

وأبعدوا بل اضطهدوا رجال الفكر والثقافة الإسلامية مما جعل الإسلام خافتا ونفوذه محدودا أو مفقودا إلا من الناحية الفردية... ومن ناحية أخرى فقد صمد ضد تشويه أعدائه ولكنه أبعد عن الحياة والحكم والسلطان بفعل أعدائه ثم أبنائه المضللين...

الموضوع السادس: الدين الخالد :

لقد كثر أعداء هذا الدين طيلة عهده ولكن عهدا واحدا لم يخل ممن ينافح عنه ويجاهد به بالسيف أو بالكلمة... وقد تكررت فترات هبوط الأمة الإسلامية، فطالت وقصرت، ولكنها لما تكتمل عودتها إليه كدين ودولة معا بعد... فهذا هي الصحوة الإسلامية تتعالى موجتها في جميع أصقاع الأرض ولكن حكومات البلاد الإسلامية تمارس أقسى إجراءات البطش ضد رجال تلك الصحوة والعاملين لإعادة دولة الخلافة... وقد حفظ تعالى هذا الدين من العبث ولكنه سبحانه لم يحفظ هذه الأمة من العبث سواء من أعدائها أو أبنائها وذلك من باب الاختبار والابتلاء... فعسى أن يمنّ عليها بمن ينفذها من عبث العابثين وفساد المفسدين، وما ذلك على الله بعزيز...

الموضوع السابع: سرعة انتشار الإسلام :

لقد كان انتشار الإسلام بدعوته أولا حتى قامت دولته فتولت نشره ودون أن تجعل السيف وسيلة لإكراه الناس على اعتناقه وإنما فقط وسيلة لإزالة الحواجز المادية التي تقف في طريق دعوته ووصول كلمته إلى الناس ليروا رأيهم فيه {فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر} واتصلت مساعي دعوته رغم ضعف بل تهافت دولته في العهد العباسي الأخير، ثم حاولت أن تسترد قوتها في العهد العثماني، ولكن دعوته لم تنتظر دولته فسارت في أفريقية وآسية حتى اخترقت سور الصين العظيم ووجدت لها هناك وفي الهند الملايين من الأتباع... لنذكر كيف انخلعت الشعوب من أديانها الموروثة السابقة واعتنقت الإسلام وتمسكت به، لنذكر كيف اعتنق قازان ملك التتار الإسلام في الرابع من شعبان عام ٦٩٤ هجرية فاعتنقته معه أمته... لنذكر كيف انخلعت مصر من وثنية الفرعونية وأصبحت وما زالت تتمسك بالإسلام...

الموضوع الثامن: ازدياد عدد المسلمين مبعث تفاؤل إلى مستقبل مشرق:

من الواضح أن البلاد الإسلامية هي أكثر البلاد تزايدا في عدد السكان، وأنها وإن كانت ما زالت تعيش في تخلف مادي بسبب الحصار المعن هنا والخفي هناك في كل بلد من أعدائها الصليبيين والصهيونيين وذلك لمنع وصول العلوم المتقدمة إليها، فإنها تملك من الثروات البشرية الهائلة والإمكانات الاقتصادية والمالية الضخمة ما تعجز عنه جميع شعوب وأمم الأرض الأخرى...

ومن الملاحظ أن الشعوب الأخرى تضرب على نفسها تحديدا شديدا للنسل،

تلافيا لمشاكل العجز الرسمي عن توفير الحياة الكريمة لهم، ولكن البلاد الإسلامية ما زالت رغم محاولات المستعربين من حكامهم ومثقفهم تملك أعلى نسبة في المواليدي...

هذا من ناحية وأما من الناحية الأخرى فإن الإسلام لا يحرم ضبط النسل ولكنه يحرم الإجهاض ويترك كثرة التناسل لكل أسرة وإمكاناتها، ولولا هذا الضيق الاقتصادي المفروض على المسلمين من حكامهم تلبية لأعدائهم فإن الثروات الهائلة في البلاد الإسلامية من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادئ ليست فقط تكفيهم ليكونوا من أرقى الشعوب والأمم من حيث ارتفاع مستوى الحياة ولكن ليصدروا غيرهم...

فعسى الله أن يفرج كربة هذه الأمة ويوحد بلادها وكلمتها تحت راية الإسلام وحكم الإسلام...

الموضوع التاسع: حاضر الإسلام :

فحاضر الإسلام نلمسه مما وصل إليه أهله في التعامل في حياتهم ومع الآخرين ومع الله، فهم مع الله قد أخذوا يتقاعسون عن التزاماتهم في عبوديتهم لله تعالى حتى لتجد الكثير منهم قد نبذها وإن أخذ بعضهم يعود إلى شيء من طاعته، ومع الآخرين نجدهم قد استشرت فيهم الأخلاق السيئة والمعاملات المحرمة، ومع أنفسهم نجدهم قد أخذوا يعيون من المنكرات والشهوات عبا... لقد ابتعدوا عن التزام أحكام الإسلام كثيرا وإن كانت الصحوة الإسلامية قد أخذت تشدهم في الكثير من البلدان الإسلامية للعودة إلى دينهم وإن كانت ما زالت عودة خجولة...

فعسى الله أن يوفقهم للعودة بقوة جارفة إلى إسلامهم ليقولوا كلمتهم الفاصلة: نرفض غير الإسلام دينا وحكما...

الموضوع العاشر: الإسلام هو الأمل الوحيد:

ذلك أن الغرب في تخبطه وفراغه الروحي يعيش في قلق دائم حتى أعلن كثير من مفكره: لا حل إلا بالإسلام، ففيه العقيدة والشريعة، وفيه اللقاء بين المادة والروح، وفيه الدين والدولة، وفيه التشريعات والحلول لجميع القضايا البشرية من دون غيره من الأديان والمبادئ الأخرى حتى قال روجيه جارودي، المفكر الفرنسي المشهور بعد أن اعتنق الإسلام (إن مأساة الغرب تكمن في اعتماده على النمو المتواصل بدون هدف إنساني أو أخلاقي)، وقال (لقد وجدت في الإسلام نظاما اجتماعيا واقتصاديا وأخلاقيا يصلح لإخراج البشرية من ورطتها الحاضرة حيث فشلت الرأسمالية والماركسية كنظم وضعية في إنقاذ الإنسان المعاصر من مشكلاته)... فهذا الذي يقوله هذا المفكر الذي أصبح إسلاميا بعد أن كان ماركسيا يقوله كل مفكر محايد نزيه مما يجزم بأن الإسلام ونظامه وشريعته وخلافته هي الأمل الوحيد للبشرية...

الموضوع الحادي عشر: لننظر إلى الغد:

ونجد هنا كلمات نورانية يطلقها المؤلف تحت هذا العنوان وهو يدعو المسلمين للصبر على دينهم مهما ادلهمت الخطوب وتكثفت النوايب واشتدت الكروب وتزاحمت الابتلاءات.. لأن نصر الله قريب ولن يخلف الله وعده، والمهم أن يمنع المسلم اليأس أو الاضطهاد من أن يحطم نفسيته ويقعده عن حمل المسؤولية، مسئولية أمانة الإسلام وحمل دعوته وتبليغه للناس...

ولكن المؤلف، سامحه الله، يقف عند دعوة المسلم لإقامة الإسلام في نفسه وبيته وأهله فقط... فهل هذه هي مسئولية أمانة الإيمان بالإسلام وشريعته؟ أين هي مسئولية إعادة شريعة الإسلام للأرض لتعيش عليها الأمة الإسلامية في حياتها في جميع أنظمتها بدلا من الأنظمة الوضعية الكافرة؟! فكم هي كلمات المؤلف الأخيرة رائعة وهو يقول: إن مسئوليتنا أن نصمد في مواقفنا، مؤمنين بأننا على الحق مرابطين حتى ننتصر أو نستشهد...

الموضوع الثاني عشر: لا يأس ولا إحباط:

كم هي كلمات المؤلف هنا باعثة على الأمل وداعية لمنع الكسل وهو يتحدث عن نور النهار بعد ظلمة الليل وعن دفء الصيف بعد زمهرير الشتاء... إنها تذكر بما يعانیه رجال الإسلام من الحصار والاضطهاد ولكنهم يصمدون أمام ذلك كله، إنها تشير لما يتعرضون له من التنكيل والقهر ولكنهم يتحدثون ذلك بالصبر والعزيمة والاطمئنان بجانب نصر الرحمن، بجانب وعده تعالى القاطع {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم} فعسى أن يحقق تعالى وعده هذا قريباً...

الموضوع الثالث عشر: الغد أحلى:

ومع نهاية هذا الفصل يؤكد المؤلف أن الغد سيكون أحلى للإسلام والمسلمين من اليوم بعون الله ومشينته، وأن هذه المتاعب والآلام كلها إلى زوال إن شاء الله تعالى، وأن ما على المسلمين إلا الصبر والصمود، وأن مع العسر يسرا، وأن اللازم عدم السماح لليأس بالتسرب إلى النفوس، وأن على الشباب أن يتجنبوا القنوط وهم ما زالوا في عمر الزهور ولم يروا من كفاح الحياة ومتاعبها بعد شيئا، وأن تثق جميعا بأن الفرج قادم عن قريب بإذن الله، وأن نذكر قوله تعالى ﴿لا تقنطوا من رحمة الله﴾ وقوله {ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون}.. والمهم أن نعمل ونعمل بعون الله سيكون الغد أفضل...

إن هذه العناوين للمواضيع الواردة في هذا الفصل تؤكد أن المستقبل للإسلام برعاية الله تعالى أولا ثم بحمل الدعوة الإسلامية الدؤوب ...

الفصل الخامس - مفكرون مسلمون يبشرون بمستقبل الإسلام

١ - عباس محمود العقاد الذي يؤكد في كتابه (الإسلام في القرن العشرين) بأن الغد للإسلام وللإسلام فقط وأن كل العقائد ستهوي تحت ضربات الحروب النووية وبدافع إفلاس البشرية ولن تجد عندها إلا الإسلام... وأوربة مهما عاشت في حذر ورعب من الإسلام ويقظته فإنها لن تملك منعه بالرغم من كراهيتها لذلك كله... والمسلمون مهما هبطوا في مدارج التخلف فهم بلا شك للإسلام عاندون وللرقي محققون، وأن ما حدث في حياتهم بالأمس لن يمنع من حدوثه ثانية شيء في الأرض... إنه قضاء الله تعالى وقدره في نصره لعباده المؤمنين العاملين الصادقين، ولن يستطيع الغرب ولا غيره منع عودة الإسلام المظفرة بعون الله تعالى...

٢ - الشيخ محمد سعيد النورسي: مدحته الصحف التركية عندما جاء استنبول فقالت عنه إحداهما: طلع في آفاق الزمان إنسان يحمل شعلة نارية من الذكاء العجيب. وسأله الشيخ بخيت مفتي الديار المصرية في ذلك الوقت عندما زار استنبول سائحا: ما قولكم في الدولة العثمانية والدول الأوربية؟ فأجاب بالعربية: إن أوربة اليوم حاملة بالإسلام وستلده يوما ما وأن الدولة العثمانية حاملة بالنهج الأوربي وستلده يوما ما... ويعلق المؤلف بقوله بأن نبوءة الشيخ النورسي في طريقها إلى التحقيق يوما بعد يوم وأن نتائجها قد أصبحت ملموسة وانتشر الإسلام في الغرب...

والسؤال: ما معنى وصف المؤلف للشيخ النورسي ب (بديع الزمان)، فهل هو مجدد أم مجرد لقب؟!

٣ - الشيخ أحمد كفتارو: فقد أجاب على سؤال صحيفة البلاد كيف يرى الإسلام في نهاية القرن العشرين بأنه موقن بأن الإسلام سيعم العالم قبل دخول القرن القادم ملاحظا ذلك من إقبال الكثير من المفكرين الغربيين الذين تحولوا إلى الإسلام وأصبحوا من دعائه، ولأن العديد من كبار متعلمي ومتقفي الدول الأجنبية التي افتتحت فيها مراكز إسلامية قد استجابوا لدعائه لإدراكهم عدم قدرة العقائد والأديان الأخرى عن إسعاد إنسان القرن العشرين، ولأنهم عرفوا في الإسلام قدرته على ذلك وهو يعترف بالأديان والرسل الآخرين... كما أن الشيخ قد لمس استجابة الشعوب الأخرى لدعوة الإسلام أثناء زيارته وأحاديثه هناك حتى أن أحد رؤساء الكنائس بكى عندما سمع ما سمع عن الإسلام وقال (في الحقيقة نحن لا نعرف الإسلام كما سمعناه منك، ولكن بعد ما سمعناه وعرفناه سنحدث شعبنا عن حقيقة الإسلام). وقد تكرر هذا الموقف من رئيس أساقفة واشنطن عندما أبدى تقديره للإسلام وقبل يد الشيخ كفتارو أمام الجمهور الأمريكي. وتكرر ذلك أيضا من كاردينال النمسة بل من البابا بعد حديث دام لمدة ساعة عندما قال مودعا للشيخ كفتارو (أنا أقرأ القرآن كل يوم)...

ولكن المجاملة لعالم مسلم يروونه بين أظهرهم شيء وموقفهم الحقيقي شيء آخر... ولنا في موقف بابا الفاتيكان الحالي الذي شطب العقيدة المسيحية في تحميل

اليهود وزر دم السيد المسيح تقربا لليهود أكبر دليل على ما يبببونه، وأنه غير ما يظهره، وبشكل خاص رجال الدين منهم...

٤- أحمد ديدات: يتحدث فيه عن نمو انتشار الإسلام لعدة أسباب: التكاثر البشري الطبيعي للمسلمين يجعلهم ٥٠% من سكان الأرض عام ٢٠٥٠م، ووصول الإسلام لأقصى الأرض أثناء الفتوحات الإسلامية، ويقظة الأقليات الإسلامية الآن في مختلف الدول والبلدان الأجنبية... هذه الأقليات التي رغم عددها الضئيل بالنسبة لسكان البلد الواحد، فهم مثلاً ٢% من سكان جنوب أفريقية إلا أنهم ينشطون في الدعوة إلى الإسلام وإلحاق الكثير من الناس به...

٥- الشيخ المراغي والشيخ قادم: فقد رأى الشيخ المراغي أن معنى حديث الرسول عليه وآله السلام [بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغريباء] بأن الإسلام بدأ في دولته وشريعته في المدينة المنورة بعيداً عن مكة بلد نزوله الأول، وهذا معنى الغربة في البدء، وأما الغربة الأخرى فإن معناها ظهور الإسلام وقوته في أقوام غريباء عنه ومن غير أهله فيحتمونه وينصرونه فيعود لقوته الأولى. ولكن الشيخ قادم يرى الغربة أولاً وأخيراً في غرابة الإسلام على النفوس...

ويعقب المؤلف فيقول بأنه مهما كان معنى الحديث فالواقع الملموس بأن الإسلام مهما تعرض من تنكر من بعض أهله فإنهم أو غيرهم من أهله أو الأجانب في بلاد أخرى يعودون إليه ويجدون فيه الملاذ من هذه العقائد الملحدة أو الجاحدة، وأنه في تنامي مطرد وانتشار متسع في جميع أقطار الأرض مهما تعرض لمكائد ومتاعب.. ولن يطول انتظار عودة ازدهاره رغم أنف الحاقدين ولو كرهوا...

٦- الشيخ محمد متولي الشعراوي: فيجيب على سؤال للمجلة العربية عن سبب تسلسل مشاكل المسلمين وخسارتهم المستمرة بأن ذلك مرده إلى ملاحقة أعداء الإسلام وحقدهم عليه وخوفهم من عودته للحكم، فهم دائمو الكيد للإسلام وأهله لخوفهم من عودة هذا العملاق الذي خبروه من قبل حفظاً على باطلهم ومصالحهم، فهم يمكرون ليل نهار ليمنعوا المسلمين من العودة الصحيحة إلى إسلامهم ويستمروا في مجافاة أحكام دينهم... ولكن الله يأبى إلا أن يتم نوره... والمهم أن يعي المسلمون أنهم حملة رسالة سامية، وأنهم مطالبون بتوجيه البشرية والأخذ بأيدي الناس إلى الخير والهداية، وأن دورهم دور قيادي.

٧- عيد الصبور مرزوق: فهو يعتقد بأن المسلم والأمة الإسلامية كلها مطالبة بالعمل لاستعادة سيرتها الأولى وريادتها للعالم، وأنه متفائل بالمستقبل لثقته بما يصنعه الإيمان من تحولات في الأفراد والمجتمعات، وأن فجراً جديداً بكل يقين سيشرق من أعماق المحن القاسية التي يتعرض لها المسلمون لأن الحق هو الذي ينتصر في النهاية، ولأن هذه هي سنة الله في خلقه وتديبره، ولأن الدول المسيطرة تحمل في ثناياها بذور انهيارها، ولذلك فلأنه يرى أن صحة صحيحة ونهضة شاملة

ستتحقق بعون الله ما دام المسلمون يعون إسلامهم بوضوح ويعون أعداءهم بوضوح... وأنه والدكتور جمال عطية، المفكر الإسلامي المعروف ومستشار المعهد الإسلامي بواشنطن، يريان أن شمس الإسلام قد تشرق في الغرب لما يروونه من إقبال الناس هناك على اعتناقه، وأن الأمر لا ينقصه إلا عرض له مناسب للعصر... وقد اعتمدوا في تفاؤلهم هذا على إحصائية جرت في أمريكا عام ١٩٩٠م حول معدل نمو الإسلام هناك وأنه ٣٥% بينما معدل نمو الأديان الأخرى كلها هو ٥٥%...

٨- مجتبي الموسوي يقول: الإسلام قادم، مؤكداً أن وحشية آلة الحرب الغربية وقيادتهم المتعصبة ضد الإسلام ستقودها رغم أنفها إلى الانهيار، وأنه لا بديل للإنسانية بعد ذلك إلا بالإسلام فهو قادم ليحل مشاكل البشرية بعد أن أفلست المبادئ الأخرى أو كادت، وبعد أن خبرت الإنسانية قيادة الإسلام لها، وبعد أن بات يبرهن بالأدلة القطعية على أنه هو القائد والرائد المنتظر...

٩- الشيخ محمد الغزالي: يؤكد أن عدد المسلمين قد تناقص تحت الاضطهاد والتنصير بعد زوال الخلافة عن البلقان هناك إلى النصف، ولكنهم أخذوا يعودون ليصبحوا أكثر من ثلث الروس وشعوب البلقان عامة. ويقول بأن دخول رجل الاقتصاد البريطاني الشهير أحمد كريستوفر شامونت في الإسلام بعد بحث ودرس وثقة بالإسلام وحضارته وتفوقه بالرغم من توقع المسلمين لهو دليل على قوة الإسلام وتأثيره في أوربة بالذات حيث تسخر من الإلحاد والتجسيد، ويقول بأن الأحاديث النبوية العديدة التي تتحدث عن وجود أمة أو طائفة أو عصابة من المسلمين يقومون بأمر الله دون أن يهتموا بمن كذبهم ولا من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله... بأنها تشير إلى فقهاء الدين الذين يحملون الإسلام في الأرض برغم ما يتعرضون له من محن وأنهم سوف ينجحون في المحافظة على الإسلام لتبقى راياته خفاقة بجهودهم، ويقول بأن هذه الظلمة التي يتعرض لها المسلمون أمر عارض ودورة زائلة والمسلمون هو المسئولون عنها بسبب تقصيرهم وتفريطهم في التزام دينهم ولا يجوز نسبتها للقضاء والقدر...

١٠- رشدي فكار: يؤكد بأن الحضارة الإسلامية كانت لها دورتها التاريخية في دورة الحضارات إذ جاءت بعد الإغريقية والرومانية، ولكنها تنحت جانبا لتأخذ الحضارة الغربية محلها، بعد هذا القول يؤكد بأن الحضارة الإسلامية لا بد عائدة إلى مكان الصدارة ثانية بعون الله ولكن ليس بديلا عن الحضارات، ثم يؤكد للسائل بأن الإسلام بما يتمتع به من وسطية واتزان وموضوعية قادر على اكتساب الأوروبيين، وأن ما على المسلمين إلا أن يعيدوا صياغة شخصيتهم لتصبح متناسقة مع الإسلام ومع العصر في آن واحد، وأن ذلك في مقدور الإسلام أن يحقق لهم ذلك، وأنه ليس بمستبعد التحول الأوروبي السريع إلى الإسلام بشرط ألا تقف في طريق ذلك معوقات من المسلمين قبل غيرهم، ذلك لأنه لا يوجد للإسلام قضية مع البشر وإنما هي قضية البشر مع الإسلام في عدم وعيهم عليه الوعي السليم، وعدم أخذهم لأحكامه الأخذ

الصحيح... وليطمئن المسلمون بأن أزمته هي أزمة جيل وليست أزمة عصر، وأزمة نخبة وليست أزمة أمة، وأن الأجيال القادمة ستكون بخير ويعود الإسلام مشرقاً شريطة عدم افتعال المشاكل له بجانب مشاكل المسلمين...

وبالفعل فقد افتعلت المشاكل ضد الإسلام والمسلمين فأصبح كل ملتزم له رجعيًا ومتعصبًا وأصوليًا وإرهابيًا... إلخ من النعوت ناهيك عن السجون التي ملئت بالداعين إليه في البلاد الإسلامية هنا وهناك...

١١ - الدكتور مصطفى محمود: يقول بأن دين الإسلام هو دين المستقبل ودين الحرية وأن على صخرته ستتحطم (إسرائيل) ويتحطم الغزو الثقافي لإدخالها إلى القلوب، فطلائع المسلمين في الطريق طالبة الشهادة ولن تطول ظلمة هذا الليل ليخلفه الفجر الساطع وتعلو كلمة لا إله إلا الله رغم كيد الكائدين، وأن رجلاً واحداً هو علي عزت بيجوفيتش قد نجح في صد حملات الحقد الصليبية الأوروبية، وأن التحالف الأمريكي لـ (إسرائيل) لاقتلاع الإسلام من الأرض العربية لن يكون مآله إلا إلى الفشل، وأن مكائد أمريكا في المنطقة لن تكون إلا كابوساً عدوانياً بغضاً لن يطول بقاؤه وأن الإسلام كفيل بتحطيمه لأنه سياج الحماية الربانية، سياج الحق، والحق لا يغلبه الباطل مهما تظاهر عليه في جولات...

١٢ - الشيخ علي الطنطاوي يقول: الأيام دول، فيستعرض أمثلة من التاريخ، وكيف ظهرت دول واختفت دول، فما هم الإغريقون فالرومان والفرس، فالمسلمون، فأوروبية فأمركية... مؤكداً أن كل الدول تختفي حتى من ذاكرة التاريخ إلا الإسلام وشريعته وخلافته، فإنه ما أن يغفوا أهله غفوة حتى يعيدهم سكون الليل إلى تفكيرهم السليم في دينهم ومجدهم وحالهم ومستقبلهم فيفكرون ويصحو معهم إسلامهم فيبعث من جديد... إنها الأيام والأيام دول بين الناس وكل أمة مسنولة عما فعلت فإن أحسنت فلنفسها وإن أساءت فعليها وما ربك بظلام للعبيد...

١٣ - الشيخ جودت سعيد يقول: بأن الغرب أخذ يشعر بل يتأكد أنه ليس في أمان، لأن القمم الذي حسبوا فيه الإسلام لم يعد محكم الإغلاق، وأخذ المارد يتململ، وأصبح عالم الإسلام شاسعاً واسعاً الإمكانيات والطاقات، ويستعد لتجربة تاريخية مميزة هي عودته للحكم والحياة، وأصبح قادراً على قلب الموازين وقد استعصى على الذوبان في ثقافة الغرب... ونمو بلدانه السكاني بمعدلات فائقة، ونمو المسلمين في الغرب، ودخول الغربيين في الإسلام قد وصل إلى معدل عشرة آلاف سنوياً في شعوب الرابطة البريطانية أي بمعدل (١٣٠) مسلماً يومياً، وأصبح الإسلام الدين الثاني في فرنسا... ولقد كتبت مجلة اليونسكو عدد ١٢-٥١٤ بأن عدد المسلمين في العالم قد يصبح عام ٢٠٠٠م (١١٢٥) مليون مسلم، والكاثوليك مليار، والهندوس (٨٥٠) مليون، والبروتستانت (٦٠٠) مليون، والبوذية (٢٥٠) مليون، والأرثوذكس (٢٠٠) مليون... ولذلك فقد أصبح الرعب يسيطر على أوربة بل الغرب كله من أن يبتلعه

الإسلام قريبا، وأخذوا بإثارة المشاكل والقلق في بلاده، ووضع العراقيل في وجهه، ومنعه من تحقيق نهضته... ولكن أنى لهم أن ينجحوا في ذلك وهم يرونه ينتشر بين المثقفين منهم بينما مسيحياتهم تحاول أن تستغل المرض والفقر والجهل... وأن الغرب قد بات يدرك أن عمق مشكلات العالم الإسلامي بأسبابها التي تعود في أكثرها لافتعال الغرب قد أصبحت في وعيه ومعرفته... التي لن يطول سكوته عنها...

١٤ - المفكر مالك بن نبي: يقف متدبرا معنى وتطبيق الآية ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾ فيرى أن مسار التاريخ في الثلث الأخير من القرن العشرين بات يشير، وليس لأحد أن يقرر بصورة نهائية، يشير إلى سيطرة الإسلام على جميع الأديان... ولكن كيف؟

إن تحدي الآية لا تظهر عظمتها إلا في ذلك الوقت الذي نزلت فيه، فقد كانت مكة لا تشكل إلا نقطة صغيرة على خريطة العالم وحولها الإمبراطورية والحضارة الفارسية من ناحية ومثلها البيزنطية من ناحية أخرى... وتظهر على الخريطة الأديان التي كانت شائعة في ذلك العهد: المجوسية والبوذية والبرهمية والمسيحية واليهودية... ونذكر كيف أخذت هذه الديانات تضحل أو تدوي، وكيف أخذت تتسابق في التقرب للأجيال من الشباب بالذات بالتحوير والتعديل لتعاليمها بل حتى معتقداتها لتتال قبولهم فتستمر في البقاء... وهيهات أن يستمر أتباعها في التمسك بها...

فيا عجا كيف غاب عن كاتبنا ذكر الإمام محمد تقي النبهاني الذي كان له بعد الله تعالى الفضل في إعادة إحياء فكرة الخلافة والدعوة لإعادتها للأرض من خلال حزب التحرير الذي أسسه وقاده حتى وفاته.

ونرى بالمقابل الإسلام وكيف اتسعت رقعته حتى شملت تلك الإمبراطوريات وأذابت تلك الحضارات بالرغم من العواصف الهوج التي هبت عليه ولو تعرض لواحدة منها غيره لاقتلع من جذوره ولاختفى بأسرع من أن يبقى له أثر في التاريخ، فصمد الإسلام بل أخذ بعد كل عاصفة ينفخ الغبار عنه ويسترجع مسيرته إلى النفوس والعقول البشرية وإلى الأقطار القريبة والبعيدة.. فقد تزايد وما زال يتزايد بشكل مذهل عدد أتباعه حتى أصبح في العدية فوق كل الديانات... ولم يبق إلا الكيفية والنوعية، لم يبق إلا أن يعتلي سدة الحكم في دولة راشدة تعمل في هدوء ومن خلال وسائل الإعلام الهائلة لتحتضن العالم كله وتشمله برحمة الإسلام وعدله وتسدل الستار إلى الأبد على مخلفات الماضي من العقائد والثقافات الأخرى دون أن تضطر أحدا بالإكراه لترك دينه... ولكنه الحق والباطل، والحق يعلو ولا يعلى عليه... فهؤلاء المفكرون والعلماء المسلمون يؤكدون بمعارفهم وخبراتهم أن المستقبل المشرق بانتظار هذا الإسلام ودعوته ورجاله المخلصين...

الفصل السادس - مفكرون أوروبيون يبشرون بمستقبل الإسلام

١- برنارد شو يرى بأنه لن تمضي مائة عام حتى توفن أوربة وبريطانية بأن الإسلام ملائم للحضارة الصحيحة، وأن العالم لن يصحو من كبوته إلا بالأخذ بالإسلام، وأنه يعتقد أن الإسلام هو الدين الوحيد الحائز على الشروط اللازمة للتوافق مع شتى مراحل الحياة...

٢- ويرى هانوتو، وزير خارجية سابق لفرنسة، بأن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يميل الناس إلى اعتناقه أكثر من أي دين آخر، ولذلك فهو قد انتشر في كل مكان من على سطح الأرض، وأن النكبات التي أنزلناها بالمسلمين قد أتعبتهم ولكنها لم تثبت من عزائمهم...

٣- ويقول ألبير مشادور: ربما يعود اليوم الذي تصبح فيه بلاد الغرب مهددة بالمسلمين يهبطون إليها من السماء... وأن الإمارات على ذلك كثيرة... وأن الذرة لن تقوى ولا الصواريخ على وقف ذلك... وأن المسلم قد استيقظ وأخذ يصرخ: ها أنذا إنني لم أمت، ولن أقبل بعد اليوم أن أكون أداة تسيرها العواصم الكبرى ومخابراتها...

٤- ويقول إشعيا يومان: إن شيئا من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربي من الإسلام، ومن أسبابه أن الإسلام منذ ظهوره بمكة لم يضعف عدديا بل إن أتباعه في ازدياد مستمر، ومنها أن هذا الدين من أركانه الجهاد...

٥- ويقول أنطوني ناتنج: منذ جمع محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أنصاره في مطلع القرن السابع الميلادي، وبدأ أول خطوات الانتشار الإسلامي، كان على العالم الغربي أن يحسب حساب الإسلام كقوة دائمة وصلبة تواجهنا عبر المتوسط...

٦- وصرح سالازار في مؤتمر صحفي: إن الخطر الحقيقي على حضارتنا هو الذي من الممكن أن يحدثه المسلمون حين يغيرون نظام العالم. وعندما سأله أحد الصحفيين: ولكن المسلمين مشغولون بخلافاتهم؟ أجابه: أخشى أن يخرج منهم من يوجه خلافاتهم إلينا...

٧- ويقول مير ماديوك باكتول: إن المسلمين يمكنهم أن ينشروا حضارتهم في العالم بنفس السرعة التي نشروها بها سابقا بشرط أن يرجعوا إلى الأخلاق التي كانوا عليها حين قاموا بدورهم الأول، لأن هذا العالم الخاوي لا يستطيع الصمود أمامهم...

٨- ويقول سميث المستشرق الأمريكي والخبير بشئون الباكستان: إذا أعطي المسلمون الحرية في العالم الإسلامي، وعاشوا في ظل أنظمة ديمقراطية، فإن الإسلام ينتصر في هذه البلاد، وبالذكتاتوريات وحدها يمكن الحيلولة بين الشعوب الإسلامية...

٩- وقال مسنول في وزارة الخارجية الفرنسية عام ١٩٥٢م: إن الخطر الحقيقي الذي يهددنا تهديدا مباشرا هو الخطر الإسلامي... فعلى أن نقوي في نفوسهم عدم الرغبة في الإنتاج الصناعي والفني لأننا إذا عجزنا عن ذلك فإن خطر العالم العربي بطاقاته الإسلامية يصبح داهما للغرب الذي ينتهي معه دوره القيادي للعالم...

١٠- ويقول المستشرق البريطاني مونتجمري وات (تايمز ١٩٦٨م): فإذا وجد القائد المناسب الذي يتكلم الكلام المناسب عن الإسلام فإن من الممكن لهذا الدين أن يظهر كإحدى القوى السياسية العظمى في العالم مرة أخرى...

١١- ولقد قرر المؤتمر الأوربي الكبير عام ١٩٠٧م الذي ضم نخبة من مفكري وساسة أوربة برئاسة وزير خارجية بريطانية بأنه لما كان المسلمون هم أعظم خطر يهدد أوربة فيجب وضع خطة لمنع إيجاد أي اتحاد أو اتفاق بين دول الشرق الأوسط المسلم... وقرروا إنشاء قومية عربية شرقي قناة السويس ليبقى العرب متفرقين... وقررت بريطانيا بالذات التعاون والتحالف مع الصهيونية التي تدعو لإنشاء دولة يهودية في فلسطين...

١٢- وتحدث المستشرق الإنجليزي مارغليوت عن الإسلام في ذكرى مولد الرسول (عليه وآله السلام) فقال بأن الإسلام رسالة حضارية تحمل في طياتها طابع الصلاحية للبقاء والاستمرار... وقال بأن رسالة الإسلام طافحة بالحضارة التي تخدم البشرية وتوليها زمام الحياة، ولكنها أخذت بها أمة جهلت ما فيها من خير وصلاحية للبقاء مدى الزمان...

١٣- وقال تولستوي الكاتب الروسي الشهير: ستعم الشريعة الإسلامية البسيطة كلها لتطابقها مع العقل وامتزاجها بالحكمة والعدل...

١٤- وقال الدكتور هوكنج الباحث الأمريكي وأستاذ الفلسفة في جامعة هارفرد بأن في نظام الإسلام كل الاستعداد الداخلي للنمو والتطور بشكل يفوق الكثير من النظم الأخرى، وأن الشريعة الإسلامية تحتوي على الكثير من المبادئ اللازمة للنهضة...

١٥- وقال الكاتب الإنجليزي الشهير المستر ويلز بأن الديانة الإسلامية تسير مع المدنية بدليل القرآن وما فيه من نظرات علمية وقوانين وأنظمة للمجتمع إذ هو كتاب ديني وعلمي واجتماعي وتهذيبي وخلقى وتاريخي حتى يمكن القول (الإسلام هو الحضارة)... وأن هذا القرآن سيبقى مدى الدهر ولن يمسه سوء أبدا مهما تعرض لدسائس ومؤامرات لأن الله حفظه...

١٦- ويقول جون سبوست في كتابه (الإسلام والديموقراطية) بأن نهاية القرن الحالي قد اتسمت بظاهرتين في العالم الإسلامي هما العودة إلى الإسلام والمطالبة بالديموقراطية...

١٧- ويقول المفكر الفرنسي أوجين بوغ في كتابه (يقظة الإسلام والعرب) بأن الإسلام دين ونهج سياسي بسيط وعادل ويطابق مقتضيات العالم، وهو العدو اللدود للاستعمار والشيوعية، وهو يلاقي انتشارا واسعا وسريعا لتوافقه مع طبيعة البشر على اختلاف جنسياتهم ونزعاتهم ومشاربهم، وأنه يزاحم المسيحية بشكل لا نظير له في الانتشار في جميع أنحاء العالم سواء في آسيا وأفريقية أو أوربة والأمريكيتين...

١٨- وتقول الكاتبة الغربية فاليري بأن سهولة وصراحة فروض الإسلام هي سبب انتشاره، إذ تجد فيه الشعوب المتعبة بالشك في عقائدها وأخلاقها الحل الأمثل فينفذ إلى أرواحهم دون حاجة لطول شرح ولا دعاية...

١٩- وينصح الرئيس الكوبي فيدل كاسترو السفير الإسرائيلي في بلاده بأن على (إسرائيل) ألا تترك الحركة الفدائية تتخذ الطابع الإسلامي حتى لا تتفقد حركتهم بالحماس الديني مما يستحيل معه على (إسرائيل) أن تصون كيانها من الزوال، لأن الفداء إذا تملكته العقيدة الدينية لدى المسلمين تتلاشى أمامه كل العقائد الأخرى بما فيها الماركسية...

٢٠- ويقول جاك أوستروي في كتابه (الإسلام أمام التطور الاقتصادي) عام ١٩٦١م بأن الإسلام يتمتع بإمكانات هائلة إذا وجد الطريق الصحيح مفتوحة أمامه، ويستطيع حل الكثير من الصعوبات الاقتصادية، وأنه وحده الأقدر على ذلك من غيره من مذاهب الاقتصاد الماركسية والرأسمالية...

٢١- ويقول المستشرق الأمريكي سارتون بأن شعوب الشرق الأوسط قد قادت العالم في حقتين طويلتين: قبل أيام الإغريق ولمدة ألفي سنة، وفي العصور الوسطى ولمدة أربعة قرون على الأقل، وأنه ليس ثمة ما يمنع تلك الشعوب من قيادة العالم مرة أخرى في المستقبل القريب أو البعيد...

٢٢- ويقول علامة الاقتصاد الألماني جوزيف شاخت بأن الإسلام هو المظلة التي سيركن إليها الهاربون من زيف العصر المادي...

٢٣- ويقول المفكر ميكل أغناطيوس: ولاشك أن الإسلام سوف يكون نهاية المطاف لكل طالبي الحقيقة في هذا العالم...

٢٤- ويعتقد الباحث كليمان هيار بأن الإسلام قادم بكل الحب ليعتقه الأوروبيون فيصبحون دعاة حقيقيين له، وأنه سيأتي اليوم الذي يصبح فيه الإسلام هو المحرك الحقيقي بهذا العالم...

٢٥- ويقول إدوارد هنري بالمر بأنه أدرك الفرق الذي يحارب به الإسلام، وأنه الدين العظيم الذي سيأخذ مكانه الطبيعي في يوم ما، وأنه سيظل النور الساطع على البشرية، وأنه سيصبح دين العالم لما فيه من شمولية، وأنه أسمى نفسه (عبدالله) واعتنق الإسلام ليفخر بإسلامه بين الناس، وأنه يستغرب كيف لا يعرف الناس الإسلام بكتابه الإسلام ونبيه محمد خاتم الأنبياء!؟

٢٦- ويعتقد السير هاملتون جيب بأن ما يراه رأي العين والقلب والعقل هو أن الإسلام في طريقه ليحتل مكانته في هذا العالم، وأنه يرجو أن يحيى ليرى ذلك اليوم...

٢٧- ويقول فرانثيسكو كوديرا بأن الإسلام قادم رغم كل العقبات، ولكنه في حاجة إلى دعاة حقيقيين يقدمون أفكاره بالجد والنشاط اللازمين...

٢٨- ويقول الكاتب والشاعر الهندي طاغور بأن الإسلام دين عظيم، وقد استطاع أن يشد الناس إليه في كل مكان، ولذلك كثر أعداؤه، ولكنه لبساطته القوية سيظل رافعا لراياته... ويقول بأن محمد (عليه السلام) لم يكن صاحب شهوة أو نزوة، ولم يأت بالقرآن من عنده بل كان صاحب وفاء وإخلاص فلم ينكر قصص الأنبياء من قبله وإنما نقلها كما أملاها عليه الوحي لتظل شاهدا على صدقه وأمانته وإخلاصه...

٢٩- ورأى دنكان بلاك المحاضر الأول في قاعة المحاضرات الإسلامية في جامعة شيكاغو عند أول افتتاحها عام ١٩٠٦م بأن الشخصية المحمدية (أي شخصية الرسول محمد عليه وآله السلام) لا تزال بعد أربعة عشر قرنا مصدر المدد في تقوية المسلم، وأن الإسلام قد أوجد بين مختلف الأجناس التي اعتنقته أخوة عامة لا يوجد لها نظير في أتباع الكنيسة الواحدة...

٣٠- ورأى المؤرخ البريطاني الشهير آرنولد توينبي في محاضراته عن (العالم والغرب) عام ١٩٥٢م بأن المسلم يواجه الغرب اليوم كما واجه الإسرائيلي حضارة رومة واليونان قبل ألفي سنة، وهم يقتبسون من الحضارة الأوربية كما فعل هيرود في عصر السيد المسيح وإن كان منهم من يقاوم ذلك بشدة... وقال بأن النظام العسكري التركي بعد الإسلام قد فضل الأخذ بأخوة الدين من أجل حشد المسلمين أمام غزوات الشيوعيين... وأشاد بأهمية اللغة العربية التي تجمع البلاد من الغرب في مراكش إلى الشرق في مسقط...

٣١- وقال الأستاذ ناول في كتابه عن النيجر وأثر الإسلام فيها: إن الإسلام يطوي جميع العقائد والشعائر، ويلحق به الأتباع ولا يدعم شرائع متفرقين هنا وهناك، ويطلب الإيمان التام ولا يكتفي بعلامات الموافقة والمجاراة...

٣٢- وتساءل الدكتور واكسبا واكليري، أستاذ في جامعة نايل عن سر تقدم الإسلام في آسيا وأفريقية بصورة مستمرة بالرغم من عدم وجود حريات كثيرة مسموح بها، وعدم وجود نظام تعليمي للإسلام، ومشاهدة آثار ضعف الدين بين الناس، بل وحكمهم من قبل حكومات غير إسلامية لها أجهزة قمع قوية ضد الإسلام...

فقال: ما هي القوة المعجزة المودعة في هذا الدين؟! فإنا نجد الناس يقبلون على اعتناقه بحرارة وشوق رغم كل المحاولات المضطهدة للمسلمين!!

٣٣- ويقول المفكر إدوارد لين الذي اعتنق الإسلام بعد درس وتمحيص وتسمى باسم (الشيخ منصور) بأن الرسول عليه وآله السلام قد جاء بالأخلاق الفاضلة الباقية إلى يوم القيامة، ولن ينال المغرضون الكارهون لنبي الإسلام منه شيئاً، وسيظل الإسلام شامخاً بقرانه ونبيه رغم أنف الكارهين...

ويقول: لقد جاء الإسلام ليضيء للعالم الدرب إلى الحياة الأفضل، فالذي يقترب من الإسلام يقترب الإسلام منه، فيضفي عليه جلالاً ووقاراً، وكتابه رغم ما فيه من عبادة عظيمة إلا أنه يشتمل على كل العلوم...

٣٤- وقال عضو البرلمان البريطاني جورج بروك في جمعية المسلمين في بردفورد بأنه يستطيع أن يرد الاهتمام بالإسلام إلى أنه دين عالمي بطبيعته... وقال بأن الإسلام دين المحبة بين البشر... وقال بأنه يعتقد بأن الإسلام سيزداد دوره في شئون العالم جيلا بعد جيل...

إن هذا الحشد الكبير من العلماء والمفكرين الأوروبيين وغير الأوروبيين ليؤكد ويبشر بأن المستقبل للإسلام مهما طالت موجة الاضطهاد وفترة الظلام التي تلف العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه...

الفصل السابع - علماء ومفكرون غربيون يندرون بسقوط حضارتهم

١- آرنولد توينبي يؤكد في كتابه (الحضارة والغرب) بأن الحضارة الغربية تمر الآن في طور من الانحلال والتدهور، مما يجعل فنون الصناعة والاقتصاد لا تكفي هي وغيرها من العلوم لتوفير أسباب الاستقرار... ويقول بأن إنقاذ الحضارة الغربية لا يمكن إلا بالدين لما يشعر به الإنسان الغربي من خواء روحي إذ العيش المادي فقط يجعله كالقطيع الذي يركض بلا هدف، ويجعل المثقفين الواعين ينفصلون عنه...

٢- ويقول ألبرت شفايتزر بأن الحضارة الأوربية المعاصرة تعاني من أعراض التحلل والانهيار، وأن ذلك قد بدأ في منتصف القرن التاسع عشر، وأنه اشتد بشكل مذهل الآن لعدم وجود قيادة للحياة الروحية ونفسي الأزمات الأخلاقية...

ولذلك نلاحظ هذا النشاط العالمي من قبل بابا الفاتيكان على أمل أن يملأ هذا الفراغ الروحي الذي يجتاح الأجيال... وأنى له ذلك!؟

٣- ورأى الدكتور هنري المير بارتس أن سبب التأخر الحضاري الغربي هو اتساع الفجوة بين العلوم والفنون الديناميكية وبين أنظمتهم وتفكيرهم الاجتماعي... ويردد مع الجنرال برادلي بأن وسائل الحرب منافية تماما لقواعد الأخلاق وتدمر العلاقات الإنسانية... ويقول بأن محاولات الحضارة الغربية احتواء الأمم الأخرى وثقافتها لم تفلح... ويردد مع موريث ملز في كتابه (الصفوة الحاكمة) عما انتهت إليه أمريكا بعد أن خرجت منتصرة من الحرب ولكنها وقعت في قبضة حفنة من كبار رجال المال والعسكريين الذين تحالفوا لتكريس المجتمع الأمريكي لخدمة مصالحهم الخاصة حتى أصبحت حروب أمريكا كلها نتيجة لهذا التحالف...

وقد بات هذا ملحوظا من سيطرة ملوك المال على صناعة القرار الأمريكي سواء في مجال النفط أو مساندة الصهيونية ما دام لا يوجد هناك من يهدد ذلك...

٤- ويؤكد المفكر الفيلسوف ألدوس هكسلي أن العالم يسير نحو الهاوية ما دام سيطر عليه فكر إنساني مشحون بالمفاهيم الخاطئة وحضارة جعلت من الوطنية أو الشعب أو الجماهير أو العقل أو العلم أو الإنسان أو غيرها من هذا الوجود المادي أصناما تعبد من دون الله...

لا ندري ما الذي يقصده بعبادة كل تلك الأصنام من دون الله وهو لم يشر للإسلام بكلمة!!

٥- ويتحدث شبنجلر عن تدهور الحضارة الغربية فيرى بأنها شاخت وحن موتها، وأن الانحلال الخلقي الذي تعاني منه سيكون العامل المؤثر في هدمها، وأن عجزتها بما توصل إليه إنسانها الغربي من علوم واكتشافات قد أنساها الصانع الأكبر لهذا الكون فانطلقت تلهث وراء المادة وامتعتها ليأتي اليوم القريب لاندحارها كما اندحرت حضارات اليونان والرومان والفراعنة من قديم...

فهذا المؤلف يعزو تدهور الحضارة الغربية لفقدانها الناحية الروحية...؟!

٦- ويتحدث ماكس نورد في كتابه (الانحطاط) الذي صدر عام ١٨٩٢م ما يؤكد في كتابه الآخر (أكاذيب المدنية المعاصرة) ويقصد الحضارة الغربية فيقول: إن أوربة قد أصيبت في العصور الأخيرة بالانحطاط الذي عرف بأنه مرض نفسي يصيب الجهاز العصبي فيؤثر على تفكير وسلوك الفرد والجماعة فيصبح المصابون به عاجزين عن القيام السليم بوظائفهم الاجتماعية في جميع مجالات الحياة، فتراهم ما أسرع ما يلبن شهواتهم الآثمة ويرتكبون أية جريمة بغض النظر عما لديهم من ذكاء أو عبقرية... ثم يحدد سببين للانحطاط الذي تعيشه الحضارة الغربية بالشهوات وسيطرتها وبالحراب وما تحدثه من فقدان التوازن للأفراد والجماعات...

لاشك أن هذين السببين موفوران في الحضارة الغربية وأنه لا وجود لهما في الحضارة الإسلامية حيث الشهوات مقيدة بالحلال والحرام والحراب بمرضاته تعالى...

٧- ويؤكد الأستاذ تيرم سوركن، رئيس دائرة علم الاجتماع بجامعة هارفرد، بأن الغرب يعيش أزمة حضارية، ويبين في كتابه (أزمة عصرنا) بأن الثقافة الغربية تعيش أزمة حادة غير مألوفة، وأنها مريضة الجسم والروح، وأنها في فترة انتقال من ثقافة الجسد التي يسيطر عليها الظلام إلى ثقافة الروح...

وهو لم يذكر ثقافة الروح بالنص ولكنه فهم ذلك من قوله، فأى روح يعني؟!

٨- ويتحدث شارل رنسيه في كتابه (ما هي الحضارة) عن الحضارة الغربية وسيطرة المادة عليها، وفقدانها كل روح وخلق ومثل، وسيطرة الشر والجريمة والفساد السياسي عليها، وانتشار الانتهازية فيها.. إنها لن تكون حضارة صحيحة حتى تجمع بين المادة والروح، بين العلم والأخلاق، بين الجسد والعقل والقلب...

ولكن أين هذه الحضارة في غير الإسلام؟!

٩- ويقول الدكتور فوزون في كتابه (محك الأخلاق) بأن منشأ فساد هذا الجيل هو الحرية التي أعطيت له، فانطلق يترنح بالسكر لتتحني بنيته الطرية... ولن ينقذه إلا رقابة دقيقة وتوجيه لطيف يتولاهما الأب والأم معا وليس الخدم الذين لا ينشئون إلا الأجيال الذليلة المستهتره...

إنها نظرة تلتقي مع الإسلام تماماً، ولا سيما إذا أضفنا رعاية الدولة لرعاية الوالدين، فهل من متدبر؟!

١٠- وقال جود أستاذ الفلسفة الإنجليزي في كتابه (سخافات المدنية الحديثة) بأن الحضارة الغربية قد سيطرت عليها الأخلاق المنحطة، فالعلم والمادة تقدما تقدماً كبيراً والأخلاق تأخرت تأخراً كبيراً، ولا بد للجمع بينهما من إحياء القيم الروحية الدينية في النفوس والكف عن توجيه الأجيال لعبادة الدولة أو عبادة الزعيم...

ما أروع هذه النصيحة لو تنبه إليها دعاة التغريب في عالمنا الإسلامي!!

١١- ويؤكد هارولد لاسكي أن أزمة الحضارة الغربية اليوم تتمثل في هذا الشك السافر الذي حل محل اليقين، فعصفت الاتجاهات الحديثة في الفن والموسيقا والأدب بكل قيم التراث الروحي، وحاولت هذه المذاهب الشاملة الوضعية أن تحل محل الدين ولكنها فشلت، فلا القومية ولا الديمقراطية ولا الفاشية ولا الماركسية استطاعت ذلك، ولا بد من العودة إلى الدين...

ولكن أي دين؟ وهل للإسلام من بديل أمام مفكري الغرب وعلمائهم؟!

١٢- ويتكلم الكاتب والمفكر السويدي جان ميردال بصراحة في كتابه (أوروبا ودورها في شقاء العالم) فيؤكد بأن الاستعمار الأوربي حقق نهب ثروات المستعمرات وتركها في فقر شديد وتأخر اشد بحجة أنها شعوب ملونة ولا تستحق الحرية، وبأكذوبة أن الغرب يقوم بترقيتها بالتدريج وهو في الحقيقة يقدم لها فتات موانده وإنتاجه الاستهلاكي ويمنع عنها العلوم والتكنولوجية المعينة على رقيها...

لقد أصاب هذا (الجان) في وصف الاستعمار ولكنه أخطأ بأن الرقي في المادة .

١٣- وتقول الكاتبة الأمريكية بربارا توشمان بأن الإنسان الغربي المعاصر قد فقد عقيدة التوحيد التي تكبح عواطفه وغرائزه وتوجهه للإحساس بالمسئولية... ففسدت الضمانر وتعاضمت الأنانية وتاهت الأفكار...

كلام سليم ولكن أين هي عقيدة التوحيد الضابطة الموجهة في غير الإسلام؟!

١٤- ويتحدث مستشار الأمن القومي الأمريكي الأسبق بريجنسكي عن أزمة الديمقراطية الغربية وفي طليعتها أمريكا كما يقول فيشير إلى أن فقدان الإشباع الروحي أفقد أمريكا تماسكها، وأن استباحة كل شيء يجعل العالم خارج السيطرة، وأن القول بأن كل شيء مباح يتنافى مع سيادة النظام والقانون، ويجعل الفرد لا يهتم إلا بالركض وراء تحقيق مصالحه الشخصية دون أية اعتبار لمصالح المجتمع، وأنه لا بد من الاستناد إلى الدين والقيم الأخلاقية...

فأي دين تريد البشرية أن تستند إليه يا بريجنسكي وأنت كنت بالأمس تخطط مع رئيسك كارتر للتأمر على الإسلام والمسلمين؟! ألا قاتل الله الحقد الصليبي الذي يعمي عن الحق!!

١٥- ويقول الكاتب الأمريكي جون جنتر في كتابه (داخل أوروبا) بصراحة بأن أوروبا تعبد المادة وتعبد شهواتها ستة أيام في الأسبوع وتذهب للكنيسة لساعة أو بضع ساعة في اليوم السابع... فحضارة الغرب في روحها وكيانها كله المادة وقيم المادة وليس لله فيها نصيب...

وكيف يكون لله تعالى نصيب يا جون: أهو بالمزيد من التردد على الكنيسة لأن ساعة أو بضعها لا تكفي؟! تأكد يا جون بأن الإسلام هو وحده الذي يمزج المادة بالروح في كل شيء وهو وحده الحل المنقذ للبشرية كلها...

١٦- وتحدث الأمير شارلز ولي عهد بريطانيا في اجتماع خاص بوزارة الخارجية البريطانية فقال بأن المادية العصرية غير متوازنة وأنها مدمرة جدا على المدى البعيد، وأن العلم الذي فرض طغيانه على الغرب بدأت تظهر نتائجها الكارثية...

لقد ظهرت هذه النتائج المأساوية لطغيان العلوم المادية منذ أمد بعيد يا شارلز، ولكنك إذ تشير إلى ضرورة اللجوء إلى الدين والروحانية، وقد عرف عنك إعجابك بالإسلام كدين وتراث، فإنك تتجاهل الحق!!

١٧- ويشير الكاتب الروماني كونستانتان فيرجل جيورجو في كتابه (الساعة الخامسة والعشرون) إلى سقوط الإنسان الغربي تحت عبودية الآلة وفقدانه لذاته الإنسانية أمامها، وأنه لن يجد النجاة إلا في رجل الشرق (ويقصد المسلم والدين الإسلامي ولكنه يتجنب التصريح بذلك)... ذلك الرجل الذي لن يضيء بنور النيون خطوط الفكر والقلب، لأنه سيخلص الغرب من فساد المدنية الحديثة التي أذابت المجتمع تحت مكابس الآلة وباتت تدفعه إلى الهاوية...

إنها كلمات حق صائبة، ولكن لم التلميح دون التصريح؟! إن الأخذ بيد مجتمعك يحتاج إلى الجرأة في الحق وإلا استمر في الضياع حتى النهاية...

١٨- ويتحدث الكاتبان هنري مادلان، المدرس في معهد الدراسات السياسية في باريس، وسيلفي دسك، المدرسة في مركز الدراسات السياسية الدولية، وذلك في كتابهما (الردة الدينية في أوروبا وأفاقها المستقبلية) عن هذه الردة أو التراجع لسلطة الكنيسة في الغرب فيذكران بأن ١٠% فقط من ال ٨٠% الكاثوليك في فرنسا هم الذين يمارسون الشعائر الدينية و ٥٢% لا يمارسون أية طقوس، و ١٤% لا يعترفون بأي دين، و ١٦% فقط يرون أن للكنيسة دورا هاما في المجتمع أمام ٧٩% يرون أن دورها ضئيل. أما في إسبانية ف ٩٤% يعلنون ظاهريا انتسابهم للكاثوليكية وهم في الحقيقة لا يتجاوزون ٢٤%. وأما في إيطاليا ف ٥٢% من الشعب لا يمارسون الطقوس الدينية، وكذلك في بريطانيا وبلجيكا وهولندا وألمانيا.

والجدير بالذكر أن ما تفقده الكنيسة يكسبه الاقتصاد وهو الهم الشاغل للفرد اليوم، ولكن في ألمانيا تختلف الأمور إذ قد لعبت الكنيسة دورا هاما في إعادة إعمارها

بعد الحرب العالمية الثانية مما جعلها رديفة الدولة وشريكها في الشأن العام، فهناك ٢٥ ألف مؤسسة اجتماعية من مدارس ومشاف وغيرها تديرها الكنيسة الكاثوليكية ويعمل فيها ٤٠٠ ألف مواطن مقابل ٢٧ ألف مؤسسة و ٣٠٠ ألف مواطن برعاية الكنيسة البروتستنتية، وتقويض الكنيستان ٨-٩% من ضريبة الدخل العام من المواطنين الذين يعلنون ولاءهم للكنيسة. وكان الاضطراب ظاهرا في الكنيسة الشرقية بسبب الحكم الشيوعي ولكن بعد انهياره أعلن ٧٢% عن عدم انتمائهم للكنيسة ولا لأي دين، وأكثر من ذلك فإن الخروج عن الكنيسة في تصاعد مستمر، فقد ترك ١٠٠ ألف الكنيسة البروتستنتية عام ١٩٩١م و ٢٠٠ ألف من الكاثوليك، وقد أصبحت نسبة ولاء الألمان الغربيين لا تتجاوز ٨٠% بينما كانوا ٩٤% عام ١٩٦٧م، وأما الألمان الشرقيون فالأغلبية الساحقة لادينية.

فترجع سلطة الكنيسة في أوربة وتأثيرها على المجتمعات الأوروبية آخذ في التزايد، كما تبرز الردة الدينية في دول الاتحاد السوفيتي السابق مما يشكل مشكلة خطيرة تستدعي إيجاد حلول مناسبة لها.

فأي حلول مناسبة يريد الكاتبان لهذا التراجع أو التخلي عن الدين النصراني لصالح اللادين أو العلمانية؟! إن حقدهم الصليبي وحده هو الذي يمنعهم من التوجه إلى الإسلام بالرغم من أن بلدا كالمانيّة يعيش فيه جالية إسلامية تركية كبيرة بالإضافة لغير الأتراك من العرب وغيرهم من المسلمين، ولكنهم لا يجدون هذه الاستجابة من الشعب الألماني للإقبال على الإسلام بدلا من العلمانية أو اللادين. أما الدول والمجتمعات الأخرى الأوروبية فمن المحدود أن تجد العقول المتفتحة والمتخلصة من آثار الروح الصليبية الحاقدة ضد الإسلام والمسلمين والمتوارثة بين الأجيال الأوروبية ولا سيما أنها ما زالت تعيش أزمة البلقان والمسلمين المنتشرين في تلك البلدان، ناهيك عن أزمة كوزوفة والمسلمين الألبان هناك في مقدونية وغيرها... وأما الشيشان فحدث عن مأساتها مع روسية ولا حرج... ولكن الإسلام والإسلام وحده هو مستقبل أوروبا بعون الله تعالى... فليخسأ الحاقدون مهما مكروا!!

الفصل الثامن - تصريحات كبار الغربيين تنذر بخطر الإسلام عليهم

١- اعتراف توفلر بشعور أوربة بالقلق والخوف من الإسلام: فقد أعرب عن قلق أوربة لما أسماه من الضغوط الإسلامية على جناحها الجنوبي، وبالطبع فإنهم يقصدون دول حوض البحر المتوسط من غربه إلى شرقه بما فيها تركية. ويقول بأن ذلك القلق قد امتد إلى الغرب كله فنظمت الدورات والندوات والمؤتمرات بتمويل مراكز بحثية في الغرب لدراسة ما أسموه بالإسلام النشط، وظهر مجلد هام بعنوان (أطلس الإسلام النشط) بعدة لغات يشتمل على تفاصيل دقيقة للخبرات وأهلها من المسلمين بما فيهم الجماعات الإسلامية وقادتها، كما قرر المؤتمر السنوي للجنة الأمريكية الإسرائيلية للشئون العامة (أيباك) الذي عقد في واشنطن في أوائل نيسان ١٩٩٢م

سنة أهداف خلال ذلك العام منها استبدال الخطر الشيوعي السابق بما أسموه بخطر التطرف الإسلامي، وإعطاء (إسرائيل) أهمية استراتيجية زائدة وتزداد في المستقبل بالنسبة للولايات المتحدة والغرب..

وهذا مما يظهر جليا في التواطؤ المكشوف والدعم الضخم من أمريكا (إسرائيل)... فهل يدرك العرب والمسلمون وهم يتهافتون على الصلح مع دولة إخوة القردة والخنازير ويعتبرون أمريكا الراعي الأول والأخير في ذلك؟!

٢- لهذا يخافون من الإسلام ويشوهون أحكامه: يرى يوجين روستو مستشار الرئيس الأمريكي الأسبق جونسون بأن الخلافات بين الغرب والشعوب العربية (!) هي خلافات بين الحضارة المسيحية والحضارة الإسلامية، وقد استمرت هذه الخلافات حتى سيطرت الحضارة الغربية منذ قرن ونصف، وأمريكا جزء من الغرب مما يجعلها معادية للعالم الإسلامي بفلسفته وعقيدته المتمثلة بالدين الإسلامي...

فالغرب لا يريد لها صراعا فكريا لأنه يعرف هزيمته المحتممة أمام الحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية والفكر الإسلامي، ولذلك فإنه يسعى بكل طرق الفناء والإبادة للمسلمين حيثما استطاع، ولكنه نظرا لخطورة ذلك على مصالحه وهو المسيطر على البلاد فقد استبدل الصراع العسكري الذي يكلفه الكثير والذي جرب فشله منذ الحروب الصليبية بالصراع الفكري وذلك كما قال المستشرق هانوتو بتشويه الدين الإسلامي وإبراز المذهبية وخلافاتها وتناقض الشعوب والقوميات والجغرافية بين أقطاره وتمجيد القيم الغربية ونظم الغرب السياسية وسلوك الفرد الأوربي من خلال تجنيد المبشرين لمحاربة الإسلام وتشويه أفكاره وأحكامه، ومن خلال إنشاء قاعدة للغرب في العالم الإسلامي...

وهكذا أنشأوا أولا لبنان كرأس جسر تبشيري تشويهي، ثم أنشأوا (إسرائيل) كقاعدة عسكرية ضخمة تهدد المسلمين كلهم...

٣- حتى لا تستيقظ الروح الإسلامية من جديد: فقد هاجمت صحيفة (يديعوت أخرونوت) الإسرائيلية وسائل الإعلام الإسرائيلية التي أبرزت وكشفت أسرار التحالف الصهيوني الماروني بصورة مثيرة أثناء الهجوم الإسرائيلي على جنوب لبنان، وقالت بأن ذلك سبب ردة فعل عنيفة بين المسلمين ولبنان والبلدان العربية مما حرك الروح الإسلامية ولو بشكل محدود، وهذا ما ظلت (إسرائيل) وأصدقائها يحاولون كبته والقضاء عليه طيلة الثلاثين عاما الماضية. وأشارت الصحيفة إلى ما لفت نظر العديد من المرسلين الغربيين أثناء تجولهم بين الفلسطينيين من انتشار الشعارات الإسلامية بكثرة على الجدران ووسائل النقل الخاصة بالفلسطينيين وانتشار الصلاة بين المقاتلين منهم... وشددت الصحيفة على وسائل الإعلام الإسرائيلية بأن لا تنسى هذا الجزء من إستراتيجية (إسرائيل) في حربها مع العرب والتي نجحت فيها سنوات طويلة بمساعدة أصدقائها بالطبع من الداخل والخارج ألا وهي إبعاد الإسلام عن المعركة معهم، وأن

ذلك يجب أن تستخدم فيه جميع الأساليب والوسائل ويستعان فيه بكل الأصدقاء ولو باستخدام العنف لإخماد أي بادرة توقظ الروح الإسلامية... وإلا ستضطر (إسرائيل) للدخول في معركة حقيقية مع المسلمين المتعصبين الذين يعتقدون أن أحدهم يدخل الجنة إذا قتل يهوديا أو قتلته يهودي...

إنهم يدركون تماما موضع الخطر ضدهم، إنه يقظة الإسلام في النفوس ومحاربتهم كمسلمين لا كعرب أو فلسطينيين أو لبنانيين أو أي جنسية أخرى، فنحرص على إثارة هذه اليقظة وإشغالها، ولتخرس وسائل إعلامنا المضللة التي تحاول إخمادها باسم الوطنية أو القومية فهي جزء من أصدقاء (إسرائيل) بحسن نية أو بسوء نية.

٤- محاضرتان لبرنارد لويس وهانتنتون حول خطر الإسلام: فقد ألقى برنارد لويس محاضرة بعنوان (جذور سعار المسلمين) في معهد جفرسون في سبتمبر عام ١٩٩٠م ركز فيها على أن العلاقة بين العالم الإسلامي والغرب كانت دوما علاقة تصادم خلال الأربعة عشر قرنا الماضية، فكان الإسلام في الألف سنة الأولى متقدما والمسيحية في تراجع حتى في صقلية وإسبانية والبرتغال وجنوب فرنسا وليس فقط في بلاد الشام وشمال أفريقية، ثم انعكست الصورة في القرون الأربعة الأخيرة فتخلصت أوربة من التهديد الإسلامي وشاركت أمريكا في الصراع أخيرا لما ترمز إليه من حضارة غربية... وأكد المحاضر على وجوب رصد خطر العالم الإسلامي وأخذ الحيطة منه دائما لأن العلاقة ستبقى معه علاقة تصادم حضارتين...

وتلقف هذا الاصطلاح أستاذ جامعي آخر من نفس الاتجاه هو هانتنتون، وألقى محاضرة في ١٨-١٠-١٩٩٢م بعنوان (صدام الحضارات) وكانت نواة لمقاله الشهير في مجلة (فورين أفيرز) الذي نشرته في صيف عام ١٩٩٣م، وتوسع بعدها ليصبح كتابا يحمل عنوان (صدام الحضارات وصياغة العالم الجديد) اعتبره هنري كيسنجر، الصديق العزيز لأنور السادات والمؤمن بنفس الاتجاه بأنه أهم كتاب صدر بعد الحرب الباردة...

فهل يدرك المسلمون كيف يفكر الغربيون ومفكروهم وساستهم، فلا يذفنون رؤوسهم في الرمال!؟

٥- من حملاتهم ضد الإسلام: إنهم يخوضون حربا صليبية صهيونية ضد الإسلام حيثما وجد لأنهم يرون أن الأصولية الإسلامية هي الخطر البديل للشيوعية، مما يفرض اليقظة والتحرك الدائم لمواجهة المسلمين.. ومن هذا التيار أموسي بيرلموتر، أستاذ العلوم السياسية وعلم الاجتماع في الجامعة الأمريكية بواشنطن ورئيس تحرير مجلة الدراسات الاستراتيجية، والذي كتب مقالا في صحيفة واشنطن بوست وصف فيه ما أسماه بالتطرف الإسلامي بأنه يمثل أكبر قوة لعدم الاستقرار بعد الحرب الباردة، ورأى أن انتصار الإسلام في أفغانستان يزعزع الأمن في الجمهوريات المسلمة في آسيا الوسطى...

وتحدث مايكل سابا، أستاذ العلاقات الدولية ومن أصل عربي، عن الحملات التحريضية التي تقوم بها وسائل الإعلام الأمريكية ضد الإسلام، وأورد عدة نماذج منها مقالة رئيسة في صحيفة شيكاغو تريبيون بعنوان (الإسلام يملأ الفراغ مع انحسار الشيوعية)، ومنها ذلك المؤتمر الذي عقد في نيويورك للمتبرعين الأمريكيين اليهود لإسرائيل، وتحدث فيه السفير الإسرائيلي في واشنطن زلمان شوفال عن الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى، وتساءل بخبث: أليس هناك خطر في أن تتحول تلك الجمهوريات إلى دول أصولية معادية للغرب وتشكل خطرا على الشرق الأوسط يفوق ما كان يمثلته الاتحاد السوفيتي من خطر؟

ومن تلك الحملات المعادية للإسلام ما دار في المؤتمر الذي عقده في واشنطن أواخر نيسان عام ١٩٩٢م مؤسسة واشنطن لدراسات السياسة الأمريكية تجاه الشرق الأدنى تحت عنوان: الإسلام والتحديات التي يطرحها في وجه الولايات المتحدة، وفيه صنفوا الإسلام عدوا للديمقراطية والأمريكية...

والمشهور عن مكنمارا وزير الدفاع الأمريكي السابق أنه أجاب على سؤال: هل بقي خطر بعد زوال الشيوعية؟ بالجواب التالي: نعم، إنه الإسلام. كما أن الرئيس الأمريكي السابق نيكسون قال: إنتهينا من الشيوعية ولم يبق لنا عدو إلا الإسلام.

والكاتب مورد بيرج يقول في كتابه (العالم العربي المعاصر) بأن خوفهم من العرب ليس بسبب النفط بل بسبب الإسلام، فيجب محاربتة لمنع وحدتهم، ويقول: إن الإسلام يفزعنا عندما نراه ينتشر بيسر في القارة الأمريكية...

وألقى أحد كبار المستشرقين محاضرة في مدريد بعنوان (لماذا نحاول البقاء في الجزائر) وأوضح السبب بالتفصيل بأنه ليس من أجل النبيذ الجزائري أو زيتونها... وإنما من أجل الوقوف في وجه زحف إسلامي محتمل يقوم به الجزائريون وإخوانهم المسلمون عبر المتوسط ليستعيدوا الأندلس التي فقدوها ويدخلوا في قلب فرنسا في معركة بواتيه جديدة ينتصرون فيها ويكتسحون أوربة الواهية ويكملون ما عزموا عليه منذ العهد الأموي بتحويل المتوسط إلى بحيرة إسلامية خالصة...

وقال المبشر لورنس براون بأن الخطر الحقيقي يكمن في نظام الإسلام، وفي قدرته على التوسع، وفي حيويته... إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبي...

ما أصرح هؤلاء الصليبيون والصهيونيون في حملتهم ضد الإسلام، فإلى متى تستمر غفلتنا ولا نعمل يدا واحدة وقلبا واحدا وعقلا إسلاميا واحدا لإعلاء كلمة الإسلام وجعلهم يرون أنه لا يسعى لذلهم ولا تحقيرهم وإنما لإتقاذهم من عفن وظلم العقائد والأديان والنظم التي يعيشون عليها ويقاسون منها...

٦- تصريحات:

(١) رئيس الأركان العامة الروسية ميخائيل كوليسنكوف يصرح أثناء لقائه بوزير

الدفاع البلغاري الكسندروف في صوفية: إن عملية تغيير بنية البلقان لن تنته، وأن الخطر الأكبر هو الأصولية الإسلامية.

(٢) زعيم حزب الرابطة الشمالية الإيطالية أوميرتو بوستي يقول بأنه يرى خطراً كبيراً في انتشار الإسلام في كل أرجاء أفريقية، وأنه يعتبر الغرب الجانب المتحضر من العالم والإسلام الجانب الهمجي منه.

(٣) وزير الداخلية الفرنسي شارل باسكوا يقول بأن بلاده تشهد نمو خطر الإرهاب وأنها كبد علماني لن يقبل استغلال حسن ضيافته للقيام بأعمال ضد القوانين الفرنسية ومبادئ الديمقراطية.

(٤) روبرت ساتلوف، نائب مدير معهد واشنطن للشرق الأدنى، يقول في ندوة للمعهد عام ١٩٩٢ بأن فوز الحركات الإسلامية في الشرق الأوسط يفرض مواجهة الأصولية الإسلامية بكل جدية.

(٥) صحيفة فورتشن تتحدث عن الصحوة الإسلامية في العالم وموقف أمريكا تجاهها بالعمل على قلع الفئات الدينية المتطرفة من الجذور، وأن أفضل طريقة لذلك هو التكيف مع تصاعد نجم الإسلام مما يخفف المشاعر المعادية للأمريكيين ويمكن الدبلوماسية الأمريكية من ضرب الدين الإسلامي قبل أن يطيح بأمريكا.

فهذه التصريحات الحاقدة وأمثالها كثير، يجب أن تثير الوعي لدى المسلمين وتستحث خطاهم لتخليص البشرية من أمثال هذه الانحرافات في التفكير والعمل...

(٦) غلادستون، رئيس وزراء بريطانيا الأسبق يقول: ما دام هذا القرآن موجوداً في أيدي المسلمين فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق.

(٧) الحاكم الفرنسي في الجزائر يقول في ذكرى مرور مائة سنة على استعمارهم الجزائر: إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرؤون القرآن ويتكلمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم ونقتلع اللسان العربي منهم.

(٨) أحد المبشرين يقول: إن القوة المنبوعة في الإسلام هي التي وقفت سداً في وجه انتشار المسيحية، وهي التي أخضعت البلاد التي كانت خاضعة للنصرانية.

(٩) أشعيا بومان يقول: لم يتفق أن شعباً مسيحياً دخل في الإسلام ثم عاد نصرانياً.

(١٠) لورنس براون يقول بأنه قد ثبت أن الخطر الياباني، والبلشفي، واليهودي ليست بأخطار بل إن أصحابها حلفاء وإنما الخطر الحقيقي موجود في الإسلام وفي قدرته على التوسع والإخضاع وفي حيويته المدهشة.

(١١) المستشرق غاردنر يقول: إن القوة الإسلامية هي التي تخيف أوروبا.

فهل من عداء للإسلام أكثر من هذا؟! وهل تبعد المذابح في الجزائر عن هذه؟!!

(١٢) ريتشارد تشيني: صرح وزير الدفاع الأمريكي في عهد جورج بوش الأب ونائب الرئيس في عهد جورج بوش الابن بأن أمريكا قد أصبحت بدون عدو رسمي

ولكن العدو الخفي هو الإسلام، وأن الغرب يرى أن الخطر القادم بعد انتهاء الحرب الباردة هو الخطر الآتي من تنامي قوى الإسلام وتوحد صفوف الأقليات الإسلامية في كثير من بلدان العالم والتي تعتبر كالسرطان الذي يستشري بسرعة رهيبية والتي لا يجوز النظر إليها كجماعات متخلفة كما قال الرئيس نيكسون بل يجب محاربتها بطريقة تميز بين المتشدد منها والمعتدل.

وبالمناسبة يمكن إيراد مثل على هذا الحقد الصليبي مما وقع مؤخراً في بريطانيا عندما وضعوا في الأسواق أحذية تحمل شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله باللغة العربية، ورفضوا سحبها من الأسواق، مما يشكل إهانة للمسلمين أشد من فعلة المرتد سليمان رشدي في كتابه (آيات شيطانية)...

ويمكن ذكر مثل آخر من الرئيس الروسي السابق بوريس يلتسين عندما دعا إلى وحدة الأرثوذكس في دول البلقان وروسية لدعم الصرب في البوسنة واستتصال شافة المسلمين...

فهذا مما يجزم أن الحقد الصليبي لا تفرقه مذاهب الكاثوليك والأرثوذكس...

(١٣) أرنولد توينبي ومسئول في الخارجية الفرنسية: إن أرنولد توينبي، هذا المؤرخ البريطاني الذي خدع الكثير من العرب والمسلمين بتصريحاته الماكرة يقول بملء فمه: إن الوحدة الإسلامية نائمة ولكن يجب أن نضع في حسابنا أن النائم قد يستيقظ... ويقول بأن العالم الإسلامي عملاق مقيد لم يكتشف نفسه حتى الآن اكتشافاً تاماً، فهو حائر وقلق وكاره لانحطاطه وتخلفه، وراغب في مستقبل أحسن وحرية أوفر، فلندفعهم لعدم الإنتاج الصناعي والفني حتى لا ينهضوا، وإذا عجزنا عن ذلك وتحرر العملاق من قيوده فقد دهمنا الخطر، خطر العالم العربي وما وراءه من طاقات إسلامية ضخمة تنتهي الغرب حضارة وقيادة...

تأكد يا توينبي أن العالم الإسلامي قد اكتشف نفسه تماماً ولكن نفرأ من حكمائه الضالعين مع الغرب هم الذين يصرون على منعه من النهضة الإسلامية الحقة... وهذا بعون الله لن يطول...

ويقول المسئول في وزارة الخارجية الفرنسية عام ١٩٥٢ بأن الشيوعية ليست الخطر الذي يهدد أوروبا وإنما الإسلام بحضارته وثقافته القادرتين على إذابة ما لدى الغرب، الغرب الذي يجب أن يمنع المسلمين من الرقي الصناعي حتى لا ينطلقوا بحضارتهم في الأرض فيلقوا بحضارة الغرب في متحف التاريخ...

ويؤكد أن الفرنسيين قد حاولوا خلال استعمارهم الطويل للجزائر أن يتغلبوا على شخصية الشعب المسلم ولكنهم فشلوا...

إنها فرنسة المتميزة عن الاستعمار الغربي بالاهتمام الشديد بالجانب الثقافي والحضاري، وقد عانت الكثير في هذا المجال في مستعمراتها ومازالت تلاحقها بما يسمى بشعوب الفرانكفونية بقياداتها، كما لا تزال تدعم البطش

بالمسلمين في الجزائر وغيرها حتى تحول بينهم وبين الحكم بالإسلام... فيا
للحقد الصليبي!!

(١٤) ديفيد بن غوريون: أول رئيس وزراء إسرائيلي يقول بملء شذقيه: إننا لا نخشى
القوميات والاشتراكيات والديمقراطيات في المنطقة، ولكن ما نخشاه هو
الإسلام، ذلك المارد الذي نام طويلاً ثم أخذ يستيقظ من جديد...

إنه يا مسلمون لا يخشى من القومية ولا الاشتراكية ولا الديمقراطية
لأنه يعرف مردود كل منها على نفوس أهل المنطقة المسلمين وحياتهم لأنها
تدفعهم كما حصل من ضياع إلى ضياع، ولكنه يخاف فقط من المارد الإسلامي
بعد أن أخذ يصحو من سباته من جديد، فإنه وحده الكفيل باقتلاع هذا الكيان
الصهيوني الدخيل مهما اشتد عوده...

(١٥) أنتوني كروسمان: مراسل ABC الأمريكية في الشرق الأوسط أجرى الكثير من
المقابلات في العامين الماضيين في وسائل الإعلام المرئية والمقروءة، وكان
مما قاله بأنه لا يعلم إن كان لدى (إسرائيل) قنبلة نووية ولكن إن كان لديها فهي
بحاجة إليها لحماية النفس وحماية الغرب من القنبلتين النوويتين لدى العرب
والمسلمين وهما: الكثرة السكانية والإسلام الأصولي...

وقال بأن ما يحتاج إليه الأمريكيون والأوروبيون للإبقاء على حضارتهم
وإنسانيتهم ليس الاتفاق بين العرب و(إسرائيل) الذي قد يصمد وقد لا يصمد ولكن
إلى أمن (إسرائيل) وقوتها في وجه الإرهاب الإسلامي الذي يتهددهم جميعاً.

يا الله!! إنه التواطؤ الصليبي الصهيوني ضد الإسلام والمسلمين.. دعهم
يستخدمون حكام المسلمين في حمايتهم وأمنهم ولكن أي حماية ستصمد أمام
كلمة الإسلام عندما تنطلق مع الشوق بالاستشهاد!؟

(١٦) م.ك. إكسفلتر: تحدث في مقال نشره في المجلة السويسرية عن المؤتمر
الاستعماري الألماني بأن ارتقاء الإسلام يهدد نمو مستعمراتهم بخطر عظيم مما
جعل المؤتمر ينصح الحكومة بزيادة الإشراف والرقابة على أدوار هذه الحركة
الإسلامية ونشاطاتها وتيسير العمل لنشر النصرانية مع الحياد في الشؤون
الدينية ولكن دون فتح المجال للنشاط الإسلامي...

وقال بأن رأي المؤتمر أن الخطر الإسلامي يستدعي ضرورة انتباه المسيحية
الألمانية لاتخاذ التدابير الفورية في كل الأرجاء التي لم يصل إليها الإسلام بعد.

وكان الاستعمار الألماني المحدود الخبرة مع الشعوب الأخرى بالنسبة
لبريطانية وفرنسة يريد أن يضع العراقيل في طريق التوسع الإسلامي وانتشار
الدين الإسلامي وفي نفس الوقت يفسح المجال واسعاً أمام التبشير المسيحي
باسم الطب والتعليم...

إنها نفس الأساليب التي يستخدمها المبشرون باستغلال الفقر والمرض والجهل في الشعوب المستعمرة لتنصير أبنائها...

(١٧) الأستاذ باكر: وقد نشرت مجلة العالم الإسلامي الإنجليزية خطاب الأستاذ باكر الذي ألقاه في المؤتمر الاستعماري الألماني المذكور أعلاه، وكان مما ورد فيه أن المبشرين هم الذين ابدوا أشد الاهتمام بأمر الإسلام والبحث في شؤونه في المستعمرات الألمانية...

وقال بأنه لا بد أن تتولى الحكومة الألمانية موضوع الإسلام في المستعمرات فضع لذلك الخطة المناسبة مستعينة بالقوى الوطنية في البلاد لا بالجماعات الدينية لكي تحقق قصدها بالبقاء في البلاد من خلال دعم الوطنيين فيها، وعندها تستطيع أن تظمن أن الإسلام بالرغم من عدائه للنصرانية إلا أنه لن يقف في طريق ترقية وتقدم المستعمرات في الطريق المدني...

لم يجد المؤتمر الاستعماري بدأ من توجيه الحكومة الألمانية للتدخل في الوقوف ضد انتشار الإسلام في المستعمرات الألمانية لأنهم يعلمون تماماً أن المبشرين والنشاط التبشيري لا يستطيع أن يصد حركة توسع انتشار الإسلام...

ولكن لماذا يخشون من ذلك ويستعينون بالوطنيين أو العلمانيين من أهالي البلاد للوقوف معهم ضد الإسلام؟ إنها مأساة الإسلام في جميع بلدانه مع أهله قبل عدوه...

(١٨) كتاب: الغارة على العالم الإسلامي: مما ورد في هذا الكتاب بأنه على أثر مؤتمر القاهرة حصل الانقلاب الفارسي والانقلاب العثماني وانتهت مصر إلى واقعها واهتم المسلمون بمد سكة الحديد الحجازية وظهرت مجالس إدارية وشورية في الهند وكان للمسلمين امتيازات فيها إذ دخلت الأمور الإسلامية بشكل ملائم للعصر وازداد التمسك بالإسلام وأخذ المسلمون في الصين يحاولون إحياء دينهم وفي أفريقية والهند الغربية والجزر الجنوبية أخذ ينتشر الإسلام...

إنها النظرة الشاملة لاستعمار العالم الإسلامي بمعرفة مواضع وجوده ونشاطه. وفي الخاتمة يؤكد المؤلف في ضوء ما مر في الكتاب من حقائق عن قدرة الإسلام على تخطي الصعاب انه المنتصر بإذن الله وعونه...

والمهم أن يتحرك بجدية أبناؤه... وكفى... والصلاة والسلام على الرسول المصطفى وآله وصحبه وأتباعه إلى يوم الدين...

وبذلك انتهت دراسة كتاب شمس الإسلام تشرق من جديد
والحمد لله لرب العالمين

٢ - دراسة كتاب الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه لمؤلفه الشهيد عبد القادر عودة

مقدمة

إن العلة الحقيقية لسير المسلمين من ضعف إلى ضعف هو الجهل بالشريعة الإسلامية وإهمال تطبيقها دون أن يعلموا أن التشبث بالقوانين الوضعية الفاسدة هو سبب فسادهم وداعي ضعفهم وذلهم.. ولو علمنا الشريعة الإسلامية حق علمها لتخلصنا من جهل الأبناء، ولو تحرك العلماء ونفضوا عن كواهلهم القعود والعجز عن التعريف بها حق التعريف، ولو عرف كل مسلم واجبه نحو الشريعة لما تأخر عن القيام به ولتسابقنا في العمل لخدمة الشريعة وتطبيق أحكامها.

وهكذا جاءت هذه الرسالة للتبصير بأحكام الشريعة وبيان ما خفي منها مما لا غنى عنه لمسلم مثقف، مع بيان وجه الحق فيما يدعيه بعض الجهال على الشريعة من دعاوى غريبة لا سند لها، مع الرجاء أن تعين المتعلمين والعلماء معاً في حفز همهم ليغيروا طريقهم في خدمة الإسلام وهم ورثة الأنبياء، والمبلغون عن الرسل.

الفصل الأول

ما يجب على المسلم أن يعرفه

أحكام الإسلام ومقوماته:

هي مجموعة المبادئ والنظريات التي شرعها الإسلام في التوحيد والإيمان والعبادات والأحوال الشخصية والجرائم والمعاملات والإدارة والسياسة وغيرها.. فهي الشريعة الإسلامية، وهذه هي الأحكام، وأما المقومات فهي تبرز في أعظمها وهو العمل بأحكامه.

فأحكام الإسلام قد شرعت للدين والدنيا إذ جاء بها الإسلام على نوعين: أحكام لإقامة الدين، وتشمل العقائد والعبادات، وأحكام لأقامة الدولة، وتشمل تنظيم الجماعة وعلاقات الأفراد والجماعات بعضهم ببعض من المعاملات والعقوبات والأحوال الشخصية والدستورية والدولية.. وهكذا كان الدين جزء من الإسلام والدولة جزؤه الثاني، بل هي الجزء الأهم، وهذا ما أكده عثمان بن عفان رضي الله عنه عندما قال: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن». وما دامت أحكام الإسلام قد أنزلت لإسعاد الناس في الدنيا والآخرة كان لكل فعل أثره في الدنيا وأثره في الآخرة: المسؤولية في الدنيا والمثوبة أو العقوبة في الآخرة. ولتحقيق الإسعاد في الدنيا والآخرة لا بد من الأخذ بالشريعة كوحدة واحدة، ذلك لأن الملاحظ أن كل حكم منها يترتب على مخالفته جزاءان: دنيوي وأخروي {إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم

عذاب أليم في الدنيا والآخرة} - النور ١٩- ذلك لأن الدنيا دار ابتلاء وفناء والآخرة دار جزاء وبقاء، فمن فعل خيراً فلنفسه ومن أساء فعليها، ولا يسقط الجزاء الدنيوي الأخرى إلا إذا تاب الإنسان وأناب.

والفرق بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي أنها شرعت للدنيا والآخرة، مما حقق طاعتها في السر والعلن، في السراء والضراء، بينما الوضعي لا يطيعها إلا بقدر الخوف من عقابها، مما يجعل الجرائم في ظله تزداد باستمرار لفساد الأخلاق وللتهرب من سلطان القانون.

أحكام الشريعة لا تتجزأ:

فالغرض منها يمنع تجزئتها، ونصوصها تمنع تجزئتها {وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم، واحذروا أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليكم..} - المائدة ٤٩ -

الشريعة الإسلامية شريعة إلهية عالمية: فقد أنزلها الله جل شأنه على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ليبلغها إلى الناس كافة من عرب وعجم، شرقاً وغرباً.. {قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً} - الأعراف- ١٥٨ {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله} - التوبة ٣٢-

وهي شريعة كاملة دائمة: فقد بدأ نزولها ببعثة الرسول عليه وآله السلام وانتهى بوفاته {اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً} - المائدة ٣ - {ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين} - الأحزاب ٤٠ -

وبالنظر في أحكامها نجدها كاملة شاملة لأمر الأفراد والجماعات والدول، ومستوعبة جميع الأوقات والعصور حتى يرث الله الأرض ومن عليها، إذ جاءت نصوصها من العموم والإطلاق بحيث تحكم كل حالة جديدة دون تغيير ولا تبديل كما يحصل في القوانين الوضعية.. ذلك أن نشأتها من وحي يوحى وأما نشأة القوانين فمن وضع الجماعة التي تطورها تبعاً لها وسداً لحاجاتها المتنامية، وقد بدأ ذلك منذ تكون الأسرة في العصور الأولى ثم تطورت بتكون القبيلة ثم الدولة ثم جاءت المرحلة الأخيرة بعد القرن الثامن عشر وظهور النظريات الفلسفية والاجتماعية الحديثة..

وتبقى طبيعة الشريعة مختلفة عن طبيعة القانون الوضعي تماماً لأنها لم تأت شريعة أولية قابلة للتطور مع الجماعة بل نزل بها الوحي على رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم كاملة شاملة.

الاختلافات الأساسية بين الشريعة والقانون:

يمكن حصر هذه الاختلافات الأساسية في ثلاثة وجوه هي:

الوجه الأول: أنها من عند الله وهو من صنع البشر، فهناك الكمال والشمول والثبات وهنا النقص والمحدودية والتغير.

الوجه الثاني: إنها دائمة لا تقبل التغيير والتبديل بينما هو متغير متبدل تبعاً لتطور حال الجماعة، لأن عموم قواعدها ونصوصها يجعلها تتسع لحاجات الجماعة مع مرور الأزمان بعكس خصوص القوانين، ولأن سموها يجعلها تسبق حاجات الجماعة قبل حصولها، فقد ظلت قواعدها ونصوصها ثابتة بعد مرور ثلاثة عشر قرناً مع أن الجماعة قد تطورت أحوالها وتطورت معها القوانين الوضعية تماماً لتتبع تطورها حالها.. فمثلاً {وشاورهم في الأمر} - آل عمران ١٥٩ - و {وأمرهم شورى بينهم} - الشورى ٣٨ - و {تعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان} - المائدة ٢ - وقوله عليه وآله السلام (لا ضرر ولا ضرار في الإسلام) فهذه نصوص من العموم بحيث أرست قواعد تسمو على البشر وصنع البشر.

الوجه الثالث: إن غرض الشريعة المتمثل في تنظيم الجماعة وتوجيهها، وصنع الفرد الصالح، وإيجاد الدولة المثالية الدائمة جعلها فوق مستوى العالم كله وقت نزولها، وستبقى كذلك، وأما القانون الوضعي فإنه يوضع للتنظيم فقط دون التوجيه فيأتي متأخراً عنها وتابعاً لتطورها وإن كان قد أخذ حديثاً ينحو منحى التوجيه فجاء في ذلك متأخراً قروناً عنها.

وعليه نستطيع أن نلخص ميزات الشريعة على القوانين الوضعية بثلاث ميزات جوهرية هي: الكمال إذ تغطي سد حاجات الجماعة في الحاضر القريب والمستقبل البعيد، والسمو، إذ هي أسمى من مستوى الجماعات مهما ارتفع، والدوام، إذ لا تقبل التبديل بمرور الأعوام محافظة على صلاحيتها.

طريقة الشريعة الإسلامية في التشريع:

لم تأت الشريعة الإسلامية بنصوص تفصيلية تبين حكم كل الحالات الجزئية والفرعية كما تفعل القوانين الوضعية اليوم وإنما اكتفت في الأغلب بإيراد الأحكام الكلية التي تدخل تحتها الفروع التي تتفرع عنها تبعاً لمستجدات الحياة باجتهاد أولي الأمر، فكانت طريقة ملائمة لميراث الشريعة وما تتصف به من كمال وسمو ودوام لتحقيق الحياة السعيدة للجماعة والأفراد، وتدعوهم إلى النفوق مع الأيام. ولكن حق أولي الأمر في التشريع مقيد بالنصوص الشرعية وقواعدها مما يجعله محصوراً في:

أ - تشريعات تنفيذية، لضمان تنفيذ النصوص في لوائح وقرارات يصدرها المسؤولين في حدود اختصاص كل منهم.

ب - تشريعات تنظيمية، لتنظيم الجماعة وحمايتها وسد حاجتها على أساس قواعد الشريعة العامة.

وعليه لا يجوز لأولي الأمر الخروج على حدود هذا الحق في التشريع، فمن كان ملتزماً بذلك كانت لهم الطاعة فيه وإلا فلا لأن الله تعالى يقول {وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله} ولأن الرسول عليه وآله السلام قال: (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) وقال (إنما الطاعة في المعروف) وقال في حق أولي الأمر (من أمركم منهم بمعصية فلا سمع له ولا طاعة). ولكن هل تقيد أولوا الأمر بالشريعة الإسلامية في أخذ القوانين؟ فقد نقلوا مجموعات من القوانين تتفق مع الشريعة ومجموعات أخرى كالقوانين الجنائية من سرقة وزنا وشرب خمر مخالفة للشريعة. وأولوا الأمر لم يفعلوا ذلك لنقص في الشريعة كما يظن بعض الجهال ولكن بسبب النفوذ الأوروبي وعود علماء المسلمين في نفس الوقت. فمنذ عهد الخديوي إسماعيل أدخلت القوانين الأوروبية إلى مصر بعد أن رفض علماء الأزهر وضع قوانين من الشريعة لأن التعصب المذهبي منعهم من التعاون لإظهار الشريعة في أجمل صورها وأضاعوا تلك الفرصة. ثم إن بعض البلاد الإسلامية لم تقصد مخالفة الشريعة الإسلامية بما وضعته من قوانين أوروبية وإنما لأن من كلفوا بوضعها إما أوروبيون لا صلة لهم بالشريعة أو مسلمون درسوا القوانين ولم يدرسوا الشريعة.

أثر القوانين الوضعية على الشريعة عملياً ونظرياً:

بسبب إدخال القوانين الأوربية في البلاد الإسلامية أنشئت محاكم خاصة لتطبيقها، وتولاها قضاة أوروبيون أو من أهل البلاد لم يدرسوا الشريعة، فتعطلت الشريعة تماماً. ثم أن السلطات أنشأت معاهد لتدريس تلك القوانين وإهمال الشريعة إلا في مسائل قليلة كالوقف، فجهل المنفقون الشريعة وأخذ القضاة والمحامون منهم يفسرونها مع ما يتفق مع القوانين الوضعية عندما طالبهم قانون العقوبات المصري بمراعاة الحقوق الشرعية لكل فرد عند تطبيقها عليه. وهكذا تحكم في شراح القوانين المصريين جهلهم بالشريعة وتفسيرها حسب فهم الشراح الفرنسيين الذين تتلمذوا عليهم، كما تحكم فيهم تقيدهم بأراء أولئك الشراح مما أبعدهم عن الشريعة الإسلامية.

هذا من الناحية العملية، وأما أثرها من الناحية النظرية فإنها لم تؤثر عليها مطلقاً لأن الأحكام ما زالت قائمة تنتظر التطبيق ولن ينسخها إلا تشريع ومشرع بقوتها، والقرآن والسنة لا ينسخهما إلا قرآن وسنة بعد أن انقطع الوحي بوفاء الرسول.

وأما عند تعارض القوانين الوضعية مع الشريعة فيجب تطبيق حكم الشريعة دون القوانين لثلاث أسباب:

١ - لأن نصوص الشريعة ما زالت قائمة ولا يمكن إلغاؤها بينما القوانين قابلة للإلغاء.

- ٢- لأن الشريعة تقضي ببطان ما يخالفها وتمنع من طاعة من يأمر بذلك.
- ٣- لأن مخالفة القانون للشريعة يخرجها عن وظيفته فيصبح لا محل له. فكيف حصل هذا الخروج؟

نتيجة لأن البلاد الإسلامية يقوم نظام الجماعة فيها على الإسلام أصلاً فكان يجب أن تأتي تلك القوانين مطابقة لما هي عليه الشريعة ولكنها لم تجئ كذلك فخرجت بذلك على الشريعة وعلى أصول تلك القوانين نفسها التي يجب أن تقوم عليها.

وبمعرفة محدودة لحقائق الإسلام وأحكامه تكشف أن سبب الآلام ومآسي المسلمين هو تطبيق تلك القوانين الأوروبية عليهم في الوقت الذي يظن فيه أن ذلك سبب سعادة وطمأنينة البلاد الأوروبية ومجتمعاتها، وذلك لأن الإسلام يحرم على المسلم أن يحتكم لغير شريعة الله {اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون} - الأعراف ٣ - ولأن الإسلام أمر المسلم أن يكفر بكل حكم غير حكمه {يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به} - النساء ٦٠ - فكل حكم غير حكم الإسلام هو حكم الطاغوت، ولأن الله فرض على المسلمين أحكامه {وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم} - الأحزاب ٣٦ - ولأن الله قد أمر بحكمه وجعل من يحكم بغيره إما كافراً أو ظالماً أو فاسقاً، ولأن الله نفى الإيمان عن من لا يحكم الرسول فيما شجر بينه وبين غيره {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً} - النساء ٦٥ - ولأن كل ما يخالف الشريعة من أوامر أو مباحات محرم على المسلمين سواء كان بإباحة الخروج عن الحدود أو بالتخلي عن بعض التشريعات، لأن الإسلام لا يقبل أن تتجزأ أحكامه.. وهكذا خرجت القوانين الوضعية عن وظيفتها وأدت بدلاً من تطمين النفوس واستقرار المجتمع وسعادته إلى شقائها وقلق المجتمع وإحداث الفتن والاضطرابات فيه.

الفصل الثاني

مدى علم المسلمين بشريعتهم

ينقسم المسلمون إلى ثلاث فئات بشأن مدى علمهم بشريعتهم هي: غير المثقفين، والمثقفون ثقافة أوروبية، والمثقفون ثقافة إسلامية:

١- غير المثقفين:

وهم الأميون وذوو الثقافة البسيطة ممن يجهلون الشريعة تماماً إلا من بعض المعلومات عن العبادات فيقلدون غيرهم في كل شيء، وهذا هو حال أغلب المسلمين. وهم يتأثرون بتوجيهات المثقفين بفئتيهما. ومن السهل توجيه هذه الفئة للإسلام إذا أحسن توجيههم بإثارة الناحية الإيمانية لديهم وتوضيح الناحية العملية إليهم.

٢- المثقفون ثقافة أوروبية:

وهذه الفئة تشمل أكثرية المثقفين في البلاد الإسلامية من قضاة ومحامين وأطباء ومهندسين وأدباء ورجال تعليم وإدارة سياسية. وهم لا يعرفون من الشريعة الإسلامية إلا كالمسلم العادي ويعرفون عن الشرائع الأخرى أكثر من الإسلام إلا ما ندر منهم، وهم من يسيطر على الأمة الإسلامية ويوجهونها ويمثلونها في المجمع الدولية. وهم بالرغم من وجود عدد منهم يؤدون عباداتهم بإيمان صادق ويتمنون لو يستطيعوا فهم الإسلام من مصادره ولكنهم لا يستطيعون ذلك لعدم تيسر وجود الطبقات الحديثة المنقحة والمبوبة تبويهاً حديثاً للكتب الشرعية [كان هذا في ما قبل السبعينيات وأما الآن فالأمر أصبح متيسراً بشكل كامل] وبالرغم من ذلك فإن هناك ادعاءات كثيرة لهذه الفئة غريبة عن الشريعة بل مضحكة وكلها ترجع إلى عاملين:

١- الجهل بالشريعة. ٢- التأثر بالثقافة الأوروبية.

ويمكن تناول ادعاءاتهم فيما يلي:

أولاً: الادعاء بأن الإسلام لا علاقة له بالحكم:

يدعي بعضهم بأن الإسلام دين ولا علاقة له بالحكم والدولة [كان ذلك قبل السبعينيات] متأثرين بالأنظمة الأوروبية التي تفصل بين الكنيسة والدولة وظناً بأن ذلك ينطبق على الإسلام والشريعة الإسلامية.. وإلا فهذا الحشد الهائل من النصوص القرآنية والنبوية التي تبين أحكام المعاملات والعقوبات كيف لها أن تطبق بدون دولة؟! ثم هناك الأوامر الصريحة مثل {وان احكم بينهم بما أنزل الله} تفرض الحكم والتطبيق وذلك لن يتم دون دولة تفعل ذلك، ثم هناك الكثير من النصوص المتعلقة بالمشاكل الداخلية والمنازعات الدولية والسلم والحرب والمعاهدات والمعاملات الاقتصادية والاجتماعية وغيرها يفرض الإسلام العمل بها ولن يكون ذلك إلا بالتطبيق في دولة، ثم أن ما يأمر به الرسول عليه وآله السلام لأنه {وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى} - النجم ٣ و٤ - لا يسمح بمثل هذا الادعاء والرسول عليه وآله السلام أقام دولة وطبق نظاماً هما الدولة الإسلامية والنظام الإسلامي.. فكيف يُدعى بمثل هذا الادعاء؟!

ثانياً: الادعاء بأن الشريعة لا تصلح للعصر الحاضر:

ويدعي بعضهم أن الشريعة الإسلامية لا تصلح للعصر، ولكنهم لا يأتون بدليل واحد، ولو حصروا الادعاء في مسألة واحدة ودلوا عليها لأمكن الرد والمناقشة، ولكن هذا الادعاء إنما يدل على جهلهم بالشريعة وبالتالي الافتراء عليها، فكيف يقول بذلك من يدعي أنهم مثقفون ومفكرون؟! ومن بديهيات القول أن عدم صلاحية أي شريعة قائم على عدم صلاحية مبادئها أو أفكارها، ولنقف قليلاً مع ما لدى الشريعة الإسلامية من ذلك: وهنا يذكر المؤلف أن مبادئ المساواة والحرية والعدل التي نادى بها القوانين الوضعية منذ الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر قد نادى بها الإسلام قبل ذلك

بقرون.. وكنت أتمنى على المؤلف رحمه الله أن يتجنب هذه المقارنة والمطابقة لأن ما لدى الإسلام من هذه الأمور الثلاثة غير ما لدى غيره من شرق وغرب طالما كل شيء لديه مقيد بطاعة الله ورسوله.. وهيهات أن يلتقوا في ذلك حتى مع قيود هذه الأمور لدى غيره.. فأما أن تنسب صلاحية الشريعة لكل عصر لوجود هذه المبادئ أو الأفكار الرئيسية فهذا ليس من المسلم به ما دامت لها معانٍ وتطبيقات تختلف من مبدأ إلى آخر، وليس بالضرورة أن يكون ما لدى الغرب الرأسمالي هو السليم حتى نقول بأن الشريعة الإسلامية قد اشتملت عليه قبلهم بعشرة قرون..

وأما بقية التشريعات التي نادى بها التشريعات الغربية حديثاً بينما الإسلام كان قد شرعها قبلها بقرون من أمثال تحريم الخمر وإباحة الطلاق والتعاون الاجتماعي والتضامن الاجتماعي، وتحريم الاحتكار واستغلال النفوذ وتحريم الرشوة وتحريم الفواحش والكثير من القواعد الإنسانية والاجتماعية والقانونية.. كل هذه وغيرها مما تشتمل عليه الشريعة الإسلامية تؤكد صلاحيتها التامة لكل عصر، وأن قول القائلين بغير ذلك هو ادعاء يقوم على الجهل بالشريعة..

ثالثاً - الادعاءات بأن بعض أحكام الشريعة مؤقتة:

وهم يقصدون بعض الأحكام الجنائية، كالرجم والقطع، فهم يدعون أنها مؤقتة دون حجة، ولو أخذوا أحكام الشريعة مع عقوباتها لتخلصوا من ظنهم وادعائهم ورأوا أنها أحكام دائمة، لأنه لا نسخ لهذه الأحكام بعد رحيل الرسول عليه وآله السلام وإلى يوم النشور، فالرسالة الإسلامية قد كملت ولا مجال لنسخ هذه الأحكام في يوم من الأيام لأنها ثابتة كغيرها إلى يوم القيامة.

رابعاً - الإدعاء بأن بعض الأحكام لا يستطيع تطبيقها:

فلا يرون توقيت الأحكام الجنائية وإنما عدم إمكانية تطبيقها بحجة وجود أقلية لا تقبل ذلك، ثم لضعف الدول القائمة أمام التدخل والنفوذ الأجنبي.. وهؤلاء رأيهم مردود لأن خشية الله هي المقدمة على خشية الناس مهما علا نفوذهم..

خامساً - الإدعاء بأن الفقه الإسلامي يرجع إلى آراء الفقهاء:

إذ يعتقد بعض ذوي الثقافة الأوروبية أن الفقه الإسلامي من صنع الفقهاء غالباً، وأنهم بقدرتهم الفائقة وصلوا لذلك الفقه قبل العصر الحاضر بقرون عديدة، والصحيح أن الفقهاء لم يبتكروا فقهاً من لدنهم، ولم يكونوا فوق البشر، وإنما هم شرحوا تلك القواعد الفقهية التي وجدوها بين أيديهم، فجمعوا كل ما تنطبق عليه القاعدة من فروع فكان ذلك ابتكارهم ليس غير، فلم يأت أحد منهم لا بالمساواة ولا بالحرية ولا بالعدالة التي يراها الإسلام، كما أنهم لم يأتوا بالشورى ولا بتقييد الحاكم كئيب عن الأمة في الحكم بالنصوص القرآنية والنبوية ولا بغير ذلك فكلها نصوص سابقة لهم بغض النظر عن اندهاش كل فقهاء العصر الحاضر أمام ما وجدوه من فقه

أولئك.. صحيح أن الفقهاء قد بذلوا جهوداً عظيمة في رد الفروع والجزئيات إلى أصولها وبيان ما ينطبق عليها من الأحكام، ولكن الشريعة هي التي وفرت لها تلك الفروع والجزئيات التي غالباً ما كانت النصوص التفصيلية لها قد تركت لجهودهم واستنباطاتهم لها من الأصول.. ولعل خطأ أصحاب هذا الدعاء قد جاء من قياس فقه الشريعة على فقه قانونهم الوضعي الذي يبتكر علماؤه كل شيء فيه من أصول وفروع.

٣- طائفة المثقفين ثقافة إسلامية:

وهم رغم عددهم الكبير إلا أنهم أقلية بالنسبة لمثقفي الثقافة الأوروبية، وليس لهم نفوذهم على الشعوب الإسلامية كما للآخرين، «وهم الآن يتعرضون للاضطهاد المرعب في كل مكان بعد أن أخذت جماعاتهم تفرض وجودها في كل مكان». هذا وما زال المسلمون يعتبرونهم هم المسئولون عن معرفة أحكام الإسلام والدفاع عنه والدعوة له بغض النظر عن عجزهم أمام الأحداث والتعدي على الشريعة بتعطيلها ومحاربة عودة أحكامها للحياة..

صحيح أن هذا العجز مهما طال طبيعي وإنما المعيب أن يستمر دون بذل جهود للتخلص منه مهما احتاج من وقت، لأن ذلك هو السبيل الوحيد «وذلك إذا عملوا في إطار تكتلات فاعلة لا منفعة، وذات وعي وفكر عميقين مستنيرين للإسلام وأهله وما يحيط به ويتطلبه لاستئناف حياته في حكم وسلطان».

والمهم أن يتخلوا عن أساليب الوعظ والإرشاد ويتحملوا مشقة طول البذل والكفاح حتى تعتق الأمة الأفكار الإسلامية فكرة دواء أخرى وتنقلها للتنفيذ، بدءاً من عامة المسلمين الجاهلين بإسلامهم وانتهاء بمثقفي الأمة بالثقافات الأجنبية، فيخاطبون كلا منهم باللغة أو الفكر المناسب لهم والمؤثر في تفكيرهم: فيشرحون للعامة مفاهيم الإسلام بأدلتها المحددة المثيرة، ويتصدون للفكر الأجنبي ببيان مدى مخالفة فكرهم للإسلام وأحكامه فيضعون بين أيديهم الخط المستقيم مرسوماً بجانب الخط الأعوج فتستنير بصائرهم بأسلوب المقارنة المؤثر..

وبقدر عرض الشريعة الإسلامية بالشكل المؤثر من طباعة حديثة، ولغة سهلة، ومناقشات واعية دون تشنج بقدر ما ينجح رجال الفكر الإسلامي في توضيح الشريعة الإسلامية لغيرهم. ثم أنهم لا بد أن يتصدوا لبيان الأحكام الشرعية للحكام بكل ما يستطيعون من وسائل وبيان مدى مخالفتها للقوانين الأخرى، لأنه لا بد أن يعلم أن جهل المسيطرين على البلاد الإسلامية بإسلامهم الحق هو العيب الفظيع إذا أحسنت النية فيهم وظهر منهم الحرص على تعلم إسلامهم وتطبيقه..

ولا بد بهذه المناسبة أن يعلم الجميع أن الجهل في الشريعة ليس هو العيب المغلق بل ما أسرع ما تنتقش غيومه بالحرص على العودة إليها تعلماً وفهماً وعملاً وتطبيقاً، ولن ينتقص العيب، عيب الجهل، من أهله شيئاً إلا بقدر إصرارهم عليه.. وها

هي المؤتمرات الإسلامية التي تتصدى لبيان الإسلام وأحكامه تأتي بثمارها الطيبة في كل مكان من العالم غير الإسلامي كالإسلامي وأكثر ما دامت عملية الشرح والبيان تتصف بالصراحة والشجاعة والوعي الواضح.

من المسؤول عما نحن فيه؟

لاشك أن المسلمين جميعاً مسؤولون عما نحن فيه وما انتهى إليه أمر الإسلام والمسلمين مع اختلاف مستوى مسؤولية بعضهم عن بعض، ففريق تعظم مسؤوليته وفريق آخر تضعف.. فالجماهير مسؤولة عما انتهى إليه أمر الإسلام بسبب الجهل به والانحراف عنه، والإفكاف ألفت الفسق والكفر والإلحاد ولم تتحرك للتخلص منه، والإسلام يوجب تعلم المسلمين من اضطهاد الحكومات استرضاء وموالاتة لأعداء الإسلام.. فأين قوة وعزة الجماهير وهم يعيشون عبيداً للأقوياء والمستعمرين؟! وبمعرفة إسلامهم والتنبه من غفلتهم عن دينهم وديانهم وأنفسهم سيدركون الحقيقة المطالبون بالعيش لها وعليها.. والحكومات مسؤولة عما أصاب الإسلام والمسلمين من هوان وذلل بعد أن أبعدت الإسلام عن الحياة وحكمت بغير حكم الله، ودفعت بالمسلمين إلى ضلالة أوروية في الحكم والسياسية والاقتصاد والاجتماع حتى عم الفسوق والعصيان والآثرة والطفغان، وأخذت تحول بينهم وبين تعلم الإسلام الواضح النقي، واندفعت في موالاتة أعداء الإسلام والمسلمين..

والرؤساء أكثر الناس مسؤولية عن الإسلام وما أصابه من تشويه وضعف وجهل أهله له، فبالتخلص من التفرق والتناذب والحرص على التعاون والاتحاد في فهم الإسلام والعمل على تطبيقه في جميع مناحي الحياة بدءاً من النفس إلى الأسرة إلى المجتمع المحلي ثم المجتمع الدولي ينهي هذه المأساة، لأن ذلك إقامة للدولة الإسلامية الواحدة البديلة لكل هذه الكيانات الهزيلة، وفي ذلك الخير كله للفرد وللأمة الإسلامية أجمع في الدنيا والآخرة..

وفي الوقت الذي تضعون فيه منافعكم ومغريات الحكم أساساً ستظل هذه الفرقة والضعف والذلة بكم وللأمة أمام طواغيت الدول الكبيرة المتغترسة الحاقدة ضد الإسلام والمسلمين.. وإن الله سبحانه سائلكم قبل غيركم عما آل إليه حال الإسلام والمسلمين من الغربية والتمزق، واعلموا أن الرئاسة أمانة فأدوا الأمانات إلى أهلها فإن الله سائلكم عنها..

وأما أنتم يا علماء الإسلام، فإنكم تحملون وزر ما أصاب الإسلام والمسلمين عندما سايرتم الاستعمار ورجاله، وسكنتم عن نفوذه وهيمنته في البلاد، وتركتكم المسلمين جاهلين بأحكام الإسلام والكيد ضده، ولم تتصدوا لما يخالف أحكام الإسلام، وارتضيتم تشويه الإسلام وتحريف أحكامه استرضاء لأعداء الإسلام والمسلمين باللتزام قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مهما كلف ذلك من تضحيات (خير الشهداء

حمزة ورجل قام إلى إمام جائفنصحه فقتله)، كيف لا والعلماء ورثة الأنبياء، لا من أجل مصالحهم الشخصية ورواتبهم الشهرية ولكن من أجل عزة وكرامة الإسلام والمسلمين..

فيا علماء الإسلام اتقوا الله في أنفسكم وفي إسلامكم ! فعزتكم من عزة الإسلام والقوة من قوته، واعلموا أنه ليس من الإسلام أن تكتفوا بتعليم الأخلاق والعبادات للناس دون الحكم والتشريع والقضاء والإقتصاد والاجتماع.. وكل جوانب الحياة.. فقفوا بجانب من يعمل ويضحي للإسلام والمسلمين ولن يتركهم الله أعمالكم..

وبذلك تمت دراسة كتاب الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه
والحمد لله رب العالمين

القسم الثالث رفاهية النفس

مع

أفراح الروح
والتصوف
وتلبيس إبليس
وتنبيه الغافلين
وتحفة الذاكرين

تقديم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدي رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه ومن اتبعه بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد
فلا شك أن للنفس البشرية أشواقها الروحية ، فهي ما أن تمارس طاعة ربها برغبة شديدة وميل كبير حتى تستشر الفرحة الغامرة والمتعة السادرة،

وإذا جد بعض الناس في الهرب من الحياة وضغوطها بالمزيد من الإغراق في الأعمال الروحية فماذا يفعلون بالحياة وقد خلق الإنسان في كبد؟!

وإذا نجح إبليس في التلبيس على الكثير من المسلمين حتى ظنوا أن ما وجدوه في الروحانية من متعة هي ضالتهم المنشودة بعد أن أقفلت أبواب الخير في وجوههم ، فهل ظنهم في محلة وقد أخذت غيوم الكرب تنزاح من طريقهم؟!

فيا من اشتدت عليهم الغفلة بالمبالغة في التأويل والتفسير حتى باتوا يرون طريقهم هو الحق دون غيره، كم هو حري بكم أن تكونوا من الذاكرين بل أول الذاكرين وأنتم تعيشون مع سيرة المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ، تلك السيرة التي تبين كيف حمل القرآن في يد والسيف في اليد الأخرى!! واذكروا يا أصحاب القلوب الكبيرة والنفوس المتوثبة أن شمس الإسلام قد أخذت تشرق من جديد رغم أنف الإرهاب وجبابرته ..

وإنكم لو اجدون في هذا الكتاب رفاهية للنفس من خلال عرض ومناقشة الكتب الستة التي تقف مع تطلعات النفس البشرية وأشواقها، وتحذر من عبث الشيطان في نقائها وهي تفرع طبول التنبيه للغافلين وإحياء النفوس للذاكرين ، مشددة على أن شمس الإسلام قد بدأت بالشروق من جديد رغم أنف الأعداء والحاquدين. واطمنوا أن نصر الله تعالى قريب ، وأن قربه مع شدة الظلمة وعظم البلاء عجب!!

المؤلف

١- دراسة كتاب أفراح الروح

لمؤلفه الشهيد سيد قطب

١- تبدأ هذه (الأفراح) بعبارة: أختي الحبيبة.. هذه الخواطر مهداة إليك.. وكأنها رسالة موجهة إلى المرأة المسلمة. وأما سير المؤلف فإنه يتخذ شكل الموضوعات المرقمة، مما يجعلني أسير في هذا الملخص على نفس الوتيرة.

فيبدأ المؤلف بالإشارة إلى فكرة الموت، وكيف أنها تظل الحياة والأحياء، ولكنها تبقى قوة ضئيلة أمام زخم قوى الحياة.. فكل أمهات الأحياء تحمل وتضع، والأرض والنبات والبحار تعج بالحياة.. والموت يلتقط بعض الفتات الساقطة من ماندة الحياة، والحياة تبقى ماضية في طريقها.. فألم الجرح ما أسرع ما يندمل، والموت يقبع بانتظار ما يسقط من الفتات.. والشمس والأرض والحياة تجري في نماء، نماء في الكيف والكم، والموت لا يملك وقف مد الحياة الغامر لأنه يستقي من قوة الله الحي..

٢- الحياة ضئيلة إذا حصرت بالعمر المحدود لمن يعيش لذاته، وأما عندما يعيش لغيره، لفكرة، فالحياة تطول وتعمق فتعود لتبدأ مع بدء الإنسانية وتنتهي مع

نهايتها.. فالحياة ليست بعد السنين ولكنها بعداد المشاعر، لأن الإنسان لا يجرّد من شعوره بالحياة إلا إذا جرد من الحياة ذاتها، ومتى تضاعف شعوره بها تضاعفت حياته. فبمقدار ما تضاعف إحساسنا بالآخرين تضاعف إحساسنا بحياتنا فنضاعف الحياة ذاتها..

٣- بذرة الشر ترتفع شجرتها سريعاً في الفضاء دون جذور عميقة، فتجذب النور والهواء عن شجرة الخير ولكن عمق جذور هذه يعوضها عن الدفاء والهواء.. فقوة شجرة الشر واهنة هشّة بينما شجرة الخير متماسكة لكل عاصفة، بطينة في نموها، لا تيالي بأشواك تلك وأذاها..

٤- هناك خير كثير في نفوس الناس لا تراه العين بسرعة حتى لدى من يظن بهم الشر.. فما أن يلمسوا العطف على أخطائهم حتى ينكشف نبع الخير فيهم، فيقابلون المودة القليلة بالعطاء الكثير لأن الشر على سطح النفوس.. إنه في كفاح الحياة للبقاء.. فما أسرع أن تتكشف الثمرة الحلوة بمجرد الشعور بالأمن، بالثقة في المودة والعطف الحقيقي على الكفاح والالام.. على الأخطاء.. فشيء من سعة الصدر كفيّل بتحقيق ذلك..

٥- إن بذور العطف والخير في النفس لا تلتقي مع التملق للآخرين، لأن الصدق والإخلاص في الخطاب يكشف عن كنوز من الخير في النفوس، ولن يعدم إنسان ناحية خيرة تؤهل للكلمة الطيبة.. فلا حاجة للشعور بالضيق من أخطاء الآخرين، ولن نجشم أنفسنا عناء الحقد عليهم أو الحذر منهم لأن هذا دليل عدم نمو بذرة الخير في نفوسنا ونقص الثقة في الخير لدى الآخرين.. فكم هي الطمأنينة والسعادة والراحة تغمر النفوس وهي تمنح الآخرين العطف والثقة.

٦- إن العزلة عن الناس بحجة أن المعتزل أطيّب وأدكى منهم.. إنه اختيار أسهل السبل واقلها كلفة.. فالعظمة الحقيقية مخالطة الناس بروح السماحة والعطف والرغبة الحقة في تثقيفهم ورفع مستواهم.. فلا حاجة للنزول إلى مستواهم ولا أن نتعالى عليهم.. إن التوفيق بين هذه المتناقضات هو العظمة الحقيقية..

٧- في مستوى معين من القدرة يطلب الإنسان مساعدة الآخرين، ولن يقلل من قيمته أن يحصل على هذه المساعدة والاكتفاء بالطاقة الفردية حتى لو سعد إلى القمة بهذه المساعدة.. لن يشعر بعكس ذلك إلا بمقدار ضعف الثقة بالنفس، أما حين القوة الحقة فلن يكون هناك مثل هذا الشعور، لأن الطفل وهو يتعثر سيره هو فقط من يتجنب المعونة.. فبروح الشكر والفرح تستقبل معونة الآخرين عندما يصل الإنسان إلى مستوى معين من القدرة.. فالفرح بالتجاوب الشعوري هو الفرح الطليق..

٨- إننا حين يكون إيماننا بأفكارنا عظيماً، ومنبثقة من أعماقنا، فاننا لن نغضب عندما ينتحلها الآخرون.. فالفرح الصافي هو الثمرة الطبيعية لرؤية أفكارنا

وعقائدنا ملكاً للآخرين.. فالتاجر هو الذي يحرص على عدم السماح لاستغلال بضاعه، وأما المفكر فسعادته في تقاسم الناس له أفكاره وعقائده ولو نسيوها إلى أنفسهم.. إنهم يعرفون أنهم وسطاء في النقل ولكنهم يحسون أن النبع ليس منهم ولا من صنعهم.. ففرحهم هو ثمرة اطمئنانهم بأنهم على اتصال بهذا النبع الأصيل.

٩- إن فهم الحقائق يختلف كثيراً عن إدراكها لأن الفهم علم والإدراك معرفة.. وفي الفهم نتعامل مع الألفاظ والمعاني المجردة.. مع التجارب والنتائج المجتزأة، ومع الإدراك نتعامل مع الاستجابات الحية والمدركات الكلية.. فبالفهم تردنا المعلومات من الخارج وتبقى في عقولنا متحيزة متميزة، وبالإدراك تنبثق الحقائق من أعماقنا.. في الفهم توجد خاتمة العلم بعناوينه المختلفة، وخاتمة الدين بأبوابه المختلفة، وخاتمة الفن بمناهجه العديدة.. وفي الإدراك توجد الطاقة الواحدة المتصلة بالطاقة الكونية الكبرى.. يوجد المجرى الواصل إلى النبع الأصيل..

١٠- المتخصصون في فروع المعرفة الإنسانية ضرورة ملحة، يضحون بلذتهم من أجل تخصصهم كالعباد الذي يهب روحه لربه بفرح غامر.. ولكن هؤلاء ليسوا موجهي الحياة والأحياء.. فأصحاب الطاقات الروحية الفائقة هم الرواد دائماً، فهم حملة المشاعر التي تصهر ذرات المعارف، وتثير الطريق، وتغذ السير نحو الهدف السامي.. إنهم مدركو الوحدة الشاملة في العلم والفن والعقيدة والعمل دون تحقير لأحد ولا رفع له فوق مستواه.. إنهم ليسوا بالصغار الذين يرون التعارض بين هذه المظاهر المتنوعة فيحاربون العلم باسم الدين أو الدين باسم العلم أو يحتقرون الفن باسم العمل.. لأنهم يدركون أن هذه القوى تنبع من تلك القوة المسيطرة على هذا الوجود.. إنهم يدركون تلك الوحدة لاتصالهم بالنبع الأصيل.. إنهم قليلون في تاريخ البشرية، ولكن منهم الكفاية، وفي إرسالهم في الوقت المناسب يكون الخير..

١١- لا تأتي الخرافة إلا بالاستسلام للاعتقاد في الخوارق والقوى المجهولة.. ولكن الخطر الأعظم من ذلك أن ننكر كل قوة غير منظورة لمجرد أنها أكبر من إدراكنا البشري، فيصبح الوجود محدوداً بالمعلوم فحسب، فيكون ضئيلاً جداً بالقياس إلى عظمة الكون.. فحياة الإنسان سلسلة من العجز عن الإدراك أو الوصول إلى شيء من هذا الإدراك لما في هذا الكون الرحب.. وبهذا الإدراك الذي يتحقق بفتح بصيرة الإنسان إلى وجود قوى أخرى لم يدركها بعد وما زال بحاجة.. فلا بد لنحترم العقل البشري من أن نحسب للمجهول حسابيه في حياتنا لا لنستسلم للخرافة ولكن لنحس بعظمة هذا الكون الحقيقية ونعرف لأنفسنا قدرها فيه، مما يفتح للإنسان قوى كثيرة للمعرفة ما زلنا نتكشف حقوقها..

١٢- وإن تصور الندية والتنافس على العظمة والقوة بين الله والإنسان لما يقع فيه أولئك الناس الذين يرون أن الاعتراف بعظمة الله تقلل من قيمة الإنسان..

ولكن الحقيقة أن الإنسان كلما ازداد شعوراً بعظمة الله ازدادت نفسه عظمة لأنه من صنع الله العظيم.. فالمحدود نفساً و عقلاً من يظن أنه يرفع نفسه بمقدار إنكاره لربه، فهم لا يرون إلا الأفق القريب.. فظنهم أن اللجوء إلى الله عند الضعف والعجز فقط يقعون في الظن بأن الضعف يفتح البصيرة والقدرة تطمسها!! إن تقدم الإنسان العلمي يزيده إحساساً بعظمة الله لأنه يزداد إدراكاً وثقة بمصدر قوته بمقدار زيادة طاقته على الإدراك.. فالمؤمنون بعظمة الله لا يجدون ضعة في أنفسهم بل عزة ومنعة لاستنادهم إلى القوة الكبرى المسيطرة على هذا الوجود.

١٣- فتصور أن الانطلاق من جميع القيود الناشئة عن الأعراف والتقاليد يوفر الحرية إن هو في الحقيقة إلا إخفاء للعبودية لها.. والفرق كبير بين التفلت من القيود الإنسانية وقيود الذل والضعف، ففي هذا التحرر الحقيقي وفي ذلك التخلي عن مقومات الإنسان كإنسان أو خضوع وعبودية للميول الحيوانية التي كافحت البشرية للتخلص من قيودها إلى الحرية الإنسانية الحقبة .. فلم الخجل من إظهار الضرورات الإنسانية؟ إنه الاحساس بالفطرة أن السمو معها هو أول مقومات الإنسانية وأن الإطلاق من قيودها هو الحرية، وأن توكيد معنى الإنسانية يأتي بالتغلب على دوافع اللحم والدم ومخاوف الضعف والذل.

١٤- لا مبدأ مجرد عن الشخص بل مبدأ ذو عقيدة حارة دافعة تملأ قلب الإنسان، وإلا لكانت مجرد كلمات خاوية أو على الأكثر معان ميتة، فلا إيمان بمبدأ أو فكرة مالم تنبت في قلب مشع وليس فقط ذهن بارد.. وعندما تؤمن أنت بفكرتك بحرارة يؤمن بها الآخرون لأنها ستنبعث منك إليهم وإلا ستبقى أفاظاً لا روح فيها ولا حياة، وما لم تصبح الفكرة شخصاً يدب على الأرض تبقى ميتة في ذهن صاحبها ولن تنتقل للآخرين، لأن الفكرة بالنسبة للشخص كالروح للجسد، ولم تعش فكرة عبر التاريخ إلا في قلب عاش عليها.

١٥- فمن المستحيل الوصول لغاية نبيلة بوسيلة خسيصة، لأن الغاية النبيلة تحيا في قلب نبيل يستحيل أن يطبق استخدام الخسيس من الوسائل ويهتدي بها. فمن غير الممكن أن تعبر تربة من الوحل دون أن تحمل الوحل على قدميك وعلى موضع آثار قدميك، وهو نفس الحال في استخدام الوسيلة الخسيصة، فإنه سيعلق بأرواحنا ويترك آثاره عليها وفي الغاية التي تصل إليها. فالوسيلة جزء من الغاية في حساب الروح، والشعور الإنساني لن يستخدم الخسة في الغاية النبيلة، والغرب عندما يرى أن الغاية تبرر الوسيلة فربطه الوسائل بالغايات.

١٦- وبالتجربة يجد الإنسان أن لا شيء يعدل في الحياة ذلك الفرح الروحي عندما يدخل الرضى والثقة أو الأمل والفرح إلى نفوس الآخرين.. فهي لذة لا مثيل لها في الأرض لأنها لا تطلب جزاء خارجياً وجزاؤها كامن فيها.. وأما مسألة إعتراف الآخرين بالجميل فبالرغم مما فيها من جمال ذاتي ومسررة للواهب

ولكن مسألة الفرح عندما يتردد صدى الخير في نفوس الآخرين بما له من قيمة فيها.. إنه الفرح النقي الخالص النابع من نفوسنا والمرتب إليها دون حاجة لعنصر خارج عن ذاتنا..

١٧- إن من لم يعط الفرح في هذه الحياة هو الذي يفزع من الموت لو جاءه في أية لحظة بغض النظر عن عدم التفريق بين الأخذ والعطاء في عالم الروح، الروح التي تأخذ مقابل ما تعطي فرحاً لا يقل عن الآخذين.. ومن يعمل بقدر استطاعته لن يفزع من الموت لو جاءه، ويتمنى لو يطول به العمر ليعمل الكثير ولكنه لن يتحسر لو لم يستطع، لأن الآخرين سيقومون بها ما دامت صالحة للبقاء، وما دامت العناية الربانية لن تدع فكرة صالحة تموت.. وأما أخطاء الإنسان وهو يعمل فإنه حريص على تجنبها ويندم عليها، ويكل أمرها إلى الله ويرجو رحمته وعفوه ولا يقلق لعقابه لأنه حق وعدل، ويطمئن إليه مهما كان..

وبذلك انتهت دراسة كتاب أفراح الروح والحمد لله رب العالمين

٢- دراسة كتاب حقائق عن التصوف

للشيخ عبد القادر عيسى

تقديم

بعد أن اطلعت على كتاب «الدرر البهية في الوصايا الجامية» للشيخ أحمد فتح الله جامي الذي أجازته الشيخ عبد القادر عيسى للتوجيه والإرشاد في حلقات الذكر الخاصة بالصوفية،

وبعد أن درست كتاب «الصوفية» لأستاذنا شيخ مشايخ الصوفية في مصر الشيخ الدكتور أبي الوفا التفتازاني،

وبعد أن وقفت على ملاحظات الإمام القرطبي في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن» حول الصوفية والتصوف وتمييزه الصوفية الحقّة عن التصوف الدخيل،

وبعد أن أطلعت بدقة متناهية على ما أورده الإمام ابن الجوزي في كتابه (تلبيس إبليس) حول الصوفية وما يتعرضون له من (تلبيس)،

وجدت أنه من الواجب الإسلامي أن لا أطلع على هذا المؤلف القيم «حقائق عن التصوف» لمؤلفه الشيخ عبد القادر عيسى مجرد إطلاع، ولا أدرسه لنفسي دراسة خاصة بل أسجل كل ما أراه حول بعض ما ورد فيه وذلك في ضوء علمي الدقيق المتعمق للسيرة النبوية وما تركته لنا من منهاج رباني لا للعلم والنظر فحسب وإنما للالتزام والإتباع أيضاً..

فجئت بهذه الدراسة التي أرجو المولى سبحانه أن يوفق كل مطلع عليها للأخذ بما فيها بكل تجرد وحيّدة، وبالمقارنة مع ما ورد متعلقاً بها في الكتاب والسنة وما دلاً عليه من قياس شرعي وإجماع للصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. والله سبحانه يهدي إلى سواء السبيل.

الكاتب

من مقدمة الكتاب

يرى المؤلف رحمه الله أن مهمة دعاة الإسلام هي إعادة الروح للدين وفتح مغاليق القلوب.. وهذا يعني أن الدين الموجود الآن لدى الناس تنقصه الروح، ولكن ما هي هذه الروح؟ وكيف تعاد للدين؟ أنها إدراك صلة الإنسان بالله بحيث يربط أعماله به سبحانه فلا يقوم أو يتخلى عن عمل إلا ويراعى الأوامر والنواهي الربانية، وذلك لا يتم إلا بإحياء الفكر الإسلامي في العقول والمشاعر الإسلامية في النفوس، وهذا يقتضي عدم الوقوف عند حد القلوب التي يشار إليها عند الحديث عن العواطف والمشاعر فقط بل يتجاوز ذلك لما رجوت أن يكون المؤلف رحمه الله قد أضافه ألا وهو العقول فيتحقق بذلك شمول الجانبين: العقلي والنفسي، أو الفكري والعاطفي، فلا يبقى مزيد لمستزيد.

ثم ينتقل المؤلف رحمه الله في مقدمته إلى ما يراه من قصد للصوفية، وأنه العودة بالمسلمين في كل عصر، وليس في هذا العصر فقط، إلى (خلال الانس بالله تعالى، ونعيم مناجاته، وسعادة قربه، بإرجاع روحانية الإسلام إليه).. إنه بلاشك يلخص في هذه الكلمات القليلة هدف جميع الحركات الصوفية الذي طالما انصب على تحقيق المستوى الرفيع من السمو الروحي والروحانية لدى كل فرد مسلم ينتظم أو يسلك مسلك أي جماعة صوفية.

والسؤال الآن: هل الروح والروحانية في هذه الصوفية غيرهما في مهمة دعاة الإسلام أو حملة دعوته؟ صحيح إن هؤلاء الدعاة أو حملة الدعوة لا تقف مهمتهم عند التركيز على الجانب العبادي/ الأخلاقي وأساسهما العقائدي للذين تقف تماماً عندهما الصوفية بجميع جماعاتها وإن فرض الواقع أحياناً نفسه على إحدى الجماعات فأضافت إليهما الجهاد أو التحريض عليه، وإنما تحرص الحركات الإسلامية الأخرى، وإن بنسب متفاوتة، على إضافة الجانب التشريعي إليهما بحيث يُغطي جميع مجالات الحياة من حكم واقتصاد واجتماع وتعليم وصحة وغيرها في العلاقات الداخلية ومن موثيق ومعاهدات وجهاد وغيرها في العلاقات الخارجية.. وبهذا يظهر أن الدعاة أو حملة الدعوة في الحركات الإسلامية الشمولية لا يفصلون بين الجوانب الثلاثة ولكن الصوفية لا تتجاوز الجانبين الأولين.. كما يظهر أن الفرد في أي جماعة صوفية يزداد روحانية مع تطاول المسير في طريقها لأن هذا هو قصدها الذي تتركز عليه جميع مناحي نشاطاتها، ولكن الأعضاء في الحركات الإسلامية ليس من المفروض أن تقل أو تتناقص الروحانية لديهم مع مسيرهم إذا أحسنوا الالتزام بكل ما يطلب منهم ويوجهون إليه من قبل قياداتهم التي تحرص على تركيز

الجانبين الفكري/ الروحي والمادي/ التشريعي لدى كل فرد منهم لتعددهم لمهمة الصراع الفكري والكفاح السياسي، بتعايرنا المعاصرة، لما هي عليه أمتنا الإسلامية اليوم من جاهلية العهد المكي، ثم من بعدها للجهاد المادي جنباً إلى جنب مع الصراع والكفاح المذكورين فيما ينتقل إليه من إسلامية العهد المدني..

ولكن، وبالرغم من هذا المفروض، إلا أن كثرة انشغالهم بالجوانب الأخرى في التثقيف الفكري أو السياسي الفردي المركز والجماعي المحدد، يفرض عليهم استمرار التركيز على الجانبين العقائدي والعبادي/ الأخلاقي، تبعاً للرياح الباردة والساخنة التي يتعرضون لها في سيرهم من المطاردة والاضطهاد، الأمر الذي يجعلهم في الواقع أقل روحانية مما هي عليه الصوفية الحقة ولا أقول المتصوفة بشكل عام خشية من شمول التعبير للدخلاء.

وفي ختام هذه الوقفة مع مقدمة الكتاب أتساءل: كيف رضيت الجماعات الصوفية لنفسها هذا الطريق في العمل لإعادة المسلمين إلى إسلامهم الحق فكراً وعملاً، أفراداً وجماعات، فقصرت نشاطها بالتركيز على الجانبين العقائدي والعبادي/ الأخلاقي بينما نجد أن الرسول عليه وآله الصلاة والسلام قد اتخذ الطريق الشمولي للإسلام، بما يتناسب مع العهد المكي أولاً ثم العهد المدني ثانياً وأخيراً، أي أضاف لهذين الجانبين الجانب التشريعي بجميع مجالاته بصورة تثقيفية أولاً للتوعية والإعداد الفكري والسياسي ثم بصورة تطبيقية عملية للتنفيذ والإعداد العملي الجهادي والسياسي معاً؟؟

صحيح إن الصوفية الحقة النقية قد حققت إنجازات كثيرة في هذين الجانبين سواء من حيث الدخول في الإسلام لأفراد وجماعات كثيرة أو من حيث جعلهم يلتزمون بالأخلاق الإسلامية.. ولكنها لم تنتقل بسبب سلوك هذا الطريق إلى جعل أولئك الأفراد وتلك الجماعات يعيشون في علاقاتهم الداخلية والخارجية وفقاً للنظم والتشريعات الإسلامية، وهو الهدف الذي تسعى الحركات الإسلامية الشمولية للوصول إليه، جنباً إلى جنب مع الجانبين العبادي/ الأخلاقي والعقائدي، بغض النظر عن بعض الاختلافات الاجتهادية بين الحركات هذه وبالتالي المسلكية، وهو بالطبع نفس الهدف الذي سعى إليه الرسول عليه وآله السلام والذي من أجله خرج مهاجراً من مكة إلى يثرب حيث أنتقل بالإسلام كرسالة ودعوة من الجانبين المذكورين ليضيف إليهما الجانب التشريعي/ الجهادي في إطار رسالة ودولة.

والآن ليسمح لي المرحوم مؤلف هذا الكتاب ومن يسلك طريق الصوفية النقية لأدعوهم للوقوف بصدق وإخلاص مع طريق الرسول عليه وآله السلام، حسب كتب السيرة الموثوقة، طيلة الفترة التي قضاها عليه وآله السلام مع رسالة الإسلام تبليغاً وتطبيقاً في مكة والمدينة، والتي نرى فيها التركيز على الجانبين العقائدي والعبادي/ الأخلاقي في المرحلة الأولى من العهد المكي وإضافة الإعداد الفكري فقط من الجانب

التشريعي مع الإعدادي السياسي في المرحلة الثانية من هذا العهد المكي، وعلى الجانب التشريعي/ التنفيذي والجهادي العملي في العهد المدني، وأقول التركيز لأن انقطاعاً بين ما كان في مكة وما سار إليه في المدينة لم يحصل وإنما هو المزيد من الاهتمام لما تقتضيه طبيعة المرحلة وما تحتاجه من مهام لا بد من أخذ الأسباب لإنجاحها، فمرحلة مكة كانت لإعداد المسلم المؤمن المنضبط في عباداته وأخلاقه مع عقيدته تمام الانضباط، والمتطلع فكرياً لقيادة المسلمين وأهل الأرض بهذا الإسلام في جميع جوانبه، وأما مرحلة المدينة فكانت بالإضافة لاستمرار سلامة العقيدة وما ينضبط بها من عبادات وأخلاق وعلاقات فردية تعطي المزيد من الاهتمام لما استجد فيها من الرسالة ألا وهو تطبيقها في الحياة وحملها دعوة وجهاداً لتنظيم بها العلاقات المجتمعية الداخلية والعلاقات الدولية الخارجية.

فلماذا يا سيدي الفاضل تفقون عند إعداد الفرد المسلم المؤمن المنضبط في عباداته وأخلاقه بعقيدته ولا تنتقلون في عملية التنقيف والإعداد الفكري إلى إعطاء الصورة الحية المستهدفة للمجتمع الإسلامي المنشود وذلك من خلال الاهتمام بالجانب الفكري/ التشريعي/ والسياسي الذي يحدد الصورة المشرفة الجذابة بحق لجميع مجالات الحياة الإسلامية المرجوة؟؟ هل ترون بأنكم رغم قدمكم وطول ممارساتكم لم تنتهوا من الإعداد الفردي بعد حتى تضيفوا إليه الجانب المجتمعي؟ وهل يجوز وطريق حمل الدعوة على منهاج النبوة واضحة لنا بما تشمله من أمور أن نفق عند الجانب الأول والثاني ونؤجل الجانبين الآخرين في الصراع الفكري مع المترددين من المسلمين وأعداء الإسلام معاً، وفي الكفاح السياسي مع أعداء الإسلام والمسلمين جهلاً أو كفراً بالأسلوب الفكري في العهد المكي ثم بالأسلوب المادي بالتطبيق التشريعي والجهادي في العهد المدني؟ إن هذا الإعداد الفكري والسياسي في العهد المكي لا يقل أهمية وخطورة في حياة الفرد والمجتمع الآن من الزمن الأول، إذا أردنا المقارنة بينهما مع أنها مرفوضة أمام وجوب الالتزام بالمنهاج الرباني في الطريقة لحمل الدعوة.. ولكن من باب التطمين والاطمئنان يكفي القول أن تطبيق التشريعات الإسلامية هو أعظم وأقوى سبب في نشر الدين الإسلامي في الأرض، كما وقع في الماضي وكما سيقع في الحاضر والمستقبل بعون الله وتوفيقه.. وأما القول بأن التصوف الإسلامي هو (جوهر الإسلام، وروحه النابضة، وحيويته الفعالة) فأظن أن هذا انفعال يتجاوز الحقيقة لأن جوهر الإسلام، يا أخي، هو عقيدته، وروحه هي إدراك صلة المسلم لعلاقته بالله بحيث يربط جميع أعماله الفردية والجماعية بالحلال والحرام مما ينبثق عن عقيدته، وحيويته هي تفاعل الفرد والجماعة مع فكره ومشاعره الإيمانية الكفاحية الجهادية.. بينما التصوف الإسلامي يقف مع الجوانب الفردية في الإعداد الروحي العقائدي والعبادي/ الأخلاقي..

والآن لنقف مع فصول الكتاب لنرى مدى تقيد المؤلف رحمه الله في ما بينه من الصوفية في هذه المقدمة.

الفصل الأول - من كتاب التصوف

ويشتمل على: تعريف التصوف من حيث اشتقاقه، ونشأته، وأهميته.

أما تعريف التصوف فهو يرتكز على الأخلاق حتى كاد يغيب غيرها من التصوف ولا أقول من الإسلام إذ لخص الشيخ الجنيد التعريف فقال بأنه (استعمال كل خلق سني وترك كل خلق دني)، وعرفه غيره بأنه (كله أخلاق، فمن زاد عليك بالأخلاق زاد عليك بالتصوف)، وينتهي المؤلف ليقول (فعماد التصوف تصفية القلب من أضرار المادة، وقوامه صلة الإنسان بالخالق العظيم).. وبهذه التعاريف وغيرها لم يخرج المؤلف عن ما سبق ذكره.

وأما اشتقاقه فكما قال المؤلف لا اهتمام بالتعابير سواء جاء من الصفة أو الصفاء أو الصفوة أو الصف أو الصوف.. فهو الجانب الروحي في الإسلام أو الجانب الإحساني أو الأخلاقي، مما يؤكد استمرار المؤلف رحمه الله مع ما ذكره في مقدمته.

وأما نشأة هذا التصوف فيرى المؤلف أخذاً عن بعض الكتاب وفي ظليعتهم الدكتور أحمد علوش بأنه لم يكن لهذا العلم حاجة للظهور مع الصحابة والتابعين لأنهم كانوا يمارسونه عملياً لقربهم من الرسول عليه وآله السلام ولكن عندما تضاعف التأثير الروحي وضعف الإقبال على العبودية بالقلب والهمة قام أهل الرياضة والزهد بتدوين هذا العلم ليسدوا نقصاً بين العلوم.

ما يلفت النظر في هذا القول أن الجانب الروحي كان في تلك العهود بالفعل في قمة الحياة الإسلامية للأفراد في العقيدة والعبادات والأخلاق والمعاملات الفردية.. ولكن القول بأن طريقة التصوف (أسسها الوحي السماوي) لأنها مقام الإحسان المذكور في الحديث الشريف أي (مقام مراقبة ومشاهدة: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) هذا القول يستحق الوقفة لأنه جعل القول بأن طريقة التصوف التي يرونها في الإنسان نزلت بالوحي، وأنها ركن الدين الثالث، وهو مقام المراقبة والمشاهدة، بينما الركن الأول هو الإسلام، أي الطاعة والعبادة، والركن الثاني هو الإيمان، أي النور والعقيدة، فهل التشريع الإسلامي يدخل تحت الطاعة فهو جزء من الإسلام؟ ثم لماذا جعلت العبادة مع التشريع إذا كان هو المقصود بالطاعة مع أنه لا وجود له في هدف العمل الصوفي؟ ثم لا أظن أنه قد فات المؤلف رحمه الله والسالكين في هذا الدرب أن هناك أحاديث نبوية لا تميز بين الإيمان والإسلام بل تجعل أحدهما مكان الآخر، ويمكن التأكد من ذلك بالرجوع لموقعه من تفسير الإمام القرطبي. ثم أنه لا توجد أي إشارة في أي حديث نبوي أو نص قرآني على أن الإحسان ركن من الدين الإسلامي، لأن الإسلام كدين الإيمان أساسه والإحسان يخالطه في جميع مجالاته. وأنت عند عبادتك تلتزم طاعة الله في الأمر والنهي، في الفرض والنفل، مستحضراً الرغبة والرغبة ابتداءً والمحبة انتهاءً، وفي ذلك تكون محسناً لطاعتك، ولكنك عندما تربط طاعاتك بالله ولكن يداخلها أي قصد دنيوي فإنك تفسدها بجعلها لغير الله،

فإحسان العبادة في هذا الحديث الذي اسميته بحديث الأركان شامل لكل الطاعات في جميع جوانب الحياة الفردية والمجتمعية وليس منفصلاً عنها ولا ركناً ثالثاً لها.. وها هو ابن خلدون يؤكد في مقدمته مما أورده المؤلف بأن المقبلين على العبادة والمعرضين عن زخرف الدنيا وزينتها هم الصوفية.. فهل من يفعل ذلك هو الملتزم بالإحسان في العبادة كما ورد سابقاً؟! أم أن الإحسان شامل لجميع الطاعات في الأمر والنهي؟ ثم ها هو ابن خلدون والمحدث محمد صديق الغماري في كتابه المستشهد به من قبل المؤلف واسمه (الانتصار لطرق الصوفية) يؤكدان أن الصوفية هي الإقبال على العبادة والزهد في الدنيا. كما هو كتاب (كشف الظنون) لحاجي خليفة يقول بأن العباد والزهاد هم الصوفية، بغض النظر عن تهجمات المستشرقين عليهم، وأنهم هم الذين يتميزون عن غيرهم بالاستغراق في الروحانية، والتخلي عن متع الدنيا وطبائتها وعن التصدي للقيام بالأعمال المادية من جهاد وإمارة وحكم وغيرها من تطبيقات الأحكام الشرعية ونشرها بالطريقة التي حددها الرسول عليه وآله السلام وسار عليها كحاكم وليس كرسول فقط.. فكيف قصرتم، يا أخي المرحوم، طريقة الإسلام هذه على الزهد والعبادة والفردية مع أن الرسول عليه السلام لم يقبلها ممن طلبها أو أرادها لنفسه من الصحابة؟!!

وأما بشأن أهمية التصوف فإن المؤلف رحمه الله يرى أنه العلم الذي يهتم بتنقية القلب من أمراضه الباطنية ليصل بالإنسان إلى السلامة في جميع مجالات حياته.. ويقول بأن ظاهر الإنسان من عبادات ومعاملات وأخلاق مرتبط بباطنه من معتقدات ونوايا فلا بد أن يخلص قلبه من أمراضه ليخلص جوارحه من عيوبها.. وهذا يعني أن الفرد المسلم تنحصر مكوناته بأربعة هي: الإيمان السليم، والعبادة الخالصة، والمعاملة الصحيحة، والأخلاق الفاضلة، وهذا هو بالفعل عين الحق والصواب، مما يجزم أن الصوفية تركز على إصلاح الفرد عن وعي وبينة، وأن منهاجها العملي لا يسعى إلا لإصلاح الفرد المسلم.

وهنا نحتاج إلى وقفة مقارنة بين الفرد وإصلاحه والمجتمع وإصلاحه، فأولاً ما زال التأكيد مستمراً على أن مهمة الصوفية هي إصلاح الفرد المسلم دون ذكر أية إشارة إلى إصلاح المجتمع المسلم، وكأنه يرى أن إصلاح الفرد يؤدي بالضرورة إلى إصلاح المجتمع على أساس مقولة من يقول أن المجتمع مكون من مجموعة الأفراد فقط، وأنه متى صلح الأفراد صلح المجتمع، وهذا قول خاطئ تماماً كما سنرى. والملاحظ أنه حتى الصفحة ٣٤ من الكتاب التي أورد فيها أن منهج التصوف يحقق الشخصية المسلمة المثالية للفرد المسلم بالمكونات الأربعة المشار إليها آنفاً ما زال يصر على الإصلاح الفردي فقط. وبالمناسبة فإنني أجزم بأن حل مشكلة فساد الأمة الإسلامية لن يتحقق بإصلاح الفرد وإنما بإصلاح المجتمع لأن إصلاح الفرد بتوفير مكوناته الأربعة لا يؤدي بالضرورة إلى إصلاح المجتمع وذلك لسببين:

الأول: لأن مكونات الفرد الأربعة هي أقل بكثير مما يلزم المجتمع بمكوناته الأربعة أيضاً والتي تلتقي أو تتلامس مع مكونات الفرد ولكن بشكل خفيف إذ

تتجاوزها لتتسع بقدر سعة المجتمع وتشابك علاقاته بالنسبة لضيق مجال الفرد وبساطة علاقاته. فالمجتمع حتى يتكون ويبقى مجتمعاً لا يتكون من مجرد تجمع الأفراد لأن مكوناته الأربعة هي: الإنسان وليس الفرد، والأفكار التي ينضبط بها سلوك الإنسان مع نفسه وربّه وغيره، والمشاعر التي تدفعه لأي عمل بالرضا أو بالكره، والأنظمة التي تنظم علاقات الفرد والمجتمع.. وأين هذه للمجتمع من تلك الأربعة للفرد؟ ففكرة العقيدة للفرد غير أفكار العقيدة والطريقة والتشريع للمجتمع، والعبادات للفرد في صلته بربه والأخلاق له في صلته بنفسه غير المشاعر التي تحرك الجماهير بشكل يختلف عن العواطف التي تحرك الفرد في مظاهر العبادات والأخلاق، والأنظمة التي تنظم جميع مجالات حياة المجتمع الداخلية والخارجية غير تلك المحدودة المعودة التي تنظم معاملات الفرد في علاقاته مع غيره..

وأقول بأن من مكونات المجتمع الإنسان وليس الفرد، لماذا؟ لأن الإنسان بصفته الإنسانية يلتقي مع الإنسان الآخر بما لديه من غرائز وحاجات عضوية، إذ كل إنسان لديه نفس الغرائز، وهي غريزة البقاء التي تظهر في الحياة بعدة مظاهر منها التملك والدفاع والسيطرة والحكم وغيرها، وغريزة النوع التي أيضاً تظهر بمظاهر عدة منها الميل الجنسي والحنان والعطف وغيرها، وغريزة التدين ولها أيضاً مظاهر مختلفة في الحياة منها العبادة والتقديس وغيرهما.. كما أن لكل إنسان نفس الحاجات العضوية ليبقى إنساناً حياً، فالمعدة وهضم الأكل، والمثانة وتجميع البول وطرده، والأمعاء والهضم والتبريز، والرئتين والتنفس وتنقية الدم، والقلب ودورة الدم، والدماغ والتفكير والإدراك.. وهكذا، فالإنسان يلتقي مع الإنسان الآخر في نفس الغرائز التي يمتاز من بينها عن الحيوان الأعجم ببيروز غريزة التدين بينما يلتقي معه بوضوح في الغريزتين الأخريين، ويلتقي الإنسان مع الإنسان بحاجاته العضوية التي يمتاز من بينها عن الحيوان الأعجم بالإدراك العقلي كوظيفة للدماغ بالذات وما يحتاجه من جهاز عصبي معقد للغاية بينما يقابل ذلك لدى الحيوان الإدراك الشعوري المرتبط بغريزة البقاء والأكل المتخير والشرب المحدد..

إذن يلتقي الإنسان مع الإنسان بنفس الغرائز والأعضاء ومظاهرها وحاجاتها ولكنه كفرد يختلف عن الفرد الآخر في مستوى قدرات هذه الغرائز وحاجات تلك الأعضاء، حتى قال من يسمون بعلماء النفس بوجود الفروق الفردية وفي نفس الوقت قالوا بالوحدة الإنسانية، بغض النظر عن أصحاب نظريات التفوق العرقي الباطلة، كما قالوا بالمساواة بين الناس وسبقهم إلى نظرة المساواة هذه بين الناس الإسلام عندما قال الرسول عليه وآله السلام «الناس سواسية كأسنان المشط..» فيكون التفضيل فيما بينهم ليس في نوعية غرائزهم وأعضائهم وإنما في مستوى قدراتهم ومستوى ما تقوم به هذه القدرات من مهمات، وجماع ذلك كله التقوى لدى الفرد المسلم كإنسان إذ كل إنسان كفرد يحتاج إلى العقيدة ليكون مسلماً، وإلى العبادة لينظم صلته بربه، وإلى الأخلاق لينظم صلته بنفسه، وإلى المعاملات الفردية لينظم

صلته بالآخرين، وبهذه العناصر الثلاثة يكون الفرد صالحاً إذا كانت صالحة كلها ويكون فاسداً إذا فسدت كلها..

ولكن المجتمع لا يتكون من هؤلاء الأفراد الصالحين إذا كان صالحاً وإنما من الإنسان الصالح بصفته الإنسانية التي تجمعها مع غيره من الناس أعضاء المجتمع بما بينهم من علاقات صالحة قوامها الأفكار الصالحة التي تجمع العقيدة والطريقة والتشريع، والمشاعر الصالحة التي تشكل مظاهر الرضى والسخط عما يجري في المجتمع أو يتطلع إليه، والأنظمة التي تنظم جميع مجالات المجتمع. ولذلك إن كانت هذه العلاقات في أي تجمع بشري طائفة كجماعة المسافرين في سفينة أو طائرة أو قطار فإنها تشكل مجرد تجمع عابر ما أسرع ما ينفرد عقده بتفرق المسافرين عند وصولهم لبلدانهم أو وجهتهم، ولكن عندما تنشأ هذه العلاقات من نوعية واحدة من الأفكار بدءاً بالأفكار الأساسية العامة التي تشمل جميع أفكار العقيدة، ومروراً بالأفكار العامة التي تنبثق عن تلك العقيدة من أفكار التشريع، وانتهاءً بالأفكار العامة التي ترسخ تلك الأفكار العقيدية والتشريعية في الحياة وتحافظ على بقاء المجتمع سواء من خلال ما يطلق عليه الإسلام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو ما يسمونه اليوم بالدعاية والإعلان وضغط الرأي العام، أو من خلال العقوبات بأنواعها لمن لا بد له من ذلك من أجله وأجل المجتمع الذي هو يشكل عضواً فيه.. فعندما تنشأ هذه العلاقات على هذه النوعية من الأفكار العامة والفرعية، وعلى نوعية واحدة من المشاعر التي تترجم تلك الأفكار إلى أقوال وأعمال في مسار الحياة المجتمعية، وعلى نوعية واحدة من التشريعات والأنظمة التي تنتظم جميع جوانب العلاقات المجتمعية.. فعندها فقط يوجد المجتمع ويستمر وجوده بشكل صالح وطيب، ويفرض هذه الطيبة وذاك الصلاح حتى على الفرد غير الصالح فكيف بالصالح بمكوناته الأربعة المذكورة فإنه يزداد صلاحاً على صلاح لأنه يحتضنه مجتمع صالح ويرفده بدوام الصلاح له ولغيره ممن تحدثه نفسه بعدم الصلاح ولا يجد الفرصة لإظهار حديث نفسه الفاسد إلى العلن، بينما لو كان الفرد الصالح هذا في مجتمع فاسد فإنه ستنعز عناصره الصالحة للهزات مما سيحرمها من العطاء بل من البقاء لكثرة ما تلاحقها العلاقات الفاسدة بالتدمير والتخريب.. وما يعيشه المجتمع اليوم في البلدان الإسلامية من فساد في علاقاته التي تتآمر حتى ضد الأفراد الصالحين وتلاحقهم بجميع صنوف القهر والاضطهاد لتنتهي صلاحهم وعطاءهم وتعيدهم إلى حظيرة الفساد.. إنه وأيم الله أكبر دليل مشاهد محسوس..

ونعود ونرجع إلى موضوع أهمية التصوف فأجدها وهي تحاول إيجاد الفرد المسلم الصالح لا تستطيع أن تحقق له الصلاح الكامل ولا الإبقاء على هذا الصلاح.. وهكذا كانت مهمة التصوف قاصرة ومقصرة، وهي مثلها مثل مهمة أية حركة إسلامية تستهدف إصلاح الفرد المسلم فقط ولا تتجاوز إلى إصلاح المجتمع ليكون مسلماً صالحاً بتوفر جميع علاقاته التي تشمل الفرد وتتجاهله..

هذا وإن أمثال الإمام الغزالي عندما عايشوا الصوفية في فترة طويلة أو قصيرة من حياتهم كانوا يرون أن العمل معهم فرض عين، ولكن متى؟ كان ذلك عندما كانوا يعيشون في مجتمع إسلامي يغلب ويسيطر عليه الصلاح والعلاقات الصالحة وليس في هذا المجتمع الذي نعيش فيه اليوم والذي تسيطر عليه المفاسد والعلاقات الفاسدة.. ومثل هذه الرؤية تتكرر من مختلف بل جميع العلماء الذين عاشوا مع الصوفية النقية أو عرفوها عن قرب فقط في تلك العهود الإسلامية التي لم تكن تسيطر عليها ما يسيطر على المجتمع اليوم من العلاقات والأفكار والمشاعر والنظم الفاسدة.. ولذلك نقرر أن من حقهم أو من الحق عليهم أن يروا ما رأوا ليزداد الفرد صلاحاً مما يعين ويرفد المجتمع الصالح بالمزيد من الصلاح وينقذه من مواطن الفساد وإن كان الواجب إصلاح مفاسد المجتمع قبل كل شيء..

وهكذا يظهر السبب الثاني من كون صلاح الفرد لا يصلح المجتمع بينما صلاح المجتمع يصلح الفرد ويستمر صلاحه.

الفصل الثاني - من كتاب التصوف

والذي يتحدث عن المنهج العملي في التصوف تحت عناوين فرعية ثمانية يمكن متابعة الوقوف معها فيما يلي:

فأما المقدمة، فتؤكد أن منهج الصوفية العملي من أجل بناء الفرد المسلم بعقيدته وعباداته وأخلاقه ومعاملاته هو المنهج الأول والأخير ودون أية إشارة لبناء المجتمع المسلم وكأنهم ما زالوا يعيشون في المجتمع الإسلامي وفي ظل حكم الإسلام وراية الإسلام ولو مهما لحقه من خلل أو انحراف ولكن دون سقوطه في هوة الضياع وفقدان الهوية الإسلامية!! ومن القول الحق أن الصوفية تحقق في مجال الإصلاح الفردي نجاحات حيث وجدت فرصة وتشجيعاً، بغض النظر عن سبب وجود هذه الفرصة في هذا البلد أو ذلك، أو دواعي وجود هذا التشجيع هنا أو هناك، ولكن يبقى السؤال المر يطرح نفسه: أين هذا النجاح الفردي الموجه والمسيطر عليه من ذلك النجاح الكاسح الذي ما أن يتحقق للحركات الإسلامية الشمولية حتى يقتلع الأوضاع الفاسدة من جذورها ويقوم بدلاً منها علاقات وأوضاعاً صالحة أي صلاح!؟

وأما الصحبة، فإن لها الأثر الكبير في تكوين الفرد الصالح واستمرار صلاحه إذا حرص عليها مع الصالحين وتجنب العلاقات الفاسدة، ولكن أنى له ذلك في المجتمع الفاسد؟ اللهم إلا بشيء من العزلة. وأما القول بأن هذه الصحبة هي التي كان لها أكبر الأثر في بناء صحابة الرسول عليه وآله السلام فهذا غير دقيق لأنه عليه وآله السلام كان يستهدف بناء المجتمع الإسلامي وهو يبني الأفراد، وقد هاجر ليثرب من أجل ذلك، ولم يكن يقصر عمله على البناء الفردي الذي تقف عنده الصوفية. وأما الاستشهاد بحديث الطائفة على الصفحة ٤٣، وأنهم هم رجال الصوفية، فهو في غير محله، لأن تلك الطائفة الظاهرة على الحق لا تقف في عملها عند المعاناة المحدودة في بناء

المسلم بل تتجاوزها للمعاناة الشديدة الاستشهادية بالتصدي للعلاقات الفاسدة والعمل على إعادتها للصلاح بعد أن فسدت. وأما الاستشهاد بالآية ١٠٣ من سورة الكهف فإنه حصر للمعنى الجماعي الذي تتحدث عنه في البناء الفردي إذ تتحدث عن الأخسرين أعمالاً وليس الخاسر عمله، وعن ضل سعيهم في الحياة الدنيا وليس من ضل سعيه، وعن يحسنون صنعاً وليس من يحسنه.. وهكذا الآية ٢١ من سورة الأحزاب فإنها بتحريضها على الاقتداء والتأسي بالرسول عليه وآله السلام ترفض النظرة الإصلاحية الفردية التي لم يكن الرسول عليه وآله السلام يقف عندها، فكيف نسمح لأنفسنا أن نرى التأسي بالرسول عليه وآله الصلاة والسلام للإصلاح الفردي فقط؟!!

وبالفعل فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يتلو على صحابته الآيات ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، أي القرآن والسنة، بما فيهما من عقائد وعبادات وأخلاق ومعاملات لا ليبنوا شخصياتهم الفردية بل المجتمعية التي تصدت بالفعل لقيادة المجتمع في السلم والحرب معاً.. فقد كان عليه وآله الصلاة والسلام يعدهم كأعضاء بل قادة للمجتمع المقبل.. وهكذا كانوا.. وهكذا يجب أن نكون، لا أن نحصر التركيبة بالبناء الفردي بل ببناء عضو المجتمع الإسلامي المستهدف، ولا أن نرى حصر المزمكين بمن يقودون الأفراد للبناء الفردي الذي رأينا كيف تجاوزه الرسول عليه وآله السلام وهو يهاجر للمدينة وإلا لبقى في مكة وما حولها، وتجنب التصدي حتى هناك لفساد العلاقات المجتمعية واكتفي بمقومات الفرد المسلم وأرتاح مما لاقاه من قريش وهي تراه يسعى لقلب مجتمعها بجميع علاقاته إلى حال جديد تماماً مما دعاها أن تعرض عليه ما عرضت دون استجابته عليه وآله السلام..

وعند استعراض ما استدل به المؤلف رحمه الله من النصوص القرآنية والنبوية نرى باليقين القاطع أنها فرض عليها الحصر في الإصلاح الفردي فرضاً وهي القرآن الكريم كله والسنة المطهرة كلها وأنها من هذا الحصر براء.. هذا بالإضافة إلى أن صلاح الفرد يتحقق بصلاح المجتمع وأن صلاحه يدوم بذلك وليس العكس.. فأى نص من هذه النصوص وغيرها، وما أكثرها، إلا ويصب في حقيقة الرسالة وطريقة رسولها عليه وآله السلام ولا يخرج عنهما، وأي إخراج لها عن ذلك ينأى بالنفس وعملها في حمل الدعوة عن جادة الإسلام الصحيحة الحقة، وأنني على يقين أن المؤلف رحمه الله وأمثاله لا يقبلون بذلك.

وأما أقوال الفقهاء والعلماء، والتي انتهت إلى (وجوب اتخاذ الإنسان شيخاً له) فإن هذا بالفعل ما نصت عليه تلك النصوص القرآنية والنبوية ولكن ليس باتخاذ شيخ وإنما باتخاذ أمير، حتى أن الرسول عليه وآله السلام قد شدد على ذلك عندما أمر الثلاثة من المسلمين في سفر أن يؤمروا عليهم أحدهم، فكيف في الحضر بل كيف بالجماعة أو الحركة أو الحزب.. لا بد أن يؤمروا عليهم أحدهم، وذلك هو الشرع الإسلامي، وذلك هو رسوله عليه وآله الصلاة والسلام..

وها هو الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله يبين ما فعله الرسول عليه وآله السلام عندما أشار إلى ذلك وإن كان قد تجوزَ عندما قال بأن الرسول عليه وآله السلام (قد جعل الخلفاء الراشدين نواباً عنه..). قبل انتقاله إلى الدار الآخرة مع أنه عليه وآله السلام لم يرو أنه جعل أحداً نائباً عنه بمعنى خليفة له، وإلا لما حصلت مشكلة سقيفة بني ساعدة، ثم أن الخلفاء الراشدين خلفوا الرسول عليه وآله السلام في تطبيق الشريعة وحملها للناس بالجهاد بالكلمة والسيف، ودون إكراه لأحد على اعتناق الإسلام، فكانوا نواباً عن الأمة صاحبة الحكم والسلطان في ذلك وليسوا نواباً عنه عليه وآله السلام.. وما كلمات الخليفة الراشد الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو يقف بين الناس في أول خطبة له بعد توليه الخلافة إذ قال: «وليت عليكم ولست بخيركم، أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم».. إلا أكبر دليل على ذلك. وأما قول الإمام الغزالي (يحتاج المرید إلى شیخ وأستاذ يقتدي به...) فهذه مصطلحات تراها الصوفية وبالاحتم نراه يرددها في فترة انخراطه فيها، وهو نفس الحال مع الأمير عبد القادر الجزائري.. وبالطبع لن يكون السادة ابن عطاء الله السكندري والشيخ عبد القادر الجيلاني وعبد الوهاب الشعراني وغيرهم من شيوخ الصوفية إلا دعاة لاتخاذ الشيخ.. ونعود وننظر في موقف الإمام الغزالي فنجدده وسلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام وأمثالهما من كبار العلماء الذين كان لهم عهد بالصوفية يختلفون في نظرتهم عن الشيخ الصوفي بما يتناسب مع معرفتهم لأئمة المذاهب وتلامذتهم في تلقي العلم عنهم و الاقتداء بهم.

وأما عنوان (البحث عن الوارث المحمدي) فإنني، وليعذرني المؤلف رحمه الله، لم أستسغ هذه النسبة إلى اسم الرسول عليه وآله السلام، لا رفضاً لذات الاسم ولكن لأن القدوة والأسوة جعلت به عليه وآله السلام بصفته رسول الله لا بالصفة الشخصية {ولكم في رسول الله أسوة حسنة}. ثم أنه لمن المعلوم أن الرسول عليه وآله السلام، كغيره من الأنبياء، لم يورث إلا الرسالة «العلماء ورثة الأنبياء» أي لجميع علماء هذه الرسالة فلماذا يختص الشيخ الصوفي بهذا اللقب (الوارث) مع أنه لم يتأس بقيادة الرسول عليه وآله السلام بمجرد العلم بالرسالة وإنما أيضاً بالعمل بها والحمل لها وفقاً لقيادته عليه وآله السلام الجماعية لبناء المجتمع الإسلامي وليس فقط يتأسى بالجانب الفردي من الرسالة؟! فهل يستحق من يحصر الأسوة في جزء من الرسالة والرسول أن يوصف بأنه (الوارث)؟!!

والقول في نهاية الصفحة ٧٧ وبداية الصفحة التالية بأن الطبيب يداوي الأجسام والشيخ يداوي الأرواح، في هذا القول ما لم يرد على لسانه عليه وآله الصلاة والسلام ولا أفعاله لا هو ولا صحابته الكرام، لأن هذا التقسيم للإنسان إلى جسم وروح، وأن لكل منهما كما يوضح القول عالمه الخاص الذي يحتاج معه بالاختصاص في التعامل وبشكل غير الآخر، ليس له أي وجود في نظر الإسلام لا في القرآن ولا السنة وإنما هو مجرد تآثر وترديد لنظرة الفلسفة الهندية التي ترى تعذيب الجسم لتسمو

الروح، وأما المعلوم في نظر الإسلام فإن كلمة الروح من الألفاظ المشتركة، وأن سر حياة الجسم الذي يحمل نفس اللفظة لا يعلمه إلا الله تعالى {ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً}، فإن كان هذا السر هو يداويه الشيخ فكيف يداوي ما لا يعرف؟ وإذا كان المقصود الروح في الصلة بين الله والناس فهذه الروح ليست جزءاً من الجسم ليداويها الشيخ كما يداوي الطبيب الجسم التي هي جزء منه وإنما هي تعرف بإدراك تلك الصلة من المخلوق لخالقه وعلاجها لا يحتاج إلى شيخ وإنما إلى الإقبال على الطاعات كلها سواء في إطار فردي أو جماعي، أي أنها مع الناس تكون بحرص الإنسان على الالتزام بالحلال والحرام في كل معاملاته معهم مما يجعل الناظر إليه يقول: إن هذا الرجل كله روحانية.. فإذا قصد بمداواة الأرواح في رأس الصفحة ٧٨ تقوية الصلة بالله ومن خلالها بالناس فهذا شيء آخر غير التفريق بين أطباء الجسم وأطباء الروح على اعتبار أن الإنسان مكون من قسمين هما الجسم والروح.. وأما هذه الشروط الأربعة التي حددت لتأهيل المرشد أو الشيخ للتصدي للتوجيه والإرشاد فمن البدهي أن تحدها الصوفية كجماعة أو تنظيم إسلامي، ولكن ماذا يعني الشرط الثاني؟ أن يكون المرشد عارفاً بالله تعالى، فما هذه المعرفة؟ هل من مسلم يؤمن بالله تعالى لا يعرف أنه سبحانه خالقه ورازقه ومدبره؟ صحيح أن علمه ودرايته بذلك تتناسبان مع مستوى علمه الشرعي ولكن القول بالذوق والشهود فهذا لا علاقة له بالمعرفة والعلم وإنما هي حالة نفسية وجدانية يستشعرها من قويت صلته بالله تعالى وسمت بكثرة الطاعات وتحمل التضحيات.. ولا أظن أن أحداً يدعي معرفة الذات الإلهية لأنه {ليس كمثله شيء} ونفي المثلية ينفي العلمية وبذاته سبحانه {يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار} كما أنه بصفاته سبحانه {ولم يكن له كفواً أحد} فلا الإدراك الحسي ممكن، ولا الإدراك العقلي ممكن بين المخلوق الحادث والخالق القديم من الأول للثاني سبحانه، مما يفرض استحالة ذلك على حاسة البصر وشهودها وعلى حاسة الذوق وذوقها فكلها مثل غيرها من صفات وذات الإنسان المحدود لا تصل لمعرفة ذات وصفات الخالق المطلق.. الأمر الذي يفرض تجنب استخدام تعبير (معرفة الله) اللهم إلا إذا كان من المصطلحات والرموز الغامضة والمعروفة بها الصوفية..

وأما (أخذ العهد)، فلاشك أنه ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة مما يجعل حق أي مسلم يقود أي جماعة، كما فعل الرسول عليه وآله السلام، أن يأخذ من جماعته العهد أو القسم ليقوي بذلك بإطراد صلتهم بالله وفي الأعمال لله. والمهم الوفاء بالعهد الذي يعطى، والحرص على التسامي في الطاعة عليه.

فأما (تناقل الإذن) فلاشك أن الإذن يتناقله الرجال ليستمر مع استمرار الالتزام مع الجماعة ما دام هناك من يحرص على الالتفاف حول الإسلام ودعوته لتأخذ طريقها إلى الواقع العملي في دولة وحكم وسلطان، ولتبقى حية في مجتمع نظاماً وشرية كما هي حية في الفرد عقيدة وعبادة وأخلاقاً ومعاملات.. والمهم شمولية هذا الإذن والعهد لمضمون الدعوة وليس الاكتفاء بجانب منها أو أكثر دون الباقي لأي سبب أو مبرر

كان.. فليكن العهد من الرسول عليه السلام هو موضع الملاحظة والالتزام وبقدر المستطاع من الملتزم لأنه لولا ما يعلمه عليه السلام من ربه مما ستعرض له الجماعات الداعية للإسلام من فتن ومصاعب لما نبه عليه السلام إلى «فيما استطعت»، ولولا أن ذلك يقتضي شمولية البيعة لما فرض التأسي به عليه السلام {ولكم في رسول الله أسوة حسنة} ولما نبه إلى أنه عليه السلام لا يصدر إلا عن ربه {وما ينطق عن الهوى} وبالرغم من ذلك لا بد من التمييز بين العهد للجماعة والبيعة للخليفة.

وأما (أدب المرید) مع شيخه وإخوانه فليس من الجائز إطلاق القول بالتسليم لذوي الاختصاص بحيث يستمر المرید في التزام التعلم الصامت مع شيخه، وإلا فإن أبسط حقوق طالب العلم للعمل السؤال فالمناقشة فالمناظرة إن لزم التي اشتهر بها التدريس في حلقات العلم مع تلامذتهم مما خرج النجباء والأئمة منهم، والمعروف أن المناقشة وليس التلقي هي سبل العلم الشرعي التي حققت صياغة العقول والنفوس مما جعلها تنطلق للعمل بما علمت ولتعليم ما علمت.. فلم يمنع المرید منها؟ بلا ريب أن أحداً من العلماء لا يقول بأن المناقشة تعني عدم التقدير والاحترام للعالم، وأنها مع توفر كل التقدير والاحترام تعني المزيد من العلم والوضوح في العمل..

بالطبع هذا في ميدان الآداب الباطنة، وأما في الظاهرة فلا غرابة في شيء من ذلك بين التابع المأمور وبين المتبوع الأمير، وإلا لما كان أميراً، ولا حتى في (خدمته بقدر الإمكان) وإن كان الرسول عليه وآله السلام كان يشارك أصحابه رضوان الله عليهم حتى في إعداد الطعام بجلب الحطب، بالإضافة إلى قوله عليه وآله السلام (سيد القوم خادمهم). وأما آداب المرید مع إخوانه فلا ريب أنها مما يطلب شرعاً من الجماعة أي جماعة مع أميرها بل المفروض في كل منهم التسابق مع الآخرين في الحصول كأعضاء في جماعة على العلم والقُدوة والعمل بموجبهما، ولكل مرید ومأمور قُدوة بالصحابة رضوان الله عليهم أجمعين مع الرسول عليه وآله الصلاة والسلام.

وأما (العلم) فقد ورد هذا الموضوع في الكتاب دفاعاً عن الصوفية كما ورد في الحاشية التي تتهم بالتقليل من قيمة العلم. ولكن هل يتوفر العلم الشرعي الكامل لدى من يقول في الصفحة ١٠٥ (إذ ليس التصوف إلا التطبيق العملي للإسلام كاملاً غير منقوص في جميع جوانبه الظاهرة والباطنة) مع أنها تقف عند الإصلاح الفردي اللهم إلا إذا كان ما تفعله هو الإسلام الكامل ولا تعتبر التشريعات وأحكامها اللازمة لتنظيم المجتمع الإسلامي في الداخل وفي علاقته مع الخارج من الإسلام في شيء! ثم إذا كان الكتاب يستشهد بحديث (فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب) و(العلماء ورثة الأنبياء) فلماذا تركز الحركة الصوفية كل مهمتها على الزهد والعبادة؟ ثم الملاحظ أنه لو وقفنا مع بقية النصوص النبوية لما وجدنا إلا النزر اليسير من الفضل للعابد أما العالم ولا سيما العامل بعلمه والداعي إليه فهو صاحب الفضل الأكبر.

وعند الحديث عن تعلم علوم فرض العين، كما أطلق عليها، في مجال العلوم المتصلة بأحوال القلب من توكل وخشية ورضا.. لا ندرى ما هذه العلوم، وفي أي باب

من أبواب العلم يمكن أن تعلم، إذ هي كلها وأمثالها مجرد مظاهر من غريزة التدبير تتوفر للمسلم تبعاً لممارسته للطاعات المختلفة. ثم ما هي هذه العلوم المتصلة بالأخلاق، بل هل للأخلاق من علوم وهي مجرد سلوكيات في حياة المسلم الفرد تأتي كنتيجة لانضباطه بالأوامر والنواهي المتصلة بها من مثل: لا تكذب، لا تغش، لا تنافق أو أصدق وأخلص وتواضع؟ فما هي مثلاً علوم التواضع والكبر والكرم والإخلاص والصدق والوفاء؟ إنها ليست علوم بل ليس لها علوم وإنما هي مجرد أوامر ونواه (أفعل ولا تفعل) للعلم بها والعمل بها في حياة الفرد المسلم كأخلاق حسنة أو يتجنبها كأخلاق سيئة. وأما علوم الكفاية فالملاحظ أن الكتاب أوردتها بمعنى (ما يتوقف عليها صلاح الأمة) على الصفحة ١١٠، وهنا يأتي التساؤل: لماذا تجاوز الفرد في الحديث عن العلوم إلى الأمة والمجتمع؟ إذن هو يعلم أن للفرد شيئاً وللأمة والمجتمع شيئاً آخر، فأين هو هذا الآخر، وأين هي الأعمال المترتبة واللازمة لهذا الآخر؟ ثم عند خاتمة هذا المبحث، وعلى الصفحة ١١١، ورد بأن السادة الصوفية هم (أهل العلوم والمعارف) وأنهم بعد (أن حصلوا العلوم العينية عمدوا إلى تطبيق العلم على العمل) فلماذا حصر العمل بالعلوم العينية المختصة بالفرد والإصلاح الفردي دون الكفائية، كما يقول، الشاملة للأمة والمجتمع فجعل الهدف (إصلاح القلب وتركية النفس) للفرد وكأن الأمة والمجتمع قد تركت علومهما لغير الصوفية أم أن علوم النفس هذه هي كل العلوم الشرعية التي يجب الانشغال بها من دون غيرها؟ وهل هذا فعل الرسول عليه السلام؟

وأما (مجاهدة النفس وتزكيتها) فقد جاء فيه التركيز بوضوح ما بعده وضوح على الإصلاح الفردي، وأن طريقته هي هذه لأن للنفس صفات خبيثة يجب مجاهدتها وتزكيتها منها، ولكن لماذا لا نذكر قوله تعالى {ونفس وما سواها، فآلهمها فجورها وتقواها} والذي يؤكد فيه سبحانه أنه خلق في النفس قابلية الخير مع قابلية الشر في أصل خلقها وتسويتها على أحسن تقويم؟ ثم لماذا لا نذكر مع هذا التحديد الخلقي بأنه تعالى قد علمنا ما نفعه إزاء هذه الازدواجية التي خلق النفس عليها فقال سبحانه {قد أفلح من زكاهها، وقد خاب من دساها} بمعنى أنه بالمزيد من الطاعات الخالصة لله من الفروض والنوافل نزكي النفس من الشر وندفعها في طريق الخير فتظهر على الفرد حالة السمو الروحي في تصرفاته وأعماله. ثم إذا كنا نتكلم عن الجهاد والمجاهدة قبل الهجرة إلى المدينة حيث أصبحت النصوص الواردة في الجهاد كلها تتصل بالقتال الحربي للأعداء بعد الهجرة فلماذا نقف عند الفرد وإصلاحه بالزهد والعبادة والأخلاق الفاضلة والمعاملة الحسنة؟ هل الإسلام الذي بين أيدينا الآن هو إسلام مكة دون المدينة أو الاثنين معاً؟ فلماذا نركز على مجاهدة النفس ونترك جهاد الأعداء في باب التثقيف والإعداد النفسي والعقلي ونحن في العهد المكي مع أننا لن نصل إلى الجهاد الحربي إلا بهذا العمل التثقيفي الجماعي عندما ينتقل الإسلام معنا من دعوة إلى دولة كما فعل الرسول عليه وآله السلام عندما طبق شرع الله في الأرض في العهد المدني ورفع راية الجهاد الحربي لحمل دعوة الإسلام للناس كافة مستخدماً القتال لإزالة الحواجز المادية التي كان يضعها الأعداء لمنع وصول الإسلام ودعوته لحياة البشر..

لماذا نفعل ذلك؟ إنه لمن المقطوع به أنه {وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين}، وأن الرسول عليه السلام لم ينتظر في مكة ليصلح جميع أفرادها ثم يقيم حكم الله في الأرض بل هاجر بعد بيعة العقبة الكبرى لينشئ مجتمعاً صالحاً كان يستهدفه ليذيب كل الأفراد في بوتقته، فالصالح يزداد صلاحاً ويستمر صلاحه والظالم يرى عدل الإسلام ورحمته فيدخل فيه أو يسانده من باب ما يراه من خير له وغيره. وهكذا فعل عليه السلام عندما حمل راية الجهاد ليفتح مكة أولاً، معلماً لنا وللبشرية طيلة عهودها بأنه لا يجوز الوقوف والانشغال بالعهد المكي بل لا بد من أن يجعل مجرد مرحلة للعهد المدني، وأن أي وقوف بل بتر للعهد المكي يعني ترك الباطل والفساد يستشري في البلاد والعباد... وهو المشاهد الملموس. وبالتأكيد سيكون مثل هذا الوقوف المنقوص عند العهد المكي فرصة تمنحها بأيدينا للباطل نساعد بها على البقاء والاستشراء.. وهل يقبل بذلك المسلم الواعي بحق على إسلامه وواقع أمته؟!

وأما الحديث عن القلب على الصفحة ١٢٣ فهو يجعل من القلب وهو مضخة الدم في الصدر البشري مرتكز الإيمان مع أن التدقيق في جميع النصوص التي وردت فيها هذه الكلمة يوضح أنه إما يقصد بها العقل أو تأثير العقل على القلب بما يحدثه الجهاز العصبي من هياج العاطفة وأثر ذلك على نبض القلب، وها هو الفراء يقول في لسان العرب {إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب} بأنه العقل، ويقول معنى: ما لك قلب أي عقل، ثم إن الآيات الكثيرة التي تدعو أصحاب العقول والألباب للتفكير في خلق الله تؤكد أن العقل هو محل الإيمان والاعتقاد وليست مضخة الدم التي في الصدر، والتي بالطبع تتسارع حركتها تبعاً لتأثير المثيرات في الجهاز العصبي ومركزه الدماغ، وكذلك تبطئ تبعاً لنقص أو ذهاب هذا التأثير، وما تقلب القلوب بين السرعة والبطء إلا تبعاً لتأثير العقل والذي يظهر على الجسم بظهور تأثيره على حركة القلب بحيث يظهر معها معنى النصوص التي تتحدث عن القلب، ونحن نلاحظ أن الإنسان عندما يظن عقله أن خطراً ما يتهدهه فإن نبض قلبه يتسارع ثم يعود لوضعه المعتاد عندما يذهب من عقله هذا الظن، كما نلاحظ أنه عندما تثار عاطفته من خلال مثير ما يرد للعقل فإنه يتسارع النبض القلبي ثم يعود لحاله الأول عندما يذهب المثير، فمثلاً عند الخوف يقذف القلب بالدم إلى الأطراف حاملاً معه عناصر التقوية لها لتستعد للهرب أو الدفاع، بينما عند الخجل أو الحياء فإنه يقذف الدم إلى الوجه بالذات فتظهر حمرة ليكشف لمن يراه عن مدى تأثره بالموقف الذي يتلبسه.. فسبحان الحكيم الخبير في خلقه وما يلزمهم في حياتهم.. وفي الخلاصة إن الحديث عن القلب يحتاج إلى إعادة نظر كلية من منطلق النصوص الشرعية العديدة لينتهي من إسناد مهمات وهمية للقلب مع أن ذلك كله صاحبه العقل وما يخزنه من أفكار ومقاييس وقناعات تظهر على حركة القلب الدموية بما يقوم به الجهاز العصبي الدماغي من مهمات تحقق للإنسان إمكانيات أداء أعماله من خلال أعضائه الجسمية الداخلية والخارجية.

وأما محاولات رد الشبهة والتهجم على الصوفية بأنها تعود إلى أصل بوذي أو برهمي فلاشك أنه تهجم مردود مذموم وبالذات بشأن الصوفية النقية المستندة إلى

الكتاب والسنة، ولكن ليسمح لي المؤلف رحمه الله بلفت نظره إلى أن القول بتقسيم الإنسان إلى جسم وروح يبقى هذه الشبهة في حقهم مهما كان صفاؤهم.. فيا حبذا لو حصرت الروح والروحانية بالصلة بالله تعالى وإدراكها وظهورها على أفعال الإنسان، وعندها تذهب هذه الشبهة أيضاً إلى غير رجعة.

وأما (الذكر) فإن قوله سبحانه {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} يتحدث عن مهمة العبادة التي خلق الجن والإنس من أجلها ولم يتحدث عن معرفة الله، فمتى كانت العبادة هي المعرفة؟ وهل معرفة الشر تعني عبادته ومعرفة الخير تعني عبادته؟ أم أن الاعتقاد بوجود تجنب الشر وفعل الخير هو الذي يدعو المعتقد بذلك لتجنبه أو فعله؟ فلا النص يسمح بهذا الاستدلال ولا المعرفة هي الغاية من خلق الإنسان بل الغاية هي العبادة وشتان بينهما. ثم إن المولى سبحانه عندما يقرر {سيذكر من يخشى} يرتب على الخشية منه سبحانه التذكر لوجوده كخالق ومدبر معاً، وأن المخلوق من لا يملك لنفسه التدبير السليم إلا بالتزام تدبيره سبحانه وأن تدبيره سبحانه لا يعمل به المخلوق إلا بالأخذ بما شرع في ذلك في الكتاب والسنة.

وأما (معاني الذكر) فالذكر كما يقول المؤلف رحمه الله لفظة من الألفاظ المشتركة بين العلم والصلاة والقرآن والتسبيح.. فلماذا اكتفيت يا أخي الفاضل بالمعنى الأخير من الذكر ورأيتم فيه سبيل الوصول إلى السمو في التقوى وطاعة الله؟ مع أن الأدلة التي يوردها الكتاب تشمل تلك المعاني ولا تقف كلها عند المعنى الأخير مع أنكم تعلمون أن هذا المعنى يقف عند تقوية صلة الفرد المسلم بربه ولا يؤثر في بناء المجتمع الإسلامي إلا بقدر ما يؤثر الفرد المتجنب استهداف إصلاح وتغيير المجتمع؟ وهل نحن في الوقت الحاضر في حال من صلاح المجتمع ما يفرض معه الإسلام وطريقة الرسول عليه وآله السلام في حمل دعوته أن نقف عند الفرد ولا نسعى لتغيير المجتمع كما كانت الحركات الإسلامية تعمل في عهود الخلافة ووجود المجتمع الإسلامي؟ لقد طال يا أخي الفاضل غياب الحكم بالإسلام فضاعت البلاد وتمزقت بعد أن استهدفها القاصي والداني من أعداء الإسلام والمسلمين، كما ضاع العباد بعد أن كادوا يفقدون تحت القهر والظلم والاضطهاد بواعث العزة والكرامة والنخوة الإسلامية، ولم يبق منها إلا القليل، وهيئات أن يكون لهذا القليل ما يرجى من التأثير إن لم يبعث الكثير من جديد؟! إن هذه الأمة عندما تشغل بهذا الذكر والدعاء عن العمل المهم بحق بل الأهم من الأخذ بالأسباب التي حددها الإسلام من أجل إعادة الحياة الإسلامية من جديد فإنها تشغل عن الخير العميم بالخير الخسيس، وتشغل عن العمل لتحقيق مجد هذه الأمة ورفع راية دينها بالعمل لتحقيق المزيد من الروحانية للفرد منها في ظل الرايات العمية! فهل يجوز مثل هذا الانشغال يا قوم؟! أم هل ترون أن الإسلام والمسلمين كأمة ومجتمع بخير كل الخير ولم يبق إلا المزيد من الصلاح والتقوى للفرد المسلم ويجزء من هذا الإسلام!؟

ها هي خلاصة هذا الموضوع تؤكد العمل الفردي، العمل (الموصل إلى الله تعالى ورضوانه) وأنه الإكثار من الذكر وصحبة الذاكرين، وكأن العمل لإعادة

الشريعة الإسلامية للحياة لا يوصل إلى الله ورضوانه! ما معنى {ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر} غير أن الخير هو الإسلام، وأن الأمر بالمعروف هو ما عرف من أحكام الشريعة، وأن النهي عن المنكر هو مما يخالف تلك الأحكام، وأن ذلك كله معاً هو الذي يجعل تلك الجماعة مستحقة للفلاح والنجاح عند الله؟

وأما (أقسام الذكر) فيراها المؤلف رحمه الله بذكر السر والجهر، وأفضلية ذكر الجهر حسب الحال، وأفضلية الإسرار في الدعاء. ثم يشير لذكر اللسان وذكر القلب والذكر المنفرد ومع الجماعة.. كم تمنيت لو كان العمل مع الجماعة الشامل لخير المجتمع بدلاً من الذكر هذا مع الجماعة، لا لأنه هو الواجب الحق فقط بل لأنه أيضاً هو الذي (يزيد في الفضل على العبادة في حالة الانفراد)، وأضيف لهذا: أنه يزيد في الفضل على كل ما عداه ما دام في الحقيقة يجمع كل شيء ويصل إلى كل شيء. وإذا كان أنس رضي الله عنه يروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذا الحديث (إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا. قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر) فهلاً تذكرنا أن قائل هذا القول هو الرسول الكريم عليه وآله السلام الذي يقول (إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما) وذلك ليعلمنا أنه يجب العمل لمبايعة خليفة واحد لحكم المسلمين بالإسلام مما يحقق وحدتهم التي بها عزتهم وقوتهم ومنعتهم أخيراً وبها نوال رضوانه تعالى أولاً وقبل كل شيء.. فهلاً وضعنا ذلك في اعتبارنا وأنه عليه وآله الصلاة والسلام قال ما قال وهو حاكم للمسلمين يطبق عليهم شرع الله كاملاً، مما لا يسمح لنا ببتتر قوله عليه وآله السلام عن حاله وحال أمته التي قال مثل هذا القول بين ظهرانيها!؟

وعند الحديث عن آداب الذكر المنفرد يخص المؤلف رحمه الله القلب (بنظر الرب تبارك وتعالى) وكان الجوارح واللسان لا نظر ولا اعتبار لها ولا لأعمالها.. صحيح إن القلب بحياته وتغذيته لها بالدم يوفر لها القدرة على الحركة، فتتوقف بتوقفه وتموت بموته، ولكن القلب والجوارح خاضعة لأوامر العقل في أدائها لمهامها، من جهة، ولبقاء سر الحياة في الجسم وهي الروح في ذات البقاء قبل الأداء، من جهة أخرى.. فكيف نخص القلب بذلك بالرغم من أهميته دون العقل الذي هو الأكثر أهمية؟! أو دون الجوارح وهي تابعة مثله للقلب وللروح المؤثرة في الكل؟! إننا إذ نتخلى عن التركيز على سر الحياة فلجهلنا بها ولكننا نتحلى بالتركيز على العقل فنكون قد أصبنا الأهم ولم نترك المهم.. ثم إن القلب ليس موضع ملاحظة عظمة المولى سبحانه، ولا طلب المغفرة والرضا منه، ولا موضع استحضار عظمة الرسول عليه وآله السلام، وإنما ذلك كله مهمة العقل، وما القلب إلا تابع له، وكذلك اللسان، هذا العضو الذي ما أن يسمع به الذكر للأذن حتى تنقله للعقل حتى يحرك بتأثيره القلب.. وهنا تظهر أهمية الذكر والدعاء الجهري لمن ذاكرتهم سمعية أكثر منها بصرية، فإن المسلم أي مسلم الحريص على المزيد من قوة الصلة بالله، مهما كانت حاله، يستطيع أن يحقق ذلك بنفس راضية مرضية..

ولكن السؤال المعتاد يعود ويفرض نفسه: إذا كنا نحرص على ذلك، وبالمزيد المزيد من الذكر حتى نكاد نملأ الفراغ إن لم نقل الوقت كله، فهل من الخير لنا وللمسلمين أن نستشعر بأن ما سنحصل عليه من حسنات وتكفير سيئات ويجعلنا دون حاجة للقيام بالفروض الأخرى؟! أليس من الواجب التنبيه على المسلم بأن هذا هو أفضل ما تملأ به فراغك، هذا بالطبع إذا بقي لدى المسلم الملتزم العامل مثل هذا الفراغ؟ وأما أن يقرر له كل هذا الثواب الجزيل لمثل هذا الذكر والدعاء دون أدنى إشارة إلى غير ذلك من الفروض والطاعات فإنني أظن أن في هذا دعوة للمسلم للتهاون إن لم يكن القعود عن القيام بكل تلك الفروض الأهم لملء الوقت إن لم يكن الفراغ.. فهل يقبل شرعاً مثل ذلك من أي مسلم؟! بالطبع لا، وأسمح لي يا سيدي الفاضل، رحمك الله، أن أقول ولن يقبل بالنتيجة مثل هذا التوجيه والإرشاد إليه.

وأما أن المرید يستطيع بتوجيه مرشده أن يسير مع الأذكار من ذكر إلى ذكر، حسب أحواله النفسية، وذلك لكي «يترقى في السير، ويتدرج في السمو الخلقي والمعارف الإلهية» فهذا ما يعود بنا إلى القول بضرورة أن يحرص المسلم على السمو الروحي يربط كل عمل وقول بالله تعالى ولو مهما كلفه من سخط الناس أو عدم رضاهم لأنه بقدر مثل هذه المعاناة في أداء جميع الواجبات الشاملة لجوانب الإسلام كلها وليس بقدر هذه الأدعية والأذكار فحسب لأنها ليست بأكثر من نافلة من نوافلها، فهو بقدر ما يطرد لديه السمو الروحي ترقياً وصعوداً، والعكس صحيح..

وأما القول بأن ذلك أيضاً فيه تدرج في المعارف الإلهية فهذا إن تجاوز السمو الروحي بالمزيد من إدراك الصلة بالله نظراً بالتفكير والتدبير، وعملاً بالمعيشة العملية في الحياة معها، إن تجاوز ذلك ودخل في مجال أبعد من مراقبة المخلوقات ومشاهدة عظم الخالق لها، أي في مجال معرفة الذات الإلهية بما يسمونه بالكشف والمشاهدة والفناء فإنه قد دخل في ما لا يمكن للعقل البشري والقدرة البشرية أن يصلوا إليه، بحيث أنه إذا حصل أي ادعاء في هذا المجال فسيكون من باب ما يسمونه بالأوهام والتخيلات والشطحات.. التي إن استولت على الإنسان خشي عليه من فقدان التوازن العقلي، وهو محل التكليف الدائم، واحتاج بالتالي إلى العلاج النفسي ليسترد توازنه وبالتالي قدرته على التكليف. وأما إذا كنا نتصور أن مثل هذه التخيلات والشطحات هي الوسيط الموصل للغاية التي هي الفناء في الذات الإلهية كما يقولون، وأننا كما يزعم الدخلاء على الصوفية نخرج عن دائرة الإدراك البشري فتسقط عنا التكاليف الشرعية.. فإن مثل هذا القول يؤكد وقوع صاحبه في حالة نفسية مَرَضِيَّة يحتاج معها العلاج للتخلص من أوهامه التي يتصور معها أنه يرى الذات الإلهية أو أنه يفنى في الذات الإلهية أو أنه جزء أو نفس الذات الإلهية.. وكلها درجات من الوهم يمر الإنسان المريض بها تبعاً لقوة المرض النفسي الذي يمر به..

وأما (حكم الذكر بالاسم المفرد «الله») ومدى جواز ترديد ذلك باستمرار حتى «يخرس اللسان ويصل إلى الشهود والعيان» فهذا ما لا يستغرب عندما يخرس

اللسان من كثرة الإعياء، وأما أن يتوهم الإنسان أنه قد وصل إلى مشاهدة الذات الإلهية بالعين المجردة بسبب تكرار الاسم المفرد فهذا مما لا يقول به نص شرعي من كتاب أو سنة بل إنه يناقض النصوص التي ذكرنا شيئاً منها والتي تؤكد استحالة دخول الذات الإلهية تحت الإبصار والإدراك الإنساني، وإلا لكان الخالق سبحانه من شبيهة المخلوق.. وأما أن يصل المرید بكثرة هذا التردد إلى درجة يستحيل معها أن يغفل عن ذكر الله، لأن اسمه سبحانه قد تمكن من ذاكرته، ووصل بذلك إلى درجة الإحسان التي فيها يعبد الله كأنه يراه.. فإن هذا ولاشك من إطار الممكن البشري والاستطاعة الإنسانية الواقعة لأن كثرة ذكر اسم الله وترديده يجعله بالفعل متمكناً من الذاكرة فلا يغيب عنها لا عند العبادة بمعنى الصلاة فقط ولا عند القيام بجميع أنواع الطاعات وتجنب جميع أنواع المنهيات، ذلك أن الحديث الشريف يحدد مفهوم الإحسان بأنه (أن تعبد الله كأنك تراه) وليس أن تعبده وأنت تراه بالفعل، أي أنه حضور في الذاكرة ويشبه الرؤية بالعين من شدة ضغطه عليها وليس هو المشاهدة ولا المعاينة في الحقيقة، ولذلك قال عليه وآله السلام مكملاً قوله (فإن لم تكن تراه فإنه يراك) بأن لا يصل تمكنه من الذاكرة بالرغم من ترديده الكثير إلى درجة شبه الرؤية، وعندها يكون من الممكن لكل البشر في إطار الطاقة والمجهود البشري أن يعبده وهو يستحضر أنه تحت رؤية المولى سبحانه.. ولاشك أن مثل هذا الاستحضر للمشاهدة أو الرؤية الذهنية وليست البصرية من العابد للمعبود سيصرف عن ذهنه أي تفكير آخر بغير الله أثناء العبادة، وفي ذلك قمة العبادة الخالصة.. إنه الإحسان..

وأما (التحذير من ترك الذكر) حتى ليظن المسلم أن ترك الذكر بمعنى التسبيح أو التهليل أو التحميد أو التكبير أو ترديد الاسم المفرد لله هو من أعظم الخطايا والذنوب، وخاصة عند صرف معنى الذكر والذاكرين الواردة في الأدلة القرآنية والنبوية إلى ذاك المعنى من الذكر، ودون أي ربط لذلك بمختلف جوانب الحياة ومجالات الشريعة.. وها نحن أيضاً أمام تأكيد على ذلك من قول من قال (ما أعلم معصية أقبح من ترك ذكر هذا الرب)! فلو تركنا ذكر اللسان لذكر العقل مع الجوارح في جميع الأعمال هل نحن في أقبح معصية؟! وإذا كنا نعلم من الرسول عليه وآله السلام أن أول ما يحاسب عليه العبد هو الصلاة، فإن صلحت صلح باقي عمله، وإن فسدت فسد باقي عمله، فهل ترك الذكر اللساني بل والقلبي بعد الصلاة يوقعنا في أقبح معصية؟! أم أن المهم بهذا النص وأمثاله هو أداء الصلاة نفسها، فكلها ذكر وعبادة؟! وهل مضمون هذا الحديث بالمعنى الظاهر يجب الوقوف عنده والاكتفاء بصلاحية صلاتنا لتصلح جميع أعمالنا مهما خالفت الشرع أم أن النص يطالب بصلاح الكل، وفي رأسها الصلاة بأن تكون صادقة لله وليس كذباً ونفاقاً؟! وأما أن يقال أن (من علامة النفاق ثقل الذكر على اللسان) فهذا القول مخالف للدليل الذي حدد علامات النفاق بثلاث وفي نص آخر بأربع: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر، وإذا ائتمن خان.. فأين ثقل الذكر عند الذكر منها: هل يدخل في الكذب أو الخلف أو الفجور أو الخيانة؟ إنها كلها من المعاملات مع الآخرين التي يطالبنا الشرع فيها بالالتزام بالطاعات المذكورة وإلا كان النفاق عند تخلف أحدها.

وأما (الحركة في الذكر) والقول بأنها وسيلة للنشاط في العبادة فإنها تبقى مقبولة ما دامت معقولة، بمعنى لا تتجاوز الحد فتوقع صاحبها في اختلال التوازن العقلي. ها هو ابن عابدين يرى جواز الحركة مع الصديق في العبادة وتمييزها عن تلك الحركة المنكرة مع آلات اللهو والغناء والاجتماع مع المرد الحسان والتغزل بهم. ولكن ما دامت وسيلة مباحة للنشاط في العبادة فلماذا يجعل منها مشكلة اللهم إلا إذا اتخذت وسيلة دائمة واشتط فيها النشاط حتى داخ من داخ، وفقد التوازن من فقد، وعندها أخرجت الذاكرين عن ذكركم وأوقعتهم في الشطط، فكانت مما ينهى عنه. هذه ناحية والناحية الأخرى ما دامت مجرد وسيلة للنشاط في العبادة يخشى منها تجاوز الحد فالأولى منعها من مجالس الذكر ليستمر الذكر السليم والوعي القويم .

وأما (الإنشاد والسماع في المسجد) فيقول المؤلف رحمه الله بأنه قد رويت أدلة تبيحه كما تبيح الحداء أثناء السفر أو الغزو. ومما يروى أن عطاء سئل عن الحداء والشعر والغناء فقال: لا بأس به ما لم يكن فحشاً.. كما أنه «لا بأس بإنشاد الشعر في المسجد إذا كان في مدح الدين وإقامة الشرع» أي إذا كان هذا الإنشاد يستخدم الشعر في الثناء على أحكام الدين والدعوة لتطبيقها في الأرض.. فهل هذا ما يجري في مجالس الذكر الصوفية اليوم؟ أم أنهم أبعدوا الدعوة لإقامة الشرع عن مجالسهم بل عن تفكيرهم وأعمالهم؟!

وأما (إجمال فوائد الذكر) فيرى المؤلف رحمه الله أنها أكثر من مائة فائدة منها أن الذكر يفتح للذاكر باباً عظيماً من أبواب المعرفة.. فأى معرفة هذه غير تلك التي أشرنا إلى استحال وقوعها مما يطلق عليه معرفة الله؟ ولكن إن قصد بها ليس معرفة الذات الإلهية وإنما العظمة الإلهية فهذا مما يتحصل بالتفكير والتدبير وليس الذكر في ذلك بشيء غير الترديد والتكرار الذي يرسخ ما يردد في النفس والذاكرة. ومنها أن الذكر (منج من عذاب الله).. فإذا كان الصحابي الجليل معاذ بن جبل رضي الله عنه يروي في ذلك حديثاً مرفوعاً إلى الرسول عليه وآله السلام فهل هذا إلا في ظل شريعة تعيش في مجتمع ويعيش المجتمع عليها حتى باتت الطاعات الفردية في حاجة لشحن العزائم بالذكر بعد أن استفاضت بها الأعمال الجسام؟

ومنها أنه يترتب على الذكر الكثير من العطاء والفضل.. فإن في المجتمع الإسلامي الصالح يحتاج الفرد للدافع القوي للسمو الروحي حتى يتحقق التوازن في حياة المسلم المجاهد بين جهاده ووقوفه على العلوم الشرعية من كتاب وسنة.

ومنها أن الذكر طريق عامة يرجى فيها أن يفتح للذكر باب (الدخول على الله).. ولا ندري ما يقصد المؤلف رحمه الله بذلك أم هي من الألفاظ المشككة الرمزية أو الحقيقية؟ فمن المستحيل على مسلم عاقل أن يتصور وجود الذات الإلهية في مكان محدد يمكن الدخول عليها من باب ذاك المكان اللهم إلا إذا قصد بالدخول الناحية النفسية والذهنية عندما تتخيل أنها دلفت إلى الأنوار القدسية وكأنها دخلت على الله.

ومنها أن الذكر يتحصل منه للذاكر الكثير من ثمار المعارف والأحوال والمقامات.. وما هي في الحقيقة إلا الحالات النفسية التي يمر بها المرید من كثرة ممارسة الذكر المصحوب بالحركة وما يؤول إليه فاعله أحياناً من فقدان التوازن الذهني والوقوع في شيء من الأوهام والتخيلات نتيجة لذلك.

ومنها أن الذكر يحقق قرب الذاكر من مذكوره، أي من الله، ولا ندري ما المقصود بالمسافة المكانية هنا إلا إذا كانت أيضاً حالة نفسية ذهنية لكثرة الضغط على الذاكرة، ذلك لأن النصوص القرآنية والنبوية المستشهد بها لا تميز بين إنسان وآخر من المسلمين سواء مع الذكر أو التقوى أو الإحسان أو الصبر أو التوبة أو التطهر.. فلماذا تحصل هذه الحالة لمن يردد الذكر فقط ولا تحصل لغيره مع أن غيره قد يتعرض في سبيل الله إلى معاناة جسمية ونفسية وعقلية أكثر منه؟!!

ومنها القول بأن جميع الأعمال والطاعات شرعت لذكر الله، مستشهداً بقول الله {وأقم الصلاة لذكرى}.. فلاشك أن في قوة الصلة بين العبد وربيه ما يحقق ربط كل عمل به تعالى فيحل حلاله ويحرم حرامه، ولو كانت الصلاة لمجرد ذكر اسم الله لأمكن بدونها ذكره سبحانه أكثر والإفا هي كغيرها من العبادات والطاعات تحقق هذا الترابط بين العبد وربيه بدءاً من ذاكرته وانتهاء بجميع أعماله.

وفي ختام هذا الموضوع يشير المرحوم المؤلف إلى ما يتخذه الصوفية من أوراد من الكتاب والسنة، سواء بالاستغفار، أو الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام أو ترديد كلمة التوحيد، فلاشك أنها تقوي صلة المسلم الروحية بالله، وهو أمر يبقى حامل الدعوة بحاجة دائمة إليه لما في ذلك من التغلب على المتاعب والصعاب التي تقف في طريقه، لذلك لا يجوز أن يتصور اتخاذ مثل هذه الأذكار كوسيلة سهلة «للدخول على الله» أو كمفتاح في متناول اليد لدخول الجنة.. كيف لا والرسول عليه السلام يقول (حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات) ولن يكون ذلك بمجرد ترديد هذه الأذكار لأن دخول الجنة والحصول على رضوان الله لها التضحيات الجسام والمعاناة الشديدة في حمل دعوة الإسلام لتغيير المجتمع.

وأما (المذاكرة) وهي كما يقول المرحوم المؤلف أن يرجع المرید لشيخه في جميع أحوال سيره من أجل اجتياز العقبات التي تعترض طريقه.. ويقول أيضاً بأنها تتم بسؤال الذاكر لمرشده عن أحكام شرعية تصحح العقائد أو العبادات أو المعاملات، كما تتم بما يعرض عليه من أحواله القلبية وخواطره النفسية وأمراضه القلبية، وبما يحدثه عن أحواله الصحية وما يرد عليه من علوم وهبية، وهو في ذلك يريد أن يطمئن من مرشده على صحة هذه العلوم.. والسؤال هنا: أي علوم هذه التي توهب للإنسان من الله لمجرد الإكثار من الذكر؟ وما الفرق بينها وبين القسم الآخر من العلوم التي يسمونها الكسبية؟ هل هذه الكسبية هي التي يتوصل إليها الإنسان، مسلماً كان أو غير مسلم، بجهده وتحصيله، بينما تلك هي التي تأتيه بدون ذلك؟ وكيف؟ إن العلوم، كل العلوم، لا

تخرج عن كسبية في شيء، اللهم إلا لمن تمنح إليهم من الله بالوحي والإلهام كمعجزات لهم فتكون وهبية وهؤلاء هم فقط الأنبياء والرسل. ولهذا يمكن القول أن العلوم عامة تحتاج إلى الجهد والدرس والبحث لتحصيلها حتى العلوم الشرعية، وما حصل للصحابة رضوان الله عليهم والأئمة الكبار في هذا العلم أو ذلك إلا أكبر دليل على ذلك، ولا يعرف أحد منهم أنه اكتسب شيئاً من العلم الشرعي أو غير الشرعي بغير طريق الجهد المبذول طيلة العمر علماً بأنهم أحق بذلك من غيرهم لقرب صلتهم بالرسول عليه وآله السلام أو شدة معاناتهم في سبيل الله.. وعليه لا بد من التوقف عن تقسيم العلوم بين الناس إلى كسبية وهبية لأن الخصوصيات المحدودة في هبة بعض المعلومات وبعض الناس كمعجزات أو بما يسمى بعد الرسل والأنبياء بالكرامات لا يسمح بمثل هذا التقسيم على عموم العلوم ومجالاتها الرحبة..

وأما القول بأن (العلم روح تنفخ لا مسائل تنسخ) فهذا إن صح في نهاية طريق الإبداع والمبدعين فلن يصح في أول طريق الواحد منهم التي لا بد فيها من المكابدة والمعاناة في الدرس والبحث والتحصيل.. فلا بد في العلم من مسائل تنسخ بإبداع من لديهم ذكاء متفوق على السابقين. وأما دور الأستاذ الموجه أو المرشد فهو دور الدليل لتفتيق الذهن عن الإبداعات متى كان مثل هذا الاستعداد الإبداعي متوفراً. والمذاكرة في الميدان العلمي لا علاقة لها بالشورى بين المسلمين في شؤونهم مع أولياء أمورهم وإنما هي بداية المناقشة والبحث أو أنها تصاحبهما للوصول إلى الكشف العلمي المستهدف، كما أنها لا علاقة لها بحديث الرسول عليه وآله السلام (المستشار مؤتمن) لأن هذا هو من تطلب منه الشورى بشكل عام والمشورة بشكل خاص، وهو مؤتمن على صدق النصيحة وإبداء الرأي المطلوب في حل المشاكل ومعالجة المسائل المجتمعية فيما بين الراعي والرعية وليس فيما بين المرشد أو الموجه العلمي وتلميذه فحسب.

وأما (الخلوة) فيعرفها المؤلف رحمه الله بأنها نوع من الاعتكاف خارج المسجد وربما فيه، وأقلها عشرة أيام وأكثرها لا حد له، والسنة شهر واحد في السنة يكون الانقطاع عن البشر فيه وترك جميع مشاغل الدنيا والتفرغ لذكر الله والتفكير في آلائه بتوجيه من المرشد مستنداً في ذلك إلى خلوة الرسول عليه وآله السلام في غار حراء، وإلى ما يشير إلى ذلك من الكتاب والسنة، ويقصد أن يترقى المرشد في المقامات حتى يصل إلى مقام المعرفة والرضا، كما يسمونه، وهو عندهم أعلى مقامات الولاية، ولكنه لن يصل إلى مقام النبوة الذي اختص به النبي عليه السلام..

إننا نرى هنا نوعاً من الاستغراق في البعد عن الحياة وشؤونها طلباً للسمو الروحي، ولكن أين نحن في ذلك من قوله عليه وآله السلام (من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم) وخاصة في مثل هذا الزمن الرديء الذي تعيشه الأمة الإسلامية والتي هي فيه بأمس الحاجة لمن يعملون ليل نهار لا في الهرب من شؤونها وشجونها بخلواتهم الاعتكافية بل بالتصدي لها لإنقاذها مما هي فيه من الفساد والظلم الفردي والجماعي..

وبالمقابل صحيح أننا عندما نحقق مثل هذا المجتمع الصالح يصبح من الممكن أن يخلو بنفسه من يجد الوقت لذلك من أفراد هذا المجتمع بقصد العمل على إعادته بطاقتهم الروحية السامية المتجددة، ولكن ذلك لا يستقيم مع ما نحن فيه مما يجب على كل فرد من أن يعمل للتغيير والإصلاح للمجتمع أولاً وقبل أن يعمل لمزيد من سموه الروحي، لأنه في الحقيقة سيشعر حتماً بمثل هذا سمو الروحي مع العلم والعمل الجماعي أكثر وأكثر. وها هو الإمام الشافعي يرى في الخلوة مع قلة الأكل وتجنب مخالطة السفهاء سبيلاً للمزيد من العلم، وكذلك يرى فيها الإمام الغزالي ولكن مع مزيد من سموه الروحي أيضاً، وهذا شأن الآخرين من شيوخ الصوفية..

وفي الخلاصة يرى المؤلف رحمه الله أن الخلوة «هي أول خطوة في طريق الوصول إلى الله تعالى» فإذا جمع المرید معها المجاهدات والمذاكرات يكون على اتصال دائم بالله تعالى ويحقق سموه الروحي المستمر..

أعود وأقول: كم نحن بحاجة لذلك ولكن ليس مع هذا الحال الذي تتنفس فيه الأمة كل لحظة أنفاس العفن والفساد وإنما عندما نتخلص من ذلك كله، وكلنا رجاء إلى المولى سبحانه أن يعين ويوفق جميع الحركات الإسلامية المخلصة المكافحة لتحقيق هذا الهدف.

الفصل الثالث - من كتاب التصوف

باب (الوصول إلى الله) يوزعه المؤلف رحمه الله في اثني عشر مبحثاً يقدم لها بالقول بأنه لا بد من بيان طريق المنهج العملي للوصول إلى الغاية المرجوة، فيرى ذلك في مقامات التوبة والمحاسبة والخوف والرجاء والمراقبة.. للوصول إلى مقام الإحسان الذي يرى أنه لا حد لمراتبه.. والذي يلفت النظر هنا أنه يوضح معنى هذا الوصول بالنقل عن ابن عطاء الله السكندري فيقول إن «وصولك إلى الله ووصولك إلى العلم به، وإلا فجل ربنا أن يتصل به شيء، أو يتصل هو بشيء». كلام طيب ولكن ما هذا (الوصول إلى العلم به)؟ إذا كان العلم بحقيقة ذاته فليس كمثله شيء، وإذا كان العلم بصفاته فما علمناه من أسمائه الحسنی فقد كفى على إطلاقها وليس تحديدها بما لدى الخلق وإلا فليس له كفواً أحد، فأی علم به المقصود؟ اللهم إلا إذا كان هذا الذي يسمونه الكشف والتجلي من تخيلات الذهن وشطحات الخيال وأوهام الوجدان.. وإلا فما معنى قول الإمام الغزالي بأن «معنى الوصول هو الرؤية والمشاهدة بسر القلب في الدنيا..» فكيف تكون هذه الرؤية والمشاهدة بالقلب غير الفيض من المشاعر والأحاسيس الوجدانية التي تظهر بتلك التخيلات والتصورات والأوهام العاطفية نتيجة للمجاهدة والإجهد الذهنی والنفسی والبدنی معاً؟! ثم ما هذه المقامات التي تنتهي بمقام المقربين التي تزداد مع كل مقام استغرافاً في العزلة عن الناس وتجنب شؤونهم بل يكاد يهمل شؤون نفسه.. أهذا ما كان عليه الرسول عليه وآله الصلاة والسلام

طيلة عهديه المكي والمدني أو أحدهما وما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين معه أو من بعده؟! لا وألف لا، ولو كان هذا الحال حالهم فأتى لرسالة الإسلام أن تصل إلينا على أيديهم ومن بعدهم؟!!

ثم ما هذه المقامات في وصولهم إلى الله تعالى، كما يقولون: فيذكر مقام «وحدة الأفعال ذوقاً وشهوداً» بحيث «يفنى فعله وفعل غيره» يعني في فعل الله؟ فهل الرمي في قوله تعالى {وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى} هو فعل الله سبحانه على الحقيقة أم المقصود بتوفيق وعون منه؟ وإلا لماذا قال سبحانه {إذ رميت} فأسند سبحانه الرمي إلى الإنسان الرامي، فكيف يتوحد فعل الإنسان مع فعل الله على الحقيقة غير أن يكون مع التوفيق والعون وليس مع الواقع؟! فلا مجال للقول بوحدة الأفعال الواقعية هذه لا من حيث الحقيقة الفعلية ولا الذهنية النظرية.

وأما مقام (وحدة الصفات) الذي يروونه من قوله سبحانه {وما تشاؤون إلا أن يشاء الله}؟ فهل يدرك ذلك عقلياً والعقل هو الطريق السليم للإيمان السليم فيرى وقوع وحدة مشيئة الله تعالى ومشيئة الإنسان في كيان واحد مهما وصل إليه الإنسان هذا من سمو روحي؟! لاشك أن المدرك عقلياً هو توفيق الإنسان هذا بمشيئة الله ولا تدرك الوحدة الفعلية ولا النظرية بين المشيئتين.

وأما مقام (الفناء في الذات) فهو الأشد إشكالاً من السابق بغض النظر عن تفسيره بأنه يوجد عندما «يشهد عرضية كل شيء مقابل وجود الحق عز وجل»: فكيف نجمع بين القول بالفناء في الذات، أي أن ذات المرید تفنى وتدوب وتختفي في ذات الله تعالى، وبين هذا المعنى من أن المرید يصبح في حال يشاهد معها أن وجوده الذاتي ووجود كل المخلوقات الأخرى مجرد مظهر عرضي مقابل وجود الذات الإلهية الجوهرية، إن جاز التعبير؟ صحيح أنه من الممكن إدراك ذلك عقلياً لو كان المقصود أن كل المخلوقات في وجودها دليل محسوس على وجود وعظمة الذات الإلهية لأن هذه المخلوقات موجودة بشكل معجز في الإلتقان، ناهيك عن مجرد ذات وجودها.. فالمرید، يا قوم، والمخلوقات كلها خلقت من هذه المادة العاجزة عن خلق نفسها وصفاتها، والمحتاجة لمن يخلقها بهذه الذات والصفات، فكيف يمكن أن يدرك عقلياً، ولا أقول وجدانياً خشية من الشطحات العاطفية، أن تفنى هذه المادة بهذه الذات والصفات في تلك الذات والصفات الإلهية التي من المستحيل عقلاً أن تلتقي معها في الأمرين معاً؟! إن هذا القول مرفوض عقلاً.. ثم إن هذه الأدلة الواردة على الصفحة ٢٨٠ هي أكبر وأقوى دليل على مهمة الرسول عليه وآله السلام وأتباعه في الدعوة إلى الإيمان بالله والتزام أوامره ونواهيه، وفي المحبة على طاعته وعبادته، دون أدنى إشارة إلى هذه المقامات وأخطرها ما أسميته مقام الفناء في الذات..

والآن انظروا في هذه المقامات التي يسير بها المرید لتجدوا أن المؤمنين المسلمين جميعاً مطالبون بالسير عليها دون مبالغة ولا تعجيز، فالمولى سبحانه يأمر

فيقول {وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحوا}.. فلم جعلت التوبة من خصوصيات المرید هذا وكان غيره لن تتحقق له التوبة مثله؟! وأما أن توبة الصوفي تمتاز عن غيره لأنها لا تقف كغيره على الذنوب بل تتجاوزها إلى الزلات، فهل هذه التوبة أيضاً خاصة بالصوفي من دون غيره؟ ثم ها هي المحاسبة: فهل النصوص تدل على أن كل مسلم مطالب بمحاسبة نفسه ليتجنب المعاصي صغيرها وكبيرها وينشغل بالطاعات فرضها ونافلها أم أن ذلك من خصوصيات أحد دون أحد؟

وأما القول بأن الصوفية هم (الصادقون) وأن الغير غير ذلك، وأن عليك يا مسلم يا مؤمن أن تفر إلى الله معهم، وكأنه لتكون مثلهم من الصادقين، فهذا ما أظنكم بهذا الشكل تدعونه لأنفسكم بغض النظر عن عبادتكم! ثم ها هو (الخوف): لماذا تخصصون الصوفي بإمكانية السمو الروحي من دون غيره بحجة أن هذا الغير يقف في خوفه من الله عند الخوف الجسمي دون النفسي؟ وأما رابعة العدوية التي يروى عنها كثرة البكاء والحزن من شدة الخوف من الله، وأن ذلك لا طمعاً في جنة الله وإنما حباً في ذاته، فهل يستقيم هذا القول مع مدحه تعالى للمؤمنين العابدين {خوفاً وطمعاً}؟ أم أنها وصلت كما تقولون إلى مرتبة فوق هذا؟! ثم ها هو (الرجاء): فإننا نجد أن الخطاب الرباني لجميع العباد، بناء على علمه سبحانه بخلقه، لا يستثني منهم أحداً في إمكانية الرجاء مع وجود التقصير والخطأ منهم جميعاً.. صحيح أن الرجاء يختلف عن التمني لأنه أخذ بالأسباب بينما التمني ترك لها، ولكنه ليس بخاص بفرد مسلم دون غيره وإن كان من يزداد علماً يكون أوضح رجاء من العامي الذي يبني رجاءه على التسليم الوجداني الذي قد يضل به الطريق. إن المشهور عن العامي أنه يرى عدم الحاجة للأخذ بالأسباب لأن كل شيء سيأتي بها أو بدونها بحجة أن كل شيء بقدر إذ يختلط لديه مفهوم الإرادة الإلهية من تصوره بأنها تجبر على كل شيء مع مفهوم الاختيار البشري من أنه لا قيمة له أمام الإرادة الإلهية، وكأن المسألة حسب تصوره البسيط هي مجرد مقارنة بين الإرادية الإلهية والإرادة البشرية وليس أن النصوص كلها بالتوفيق فيما بينها تعطي معنى أن الإرادة الإلهية تعني أن لا شيء يقع في ملكه تعالى رغماً عنه سبحانه، لأنه القادر على التدخل لمنع وقوع الشيء أو وقوعه، سواء كان هذا الوقوع من الإرادة البشرية التي تترتب عليها المسؤولية بالثواب والعقاب أو من القضاء والقدر الذي يخرج عن دائرة المسؤولية البشرية وبالتالي عن مقتضى الثواب والعقاب.

وأما (الصدق): فهل مفهوم الصدق العام في اللسان والقلب والجوارح خاص بفئة أو فرد من المسلمين أو مطالب به الجميع، وأنه قد يتصف به الجميع دون تمييز بين فرد وجماعة؟ وأما قلة أو كثرة الصادقين فهذا من طبيعة البشر الذين خلقوا خطائين.. وإذا كان المولى سبحانه يقرر {وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين} و{ولا تجد أكثرهم شاكرين} و{إن كنتم صادقين} فهل نتوقع كثرة المؤمنين الشاكرين الصادقين؟ ولهذا جاء الخطاب الرباني يطالب هذه الكثرة أن تصدق في إيمانها وشكرها للمنع في جميع أقوالها وأفعالها..

وأما (الإخلاص) في الأقوال والأفعال فهو أيضاً مما يمكن أن يتحقق من كل مسلم عندما يفرد الله تعالى في نيته عند القيام بأي فعل ونطق أي كلمة.. والنصوص القرآنية والنبوية عندما تطالب بتجنب الرياء لأنه الشرك الأصغر فإنها تتضمن معنى إمكانية ذلك من كل فرد مسلم. وبالمناسبة أحب أن أسجل هنا ما قاله الإمام القرطبي في تفسيره بخصوص الرياء إذ قال إنه ليس من الرياء أن يزين المسلم صلاته كثيراً أمام الآخرين بقصد التعليم أو التشجيع أو غيرهما من مقاصد الدنيا من مثل أن يشهد له أو يستدعي الثقة به لاختياره خليفة للمسلمين.. وأن ذلك كله مع أنه منهي عنه إلا أنه ليس من الرياء لأن القصد منه الخير للمسلمين، وأما لو قصد الوصول إلى ما بين أيدي الناس من مال أو طعام فهذا هو الرياء.. كما قد لفت نظري قول من يرى أن الإخلاص هو إفراد الله في القصد بينما الإخلاص الخالص أن يعتبر هذا الأفراد من تحصيل الحاصل فيتجاوز المقصد الخاص لنفسه إلى جعله لله وفي الله..

وأما القول بأن الإنسان (مخلوق هو وعمله لله تعالى) أخذاً من الآية الكريمة {والله خلقكم وما تعملون} وأن ليس للإنسان إلا نسبة الكسب فقط: هذا القول هو ما يقول به أهل السنة في مسألة القضاء والقدر. ويهمني أن أقف مع هذه المسألة بالقدر المناسب هنا وأترك المزيد لموضعه: صحيح أن أهل السنة يبرزون نسبة الكسب هذه كإرادة للإنسان وبمقدارها ينال الحساب، ولكن كلمة الكسب هذه المأخوذة من نصوص قرآنية عديدة لا تعني شيئاً آخر غير العمل الإرادي الإنساني كما تكثُر الإشارة لذلك في نصوص قرآنية أخرى، ولذلك فإن فعل الإنسان الإرادي سواء سمي عملاً أو كسباً فإنه ما دام اختيارياً فهو موضع المسؤولية والحساب بالثواب والعقاب مما يخرج عن دائرة القضاء والقدر الذي لا إرادة فيه ولا اختيار للإنسان سواء كان عملاً يقع من الإنسان أو عليه، وهذا ما يسمى القضاء، أو كان خاصية أو قدرة خلقها تعالى في أي شيء من مثل أعضاء الحيوان أو الإنسان كخاصية التفكير في دماغه والإحساس بالجوع والعطش في معدته والتنفس في رئتيه والتبول في مثانته، وهذا ما يسمى بالقدر، ولو جمعنا جانبي القضاء والقدر مما قضى الله وقدر لقلنا أنها ليست من اختيار الإنسان ولا إرادته، ولذلك ليست موضع حساب أو عقاب.. وهنا نقف مع هذا النص {والله خلقكم وما تعملون}: فإن الله سبحانه يقرر هنا أنه خلق البشر وخلق ما يعملون، وهذا النص خاص بأصنام قوم إبراهيم عليه السلام: فإما أن يقصد أنه سبحانه خلق المادة التي تصنع منها الأصنام أو يقصد الأصنام نفسها، والمشاهد المحسوس أن الأصنام صنعها قوم إبراهيم فكانت من أعمالهم التي يستحقون عليها الحساب فلم يبق إلا خلق مادة الأصنام التي منها عملوا بإرادتهم الأصنام، فجاءت الآية تنعى عليهم فعلتهم: كيف يعبدون أصناماً صنعوها من مادة خلقها الله أصلاً؟ أليس هو سبحانه الخالق لهذه المادة التي عملتم منها معبوداتكم وأنه سبحانه بالتالي المستحق للعبادة من دونها وهي أشكال جامدة لا تضر ولا تنفع؟! ومن دلالة الإشارة لهذا النص تفهم هكذا كل الأعمال البشرية إذ الحساب يجري على الأعمال الإرادية التي تتم على المواد التي خلقها الله وخلق فيها بقدرته سبحانه القدرات والخواص التي تستجيب لما يريد الإنسان أن يعمل بها أو فيها.

وأخيراً ألفت نظر القارئ الكريم إلى أن مسألة القضاء والقدر كانت بين جميع العلماء والفرق قائمة على أساس: هل يخلق الإنسان عمله أو يخلقه الله تعالى؟ وهل للإنسان اختيار في خلق العمل أم مجبور على ذلك؟ مع أن الأساس ليس هذا وإنما هو: الثواب والعقاب على العمل فأى عمل يثاب عليه الإنسان وأي عمل يعاقب عليه وبالتالي أي عمل لا يثاب ولا يعاقب عليه؟ فحيثما تكون الإرادة والاختيار البشري، الذي يسمونه أهل السنة بالكسب، يكون الثواب والعقاب، وحيثما لا تكون إرادة ولا اختيار بشري لا يكون هناك ثواب ولا عقاب.

والآن لنرجع إلى (الإخلاص) فنجد المؤلف رحمه الله يرى في خلاصته أنه تصفية العمل من التعلق بالخلق أو بذات العمل وإنما هو بإفراده سبحانه استرضاء له، وأن ذلك مطلوب من المسلم ملاحظته دائماً في جميع أعماله لينال الجنة والرضوان. إن هذا عين الصواب ولكن عندما يقسم سبحانه {والعصر إن الإنسان لفي خسر} يؤكد أن الخسارة ستلحق بني الإنسان كلهم، ثم يستثني منهم {إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} منبهاً سبحانه للبشر أن المؤمنين العاملين بالصالحات والمتواصين بالحق والصبر على الحق هم أهل الفلاح بينما نقيضهم أهل الخسران.. مما يؤكد أن الفرد والجماعة المسلمة التي تتصف بهذه الصفات الأربعة هم المفلحون، ولكن الفلاح في الجنة له درجات والخسران في النار له دركات، وكلما صدق وأخلص في إيمانه وأعماله وتواصيه بالحق والثبات عليه والصبر على الابتلاء فيه كلما ارتقى في درجات الجنة درجة درجة، وكلما أفسد ذلك بالرياء والشرك كلما هبط في دركات النار دركاً دركاً.. والعياذ بالله تعالى.

وأما (الصبر): فسواء كان بهذا التعريف أو ذاك فإنني أظن أن تعريف الأصفهاني جامعاً مانعاً أكثر من التعريفين الآخرين لأنه يراه «حبس النفس عما يقتضيه العقل أو الشرع أو يقتضيان حبسها عنه» مما يشمل المسلم والكافر وجميع الأحوال، وأنه ولاشك صفة لا يتحلى بها إلا أصحاب النفوس الكبيرة المحتسبة سواء كانت على الطاعات أو عن المعاصي أو على المصائب، وأنه سيبقى مما يطلب من كل مسلم لا ليخلو بنفسه ويعتزل الناس والعمل معهم ولكن ليكسب نفسه وغيره معاً من خلال دعوته لله ورسوله وعلى طريقة رسوله عليه وآله السلام في العهدين المكي والمدني، وبذلك فقط يكون قد صبر على ما يستحق الصبر عليه وما يستحق أعظم المثوبة بسبب الصبر عليه..

أليس الصبر أكثر صفة نالت الثناء والمدح في كتابه سبحانه وسنة رسوله حتى قال سبحانه {إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب}، وهل نال غيرهم مثلهم؟ لا لأن الرسول عليه السلام يقول (ما أعطي أحد من عطاء خيراً وأوسع من الصبر).

وأما هذا النص (فلا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون) فهل يعني فيه الرسول عليه وآله السلام فئة من المسلمين غير تلك التي

تبقى ظاهرة وحكمة بشرع الله في الأرض؟ هو بالفعل هذا ما يعنيه لأن مجيء أمر الله بالقيامة لا يحصل إلا مع سيطرة حكم الله في الأرض، ولذلك لا أظن أن الاستشهاد بهذا النص في هذا الكتاب قصد به طائفة غير الصوفية، ولهذا جاء في غير موضعه.. ونعود إلى الصبر ونرى ما أعد الله للصابرين من أمثال هذه الطائفة المكافحة على طريقة الرسول عليه وآله السلام من عظيم الأجر والثواب {أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون} إذ علق على صدورهم ثلاثة أوسمة إذ عليهم صلوات ربهم، وعليهم رحمته، وهم المهتدون.

وأما (الورع): فتعريفاته وإن تنوعت فإنها لا تخرج عما قاله الجرجاني من أنه «اجتناب الشبهات خوفاً من الوقوع في المحرمات» سواء كان للعمامة أو الخاصة أو خاصة الخاصة، فالكل مطالب ليحاول تصفية أعماله وأقواله وخطرات نفسه من الريب والشبهات والطمع غير المشروع ليبقى بجانب الحق ولا شيء غير الحق..

أليس الشبلي هو القائل «الورع أن تتورع عن كل شيء سوى الله» أي سوى ما يرضي الله؟ ولذلك قال عليه السلام لأبي هريرة (يا أبا هريرة كن ورعاً تكن أعبد الناس) لأنه يتجنب بالورع المحرمات والمكروهات بل المؤديات بالاحتمال لهما.. وهذا ما دعا الصديق رضي الله عنه ليقول: كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن تقع في باب من الحرام.. وهنا التساؤل الصارخ: وهل من يتصدى لشؤون المسلمين بالرعاية أو محاولة الوصول للرعاية إلا بأولى بالورع ممن يريده لنفسه دون غيره؟!

وأما (الزهد): وهو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف بحيث تكون في يدك لا في قلبك فإنه بلاشك إن وقع صاحبه في التكلف وانخلع من مصالح الدنيا اللازمة لخير الإسلام والمسلمين فإنه يجفو الحق والحقيقة، لأن المولى سبحانه عندما جعل مهمة الإنسان عمارة الأرض لن يحقق ذلك بالتكلف بالهرب منها وإنما بالتصدي لها لا حباً وتقديساً لها وإنما استخداماً وتسخييراً لها لطاعة الله، فبخدمة دينه وأهل دينه يحقق الغاية التي خلق من أجلها وهي العبادة لأن النصوص القرآنية والنبوية عندما تقلل من شأن الدنيا ومتاعها تريدنا أن لا نتعلق بها من دون الله وإنما لناخذها في أيدينا بكل قوة لا لتكون حياتنا لسيطرة الكفار والمنافقين ولكن لسيطرة أحكام الله وعباده المخلصين،

ولهذا أصاب المؤلف عندما قال: فكم من أناس أخطأوا الطريق فجعلوا الزهد غاية، ولبسوا المرقع من الثياب، وأكلوا الرديء من الطعام، وتركوا الكسب الحلال، وحسدوا أهل المال وقلوبهم مفعمة بحب الدنيا وهم يحسبون أنهم زاهدون..

وأما (الرضا) فإنه ينتهي بتعريفاته إلى المحاسبي رحمه الله الذي قال: الرضا سكون القلب تحت مجاري الأحكام.. أي أنه مهما تحقق للمسلم من خير أو شر حسب تفسيره أو بلاء وابتلاء حسب تصريف الأقدار فإنه يبقى بقلبه يستشعر الرضا بجانب المولى المدبر القدير الحكيم الذي بيده تصريف الأمور.. صحيح أن العين لتدمع والقلب ليحزن..

ولكننا لا نقول ما يغضب الرب سبحانه وإنما نستقبل نزول القضاء بالرضاء، الرضاء أو الرضى الذي يفوق الصبر على المصائب، لأن الصبر يجري بعدم الشكوى منها بينما الرضاء يتم بالسرور بها والاطمئنان إليها لأنها من قضاء المولى وقدره، ولذلك كان عليه وآله الصلاة والسلام يعلم أصحابه ويعلمنا من بعدهم بقوله (من قال إذا أصبح وأمسى: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، كان حقاً على الله أن يرضيه) لأن الرضى بالله رضى بخلقه وتدبيره، كيفما خلق ودبر، والرضى بالإسلام رضى بأحكامه وتشريعاته، والرضى بمحمد رسولاً رضى به عليه وآله السلام قدوة وبرسالته حكماً وتدبيراً..

فالرضاء لا يعني عدم الشعور بمرارة المصائب وإنما بتجاوز هذا الشعور للرضا بعقله إذ لا يعترض ولا يتضجر ويردد قوله سبحانه {فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا}.. والمسلم كلما ازداد إيمانه كلما هانت عليه مصيبتة وأخذ يشعر بالمتعة بها وبآلامها..

ولكن هذا الرضى لا يقبل من المؤمن السكوت على المنكر لأنه يعلم أن (الساكت عن الحق شيطان أخرس) وأن (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)..

فالرضى يجب أن يقصد عما يرضي الله ورسوله بالمبادرة باتخاذ الأسباب المشروعة للوصول إلى الأهداف المشروعة.

أليس سبحانه هو القائل عن المؤمنين الصالحين {رضي الله عنهم ورضوا عنه} وأن ذلك صفة من خشى ربه؟ صفة من حمل دعوة ربه لإنقاذ البلاد والعباد من الظلم والفساد بدلاً من صفة من اتخذ الرضى للاطمئنان القلبي والنفسي للفرد فقط؟

وأما (التوكل): فواضح من التعريف أن موضعه القلب دون تضارب مع الأخذ بالأسباب ولكن النقطة الحساسة هنا هي ما حسمه القاضي عياض بأنه «لا يصح عندهم - أي الصوفية - التوكل مع الالتفات والطمأنينة إلى الأسباب، بل فعل الأسباب سنة الله وحكمته»، فإذا كانت الأسباب سنة الله في الأشياء وحكمته من خلقها لخدمة خلقه فلماذا لا يلتفت إليها؟ ماذا نفهم من قوله عليه وآله السلام (تداواوا عباد الله، فإن الله خلق الداء والدواء..)؟

والآية {وإذا مرضت فهو يشفين} ولكن كيف وبماذا؟ إنه بسنته في خلق الدواء وما علينا إلا الأخذ به طلباً من الله الشفاء، لأننا قد نوفق في هذا الدواء المظنون من الطبيب وقد لا نوفق، فإذا وفقنا فقد حصلنا على النتيجة المدعويين إليها من الله باتخاذ الأسباب المؤدية لذلك، وإذا لم نوفق فلنبحث عن الدواء.

فلو لم نلتفت إلى الأسباب وتركنا التداوي وأسلمنا أجسامنا نهشاً للأمراض لكننا كمن ينتحر ويلقي بيده في التهلكة ويلقي بحديث الرسول عليه وآله السلام هذا

جانباً! فالأسباب ما دامت (سنة الله وحكمته) فإنه سبحانه قد أودع فيها من الخواص المؤثرة والمؤدية إلى نتائجها، وأن ذلك كله من حكمته سبحانه وتبديره، ونحن عندما نلتفت إليها نلتفت إلى الله وعندما نركن إليها نركن إلى الله. ثم أليس سبحانه الذي يأمرنا {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة}.. أي باتخاذ أسباب الرهبة للعدو، فكيف نقول أن الأسباب لا تجلب نفعاً ولا ضرراً بحجة أن ذلك كله من الله مع أن تنفيذنا لذلك تنفيذ لأمر من الله؟

وهنا يمكن العودة لإلقاء المزيد من الضوء على مسألة القضاء والقدر: فالمولى سبحانه عنده أودع بأمره لكل مادة خاصية معينة تجعلها تؤدي مهمتها بها في هذه الحياة أمرنا سبحانه أن نبحث وندرس هذه المواد لكي نعرف ما فيها من خاصيات بما لدينا وما نتوصل إليه من العلوم،

وذلك لكي نحسن استخدامها لما خلقت له عندما سخرها مع جميع الكون لخدمة الإنسان، ولم يبق إلا أن يبادر هذا الإنسان لتطوير علومه لتسخير هذه المواد لخدمته، وإذا لم يفعل ذلك فقد قصر في حق استخدام (سنة الله وحكمته) في الأشياء..

وأما القول بأن الصوفية ترى ضرورة السعي للأخذ بالأسباب ولكنها في نفس الوقت ترى ضرورة عدم الثقة بأن الأخذ بالأسباب لا يجلب نفعاً ولا يدفع ضرراً، فإن هذا القول يحط من قيمة السعي والأخذ بالأسباب حتى ليكاد يستدعي تثبيط العزيمة عن جدية ذلك وعن إعطاء أي تقدير أو اعتبار لأوامر الله ورسوله للأخذ بها، وكأن ذلك مجرد شكلية أو ديكور لقدرة الله وسنته وحكمته في الأشياء والتي تكاد تعني أن النتائج ستأتينا سعيها إليها أو لم نسع!

ولا أظن أن ذلك هو مقصود الصوفية وإن كنت أخشى أنه هو ذلك لأنهم لا يرون السعي مع التوكل الإشكلياً لأن نظرتهم لمفهوم مسألة القضاء والقدر قد أوصلتهم إلى مفهوم سلب أي إرادة واختيار للإنسان، وفي كل صغيرة وكبيرة من سعيه، وأن القول بأن للإنسان نصيباً من أعماله هو الكسب هو شكلياً لأنه لا قيمة له في حياته بل هو مجبور عليه وعلى وصوله إلى نتائجه..

وأي فرق بين هذا القول وما يقوله الجبريون بأن الإنسان كالريشة في مهب الريح؟!

وفي خلاصة هذا المبحث يؤكد المؤلف رحمه الله أن الصوفية تلتزم بأعلى مراتب التوكل ألا وهو اطمئنان القلوب بالله تعالى والاعتماد عليه والثقة به بينما تأخذ أبدانهم بالأسباب امتثالاً لأمر الله وتمسكاً بشرعه..

وكأنه كاد يقول أن لا علاقة لاطمئنان القلوب بتصرف الأبدان: فالقلوب مع الله والأبدان مع الأسباب! وكان الأسباب لها نتائجها المنفصلة عن توفيق الله وتيسيره لذلك، مع أن التوكل يقتضي ربط الأسباب من حيث نتائجها بالله سبحانه لأنه هو الذي أودعها في الأشياء..

أليس على الإنسان أن يسعى طلباً للرزق وعلى الله سبحانه الذي بيده
تحصيل الرزق له من هذا السعي أو عدم تحصيله بتقديره سبحانه للأمر كله أن
يوصله لذلك أو لا يوصله؟ أليس على الدولة أن تعد القوة اللازمة لقتال العدو جهاداً
في سبيل الله، وتتخذ جميع الخطط الممكنة واللازمة حربياً، ثم تخوض الحرب راجية
من الله أن يحقق لها النتيجة من هذه الأسباب وهي تخويف العدو وبالتالي النصر
عليه؟ وهنا يبرز معنى الرضا بقضاء الله وقدره، ومعنى التوكل على الله برجاء
توفيقه للوصول للنتيجة المرجوة من اتخاذ تلك الأسباب.

لاشك أن مثل هذا الفهم للرضا والتوكل مع هذا الفهم للقضاء والقدر يستدعي
الصدق في العمل بالبحث عن الأسباب المناسبة واتخاذها مع الاطمئنان إلى أن الله
سبحانه وتعالى سيأتي بالنتيجة المناسبة مهما جاءت مختلفة عن المطلوبة.

وأما (الشكر): فما هي تعاريفه العديدة تصب كالتوكل في نفس المجري
فتجعل مكانه القلب بينما الجوارح هي مجرد المعبر عنه سواء بألفاظ اللسان أو
أعمال الأيدي والأرجل أو بهما معاً. ولننظر في قوله تعالى {وقليل من عبادي
الشكور} هل ينفي وقوع الشكر من أحد؟ أنه ينفي وقوع الشكر الشامل للقلب
واللسان والجوارح من الكثير من العباد، لأنه أن تكون شاكرًا باللسان لكل من يسدي
إليك معروفًا فهذا متحقق من الكثير ولكن أن تشكر الآخرين باللسان وتردده بالقلب
وتتابعه بالجوارح فهذا من النادر وقوعه إلا من القليل من الناس لكثرة ما يصدر
باللسان دون غيره..

ثم إذا شكر الإنسان النعم الدنيوية فإنه لن يحيط بها كلها فكيف بالدينية
والأخروية؟! وما أقل من يفعل ذلك بوحدة منها فكيف بها كلها؟ لاشك أنه {وقليل من
عبادي الشكور}. وليسمح لي المؤلف رحمه الله أن أعود وأكرر أن أعظم الشكر ما
كان على أعظم الفضل، وأن أعظم الفضل هو بلاشك الإيمان في القلوب والإسلام على
الجوارح، بدءاً بالفرد وانتهاء بالمجتمع، فالحمد والشكر كله لله وحده لأن ذلك كله
من الله وحده، فمنه الإيمان الحق، ومنه الإسلام كله، ومنه التوفيق إليهما أخذاً
وتطبيقاً.. فله سبحانه الحمد والشكر حتى يرضى، ولا حول ولا قوة إلا به وحده..

الفصل الرابع - ثمرات التصوف

فإنه يتحدث عن (ثمرات التصوف) متوقفاً عند: ١- الحب الإلهي و٢- الكشف
و٣- الإلهام و٤- كرامات الأولياء.

أما (الحب الإلهي): فهو ولاشك وجداني ذوقي، ولكن ما هذا الذي يذاق؟ إنه
الإحساس الذي يستشعره الإنسان بالانجذاب إلى محبوبه، فيه يفكر، وبقربه يسعد،
وببعده يتحرق، وبرضاه يطمئن، وبسخطه يشقى.. ولكن هذا الحب ينسب إلى الإله

فهل هو منه سبحانه لأحد من خلقه؟ ومن هو هذا المحبوب؟ أم من أحد خلقه أو كثير منهم؟ ومن هم هؤلاء؟ إنك إن آمنت بأن الخير يأتيك على يد إنسان مثلك كنت له محباً فكيف وأنت تؤمن بأن وجودك وكل خير يأتيك حتى بالابتلاء هو من الله الأشد عطفاً عليك ورحمة بك من الأم لولدها؟! ها هو سبحانه يدلنا على من يحب الله أكثر من غيره {والذين آمنوا أشد حبا لله} ويعلمنا رسوله عليه وآله الصلاة والسلام أي شيء فعله ويكون أحب إلى الله من غيره (وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي من أداء ما افترضته عليه) كما يعلمنا أيضاً عليه وآله السلام أن العبد كلما ازداد تقرباً إلى الله بالنوافل مع الفروض كلما ازداد الله له حبا.. فهَلَّا أدينا يا قوم جميع ما افترضه الله علينا، مما يخص الفرد والمجتمع حتى نستحق حبه، أم أن الأداء ما زال اختيارياً انتقائياً مزاجياً فنرى بتقديرنا البشري أن أداء بعض الفروض أولى من بعض، بل هو الأداء الكافي إن لم نقل الكامل، فنعطيه نفوسنا وعقولنا وجوارحنا كلها وننسى أن الإيمان الحق يقتضي أداء طاعات الله كلها بأداء كل ما فرضه علينا، وأن هذا وحده هو السبيل للحصول على حب الله لنا.. وأما أن نرى أو نظن بأن تحقيق حب الله لنا يتم بأداء بعض الفروض، وبالذات الفروض العبادية والأخلاقية مع الاعتقادية ونهمل بقية الفروض التي تشمل المعاملات في العلاقات المجتمعية الداخلية والخارجية، كما نهمل الفروض المؤدية لوجود تلك الفروض في الأرض، فإننا نكون كمن يرى الكل في البعض، وهيئات أن يتحقق ذلك في الأحكام إن كان ممكن تحققه في الأبدان!!

إن إقامة شرع الله في الأرض، يا قوم، هو جماع الفروض والأحكام، وإن العمل لأداء كل الفروض المؤدية إلى ذلك جنبا إلى جنب مع الفروض الفردية هو وحده الذي يحقق العمل بكل ما افترضه الله علينا لنستحق حبه، وأما الأقل من ذلك والتمسك بالعبادات والأخلاق لتسمو أرواحنا إلى ذرى السموات فلن نستحق معه صفة أننا أدينا ما افترضه الله علينا وبالتالي صفة من يستحق أن يحبه الله.. أليس سبحانه هو القائل {والله يحب الصابرين} جنبا إلى جنب مع {والله لا يحب الظالمين}.. ألا نظلم أنفسنا ونظلم الآخرين العاملين معنا بالذات عندما نمزق فروض الله فنلتزم أداء بعضها ونتخلى عن البعض الآخر؟! وما أروع هذه العبارات التي وردت في رأس الصفحة ٤٠٣ «والحقيقة أن الإسلام أعمال وتكاليف وأحكام، وروحه المحبة، والأعمال بلا محبة أشباح لا حياة فيها».. فهل أدينا كل هذه الأعمال والتكاليف والأحكام بالمحبة اللازمة لمن فرضها علينا أم طعنا إسلامنا في الصميم عندما تخيرنا بعضها فأديناها تمام الأداء وتخلينا عن البعض الآخر فلم يكن لها نصيب عندنا من الأداء؟!

ليست المسألة، يا قوم، أن نحب الله من طرفنا باتخاذ الأسباب المؤدية لذلك حسب تقديرنا واعتبارنا، ولكن المسألة أن نحقق محبته سبحانه لنا، فنحن الذين نحتاج إلى محبته وهو سبحانه الغني عن محبتنا، ولن نصل إلى محبته لنا إلا بأداء جميع الفروض التي فرضها علينا وليس بأداء بعضها وترك البعض الآخر!! صحيح

أن المحبة تكتمل عندما تكون من الطرفين، إن جاز التعبير فيما بيننا وبينه سبحانه، ولكن من أتى لذلك أن يتحقق إذا كنا نعد إلى أسباب حبه سبحانه لنا فلا نقوم بالتزامها كلها؟! ها هي أغلى ثمرات الحب يقطفها المحب بالحب المتبادل {يحبهم ويحبونه} والرضى المتبادل {رضي الله عنهم ورضوا عنه} والذكر المتبادل {فأذكروني أذكركم} فهل تقطيع الفروض وأداء بعضها وإهمال بعضها يحقق ذلك؟! إنه لمما لاشك فيه أن أداء هذه النوافل مع الفروض من العبادات، وفي الليل والنهار، لمما يزيد السمو الروحي تصاعداً.. ولكن إلى أين؟ هل نصل بعد تجاوز إرادة الدنيا وإرادة الآخرة إلى إرادة الله فنملاً ليلنا ونهارنا بهذه النوافل وننسى أن مخالطة العباد والعمل لإنقاذهم من الفساد وإعادة شريعة الله لحياة البلاد هي الأداء اللازم لاستكمال أداء الفروض، وبدونها لن نحصل على محبة الله ..

وهل عندما نستعرض النصوص القرآنية والنبوية ونعيش مع أمثلة المحبين لله نجدهم ممن عاشوا في ظل مثل هذا الظلم والفساد الذي تعيشه الأمة الإسلامية اليوم وحصلوا على محبتهم لله بكثرة النوافل والطاعات واطمأنت نفوسهم إلى أنهم بذلك حصلوا على محبة الله لهم أيضاً بالرغم من قعودهم عن أداء تلك الفروض المطلوبة لإنقاذ الأمة والمجتمع مما كان يعيش فيه؟! تأكدوا يا قوم، أن إنساناً يملك من الإيمان عشر ما تملكونه مما يستغرق عليه عقله وقلبه وجوارحه، ويدرك من الإسلام ما يغطي بأحكامه جميع جوانب حياته الفردية والجماعية يمكنه أن يتصور احتمال حصوله على محبة الله دون أن يكافح في سبيل تحقيق ذلك كله حتى يغيبه الثرى في قبره.. إن المسلم الحق، يا قوم، لا يبحث عن الراحة في هذه الحياة الدنيا لأنه يعلم علم اليقين أن لا راحة لمؤمن إلا بقاء ربه لأنه مطالب بتحمل ما يطبق من أعباء أداء الفروض اللازمة له كفرد واللازمة عليه كعضو في أمة يجب عليه أن يواصل الكفاح من أجل إسعادها بتطبيق شريعة الله عليها بدلاً من شرائع البشر، ثم حمل هذه الشريعة في دعوة لإسعاد بقية أبناء البشر، وأنه مع هذا الكفاح بشقيه عليه أن يواصل الكفاح في الحرص على سلامة تطبيقها والمحافظة عليها نقية من الشوائب وعبث العابثين ثم حملها بعد ذلك إلى بقية سكان المعمورة وفقاً للمعايير التي وضعها رب العالمين وقام بالتزامها رسوله الأمين صلى الله عليه وآله وسلم.. وتأكدوا أن المسلم الحق إن لم يفعل ذلك فقد نسي الغاية من خلقه في هذه الحياة {وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدوا} أو وقع في خطأ الظن والتقدير عندما رأى أن العبادة كافية بتأدية قسم من الفروض دون البقية منها!

لقد رأيتم، يا قوم، أن الحب لله هو المجرّد عن المظالم والشهوات، ولكن لماذا لا يكون الطمع في الله للمعونة لإنقاذ البلاد والعباد من الظلم والفساد بتطبيق شريعة رب الأرباب هو المؤدي للحصول على الحب لله؟ ولماذا لا أشتهي الخير لكل مسلم فيكون مما يؤدي إلى الحب لله؟ فهذه شهوة في الدنيا وذاك طمع في الدنيا ولكنهما لله وفي الله.. فليكن ما نسميه التسامي في العواطف والرغبات بأن نربطها

بالله هو السبيل الممكن لدى جميع بني البشر، وهو الذي ندعو إليه دون كلل ولا ملل، وأن ذلك هو في الحقيقة الترجمة العملية لكلمات ذي النون المصري عندما قال: «أن تحب ما أحب الله، وتبغض ما أبغض الله، وتفعل الخير كله، وترفض كل ما يشغل عن الله، وأن لا تخاف في الله لومة لائم، مع العطف على المؤمنين والغلظة على الكافرين، وإتباع رسول الله عليه السلام في الدين».. صحيح أن كلمة (مع العطف على المؤمنين) قد تقف على مجرد الناحية الوجدانية بالشفقة عليهم دون أي عمل إيجابي لإنقاذهم من كل فساد يحيق بهم، ولكن أن يكون كذلك فهذا لن يكفي مع محبة ما يحبه الله، وبغض ما يبغضه الله، ومع فعل الخير كله وليس بعضه، ومع الغلظة على الكافرين، ومع إتباع الرسول الأمين عليه السلام الذي لم يتخير من الفروض بعضها فأداها خير الأداء وترك البعض الآخر كل الترك أو لامسها مجرد ملامسة!

وأما (الكشف): فقد حصره المؤلف رحمه الله في الفراسة أخذاً من حديث الرسول عليه وآله السلام (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله).. والسؤال الآن: لماذا نجد بعض الأشخاص دون غيرهم لديهم هذه الميزة؟ يظهر أن ذلك أبعد من مجرد المجاهدة والخلوة والذكر التي يمتاز بها الصوفي أو من يتجنب المحارم كلها، لأننا نسمع من حين لآخر أن هناك من غير المسلمين من تكون فيهم هذه الفراسة.

وعند استعراض الأمثلة الواردة في الكتاب بشأن كشف الرسول عليه وآله السلام وبعض أصحابه رضوان الله عليهم وبعض شيوخ الصوفية نجد ذلك من خصوصيات أشخاص دون غيرهم، وإلا فأين هذه الميزة من بقية الصحابة من أمثال أمين هذه الأمة أبي عبيدة، وأصدق هذه الأمة لهجة أبي ذر، وأقرأها أبي بن كعب، وأفضها زيد بن ثابت.. وغيرهم كثير؟ ناهيك عن حبر هذه الأمة ابن عباس!

وخلاصة القول في هذا الصدد أن استخدام كلمة الكشف يوحي بأنه نوع من الإطلاع على الغيب ولا يقف عند التعرف الدقيق على غير المعتاد بالواقع. صحيح أن هناك ما يدعونه بالتخاطر أو الاستشعار عن بعد، إذا جاز التعبير، وهذا ليس خاصاً بأحد دون أحد، سواء استخدمت فيه وسائل تقنية حديثة أم لم تستخدم، ولكنه لا يخرج عن واقع الفراسة والكشف.

وأما (الإلهام): سواء كان كأحد طرق المخاطبة الربانية لرسوله سبحانه أو كان بقذف هذه الخاصية أو تلك من الله سبحانه في مخلوقاته من أجل أن تمارس وظيفتها التي خلقت من أجلها أو لتؤدي عملاً يطلب منها، وسواء كان من المولى سبحانه مباشرة أو بواسطة ملك من ملائكته، وسواء كان للبشر أو غيرهم، وسواء كان للمسلم أو الكافر، وسواء وسواء.. وقد اعتبرت هذه الميزة سبباً يتحصل منها علماء وهبياً لمن امتاز بها ويفتقد ذلك من افتقدها.. والمدقق بالملاحظة يرى أن لكل ميزة أو خاصية مستوياتها لدى المخلوقات، كالأدكاء والإدراك العقلي لدى البشر، فهي تقوى وتشتد لدى بعضهم، فتظهر بمظاهر تفوق ما لدى الآخرين، وتضعف وتنبدل

لدى البعض الآخر حتى يعدموا أي مظهر من ذلك، وإلا فهي موجودة لدى الكل وإن تفاوتت نسبتها ومستوياتها، وسبحان الخالق المدبر!!

وأما هذه الاستشهادات بالنصوص فإنني أظن أنها أحياناً تحمل من المعاني أكثر مما تحتمل، فمثلاً النور في قوله تعالى {أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس..} لا يخرج عن الإيمان الذي لا يمتاز بوجوده أحد من المؤمنين على أحد بعد أن كانوا كافرين.

وأما (كرامات الأولياء): فسبحان الله العلي العظيم: تظهر الكرامات لضعاف الإيمان ليقفوا بذلك بينما لا يحتاج أقوياء الإيمان لظهورها عليهم لقوة إيمانهم: ألا رحمة الله ورضوانه عليك يا أحمد بن حنبل وأنت تجيب بهذا الجواب على من سألك عن سبب ظهور الكرامات على من جاؤوا بعد الصحابة أكثر مما كانت تظهر على الصحابة أنفسهم. فلو أخذنا هذا الجواب على ظاهر معناه لكان فيه تقليل لشأن إيمان من جاء بالكرامات من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وبالتالي تقليل من شأن الكرامة التي تظهر لدى ضعاف الإيمان..

هذا وأن مع عودة المؤلف رحمه الله إلى القول بأن «الله تعالى يخلق النتائج عند الأسباب لا بها» قد عاد يكرر رأي أهل السنة في مفهوم مسألة القضاء والقدر، والذي يؤخذ عليه أنه شكل من أشكال القول بالجبرية وإن ألبس عمل الإنسان بما أسموه نصيب الكسب الإرادي.. وإلا فأى كسب وإرادة هذه مع القول بأن الأسباب التي يُعبر عنها بالقدرات والخصائص التي أودعها الله في الأشياء هي التي لا تؤدي إلى النتائج عندما يأخذ بها الإنسان وإنما النتائج يخلقها الله عند الأسباب أو عندما يريد الإنسان أن يأخذ بهذه الأسباب، فلا علاقة للأسباب بالنتائج من حيث الإيجاد والعدم لأن الله هو الذي يخلق النتائج كما خلق أسبابها.. فما الفرق بين هذا القول لدى أهل السنة وقول الجبرية الذين يرون أن الله يخلق النتائج كما يخلق الأسباب وأن عمل الإنسان كله بأسبابه ونتائج من خلق الله، وأن الإنسان في ذاته وفي أعماله كلها كالريشة في مهب الريح؟!!

فيا قوم، هل من خروج عن الإيمان بقدره الله وإحاطته بخلقته، وجوداً وهدماً، وبأعمالهم، نتيجة وسبباً، عندما نقول بأنه سبحانه قد أودع في الأشياء والأفعال خصائص الوصول إلى النتائج، وأمضى سنته وحكمته على ذلك منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها، وأن تحقق تلك النتائج والحصول عليها لا يتم إلا بالأخذ بتلك الأسباب وما فيها من خصائص وقابليات وقدرات وميزات؟ فإذا وصل الإنسان للنتائج عند الأخذ بأسبابها فقد وصل إليها بإذن الله ومشينته وإرادته، لأنه لا يقع في ملكه شيء ضد ذلك، وبقدره الذي أودعه في تلك الأسباب مهما كان نوعها، لأنها لا تستطيع أن تلبى أي فعل دونه، فيكون الأخذ بالأسباب هو العمل الإنساني الإرادي الاختياري الذي يحاسب عليه بالثواب والعقاب بقدر ما يراعي الأخذ بها الحلال

والحرام، وإذا لم يأخذ بها كان من القاعدين عن ذلك وممن استحقوا جزاءهم غير عدم الحصول على تلك النتائج..

ولندع هذا الاستطراد الذي فرض نفسه لكثرة استثارته ولنعد لموضوع (الكرامة) فنجد المؤلف رحمه الله يميز بين الكرامة لنبي، إنها معجزة، وأنها كذلك لولي وإن كنت أتخفظ على مفهوم الأولياء بعد أن قرأنا مقولة الإمام ابن حنبل التي تقرّر ظهور الكرامات بعد الصحابة من باب تقوية ضعاف الإيمان لا من باب أحقيتهم بهذا الامتياز لأنهم أكثر الناس إيماناً وأسماهم تقى.. وأما التفريق بين كرامة الأتقياء واستدراج الأشقياء فهو متطابق مع القرآن الكريم بغض النظر عن مستوى كل فريق في مجاله.. وما مناظرة الصوفي والبرهمني، حاشية ٤٤٦ - عن ذلك ببعيدة. وها نحن نجد للكرامة معنى آخر بعيد عن المعجزات وخوارق العادات، إنه «الاستقامة على شرع الله»، فهي إذن ليست ميزة لأحد من الطائعين لله على أحد، كما أنها قد تظهر على الطائع وقد لا تظهر، كما قد تظهر على العاصي وقد لا تظهر وإن سميت استدراجاً، وهذا ما يردده الشيخ الشاذلي رحمه الله. وها نحن نجد تقسيماً للكرامة من قبل الشيخ محي الدين بن عربي إلى قسمين: مادي ومعنوي، وأن المادي أو الحسي هو المعروف المعتبر لدى عامة الناس وأما المعنوي فلا يعرفه إلا خواص عباد الله.. فلماذا الخواص ومقولة ابن حنبل لم تغب عنا بعد؟!!

ولابد مع ختام هذا الموضوع من تأكيد معنى الولاية والولي وأنها دوام الاستقامة والطاعة وأنها ليست من خصوصيات فئة من الناس بل من الممكنات لكل مسلم لأن كلام رب العالمين {إلا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون} حصر الولاية في المؤمنين المتقين مما يشمل كل مؤمن تقى. وأخيراً: كم كنت أتمنى على الله أن أرى مثل كرامة أمير المؤمنين عمر وهو ينادي قائد جيشه سارية: يا سارية الجبل الجبل.. أراها على قادة المسلمين اليوم بدلاً من نداءات اللهو والفجور وعلى موائد الخمر والقمار حيث يباح العبث بالعقول والقلوب بينما تحظر دعوات الهدى والتقى لإنقاذ البلاد والعباد من ذاك العبث والفساد تحت تهمة التشدد والإرهاب!!!

الفصل الخامس - تصحيح الأفكار عن التصوف

نجده يبدأ بموضوع (بين الحقيقة والشريعة) حيث يرى أن الإسلام هو الشريعة وأن الإيمان والإحسان هما الحقيقة، وأن الجمع بينهما هو الأمر اللازم لكمال المسلم، وهنا ليسمح لي المؤلف رحمه الله لأذكره بأن هذا الحديث النبوي الشريف الذي يشير إليه والذي فرق بين الإسلام والإيمان والإحسان ليس هو كما يرى الإمام القرطبي في تفسيره الفصل في هذا التفريق وإنما، كما يقول، قد يطلق الإسلام ويراد به الإيمان وقد يطلق العكس، ثم إن الإسلام لا يكون إلا بالإيمان بل أوله الشهادتان فهما

متداخلاً، ثم أنه من المستحيل أن نرى الشريعة لدى الفرد والمجتمع بدون الإيمان. صحيح أن الدستور الفرنسي يعتبر الشريعة الإسلامية أحد مراجعه ولكنه دستور كفر ولا وجود للإيمان بالإسلام لديه. ثم إنه لا بد من التأكيد على أن الإيمان كعقيدة والإسلام كشرعية لا يمكن أن يستقيم ويكتمل القول بالتزامهما دون ربطهما بالله تعالى كأوامر ونواهي له سبحانه، ولذلك ردد الفقهاء تعريف الإيمان المشهور: ما استقر في القلب عن يقين، ونطق به اللسان، وظهر عملاً على الجوارح، مما يجعله يشمل الإسلام أيضاً. وأما بالنسبة للإحسان فقد عرفه عليه وآله السلام عندما قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، مبيناً أنه إدراك الصلة بين العابد والمعبود بشكل قوي وأداء العبادة بمفهومها الشامل له سبحانه عندما يكون العابد كأنه من شدة صلته بالمعبود يراه بعينه، أو أنه إذا لم يستطع ذلك فإنه يستطيع أن يدرك أن الله المعبود له يراه لأنه سبحانه يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار.. وبهذه العبادة التي يستحضر العابد فيها المعبود سبحانه تكون الصلة به سبحانه قوية جداً، كيف لا وقد وصل المستوى بالعابد كأنه يرى معبوده أو إذا عجز عن ذلك فإنه يستحضر في ذهنه أن المعبود سبحانه يراه ويراقبه أثناء عبادته له.

لاشك أن هذا المستوى الراقى من إدراك الصلة بين العابد والمعبود هو الذي يجعل العابد يستحضر معبوده بهذا الشكل أو ذاك عند عبادته، وأنه بدون ذلك لن يستطيع أن يستحضر ذلك مطلقاً، وأن هذا الإدراك للصلة هو بحق روح الإسلام والإيمان، وأنه بقدر حرص المسلم على تقويته بالطاعات بقدر ما تسمو هذه الروح فيه مما يجعل الروحانية تظهر على صاحبه في كل تصرفاته وأقواله ومعاملاته.

من ناحية أخرى صحيح أن حقيقة الشيء هي كنهه في واقعه الفعلي، وأن كنهه العبادة هي حقيقة هذا الشكل أو ذاك من صلاة أو غيرها، وهي هذا الأساس الذي يقوم عليه هذا الشكل، وأنه بدون الأساس لا يقوم شكل البنين، وأن الأساس هو العقيدة التي انبثقت منها العبادة، وأن العقيدة دون إدراك الصلة بالله، ممثلة بما أمر الاعتقاد والتزام العمل به، لن تكون إلا وجدانية عاطفية ما أكثر وما أسرع ما تتسرب إليها الأوهام والشكوك والخرافات كإيمان العجائز الذين يرون في تقديس الأضرحة والتمسح بها مثلاً سبباً لتحقيق الخير لهم ولأبنائهم، وكإيمان كل المقلدين لأبائهم دون تعقل ولا تدبير، حتى مهما ارتقوا في سلم العلم، عندما يرون في الشمس أو النجوم عامة إلهة تعبد من دون الخالق المدبر، ويرفضون مجرد المناقشة العقلية لهذا الإيمان قائلين: الإيمان بالميراث وليس بالعقل..

وعليه نقول: إن حقيقة كل مظاهر الإسلام في إيمانه وتشريعاته هي أوامر الله ونواهيها ويجب التصديق بمصدرها تصديقاً جازماً والعمل بها عملاً لازماً، وكل ذلك بناء على إدراك هذه الصلة بالخالق، كخالق ومدبر معاً، لأنه سبحانه {ألا له الخلق والأمر} وليس الخلق فقط، ولأنه سبحانه {الذي خلق فسوى} ولم يخلق فقط.. وأن هذه الحقيقة فعلاً وحقاً هي أن تعبد الله بمفهوم العبادة الشامل بالطاعات كلها كأنه سبحانه أمام

عيني المعبود لشدة استحضاره أو أمام مراقبته ومشاهدته هو سبحانه، وهذا ولا شك هو الإحسان.. وبالإجمال نرجو الله تعالى أن يجزيكم خير الجزاء لهذا التوضيح..

وأما حرصكم يا أخي المؤلف على ربط الشريعة بالطريقة الخاصة بكم، ولنقل ربط الإسلام كله كعقيدة وشريعة بطريقتكم، ورؤيتكم كأنها هي السيرة أو الوسيلة الوحيدة المحققة للوصول إلى الإحسان أو الحقيقة كما تسمونه فاسمح لي أن أشك بأنكم تخالفونني القول بأنها بتفاصيلها أمور مستحدثة جاءت حسب قولكم نتيجة اجتهاداتكم، وأنه كما تعلمون ليس من حَقكم أن تقررُوا أن الحق والصواب بجانب اجتهاداتكم من دون غيرها ولا سيما أن ما تركه الرسول عليه وآله الصلاة والسلام لا يوجد فيه إلا بعض ما ورد من تفاصيل في هذه الطريقة، وأنها إن أشغلت الفرد المسلم في ظل حياة إسلامية كاملة في مجتمع إسلامي سليم فلن تصلح بل لا يجوز أن تشغله في ظل مثل هذه الحياة الفاسدة المفسدة التي يعيشها المسلمون بدون الإسلام وتشريعاته ولا تسمى إلا تجاوزاً بالإسلامية لأنه لا يوجد فيها من الإسلام إلا بعض المظاهر الفردية، إذ المفروض بكم، وبكل من يعمل للإسلام ويدعو له، أن يعمل لإيجاد جميع أحكامه في الحياة الفردية والمجتمعية معاً وليس فقط الفردية، ولهذا فإن طريقتكم الموصوفة في كتابكم هذا وكل الكتب المتحدثة عن الصوفية، كما أعلم، يمكن أن تناسب لمدى محدود العمل للإسلام دعوة وتطبيقاً في ظله لحكم وتشريع وليس في ظل مثل هذا الوضع الحالي، وأقول لمدى محدود لأن المدى الكامل لا يكون إلا بالعمل الشامل للحفاظ على تطبيقه عندما يكون مطبقاً، ولحملة لقبية شعوب الأرض بالجهاد تحت راية دولته أو بالكلمة حيثما كلف الفرد المسلم أو حيثنا حل وارتحل دون تكليف..

إنني، يا أخي رحمك الله، لا أظن أنكم ستختلفون معي في هذه النظرة لما هي عليه الأمة الإسلامية اليوم وما يفترض في الحركات الإسلامية أن تعمل به وله.. وما أروع كلمات الإمام مالك رحمه الله ورضي عنه وهو يقول: من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق، لأنه قصد بعث الروح في الشريعة، وأن مجرد الروح والروحانية دون فقه وعلم بالشريعة فلن تتجاوز الكهنوتية إن لم نقل البوذية أو البرهمية، وعندها يقع صاحبها بالزندقة، وأن المتفقه من الناحية الأخرى إذا لم يحرص في اتصاله بالشريعة كأوامر ونواه للالتزام من الله بقصد طاعته والعمل لنوال رضوانه فإنها ستفقد الصلة الروحية بالله ويصبح يخشى على صاحبها الأخذ بمجرد المظاهر دون تقصد الجوهر، كمن يقوم بالطاعات من باب التقليد ليس إلا، وأن من الناحية الأخرى الجمع بين الشريعة والعمل بأحكامها تطبيقاً ودعوة وبين إدراكه لها كأوامر ونواه لله تعالى، فيلتزمها كأنه يرى منزلها سبحانه أو يراه منزلها سبحانه على الأقل، هذا الذي يجمع بين الشريعة بأساسها الإيماني وبين الإحسان بضابطها التطبيقي وهو الذي يحصل ويتوصل للحقيقة قولاً وعملاً..

وليسمح لي المؤلف رحمه الله أن أعود وأعرض على قوله بتقسيم الدين إلى ثلاثة أركان هي الإسلام والإيمان والإحسان، مراعيًا لما ورد في الحديث الشريف بشأن

ذلك، لأن هذا الحديث نفسه يورد أيضاً أمراً رابعاً هو السؤال عن الساعة، فلماذا أغفل مع أن الإيمان باليوم الآخر ركن ركين من الإيمان؟! والمفروض تبعاً لذلك أن ترى للدين أربعة أركان وليس ثلاثة، ولكن الحقيقة يا أخي المرحوم أن جبريل عليه السلام جاء بهذا الحديث بأمر من الله سبحانه إلى رسول الله عليه وآله السلام ليعلمه ويعلمنا معه ومن بعده ماهية هذه الأمور: الإسلام والإيمان والإحسان وموعد الساعة.. وإلا فالدين الإسلامي بل كلمة الإسلام تشمل العقائد والعبادات والتشريعات والأخلاق والقصص القرآني وليس فقط العقائد والشرائع وإحسان التزامها.. فلماذا نحمل هذا الحديث مسؤولية تقسيم الدين إلى هذه الأركان، وهو منه براء، ثم نهاجم من ينكر هذا التقسيم ونعتبره يقصد هدم ركن من الأركان الثلاثة!؟

هذا من جهة التقسيم، ومدى دقته والنظرة إليه، وأما من جهة الطريقة بالذات: فهل نحن أمام دين بجميع أقسامه ولكن مع عدم وجود طريقة له لإيجاده في الأرض أم أن الله سبحانه الذي أنزله على رسوله قد أنزله كاملاً دون نقص؟! وإذا كان قد أنزله الله كاملاً فلن يكون الرسول عليه وآله السلام الذي بلغه وأوجده في الأرض كدولة إلا أول من عمل وبين هذا الكمال.. فهو عليه وآله السلام الذي سار عملياً في طريق حمل هذا الدين للناس بدءاً بالعهد المكي الذي اشتمل على الصراع الفكري مع الناس بعمامة والكفاح السياسي مع أصحاب النفوذ منهم بخاصة، وذلك بتعابيرنا المعاصرة، كما ينتهي بالعهد المدني الذي أضاف إلى ما كان في العهد المكي التطبيق التشريعي في دولة مع حمل هذه الدولة لهذا الدين للناس كافة بالجهاد المادي والفكري معاً.. فإذا كنا نعتقد أننا ملزمون بالطريق الذي سار عليه الرسول عليه وآله السلام وبيّنه لنا، وهذا فرض علينا بلا أدنى شك، لأن الله تعالى يقول {ولكم في رسول الله أسوة حسنة} ويقول {وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا}، فإنه لا يجوز لنا بعد أن غابت الشريعة من الأرض، ونقص وجود الدين إلى بقية من العقيدة والعبادات والأخلاق لدى الأفراد لا لدى المجتمع، لا يجوز لنا إلا أن نعود إلى طريقة الرسول عليه وآله السلام سواء في إيجاد هذا الدين لدى الفرد أو لدى المجتمع.. وأما أن نجتهد ونتوصل إلى طريقة خاصة بنا غير طريقة الرسول عليه وآله السلام، ونحصرها في الإصلاح الفردي، وكأننا في عهد نستظل فيه بجميع جوانب الدين وأحكامه، فهذا ما لا أظن أنكم تختلفون معي على عدم جوازه لا قولاً ولا عملاً..

هذا وأنت تلاحظ، ألا رحمك الله برحمته الواسعة، بأنني لا أختلف معك في الاصطلاحات وإنما في المعاني والوقائع بشأن ما هو عليه هذا الدين بتمامه وكمالها، ولا سيما أن الناظر في هذه الأمثلة التي تسوقها، يا رحمك الله، حول حرصك وقومك على الجمع بين العلم والعمل بالشريعة وأحكامها مع السمو الروحي بإحسانها، يدرك مدى الافتراء عليكم، وبالذات على من أخلص منكم في ذلك لله وحده، والإخلاص سر في القلب، ولم يتصوف تزلفاً للدنيا ومغانمها.. كيف لا، والحق يقال، أنه لولا بعض تلك الحركات الصوفية لما وصل المد الإسلامي لبعض الأقطار الأفريقية في غربها ووسطها

وشرقها.. ولكن المأخذ، كل المأخذ، عليهم أنهم ما زالوا على اتباعهم للنهج الفردي كما كانوا في العهود الإسلامية الغابرة، وكان الإسلام ما زال كما هو في وجوده في الحياة الفردية والمجتمعية، وأن ما ينقص المسلمين هو فقط المزيد من الطاعات والقربات لتحصيل المزيد من السمو الروحي الفردي..

وها هو المؤلف رحمه الله يتحدث عن التحذير من الفصل بين الحقيقة التي يراها متمثلة في الإحسان وبين الشريعة، فيشير إلى تلك الفئة المتصوفة كذباً ونفاقاً وذلك عندما ادعوا بأن المقصود بالدين فقط هو الجانب الروحي، وأنهم تبعاً لذلك عطلوا الشريعة وأسقطوا التكاليف عن أنفسهم وأباحوا المخالفات، وأنهم في الواقع زنادقة ضالون تبرأ الصوفية والصوفيون الصادقون المخلصون منهم ومن أقوالهم وأفعالهم، ولا سيما أنهم يدعون بأنهم أهل الباطن وأن غيرهم من الأمة وعلمانها هم أهل الظاهر!! فويل لهم مما كسبت أيديهم وويل لهم مما يقولون ويفعلون! ألم يعلموا بأن الباطن إذا لم يصدق الظاهر فلا خير فيه لأنه لا خير في نية طيبة وقلب طاهر، كما يقولون، بينما الأعمال كلها فساد وشر وخطيئة؟! وها هو الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله يقول بأن «ترك العبادات المفروضة زندقة، وارتكاب المحظورات معصية، ولا تسقط الفرائض عن أحد في حال من الأحوال» مؤكداً هذا المعنى.. وها هو الشيخ الجنيد رحمه الله عندما يقول «مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة» فيؤكد هو أيضاً هذا المعنى.. وها هو المؤلف رحمه الله ينهي بحثه هذا بالتأكيد على أن السادة الصوفية قد أخذوا علمهم وطريقتهم عن أبي حنيفة رضي الله عنه.. وهنا ليسمح لي المؤلف رحمه الله أن أقول بأن أبا حنيفة صاحب مذهب فقهي تشريعي يعمل ويدعو للاحتكام إلى الشريعة والالتزام بأحكامها كلها وليس بجانب واحد أو أكثر دون بقية الجوانب، ولا أظن أحداً يخالفني في ذلك، فكيف أخذ علم الصوفية وطريقتهم عن أبي حنيفة وهو بهذا الشكل؟! اللهم إلا إذا جرى التأويل والانتقاء للمذهب حتى انتهى الصوفية إلى ما انتهوا إليه من أخذ الجانب الروحي العبادي الأخلاقي وترك بقية الجوانب!!

وأما (الدرس على العلوم الإسلامية) من تفسير وما دس فيه من إسرائيليات، ومن حديث وما وضع فيه من افتراءات، ومن تاريخ وما ألصق فيه من أكاذيب وخيالات، ومن الصوفية وما نسب إليهم من حلول واتحاد وغيرها من أضاليل وانحرافات.. فإن هذه الدسائس كلها من أعداء الإسلام والمسلمين، كانت وستبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ما دام عليها كفر وإسلام. ولكن كما توفر لعلوم التفسير والحديث والتاريخ من يذب عنها وينقيها من الافتراءات سيبقى من الواجب على علماء الصوفية، من أمثال مؤلف هذا الكتاب موضع الدراسة رحمه الله بمثل هذا الدور، كما سيبقى من واجبهم جعلها تستكمل ما ينقصها كحركة إسلامية من علوم وطريقة لتكون مع الرسول والرسالة في العهدين المكي والمدني، فتكون بحق حركة إسلامية واعية عاملة كاملة بوعيتها وصدقها وإخلاصها، الأمر الذي يجعلها قادرة على أن تساهم بحق في إنقاذ الأمة الإسلامية مما وصلت إليه من الذل والهوان بين الأمم، ومن الفساد والانحراف في الواقع والفهم، ومن الظلم والاضطهاد في الحياة والمسار.

وأما (تأويل كلام السادة الصوفية) فالمؤلف رحمه الله يرى حيث لا دس ولا افتراء ضرورة التأويل بما تسمح به اللغة العربية كما هو الحال مع تأويل الكتاب والسنة، فيرى ضرورة تأويل أحاديث الصفات وغيرها مما لا يجوز نسبته إلى الله تعالى، كما يرى أن تأويل كلام الصوفية من باب أولى إذا كان كلام الرسول عليه وآله السلام يقع عليه التأويل، ثم إنه من الخطر على من لا يفهم كلامهم ولا يعرف مصطلحاتهم أن يقرأ كتبهم لأنه قد يؤولها على غير وجهها وحقيقتها، وهذا واضح مما كتب شيوخهم من أمثال فصوص الحكم لابن العربي، الأمر الذي جعل ابن حجر يرى أن الجهلة العوام الذين حفظوا نصوصهم على ظاهرها قد وقعوا في الإلحاد وسقطات الحلول والاتحاد مع أنهم يقولون: وأعلم أن كل علم لا يؤيده الكتاب والسنة فهو ضلالة، فهمه كل من قرأه أو لم يفهمه على حقيقة مقصوده، الأمر الذي يفرض حسن الظن والتأويل لنتناسب جميع الأقوال مع الكتاب والسنة..

إن هذا كله كلام جميل.. ولكن لماذا الإغراق في الإرشادات والرمزية؟ وأي مبرر هذا عندما يرون ذلك لحماية علمهم ممن لم يفهمه وحماية طريقهم ممن لم يسلكه! لا، إن الواجب إذا كنا نؤمن بصحة علومنا وصدق طريقنا أن نحرص على تقريبها لأذهان العامة والخاصة معاً ليفهموه ويسلكوه.. أليس كذلك يا أخي الفاضل؟ هذا وإنه لمن المعلوم عن ظاهر الكف أن اللجوء إلى الرمزية لا يقدم عليه إلا من يخشى من الوضوح ولا يريد له أي سبب كان، ولكن هل عذره مقبول عند الله ورسوله؟ نعم إن هناك رخصة في ذلك لمن خشي الهلاك أو تعرض هو أو عياله أو ماله للإفساد والتلف.. {فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه} و{إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان}.. فهل هناك مثل هذا الاضطرار والإكراه لناخذ بهذه الرخصة؟! والرسول عليه وآله السلام يقول (إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزانمه) ويقول تعالى {إلا أن تتقوا منهم تقاة} إنني أشك بذلك يا قوم.. ثم إنكم ما دتمتم تقصدون في النهاية ربط الإنسان بقوة بالله ورسوله ومن خلال هذا الطريق الروحي الفردي فأي مبرر للإرشادات والرمزية؟!

ثم دعني أرجح، يا أخي المرحوم، وأقول: متى يغرق الإنسان في كتاباته بالرمزية؟ إنه عند تحقق وجود الخوف مما ورد ذكره.. لنفترض وجود شيء من ذلك في بعض الأحيان، ولنجد في عذر هار بن ياسر رخصة في الرمزية، ولكن ماذا فعل عمار رضي الله عنه عندما نطق بالكفر وقلبه مطمئن بالإيمان؟ لقد كان يرى الهلاك المحقق بعد أن رأى بأمر عينيه والديه يقتلان أمامه.. فهل هذا ما فعله الحلاج وابن عربي وغيرهما ممن قتلوا؟ أم قد أخذوا بالعزيمة ورفضوا الرخصة كما فعل بعض الصحابة؟ ولكن لم يأخذوا بالعزيمة من الصحابة إلا من أصر على كلمة التوحيد الصريحة والموت دونها مما جعل الرسول عليه وآله السلام يثني على موقفهم كما أثنى على من أخذ بالرخصة، فهل ما فعله أولئك السادة من الصوفية كان من هذا القبيل؟! بالطبع لا، كما أعلم، فقد كان عليهم أن يصرخوا بملء أفواههم أن إشاراتهم ورموزهم اللفظية

والكتابية التي اتهموا من أجلها بالزندقة تعني كذا وكذا مما يلتقي مع كتاب الله وسنة رسوله ولا تختلف معهما أبداً ولا سيما أنهم كانوا يرون الموت المحقق بسبب تلك التهمة الموجهة إليهم.. وإذا قيل بأن ما نسب إليهم كان دساً وكذباً وافتراءً، فلماذا لم يعلنوا ذلك بالرد الصريح الواضح المبين لكي يذهب المعنى المنسوب إليهم في الهواء فيحققوا ما أوجبه الله عليهم من عدم إلقاء أنفسهم في التهلكة.. هذا وأنتي في الوقت الذي أتمنى فيه على الله أن يكونوا قد ظلموا وقضوا شهداء الكلمة، كما يقال في اللغة المعاصرة، أرجو من الله أن لا يكونوا قد ذهبوا ضحايا الإصرار على الرمزية التي لا تسمن ولا تغني من الله شيئاً.. كما أتمنى على إخواننا في الله من شيوخ الصوفية أن يكونوا في مثل صراحتهم بالترام الكتاب والسنة، هم ومريدوهم، صريحين في الإقلاع عن هذه الرمزية ولغة الإشارات، ومعلنين كلمة الله الصريحة المدوية في جراتها ليكونوا بالفعل من (خير الشهداء) سواء كان الواحد منهم من مثل حمزة رضي الله عنه أو (رجل قام إلى إمام ظالم فنصحه فقتله)..

وأما أفكار (وحدة الوجود والحلول والاتحاد) فهي أكثر الأمور تشابهاً بل رمزية في لغة الصوفية مما أوقعهم في مواضع الاتهام القاتل والشبهات المهلكة. وإذا كان المؤلف رحمه الله قد قام ببيان هذا الموضوع وذلك ببيان ما لدى الصوفية في الحقيقة، وما أُلصق بها زوراً وبهتاناً، وما وقع فيه بعضهم مما أوقع ممن تبعهم في المغالاة والشطط، فانه، جزاه الله خيراً، لم يقصر في جلاء هذه الجوانب الثلاثة من الأمر، وذلك من خلال ما أورده من أقوال علماء الصوفية وعلماء الشريعة معاً.. الأمر الذي جعله ينتهي إلى الجزم بتبرئة الصوفية من كل ما نسب إليهم من القول باتحاد الخالق سبحانه بالمخلوق أو حلول ذاته سبحانه في ذات المخلوق، لأن ذلك من المحال.. ووصل به البيان هذا على الصفحة ٥٥٦ من مؤلفه إلى أن قال، و قوله الحق فيما تمنيته عليه بشأن الإقلاع عن لغة الإشارات والرمزية المغرضة المشبهة: «وعلى كل فالأولى بالصوفي في هذا الزمان أن يبتعد عن الألفاظ والتعابير التي فيها إيهام أو غموض أو اشتباه، لنلا يوقع الناس بسوء الظن به، أو تأويل كلامه على غير ما يقصده، ولأن كثيراً من الزنادقة والدخلاء على الصوفية قد تكلموا بمثل هذه العبارات الموهمة والألفاظ المتشابهة، ليظهروا ما يكونه في قلوبهم من عقائد فاسدة، وليصلوا بذلك إلى إباحة المحرمات، وليبرروا ما يقعون فيه من المنكرات والفواحش، فاختلط الحق بالباطل، وأخذ المؤمن الصادق بجريرة الفاسق المنحرف».

إنه، بلا أدنى ريب، كلام جميل ولطيف ويثلج صدر المؤمن الحريص على إخوته المؤمنين، لأنه جاء بعد تلك التوضيحات بالاستشهادات الموثقة على أسنة وأقلام أصحابها من علماء الشريعة وشيوخ الصوفية.. ولكن، ليسمح لي المؤلف رحمه الله، لأقول بقت هناك نقطتان تحتاجان بالفعل للعمل الصادق الذي يحسم هذا الأمر وينهي هذه التهم إلى غير رجعة:

الأولى: الابتعاد بحق من قبل الصوفية في هذا الزمان عن هذه الإشارات والرموز الموهمة، وطرح كل هذه الأفكار والممارسات الخاطئة تحت ضوء الشمس

وبكل وضوح ومبادرة وعدم تردد ولا غموض، ووضع كل الكتب والمؤلفات السابقة موضع التحليل والنقد لطرح كل ما علق بها من التشويه لوجهها الروحي المشرق الجميل أو التشويش على مهمتها في الارتقاء الروحي بالإنسان المسلم.. وكلي رجاء أن يحرص مبضع الجراح على أن لا يرحم أية إشارة موهمة أو رمز مغرض مما يثير مثل هذه الشبهات، ولا يتركه إلا ويشرحه ويطرح خارجاً كل ما علق به من التشويه والانحراف عن الكتاب والسنة.

والثانية: قيام الصوفية كحركة إسلامية بالمبادرة الفورية لتصحيح فهمها لسيرة النبوية في عهدها المكي والمدني وبالتالي تصحيح مسارها بالجمع بين العمل الروحي الذي تتركز عليه جهودها الجارية والمحصورة بمحض الإصلاح الفردي البعيد عن مفاصل المجتمع ولزوميات الحياة الإسلامية الحقة - بالجمع بين هذا الإصلاح الفردي والإصلاح المجتمعي، الأمر الذي يفرض عليهم الخروج من هذه العزلة التي يفرضونها على أنفسهم، سواء في خلواتهم أو حلقتهم، وذلك بالتصدي للعلاقات المجتمعية بالفهم الدقيق لأوجه مفاصلها، ثم بالتصدي للدعوة لتغييرها بالبدائل الإسلامية عملاً بالعهد المكي أولاً والذي أنصب فيه العمل من الرسول عليه وآله السلام على إعداد الفرد المؤمن الصادق في إيمانه، الواعي على مجتمعه، المستعد لقيادته وإنقاذه من خلال مخاطبة الفرد والمجتمع معاً مما هم فيه وعليه، وذلك بالتنقيف الفكري الفردي والجماعي.. ويستمر ذلك كله إلى أن تأتي بعون الله وتوفيقه فرصة الانتقال للعهد المدني وعندها ينتقلون إليه مع المجتمع بقدم راسخة، وعندها سيجدون القلوب كلها تحتضنهم، والأيدي كلها تتشابك مع أيديهم، والألسنة كلها تلهج بالثناء عليهم، وعندها فقط، سيجدون كل الحركات الإسلامية تلتف حولهم لتدعم موقفهم وتبني صرح الحياة الإسلامية السليمة الكاملة معهم وتحافظ على نقاتها وبقائها بكل الغالي من الأرواح والنفيس من الأموال والأولاد.. وأما أن تستمر الصوفية كحركة إسلامية في الدوران حول نفسها، كما هو الحال مع بعض الحركات الإسلامية الأخرى، فتكتفي بالبرقي الروحي في المجال الفردي، فإنها لن تضيف للمجتمع إلا أفراداً صالحين يبتلعهم المجتمع في زواياه هنا وهناك دون أن يرحمهم من روائح الفساد التي تنبعث من كل مكان.. وعندها هيئات أن يكون مثل هذا الجهد الفردي غير جهد مسكن لهؤلاء الأفراد الصالحين ومقعد لهم عن العمل الجدي الجماعي المنتج الإنتاج الكامل الحق..

ومتى تحقق للصوفية وجود هذا الفهم للمنهج النبوي في فكره وطريقه فإننا سنكون ملزمين بالقول أنها حركة إسلامية بحق وحقيق، وعلى منهاج النبوة الكامل السليم، كما سنكون مطالبين بدعوتها للوحدة مع الحركات الإسلامية المماثلة لها أو توحيد هذه معها، وبذلك يقوى السير ويقرب تحقيق الأمل المرجو لعودة المجتمع الإسلامي الكامل السليم..

واسمح لي، يا أخي المؤلف رحمك الله، أن أؤكد لك أنه عندما تتخلص كتب الصوفية ومؤلفاتها كلها السابقة واللاحقة مما علق بها من الشوائب والأدران، وتتقى

من هذه الشبهات والانحرافات، ولا تكتفي بمثل تلك التأويلات التي إن قبلتها عقول الخاصة الحريصة عليها وعلى كل حركة إسلامية لتستمر في عطائها الروحي والفكري معاً فلن تقبلها عقول جمهرة الأمة الذين بهم توجد في الأرض الحياة الإسلامية وتستمر، ولهم تعمل لإعزاز الإسلام والمسلمين كما تعمل مع خاصتهم لتحقيق القيادة الفكرية فالعملية لهم - عندما يتحقق ذلك كله في مؤلفات الصوفية فإن الخير كل الخير سيصبح في متناول اليد النظيفة الشريفة المضحية بوعي ووضوح.. كيف لا وأن تحقق النقطة الأولى بهذه التنقية التامة والعطاء الثر، ثم تحقق النقطة الثانية بتصحيح الوعي الفكري والمسار العملي بالجمع بين العمل الفردي والعمل الجماعي، فإنها، أي الصوفية، ستفرض نفسها بما لها من رصيد في الماضي والحاضر على جميع الحركات الإسلامية المنضبطة مثلها بمنهاج النبوة في عهدها المكي والمدني والبعيدة عن التأويلات التي تخرج العهد المكي من العمل الفكري، بشقيه الصراع الفكري والكفاح السياسي، تخرج عن ذلك إلى العمل المادي الجهادي مع أن هذا العمل من خصوصيات العهد المدني..

ومتى استمرت في هذا الوعي والمسار المنضبط فإنها ستفرض نفسها أيضاً على هذه الحركات الإسلامية المنضبطة مثلها بالمنهج النبوي الصحيح، وستكون قادرة بقدر صلابتها في الوعي والعمل على التخلص من ضغوط المجتمع الذي يطالبها تحت عوامل القهر والإذلال والاضطهاد للقيام بأعمال العهد المدني قبل أوانه.. وعندها ستبقى قادرة على مواصلة السير دون أن تسمح لأية جهة أن تمد إليها يدها أو قلمها أو لسانها بالسوء محاولة تعطيل أعمالها.. وعندها، وعندها فقط، ستجد الرعاية الربانية الكاملة تمتد إليها بيدها الناصرة الحانية المباركة..

وأما (بين الصوفية وأدعياء التصوف) فكم هو جميل وسليم القول «هناك فرق كبير بين المتصوف والصوفي» وكأنه قصد ما تمنيته من قبل «بين المتصوف الدخيل والصوفي الأصيل»، وكم هو جميل وسليم القول «وليس المتصوف الدخيل بانحرافه وشذوذه ممثلاً للصوفية كما أن المسلم بأفعاله المنكرة ليس ممثلاً لإسلامه ودينه» والقول «إعرف الحق تعرف أهله، ويعرف الرجال بالحق لا الحق بالرجال» رواية عن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه.. فهذا القول السليم يصلح لأن يكون معياراً نقيس عليه جميع الحركات والأعمال لنبقى في جانب الأمان من أي انحراف وذلك ما دام الحق هو ما يراه الكتاب والسنة وليس ما يراه أي فرد أو جماعة سواء من الخاصة أو العامة.

وأما (أدعياء التصوف) فقد أجاد المؤلف في تصنيفهم بين أعداء الإسلام من المستشرقين الزنادقة وأذئابهم، وبين الجهلة بحقيقة الصوفية الإسلامية سواء أولئك الذين أخذوا فكرهم من أعمال وسلوك أدعياء التصوف أو أولئك الذين خدعوا بالمدسوس على كتب الصوفية أو أولئك الذين خدعوا بأولئك المستشرقين الماكرين.

وهنا ليسمح لي المؤلف رحمه الله أن أتساءل: أين أولئك الذين تظاهروا باعتناق الإسلام طيلة عهود الخلافة بدءاً بالفرس والهندوس وانتهاء بيهود الدونمة، والذين كان لهم الدور الفظيع في إثارة الفتنة بين أبناء هذه الأمة الإسلامية وتمزيقها إلى مثل ونحل؟! إن من المعروف أن ما دسوه على الإسلام من أفكار وعقائد كان له الدور الأساسي في تشويه الصورة الناصعة النقية للكثير من عقائد الإسلام وأحكامه، وفي رأسها عقيدة القضاء والقدر، بالرغم من تصدي الجماعات الإسلامية لهم وعلى رأسهم أهل السنة والمعتزلة الذين لم يسلموا من التأثير ببعض أفكارهم، فكيف بأخوان الصفا والجبرية والقدرية والقرامطة و.. كثير غيرهم ممن لا يزال له وجود بين أظهرنا وممن اختفى مع مسار التاريخ وزحمة الأحداث!؟

ولنكتف بالتساؤل: من أين جاءت هذه الفرق الباطنية العديدة بالمقابل لأهل الظاهر؟! ومن هم تجار آل البيت من أحباء آل البيت؟! هل منهم أتباع أولئك الذين أصروا على عبادة الإمام علي بالرغم من أنه هددهم بالحرق وأحرقهم بالفعل؟! أم منهم أتباع أولئك الذين تبعوا ذلك الدعي عبد الله بن سبأ ممن يسمون بالسبئية والذين كان لهم الدور الأساسي في الفتنة التي أدت إلى مقتل الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه؟! أم منهم..؟!؟

إن هذه الأمة، يا قوم، قد تعرضت وما زالت لسموم العديد من الحركات أو الفرق التي تلبست أو تتلبس بالإسلام ومنها الإسلام براء، كما تتعرض لضربات حركات أخرى لا تخفي عداؤها للإسلام وأهله بل تعتبره الخطر الأول لوجودها وعلى رأسها الحركة الصهيونية ومثلها الماسونية وتوابعها من نوادي الروتاري والليونز المنتشرة في شرق البلاد الإسلامية وغربها، والتي تحاول بأساليبها الخبيثة أن تتقرب للمسلمين بما تتظاهر به من الأعمال الخيرية..

فيا قوم، إننا ننتظر منكم كحركة إسلامية تستهدف خير الإسلام والمسلمين، وكان لها دورها في خدمة الإسلام ودعوته، أن يكون لكم الدور الفاعل المؤثر أكثر من ذي قبل وبمستوى هذا التكالب الرهيب الذي بات المسلمون يتعرضون له في دينهم وبلادهم مما لم يعد بخاف شيء منه على من له شيء من الدراية بالواقع الدولي المعاصر، والذي يكفي أن نذكر منه ما أعلنه حلف الأطلسي على أثر انهيار الاتحاد السوفييتي من أنهم يرون في الإسلام الخطر الجديد، وما يعلنه قادة أمريكا المستخدمين لإسرائيل وصهيونيتها لحماية مصالحهم في منطقتنا الحساسة من العالم الإسلامي من أنهم يعتبرون كل عمل إسلامي من الإرهاب الواجب القضاء عليه وعلى أهله..

وأما (شهادات علماء الأمة الإسلامية من سلفها إلى خلفها للتصوف ورجاله) فهي من القول الموثق للدفاع عن الصوفية ولكنها تحتاج إلى وقفة معها. إن الكثير من أصحابها الست والعشرين عاشوا في ظل الشريعة الإسلامية وكان لهم دور كبير في استنباط الأحكام لها والمحافظة على نقائها وبقائها، ولذلك كانت نظرتهم للجانب

الأخلاقي المكمل والمرسخ للجانب التشريعي، مما يجعل ثنائهم في محله ولكن على النقيض مما هي عليه الأمة اليوم من ضياع في الذات والهوية معاً، الأمر الذي يفرض القيام بالعمل الشامل لإيجاد هذه الشريعة في الحياة من جديد جنباً إلى جنب مع سمو الأخلاقي، كما فعل عليه السلام في مثل هذا الحال الذي تعيشه الأمة الآن وهذا ما نجده واضحاً في أقوال أئمة الفقه الأربعة ومن سار على دربهم في العلم والاجتهاد..

إننا عندما نفكر بهذه الأصناف الثمانية التي أوردها عبد القاهر البغدادي لأهل السنة والجماعة نجده يفرد الصوفية بالصنف السادس فقط لاختصاصهم بجانب دون الجوانب الأخرى، وهو ولاشك على حق في ذلك دون أن يلحق بهم أي ظلم. ثم ها نحن أمام الإمام النوري وهو يبين في رسالته المقاصد أصول طريق التصوف الخمسة: تقوى الله، وإتباع السنة، والإعراض عن الخلق، والرضى عن الله، والرجوع إلى الله، مما يكشف عن فروع هذا الجانب الأخلاقي الذي تقتصر عليه الصوفية وكأنها متخصصة فيه دون بقية الجوانب، ونحن بذلك ندرك معنى رأي هذا الإمام في التصوف.

ثم ها هو ابن تيمية، صاحب الموقف من الصوفية، يخص ما يسميه (المستقيم من السائلين) بالثناء، ومن متقدمهم يذكر الفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والسري السقطي، والجنيد بن محمد، بينما من متأخريهم الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ حماد والشيخ أبو البيان. ومما يقول في معرض الثناء على مسلكتهم أنهم كانوا «لا يسوغون للسالك ولو طار في الهواء أو مشى على الماء أن يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين، بل عليه أن يعمل بالمأمور ويدع المحظور إلى أن يموت» وينهي ثنائه قائلاً «وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف».

لاشك أن مثل هذا القول محصور بمن اتصف بتلك الصفات في أعماله وأقواله مع نفسه ومع المريدين للسير معه وعلى طريقته، وهي ولاشك مما يقتضيه سمو الروحي الأخلاقي للفرد المسلم عندما يكون المجتمع الإسلامي يحتضن هذا الفرد الصالح كمجتمع صالح، وأما لو كان فاسداً فكم من المعاناة سيقابل هذا الفرد ليبقى صالحاً؟ وأما أقوال الإمام الشاطبي وابن خلدون فقد استشهد بها لبيان سبب تسميتهم بالصوفية. وأما الإمام تاج الدين السبكي فقد عرّف بهم وأثنى عليهم بقوله «إنهم أهل الله وخاصته الذين ترتجى الرحمة بذكرهم، ويستنزل الغيث بدعائهم».. وإن كنت لا أظن أن هذه الميزة لهم من دون غيرهم من أولياء الله في كل وقت.

وأما الإمام السيوطي فإنه يدعو للتمييز بين الصوفية الحقة والمتصوفة المبتدعة، وهو ولاشك محق في ذلك بعد أن اختلط الغث بالسمين والحق بالباطل من أهل الفرق الإسلامية والذين اندسوا فيها فكان ما كان من التشويه والانحراف وظهور السبعين والثلاث فرق والذين ليس من بينهم غير فرقة واحدة هي الناجية.. فتمييز هذا الإمام بين هذين الصنفين من الصوفية ودعوته لمثل هذا التمييز قد يعن من تخلص هذه الفرقة الواحدة على الأقل مما علق بها من الشوائب والانحرافات..

الأمر الذي يقتضي عدم الاكتفاء بهذا التمييز بل جعله شاملاً لجميع الفرق الأخرى وبخاصة تلك التي ما زال لها بقية من الأثر والتأثير في الأمة الإسلامية.. ففعل في ذلك ما يساعد على جمع الكلمة والصف واستحقاق النصر الرباني بإعادة الحياة الإسلامية المفقودة والمجتمع الإسلامي الضائع.. وما ذلك على الله بعزيز.. وها هو الإمام ابن عابدين في الرسالة السابعة من رسائله يميز ويدعو للتمييز بين الصوفية الصادقة والمنحلة، وينثي عاطر الثناء على الأولى ويدعو لمجافة الأخرى..

لاشك أن موقفه هذا جزء من الحملة ضد الشر وسنداً للخير الذي طغى في الأرض. وأما موقف الشيخ محمد عبده فإنه يريد توضيح سبب لجوء الصوفية للرموز والإشارات، وأنه بسبب ما تعرضوا له من الاضطهاد والاتهام بالزيغ والإلحاد في وقت كانت الكلمة فيه للفقهاء والعلماء..

إذن ليسمح لي المؤلف رحمه الله لأسأله: إذا كنت تتفق مع محمد عبده في هذا الرأي فإنك تقر بأن رجال الصوفية كان ينقصهم العلم الشرعي التشريعي بالذات والعمل به وله.. ثم أي أسرار هذه التي قصدوا بذلك المحافظة عليها ولم يرو عن الرسول عليه وآله السلام ولا صحابته شيء من ذلك لا في العمل، لأنهم لم يخفوا شيئاً من الرسالة، ولا في الطريقة، لأنهم قاموا بتبليغ الرسالة كلها وطبقوها في الحياة وحملوها للأرض.. اللهم إلا إذا كان ذلك الإغراق في الروحانية والسمو الروحي تحتاج للسرية لأنها بواقعها تقعد المسلم عن التصدي لرعاية شؤون الحياة، وتطلب منه الموت في حلقات الذكر وخلوات القلب بدلاً من الموت تحت ظلال السيوف، وتدعوه للعيش في مجالس السياحة الروحية طلباً لما يسمونه بالمعارف الوهية بدلاً من العيش في السياحة الجهادية في المعارك والعلمية في الاجتهادات التشريعية..

وأعود وأتساءل مستغرباً بصدد المعارف الوهية: هل قصر سبحانه الذكاء والفتنة المؤدية إلى الإبداعات والاختراعات والاكتشافات على فئة من المسلمين أو حتى على المسلمين دون غيرهم من البشر؟!

وها هو الأمير شكيب أرسلان يتحدث حديث القلب إلى القلب في كتابه (حاضر العالم الإسلامي) عندما يتحدث عن الطريقتين الصوفيتين القادرية والشاذلية ثم عن الطريقتين التيجانية والسنوسية، وما لاقته جهود القادرية من نجاح في نشر الإسلام في غرب أفريقيا، وما لاقته جهود السنوسية من نجاح في أواسط أفريقية، حتى قال أحد الإنجليز منذ عشرين سنة: «إن الإسلام ليفوز في أواسط أفريقية فوزاً عظيماً، حيث الوثنية تختفي من أمامه اختفاء الظلام من فلق الصباح، وحيث الدعوة النصرانية كأنها خرافة من الخرافات». ويبرز حديثه القلبي عندما يشير إلى الغرض الذي كانت تتوخاه السنوسية من دعوتها الإسلامية، أنه «تخليص الإسلام من النفوذ الأجنبي»، والأخطر من هذا والأهم «وإعادة الإمامة العامة كما كانت في عصر الخلفاء..» إذن، يا أخي عبد القادر عيسى المرحوم من الله، هكذا كانت الصوفية السنوسية، إن لم نقل كل الصوفية،

في فهمها للإسلام وحملها لدعوته في أفريقية، غربها ووسطها وشرقها، فلماذا كانت تقف إذن عند السمو الروحي في عهود الخلافة السابقة ولم تكن تتصدى لحمايتها من الانحراف والسقوط كما كان العلماء والفقهاء يفعلون؟ اللهم إلا إذا كانت ترى أن في أولئك العلماء والفقهاء ما يكفي لذلك وأن دورها يكمل دورهم! ولكن هل كان هذا دورها في عهد ابن تيمية مثلاً عندما خاضت معارك الصراع معه أمام السلاطين والمماليك أو أدت به إلى السجون؟! اللهم برئ الصوفية النقية من تلك الأفعال المستهجنة على حركة إسلامية!

ثم إذا كان هذا الهدف الطيب المبارك بوضوحه وشموله التي كانت السنوسية تسعى لتحقيقه بإنقاذ الإسلام من تشويهات وتهجمات النفوذ الأجنبي، وإعادة الإمامة العامة أي الخلافة إلى ما كانت عليه في عصر الخلفاء الراشدين بالذات، وفي مطلعها بذات الذات، وأن لم تنص على ذلك بالتحديد - فإذا كان هذا هدفها، وهو الحق كل الحق، فلماذا تقلص إلى الجانب الأخلاقي الفردي ودون أدنى جهد أو عمل ثقافي وفكري لذلك الغرض النبيل؟! هل عادت لتجد في الاضطهاد المعاصر سبباً في اللجوء إلى الانكماش كما فعلت من قبل عندما لجأت للغة الإشارات والرموز الغامضة المبهمة؟!

فيا قوم، ارجعوا إلى ذلك الفهم السنوسي السليم الشامل الكامل وسترون بعون الله كيف تفتح الأبواب أمامكم.. وما النصر إلا من عند الله.. ما دتم ستتحرون الدقة كل الدقة في فهم العهدين المكي والمدني فكراً وطريقة.. لأنه لا خلاص لهذا الإسلام وأهله من نفوذ الأجنبي وأثاره على البلاد والعباد، ولا إعادة للإمامة العامة لتكون خلافة راشدة على منهاج النبوة إلا بهذا الفهم وهذه الطريقة، وأي تقليص لشمول الفهم واستنارته، وشمول العمل لإعادة الخلافة إلى ما كانت عليه راشدة على منهاج النبوة، هو البعد عن الحق فكرة وطريقة، وبالتالي هو عدم استحقاق النصر من الله تعالى.

وما هو الشيخ رشيد رضا الذي أحسن الوصف عندما رأى الحق في الصوفية كما هي على حقيقتها عندما رأى أنها انفردت «بركن عظيم من أركان الدين، لا يطاولهم فيه مطاول، وهو التهذيب علماً وتخلقاً وتحققاً» ويا ليتها لم تنفرد بهذا الركن الواحد وشمل عملها الأركان كلها..

وأما الشيخ محمد راغب الطباخ فقد جافته الحقيقة عندما قال بأن الغاية من بعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وبالطبع في خاتمتهم محمد عليه وآله السلام، هي تزكية النفوس وتصفية الأخلاق أخذاً من الحديث الشريف (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) وكان الإسلام ليس فيه إلا الأخلاق؟! أو كأن الله سبحانه لم يقل لرسوله {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين}؟! أو كأن الرحمة للأنس والجن تتحقق بالأخلاق فقط؟! وأما تدبير شؤون الخلق ورعايتها بالتشريع الرباني فلا علاقة له بالرحمة؟! أو كأن هذا الحديث الشريف الذي يتحدث عن الفرد وكمال أخلاقه لا علاقة له بالحديث الآخر (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته..) أو كأن من يعيش الظلم والإذلال يشعر بالرحمة

ويعيشها؟! فيا سيدي الفاضل، رحمة بهذا الإسلام وأمته من هذا الفهم القاصر المبتور لدين الله وشريعته، والله سبحانه أدعو ليتولانا وإياكم وهذه الأمة كلها برعايته..

وكم استشعر الرضى والسرور عندما أقرأ على الصفحة ٥٩٤ ما يذكره الشيخ محمد راغب مما كان شيوخ الصوفية يفعلونه عندما كانوا «يحرصون أتباعهم على الخروج للجهاد» فينتظمون في سلك المجاهدين ويحققون برعاية الله للجيش الإسلامي المجاهدة النصر والظفر.. فهلّا توقعنا هذا اليوم من الصوفية وهي تعمل مع العهد المكي لتنتقل بهذه الأمة إلى العهد المدني حين ترتفع رايات الإسلام وتحرض للجهاد تحتها؟ إنه ذلك، وأيم الله، وأكبر منه بعون الله عندما يستنير الفهم وتصح الطريق وتصدق العزائم..

وأما الأستاذ أحمد الشرباصي فإنه وقد رفض أدعياء التصوف أصر على أتقيائهم الملازمين لمرتبة الإحسان، ورأى، ورأيه صائب، أن «أساس التصوف في الواقع هو تربية الذوق» وقال «والخلق الكريم ليس إلا ذوقاً سليماً» وأظنه يرمز هنا للذوق الوجداني وليس اللساني، ثم يؤكد أن الصوفية «تهتم أكبر الاهتمام بالأخلاق»، ثم يقول «ومن منهاج الصوفية الأخلاقي الدعوة إلى التضحية والجهاد والتحرير على استجابة داعي الكفاح والاستشهاد». وهذا قول يملأ القلب طمأنينة والنفس رضا والعقل قناعة.. ولكن متى؟ عندما نرى أن الفكر والعمل يصدقان ذلك ويدعوان إليه ولا يقفان عند السمو الأخلاقي الفردي.. صحيح إن في القول بأن في المنهاج الأخلاقي دعوة إلى التضحية والجهاد وتحريض على الكفاح والاستشهاد ولكن الألفاظ والأعمال لا تدل على ذلك وإنما تنحصر في السمو الروحي لا غير، وأما أنهم مع العمل للسمو الروحي يستجيبون لما تأمرهم به الشريعة الإسلامية من تلبية لنداء الجهاد والاستشهاد فهذا ولاشك خير واستجابة خير، ولكن شتان بين من يجلس ينتظر من يعمل لإيجاد نظام الجهاد والاستشهاد في الأرض وبين من يتولى هذا العمل ويدعو الناس إليه، ولا سيما بعد أن شطب حكام المسلمين الجهاد بحجة عدم تناسبه مع العصر الحاضر خوفاً من أن يتهموا بمبادرة البلاد الأخرى بالهجوم كما فعل العراق مع الكويت مما سيجعلهم محل الاتهام بالإرهاب الذي باتت الأمم الآن محقونة بالكرهية له واستنكاره!!

ولكن، يا سيدي المؤلف، ألا رحمك الله بوسع رحمته، ماذا تردد وسائل الإعلام اليوم التي تقودها الصليبية الحاقدة والصهيونية الماكرة غير أن أي دعوة للجهاد والاستشهاد سواء في فلسطين المحتلة أو غيرها هي دعوة للإرهاب، وأن كل من يتصدى لهذا الاحتلال بغير مسالمة والرضى به تحت ذرائع معاهدات الصلح والسلام التي تراها الشرعية الدولية وقرارات الأمم المتحدة ومبدأ الأرض مقابل السلام هو الإرهابي الذي يجب أن يشترك في مطاردته وسجنه بل تصفيته!! ألا ويل لهذه الأمة من نفسها المخدوعة الواهمة بالسلاام مع اليهود ومن معاصري هؤلاء وعلى رأسهم أمريكا وأذناب أمريكا!! إنه لكاننا لا تجربة لنا بل تجارب على مدى التاريخ مع اليهود بدءاً بالرسول عليه وآله السلام وصحبه وانتهاء بأهل فلسطين ومن جاورهم!! بل كاننا

نسبنا قرآنا وما يملأ سورة من بيان كذب اليهود ومكرهم وخداعهم أم أننا تناسيناها تحت ضغط هزالنا وتفككنا وضياح هيبتنا من نفوس أجبن أهل الأرض وأذلهم!! دعني، يا أخي رحمك الله، أردد مع الأستاذ الشرباصي هذه الكلمات مهما قصد منها: «لهفي على التصوف الحق الناطق بنقائه وصفائه..» لأقول: لهفي على هذه الأمة وقد انطلق من وسط ركامها التصوف النقي الصافي الشامل ليعيدها إلى ما كانت عليه من العزة والمنعة في ظل راية الجهاد، راية الخلافة الراشدة! ها هو الأستاذ الشرباصي يقول: «إنه قد يكون في التصوف وتاريخه وسير رجاله ما أضيف إليه واقتراه المفكرون» ويقول «ومن هنا يستتر حق وراء الباطل» ثم يدعو إلى إقامة حركة علمية تتولى دراسة التصوف وتنتشر كتبه وتزيل عنه ما لحقه من «شطحات نابية وخرافات منكرة ودسائس خبيثة» ثم ينادي أبناء الإسلام ليقبلوا على التصوف على أساس أن فيه (غذاء ودواء).. فلاشك أن الإخلاص لخير الإسلام والمسلمين يحدو مثل هذه الأقوال لتظهر الحركة الصوفية بنقائها وصفانها وبخاصة على درب الرسول عليه وآله السلام كما كان في العهد المكي، كما تباشر العمل لإعادة الإمامة العامة كما كانت السنوسية إن لم تكن الصوفية ككل تحاول أن تعمل في أفريقية..

وها هو الشيخ أبو الحسن الندوي يصف ما يقوم به الصوفية في الهند من أعمال السمو الروحي والخلقي، وأنهم «يحاولون أن يلهبوا فيهم - أي المريرين - عاطفة الحب لله سبحانه، والحنين إلى رضاه، ورغبة شديدة لإصلاح النفس وتغيير الحال..» فإذا كان إصلاح النفس كعمل فردي أصبح مفهوماً معلوماً فما المقصود بتغيير الحال؟ وأي حال هذا المرغوب تغييره؟ فإذا كان الحال هو حال الفرد والتغيير هو تغيير الفرد فليس يبعد عما يفعله القوم، وأما إذا كان هو تغيير المجتمع من فساد وجاهلية فلاشك أنه جديد وينتقي مع الإسلام في فكرته وطريقته اللتين خلفهما لنا الرسول عليه وآله السلام، وهذا بالطبع ما نرجوه من المولى سبحانه ليتحقق اليوم قبل الغد..

وها هو الأستاذ أبو الأعلى المودودي رحمه الله يتحدث في كتابه (مبادئ الإسلام) عن الصوفية فيوضح بأمثلة عديدة واقع الفقه وأنه يختص بظاهر الإنسان وأعماله ومعاملاته بينما يختص التصوف بباطن الإنسان ونيته في صدقه وإخلاصه، ثم ينهي قوله بهذه العبارة «فليس التصوف الإسلامي الخالص بشيء مستقل عن الشريعة، وإنما هو القيام بأحكامها بغاية من الإخلاص وصفاء النية وطهارة القلب»، هذه العبارة التي يرجو كل مخلص لله ورسوله أن تمثل الصوفية تمام التمثيل، ولكن وللأسف أن نقول، أن الرجاء شيء والواقع شيء آخر إذ أن ما تقوم به الصوفية ليست بأحكام الشريعة المتعلقة بفكرة الإسلام ولا المتعلقة بطريقة الإسلام، وإنما هي تقوم بالنوافل من الدعاء والذكر بالإضافة لأحكام العبادات والأوامر الخلقية مما يسمو بالفرد سمواً روحياً راقياً، ولكن أين أحكام المعاملات بين أبناء المجتمع وأحكام العلاقات بين دولة المجتمع والدول الأخرى، إذ أن الفكرة الإسلامية تشمل أفكار العقيدة والتشريع المنظم للعلاقات الداخلية والخارجية وفي نفس الوقت أفكار الطريقة التي تصل هذه

العقيدة والتشريعات المنبثقة عنها إلى واقع الحياة، وأما الطريقة الإسلامية فهي السبيل الذي سلكه الرسول عليه وآله السلام في العهد المكي بأعمالها المتعددة التي أعد بها الفرد والجماعة لإيجاد الإسلام في حياة الفرد والمجتمع معاً..

فإذا كانت الصوفية النقية تقوم بأحكام الشريعة بالإخلاص والصفاء والطهارة فإنها ولاشك مطالبة بالعمل بأحكام الفكرة والطريقة لتجعل الفرد يشع نوراً كعضو في أمة ليصل بها إلى المجتمع الإسلامي المنشود والذي بنور علاقاته الإسلامية يشمل جميع الأفاق في الخارج كما يشمل المسلمين والذميين والمعاهدين في الداخل.. وبهذا يرى غير المسلمين من أبناء المجتمع كيف تكون العلاقات سليمة وإنسانية بحق وليس بمجرد الادعاء فيقبلون على اعتناق الإسلام بكامل رغبتهم وإرادتهم.. ولذلك قيل ما أكرره دائماً: إن خير طريق لنشر الإسلام في الأرض هو تطبيقه..

وها هو الأستاذ صبري عابدين يشهد للصوفية بأنهم (ينشرون الإسلام في العالم) بأمثلة على ذلك مما فعلوه في أفريقية كقول المبشرين بأنهم كانوا يقولون: ما ذهبنا إلى أقصى المناطق البعيدة في أفريقية وآسية إلا ووجدنا الصوفي يسبقنا إليها، وينتصر علينا.. وأنهم، أي الصوفية، كانوا يقيمون الأكواخ بجانب البعثة السويدية التبشيرية على حدود الحبشة والسودان وأريتريا ليفسدوا عليهم إقامتهم أربعين سنة..

ومما قاله الأستاذ صبري أيضاً أن أكبر المصائب التي أصابت المسلمين أنهم لم يأخذوا بالإسلام كله، أما الصوفية فقد ألزمو أنفسهم أن يأخذوا بالإسلام كله، بل زادوا عليه، أنهم ألزمو أنفسهم ألا يأخذوا بالرخص بل بالعزائم، مع أن الله يحب أن تؤتى رخصة كما تؤتى عزائمه.. فما أروع هذا الكلام لولا ما نعلمه عن الحقيقة ولولا ما وضحه الأستاذ صبري كيف وماذا زادوا على الإسلام وأن ذلك بتشديدهم على أنفسهم بالتزام الرخص بينما الإسلام يقبل عدم التشديد هذا ويحب إتيان الرخص مع الفروض.. لولا هذا التوضيح لخشنا أن يكون في الكلام ما حصل مع الثلاثة الذين جاؤوا إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسألون عن عبادته، وأنهم لما أعلموا بها تقالوها، وشددوا على أنفسهم بمزيد من الطاعات وإنما بمخالفة سنة رسول الله عليه وآله الصلاة السلام، مما جعله عليه وآله السلام يطلع عليهم ليفهمهم بأنهم إن فعلوا ما عزموا عليه من مواصلة الصوم، وترك الزواج، والاستمرار في الصلاة، فهم مخالفون للرسول عليه وآله السلام وليسوا من أتباعه في شيء..

والسؤال: هل هذا التشدد في الرخص هو الأخذ بالإسلام كله وزيادة أم أن الأخذ هذا هو العمل بجميع جوانب الإسلام من عبادات وأخلاق وتشريع مع الحرص على ارتباطها بالعقيدة الحقة؟ إن القول بأن الصوفية قد أخذوا بالإسلام كله وزيادة لأنهم ألزمو أنفسهم بالرخص مع العزائم غير دقيق لأن كل الإسلام ليس بالتشدد في الرخص وإنما بأخذ الرخص والعزائم كلها معاً، وهم كحركة إسلامية يختلف، من ناحية أخرى، الالتزام في حقهم عنهم كأفراد إذ الحركة مطالبة بالالتزام عزائم العهد المكي فالمدني وليس رخص وعزائم الفرد تأسيساً بالرسول عليه وآله السلام..

ثم ليس الأمر مع العهد المكي أن تكثر أعداد المسلمين بإدخال المزيد للدين، وإلا لبقى الرسول عليه السلام يفعل ويفعل ذلك، وخاصة أن مأساة المسلمين اليوم ليس في قتلهم بل في كثرتهم كغناء السيل يتجرعون الذل والفساد في كل شيء وتحت كل كوكب، فخير لهم ألف مرة أن يكونوا بأقل عدد اليوم بمئات المرات ويعيشون في عزة ومجد وعدل وصلاح من أن يكونوا بهذه الأعداد الضخمة المهانة المضطهدة المظلومة!

ثم إن الصوفية عندما كانوا في عهد عز الدين بن عبد السلام وأبي الحسن الشاذلي وابن دقيق العيد كانت الجيوش الإسلامية المجاهدة تحرس العدل في الداخل وتسعى لنشره في الخارج.. فأين هي هذه الجيوش اليوم إذا لم يعمل الصوفية كحركة إسلامية كما كان يعمل الرسول عليه وآله السلام في هذا العهد المكي الجاهلي الذي نحن فيه لإيجاد الكيان الذي يجمع هذه الجيوش، كما فعله الرسول عليه وآله السلام بمجرد انتقاله من العهد المكي إلى العهد المدني.. وإذا لم يعمل الصوفية لإيجاد مثل هذه الجيوش فمن يحرضون على الجهاد!؟

وها هو أخيراً الشيخ الأستاذ محمد أبو زهرة يقول بأن في الصوفية ثلاث حقائق هي محاربة الهوى والشهوة، والاتصال الروحي، ونظام الشيخ والمريد.. مؤكداً بالحققتين الأوليين القصر على عملية السمو الروحي للفرد، وبالحقيقة الثالثة أن هناك نظاماً كحركة إسلامية، مما يجعلها مطالبة باقتداء الرسول عليه وآله السلام في حملة للإسلام.. ثم يقول بأن (المسلمين في غرب أفريقية ووسطها وجنوبها كانوا ثمرة من ثمرات التصوف) نقلاً عن الأستاذ فودة، مما يؤكد ما سبق ذكره عن نشاط هذه الحركة وقت كان فيه للإسلام حكم ودولة فكانوا معينين له، ويظهر هذا المعنى أكثر عند قوله بأن الإمام السنوسي الكبير كان قد اتخذ منهاجاً صوفياً أعد فيه من خلال الزوايا التي أقامها أولاً حول المدينة ثم وزعها في الصحراء رجالاً للحرب أقصوا مضاجع الاحتلال الإيطالي لأكثر من عشرين سنة في وقت كانت الدولة العثمانية الإسلامية عاجزة عن مساعدتهم وأنهم استمروا على ذلك حتى رحل الاحتلال الإيطالي عن ليبيا..

وبعد أن يقول رحمه الله بأن الصوفية كحقيقة واقعة ككل الأشياء الواقعة تقبل المدح والذم وإن كان هذا لا ينتقص منها، وهذا قول حق، ينتقل ليقول (وإذا السنوسية تحيا من جديد، وكنا نود أن تحيا كما بدأت طريقة صوفية عاملة قوية).. فهو رحمه الله إذن ينعي على السنوسية حياتها الجديدة البعيدة عن المنهاج الصوفي القوي العامل، لأنها عندما عادت للحياة إذا بها في ملكية سنوسية ليبية أبعد ما تكون عن الإسلام وخطافته ونظامه!!

وبعد أن يضرب أمثلة من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وأنهما كانا من نوي الإلهام الروحاني السامي ولكنهما لم يكونا صوفيين، يتوجه بالرجاء إلى الله تعالى أن يعود التصوف على أيدي أمثال من بدأوه كما بدأ نقاء وصفاء والتزاماً بالكتاب والسنة.. ثم يرى أن المسلمين في الوقت الحاضر بحاجة ماسة لحركة صوفية تعمل

لكتاب الله وسنة رسوله بنظام التصوف الحقيقي لتتقذ الشباب المسلم من سيطرة الأهواء وعبث الشهوات التي باتت تغذيها جميع وسائل الإعلام الخاضعة للتوجيه الرسمي في طول البلاد الإسلامية وعرضها.. فماذا سيقول رحمه الله لو علم ما انتهت إليه هذه الوسائل من القنوات التلفزيونية الفضائية وشبكة الاتصالات الدولية المعروفة بالإنترنت؟! لقد أصبحت البلاد بكل شبيها وشبابها مستباحة للتوجيه الإعلامي الأجنبي.. والتهجم الماكر والظعن الخبيث المستمر بالإسلام وأفكاره وقيمه ولا سميع ولا رقيب بل كأن هذا ما يريده الرقيب!!

ومع هذه المرارة المغصّة للحلوق بل للقلوب يتمنى الشيخ أبو زهرة أن تتجنب الصوفية الاشتغال بالسياسة بحجة أن ذلك يفسد عليها مهمتها في إصلاح الشباب المسلم.. وهنا أتساءل بمرارة ما بعدها مرارة: هل لنا من طريق غير طريق الرسول عليه وآله السلام لإنقاذ الشباب بل كل الأمة التي لا ندري ما تخبئه لها التطورات التكنولوجية في حقول الاتصالات الإعلامية؟! وهل الرسول عليه وآله السلام قد قصر عمله على إنقاذ الشباب من دون غيرهم؟! وهل قصره على الجانب الروحي وترك الجوانب الأخرى؟! وهل لم يكن يعمل إلا للعهد المكي بإصلاح الأفراد دون التطلع للعهد التالي الذي صار المدني وما تحقق فيه من إصلاح المجتمع وقيام الدولة الإسلامية؟!

فيا أستاذنا الفاضل، أراحمك الله، إذا كنا نرى أن الإسلام كاملاً فلن نراه مجرد أفكار نظرية، وتتحصر في إصلاح الشباب، وأنها لا طريق لها من الإسلام نفسه للحياة والمجتمع! إنك تعلم حق العلم، يا سيدي، رحمك الله، ما فعله الرسول عليه وآله السلام بأمر ربه في مكة ثم في المدينة، وأنه رفض طلب من بايعوه ببيعة الحرب والنصرة بأن «يميلوا على زعماء مكة ميلة واحدة» فيقتلوهم ويستولوا على مكة ويحكموها بالإسلام دون حاجة لتحمل أذاهم الفظيع، إذ قال لهم (لا لم نؤمر بذلك) أي لا يجوز مثل هذا العمل المادي في العهد المكي لأن القتل والقتال مسؤولية الدولة ولم يقدم على شيء منه عليه وآله السلام إلا في العهد المدني..

كما أنك يا أستاذي الفاضل، رحمك الله، تعلم تمام العلم أن طريق الرسول عليه وآله السلام كان كله تضحيات ومتاعب سواء في العهد المكي أو المدني فكيف تطلب ممن يعمل للتغيير والإصلاح أن لا يشتغل بالسياسة بحجة أن ذلك سيفسد عليه مهمته مع أنك تعلم كل العلم أن السياسة بمفهومها الشرعي أي الرعاية يجب التصدي لها كحركة إسلامية بحيث يكون محصوراً العمل بها في الجانب الفكري بالكفاح السياسي الذي يكشف فيه الظلم والقهر والتأمر والكيد للأمة لتعلمه وتلتف برأيها العام حول الإسلام وحملته دعوته لتنتقل معهم للتغيير وإيجاد المجتمع الصالح في ظل العهد المدني، كما يضاف إليهم الصراع الفكري مع حملة الأفكار المعادية والمخالفة للإسلام، فيكون العمل السياسي بعيداً عن العمل المادي في العهد المكي الجاهلي..

ثم أنك تعلم تمام العلم، يا سيدي الكريم، رحمك الله، أن هذا القول مدعوم بالنصوص القرآنية من مثل سورة تبت يدا أبي لهب، وسورة المطففين وسورة الأنعام

وغيرها من السور المليئة ببيان ما يجب بيانه لإعداد الأمة للتغيير المنتظرا لمنشود، كما أنه مدعوم بالسيرة النبوية والمنهاج الرباني الذي سلكه الرسول عليه وآله السلام بأمر من ربه عندما كان يأمره {ادع إلى سبيل ربك} و{يا أيها المدثر قم فأندر} و{انذر عشيرتك المقربين} ثم في آخر العهد المكي وعند النقلة إلى التصدي والتحدي بالكفاح السياسي المكشوف أمره ربه سبحانه {فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين}..

فكيف يخطر ببالك طلب اليسر والسهولة لحركة إسلامية كالصوفية بتجنب الاشتغال بالسياسة وأنت تعلم أن ذلك لو كان مطلباً شرعياً في مثل هذا الحال الجاهلي المكي الذي نعيشه والذي عاشه الرسول عليه وآله السلام لما تنكب عن فعله الرسول عليه وآله السلام؟! فهل يترك إعداد الأمة للفساد وللدمار الذي تنصب حباله صباح مساء لها من الكاندين لها؟! هل تترك الأمة للفساق والفجار يعيشون بها تخريباً وتحطيماً ظناً منا بأن التصدي للفساد يفسد المهمة؟! ألا رحمة الله عليك يا أستاذنا الفاضل، لقد خلفت من وراءك ثروة رائعة في دراسة علماء الفقه وأئمة، وحرصت، جزاك الله عن الإسلام والمسلمين خيراً، أن تحاول إزالة هذه الفرقة بين جناحي الأمة الإسلامية من سنة وشيعة بالدعوة إلى جعلها خلافاً مذهبياً لا تفرقاً دينياً، فكان لكلماتك الأثر الطيب في النفوس المخلصة لتوحيد أهل هذا الدين وبلاده، إذ كنت على إطلاع تام على ما ظهر من فرق خلال عهود الخلافة الإسلامية، وما يميزها عن بعضها البعض... فكيف انتهى بك المطاف لمثل هذا القول لتقصر الصوفية عملها على الجانب الروحي الأخلاقي دون السياسي التشريعي وأنت تعلم أن ذلك مخالف لما كان عليه منهاج الرسول الرباني؟!!

لقد تتلمذت على محاضراتك وكتبك التي خلفتها من بعدك، ولشدة تأثري بذلك أقدمت على الاستفادة منها في كتاب اسميته (مقارنة سير أئمة الشريعة الإسلامية) أرجو الله سبحانه أن ينفع به المسلمين العاملين في حقل الدعوة الإسلامية بخاصة وجميع أبناء الأمة الإسلامية بعامة، وأن يجعل في تقديمه المكثف الموضح للهدف المزدوج منه: إفادة المسلمين بالعلم عن أئمة فقههم، والعمل على إزالة الفرقة بين سنتهم وشيعتهم، أن يجعل في ذلك ما يحقق القصد منه، إنه نعم المولى ونعم النصير.

وبسبب هذا التأثير الشديد بك، يا أستاذي الكبير ألا رحمك الله، كنت أتمنى عليك أن تستمر في بث تلك الروح الوثابة المألوفة عنك في كل كلمة وسطر ومؤلف لك سواء في محاضراتك أو كتبك أو أحاديثك، وفي كل ندوة اشتركت بها كندوة لواء الإسلام التي تحدثت فيها عن التصوف. وأني لن أنسى تلك الروح التي تركزت حول الفقه الإسلامي وتشريعاته لإعادة تنظيم شؤون الحياة بكل جوانبها ومجالاتها بتطبيقها عليها بقصد إعادة الحياة الإسلامية إلى الأمة بسالف عهدها في مجتمع إسلامي راشدي خالص.

كنت أتمنى عليك أن تستمر على ذلك ما دام لك في الحياة نصيب ولا تنزلق إلى الدعوة بقصر العمل الإسلامي على الجانب الروحي الأخلاقي فقط سواء من الصوفية أو

غيرها من الحركات الإسلامية التي شاع وجودها في هذا العصر الذي عم فيه الفساد وطم حتى كاد يعمي بصائر العاملين في حقول الدعوة الإسلامية عن النظرة الشاملة للواقع ومفاسده وللتغيير وطرائقه، وحتى جعل الكثير الكثير يلجأون كرد فعل إلى العمل في مجال الإصلاح الفردي سواء النظري الفكري بالتدريس فقط أو العملي التنفيذي بالأعمال الخيرية فقط، أو بالعملين معاً، ودون مراعاة لمنهاج الرسول الرباني.. وهيئات هيئات أن يكون رد الفعل ضد الوقائع الفاسدة المفسدة في المجتمع، والمتأثر به بشكل من الأشكال، مثل العمل الأصيل المستند للنصوص والوقائع الشرعية من الكتاب والسيرة النبوية في منهاج عملها الرباني في عهدها المكي والمدني!!

وها هو المؤلف رحمه الله، بعد أن انتهى من الوقوف مع شهادات العلماء والفقهاء للصوفية، قد أحب الوقوف مع شيخه محمد الهاشمي رحمه الله، والذي يظهر من نشاطه في الدعوة ومن مؤلفاته العديدة أنه كان له دور طيب في ذلك كله ولا سيما أنه تعرض لمطاردة الاستعمار الفرنسي في الجزائر وسورية مما يشير إلى أن الرجل رحمه الله كان في نشاطه لا يقف عند الجانب الروحي الفردي، كما كان يقوم بدور تعبوي فاعل، فجزاه الله خير الجزاء عن الإسلام والمسلمين.

وأما هذه الإجازة أو الإذن الذي منحه الشيخ الهاشمي للمؤلف رحمهما الله فهو دليل على أن التصدي للأعمال الكبيرة يحتاج لإذن وإجازة من الرجال الكبار الذين يقودون هذه الحركات الإسلامية التي تقوم بهذه الأعمال، كما يدل ذلك على أن من يجيز ويجاز أو يأذن ويؤذن له يجب أن يكونوا ليس فقط أهلاً لذلك بل أن يكونوا أيضاً منخرطين في إطار حركي منظم كما كان شأن الرسول عليه وآله السلام مع أصحابه عندما كان يأخذ منهم كأفراد أو جماعات البيعة ويلزمهم العمل بمقتضياتها سواء كان الإذن عاماً مطلقاً أو خاصاً مقيداً..

وبالرغم من كل هذه الدلالات للإذن أو الإجازة الصوفية إلا أنني كنت أتمنى أن يقصد الالتزام الفكري والعملي بالكتاب والسنة بشمول نصوصها لما يجب أن يكون عليه العمل في العهد المكي الجاهلي والعهد المدني الإسلامي ولا يقف عند الجانب الروحي الأخلاقي الفردي.. الأمر الذي يحقق ما كان لمفهوم مجموع البيعات من شمول للإسلام عقيدة وشريعة.. وأما إذا أردنا أن نقف عند مضمون بيعة واحدة من تلك البيعات، ونلتزم به، فهذا شأن خاص، ولا يناسب إلا الفرد، وأما شأن الصوفية كحركة إسلامية لها دورها في التاريخ الإسلامي فكراً وعملاً، توعية وجهاداً، بغض النظر عن قصرها أحياناً على جانب فقط دون بقية الجوانب من الدين، فإنه لن يقبل منها ذلك لا الإسلام ككل ولا طريقة الرسول عليه وآله السلام في مثل هذا العصر وبمثل هذا القصر.. وبالرغم من تأثير هذه الحركة في مجالها الفردي إلا أن الإسلام لا يسمح بالاكتماء به ولا الرضى عنه ما دام يفرض علينا التغيير المجتمعي، وهذا هو بالتأكيد ما نرجو الله أن تقدم عليه الحركة الصوفية، وفي ذلك الخير بعون الله وتوفيقه كل الخير للفرد والمجتمع..

وأما القول بأن الصوفية تكتفي بالبيعة لهذا المجال المحدود، على أمل أن تتاح لها فرصة العمل الكاملة وتستمر بهذا العمل دون انقطاع بسبب ما تتعرض له الحركات الإسلامية الأخرى الشاملة من مطاردة واضطهاد، فإن هذا القول إذا قبله مسلم تحت ضغط هذه الظروف فلن يقبله الرسول عليه وآله السلام طالما يريد ويعمل لخير المسلمين جميعاً وفي مثل هذا الواقع المأساوي الذي تعيشه الأمة الإسلامية، والذي لم يظلمه من وصفه بجاهلية القرن العشرين، ولأن أي حركة إسلامية لا يمكن أن تستحق هذه التسمية إذا لم تكن شاملة لجميع جوانب الدين الإسلامي وجميع مجالات الحياة البشرية، مما يؤكد أنه لا يجوز أن تقتصر في تصديها للتغيير على جانب واحد ومجال واحد دون غيرها..

صحيح إن مثل هذا الاقتصار كان يمكن أن يكون مقبولاً، كما كان يفعله الرسول عليه وآله السلام في بيعات متفرقة، لو كان في ظل العهد المدني، في ظل حياة إسلامية كاملة ومجتمع إسلامي صالح، ولكن لا يمكن أن يكون مقبولاً في ظل الحياة الجاهلية التي غاب عن علاقاتها المجتمعية في الداخل والخارج الإسلام بجميع تشريعاته الحققة السديدة، بغض النظر عن الترفيعات التي يعمد إلى إجرائها هذا البلد أو ذاك تسكيناً للناس واستغفالاً لهم..

وأنتي، يا أخي الفاضل - رحمك الله - لا أظن أنكم بقليل من التدبر في هذا القول، لمن خلفكم من بعدكم - أعانهم الله على الحق كل الحق - والتفكير فيه بروية وإمعان في ضوء ما كانت تحصل عليه البيعات النبوية المتعددة، وفي ضوء الواقع الفاسد الجاهلي المكي الذي تعيشه الأمة الإسلامية اليوم، إلا أن تروا صحة ما ذهبنا إليه وندعوكم إليه.. راجين المولى سبحانه أن يقذف في صدور أتباعكم الهداية إليه والتوفيق بالتزامه والعمل في إطاره..

كيف لا وسند طريقتكم الشاذلية يصل بكم إلى الرسول عليه وآله الصلاة والسلام، مما يضيف عليهم مزيداً من العبء والمسؤولية بضرورة الحرص على إتباع الطريقة والمنهاج النبوي في الدعوة، والتحري من المصادر الموثوقة في السيرة النبوية عن تلك الطريقة التي بدأت، كما أشرت سابقاً وأحب أن أكرر الآن مذكراً، بالنتقيف الفكري المركز لكل مسلم مؤمن وذلك في إطار تنظيم محكم في حلقات دراسية، ثم إنصاف لهذا التثقيف المركز ما نسميه بالتثقيف الجماعي الفكري والسياسي، وذلك بتوعية الفرد في التنظيم والجماعة خارج التنظيم بما عليه المسلمون من فساد وما يجب أن يكونوا عليه من صلاح، مع التحديد الصارم لكل مرحلة من مراحل العمل إذ كان ينزل الوحي عليه، عليه وآله الصلاة والسلام، حتى إذا ما انتهت عملية إيجاد الرأي العام بنجاح أحياناً وتعثر شديد أحياناً، نتيجة الموجات الباردة والحارة من الاضطهاد الذي كان عليه وآله السلام وصحبه يتعرضون له، أخذ عليه وآله السلام يعرض نفسه على كل رئيس قوم يأتي حاجاً لمكة أو يذهب إليه في مضارب خيام القبيلة ويطلب منهم: تؤمن بي وتنصروني. واستمر عليه وآله السلام على هذا

الحال حتى جاءه الفرج من يثرب، وسبحان رب العزة العالم بحال مكة وما حولها وجمودهم على الشرك والوثنية ورفضهم الإيمان والنصرة لابنهم الذي لم يعهدوا عليه إلا الصدق والأمانة، فقد فتح لدعوة رسوله باباً بعيداً عن مكة هذه، أنه باب يثرب، فانتقلت الدعوة إليها لترتكز في دولة بعد أن كانت انطلقت في مكة وما حولها بذلك التثقيف المركز والجماعي مع طلب النصرة..

ولكن متى قرر الرسول عليه وآله السلام هذا الانتقال والهجرة من مكة إلى يثرب لتصبح المدينة المنورة؟ بعد أن جاءه رسوله مصعب بن عمير رضي الله عنه من يثرب، بعد أن جاءه ليبشره بأنه لم يبق في يثرب بيت من البيوت إلا وفيه ذكر الإسلام، أي أصبح هناك بتعابيرنا المعاصرة رأي عام للإسلام، وبعد أن جاءه بثلاث وسبعين رجلاً وامرأتين من كبار مسلمي يثرب لكي يعقدوا معه عليه وآله السلام بيعة العقبة الكبرى، بيعة النصرة، بيعة الاستعداد لحمايته إذا هاجر إليهم ونصرته بأرواحهم وأموالهم وعيالهم بمجرد وصوله مهاجراً إليهم..

وهكذا نقلت هذه الهجرة هذا الدين من الانطلاق التثقيفي بين الناس إلى الارتكاز التطبيقي للإسلام وتشريعاته التي أخذت تنزل على الرسول عليه وآله الصلاة والسلام لتنظم جميع مجالات الحياة وترتكز الدولة الإسلامية بجميع أسسها الأربعة:

١- السيادة للشريعة الإسلامية فقط، ٢- السلطان للأمة الإسلامية كلها، ٣- نصب خليفة واحد فرض على جميع المسلمين، ٤- للخليفة وحده حق تبني الأحكام الشرعية والأمر بتنفيذها.. فكانت وحدها التشريعات الإسلامية المرجع في كل حركة وسكنة فلم يكن يشاركها في السيادة على كل تصرف وعمل ومعاملة بين الناس في الداخل ومع الآخرين من يهود مجاورين وغيرهم في الخارج أي تشريع آخر.. كما كان قد أمر الرسول عليه وآله السلام أن يكون لهم مجلس يرجع إليه من أربعين شخصية، فكان حسب الحاجة يرجع للشورى والمشورة منهم، فهم الممثلون للأمة، وكان صحابته رضوان عليهم هم الذين فهموا عنه ونقلوا عنه ما فعلوه في سقيفة بني ساعدة من نصب خليفة واحد عليهم خلال ثلاثة أيام من انتقاله عليه وآله السلام إلى جوار ربه، وهم الذين فهموا عنه ونقلوا عنه أن للخليفة تبني الأحكام والأمر بتنفيذها مما جعل الخليفة الأول يقول لهم: أطيعوني ما أطعت الله فيكم..

هذا بالنسبة لأسس الدولة الأربعة وأما أركانها الثمانية فقد أوجدها الرسول عليه وآله السلام ليحرص عليها من بعده وهي: ١- الرئيس ممثلاً بالرسول عليه وآله السلام أولاً ومن خلفه من بعده واحداً واحداً، ٢- معاونو الرئيس، وكانوا معاونو التفويض و٣- معاونو التنفيذ مما أوضحه الإمام الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية و٤- مجلس الأمة مما وجد في عهده عليه وآله السلام وكان يرجع إليهم في مشاوراته وإن كان يخص أبا بكر وعمر بالمشورة حتى قال «وزيراي من أهل الأرض أبو بكر وعمر» وقال لهما «لو اتفقتما في مشورة ما خالفتكما»، و٥- هيئة القضاة، وكان عليه

وآله السلام يقوم به وينتدب من يقوم به مقامه قريباً منه أو في الولايات البعيدة، و٦- الولاة والعمال، وكان عليه السلام يعينهم لذلك و٧- مدراء الدوائر والمصالح، وكان عليه وآله السلام ينتدب للعمل من يرى فيه الأهلية سواء لجباية الزكاة أو الخراج أو غيرها، و٨- قيادة الجيش وتنظيمه وبعوثه وتجهيزاته، وكان عليه وآله السلام يتولى ذلك وينتدب من يراه كفواً لذلك لقيادة أي سرية أو جيش للجهاد في سبيل الله.

فيا سيدي الفاضل، ويا أخي الكريم، ألا رحمة الله تعالى الواسعة تنزل على روحك الطيبة الطاهرة ويجزيكم عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.. فإننا إذ نتوجه إلى المولى سبحانه بهذا الدعاء لكم نرجوه تعالى أن يجعل من بعدكم في قيادة وعضوية الحركات الصوفية ينظرون إلى أنفسهم كحركات إسلامية تتطلع لخير الإسلام والمسلمين، ويعمدون إلى إعادة النظر في فكرهم وطريق سيرهم ويجعلوهما من الشمول والدقة بحيث لا تحيدان قيد أنملة عما فعله الرسول عليه وآله الصلاة والسلام وتركه لنا وللمسلمين جميعاً من بعده، وبذلك وحده يتحقق بعون الله وتوفيقه الخير كل الخير لأنفسكم ولأممكم المتعطشة لذلك، ولنتالوا إن شاء الله أعظم الأجر وأجزل الثواب من رب الأرضين والسماوات.. وفي ذلك ما يكفي وزيادة اللهم ما ينتظركم من الرضوان وتوسد أعظم الدرجات في فردوس الجنان..

وبذلك انتهت دراسة كتاب حقائق عن التصوف والحمد لله رب العالمين.

٣- دراسة كتاب تلبيس إبليس

للإمام جمال الدين بن الجوزي

١. خطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالجابية فقال إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قام في مثل مقامي هذا فقال: (من أحب منكم أن ينال بحبوحة الجنة فليزِم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الإثنين أبعد).

٢. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (ليأتين على أمتي كما أتى على بني إسرائيل، حذو النعل بالنعل، حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة، قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي).

٣. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (من أحدث في أمرنا ما ليس فيه فهو رد) وفي رواية أخرى (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) وفي رواية أخرى (من فعل أمراً ليس عليه أمرنا فهو رد).

٤. وروى عرياض بن سارية قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح ذات يوم، ثم أقبل علينا بوجهه فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلّت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ فقال: (أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبداً حبشياً، فإنه من يعش بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة).

٥. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك).

٦. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (لا يزال ناس من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون).

٧. قال بعض أهل العلم: أصل الفرق الضالة ستة فرق هي:

الحرورية، والقدرية، والجهمية، والمرجئة، والرافضة، والجبرية. وأن هذه الفرق قد انقسم كل منها إلى اثنتي عشرة فرقة فصارت اثنين وسبعين فرقة، وهي:

١- الحرورية: وقد انقسمت إلى اثنتي عشرة فرقة هي:

- ١) الأزارقة، وقالوا لا نعم أحداً مؤمناً، وكفروا أهل القبلة إلا من دان بقولهم،
- ٢) والإباضية، وقالوا من أخذ بقولنا فهو مؤمن، ومن أعرض عنه فهو منافق،
- ٣) والثعلبية، وقالوا إن الله لم يقض ولم يقدر،
- ٤) والحازمية، وقالوا ما ندرى ما الإيمان، والخلق كلهم معذورون،
- ٥) والخلفية، وزعموا أن من ترك الجهاد من ذكر وأنثى فقد كفر،
- ٦) والمكرمية، وقالوا ليس لأحد أن يمسه أحد لأنه لا يعرف الظاهر من النجس، ولا أن يؤاكله حتى يتوب ويغتسل،
- ٧) والكنزية، وقالوا لا ينبغي لأحد أن يعطي ماله أحداً لأنه ربما لم يكن مستحقاً بل يكنزه في الأرض حتى يظهر أهل الحق،
- ٨) والشمراخية، وقالوا لا بأس بمس النساء الأجانب لأنهن رياحين،
- ٩) والأخنسية، وقالوا لا يلحق الميت بعد موته خير ولا شر،
- ١٠) والمحكمة، وقالوا أن من حاكم إلى مخلوق فهو كافر،
- ١١) والمعتزلة من الحرورية قالوا اشتبه علينا أمر علي ومعاوية فنحن نتبرأ من الفريقين،
- ١٢) والميمونية، وقالوا لا إمام إلا برضا أهل محبتنا.

- ٢- القدرية: وقد انقسمت إلى اثنتي عشرة فرقة هي:
- ١) الأحمرية، وزعموا أن شرط العدل من الله أن يملك عباده أمورهم ولا يحول بينهم وبين معاصيهم،
 - ٢) والثنوية، وزعموا أن الخير من الله والشر من إبليس،
 - ٣) والمعتزلة من القدرية، وهم الذين قالوا بخلق القرآن وجحدوا الرؤية،
 - ٤) والكيسانية، وهم الذين قالوا لا ندري هذه الأفعال من الله أم من العباد ولا نعلم أيثاب الناس بعد الموت أو يعاقبون،
 - ٥) والشيطانية، وقالوا إن الله لم يخلق شيطاناً،
 - ٦) والشريكية، وقالوا إن السيئات كلها مقدره إلا الكفر،
 - ٧) والوهمية، وقالوا ليس للأفعال والكلام ذات ولا للحسنة والسيئة ذات،
 - ٨) والراوندية، وقالوا كل كتاب أنزل من الله حق ناسخاً كان أو منسوخاً،
 - ٩) والبترية، وزعموا أن من عصى ثم تاب لم تقبل توبته،
 - ١٠) والناكثية، وزعموا أن من نكث ببيعة رسول الله عليه السلام فلا إثم عليه،
 - ١١) والقاسطية، فضلوا طلب الدنيا على الزهد فيها،
 - ١٢) والنظامية، وتبعوا النظام في قوله من زعم أن الله شيء فهو كافر.

- ٣- الجهمية: وقد انقسمت إلى اثنتي عشرة فرقة هي:
- ١) المعطلة، وزعموا أن كل ما يقع عليه وهم الإنسان فهو مخلوق، ومن ادعى أن الله يرى فهو كافر،
 - ٢) والمريسية، وقالوا أكثر صفات الله مخلوقة،
 - ٣) والملتزمة، وجعلوا الباري سبحانه وتعالى في كل مكان،
 - ٤) والواردية، وقالوا لا يدخل النار من عرف ربه ومن دخلها لم يخرج منها،
 - ٥) والزنادقة، وقالوا ليس لأحد أن يثبت لنفسه رباً لأن الإثبات لا يكون إلا بعد إدراك الحواس، وما يدرك فليس بآله وما لا يدرك لا يثبت،
 - ٦) والحرقية، وزعموا أن الكافر تحرقه النار مرة واحدة ثم يبقى محترقاً لا يجد حر النار،
 - ٧) والمخلوقية، وزعموا أن القرآن مخلوق،
 - ٨) والفاثية، وزعموا أن الجنة والنار تفتيان، ومنهم من قال أنهما لم تخلقا،
 - ٩) والمغبرية، وقد جحدوا الرسل فقالوا إنما هم حكام،
 - ١٠) والواقفية، وقالوا لا نقول أن القرآن مخلوق ولا غير مخلوق،
 - ١١) والقبرية، وهم ينكرون عذاب القبر والشفاعة،

١٢) واللفظية، وقالوا لفظنا بالقرآن مخلوق.

٤- المرجنة: وقد انقسمت إلى اثنتي عشرة فرقة هي:

١) التاركية، وقالوا ليس لله عز وجل على خلقه فريضة سوى الإيمان به، فمن آمن به وعرفه فليفعل ما شاء،

٢) والسائبية، وقالوا إن الله تعالى سيب خلقه ليعملوا ما شاؤوا،

٣) والراجية، وقالوا لا نسمي الطائع طائعاً ولا العاصي عاصياً لأننا لا ندري ما له عند الله،

٤) والشاكية، وقالوا إن الطاعات ليست من الإيمان،

٥) والبيهسية، وقالوا الإيمان علم ومن لا يعلم الحق من الباطل والحلال من الحرام فهو كافر،

٦) والمنقوصية، وقالوا الإيمان لا يزيد ولا ينقص،

٧) والمستثنية، ونفوا الاستثناء في الإيمان،

٨) والمشبهة، وقالوا إن الله بصر كبصر الإنسان ويد كيده،

٩) والحشوية، وقد جعلوا حكم الأحاديث كلها واحداً فعندهم إن تارك النفل كتارك الفرض،

١٠) والظاهرية، وهم الذين نفوا القياس،

١١) والبدعية، وهم أول من ابتدع الأحداث في هذه الأمة،

١٢) والسالمية، وهم الذين يقولون إن الميت يأكل ويشرب وينكح بحجة أن الأجساد تتنعم.

٥- الرافضة: وقد انقسمت إلى اثنتي عشرة فرقة:

١) العلوية، وقالوا إن الرسالة كانت لعلي وإن جبريل أخطأ،

٢) والأمرية، وقالوا إن علياً شريك محمد صلى الله عليه وآله وسلم في أمره،

٣) والشيعية، وقالوا إن علياً رضي الله عنه وصي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ووليه من بعده وأن الأمة كفرت بمبايعة غيره،

٤) والإسحاقية، وقالوا إن النبوة متصلة إلى يوم القيامة، وكل من يعلم علم أهل البيت فهو نبي،

٥) والناوسية، وقالوا إن علياً أفضل الأمة فمن فضل غيره عليه فقد كفر،

٦) والإمامية، وقالوا لا يمكن أن تكون الدنيا بغير إمام من ولد الحسين، وأن الإمام يعلمه جبريل فإذا مات بدل كانه مثله،

٧) واليزيدية، وقالوا ولد الحسين كلهم أئمة في الصلوات فمتى وجد منهم أحد لم تجز الصلاة خلف غيره برهم كان أو فاجرهم.

- ٨) والعباسية، وزعموا أن العباس كان أولى بالخلافة من غيره،
- ٩) والمتناسخة، وقالوا إن الأرواح تتناسخ، فمتى كان محسناً خرجت روحه فدخلت في من تسعد بعيشه، ومن كان مسيئاً دخلت في من تشقى بعيشه،
- ١٠) والرجعية، وزعموا أن علياً وأصحابه يرجعون إلى الدنيا وينتقمون من أعدائهم،
- ١١) واللاعنية، وهم الذين يلعنون عثمان وطلحة والزبير ومعاوية وأبا موسى وعائشة وغيرهم رضي الله عنهم،
- ١٢) والمتربصة، وهم الذين تشبهوا بزبي النساك، ونصبوا في كل عصر رجلاً ينسبون الأمر إليه كمهدي هذه الأمة فإذا مات نصبوا رجلاً آخر.
- ٦- الجبرية: وقد انقسمت إلى اثنتي عشرة فرقة هي:
- ١) المضطربة، وقالوا لا فعل للآدمي بل الله عز وجل يفعل الكل،
- ٢) والأفعالية، وقالوا لنا أفعال ولكن لا استطاعة لنا فيها وإنما نحن كالبهائم تقاد بالحبل،
- ٣) والمفروغية، وقالوا كل الأشياء قد خلقت والآن لا يخلق شيء،
- ٤) والنجارية، وزعموا أن الله يعذب الناس على فعله لا فعلهم،
- ٥) والمتأئية، وقالوا عليك بما خطر بقلبك فافعل ما توسمت به الخير،
- ٦) والكسبية، وقالوا لا يكسب العبد ثواباً ولا عقاباً،
- ٧) والسابقية، وقالوا من شاء فليعمل ومن شاء لا يعمل فإن العبد لا تضره ذنوبه والشقي لا ينفعه بره،
- ٨) والحببية، وقالوا من شرب كأس محبة الله عز وجل سقطت عنه الأركان والقيام بها،
- ٩) والخوفية، وقالوا إن من أحب الله سبحانه وتعالى لم يسعه أن يخافه لأن الحبيب لا يخاف حبيبه،
- ١٠) والفكرية، وقالوا إن من ازداد علماً سقط عنه بقدر ذلك من العبادة،
- ١١) والخسية، وقالوا الدنيا بين العباد سواء لا تفاضل بينهم فيما ورثهم أبوهم آدم،
- ١٢) والمعية، وقالوا منا الفعل ولنا الاستطاعة.

٨. ومن تلبس إبليس في عبادة الأصنام أنه جعلهم يحتجون بتقليد الآباء من غير نظر في الدليل، وهذا ما ورد في قوله تعالى {وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهدون} - البقرة
٩. وأما الدهريون فقد لبس إبليس عليهم فقالوا بما قالوا وأنكروا الخالق وجحدوا

البعث والنشور، فقال الله سبحانه فيهم {ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر} - الجاثية ٢٤ -.

١٠. وأما المجوس فقد اشتهر فيهم زرادشت الذي سنّ عبادة النار، والصلاة للشمس، والتبرك ببول البقر، واستحلال فروج الأمهات، والتزوج بمئات النساء، والقول بإله للخير وإله للشر من عقيدة الثنوية، والزعم بأن الشيطان جاء من شك الخالق أو من فكرة رديئة طرأت عليه.

١١. وأما التلبيس في العقائد على أمتنا فقد وقع في طريقين الأول تزيين التقليد بحجة عدم وضوح الأدلة وعدم وضوح الصواب، وهكذا وقع اليهود والنصارى في تقليد آبائهم وعلمائهم فضلوا، وضل مثلهم أهل الجاهلية ومن على شاكلتهم مع أن العقل يقول بأن من الأولى لمن يشتبه لديهم الأدلة ويخفى عليهم الصواب أن يتركوا التقليد ليتجنبوا الضلال. والقرآن الكريم ذمهم وعاب عليهم تخليهم عن عقولهم وإدراكهم عندما قال على لسانهم: {بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون} ثم عقب على ذلك يستثير فيهم سلامة العقل والإدراك قائلاً: {قل أو لو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم} - الزخرف ٢٣ - وما أروع ما قاله الإمام علي بن أبي طالب للحارث بن حوط عندما تساءل أمامه قائلاً: أتظن أنا نظن أن طلحة والزبير كانا على باطل؟ فرد عليه: يا حارث إنه ملبوس عليك، إن الحق لا يعرف بالرجال، إعرف الحق تعرف أهله. وهكذا لا مجال ولا يجوز التقليد في العقائد، وأما في الأحكام فهذا جائز لكثرتها وإن خفيت أدلتها على عامة الناس.

وأما الطريق الثاني فهو ما لبسه اللعين على ذوي الفطنة والذكاء بعد أن فعل فعلته في التقليد على عامة الناس في العقائد، فقد أغوى هؤلاء الأذكىء بالأخذ بمذاهب الفلاسفة بما زينه لهم منها حتى أخرجهم عن الإسلام بحجة أن ما لا يدرك بالحواس لا يؤخذ في العقائد مع أن الأمر في العقائد محصور بحق العقول في إدراك وجود الخالق ووجوده مدرك من وجود مخلوقاته، وأما صفاته فذاك أمر آخر يحتاج إلى قدرات عقلية غير محدودة بحدود البشر. وأنى للبشر أن يملكوا ذلك؟!

وأما علماء الكلام فلهم من سطحات الخروج عن الملة ما لهم حتى قال عنهم الإمام أحمد بن حنبل أنهم زنادقة، فمثلاً أين هو قول العلاف المعتزلي من الإيمان عندما يقول بأن نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار لا يقدر الله على دفعه مما لا تصح الرغبة فيه ولا الرهبة منه، ويقول بأن حركات أهل الجنة تنتهي إلى السكون الدائم.. وكذلك قول النظام من أن الله تعالى لا يقدر على شيء من الشر بينما إبليس يقدر على الخير والشر!! ثم أين قول المرجئة من الإيمان عندما يرون الاكتفاء بالشهادتين للدخول في الجنة مهما أتى صاحبها من معاصي فاسقوا فائدة إثبات الإيمان من خشية الله ومراقبته لأعمالهم؟!

هذا وقد تراجع الكثير من علماء الكلام عن كل ما كانوا يرونه قبل أن يوافقهم الأجل حتى أن الكرابيسي أوصى أولاده قبل وفاته بترك كل ما كان يقول به والعودة إلى أصحاب الحديث، وقال أبو الوفاء بن عقيل لأصحابه بأنه يقطع بأن الصحابة ماتوا دون أن يعرفوا الجوهر والعرض مما يقول به المتكلمون وبنس من يرى منهم نفسه بأن طريقته أولى من طريقة أبي بكر وعمر.

١٢. وأما تلبيس إبليس على الخوارج فقد روي في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (يخرج قوم فيكم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم وأعمالكم مع أعمالهم، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية). وعندما اتاهم عبد الله بن عباس موفداً من الإمام علي كرم الله وجهه قال لهم: هاتوا ما نقتم على صهر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمهاجرين والأنصار وعليهم نزل القرآن وليس فيكم منهم أحد، وهم أعلم بتأويله؟

قالوا: ثلاثاً. قال: هاتوا.

قالوا: أما إحداهن فإنه حكم الرجال في أمر الله، والله عز وجل قال {إن الحكم إلا لله} - الاتعام - فما شأن الرجال والحكم بعد قول الله عز وجل؟

قال: هذه واحدة، وماذا؟

قالوا: وأما الثانية فإنه قاتل وقتل ولم يسب ولم يغنم، فإن كانوا مؤمنين فلم حل لنا قتالهم وقتلهم ولم يحل لنا سبيهم؟

قال: وما الثالثة؟

قالوا: فإنه محا عن نفسه أمير المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين فإنه أمير الكافرين!

قال: هل عندكم غير هذا؟ قالوا: كفانا هذا.

قال: أما قولكم حكم الرجال في أمر الله نقول الله ينقض قولكم، أترجعون إذا قلت لكم به؟ قالوا: نعم.

قال: إن الله قد صير من حكمه إلى الرجال في ربع درهم ثمن أرنب فقال: {يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم، ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم..} الآية ٩٥ المائدة - وفي المرأة وزوجها {وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها} - النساء ٣٥ - فهل تحكيم الرجال في إصلاح ذات بينهم وحقق دمانهم أفضل أم تحكيمهم في أرنب وبضع امرأة أفضل؟

قالوا: بل هذه، وانتهت الأولى.

قال: وأما قولكم قاتل ولم يسب ولم يغتم، فهل تسبون أمكم عائشة رضي الله عنها، فإن قلتُم أنها ليست أمتنا خرجتم من الإسلام، ولئن سببتموها واستحللتموها خرجتم من الإسلام.. فهل انتهت هذه؟ قالوا انتهت الثانية.

قال: وأما قولكم لقد محا عن نفسه أمير المؤمنين فالرسول عليه وآله السلام قد محا عن نفسه كما تذكرون صفة أنه رسول الله في صلح الحديبية وهو ولاشك خير من علي.

فرجع معه منهم ألفان وخرج الأربعة آلاف الباقون وقتلوا وقتلوا.

١٣. وأما تلبيس إبليس على الرافضة فقد اشتطوا وغالوا في حب الإمام علي حتى خرجوا عن الملة: فمنهم من قال بأنه الإله، ومنهم من قال بأنه خير من الأنبياء، ومنهم من سب أبي بكر وعمر حتى ان بعضهم كفر أبا بكر وعمر.. فاسحق بن محمد المعروف بالأحمر قال بان علياً هو الله عز وجل.

وفي الصحيحين ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (لا تسبوا أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدَّ أحدهم ولا نصيفه) وقال عليه وآله الصلاة والسلام: (إن الله اختارني واختار لي أصحابي فجعل لي منهم وزراء وأنصاراً وأصهاراً، فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً). ومعنى الصرف الفريضة، ومعنى العدل النافلة.

ومما يروى أن سويد بن غفلة قد مر بقوم أو نفر من الشيعة فوجدهم يذكرون أبا بكر وعمر ويطعنون فيهما فذكر ذلك للإمام علي رضي الله عنه، وذكر له أنهم لولا يعرفون أنك ترى ذلك مثلهم لما تجرأوا عليه، فما كان من الإمام علي إلا أن تعوذ بالله مراراً أن يقول أو يرى ذلك، وصعد المنبر وألقى بالناس خطبة موجزة بليغة عاتبهم أشد العتب على الطعن بأبي بكر وعمر، ومما قاله (والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لا يحبهما إلا مؤمن تقي ولا يبغضهما إلا فاجر شقي)..

مضى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو راض عنهما، ومضيا والمؤمنون عنهما راضون.. شبيهه (أبو بكر) رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بميكائيل رافة ورحمة ويابراهيم عفواً ووقاراً فسار بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى مضى على ذلك.. ثم ولي الأمر بعده عمر رضي الله عنه وكنت فيمن رضي، فاقام الأمر على منهاج رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه..

حتى أن كنا لنظن أن ملكاً ينطق على لسانه، أعز الله بإسلامه الإسلام، وجعل هجرته للدين قواماً، وألقى له في قلوب المنافقين الرهبة وفي قلوب المؤمنين المحبة، شبيهه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بجبريل فظاً غليظاً على الأعداء.. فمن أحبني أحبهما ومن لم يحبهما فقد أبغضني وأنا منه بريء..

ألا وخير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ثم الله أعلم بالخير أين هو.. أقول قولي وأستغفر الله لي ولكم).

ومما يروى عن الإمام علي رضي الله عنه أنه قال (يخرج في آخر الزمان قوم لهم نيز يقال لهم الرافضة، ينتحلون شيعتنا وليسوا من شيعتنا، وآية ذلك أنهم يشتمون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، أينما أدركتموهم فاقتلوهم أشد القتل، فإنهم مشركون).

١٤. وأما تلبيس إبليس على الباطنية فقد برز في تسترهم بالإسلام من تظاهرهم بالقول بأن الله حق وأن محمداً رسول الله وأن الدين صحيح ولكنهم يخفون ما يبطنون، فهم يرون أن لذلك كله سرّاً غير ظاهر وباطناً غير مدرك إلا على قليل من الناس، وهم ثمانية جماعات هي:

١- الباطنية، لزعمهم أن لظواهر القرآن والأحاديث بواطن كاللب من القشر كشكل الرموز لدى العقلاء إلى الحقائق الخفية، وأن من علم هذه البواطن فقد سقطت عنه التكليف واستراح من أعبائها محتجين بزعمهم بقوله تعالى {ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم} - الأعراف ١٥٧ - مما يجعلهم يشطبون من العقائد ما يوجب الظاهر من معنى اللفظ فيصلوا بذلك إلى ابطال الشرائع.

٢- الاسماعيلية، الذين ينسبون إلى إسماعيل بن جعفر، ويزعمون أن الإمامة انتهت إليه لأنه سابع، واحتجوا بأن السموات سبع والأرضين سبع وأيام الأسبوع سبع فالأئمة سبعة. واستحلوا الحرمات وعبدوا ابا جعفر،

٣- السبعية، ولقبوا بذلك لسببين الأول لأن دور الإمامة سبعة سبعة كما ذكر في الاسماعيلية. والثاني لأن تدبير العالم السفلي منوط كما يزعمون بالكواكب السبعة: زحل فالمشتري فالمرخ فزهرة فالشمس فعطارد فالقمر.

٤- البابكية، وهم أتباع بابك الخرمي، ولد الزنى الذي ظهر في أذربيجان سنة ٢٠١ هـ واستباح المحظورات، وتبعه خلق كثير، وعاث في الأرض فساداً وقتل خلقاً كثيراً حتى تغلب عليه الأفسين قائد المعتصم سنة ٢٢٣ هـ وقتله المعتصم ولم يبق منهم إلا بقية من جماعة مازالوا يجتمعون رجالاً ونساء ليثب كل رجل على امرأة زعماً بأن ذلك من الصيد المباح.

٥- المحمرة، وسموا بذلك لأنهم اختلفوا عن بقية جماعة بابك بأن صبغوا ثيابهم بالحمرة ولبسوها.

٦- القرامطة، وسموا بذلك نسبة إلى حمدان قرمط، وكان أشدهم بأساً رجل يقال له أبو مفيد الذي ظهر سنة ٢٨٦ هـ وقوي أمره وعاث فساداً في الأرض بإحراق المساجد وقتل الحجيج، وصار محل تقديس عند أصحابه حتى كانوا يصلون عليه من دون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وخلفه ابنه أبو

ظاهر الذي سار على طريق والده في الفساد، ووصل فساده إلى الكعبة إذ نهبها وحمل معه الحجر الأسود وأوهم الناس أنه الله عز وجل.

٧- الخرمية، ولقبوا بذلك نسبة للفضة خرم الأعجمية التي تعني الاستمتاع بالملذات، ولذلك اندفعوا في ذلك كيفما كانت الملذات وألغوا التكليف وأعباء الشرع عن الناس، وسبقهم بهذا اللقب المزدكية من المجوس الإباحية.

٨- التعليمية، وسموا بذلك لأنهم دعوا الناس إلى التعليم من الإمام المعصوم بحجة أن العلوم لا تدرك إلا بالتعليم القائم على إبطال إبداء الرأي .

١٥. وأصل منشأ هذه الفرق الباطنية هو خطة المارقين من الدين في اتخاذ سبيل يوصلهم إلى النيل منه وأهله مستعينين بالمجوس وملحدة الفلاسفة، وذلك بأن وجدوا في التذرع بالبيت وسيلة لكسب الناس وإغوائهم للبعد عن الدين بحجة ماله من باطن يختلف عن الظاهر.. وساروا في ذلك بمراعاة كل فرد حسب هواه، فالزاهد دعوه للورع، والفاجر دعوه للملذات ثم أخذوه بالتشكيك حتى ينساق إليهم..

ومما قاله أبو حامد الطوسي عنهم أنهم قوم يدعون الإسلام ويميلون إلى الرفض، وأن من عقاندهم القول بالهين قديمين أحدهما علة لوجود الآخر حتى اعتبروا جبريل عليه السلام بأنه هذا العقل الفائض من الأول على الرسول عليه وآله السلام، كما أنهم يرون وجوب وجود الإمام المعصوم ليرجع إليه في تأويل الظواهر، وأنكروا المعاد ليوم الحساب وإنما معاد الشئ إلى أصله، ورأوا التكليف في الإباحة المطلقة لمن ينساق معهم، وفسروا النصوص بما يتناسب مع محاولاتهم لإبعاد الناس عن دينهم، فقالوا بأن الغسل من الجنابة معناه تجديد العهد، ومعنى الزنا القاء نطفة العلم الباطن في نفس من لم يسبق معه عقد العهد في السير معهم، ومعنى الصيام الإمساك عن كشف سرهم، ومعنى الكعبة هي النبي، والباب هو علي، والطوفان طوفان العلم الذي أغرق به، والسفينة هي الحرز لمن يستجيب لدعوتهم، ونار إبراهيم هي غضب النمرود، وذبح إسحق أو اسماعيل هو أخذ العهد عليه، وعصى موسى هي حجته، ويأجوج ومأجوج هم أهل الظاهر..

١٦. وأما التلبيس على العلماء في فنون العلم فهناك التلبيس على القراء الذين يقضون عمرهم في تحصيل القراءات الشاذة وتجميعها ويتركون المتواتر المشهور، ثم أنهم يبالغون في التغني وقراءة الألحان وتحسين الصوت وكأنه الغناء وليس كتاب الله. وهناك التلبيس على أصحاب الحديث الذين يستغرقون عمرهم في سماع الحديث والرحلة فيه فينشغلون بهذا عما هو فرض عين من معرفة الواجب والاجتهاد في أدائه والتفقه في الحديث وتجنب التعالي والخيلاء

في ذلك. وهناك التلبيس على الفقهاء فبدلاً من أن يكونوا أهل قرآن وحديث يصبحون يكتفون بالمشهور من كتب الحديث والاكتفاء بالاحتجاج بأية ولو كان لا يعرف معناها، والركون إلى علم الجدل بحجة أنه يوصلهم لدقائق الاستنباط، كما أدخلوا كلام الفلاسفة ومناظراتهم حتى أخرجتهم عن الطريق الشرعي في استنباط الأحكام، كما خالطوا الحكام والسلاطين حتى داهنوهم وأفسدوا دينهم.

وهناك التلبيس على الوعاظ والقصاص من الميل لكل ما يعجب الجهلة ويبعد عن الشرع حتى جرأوا في الكذب على الرسول عليه السلام، كما أغرقوا في القراءة على الألحان استجابة لهوى النفوس سواء في حالة سرورها أو حالة حزنها، هذا بالإضافة إلى مخالطة النساء والرجال في مجالسهم.

وهناك التلبيس على أهل اللغة والأدب فقد شغلوا بهذه العلوم عن ما يلزم معرفته من العبادات وهي الأولى مع أن هذه العلوم أدوات للعبادات. فأصحاب النحو مثلاً أخذتهم الشهرة حتى عن تحصيل الشرع بعد أن ضاق وقتهم عن ذلك، وأصحاب الشعر قد وقعوا بالكثير من المحرمات كموضوعات لشعرهم من كذب وقذف وهجاء وهتك أعراض والتغني بالفواحش بالإضافة للتسخط عن الرزاق إذا ضاق رزقهم فوقعوا بالكفر.

وهناك التلبيس على العلماء الكاملين عندما يميلون إلى الراحة وطلب اللذات بعد طول المعاناة فيقعون تحت حديث الرسول عليه وآله السلام (أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه) سواء كان الانتفاع بالحرص على نقاء العلم أو على إعطائه، فلا كبر في العلم ولا حسد للآخرين ولا رياء في طلب الرياسة، ولكن حرص على الاخلاص في طلب العلم كله، وعلى استكمالها بقصد إعطائه بعيداً عن النقص والجهل، وعلى سلامة النفس من العجب والكبر في إعطائه حتى الممات.

١٧. وأما التلبيس على الولاة والسلاطين فيأتي من هذا الشعور بأنهم فوق الآخرين ولهم الحق بالتصرف حتى بأرواحهم مما جعلهم ينطبق عليهم قوله تعالى {إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً}، كما داهمهم الشعور بالتعالي عن طلب العلم فأفسدوا دينهم وديناهم، كما بالغوا في الخوف من الأعداء حتى حججوا الرعية عنهم فوقعوا في سخط الناس ورب الناس، والرسول عليه وآله السلام ينبههم إلى ذلك عندما يقول: (من ولاه الله شيئاً من أمر المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم و فقرهم احتجب الله عز وجل دون حاجته وخلته وفقره). كما أنهم قد يستعملون من لا يصلح للعمل فيظلم الناس. كما أنهم قد يأخذهم العجب برأيهم فيشتتون في معاملتهم للرعية بعيداً عن الحق. كما أنهم قد يتصرفون في الأموال الموكول إليهم تديبرها لشؤون الرعية بعيداً عن الشرع فيقعون في سوء التدبير وظلم الرعية. كما أنهم قد يجيزون لأنفسهم في توفير الأمن للبلاد والعباد ما يخالف

الشرع من التبذير في صرف الأموال واستخدام السبل غير الشرعية من التجسس المحرم. كما أنهم قد يستخدمون القهر والتسلط في جمع الأموال من الرعية بحجة مصلحتها فيقعون في الظلم. كما أنهم قد يرون في تقريب بعض الصالحين ما يبيح لهم ما هم عليه من المعاصي. كما أنهم قد يوكلون أعمال الظلم لغيرهم ظناً منهم أن هذا قد ينجيهم من آثام مظالم عمالهم.

١٨. وأما التلبس على العباد في العبادات فيبدأ بإيثار التعبد على العلم، وإذا علم أحدهم شيئاً فالعلم ليس بأفضل من النوافل حتى قال المعافى بن عمران: كتابة حديث واحد أحب إلي من صلاة ليلة، مشيراً إلى نقص قيمة العبادة بجانب العلم مع أن العبادة تقوم على العمل بالقلب وبالجوارح معاً ولا بد لها من العلم، فإيثار التعبد بالجوارح على العلم مكن إبليس من عبادتهم.

وهناك التلبس بطول المكث في الخلاء سواء مكث ساكناً أو تحرك في بيت الخلاء بحجة النقاء الأكمل، هذا بالإضافة إلى تحسين كثرة استعمال الماء أو الأحجار للتنقية.

وهناك التلبس في النية فيكررها إضماراً أو إظهاراً بألفاظ متعددة، هذا بالإضافة لتحسين النظر في ماء الوضوء بحجة التأكد من طهارته مع أنه يكفي المعرفة لطهارة الماء أصلاً.

وهناك التلبس في الأذان بالتلحين فيه حتى يشبه الغناء، ويضيفون له التذكير والتسبيح والمواعظ.

وهناك التلبس عليهم في الصلاة من حيث طهارة الثوب أولاً والمبالغة في ذلك، ومن حيث نية الصلاة فيكررها بألفاظ متعددة ظناً منه بأنه ينقضها والنية لا تنقض، هذا بالإضافة إلى الذهول عن بقية الصلاة، أو الانشغال بدعاء الاستفتاح وهو سنة عن قراءة الفاتحة وهي واجب.

وهناك التلبس في ترك السنن لأمر وقعت مع مصلين، وهناك التلبس في مخارج الحروف فيعيد المصلي الكلمة بشكل يخرج عن أدب الصلاة. وهناك التلبس في ظن المتعبد بأن الصلاة هي القيام والقعود فحسب، أو إطالة الصلاة وكثرة القراءة وترك السنن، أو كثرة الصلاة في الليل حتى تنهك القوى فينام عن الفريضة مع أن الرسول عليه السلام قال: (ليصل أحدكم نشاطه فإذا كسل أو فتر فليقعد)، هذا وقد يتحدث قيام الليل في النهار عن صلاتهم بحجة تشجيع الآخرين عليها مع أن المديح يفسد الصلاة.

وهناك التلبس في قراءة القرآن بكثرة القراءة من غير ترتيل ولا تثبت أو في الليل بصوت مرتفع فيؤدي النائمين.

وهناك التلبس في الصوم بتحسين الصوم الدائم، أو إشاعة طوله لديهم فيفسد عليهم إخلاصهم بما يداخل النفوس من الشعور بالتراني مهما قل.

وهناك التلبيس في الحج بما يداخل النفس من عدد الحجات أو الظهور بمظاهر التقشف الزائد بالتعرض لحر الشمس حتى يتقشر الجلد ليتصنعوا بذلك أمام الحجيج.

وهناك التلبيس في التوكل بالخروج والسفر بلا زاد ظناً أن ذلك من التوكل وما هو منه في شيء.

وهناك التوكل في الغزو بالخروج بنية المباهاة والرياء أو لطلب الغنيمة أو ليقال شجاع أو أية نية غير الإخلاص لله والرسول عليه وآله السلام يقول: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله).

وقد يلبس على المجاهد فيأخذ من الغنيمة ما ليس له أخذه، ويزداد إثمه وهو يعلم حرمة أخذه مع ظنه أن جهاده يغفر له خطاه.

وهناك التلبيس على الأمرين بالمعروف والناهيين عن المنكر بطلب الذكر للعالم وغضبه لنفسه لا لانتهاك حرمة ربه، وبوقوع الجاهل في تحريم الحلال أو في تحليل الحرام أو التباهي بذلك.

١٩. وأما التلبيس على الزهاد والعباد بتحسين الآخرة وترك الدنيا واعتزال الناس من ظنهم أن هذا هو الزهد الحقيقي وإلا فكيف يترك الجمعة والجماعة ويتجنب مجالسة العلماء كما يخسر أكثر إذا وقع في عقوق الوالدين، ثم الوقوع بالوهم أن الزهد لا يكون إلا بترك المباحات وأكل خبز الشعير مثلاً ولبس الصوف الخشن مثلاً والامتناع عن شرب الماء البارد مثلاً وجسمه قد تعود وتنعم على غير ذلك مما يجعله يقصر في طاعته حتى كان ابن عقيل يقول: ما أعجب أموركم في التدين إما أهواء متبعة أو رهبانية مبتدعة، بين تجرير أذيال المرح في الصبا واللعب وبين إهمال الحقوق وطرح العيال والالتحاق بزوايا المساجد، فهلا عبدوا على عقل وشرع!؟

وهناك التلبيس في خفي الرياء على هؤلاء العباد والزهاد سواء أمام الآخرين أو أمام أصحابه وزوجته سواء كان في ملبسه أو مأكله أو حتى تبسمه وتكلمه وصمته أو مخالطته أو اعتزاله الناس.

وهناك التلبيس على قليل العلم مع عمله بفهمه دون الالتفات إلى قول الفقيه مما يبعد عن الشرع وكل ذلك خوفاً من أن يوصف الزاهد بالجهل.

وهناك التلبيس بجعل الزهاد يحتقرون العلماء ويذمونهم وينسون أن الرسول عليه وآله السلام قد قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه (والله لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم).. انهم مثلاً لا يرون أن من حق العالم أن يتقوى بالمباحات على طلب العلم ولا أن يجمع الأموال وينسون قول الرسول عليه وآله السلام (غني شاكر خير من فقير صابر).

٢٠. وأما التلبيس على الصوفية من جملة الزهاد «ويلاحظ أن الكتاب قد استغرق فيه الباب العاشر الذي يتحدث عن موضوع التلبيس على الصوفية أكثر من نصف الكتاب كله مما يشير إلى عظيم رد فعل الكاتب ضد أفعالهم التي يراها خارجة عن الشريعة» فقد قيل بأن اسمهم أخذ تبعاً لرجل يقال له صوفة واسمه الغوث بن مر، وقيل بأنهم ينسبون إلى أهل الصفة وهذا غلط، كما قال مؤلف الكتاب، وأما التلبيس عليهم فيمكن تتبعه فيما يلي:

(١) بدأ بالصد عن العلم بحجة أن المهم هو العمل مما أوقعهم في الظلمات حتى عملوا بالأحاديث الموضوعة، واستجابوا لدعاة الجوع والفقر والوساوس والخطرات، ووصل بهم بعدهم عن العلماء أن رأوا ما هم فيه العلم الباطن وعلم الشريعة العلم الظاهر، وأثر الجوع ببعضهم حتى تخيلوا شخصاً حسن الصورة وهاموا به حباً وتشعبت بهم الطرق بين الكفر والبدعة حتى فسدت عقائدهم حتى قال من قال بالحلول (أي أن روح الله قد حلت بكل الموجودات من بشر وحيوانات تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً) ومنهم من قال بالاتحاد (أي أن الصوفي يتحد مع خالقه في درجة معينة فيصبح كأنه هو ذاته والعياذ بالله).

(٢) وجاء أبو عبدالرحمن السلمي فصنف لهم كتاب السنن وحقائق التغيير مما لا أصل له من نقل وكله من خيالات العقل، وهو الذي اشتهر بوضع الأحاديث للصوفية. كما صنف لهم أبو طالب المكي قوت القلوب فأورد فيه أحاديث باطلة ومعتقدات فاسدة. ثم صنف لهم أبو نعيم الأصبهاني كتاب الحلية وفيه أشياء منكورة حتى أنه ذكر أن الخلفاء الراشدين الأربعة كانوا هم وغيرهم من سادات الصحابة من الصوفية. ثم صنف لهم عبد الكريم بن هوازن القشيري كتاب الرسالة وفيه العجائب من الكلام في الفناء والبقاء والقبض والبسط والوقف والحال والوجد والوجود والجمع والتفرقة والصحو والسكر والذوق والشرب والمحو والإثبات والتجلي والمحاضرة والمكاشفة واللوائح والطوائع واللوامع والتكوين والتمكين والشريعة والحقيقة.. إلى غير ذلك من التخليط الذي ليس بشيء وتفسيره أعجب منه. ثم صنف لهم محمد بن طاهر المقدسي صفوة التصوف يستحي العاقل من ذكرها وسيشار إلى شيء من ذلك فيما بعد حتى وصفه الشيخ ابن الجوزي المدعو أبو الفضل بن ناصر الحافظ بأنه قد ذهب مذهب الإباحة.

وجاء أبو حامد الغزالي فصنف لهم كتاب الإحياء وملاءه بالأحاديث الباطلة دون أن يعلم بطلانها وتكلم عن المكاشفة وخرج عن قانون الفقه حتى خرج في التفسير عن المنقول فقال بأن الكوكب الذي رآه إبراهيم عليه السلام والشمس والقمر ما هي إلا أنوار من حجب الله عز وجل وليس هذه المعروفة، وهذا من كلام الباطنية، كما قال في كتابه المفصح بالأحوال بأن الصوفية في

يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد ثم يترقى الحال من مشاهدة الصورة إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق. هذا وقد كان أوائل الصوفية ينفرون من السلاطين والأمراء فصاروا أصدقاء لهم.

(٣) وعند العودة إلى أصل هذه التصانيف لانجدها تستند إلى أصل مطلقاً حتى سنل الإمام أحمد بن حنبل عن الوسوس والخطرات التي يتحدثون عنها في تصانيفهم فقال: ما تكلم فيها الصحابة ولا التابعون، ثم قال لصاحب له: لا أرى لك أن تجالسهم. وقال أبو زرعة عن كتبهم: إنها كتب بدع وضلالات. وقيل أن أول من رتب الأحوال والمقامات لأهل الولاية هو ذو النون المصري الذي رمى بالزندقة بعد أن هجر مذهب مالك وأخذ يتحدث بهذا العلم.

(٤) ومن مظاهر التلبيس بسبب قلة العلم الشرعي أنهم بالرغم من تعويلهم في البداية على الكتاب والسنة إلا أنهم أخذوا يقعون في الشطط إذ بدأوا بالقول: من ضيع حدود الأمر والنهي في الظاهر حرم مشاهدة القلب في الباطن.. وقالوا: من رأبته يدعي حالة لا يدل عليها دليل ولا يشهد لها حفظ ظاهر فاتهمه في دينه. ولكن بعض شيوخهم وقعوا في غلطات لبعدهم عن العلم.

(٥) وأول ما يشير الكتاب من التلبيس هو التلبيس في السماع فيروى أن أبا حمزة كان إذا سمع شيئاً قال: لبيك لبيك، فأطلقوا عليه أنه حلولي، وقال السراج: وبلغني أن جماعة من الحلوليين زعموا أن الحق عز وجل اصطفى أجساماً حل فيها بمعاني الربوبية، وأزال عنها معاني البشرية. وزعم بعضهم أنهم يرون بالقلوب ما يرون بالعيان. وذهبت الحلولية إلى أن الله عز وجل يعشق وليس فقط كما قال تعالى {يحبهم ويحبونهم}، وقد اشتهر عن الحلج أنه كان يرى نفسه أنه الله بعقيدة الحلول.

(٦) كما أنه جرى التلبيس عليهم بالرؤية إذ قالوا بأن الله عز وجل يرى في الدنيا، وأنه سبحانه مما يجوز مصافحته وملازمته وملامسته وأنهم يزورونه ويزورهم وهم أهل الباطن. وأما التلبيس عليهم في الطهارة فقد كانوا يبالبغون في قلة استعمال الماء حتى لكأنه لا يستخدم. وأما التلبيس عليهم في الصلاة فكانوا يصلون ركعتين بعد لبس المرقعة والتوبة وهي صلاة لا أصل لها. وأما التلبيس عليهم في المساكن فقد اتخذوا الأربطة أماكن للتعبد وتجاهلوا المساجد، ووصلوا في عهد المتأخرين منهم إلى الاستراحة في الأربطة مع الأكل والشرب والغناء والرقص، هذا مع العلم أن أكثر أربطتهم قد بناها لهم الظلمة وأوقفوا عليها الأموال الخبيثة، ووصل بهم الحال إلى أنهم منعوا قراءة القرآن والحديث في أربطتهم بحجة أنها مواضع لا تصلح لذلك.

(٧) وأما التلبيس عليهم في التخلي عن الأموال فقد بدأوا ذلك زهداً وصدقاً ثم بالغوا بذلك حتى احتاجوا إلى ما في أيدي الناس مما يذم فاعله، فكيف

يحقر من شأن المال والله تعالى يقول: {ولا توتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً} - النساء ٥ - والرسول عليه وآله السلام يقول لسعد: (لأن تترك ورتك أغنياء خير لك من أن تتركهم عائلة يتكفون الناس) وقال عليه وآله السلام لعمر بن العاص: (يا عمرو نعم المال الصالح للرجل الصالح) وقال لعقب بن مالك في حديث توبته: (قال: فعلت يا رسول الله أن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله عز وجل وإلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أمسك بعض مالك فهو خير لك) ورب العالمين يقول عن الإنسان الذي خلقه: {وإنه لحب الخير لشديد} ويقول: {وتحبون المال حباً جهاً}، والصحابة المبشرون بالجنة وغيرهم كانوا يجمعون المال دون إنكار من أحد على أحد ودون إنكار ذلك من الرسول عليه وآله السلام.. ثم كيف ينكر الرسول عليه وآله السلام على أبي حصين السلمي تبرعه بجميع ماله عندما قال له: (يعمد أحدكم إلى ماله فيصدق به ثم يقعد فيتكفف الناس، وإنما الصدقة عن ظهر غنى، وأبدأ بمن تعول).

(٨) والتلبيس في معنى التوكل، إذ يروونه بالتخلي عن المال والتسليم لله دون سعي لطلب الرزق، وأين الصحابة رضوان الله عليهم من هذا المعنى؟! ثم أين تصرفهم نحو ما يضر من أكل وشرب وما ينفع إذ يتركون كل حرص وحذر باسم التوكل وكأنهم أدرى بمفهومه من الرسول عليه وآله السلام وصحابته الكرام!! فتخلي الصوفية عن المال في بدنهم تبعه جمع المال في متأخرين من أي وجه من الوجوه إيثاراً للراحة وحباً للشهوة حتى لو كان بالجلوس في الرباط أو المسجد والاعتماد على صدقات الناس، فكيف أجازوا لأنفسهم ذلك و(الصدقة لا تجوز لغني ولا لذي مرة سوي) فكيف إذا كان المال المرسل إليهم خبيثاً سواء كان من ظالم أو من الماكس؟! فهل تجاهلوا أن (الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهم كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه)؟! وهل نسوا أو تناسوا ما فعله أبو بكر رضي الله عنه عندما قاء - من القيء - أكل الشبهة؟! ومن جرأتهم على تأويل أخذهم لما يعطى لهم أن الآخذ هو اليد العليا وليس المعطي! فأين هؤلاء من أوائل الصوفية الذين كانوا يفتشون عن مطاعهم ومصادر ما يحصلونه من أموال؟!!

(٩) والتلبيس في لباسهم أنهم ظنوا أن ما فعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه من لبس المرقعات أو غيره من الصحابة دون غيرهم هو الإسلام فاتخذوا المرقعات في بدايتهم من باب الزهد في الدنيا فأصابوا ولكنهم انحرفوا عن ذلك عندما اتخذوها للشهرة وتعريف الناس بهم ولا سيما عندما لبسوا الملابس الناعمة تحت الخشنه، فالمرقعات لم يلبسها السلف إلا للضرورة وليس لإدعاء الفقر، والنظاهر بالزهد، وهي ما يوقع صاحبها في التشبه بالمتفنتين من الشريعة، وهم ينسون قول الرسول عليه وآله السلام (من تشبه بقوم فهو منهم) حتى قال الثوري: كانت المرقعات غطاء على الدر فصارت جيفاً على مزابل.

وحتى قال محمد بن عبد الخالق الدينوري - من صالحهم - لبعض أصحابه: لا يعجبك ما ترى من هذه اللبسة الظاهرة عليهم، فما زينوا الظواهر إلا بعد أن خربوا البواطن.

وكان هناك منهم من يبالغ في ترقيق المرقعة حتى تصبح كثيفة خارجة عن الحد حتى يفوق وزن كم الواحدة منها الأبطال العشرة! ومما زين لهم أنها لم تكن تلبس إلا من يد شيخ، زاعمين أن ذلك من السنة، كما أنه لا يلبسها الصغير دون الكبير، كما أنهم يحرصون على لبس المصبوغات باللون الأزرق وتناسوا فضل اللون الأبيض كما تناسوا النهي عن لباس الشهرة: (من لبس ثوب شهرة أعرض الله عنه حتى يضعه) و(نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الشهرتين، فقيل: يا رسول الله وما الشهرتان؟ قال: رقة الثياب وغلظها، ولينها وخشونتها، وطولها وقصرها، ولكن سداد بين ذلك واقتصاد) وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (من لبس ثوب شهرة ألبسه الله ثوب المذلة يوم القيامة).

١٠) وهناك من يلبس الصوف من الصوفية بحجة أن الرسول عليه وآله السلام قد لبسه، مع أنه لم يكن لباسه عليه وآله السلام منه ولم يداوم عليه فلم يداومون عليه؟! والرسول عليه وآله السلام يقول (من لبس الصوف ليعرفه الناس كان حقاً على الله عز وجل أن يكسوه ثوباً من جرب حتى تتساقط عروقه) وقال عليه وآله السلام: (إن الأرض لتعج إلى ربها من الذين يلبسون الصوف رياء). وقال سفيان الثوري لرجل عليه صوف: لباسك هذا بدعة. وقال النضر بن شميل لبعض الصوفية وهو من صالحهم: تتبع جبتك الصوف، فقال: إذا باع الصياد شبكته فبأي شيء يصطاد؟

١١) ومن المشهور عن السلف أنهم كانوا إذا تزاوروا تجملوا حتى أن تميم الداري تجمل بحلة بألف درهم وكان يصلى بها، وكان ابن مسعود من أجود الناس ثوباً وأطيبهم ريحاً، وكان الحسن البصري جيد الثياب، وكان لباس إبراهيم بن أدهم من الكتان والقطن ولم يلبس الصوف ولا لباس شهرة. وقال جابر: أتانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم زائراً في منزلي فرأى رجلاً شعناً فقال: (أما كان يجد هذا ما يسكن به رأسه؟) ورأى رجلاً عليه ثياب وسخة، فقال: (أما كان يجد هذا ما يغسل به ثيابه؟) وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (إذا خرج الرجل إلى إخوانه فليهيء من نفسه، فإن الله جميل يحب الجمال). فالتجمل للإخوان يندب مادام لا رياء فيه ولا كبر، لأن الرسول عليه السلام قال: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر) فقال رجل: ان أحدنا يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة، قال صلى الله عليه وآله وسلم: (إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس) أي تجاوز الحق وعدم شكر الناس أو احتقارهم.

١٢) وكان من الصوفية من إذا لبس ثوباً خرق بعضه، وهذا فساد منهي عنه، وكذلك الحال عند المبالغة في تقصير الثوب لما فيه من شهرة، والأمر تابع لعرف الناس في ذلك الوقت فإن قصر عنه أو طال عنه ففيه شهرة حتى قال معمر عن قميص أيوب لقصره: الشهرة اليوم في التشمير، وقال أحمد بن حنبل عن قميص اسحق القصير أسفل الركبة وفوق الساق: هذا بالمرة لا ينبغي أي لا يصح.

١٣) وكان منهم من يلبس خرقة مكان العمامة، فهذا شهرة لمخالفته لباس أهل البلد فيما تعارفوا عليه، فهو مكروه، حتى إن ابن المبارك وضع قلنسوته في كفه عندما دخل المسجد فرأى الناس لا يلبسون القلانس.

١٤) وكان منهم من يستكثر الثياب وسوسة، فيجعل للخلاء ثوباً وللصلاة ثوباً، وهذا لا بأس به إلا أن تتخذ سنة لأن الرسول عليه وآله السلام لم يكن له ولا لأصحابه إلا ثوب واحدة في الغالب وإن وجد لدى الواحد منهم أكثر من ثوب في وقت آخر.

١٥) وكان الأولون منهم يبالبغون في تقليل الطعام وخشونته فيعيش الواحد منهم على عشر حبات من الزبيب يفطر عليها من صيامه، ويمتنع عن أكل اللحم وشرب الماء الصافي أو البارد، وكل ذلك بحجة الوصول لرقعة القلب وقدرته على المكاشفة كما يسمونها، وينسون أن انقاص قدرة الإنسان الجسمية ينقص قدرته على القيام بواجباته الشرعية ناهيك عن عدم جواز حمل النفس على ما لا تطيق، إذ كيف تعطى الحنطة للبهائم ويؤكل قشرها فتقلب المعادلة بين الإنسان وبهيئته؟! وأين هذا من أكل الرسول عليه وآله السلام عندما كان يأكل القثاء بالرطب ويحب أكل الحلوى والعسل؟! وأين هذا التجويع المقيت من قول الرسول عليه وآله السلام للصائم فرض رمضان: (من أصابه جهد في رمضان فلم يفطر فمات دخل النار).

ثم كيف يحرم من يحرم منهم أكل اللحم على نفسه، أم هو التآثر بمذهب البراهمة الذين يحرمون على أنفسهم ذبح الحيوان؟ وأين هم من الرسول عليه وآله السلام الذي كان يأكل اللحم ويحب الذراع من الشاة، وكان الحسن البصري يأكل اللحم يومياً. والرسول عليه وآله السلام يقول: (ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا يد فتلت لطعامه وتلت لشرايه وتلت لنفسه) وبهذا يأمر الشرع ليقوم النفس حفظاً لها وتيسيراً لأدائها لمصالحها الدنيوية والأخروية التي خلقت من أجلها في عمارة الدنيا والآخرة. ثم أن الرسول عليه وآله السلام بالنسبة للشرب كان يستقي له الماء العذب فكيف يحرمون على أنفسهم الماء الصافي أو البارد!؟

ثم أن الرسول عليه وآله السلام جاء عثمان بن مظعون وقد حبس نفسه في غرفة يتعبد فيها وقال له: (يا عثمان إن الله عزو وجل لم يبعثني بالرهبانية)

(كررها مرتين أو ثلاثاً) ثم قال: (وإن خير الدين عند الله الحنيفية السمحة) ثم أن الرسول عليه وآله الصلاة والسلام يقول: (إن الله عز وجل يحب أن يرى آثار نعمته على عبده في مأكله ومشربه) وقال جل شأنه {وأما بنعمة ربك فحدث}.

١٦) وأما المتأخرون منهم فقد عكسوا الآية وأخذوا بجميع أنواع المأكّل والمشرب وأكثر من ذلك من الأموال الخبيثة، وتركوا كسب الدنيا وارتضوا البطالة والعيش على كسب الآخرين حتى كان الواحد منهم يبلغ في الأكل إذا حضر دعوة ويأخذ ما يشاء منه دون إذن مع أن هذا من الحرام.

١٧) وأما بالنسبة للغناء فبدأ الكتاب بالحديث عن آراء المذاهب وأتمتها بشأن ما يروونه في الغناء:

فيرى أبو عبدالله أحمد بن حنبل رضي الله عنه إباحة ما يستثير مخافة الله دون أن تخالطه أي مكروهات، ويراه مكروهاً حتى لو كان في الزهديات ما دام فيه شيء من الدنيا، ويراه محرماً إذا صاحبه استئثار المحرمات.

وأما الإمام مالك بن أنس فإنه كان يرى أن الغناء من فعل الفساق وإنه كان ينهى عنه وعن استماعه حتى أنه كان يرى أن لمشتري جارية أن يردها بخيار العيب إذا وجدها مغنية، ولا يخالف هذا الرأي من فقهاء المدينة إلا إبراهيم بن سعد الذي كان لا يرى في الغناء بأساً.

وأما الإمام أبو حنيفة فكان يكره الغناء ويعتبر سماعه من الذنوب وكان هذا رأي فقهاء الكوفة بما فيهم الشعبي وحمام والثوري، كما كان هذا رأي فقهاء البصرة باستثناء عبيد الله بن الحسن العنبري الذي كان لا يرى فيه بأساً.

وأما الإمام الشافعي فقد اعتبر الغناء من فعل الزنادقة، وإنه وإن سمي بالتغيير (سواء نسبة إلى تغيير أسلوب ذكر الله من النصوص إلى الشعر أو لأنهم كانوا يزهدون الناس في الدنيا وترغيبهم في الآخرة مما يغير العقل ويخرج الإنسان عن الاعتدال) كان يراه الشافعي رضي الله عنه مكروهاً يشبه الباطل، وإن من يستكثر منه يعتبر سفيهاً وترد شهادته، وكان كبار أصحاب الشافعي ينكرون الغناء من حيث الممارسة أو السماع بغض النظر عن أن بعض المتأخرين ممن قلّ علمهم وغلبهم الهوى قد رخصوا في الغناء.

وأما أدلة كراهية الغناء فأية {ومن الناس من يشتري لهو الحديث} بتفسير ابن مسعود أنه الغناء، وهو نفس تفسير ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم.. والدليل الآخر قوله تعالى: {وأنتم سامدون} إنه الغناء بقول ابن عباس ومجاهد والآية الثالثة هي {واستفز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك} إن الصوت هنا هو الغناء والمزامير برأي مجاهد. والدليل من السنة ما فعله الرسول عليه وآله السلام بوضع أصبعيه في أذنيه لكيلا يسمع

زمارة الراعي وأن ابن عمر فعل ذلك تأسياً بالرسول عليه وآله السلام كما نقل عنه نافع، مما يجعل ما هو أشد من المزمارة من الغناء والمزامير أكثرها كرهاً.

ثم إن الرسول عليه وآله السلام قد نهى عن شراء المغنيات وبيعهن وتعليمهن وقال (تمنهن حرام) وقرأ {ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً، أولئك لهم عذاب أليم}. كما روت عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إن الله عز وجل حرم المغنية وبيعها وثمنها وتعليمها والاستماع إليها) ثم قرأ {ومن الناس من يشتري لهو الحديث}. وروى عبدالرحمن بن عوف عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت عند نعمة، وصوت عند مصيبة). وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (بعثت بهدم المزارم والطبل). وعن سهل بن سعد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (يكون في أمتي خسف وقذف ومسخ) قيل يا رسول الله متى؟ قال: (إذا ظهرت المعازف والقينات واستحلت الخمر). وعن صفوان بن أمية قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجاءه عمرو بن قرّة واستأذنه في الغناء في غير فاحشة فلم يأذن له وطرده وتوعده بأشد العذاب من الله إن لم يتب عن ذلك ويطلب رزقه من حلال.

وقال ابن مسعود: الغناء ينبت النفاق، وقال الشعبي: لعن المغني والمغني له، وقال فضيل بن عياض: الغناء رقية الزنا، وقال الضحاک: الغناء مفسدة للقلب مسخطة للرب..

١٨) وأما الشبه الذي أجزى سماع الغناء بها فهي: حديث الجاريتين اللتين كانتا تضربان بدفين في بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويرد على الاستشهاد به بأنهما كانتا تنشدان الشعر دون أية إثارة ولا إخراج للطبع عن الاعتدال، ثم أن ذلك كان يوم العيد، وفي بيت عائشة وهي صغيرة السن بينما نجدها لم ينقل عنها بعد كبرها وتحصيلها العلم إلا ذم الغناء. وأما اللهو المذكور في حديث آخر فهو إنشاد الشعر أو ما يشبهه. وأما القول بالتغني بالقرآن فهو التحزن به والترنم مكان غناء الركبان إذا ساروا.

وأما الدف فقد قال أحمد بن حنبل أرجو أن لا يكون بالدف بأس في العرس ونحوه وليس بالطبل أخذاً من قوله عليه وآله السلام (أظهروا النكاح واضربوا عليه بالغربال) أي الدف.

٢١. وأما التلبس على الصوفية في الوجد فإنهم إذا سمعوا الغناء تواجدوا وشفقوا وصاحوا ومزقوا ثيابهم.. فيروون كثيراً من الحوادث التي يزعمون أنها حصلت من كبار الصالحين، ولكن سفيان الثوري يضعف من رواياتهم ويحتج عليهم بأن أمثال مايدعون له لم يحصل لأحد من الصحابة ولا التابعين. فأين منهم من جاء

بعدهم علماً بأن أقصى ما كانوا يجدونه من الطاعات هو البكاء والخشوع، والمشهور عن الرسول عليه وآله السلام برواية عن أنس أنه وعظ يوماً فصفق رجل فقال الرسول عليه وآله السلام: (من ذا الملبس علينا ديننا؟! إن كان صادقاً فقد شهر نفسه، وإن كان كاذباً فمحقه الله).

ثم هناك رواية أخرى عن العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم موعظة ذرفت منها العيون، ووجلّت منها القلوب. فلم يقل بأنهم صرخوا ولا ضربوا صدورهم.. ثم عندما سنلت أسماء بنت أبي بكر: هل كان أحد من السلف يغشى عليه من الخوف؟ قالت: لا ولكنهم كانوا يبكون. وروي أنه عندما مر ابن عمر رضي الله عنه برجل ساقط من العراق قال: ما شأنه؟ قالوا: إذا قرئ عليه القرآن يصيبه هذا، قال: إنا لنخشى الله عز وجل وما نسقط. وروي أن عبد الله بن الزبير قد بلغه أن ابنه عامراً صعب قوماً يتصعقون عند قراءة القرآن، فقال له: يا عامر لأعرفن كلما صحبت الذين يصعقون عند القرآن لأوسعك جلدًا.

وقال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتلو القرآن، ورأيت أبا بكر وعمر يتلوان القرآن ولا يصيبهم هذا، أفتراهم أخشع لله من أبي بكر وعمر؟! وتحدهم محمد بن سيرين فقال: يقعد أحدهم على جدار ثم يقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره فإن وقع فهو صادق.. فكان يرى أنهم يتصنعون الوقوع وما هم بصادقين.

ورأى الفضيل بن عياض ابنه وقد سقط فقال له: يا بني، إن كنت صادقاً فقد فضحت نفسك وإن كنت كاذباً فقد أهكت نفسك. وهل نسي هؤلاء قوله تعالى {وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية} أي صغيراً وتصفيقاً.

٢٢. واشتهر بعض الصوفية في تقطيع الثياب خرقاً محتجين بأدلة موضوعة أو ليست في موضوع الاستدلال، ناسين حرمة إضاعة المال.

٢٣. وأما التلبيس عليهم في صحبة الأحداث منهم على سبعة أقسام في هذه الصحبة:

(١) القائلون بخبث بالحلول يحلوا لأنفسهم التمتع بمثل هذه الصحبة بحجة أن الله حل فيهم. فكانوا يديمون النظر في الغلام الحسن الوجه.

(٢) من يتشبهون بالصوفية في ملبسهم وهم فساق القصد.

(٣) من يستبيحون النظر إلى المستحسن بحجة أن الرسول عليه وآله السلام قال (ثلاث يزدن في قوة النظر: النظر إلى الخضرة، وإلى الماء الجاري، وإلى الوجه الحسن) وما هو إلا حديث موضوع.

(٤) من يدعون أنهم لا ينظرون نظرة شهوة وإنما نظرة اعتبار فيزعمون أنه لا يضرهم النظر وكأنهم من غير طباع البشر.

٥) من صحبوا المردان ولكنهم منعوا أنفسهم من الفواحش، وكان تلك الصحبة بكل متعتها شرعية لا لشيء إلا لأنهم يقاومون أنفسهم من الوقوع في الفواحش، ومنهم من أنهى تلك الصحبة عندما شعر أن نفسه تدعوه للفاحشة سواء بالتوبة وإطالة البكاء أو بالوقوع في المرض وبالتالي تجنب تلك الصحبة أو بقتل النفس بالانتحار لخوف الوقوع في الفاحشة أو بقتل من يحبه.

٦) من لم يقصدوا صحبة المردان وإنما صحبهم الصبي التانه الزاهد فلم يمنعوه وتكرر نظرهم إليه.

٧) من علموا عدم جواز صحبة المردان ولكنهم لم يصبروا عن ذلك.

٢٤. وقبل أن ننتقل إلى النقطة التالية من الكتاب لابد من هذا التعقيب على الغناء والتعليقات التي وردت حوله فيما سبق:

إن الرأي الذي يكاد يجمع عليه الفقهاء أن الغناء يكون حراماً إذا اجتمعت فيه ثلاثة عناصر: الأول - أن يكون بكلمات فاحشة وتثير المنكر، والثاني - أن يؤدي بأسلوب إثارة الشهوات، والثالث - أن تصاحبه الأعمال المحرمة سواء من رقص أو خمر أو غيرها.

وأما إذا فقدت هذه العناصر كلها فكانت الكلمات بعيدة عن الفحش والحرام، ولم يؤد بالتفنج وإثارة الشهوات، ولم تصاحبه أية أعمال محرمة لا من شرب الخمر ولا رقص ولا غير ذلك فإنه يكون جائزاً وذلك مثل الأناشيد الحماسية في الحرب أو في الجهاد وأناشيد الأعراس وأناشيد التذكير بالآخرة وعظم قيمة الحياة في الجنة بالنسبة لهوان الحياة الدنيا وأمثال ذلك.

وأما موضوع الآلات الموسيقية فالرأي الراجح أنها تخضع للرأي السابق في الغناء، وإن كان هناك العديد من الآراء التي تنظر إليها منفردة كل آلة بنفسها لتحكم عليها في إطار فرديتها بالتحريم أو التحليل أخذاً من الأحاديث النبوية التي تذكرها بالاسم كالمزمار أو بالصفة كالمعازف.. ولكن لتعرض هذه الأحاديث للتجريح يجعلها لا تصمد أمام قوة الاستدلال السابق مما يرجح الرأي السابق بجواز استخدامها في إطار الشروط المذكورة.

٢٥. وأما التلبيس عليهم في إدعاء التوكل، والتخلي عن الأسباب، وترك الاحتراز في الأموال، فإنهم يدعون الأخذ بالتوكل مع عدم الأخذ بالأسباب، فلا يغلقون باباً دون اللصوص، ولا يستخدمون مركباً ليحميهم من الغرق، وكأنهم يرون التضاد بين الأسباب والتوكل مع أن التوكل هو اعتماد القلب على الوكيل وحده مع تحرك البدن بالأسباب.

وإلا فكيف يقول سبحانه {ولا توتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً} بأن يمنع سبحانه وضع المال بين أيدي السفهاء الحمقى الذين لا يحسنون

التدبير في المال، والمال جعله الله للإنسان واسطة لتقويم الأبدان؟! وكيف قال صلى الله عليه وآله وسلم (نعم المال الصالح مع الرجل الصالح) إذا لم تكن حيازة المال لازمة مع صلاح مكسبه وإنفاقه؟! ثم كيف يقول سبحانه {خذوا حذرکم} إذا كان التوكل يتنافى مع اتخاذ الأسباب؟!

ثم كيف يقول سبحانه: {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة} إذا كان التوكل لا يلتقي مع اتخاذ الأسباب؟! ثم هو عليه وآله السلام قد طلب أن يحرس ليلاً كما أغلق الباب كما روي في حديث عن جابر أنه عليه وآله السلام قال (إغلق بابك) كما أنه عليه وآله السلام قد أخبرنا أن التوكل لا ينافي الاحتراز عندما طلب من صاحب الناقة (اعقلها وتوكل).. وكل هذا لا يعني إلا معنى واحداً هو أن يستخدم الإنسان كل ما عنده أولاً ثم يطلب من الله سبحانه أن يعطيه مما عنده، فيستخدم وسائله وأسبابه ويطلب من الله أن يعينه ويوفقه للنجاح في استخدامها للوصول إلى الهدف المطلوب.. ألا ترى كيف أن الله تعالى قد سلح الطيور والبهائم بالوسائل التي تدافع بها عن نفسها وتستخدمها لكسب قوتها من مخالب وأنياب؟! ثم ألا ترى كيف أن الله سبحانه قد زود الإنسان بالعقل ليصل به إلى استخدام الوسائل اللازمة من كسب رزقه والمحافظة على نفسه وغيره.. وأن من عطل استخدام هذه النعمة التي منحها الله للإنسان فهو إنما يتخلى عن المحافظة على نفسه فيعرضها كالمنتحر للهلاك؟! وإلا فما الفرق بين من لا عقل له وهو يحجر عليه في ماله مثلاً ويوضع عليه ولي يدبر شؤونه وبين صاحب العقل الذي يفوض له تدبير ماله وشؤونه كلها؟! لكان هؤلاء الصوفية يرون المجنون كالعاقل أو هما سواء!!

وأما الجواب على الشبهة القائلة كيف نحترز مع القدر فإن أوامر الله لا تتنافى مع القدر بل الذي قدر هو الذي أمر {وخذوا حذرکم}.. وانظر إلى عيسى عليه السلام عندما جاءه إبليس فسأله: أنت الذي تزعم أن كل شيء بقضاء وقدر؟! فقال: نعم فقال له: إلق نفسك من الجبل وقل قدر علي، فرد عليه: يا لعين، الله يختبر العباد وليس للعباد أن يختبروا الله تعالى.

فالتوكل لا ينافي الكسب، وإلا لكان الأنبياء كلهم وقد تكسبوا غير متوكلين! فأدم عليه السلام كان حراثاً، ونوح وزكريا كانا نجارين، وإدريس خياطاً، وإبراهيم ولوط مزارعين وصالح تاجراً، وسليمان يعمل الخوص وداوود يصنع الدروع، وموسى وشعيب ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين كانوا رعاة.. وكان أبو بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة رضي الله عنهم أجمعين بزازين.. وكذلك كان كل واحد من التابعين يكتسب ويأمر بالكسب..

فالتوكل بمعنى عدم الكسب يتنافى مع كل هذه الوقائع لأفضل خلق الله، وأين منهم الصوفية الذين يرون الشرك في من يسعى على عياله أو يعمل بالتجارة

أو أي عمل كسبي آخر!! ثم أن حالهم يناقض أقوالهم عندما يرسلون غلمانهم للاستجداء لهم أو عندما يأتون الرباط لعلمهم أن فيه طعامهم وشرابهم!! وقد اشتهر عن سعيد بن المسيب قوله: من لزم المسجد وترك الحرفة وقبل ما يأتيه فقد ألحف في السؤال..

كما واشتهر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان إذا رأى غلاماً فأعجبه سأل عنه هل له حرفة فإن قيل لا قال سقط من عيني. ثم ما معنى قوله سبحانه: {ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم} وقوله: {وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله}؟ وقال ابن عقيل: التسبب لا يقدر في التوكل لأن تعاطي رتبة ترقى على رتبة الأنبياء نقص في الدين. وعليه فإن قول الصوفي نقعد فيأتينا رزقنا يتنافى مع التوكل الشرعي إذ يعطل أوامر الله والإنسان مطالب بالأمر لا بالقدر، والقول بذلك يعطل الأمر ويخالف القدر.

٢٦. وأما التلبيس على الصوفية في ترك التداوي فهو يتناقض مع ما أجمع عليه الصحابة ومن بعدهم العلماء بأنه مندوب إليه، ومع فعل الرسول عليه السلام أنه تداوى وأمر بالتداوي ولم يخرج عن التوكل بذلك وقال (تداواوا عباد الله فإن الله ما أنزل من داء إلا وأنزل له دواء إلا السام) بمعنى الموت فلا دواء له .

فهو عليه وآله السلام قد أشار إلى ان الله تعالى قد جعل أسباباً لدفع الأدواء والأمراض كما جعل الأكل سبباً لدفع الجوع، فالله سبحانه وتعالى خلق خلقه ذوي حاجات بحيث لا تندفع عنهم إلا بأسبابها وهو سبحانه قادر على خلقهم دون هذه الحاجات ولكن شاءت حكمته وإرادته أن يخلقهم كذلك.

٢٧. وأما التلبيس في ترك الجمعة والجماعة بحجة الوحدة والعزلة عن الناس اشتغالاً بالعلم والتعب فإن هذه الحجة لا تقف في شيء أمام ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه الذين كانوا أهل العلم والعبادة دون ترك الجمعة ولا جماعة ولا عيادة مريض ولا شهود جنازة ولا قيام بحق ولم يعتزلوا إلا الباطل والشر وأهلهما فقط.. فالاعتزال في الجبال أو الربط تفويت لتلك الواجبات والمندوبات وركون إلى الراحة والكسل..

وإلا فأين هو الشرع في عمل أبي عبيد التستري الذي كان يقول لامرأته من أول يوم من رمضان: طيني باب البيت والقي إليّ كل ليلة من الكوة رغيفاً لتجد الثلاثين رغيفاً في الزاوية في آخر يوم من رمضان فلم يأكل ولم يشرب ولم ينتهياً للصلاة وكأنه بقي على طهر واحد طيلة الشهر؟! ثم ما معنى ما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأحد الصحابة عندما رأى غاراً فيه ماء وحوله البقل فمالت نفسه لاعتزال الدنيا والبقاء فيه فاستأذن الرسول عليه وآله السلام أن يفعل ذلك فقال له: (إني لم ابعث باليهودية ولا بالانصرانية ولكني بعثت بالحنيفية السمحة، والذي نفس محمد بيده لغدوة أو روحة في

سبيل الله خير من الدنيا وما فيها. ولمقام أحدكم في الصف خير من صلاته ستين سنة).. هل معناه موافقة الشرع على هذه العزلة وترك الجمعة والجماعة والسعي للكسب ومقارعة الباطل وأهله؟!

٢٨. وأما التلبيس عليهم في التخشع وطأطة الرأس، فالمعروف أنه إذا سكنت التقوى القلب فالظاهر يخشع، وهذا أمر بديهي، وأما تكلف التخشع والتباهي مما يخشى معه الرياء فهو مذموم. والرسول عليه وآله السلام كان كثيراً ما يرفع رأسه إلى السماء، لأجل الاعتبار، والقرآن الكريم يقول: {أولم يروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها} ويقول: {قل انظروا ماذا في السموات والأرض} فأين هذا وذاك من المتصوفين الذين يصرون على طأطة الرأس وعدم رفعه إلى السماء؟! وقد روي عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنهم كانوا من أشد الناس حياءً، وها هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه يرى شاباً منكس الرأس فيقول له: يا هذا ارفع رأسك فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب، فمن أظهر للناس خشوعاً فوق ما في قلبه فإنما أظهر نفاقاً على نفاق.

٢٩. وأما التلبيس عليهم في ترك النكاح، ذلك لأن النكاح مع خوف العنت واجب، ولكن من غير خوف العنت يبقى سنة مؤكدة عند جمهور الفقهاء، والرسول عليه وآله السلام يقول (تناكحوا تناسلوا) ويقول (النكاح من سنتي، فمن رغب عن سنتي فليس مني) وقال سعد بن أبي وقاص لقد رد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على عثمان بن مظعون التبتل ولو أذن له في ذلك لاختصينا..

وقال ابن عباس رضي الله عنه: إن خير هذه الأمة كان أكثرها نساء، وقال شداد بن أوس: زوجوني فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أوصاني أن لا ألقى الله عزباً، ولعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المتبتلين من الرجال والنساء.. فأين هذا كله من ترك الصوفيين النكاح بحجة التعبد الزائد، وكأنهم أكثر عبادة وزهداً من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وصحبه؟! ثم لينظروا ويتدبروا قوله عليه السلام: (لبكاء الصبي بين يدي أبيه، يطلب منه خبزاً، أفضل من كذا وكذا، أتى يلحق المتعبد المتعذب المتزوج؟!)، وأخيراً نستنكر مع قوله تعالى: {وجعل لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة} وقوله عليه السلام لجابر رضي الله عنه (هلا تزوجت بكراً تلاعبها وتلاعبك) موقف الصوفية من النكاح وتركه بحجة الانشغال في العبادة؟! إنه الجهل بالعلم كما هو حالهم في الكثير من مخالقاتهم الشرعية للكتاب والسنة بحجة العبادة.. والأشد جهلاً منهم أولئك الذين جبنوا أنفسهم بزعمهم الحياء من الله تعالى..

٣٠. وأما التلبيس عليهم في ترك طلب الأولاد، إذ قالوا بأن من يريد الولد فهو أحق بحجة أنه ينغص عليه دنياه ويشغله عن تعبده لأخراه.. وأين هم من قوله عليه وآله السلام (تناكحوا تناسلوا فإنني أباهي بكم الأمم يوم القيامة ولو بالسقط؟!)

٣١. وأما التلبيس عليهم في الأسفار والسياحة، حتى أنهم يخرجون طلباً للوحدة ودود زاد بدعوى مخالفة التوكل وحرصاً على مضاعفة العبادة فيقعون في إضاعة الفرائض والفضائل الكثيرة من معايشة الناس وصلاة الجمعة والجماعة والمعاملات الكثيرة.

ثم أن الرسول عليه وآله السلام قد نهى عن السعي في الأرض من غير أرب وحاجة وقال (لا زمام - أي في الأنف - ولا خزام - أي حلقة من الشعر - ولا رهبانية ولا تبتل ولا سياحة في الإسلام). وقال عليه وآله السلام (إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله) وقال لعثمان بن مظعون (مهلاً يا عثمان فإن سياحة أمتي الغزو في سبيل الله والحج والعمرة) كما روى أبو هريرة قال: (لعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم راكب القلاة وحده)، هذا بالإضافة إلى أنه عليه وآله السلام قد نهى عن المشي ليلاً..

وما أكثر ما وقعوا في الآثام نتيجة لهذه السياحة والأسفار دون زاد سواء من تعرضهم للهلاك من السباع أو الوقوع في الحفر أو الموت جوعاً أو ضربات الشمس أو الأمراض..

٣٢. وأما التلبيس عليهم إذا قدموا من السفر، فقد يدخل الواحد منهم الرباط عند وصوله من السفر، فإذا وجد فيه جماعة لم يسلم عليهم إلا بعد أن يتوضأ ويصلي ركعتين ويسلم على الشيخ.. فمن أين جاؤوا بذلك والسنة تأمر الداخل على جماعة أن يبادرهم بالسلام سواء كان على وضوء أو لم يكن. كما أن من عادتهم دعوة القادم لوليمة شاة له دون أن يكون لهم في ذلك أي سند شرعي.

٣٣. وأما التلبيس عليهم إذا مات لهم ميت فإنهم يعتبرون من يبكي عليه من الخارجين عن طريق أهل المعرفة، وإلا فالحزن على فراق عزيز من طبائع البشر مصداقاً لقوله تعالى: {وابيضت عيناه من الحزن} ولبكاء الرسول عليه وآله السلام عند موت ولده حتى قال (إن العين لتدمع).. كما أنهم يولمون وليمة عند موت الميت يسمونها عرساً إذ يفرحون ويرقصون ويغنون لموته بحجة أنه وصل إلى ربه..

فأين هم بهذه الوليمة من صنع الطعام لأهل الميت المطلوب سنة؟! كما أين هم بهذا (العرس) وأفراحه من الحزن على الميت المفطور عليه البشر؟! كما أين هم بالرقص في تلك الدعوة بحجة أنه غفر له .

٣٤. وأما التلبيس عليهم في ترك التشاغل بالعلم، فإن منهم من ذم العلماء ورأى أن الانشغال بالعلم بطالة، وإن كان بعضهم قنع باليسير من العلم ففاتهم الفضل الكثير، وكل ذلك بحجة أن حيازة العلم مدعاة لتشوف النفس للرئاسة سواء في الإمارة أو القضاء أو الفتوى. ومن مصائبهم أنهم سمو علم الشريعة علم الظاهر وسموا هواجس النفوس العلم الباطن محتجين بحديث ينسب للإمام

علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال (علم الباطن سر من سر الله عز وجل وحكم من أحكام الله تعالى يقذفه الله عز وجل في قلوب من يشاء من أوليائه) مع أن هذا الحديث مجروح إذ يرى ابن الجوزي أنه لا أصل له وفي إسناده مجاهيل لا يعرفون.

ثم أن قطع الإنسان همه من الأهل والمال والولد والعلم بحجة أنه يخلو بنفسه في زاوية ويقتصر على الفرائض والرواتب ولا يقرن ذلك بقراءة القرآن ولا بالتأمل ولا بالكتابة ولا يتلفظ إلا بكلمة لا إله إلا الله إلى أن ينتهي لسانه عن الحركة.

فهذا شطب لأوامر الشريعة في ذلك.. وها هو أبو حامد الغزالي - أحد أئمة الصوفية في فترة من حياته - يقول في كتابه الإحياء: من قال إن الحقيقة تخالف الشريعة، أو الباطن يخالف الظاهر، فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان، وابن عقيل يقول بأن كل من رام الحقيقة في غير الشريعة فمغرور مخدوع. والأدهى من ذلك وقف كتب العلم أو إلقائها في الماء بحجة عدم الحاجة إليها بعد الإطلاع عليها، ثم استنكار التشاغل بالعلم لزعمهم بأن علم الباطن يكتسب بالعبادة الزائدة والرياضات المختلفة.

٣٥. وأما التلبس عليهم في كلامهم في العلم، سواء تفسير القرآن أو الحديث أو الفقه، فقد جروا على سوق العلوم إلى مقتضى علمهم الذي انفردوا به. فمثلاً يفسرون قوله عز وجل {سنقرئك فلا تنسى} كما قال الجنيد لا تنسى العمل به، وقوله تعالى {ودرسوا ما فيه} تركوا العمل به مع أن هذا التفسير لا وجه له وكله خطأ لأن التفسير بالنهي في الأولى، وبالترك في الثانية بعيد كل البعد عن إجماع العلماء في التفسير إذ الأولى نفي والثانية بمعنى التلاوة. وتفسيرهم لآية {فنجيناك من الغم} بمعنى الغم بقومك وفتناك بنا عن سوانا يعتبر من الجرأة على كتاب الله إذ جعل محبته تعالى توجد فتنة.

وتفسيرهم الآية {ومن دخله كان آمناً} من الهواجس النفسية والشيطانية فهو في غاية القبح لأنها تعني من دخل الحرم فأمنوه. وأما تفسيرهم لآية {ولله المكر جميعاً} بمعنى [لا مكر أبين فيه من مكر الحق بعباده حيث أوهمهم أن لهم سبيلاً إليه بحال] فإنه من الكفر المحض لأنه يشير إلى أنه كالهزاء واللعب.. وهكذا بقية الخوض في التفسير فإنه لا يخرج إما عن إخضاع النصوص لعلومهم وهواجسهم وإما يصل إلى الكفر والعياذ بالله وليس الجهل أو الجرأة فحسب.. وكأنهم لم يسمعوا بتحذير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (من قال في القرآن برأيه فقد أخطأ) (ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار) وأما موضوع الجرح والتعديل فكانوا يعتبرونه مغيبة مع أنه لولا هذا العلم لما عرف الصحيح من الباطل في

مجال الحديث. وأما قولهم بأن من عرف الله أمسك عن رفع حوائجه إليه لما علم أنه العالم بأحواله فهذا القول سد باب السؤال والدعاء وهو جهل بالعلم.

وأما تجنبهم للفظه الجلالة (الله) بدلاً من (لا إله إلا الله) فقد قال الشبلي منهم أنه يستحي أن يوجه إثباتاً بعد نفي، وهل كان بذلك إلا متهجماً على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان يردد (لا إله إلا الله وحده لا شريك له) كل صلاة ويحث عليها لما فيها من ثواب؟!!

ومن أعجب افهامهم أن النوري قال عندما سمع المؤذن: طعنه سم الموت، ولكنه عندما سمع نباح كلب قال: لييك وسعديك، وعندما سئل عن معنى ذلك قال: المؤذن يذكر الله وهو غافل عنه، ويأخذ أجره على ذكره، ولذلك دعوت عليه بطعنة سم الموت، ولكن الكلب ذكر الله عز وجل بلا رياء أخذاً من قوله {وإن من شيء إلا يسبح بحمده}!! وعندما سئل أحدهم عن معنى قولهم: نح يدك عن لحية الله، تقال للرجل منهم، قال: أليس العبد لله ولحيته لله؟! ياللعب من هذا التخبيط!! وأما قول الشبلي: ما عرف الله من قال الله، والله لو عرفوه ما قالوه.. فهو من عجائبهم والتلاعب بالألفاظ الذي يقود إلى الكفر.. وإلا فما معنى قول الشبلي لشخص اسمه آدم: ويك، أتدري ما صنع آدم؟ باع ربه بلقمة.. غير الطعن بآدم عليه السلام؟! وأما قول بعضهم بأن للربوبية سر لو أظهر لبطلت النبوة، وللنبوة سر لو كشف لبطل العلم، وللعلماء بالله سر لو أظهروه لبطلت الأحكام. فإنه إدعاء على الشريعة بأن ظاهرها يخالف باطنها..

٣٦. وأما التلبيس عليهم في الشطح والدعاوى فهي من عجائبهم الأشد، إذ نجد البسطامي يقول: وددت أن قد قامت القيامة حتى أنصب خيمتي على جهنم، فسأله رجل: ولم ذلك يا أبا يزيد؟ فقال: إني أعلم أن جهنم إذا رأنتي تخدم فأكون رحمة للخلق..

يا الله، ما هكذا يزكي المسلم نفسه ويرى نفسه!! ولا هكذا يعبر الملائكة والأنبياء والصحابة عن انزعاجهم لأجل النار ولهيبتها، ثم أين البسطامي من قول الرسول عليه وآله السلام (من قال إني في الجنة فهو في النار) ثم ما معنى قول البسطامي: وما النار، والله لنن رأيتها لأطفأتها بطرف مرقعتي أو نحو هذا؟! فإن هذا القول لا يبعد صاحبه عن الكفر قيد أنملة. ثم ما معنى قول هذا البسطامي: سبحاني سبحاني ما أعظم شأنني، حسبي من نفسي حسبي؟! فهو من تخريفاتهم. وأما رده على ما قيل له: إن الخلق كلهم تحت لواء سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأن قال: والله إن لوائي أعظم من لواء محمد، لوائي من نور تحته الجن والإنس كلهم مع النبيين.. فهذا القول من الزندقة التي لا يبعد عنها قيد أنملة عندما يتبع قوله: سبحاني

سبحاني ما أعظم سلطاني، ليس مثلي في السماء يوجد ولا مثلي صفة في الأرض، تعرف أنا هو، وهو أنا، وهو هو، وما أكثر هذه الشطحات التي يعبر عنها بصريح اللفظ عن أنه الله سبحانه معبراً بذلك عن فكرة الحلول التي سيطرت عليه فأخرجت عن الملة، وما قوله في تفسير الآية {ولسوف يعطيك ربك فترضى} من أن محمداً لا يرضى وفي النار من أمته أحد، من أن محمداً يشفع في أمته ثم يشفع الشبلي بعده في النار حتى لا يبقى فيها أحد. فإن مثل هذا القول كذب على رسول الله عليه وآله السلام لأنه يرضى بعذاب الفجار، ثم إنه يكفر عندما يرى من نفسه أكثر شفاعة من الرسول عليه وآله السلام..

ومن صادق تعليقات بعض صالحهم في حقهم: لقد نقض الصوفية أركان الصوفية، وهدموا سبيلها، وغيروا معانيها بأسماء أحدثوها إذ سموا الطبع زيادة، وسوء الأدب إخلاصاً، والخروج عن الحق شطحاً، والتلذذ بالمذموم طيبة، وسوء الخلق صولة، والبخل جلادة، واتباع الهوى ابتلاء، والرجوع إلى الدنيا وصولاً، والسؤال عملاً، وبذاعة اللسان ملامة..

كما قال ابن عقيل بأن الصوفية قد عبرت عن الحرام بعبارات غيروا لها الأسماء مع حصول المعنى، فقالوا في الاجتماع على المأكولات الطيبة والغناء أوقات، وفي المردان شب، وفي المعشوقة أخت، وفي المحبة مريدة، وفي الرقص والطرب وجد، وفي مناخ اللهو والبطالة رباط.. وهذا كله من التلاعب غير الجائز بالألفاظ.

٣٧. ومن أفعالهم المنكرة: أن يغتسل أحدهم من الجنابة في ماء بارد وبمرقعته ويبقى يلبسها شهراً كاملاً حتى تجف ويكاد أن يهلك، هذا الفعل من تعريض النفس للهلاك مما ينكره الإسلام على صاحبه، وأن يلقي أحدهم نفسه في التنور حتى يكاد يحترق تنفيذاً لأمر شيخه فهو من الأعمال المنكرة كأن فاعله وأمثاله من الأفعال لم يسمع بحديث رسول عليه السلام (إنما الطاعة في المعروف)،

وإلقاء المال في النهر إضاعة للمال لاتجوز مهما كانت حجة صاحبها، والزام الشخص نفسه أن يقعد أربعين يوماً في التشهد فهذا من التعذيب غير الجائز، واستنجار شخص ليشتم المستأجر أمام الناس ليعتاد الحلم ليس من الإسلام في شيء، وإلقاء المال في البحر لكي لا يتبرع به للناس خوفاً من الرياء وإخضاعاً للنفس لكره المال إضاعة محرمة للمال، والقيام على الرأس طول الليل بحجة التغلب على هوى النفس تعذيب بعيد عن الشرع..

وأما قول أبو تراب لأحد مريديه: لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من رؤية الله سبعين مرة، فهو من الكفر الصراح، وأما إلقاء النوري نفسه في الأجمة ليزيل عنها الخوف من السبع ولو أكله وتعريضه نفسه للهلاك فهو

من المحرم، والسرقة من الحمام لإهانة النفس ليس من الإسلام في شيء إن لم يكن يوجب القطع، واقتحام الذنوب بقصد السقوط من أعين الناس ليسلم من الرياء أبعد شيء عن الإسلام، وإلقاء المال في الماء بحجة أنه يشغله عن ذكر الله من المفسدة المنهي عنها، والطلب من الناس للانفاق على الفقراء أمر بعيد عن الإسلام، وترك المرقعة للوسخ والقمل بحجة الرياضة والمجاهدة فيه كل المخالفة للشرع الذي يأمر بالنظافة.

٣٨. وأما اندساس أهل الإباحة في الصوفية فيمكن ملاحظته من خلال تتبع أقسامهم الثلاثة الآتية:

القسم الأول: الكفار الذين وجدوا في مذهب الصوفية المبني على الباطنية سبيلاً للتمرغ في الشهوات وهم ينكرون وجود الله ورسوله.

القسم الثاني: المقرون بالإسلام ولكنهم لا يرون غير تقليد شيوخهم من غير اتباع دليل ولا شبهة فهم من الإسلام مما يخرجهم عن الدين بهذا التقليد الأعمى أحياناً.

القسم الثالث: العاملون بالشبهات التي عرضت لهم ولم يمكن إدراكها بالعلم فتركوه بغضاً له وطلبوا الوصول إليها بالمجاهدة والرياضة. ويمكن حصر هذه الشبهات ووضعها تحت النور لكشفها فيما يلي:

الشبهة الأولى: لما كانت الأمور مقدرة منذ الأزل، والسعادة مخصوصة والشقاوة مخصوصة، والأعمال لجلب السعادة ودفع الشقاوة مخصوصة، فلا حاجة للتعب في عمل ولا للامتناع عن ملذوذ فالمكتوب واقع لا محالة..

ورد هذه الشبهة بسيط إذ أعمالها يرد الشرائع ويبطل أحكام الكتب ويستدعي عدم وجود النبوات كلياً، وهذا مستحيل فـ (اعملوا فكل ميسر لما خلق له) والإنسان له عمل اختياره وعليه يتحمل الثواب والعقاب..

الشبهة الثانية: لما كان الله عز وجل مستغن عن أعمالنا، ولا يتأثر بها سواء كانت معصية أو طاعة، فلا حاجة للتعب في غير فائدة..

ورد هذه الشبهة أنها تلغي الرسل أيضاً، ثم أن الله تعالى منزه عن الانتفاع بأعمال الخلق وإنما الخلق ينتفعون بأعمالهم {ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه}..

الشبهة الثالثة: لما كانت رحمة الله تعالى واسعة لكل أعمالنا فلا حاجة لحرمان النفوس من مرادها.. ورد هذه الشبهة أنها تلغي وعيد الرسل وتهون تحذيرهم وينسون أن الله كما وصف نفسه بالرحمة وصفها بالشدّة في العقاب، ومن يرجو الرحمة يأخذ بأسبابها والرسول عليه وآله السلام يقول

(الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى)..

الشبهة الرابعة: لما كانت رياضة النفوس لتطرح أكارها يتعذر تحقيقه دائماً فلماذا يتعب الإنسان نفسه في أمر لا يتحقق لبشر ولذلك لا بد من ترك العمل.. ورد هذه الشبهة أن الشرع لم يأت لقمع الرغبات البشرية من شهوة وغضب وغيرها لأنها وهبت للإنسان لفوائدها، فلولا الميل للطعام لهلك الإنسان ولولا شهوة النكاح لانقطع النسل ولولا الغضب لما دافع الإنسان عن نفسه، ولهذا لم يطلب الشرع قلع أو كبت الرغبات وإنما توجيهها الوجهات الصحيحة، وكل ذلك في حق من فشلوا في ترويض نفوسهم من الصوفية بمعنى كبت رغباتها.

الشبهة الخامسة: لما كان هناك البعض ممن نجحوا في ترويض نفوسهم حتى تجوهروا فإنهم يرون أنه لا حاجة بهم للشرعية كبقية الناس من العوام..

ورد هذه الشبهة أن هذه الفئة تستحل المحرمات كالراوندية، وهم وأمثالهم لن يكونوا إلا كذابين عندما يدعون زوال الصفات البشرية منهم وهم يواقعون النساء في خلواتهم بحجة الأخوة معهن، والله تعالى عندما يأمر المؤمنين والمؤمنات بغض النظر لا يستثنى أحداً ممن يتصفون بالإيمان بذلك.. إلا إذا كانوا هم لا يتصفون بذلك..

الشبهة السادسة: لما كان هناك من بالغ في الرياضة فصارت له بعض الكرامة أو المقامات الصالحة فقد ظنوا بأنفسهم الوصول إلى المقصود، وأنه لم يعد لهم بعدها حاجة للأعمال غير التزين بالمرقعة والرقص والوجد..

والرد على هذه الشبهة هو نفس الرد على الفئة السابقة، ويضاف إليه أن الله تعالى عندما يقول {ويحذركم الله نفسه} فإنه يحذر من أمثال هذه المزاعم وهو سبحانه القائل {وليس البران تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله} فالعبرة ليس مجرد المقاصد بل لا بد من الامتثال الدائم لأوامر الله ونواهيه.

٣٩. وأما التلبس عليهم في تأويلاتهم فإن ذلك عائد لقلّة علمهم بالشرع.. وها هم أئمة المذاهب يسفّهون تصرفاتهم وآراءهم، فمالك يستنكر زعمهم أنهم مسلمون، والشافعي يقول: ما لزم أحد الصوفية أربعين يوماً فعاد عقله إليه أبداً. كما أن هناك العديد من كبارهم قد هربوا منهم وعادوا إلى السنة الحقة أمثال أحمد بن أبي الحواري، وإدريس الخولاني، ويونس بن عبد الأعلى، وسهل التستري، وابن عقيل..

وابن عقيل هذا هو الذي هاجمهم لاتخاذهم أساليب خبيثة لاجتذاب الناس، كل حسب وضعه، حتى قال أن المتكلمين خير من الصوفية لأنهم قد يزيلون

الشك بينما الصوفية تثير الشبهات، فهم يزعمون أن علمهم مصدره (حدثني قلبي عن ربي) مما جعلهم يطرحون النبوات بهذا الزعم الكاذب لأنهم تركوا الدليل واعتمدوا على ما يلقي في قلوبهم..

وقال ابن عقيل الناس تقول إذا أحب الله خراب بيت تاجر عاشر الصوفية وأنا أقول وخراب دينه لأنهم يستبيحون الحرمات..

وبهذا فقد انتهى الحديث عن التلبيس على الصوفية.

٤٠. وأما التلبيس على المتدينين، بما يشبه الكرامات، فإن إبليس لا يتمكن من الإنسان إلا بقدر قلة علمه، فكلما كثر علمه قل تلبيس إبليس عليه، وضعفاء الزهاد يلعب بهم الشيطان بحيث يظنون أن ما يريهم إياه كرامات لهم كما حصل مع الحارث الكذاب من أهل دمشق عندما أوهمه إبليس بأنه نبي مرسل بما يظهر له من كرامات حتى جمع العوام من حوله ولم يتمكن منه الخليفة عبد الملك إلا بشخص احتال عليه بالتظاهر من أنه من أتباعه ودل جيش الخليفة عليه واعتقل وصلب بعد أن رفض الاستجابة للاستتابة.

وهناك الكثير الكثير من أمثال هذه الأكاذيب التي يخدعون بها عامة الناس.

٤١. ويعود الكتاب إلى الصوفية هنا فيتحدث عن مسالك الصوفية في الشطح والدعاوى ويذكر مخاريق الحلاج وابن الشباس بالذات.

فيروى عن الحلاج أنه كان يدفن شيئاً من الخبز والشواء والحلوى في موضع من البرية ويدخل بعض أصحابه عليه ثم يتظاهر أحدهم إذا خرجوا في سياحتهم بأنه يشتهي كذا وكذا فيخرجه الحلاج وكأنه من كراماته..

وأما ابن الشباس فكان لديه طيور سوابق وأصدقاء في جميع البلاد فإذا جاءه قوم من بلد ما حبسهم ولا يلتقي بهم حتى تعود طيوره بأخبار أهلهم ليظنوا بل يقطعوا أنه صادق عندما يحدثهم بأخبار أهلهم وبالتالي كأنه يعلم الغيب..

ومن ألعابيه التي كشفها أتباعه فالناس التلاعب بالتنور فيظهر حيناً عليه الشواء ويخفيه فيظهر أنه جدي حي يأكل الحشيش باستبدال التنور بلولب خاص مرتبط بطبق نحاس.

٤٢. وأما التلبيس على العوام فهو لا حدود له ولكن بعض الأمثلة كفيلة لتوضيح ذلك، فتجدهم يتفكرون في ذات الله عز وجل وصفاته ويشككهم ذلك بإيمانهم ولو علموا نهي الرسول عليه وآله السلام عن ذلك في قوله (تسألون حتى تقولوا هذا الله خلقنا فمن خلق الله) لما فعلوا ذلك، ولما علموا ما قاله صلى الله عليه وآله وسلم لمن يسأل نفسه هذا السؤال لفعله وارتاحت نفسه (إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول: من خلقك؟ فيقول: من خلق السموات والأرض؟ فيقول: الله، فيقول: من خلق الله؟

فإذا وجد أحدكم شيئاً من ذلك فليقل: آمنت بالله ورسوله) وما ذلك كله إلا لأن العامي يريد كل شيء بالمحسوس.

والأمر الآخر أو المثال الآخر اندفاع العامي بالعصبية فنجده يقاتل ويلعن في أمر لا يعرف حقيقته، فلا يجوز التعصب لا لأبي بكر ولا لعلي عليهما رضوان الله، فكل أمر يجب أن يكون بدليل من الكتاب والسنة أو ما دلّ عليه من القياس الشرعي وإجماع الصحابة. ومن الأمثلة الأخرى تساؤل العامي: لم ضيق الله على التقي في الرزق ووسعه على العاصي؟! أو ما الحكمة في تعذيب الأجساد وتهديمها بعد بنائها!؟

وقد يكفر العامي بيوم البعث لأنه يستبعده عن المحسوس، وقد يكفر إذا ضاق عليه رزقه أو ابتلي بمرض أو أي مكروه، وقد يتخلى عن الصلاة والصيام تبعاً لعلمه بأنه ليس بحاجة لذلك مع رحمة الله الواسعة.. ولو وجد الواحد منهم عالماً يجيبه على سؤاله لانتهى ذلك كله، فعلى قدر الجهل والعناد فيه والظن الكبير بالنفس ييسر على العامي الوقوع في شرك إبليس، وإلا فما معنى تقديمهم للمزهدين على العلماء وتصورهم أن جبة الصوف تجعل المتخشع المتزهد أفضل من العالم الذي يخالط شؤون الحياة!!

ثم وقوع الجراءة من العامي في القبح بالعلماء لا لشيء إلا لأنهم يتناولون المباحات بينما المتزهدون يتجنبونها!

وأما إطلاق النفس في مقارفة المعاصي فإنهم كانوا إذا وبخوا تكلموا كلام الزنادقة، فيقولون مثلاً الرب كريم والعفو واسع والرجاء من الدين، وهذا الرجاء يعني التمني والاعتزاز بالدين، وهو ما أهلك عامة المذنبين، وعندما مثلاً قيل للفرزدق: لم تقذف المحصنات؟ قال: إنه لا يذنب لوالديه كما يذنب لربه لأنهما يرحمانه ولا يقذفانه في النار وأنه بذلك يؤكد أن ربه لن يقذفه في النار رحمة به لأنه أرحم من والديه،

وهذا جهل لأنه قارن رقة طبع والديه برحمة الله، ولو كانت كذلك لما أباح له ذبح عصفور ولا أمات طفلاً ولا أدخل أحداً النار..

ومثلاً جراءة أبي نواس على تقبيل غلام أمرد عند الحجر الأسود بحجة اعتماده على رحمة الله وينسى أن عذاب الله يترصد منتهك الحرمات ولا يقيم لذلك وزناً بحجة الرحمة!!

وأنظروا إلى هذا أبي نواس وهو يقول مستنكراً دعوتهم له للتوبة وهو في مرض الموت: إياي تخوفون فالرسول عليه السلام قال: (لكل نبي شفاعة، وإنني اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي) أفترى لا أكون أنا منهم؟ فنسي بكلامه هذا جراته على ارتكاب المعصية، ونسي في نفس الوقت أن

رحمة الله تكون للتائب فقط أخذاً من قوله تعالى: {وإني لغفار لمن تاب} وقوله سبحانه: {ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون} فمن أين تأتيه الرحمة إذا كان مصراً على المعاصي ودون أي توبة ولا تقوى!؟

وكما يقول بعضهم: ما قدر ذنبي حتى أعاقب! ومن أنا حتى أواخذ وذنبي لا يضره وطاعتي لا تنفعه وعفوه أعظم من جرمي!! فهل عقاب الله لا يقع إلا للضد أو الندى؟! ألا يعلم أن المعاند في المعصية قد أصبح لا عفوله!؟

وكما يقول آخرون: سأتوب وأصلح ومازلت شاباً وينسى أن طول الأمل مع فجأة الأجل لا تنفعه بشيء! وكما يقول البعض: أنا من أبناء أبي بكر، أو أنا من أبناء علي، أو أنا من الشرفاء، أو أنا نسيب فلان الشريف أو الزاهد..

وهم يعتمدون في الحصول على شفاعاة أي من هؤلاء وينسون أن محبة الله لا تلتحق إلا من أطاعه وليس من انتسب إلى فلان أو فلان، كما ينسون أن الشفاعاة لا تحصل إلا بإذن الله، وها هي شفاعاة نوح لابنه قد منع منها، وها هو محمد عليه وآله السلام يقول لفاطمة: (لا أغني عنك من الله شيئاً) فلن ينجو أحد بنجاة أبيه أو قريبه أو نسيبه..

وكقول من قال: أنني تابع لجماعة كذا أو كذا المقبولة عند الله ولا قيمة لما ارتكب من معاصي.. وهذا افتراء على الله، فكل ذرة من خير أو شر حسابها. وكفعل العيارين بأخذ أموال الناس بالباطل ظناً منهم أن طاعاتهم تعفيهم من حرمة ذلك عليهم! وأنهم ليوظدوا أنفسهم على تحمّل الجلد منات بل ألوف الضربات باسم الفتوة ولا يتراجعون إلى التوبة عن ارتكاب المحرمات وكان فتوتهم تشفع لهم من معاصيهم عند الله!! وكفعل من يصير على الفواحش معتمداً على النوافل ظناً منه أنها حسنات تذهب السيئات!! وكحضور مجالس الذكر والتخشع والبكاء مع البقاء على الربا والغش وغيرها من المحرمات ظناً منهم أن ذلك يدفع عنهم منكرات أفعالهم!!

وكأفعال أصحاب الأموال في الاستمرار على الربا، أو البقاء على البخل وعدم إخراج الزكاة، أو التحايل في إخراجها، أو في ظن الغني نفسه أنه خير من الفقير بماله الكثير، أو في سوء الانفاق للأموال بالتبذير والإسراف بوجوهها الكثيرة وينسوا هؤلاء جميعاً قوله عليه وآله الصلاة والسلام (يا ابن آدم لا تزول قدمك يوم القيامة بين يدي الله عز وجل حتى تسأل عن أربع: عمرك فيما أفنيته، وجسدك فيما أبليتته، ومالك من أين اكتسبته، وأين أنفقته؟)، وكأفعال الفقراء في إظهار أحدهم الفقر وهو غني فهو يستكثر من نار جهنم بسؤاله الناس، مع أن الأولى إظهار التجميل كما كان يفعل السلف حتى لا يقع في فعل الشكوى من الله والعياذ بالله، أو قد يرى الفقير نفسه خير من الغني بحجة أنه زهد فيما رغب فيه الغني وهذا خطأ لأن الخير ليس في الوجود والعدم..

وعودة إلى التلبيس على العوام فقد يحصل ذلك بمتابعة تقليد الآباء لعشرات السنين دون معرفة مدى خطأ أو صواب ما كانوا عليه..

وما أكثر التقليد الأعمى الملىء بالأخطاء بشأن الصلاة، وكذلك بشأن التردد على المنجمين والعرافين والرسول عليه وآله السلام يقول (من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة)، وكذلك بشأن لبس الذهب والحريير للرجال، أو إظهار العورات للنساء والرجال، أو ارتكاب أعمال الجاهلية المنكرة عند الموت أو على الميت العزيز.

٤٣. وأما التلبيس على النساء فكثيرة جداً مظاهره، ومنها تأخير الغسل من الطهر إلى وقت آخر، ومنها النظر لعورة المرأة الأخرى، ومنها تأجيل الصلاة بحجة إزالة النجاسة إلى وقت آخر عن ثوبها أو نفسها، ومنها انكشاف شيء منها في الصلاة فتبطل صلاتها، ومنها إساءة العشرة مع الزوج بحجة أنه لا يؤاخذها لأنه والد أولادها، ومنها الخروج من البيت بدون إذن الزوج، ومنها ملازمة القبور والحداد الطويل على غير الزوج، ومنها رفض تلبية طلب زوجها إلى الفراش، ومنها التفريط في مال زوجها، ومنها حضور مجالس الوعظ ومصافحة الشيخ الصوفي بخرقة لتصبح من بنات المنبر اللواتي يرتكبن العجائب مع من يدعى شيوخهن أو إخوانهن في الطريقة..

٤٤. وأما التلبيس على الناس بطول الأمل فكثير منه التمهّل في اعتناق الإسلام من أي بعيد عنه بحجة توفر الوقت، ومنه تسويق المعاصي بالتوبة ليستمر في شهواته وعصيانه، ومنه تأجيل درس فقهي أو موعظة أو نصيحة أو صلاة ليل أو صيام تطوع ميلاً للكسل وأخذاً بطول الأمل فيضيع العمل ويفوت الأجر وقد تقع المعصية، وإلا فالواجب المبادرة بحزم ودون تأجيل للأعمال ومنها بل وأخطرها التوبة دائماً من كل الذنوب والحرص عند الوقوف في الصلاة بين يدي الله كأنها آخر صلاة أخذاً من قوله عليه السلام (صل صلاة مودع)، وملاحظة لقول بعض السلف: أنذركم كلمة (سوف) فإنها أكبر جنود إبليس.. إبليس الذي يحث على العمل لمخالفته للطبع فيقعد الإنسان أخذاً بالراحة وتجنباً للتعب فيكون قد نجح إبليس باغوائه، فأبليس في حرب دائمة مع الإنسان لإغوائه، فمن تنبه لذلك وأدرك أنه لن يتوانى عن متابعتة على كل حال، وأنه إن فتر في الظاهر كاد له في الباطن ووسوس له حتى يقعه عن الخير ويوقعه في الشر..

وبذلك انتهت دراسة كتاب تلبيس إبليس

والحمد لله رب العالمين.

٤ - دراسة كتاب تنبيه الغافلين

للفقيه الزاهد نصر بن محمد السمرقندي

١. قال سبحانه في سورة الإسراء (١٨-٢٠):

{من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً. ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك سعيهم مشكوراً. كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً.}

٢. الرجل يعمل العمل لوجه الله ولكن يحب أن يذكر بخير.. سنل عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت {فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً} (سورة الكهف ١١٠).

٣. وقال حكيم من الحكماء: من عمل سبعة دون سبعة لم ينتفع بما يعمل:

- ١- أن يعمل بالخوف (من عذاب الله) ولا يحذر (من الذنوب)،
- ٢- أن يعمل بالرجاء (لثواب الله) دون الطلب (لذلك بالأعمال الصالحة)،
- ٣- أن يعمل بالنية (لعمل الطاعات) دون القصد (أن يعمل ذلك بنفسه)،
- ٤- أن يعمل بالدعاء (إلى الله تعالى) دون الجهد (بالاجتهاد في ذلك)،
- ٥- أن يعمل بالاستغفار (إلى الله تعالى) دون الندم (على ما ارتكب من الذنوب)،
- ٦- أن يعمل بالعلانية (في إصلاح أموره) دون السريرة (بعدم الاكتفاء بإصلاحها في السر)،
- ٧- أن يعمل بالكذب (بالاجتهاد في الطاعات) دون الإخلاص (في عمل ذلك خالصاً لوجه الله تعالى).

٤. والعمل القليل الخالص لوجه الله تعالى يضاعف فيرفع عامله إلى عليين، والعمل الكثير غير الخالص لا ثواب له {وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً} (النساء ٤٠) و{من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم لا يبخسون. أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا وباطل ما كانوا يعملون} (هود ١٥-١٦).

٥. قال بعض الحكماء: يحتاج العمل إلى أربعة أشياء حتى يسلم:

- ١- العلم قبل بدئه، لأن العمل بلا علم يتعرض للفساد الكثير،
- ٢- النية في مبدئه، لأن العمل لا يصلح إلا بالنية،
- ٣- الصبر في وسطه، لأن الصبر يؤدي إلى الطمأنينة،
- ٤- الإخلاص عند فراغه، لأن العمل لا يقبل بغير إخلاص.

٦. روي عن عبدالله بن مسور الهاشمي قال:

قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية: {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً} ثم قال: (إذا دخل نور الإسلام القلب إنفسح وانشرح) فقليل: هل لذلك من علامة؟ قال: نعم (التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله).

٧. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (الشتاء غنيمة المؤمن: طال ليله فقامه، وقصر نهاره فصامه) رواه أحمد في مسنده.

٨. إن للمؤمن بشارة من الله تعالى عند موته، وهو قوله تعالى: {إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون} (فصلت - ٥٩) إذ أن معنى الآية أن المؤمنين الذين استقاموا أفعالاً وأقوالاً تتنزل عليهم عند الموت الملائكة بالبشارة فيقولون لهم: لا تخافوا ما بين أيديكم من أمر الدنيا، وأبشروا بالجنة التي وعدكم الله بها على لسان نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم (يحيى بن معاذ الرازي).

٩. عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إذا سئل المسلم في القبر، فيشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فذلك قوله تعالى: {يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة} (ابراهيم ٢٧). ويكون التثبيت في ثلاثة أحوال لمن كان مؤمناً مخلصاً مطيعاً لله تعالى:

أ- في حال معاينة ملك الموت، وهو على ثلاثة أوجه: العصمة من الكفر، وتبشير الملائكة له بالرحمة، ويرى موضعه من الجنة.

ب- في حال القبر عند سؤال منكر ونكير، وهو على ثلاثة أوجه: يلقنه الله تعالى الإجابة الصحيحة، ويحول عنه الخوف والرهبنة، ويرى مكانه في الجنة.

ج- في حال المحاسبة يوم القيامة، وهو على ثلاثة أوجه: يلقنه الله تعالى الحجة عما يسأل عنه، ويسهل عليه الحساب، ويتجاوز عن الزلل والخطايا.

١٠. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنّته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد).

١١. روى أبي هريرة رضي الله عنه أن نفخات إسرافيل عليه السلام في الصور ثلاث:

١- نفخة الفرع، وهو قوله تعالى {ويوم ينفخ في الصور، ففرع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله} (النمل ٨٧).

٢- نفخة الصعق، أي الموت، وهو قوله تعالى: {ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله} (الزمر ٦٨).

٣- نفخة البعث، وهو كثير ومنه قوله تعالى {ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون} (يس ٥١).

١٢. وقال عليه السلام: (سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، شاب نشأ في طاعة الله، رجل قلبه معلق في المساجد، رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، رجل تصدق بصدقة فأخفاها فلا تعرف شماله ما تنفق يمينه، رجل دعته امرأة ذات حسن وجمال إلى نفسها فقال إني أخاف الله).

١٣. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (إن أهون أهل النار عذاباً لرجل في رجلية نعلان من نار، يغلي منهما دماغه، كأنه مرجل، مسامعه جمر، وأضراسه جمر، وأشفاره لهب النيران، وتخرج أحشاء بطنه من قدميه، إنه ليرى أنه أشد أهل النار عذاباً، وإنه أهون أهل النار عذاباً).

١٤. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، من كذب بها لم ينلها) لأن الصغائر تذهبها الطاعات {إن الحسنات يذهبن السيئات} فلا تحتاج إلى شفاعاة أحد وإنما هي رحمة من الله تعالى.

١٥. وقال عليه الصلاة والسلام: (ما من قوم يكون فيهم رجل يعمل بالمعاصي، ويقدر أن يغيروه، فلا يغيرونه، إلا عمهم الله تعالى بعذاب قبل أن يموتوا).

١٦. ورضي الله عن أبي الدرداء كان يقول: من وعظ أخاه في العلانية فقد شانه، ومن وعظه في السر فقد زانه، فإن لم تنفع معه استعان بأهل الصلاح ليزجروه عن المعصية وإلا وقعوا هم في المعصية وعذبوا جميعاً.

١٧. وعنه عليه السلام قال: (والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن أن يبعث الله عليكم عقاباً من عنده ثم لتدعونه فلا يستجيب لكم).

١٨. وعن علي كرم الله وجهه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إذا هابت أمتي أن يقولوا للظالم أنت ظالم فقد تودع منهم).

١٩. وعن قيس بن أبي حازم قال: سمعت أبا بكر الصديق رضي الله عنه يقول: إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها في غير موضعها {يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم، إلى الله مرجعكم جميعاً} المائدة ١٠٥ - وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ولا يغيرونها إلا أوشك أن يععمهم الله بعقاب منه).

٢٠. وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (قال الله تعالى «ويح ابن آدم، يذنب الذنب فيسغفرني فأغفر له، ثم يعود فيستغفرني فأغفر له، ويح، لا هو يترك ذنبه ولا هو يبيأس من رحمتي، أشهدكم يا ملائكتي أني قد غفرت له»).

٢١. وروي عن أبي بكر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم

قال: (مأصر من استغفر، وإن عاد في اليوم سبعين مرة) وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (المستغفر باللسان، المصّر على الذنب، كالمستهزئ بربه).

٢٢. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (من تاب قبل موته بنصف يوم تاب الله عليه)، وقال صلى الله عليه وآله وسلم (من تاب قبل موته بساعة تاب الله عليه)، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (من تاب قبل أن يغرغر تاب الله عليه).

والله تعالى يقول: {وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى} - طه ٨٢ -
والله تعالى يقول: {بل يريد الإنسان ليفجر أمامه} - القيامة - فهو يقدم ذنوبه ويؤخر توبته ويقول: سأتوب..

والرسول عليه وآله السلام يقول (هلك المسوفون) والله تعالى يقول {إنما التوبة على الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب} والجهالة هي العمد، وعن قريب: كل ما قبل الموت فهو قريب. - النساء. ١٣

٢٣. وقال تعالى: {ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه، ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً} - النساء ١١٠ - ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (ما من عبد يذنب ذنباً، فيتوضأ فيحسن الوضوء، ويصلي ركعتين، ويستغفر الله، إلا غفر الله له) ثم تلا الآية السابقة..

وفي رواية أخرى أنه عليه وآله السلام تلا الآية التالية: {والذين إذا فعلوا فاحشة، أو ظلموا أنفسهم، ذكروا الله، فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله، ولم يصروا على ما فعلوا، وهم يعلمون، أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم، وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ونعم أجر العاملين} آل عمران ١٣٥ - ١٣٦

٢٤. وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً}، قال: التوبة النصوح: الندم بالقلب، والاستغفار باللسان، والاصرار أن لا يعود إليه أبداً.

٢٥. وروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (من عير مؤمن بفاحشة فهو كفاعلها، وكان حقاً على الله أن يوقعه فيها، ومن عير مؤمناً بجريمة، لم يخرج من الدنيا حتى يرتكبها ويفتضح بها) وهذا مما يستثنى منه الحاكم الظالم والفاسق المجاهر.

٢٦. تروى قصة من بني إسرائيل أن بغياً كانت يفتتن بها كل من يراها لجمالها، فرآها عابد فاقتن بها، ولما جاءها وهم بها تذكر عبادته وطاعته لربه فامتنع وأظهر خوفه الشديد من الله فأثر ذلك تأثيراً كبيراً بها حتى جعلها تقرر التوبة وتلحق به إلى موطنه، ولكنه ما أن رآها وعرفها بعد أن كشفت عن وجهها حتى شهق ومات، فحزنت كثيراً وتزوجت أخاً له كان فقيراً وأنجبت منه سبعة رجال كلهم من الأتقياء.

٢٧. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (لو علم الله شيئاً من العقوق أدنى من أف لنهي عن ذلك، فليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة، وليعمل البار ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار).

٢٨. وجاء رجل إلى الرسول عليه وآله الصلاة والسلام فقال: يا رسول الله، إن أمي خرفت عندي وأنا أطعمها بيدي، وأسقيها وأوضئها وأحملها على عاتقي، فهل جازيتها؟ قال: (لا ولا واحدة من مائة، ولكنك قد أحسنت، والله يثيبك على القليل كثيراً).

٢٩. كان شاب على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسمى علقمة، كان شديد الاجتهاد في الطاعة وعظيم الصدقة، فمرض فاشتد مرضه فبعثت امرأته إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تخبره، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علي وسلمان وعمار وبلال لعيادته فوجدوه لا يستطيع النطق بلا إله إلا الله فأرسلوا بلالاً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليخبره الخبر، فسأل عليه السلام (هل له أبوان؟)

فأخبر بموت والده ووجود أمه المسنة، فسألها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (فما حالك وحاله؟) فذكرت بأنها عليه ساخطة واجدة، قال لها: (ولم ذلك؟) قالت: يا رسول الله، كان يؤثر امرأته علي ويطيعها في الأشياء ويعصيني، فقال صلى الله عليه وآله وسلم. (سخط أمه حجب لسانه عن شهادة أن لا إله إلا الله)..

ثم هددها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحرق ابنها ليستثيرها فترضى عليه، فلانت فعلاً وأعلنت رضاها فنطق ابنها بأن لا إله إلا الله..

فأتاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأمر بغسله وتكفينه وصلى عليه ثم قام على شفير القبر وقال: (يا معشر المهاجرين والأنصار من فضل زوجته على أمه فعليه لعنة الله ولا يقبل منه صرف ولا عدل).

٣٠. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (رحم الله والداً أعان ولده على بره) أي لا يأمره بأمر يخاف منه أن يعصيه فيه.

٣١. قال عليه السلام: (اتقوا الله وصلوا الرحم، فإنه أبقى لكم في الدنيا، وخير لكم في الآخرة)، فإذا كان لك قريب فلم تمش إليه برجلك لزيارته، ولم تعطه من مالك كهدية أو صدقة، فقد قطعتة. وقال عليه وآله السلام: (صلوا أرحامكم ولو بالسلام).

٣٢. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (حق المسلم على المسلم ستة أشياء: قيل ما هي يا رسول الله؟ قال: إذا لقيته فسلم، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فأنصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه).

٣٣. قيل يا رسول الله، ما حق الجار على الجار؟ قال: (إن استقرضك أقرضته، وإن دعاك أجبتة، وإن مرض عدته، وإن استعان بك أعنته، وإن أصابته مصيبة عزيتة، وإن أصابه خير هنيئته، وإن مات شهدته، وإن غاب حفظته) يعني منزله وعياله (ولا تؤذ به بقتار قدرك إلا أن تهدي إليه).

٣٤. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر).

٣٥. جاء رجل إلى الرسول عليه وآله السلام فقال: يا رسول الله أوصني، قال: (عليك بتقوى الله فإنها جماع كل خير، و عليك بالجهاد فإنه رهبانية المسلمين، و عليك بذكر الله تعالى وتلاوة القرآن فإنه نور لك في الأرض، و ذكر لك في السماء، و اخزن لسانك إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان).

٣٦. وقال صلى الله عليه وآله وسلم (لو أن لابن آدم واديين من ذهب لتمنى إليهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب و يتوب الله على من تاب)، و قال عليه وآله السلام: (يهرم من ابن آدم كل شيء إلا اثنتين: الحرص و الأمل).

و قال عليه وآله السلام (كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل، و عد نفسك من أهل القبور) قال عليه وآله السلام (الرغبة في الدنيا تكثر الهم و الحزن، و الزهد في الدنيا يريح القلب و البدن، و ما الفقر أخاف عليكم و لكنني أخاف عليكم الغنى أن تبسط لكم الدنيا كما بسطت لمن كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوا، فتهلككم كما أهلكتهم).

٣٧. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (من كانت نيته الآخرة جمع الله شمله، و جعل غناه في قلبه، و أتته الدنيا وهي راغمة، و من كانت نيته في الدنيا فرق الله عليه أمره، و جعل فقره بين عينيه، و لم يأتها من الدنيا إلا ما كتب الله له).

٣٨. وقال عليه وآله الصلاة و السلام: (يا عجباً كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يعمل لدار الغرور).

٣٩. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (من أشرب قلبه حب الدنيا إتاط قلبه منها بثلاث: شغل لا ينفك عناؤه، و أمل لا يبلغ منتهاه، و حرص لا يدرك عناه، و الدنيا طالبة و مطلوبة، و الآخرة طالبة و مطلوبة، فمن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يستوفي منها رزقه، و من طلب الدنيا طلبته الآخرة حتى يأتية الموت فيأخذه بغتة).

٤٠. وقال عليه وآله الصلاة و السلام: (قال الله تعالى: «يفرح عبدي المؤمن إذا بسطت له شيئاً من الدنيا، و ذلك ابعده له مني، و يحزن إذا اقتربت عليه الدنيا، و ذلك أقرب له مني») ثم تلا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - هذه الآية: {أيحسبون أنما نمدهم به من مال و بنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون} أي لا يعلمون أن ذلك فتنة لهم.

٤١. و روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (إن الرجل لتكون له الدرجة عند الله لا يبلغها بعمله حتى يبئلي ببلاء في جسمه، فيبلغها بذلك).

٤٢. و روي أنه لما نزل قوله تعالى: {من يعمل سوءاً يُجْزَ به} قال أبو بكر رضي الله عنه يارسول الله: كيف الفرحة بعد هذه الآية؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله عليه

وسلم: (غفر الله لك يا أبا بكر ألسنت تمرض؟ أليس يصيبك الأذى؟ أليس تغضب؟ أليس تحزن؟ فهذا ما تجزون به) يعني أن جميع ما يصيبك كفارة لذنوبك.

وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال: لما نزلت هذه الآية خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: (قد أنزلت علي آية هي خير لأمتي من الدنيا وما فيها ثم قرأ هذه الآية: {من يعمل سوءاً يُجز به} ثم قال: (إن العبد إذا أذنب ذنباً، فتصيبه شدة أو بلاء في الدنيا، فالله أكرم من أن يعذبه ثانياً).

٤٣. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (ثلاث من رزقهن فقد رزق خيرى الدنيا والآخرة: الرضا بالقضاء، والصبر على البلاء، والدعاء عند الرخاء).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (إذا رأيت الرجل يعطيه الله تعالى ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج) ثم قرأ قوله تعالى: {فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتته فإذا هم مبلسون} يعني لما تركوا ما أمروا به فتحنا عليهم أبواب الخير ففرحوا بما أعطوا منه فأخذهم الله فجأة فإذا هم آيسين من كل خير..

٤٤. ويروي أبو هريرة رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو مستلق فقال: من أي شيء تشنكي؟ قال: (الخمص) أي الجوع، فبكى الرجل ثم ذهب يعمل، فعاد للرسول عليه وآله السلام بشيء من تمر فقال: (ما أراك فعلت هذا إلا وأنت تحبني؟) قال: أي والله إنني لأحبك. قال: (إن كنت صادقاً فأعد للبلاء جلباباً فوالله للبلاء أسرع إلى من يحبني من السيل من أعلى الجبل إلى الحضيض).

٤٥. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (من قل ماله وكثر عياله، وحسنت صلاته، ولم يغتبت المسلمين، جاء معي يوم القيامة هكذا: وجمع أصبعيه).

٤٦. وروي عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه أنه قال: ألا أخبركم بأرجى آية في كتاب الله تعالى؟ قالوا: بلى، فقرأ عليهم: {وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير} أي أن مصائب الدنيا بكسب الأوزار، فإذا عاقبه الله تعالى في الدنيا فهو تعالى أكرم من أن يعذبه ثانياً، وإذا عفا عنه في الدنيا فهو سبحانه أكرم من أن يعذبه يوم القيامة.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (ما يصيب المؤمن مصيبة حتى شوكة فما فوقها إلا عفا الله عنه بها خطيئة).

٤٧. وروي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: مات ابن لي فكتب إلي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (من محمد رسول الله إلى معاذ بن جبل - السلام عليك، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو (أما بعد) فعظم الله لك الأجر، وألهمك الصبر، ورزقنا وإياك الشكر، ثم إن نفوسنا وأموالنا وأهاليينا وأولادنا وأموالهم من مواهب الله الهنيئة،

وعواريه المستودعة، نتمتع بها إلى أجل معدود ويقبضها لوقت معلوم، ثم افترض الله علينا الشكر إذا أعطى والصبر إذا ابتلى، وكان ابنك هذا من مواهب الله الهنيئة وعواريه المستودعة متعك الله به في غبطة وسرور، وقبضه بأجر كبير إن صبرت واحتسبت.

فلا تجمعن عليك يا معاذ أن يحبط جزعك أجرك، فتندم على ما فاتك، فلو قدمت على ثواب مصيبتك عرفت أن المصيبة قد قصرت عنه، واعلم أن الجزع لا يرد ميتاً ولا يدفع حزناً فليذهب عنك أسفك بما هو نازل بك فكأن قد نزل بك، والسلام).

٤٨. وروي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (ما من مسلم يصاب بمصيبة وإن قدم عهداً فأحدث بها استرجاعاً إلا أحدث الله له مثله) أي مثل أجره وأعطاه مثل ذلك الأجر الذي أعطاه يوم أصيب بها.

٤٩. وروي أن الرسول عليه وآله الصلاة والسلام قد افتقد رجلاً كان يأتي مجلس الرسول عليه وآله السلام ومعه غلامه فقالوا له: يا رسول الله، مات ولده الذي رأيته فقال: (فهلاً أدنتموني به) يعني أخبرتموني (قوموا إلى أخينا نعزه) فلما دخل عليه النبي عليه وآله السلام إذا الرجل حزين وبه كآبة، فقال: يا رسول الله إني كنت أرجوه لكبر سنّي وضعفي.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (أما يسرك أن تأتي يوم القيامة فيقال له: أدخل الجنة، فيقول: يا رب أبواي، فيقال له: أدخل الجنة ثلاث مرات، فلا يزال يشفع حتى يشفعه الله تعالى ويدخلكم الجنة جميعاً، فذهب الحزن عن الرجل) ففي هذا الخبر دليل على أن التعزية سنة إذا أصاب الرجل مصيبة ينبغي لإخوانه أن يعزوه.

٥٠. وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (ليسترجع أحدكم في شسع نعله إذا انقطع، فإنها من المصائب). وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (من أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى: {إنا لله وإنا إليه راجعون} اللهم أجرني في مصيبتى وأعقبني خيراً منها، فعل الله ذلك به).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (الضرب على الفخذ عند المصيبة يحبط الأجر، والصبر عند الصدمة الأولى يعظم الأجر، وعظم الأجر على قدر عظم المصيبة، ومن استرجع بعد المصيبة جدد الله له أجرها كيوم أصيب بها). وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (الصبر عند الصدمة الأولى).

٥١. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (من بات طاهراً في شعار طاهر. بات ومعه ملك في شعاره، فلا يستيقظ ساعة من الليل إلا قال الملك: اللهم اغفر لعبدك فلان فإنه بات طاهراً).

٥٢. وقال عليه وآله الصلاة والسلام: (إنّ العبد المؤمن إذا فرغ من وضوئه ثم قال: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، استغفرك وأتوب إليك، يختم

بخاتم ثم يوضع تحت العرش، فلم يكسر حتى يدفع إليه يوم القيامة) وفي رواية أخرى: (إذا فرغ أحدكم من وضوئه فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، فتحت له ثمانية أبواب الجنة، يدخل من أيها شاء).

٥٣. قال رسول الله عليه السلام ليلال عند صلاة الفجر: (حدثني بأزكى عمل عملته في الإسلام، فإني سمعت الليلة خشف نعليك في الجنة، فقال: ما عملت عملاً في الإسلام عندي أزكى من أني لم أتطهر طهوراً في ساعة ليل أو نهار إلا صليت لربي ما قدر لي) وفي قول آخر (ما أحدثت إلا أوجدت الطهارة وما تطهرت إلا صليت ركعتين).

٥٤. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (ألا أخبركم بأسوأ الناس سرقة؟ قالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: الذي يسرق من صلاته. قالوا: وكيف يسرق من صلاته؟ قال: لا يتم ركوعها ولا سجودها).

٥٥. ينبغي للمصلي أن يعلم ماذا يفعل ويعرف قدره، ليحمد الله تعالى على ما وفقه، فالصلاة قد جمعت أنواع الخير من الأفعال والأذكار:

فإذا قال العبد الله أكبر، وعنى أن الله أعظم وأجل، قال عز وجل: قد علم عبدي أني أكبر من كل شيء وقد أقبل عليّ.

وإذا كبر رفع يديه إلى أذنيه، وعنى التبرئة من كل معبود سوى الله تعالى، وإذا قال (سبحانك اللهم)، فقد نزه الله عن كل سوء ونقص، (وبحمدك) أي وجه الحمد لله وحده، (وتبارك اسمك) أي جعل البركة في اسمه تعالى في ما يذكر اسمه سبحانه عليه، (وتعالى جذك) أي ارتفع قدرك وعظمتك يا رب، (ولا إله غيرك) أي لا خالق ولا رازق ولا معبود غيرك).

وإذا قال (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) فإنه طلب من الله أن يمنعه من فتنة الشيطان. وإذا قال (بسم الله الرحمن الرحيم) فإنه بدأ بذكر الله الأول، والرحمن العاطف على كل خلقه بالرزق، والرحيم البار بالمؤمنين..

وإذا قرأ فاتحة الكتاب إلى آخرها فإنه حمد الله الذي جعله من المؤمنين على طريق أنبيائه ولم يجعله من المغضوب عليهم وهم اليهود ولا الضالين وهم النصارى.

وإذا ركع تذكر أنه يخضع لله منقاداً لعظمته وطالباً عفوه ورحمته، وإذا قال سبحان ربي العظيم فإنه يتضرع إلى رب عظيم ومولى كريم، وإذا رفع رأسه من الركوع وقال: سمع الله لمن حمده فإنه يعني أن الله قد غفر لمن وحده وأطاعه،

وإذا قال ربنا لك الحمد فإنه أعلن أن الحمد لله الذي وفقه لهذا، وإذا سجد فإنه عبر بذلك عن الذل لله والاستسلام والتواضع وطلب الرحمة، وإذا قال سبحان ربي الأعلى فقد نزه الله الرب الأعلى عن أي شيء فوقه، وإذا جلس للتشهد وقرأ التحيات لله يعني الملك لله والحمد والثناء، فإذا قال التحيات عنى البقاء والملك الدائم لله تعالى،

وإذا قال والصلوات عنى ان الصلوات الخمس لله عز وجل فلا يصلى إلا له، وإذا قال والطيبات عنى ان لا إله إلا الله فهذه الشهادة له وحده وهي تعني الوجدانية لله تعالى، وإذا قال السلام عليك أيها النبي عنى أن عليك السلام يا محمد كما بلغت رسالة ربك ونصحت لأمتك، وإذا قال ورحمة الله عنى أن رضوان الله وبركاته لك فعليك البركة وعلى أهل بيتك،

وإذا قال السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين عنى مغفرة الله تعالى لنا وعلينا وعلى جميع من مضى من النبيين والصدّيقين ومن سلك طريقهم إلى يوم القيامة، وإذا قال أشهد أن لا إله إلا الله عنى أن لا معبود في السماء والأرض غيره تعالى، وإذا قال وأشهد أن محمداً رسوله عنى أنه خاتم أنبيائه وصفيه وخيرته من جميع خلقه.

وإذا صلى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ودعا لنفسه وللمؤمنين وللمؤمنات فقد أكمل ذكره، وإذا سلم عن يمينه وشماله فإنه عنى أن يا معشر إخواني من المؤمنين أنتم سالمون آمنون من شري وخيانتني إذا خرجت من المسجد.

٥٦. وروي عن الحسن البصري رحمه الله عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (للمصلي ثلاث كرامات ينتاثر البر على رأسه من عنان السماء إلى مفرق رأسه، والملائكة محفوفة من قدميه إلى عنان السماء، وملك ينادي لو يعلم العبد من يناجي ما انتقل من صلاته، فهذه الكرامات كلها للمصلي).

٥٧. جاء رجل إلى النبي عليه السلام فقال: أخبرني بعمل واحد أدخل به الجنة؟ قال: (كن مؤذناً قومك يجمعوا بك صلاتهم). قال: يا رسول الله إن لم أطق؟ قال: (كن إمام قومك يقيموا بك صلاتهم). قال: فإن لم أطق؟ قال: (فعليك بالصف الأول).

٥٨. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (يُغفر للمؤذّن مدّ صوته، وله مثل أجر من صلى معه من غير أن ينقص من أجورهم شيء) وفي حديث آخر قال عليه وآله الصلاة والسلام: (يُغفر للمؤذّن مدّ صوته ويصدقه كل ما سمعه من رطب ويابس).

٥٩. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (الإمام ضامن، والمؤذّن مؤتمن، اللهم ارشد الأئمة واغفر للمؤذنين). وسمى المؤذّن مؤتمناً لأن الناس انتمنوه في أمر صلاتهم وصومهم، وسمى الإمام ضامناً لأنه قد ضمن صلاة القوم فتفسد صلاتهم بصلاته وتصح صلاتهم بصلاته.

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (من قال مثل ما يقول المؤذّن كان له مثل أجره).

٦٠. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (يوم الجمعة سيد الأيام وأعظمها عند الله، وهو أعظم عند الله من يوم الفطر، ومن يوم النحر، وفيه خمس خصال: فيه خلق الله آدم، وفيه أهبط الله تعالى آدم إلى الأرض، وفيه توفي آدم،

وفيه ساعة لا يسأل الله فيها شيئاً إلا أعطاه الله إياه ما لم يسأل حراماً، وفيه تقوم الساعة، وما من ملك مقرب عند ربه ولا في سماء ولا في أرض إلا وهو يشفق من يوم الجمعة).

٦١. وقال تعالى {ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذيه إلا أن تغمضوا فيه، واعلموا أن الله غني حميد} أي لا تتصدقوا بالبرديء لأنه لو كان لكم مال كقرض على أحد فإنكم لا تقبلون منه السداد بالبرديء إلا إذا سامحتم وتساهلتم..

٦٢. قال صلى الله عليه وآله وسلم: (أعطيت أمتي في شهر رمضان خمس خصال لم تعط أمة قبلها: خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وتستغفر لهم الملائكة حتى يفتروا، وتصعد فيه مردة الشياطين فلا يخلصون فيه إلا ما كانوا يخلصون في غيره، ويزين الله كل يوم جنته ويقول لها يوشك عبادي الصالحون أن تلقى عنهم المؤنة والأذى ويصيروا إليك).

ويغفر لهم في آخر ليلة. قيل: يا رسول الله أهى ليلة القدر؟ قال: لا، ولكن العامل إنما يوفى أجره إذا قضى عمله).

٦٣. وقال عليه وآله الصلاة والسلام: (قال الله تعالى: كل حسنة يعملها ابن آدم تضاعف له من عشرة إلى سبعمانه ضعف إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه وشرابه من أجلي، والصوم جنة، وللصائم فرحتان، فرحة عند الإفطار، وفرحة عند لقاء ربه يوم القيامة).

٦٤. عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: إنما أخذ عمر بن الخطاب هذه التراويح من حديث سمعه مني قالوا: وما هو يا أمير المؤمنين. قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (إن الله تعالى حول العرش موضعاً يسمى حظيرة القدس وهو من النور، فيها ملائكة لا يحصي عددهم إلا الله، يعبدون الله عز وجل عبادة لا يفترون ساعة).

فإذا كان ليالي شهر رمضان استأذنوا ربهم أن ينزلوا إلى الأرض فيصلون مع بني آدم، فينزلون كل ليلة الأرض فكل من مسه أو مسوه سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً. فقال عمر رضي الله عنه عند ذلك: (نحن أحق بهذا، فجمع الناس للتراويح).

وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه خرج في ليلة من شهر رمضان، فسمع القراءة في المساجد، ورأى القناديل تظهر في المساجد، فقال نور الله قبر عمر كما نور مساجدنا بالقرآن.

٦٥. سَمِعَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: عَلِمَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَ خِصَالٍ لَا أَدْعُهُنَّ حَتَّى أَمُوتَ، أَنْ لَا أُنَامَ إِلَّا عَلَى وَتَرٍ، وَأَنْ أَصُومَ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَأَنْ لَا أَدْعَ صَلَاةَ الضُّحَى.

٦٦. جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: عندي يتيم فيم أضربه؟ قال: (مما تضرب به ولدك) يعني لا بأس أن تضربه للتأديب ضرباً غير مبرح، مثل ما يضرب الوالد ولده، ولكن إذا قدر على تأديبه دون ضرب فذاك أفضل.

٦٧. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (البر لا يبلى، والإثم لا ينسى، والديان لا يفنى، وكن لما شئت، يعني كما تدين تدان).

٦٨. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله تعالى طالباً) لأن اجتماعها كاجتماع الخشبات الصغيرة التي يوقد منها ناراً عظيمة باجتماعها.

٦٩. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (يا أيها الناس، اتقوا ربكم، ولا يظلم احد منكم مؤمناً إلا انتقم الله منه يوم القيامة).

٧٠. وقال سبحانه وتعالى: {من عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها، ثم إلى ربكم ترجعون} - الجاثية ١٥ -

وبذلك انتهت دراسة كتاب تنبيه الغافلين والحمد لله رب العالمين.

٥- دراسة كتاب تحفة الذاكرين من كلام سيد المرسلين

للإمام الشوكاني محمد بن علي

١. قال عليه السلام: (قال الله تعالى: «أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه»).

ومما كان يدعو به الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز: يا من وسعت رحمته كل شيء أنا شيء فلتسعني رحمتك يا أرحم الراحمين. ومما يدعى به: يا من كتب على نفسه الرحمة لعباده إني من عبادك فارحمني يا أرحم الراحمين.

٢. وقال عليه وآله الصلاة والسلام: (ألا أخبركم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة، وخير لكم من أن تلقوا العدو فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا بلى يا رسول الله، قال: ذكر الله).

وورد في التوضيح أن ذلك باعتبار الأشخاص والأحوال، فمن كان مطيقاً للجهاد قوي الأثر فيه فأفضل أعماله الجهاد، ومن كان كثير المال فأفضل أعماله الصدقة، ومن كان غير متصف بإحدى الصفتين المذكورتين فأفضل أعماله الذكر والصلاة ونحو ذلك. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر). ومن الرتع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر..

٣. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (ما من قوم جلسوا مجلساً وتفرقوا عنه، ولم يذكروا الله فيه، إلا كاتما تفرقوا عن جيفة حمار، وكان عليهم حسرة يوم القيامة).

فإذا حضر مسلم مجلساً من مجالس الغفلة هذه فليات بكفارة المجلس عند القيام إذ يقول كما كان الرسول عليه وآله السلام يقول: سبحانك الله وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

٤. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (لا تَعجزوا في الدعاء، فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد) وقال عليه السلام: (من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد والكره فليكثر الدعاء في الرخاء) حتى لا يقع فيما أشارت إليه الآيات الكثيرة من مثل {وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريضاً}

٥. وقال عليه السلام: (الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين، ونور السموات والأرض). وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (ألا أدلكم على ما ينجيكم من عدوكم ويدرككم أرزاقكم: تدعون الله في ليلكم ونهاركم، فإن الدعاء سلاح المؤمن).

وقال عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام: (ما من مسلم ينصب وجهه لله في مسألة إلا أعطاه إياها: إما أن يعجلها له، وإما أن يذخرها له).. وفي نص آخر (.. وإما أن يصرف عنه من السوء بمثلها).. وقال عليه وآله السلام: (إن الله حيي كريم يستحي من عبده أن يرفع إليه يده ثم لا يضع فيها خيراً) إما معجلاً وإما مؤجلاً.

٦. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة وإن دخلوا الجنة للثواب).. وقال عليه وآله السلام: (أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة).. وقال عليه وآله السلام: (من صلى عليّ واحدة صلى الله عليه عشراً) وفي نص آخر (ومحا عنه عشر سيئات، ورفع له بها عشر درجات).. وقال عليه وآله السلام: (إن لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام).. وقال عليه وآله السلام: (ما من أحد يُسلم علي إلا رد الله عليّ روحي حتى أرد عليه السلام) وقال عليه وآله السلام: (أكثروا من الصلاة عليّ يوم الجمعة فإن صلاتكم معروضة عليّ). وقال عليه وآله الصلاة والسلام: (كل دعاء محبوب حتى يُصلي علي محمد وعلى آل محمد).

٧. آداب الدعاء:

(أن يتجنب الداعي ربه الحرام في مأكله ومشربه وملبسه، وأن يخلص لله، ويقدم عملاً صالحاً، ويتوضأ، ويستقبل القبلة، ويجثو على ركبتيه، ويثني على الله تعالى، ويصلي على نبيه أول الدعاء وآخره، ويبسط يديه ويرفعهما حدو منكبيه ويكشفهما تأدياً، ويلتزم الخشوع والمسكنة والخضوع، ويسأل الله بأسمائه العظام الحسنى، ويردد الأدعية المأثورة، ويتوسل إلى الله بآبائه والصالحين بصوت خفيض، ويعلم اعترافه بذنبه، ويبدأ بالسؤال لنفسه ولكن لا يخص نفسه بالدعاء

إن كان إماماً، ويسأل بعزم ورغبة وجدّ واجتهاد، ويحضر قلبه، ويحسن رجاءه، ويكرر الدعاء، ويلح فيه، ولا يدعو بمأثم ولا قطيعة رحم، ولا بأمر قد فرغ منه، ولا بمستحيل، ويسأل حاجاته كلها، ويؤمن الداعي والمستمع، ويمسح وجهه بيديه بعد فراغه، ولا يستعجل أو يقول دعوت فلم يستجب لي). فلكل أدب من آداب الدعاء هذه دليل من الحديث النبوي الشريف، ومما ورد (إن الله رحيم كريم يستحي من عبده إن رفع إليه يديه ثم لا يضع فيهما خيراً). وفي نص آخر (إن الله حيي كريم يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبين) وقال عليه وآله السلام: (إذا سألتكم الله فاسألوه ببطون أكفكم، ولا تسألوه بظهورها) وقال عليه السلام: (إن الله يحب الملحين في الدعاء). وقد ثبت أن رسول الله عليه السلام قال في دعاء الاستسقاء عاجلاً غير رانث، فالمنهي عنه في الاستعجال أن يقول دعوت فلم يستجب لي وليس أن يستعجل الاستجابة في الدعاء.

٨. أما أوقات وأماكن إجابة الدعاء فهي : ليلة القدر، ويوم عرفة، وشهر رمضان، وليلة الجمعة، ويوم الجمعة، وساعة الجمعة، وجوف الليل، ودير الصلاة، وبين الأذان والإقامة، وبين الحيلتين (أي لا حول ولا قوة إلا بالله)، وبعد الأذان، وحين تقام الصلاة، وفي الصف في سبيل الله، وفي السجود، وبعد تلاوة القرآن، وعند قول الإمام ولا الضالين، وعند شرب ماء زمزم، وعند صياح الديكة، وعند تغميض الميت، ومع الحضور عند الميت، وعند نزول الغيث، وعند الزوال يوم الأربعاء، وعند رؤية الكعبة، وعند جميع شعائر الحج، وعند قبور الأنبياء.

٩. وأما من يستجاب دعاؤهم: المضطر، والمظلوم مطلقاً، والوالد على ولده، والإمام العادل، والرجل الصالح، والولد البار بوالديه، والمسافر، والصائم حين يفطر، والمسلم لأخيه بظهر الغيب، والمسلم ما لم يدع بظلم أو قطيعة رحم، أو يقول دعوت فلم أجب، والتائب.

١٠. وقال عليه وآله السلام: (اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطي: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) وفي حديث آخر: (اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في ثلاث سور من القرآن: في البقرة، وآل عمران، وطه) وقال أبو أمامة فالتمسها فوجدتها في البقرة في آية الكرسي (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) وفي آل عمران (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) وفي طه (وعنت الوجوه للحي القيوم).

وهناك نصوص أخرى اختلفت في تعيين الاسم الأعظم على نحو أربعين قولاً وأرجحها من حيث السند (الله لا إله إلا هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) كما قال ابن حجر، ولكن الأرجح عند الشوكاني (لا إله إلا هو الحي القيوم) وعند ابن القيم (الحي القيوم).

١١. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك ماض في حكمك، عدل في قضاؤك،

أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور بصري، وجلاء حزني، وذهب همي وغمي، إلا أذهب الله همه وغمه وحزنه، وأبدله مكانه فرحاً. قيل: يا رسول الله، ألا نتعلمها؟ فقال: بلى، ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها.

١٢. وقال عليه وآله الصلاة والسلام: (من كان دعاؤه، اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، مات قبل أن يصيبه البلاء).

١٣. قال عليه وآله السلام: (ما من عبد يقول في صباح كل يوم ومساء كل يوم: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم - ثلاث مرات - إلا لم يضره شيء).

١٤. وقال عليه وآله الصلاة والسلام: (سيد الاستغفار: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا على عهدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت) وقال عليه وآله السلام: (من قال إذا أصبح وإذا أمسى رضي بنا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً - ثلاثاً - كان من حقه على الله أن يرضيه).

١٥. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (وان ابتلي بدين أو همّ فليقل: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال).

١٦. وقال عليه وآله الصلاة والسلام: (إذا فزع أحدكم في النوم فليقل أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون، فإنها لا تضره) وكان عبدالله بن عمرو بن العاص يلقنها من عقل من ولده، ومن لم يعقل كتبها له في صك ثم علقها في عنقه لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم علمه إياها إذا فزع من النوم.

١٧. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (من سمع النداء فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، اللهم صل على محمد وبلغه درجة الوسيلة عندك واجعلنا في شفاعته يوم القيامة، وجبت له الشفاعة).

١٨. سجود التلاوة: (سجد وجهي للذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره، بحوله وقوته) - مراراً.

١٩. وكان صلى الله عليه وآله وسلم إذا قام من الليل يتهدج قال: (اللهم لك الحمد، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق، ووعدك الحق ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنبيون حق، ومحمد صلى

اللَّهُ عليه وسلم حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت،

وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بالله). وكان يكبر عشراً، ويحمد عشراً، ويسبح عشراً، ويهلل عشراً، ويستغفر عشراً، ثم يقول: اللهم اغفر لي واهدني، وأرزقني وعافني عشراً، ثم يتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة عشراً.

٢٠. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (إذا دعي أحدكم إلى وليمة فليجب، فإن كان صائماً فليصل «وليدع بالبركة» وإن كان مفطراً فليطعم)، ويظهر أن ذلك مشدد فيه إذا كانت وليمة عرس لأن النص الآخر يقول: (إذا دعي أحدكم إلى وليمة عرس فليجب، فإن كان صائماً دعا وبرك، وإن كان مفطراً أكل) وإن كان النص الثالث يقول: (إذا دعا أحدكم أخاه فليجب عرساً كان أو نحو) ولكن النص الرابع يقول: (إذا دعي أحدكم إلى طعام فليجب، فإن شاء طعم وإن شاء ترك). ويظهر التشديد في الاستجابة في قوله عليه وآله الصلاة والسلام: (شر الطعام طعام الوليمة، يدعى إليها الأغنياء، ويترك المساكين، ومن لم يأت الدعوة فقد عصى الله ورسوله) ويؤكد النص الآخر: (من دعي فلم يجب فقد عصى الله ورسوله، ومن دخل على غير دعوة فقد دخل سارقاً وخرج معيراً).

٢١. وقال عليه السلام: (ومن نسي التسمية فليقل: بسم الله أوله، وأوسطه، وآخره) وقال عليه وآله السلام: (ويدعو لأهل الطعام: اللهم بارك لهم فيما رزقتهم فاغفر لهم وارحمهم). وقال: (اللهم اطعم من أطعمني، واسق من سقاني).

٢٢. وقال عليه وآله الصلاة والسلام: (يقول المقيم لمن يودعه: أستودع الله دينك، وأمانتك، وخواتيم عملك، وأقرأ عليك السلام).. ويوصيه فيقول: (عليك بتقوى الله والتكبير على كل شرف، اللهم اطو له البعد، وهون عليه السفر).. (ويقول له المسافر: أستودعك الله الذي لا تخبى أو لا تضيع ودانعه).

ويردد المسافر: (اللهم إني أسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل الصالح ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا، واطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعشاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل والولد، وإذا رجع قالهن: وزاد عليهن: آييون، تانيون، عائدون، لربنا حامدون).

٢٣. وبين الصفا والمروة: (رب اغفر وارحم، وأنت الأعز الأكرم). وفي نص آخر: (اللهم اغفر وارحم، واعف عما تعلم، أنك أنت الأعز الأكرم، اللهم أتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار). وقال عليه وآله السلام: (خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي

سمعي نوراً، وفي بصري نوراً، اللهم اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، وأعوذ بك من وساوس الصدر، وشتات الأمر، وفتنة القبر، اللهم إني أعوذ بك من شر ما يلج في الليل، وشر ما يلج في النهار، وشر ما تهب به الرياح). فكأنه عليه وآله السلام يستعيز من تمزق أمر المسلمين، ومن شر الجاسوسية، ومن شر ما تحمله الاتصالات السلوكية واللاسلكية.

٢٤. وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا أمر أميراً على جيش، أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: أغزوا بسم الله، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمنلوا، ولا تقتلوا وليدًا).

٢٥. وإذا أرادوا لقاء عدو انتظر الإمام، فإذا مالت الشمس قام فقال: يا أيها الناس لا تمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف، اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب إهزمهم وانصرنا عليهم). وإذا أشرف على بلدهم قال: (الله أكبر، خربت - ويسمى البلد - إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين - ثلاث مرات). وإذا خاف قومًا قال: (اللهم إنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم). وإذا حصرهم عدو قال: (اللهم استر عوراتنا، وأمّن روعاتنا).

٢٦. فإذا حصل النصر سوى الإمام الجيش صفوفًا خلفه، ثم قال: اللهم لك الحمد كله، لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لما أضللت، ولا مضل لما هديت، ولا معطي لما منعت ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت ولا مباعد لما قرّبت، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسألك الأمان يوم الخوف، اللهم إني عاند بك من شر ما أعطيتنا ومن شر ما منعنا، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين والحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون بيوم الدين ويكذبون برسلك ويصدون عن سبيلك اجعل عليهم رجزك وعذابك إله الحق آمين).

٢٧. وكانت خطبته عليه وآله السلام عندما تعرض له حاجة كحاجة النكاح يقول: (إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً). وكان عليه وآله السلام يقول لمن تزوج: بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما في خير. وعندما قالوا (بالرفاء والبنين) عندما تزوج عقيل بن أبي طالب بامرأة من بني جشم قال لهم عقيل لا تقولوا هكذا ولكن قولوا كما قال الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام: اللهم بارك لهم وبارك عليهم، وفي

رواية أخرى: لا تقولوا ذلك فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد نهانا عن ذلك قولوا بارك الله فيك وبارك لك فيها. وإذا دخل بأهله فليأخذ بناصيتها ثم ليقل: اللهم إني أسألك خيرها وخير ما جبلتها عليه، وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه. وإذا أراد الجماع فليقل: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإن قدر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبداً.

٢٨. ويقول إذا رأى سحاباً مقبلاً: اللهم إنا نعوذ بك من شر ما أرسل به، اللهم سيباً نافعاً. وإن كشفه الله ولم يمطره حمد الله على ذلك. وإذا قحطوا المطر فليجثوا على الركب ثم ليقولوا: يا رب، يا رب.. وإذا رأى المطر: اللهم صيباً نافعاً، اللهم سيباً نافعاً - مرتين أو ثلاثاً. فإذا كثر أو خشى الضرر: اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام والأجام والضراب والأودية ومنابت الشجر. وإذا سمع الرعد والصواعق: اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك. ويقول: سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته. وإذا هاجت الرياح استقبلها بوجهه وجثا على ركبتيه ويديه وقال: اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به، اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً، اللهم رحمة لا عذاباً. وفي نص آخر (كان إذا اشتدت الرياح قال عليه وآله الصلاة والسلام: اللهم اجعلها لقاها لا عقيماً).

٢٩. وإذا رأى الكسوف فليدع الله وليكبره وليصلّ وليتصدق. وإذا رأى الهلال قال: الله أكبر. وفي رواية أخرى قال: اللهم أهله علينا باليمن والإيمان، والسلامة والإسلام، والتوفيق لما تحب وترضى، ربي وربك الله. وفي رواية أخرى قال: هلال خير ورشد، اللهم إني أسألك من خير هذا الشهر، وخير القدر، وأعوذ بك من شره - ثلاث مرات.

إذا نظر إلى القمر فيلقل: (أعوذ بالله من شر هذا الغاسق إذا وقب) أي القمر إذا دخل في الظلمة، أي دخل في الظل الذي يكسفه.

٣٠. وإذا لبس ثوباً جديداً قال: الحمد لله الذي كساني ما أداري به عورتى وأتجمل به في حياتي. وفي نص آخر: الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة. وإذا خلعه قال: بسم الله.

٣١. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (إذا رأى أحدكم من نفسه أو ماله أو أخيه شيئاً يعجبه فليدع بالبركة فإن العين حق). وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا رأى ما يحب قال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإذا رأى ما يكره قال: الحمد لله على كل حال.

٣٢. وكان صلى الله عليه وآله وسلم إذا رأى وجهه في المرأة قال: اللهم أنت حسنت خلقي فحسن خلقي، وحرمت وجهي على النار. وفي رواية أخرى: الحمد لله الذي سوى خلقي فعدله، وصور صورة خلقي فأحسنها، وجعلني من المسلمين. وفي رواية ثالثة: الحمد لله الذي سوى خلقي وأحسن صورتي وزان مني ما شان من

غيري. وفي رواية رابعة: الحمد لله الذي سوى خلقي وصور صورة وجهي فأحسنها وجعلني من المسلمين.

٣٣. وكان صلى الله عليه وآله وسلم إذا رأى باكورة ثمرة، قال: اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مَدَنَّا.

٣٤. وكان عليه وآله الصلاة والسلام إذا رأى أخاه المسلم يضحك قال: أضحك الله سنك.

٣٥. وكان عليه وآله السلام إذا رأى عليه ثوباً جديداً قال: تُبلى ويخلف الله. وفي رواية أخرى: أبل وأخلق، ثم أبل وأخلق، ثم أبل وأخلق.

٣٦. وكان عليه وآله الصلاة والسلام إذا رأى الحريق قال: أطفئوا الحريق بالتكبير.

٣٧. وكان صلى الله عليه وآله وسلم إذا رأى مبتلى قال: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً.

٣٨. وكان صلى الله عليه وآله وسلم إذا بشر بما يسر حمد الله، وقال عليه وآله السلام بأن المسلم إذا بشر بخير فليحمد الله وليكبر ثم ليسجد لله شكراً.

٣٩. وقال عليه وآله الصلاة والسلام: (ومن صنع إليه معروفاً فقال لصاحبه: جزاك الله خيراً، فقد أبلغ في الثناء).

٤٠. دعوة المكروب قالت أسماء بنت عميس رضي الله عنها: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ألا أعلمك كلمات تقولينهن عند الكرب: الله الله ربي لا أشرك به شيئاً - ثلاث مرات.

وإذا أصاب أحدكم هم أو مكروه روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما كربني أمر إلا تمثل لي جبريل عليه السلام فقال، يا محمد قل: توكلت على الحي الذي لا يموت، الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدن، وكبره تكبيراً. وفي نص آخر: اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت. وفي نص آخر: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث - ويكرر هذا وهو ساجد.

وفي نص آخر: لا إله إلا أنت سبحانك أي كنت من الظالمين. وفي نص آخر: من قال لا حول ولا قوة إلا بالله كانت له دواء من تسعة وتسعين داءً أيسرها اللهم.

وفي نص آخر: ومن لزم الاستغفار، ومن أكثر منه، جعل الله له من كل ضيق مخرجاً، ومن كل هم فرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب.

وفي نص آخر: إنا لله وإنا إليه راجعون: اللهم عندك أحتسب مصيبي فأجرني فيها، وأبدلني خيراً منها.

وفي نص آخر: وإن استصعب عليه شيء قال: اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلاً.

٤١. ومن ابتلي بالوسوسة فليستعذ بالله ولينته، أو ليقُل: آمَنَت بالله ورسوله.. الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، ثم يتفل عن يساره ثلاثاً، وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ومن فتنه. وإذا كانت الوسوسة في الأعمال، فإن ذلك شيطان يقال له خنزبٌ، فليتعوذ بالله منه، ويتفل عن يساره ثلاثاً.

٤٢. وإذا شُمت العاطس بـ (يرحمك الله) فليرد: (يهديكُم الله ويُصلح بالكم). وفي نص آخر: (يغفر الله لي ولكم). وفي نص آخر (يرحمنا الله وإياكم، ويغفر الله لنا ولكم). وإن كان كتابياً قيل له: يهديكُم الله ويصلح بالكم.

٤٣. وإذا طُنت أذنه فليذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وليصل عليه، وليقل: ذكر الله بخير من ذكرني.

٤٤. ومن غضب فقال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد.

٤٥. وإذا ابتلي بالدين فليقل: (اللهم اكفني بحلالك عن حرامك وأغنني بفضلك عن سواك).

وفي نص آخر: اللهم فارح الهم، كاشف الغم، مجيب دعوة المضطرين، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، أنت ترحمني فارحمني برحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك.

٤٦. ومن أصيب بعين رقي بقوله: بسم الله، اللهم اذهب حرّها وبردها ووصبها. ثم يقول: قم بإذن الله.

٤٧. وإذا زار القبور، فليقل: السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية، أنتم لنا فرط ونحن لكم تبع.

٤٨. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم).

٤٩. (سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته، سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله رضا نفسه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله مداد كلماته).

٥٠. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (أحب الكلام إلى الله: سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لا يضررك بأيهن بدأت). وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (هي أفضل الكلام بعد القرآن، وهن من القرآن). وقال عليه وآله الصلاة والسلام: (من قالها كتب له بكل حرف عشر حسنات) وقال عليه وآله الصلاة والسلام: (هي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس) وقال عليه وآله الصلاة والسلام: (إن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وإنها قيعان، وإن غراسها هذه) وقال عليه وآله الصلاة والسلام: (يغرس لك بكل واحدة شجرة في الجنة). وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (وهن مع لا حول ولا قوة إلا بالله الباقيات الصالحات، وهن يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها، وهن من كنوز

الجنة) وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (استكثروا من الباقيات الصالحات: الله أكبر، ولا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله).

٥١. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (لا حول ولا قوة إلا بالله دواء من تسعة وتسعين داء، أيسرهم الهم).

٥٢. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (من قال: رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، وجبت له الجنة).

٥٣. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (ما من مسلم يعمل ذنباً إلا وقف الملك الموكل بإحصاء ذنوبه ثلاث ساعات، فإن استغفر الله من ذنبه ذلك في شيء من تلك الساعات لم يوقفه عليه، ولم يعذب عليه يوم القيامة). وقال عليه السلام: (من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة).

٥٤. وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله أحدنا يذنب؟ قال: يُكتب عليه. قال: ثم يستغفر منه ويتوب؟ قال: يُغفر له ويتاب عليه، قال: فيعود فيذنب؟ قال: يُكتب عليه، قال: ثم يستغفر منه ويتوب؟ قال: يغفر له ويتاب عليه، ولا يَمَلُّ الله حتى تَمَلُّوا.

٥٥. وقال عليه السلام: (إن الله ختم البقرة بأيتين أعطانيهما من كنزه الذي تحت عرشه، فتعلموهن وعلموهن نساءكم وأبناءكم، فإنها صلاة وقرآن ودعاء).

٥٦. وقال عليه وآله الصلاة والسلام: (اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم وعذاب القبر، اللهم أت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها. اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها).

٥٧. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي، وأجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر).

٥٨. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (تعوذوا بالله من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء).

٥٩. وقال عليه السلام (إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء. ثم قال: (اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك) وفي رواية أخرى: (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك).

٦٠. روى أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وهو متكئ على عصاه فلما رأيناه قمنا، فقال: لا تفعلوا كما يفعل أهل

فارس بعظمتانها، قلنا يا رسول الله لو دعوت لنا، قال: (اللهم اغفر لنا وأرحمنا، وأرض عنا وتقبل منا، وأدخلنا الجنة وجننا من النار، وأصلح لنا شأننا كله).

٦١. وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كان رسول الله عليه السلام إذا نزل عليه الوحي سمع عند وجهه كدوي النحل، فأنزل عليه الوحي، فمكثنا ساعة، فسرى عنه، فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال: (اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وأرض عنا).

٦٢. وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لهم: (أتحبون أيها الناس أن تجتهدوا في الدعاء؟ قالوا نعم يا رسول الله، قال: (قولوا اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)).

٦٣. وروى بسر بن أرطأة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله عليه السلام يقول: (اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة).

٦٤. وروى ابن عمر رضي الله عنهما قال: ما كان رسول الله عليه السلام يقوم من مجلس حتى يدعو بهذه الدعوات: (اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا أبدأ ما أحبيتنا، وأجعل الوارث منا، وأجعل ثأرنا على من ظلمنا، وأنصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا).

٦٥. ومما رواه أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (اللهم إني (إنا) نسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والسلامة من كل إثم، والغنيمة من كل بر، والفوز بالجنة والنجاة من النار. اللهم لا تدع لنا ذنباً إلا غفرته، ولا همماً إلا فرجته، ولا ديناً إلا قضيته، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة هي لك رضاً إلا قضيتها يا أرحم الراحمين).

٦٦. وقال العباس: يا رسول الله علمني شيئاً أدعو الله به؟ فقال: سل ربك العافية، قال: فمكثت أياماً، ثم جئت قلت: يا رسول الله علمني شيئاً أسأله ربي عز وجل، فقال: يا عم سل الله العافية في الدنيا والآخرة.

وبذلك انتهت دراسة كتاب تحفة الذاكرين

والحمد لله رب العالمين

القسم الرابع برهان الحق

في

حقوق أهل الذمة إنجيل برنابا تقليد الغرب الدروز الموحدون

تقديم

فإن لأهل الذمة حقوقا في أعناق المسلمين، فمن يقصر في إعطائها لهم اليوم؟
وإن من تقليد الغرب نسيان الحقوق حتى للمسلمين فكيف بمن يعيشون معهم في
ذمتهم؟

وإن إنجيل برنابا ليظهر مدى الزيف الذي يصر عليه الصليبيون الحاقدون عندما
يدعوهم إلى الوحدانية الحقة والإعتراف بالدين الإسلامي الخاتم الحق ..
وإن طائفة الدروز المجهولة حقيقتها لدى القاصي والداني من المسلمين لبأس
الحاجة للتعريف بها ولا سيما أنهم يصرون على وصف أنفسهم بالموحدين ..
فيا أيها المسلمون العارفون العالمون العاملون بإسلامهم هلموا لوضع حد لهذه
المهزلة من التبعية للغرب ، ولا يلفتنكم أحد عن دينكم الحق وأنتم ترون زيف
الغرب وأكاذيبه العقائدية بشهادتهم في حق أنفسهم ، كما ترون كيف استطاع
التدخل المجوسي والهندي في إبعاد إخوانكم من أهل التوحيد من الدروز عنكم لا
لشيء إلا ليضعف من شوكنكم ويسيطر عليكم وعلى بلادكم ..
والله يرعاكم وينصركم

المؤلف

١ - دراسة كتاب حقوق أهل الذمة في الدولة الإسلامية للإمام أبو الأعلى المودودي

تقديم

جاء هذا الكتيب كرسالة ألفها أمير الجماعة الإسلامية أبو الأعلى المودودي ونشرها في مجلته (ترجمان القرآن) عام ١٩٤٨م وفي شهر أغسطس منه.

لقد كان الدافع لهذه الرسالة محاولة وضع الأحكام الشرعية، ووفقاً للمذهب الحنفي، التي تتعلق بحقوق الأقلية غير المسلمة (أهل الذمة) الباكستانيين على أثر انشاء هذه الدولة التي كان يطالب سكانها بوضع دستورها على الأسس الإسلامية. ولكن نقلها إلى العربية ونشرها كانتا بدافع وضعها بين أيدي المسلمين في كل أقطارهم ليتصدى أهل العلم والمفكرون منهم لمزيد من البحث لهذا الموضوع الحساس من جهة ولكي يصار إلى إعداد هذه الأحكام بشكلها الدستوري لتكون جاهزة للتنفيذ والتطبيق في الدولة الإسلامية حيثما قامت. حقوق أهل الذمة في الدولة الإسلامية:

تحت هذا العنوان بدأ المؤلف رسالته ليلفت نظر السامع والقارئ لهذا الموضوع الحساس، ذلك أن الدولة الإسلامية، كما يقول المؤلف، دولة تقوم على المبدأ الإسلامي، أو كما يسميها المؤلف باللغة الإنجليزية **Ideological Government** وأنها تختلف في نوعيتها عن الدولة القومية الديمقراطية الشائعة في العصر الحاضر، والتي يطلق عليها بالإنجليزية **National Democratic Government**، وهذا يعني أن بينهما فوارق بشأن مسألة حقوق الأقلية أو أهل الذمة كما يلي:

١- ينقسم سكانها إلى قسمين: قسم يؤمن بالقواعد التي قامت عليها الدولة، وهم المسلمون، وقسم لا يؤمن بها، وهم غير المسلمين؛ وهذا بالنسبة للدولة الإسلامية، وأما الدولة القومية فتقسم سكانها إلى طائفتين أو مجموعتين: الأغلبية والأقلية، حسب تسمية المصطلح المعاصر، **National Majority** و **National Minority**

٢- يتولى في الدولة الإسلامية قيادة الدفة من يؤمنون بقواعد مبدئها وإن كانت تستخدم غير المؤمنين بها في الشؤون الإدارية، وأما الدولة القومية فيفقد دفتها بجميع المناصب أبناء جنس أصحاب الأكثرية، وأما الأقلية فلا تثق بهم ولا تعتمد عليهم، وإن قلدت أحداً منهم أي منصب قيادي كان محجوراً عليه..

٣- تحدد الدولة الإسلامية حقوق سكانها من مسلمين وغيرهم بكل تحديد، بينما الدولة القومية تلجأ للنفاق فتدعي أن جميع سكانها أمة واحدة، وتساوي بينهم نظرياً على الورق ولكن التمييز الفعلي هو المعمول به بين الأغلبية والأقلية أو بين من تعتبرهم السكان الأصليين للبلاد والسكان الطارئین عليها.

٤- تحل الدولة الإسلامية مشكلة غير المسلمين بنظام محدد المعالم يضمن لهم حقوقهم المعينة Guarantee دون السماح لهم بالتدخل في نظامها الإسلامي إلا إذا ارتضى أحدهم الإسلام ديناً واتخذ له مبدأ، وأما الدولة القومية فتلجأ للحل بتدابير ثلاثة هي:

(١) إذابة هذه الأقلية بالتدرج في الأغلبية.

(٢) استخدام أساليب القتل والسلب والنفي لمحو وجود هذه الأقلية من البلاد.

(٣) وضعهم في وضعية المنبوذين..

٥- تمنح الدولة الإسلامية الذميين جميع الحقوق المقررة شرعاً لهم دون نقصان، ولها أن تزيدهم من الحقوق مالا يتعارض مع أي حكم شرعي أو قاعدة شرعية، وأما الدولة القومية فلا تمنح الأقلية إلا ما تراه الأغلبية التي من الممكن أن تنقص منها ما تشاء أو حتى تسلبها كلها، فهي رهينة معاملة الأغلبية دون أي ضمان ثابت مهما ادعت الدساتير والقوانين الوضعية.

صحيح أن دساتير الدول القومية تخول باسم (الديمقراطية) الأقليات حقوقاً متساوية مع الأغلبية ولكنها تبقى حبراً على الورق؛ بينما تبقى هذه الحقوق محددة في الدولة الإسلامية بالإطار الشرعي.

أصناف الرعية غير المسلمة:

يقسم الفقه الإسلامي رعايا الدولة الإسلامية من غير المسلمين إلى ثلاثة أصناف هي:

الأول - من يدخلون في رعية الدولة الإسلامية بعقد صلح أو معاهدة.

والثاني - من يغلبون في الحرب فتفتح بلادهم عنوة.

والثالث - من ينضمون إلى رعية الدولة الإسلامية بغير طريقي الصلح أو الحرب فهذه الأصناف الثلاثة مشتركة في الحقوق العامة مع شيء من التمييز بين الصنفين الأول والثاني يمكن بيانها فيما يلي:

المعاهدون:

تلتزم الدولة الإسلامية بالشروط التي عقدت الصلح أو المعاهدة وفقاً لها مع من يرضون الطاعة والخضوع لقوانينها، بينما تجري سياسة الدول المعاصرة في أول الأمر بحسب شروط سمحة لترغيبهم في المصالحة ثم تعاملهم بما لا يتفق معها إذا تغلبت عليهم، وهذا محرم في الإسلام مهما تعاظمت الفروق بين الفريقين مع تقادم الزمن، ذلك لأن الرسول عليه وآله السلام قال (لعلكم تقاتلون قوماً فتنظرون عليهم فينتونكم بأموالهم دون أنفسهم وابنائهم - وفي رواية فيصالحونكم على صلح - فلا

تصيبوا منهم فوق ذلك فإنه لا يصلح لكم) وفي حديث آخر (ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة)، فهذا يعني التأكيد على التزام شروط الصلح، فلا يجوز تجاوزها بأخذ أملاكهم أو غصب أبنيتهم أو تنفيذ قوانين جنائية مشددة عليهم أو التدخل في مذاهبهم أو انتهاك حرمتهم أو أي شيء آخر يخالف النص المتفق عليه، ولذلك لم يُحدد الفقهاء شروطاً معينة في الصلح واكتفوا بوضع قاعدة عامة تفرض معاملتهم حسب شروط الصلح؛ وهذا واضح في قول الإمام أبي يوسف رحمه الله «يؤخذ منهم ما صولحوا عليه ويوفى لهم ولا يزداد عليهم».

سكان البلاد المفتوحة عنوة:

وهم من يكفون عن القتال بعد اقتحام الجنود المسلمين ثكناتهم ومعسكراتهم وتفتح بلادهم، فإذا أعطوا الذمة أعطوا الحقوق المعلومة المفصلة في كتب الفقه والتي يراها الإمام عند تنفيذها عليهم مما يمكن تلخيصه فيما يلي:

- ١- عند قبول الإمام الجزية منهم يكون عقد الذمة معهم أدياً ويلزم المسلمون بموجبه بحفظ أنفسهم وأموالهم، فقد قال عمر رضي الله عنه إلى أبي عبيدة رضي الله عنه «فإذا أخذت منهم الجزية فلا شيء عليهم ولا سبيل».
- ٢- وباتجاز عقد الذمة تستمر ملكيتهم لأراضيهم ويورثونها لورثتهم من حيث جميع حقوق التصرف من بيع وهبة ورهن بحيث لا يجوز للدولة الإسلامية أن تصادر شيئاً منها.
- ٣- ويراعي مقدار الجزية حالتهم الاقتصادية، فيقل من متوسطي المستوى عن الموسرين ويكاد يندم من الفقراء ويعفى العالة منهم. فقد فرض عمر رضي الله عنه على الموسر ٤٨ درهماً وللوسط ٢٤ درهماً وللفقير ١٢ درهماً.
- ٤- وتوضع أو تفرض الجزية على الصالحين للقتال فقط Belligerents من أهل الذمة ولا تفرض على غيرهم من صبيان ونساء ومعاقين ورهبان وزمنى وعبيد وإماء.
- ٥- ويترك لهم معابدهم على حالها وإن كان يجوز أخذها، وهذا ما فعله عمر رضي الله عنه إذ يقول الإمام أبو يوسف عن المعابد «تركت على حالها ولم تهدم ولم يتعرض لها».

الحقوق العامة لأهل الذمة: وما يشترك فيه الأصناف الثلاثة من الذميين من

الحقوق هي:

(١) حفظ النفس، فدم الذمي كدم المسلم، يقتص له سواء بسواء، وقد قال عليه وآله السلام عندما قتل المسلم ذمياً (أنا أحق من وفى بدمته) ونفذ القصاص في المسلم.

ونفذ عمر رضي الله عنه ذلك عندما سلم مسلماً قتل ذمياً لأوليائه فقتلوه به. وكاد ينفذ القصاص في عبيد الله بن عمر الذي قتل الهرمزان وابنه أبو لؤلؤة المجوسي، قاتل والده عمر رضي الله عنه لولا أنه كان محرصاً لابنه. وقال الإمام علي رضي الله عنه «من كان له ذمتنا قدمه كدمنا وديته كديتنا» وقال (إنما قبلوا عقد الذمة لتكون أموالهم كأموالنا ودمائهم كدمائنا).

فالقانون الجنائي في الدولة الإسلامية يسوي بين المسلم والذمي فتضعهما في درجة واحدة، فما يعاقب عليه المسلم يعاقب عليه الذمي، فالمسلم الذي يسرق مال ذمي تقطع يده كالذمي الذي يسرق مال مسلم، والذمي الذي يقذف مسلماً يقام عليه حد القذف ثمانون جلدة كالمسلم إذا قذف ذمياً، وكذلك في إقامة حدود الزنا ولكن شرب الخمر استثنى من ذلك لدعواهم أن دينهم يجيزه لهم.

وأما القانون المدني فإن الشرع يسوي بينهم وبين المسلمين في جميع الحدود والقيود، فما هو محظور في المجال التجاري على المسلم محظور على الذمي، فالربا للطرفين سواء في الحظر، ولا يستثنى الذميون إلا في أحكام الخمر والخنزير، وحتى في هذين يغرم المسلم أي تلف الحق بهما حتى جاء في الدر المختار «ويضمن المسلم قيمة خمره وخنزيره إذا أتلفه».

٢) حفظ الأعراس، فيحرم إيذاء الذمي باليد واللسان كما يحرم ذلك في حق المسلم، وقد ورد في الدر المختار «ويجب كف الأذى عنه وتحرم غيبته كالمسلم».

٣) الأمور الشخصية، (Personal law) فإن أمور أهل الذمة الشخصية تجري بحسب قانونهم الشخصي وليس القانون الإسلامي المطبق في الدولة، فما يجيزه قانونهم الديني تجيزه لهم المحكمة الإسلامية، فمثلاً إن كان يجوز لديهم الزواج بدون شهود أو بدون مهر أو أثناء العدة أو نكاح المحارم فالدولة الإسلامية تجيز لهم ذلك، وهذا ما جرى عليه الخلفاء الراشدون وتبعهم المسلمون في ذلك في مختلف العصور التالية. ويرى أن الخليفة عمر بن عبد العزيز قد كتب إلى الإمام الحسن البصري مستفتياً «ما بال الخلفاء الراشدين تركوا أهل الذمة وما هم عليه من نكاح المحارم واقتناء الخمر والخنازير؟» فأجابه (إنما بذلوا الجزية ليتروا وما يعتقدون، وإنما أنت متبع لا مبتدع، والسلام). ولكن لو طلب الفريقان القضاء بشريعة الإسلام فحكم الشرع ينفذ عليهما، وكذلك لو كان أحد الفريقين مسلماً قضى الشرع الإسلامي بينهما، فمثلاً على المرأة النصرانية إن مات زوجها المسلم أن تقضي عدتها حسب شريعة الإسلام ويبطل نكاحها لو تزوجت أثناء عدتها كالمسلمة.

٤) الشعائر الدينية، فالقانون الإسلامي يصون حريتهم في ممارسة شعائرهم الدينية في معابدهم ومسكنهم الخاصة، ولكن للدولة الإسلامية وضع بعض القيود عليهم إن كانوا في وسط إسلامي خالص وحيث خصصت المواضع لإظهار الشعائر الإسلامية، فقد ورد في البدائع «لا يمنعون من إظهار شيء مما ذكرنا من بيع الخمر

والخنزير والصليب وضرب الناقوس في قرية أو موضع ليس من أمصار المسلمين ولو كان فيه عدد كثير من أهل الإسلام، وإنما يكره ذلك في أمصار المسلمين، حيث تقام الجمع والأعياد والحدود. وأما إظهار الفسق الذي يعتقدون حرمة كالزنا وسائر الفواحش المحرمة في دينهم فإنهم يمنعون منه سواء كانوا في أمصار المسلمين أو في أمصارهم» ولكنهم يمنعون من إخراج صليبهم وأوثانهم في أعيادهم في أمصار المسلمين كما يمنعون من الخروج في الشوارع والأسواق ضاربين الناقوس جهرة. ولكن الدولة الإسلامية لا تتدخل ضدهم لو مارسوا شعائرهم هذه في جوف معابدهم .

٥) المعابد، يمنع التعرض لما لهم في أمصار المسلمين من معابد قديمة، ويسمح لهم بتجديد ما تهدم منها في موضعه ولكن يمنعون من إحداث معابد جديدة في أمصار المسلمين ولا يمنعون من ذلك في غير أمصارهم. وإن غادر المسلمون مصراً من أمصارهم بمغادرة إمامهم له وجرى التخلي فيه عن إقامة الجمع والأعياد والحدود فلهم أن ينشئوا معابد ويظهروا الشعائر كأنها ليست من الأمصار الإسلامية أصلاً، فقد قال ابن عباس «أما مصر فقد مصرته العرب فليس لهم أن يحدثوا فيه بناء بيعة ولا كنيسة ولا يضربوا فيه بناقوس ولا يظهرها فيه خمراً ولا يتخذوا فيه خنزيراً، وكل مصر كانت العجم مصرته ففتحها الله على العرب، فنزلوا على حكمهم، فالعجم في عهدهم وعلى العرب أن يوفوا لهم بذلك».

٦) التسامح في أخذ الجزية والخراج، فقد نهى الإسلام عن التشدد عليهم في الجزية والخراج، وحث على الرفق بهم، وقد أمر عمر رضي الله عنه «أن لا يكلفوا فوق طاقتهم» ولا يلزموا من المال مالا يطيقون أداءه، ولا تباع أملكهم لدفع الجزية، فقد كتب الإمام علي كرم الله وجهه إلى بعض عماله «لا تبيعن لهم في خراجهم حماراً ولا بقرة ولا كسوة، شتاء ولا صيفاً» وكتب أيضاً بمناسبة أخرى «إذا قدمت عليهم فلا تبيعن لهم كسوة شتاء ولا صيفاً، ولا رزقاً يأكلونه ولا دابة يعملون عليها ولا تضربن أحداً منهم سوطاً واحداً في درهم، ولا تقمه على رجله في طلب درهم، ولا تبع لأحد منهم عرضاً في شيء من الخراج. فإننا إنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو، فإن أنت خالفت ما أمرتك به يأخذك الله به دوني، وإن بلغني عنك خلاف ذلك عزلتك» وكتب عمر رضي الله عنه إلى أبي عبيدة أن «منع المسلمين من ظلمهم والإضرار بهم وأكل أموالهم إلا بحلها». هذا ولم يجز فقهاء الإسلام في أمر المانعين للجزية أو الخراج إلا أن يحبسوا تأديباً وبدون أشغال شاقة، ويقول الإمام أبو يوسف «ولكن يرفق بهم ويحبسون حتى يؤدوا ما عليهم» ولكن دون إعفاء من افتقر منهم من الجزية فحسب بل يعطون من بيت المال ما يكفيهم وعيالهم، وهذا ما فعله عمر رضي الله عنه عندما اسقط الجزية عن شيخ كبير من أهل الذمة افتقر وأجرى له من بيت المال وكتب إلى أمينه «ما أنصفناه والله، أكلنا شببته ثم نأخذ منه الجزية في كبره» وأمر في رحلته إلى دمشق بعيلة المقعدين من أهل الذمة من بيت المال، ولا تؤخذ من تركة من مات وعليه جزية ولا يكلف بذلك أحد من ورثته.

٧) ثبوت الذمة، فعقد الذمة يلزم المسلمين لزوماً أبدياً ولا يلزم أهل الذمة بذلك إذ لهم أن ينقضوه متى شاؤوا، وقد ورد في البدائع «وأما صفة العقد فهو لازم في حقنا، لا يملك المسلمون نقضه بحال من الأحوال، وأما في حقهم فغير لازم». كما أن ارتكاب الذمي لأية كبيرة لا ينقضه حتى لو امتنع عن الجزية وقتل المسلم وسب النبي عليه وآله السلام وزنا بمسلمة، لأنه سيعاقب بهذه الأفعال كأحد الجناة ولا يعد خارجاً على الدولة ولا ناقضاً لعقد الذمة ولكن أمرين يخرجانه من العقد هما:

الأول: مغادرته دار الإسلام إلى دار الحرب.

والآخر: خروجه علناً على الدولة الإسلامية وأثارته الفتنة في البلاد.

٨) الضريبة التجارية، هي على أهل الذمة كأموال التجار المسلمين، فإذا بلغ رأس المال التجاري ٢٠٠ درهم أخذ منه ضريبة محصوله التجاري بمعدل ٥% بينما يؤخذ من المسلم ٢.٥%.

٩) الإغفاء من الخدمة العسكرية، فقد اعفي أهل الذمة من الخدمة العسكرية واقتصرت على المسلمين من الرعية نظراً لأن الجهاد لا يكون إلا ممن يؤمن بالإسلام ويلتزم حدوده في الحرب، وإن سمح لأهل الذمة بالمشاركة في القتال كانوا كالأجراء Mercenaries واكتفي منهم بما فرض عليهم من نصيبهم من النفقات الحربية، والتي هي الجزية التي لا تؤخذ إلا من الرجال الصالحين للقتال، حتى أنها ترد إليهم إذا عجز المسلمون عن الدفاع عنهم، وذلك ما كتبه أبو عبيدة لأمرأه أجناده قبل وقعة اليرموك: «قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم، فهذه أموالكم التي أخذناها لذلك ترد إليكم» مما غمر نفوسهم بالسرور فقال أهالي حمص «لولايتكم وعدلكم أحب إلينا والله مما كنا فيه من الظلم والغشم» وقالوا «والتوراة لن يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد».

١٠) حماية الفقهاء المسلمين، فقد كان الفقهاء المسلمون ينبرون لحماية أهل الذمة من أي ظلم يقع في العهود الإسلامية التالية للخلافة الراشدة، حتى رد الخليفة عمر بن عبد العزيز ما كان قد أخذه الوليد عبد الملك من كنيسة يوحنا وأدخله في توسعة المسجد، وأعاد يزيد بن الوليد إلى قبرص من أجلي من الذميين في عهد الوليد بن يزيد والذي كان قد استفظعه المسلمون واستعظمه الفقهاء. وكتب الإمام الأوزاعي إلى صالح بن علي عامل لبنان يحاسبه لسوء معاملته لهم عندما عاقب من لم يمالئ في الخروج مع من مالا مذكراً له بقوله تعالى {ولا تزر وازرة وزر أخرى} وبوصية رسول الله (من ظلم معاهداً وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه). فهذه الأمثلة وغيرها تظهر أن الفقهاء (حراس القانون الإسلامي) كانوا يحمون أهل الذمة من أي ظلم كان يقع عليهم.

١١) الحقوق الزائدة التي يجوز أن تعطى لغير المسلمين، وهذا مما يتناسب مع مستجدات العصر الحاضر، وهي:

(١) النيابة وحق التصويت: فمجلس الشورى يساعد رئيس الدولة الإسلامية في تدبير أمورها وتنفيذ نظامها، الأمر الذي يحرم من لا يؤمن بالإسلام من أن يتولى رئاسة الحكومة أو عضوية مجلس الشورى بأنفسهم، ولكن يجوز تخويلهم بالنيابة وحق التصويت في المجالس البلدية والمحلية Local Bodies لأن هذه المجالس لا علاقة لها بنظام الحياة، وتكون وظيفتها تدبير أمور تحقيق الضرورات المحلية.

وللتعقيب على هذا الموضوع نقول إن مهمة مجلس الشورى أو مجلس الأمة محصورة في إبداء الرأي والنصيحة، فأعضاؤه من المسلمين يتدخلون في الرأي حول الأحكام الشرعية متى أحال إليهم الخليفة أي حكم لابداء الرأي حوله، وأما غير المسلمين فإنه ينحصر رأيهم في الأمور الادارية والأعمال غير الشرعية، مما لا يجعل مجلس الشورى محصوراً بالمسلمين فقط، ويكفي حسماً لهذه النقطة أن نتذكر أن عمل مجلس الشورى أو الأمة هو عمل وكلاء عن الأمة في ابداء الرأي وليس التشريع، والذمي يجوز شرعاً أن يكون وكيلاً للذمي وللمسلم على حد سواء، ولذلك يجوز تولي عضوية المجلس لغير المسلمين كالمسلمين وإن حصر عمل غير المسلمين في ما لا يتعلق بنظام الإسلام من حيث حصر المرشحين للخلافة وانتخاب الخليفة ومبايعته ومن حيث مناقشة الأحكام الشرعية التي تحال من الخليفة أو معاونه التفويضي، وأما الأمور الأخرى التي تتصل بالأعمال الادارية التي يجوز أن يتولاها غير المسلمين فيجوز لها العضوية في مجلس الشورى.

(٢) الاستقلال الثقافي: وهنا يجوز أن يكون لغير المسلمين مجلس نيابي مستقل عن مجلس الشورى لقضاء حاجاتهم الاجتماعية وعرض وجهة نظرهم في شؤون الدولة الإدارية، فلهم في هذا المجلس أن يقترحوا القوانين الجديدة أو يعدلوا السابقة المتعلقة بأحوالهم الشخصية، وأن يقدموا شكاويهم واعتراضاتهم فيما يتعلق بنظام الدولة ومجلس الشورى، وأن يسألوا الحكومة الإسلامية عن كل ما يتعلق بهم أو بعموم الدولة.

التعقيب: فلماذا يكون لهم مجلس آخر منفصل عن مجلس الشورى أو مجلس الأمة ما دامت عضوية هذا المجلس شرعاً هي وكالة، وهي جائزة بين المسلمين وغير المسلمين من رعايا الدول؟ فليكن وجودهم غير منفصل، ومن ضمن مجلس الأمة ولكن مع حصر أعمالهم في كل ما لا يتعلق بنظام الدولة من حيث تشريعه وتنصيب من يشرعون فيه من الخليفة وولاته وعماله، وأما الأعمال الادارية وابداء الرأي في تطبيق النظام الإسلامي عليهم والشكوى من كل ظلم يلحقهم في تطبيق النظام الإسلامي من حيث إحسان التطبيق أو اساءته عليهم لا من حيث ذات التطبيق، فهذا وما يتعلق به لهم أن يشتركوا مع أعضاء مجلس الأمة المسلمين في مناقشته والاعتراض عليه أو إقراره، وبذلك لا يكون في الدولة الإسلامية مجلسان بل الكل في مجلس واحد يسمى مجلس الأمة بشقيها مسلمين وذميين بدلاً من مجلس شورى محصوراً في المسلمين ومجلس نيابي محصوراً في الذميين، وهذا عنوان وحدة فئات الأمة لا الفصل بينها.

(٣) حرية الخطابة والكتابة: فسيكون لأهل الذمة من رعية الدولة الإسلامية ما للمسلمين سواء بسواء في مجالات الخطابة والكتابة وإبداء الرأي والأفكار والاجتماع والاحتفال، كما سيكون عليهم من القيود والالتزامات ما على المسلمين أنفسهم، فلم أن ينتقدوا الدولة من رئيسها وولاتها وعمالها من حكام ومدراء دوائرها من مديريين كالمسلمين بشرط أن يكون النقد بناء، وضمن حدود القانون، ولهم أن ينتقدوا النظام الإسلامي ليس في ذاته وإنما في إحسان أو سوء تطبيقه، وهم في ذلك كالمسلمين سواء بسواء. ولل فرد منهم الحق في الانتقال من نحلة إلى نحلة غير إسلامية أخرى ولكن ليس للمسلم أن يرتد عن الإسلام لغيره وسيعاقب هو دون غيره ممن قد يكون أثر عليه في ذلك، ولن يكره أحد من أهل الذمة على عقيدة معينة غير إسلامية أو إسلامية ليعتقها، ولكنه لو اعتنق الإسلام بمحض إرادته واختياره فإنه يمنع من الردة وتسري عليه أحكام الإسلام في ذلك كالمسلم سواء بسواء.

وللتعقيب على هذا الموضوع يمكن لفت النظر إلى أن القول (بحرية) كذا وكذا فيه نوع من التأثير بالمصطلحات الغربية الديمقراطية المنادية بجميع أنواع الحريات، وبالمقابل في الفكر الإسلامي نجد مصطلح (الحق) بدلاً من (الحرية) وهو أكثر رسوخاً وأقوى اعتباراً.

(٤) التعليم: فيلزم أهل الذمة بقبول النظام التعليمي المقرر في جميع مناطق الدولة الإسلامية والتعرف على الإسلام دون إكراه على اعتناقه أو ممارسة شعائره كغيرهم من الطلاب المسلمين إذ لهم أن ينظموا أمر تعليمهم الديني في معاهد التعليم العامة أو في معاهد خاص بهم.

والتعقيب على هذا القول بأن مقتضى القبول بنظام الدولة الإسلامية التعليمية أن لا يكون أي نظام آخر غيره في الدولة. فكيف يقال أن لهم الحق بتنظيم تعليمهم الديني بغض النظر عما إذا كان في معاهد الدولة أو في معاهد أخرى خاصة بهم؟ صحيح أنهم لن يجبروا على اعتناق الإسلام ولكن من مقتضى مهمة الدولة الإسلامية في الداخل بتطبيق الإسلام على جميع الرعية أن يجعل غير المسلمين منهم يرون حقيقة النظام الإسلامي والأفكار التي تتعلق به ليروا النظام الذي يطبق عليهم ليحسن لهم أن يشكوا أو يتدمروا ضد أي ظلم يقع عليهم من عدم إحسان تطبيق هذا النظام العادل عليهم. فإيجاد نظام تعليمي ديني آخر سواء كان ضمن معاهد الدولة أو في معاهد خاصة بها غير صحيح وغير متناسق ولا متناسب مع النظام التعليمي العام والواحد في الدولة، لأنه لو سمح بمثل هذا التنظيم المنفصل عن النظام العام لأدى إلى فصل الأمة إلى طوائف وفئات، وهذا مرفوض في نظر النظام الإسلامي الواحد والموحد للأمة بجميع فئاتها وطوائفها، والهادف إلى إذابة جميع الفئات في بوتقة واحدة.

(٥) الوظائف: فلا يستثنى من حقهم في تولي الوظائف الحكومية إلا مناصب الحكم المحدودة، فلا يعاملون بأي نوع من التعصب أو العصبية، وإنما معيار الأهلية

والكفاءة هو أساس تولي المناصب الأخرى للمسلمين ولهم على حد سواء، وسيبقى لهم الحق في تولي جميع المناصب الإدارية مهما علت مثلهم مثل المسلمين تماماً، وكذلك الحال فيما يتعلق بالجندية لا يستثنى من مناصبها غير أمير الجيش وقادته وأما الجنود وضباط تدريبهم وإعدادهم غير المتصلة بالقتال مباشرة فهي مفتوحة للذميين.

التعقيب: وهنا لا بد من الإشارة إلى هذه النقطة إلى أن شروط الإدارة الثلاثة: سهولة الإدارة، وسرعة الانجاز، وكفاءة الموظف لا بد أن تتوفر في جميع الموظفين مسلمين وغير مسلمين على حد سواء، وأما القول باستثناء ما يتعلق بالقتال مباشرة في الجندية فكيف يمنع الذمي منها ويسمح له في نفس الوقت بالجندية كالمسلم وكل المناصب حتى الإدارية منها وهي لها صلة مباشرة بشكل من الأشكال في القتال؟

(٦) أعمال الكسب والمهن: من صناعة وحرف وتجارة وزراعة وغيرها من المهن مفتوحة للذميين كالمسلمين دون أي امتياز أو قيود غير ما يقيد بها هؤلاء.

(٧) الصورة الوحيدة لأمان غير المسلمين: فالحقوق المخولة أو المعطاة للذميين في الدولة الإسلامية يعطيهم إياها النظام الإسلامي وليس باعتبار مراعاة ما تعطي الدول المجاورة غير الإسلامية للمسلمين، فالإنصاف إنصاف إسلام، والعدل عدل إسلام وليس بالمقارنة مع الآخرين، ولذلك يستطيع غير المسلمين أن يطمئنوا أن حقوقهم موضع التزام حاسم لأنها أحكام يلزمنا بها الإسلام الذي نطبقه على أنفسنا كما نطبقه عليهم.. وهذا ما ينهي الظلم المتبادل بين الدول من باب المعاملة بالمثل كما يجري بين باكستان والهند، ويجعل الذمي يأمن على نفسه وماله وكل مجالات حياته كما يأمن المسلم سواء بسواء.

والتعقيب هنا لا يرد بحق مفهوم الأمان في الإسلام، إنه أن تكون رعاية الحقوق والتزام الواجبات بحماية الإسلام والمسلمين من رعايا الدولة الإسلامية ودون أي انتقاص لذلك من أي جهة أجنبية

وبذلك انتهت دراسة كتاب حقوق أهل الذمة في الدولة الإسلامية

والحمد لله رب العالمين.

٢ - نظرات في إنجيل برنابا

تحقيق: سيف الله أحمد فاضل

تقديم الدراسة

كان برنابا أحد تلامذة السيد المسيح الإثني عشر الذين اختارهم لصحبته، والذين أطلق عليهم لقب الحواريين، كما يقول العهد الجديد من الكتاب المقدس، وأنه كالبعض الآخر منهم كتب مارآه وسمعه من المسيح عليه السلام، وإن اختلفت آراؤهم في كثير من الأمور بما فيها شخصيته، الأمر الذي جعل الكنيسة الرومانية المسيطرة آنذاك تجمعها وتختار ما ظنته صالحاً منها وتحرق الباقي، وقد وصفت تلك الأناجيل المرفوضة بالمزورة، ولم تظهر للوجود إلا عام ١٧٠٩م بعد أن زال التعصب الديني من أوروبا حين ظهر مخطوط «إنجيل برنابا» الذي ترجمه نائب المطران لونسدال راغ وقرينته إلى الانجليزية عام ١٩٠٧م والذي ترجمه منها إلى العربية المؤرخ خليل سعادة وقام بنشره محمد رشيد رضا.

والجدير بالذكر أن هذا المخطوط يتفق مع القرآن الكريم بأن السيد المسيح بشر مرسل من الله، وأنه عليه السلام لم يُصلب، وأن من كان سيذبح هو اسماعيل وليس اسحاق كزعم اليهود، وأنه يبشر بإرسال محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولكنه من جهة أخرى يشتمل على خلافات معه مما يؤكد أن واضعه الأصلي يستحيل أن يكون من المسلمين كما يدعي أغلب المستشرقين والتي منها الترقيم في أول الجمل، كما هو الحال في «الكتاب المقدس» وليس في آخر الجمل، كما هو الحال في القرآن الكريم. ويقول المحقق في نهاية مقدمة الطبعة الثانية لهذا الكتاب التي كتبت عام ١٩٨٢م بأن ما ورد في «إنجيل برنابا» من تعاليم له أصل إلهي بغض النظر عما يشوبها من أخطاء، وما ذلك إلا لأن الله تعالى لم يخص إلا القرآن الكريم بالحفظ.

مختصر تحقيق انجيل برنابا

لم يكن تلامذة السيد المسيح الإثنا عشر يدونون ما ينقله إليهم عن جبريل عليه السلام من كلمات الله تعالى إليه بل كانوا يعتمدون على ذاكرتهم، مما جعل من الصعب التمييز بين ما أوحى به تعالى لعبده ورسوله ابن مريم عليه السلام وبين الشروح التي كان يتكلم بها السيد المسيح وبين تاريخ حياة السيد المسيح وسيرته ومعجزاته التي أوردتها الأناجيل.

ورفض المحقق اعتماد منكري انجيل برنابا على التاريخ نظراً لكثرة الأخطاء التي ترد فيه: فالقول مثلاً بطريقة تعبئة الخمور في براميل وأنها لم تكن معروفة في فلسطين، هذا القول لا يعتمد عليه في الإنكار لأن برنابا لم يسكن في فلسطين إلا متأخراً

من عمره، وأنه كتب ذلك من البيئة القبرصية التي ساكنها ليخاطب سكان أوروبا المعتادين على ذلك، وخطأ تاريخي آخر بتحديد عمر النسخة الإيطالية من ورقتين تختلفان في الصقل عن بقية أوراق النسخة، وخطأ تاريخي ثالث أن كاتب الهوامش العربية للنسخة الإيطالية هو نفسه كاتب الانجيل مع أن دوره لايزيد عن التعليق على مايراه مسجلاً من ترجمة وذكر اسم من أسماء الله تعالى تناسب المسطور، ولكن المعلومات التي دونها تؤكد أنها ممن عاش في القرون الأولى وهو ذو دراية بالعبرية لترجمة بعض كلماتها الواردة في النسخة الإيطالية إلى العربية، ويذكر أنبياء بني إسرائيل بأسمائهم كما يذكر اسم المدينة التي بشر بها ابراهيم عليه السلام، ويستعمل ألفاظاً تركية الأصل مما يجزم أنه من بني اسرائيل الذين عاشوا في تركيا في ذلك العهد المتقدم جداً عن الإسلام، وإن وجد احتمال واضح أن ممن كتبوا الهامش العربي من اطلع على القرآن الكريم فكان من المتأخرين بعد الإسلام، وهذا لا يؤثر لكثرة الكتابة على الهامش.

وأما القول بأن النسخة الإيطالية واحدة في ما ترجم إلى الاسبانية وإلى العربية فهذا لا يستقيم لتفاوت الترجمات في الطول وفي بعض المعلومات مما يجزم أن النسخة الإيطالية المترجم عنها إلى العربية هي الأقرب إلى العهد القديم وليست من القرون الوسطى. ثم أن انجيل برنابا يتضمن جميع الأحداث الواردة في الأناجيل مجتمعة دون التفريق بين الأناجيل، كما يتضمن تفاصيل عن حياة السيد المسيح لا يحيط بها إلا من كان مقرباً جداً إليه إذ نجده يعرف اسم الجبل الذي صعد عليه (طابور) ويعرف أن مريم سالومة هي أخت مريم العذراء..، كما يتضمن تفاصيل وأحداث أخرى لم يوردها أي من الأناجيل الأخرى، كما يظهر أن كاتب انجيل برنابا ليس على دراية بتاريخ الرسالة الإسلامية إذ يشير لقرب ظهورها مع أنها ظهرت بعد أكثر من ستمائة سنة، ويشير أن نبي الإسلام سيحارب النصارى وهذا لم يقع لأنه حارب اليهود وليس النصارى، ويشير إلى أنه سيحارب من يقولون أن ابن مريم أعظم من إنسان، وهذا لم يقل به اليهود الذين حاربهم الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم.. وكل ذلك وأمثاله يؤكد الاطلاع الواسع لكاتب انجيل برنابا بتاريخ المسيح عليه السلام وجهله بتاريخ الرسالة الإسلامية، مما يجزم أنه كان على صلة وثيقة بالسيد المسيح عليه السلام وأنه لاصلة له بالمسلمين مطلقاً.

أما اسم برنابا ومعتقداته كما يرويها كتاب النصارى المقدس فهو يوسف ولقبه تلامذة المسيح برنابا أي ابن الوعظ (أعمال الرسل ٤ : ٣٦)، وهو الذي عرف التلاميذ بايمان بولس بعد أن كانوا يخافونه لاضطهاده لهم (أعمال الرسل ٩ : ٢٧، ٢٦)، وهو مشهود له في الكتاب المقدس بالصلاح إذ أرسل للوعظ في أنطاكية (أعمال الرسل ١١ : ٢٤، ٢٣)، ومعروف أن تلاميذ المسيح كانوا يحصرون وعظهم في اليهود (أعمال الرسل ١١ : ١٩) ... ثم يورد أمثلة على أعمال اليهود بمخالفة شريعة موسى عليه السلام ودعوة النصارى لعدم العمل بها لأن عيسى عليه السلام ينقضها وإنما لأن

اليهود لا يعملون بها، وإن عملوا بشيء منها فللرياء فقط بين الناس. ثم يذكر بأن مشاجرة وقعت بين بولس وبرنابا انفصلا على أثرها (أعمال الرسل ١٥: ٣٩)، ويرد في (أعمال الرسل ١٦: ٣) أن بولس قد ختن تلميذاً يدعى تيموثاوس، وذكر في رسالته إلى غلاطية في الإصحاح الثاني (أنه أؤتمن على أنجيل الغرلة) مع أنه يقول بأن بطرس وبرنابا مرانيان، ويقول في الإجماع السادس من نفس السفر بأن من يأمران بالختان لا يحفظون الناموس بل يريدون أن يفتخروا في الأمم، مما يكشف أن الختان كان أحد أسباب الخلاف بين بولس وبرنابا، ولكن مشايخ بني اسرائيل لم يصدقوا ارتداد بولس عن كتاب موسى وظنوا أنها مجرد إشاعة فقط.

أما من هو بولس هذا؟ أنه شاول الطرسوسي الذي كان يضطهد من يؤمن بالسيد المسيح عليه السلام ويرضى بقتله (أعمال الرسل ٨: ١، أعمال الرسل ٩: ١٣، ١٤)، وكان يتلون بحسب من يكلمهم: فهو فريسي مع الفريسيين، ويهودي مع اليهود، وتحت الناموس (نصراني) مع من تحت الناموس، وبلا ناموس مع من بلا ناموس (الرسالة الأولى إلى كورنثوس ٩: ٢٠، ٢١) وكان يقول (كونوا بلا عثرة لليهود وللليونانيين ولكنيسة الله، كما أنا أيضاً أرضي الجميع في كل شيء) - (في نفس الرسالة الأولى إلى كورنثوس ١٠: ٣٢)، وأنه بهذا استحق لعنة السيد المسيح عليه السلام للمنافقين، ويذكر أنه كان يمجده نفسه دائماً، وأنه يرى وجوب أن يخدعكم أكثر مما حدث فعلاً، وأنه كان يبشر بأن المسيح هو ابن الله، وأن كل الأطعمة طاهرة، وأنه لالزوم للختان، وأنه كان ينسب إلى نفسه ما قاله المسيح عليه السلام، وأنه أباح شرب الخمر وأمر بها (الرسالة الأولى في تيموثاوس ٥: ٢٣)

وينتهي المحقق إلى القول بأن ما وصف به بولس في انجيل برنابا يطابق تماماً ما ورد في كتاب النصراني المقدس، ولا تؤثر العداوة الشديدة التي أبرزها برنابا ضده في مقدمته وخاتمته بحكمه عليه إذ يبرئه من القول بأن السيد المسيح إله.

ونعود لمعتقدات برنابا أو كاتب انجيل برنابا فنجده يدين بالوحدانية المطلقة لله تعالى، ولكنه يوشك أن يسقط في الشرك عندما يتحدث عن شفاعاة عباد الله الصالحين دون أن يربطها بإذن الله تعالى لأن طلبها من المخلوق أو باسم مخلوق شرك. ثم أننا نجده لم يعترض على سجود المجوس للمسيح عليه السلام مع أن السجود ينبغي ألا يكون لغير الله تعالى بغض النظر عن إمكانية قبول ذلك لتعودهم السجود للأصنام، وأما الذي لا يمكن قبوله من قبل أي مسلم فهو الركون لغير الله من كل صديق، إذ ذكر أن مريم العذراء وتلامذة المسيح قد ركعوا أمام الملائكة المقربين، ودعوا الله تعالى بأنه أبوهم مما يناقض القرآن الكريم... وهناك الكثير من المناقضات للقرآن التي لا تسمح بأن يكون كاتب هذا الانجيل مسلم وعلى علم بالقرآن الكريم.

وأما بالنسبة لشريعته فالصلاة التي يبشر بها لا ركوع ولا سجود ولا قيام فيها، فهي ليست من الصلاة في الإسلام في شيء وإن جاءت تشبه الذكر بعد الصلاة في

الإسلام. وأما الصيام فهو يختلف عما في الإسلام إذ هو من نجمة الصباح إلى نجمة المساء ودون تحديد في أيام معلومة. وأما التصدق فهو عام ودون تحديد بصدقة الزكاة المفروضة في الإسلام. وأما الجهاد في سبيل الله فهو يأمر به حتى الموت كما يذكر القرآن الكريم عن رسالة السيد المسيح. ويحرم القتل والسرقة والزنا، كما في القرآن الكريم، ويحرم اللحوم النجسة دون بيان لها. ويحلل العمل يوم السبت كما يذكر ذلك في القرآن عن السيد المسيح، ويتحدث عن طهارة مريم العذراء التي يعتبرها اليهود خاطئة إذ يقولون المسيح ابن يوسف أو يسوع ابن يوسف (انجيل يوحنا ١: ٤٥، ٤٦: ٤).

وفي الوقت الذي يورد انجيل برنابا أسماء كثير من أنبياء بني إسرائيل، مما ينفي أن كاتبه من المسلمين وإنما هو من بني إسرائيل القدماء، فإنه يوضح في مقدمته أنه لا يعتمد كتاب النصارى المقدس مرجعاً في إنجيله لأنه يتناقض معه في بعض الألفاظ الدالة على العقيدة، فمثلاً يقول على لسان أشعيا (صوت صارخ في البرية أعدوا طريق طريق الرب) بينما نجد هذا النص في العهد الجديد (صوت صارخ في البرية أعدوا طريق الرب) فقد قلب المعنى بشطب كلمة (رسول). ومن ناحية أخرى يخالف ما في القرآن الكريم عندما يصف القول بأن المسيح ابن الله هو كفر شديد بينما يعتبره القرآن الكريم شركاً فقط، كما لم يلعن من ظهر من الفئات الأخرى التي أشار إليها القرآن الكريم من أمثال مجمع نيقية الذي انعقد لتحديد شخصية المسيح عليه السلام بعد أن جاهر آريوس بإنسانيته اعتماداً على آراء سابقه، ولكن المجمع المذكور رأى بايعاز من قسطنطين الوثني تأليه السيد المسيح بناء على رؤيا رآها بطريرك الإسكندرية وحده ولعن فيه السيد المسيح آريوس !! مع أن آريوس هذا كان له مشايخون في فلسطين ومقدونية والقسطنطينية وكنيسة أسيوط، أي في جميع المناطق التي بشر فيها المسيح وتلاميذه مما يجزم أن رأيهم هو رأي المسيح نفسه.

ثم يورد المحقق مجموعة من التناقضات بين انجيل برنابا وبين القرآن الكريم منها القول بأن الله روح، مع أن الروح من خلق الله وعباده، وأنه تعالى مبارك، وكان غيره قد باركه، وإنما هو «تبارك» وغير ذلك كثير، مما يجزم عدم معرفة كاتب ذلك الإنجيل بالقرآن والإسلام، وأنه برنابا أحد تلامذة المسيح الإثني عشر والاثني عشر والثمانين على الأقل، وأن إنجيل برنابا ليس إلا أقوال وأعمال المسيح عليه السلام خلال الفترة التي عاشها منذ حوالي ألفي سنة كما كتبها برنابا نفسه، وأن ما لحقه من أخطاء ليس إلا نتيجة تأخر كتابته لما بعد رفع المسيح، وإلى نسخه وترجمته أكثر من مرة.

ولا ننسى ما أورده التاريخ بأن إنجيل برنابا قد كان لدى الأتراك في أول عهد العثور عليه، مما يوضح سبب إيمان سكان تركيا والحبشة برسالة النبي صلى الله عليه وسلم فور تبشيرهم بها لأنهم كانوا من أهل الكتاب الذين وصفهم القرآن الكريم بحسن الاستقبال لرسالة النبي، وأن ما أورده إنجيل برنابا قريب مما ورد في إنجيل (متى)..

وينهي المحقق قوله بأن القارئ سيرى موقفه في مقالتيه (لا إله إلا الله) و(اليوم الآخر) التي تقارن بين كتب المسلمين واليهود والنصارى فيما تتفق به

وتختلف، وأنه سيبقى ينشد الحق حيثما كان ولو على لسان كذوب وإن كان كتاب الله القرآن الكريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

مختصر مقدمة مترجم إنجيل برنابا للعربية

يقول الأستاذ خليل سعادة، مترجم إنجيل برنابا للعربية، بأنه قد أقدم على ذلك فقط خدمة للتاريخ وغيره على اللغة العربية، وأنه تجنب المناقشات الدينية المتعلقة بذلك إلى أهلها.

ويذكر بأن هذا الإنجيل قد نقل عن نسخة إيطالية محفوظة في مكتبة بلاط فينة، وأن ورقها من النوع الإيطالي وليس التركي، مما يرد الزعم بأن كاتبها مسلم، وأن هذه النسخة الإيطالية قد عثر عليها كريمر أحد مستشاري ملك بروسية عام ١٧٠٩م في مكتبة أحد مشاهير أمستردام حيث كان يقيم في ذلك الوقت، ثم أهداها كريمر عام ١٧١٨م إلى البرنس إيوجين سافوي لولعه بالعلوم والآثار جنبا إلى جنب مع الحروب والسياسة، ثم انتقلت بعدها عام ١٧٣٨ مع مكتبة البرنس إلى مكتبة البلاط الملكي في فينة حيث ما تزال هناك حتى الآن. وهناك نسخة إسبانية وجدت في مطلع القرن الثامن عشر وترجمت إلى الإنجليزية عام ١٧٨٤م، وبالمقارنة بينها وبين النسخة الإيطالية يظهر التطابق إلا في أمرين هاميين أحدهما أن النسخة الإيطالية تذكر أن يهوذا خانن وقد غير الله شكله بعد أن رفع السيد المسيح ليكون شبيهاً له لم يشك تلامذته عندما فاقوا من نومهم بأنه المسيح، إلا أن الإسبانية تقول بأن بطرس قد شك بأن يهوذا هو يسوع، وذكرت عزرائيل أحد الملائكة الذين حملوا يسوع من النافذة.

ويذكر المستشرق سايل أن النسخة الإسبانية مترجمة عن الإيطالية من قبل مسلم يسمى مصطفى العرندي، الذي لا يعرف عنه شيء مطلقاً، ويقول سايل بأن لها مقدمة يذكر بها مكتشف النسخة الإيطالية، وهو راهب لاتيني يسمى فرامرينو، بأنه عثر على رسائل ايريناويوس تندد إحداها بالقدّيس بولس تبعاً لإنجيل برنابا، مما جعل هذا الراهب في شغف من العثور على هذا الإنجيل، حتى عثر عليها في مكتبة البابا سكتس الخامس بالصدفة، مما جعله يعتنق الإسلام.

والراجح أن الهوامش العربية على تلك النسخة الإيطالية بغض النظر عما لحقها من تصحيف، كانت من يهودي أندلسي اعتنق الدين الإسلامي بعد تنصره وإطلاعه على أناجيل النصارى، كما يرجح المترجم، لأسباب كثيرة يوردها في مقدمته منها نوع التجليد العربي الذي يغلفها، ولتلاقي الملاحظات مع النصوص القرآنية.

وبالنظر في إنجيل برنابا يظهر التباين بينه وبين الأناجيل الأربعة المشهورة في أمور جوهرية هي:

١- أنكر يسوع ألوهيته، وأنه ابن الله، على مرأى ومسمع من ستمائة ألف جندي ومن سكان اليهودية أي القدس من رجال ونساء وأطفال.

٢- وأن اسماعيل هو الابن الذي عزم ابراهيم على تقديمه ذبيحة لله وليس اسحاق كما يزعم اليهود.

٣- وأن مسيا أو المسيح المنتظر ليس يسوع بل هو محمد، الذي ورد اسمه صريحاً في فصول عديدة، وأنه رسول الله، وأن آدم رأى اسمه مسطوراً فوق باب الجنة عندما طرد منها بأحرف من نور (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

٤- وأن يسوع لم يصلب بل حمل إلى السماء، وأن يهوذا الخائن هو الذي صلب لأنه شبه به.

مختصر مقدمة ناشر إنجيل برنابا بالعربية

لقد أجمع مؤرخو النصرانية على كثرة الأناجيل في القرون الأولى للمسيح عليه السلام، ولكن الكنيسة اختارت منها أربعة ورفضت الباقي، وسبقني هذا الحال ما بقي التقليد مسيطراً على عقولهم، أما عندما يعملوا العقل والنزاهة فإن هذه الأناجيل سيعاد النظر فيها وفي الالتزام بها وذلك من خلال إعادة تلك الأناجيل المرفوضة للحياة بالبحث والدراسة والمقارنة.

لاشك أن إنجيل السيد المسيح واحد، فيه تقويم ما اعوج من بني اسرائيل وبشارة بمن يجيء بعده ليتم دين الله الذي نقله رسله وأنبيأوه كل لقومه تبعاً لاستعدادهم وواقعهم. وأما لماذا كثرت الأناجيل في العهود الأولى فذلك بسبب كثرة من كتب سيرته وسماهما إنجيلاً لما فيها من وعظ وهدى دعا إليه الناس.

فكان «إنجيل برنابا» أحد تلك الأناجيل. وبرنابا كان أحد حواربي السيد المسيح الذين يلقبهم رجال الكنيسة بالرسل. وقد صحبه بولس فترة من الزمن مع أن تلاميذ السيد المسيح لم يكونوا يثقون بإيمان بولس لشدة عداوته لدينهم، واستمر الحال كذلك حتى عرفه برنابا إليهم وعرفهم به، ولكن هذا البولس قد انفرد بتعليم جديد مخالف لما تلقاه الحواريون عن المسيح وإن كانت تعاليمه هي التي سادت وانتشرت وصارت عماد النصرانية، حتى يذهب بعض علماء الغرب بأن إنجيل مرقس وإنجيل يوحنا هما من وضعه كما تذكر دائرة المعارف الفرنسية، ولذلك لا غرابة أن تعتبر الكنيسة إنجيل برنابا غير قانوني وغير صحيح. ويذكر التاريخ أن أقدم منشور ورد فيه ذكر إنجيل برنابا هو الذي أصدره البابا جلاسيوس الأول عندما أوردته ضمن الكتب المحرم قراءتها، وهذا البابا كان في أواخر القرن الخامس الميلادي، أي قبل بعثة نبينا المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم. وبقيت نسخة إنجيل برنابا في عالم الغيب حتى ظهرت منذ قرنين فقط لتعتبر كنزاً ثميناً، ولولا عصر النهضة وحرية الرأي الذي اكتسح أوروبا لما ظهرت تلك النسخة، مما جعل بعض علماء الإنجليز ينبرون لترجمتها للإنجليزية، وأهديت نسخة مترجمة منها للناشر فسارع الدكتور خليل سعادة للاستجابة لرغبة الناشر فترجمها للعربية. وقد أورد

أن الهوامش العربية على النسخة من المحتمل أنها للراهب فرامرينو نفسه بعد أن حملته دخوله الإسلام لتعلم العربية وكتابة تلك الهوامش بلغة ركيكة مليئة بالأخطاء.

وأما ورود اسم (النبي محمد) عليه وآله الصلاة والسلام صريحاً فقد رآته عقولهم أنه يستبعد أن يرد قبل ظهور الإسلام بحجة أن البشارات تكون بالكنايات وإن كان المتدينون العالمون لا يستنكرون ذلك في خبر الوحي، حتى نقل الشيخ محمد بيرم عن رحالة إنجليزي أنه رأى في دار الكتب البابوية في الفاتيكان نسخة من الإنجيل مكتوبة بالقلم الحميري قبل الإسلام وفيها يقول المسيح (ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) بهذا النص المطابق تماماً للقرآن... وكم من حق سيظهر لو أخرجت تلك الأنجيل والكتب الممنوعة منذ القرون الأولى إلى النور...

صحيح أن علماء أوروبا قد أعملوا أبحاثهم في الأنجيل الأربعة فتيينوا أنه لا يعرف متى كتبت، ولا بأي لغة ألفت، وقال بعضهم بأن مؤلفيها غير معروفين، وأتهم بعضهم بولس بأنه وضع أكثرها، وقال بعضهم بأن أصول تعاليمها مأخوذة من الأديان الوثنية.

تقديم الإنجيل الصحيح لعيسى المسمى المسيح

وذلك في عشر كلمات من إنجيل برنابا مرقمة كما يلي:

١. برنابا رسول يسوع الناصري المسمى المسيح يتمنى لجميع سكان الأرض سلاماً وعزاء.
٢. أيها الأعزاء إن الله العظيم العجيب قد افتقدنا في هذه الأيام الأخيرة بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى.
٣. مبشرين بتعليم شديد الكفر.
٤. داعين المسيح ابن الله.
٥. ورافضين الختان الذي أمر به الله دائماً.
٦. مجوزين كل لحم نجس.
٧. الذين ضل في عدادهم أيضاً بولس، الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى.
٨. وهو السبب الذي أسطر لأجله ذلك الحق الذي رأيته وسمعته أثناء معاشرتي ليسوع كي تخلصوا ولا يضلكم الشيطان فتهلكوا في دينونة الله.
٩. وعليه فاحذروا كل أحد يبشركم بتعليم جديد مضاد لما أكتبه لتخلصوا خلاصاً أبدياً.
١٠. وليكن الله العظيم معكم، وليحرسكم من الشيطان ومن كل شر أمين.

ومجمل النظرات بجميع الفصول:

- بغض النظر عما يشبه وما لا يشبه ما في الفكر الإسلامي بجميع مصادره مما في هذا الكتاب المنسوب إلى برنابا أحد تلاميذ السيد المسيح، في اعتبار بعضهم، فإن التحفظ يقتضي عدم الوقوف عند كل ما ورد فيه إلا للعلم...
- إن التحفظ يفرضه قول الرسول عليه وآله الصلاة والسلام عندما رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتدارس ما في التوراة فنهاه عن ذلك قائلاً (ألم أت بها بيضاء نقية، والله لو لحقتني أخي موسى لما وسعه إلا اتباعي) أي أن رسالة الإسلام المتمثلة في أوامر الله ونواهيه في مصدرها القرآن والسنة قد جاء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بها بيضاء لم يلحقها أي غش ولا ظل، ونقية لم يصبها أي تحريف ولا تشويه ولا تغيير... ولحدثة عمر والصحابة أجمعين بالإسلام فقد نهاه عن دراسة التوراة حتى لا يتأثر بها في شيء ولا سيما أن القرآن الكريم فيه قصص الأنبياء السابقين مما تستثير أسئلة عما جرى في تلك القصص مما لم يرد إلا مجملاً في القرآن.
- لولا أن إنجيل برنابا هذا، كما يطلق عليه في هذه الترجمة ولو مع شيء من التحفظ، فريد بين الأناجيل لما فيه من إلزام المؤمنين به بالإيمان برسول الله محمد عليه وآله وسلم لما وجد لديّ مثل هذا الحرص على مدارسته بهذا الشكل، ولو مع تلك النظرات التي حرصت في كثير من الفصول على إيرادها.
- ولا بد من استكمال الجهد هنا بإيراد تلك النظرات التي جاءت تعقيباً على المانتين والاثنتين وعشرين فصلاً التي اشتملت عليها نصوص الإنجيل أو أكثريتها تجنباً للتكرار: ففي الفصل الثاني يقول بأنها (اتخذت لها عشيراً من عشيرتها قويم السيرة يدعى يوسف) وذلك خوفاً من أن يرحمها - أي العذراء مريم - قومها بتهمة الزنا لأنها كما يقول حملت دون زوج. فماذا يعنى بالعشير غير الزوج؟! ويؤكد هذا المعنى قوله في نفس الفصل (امرأتك) بالإشارة إليها! فهل هذا زواج بعد الحمل والولادة؟!
- وتكرر هذه الإشارة في الفصل التاسع عندما تقول له أمه (فقد نشدتك وأبوك ثلاثة أيام..) فكيف تسأله ذلك وهي تعلم أنه لا أب له؟!
- ويرد تأكيد جبريل عليه السلام ليسوع عليه السلام أولاً في الفصل الثالث عشر بأنه (لن يموت حتى يكمل كل شيء - أي من رسالته- ويمشي العالم على وشك النهاية..) مما يشير إلى مضمون الأحاديث النبوية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأنه سينزل قبيل نهاية العالم من السماء ليحكم بالإسلام ويملا الأرض به عدلاً بعد أن ملئت جوراً.
- وكيف يحول (الماء خمراً) في عرس بعد أن نفذ الخمر كما ورد في الفصل الخامس عشر و الخمر نجس كما اللحم النجس الذي منع منها؟!

- ونفى يسوع عليه السلام في الفصل ١٧ أن يكون لله أب أو أم أو أبناء أو أخوة أو عشراء.. فكيف ينسب هو كابن لله تعالى؟! إنه يؤكد هنا لتلاميذه بأن (الكتبة والعلماء قد أبطلوا شريعة الله بنبواتهم الكاذبة..) مشيراً إلى ما لحق من نبوته من كذب وتحريف...
- وفي الفصل التاسع عشر بدأ يذكر لتلاميذه بأن أحدهم شيطان دون أن يحدده لهم مشيراً إلى يهوذا الاسخريوطي الذي خانه لدى الرومان.
- وفي الفصل العشرين بدأت محاولات كتبة وعلماء بني إسرائيل لقتله عندما (حاولوا إلقاءه من شفا جرف...).
- وفي الفصل ٢١ التقى اليسوع عليه السلام بامرأة كنعانية قريباً من صيدا فطلبت منه أن يشفي لها ابنتها المريضة، فقال لها (إني لم أرسل إلا إلى شعب إسرائيل) ... مما يؤكد ما لحق بالنصرانية من تحريف عندما أخذت توجه للشعوب الأخرى.
- وفي الفصل ٢٢ ذكر أن كل غير مختون نجس وأن شعب إسرائيل ظاهر بالختان.. فكيف تصر النصرانية على عدم الختان؟! مما يؤكد التحريف.
- وتؤكد الفصول ٢٥، ٢٤، ٢٣ وكثير غيرها على ضرورة الفصل بين الجسد و الروح بعدم الاستجابة للشهوات الجسدية وإنما للأشواق الروحية مما يخالف الإسلام بدليل الآية {وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا} وقوله عليه وآله السلام (غني شاكِر خير من فقير صابر)..
- وفي الفصل ٢٨ يذكر أن جبريل عليه السلام قد حمل إبراهيم عليه السلام من النار ليسلم من الحرق مما يخالف نص القرآن الكريم عندما يذكر بأن الله تعالى أمر النار {بإنا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم} ولم يحمله الملاك ..
- وفي الفصل ٣٤ كيف (اشتد بغضبهم - الكتبة و الكهنة - له لأنه ندد بتقاليد الشيوخ، وأخذوا يترصدون الفرصة ليقتلوه..) مما يؤكد مكرهم وكيدهم القديم المتوارث ضد أنبياء الله والشعوب الأخرى.
- وفي الفصول من ٣٥ إلى ٤١ تتحدث عن خلق آدم وحواء وعصيانهما لله بأكلهما الثمار المحرمة بغواية الشيطان، وأن من الملائكة من استجاب لإبليس فعصوا الله فسخهم إلى شياطين، وهذا يخالف النص الصريح في القرآن الكريم بأن الملائكة {لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون} كما أنها تشير إلى الله تعالى وكأنه مخلوق وقد لا يعلم مما أمامه شيئاً..
- وفي الفصل ٤٤ يؤكد إسماعيل عليه السلام هو الذي أمر والده إبراهيم عليه السلام بذبحه وليس اسحقاً عندما قال (خذ ابنك بكرك إسماعيل واصعد به الجبل لتقدمه ذبيحة).. فكيف يكون اسحق هو البكر وإسماعيل كان ابن سبع سنين عندما ولد اسحق؟!.. إنه تحريف علمانهم وكهنتهم لكتاب الله تعالى.. ثم

يشير هذا الفصل إلى مجيء المصطفى محمد عليه وآله السلام فيما بعد لييسر كل ما صنع الله للإنسان.

- وفي الفصل ٤٩ ذُكر اليسوع عليه السلام الكتبية من شعب إسرائيل بالعدل حسب التوراة.. مما يدل على أنه كان يعود للتوراة عند الحكم و القضاء لخلو الإنجيل.
- وفي الفصول ٥٣ إلى ٦٠ تتحدث عن يوم الحساب وما يلاقيه الكفار والعصاة من عذاب.. مما يلتقي مع الفكر الإسلامي في كثير من الأوصاف.
- ويتحدث الفصل ٦٣ عن رفض مدينة السامرة دخوله واتباعه إليها لشراء الخبز، وأنه لم يقابل شرهم بالدعاء عليهم بالهلاك بل بالتوبة... مما يشبه دعاء الرسول عليه السلام لقومه (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)..
- ويكرر الفصل ٦٦ بأن الملائكة تخطئ.. مما يخالف صريح القرآن المار ذكره.
- ويتحدث الفصل ٦٩ عما كان يلاقيه يسوع عليه السلام من عنت الكهنة و اتباعهم مما يشبه المنافقين في عهد الرسول المصطفى محمد عليه وآله السلام وإن كان الرومان يشبهون كفار قريش إلى حد ما.
- وفي الفصل ٧٠ يشير إلى تأثير وسوسة الرومان بأن يسوع إله، وأنه كما قال بطرس أحد تلامذته (ابن الله) مما جعل يسوع يغضب منه غضباً شديداً ويطرده ويلعنه لولا تضرع بطرس و التلاميذ الآخرين ليقبل اعتذاره ويعفو عنه.
- وفي الفصل ٧٢ يكرر يسوع عليه السلام الإشارة ليهوذا الاسخريوطي ولكنه لم يخبر تلاميذه عنه، كما يكرر الإشارة لمجيء المصطفى عليه وآله السلام الذي يكسر الأصنام..
- وفي الفصول من ٧٣ إلى ٨٠ يجري التحذير من مكائد الشيطان بالحرص على الفكر السليم و القلب المخلص و العمل الصالح معاً وذلك بمداومة الإتصال بالعلم و الشريعة وأقوال الأنبياء و الربط بين العلم و العمل.. وفي ذلك تماثل مع الفكر الإسلامي وإن كان هذا يربط الفكر و العمل بما في الإسلام فقط..
- ويتكرر في الفصل ٨٢ الحديث عن مجيء مسيا الذي يجيء بعده لينقذ العالم وهو محمد عليه وآله السلام.
- وفي الفصل ٨٨ يركز يسوع وصاياه على الرحمة في الإصلاح وليس القسوة و الخشونة.. مما يشبه الإسلام.
- وفي نفس الفصل ٨٨ يوصي بضرورة وجود الرؤساء ليكونوا حكماً وقضاة ضد الشر و الفساد، وأن لهم وحدهم حق محاكمة الآخرين وإيقاع العقاب بالمجرمين.. مما يشبه لزوم الإمارة و القضاء في الإسلام.
- وفي الفصل ٩٠ يؤكد بأن بالإيمان يتخلص الإنسان من العثرات، وأن بترك المعاصي تتحقق له الخيرات.. مما يشبه ما في الإسلام.

- وفي الفصل ٩٢ طرد يسوع الجموع القادمة من يهودا لاستقباله بحجة أنهم يرونه إلهاً لهم، طردهم لأنهم استقبلوه بالسجود له و القول: مرحباً بك يا إلهنا، وطردهم قائلاً: انصرفوا عني أيها المجانين، وكان ذلك منهم بسبب فتنة الرومان لهم حتى انقسموا بين قائل بأنه الله، وقائل بأنه ابن الله، وقائل بأنه نبي الله.
- يواصل يسوع عليه السلام في الفصل ٩٣ تعنيفهم وتوبيخهم بشدة لكلامهم بأنه إله، ويلعن الشيطان الذي أضلهم... ويشهد السماء والأرض على براءته من قولهم وأنه إنسان مولود من امرأة بشرية فانية، وأنه معرض لحكم الله ومكابد لشقاء الأكل والنوم والحر والبرد كسائر البشر.
- ثم يحمل في نفس الفصل ٩٣ على رئيس الكهنة الذي جاء ليسجد له بحجة إخماد الفتنة ويصرخ فيه: هل أمست النبوات شريعة الله نسياً منسياً أيتها اليهودية الشقية (أي مدينة أورشليم) التي ضللتها الشيطان؟! مما يدل على مدى سرعة انحرافهم عن شريعة الله تعالى استجابة للجماهير المفتونة..
- وأكد في الفصل التالي ٩٤ للملك و الحاكم الرومانيين بأن ما يفعله لا يفهمونه كمعجزات فوق البشر، وذكر الإسرائيليين بما كان يجري من معجزات مع موسى وغيره من الأنبياء وهم بشر ولم ينكر ذلك أحد.. فكيف ينكرونه هم منه ويرونه إلهاً؟!!
- وفي الفصل التالي ٩٥ يؤكد أمام الجموع الرومانية والإسرائيلية حقيقة الله الذي يؤمن به وأنه بلا بداية ولا نهاية، ولا يرى ومحجوب عن إدراك العقل وغير مركب ولا متغير، وأنه غير محدود، وأنه لا حاجة له للأكل ولا نوم، وأنه لا يلحقه نقص.. مما يشبه ما في الفكر الإسلامي حول الذات الإلهية..
- وفي نفس الفصل ٩٥ دعا الشعب للتوبة عن خطئهم لأنه بشر منظور وكتلة طين تمشي على الأرض وفان كسائر البشر... مما جعلهم يبكون مما يستنكر كيف جرؤ مؤتمر نيقية فيما بعد على إلغاء ذلك؟!!
- ويؤكد للكاهن الأكبر في الفصل ٩٦ بأنه يسوع بن مريم من نسل داود، وأنه بشر سيموت، وأنه يخاف الله ويطلب أن يعطى الإكرام والمجد لله تعالى وحده.. وخطب بذلك للجموع المفتونة.. ثم أكد مجيء مسيا من الجنوب، أي مكة، وأنه سيبيد الأصنام وعبدها ويزيل سلطة البشر من الأرض.. وكل ذلك إشارة للمصطفى محمد عليه وآله السلام.
- وفي الفصل ٩٧ يؤكد يسوع عليه السلام، كما يزعم هذا الكتاب هنا، بأن (اسم مسيا عجيب لأن الله سماه لما خلق نفسه) وهذا القول مناقض للفكر الإسلامي الذي يرفض القول بخلق الله تعالى لنفسه لأن هذا يعني أن الله سبحانه لم يكن موجوداً قبل أن يخلق... ثم أن هذا القول مناقض لما سبق أن ذكره يسوع عليه السلام كما ورد في الفصل ٩٥.

- وفي نهاية هذا الفصل ٩٧ يصرح بأن اسم مسيا هو محمد، وعندها يصرخ الجمهور: يا الله أرسل لنا رسولك، يا محمد تعال سريعاً لخلص العالم.
- وفي الفصل ٩٨ يتخذ مجلس الشيوخ كما يذكر قراراً يمنع بموجبه القول بأن يسوع هو الله أو ابن الله وإنما هو نبي ورسول فقط، ويعلق القرار في الكنائس.. فكيف عبث من عبث بذلك؟! سنرى.
- وفي الفصل ٩٩ أمرهم يسوع عليه السلام بإخلاص الحب لله تعالى وعدم حب أي شيء آخر من المال و الولد و الزوج مثله.. وهذا القول يلتقي مع الفكر الإسلامي في ذلك.
- وفي الفصول من ١٠٠- ١٠٥ أخذ يدعو تلاميذه لوعظ الناس بالتوبة الصادقة مما قالوه من خطيئة الكفر بأنه الله أو ابن الله (تعالى عن ذلك علواً كبيراً).
- وفي الفصل ١٠٦ يشرح لتلاميذه بأن الإنسان مكون من جسد ونفس (ويقصد بها الروح) وحس، ويبين لهم أن النفس تصاب بالغم الشديد عند الخطيئة فيفارقها الحس الحقيقي المشابه للذة الجنة، وأن علاج ذلك التغذية بالملذات الروحية لا الجسدية.. ولا ندري هل هذا من بيان السيد المسيح أم من الفلسفة الإغريقية القديمة أم من الجمع بينهما.. لأن النفس بنص القرآن الكريم تعني الفرد من البشر بفطرته وغرائزه {ونفس وما سواها} أي الإنسان نفسه بجسده وروحه، {كل نفس ذائقة الموت} أي كل إنسان بذاته فإنه يموت بمفارقة الروح للجسد.. و الروح هذه سر الحياة الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.. وأما الحس فإنه سبيل اللذات كلها بخيرها وشرها عندما تعبر الغرائز عن طريقه إلى مظاهرها المختلفة في الحياة.. وعندها يتدخل الدماغ السليم بما لديه من مخزون الفكر السليم ليووجهها إلى الخير وفق أوامر الله تعالى ونواهيته المعروفة لديه أو إلى الشر بالخروج عن تلك الأوامر و النواهي..
- وفي الفصول من ١٠٧ إلى ١١١ يشرح ويؤكد لتلاميذه ضرورة الحزن على الخطيئة ثم الصوم ليموت الحس بالملذات الخاطئة و الأخذ بالملذات الروحية ثم باستمرار يقظة التائب لذكر الله على كل حال حتى لا يسمح بتسلل الشيطان إلى عقله وقلبه.. وفي ذلك مما يلتقي مع الفكر الإسلامي الذي يرى أن الصوم وجاء ووقاية للإنسان من المحرمات..
- وفي الفصل ١١٢ ينفرد يسوع عليه السلام بتلميذه برنابا بعد أن صرف الآخرين لطلب الثمار من الحقل ليأكلوا، ويقول له بأن يخبر العالم بعد موته بأن أحد تلاميذه يبيعه بثلاثين قطعة للحاكم الروماني، وأن هذا التلميذ سيقتل شر قتله باسم يسوع بعد أن يصعده الله من الأرض ويغير منظر الخائن ليظن بأنه يسوع نفسه.. وفي هذا لقاء مع قوله تعالى في القرآن الكريم {وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم}..

- وفي الفصول من ١١٣ إلى ١٢١ يؤكد لتلاميذه ضرورة العمل وتجنب الكسل مع التحذير من الشهوة التي تعمي البصيرة، ومع الحذر من النظر بشهوة، و الحذر من الإعجاب بأي مخلوق ونسيان خالقه ، والحذر من الكلام الباطل و المزاح الذي ينسي الخطيئة والاستمرار في سبيل التائب.. وفي ذلك كله ما يلتقي مع الفكر الإسلامي.
- وفي الفصل ١٢٢ يحذر تلاميذه من البخل ولزوم تحويله إلى تصدق لأن في ذلك صرفاً للملذات الدنيوية إلى الملذات الروحية... وهذا ما يلتقي مع الإسلام.
- وفي الفصل ١٢٣ يعظ تلاميذه بالحديث عن تركيبة الإنسان من تراب وهواء وماء ونار، كما يقال في الفلسفة الإغريقية، وأن الحس منتشر في الجسد كله ولكن النفس في القلب حيث تتحد مع الحس فتحكم الحياة كلها، وأن العقل هو النور الذي يجمع الجسد و الحس و النفس لخدمة الله.. وأن الشيطان يغوي العقل بالحس فيفقد راحته ومسرتة.. ثم يقول لهم بأنه بتدخل رحمة الله ينور له عقله من جديد فيعرف الخير من الشر ويعود للتوبة.. وأن على الإنسان أن يستمع لكل من يدعو إلى الله وكلام الله وطاعة الله..
- فلو تخيلنا عن آثار الفلسفة الإغريقية في هذا الكلام المنسوب للسيد المسيح، وتركنا تحديد مكان النفس التي يقصد بها الروح من أنها في القلب، وأعدنا النظر في معنى العقل من أنه نور.. ونظرنا نظرة موضوعية فاحصة للإنسان لوجدناه جسداً تحركه الحواس بما تعبر عنه من مشاعر الغرائز و الحاجات العضوية ويوجه العقل حركته وفقاً لمخزونه الفكري وقناعاته في هذا الطريق أو ذاك.. فإذا كان المخزون و القناعة مع الله تعالى سار في طريق رضاه وإلا فلا.. وعليه فهو بحاجة دائمة لهذا المخزون..
- وفي الفصل التالي ١٢٤ يلزم تلاميذه بالاستماع للصادق و الكاذب ولكن فقط قبول الحق الذي يلتقي مع كتاب موسى، ويحذرهم من الفساد الذي يلحق بذلك الكتاب وأن مجيء رسول الله ويقصد محمداً عليه وآله السلام هو لإزالة الفساد الذي يلحق بالإتجيل.. وهو في ذلك يؤكد النسخ بين الشرائع وأن خاتمتها الإسلام الذي لا نسخ له..
- ويعود الحديث في الفصلين التاليين ١٢٥ و ١٢٦ عن البخل وضرورة تحويله إلى صدقة لخدمة الله وحده، وليعبر بذلك عن التوبة التي تلازم الإنسان مدى حياته في حال الخطيئة، و الخطيئة مستمرة مع الحياة.. والتوبة إذن مستمرة مع الحياة.. ثم يشير الفصل ١٢٦ إلى تأمر الكهنة و الكتبة لقتله بحجة أنه يطمح للحصول على ملك إسرائيل، وأن ذلك كان يجري سراً لخوفهم من العامة.. فهذا مما يكشف شأن المتسلطين المستغفلين في كل عصر..
- وفي الفصل ١٢٧ دعاهم لدوام التوبة إلى الله تعالى مبرراً ذلك بقوله (لأن ما تحت الشمس كله خطيئة) ولأن جسد الإنسان وحسّه (لا يطلبان إلا الإثم و

الخطيئة..) ولا ندري معنى (كله خطيئة) مع أن تحت الشمس مواعظه الخيرة ومخالفاتها الشريرة! ثم لماذا حصر مطالب الجسد و الحس بالإثم والخطيئة مع أنهما كما ذكر سابقاً مجتمعان مع النفس بتوجيه أو بنور العقل كما يقول؟! فلا ندري مدى صحة نسبة هذا القول للسيد المسيح عليه السلام..

• ويواصل في الفصل ١٢٨ موعظته بمجاهدة النفس ومعرفة الخطايا والحدز من الرومان الذين يزعمون أن يسوع هو الله.. ويكرر التنبيه لهم بأنه زائل وفان ولا يملك أن يخلق ذبابة.. كما يكرر لزوم التوبة وعدم الإصرار على الذنب والافتخار بالطاعة فهل استمعوا له واستمروا ورفضوا ما يخالف ذلك؟! بالطبع لا، بشهادة ما فعله اتباع بولس في مؤتمر نيقية كما يرد لاحقاً..

• وفي الفصلين ١٢٩ و ١٣٠ يعظ بالتخويف من الغطرسة و الكبر التي طردت إبليس من الجنة.. ثم يرد ذكر أنه خلص شخصاً اسمه سمعان من البرص وخلص مومس من الخطيئة وذلك بإيمان كل منهما.. وفي ذلك ما يشبه الفكر الإسلامي إذ بالإيمان الحق بالإسلام تسقط ما قبله من الذنوب.. وأما المومس فلها عقوبة الزنى إذا كانت قد اعترفت بذلك..

• وفي الفصل ١٣١ يحذرهم من الكبرياء وأن يكونوا في خدمة الله شديدي التواضع أكثر من فقير أمام ملك.

• وفي الفصول ١٣٢ و ١٣٣ و ١٣٤ يضرب لتلاميذه الأمثال ليراعوها أثناء وعظهم للناس فيضعوا الزرع في الأرض الخصبة، بمعنى للناس المصغين له الحريصين عليه، ولا يزرعون على الحجارة، بمعنى من عميت عيونهم واصلبت عقولهم ضد رؤية الحق وتلقيه، ثم ليحرصوا على رعاية الثمر الجيد، بمعنى رعاية من يصغي لهم ويأخذ عنهم ليحموه من غواية الشيطان التي تلاحقه لتهدم ما بنوه في نفسه، ثم ليحرصوا على قول الحق ولا يجاملوا فيه أحداً.. وفي ذلك كله مما يلتقي مع الإسلام إلى حد بعيد..

• وفي الفصل ١٣٦ (ذكر لتلاميذه بأن كل الخلق يذهبون إلى الجحيم) ولكن بعدها ينال كل واحد منهم ما يستحقه : فالأنبياء والأطهار لمجرد المشاهدة وليس للمكابدة، والأبرار يكابدون الخوف، ورسوله تعالى ليشاهد عدل الله، و المؤمنون يعذب كل منهم حسب عمله ثم يخرج للجنة، مما يشبه الإسلام.

• وفي الفصل ١٣٧ أكد لهم بأن من مات على دين الإسلام يخرج من النار إلى الجنة ولو لم يعمل أي عمل صالح قبل موته.. وهذا من رحمة الله وفضله التي يشير إليها الإسلام و القرآن.

• وفي الفصول ١٣٨ إلى ١٤١ يعظ تلاميذه بعدم الحرص على الدنيا ومتاعها والعيش فيها مهما عرضت المناصب عليهم، وبالحرص على موت الطاهرين والخروج من هذه الدنيا دار الإبتلاء إلى الآخرة دار الجزاء بأمن وسلام،

وبالحرص على السير في وسط الطريق الآمن لا على جانبيه المعرضين لخطر الأعداء.. وفي ذلك كله زهد في الدنيا ورهبانية ما رعوها حق رعايتها كما نص القرآن الكريم..

• وفي الفصل ١٤٢ بيان لمكيدة يهوذا الخائن مع رؤساء الكهنة و الكتبة و الفريسيين ليسلموه للرومان ليقتلوه مقابل مبلغ معين وذلك بحجة أنه يصر على تحكيم شريعة موسى عليه السلام دون تحريف، وأنه يقول بأن مسيا سيأتي من نسل إسماعيل لا داود، وأن الفداء كان بإسماعيل لا بإسحاق... وفي ذلك شبهة بالإسلام ولكن دون ذكر أسماء..

• وفي الفصل ١٤٣ استنكر عليه الفريسيون الذهاب مع عشارين وخطاة فأخبرهم بأنه ذهب ليشفي المرضى.. والاستنكار كان جزءاً من المكيدة ضده.

• وفي الفصل ١٤٤ استنكر عليهم هو بأنهم لو كانوا فريسيين حقيقيين، أي خدمة لله، لما انزعجوا لذهابه للخطاة، وأنه عليهم أن يكونوا فريسيين بالفعل لا بمجرد الاسم.. وفي ذلك وجوب الجمع بين القول و العمل الذي يلزم به الإسلام {كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون}.

• وفي الفصل ١٤٥ ارد هجومهم لأنه اعتبرهم فريسيين غير حقيقيين، ودعاهم لسبق الآخرين في الالتزام بكتاب إيليا الذي يلزم بالتواضع في اللباس و الخضوع لله وفق شريعة موسى... مما يختلف عن الإسلام لفرض الثوب الخشن و النوم القليل والبغض للنفس..

• وفي الفصل ١٤٦ يؤكد للفريسيين بأن من العشارين والزناة والخطاة من يدخل الجنة قبل من يحسبون أنفسهم من الأبرار، مشيراً إليهم، مما يثير حنقهم عليه أكثر.. وفي هذا كالإسلام حث على تلاقي ظاهر الإنسان وباطنه.

• وفي الفصل ١٤٧ يشرح لهم قيمة التائب عند الله الكبيرة بمثل يضربه لهم.. ثم يؤكد لهم علمه بمكيدة رئيس الكهنة ضده في اليهودية، وأنه لا يخاف من مكيدته بل من الله تعالى وحده..

• وفي الفصول من ١٤٨ إلى ١٥١ عرفهم الفرق بين الفريسي خادم الله الحقيقي وذاك الدعي الخبيث الذي يخفي شره بوشاح من العلم والدين.. مشيراً إلى ما يلتقي به مع الإسلام في حق العلماء الأدياء و المترلفين بالذات للحكام طلباً للمكاسب و المنافع الدنيوية العاجلة، وضرب لهم مثلاً بأخوين أحدهما تعلم الكثير من تدبره لخلق السموات والأرض والنزوم به و الآخر لم يتعلم ولم يلتزم إلا بمتاع الدنيا.. وشتان بينهما!

• وفي الفصل ١٥٣ وضح للكهنة و الفريسيين بأن للصوصية معان كثيرة منها من يقول بأنه سيفعل غداً فعلاً دون أن يقول إن شاء الله.. فهذا يلتقي مع قوله تعالى {ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله} ولكنه لم ترد آية علاقة بالصوصية في نظر الإسلام وإن وردت بحق المنشغل عن صلاته..

- وفي الفصل ١٥٤ بين للفريسيين بأن الله قد خلق الإنسان حراً على فعل ما يريد وخلصه لنفسه أو إيقاعها في اللعنة ولم يخلقه على شكل غير قادر على تجنب الخطيئة، وفي هذا يلتقي مع مفهوم الإسلام في قوله تعالى {ونفس وما سواها. فآلهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها}.
- وفي الفصل ١٥٥ أكد للكهنة أن الله قد خلق الإنسان بحرية وإرادة واختيار مما يظهر فيه رحمته تعالى وفضله لأنه بحريته يمكنه مقاومة الشر وفعل الخير فيصنع مصيره بنفسه.. فهذا المعنى يلتقي مع مفهوم الإسلام.
- وفي الفصل ١٥٩ بين لتلاميذه بأن الخطيئة تنشأ عند مخالفة أمر الله.. وهذا يلتقي مع مفهوم الإسلام.
- وفي الفصل ١٦١ يبين لتلاميذه معنى بأنه لا يوجد شر لم يصنعه الله بأن الشر هذا هو حسب تسمية العالم شراً والحقيقة لا يعرفها الإنسان.. وهذا مفهوم الآية {وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم و الله يعلم وأنتم لا تعلمون}.
- ويواصل في الفصول التالية من ١٦٢ إلى ١٦٦ بيان مفهوم القضاء والقدر من أن الله تعالى لم يجبر أحداً على فعل خير أو شر وإنما أودع فيه حرية الاختيار من فضله ورحمته وهو بها يختار ويتحمل مسؤولية الاختيار.. وهذا يلتقي تماماً مع الفكر الإسلامي الواضح السليم.
- وفي الفصل من ١٦٩ - ١٧٨ يحدثهم عن الجنة ونعيمها والتائب الذي يستحقها.. وفي هذا ما يلتقي في الكثير مع الإسلام.
- وفي الفصلين ١٨٠ و ١٨١ بيان جزاء المحسن بإحسانه و المسيء بإساءته وأن على الإنسان أن لا يقول (أني استحق) لأن ما وهبه الله له لا يقارن بما يستحقه لولا رحمة الله وفضله .. وهذا يلتقي مع الإسلام.
- وفي الفصول الثلاثة التالية يحدثهم عن التواضع الحقيقي بأن يكون الإنسان كالطفل الصغير أمام عظمة الله وفضله وإحسانه.. مما يلتقي مع الإسلام.
- وفي الفصول من ١٨٥-١٨٨ يؤكد لتلاميذه أن الإنسان لا يفسده الزمن وإنما تفسده أعماله لوقوعه في الخطيئة، وأن على الإنسان أن ينخلع من كل ما يملك إذا لم يستطع خدمة الله إلا بذلك.. وفي هذا التأكيد نفي لعقيدة النصارى بأن الإنسان يولد مخطئاً وأن المسيح قد ضحى به الله ليكفر عن ذنوب البشر المخطئين المقرين بذنوبهم.. كما أن هذه العقيدة لا نجد لها وجوداً في هذا الإنجيل المنسوب لبرنابا وأما التخلي عن الأملاك خدمة لله فهذا مما يخالف الإسلام بشكل عام وإن استثنيت بعض المواقف الفاصلة عندما تبرع أبو بكر رضي الله عنه بجميع ماله لتجهيز جيش العسرة وأقره الرسول عليه وآله السلام كما أقر من تبرع بجزء من ماله..

- ويؤكد الفصل ١٨٩ بأنه أرسله الله لبني إسرائيل لأنهم أفسدوا كتاب موسى بالتحريف و التغيير، وأصبحوا لا يسمعون إلا كلام أحبارهم المفسدين بدلاً من الرجوع لكتاب موسى المخالف لهم.. وفي هذا تأكيد لمعنى التحريف الذي ذكره القرآن بحقهم {يحرّفون الكلم عن مواضعه}..
- وفي الفصول الثلاثة التالية طلب يسوع عليه السلام من الكاتب المؤمن الصادق أن يقول الحق الذي يعرفه من كتاب موسى، فعبر عن خوفه من الناس لو صرح بحقيقة مسيا من أنه ابن إسماعيل وليس إسحاق ، وأنه الذي سيخلص العالم.. مما يكشف عن صدق إشارة كتاب موسى إلى محمد عليه وآله السلام التي ذكرها القرآن الكريم، وأن أحبارهم قد حرفوا ذلك وطمسوه..
- ويحدثهم في الفصول ١٩٤-١٩٨ عن الموت وأن التائب يحيى ولا يموت لأنه لا موت في الجنة، وأن في الموت أعظم العظة.. وفي ذلك ما يلتقي مع الإسلام.
- وفي الفصل ٢٠٠ يطلب الأتان ولكن تلاميذه يحضرون الأتان والجحش معاً، فهل هناك اضطراب في الترجمة؟!
- وفي الفصل ٢٠١ أراد الفريسيون إحراج يسوع عليه السلام بالحكم في زانية: فإن خلصها خالف شريعة موسى التي تأمر بالرجم وإن دانها خالف شريعته التي تأمر بالرحمة، فقال لهم : من كان منكم بلا خطيئة فليكن أول راجم لها. فخرجوا من ذنوبهم وخرجوا جميعاً.. فأمرها بالذهاب ملتزمة التوبة قائلاً: لأن الله لم يرسلني لأدينك.. وهذا يؤكد النسخ بين الإنجيل و التوراة ولو في بعض الأحكام، كما أنه يخالف حكم الإسلام في حق الزانية المقررة بذنبها وهو إما الرجم إذا كانت متزوجة، كما حصل مع الغامدية، وإما الجلد مائة جلدة..
- وفي الفصل ٢٠٣ حذر مدينة أورشليم لعدم حبها له ونسيانها ما حصل بمصر وفرعونها لإصرارها لعدم حبه وهو الذي أرسله ربه إليها ليضمها إلى محبة الله خالقها، وأكد لها بأنها ستبكيه كثيراً وأنها لن تغفلت من العقوبة عندما تأتيها الجيوش فتدمر كبرياتها وتقتل شيوخها وأراملها وأطفالها.. وهذا ما تكرر في السبي البابلي والبطش الروماني، وأما الفتح الإسلامي فلم يحصل ..
- وواصل في الفصل ٢٠٤ التذكير بغضب الله على أورشليم لإصرارها على الخطيئة، وأنها لن ينفعها صلوات الأنبياء ما دامت على هذه الخطيئة.. وهذا ما يشير إليه القرآن الكريم من تكرر عصيانهم لله ومروقهم عن طاعته..
- وفي الفصل ٢٠٥ توبيخ المسيح عليه السلام ليهودا الخائن لأنه حاول منع المرأة التي سكبت الطيب على رأسه.. وفي ذلك إشارة إلى أنه الخائن الذي يسلمه مقابل ثلاثين قطعة من الذهب ولا سيما عندما خاطبه بأنه عارف لقلبه..
- وفي الفصل ٢٠٦ يصر لرئيس الكهنة بأنه عبد الله وليس الله ولا ابن الله ولا مسيا، وأنه لا يطلب ملك إسرائيل ويرفض أن يكون ملكاً عليهم.. مما يؤكد ما ذهب إليه الإسلام في القرآن الكريم...

- وفي الفصلين ٢٠٧-٢٠٨ يؤكد لهم بأنه رسول الله ويقول الحق لهم وأنه لا شيطاناً وراءه وأن إسماعيل هو الذبيح مما جعل رئيس الكهنة يدعو الناس لرجمه بحجة أنه إسماعيلي مجدف ضد شريعة موسى، ولكنه خرج من بينهم وقد هموا برجمه دون أو يروه.. مما يشبه معجزة محمد عليه وآله السلام عندما خرج من بيته مهاجراً إلى يثرب..
- وفي الفصل ٢١٠ بادروا في اضطهاد علني بالذهاب لهيروُدس و الوالي الروماني واتفقوا معهم ليسلموه لهم ليقتلوه، مما يؤكد مدى حقدهم ضده الذي أشار إليه الإسلام.
- وكرر في الفصلين ٢١١ و ٢١٢ دعوته لتلاميذه لاعتباره عبد الله ورسوله حتى لا تحل عليهم لعنة الله كغيرهم من الإسرائيليين، ودعا إلى الله أن يعجل بإرسال محمد عليه وآله السلام ليخلص العالم من سيطرة الشيطان.. ولكن مؤتمر نيقية والرومان وبولس شوها ذلك وحرّفوه..
- وفي الفصل ٢١٣ دعا يسوع الخائن يهوذا ليسرع بفعلته: (أسرع بفعل ما أنت فاعل) وهو يعلم ذلك.. مما يجعله يستسلم لقضاء الله راضياً.. مما لا علاقة لهذه التفاصيل بالإسلام..
- وفي الفصل ٢١٤ وصف لتحرك الجنود الرومان ليلاً مع يهوذا الخائن لإلقاء القبض على يسوع ومعهم المشاعل و المصابيح..
- وفي الفصل ٢١٥ وصف كيف حمله الملائكة الأطهار الأربعة من الغرفة وتلاميذه الأحد عشر يعطون في نومهم.. كيف حملوه إلى السماء ليستقر في صحبة الملائكة المسبحين في السماء الثالثة.. مما يشير لرفعه المذكور في القرآن الكريم.
- وفي الفصل ٢١٦ يذكر كيف حصلت معجزة بأن حول الرب يهوذا الخائن وقد دخل الغرفة مع الجنود الرومان لتسليم يسوع لهم، حوّلته في نطقه ووجهه وكل شيء إلى شبيهه يسوع حتى اعتقد تلاميذه أنه يسوع ولم يصدقوه أنه ليس كذلك عندما أيقظهم وهو يفتش عنه ليسلمه للجنود.. وبالفعل أخذه الجند لظنهم أنه يسوع وهرب التلاميذ من المكان ولم يعتقل أحد منهم.. مما يشير إلى الشبيهه بيسوع..
- وفي الفصل ٢١٧ وصف لما تعرض له يهوذا الخائن الشبيهه بيسوع عليه السلام من سخرية وإهانة وضرب وهو ينكر أنه يسوع حتى شفق عليه الكنعانيون بينما قست قلوب رؤساء الكهنة والفريسيون والشيوخ.. وبعد تحويله إلى هيروُدس ملك الجليل على أساس أن يسوع جليلي أعاده إلى الوالي الذي سلمه لهم بعد رشوة كبيرة ليسوقه جنوده إلى جبل الجمجمة حيث صلبوه دون أن يبالوا بصراخه بأنه يهوذا وليس بيسوع مما جعل بعض

المؤمنين به يرتدون ظناً بأنه كان نبياً كاذباً وأن كل آياته مجرد سحر لأن يسوع قال لهم بأنه لا يموت حتى قرب انتهاء العالم... ونسي المؤمنون ما قاله لهم وحزنوا عليه حزناً شديداً وأخذوا جسد يهوذا الخائن وضمخوه بالطيب ودفنوه في قبر يوسف الجديد.. مما يؤكد وصف القرآن بأنهم فعلوا ذلك كله بشبيه يسوع..

● وفي الفصل ٢١٨ يذكر أن جثة يهوذا قد سرقت من قبره وأُشيع بأنه قد قام، فحدث اضطراب تعرض بسببه الكثير من الناس للتعذيب لتحديثهم بذلك ضد رغبة رئيس الكهنة.. ولكن هذا كله لا علاقة له بالإسلام وإن كان فيه بيان لكيف نشأت قصة القيام المزعومة من مصلوب ثم مدفون..

● وفي الفصل ٢١٩ وصف لإنزال الملائكة الأربعة ليسوع بدعائه لربه وكيف صعق الجميع أمه ومن معها من تلاميذه عندما رأوه ظناً منهم بأنه قد مات، وسألته أمه عن سبب موته الذي ألحق العار لأقاربه وتلاميذه وتعاليمه.. فشرح ذلك في الفصل التالي مؤكداً بأنه لم يموت وأن عقابهم في ذلك بسبب حبهم الدنيوي له، وعقاب شبيهه الخائن لكي لا تهزأ الشياطين به يوم الدينونة.. وأن بعث محمد عليه وآله السلام وحده الذي يكشف هذا الخداع وينهي هذا العذاب..

● وفي الفصل ٢٢١ حملته الملائكة إلى السماء بعد أن طلب من برنابا أن يكتب إنجيله ليعرف الحق ويذهب الخداع ففعل فكان هذا إنجيله الصحيح من التحريف.. مما لا علاقة لهذا الوصف بالإسلام..

● وفي الفصل الأخير ٢٢٢ أخذ تلاميذه يحدثون بصعود اليسوع ويبشرون بما سمعوا وما رأوا، ولكن الكذابين الموجودين في كل زمان حرفوا القول وشوهوا الحقيقة فقال بعضهم بأنه مات ولن يقوم، وقال آخرون بأنه مات وقام، وقال آخرون بأنه ابن الله وكان بولس على رأسهم، وأما برنابا وأمثاله فمضوا يبشرون بأنه عبد الله ورسوله.. مما يلتقي مع الإسلام.

● وإلى الله تعالى أبتهل أن يجعل في هذا الجهد خيراً لكل من يطالعه مما يزيده قرباً من الإيمان بالإسلام ورسالته للعالمين كافة.. إنه سميع قريب مجيب..

المسيح في القرآن الكريم

هو عيسى ابن مريم عليه السلام، ولد قبل نزول رسالة الإسلام بحوالي سبعة قرون. وتتحدث سورة آل عمران عن ولادة أمه مريم وكفالة زكريا عليه السلام لها، ثم يتحدث في سور آل عمران والأنبياء والتحريم عن معيشة مريم وإحصانها فرجها، ثم تشير سور السجدة والحجر وص إلى النفخ في فرجها من روح الله دون بيان كيف حصل ذلك... وتذكر سورة آل عمران كيف كانت البشارة بميلاد المسيح عليه السلام، وأنه جاء بكلمة من الله عندما أراد مجيئه فقال: كن، فكان.

وفي سورة مريم يفصل القرآن الكريم هذه البشارة، وإخبار الوحي أمه مريم رضي الله عنها بأن الله قد اختار عيسى رسولاً لبني إسرائيل كما ورد ذكر ذلك في سورة آل عمران أيضاً.

وفي القرآن الكريم يسمي الله تعالى مولودها: المسيح عيسى ابن مريم، وأن حمل أمه به كان عادياً ثم تبعه المخاض عند جذع نخلة لما ثبت أن في الرطب من الكلسيوم الذي يقيها أكله من حمى النفاس ويساعد رحمها بزيادة تقلصاته لطرد بقايا الكيس الجنيني...

وفي القرآن الكريم يذكر معجزة كلام الطفل عيسى مع أهلها ليدفع عنها تهمة السوء... وفيه رد على من دعوه ابن الله، كما دعوا غيرهم عزيزاً، لأن ولادته بدون أب قد اشتبهت عليهم، الأمر الذي كان يفرض عليهم التحقق من صحة الكتاب الذي يقول بذلك، ومدى صحة معلوماته التي تتحدث عن ذلك.. فهم إذا كانوا يماثلون من كفروا من قبل من فراعنة ورومان في مثل هذا القول..

ويؤكد القرآن الكريم في سور كثيرة وآيات عديدة بأن المسيح عيسى ابن مريم هو رسول الله وكلمته (كن) التي ألقاها إلى مريم وروح منه، كما أن كل الأرواح في بني البشر هي منه سبحانه وإنما امتاز المسيح بأنه دون أب تشكل بأمر الله وكلمته (كن) جنيناً في رحم أمه ثم كبر هذا الجنين حتى وضعته أمه..

ويكرر القرآن الكريم دعوة أهل الكتاب في آيات عديدة لتجنب الغلو في دينهم والتزام قول الحق في المسيح عيسى ابن مريم، والتوقف عن القول بالثالوث (الأب والابن وروح القدس) الذي يزعمون فيه أنه إله واحد، كما يتوقفون عن القول بأن الله اتخذ ولداً (سبحانه)... ويذكرهم بأن {مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون} إذ أن آدم لا أب ولا أم له، وحواء لا أم لها، ولكن شاء الله أن يخلقهما كذلك بكلمة (كن) فكانا، والمسيح ابن مريم بلا أب فكان بكلمة (كن) كذلك..

ويؤكد القرآن الكريم كفر من قال (إن الله هو المسيح بن مريم) وكفر من قال أنه ابن الله... ثم يتحدث عن رسالة المسيح ابن مريم عليه السلام وأنه كان مؤيداً بروح القدس جبريل عليه السلام، ولا يرد في أي حال أن ملائكة الله الأربعة كانوا يؤيدونه... وكان في التكثير من الملائكة مزيد من التكريم، أو أنه من عدم القدرة لواحد منهم أن يقوم بالتأييد اللازم!!

ويشير القرآن الكريم إلى المعجزات العديدة التي منحها المولى سبحانه لعيسى بن مريم بدءاً بطريقة خلقه دون أب وانتهاء {إني متوفيك ورافعك إلي} ومروراً بالكثير الكثير منها من إحياء الطير المصنوع من الطين بإذن الله، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله، وإنزال المائدة على الحواريين تلاميذ عيسى عليه السلام وكلامه وهو طفل..

خاطب بني إسرائيل {ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون. إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه، هذا صراط مستقيم} -سورة الزخرف ٦٣ و ٦٤.

وذكر القرآن الكريم أنهم كانوا مأمورين بالصلاة والزكاة والصيام، كما كانوا مأمورين بالجهاد في سبيل الله.

وذكر القرآن أن المسيح عيسى بن مريم قد بشر كما بشر موسى عليهما السلام بنبي يرسل من بعده، وأورد الصفات التي ذكرت في التوراة والإنجيل في سورة الأعراف -١٥٧، {الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون} وهناك صفات أخرى موجودة عندهم في التوراة والإنجيل يشير إليها القرآن الكريم ولا يذكرها بالنص، حتى قال: {الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون} -البقرة ١٤٦-.

ويتهددهم القرآن الكريم في آيات كثيرة لرفضهم الاعتراف بالحق، ومواصلتهم الكيد للمسلمين، والصد عن الإيمان بالإسلام، والزعم بأنه سحر، مشيراً إلى أن ما فعلوه ضد الرسول محمد عليه وآله الصلاة والسلام لم يكن بدعاً منهم لأنهم فعلوا مثله وأسوأ منه ضد عيسى عليه السلام والأنبياء الآخرين... والمعروف تاريخياً أن المسيح عليه السلام قد انتهت حياته بمعنى معيشته من على الأرض وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، ولكن أن يعود كما تشير الآيات والأحاديث إلى الأرض بعد أن رفع إلى السماء فهذا مما يمكن استنتاجه من قوله تعالى بأنه يكلم الناس في المهد وكهلاً، كما ورد في سورة آل عمران -٤٦-، وسورة المائدة -١١٠- أي هذه المعجزة ستنم عند عودة المسيح عليه السلام إلى الأرض، ثم أن القرآن الكريم يشير إلى أن جميع أهل الكتاب سيؤمنون به قبل موته، كما ورد في سورة النساء -١٥٩- فإن هذا يعني أنه لم يمض حتى الآن.. ولكن القرآن الكريم لم يحدثنا بشيء عن عودته ولا متى سيعود ولا عن علامات تسبق عودته. وأما الأحاديث التي تشير إلى عودته فهي التي تتحدث عنه وهو يقود جيوش المسلمين قبل يوم القيامة مباشرة ليقاتل اليهود، كما أن هناك حديثاً آخر يقول بأن ابن مريم سيعود حكماً عادلاً.

ولكن لما كانت عودة المسيح هذه مرتبطة بيوم القيامة، ويوم القيامة لا يعلمه إلا الله، فقد يكون قريباً جداً وقد يكون بعيداً جداً، فلا يجوز أن نربط وعد الله بنصر المؤمنين بعودته، لأنه وعد مرتبط بشروطه دون تحديد بزمان معين ولا مكان معين، فمتى وجدت هذه الشروط وجد النصر، فالله تعالى حين يقول {وكان حقاً علينا نصر المؤمنين} اشترط وجود المؤمنين حقاً ليفي معهم بوعدده، وعندما قال سبحانه {إن

تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم} اشترط لتحقيق النصر وتثبيت الأقدام بالوقوف في وجه الكافرين دون خوف، وبذلك ينصر المؤمنون ربهم بالتزام طاعته في القيام بأمره وتجنب نهيه... وفي كل هذه النصوص القرآنية وغيرها لا يوجد مثل هذه الشروط لعودة المسيح ودون تحديد ولا ربط بزمان ولا بمكان...

وأما الأحاديث النبوية الأخرى التي تتحدث عن المهدي وظهوره آخر الزمن، أي قبيل الساعة، فهذه مما يشبه أحاديث عودة السيد المسيح.

والمهم أن النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تتحدث عن الأمرين كلها نصوص ظنية الدلالة ولكن الأحاديث النبوية منها تبقى من حيث ثبوتها ظنية وهذا يفرض عدم التصديق بها إلى درجة تصبح معها جزءاً من العقائد التي يكفر منكرها وإنما تبقى في إطار التصديق الذي يحتمل الصحة ويحتمل عدمها مما لا يلحق بمنكرها أي كفر كما لا يفرض على مصدقها أي عقيدة أكثر من مجرد التصديق بأنها وردت في نصوص وحده سبحانه العالم بمدى حدوثها في أزمانها...

النصارى في القرآن الكريم

يقرر القرآن الكريم أن النصارى، ممن يسمون اليوم المسيحيون، هم من أهل الكتاب مثلهم مثل اليهود، وأنه قد وقع بينهم اختلاف كبير سواء في حق عيسى عليه السلام، إذ استمر بعضهم على الإيمان به أنه عبد الله ورسوله، وقال غيرهم بأنه ابن الله، وقال آخرون أنه الله، ونصر الله الذين آمنوا بالله ويعيسى أنه عبد الله ورسوله على الذين كفروا، وكان من نتيجة ذلك الاختلاف أن تكونت مذاهب كثيرة تخالف مضمون رسالة المسيح عليه السلام يمكن ملاحظتها من مضمون هذه الآيات:

{وقالت النصارى المسيح ابن الله}. {لقد كفر الذين قالوا أن الله هو المسيح ابن مريم}. {إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله}. {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم}.

وأغلب جماعاتهم حوّلوا التقويم من قمري إلى شمسي بجعل الشهور كلها ثلاثين يوماً وأيام نسيء وذلك ليحلوا الأشهر الحرم، فقال لهم الله تعالى {إنما النسيء زيادة في الكفر} ولا سيما أن ذلك أدى إلى أن مناسكهم الموقوتة قد أصبحت تأتي في غير وقتها سواء الفصح واليوبيل والصيام...

وأما علاقتهم بالمسلمين {يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون. وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون. ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون} -سورة البقرة ٤٠-٤٢ {أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهو يعلمون.

وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون. أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون. ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون. فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون} سورة البقرة ٧٥-٧٩. {وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، تلك أمانيهم، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين. بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون} -سورة البقرة ١١١-١١٢. {ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم، قل إن هدى الله هو الهدى ولنن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير} -سورة البقرة ١٢٠. {وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا، قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين} -سورة البقرة ١٣٥. {ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً} -سورة النساء ٥١. {وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه، قل فلم يعذبكم بذنوبكم، بل أنتم بشر ممن خلق، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، والله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير} -سورة المائدة ١٨.

وهناك الكثير من أمثال هذه الآيات التي تبين مدى الحقد والحسد والكيد ضد المسلمين منهم سواء كانوا هوداً أو نصارى وإن كان القرآن يعزل الفئات الضالة منهم عن الآخرين فيقول {لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون. وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين} -سورة المائدة .

وأما الرهينة في القرآن الكريم فهي والفريسية والصوفية بمعنى واحد، والله تعالى يقول بصدها {ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله} فهي ليس مما أمر به الله ولكن أن يعمل بها ابتغاء مرضاة الله فهي مقبولة، وأما إن كانت للتظاهر والكبر فهي ملعونة {إن كثيراً من الأحرار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله} من الآية ٣٤ من سورة التوبة.

هذا موقفهم، فماذا قال لهم القرآن الكريم؟

{قل ي أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون} -سورة آل عمران - {ي أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون. هاأنتم حاجتكم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم، والله يعلم وانتم لا تعلمون، ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين} -سورة آل عمران... وجاء العديد من غير

هذه الآيات يشنع عليهم كفرهم وشركهم وصددهم عن الإيمان بالإسلام... ثم جاء غيرها يتصدى لجدلهم بالحجج والبراهين وانتهت إلى دعوتهم للمباهلة {فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين} -سورة آل عمران ولكنهم لم يجرعوا على ذلك ورفضوا إحضار أولادهم ونساءهم ثم الابتهاال إلى الله تعالى ليلعن الكاذبين لأنهم كانوا على ثقة بأنهم لو فعلوا ذلك لوقعت عليهم اللعنة وقضى عليهم فوراً.

ويعلمنا القرآن الكريم مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، أي باستخدام الأسلوب اللطيف والبعيد عن المهاترة والشتم.. {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقلوا أمانا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون} -سورة العنكبوت ٤٦- {إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً. والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم، أولئك يؤتيهم أجورهم، وكان الله غفوراً رحيماً.} -سورة النساء ١٥٠-١٥٢- والمقصود هنا بالإيمان بالرسول جميعاً من حيث أنهم رسل من الله ومن حيث أنهم جميعاً جاؤوا بعقيدة التوحيد والأمر بطاعة الله وإن اختلفت مناهجهم فيما بينهم لأنه تعالى بهذا الصدد قال { لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً} فلا بد من عدم التفريق في الإيمان بين رسول ورسول، فالكل رسل من الله والكل جاء بالتوحيد وبالطاعة لرب العالمين.. {إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة، إن الله على كل شيء شهيد} -سورة الحج ١٧ فالمولي سبحانه العالم بما في الصدور والعقول، والبصير بما يفعلونه، سيرسل الظالمين منهم إلى النار والذين أحسنوا إلى الجنة، فمن كل حسب عقيدته وعمله... {ليس بأمانيك ولا أمانى أهل الكتاب، من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد من دون الله ولياً ولا نصيراً. ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً. ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً} سورة النساء - فالمسألة إذن ليست بالأمانى، فالكل حتى إبليس يتمنون الجنة! ولكن من يعمل لها يحصل عليها ومن يعمل لغيرها يحصل عليه.. فلا بد من مجاهدة النفس جنباً إلى جنب مع مجاهدة شياطين الإنس والجن، وعندها يرجو المجاهد أن يشمله الله بفضله ورحمته ويدخله جنته ورضوانه.

وأخيراً كيف يعامل المسلمون أهل الكتاب في هذه الدنيا؟

{يأيتها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين} -سورة آل عمران {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً..} -سورة آل عمران. {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم} -سورة المائدة . {اليوم أحل لكم

الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب..} -سورة المائدة .

وأكثر مذاهب النصرانية شيوعاً حالياً {لقد كفر الذين قالوا أن الله ثالث ثلاثة، وما من إله إلا إله واحد، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمن الذين كفروا منهم عذاب أليم} -سورة المائدة ٧٣- وهذا المذهب ظهر في القرن العشرين.

أهل الكتاب والجنة

صحيح أن الآيتين {إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون} -سورة البقرة ٦٢- و{إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون} -سورة المائدة ٦٩- تبيين أن لهم أجرهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون - أي أولئك الذين ورد ذكرهم في الآيتين، مما يشير أن لهم نصيباً في الجنة، ولكن هل ذلك دون شروط؟

إن تلك الشروط كما تشير كثير من الآيات هي:

١. الإيمان بالله،
٢. الإيمان باليوم الآخر،
٣. العمل الصالح.

فالإيمان بالله على أساس أنه المعبود بحق، وأي معبود غيره ليس بإله ولا يقال عنه الله، والمعبود بحق يقتضي أن يكون هو الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، والذي ليس له كفواً وله الأسماء الحسنى ولا يشرك به شيئاً من يؤمن به.

والإيمان باليوم الآخر تابع للإيمان بالله لأن المشاهد أن الحياة للجميع على حد سواء، الأمر الذي يقتضي أن يكون هناك حياة أخرى ينال فيها كل جزاءه الحقيقي سواء على عمله أو مما يهبه الله من رحمته مع الجزاء على العمل معاً.

والعمل الصالح لا يتحقق لأحد دون أن يسبقه إيمان بالله وباليوم الآخر لأن الصلاح جاء للعمل تبعاً لقرار من صاحب الجزاء على العمل، ومتى وأين سيعطي هذا الجزاء، وعندما يبقى العمل مجرد عمل حتى يربط بالهدف القريب منه، وهو القيمة الدنيوية من مادية أو روحية أو خلقية أو إنسانية، ويربط بالغاية البعيدة منه، وهي استرضاء الله تعالى ونوال رضوانه. وعندما فقط تلاحظ أوامر الله (بافعل) ونواهيه (بلا تفعل) فيقدم على العمل أو يتجنبه. فيكون بهذا الترابط أو عدمه صالحاً أو طالحاً...

وفي ضوء هذه الشروط الثلاثة يسلط الضوء على كل من ورد ذكرهم في الآيتين السابقتين مع تذكر قوله تعالى {إن الدين عند الله الإسلام} و{ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه} حتى يربط العمل بالأوامر والنواهي الربانية المحددة في دين

دون دين فيصبح عملاً صالحاً.. وإذا كانت الأديان تلتقي في أساسها العقيدي وهو التوحيد، والأمر بطاعة الله الواحد المطلوب الإيمان به كخالق ومدبر، فإن كونه خالقاً لا تختلف فيه الأديان ولكنها تختلف فيه كونه مدبراً فكل دين يراه مدبراً حسب شريعته ومنهاجه، والدين الإسلامي الخاتم الناسخ لكل الأديان السابقة ملزم للناس كافة بأوامره ونواهيته لتكون أعمالهم صالحة.

بنو إسرائيل واليهود

أطلق القرآن الكريم اسم بني إسرائيل على أبناء يعقوب عليه السلام، وهو ابن اسحق ابن إبراهيم عليهم السلام، وأن الله تعالى قد بشر إبراهيم باسحق عندما أقبل على ذبح ابنه اسماعيل تلبية لأمره تعالى، حتى يروى أنه رزق باسماعيل وعمره ٨٦ سنة وباسحق وعمره ١٠٠ سنة، كما يقول سفر التكوين ٢١: ٥، كما يروى أنه ولد لاسحق يعقوب ثم ولد ليعقوب اثنا عشر ابناً لم يذكر القرآن منهم إلا اسم يوسف عليه السلام، كما يذكر أنهم ذهبوا إلى مصر مع أهلهم ليقبضوا مع يوسف عليه السلام. واستمروا في العيش هم وذرياتهم في مصر إلى أن كانت رسالة موسى عليه السلام ثم خرجوا إلى فلسطين بعد أن مكثوا كما يقول العهد القديم ٤٣٠ سنة في مصر، وفي فلسطين عبدوا العجل مما جعل موسى وأخاه هارون والمؤمنون من سبط لاوي يحاربون أولئك المرتدين حتى انتصروا عليهم وعادوا (هادوا) إلى عبادة الله مما جعلهم يسمون (اليهود).. وخالصة التوراة كما يوضح القرآن الكريم: عبادة الله وحده، والإحسان لجميع الناس، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وعدم قتل بعضهم ظلماً ولا الإخراج من ديارهم، وعدم افتداء الأسرى، وكل الطعام كان حلاً لهم إلا ما حرم يعقوب (وهو المسمى إسرائيل) على نفسه قبل نزول التوراة، والعقوبات كل عضو بمثله {النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص} وحرم عليهم العمل في السبت بسبب ظلمهم عندما افتروا على الله بقولهم أنه (تعالى) تعب من العمل أيام الأسبوع ثم استراح يوم السبت، وحرم عليهم كل ذي ظفر وشحوم البقر والغنم... وموسى عليه السلام هو الوحيد من البشر الذي كلمه الله تعالى (سورة البقرة-٢٥٣). ويذكر القرآن الكريم أن بني إسرائيل كانوا طيلة الفترة من عهد موسى إلى عهد المسيح عليهما السلام أفضل شعوب الأرض (سورة البقرة ١٢٢، ٤٧)... ولكن بالرغم من نعم الله الكثيرة عليهم من مثل (وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى) البقرة ٥٧- إلا أنهم كانوا كثيري الجحود حتى أنهم طلبوا من موسى أن يروا الله جهرة {وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذتكم الساعة وأنتم تنتظرون. ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون} سورة البقرة ٥٦، ٥٥ كما أنهم رفضوا دخول فلسطين بحجة أن فيها قوماً جبارين حتى قالوا له {فأذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون} سورة المائدة ٢٤. كما رغبوا بطعام آخر غير ما أنزل الله عليهم من المن والسلوى فغضب الله عليهم {وضربت عليهم الذلة والمسكنة وبأوا بغضب من الله} سورة البقرة ٦١-.

ولكنهم كيف قابلوا نعمة الله عليهم بالتوراة والأنبياء؟

حرفوا الكلام {من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه} سورة النساء ٤٦ وغرقوا في الآثام {لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم وأكلهم السحت، لبئس ما كانوا يصنعون} سورة المائدة ٦٣- وكذبوا أنبياءهم ومنهم من ذكرهم القرآن من داوود وسليمان والياس واليسع وزكريا ويحيى عليهم السلام، بل قتلوا عدداً منهم فأمر الله داوود ثم المسيح عليهما السلام بلعنهم لعنة أبدية {لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون} سورة المائدة. وفي أعمال الرسل (٤٣:٤٢:٧) أنهم عبدوا صنماً يسمونه رمنان، وهو النجم الذي ينسبونه الآن لداوود عليه السلام ويستخدمونه رمزاً على أعلامهم.

يذكر إنجيل برنابا اليهودية منفصلة عن إسرائيل لأن الكهنوت أيام المسيح كان في سبط يهوذا سكان أورشليم مما يحتمل معه أن اسم اليهود جاء من هنا ينسب القرآن الكريم مريم العذراء أم المسيح إلى عمران الذي لا يعلم بالتأكيد من أي سبط، وإن كان يرجح أنه من سبط لاوي ولكن إنجيل برنابا يذكر أنها من سبط يهوذا بينما العهد الجديد ينسب المسيح ابن مريم إلى سبط داوود على أساس أن يوسف خطيب مريم من هذا السبط، أي سبط لاوي. وقد ورد في العهد الجديد وفي إنجيل برنابا لعنة المسيح عليه السلام لأورشليم التي كان يسكنها سبط يهوذا الذين كفروا في أغليبتهم إن لم يكن كلهم به، ذلك أن رسالة المسيح عليه السلام فصلت بين كفار بني إسرائيل والمؤمنين منهم لأن الكفار منهم كانوا في الظاهر يتبعون شريعة موسى عليه السلام بينما في الحقيقة عبيد أوثان، فجاءت رسالة المسيح عليه السلام حرباً على النفاق والمنافقين، كما أنهم كانوا ينكرون البعث بالجسد.

وأصبح اسم اليهود يطلق على من أنكروا رسالة المسيح عليه السلام، ولكن هناك يهود ليسوا من بني إسرائيل ممن آمن بالله على يد سليمان عليه السلام مثل ملكة سبأ وشعبها وهم غالباً يهود حمير... وأما من آمنوا بالمسيح فسموا نصارى إما نسبة لبلدة الناصرة حيث أقام المسيح عليه السلام وإما لأنهم أنصار الله. فاليهود الآن هم تقريباً سبط يهوذا.

ودخل في الإسلام عدد كبير من النصارى على سنة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، واشتركوا في الفتوحات الإسلامية.

وانتشرت النصرانية في ذلك الوقت في تركية ولكنهم بمجرد تبشيرهم اعتنقوا الإسلام، فبعد الشتات الثاني كثر بنو إسرائيل في تركية مما يمكن القول أن هناك مسلمين ونصارى من بني إسرائيل وأن غالبية هؤلاء وجدوا في العراق والشام ومصر وتركية والبلقان، كما أن الكثير من الفلسطينيين الآن هم من بني إسرائيل حيث انتشروا في الشتات الأول إذ أن الشتات الثاني حصر في اليهود فقط. والصابنون إذا رجع أنهم

اتباع يوحنا المعمدان، أي يحيى بن زكريا عليه السلام، فإنهم حتماً من بني إسرائيل لأن يحيى لم يبشر إلا بني إسرائيل، ولو فرضنا تزايد نسبة أسباط بني إسرائيل الإثني عشر بشكل متماثل فإن حوالي ٩٠% منهم الآن مسلمون ونصارى وحوالي ٨٠% يسمون الآن عرباً.

واليهود المفسدون في الأرض المقدسة فلسطين الآن هم جزء من سبط يهوذا فقط وإن أضيف لهم أجناس أخرى من الهجرة الصهيونية المتواصلة من أصقاع الأرض إليها. وأما زعمهم بأنهم وحدهم بنو إسرائيل، وأنهم موعودون بالأرض المقدسة فهذا مرفوض حتى في كتبهم. فرسالة بولس إلى أهل رومية ١٠: ١٢ تقول (لأنه لا فرق بين اليهود -سبط يهوذا- واليوناني لأن رباً واحداً للجميع) وتقول أيضاً (ولأنه ليس الذين يسمعون الناموس هم أبرار عند الله بل الذين يعملون بالناموس هم ببررون) وتقول أيضاً في ٣: ٣٠ (أم الله لليهود فقط أليس للأمم أيضاً). كما يكذبهم القرآن الكريم القائل {إن أكرمكم عند الله أتقاكم} -الحجرات- فالصالحون هم وارثو الأرض سواء كانوا من نسل يعقوب أو إسماعيل عليهما السلام...

والسؤال: كيف كان موقف اليهود أثناء رسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟

كانوا أكبر عون للمشركين على النبي وأتباعه، فذكر القرآن سبب لعنتهم من الله {فيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً. وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً. وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله} -سورة النساء ١٥٥- ١٥٧- وقال {وقالت اليهود يد الله مغلولة، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً، وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين} -سورة المائدة ٦٤-.

ولكن القرآن الكريم يميّز بينهم فإن الله تعالى يقول {ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون} -الأعراف ١٥٩- كما يقول {ويقولون سمعنا وعصينا، واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعناً في الدين، ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم لكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً} -النساء ٤٦- فأولئك مؤمنون وهؤلاء كافرون إذ كانوا يقصدون براعنا أي يا راعي الغنم طعناً في نبوة الرسول عليه وآله الصلاة والسلام ودين الله وأتباعه كما طعنوا في المسيح عليه السلام.

ولكفر اليهود سلط الله عليهم المسلمين {وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً. وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطأوها وكان الله على كل شيء قديراً} -الأحزاب ٢٦، ٢٧- كما وردت في ذلك آيات أخرى.

كما أكد القرآن الكريم ما حصل من كفر بني إسرائيل ولهم كما ورد في التوراة من انهم سيفسدون في الأرض مرتين ويشتتون من الأرض مرتين، كما ورد في سورة الإسراء ٤-٧، كما تهددهم القرآن الكريم بأنهم إن لم يؤمنوا برسالة السيد المسيح عليه السلام ورسالة الإسلام سيصيهم ما حل بهم في المرتين الأوليين وأكثر {عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً} - الإسراء ٨-.

لا إله إلا الله

لقد بشر كل أنبياء الله السابقين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم كما بشر هو بأنه (لا إله إلا الله) ووعدوا المؤمنين بالجنة وتوعدوا الكافرين بالنار، وأن طريقة التبشير والتبليغ قد اختلفت من نبي إلى آخر لتناسب حال البشر، كما طالت فترة التبليغ أو قصرت تبعاً لذلك ولتحقيق هذه الرسالة، فقد كانت بالترار الكثير في عهد نوح، وأضيفت معجزة الناقة إلى التكرار مع صالح، وبالحجة العقلية مع البيان العملي بتكسير الأصنام مع إبراهيم، وبسررد النبوات في الكتب مع إبراز المعجزات من الله مع الرسل والنبيين من موسى إلى السيد المسيح عليهم جميعاً السلام، وأما مع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد اجتمعت الحجة العقلية مع حفظ القرآن من التحريف والتشويه جنباً إلى جنب مع جعله معجزة في البيان وما أورده من علوم علاوة عن انفصاله عن نفس النبي عليه وآله السلام وعن آمال العرب والمسلمين للتأكيد بأنه بكامله من الله وأنه يجب اتباعه والعمل به بديلاً عن كل الأديان السابقة...

والبشرية قد مرت بنفس التطور العقلي الذي يمر به كل إنسان على انفراد، مما جعلها تحتاج تلك الوسائل والأساليب في التبليغ سائرة في التطور تبعاً لمسار البشرية. فكما أن الطفل يحتاج إلى التكرار لتوصيل المعلومة إليه فإن الفتى يحتاج لذلك مع الحجة العقلية، والبالغ تكفيه الحجة العقلية ويزيده الإعجاز العلمي قوة وبيانا وثباتاً، كذلك شأن الراشد... فشهادة التوحيد (لا إله إلا الله) وردت في أسفار العهد القديم والجديد التي يؤمن بها اليهود والنصارى حالياً كما وردت في القرآن الكريم، فسفر التثنية ٤: ٣٥ يقول (الرب هو الإله ليس آخر سواه)، ويقول سفر صموئيل الثاني ٧: ٢٢ (لذلك قد عظمت أيها الرب الإله لأنه ليس مثلك وليس إله غيرك) ويقول سفر الملوك الأول ١٨: ٣٩ (الرب هو الله الرب هو الله)، ويقول سفر أشعيا ٤٤: ٦-٨ (أنا الأول والآخر ولا إله غيري)، ويقول سفر يونس ٢: ٢٧ (واني أنا الرب إلهكم وليس غيري).

ويقول المسيح عليه السلام في إنجيل مرقس (الرب إلهنا رب واحد)، وإنجيل برنابا يكرر ذلك كما سبق آنفاً. والقرآن الكريم يكرر ذلك ويؤكدده مراراً وتكراراً كأساس أول للدين (لا إله إلا الله)... والله تعالى يتصف بصفات يتميز بها عن مخلوقاته وبالذات عن البشر كما في القرآن وكتب أهل الكتاب ومنها: أنه سبحانه محتجب فلا يمكن إدراكه

في الدنيا { لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير } -سورة الأنعام ١٠٣-، وفي سفر الخروج ٢٣، ٢٠، ٣٣: ١٨ إن موسى قال لله (أرني وجهك) فقال له الله (لا تقدر أن ترى وجهي لأن الإنسان لا يراني ويعيش)... وهو سبحانه لا بداية له فهو المبدئ ولا نهاية له { هو الأول والآخر } -الحديد ٣- والحديث النبوي يقول «هو أول بلا ابتداء وآخر بلا انتهاء»، وفي العهد القديم وفي سفر أشعيا ٤٤: ٦ (أنا الأول وأنا الآخر ولا إله غيري).

وخلق سبحانه كل شيء بكلمته فقط { وربك يخلق ما يشاء ويختار } -القصص ٦٨- { إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون } -يس ٨٢- وفي مزمور ٣٣: ٩ (لأنه قال فكان. هو أمر فصار)

وليس لله شبه لا بالبشر ولا بغير البشر { ليس كمثله شيء } -الشورى ١١- وفي أرميا ١٠: ٦ (لا مثل لك يارب عظيم أنت وعظيم إسمك). والله تعالى غير محدود بمكان ولا بزمان لأنها من مخلوقاته وهو خالقها الذي لا يشبهه شيء منها ولا يشبهه هو سبحانه شيئاً منها، وقد سمي نفسه سبحانه (الكبير) في سور عديدة ولكن ماذا يعني هذا الوصف في حق اللامحدود بمكان ولا زمان؟ ليس ذلك من قدرة العقل البشري أن يدركه ولا أن يتصوره أو يتخيله... والله سبحانه غير محتاج فهو الغني { له مافي السموات وما في الأرض وإن الله لهو الغني الحميد } -الحج ٦٤-، وفي سفر التكوين (رفعت إلى الرب الإله العلي مالك السماء والأرض) ١٤: ٢٢.. والله تعالى لا يأكل { لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم } -الحج ٣٧- والله تعالى لا ينفس ولا ينام ولا يعيا { الله لا إله إلا هو الحي القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم } -البقرة ٢٥٥- { ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب } -ق ٣٨- (لا ينفس حافظك. إنه لا ينفس ولا ينام حافظ إسرائيل) -مزمور ٤، ١٢١: ٣-.

والله تعالى حي لا يموت { وتوكل على الحي الذي لا يموت } -الفرقان ٥٨- (حي أنا إلى الأبد) -تثنية ٣٢: ٤٠-.. والله تعالى يجير ولا يجار عليه { قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون } -المؤمنون ٨٨-

والله تعالى لا يكذب { ومن أصدق من الله حديثاً } -النساء ٨٧-، (لا يمكن أن الله يكذب) رسالة بولس إلى العبرانيين ٦: ١٨... والله الأسماء الحسنى والمشهور منها تسع وتسعون وهي صفاته وأعماله عز وجل وعلا، وأولها لا إله إلا الله ومنها الأول والآخر كما سبق، والرحمن والروؤف بعباده في الدنيا جميعاً، والرحيم بالمخلصين من عباده، والملك مالك السموات والأرض، والقدوس، لأنه رب قدوس مبارك، والسلام، لأنه هو صانع السلام، والمهيمن، لأنه المتسلط على جميع مخلوقاته، والعزيز، لأن العزة لله، والجبار، لأنه الإله العظيم الجبار، والمتكبر، لأنه لا يعطي عظمته ومجده لأحد، والخالق البارئ البديع، لأنه يخلق من عدم، والمصور، لأنه صنع وصور الإنسان والأرض وجميع الخلق كما شاء، والغفار والغفور واللطيف والعفو، لأنه يغفر الذنوب

والسينات، والظاهر والظاهر، لأنه لا ينقذ من بطشه شيء، والكريم والوهاب، لأنه يعطي بلا مقابل، والرزاق، لأنه يرزق بلا حساب، والفتاح، لأنه لا يرد حكمه عن أحد، والعليم والخبير، لأنه يحيط بكل قول وعمل وما تخفي الصدور، والخافض والرافع، لأنه وحده الملقي في الهاوية والرافع في الجنان كما يذل ويعز، والمعز، لأنه لا سلطان إلا من الله العزيز، والسميع والمجيب، لأنه يحيط بكل صوت ويجب كل دعاء، والشهيد والبصير، لأنه يرى كل صغير ويبصر كل خبير، والحكم، لأن القضاء له وحده، والعدل والمقسط، لأنه القاضي العادل المقسط ولا يفعل إلا ذاك، والحليم والصبور، لأنه بطيء الغضب يمهل ولا يهمل، والعظيم والواسع والكبير والعلو والحاضر، لأنه لا عظيم كعظمته ولا حدود لعطائه ولا كبير بجانبه ولا يعلى عليه شيء والحاضر دون طلب، والحفيظ، لأنه الحافظ لخلقه بتدبيره، والمغيث والصد، لأنه الملجأ المنقذ بقوته التي لا يحدها حد، والجليل، ذو الجلال والإكرام، لأنه صاحب الجلال والهيبة والعطاء، والقريب، لأنه أقرب إلى الناس من حبل الوريد، والحكيم، لأنه صاحب الأمر والتدبير، والودود والشكور، لأنه محب لمحبيه غفور لأعمالهم، والماجد، لأنه الرب المجد اسمه في الأرض والسماء، والجامع والباعث والمعيد، لأنه يجمع الناس ليوم الدين إذ يبعثهم من قبورهم ويعيدهم إلى الحياة بعد الموت، والحق، لأنه لا حق ولا صواب غيره، والوكيل، لأنه المعتمد عليه وحده فهو موئل الرجاء والأمل، والقوي المتين، لأنه لا قوة إلا منه وبه فله سبحانه الملك والقوة، والولي والوالي، لأنه الوحيد الناصر والصديق، والحמיד، لأنه وحده صاحب الحمد والثناء، والمحصي، لأنه القادر على أن يحصي كل أمور مخلوقاته في تدبيره لهم، والمبدئ، لأنه وحده من بدأ الخلق وينهيهم، والمحيي والمميت، لأنه من بث في المخلوقات الحياة ومن يسلبها منهم، والحي، الدائم الذي لا يفنى ولا يزول، والقيوم لأنه القائم على خلقه المدبر لشئونهم، والواجد، لأنه الموجود بذاته لا بغيره والموجد لغيره، والواحد، فلا شريك له في ذاته ولا في مطلق صفاته، والقادر، لأن بيده كل شيء بقدره لا تحد بحد، والباطن لأنه المحيط بخفايا الأمور والصدور، والمتعال، لأنه يتبارك اسم جلاله المتعالي بقدرته وهيئته وعظمته، والبر المؤمن، لأنه البار بعباده المحقق لهم الأمن والأمان في الدنيا والآخرة، والتواب، لأنه من يقبل التوبة من وعن عباده مهما أخطأوا متى تابوا إليه، والمنتقم، لأنه لا يترك الجزاء والعذاب لمن يستحقه ويقدر ما يستحقه، ومالك الملك، فلا ملك في الأرض والسموات إلا ملكه، والباسط، لأنه من بسط أرضه وسماءه وبسط الخير والنعمة على عباده، والغني، لأنه له السموات والأرض وما فيها وما بينها، والمغني، لأنه لا غني إلا بغناه، والضار والنافع، لأنه لا ضرر إلا بإذنه ولا نفع إلا بعلمه، والنور، لأن له نور السموات والأرض، والهادي، لأن الهدى هداة ولا هدى إلا هداة، والمنزل، لأنه لا عز إلا عزه، والحسيب، لأنه سريع الحساب فالخلق كلهم يحاسبهم كما يحاسب النفس الواحدة، والقابض، لأنه بيده قبض السموات والأرض قبل يوم الحشر، والمقتدر، لأنه الغني المتصرف بالسموات والأرض وما فيها، والمقدم، لأنه المعجل بالجزاء في الدنيا والآخرة، والمؤخر، لأنه وحده يؤخر الجزاء والعقاب الحقيقيين إلى الآخرة، والمانع،

لأنه وحده يمنع مالا يريد، والباقي، لأنه الدائم بلا فناء والآخر بلا نهاية، والوارث، لأنه إليه السموات والأرض وما فيهما، والرشيد، لأنه الحكيم في كل عمل... وهذه الأسماء الحسنى الـ ٩٩ وغيرها مما يعين على إدراك معنى (لا إله إلا الله) فمادام كل شيء ملكه فما يجدي اللجوء لغيره، وما معنى الخضوع لغيره، وما معنى حب غيره، وما معنى دعاء وعبادة غيره؟!!!

وأفضل ما يسمى المخلوق مما يؤخذ من هذه الأسماء الحسنى أن تكون دون معرفة، أو بالإضافة إليه تعالى، فلا يقال: فلان الرحيم وإنما عبد الرحيم، ولا يقال فلان الرحمن وإنما عبد الرحمن، ولا يقال فلان الخالق وإنما عبد الخالق...

اليوم الآخر

اليوم الآخر يبدأ من مفارقة الروح للجسد وتوسيد الميت قبره وبقائه في حياته البرزخية حتى قيام الساعة، وعندها تبدأ الحياة الأخرى بالمقابل لهذه الحياة الدنيا، فهذه قريبة وتلك قادمة بعدها دون نهاية... فالقبر إما روضة من رياض الجنة، كما يقول الحديث الصحيح الذي لا يستوي بالقطعي، وإما حفرة من حفر النار، كيف لا وقوم نوح قال القرآن الكريم عنهم {مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً} - نوح ٢٥ - وآل فرعون قال عنهم أيضاً {وحاق بآل فرعون سوء العذاب. النار يعرضون عليها غدواً وعشياً، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب} - غافر ٤٥، ٤٦ - والشهداء أحياء عند ربهم {ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون} - البقرة ١٥٤ - وما الاستشهاد في سبيل الله إلا تضحية بالروح في سبيل الله لينال المضحى طيب الجزاء في اليوم الآخر، ولولا إيمانه باليوم الآخر وما فيه من خير الثواب لما ضحى بنفسه... والناس يتوالدون ثم يموتون {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} - التكاثر ١، ٢ -، ويظنون كأنهم خالدون فيفسدون في الأرض {ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس} - الروم ٤١ - في أكثرهم وإن استتنت سورة التين في آيتها السادسة المؤمنين الصالحين {إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون} من الفساد والإفساد، ويجري تعالى سنته على خلقه فيميت من يميت ويبقى من يبقى من كفار أهل الكتاب ومؤمنهم، ومن كفار العرب ومؤمنهم... حتى يتناسل من بعلمه سيكونون مؤمنين {وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته} أي السيد المسيح وقبل اليوم الآخر...

ولكن متى اقتربت الساعة يعذب الله الكافرين ببعض ذنوبهم، ثم يحاول بعضهم التوبة فلا تنفعه {يوم يأتي بعض آيات ربك لا تنفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً} - الأنعام ١٥٨ -، ومن تلك الآيات {فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين. يغشى الناس هذا عذاب أليم. ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون. أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين. ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون. إنا كاشفو العذاب

قليلاً إنكم عاندون. يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون} -الدخان ١٠-١٦- فالدخان سيقع فيتظاهر المنافقون بالإيمان ويدعون الله فيمهلهم وهو عالم بنفاقهم حتى إذا عادوا لضلالهم بطش بهم ببعض ذنوبهم، ويظهر أن الرسول المقصود في هذه الآيات هو السيد المسيح قبيل يوم القيامة... والسور القرآنية طافحة بما يحصل قبيل يوم القيامة من تغيرات في السماء والأرض {يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات مطويات بيمينه، وبرزوا لله الواحد القهار} -إبراهيم ٤٨-.

هذا وما زال اليوم الآخر أصعب أمور الدين تصديقاً، مما جعل القرآن الكريم يكثر من الأمثلة على البعث والإحياء والنشور، كما أورد أمثلة على الإحياء الذي وقع في الأمم السابقة وبخاصة بني إسرائيل ليقرّب ذلك إلى الأذهان والتصديق والإيمان.. {وإذ قتلتم نفساً فادّارتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون.فقلنا إضربوه ببعضها، كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون} -البقرة ٧٢، ٧٣- فقد مات الرجل ثم عاد للحياة بمجرد ضربه ببعض أجزاء البقرة التي ذبحوها فرأوا بأم أعينهم كيف يحيي الله الموتى.. وقد مر بنا معجزة إحياء الطيور الأربعة لإبراهيم عليه السلام، وذكر إنجيل لوقا ٧:١٢-١٥ كيف أحيى المسيح عليه السلام ابن أرملة نايين، وهذا ما مر ذكره في إنجيل برنابا أيضاً.

ويورد القرآن الكريم كيف يبعث الناس يوم القيامة {والله أنبتكم من الأرض نباتاً. ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً} -نوح ١٧، ١٨-، {والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور} -فاطر ٩- فإنتاش البذور بعد الجفاف بفعل الماء كالبعث يوم القيامة، {وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى} -الأحقاف ٣- والأجل المسمى عند الله هو يوم القيامة...

ومن المستحيل عقلاً، لكل ذي لب، أن هذه الحياة الدنيا هي الحياة وآخرها الموت وانتهى الأمر، لأن ذلك عبث ما بعده عبث، وهو ما بعده لهو، إذ ينتهي هذا الوجود بكل تعقيداته وأعماله وأشكاله إلى مجرد الموت، والله تعالى يقول {وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعتبين. ولو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إنا كنا فاعلين. بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون. وله من في السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون. يسبحون الليل والنهار لا يفترون. أم اتخذوا آلهة من الأرض هم يُنشرون} -الأنبياء ١٦-٢١- {قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبأن بما عملتم، وذلك على الله يسير} -التغابن ٧-، {وما خلقكم وما بعثكم إلا كنفس واحدة، إن الله سميع بصير} -لقمان ٢٨-، فالشبه كبير بين الموت والنوم حتى أن النوم يسمى الوفاة الصغرى. ويوم الحشر، يوم الحساب، يوم الدينونة علينا أن ندفع ديوننا لله ربنا فهل من مستطيع؟ لا، وألف لا، ولكن برحمة الله وفضله يدخل أكثر الناس الجنة، وأقلهم وهم الأنبياء والشهداء والصدّيقون يدخلون الجنة بغير حساب...

في ذلك اليوم، يوم الهول الأكبر {وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد} -الحج ٢-، {يوم يقر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} -عبس ٣٤-٣٧-، {يقول الإنسان يومئذ أين المفر} -القيامة ١٠-، {وهم يصطرون فيها: ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل، أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير، فذوقوا فما للظالمين من نصير} -فاطر ٣٧-.

ويوم القيامة يشهد الأنبياء على أممهم {ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً} -النساء ١٥٩-، {بأيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً} -الأحزاب ٤٥-، كما تشهد عليهم أعضاؤهم، {شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون} -فصلت ٢٠-، {يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون} -النور .

ويوم القيامة يقف كل فرد مسنولاً عن أعماله {هو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون} -الأنعام ٦٠- {وكلهم آتية يوم القيامة فرداً} -مريم ٩٥-.

وفي العهد القديم ورد في أشعياء ٦٦: ١٨ (وأنا أجازي أعمالهم وأفكارهم).

وفي العهد الجديد ورد في إنجيل متى ١٢: ٣٦ (ولكن أقول لكم أن كل كلمة طالة يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين).

فيوم القيامة يعطى كل مخلوق كتاباً سجلت فيه أفكاره وأقواله وأفعاله {يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية} -الحاقة ١٨-، {ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً. إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً} -الإسراء ١٣، ١٤-..

وعندها يقول الظالمون {مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً} -الكهف ٤٩-، ويقول المؤمنون {وأما من أوتي كتابه بيمينه، فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً} -الإنشقاق ٨-٩-، ويقول الأطهار من النبيين والصديقين والشهداء وأمثالهم من الصالحين {كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين، وما أدراك ما عليون، كتاب مرقوم، يشهده المقربون} -المطففين ١٨-٢١.

وكل الإنس وكل الجن سيرون النار {وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً} -مريم ٧١-، ولكن لن يكابد عذابها الكل {إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون. لا يسمعون حسيسها وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون.

لا يحزنهم الفرع الأكبر وتتلقاهم الملائكة، هذا يومكم الذي كنتم توعدون} -الأنبياء - وبعدها يلقي في جهنم أشد المخلوقات كفرة {ألقيا في جهنم كل كفار عنيد} -ق ٢٤- وعندها يتمنى الكافر الموت فلا يجده (وفي تلك الأيام سيطلب الناس الموت ولا يجدونه، ويرغبون أن يموتوا فيهرب الموت منهم) -رؤيا يوحنا اللاهوتي ٩: ٦-.

وهناك يجدون جهنم بأبوابها السبعة { وإن جهنم لموعدهم أجمعين. لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم } - الحجر ٤٣، ٤٤ - فلكل قسم أصحاب خطيئة معينة، { وإن المنافقين في الدرك الأسفل من النار }... كما يجدون الطعام والشراب المناسبين { ثم إنكم أيها الضالون المكذبون. لا تكونون من شجر من زقوم. فمالنون منها البطون. فشاربون عليه من الحميم، فشاربون شرب الهيم. } - الواقعة ٥١-٥٥.

ولكن الجلد يفنى في أقل من ثانية فيختفي الإحساس.. ولكن {سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها} لماذا {ليذوقوا العذاب} الذي كانوا به مستهترين، وعندها {يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه. وصاحبتة وأخيه. وفصيلته التي تؤويه. ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه. كلا إنها لظى. نزاعة للشوى} - المعارج ١١-١٦، {إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم. يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم} - المائدة ٣٦، ٣٧.

ويكفي أن يذكر النصارى ما يقوله إنجيل متى ١٦: ٢٦ (لأنه ماذا ينتفع الناس لو ربح العالم كله وخسر نفسه!؟) ويذكر القرآن كل الكفار من أهل الكتاب والمشركين {ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا أن الله حرمها على الكافرين} - الأعراف ٥٠.

وفي العهد الجديد يقول إنجيل لوقا ١٦: ٢٤، ٢٥ (ياأبي إبراهيم إرحمني وأرسل لعازر ليبل طرف أصبعه بماء ويبرد لساني لأنني معذب في هذا اللهب).

وأما متاع الدنيا فيصبح شقاء عليهم {والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون} - التوبة -

ويصرح إنجيل متى ١٠: ٢٨ (يهلك النفس والجسد كليهما في جهنم) بأن العذاب يكون بالجسد والنفس معاً، ويقول (يلقى جسدك كله في جهنم) - متى ٥: ٢٩، ٣٠ - ولكن العذاب بالجحيم المسمى في أسفار اليهود بالموت الأبدي لا ينقطع {لا يموت فيها ولا يحيا} -سورة طه ٧٤- فهو دائماً بين الموت والحياة فلا يكاد يموت حتى يحيا من جديد، وهكذا.. {ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورانه عذاب غليظ} - إبراهيم ١٧-...

فمن ينكر وجود الله تعالى أو يشرك معه غيره أو ينكر أحكامه ولو حكماً واحداً معلوماً علماً قطعياً كأن يمارس الزنى وهو ينكر تحريمه، ويقتل أحداً وهو يستحل القتل، ويشرب الخمر وهو يستحل شربها ويستخف بتحريمها، وأمثال ذلك، فإنه يخلد في عذاب النار، اللهم إلا {من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً} - الفرقان ٧٠، وأما الذين آمنوا واجتنبوا الفواحش ولكنهم ارتكبوا ذنباً فيخرجون من النار {ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً} - مريم ٧٢.

وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات {فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون} -البقرة ٣٨-، ومن رحمة الله وفضله يقول الرسول عليه وآله الصلاة والسلام (سيخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه ذرة من خير) بعد أن ينال نصيبه من العذاب على ما قصر في طاعة ربه. وأما الشفاعة فلمن ارتضى الله ومن بعد إذنه تبدأ من يوم الحشر وتنتهي عندما يخرج آخر من يسمح لهم القرآن من النار.

وأما الجنة فعرضها كعرض السموات والأرض أعدها المولى تعالى برحمته للذين لا يذنبون، وإذا أذنبوا ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ولم يصروا على ما فعلوا، كما تشير سورتا آل عمران والحديد.. ولكن رضوان الله أكبر من كل متع الجنة {وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم} -التوبة ٧٢-.

وإذا صح التفسير {وجوه يومئذ ناضرة، إلى ربها ناظرة} -القيامة ٢٢، ٢٣- بأن المؤمنين يرون ربهم وهم في الجنة حتى يبين ذلك الحديث النبوي «أنتم سترون ربكم كما ترون هذا القمر (وكان بدرًا) لاتضامون في رؤيته» إذا صح بأنهم يرون الخالق العظيم فلاشك أن ذلك من عظيم بل أعظم الرضوان، ولولا الاختلاف بين المفسرين والمفكرين المسلمين في هذا الأمر لقلنا أن الرؤية قطعية، وترك هذا الاختلاف ونقول يكفي المؤمنين أنهم {تحيتهم يوم يلقونه سلام} -الأحزاب ٤٤- يلقون ربهم ويلقون عليه التحية وهي السلام تعبيراً عن السلام الحقيقي هناك بدلاً من هذا المجازي على الأرض.

ودليل تحيتهم بالسلام أن الملائكة يحيونهم بذلك أيضاً {والملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار} -الرعد ٢٣، ٢٤-..

وأما هل يقع بين أهل الجنة الحسد وهم يتفاوتون في الدرجات فلا {ونزعا ما في صدورهم من غل} -الأعراف ٤٣ والحجر ٤٧- ولن يستطيع أحدنا في هذه الدنيا أن يدرك شيئاً من تلك المتع إلا إذا رفع الله إدراكه وكشف عنه الحجب، وهذا كان يوم القيامة، ولذلك في الدنيا {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون} -السجدة - والرسول عليه وآله السلام يقول «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»، وفي رسالة بولس الأولى إلى كورنثوس ٢: ٩ (بل كما هو مكتوب ما لم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على بال إنسان ما أعده الله للذين يحبونه). والجنة على درجتين للأبرار وللمتقين، ولما لكل من الفئتين من نعم تتفاوت فيما بينهما في الزوجات والملابس والمآكل والمشارب... ولاشك أن تعدد الدرجات في الجنة لتعدد عباد الله بحسب أعمالهم...

والملفت للنظر أن كاتب الموضوع في إنجيل برنابا يتحدث عن يؤمن بالقرآن الكريم والكتب لدى اليهود والنصارى (أو كما يسميهم المسيحيين) بقوله: (العبرة ستكون بمن يؤمن ويتبع الأحكام والوصايا وليس بالذي يضعها في جيبه أو يعلقها على

حائط بيته)، ولكن أين دعوة الإسلام لليهود والنصارى وللناس كافة باعتناقه بدلاً من أديانهم وليس مجرد الإيمان والإتباع بما تلتقي أو حتى تتحد فيها الأديان الثلاث؟! وهل يقر بهذا الكلام بقاء أهل الكتاب على إيمانهم المحصور برسول كل منهم والكافر بالرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم ورسالته، واتباع أحكام دينهم ووصاياهم؟!!

لاشك أن الله أرسل محمداً عليه وآله السلام رسولاً للناس كافة {وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً نذيراً} مما يفرض القول بكفر من لم يعتنق الإسلام من اليهود والنصارى ولاسيما وهم يشركون بالله ما ليس لهم به سلطان...

الحرية الإنسانية

الإنسان عبد لله:

فالإنسان من حيث خلقه وولادته لا يملك تحديد ذلك، وإنما هي إرادة الله التي تخلق الإنسان على الشكل الذي قضاه الله وقدره {وربك يخلق ما يشاء ويختار، ما كان لهم الخيرة، سبحان الله وتعالى عما يشركون} -القصص ٦٨-.

والعهد القديم يقول (ويل لمن يخاصم جابله. خزف بين أخزاف الأرض. هل يقول الطين لجابله ماذا تصنع أو يقول عمك ليس له يدان) -أشعيا ٤٥: ٩-.

والعهد الجديد يقول (بل من أنت أيها الإنسان الذي تجاوب الله. أعلّ الجبله تقول لجابله لماذا صنعتني هكذا؟) -رسالة بولس إلى رومية ٩: ٢٠- فهل معنى هذا أن الإنسان مسير، وأن الله ألغى الحرية الإنسانية عندما خلق الإنسان من عدم؟ صحيح أن العدم لا إرادة له، ولكن هل خلقه من الله في بيئة معينة أو أبوين معينين يجعله مسيراً؟ الإنسان حر...لماذا؟

يؤكد السيد المسيح عليه السلام أن الله وحده هو الصالح، وأنه لا يفعل فعله وفق دماغ الإنسان، وهذا ما أكده القرآن الكريم إذ وصف الله تعالى ذاته بأنه هو البر والمؤمن، وأنه لا يفعل فعله حسب دماغنا {لايسأل عما يفعل وهم يسألون} -الأنبياء ٢٣- . ويشرح السيد المسيح عليه السلام قوله ذلك بأن الله قد خلق الإنسان حراً ليكون أشد حياً لخالقه وليعرف جوده.. فإنه إذا خلقه بقدرته على كل شيء تركه حراً بجوده على طريقة يمكنه معها مقاومة الشر وفعل الخير، وأن (تعالى) على قدرته على منع الخطيئة لم يرد أن يضاد جوده فعملت قدرته وجوده عملهما في الإنسان فلم يقاوم الخطيئة وبذلك تعمل في الإنسان رحمة الله وبره (مختصر من إنجيل برنابا-كما مر سابقاً في موضوعه)... وهذا القول يلتقي مع القرآن الكريم بأن الله {على كل شيء قدير} ومع العهد القديم (لأنه قال فكان هو أمر فصار) -مزمور ٣٢: ٩- وأثبت القرآن أن الله غير محتاج لعبادة الناس {إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد} -ابراهيم ٨- و{إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم} -الزمر ٧-.

والقرآن يؤكد أن الله قد خلق الإنسان في أحسن تقويم، واحسن تقويم لا يعني أنه خلقه صالحاً أو لا طالحاً وإنما حراً وعلى شكل وقدرة وخاصة تجمع بين اختيار الخير والشر {وهديناه النجدين} أي طريقي الخير والشر بما خلق فيه {ونفس وما سواها، فآلهمها فجورها وتقواها} هذا ما خلق الله عليه الإنسان، والإنسان بدوره بقدرة الاختيار التي خلقت فيه {قد أفلح من زكاهها، وقد خاب من دساها} إما أن يختار تطهير نفسه من الذنوب فيفلح أو يدسها في الذنوب فيخيب ويفشل في امتحان الحياة بحريته وإرادته.. والفطرة الصالحة التي فطر الله الإنسان عليها هي هذه الخاصية التي جعلت الأبوين (يهودانه أو ينصرانه أو يمجانسه) كما يمكنهما أن يبقياه على فطرته المعترفة بعجزه وحاجته لخالقه، فطرة التسليم بأنه مخلوق لخالق، فطرة يأخذ بيدها الإسلام إلى الله الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، والذي ليس له كفواً أحد.. هذه هي الفطرة الصالحة للبر والتقوى كما هي صالحة للفجور والإثم... وإلا كان الإنسان غير حر الاختيار وبالتالي غير مسئول عن بره أو فجوره وبالتالي من العبث خلق الجنة والنار وبالتالي من الظلم وضع هذا المسير في الجنة أو في النار..

وقول الله تعالى واضح صريح {وقل الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر} -الكهف ٢٩- و{إننا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً} -الإنسان ٣- {وهديناه النجدين} -البلد ١٠- وفي العهدين القديم والجديد ما يشبه هذا المعنى.

وبالخلاصة للتوفيق بين هذه الآراء نقول: إن الإنسان يعيش في مجالين في الحياة: مجال النظام الكوني الذي خلق كجزء منه فلا يملك أن يلد من غير هذين الأبوين، ولا أن يأتي ذكراً أو أنثى، ولا أن يأتي بلون أبيض وبعينين زرقاوين أو بلون أسمر وبعينين سوداوين... هذا في ميدان خلق جسده وأعضائه وأما في ميدان تأثير الكون عليه فهو لا يملك السير على الماء بوضعه العادي، ولا الطيران في الهواء أيضاً بدون وسيلة طيران، وغير ذلك، فهو إذن مخلوق في هذا المجال بميدانيه دون إرادة منه ولا تدخل. وأما المجال الثاني فهو مجال العمل الإنساني الذي يصدر من الإنسان فيقع منه أو عليه، وهو يشمل ميدانين أيضاً: ميدان العمل الذي يقع منه أو عليه دون إرادة منه ولا تدخل، كأن يقتل شخصاً آخر دون إرادته وتصميمه سواء ببندقية أو بحادث سيارة مهما كان نوعها، وكأن يقتله شخص آخر دون إرادة وتصميم بأي شكل من الأشكال، وهذا الميدان يسمى أعمال القضاء والقدر أو لنقل ما قضاه الله عليه فلا يملك دفعه عنه ولا جلبه له. والميدان الثاني للعمل هو العمل الإرادي الاختياري الذي يقوم به الإنسان بإرادته ومشينته في الوقت والمكان اللذين يحددهما لذلك.. وهنا يتحمل كامل مسؤولية عمله بالثواب والعقاب، وهناك لا يتحمله. ويبقى هناك مفهوم القدر في الأشياء كما في الإنسان: فكل مادة خلقت بخاصية لا تتخلف عنها كالمسبولة في الماء، واللزوجة في الزيت، والصلابة في الحديد، والقطع في السكين، والحرق في النار، والاحتراق في الخشب... وهذه الخاصية في الأشياء ملازمة لها بشكل لا يمكن أن تتوقف إلا بمعجزة عندما يتدخل خالقها فيعطلها كما

حصل مع سكين إبراهيم فلم تقطع رقبة إسماعيل إذ باشر الذبح فعلاً، ونار إبراهيم التي أمرها خالقها {يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم} فكانت، وبحر موسى عندما ضربته بالعصا فانفلق إلى قسمين كل منهما كان كالجبل العظيم ثم عادا ثانية ليبتلعا فرعون وجنوده بعد أن مر موسى وقومه إلى الجهة الأخرى بسلام... هذا في الأشياء، وأما في الإنسان فغريزة النوع بميلها الجنسي، وغريزة التدين بميلها العبادي، وغريزة البقاء بميلها الدفاعي والهجومى... كلها خصائص مفطورة في الإنسان على وجه تسمح له باستعمالها في حياته كما يستعمل خاصية القطع في السكين، وهذه الخصائص أو القدرات في الأشياء والإنسان هي ما يسمى بالقدر الذي قدره الله في الأشياء ولا علاقة للإنسان ولا للأشياء بها ولكن باستخدامها، وإنما الإنسان بإرادته واختياره يستخدمها: فإن جاء استخدامه منسجماً مع إرادة الله كان العمل صالحاً، فلا يستخدم السكين لقتل نفسه أو صديقه أو غيره دون حق وإلا كان قد عصى الله وكان عمله طالحاً وإنما يستخدمها في شئونه المنزلية المباحة التي في تناولها طاعة لله من طبخ وقطع وغيرها الثواب، وغريزة النوع يستخدم ميلها الجنسي في الزواج المشروع فيثاب على عمله ولا يستخدمها في الزنى فيؤثم... وهكذا كل الخصائص والقدرات في الأشياء والإنسان...

ونعود لهذا البحث كما ورد في الكتاب موضع نظراتنا فنجده يضع العنوان التالي:

الله هو الهادي وهو من يضل، ويقول بأن الآيات القرآنية يبدو منها لأول وهلة كأن الله يحكم بالهدى والضلال {قل إن الله يهدي من يشاء ويهدي إليه من أناب} -الرعد ٢٧- {يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين} - البقرة ٢٦- {يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء} -إبراهيم ٢٧- {كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب} -غافر -... ويعلق الكاتب فيقول بأن النظرة المدققة تؤكد ما سبق القول من حرية الإنسان، ويوضح ما فهمه من الآيات في ضوء ذلك بأن الله يبسر لكل طريق الخير أو الشر الذي يطلبه سواء كان ذلك في النية أو في العمل. ويستشهد على هذا الفهم بنصوص من العهد الجديد والعهد القديم أيضاً ويورد ما سبق أن أوردناه في إنجيل برنابا عندما يقول (وعليه أقول لكم حقاً أن أساس القدر -ويقصد القضاء حسب الشرح الذي أوردناه سابقاً- إنما هي شريعة الله وحرية الإرادة البشرية..)

ويقول: فالإيمان بهدي الله إن شاء، أما الضلال فللذين لا يسمعون ولا يعقلون، ولم يشأ الله أن يهديهم لعلمه جل وعلا بما تكنه قلوبهم وبما يأتون من أعمال لا يعلمها إلا هو، ولكن من رحمته تعالى أن أرسل الرسل والأنبياء ليذكروا الناس بما سبق أن أودعه الله في فطرتهم من الإيمان به وباليوم الآخر حتى لا تكون للناس حجة يوم الدين...

ويعود ويستشهد بقول إنجيل برنابا عن السيد المسيح والنبي عاموس الذي يستشهد السيد المسيح بقوله بأن استخدام عبارة (أم يكون في المدينة شر ولم يفعله

الرب) لا تعني الحرفية وإنما تعني حسب ما يقوله الناس في تقديرهم وفهمهم أنه شر ومصيبة وليس هو كذلك في الحقيقة، إذ هو ابتلاء من الله ليلمس فضل الله عليه، ولا سيما أن البلايا تطهر الإنسان من الشر الذي فعله أو تمنعه عن ارتكاب الشر أو تعرفه بتفاهة الحياة الدنيا فتشوقه إلى الحياة الأبدية...

والقرآن الكريم عندما يقول { وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون } - الروم ٣٦ - ويقول { وإننا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور } - الشورى ٤٨ - فواضح في هاتين الآيتين أن الإنسان يفرح ويحزن بما يقدره من نعمة أو نقمة نتيجة تأثيرها عليه، ويعني قوله تعالى { وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً } وقوله { وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم } أن تقدير الإنسان للأمور تابع مما يراه مصلحة أو مضرة فورية تتحصل له من الأمر الذي يتوفر له، ولكن تقدير الله تعالى الذي يأتي بهذا الأمر شيء آخر. ومن هنا جاء الحث على الصبر عند حدوث أي أمر للإنسان يراه مصيبة، ونرى القرآن يسميها تبعاً لتقدير الناس لها أحياناً بنفس التسمية، وإلا فماذا يسمى الإنسان موت ابنه غير أن مصيبة قد وقعت له؟ وأما حقيقة ما يتحصل للإنسان من ذلك فلا يعلمه إلا الله سبحانه علام الغيوب...

وقبل أن نعقب على هذه الأفهام المتعددة نكملها من خلال إيراد نصوص قرآنية توحى بأن الإنسان مسير مثل { سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا، ولا حرمنا من شيء، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا، إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون. قل فقله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين } - الأنعام ١٤٨ و ١٤٩ - فهؤلاء المشركون يدعون أنهم مشركون تبعاً لأبائهم، وأن ذلك مقدر مفروض عليهم مكرهين عليه، ولا سيما أن الأبوة مفروضة عليهم، ولكن الله يكذبهم بهذا الظن ويقول لهم اعلموا أن الله لو شاء لهداكم أجمعين بأن فرض عليكم رغماً عنكم الهدى ولكنه قد جعل لكم حرية الاختيار ووضع بين أيديكم كما وضع بين أيدي آباءكم الهدى والضلال ودعاكم للأخذ بالهدى وترك الضلال، فأنتم باختياركم مسئولون عن ضلالكم وليس آباءكم ولا ربكم.. ويذكرهم الله أن الأبوة ليست حجة للضلال أو الهدى بين إبراهيم المؤمن وأبيه المشرك، وبين نوح المؤمن وابنه المشرك. وأما البيئة وتأثيرها فأتباع الديانات المؤمنون عاشوا جنباً إلى جنب، وفي نفس البيئة، مع من كفروا بتلك الديانات... والنتيجة أن ظروف البيئة والوراثة لا تؤثر في الإيمان والكفر إلا قبل التكليف وفي سن الصغر، وأما بعد البلوغ فالإنسان هو صاحب القرار دون النظر إلى أبويه وبينته مهما تأثر بذلك ابتداءً. وقد مر بنا في مواقف متصلة بإرادة الله ومدى تصادمها مع إرادة الإنسان أن الإنسان هو المسئول عن استجابته أو رفضه لأمر ربه ونهيه، ولماذا أرسل الله الرسل إن كان قد قدر وفرض أن هؤلاء كافرون وأن هؤلاء

مؤمنون؟! ثم لماذا يدعو الله وأنبياءه العاصين للتوبة إذا كان قد قدر عليهم العصيان ولا فكك لهم منه؟! إن دعوتهم للتوبة هي بالعكس دليل قدرتهم على اختيار الطاعة والإيمان ولا ينقصهم إلا اتخاذ القرار لذلك بمحض إرادتهم وحریتهم..

ويرد إنجيل متى ٢١: ٤٣، ٤٤ وإنجيل لوقا ١٨: ٢٠ و٣: ٨، ٩ التهديد لبني إسرائيل فيقولان: (الحجر الذي رفضه البنائون قد صار رأس الزاوية من قبل الرب، كان هذا العجيب في أعيننا، لذلك أقول لكم أن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره، ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه) (ولا تبدنوا تقولون في أنفسكم لنا إبراهيم أباً، لأنني أقول لكم أن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم. والآن قد وضعت الفاس على أصل الشجر، فكل شجرة لاتصنع ثمراً جيداً تقطع وتلقى في النار)... وهذه نبوءات تشير إلى انتقال رحمة الله من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل وغيرهم لأن بني إسرائيل تركوا الله وأحبه غيرهم، وهاهي إسرائيل قد سقطت على الأمة الإسلامية فترضضت وبقي أن تسقط عليها الأمة الإسلامية فتسحقها، والأشجار المثمرة يقصد بها عباد الله المؤمنون.

التعقيب

إن إذن الله ومشيئته وإرادته وعلمه هي من صفاته سبحانه المطلقة والتي تليق به كخالق مدبر لهذا الوجود الذي خلقه بما فيه الكون أو الأكوان ونظامها أو نظمها التي قدرها لها، والمخلوقات الحية بجميع أنواعها وأرقاها وأحسنها تقويماً هو الإنسان...

فالآيات التي تشير إلى أن الإنسان لا يعمل عملاً إلا بإذن الله أو مشيئته أو إرادته فإنها تعني أن الإنسان لا يعمل عمله هذا رغباً عن الله، لأن الله سبحانه قادر بقدرته على كل شيء أن يتدخل في أي مرحلة من مراحل العمل ويمنع فاعله من عمله كلياً أو جزئياً، ولكنه سبحانه قد خلق في الإنسان القدرة على الاختيار، وأعطاه حرية الإرادة واتخاذ القرار بالقيام بالعمل أو تركه، يتركه سبحانه لقراره وقدرته وإرادته واختياره وحرية ليكون مسئولاً تمام المسؤولية عما يفعل كلياً أو جزئياً، ويكون بالتالي جزاؤه على عمله بالثواب أو العقاب حقاً وعدلاً ولا سيما عندما يأتي من نوع ذلك العمل بالضبط..

وأما لو تدخل تعالى ومنع الإنسان من هذا العمل، أو فرض عليه هذا العمل أو غيره، فإنه لاشك يسلبه الاختيار وحرية القرار، وبالتالي يكون مسيراً ومجبوراً على ما يصدر منه أو يقع عليه، وبالتالي لن يكون مسئولاً عن ذلك، والحق والعدل أن لا يكون هناك جزاء بالثواب والعقاب على ذلك، وإذا حصل وصبر الإنسان على هذا العمل الذي أصابه بما يحب أو ما يكره من باب الصبر على الابتلاء، طلباً للأجر

والتواب من الله، فإنه لصبره هذا ينال الثواب وليس لذات العمل الذي وقع منه أو عليه، ويكون عندها هذا الثواب حقاً وعدلاً...

هذا بالنسبة للإذن والمشينة والإرادة التي ترد في بعض النصوص القرآنية والنبوية، وأما بالنسبة للعلم فإنه تعالى محيط بعلمه بكل خلقه دون حدود الزمان والمكان التي تحد علم الإنسان المخلوق. فصفة علم الله تليق به تعالى كخالق، وصفة علم الإنسان تليق به كمخلوق، ولا مجال للمقارنة بينهما، فعندما يقوم الإنسان بعمل من الأعمال فإنه لا يمكن أن يغيب عن علم الله تعالى المحيط بكل شيء حتى قبل أن يخلق العامل ويصدر عنه العمل، ولكن هل قام الإنسان بعمله بناء على علم الله، فكان علم الله مسيراً للإنسان في عمله؟ بالطبع لا، لأن عمل الإنسان تم وجرى وحدث ووقع بناء على إرادته هو واختياره هو الذي منحه الله له ولكن الله يعلم أن هذا الإنسان سيقوم بهذا العمل في وقت كذا ومكان كذا وبشكل كذا وفقاً لإرادته واختياره فيتركه يمارس ذلك متحملاً مسؤليته عنه تماماً ليستحق عدل الجزاء المناسب عليه، فمثلاً (ولله المثل الأعلى) لا يخرج ولا يدخل أحد من الجنود والناس إلى معسكر ما تحت الحراسة إلا بإذن ومشينة وإرادة وفي إطار علم الضابط المناوب وجنوده، وعندما يترك لهم الدخول والخروج دون عودة إليه فإن أحداً لا يفعل ذلك ضد إذنه ومشينته وإرادته وخارج علمه لأنه بعلمه يعلم كل من يدخل ويخرج لكنه يترك لكل حركة الدخول والخروج في أيام الإجازات مثلاً.. وهكذا المولى سبحانه وتعالى... لذلك لا علاقة لعلم الله بعمل الإنسان إلا من باب الإحاطة كما يحيط بكل شيء من أجل الجزاء بالتواب على العمل أو العقاب عليه.

وبذلك انتهت دراسة كتاب نظرات في إنجيل برنابا
والحمد لله رب العالمين.

٣- دراسة مقارنة لكتابين عن الدروز
الكتاب الأول - أضواء على العقيدة الدرزية
لمؤلفه: أحمد الفوزان

مقدمة:

انبثقت فرقة الدروز من الإسماعيلية في بداية القرن الخامس الهجري في مصر إبان الدولة الفاطمية، وهي ذو طابع باطني لأنها أخفت عقائدها عن فرق الإسماعيلية الأخرى. والدروز يفضلون تسمية (الموحدون) بحجة أنهم أهل توحيد للخالق منذ القدم، ولكنهم لا ينكرون تسميتهم بالدروز. ولفظ درزي تنسب إلى محمد بن

اسماعيل نوشتكين الدرزي الذي أله الحاكم بأمر الله وبشر بمذهبه في وادي التيم في بلاد الشام ويقال بأنه كان أحد أركان القوة الخفية اليهودية للكيد ضد النصرانية والإسلام، ولذلك يذكر أن الدروز قتلوه وما زالوا يلعنونه، وقد ينسبون إلى منصور أنوشتكين الدرزي، أحد قواد الحاكم بأمر الله وما زال محل إجلال عظيم عندهم.

أصلهم:

بعض المؤرخين والباحثين يرون أن أصلهم عرب، وبعضهم يراه مزيجاً من عرب وفرنس وهنود، وحاول أحد المستشرقين الفرنسيين، وسار على دربه المستشرقون الإنجليز، أن ينسبهم إلى الجنود الفرنسيين إبان الحروب الصليبية، ولكن المرجح مع تتبع شيوخهم وأمرء عشائهم من آل معن وآل شهاب وغيرهم القول أنهم عرب، وإن كان هذا لا ينفي أن بعض دعواتهم من أصل عجمي. وهم يتجمعون هذه الأيام في سورية ولبنان وفلسطين والمغرب.

أصل مذهبهم:

بنيت عقائدهم على العقائد الفاطمية وعليها بنوا مصطلحاتهم، ولكن لا بد من الوقوف على الاسماعيلية لمعرفة المذهب الدرزي وتوضيحه طالما أن الاسماعيلية هي الأساس الأول لعقيدتهم وإن كانت المصطلحات الفاطمية يستخدمونها بمدلولات جديدة دون أن تبعد عنها كثيراً، فعقيدة الفاطميين تقوم مع العلم والعمل، أي على الظاهر والباطن كما يقولون، فكل عبادة أساس خاص لا يعرفه إلا أئمتهم وعلمائهم مما يبعدهم عن أهل السنة من المسلمين، وهذا هو حال الدروز الذين اهتموا بالتأويل وتركوا الظاهر. وعند النظر في العقائد الإسماعيلية نجدها تطورت من بلد إلى آخر ومن زمن إلى آخر حتى كاد أهل بلد أو زمن أن لا يعترفوا بما يقوله أهل بلد أو زمن آخر. وقد وصل تأويل الإسماعيلية في فارس إلى التآليه الصريح لأنتمهم وطرح الفرائض الدينية بحيث قالوا عن الصلاة أنها مجرد اتجاه قلبي للإمام، والصوم هو عدم افشاء أسرار الدعوة، والحج مجرد زيارة للإمام.. مما جعل تأويلاتهم تلقى قبولاً لدى ضعفاء الإيمان الباحثين عن مبررات للتفقت من الالتزامات الدينية والأخلاقية للشريعة الإسلامية، فانتشرت دعوتهم في بلاد الشام وخاصة في قبائل تنوخ في المعرة ووادي التيم وجبال لبنان. وقد اتبعوا نظام الفلك: فقسّموا العالم إلى ١٢ جزيرة أو منطقة لأن السنة ١٢ شهراً، وجعلوا لكل داعية ٣٠ نقيباً لأن الشهر ٣٠ يوماً، وجعلوا لكل نقيب ٢٤ داعياً فرعياً ١٢ منهم للنهار عملهم التستر والاندساس في حلقات العلماء ليخرجوهم ويشككوا بهم وبعلمهم، فيخفي الواحد منهم إسماعيليته ويظهر كأنه من نفس الفئة التي يخالطها.

وأما فلسفة الإسماعيلية فتقوم على التأمل في الكون والمخلوقات وتطبيق ذلك على الدين، مما جعلهم يدمجون ما أخذوه من الفلاسفة والأديان والعقائد القديمة بالدين

الإسلامي ليصدروا عن عقيدة خليط من كل الفلسفات والديانات. وهم يقولون بالظاهر والباطن حتى قال داعيهم الشيرازي «من عمل بالباطن والظاهر معاً فهو منا، ومن عمل بأحدهما فقط فالكلب خير منه وليس منا». وإيمانهم بالله مبني على نظراتهم التأملية، ولذلك فهم يجردون الله تعالى من كل صفة تدل عليه بحجة أنه سبحانه منزّه عن صفات المخلوقات. ويقولون بأن نفي المعرفة هي حقيقة المعرفة، وسلب الصفة هي نهاية الصفة، فأسماء الله الحسنى جعلوها لما تسميه الفلسفة بالعقل الكلي الذي وصفوه بكل صفات الكمال كما قال الفلاسفة، ولكنهم صبغوا آراءهم بالصبغة الإسلامية، فقالوا أن الله تعالى رمز إليه بالقلم، وأن هذا العقل الكلي هو الذي ابدع النفس الكلية ورمزوا إليه باللوح المحفوظ، وجعلوا لهذه النفس جميع صفات العقل الكلي، فكان العقل الكلي هو السابق والنفس الكلية هي التالي وهما اللذان خلقا القرآن.

ومن مغالاتهم أنهم وصفوا الأنمة بصفات ليست بشرية، فقولهم للواحد منهم بأنه وجه الله ويده وجنبه أي أنه الصراط المستقيم والذكر الحكيم والقرآن الكريم وأنه المحاسب للناس يوم القيامة بين الجنة والنار، فالإمام الإسماعيلي يقابل العقل الكلي فله جميع صفاته، ويأتي بعد الإمام في المنزلة كبار دعائه الملازمون لمقر إمامته، وهم (باب الأبواب) ثم (الحجة) ثم (داعي البلاغ) وكلها مراتب سرية، ثم بعدهم (داعي الدعاة) وهو أعلى مرتبة ظاهرة.

نشوء المذهب الدرزي:

عندما وفد الدعاة من الفرس إلى مصر، ونادوا بألوهية الحاكم بأمر الله، وترأسهم حمزة بن علي، ومحمد بن اسماعيل الدرزي، والحسن الفرغاني (الأخرم) فإنهم صاروا من حاشية الحاكم ولازموه بشكل دائم وخاصة حمزة الذي ألف كتاباً ذكر فيه حلول روح الله في علي بن أبي طالب ثم العزيز ثم الحاكم بأمر الله. وظل المذهب مستوراً حتى عام ٤٠٧ هـ حين أعلن حمزة والدرزي الدعوة وانقسم الدعاة والأتباع إلى فريق الدرزي وفريق حمزة. وبعد ثورة الناس ضدهما في مصر حتى كادا يقتلا تضاربت الأقوال في الدرزي، ويقال أنه قتل عام ٤٠٧ هـ في وادي التيم. أما ما فعله الدرزي من الدعوى بألوهية الحاكم بأمر الله فقد باءت عليهم بالغضب حتى غاب حمزة عام ٤٠٩ هـ لتعرضه للخطر واختفى الحاكم بأمر الله عام ٤١١ هـ ثم قتل بعد أن حاول أكبر علماء المذهب الإسماعيلي حينذاك أحمد الكرمانى من تهدة الثورة ضد التالية للحاكم بأمر الله من الناس عامة اسماعيليين وغير اسماعيليين، وبقي في مصر حتى قتل الحاكم. ثم تولى الدعوة الدرزية بعد حمزة داعي بهاء الدين السموقي المعروف بالضيف، وكان موقفه خطراً لأن الدولة في عهد علي بن الحاكم أصبحت تحارب الدعوة والعقيدة الدرزية حتى عاد المنافقون من اتباع المذهب إلى الفاطمية مما جعل السموقي يعتزل الدعوة عام ٤٣٤ هـ.

شخصية الحاكم بأمر الله:

ولد عام ٣٧٥ هـ عام ٩٨٥م وتولى عهد الحكم عام ٣٨٣ هـ وهو في الثامنة من عمره وتولى الحكم عام ٣٨٦ هـ تحت وصاية ثلاثة من كبار رجال الدولة الفاطمية هم أبو الفتوح الصقلي، والحسن الطلبي، والقاضي محمد بن نعمان، وكلا الأخيرين من المغرب، ولكن الحاكم نكل بهم عندما تدخلوا في السلطة واستقل بالحكم في الخامسة عشرة من عمره. وقد اختلفت الآراء في شخصية الحاكم حتى قيل بأنه ذو شخصية مزدوجة شريرة وخيرة، فكانت له تصرفات غريبة: أطال شعره، ولبس الصوف لسبع سنوات، ولم يركب إلا الحمير، وأكثر السياحة للصحراء واستماع الأغاني الصوفية ورقصاتهم، وكان يطلب من رفقته كشف سوءاتهم لينظر إليها ويجذبها بيده، ومن لم يفعل ذلك كان يهلك، وكل ذلك بحجة رؤية أساس الإنسان. ومنهم من رأى أنه لم ينحرف عن الإسلام إلا في أمور بسيطة، ومنهم من يراه عقلاً عبقرياً طموحاً ليكون ملكاً مقدساً، ومنهم من يراه إلهاً وهم الدروز، ومنهم من يراه أحد الحكام والخلفاء وسليل الرسول عليه وآله السلام مما يجعله أعلى من مستوى غيره من البشر وإن كان أدنى من مرتبة النبوة، ومنهم من رآه شاذ الطباع مريضاً عقلياً كما قال مؤرخو العرب والنصارى القدامى والحديثون منهم. والمؤلف يرجح أنه كان ذكياً عبقرياً وجد في الدعاة الفارسيين وسيلة لتحقيق مآربه عندما استجاب لرغباتهم ومعتقداتهم وآرائهم، وخاصة بعد أن وجد فيهم خير ما يؤول تصرفاته الغريبة لتوحي بقدسيته وألوهيته، بعد أن تأثر منذ طفولته بالهالة المقدسة التي أحيط بها كإمام فاطمي بفعل أولئك الدعاة الكبار من الفرس، وكان يرى كيف تسجد له حاشيته كلما مر بهم مما جعله يطمح ليكون إلهاً مثل الملوك القدامى.. واستغل أولئك الدعاة هذا الطموح ورسموا له هذه السياسة كأنه الخالق والمحيي والمميت والرزاق والوهاب.. إنه الحاكم بأمر الله.. فإذا قتل فهو المميت، وإذا وهب فهو الرزاق والوهاب، وإذا عفى فهو المحيي.. وهذا كله واضح في رسالة (السيرة المقدسة) لدى الدروز.

ومما ورد من أفعاله أنه أبطل كثيراً من عبادات الفاطميين عام ٣٩٣ هـ وألغى الزكاة عام ٤٠٠ هـ، وألغى صلاة الجمعة والعيدين توطئه لإبطال فرائض الشريعة كما تقول كتب الدروز المقدسة.. وحاول عام ٤١١ هـ عندما اختفى شرقي حلوان أن يشعر من خلفه بأنه اختفى كأنه انتقل من الحالة الناسوتية إلى اللاهوتية. ولكن صاحب (النجوم الزاهرة) يتهم أخته ست الملك بأنها قتلته لأنه كان قد اتهمها بشرفها، وأما الدروز فيرون غيبته احتجاب نوره عن خلقه، ويرون أن حمزة قد خلفه بعد غيبته، وأن هذه الغيبة ستستمر ليوم القيامة، ولكن حمزة يرى الظهور وسيكون في مصر بينما يراه غيره في الصين بين قوم ياجوج ومأجوج وهم الدروز الذين يرون أن له حقيقة لاهوتية إذ أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأنه لم يلد ولم يولد وإن كان الدروز ينفون عنه فكرة الحلول أو التجسد..

حمزة بن علي: ولد في (زوزن) في خراسان بفارس عام ٣٧٥ هـ يوم ولد الحاكم بمصر مما يشك أن يوم الخميس يوم مولدهما هو مناسبة صلاة الموحدين مساء

كل خميس. وجاء حمزة إلى مصر وعمره عشرون سنة وتبع الحاكم، ولقب نفسه بالفاطمي، ويظهر أنه هو الذي اقنع الحاكم بكل ما قام به وأدعاه لأن سرية ذلك تكشفت عام ٤٠٨ هـ بعد أن أعلنها الدرزي المنافس العنيد لحمزة، الذي أزاح الدرزي بسهولة مع نشوء المذهب الدرزي لأنه بظهور حمزة عام ٤٠٨ هـ بدأت الدعوة الدرزية ولكنه اختفى عام ٤٠٩ هـ خوفاً ثم ظهر عام ٤١٠ هـ ثم اختفى نهائياً عام ٤١١ هـ بعد اختفاء الحاكم. وحمزة هذا ادعى أن له أدواراً مختلفة منذ بدء الخليقة: فادعى أنه شطنيل في عهد آدم، وفيثاغورس في عهد نوح، وداود في دور إبراهيم، وشعيب في دور موسى، ويسوع المسيح في دور عيسى، وسلمان الفارسي في دور محمد عليه السلام، وحمزة في دور الحاكم. ولا يعلم شيئاً عن حمزة بعد اختفاء الحاكم عام ٤١١ هـ لأن الظاهر علي بن الحاكم اضطهده وأصحابه حتى نسيه الناس بعد أربعين يوماً من ولاية الظاهر.

الإله عند الروز:

إنهم يرون أن الصورة التي ظهر فيها الحاكم بأمر الله غير الحقيقة لأنها مجرد ناسوت لحقيقة إلهيته، كما أنهم يرون توحيد الإله هذا، وتنفي فلسفتهم عن الله الصفات والأسماء والحالات والجهات والتشبيه والقدم: فهو الجمال لا الجميل، وهو القدرة لا القدير، وهو الحياة لا الحي، وهو العلم لا العليم.. بحجة أن الله غني عن هذه الصفات.. فالحاكم بأمر الله لا يحد بمكان ولا زمان ولا باسم ولا بصفة ولا بعرض ولا بجوهر ولا بحد ولا بحركة ولا بسكنة ولا ببداية ولا بنهاية.. فكان الإله عندهم مجموعة من المعاني المجردة.. حتى قال كمال جنبلاط عنه «إن الله لطف ذاته فسماها حقاً، وكنف ذاته فسماها خلقاً» - من أضواء علي مسلك التوحيد - وهم يرون أن الناسوت الذي يظهر فيه اللاهوت ليس حقيقة، إنما هو مجرد تشخيص لإنسان كامل، فإذا رآه العارفون نعموا بذلك، ولكنهم لا يرون أن ذلك حلول في ذات الله فهم ينزهون المعبود عن ذلك ويرونه واحد أحد ولا يشاركه في عزته وملكوته وأحاديثه مشارك وإنما يتجلى ويتداني وينكشف للعارف بقدر ما يقدر له صفاؤه وتوجهه إلى الأعلى. كما يرون مقامات إلهية من التجليات في العلي فالبار فأبو زكريا فعلي فالمعز فالقائم فالعزيز والحاكم. وبإيجاز يرى المؤلف إن اسم الموحدين قد جاء مما يقولونه بتوحيد معبودهم وإن كانوا يرون هذا المعبود يتخذ لنفسه مقامات ناسوتية يستتر بها ويتقرب بها للبشر، مع أن هذا الظهور له علاقة بمذهب التناسخ المعروف لدى البوذية والهندوكية الذين يرون أن بوذا وشيفا قد ظهرا على هيئة حيوانات وطيور وبشر وغير ذلك.

الحدود الروحانية:

والعقيدة الفاطمية ترى أن توحيد الله لا يكمل إلا بمعرفة مراتب الحدود الروحانية وهي: (العقل، والنفس، والجسد، والفتح، والخيال).

وأن هناك حدوداً جسمانية هي: (النطقاء، والأوصياء، والأئمة، والحجج، والدعاة) وهذه مماثلات لتلك، ولكن حمزة طور المبدأ فجعل الحدود العلوية نفس

الحدود الجسمانية، والكل بشر يرون ويسمعون. فالله كما يرون أبداع العقل الكلي الذي وجدت بواسطته النفس الكلية، والتي وجدت بواسطتها كل المخلوقات. فالاسماعيلية يرون أن العقل الكلي هو الخالق الحقيقي، ولذلك كانت له الأسماء الحسنى الواردة في القرآن، وما الإمام الفاطمي إلا ممثل لهذا العقل الكلي فكل صفاته ومناقبه تطلق على الإمام فهو الواحد الأحد.. وأما الدرور فيرون أن المعبود أبداع من نوره العقل الأرفع أو الكلي الذي اشتمل على كل ما كان وما يكون، فكان علة العزل وأصل الوجود وغايته معاً، وهو الإرادة وهو القلم والقضاء والحجة الكبرى وعين الزمان والإمام والباب، وهو حمزة بن علي مما جعل حمزة هذا يقول في رسالته (سبب الأسباب) بأن المولى سبحانه اصطفاه وأبدعه من نوره قبل أن يكون مكان وإنس وجان، وقبل آدم العاصي والناسي، وأنه دعا إلى توحيد العلي الأعلى وعبادته بصور مختلفة ولغات مختلفة.. وبذلك تتضح الصلة بين تفسيراتهم وبين فكرة الثنوية الفارسية القديمة التي قال بها (ماني) الذي قال بإله النور وإله الظلمة، إله الخير وإله الشر.. وبعض الدرور يرون العقل الكلي أول الحدود الخمسة وهي:

- ١- العقل الكلي الذي يعلوها كلها.
- ٢- النفس وهي النفس الكلية وحجة العقل والمشينة وهرمس واخنوخ وإدريس ويوحنا.
- ٣- الكلمة، وهي الجناح، والجناح الرباني وسفير القدرة.. وبشير المؤمنين..
- ٤- السابق الصغير وهي الباب السابق وباب حجة القائم والباب الأعظم والجناح الأيمن.
- ٥- التالي وهي الجناح الأيسر وربع الحدود وآخر الحدود ولسان المؤمنين وسند الموحدين.

وهؤلاء يتقصدون الثوب البشري مثل سائر البشر دون أن يعرفهم الناس، وأحياناً تكون هذه الحدود (الجد والفتح والخيال) حدوداً خاصة للتالي مما يجعلها تصبح ثمانية حدود. ثم جعلوا حدود الإمامة والتوحيد سبعين كما يلي:

- ١ - النفس الكلية، وله ١٢ حجة في الجزائر، و ٧ دعاة للأقاليم.
- ٢ - الكلمة، وله ١٢ حجة، و ٧ دعاة. ٣ - السابق، وله ١٢ حجة.
- ٤ - التالي، وله ١٢ حجة.
- ٥ - الداعي المطلق، وله مآذون واحد، ومكالبان، أو مكاسران.

ويرون أن الحدود السبعين قد ذكرت في القرآن وفق تأويل حمزة للآية الكريمة {ثم في سلسلة ذرعتها سبعون ذراعاً فاسلكوه} أي أن ميثاق قائم الزمان حمزة بن علي سلسلة بعضها في بعض وهم سبعون رجلاً في دعوة التوحيد..

الأدوار السبعة:

لقد أوجد الاسماعيليون والدرور الأدوار السبعة، فقالوا بأن النطقاء سبعة، وأسهم سبعة، والأئمة سبعة، وأول النطقاء آدم وأساسه شيث، ودام ١٢٠٠ سنة، وأن

آدم كان قبله الطم والرم والحن والجن والبن وهؤلاء شرائع ما قبل زمن التوحيد، وأما آدم فهناك ثلاثة كلهم آدم هم: آدم الصفا (أي صفي الله) الذي خلقه بيده بعد ٣٤٣ مليون سنة من بدء العالم ظهر في عالم الجن واسمه (شطنيل) وأمر الملائكة بالسجود له وطاعته ففعلوا إلا (حارثاً) فإنه أبى واستكبر. وأدم العاصي لأنه عصى ربه، وهو (أخنوخ) حجة آدم الصفا، وسمي العاصي لأنه عصى باغواء الشيطان، ولقبه (حوا). وادم الناسي وهو (شرخ) ثاني حجة آدم الصفا، واسمه الآخر شيث ولقبه الناسي. ويرى الدرور أن آدم الصفا قد اختار آدم العاصي كذكر وادم الناسي كأنثى واسكنهما الجنة وأوصاهما بعبادة (البار) وهو الله الذي تجلى في شكل ناسوت زمن شطنيل أو آدم الصفا. وهذا هو تاويل الدرور لقصة آدم في القرآن، وهم يفسرون الجنة بدعوة التوحيد، كما يفسرون الأكل بنبل المنزل الرفيعة، والشجرة بادعاء منزله شطنيل وأما الشيطان فهو ليس ابليس وإنما المنافس له على شطنيل، وفسروا الحية بأنها داعي أخنوخ باسم أنيل، كما يرون أن شطنيل قد رحم البشر وطلب لهم العفو من البار فعفا عنهم.. وهذا كله هو الدور الأول.

وأما الدور الثاني: فكان فيه نوح الناطق الثاني وأساسه سام، وأما طوفان نوح فيروونه شريعته، وأما الفلك فهو دعوته المنهجية.

وأما الدور الثالث: فالناطق فيه هو إبراهيم وأساسه إسماعيل.

وأما الدور الرابع فقد بدأ في عام ٣٨٠٠ بعد آدم، وناطقه موسى، وأساسه يوشع بعد هارون، وهو أطول الأدوار.

وأما الدور الخامس فناطقه عيسى وأساسه شمعون، وقد بدأ عام ٥٥٠٠ بعد آدم، ويعتقد الدرور بصلبه عكس المسلمين.

وأما الدور السادس فكان ناطقه محمد وأساسه علي.

وأما الدور السابع فكان ناطقه محمد بن اسماعيل وأساسه قداح.

وهم يرون أن الأنمة سبعة هم: علي بن أبي طالب، والحسن، والحسين، وعلي بن الحسين، ومحمد الباقر، وجعفر الصادق، ومحمد بن إسماعيل بن جعفر. ويرون أن علياً كان إماماً وناطقاً معاً، وهكذا كان محمد بن إسماعيل..

وبالمقارنة نجد أن آراء الدرور حول النطقاء والأسس تلتقي مع آراء الفاطميين لولا بعض الاختلافات. وأما الغموض والخفاء في عباراتهم واصطلاحاتهم بشأن الحدود الذين ذكروهم ما هي إلا محاولات لإضفاء المهابة والتعجيز للأفهام ليسهل صيد الناس واحتواؤهم.

العقيدة الدرزية:

هم فرقة باطنية لا تكشف عقائدها ولا أئمتها لتخفي مذهبها خوفاً من نقمة المخالفين لهم كالليونان القدماء المنسويين إلى أرسطو وأفلاطون وفيثاغورس الذين

يعتبرونهم الدروز أسيادهم الروحانيين، ولكنهم طبقوا مذهبهم على الإسلام بعد أن أحاطوا ذلك بالحذر والكتمان، الأمر الذي جعل بعض الكتاب يخرجهم عن الإسلام ويطعن في مسلكتهم الخلفي، وإن كان بعضهم الآخر يرى مذهبهم محصوراً في الإسلام ولا يخرج عن القرآن ولكنه يفسره تفسيراً باطنياً خاصاً يبعده في التأويل مما جعلهم يتهمون بالغلوء..

فتفسير (سبع سماوات طباقاً) بأنها إسماعيل ومحمد وأحمد وعبد الله ومحمد والحسين وعبد الله، وهم أئمة الستر وجدهم الأعلى الحسين بن علي. فالستر قد بدأ من أعدائهم العباسيين. ومن الكتاب من يراهم مسلماً توحيداً استجاب إلى الإسلام وإن كان أقدم منه ولكنه اتخذ سبيل الباطن في الشرائع واتخذ القرآن الكريم أساساً له واستمد من معانيه الباطنية حقيقته مع تقديس سائر الكتب السماوية، فهم يرون أنفسهم اسماً مستعاراً لمسلكتهم التوحيد ذاته. ولكن كيف يستطيع أي باحث أن يرى ارتباطهم بالإسلام وهم يتخذون النقية مذهبهم مما يجعل هذه الأقوال موضع شك تام ويفرض استنتاج مذهبهم بالمقارنة بين النصوص وبين ما قاله أبناء المذهب.

فالقول بارتباط الدرزية بالإسلام هو لكون دعائهم كانوا يعيشون في وسط إسلامي هو مما أثر على وضع مذهبهم الجديد مع أن حمزة بدأ مذهبه الجديد بإعلان (ميثاق ولي الزمان) الواجب القسم به والإقرار بما جاء فيه على من يريد أن يكون درزياً.. هذا الميثاق يتبرأ من جميع المذاهب والأديان والمعتقدات، ويحصر الاعتقاد في عبادة الحاكم وطاعته وتوحيده توحيداً مطلقاً مع التحذير بأن من يرجع عن ذلك يستحق العقوبة.. وإلا فهو من الموحدين الفائزين. وبهذا الميثاق أقاموا شريعتهم الجديدة على الباطن المحض بدلاً من الظاهر، فأبطلوا فرائض الدين، وقالوا عن الزكاة بأنها توحيد الحاكم وترك ما عليه الناس، وسموا فرائضهم بالتوحيدية وهي معرفة الباري وتنزيهه ومعرفة الإمام قائم الزمان (حمزة) وطاعته، ومعرفة الحدود بأسمائها وألقابها ومراتبها وطاعتها. وبهذه الفرائض الثلاث يصبح الواحد منهم موحداً دون القيام بأي فريضة غير فرائض المولى الحاكم، كما اعتبروا التقمص والتناسخ عقيدة مؤكدة فهم يقولون في رسالة (الأسرار ومجالس الرحمة للأولياء والأبرار): إن الجسد لا يرجع بعد الموت ولكن النفس تحل في جسد آخر، فنفس الموحد تنتقل إلى موحداً، ونفس المشرك إلى المشرك، ولا تتغير الأنفس ولكن تتغير قمصانها أي أشكالها الخارجية. وفي رسالة أخرى تقول: إن عدد سكان العالم غير قابل للزيادة ولا النقصان منذ بدء الخليقة، ويبقى على هذه الحال إلى الأبد، فلو زاد البشر سنوياً لضاقت بهم الأرض، ولو نقصوا ولو قليلاً لانقطعوا مع مرور الزمن. وهم ينفون الحياة البرزخية بعد الموت.. ولكن أين عقيدتهم هذه الآن من ثبوت إحصائيات تزايد سكان العالم؟

وهم لا يسمحون بالاطلاع على عقيدتهم، ولا يضمنون أحداً لدينهم ولا يسمحون لأحد بالخروج منه، ويرون أنفسهم موجودين منذ الأزل واعتنقوا ديانات كثيرة آخرها الإسلام ثم تحولوا إلى دين مستقل هو الدين الدرزي الذين يجدهم أقطابهم

من زمن إلى زمن. ويرون أن للرسول محمد عليه السلام مكانة محدودة كوسيط للرسالة فقط ويجلون أربعة فقط من الصحابة هم سلمان الفارسي والمقداد بن الأسود وعمار بن ياسر وأبو ذر الغفاري بالإضافة إلى أبي يزيد البسطامي من أئمة الصوفية.

وهم يرون أن دينهم مأخوذ من تفسير باطني للقرآن ومن ١٦ كتاباً خطأً سرياً، ومن الفلسفات اليونانية والنصرانية والبوذية والفرعونية، ويرون إخوان الصفا والقرامطة منهم، وهم يستشهدون بالآيات العرفانية قبل الآيات القرآنية في الاستشهاد.

فعمقديتهم ذات شقين: الأول عقلانياً لتعلقه بفلسفة الأخلاق والنظريات الميتافيزيقية كالإبداع والفيض وغيرها مع الأوامر والنواهي الدينية مع التأملات المحجوبة عن عامة الناس، والثاني عرفانياً يختص بكشف الحقيقة الأخيرة وتقبل المعرفة الأصلية مما يرفعه عن مدركات العقل الأدنى كنظرية الإشراق والتجلي والناسوت واللاهوت، فهو معارف اختبارية لم يختبرها عامة الناس ولم يفهموها، وإن اطلعوا عليها اسأوا فهمها.

وهكذا نلمس أن القرآن والسنة والفقهاء لا تشكل مصدراً من مصادرهم المتعددة وإن أشير إليها بشكل خافت باهت.

يوم القيامة عند الدروز:

يرون أن المعبود الحاكم بأمر الله لن يظهر إلا يوم القيامة يوم يظهر فيه مذهبهم على كل المذاهب والأديان، وأن ذلك أمر مجهول، وسيكون في جمادى أو رجب، ومن علاماته تصرف الملوك حسب أهوائهم الشخصية بدون عدل، وتسلط النصارى واليهود على البلاد، ويعم الإثم والفساد، ويخرج الدجال، ثم يظهر الحاكم بناسوته، وسيكون ذلك في مصر كما يقول حمزة أو في الصين كما تقول رسالة الأسرار، حيث شعب يأجوج ومأجوج المؤمنين بالتوحيد، ويدخلون مكة فيتجلى المعبود بصورة الحاكم بأمر الله، ثم ينقسم الناس إلى أربع فرق: الناجية وهم الدروز، والهالكة الباقية وهم أهل الظاهر وأهل الباطن والمرتدون. وليس هناك عندهم موت ولا قيامة ولا بعث أجساد وإنما هو يوم الدينونة كنهاية مراحل الأرواح وتطورها لتتصل بالأرواح الصالحة بالعقل الكلي، وقد تصل من الطهر إلى الكمال.

الجنة والنار والثواب والعقاب:

الجنة عندهم هي توحيد الخالق ودعوة التوحيد، والثواب إدراك المعلومات الإلهية واقتناء الفضائل البرهانية، والسعادة القصوى هي كمال الموحد، ويكون هذا الثواب بتكرار روح الموحد في الأجساد فتزداد درجته في العلوم الدينية وترتفع منزلته لدرجة مكاسر.

والعذاب بانتقال الإنسان من درجة عالية إلى ما دونها من الدين عند انتقال

الروح من جسد إلى جسد. والنار الكبرى هي غلبة الشقوة وهوى النفس الجاهلة، وهذا ما يقول به الفاطميون.

والتقمص لديهم ليس تطوراً للروح في هذا الدور بل تقلب في شتى الأحوال لتختبر هذه الأحوال، فعدم تقبل نداء الحق يتحمل نتيجة أعماله والعكس صحيح. وأكثريتهم المعتقد بالتقمص يعتقدون بالنطق من حيث أن الروح في تنقلها بين الأجساد تحمل معها أحياناً معلومات عن الدور أو الجيل السابق فتحدث عنه حسب وعي الذاكرة.

وهم يرون أن التقمص يختلف عن المسخ الذي يروونه معنوياً فقط من باب التحقير، ولكن مسألة المسخ هذه متناقضة في كتبهم، فكتابات حمزة تتهم على القائلين بالتناسخ مع أنها تعترف بالمعبود الذي سيظهر بصورة ناسوته، وكتابات الدعاة الآخرين بعد حمزة واضح فيها التناسخ، فالجسد لا يرجع بعد الموت ولكن النفس تحل في جسد آخر على دينه، مما يمنع تغير عدد سكان العالم. ومذهب التناسخ هذا عرفه اليونانيون القدماء كما عرفه غيرهم.

العبادات لديهم:

لا يرون ضيراً في ترك فرائض الصلاة والصوم والزكاة لأنهم يرون أن الإسلام هو الإيمان وهو بالقلب لا باللسان، ذلك لأنهم يرون مسلك التوحيد يتجاوز الفروض الإسلامية في معناها الظاهر ليصل إلى معانيها في تطهير النفس من الظلمة المتراكمة عليها بسبب أعمالها وأفكارها السفلية السابقة، فكل تكليف فضيلة مقابلة في النفس على الموحد أن ينميها ويرتفع بها فتكون الطهارة الكاملة لا أن يقف عند تأدية العبادات الظاهرة من صوم وصلاة وحج وزكاة.

فهم يتركون الفرائض ويبقون على أسمائها بمضمون آخر، فالصلوات الخمس عندهم تختلف عن صلاة المسلمين، ولا ضرورة للوضوء لها، ويرون الصلاة طاعة الإمام وصلة القلوب بالتوحيد، وأما الصوم فهو في رأي الامتناع عن الرفث دون امتناع عن الأكل وفي رأي آخر الامتناع عنها كلها كالمسلمين وينحصر في العشرة الأولى من ذي الحجة ثم يأتي عيد الاضحى، عيدهم الأكبر، ولهم تفسير آخر للصوم، إنه الصمت وكتمان العقيدة عن غير أهلها، ولا وجود عندهم للزكاة المفروضة شرعاً وإنما هي تزكية القلوب وتطهيرها، وأما الحج فرأوا في مناسكه ظاهرة وثنية. وبهذا فهم حاولوا نقض الفرائض الدينية بتأويلات باطنية واتخذوا بدلاً منها فرائضهم التوحيدية المحصورة بالمعارف الثلاث: معرفة الباري وتنزيهه عن جميع الصفات والأسماء، ثم معرفة الإمام قائم الزمان حمزة وطاعته التامة، ثم معرفة أصحاب الحدود بألقابهم وأسمائهم ومراتبهم ووجوب طاعتهم، فمتى اعترف الإنسان بهذه الفرائض كان موحداً دون القيام بأية فريضة من الفرائض إذ يرون أن الحاكم قد اسقط عنهم سبع دعائم تكليفية ناموسية وفرض عليهم سبع خصال توحيدية هي:

(١) صدق اللسان (وليس صدق) لأنهم لا ينطقون الصاد إلا سينا حسب عقيدتهم في حساب الجمل التي ترى السين تعني ٦٠ والدادل ٤ والقاف ١٠٠ والمجموع ١٦٤ وهو عدد حدود الموحدين.

(٢) حفظ الإخوان.

(٣) ترك ما كان عليه غير الموحدين من عبادة العدم والبهتان.

(٤) البراءة من الأبالسة والطغيان بمعنى الأنبياء السابقين والأديان والشرائع كلها.

(٥) التوحيد للمولى في كل عصر وزمان وأوان.

(٦) الرضا بفعله كيفما كان.

(٧) وأخيراً التسليم لأمره في السر والحدثان لأنه يرى الفرد في كل زمان ومكان.

وهناك لدى بعضهم صوم المجاهدة لعدة أشهر متوالية كبعض السادو في الهند تعذيباً للجسد لتطهير النفس.

وفي (ميثاق النساء) يقول حمزة: ينبغي على الرجال الموحدين والنساء الموحيدات أن يكونوا منزهين عن كل عيب ودنس وإثم، وأن تكون طهارة أفعالهم وأقوالهم معلومة للجميع.

كما تحذر (رسالة الأسرار) من القتل والسرقه والفسق والظلم. ويقول حمزة في (ميثاق النساء) بأنه من الفروض الدينية عندما يتزوج موحد موحدة أن يجعلها مساوية له في كل شيء، وأن يقسم بينه وبينها كل شيء، وعند الاضطراب للطلاق يملك نصف ما تملكه إذا كانت هي المقصرة، وتأخذ كل ماله إذا كان هو الذي يهينها ولا يعاملها بالمساواة، وإن طلقها من تلقاء نفسه فلها نصف ما يملك. وفي وضع هذه التشريعات يستشهد حمزة بأيات من القرآن الكريم بعد تأويلها الباطن حسب ما يرى.

وهم يفرضون على أتباع المذهب الامتناع عن التمتع بما أباحه الإسلام للمؤمن من ملذات الدنيا الحسية، ويعتبرونها مناقضة للفضيلة والتعفف.

وقد بنوا المساجد في المناطق الإسلامية من باب التقية ليأمنوا على أنفسهم وينفوا تهمة الردة عنهم. ولكنهم عندما هزلت الدولة العثمانية وتدخل المستعمرون في شؤونها الداخلية بدأوا يبتعدون عن مذهب التقية، ولما قامت فتنة عام ١٨٦٠م في لبنان أخذت شعائر الصلاة في المساجد تنقرض في مساجدهم، ولجأوا للخلوات وتخلوا عن المساجد نهائياً بعدها.

قدم الدين الدرزي:

فيؤكدون أن دعوة توحيدهم لها جذور قديمة جداً في التاريخ وقبل التاريخ وقد أخذتها الشرائع السماوية كما احتضنها الإسلام، ويبقى مسلك التوحيد متصلاً بمسالك الحكم والعرفان المتقدمة في أدوار التاريخ المعروف والمجهول من موحد مصر

الفرعونية والهند وإيران والتبت وبابل وآشور واليونان وجزر المتوسط، فالإسلام مروراً بالنصرانية الأولى وما قبلها، وبالمداهب العرفانية القديمة.

فمصادر مذهب الدرّوز ثلاثة أساسية هي:

أرسطو، وأفلاطون، وفيثاغورس، وهم أسيادهم الروحانيون ويقدمون معهم هرمس وسقراط وغيرهما... فتجد أحد قادتهم وهو كمال جنبلاط يكثر الاستشهاد بالنصوص الدينية الهندية.

الدرّوز والجماعات الفكرية الأخرى في الإسلام:

انبثق الدرّوز عن الفاطمية، وتأثروا بجماعة إخوان الصفا كثيراً، كما فعل الاسماعيليون إذ ملأوا خزانهم برسائلهم، مما يجزم بالصلة الوثيقة بين تعاليمهم والإسماعيلية، ويظهر ذلك من تنظيم جماعتهم، وإعداد دعواتهم، والتدرج في الإطلاع على الأسرار وكتمانها وألفاظهم الرمزية وتقديس الأديان كلها وتفسير آياتها باطنياً، وعقيدة التقمص، وفلسفة القدر والتخيير والحدود وخلق الوجود والعقاب والثواب. ويختلفون عنهم بتسفيه التنجيم والتشاؤم وانكار الشياطين والملائكة.

وما زالت رسائل إخوان الصفا تشرح شرحاً في مجالسهم الدينية ومحافلهم الفلسفية يستمدونه من الإمام أحمد بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق.

وهناك صلة وثيقة بينهم وبين القرامطة إذ جعلوا من عقيدتهم أن معبودهم أظهر ناسوته في شخصية زكروية بن مهروية زعيم القرامطة حتى أنهم لا يزالون يطلقون لقب قرمطي على كل زاهد متعبد منهم.

كما يظهر تأثرهم بالأديان السماوية والمداهب الفلسفية فكأنهم حاولوا جمع الأديان كلها في دين واحد فاسموا أنفسهم بالموحدين.

طبقات الدرّوز:

يرى كمال جنبلاط بأن الموحدين منظمون تنظيمًا خاصاً بهم مستمداً من سنن وقواعد وأنظمة ومعرفة بالروح الإنسانية، فهناك تنظيم أبدعه فيثاغورس في مؤسسته الشهيرة، وتنظيم جماعة الأسينيين، وتنظيم الدعوة الفاطمية، وهذه التنظيمات الدرزية تقسمهم إلى طبقتين:

الطبقة الأولى: طبقة الروحانيين، وهم رجال الدين العارفون بأصول الدين الدرزي وهم الرؤساء والعقال والأجاويد، والرؤساء بيدهم الأسرار الدينية، والعقال بيدهم أسرار تنظيم المذهب الداخلي، والأجاويد بيدهم الأسرار الخارجية المختصة بعلاقة مذهبهم بالمداهب الأخرى. والرؤساء يرأسهم شيخ يلقب بشيخ العصر يتولى منصبه بالانتخاب والاتفاق بين الزعماء ورجال الطائفة، وله أعوان في كل قرية هم

شيوخ عقل محليون. والعقال ثلاث درجات يجتمعون مساء كل يوم جمعة في الخلوات لسماع تلاوة من كتبهم المقدسة. ويخرج من الخلوة بعد تلاوة المقدمات رجال الطبقة الدنيا من العقال، ويخرج منها بعد تلاوة بعض الرسائل البسيطة التي ليس بها تأويلات الطبقة الثانية، ولا يبقى لسماع الأسرار العليا للعقيدة إلا رجال الدرجة الأولى.

والمعروف أن رجال الدين الدرور كثيرو الزهد والتقشف والمجاهدة للنفس مما أوجد فيهم طبقة ثانية.

الطبقة الثانية: طبقة الجثمانيين، وهم أمراء وعامة، والأمراء هم أصحاب الزعامة الوطنية، ولا يحق لجميع أفراد هذه الطبقة حضور المجالس التعبدية إلا بعد امتحانات طويلة تحتاج إلى صبر شديد، وبعدها يتدرج الدرزي من هذه الطبقة في مراقي الدرجات الدينية، ولا يسمح للمدمنين على التدخين ومرتكبي الكبائر بالانتقال إلى الطبقة الأولى مطلقاً.

هذه هي التقسيمات الدينية وأما الاجتماعية فنظامهم هو النظام الإقطاعي الريفي، فكل قرية تخضع لشيخ يختاره الأمير، والكل يخضع للنظام الثيوقراطي القديم.

والدين الدرزي تنظيم حزبي هرمي الشكل، كما قرر كمال جنبلاط، دون أن يقيموا لهم دولة خاصة بهم بل إنهم يتبعون من يعايشون ويحاربون معهم من فاطميين وأيوبيين ومماليك وعثمانيين وعرب ويهود.

المرأة عند الدرور:

النساء كالرجال لديهم قسمان: عاقلات وجاهلات، وهن طبقتان كالرجال: روحانيين وجثمانيين، والعاقلات يلبسن النقاب وثوب اسمه صاية. والمرأة محترمة لديهم ولا يجيزون تعدد الزوجات، أو إعادة المطلقة إلى زوجها بعد الطلقة الواحدة، والزواج محصور عندهم فيهم فقط، وبعد سن الثامنة عشرة للرجال والسابعة عشرة للنساء، ويمكن قبل سنتين بإذن الولي والمرجع المذهبي والتأكد الطبي. وتوزيع المهر بعد الطلاق يختلف تماماً عن الشريعة الإسلامية.

حكم الإسلام في الدرور:

فنصوصهم تحكم عليهم بالخروج من الملة، فقد عبدوا الحاكم من دون الله وأنكروا المعلوم من الدين بالضرورة من الفرائض، وهذا حكم ابن عابدين في حاشيته الذي يرى بأنه لا تحل ذبيحة الدرزي لأنه غير كتابي، ولا الزواج منهم أو لهم إلا بعد العودة إلى الملة.

الكتاب الثاني عن الدروز

تاريخ الدروز

القاهرة - ١٩٦٠

لمؤلفه: الدكتور محمد كامل حسين

الفصل الأول - لمحة عن أصل الدروز

يتجمع أكثر الدروز حالياً في محافظة السويداء، جبل الدروز أو جبل العرب بسورية، وفي محافظة جبل لبنان ببلبنان، وفي منطقة الجليل بفلسطين، ويعمل أكثرهم في الزراعة.

وهم لا يحبون هذا اللقب وينكرون نسبتهم إلى نوستكين الدرزي الذي يرمونه بالإلحاد ويطلقون على أنفسهم لقب «الموحدين». وبغض النظر عن اختلاف المؤرخين في أصلهم بسبب بعض الإشارات هنا وهناك بدواعي وجود بعض الكلمات من أصول مختلفة في كتبهم المقدسة، فبغض النظر عن ذلك فإن المؤلف يجزم بأنهم عرب، (كما يقول التاريخ وتشهد صفاتهم وأخلاقهم).

وأما علاقتهم بالدعوة الفاطمية فمجهولة التاريخ بالرغم من انتشار تلك الدعوة في بلاد الشام كلها في الوقت الذي كانت قبائل تنوخ في جميع تلك البلاد، وكانت على وفاق تام مع تلك الدعوة ولاسيما بعد ظهور الحاكم بأمر الله، وتقبل جبل لبنان لمذهبه واستمروا يحافظون على عقيدة دعوته الفاطمية.

وأما أثناء الحروب الصليبية فقد استقرت إقطاعياتهم في لبنان بيد الأسترئين التنوخية والأرسلانية، وفي حوران بيد بني شهاب، وحاربوا مع المسلمين ضد الصليبيين.

وبعد غزو السلطان العثماني سليم الأول عام ١٥١٦م للشام ومصر شاركه آل معن فاعترف العثمانيون لهم بالإمارة في لبنان، واتسع نفوذ هذه الأسرة في لبنان في عهد الأمير فخر الدين بن معن الثاني (١٥٨٥ - ١٦٣٥م) حتى سيطروا على معظم بلاد الشام من إنطاكية إلى صغد مع جزء كبير من صحراء سورية بما فيها تدمر. ونتيجة لتمتع هذا الأمير بشيء من الاستقلال في العلاقات الخارجية أقدم على عقد معاهدة تجارية مع أمير توسكانيا يظهر أنها تضمنت نصوصاً حربية سرية، مما أغضب السلطان العثماني فأرسل إليه قوة حربية لتأديبه مما جعله يهرب عام ١٦١٤م من البلاد ويلجأ إلى صديقه أمير توسكانيا. ويرى بعض المؤرخين أن هذا الأمير هو أول من فتح البلاد للنفوذ الغربي عندما سمح للفرنسيين بفتح مقر لهم في صيدا ثم قنصلية فلورنسا وسمح للتبشير بالمسيحية بين المسلمين والدروز. وامتدت الإمارة في هذه

الأسرة حوالي ستة قرون لشجاعتهم وتحصنهم في الجبال مع تبعيتهم للباب العالي بالآستانة وخضوعهم تماماً لإمارة مشايخهم مع ولائهم لوالي عكا العثماني.

وقد صاهر بنو معن بني شهاب القرشي النسب والذين كانوا أصحاب إقطاع ولاية حوران، والذين استعان بهم نور الدين زنكي ضد الصليبيين. وقد أدت تلك المصاهرة إلى حلول الأسرة الشهابية محل المعنيين في إمارة لبنان بأول أمرانهم بشير الشهابي الأول، الذي بفضل خلفائه خدمت الفتن بين القيسية واليمانية وإن نشبت بعدها سنة ١٨٦٠م فتن أخرى بين الدروز والمارونيين، ثم انقسمت الطائفة إلى مشيختين: الجنبلاطية واليزبكية التي ألغى عهد الإقطاع معهم في لبنان وسورية مع منتصف القرن التاسع عشر وأصبحوا جميعاً مواطنين كغيرهم في بلاد الشام.

والجنبلاطية ينسبون إلى جنبلاط بن سعيد الذي التحق من حلب بآل معن في بيروت للصدقة بينهما وذلك في بداية القرن السابع عشر. وعام ١٧٩٨م كان الشيخ بشير الجنبلاطي يد الأمير بشير الشهابي اليماني الذي تنسب له مساعدة الموارد مما جعل بابا روما يشكره. ولم يطل ذلك التحالف بينهما إذ نشب الشقاق بينهما فقتل الجنبلاطي عام ١٨٣٥م، وإن عادوا واسترجعوا مواقعهم بمساندة الوالي العثماني جزاء وقوفهم معه.

وأما اليزبكية فينسبون إلى قبيلة عربية تعرف ببني عزام من أزد عمان القيسية الذين أتوا إلى الشام مع الأمير معن ثم إلى حوران بطلب الأمير الشهابي ثم إلى وادي التيم في بيروت حيث حدثت فتن بينهم وبين الشهابيين.. إنهم أسرة تلحق التي تولت إقطاعات مختلفة من بلاد الشام تبعاً للفتن والدعم العثماني..

وأما النكدية منهم فينسبون لإحدى القبائل العدنانية التي خرجت مع جيش الفتح في عهد الخليفة أبي بكر الصديق ليستقروا أولاً في مصر ثم المغرب حيث ناصروا الفاطميين عند قيام دولتهم هناك، ورجعوا معهم إلى مصر وبلاد الشام ليستقروا بمنطقة حلب ثم الشوف بلبنان حيث أصبحوا من أعوان الأمير معن الشهابي الذي حاربوا معه الوالي العثماني محمود باشا، ولكن الأمير الشهابي أوقع الفتن بينهم وأخرجهم من البلاد ثم عفا عنهم الأمير يوسف الشهابي.. وبعد فتن عديدة وتنقل في بلاد الشام ومصر والسودان رجعوا للبنان ليشاركوا مع الجنبلاطيين في الفتنة بين الموارد والدروز التي تدخلت فيها فرنسا و أنهت النظام الإقطاعي ليعيش النكديون كغيرهم من الدروز في طاعة الحكومات المختلفة.

وهناك مجموعات أخرى مختلفة من الدروز ظهرت في هذه الحقبة من التاريخ، كل تقيم لها نسباً يلتقي أو يفترق مع الآخرين، ومنهم بنو عبد الملك الذين ينسبون إلى عرب الحجاز والذين وفدوا على لبنان مع الأمراء التنوخيين وذابوا مع غيرهم مما جعل التاريخ يغفل ذكرهم.. ومنهم بنو حصن الدين الذين وقد رئيسهم حصن الدين من حلب سنة ١٣٨٣م إلى التنوخيين وأصبح فقيه إمارتهم لأن هذه الأسرة

أخلصت للعلم قبل غيرهم مما جعلها تبقى تتمتع بمكانة مرموقة بين بقية الأسر الدرزية.. ومنهم بنو علم الدين وهي أسرة تنوخية الأصل ولكنها خرجت على القيسية وتولت قيادة اليمينية بلبنان سنة ١٣٠١م وعاشت كغيرها دوامة الفتن والصراعات حتى قتل الأمير حيدر الشهابي جميع أمرائهم في الشوف وانتهى بعدها ذكرهم من التاريخ.. ومنهم بنود عماد الذين سكنوا بجوار الموصل ثم بجوار حلب ثم مقاطعة العرقوب بلبنان في القرن السادس عشر الميلادي حتى تزعموا اليزيدية ضد الجنبلاطية، وشاركوا في مختلف الفتن ضد غيرهم وبالذات الجنبلاطية أو الشهابية حتى حاربوا جيش إبراهيم باشا ففتك بهم وهدم بيوتهم.. ومنهم آل أرسلان وهم سلالة المناذرة ملوك الحيرة الذين أرسلهم الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور من بلاد المعرة إلى لبنان لحماية السواحل من غزوات الروم ولقتال المردة، وأنعم العباسيون لقب الأمير على شيخهم النعمان بن عامر الأرسلاني الذي هزم المردة على نهر بيروت مما ثبتهم على ولاية بيروت ولاسيما بعد مصاهرتهم للعباسيين، وأصبحوا من شيعة الفاطميين عندما سيطروا على مصر والشام، ولكنهم انقسموا بين محارب معهم ومحارب مع العثمانيين، مما جعل النزاع يشتد بينهم على إمارة ولاية بيروت، ثم عادوا وناصروا الفاطميين، كما ناصروا المسلمين في حروبهم ضد الصليبيين حتى قتل الكثير منهم دفاعاً عن بيروت، وهربوا إلى حوران بعد أن استند الصليبيون على المردة، ولكنهم عادوا ونظموا جموعهم وأوقعوا هزيمة منكرة بهم عند رأس التينة، ففر الصليبيون إلى بيروت، ثم ساعدوا نور الدين زنكي في حروبه ضد الصليبيين، ثم في الحروب ضد التتار حتى شاركوا ببسالة في موقعة عين جالوت بجانب المسلمين حتى تم الفوز لهم في تلك الموقعة الحاسمة.

من هذه اللوحة التاريخية نستطيع أن نوكد بسهولة أن الدروز هم من أصل عربي خالص وأن كل ما قيل غير ذلك لا أساس له من الصحة ولاسيما أن دراسة المجتمع الدرزي الآن تؤكد بأنهم يتصفون بخصال لا يعرفها إلا العرب، فأخلاقهم وعاداتهم من صدق وأمانة وحلم وصبر ووفاء ومحافظة على العهود والمواثيق ومروءة وكرم كلها تؤكد أصلهم العربي العريق ولاسيما أن المرأة الدرزية تمتاز بالعفة والشرف والنبيل.. أما كان يجري إبان الأزمان من هجرة من جبال لبنان إلى وادي التيم وحوران فهو مجرد فترات التقاط الأنفاس ليعودوا إلى معقلهم بلبنان.

الفصل الثاني - طبقات المجتمع عند الدروز

لقد استمر الدروز يعيشون في لبنان وسورية وفلسطين وفق النظام الاقطاعي الريفي، كما كانوا منذ قرون. فالقرى تخضع لشيخ القبيلة الذي يختاره الأمير، وشيوخ القرى يخضعون للأمراء بالتوارث، ولا يعترفون بسلطة أحد سوى أمرائهم.. وإن كان ذلك كله قد آل إلى التناغم مع النظم الحاكمة حيث يتواجدون..

وهم من الناحية الدينية ينقسمون إلى عقال أو أجاويد لهم الحق في معرفة شيء من العقيدة السرية، و إلى جهال ليس لهم هذا الحق. والعقال ثلاث درجات: الطبقة الدنيا وهم ممن يحق لهم فقط سماع المقدمات من الكتاب المقدس لديهم، والطبقة الوسطى ممن يحق له سماع بعض الرسائل البسيطة بدون تاويلات، والطبقة العليا ممن لهم وحدهم الحق في سماع الأسرار العليا من العقيدة. وأما الجهال فلا يحق لهم حضور هذه الخلوات التي تعقد مساء كل يوم جمعة، ولإسماع شيء من الكتب المقدسة إلا يوم عيدهم الموافق لعيد الأضحى لدى المسلمين، ولكن يمكن لهؤلاء الجهال الانتقال لطبقة العقال بعد امتحان عسير تروض فيه النفوس لتخضع شهواتها للأخلاق الفاضلة، وقد يتجاوز الامتحان مدة السنة حتى يثق الشيوخ بأحقية الطالب للانتقال من الجهال إلى العقال ذوي العمائم والقلائس والزرقاء الغامقة واللحي.. والأمر كذلك بالنسبة للنساء فمنهن عاقلات وجاهلات، ويلبس العاقلات منهن النقاب وثوب الصيانة والحجاب.

ولهم رؤساء دينيون في كل مكان يرأسهم شيخ العصر الذي يأتي بالانتخاب أو اتفاق زعماء وكبار رجال الطائفة، وله أعوان في كل قرية وبلد هم شيوخ عقل محليين، وهم في لبنان ينقسمون بين شيوخ الجنبلاطية واليزبكية، وأما بشكل مدني عام فهم ينقسمون إلى أمراء، ومشايخ، وعامة، والأمراء هم آل أرسلان والمشايخ هم الجنبلاطية واليزبكية.

ويحكمهم قضاة حسب الشريعة الإسلامية إلا بعض المسائل الخاصة كالميراث والوصية والزواج، فهي حسب تقاليدهم، فالمرأة لا ترث من دار أبيها ولكنها غيرها في الأملاك الموروثة عن الأجداد، والزوجة واحدة دائماً ولا وجود لنظام المحلل لديهم.

الفصل الثالث - شخصية الحاكم بأمر الله

سنة ٣٧٥هـ و ٩٨٥م ولد المنصور بن العزيز بالله بن المعز لدين الله الفاطمي، وهذا المنصور هو الحاكم بأمر الله الذي تولى الخلافة الفاطمية في مصر بعد والده، فكان أول من ولد في مصر من الخلفاء الفاطميين، وكان وحيداً مدلاً للغاية من قبل والده الذي توفي سنة ٣٨٦هـ ليتولى ابنه المنصور الذي لقب بالحاكم بأمر الله الحكم وعمره إحدى عشرة سنة.

لقد عهد والده قبل وفاته إلى ثلاثة من كبار رجال دولته لتهيئته للحكم وهم: أبو الفتوح برجوان والحسن بن عمار الكتامي والقاضي محمد بن النعمان المغربي. أما برجوان فكان من عبيد الفاطميين المخلصين الصقالبة، وأما ابن عمار فهو من القادة الذين خدموا الدولة الفاطمية وثبتوا أقدامها في صقلية، وأسهموا في فتح مصر والشام، وأما القاضي ابن النعمان فهو صاحب أصول فقه الشيعة الإسماعيلية الفاطمية الذي تجنب الخوض في المشاكل السياسية واكتفى بالقيام بواجبه الديني المذهبي، وأما

ابن عمار فقد عمل على إعادة قبيلته كتامة للنفوذ في الدولة حتى تحكّموا في قصور الخلافة وظلموا الناس حتى نجح برجوان في البطش في أصحابه، ولكنه وقع في نفس أخطائه بالتسلط والظلم حتى حدثته نفسه بالتخلص من الفاطميين وعمل لذلك مما جعل الدساس ضده تنجح لدى الحاكم بأمر الله فقتله سنة ٣٩٠ هـ.

ونتيجة ما عرف عن الحاكم عن عفته عن أموال الرعية وبُعدّه عن اللهو والمجون، بالرغم من ضخامة جسمه وتوفر كل أسبابها بين يديه فقد أحبه الناس، ولكن المؤرخين يختلفون في سبب ذلك كله ولاسيما لجوؤه للبطش بكبار الزعماء والقادة، فبعد قتل برجوان سنة ٣٨٩ هـ بعام واحد قتل ابن عمار ثم قتل وزيره المسيحي فهد بن إبراهيم مما أثار المسيحيين عليه، وكان ينكل بكل وال أو عامل يرتكب أي مخالفة ولو صغيرة.

فما هو سبب هذا الإسراف الشديد في إيقاع العقوبات بكل المخطين؟

لقد كان الانحلال مسيطراً على المجتمع في عهده، وكان الانقسام الديني يعصف بالمجتمع: فأهل السنة والجماعة يهاجمون تيار المذهب الفاطمي الذي كان دعائه يشككون الناس في عقائدهم، والنصارى كانوا يحاولون المحافظة على أنفسهم ودينهم، واليهود كانوا يدسون الدساس وينفثون السموم بين الناس، فكان المجتمع بحاجة للحسم الذي أقدم عليه الحاكم بأمر الله..

ولكن من جهة أخرى كانت تصدر عنه أعمال لا يقدم عليها الرجل العادي العاقل فكيف بملك مسؤول؟ ولولا أن حمزة بن علي مؤسسة عقيدة الدروز أكدها لما سهّل تصديقها: فأطالة الشعر، ولبس جبة الصوف سبع سنوات، واستخدام الحمير فقط مطية له، وسياحته اليومية من طريق واحد إلى الصحراء، وطلبه من الركابية معه أن يتصارعوا بالعصي بين يديه وأن يكشفوا عن سوءاتهم لينظر إليها أو يجذبها بيده.. كل ذلك وأمثاله من السلوك الشاذ جعل المؤرخين يرونه مريضاً عقلياً، ولكن تأويلها من إمام عبادته ونبي مذهبه حمزة بأنها دلالات على صدق ألوهيته.. يرجح أن دافع كل تلك الأعمال هو تأليهه ليس غير بعد أن تأثر منذ طفولته بفكرة تأليه الأئمة، ولاسيما عندما اتخذ دعاة الفاطمية في فارس الأئمة الفاطميين أجداد الحاكم آلهة لهم، فيظهر أن طموحه قد دفعه لذلك وهو يرى رعيته وحاشيته تسجد له كلما مر بهم.. فأخذ يسرف في القتل ليقال أنه المحيي المميت الرزاق الوهاب.. الخ. فكانت هذه الأعمال ليست عفوية منه وإنما رسمت له فسيطرت عليه فكرة الألوهية، وهذا ما تؤكده رسالة «السيرة المستقيمة» - إحدى رسائل الكتب المقدسة للدروز عندما تقول بأن فعل (المولى سبحانه) من قتل برجوان وابن عمار كقتل الكلاب دون خوف من اضطراب العسكر والناس، وقتل ملوك كتامة بلا خوف من اتباعهم، وخروجه في أنصاف الليالي إلى صحراء الجب ليلتقي مع جنود معارضيه دون خوف. كل ذلك وغيره يؤكد أنها (لا تجوز أن تكون أفعال أحد من البشر).. وإنما (عمل إله).. كما تؤكد رسالة حمزة

المسماة «كتاب فيه حقائق ما يظهر قدام مولانا جل ذكره من الهزل» عندما تقول (أما بعد معاشر الإخوان الموحدين أعانكم المولى على طاعته). ثم يهاجم من يشككون في أفعال الحاكم ثم يقول بأنهم (لم يعرفوا بأن أفعال مولانا جل ذكره كلها حكمة بالغة جداً كانت أم هزلاً). ثم يؤول أفعاله (من تربية الشعر ولباس الصوف وركوب الحمار..) بأن معناها واحد (لأن الشعر دليل على ظواهر التنزيل، والصوف دليل على ظواهر التأويل، والحمير دليل على النطقاء) يعني الأنبياء.. ويمضي صاحب الرسالة في تأويلاته للأشياء بما يناسب ألوهية الحاكم فيرى أن لعب الركابية بالعصى دليل على مكاسرة أهل الشرك.. وكشف زيفهم.. كما يرى أن كشف الفروج والأحالييل دليلان على الناطق والأساس، (فمن كشف عن أساسه وأظهر قبله أي عبادة أساسه نجا من العذاب والزيف في الاعتقاد ومن شك هلك..)

ولا يملك المؤلف التعليق على تأويلات حمزة هذه ويتركها للقارئ ولكنه يؤكد صحة ما نسبته المؤرخون له من أعمال غريبة. ثم يؤكد صحة ما صدر عنه من أفعال بشأن العقيدة الفاطمية وهو إمامها، مما يخالف ما كان عليه أباؤه وأجداده من أذان وصلاة وصوم رمضان. إذ أمر بإبطالها عندما أصدر سنة ٤٠٠ هـ كتاباً ألغى فيه الزكاة ثم بعدها ألغى المشاركة في صلاة الجمعة وصلاة العيدين وأبطل إرسال كسوة الكعبة الشريفة وكل ذلك توطئة لإبطال جميع فرائض الشريعة، كما تذكر الكتب المقدسة لدى الدروز التي تؤول كل ذلك.

وقد اشتد في معاملته لأهل الذمة من النصارى واليهود، فالزمهم أولاً بعدم الاحتفال بأعيادهم ولبس زي خاص، ومنع النصارى من تقديم النبيذ في القرايين ومن إظهار الصليب أو دق الناقوس، وأمر بهدم الكنائس وبيع اليهود، ولكنه تراجع عن هذا كله في أواخر أيامه وخاصة مع النصارى، وأما اليهود فكان يكرههم ويحاول إبادتهم مما جعلهم يحقدون عليه، ومما قاد مع إغضاب أهل الدعوة الفاطمية وجمهور أهل السنة والنصارى واليهود إلى قتله سنة ٤١١ هـ. ويرجح المؤلف أن قتله كان بمؤامرة يهودية للانتقام منه وأنه لا عبرة لغير ذلك من البيانات الضعيفة .

والدعوة الفاطمية ترى الحاكم بأمر الله إماماً من أمتهم، وهو من البشر كغيره من الأنمة وإن كانوا في مستوى أعلى من البشر لأنهم حجج الله على خلقه والداعون إلى توحيده وتنزيهه، وهم ليسوا بألهة، ومرتبهم تأتي الثالثة بعد الأنبياء والأوصياء.

وهناك رسالة مخطوطة خاصة بالحاكم باسم «رسالة مباسم البشارات بالإمام الحاكم» كتبها الداعي الفاطمي أحمد الكرمانى المعروف بحكيم الدعوة وفيلسوفها والمتوفى سنة ٤١٢ هـ أي بعد الحاكم بعام واحد. وفي الرسالة يستشهد الكرمانى بالكتب المقدسة التوراة والإنجيل والقرآن بالبشارة بالحاكم على طريقة تأويل الآيات في الأنمة، والرسالة وثيقة تاريخية هامة تبين أن الكرمانى عندما وفد على مصر سنة ٤٠٨ هـ وجد اضطراب الأحوال واختلاف الدعاة بسبب المذهب الجديد الذي يدعو إلى

تأليه الحاكم، وأنه أراد تثبيت قلوب المؤمنين، بأن الحاكم إمام، ويدعو إلى توحيد الله وتنزيهه، ويقيم شعائر الدين الإسلامي.. ما قصد به دفع هذه الآراء الجديدة من المجتمع التي سببت هذا الاضطراب دون أن يصرح بألوهية الحاكم أو غيره من الأنمة.

الفصل الرابع - ظهور الدعوة الجديدة

يذكر المؤرخون ثلاثة من كبار الدعاة الذين أسسوا هذا المذهب وهم: الحسن الفرغاني المعروف بالأخرم، وحمزة بن علي، ومحمد بن إسماعيل الدرزي، وكلهم لم يعرفوا إلا بعد ظهور المذهب الجديد سنة ٤٠٨ هـ وإن كان يرجح أنهم كانوا من حاشية الحاكم وخاصة حمزة بن علي الذي يظهر أنه كان الموحي للحاكم بكل ما قام به من أعمال ومن ادعاء الألوهية، ولذلك لقبه الحاكم بالإمام وجعله يذيع المذهب الجديد في تلك السنة التي جعلت مبدأ تقويم حمزة ومبدأ تقويم الدرزي. ومحمد بن إسماعيل الدرزي المعروف بنوشكتين كان على اتصال بحمزة بن علي قبل إظهار الدعوة ورسمها معاً خططها، ولذلك يقول حمزة في رسالة «الغاية والنصيحة» (بأن الدرزي كان أحد الذين استجابوا له ولكنه تغطرس على الكشف بلا علم ولا يقين) فكان الخلاف بينهما بسبب تسرع الدرزي في الكشف عن المذهب الجديد عندما فعل ذلك سنة ٤٠٧ هـ لينال شرف الاستئثار بالألقاب والرئاسة أو الإمامة، ولم يستجب لحمزة بالتريث ولجأ لإغراء من اتبعه بالأموال والخلع والمركوب، وسمى نفسه «سيف الإيمان» و «سيد الهادين» وأنه خير من حمزة وأعلى منه ولعن مخالفي المذهب بينما حمزة خالفه في ذلك واتهمه بالتدليس في الدين كما كان يدلس ويغش في ضرب الدنانير والدرهم. ولكن الخلاف الأساسي بينهما كان بسبب رئاسة الدعوة الجديدة.

وأما الحسن الفرغاني (الأخرم) فقد طوي ذكره بعد مقتله خلال أيام من ظهور الدعوة الجديدة سنة ٤٠٨ هـ وإن كان يظهر من رسالة الكرمانى إليه أنه كان يقود حركة الدعاية للمذهب الجديد بنفس آراء حمزة الموجودة في كتب الدرزي المقدسة، وإن كان الكرمانى يكفر كل من دعا إلى المذهب الجديد مما يظهر الخلاف بين أصحاب دعوة الفاطميين وبين أصحاب هذه الدعوة الجديدة.

وعندما أعلن الدرزي المذهب الجديد سنة ٤٠٧ هـ انقسم الدعاة واتباعهم إلى فريقين: فريق الدرزي وفريق حمزة، وقتل عدد كبير من اتباع الدرزي سنة ٤٠٨ هـ ويقال بأن الحاكم أمره بالهرب إلى وادي التيم حيث ظل يدعو أهل الجبال لمذهبه وعرف من اعتنقوه بالدرزي.

وبعد خروج الدرزي والأخرم من ميدان الدعوة للمذهب الجديد صار أمرها كلها إلى حمزة فلقب نفسه «هادي المستجيبين» و «إمام الزمان» و «قائم الزمان».. وأخذ يبعث الرسائل إلى المخالفين حتى عثف قاضي القضاة أحمد بن محمد بن العوام برسالة أشد التعنيف، مما ضاعف من النعمة عليه فهاجمه الناس في ملجئه وحصنه في

مسجد خاص وكادوا يقتلونه لولا حماية الحاكم له، ومع اختفاء الحاكم بقتله اختفى حمزة فقام بأمر الدعوة بهاء الدين السموقي المعروف بالضيف يدعو الملوك والأمراء إلى الدخول في مذهبه، كما كتب لمخالفيه ومنهم سكين رئيس الدعوة في سورية سنة ٤٢٢ هـ الذي ادعى أنه الإله المعبود وأنه الحاكم بأمر الله الراجع من غيبته، مما جعل بهاء الدين يكتب مهاجماً الآراء المخالفة لتعاليم حمزة في بلاد الشام.

فالدولة في عهد علي بن الحاكم المعروف بالظاهر أصبحت تحارب العقيدة الجديدة مما جعل المنافقين يتراجعون عن آرائهم طلباً للمنافع مع العهد الجديد، ومما جعل الآراء الجديدة في المذهب تكثر ومما دعا بهاء الدين للاعتزال سنة ٤٣٤ هـ بعد أن أقفل باب الاجتهاد وأصبح فقهاء المذهب لا عمل لهم إلا شرح رسائل حمزة والتميمي وبهاء الدين فكانت النتيجة أن انغلق دعاة المذهب على أنفسهم فلم يبشروا به ولا سيما بسبب عقيدة غيبة الحاكم وحمزة وغيره واستغلال هذه العقيدة بقرب ظهور الحاكم أو أنه ظهر في صورة من الصور.

الفصل الخامس - عقيدة الفاطميين أساس عقيدة الدروز

تعتبر عقائد الفاطميين الأساس الأول لعقيدة الدروز، ومصطلحاتهم هي نفس مصطلحات الدروز. وقد جعل الفاطميون عقيدتهم تقوم على العمل والعلم أي ما يعرف بالظاهر والباطن، والظاهر عندهم هو جميع فرائض الإسلام الواردة في القرآن والسنة، وهم في ذلك كجمهور المسلمين. وكتاب «دعائم الإسلام» للقاضي النعمان بن محمد المغربي المعتمد لدى فقهاءهم يذكر أن الصلاة والزكاة والطهارة والصوم والحج والجهاد والولاية يجب ان يلتزمها كل من يؤمن بالدعوة الفاطمية كما يجب أن يؤمن بجميع الأنبياء والرسل، وهذا كله الظاهر، وأما الباطن فهناك تأويلاتهم الخاصة لكل عمل ولكل قول ولا يعرفها إلا أئمتهم وعلمائهم، وهذا ما يفرقهم عن المسلمين ويبعدهم مع مغالاتهم عنهم، وهذا ما حدث مع العقيدة الدرزية التي اهتمت بالتأويل بشكل كبير جداً وتركت الظاهر تماماً فالتقت مع الفاطمية كثيراً.

لقد رأى الفاطميون أن الله سبحانه منزه عن الصفات والأسماء، وأنه ليس من جنس العقول فلا تدركه، وليس بجسم فلا يراه البصر ولا يحل بجسد، وأنه أبداع العقل الكلي الذي أطلقوا عليه اسم السابق والمبدع الأول والقلم، والذي أوجد النفس الكلية، وأن المخلوقات قد وجدت كلها بالمبدع الأول والتالي أي بالعقل الكلي والنفس الكلية، ورأوا الإمام الفاطمي ممثلاً للعقل الكلي فهو الواحد الأحد الفرد الصمد المحيي والميت، مما جعل بعضهم يغالي إلى درجة تأليه الأئمة، وجعل المعز لدين الله الفاطمي يتبرأ من هؤلاء الغلاة.

صحيح أن تأليه الأئمة فكرة قديمة سبقت الإسلام كما ظهر لدى قدماء المصريين وبعض المسيحيين، ولكنها ظهرت لدى بعض الفرق الإسلامية التي تأثرت

بالقدماء. فأبو الخطاب الأسدي تلميذ الإمام جعفر الصادق ادعى ألوهية أستاذه وأنه هو نبيه، والإسماعيلية الأغاخانية توله أعاخان، والدروز يقولون بتأليه الحاكم بأمر الله وحمزة بن علي هو نبيه. ولكن الفاطميين لم يصرحوا بتأليه الأئمة ولكنهم جعلوهم فوق مرتبة البشر مما جعل تأليههم أمراً ميسوراً لدى معتنقي دعوتهم.

هذا وقد تفرعت عن العقيدة الفاطمية آراء أخرى منها انبعاث العقول الروحانية من العقل الكلي والنفس الكلية، وأهم تلك العقول عندهم الملائكة الروحانيون المعروفون لدى المسلمين باسم اسرافيل وميكائيل وجبرائيل، وجعلوا العقل الكلي (السابق)، يمثل الناطق في عصره والوصي والإمام، كما جعلوا النفس الكلية (التالي) تمثل الوصي في حياة الناطق أو باب الأبواب. وجعلوا مراتب الدعاة من المراتب الروحية تجب طاعتهم طاعة عمياء، وسموهم الحدود الجسمانية رفعاً لشأنهم بين الناس، وقالوا بعصمة الإمام عصمة ذاتية وعصمة الدعاة عصمة مكتسبة. وبالرغم من أن الفاطميين لم يصرحوا بفكرة التناسخ وهاجموا القائلين بها إلا أنها ظهرت في قولهم بظهور الأنبياء والأئمة في صور متعددة وإن كان أصلهم واحداً، فقالوا بأن آدم ونوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً هم الأنبياء الذين ظهروا في صور آدمية مختلفة في عصور متفاوتة ولكنهم جميعاً شخص واحد في الحقيقة عندهم، كما يرون أن أوصياءهم وأنتمهم في كل دور هم ورثة الأنبياء ولهم نفس الخصائص، فهم والأنبياء شخص واحد، ويرون بأننا الآن في دور محمد وسينتهي دوره بظهور قائم القيامة المهدي المنتظر.. ويرون أن لكل دور كبير دوراً صغيراً، فدور آدم يليه دور صغير حتى ظهور نوح، ودور نوح الكبير يليه دور صغير حتى ظهور موسى.. وهكذا.. ولهذا يؤولون ما ورد في القرآن من قصص الأنبياء لتحقيق الأدوار الكبرى والصغرى فيرون تكرار ظهور طوفان نوح، وذلك لكثرة المخالفين مع كل نبي لأمر الله.. ويرون المرأة في قصص الأنبياء بأنها رمز لحجة الناطق أو الإمام الذي يودعه الناطق علم الباطن لينقله للمؤمنين.. فالأنبياء والأئمة هم شخص واحد هو العقل. ومن تأويلاتهم أن الجنة هي الدعوة، والنار هي عدم موالات الأئمة، والملائكة هم الدعاة، والكرسي والعرش هما الدعوة، والميزان والصرط المستقيم هما الإمام، وهكذا.

وللأعداد أصول لآراء دينية لدى الفاطميين لإثبات عقيدتهم في الإمامة، فرأوا العدد أربعة ممثلاً لفلسفة أركان الطبيعة، والعدد خمسة يمثل الحدود العلوية، ولكنهم لم يستخدموا حساب الجمل في الدين كالأعداد وإنما استخدموه فقط في التنجيم.

والمهم أن التأويل قد خص به الوصي إذ كان للنبي التنزيل ولعلي بن أبي طالب التأويل، وكل حجة هو صاحب التأويل في عصره، فحجة الإمام هو الذي يُعد مجالس الحكمة التأويلية التي يعلمها للمستجيبين. ولذلك كان التأويل شخصياً ويختلف من حجة إلى حجة، ومن ظرف إلى آخر، فتأويلات الداعي منصور في اليمن تميل للغلو كالخطابية، وتأويلات دعاة فارس بعد قيام الدولة الفاطمية في المغرب تختلف عن تأويلات الدعاة في المغرب، لأن تلك تميل للتأليه الصريح للأئمة والدعوة إلى طرح

الفرائض الدينية، وتأويلاتهم في مصر أزالوا منها الغلو حتى إدعاء الأئمة لعلم الغيب كما كان في المغرب، وبعد أن كانوا يرون في المغرب أن الفجر في آية { والفجر وليال عشر } هو علي بن أبي طالب، ويرون الشفع والوتر هما الحسن والحسين، وأوا في مصر الفجر بأنه المهدي المنتظر، فكانوا حذرين في مصر كثيراً من إثارة الناس.

وسنرى ان عقيدة الدروز قد أخذت عقيدة الفاطميين التي جاءت كمجموعة من عقائد وفلسفات قديمة وضعت في صورة إسلامية.

كتب الدروز المقدسة:

المعروف لدى المؤلف من كتبهم المقدسة هي مجموعات رسائل اشتمل المجلد الأول منها على الرسائل التالية:

- ١- السجل المعلق: وقد وجد معلقاً بعد غيبة الحاكم بأمر الله سنة ٤١١ هـ والسجل، فاطمي العقيدة، ويظهر أنه من كتابة ديوان الإنشاء بمصر، أو كتابة الكرمانى لأنه يرى الحاكم غير معبود، وأنه ولي الله وخليفته في أرضه وأمير المؤمنين. ثم يشيد بدين الإسلام وبالرسول محمد عليه وآله السلام وبأن من نعم الإمام الحاكم أنه أحيا سنن الإسلام والإيمان، وعمر المساجد، وأقام الصلاة، والزكاة، والحج، والجهاد.. وغير ذلك من الآراء التي رفضها حمزة بن علي في رسائله التي كتبها سنة ٤٠٨ هـ.
- ٢- سجل النهي عن الخمر، وقد صدر عن ديوان الإنشاء سنة ٤٠٠ هـ، وهو من سجلات الفاطميين والدروز معاً.
- ٣- سجل خبر اليهود والنصارى الذين جاءوا في وفد لطلب الأمان، ولم يذكر تاريخه ولكن صياغته تدل على أنه من سجلات الفاطميين، لأنه يرى بأن الحاكم من أئمة شريعة الإسلام وأنه يلقب بأمر المؤمنين.
- ٤- رسالة القرمطي إلى الحاكم بأمر الله يتهدده إن لم يسلم البلاد له، وجوابه عليه.
- ٥- ميثاق ولي الزمان، وهو الذي يؤخذ من كل مستجيب للعقيدة الدرزية.
- ٦- كتاب النقض الخفي، وتاريخه سنة ٤٠٨ هـ، وهو من وضع حمزة بن علي الذي نقض فيه الشرائع جميعاً وقال بالباطن المحض. وفيه إضافات بعد هذا التاريخ.
- ٧- رسالة بدء الدعوة لتوحيد الحق لحمزة بن علي بتاريخ ٤٠٨ هـ، وفيها تأويلاته عن اللاهوت وإسقاط الفرائض والتزام خصال الموحدين.
- ٨- ميثاق النساء لحمزة أيضاً وبدون تاريخ، وفيه العهود على النساء بالحرص على العفاف ومكارم الأخلاق والتزام التوحيد.
- ٩- رسالة البلاغ والنهاية في التوحيد لحمزة كتبت بتاريخ ٤٠٩ هـ وفيها ذكر الثواب والعقاب ويوم القيامة.

- ١٠- رسالة الغاية والنصيحة لحمزة، كتبت في ٤٠٩ هـ أيضاً وفيها يثبت رسالته ويتحدث عن الخلاف مع الدرزي وابن الجال وغيرهما.
 - ١١- كتاب تأويل ما كان يظهر أمام الحاكم من الهزل وهو لحمزة وبدون تاريخ، ولكن يظهر أنه كتب قبل اختفاء الحاكم سنة ٤١١ هـ.
 - ١٢- السيرة المستقيمة لحمزة كتبت سنة ٤٠٩ هـ في موضوع الأدوار الكبرى والصغرى والحدود.
 - ١٣- كشف الحقائق لحمزة سنة ٤٠٩ هـ في موضوع حدود الدين والفرق بينها عند الفاطميين، وفي دعوة الحاكم من حيث لاهوت المعبود وناسوته.
 - ١٤- رسالة سبب الأسباب لحمزة بدون تاريخ، تتحدث عن رسالته للناس وسبب تسميته لنفسه بعلّة العلل، وعن تأويل بسم الله الرحمن الرحيم.
- وقد اشتمل المجلد الثاني من كتب الدرور المقدسة على الرسائل التالية:
١. الرسالة الدامغة في الرد على النصيري لحمزة، وفيها فكرة عن الثواب والعقاب لدى الطائفتين.
 ٢. رسالة الرضى والتسليم لحمزة سنة ٤٠٨ هـ، وفيها تأويلات لإثبات الألوهية وتدعيم مركزه وما خالف به الدرزي إخوانه ومصير كل منهم في الآخرة.
 ٣. رسالة التنزيه لحمزة سنة ٤٠٩ هـ، وفيها ذكر الحدود ومراتبهم والفرق بينها لديه ولدى الفاطميين.
 ٤. رسالة النساء الكبرى، وهي بلا كاتب، ولا تاريخ وتتحدث عن التأليه وتأويل أركان الدين الإسلامي والحض على التمسك بالفضائل.
 ٥. الصيحة الكائنة لحمزة سنة ٤٠٨ هـ يعاتب فيها أتباع الدرزي لتركهم لحمزة، ويحذروهم من ثورة المصريين ضد دعاة التأليه وكيف هرب حمزة واختبأ.
 ٦. سجل المجتبي لحمزة، وهي خاصة بتعيين إسماعيل التميمي في مرتبته.
 ٧. تقليد الرضى لحمزة، وهي خاصة بتعيين محمد بن وهب في مرتبته.
 ٨. تقليد المقتنى لحمزة، وهي خاصة بتعيين علي السموقي في مرتبته الدينية.
 ٩. رسالة حمزة إلى أهل الكدية البيضاء، يدعوهم فيها لسؤال نقيب النقباء حسن بن هبة العون في أمورهم.
 ١٠. رسالة حمزة إلى الموحدين من أهل أنصنا في صعيد مصر في ٤١٠ هـ يدعوهم للصبر والتسليم بقضاء الله.
 ١١. شرط الإمام صاحب الكشف، بلا ذكر كاتب ولا تاريخ، وهي تتحدث عن المعاملة الزوجية.
 ١٢. رسالة إلى ولي العهد عبد الرحيم إلياس من حمزة يدعوها للاعتراف بألوهية الحاكم.

١٣. رسالة حمزة إلى خمار العكاوي، يحذره فيها من القول بأنه أخ الحاكم.
١٤. رسالة حمزة إلى قاضي القضاة أحمد بن العوام يدعو فيه لخلق نفسه لعدم قيمة أحكامه ولعدم خضوعها لألوهية الحاكم.
١٥. مناجاة ولي الحق: وهي أوراد الصوفية.
١٦. الدعاء المستجاب: وهي مناجاة أخرى.
١٧. التقديس دعاء الصادقين: وهي دعاء ثالث.
١٨. ذكره معرفة الإمام: وهي أسماء وألقاب الحدود.
١٩. رسالة التحذير والتنبيه لحمزة، يتحدث فيها عن مكانته ومرتبته كإمام وناطق حقيقي خلقه الله قبل خلق السموات والأرض.
٢٠. رسالة الإعذار والإنذار لحمزة، يتحدث فيها عن ضرورة التمسك بعقيدة التوحيد ومعرفة الحدود وثواب الموحد.
٢١. رسالة الغيبة للداعي أبي يعلى سنة ٤١١ هـ وبعد غيبة الحاكم بشهور، أرسلت من القاهرة لموحي الشام للحض على التمسك بالعقيدة وعدم التخائل بعد غيبة الحاكم..
٢٢. كتاب تقييم العلوم لإسماعيل التميمي سنة ٤١٠ هـ، يفرق فيها بين اللاهوت والناسوت والحدود في كل دور، وحدود دعوة حمزة.
٢٣. رسالة الزناد لإسماعيل التميمي، في تهذيب النفس وأنها تشبه الحجر فتميل للجهل إذا لم تجد من يعلمها كالحجر يندفع منه الشرار إذا حركه القادح.
٢٤. رسالة الشمعة لإسماعيل التميمي، التي رفعت للحاكم، وفيها يمثل حدود الدعوة بأجزاء الشمعة.
٢٥. رسالة الرشد والهداية لإسماعيل التميمي، وفيها تحذير ووعد ووعد.
٢٦. شعر النفس لإسماعيل التميمي، وهي قصيدة بعقيدة التوحيد.
- وقد اشتمل المجلد الثالث على مجموعة رسائل كتب أكثرها المقتنى بهاء الدين الضيف دون تاريخ وهي:
١. الوصايا السبع للموحدين.
٢. رسالة التنبيه والتأنيب والتوبيخ والتوقيف، كتبها سنة ٤٢٢ هـ إلى معاد بن محمد وظاهر بن تميم الداعيين للثبات على العقيدة وبالحث على التظاهر بمذهب التوحيد أثناء غيبة المعبود.
٣. رسالة توبيخ لمن قصر عن حفظ الأمانة لبعض حكماء الديانة.
٤. رسالة إلى بني أبي حمار يتحدث المقتنى فيها عن عدم انتقال الألوهية من الحاكم إلى ولده علي الظاهر.

٥. مرسوم بتقليد الشيخ المختار في مرتبة لاحق بتاريخ ٤١٨ هـ.
٦. مرسوم تقليد سكين لرئاسة المذهب في سورية فادعى حلول الإله به وأنه الحاكم وصدر في ٤١٨ هـ.
٧. تقليد الشيخ أبي الكتاب.
٨. تقليد الأمير ذي المحامد أبي الفوارس معضاد بن يوسف، وهو أحد الدعاة تحت الداعي سكين.
٩. تقليد بني الجراح لبهاء الدين بعد عودتهم إلى طاعة الحاكم في جنوب الشام كله بعد أن استمالهم الحاكم بالأموال والهدايا.
١٠. الرسالة الجمهيرية لبهاء الدين سنة ٣١٨ هـ إلى بعض الدعاة والتنوخيين في وادي التيم وجبل لبنان.
١١. رسالة التعنيف والتهجين لجماعة من قبيلة كتامة بمدينة سنهور بمصر.
١٢. رسالة الوادي للدعاة في قرية الوادي بالمديرية الشرقية بمصر.
١٣. رسالة القسطنطينية لإمبراطور الروم قسطنطين سنة ٤١٩ هـ يدعو للدخول مع شعبه في مذهب التوحيد.
١٤. الرسالة المسيحية لجميع المسيحيين بأن حمزة هو المسيح ويدعوهم للتوحيد.
١٥. رسالة التعقب والافتقاد للأمير ميخائيل صهر الإمبراطور قسطنطين.
١٦. رسالة الإيقاظ والبشارة لأهل الغفلة سنة ٤٢٣ هـ يبشر فيها أهل العراقين وفارس بقرب ظهور حمزة.
١٧. رسالة الحقائق والإنذار والتأديب لجميع الناس سنة ٤٢٥ هـ للموحدين في لبنان ووادي التيم والجبل الأعلى، يشكو فيها من الآراء الجديدة في تلك البقاع جهلاً بحقيقة المذهب والعقيدة.
١٨. الرسالة الشافية لنفوس الموحدين لتثبيت عقيدتهم.
١٩. رسالة العرب لأهل سورية والحجاز واليمن والجزيرة والعراقين وصعيد مصر يدعوهم لمذهب التوحيد.
٢٠. رسالة اليمن سنة ٤٢٥ هـ إلى الموحدين في اليمن.
٢١. رسالة الهند سنة ٤٢٥ هـ للشيخ رشيد بن صومار راجا بال بالهند في إقليم السند حيث كان الكثير من الإسماعيلية.
٢٢. رسالة التفريع والبيان وإقامة الحجة لولي الزمان، لأهالي القاهرة والفسطاط، للعتب لعدم تصديق دعوى ألوهية الحاكم.
٢٣. رسالة تأديب العامة من الأولاد، وهي حديث عن تناسخ الأرواح وتغير صور العاصين المفكرين لألوهية الحاكم.

- ٢٤ . الرسالة القامعة، سنة ٤٢٦ هـ يرد فيها على ابن الكردي الذي ادعى حلول روح الحاكم فيه.
- ٢٥ . كتاب أبي اليقظان، بعث للشيخ أي اليقظان ليلتقي به ويحدثه عن سكين الذي ادعى بأنه الحاكم.
- ٢٦ . رسالة تمييز الموحدين الطائعيين من حزب العصاة الفسقة الناكثين.
- ٢٧ . رسالة من دون قائم الزمان والهادي إلى طاعة الرحمن.
- ٢٨ . رسالة السفر إلى السادة سنة ٤٣٠ هـ إلى مشايخ العرب يدعوهم إلى الطاعة.
- وقد اشتمل المجلد الرابع على مجموعة رسائل هامة لبهاء الدين بعد غيبة الحاكم واضطرار بهاء نفسه بعدئذ للغيبة بعد أن ينس من إصلاح رعيته، وهي:
- ١ . رسالة معراج نجات الموحدين، كبشارة لمن اعتنق المذهب.
 - ٢ . رسالة في ذكر المعاد، تتحدث عن المعاد حسب عقيدتهم والرد على المخالفين.
 - ٣ . رسالة التبيين والاستدراك، تشرح بعض العقائد وتفرق بين الإلحاد والشرك.
 - ٤ . الرسالة الإسرائيلية، ترد على عقائد اليهود الذين اعتبرهم بهاء الدين أعداء.
 - ٥ . رسالة الأحد وسبعين سؤالاً، ترد على هذا العدد من أسئلة مخالفي عقيدته.
 - ٦ . رسالة إيضاح التوحيد، ترد على من ينكر ألوهية الحاكم.
 - ٧ . رسالة الرد على اتباع المذهب الفاطمي الذين ينكرون ظهور المعبود في صور مختلفة.
 - ٨ . توبيخ ابن البربرية، لفضح منبع أهل الردة والبلس.
 - ٩ . توبيخ لاحق. توبيخ الخائب العاجز سكين. توبيخ ابن أبي حصين.
 - ١٠ . توبيخ سهل. توبيخ ابن معلى. توبيخ الخائب محلى. رسالة البنات الكبيرة.
 - ١١ . رسالة البنات الصغيرة. رسالة في الرد على المنجمين.
 - ١٢ . رسالة بدء الخالق في الرد على أحد أتباعه. رسالة الموعدة.
 - ١٣ . رسالة المواجهة، توصيته لحمزة بأحد الأشخاص.
 - ١٤ . مكاتبة الشيخ أبي الكتائب، يتفويضه والإذن له بالدعوة.
 - ١٥ . منشور إلى آل عبد الله. جواب كتاب السادة المرسل من لبنان.
 - ١٦ . الكتابة المنفذة على يد سرايا المتعلقة ببعض الأمور التجارية.
 - ١٧ . مكاتبة تذكرة. مكاتبة نصر بن فتوح. السجل الوارد إلى نصر.
 - ١٨ . منشور الشيخ أبي المعالي الطاهر. منشور إلى جماعة أبي تراب.
 - ١٩ . رسالة جبل السماق وهي بشارة سنة ٤٢٨ هـ بظهور حمزة.
 - ٢٠ . منشور إلى آل عبد الله وآل سليمان. منشور إلى أبي علي التنوخي.

٢١. منشور إلى أبي الخير سلامة.
٢٢. منشور الشرط في الرد على بعض المشايخ. مكاتبة إلى الشيوخ الأوابين.
٢٣. منشور في ذكر إقالة سعد. مكاتبة إلى الشيخ أبي المعالي.
٢٤. منشور إلى المحل الأزهر الشريف. منشور نصر بن فتوح.
٢٥. مكاتبة رمز إلى آل أبي تراب. الرسالة الواصلة إلى الجبل الأنور.
٢٦. رسالة الشيخ أبي المعالي.
٢٧. رسالة الغيبة يودع بهاء فيها الموحدين لإصراره على الغيبة وبراءته من تعاليم لاحق وسكين وغيرهما.
٢٨. هذه هي الكتب المقدسة لدى الدرور أوجه نظر المؤرخين لها.

الفصل الثاني: في التوحيد :

١ - لاهوت المعبود وناسوته :

إن أهم عقيدة في كتب ورسائل حمزة بن علي هي أن للحاكم بأمر الله حقيقة لاهوتية لا تدرك بالحواس ولا الأوهام ولا الرأي ولا القياس، فليس له مكان ولا بظاهر ولا باطن ولا يطلق عليه اسم ولا صفة، فهو ليس بشخص ولا بجسم ولا بشبح ولا بصورة.. فتوحيد كتب الدرور المقدسة يتفق مع ما ورد في كتب الدعوة الفاطمية عن الله سبحانه وتعالى. وأحمد الكرمانى في كتابه «راحة العقل» يذكر آراء الدعوة الفاطمية في التوحيد كغيره من علماء الفاطميين، وهي تلتقي مع جمهور أهل السنة والشيعية الإمامية والزيدية، بينما يجعل الدرور هذه الآراء في معبودهم الحاكم بأمر الله من حيث لاهوته، ففي «رسالة البلاغ والنهية في التوحيد» يقولون (سبحان مولانا جل ذكره عن إحاطة الأشياء به، وعز سلطانه عن حكمة الألسن والأوهام عليه، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) ويقولون: (وسلطان لاهوته لا يدرك بالعين ولا يعرف بالكيف والأين).

فالدرور في توحيد معبودهم لا يخرجون عن توحيد المسلمين لخالقهم سبحانه وتعالى وإن كان الدرور يرون أن معبودهم يتخذ مقامات ناسوتية من حين لآخر، فتقول: «رسالة الغيبة»: (أظهر لنا ناسوت صورته تأنيساً للصور، فحار فيها الفكر ، وعجزت العقول عن إدراك أفعالها، واعترفت بالعجز والتقصير في معلومها..).

فالحاكم بأمر الله عند الدرور بشر في الأعين المجردة ويعيش كغيره من الناس لمن لا يعرف حقيقته، وأنه اتخذ لنفسه صورة إنسية سماها الناس الحاكم بأمر الله.. وهو يظهر في كل عصر بصورة ناسوتية تختلف عن الأخرى.. وفي رسالة «السيرة المستقيمة» حديث طويل عن ظهور ناسوت المعبود في صورة القائم لأنه أول ما ظهر

للعالم بالملك والبشرية، ثم ظهر بصورة الحاكم بأمر الله كما يقول بهاء سنة ٤٠٠ هـ واستمر يظهر كذلك حتى أخفى لاهوته سنة ٤١١ هـ ولا يظهر بعدها إلا يوم الدين.

فما علاقة هذه الآراء بمذهب التناسخ لدى البوذية والهندوكية؟

إن بوذا قد ظهر حوالي ألفي مرة في صورة حيوانات وطيور وشجر وصور إنسية، وشيفا في الهندوكية ظهر على صور إنسية عديدة، والإغريق قالوا بمذهب التناسخ وظهور الآلهة بصور مختلفة، وتحدث الفلاسفة عن التناسخ، ثم ظهرت الفرق الإسلامية التي اعتنق بعضها آراء التناسخ.

صحيح أن حمزة بن علي يهاجم التناسخ كدعاة الفاطميين، ولكنه يقول بظهور المعبود في صور ناسوتية، ويظهر مذهب التناسخ في كتابات الدعاة الآخرين أكثر وضوحاً. ففي رسالة «الأسرار ومجالس الرحمة للأولياء والأبرار» ترى أن الجسد لا يرجع بعد الموت ولكن النفس تحل في جسد آخر، ولا تتغير الأنفس ولكن الأجساد تتغير. وفي رسالة «من دون قائم الزمان والهادي إلى طاعة الرحمن» تؤكد أن عدد سكان العالم غير قابل للزيادة ولا النقصان منذ بدء الخليقة، ولكنها تظهر بصور مختلفة على قدر اكتسابها من خير وشر. فالدروز الآن يعتقدون بالتناسخ الذي يرى أن الميت من البشر تنتقل روحه إلى جسد يولد حديثاً بحيث يبقى عدد الموتى مساوياً لعدد المواليد حتى يبقى عدد سكان العالم دون زيادة ولا نقصان.

٢ - حدود الدين في الدعوة الفاطمية :

يرون أن توحيد الله لا يكمل إلا بمعرفة مراتب الحدود الروحانية والحدود الجسمانية والإيمان بهم والطاعة التامة لهم، ويرون أن الحدود الروحانية هم: العقل، ثم النفس، ثم الجد، فالفتح، فالخيال. ويرون أن هذه الحدود العلوية مماثلة للحدود الجسمانية وهم: النطقاء، والأوصياء، والأئمة، والحجج والدعاة.

هذه الحدود أخذها دعاة مذهب الموحدين وحوروها لتتفق مع آرائهم فخالفوا بذلك الفاطميين مخالفة جوهرية. فقد رأوا الحدود الروحانية هي نفس الحدود الجسمانية لأنهم قالوا بأن اللاهوت أظهر ناسوته، وقالوا بأن الحدود الجسمانية هم أنفسهم الحدود العلوية، فأروا المعبود يبدع العقل الكلي وهو حمزة بن علي الذي ناقش رأي الفاطميين في حدود الدين كما ظهر في رسالة «كشف الحقائق» التي صرح فيها بأن المعبود قد أظهر من نوره صورة كاملة صافية هي الإرادة وسماها عقلاً فكان العقل كاملاً بالنور، والقوة تامة بالفعل والصورة. فالحدود الروحانية لدى الفاطميين عقول محضة بينما الحدود الجسمانية هم بشر، وأما حمزة فجعل الحدود الجسمانية هم نفس الروحانية وبالعكس..

وهكذا جاءت الحدود الدينية لدى الدروز كما ورد في رسالة «معرفة الإمام»

فيما يلي:

أولاً - العقل الكلي، وهو الإرادة، والإمام الأعظم حمزة بن علي.
ثانياً- النفس، وهو المشيئة، والشيخ المجتبي إسماعيل بن محمد التميمي صهر حمزة بن علي.

ثالثاً- الكلمة، وهو سفير القدرة، وفخر الموحدين.. محمد بن وهب القرشي.

رابعاً- الجناح الأيمن (السابق) وهو عز الموحدين.. سلامة بن عبد الوهاب.

خامساً- الجناح الأيسر (التالي)، وهو سند الموحدين.. بهاء الدين السموقي.

وهؤلاء هم الحدود النورانية النفسية الروحانية الجرمانية الجسمانية، والعقل الكلي يظهر بالحجج الأربعة، وهؤلاء الحدود يظهرون بصور مختلفة وأسماء متباينة في كل عصر، وبهاء الدين الضيف له ثلاثة حدود هم:

١- الجد، وهو أيوب بن علي، و ٢- الفتح، وهو رفاعة بن عبد الوارث، و ٣- الخيال، وهو محسن بن علي.

وهؤلاء الثلاثة ليس لهم مكانة الحدود دائماً يتلقون الأوامر من بهاء الدين. وأما حدود الإمامة والتوحيد فقد جعلوها سبعين درجة بتأويل الآية {ثم في سلسلة ذرعتها سبعون ذراعاً فاسلكوها} وجعلوها كما يلي:

النفس الكلية، وله ١٢ حجة في الجزائر التي قسموا الأرض لها و ٧ دعاة للأقاليم.

الكلمة، وله ١٢ حجة و ٧ دعاة. السابق، وله ١٢ حجة. التالي، وله ١٢ حجة. الداعي المطلق، وله مآذون واحد ومكالبان.

وعن هؤلاء الحدود الـ ٧٠ تفرعت حدود الدعاة والمأذونين والمكالبين، وحمزة بن علي هو السلسلة التي تجمعهم في سبعين رجلاً في دعوة التوحيد. وترتيب درجات الحدود هذه تبدأ بالحجة، فالداعي، فالمآذون، فالمكالب.

وقد ورد في حديث حمزة عن النطقاء والأسس ما ذكره الفاطميون عن حدود الدين، فالناطق لدى الفاطميين هو النبي والأساس هو وصي النبي ومستودع علمه وصاحب التأويل، ففي دور آدم ظهر النطقاء والأسس وهم آدم وأساسه شيث، ثم نوح وأساسه سام، وفي دور إبراهيم كان أساسه إسماعيل، وفي دور موسى كان أساسه هارون، وفي دور عيسى كان أساسه شمعون الصفا، وفي دور محمد كان أساسه علي بن أبي طالب.. وهؤلاء جميعاً حدود جسمانية تماثل الحدود العلوية لدى الدروز. وهو يرى أن شريعة محمد قد تناسخت في أيدي الأنمة إلى أن انقضى دوره وظهر ناطق غيره هو محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق الذي يراه قد ختم الشرائع وأتمها، وختم دوره بعبيد الله المهدي.. وهو بذلك يختلف عن الفاطميين.

فالعقيدة المسيحية ظاهرة التأثير في كتابات بهاء الدين بينما العقيدة الإسلامية في كتابات حمزة وذلك لكثرة رجوع بهاء إلى الاستشهاد بالإنجيل.

والملاحظ من كل كتاباتهم أن آراء علماء دعوة الدروز عن النطقاء والأسس تلتقي الى حد بعيد مع علماء الدعوة الفاطمية لولا الاختلاف في تصريح الدروز بتأليه الحاكم بأمر الله.

شريعة الدروز:

إن الدعوة الفاطمية التي أخذ منها دعاة الدروز عقيدتهم كانت تقوم على العلم والعمل أي على التأويل الباطن والعبادة الظاهرة بجميع الفرائض الإسلامية، وكانوا يكثرون من تشييد المساجد والتردد عليها تأليفاً لقلوب الناس، مما جعل دعاة الدروز قبل ظهور دعوتهم يتأثرون بهذا الجو الإسلامي في وضع مذهبهم الجديد.. ولذلك يلاحظ أن أول ما بدأه دعواتهم بعد توحيد الحاكم هو نقض الشريعة الإسلامية من حولهم لكي يمكنهم أن يأتوا بشريعة جديدة تخالف ما كان عليه الناس.. وهذا واضح في رسالة «النقض الخفي» عندما بدأوا بالقول بتلاشي الظاهر وإقامة الباطن المحض.. ولكن تأويلهم الباطن كان نفس ما قاله علماء الدعوة الفاطمية مما جعل دعاة المذهب الجديد يطعنون في التأويل الفاطمي حتى رأوا أن (الفحشاء والمنكر) هما اتباع الشريعتين الظاهرة والباطنة، فمثلاً كان التأويل الفاطمي للزكاة ولاية علي بن أبي طالب ولأنمة من ذريته مع التبرؤ من الأضداد، فقال دعاة المذهب الجديد بأن الحاكم منع سب أضداد الأنمة فأبطل الزكاة الباطنية ورأى أن الزكاة الحقيقية هي توحيد المولى وترك ما كان عليه الناس قديماً.. وهكذا اتخذوا لهم فرائض سموها بالفرائض التوحيدية وهي ثلاثة، واعتبروا من يعترف بها موحداً وإن كان هناك واجبات مذهبية أخرى:

- معرفة الباري وتنزيهه عن جميع الصفات والأسماء،
- تم معرفة الإمام قائم الزمان وهو حمزة بن علي وتمييزه عن الحدود الآخرين، ووجوب طاعته التامة،
- ثم وجوب معرفة الحدود بأسمائهم وألقابهم ومراتبهم ووجوب طاعتهم.
- ورأوا أن المولى الحاكم بأمر الله اسقط عن الموحدين سبع دعائم تكليفية ناموسية وفرض عليهم سبع خصال توحيدية هي:
- سdq اللسان (بالسین عملاً بحساب الجمّل)،- حفظ الإخوان،
- ترك ما اعتقد الموحدون سابقاً من عبادة العدم والبهتان،
- البراءة من الأبالسة والطغيان أي الأنبياء السابقين والأديان والشرائع،

- التوحيد للمولى في كل عصر وزمان،- الرضى بفعله كيفما كان،
- التسليم لأمره في السر والحدثان.

فخلاصة شريعتهم هي إسقاط الفرائض الدينية التكليفية وعدم إقامة الفرائض الإسلامية والاعتراف بالخصال التوحيدية، فمن اعترف بها فهو من الموحدين، وفي ذلك يلتقون مع آراء الحسن الثاني بن محمد زعيم الإسماعيلية الشرقية التي نادى بها سنة ٥٥٨هـ، والتي طلب فيها من أتباعه طرح جميع التكاليف الدينية، والتي لازالت الإسماعيلية الأغاخانية عليها إلى اليوم، وإن كان لهم أيام يصومونها، ويحتفلون بعيد الأضحى، ويجاهدون أنفسهم بعنف تعذيباً للجسد لتطهير النفس، ويقنع بعضهم عن الزواج إمعاناً في التصوف، ويمتنع بعضهم عن أكل اللحم طوال حياته كما يفعل براهمة الهند، وفي «ميثاق النساء» يفرض حمزة على الرجال والنساء منهم التنزه عن كل عيب ودنس وإثم، وأن يتساواوا في كل شيء بعد الزواج، وللطلاق وغيره من أحكام الأسرة ما يشبه ما في القرآن لأن حمزة يستشهد بآياته ويدعو لتدبرها وتأويلها.

يوم القيامة والثواب والعقاب:

غاب المعبود لديهم (الحاكم بأمر الله) سنة ٤١١هـ ولن يظهر إلا يوم القيامة عندما ينتصر مذهب عقيدة التوحيد على كل المذاهب، وتحديد ذلك مجهول وإن كانت له علامات منها سيطرة الأهواء والظلم والفساد والخداع وظهور المسيح الدجال وظهور المسيح الذي يطرد اليهود من بيت المقدس ليعودوا لنتيجه. وفي يوم البعث ينقسم الناس بين فرقة ناجية هم الموحدون وثلاثة فرق هالكة هم الآخرون من أهل الظاهر والباطن والمرتدين. ويكون العذاب كما يرى حمزة بالتناسخ بين الأجساد من درجة عليا إلى أدنى منها، ويكون الجزاء بالعكس من درجة دنيا إلى عليا.. وكتابات حمزة في ذلك كله تلتقي مع تأويل العقيدة الفاطمية.

وختاماً يؤكد المؤلف أن الدروز هم عرب مسلمون ولا يرضون غير الإسلام بديلاً، وانهم بالأصل من الشيعة الإسماعيلية الفاطمية المسلمة، فالأمير شكيب أرسلان وعارف بك النكدي وأمثالهما يؤكدون أنهم مسلمون وأنهم فرقة إسلامية قبل كل شيء وأن ما ينسب إليهم غير ذلك باطل كله.

تاريخ الدروز:

من الواضح أن كتاب الدكتور حسين قد حرص على المزيد من التفصيل في هذا المجال ليعطي نفسه فسحة أكبر في التذليل على أن الدروز من أصل عربي سواء من حيث أماكن سكنهم الحالية بين العرب في سورية ولبنان وفلسطين وإن كان لم يذكر المغرب كما هو لدى كتاب الفوزان..

أو من حيث رد روايات بعض المؤرخين الأجانب بخاصة الذين زعموا أنهم من أصول أوربية نتيجة للحروب الصليبية، وإن كان الكتابان يؤكدان أن أصل دعائهم الأوائل عجمي.. أو من حيث مشاركتهم للعرب في الحرب ضد الصليبيين أو المغول.. أو من حيث أخلاقهم وما يتصفون به من خصال لا يتصف بها إلا الشعب العربي حيثما وجد، سواء في صفات الرجال أو النساء من الأمانة والشجاعة والكرم والشرف والعفة والنبيل. أو من أصولهم الثابتة من قبائل عربية مختلفة سواء في الحجاز أو عمان أو غيرهما.

وإن كان لبعض فئاتهم صلة الولاء بتلك القبائل وإن كان الدكتور حسين يأخذ على الأمير فخر الدين الثاني تعاونه مع أمير توسكانيا والفرنسيين جنباً إلى جنب مع الولاء للوالي العثماني.. أو من حيث عيشتهم وتواجدهم في المناطق الجبلية بالذات طلباً للحماية وسهولة الدفاع عن أنفسهم أو في مشاركة العرب والمسلمين ضد أعدائهم.

المجتمع الدرزي

يحاول كتاب الدكتور حسين أن يعطي صورة أوضح عن تركيبة المجتمع الدرزي وطريقة عيشتهم أكثر من كتاب الفوزان الذي يشير لذلك إشارات عابرة من خلال عناوين أخرى، فيذكر الكتاب الأول بأنهم مازالوا يتبعون نظام التوارث بين أمرائهم الإرسلايين وشيوخهم الجنبلاطيين، وما زالوا ينقسم مجتمعهم بين عقال وجهال من الرجال والنساء، بحيث يحق للفئة الأولى الاطلاع على أسرار الدين لديهم بالقدر المناسب ولا يحق للفئة الثانية ذلك إلا إذا ارتفعت للفئة الأولى.. وكلا الكتائبين يشير -ولو كان كتاب الدكتور حسين - بشكل أفضل إلى وجود رؤساء دين في كل مكان لديهم ويرأس شيخ العصر الذي يأتي بالانتخاب أو باتفاق زعماء الطائفة، ويتبعه أعوان في كل قرية هم شيوخ العقل، وهم شيوخ الجنبلاطية واليزيكية، وينقسمون بشكل أمراء ومشايخ وعامة في إطار المجتمع المدني، وأما الأمراء فيهم الإرسلايون.. ولهم محاكم بقضاة منهم يحكمونهم بالشرعية الإسلامية في كل شيء إلا في بعض جوانب الحياة من الميراث والوصية والزواج فيحكم بها حسب تقاليدهم.

شخصية الحاكم بأمر الله وظهور المذهب الدرزي

يلتقي الكتابان تماماً في وصف شخصية الحاكم بأمر الله سواء من حيث مولده سنة ٣٧٥ هـ أو توليه الحكم سنة ٣٨٦ هـ أو الأوصياء الثلاثة عليه نظراً لصغر سنه، وكيف أنه نكل بهم عندما تقدم به السن وأصبح في سن الخامسة عشرة، وإن كان كتاب الدكتور حسين يبعد القاضي النعمان منهم عن التنكيل بحجة أنه لم ينخرط في السياسة كالآخرين أبو الفتوح برجوان الصقلبي والحسن بن عمار الطلبي الكتامي.

كما يلتقي الكتابان في وصف شخصيته من حيث شدته في البطش بكل مخالف له مهما كان ذنبه صغيراً، وتعليل ذلك بسبب الاضطراب الذي كان يسود المجتمع في ذلك الوقت نتيجة الاختلافات المذهبية والسياسية والدينية.. ومن حيث أعماله الغريبة التي كان يقوم بها من مثل إطالة الشعر، ولبس الصوف لمدة سبع سنوات متتالية، واستخدام الحمير فقط مطية له، وسياحته اليومية في الصحراء من طريق واحد وطلبه من الركابية معه التصارع بالعصي أمامه وكشف سوءاتهم لينظر إليها أو يجذبها بيده.. ومن حيث تأويلهم لهذه الأعمال بأنها كانت بقصد تأليهه بعد أن تأثر منذ طفولته بفكرة تأليه الأئمة في فارس، وأن ذلك كله واضح من كتبهم المقدسة مما لا يسمح لا للكتابين ولا لغيرهما بالشك بوقوع تلك الأعمال.

كما يلتقي الكتابان في ذكر ما فعله الحاكم بشأن أهل الذمة من اليهود والنصاري وكيف أنه بقي يكره اليهود ويسعى للقضاء عليهم بينما تراجع عند اضطهاد النصاري، وأن ذلك سبب لتفسير قتله من اليهود أنفسهم سنة ٤١١ هـ.

كما يلتقيان في تأكيد حجة ما صدر عنه من أفعال بشأن العقيدة الفاطمية كإمام لأهلها مما خالف فيه آباءه وأجداده في إلغاء الأذان والصلاة والصوم والحج والزكاة وغيرها من الفرائض الإسلامية بتأويلات تنسب لمؤسس دعوته الجديدة ونبينا حمزة بن علي بالذات.

كما يلتقيان مع الاختلاف في التفاصيل في ذكر مؤسسي الدعوة أو المذهب الجديد الذي اختلف عن الدعوة أو المذهب الفاطمي السابق وأنهم الحسن الفرغاني (الأخرم) ومحمد بن إسماعيل الدرزي وحمزة بن علي، وأن الأخرم قد قتل في الأيام الأولى من إعلان المذهب الجديد سنة ٤٠٨ هـ، وأن الدرزي قد تعجل في إعلان المذهب سنة ٤٠٧ هـ مخالفاً حمزة مما سبب انقسام الاتباع بينهما وعرضهما للقتل في ثورة الناس في مصر ضدهما لولا أن نجا حمزة لبعض الوقت ليقود المذهب بعد غياب المؤسسين الآخرين.

وأن حمزة قد اختفى سنة ٤١١ هـ بعد فترة قصيرة من قتل الحاكم نفسه ليخلفه في قيادة المذهب الداعي بهاء الدين السموقي المعروف بالضيف الذي اعتزل الدعوة سنة ٤٣٤ هـ بعد أن اضطهدت في عهد علي الظاهر بن الحاكم بأمر الله..

كما يلتقيان بالاستشهاد بكتب الدرر المقدسة بالقول بأن كبار الدعاة من الفرس قد أثروا على الحاكم بأمر الله باستغلال طموحه ليكون مؤلماً مقدساً وهو يرى حاشيته تسجد له كلما مر بهم، وأن الداعي الفاطمي أحمد الكرمانى المعروف بحكيم الدعوة وفيلسوفها قد توفي سنة ٤١٢ هـ وأنه صاحب «رسالة مباسم البشارات بالإمام الحاكم» التي بشر بها بالحاكم بأسلوب تأويل الآيات في الأئمة والذي أراد بها تخليص الناس من الاضطراب الديني بسبب تأليه الحاكم بإبعاد هذه الفكرة عن المذهب، وأن الحاكم مجرد إمام يدعو لتوحيد الله وتنزيهه وبقيم الشعائر الإسلامية.. ولكن ما فعله

دعاة المذهب الجديد من بعده وبالذات بهاء الدين لم يترك لهذه الرسالة أي أثر عليه لمنع التأليه .

العقيدة الدرزية

الدروز فرقة باطنية تخفي مذهبها خوفاً من نقمة المخالفين لهم وخاصة من المسلمين ولا سيما لأنهم يرون تقديس آراء الفلاسفة الإغريق من أرسطو وأفلاطون وفيثاغورس وغيرهم كما يستشهدون بالنصوص البوذية والهندوكية .

ويلتقي الكتابان موضع المقارنة هنا بهذه النظرة للفلسفات القديمة، كما يشير إلى تأثير المذهب كثيراً بجماعة إخوان الصفا، وبمذهب القرامطة حتى كادوا كما يقال يجمعون الأديان كلها في دين واحد سموه دين التوحيد وسموا أنفسهم بالموحدين. ورأوا أن جذور مذهبهم قديمة جداً في التاريخ، وأن معارفهم تشمل الأمور العقلانية والأمور العرفانية طيلة العهود التاريخية..

ويلتقي الكتابان بالقول بأن عقائد الفاطميين هي أساس عقيدة الدروز إذ جعل الفاطميون عقيدتهم تقوم على العمل والعلم، العمل بظواهر القرآن والسنة بالتزام جميع الفروض الإسلامية، كما يرى القاضي النعماني الفاطمي في كتابه «دعائم الإسلام»، والعلم بباطن النصوص القرآنية والنبوية بتأويلاتهم الخاصة لكل قول وعمل مما يبعدهم عن جمهرة المسلمين ومما يوقعهم في المغالاة التي وقفت عندها العقيدة الدرزية وتركت الظاهر تماماً.

ومما يذكره الكتابان أن العقيدة الفاطمية رأت تنزيه الله تعالى عن الصفات والأسماء، وأنه أبدع العقل الكلي الذي أوجد النفس الكلية، وأن هذين العقل والنفس قد أوجدا جميع المخلوقات.. كما رأت العقيدة الفاطمية أن العقل الكلي هو الإمام الفاطمي الذي يصفونه بصفات الله تعالى أي أنه الواحد الأحد الفرد الصمد المحيي المميت.. وغالى بعضهم إلى القول بألوهية أئمتهم وإن كان الآخرون لم يقولوا بذلك حتى أن المعز لدين الله الفاطمي قد تبرأ من أولئك المغالين.

ومما يبيئه الكتابان عن العقيدة الفاطمية كأساس للعقيدة الدرزية بأنها قالت بصدور العقول الروحانية عن العقل الكلي والنفس الكلية، وأن أهمهم الملائكة الروحانيون من جبريل وإسرافيل وميكائيل، ورأوا بأن العقل الكلي يمثل الناطق في عصره، وأن النفس الكلية تمثل الوصي في حياة الناطق، وأن للدعاة مراتب روحية هي الحدود الجسمانية، وإن الناطق معصوم ذاتياً بينما الداعي معصوم كسبياً.

وذكر الكتابان أن الفاطميين قد هاجموا فكرة التناسخ والقائلين بها ولكنها ظهرت في قولهم بأن الأنبياء والأئمة قد ظهوروا بصور آدمية متعددة وإن كانوا جميعاً شخصاً واحداً كما يرونهم في الحقيقة، ويرون بأنهم في دور محمد وسينتهي بظهور

قائم القيامة المهدي المنتظر، ويرون الأنبياء من آدم فنوح إبراهيم فموسى فيسى فمحمد، وأن لكل منهم دوراً كبيراً يتلوه دور صغير حتى يوم القيامة، ويرون للأعداد أصولاً دينية لإثبات الإمامة: فأروا العدد أربعة تمثل أركان الطبيعة البرودة والحرارة والرطوبة واليبوسة، وأن العدد خمسة يمثل الحدود العلوية ولكنهم لم يستخدموا حساب الجمل في الدين واستخدموه فقط في التنجيم.. وأروا أن للنبي التنزيل وللوصي التأويل وأن صاحب التأويل في عصره هو حجة زمانه. ولذلك كانت التأويلات شخصية فتختلف من زمن لآخر ومن مكان لآخر: ففي المغرب بعد قيام دولتهم لا تميل للتأليه كما هي في فارس التي دعت لطرح الفرائض الدينية، وفي مصر ألغوا منها الغلو وادعاء الأئمة علم الغيب كما كان في المغرب..

ويذكر الكتابان بأن عقيدة الدرود ترى أن الصورة التي ظهر فيها الحاكم بأمر الله غير حقيقية بتأويل أنها ناسوت لحقيقة إلهيته، وأنه واحد، وأنه لا أسماء ولا صفات له فهو الجمال وليس الجميل، والقدرة وليس القدير، والحياة وليس الحي، والعلم وليس العليم، وأن كمال جنبلاط قد أكد هذا المعنى عندما قال (إن الله لطف ذاته فسامها حقاً، وكثف ذاته فسامها خلقاً). ويرون أن العارفين يعرفون الإله الواحد بمقدار صفاء العارف منهم وتوجهه إلى الأعلى، وأن معبودهم الواحد هذا يتخذ لنفسه مقامات ناسوتية يستتر بها من جهة ويتقرب بها للبشر من جهة أخرى، وأن ذلك لا علاقة له بالتناسخ كما يقولون، وكما تردده البوذية في بوذا والهندوكية في شيفا عندما ظهرا في صور حيوانات وطيور وبشر وغير ذلك.

كما يذكر الكتابان كيف اختلفت عقيدة الدرود عن العقيدة الفاطمية عندما رأى أحمد الكرمانى الداعي الفاطمي بأن الله تعالى واحد في ذاته وصفاته بينما حمزة يرى هذا التوحيد في معبودهم الحاكم بأمر الله وأنه لن يظهر بعد غيبته، وإخفاء لاهوته سنة ٤١١ هـ كما يقول بهاء إلا يوم الدين.

كما يورد الكتابان الفرق بين العقيدة الفاطمية والدرزية من حيث نظرتهما للحدود الدينية، فالفاطمية تراها في الخمسة: العقل، والنفس، والجد، والفتح، والخيال، وأن هذه هي الحدود الروحانية بينما يقابلها خمسة حدود أخرى جسمانية هي: النطق، والأوصياء، والأئمة، والحجج، والدعاة، لكن العقيدة الدرزية كما طورها حمزة بن علي ترى بأن الحدود الروحانية أو العلوية هي نفس الحدود الجسمانية وبالعكس. فرأي الفاطمية بأن الله تعالى قد أبدع العقل الكلي الذي بدوره أوجد النفس الكلية والتي أوجدت كل المخلوقات أي أن العقل الكلي هو الخالق الحقيقي، وله الأسماء الحسنى الواردة في القرآن، والإمام الفاطمي هو ممثل العقل الكلي، وأما الدرود فيرون أن الحاكم بأمر الله هو المعبود، وأنه أبدع من نوره العقل الكلي المشتمل على كل شيء وكل ما كان ويكون، وهذا العقل الكلي هو حمزة الذي يقول عن نفسه في رسالته «سبب الأسباب» بأن المعبود أبدعه من نوره قبل كل مكان وإنس وجان..

ويورد الكتابان الحدود الدينية لدى الدروز الخمسة بأنها : العقل الكلي، والنفس الكلية، والكلمة، والباب (الجناح) السابق، والباب (الجناح) التالي، ويرون بأن هؤلاء يتقصدون الشكل البشري دون أن يعرفهم الناس، ولكنهم جعلوا حدود الإمامة والتوحيد سبعين موزعين على الحدود العلوية بواقع للنفس الكلية ١٢ حجة في مناطق العالم التي أسموها الجزائر، و ٧ دعاة للأقاليم، وجعلوا للكلمة أيضاً ١٢ حجة و ٧ دعاة، وللباب السابق ١٢ حجة فقط، وللباب التالي ١٢ حجة فقط، وللداعي المطلق جعلوا مآدوناً واحداً ومكالبين، فأصبح المجموع سبعين. ويؤول حمزة الآية {ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه} بالحدود السبعين وأن حمزة نفسه هو السلسلة الجامعة لهؤلاء السبعين رجلاً في دعوة التوحيد. وبهاء الدين الضيف يضيف ثلاثة حدود أخرى يذكرهم هم الجد، والفتح، والخيال ويحدد شخصية كلامهم.

ويورد الكتابان الأدوار السبعة التي يلتقي معها الفاطميون والدروز عندما قالوا بأن النطقاء سبعة، وأسسهم سبعة، والأئمة سبعة، وذكروا بأن آدم هو أول النطقاء وأساسه شيث، وأن آدم ثلاثة هم : آدم الصفا، وآدم العاصي، وآدم الناسي، والناسي هذا هو شيث. ويرى الدروز بأن آدم الصفا هو الذي اختار العاصي كذكر والناسي كأنثى واسكنهما في الجنة لعبادة البار الذي تجلى بناسوته بشكل آدم الصفا أو شطنيل. وأما الدور الثاني ففيه نوح الناطق الثاني وأساسه سام، والدور الثالث ناطقه إبراهيم وأساسه إسماعيل، والدور الرابع ناطقه موسى وأساسه هارون فيوشع، والدور الخامس ناطقه عيسى وأساسه شمعون، والدور السادس ناطقه محمد وأساسه علي، والدور السابع محمد بن إسماعيل وأساسه قداح.. فالأئمة لديهم سبعة هم: علي، والحسن، والحسين، وعلي بن الحسين، ومحمد الباقر، وجعفر الصادق، ومحمد بن إسماعيل.. وهكذا نجد الدروز يلتقون مع الفاطميين في النطقاء والأسس..

ويرى الكاتبان بأن الدروز قد طبقوا مذهبهم على الإسلام ولكنهم أحاطوا ذلك بالحذر والكتمان مما جعل بعض الكتاب يخرجهم من الإسلام ويطعن في مسلكتهم الخُلقي وإن كان البعض الآخر يرى مذهبهم محصوراً في الإسلام ولا يخرج عن القرآن وإن فسره تفسيراً باطنياً يتهمون معه بالغلو.

كما يرى الكاتبان بأن عملية الستر والتقية قد بدأت من أجدانهم العباسيين، ولكن هذه العملية قد أخفت مذهبهم عن الباحثين مما يجعل كل الأقوال حولهم موضع شك لولا إمكانية استنتاج المذهب بالمقارنة بين نصوص كتبهم المقدسة وبين ما يقول أبناء المذهب.

وينقل الكاتبان تبعاً لذلك النصوص المناسبة لذلك ويشيران إلى ما ذكره حمزة في «ميثاق ولي الزمان» الذي أعلن فيه المذهب والذي تبرأ فيه من جميع المذاهب والأديان والمعتقدات وحصر العقيدة في عبادة الحاكم بأمر الله وطاعته وتوحيده توحيداً مطلقاً مع التحذير من العقوبة لكل من يرجع عن ذلك، وأما من التزم به فهو من

الموحدين الفانزين.. فمثل هذا القول ممن يعتبر نبي هذا المذهب يثير كما يقول الكاتبان الشكوك حول حقيقة إسلامية هذا المذهب ولاسيما أنهم يعتبرون كل من يعرف فرائضهم الثلاثة: معرفة الباري (الحاكم بأمر الله) وتنزيهه، ومعرفة الإمام قائم الزمان (حمزة بن علي) وطاعته، ومعرفة الحدود بأسمائها وألقابها ومراتبها مع طاعتها.. كل من يعرف ذلك ويلتزم بالمطلوب منه هو فقط الذي يصبح موحداً دون القيام بأي فريضة غير فرائض المولى الحاكم.. ويرى الكاتبان بأن هذه العقيدة تعتبر التقمص والتناسخ عقيدة مؤكدة بعد أن تطورت في ظل رفع الاضطهاد عنها ولذلك تقول رسالة «الأسرار ومجالس الرحمة للأولياء والأبرار» بأن الجسد لا يرجع بعد الموت ولكن النفس تحل في جسد آخر، فنفس الموحد تنتقل إلى جسد آخر موحد ونفس المشرك إلى مشرك دون أي زيادة في عدد سكان العالم ولا نقصان كما تقول رسالة أخرى، كما أنهم ينكرون الحياة البرزخية بعد الموت.. ويرون أنفسهم موجودون منذ الأزل وأنهم قد اعتنقوا ديانات كثيرة كان آخرها الإسلام ثم تحولوا إلى دين مستقل هو الدين الدرزي الذي يجده أقطابهم من زمن إلى آخر.. ويرون أن للرسول محمد عليه وآله السلام مكاتة محدودة كوسيط للرسالة فقط ولا يجلبون إلا أربعة من الصحابة هم سلمان والمقداد وعمار وأبو ذر بالإضافة للبسطامي من أئمة الصوفية.

ويذكر الكاتبان بأن يوم القيامة مجهول وإن كانت له إمارات معينة من مثل تحكم الملوك بالرعايا حسب أهوانهم وبدون أي عدل، وتسلب النصارى واليهود على البلاد، وانتشار الإثم والفساد في جميع الأصقاع، وظهور الدجال، وظهور الحاكم بأمر الله بناسوته في مصر كما تقول «رسالة الأسرار» لحمزة بن علي، وقد يظهر في الصين حيث شعب يأجوج ومأجوج المؤمنين بالتوحيد، ويتجلى المعبود (الحاكم بأمر الله) في مكة، وينقسم الناس إلى أربع فرق إحداها فرقة الدروز الناجية، والثلاثة الباقية هي الهالكة وهم أهل الظاهر وأهل الباطن والمرتدون. ويرى الكاتبان بأن الدروز لا موت عندهم ولا قيامة ولا بعث أجساد وإنما فقط يوم الدينونة كأخر مراحل تطور الأرواح تتصل الأرواح الصالحة بالعقل الكلي وتنتقل من الطهر إلى الكمال.

ويورد الكاتبان نصوصاً من كتبهم المقدسة بأنه لا وجود للجنة ولا النار عندهم، ويرون الجنة بأنها توحيد المعبود ودعوة التوحيد، وأما الثواب فهو معرفة العلوم العرفانية الإلهية ويتم ذلك من خلال انتقال روح الموحد من جسد إلى آخر لتزداد درجته العلمية وترتفع منزلته بينما العذاب هو انتقال الروح إلى جسد من درجة دونها في الدين، وأما النار فهي غلبة الشقاء وهوى النفس الجاهلة.. ويرون أن التقمص لدى الدروز تحمل معه الأرواح أحياناً معلومات عن الدور أو الجيل السابق.. ويؤكد الكاتبان بأن فكرة التناسخ متناقضة لديهم لأن حمزة يهاجم القائلين بالتناسخ ولكنه يرى ظهور المعبود بصورة ناسوته، والدعاة بعد حمزة يرون التناسخ في المذهب عندما يرون الجسد لا يرجع بعد الموت ولكن النفس تنتقل إلى جسد آخر من نفس الدين.

شريعة الدروز : مرة أخرى

لوحظ أن الكتّابين لا يذكران شيئاً عن تشريعات الشؤون المختلفة من جوانب الحياة من حكم واقتصاد واجتماع وتعليم وصحة وعقوبات وغيرها ويكتفيان بالإشارة إلى العادات بصورة خاصة مع عمومات للأمور الأخرى..

ففي الوقت الذي يتحدثان عن أن العقيدة الدرزية التي أخذت عن العقيدة الفاطمية أصلاً قد تأثرت بالجو الإسلامي الذي أحاط بهذه الأخيرة تأليفاً لقلوب الناس فإنهما يذكران ويؤكدان على أن دعواتهم قد بدأوا بتوحيد الحاكم بأمر الله ثم بالدعوة لترك جميع الفروض الإسلامية من صلاة وصوم وزكاة وحج بحجة أن الإسلام هو الإيمان وهو بالقلب لا باللسان لأنه يتجاوز الظاهر إلى الباطن بتطهير النفس من ظلمة الأعمال والأفكار السفلية السابقة، فلا يقف الموحّد عند العبادات الظاهرة، وهذا واضح في رسالة حمزة «النقض الخفي» عندما قال بالعمل بالباطن المحض والتخلي عن الظاهر كله وإن كان تأويلهم الباطن يعطي لتلك العبادات الظاهرة معنى آخر.

فالصلاة لديهم تختلف عن صلاة المسلمين إذ لا وضوء لها وهي مجرد طاعة الإمام وتوجه القلوب للتوحيد، والصوم إمتناع عن الرفث في رأي، وعن الحديث حول العقيدة لغير أهلها في رأي آخر، وعن الأكل والشرب كالمسلمين في رأي ثالث، والزكاة مجرد تطهير للقلوب، والحج رأوا في مناسكه مجرد أعمال وثنية.

وبدلاً من هذه العبادات رأوا فرائض توحيدية محصورة فيما أشرنا إليه سابقاً من أمور ثلاثة هي : معرفة المعبود (الحاكم بأمر الله) وتنزيهه عن الصفات والأسماء، ومعرفة الإمام قائم الزمان (حمزة بن علي) وطاعته التامة، ومعرفة أصحاب الحدود ووجوب طاعتهم، وبذلك يصبح الإنسان موحداً دون العمل بكل الفرائض الإسلامية بحجة أن الحاكم قد أسقط عنهم سبع دعائم تكليفية وفرض عليهم سبع خصال توحيدية هي :

سّدق (بالسين) اللسان لأنها تدخل في حساب الجمل حسب عقيدتهم الذي يعطيها عدد ٦٠ ويعطي الدال عدد ٤ والقاف ١٠٠ فيكون المجموع ١٦٤ وهو عدد حدود الموحدين لديهم. و٢- حفظ الاخوان و٣- ترك كل ما كان عليه غير الموحدين من عبادة و٤- البراءة من الأبالسة والطغيان من أنبياء سابقين وأديان وشرائع، و٥- توحيد المولى الحاكم بأمر الله في كل زمان و٦- الرضا بفعله مهما كان و٧- التسليم لأمره في السر والعلن.

ويذكر الكتّابان بأن الدروز يلتقون مع الإسماعيلية التي طرحت جميع الفرائض الدينية عندما نادى زعيمها عام ٥٥٨ هـ بذلك وما زالت الأغاخانية عليها حتى الآن.

ومما يشير إليه كتاب الفوزان بأن رسالة حمزة «رسالة الأسرار» تحذر من القتل والسرقة والظلم والفسق، ويلتقي مع الكتاب الآخر للدكتور حسين عندما يذكر بأن

حمزة يقول في «ميثاق النساء» بالتساوي بين الرجال والنساء لديهم بعد الزواج في كل شيء ولها كل ما يملكه عند الطلاق إذا كان هو السبب، وله نصف ما تملكه إذا كانت هي السبب ولها النصف إذا كان الطلاق بدون سبب، ويستشهد حمزة بآيات من القرآن بعد التأويل الباطن في ذلك كله. كما يذكر الكتابان بأن حمزة يفرض على النساء والرجال تجنب كل عيب ودنس وإثم في الأقوال والأفعال كما ورد في «ميثاق النساء».

ويذكر كتاب الفوزان بأنهم يدعون أتباعهم للتخلي عن التمتع بما أباحه الإسلام من المتع الحسية ويرون أن ذلك مناقض للفضيلة والتعفف. كما يذكر هذا الكتاب بأنهم شيدوا المساجد في المناطق الإسلامية من باب التقية ودفعاً لتهمة الردة عن أنفسهم، وظهر ذلك عندما ضعفت الدولة العثمانية وتدخل الأجانب في شؤونها الداخلية فأخذوا يتخلون عن التقية حتى أنهم منذ فتنة عام ١٨٦٠م في لبنان أخذت شعائر الصلاة تختفي من مساجدهم ثم تخلوا عن المساجد تماماً واتخذوا الخلوات بديلاً عنها.

ويتحدث الكتابان أخيراً عن طريقة إصدار التشريعات لدى الدروز والالتزام بها وذلك من خلال العمل على تقسيم المجتمع لديهم إلى طبقتين لكل منهما دورها في فهم الدين وإصدار الأحكام والعمل بها. فطبقة الروحانيين هم رجال الدين العارفون به وهم: الرؤساء، والعقال، والأجاويد. فالرؤساء يتولون الأسرار الدينية، والعقال أسرار المذهب الداخلية والأجاويد الأسرار الخارجية. والرؤساء يرأسهم شيخ يلقب بشيخ العصر، وله أعوان في كل قرية هم شيوخ العقل الذين لهم ثلاث درجات أدناها من يخرجون بعد سماع تلاوة مقدمات كتبهم المقدسة في الخلوات، وأوسطها من يخرجون بعد تلاوة الرسائل البسيطة، وأعلىها من يبقون لسماع الأسرار العليا.

ويذكر الكتابان بأن رجال الدين الدروز شديداً التقشف والزهد ومجاهدة النفس متأثرين بما لدى البوذية والهندوكية في ذلك.

وأما الطبقة الثانية لديهم وهي طبقة الجسمانيين فهم الأمراء الأرسلانيون، والشيوخ الجنبلاطيون واليزبكيون، والعامّة.

وأما حكم الإسلام في حقهم فإن كتاب الفوزان ينقل عن حاشية ابن عابدين حكم الردة وذلك تبعاً لرفضهم للشرايع والفرائض الإسلامية، بينما يؤكد كتاب الدكتور حسين نقلاً عن الأمير شكيب أرسلان وعارف بك النكدي بأنهم فرقة إسلامية ويرفضون كل ما ينسب إليهم من الردة والخروج عن الإسلام.. أما ماهي الحقيقة فالدروز وحدهم هم الذين يحكمون على أنفسهم بمقدار تمسكهم بالعقائد الإسلامية وما عُرف من أحكام الإسلام بالضرورة بغض النظر عن الآثار التاريخية والروايات المتضاربة.

تمت دراسة الكتابين عن الدروز والحمد لله رب العالمين.

4 - دراسة كتاب تقليد الغرب - أشكاله وعواقبه للمفكر الإسلامي محمد عثمان عثمان

مقدمة الكتاب:

ينعى المؤلف على المقلدين تقليدهم الأعمى بحجة أنه (يدل على انفصام الشخصية وانحلالها كلية) دون أن يحدد مفهوم هذا (التقليد الأعمى). ولكن بالنظر لأن هذا التقليد يدل على نفسه من حيث أنه اتباع للآخرين دون معرفة الدليل الذي يستندون إليه في فكر أو قول أو عمل فإن وصف من يقدم عليه بانفصام الشخصية وانحلالها، وهو المرض النفسي المعروف، فيه مجافاة للحقيقة لأن التقليد دون معرفة الدليل قد يكون بسبب عدم قدرة المقلد على البحث العلمي أو بسبب انشغاله في أمور دنياه عن دينه أو بسبب استسهال هذا الأمر وعدم الحرص على بذل الجهد، أو بسبب آخر وما أكثرها، دون أن نطعن في بنيانه النفسي والعصبي...

ثم هناك الحديث المحدد في عالم الفقه الإسلامي عن التقليد بين المسلمين منذ عهد الرسول صلى الله عليه وآله السلام عندما صنفوه على نوعين: أحدهما التقليد العامي، أي بدون معرفة الدليل، كما هو حال عامة المسلمين في تقليد أئمة المذاهب، والثاني التقليد الاتباعي، أي بمعرفة الدليل كما هو حال الخاصة من المسلمين والذين يطلعون على مذهب إمامهم ويعرفون أدلته في كل أمر وبخاصة في العبادات وغيرها من الأمور التي تمر بهم ويحتاجون لمعرفة الحكم الشرعي فيها قبل الإقدام على العمل بها.

وعليه فالتقليد الأعمى ليس إلا هذا التقليد العامي الذي لم يكن يعيب فيه أحد على أحد، تبعاً لتفاوت القدرات والإمكانات واختلاف الظروف بين المسلمين. وأما أن يبدأ المؤلف كتابه بهذا الهجوم الحاد على التقليد الذي وصفه بالأعمى فيخشى أن يكون مدفوعاً بأمر آخر غير الناحية العلمية وهو ما شاع عن مفهوم التقليد الأعمى بين الناس عامة من شناعته وجهل أصحابه أو حرصه على إثارة المسلمين بتجنب تقليد الغرب الذي يبعدهم عن دينهم وهم يقلدون دون دراية ووعي... وظني أن هذين السببين الظاهرين في المقدمة هما السبب في هذا الهجوم، وهما بلا شك كفيلاً بدعوة كل مسلم غيور وحريص على إسلامه وأمته للتصدي لهذه التبعية الفكرية والسلوكية لكل ما يصدره لنا الغرب من مخالقات لديننا... فكيف إذا كان المسلمون لا يميزون في عامتهم وخاصتهم بين ما يصلنا من الغرب أو نتصل به مما له صلة بديننا وما ليس له صلة من نتائج العلوم المخبرية والصناعات التقنية بحيث نطرح الأول جانباً لأن لدينا البدائل من ديننا بينما نقبل على الآخر دون حرج لأن أخذها والاستفادة منه مما يدعو إليه ديننا...

وتحت العناوين الثلاثة التالية:

- آيات من كتاب الله تدعونا إلى عدم اتباع الآخرين وتقليدنا،
- أحاديث نبوية حول التقليد والتبعية،
- تقليد بني إسرائيل كما ذكره القرآن،

يظهر أن النعي الوارد في المقدمة على (التقليد الأعمى) هو تقليد المسلمين للغرب وغير الغرب فيما يتصل بالأمور المتعلقة بالدين أي بوجهة النظر في الحياة، ولذلك استشهد المؤلف، جزاه الله خيراً، بعدد من آيات القرآن الكريم في العنوان الأول التي تنهى عن اتباع الآخرين الذين يخالفون المسلمين في دينهم وعن تقليدناهم إذ الآيات موضع الاستشهاد قد جاءت تحذرت وتمنع من موالات اليهود والنصارى والمشركين في كل ما يقولون ويفعلون مما يخالف الإسلام، كما جاءت تأمر بالالتزام بالإسلام في أوامره ونواهيه لأنه الشريعة الحقة التي لا يلحقها تحريف ولا تبديل، ولأنه الصراط المستقيم الذي لا يدانيه أمر أو شيء من العقائد والشرائع الأخرى سواء المحرفة أو الموضوعية من قبل البشر.

كما ظهر ذلك المنع والتحذير في الأحاديث النبوية حول التقليد والاتباع التي استشهد بها تحت العنوان الثاني، والتي جاءت صريحة في حق منع المسلمين من تقليد المشركين والكفار وأهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين عمد علماءهم لمآرب خاصة إلى تحريف دينهم، وأنهم لو أبقوا عليه نقياً من هذا التحريف والتبديل لوجدوه يفرض عليهم التخلي عنه إلى حساب الشريعة الناصخة الخاتمة شريعة الإسلام ودينه الذي جاء رحمة للعالمين وليس كأديانهم وشرائعهم لقوم دون قوم ولزمن دون زمن، والذي جاء كاملاً وليس ناقصاً يكمل فيه الإنجيل التوراة، والذي جاء صالحاً حتى يوم القيامة وليس لزمان معين...

كما ظهر ذلك المنع والتحذير جلياً في الآيتين اللتين استشهد بهما المؤلف تحت العنوان الثالث، وهما الآيتان ١٣٧ و ١٣٨ من سورة الأعراف واللذان تنبهان إلى جرأة بني إسرائيل على الردة بعد الإيمان والتوحيد لمجرد تقليد الآخرين من عبدة الأصنام {اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة}، وأن العبادة ليست مجرد التوجه لأي إله دون تحقق من أنه الإله المستحق للعبادة دون غيره وإنما لمجرد أن هذه الآلهة يرونها بعيونهم وأبصارهم وبصائرهم الضعيفة الجاهلة كما يرى غيرهم الصنم المعبود!!

وعند الانتقال للعنوان التالي من الكتاب (موقف الإسلام من العقل) يتحدث المؤلف عن عدم تبعية المسلم في تفكيره لغيره بحيث يلتزم دينه وشريعته فلا يقلد أحداً في ميدان الدين والشريعة من أصحاب الأديان والشرائع الأخرى ولا يتبع منهم أحداً وإنما يحافظ على ذاتيته واستقلاله، وما ذلك إلا لأن فكره من (عطاء الوحي الإلهي) أي من الكتاب والسنة. وأما القول بأن فكر المسلم مستمد من (صحة العقل الذي استنار بنور الله) على أساس أن (نعمة العقل السديد) هي أعظم نعم الله (بعد الإيمان والعافية)

فإن هذا بلا شك محصور في مجال الإيمان وليس الشرائع والأحكام لأن العقيدة تستند إلى العقل المستنير الذي يقود المفكر بالأشياء من حول صاحبه وما يتصل بها إلى الإيمان بأنها مخلوقة لخالق وأن خالقها واحد لا شريك له وإلا لتنازع الآلهة فيما بينهم على المخلوقات {وذهب كل إله بما خلق} وانتهى الوجود بالتمزق والضياح والاختفاء.

ويظهر أن المقصود هو الجانب الإيماني في هذا القول من ذكر ما يطالب به القرآن من النظر في ظواهر الكون، وعدم التقليد في ما يتوصل إليه العقل من توحيد الخالق بعد وجوده القطعي سواء للأباء في شركهم أو لغيرهم من أهل الكتاب والمشركون في كفرهم. كما يظهر ذلك من القول بأن الإسلام أطلق سلطان العقل من كل قيد من قيود الآباء والآخرين، وأن المعنى به هو المجال الإيماني ليس غير، وإلا فإن الدليل الذي استشهد به من قبل في حق نهي الرسول عليه وآله السلام لعمر بن الخطاب عن مدارسة ونسخ ما وقع في يده من التوراة خشية أن تختلط بالإسلام الذي وصفه عليه وآله السلام بأنه جاء بها شريعة ببضاعة نقية، أي لا تحريف ولا تبديل فيها، وأن موسى لو كان موجوداً لما وسعه إلا ترك شريعته واتباع شريعة الإسلام.. لأن العقل كما يعني هذا الدليل ليس مطلقاً من كل قيد أو سلطان وإنما هو مقيد بالإسلام.. فلا يأخذ إلا شريعة الإسلام لمعالجة مشاكل الحياة ولا يتبنى أي حكم أو فكر يخالف عقيدة الإسلام أو شريعته..

وتحت العنوان (الإسلام عدو التقليد) يخط المؤلف بين التقليد المنهي عنه، وهو في مجال الإيمان والعقيدة والتشريع أي مجال الدين بجميع ميادينه الشاملة لمشاكل الحياة، وبين التقليد غير المنهي عنه، وهو في مجال العلوم التجريبية والمخبرية، مع أنه لا يوضح ذلك وإنما يهاجم التقليد كتقليد. ولكن عندما يورد الأمثلة والأدلة فإن الواضح أن التقليد موضع الهجوم هو التقليد في الإيمان والعقيدة الذي كان المشركون يمارسونه عندما كانوا يرفضون الإيمان والتوحيد الذي كان يدعوهم إليه الإسلام ويصرون على الوثنية وشرك الصنمية الذي كانوا يقلدون فيه آباءهم.

وأما فكرة تحذير القرآن للناس من تقليد القادة والرؤساء الروحانيين، فهذه فكرة غريبة عن الإسلام لأنه لا يوجد فيه رؤساء روحانيون ورؤساء زمنيون، كما يقول الغرب اليوم وإنما الموجود فيه الرؤساء والقادة الإسلاميون، مما يشمل كل مجالات الحياة. وأما القول بتقسيم القادة بين روحانيين أي رجال دين، وزمنيين، أي رجال دولة، فهذا من عقيدة وفكر الغرب الديمقراطي الذي يفصل بين الدين والدولة ويرى حصر الدين في الكنائس ودور العبادة وما يتعلق بها بينما يرى شؤون الناس وعلاقاتهم فيما بين بعضهم البعض وفيما بينهم وبين الشعوب والأمم الأخرى هو من اختصاص الدولة.. وهذا مرفوض في الإسلام الذي يجمع بين الدين والدولة كما كان حال الرسول عليه وآله السلام وخلفائه الراشدين.

وتحت عنوان (تقليد القديم) يوضح المؤلف انه التقليد الوراثي، فيتبع المسلم دين والديه ويتبع النصراني دين والديه، ويتبع اليهودي دين والديه، وهكذا جميع

الأديان الأخرى، وكان الدين تركة يتناقلها الخلف عن السلف ودون أي إعمال عقل ولا تفكير.. ثم يأتي بنصوص من القرآن الكريم تؤكد هذا المعنى وتنتهي عن السير فيه، كما تؤكد النهي عن التقليد بالهوى لا بالحجة والدليل وذلك لجوعاً إلى تجنب المعاناة وبذل الجهد في البحث العلمي حتى يصل الباحث إلى رؤية أن الإسلام في عقيدته وتشريعه هو الحق من دون غيره من الأديان والمبادئ والتشريعات الأخرى طالما كانت عقيدته تقنع العقل وتوافق الفطرة وتملأ القلب طمأنينة مما لا يوجد إلا فيه ولا يوجد في غيره مطلقاً. وعند الحديث عن (التقليد الحديث) فإن المؤلف يهاجم الاكتفاء بالتقليد بالوراثة أو بالتبعية بحيث يحتج الواحد من الناس على رأيه أو موقفه بعبارة: هذا ما يقوله الناس أو فلان من الناس.. وكان الناس أو فلاناً هو القرآن والسنة!!

ثم يهاجم، وهو على حق كل الحق في هجومه، أولئك الذين يرفضون البحث عن الدليل من مصادره الموثوقة في الإسلام وثقافته، ويأخذون آراءهم من المستشرقين أو المستغربين أو عملاء المستعمرين، كما يستنكر على المقلدين احتجاجهم بما توارثوه منذ الطفولة عن آبائهم ولو كان باطلاً ظاهر البطلان...

وأخيراً يهاجم أعمال وبحوث زبانية الاستعمار القائمة على التحيز سلفاً ضد الإسلام والتي لا هم لها إلا الحط من الإسلام والافتراء عليه باللجوء إلى التأويلات الباطلة والأساطير الكاذبة...

وعند الموضوع (لماذا نرفض التقليد الأعمى؟) فإن الكاتب بالرغم من سيطرة كلمة المدنية بدلاً من الحضارة في كتابه إلا أنه أورد خمسة أسباب لرفض التقليد من قبل المسلم للحضارة الغربية وأية حضارة أخرى، وكلها تتركز حول ضرورة الحفاظ على هويتنا الإسلامية المتميزة، وعدم الشعور بالنقص أمام رقيهم المادي الأجوف لفقدانه الرقي الروحي كإسلام، وعدم الانسياق وراء مظاهر حضارتهم التي مهما تجاهل المسلم تأثيرها عليه فإنها تترك أثرها بالتدريج على نفسيته وتفكيره بمجرد تقليدها ومسايرتها...

وعند موضوع (حيلة المستعمر لنا في تقليده) ركز المؤلف على أنه لا بد من القوة المتمثلة بإنشاء المصانع التي تنتج جميع أنواع الأسلحة ومنها المدفع لكي نتخلص من المستعمر واحتلاله ونفوذه، وأنه يجب رفض تفكير عملائه الذين يزعمون بأن (الاحتلال الغربي نعمة لأنه يقودنا إلى التحضر)، وأن الوطنيين هم فقط الذين أدركوا هذه الحقيقة وأخذوا يعملون لبناء المصانع رغم أنف المستعمر الذي يحاول منعنا من ذلك.

وكانني بالكاتب وهو يتحدث أو يشير إلى الوطنيين، كما أسماهم، يتحدث عن الحركات الوطنية التي ظهرت في القرنين التاسع عشر والعشرين مما اتخذت أحياناً شيئاً من الفكر الإسلامي فكرياً لها لأن قاداتها لا يملكون غير ذلك وليس وضوحاً للطريق والهدف والغاية، ومنها ما اتخذ الفكر الغربي البعيد عن الإسلام حينما ارتبطت مع

الغرب والاستعمار له من الحركات الصليبية المستترة بالعمل للعرب والعروبة والقومية... وأما هذا الحل الذي طرحه المسلمون كما قال للخروج من (الحلقة المفرغة): بناء المصنع يطرد الاحتلال الأجنبي أم طرد الاحتلال الأجنبي يحقق بناء المصنع، فقد كان الحل الغريزي، بمعنى الذي لا يحتاج إلى تفكير، الذي جاء في التضامن والتآزر فيما بين المسلمين، والذي أسماه الاستعمار بالجامعة الإسلامية من أجل إثارة الصليبية في أوربة وأمريكا ضد المسلمين.. وهو بذلك يرفض هذه التسمية ويريد إبعاد أي تسمية لها صلة بالإسلام وذلك خوفاً من (إثارة الصليبية في أوربة وأمريكا)... ولكن السؤال بهذا الصدد الذي يرفض نفسه: ما الذي يقصده الكاتب بالتضامن والتآزر بين المسلمين كحل يطرد الاحتلال ويبني المصنع؟ لعله يجيب على هذا السؤال في مواضعه التالية.

وفي الموضوع التالي (دور الاستعمار) يتحدث الكاتب عن حرص المستعمر على هدم شخصيتنا الإسلامية وحضارتنا الإسلامية وجعلنا مقلدين له في شخصيته وحضارته ولكن دون أن يسمح لنا بأخذ علومه واختراعاته التي أظهرتها الثورة الصناعية حتى لا نلحق به ونتفوق عليه وحتى نبقى له اتباعاً متخلفين بحرماننا من (الدراسات العلمية التي تطور مظاهر الحياة)...

ولكن الكاتب ينسى أن الاحتلال العسكري قد رحل عن مستعمراته، وسلم الحكم لأهل البلاد ممن أتقنوا ثقافته تفكيراً وتطبيقاً، وأخذ يدعمهم سياسياً ومالياً وحتى عسكرياً وذلك حتى يبقى هو من خلالهم في بلادهم... فلماذا لا يبنون المصانع وهم من جلدتنا؟ إنهم عملاؤه الذين يطبقون ما يريد منهم في بلادنا، مما يرفض ليس تغيير الحكام ولكن تغيير العقلية التي يحكم بها الحكام.

وتحت عنوان (من خداع الاستعمار) حاول المؤلف بلغته البسيطة أن يوضح أن الاستعمار قد نجح في بقائه في مستعمراته من خلال من رباهم على ثقافته وحضارته، وسلمهم حكم البلاد قبل أن يرحل عنها، وهم من نجح الاستعمار من خلالهم على إنجاز الكثير من رغباته التي ما كان يستطيع تحقيقها بجيوشه المحتلة.

وأكد الكاتب أن أول الخدع التي نجح الاستعمار بها في مستعمراته السابقة هي إقناع سكان المستعمرات قبل أن يرحل عنهم أن التقدم مربوط بثقافته وحضارته إذا أرادوا أن يتقدموا.. ثم بين الكاتب بأن الثقافة هي مجموعة الأفكار التي تخص وجهة نظر كل أمة في الحياة، وهي غير التقدم العلمي والمادي والمدني في الحياة، فهذا مجاله المختبر والمعمل والمصنع بينما ذاك مجاله النظم التشريعية والدراسات الفكرية اللغوية والجغرافية والتاريخية والنفسية والاجتماعية والتربوية مما يتصل بوجهة النظر في الحياة...

لقد أصاب الكاتب كبد الحقيقة وهو يتحدث عن ذلك وإن كان الغموض في العرض قد يحرمه من البيان الواضح لما يقصده...

ومع موضوع (من الغزو الفكري) يؤكد المؤلف بوضوح مفهوم الغزو الفكري سواء كان في عهد الاحتلال الاستعماري أو بعد رحيله، وأنه بات يعتمد على مجموعة من المثقفين الذين تشبعوا بثقافة المستعمر وأفكاره، وأنه من خلالهم يحقق الغرب ما يريده في توجيه المسلمين لإرادته. ويبين كيف أن المستعمر قد استغل جهل المسلمين لثقافتهم ودينهم وأشاع بينهم أفكاره وأراءه وجعلهم يعملون لها وبها فردياً وجماعياً، ولاسيما عندما أقتنعهم بأن الحضارة والثقافة الإسلاميتين هما مجرد ماضٍ بال ويجب أن يختفي من حياة المجتمع ويحل محلها الحضارة والثقافة الغربية وإلا بقي المجتمع متخلفاً، وإن أولئك المقتنعين بثقافة الغرب قد انساقوا وراءه وأخذوا يدعون لآرائه ويطبّقونها في المجتمع ويبعدون الإسلام عنه بحجة أنه لا يواكب التطور والتقدم، وإن ذلك قد بات بارزاً على دعاة التحديث والتجديد الذين يجدون الأبواب مفتوحة أمامهم للعمل بالفكر الغربي بحجة العصرية والتقدمية بينما تقفل الأبواب أمام أصحاب الفكر الإسلامي بأمل أن ينسى المسلمون إسلامهم ويبقى مجرد طقوس في حياتهم في مجال العبادة فقط...

وصدق المؤلف كل الصدق عندما قال (فالمستهدف في النهاية هو الإسلام بوصفه يشكل العقبة الرئيسية أمام القوى الأجنبية التي تحاول السيطرة على المسلمين أو استنزاف خيراتهم).

وعند الحديث عن (أمثلة من الغزو الثقافي) يذكر المؤلف كيف أن وزير الثقافة الفرنسي منع استخدام المسميات والإعلانات التجارية القادمة من أمريكا لأنها غريبة على الثقافة الفرنسية، وأن الأولى بنا نحن المسلمون أن نمنع كل ذلك من الغرب. ثم يشير إلى حرص العدو الصهيوني اليهودي على التطبيع الثقافي عند أي صلح مع أي دولة عربية لأن ذلك يحقق له غسل أدمغتنا وتدمير هويتنا الإسلامية. ثم يقف المؤلف مع عروض الأزياء وحفلات الموسيقى الصاخبة التي تجتاح وسائل إعلامنا لتدمر ذوقنا الإسلامي في الملابس وتجعلنا نقبل على صخبهم وفنونهم حتى بات الضائعون والضايعات من أبناء وبنات المسلمين يتسابقون على أول الاكتتاب في معارض أزيائهم مع أن الجميع يردد أن تلك الأزياء تسلب المرأة إنسانيتها وتتاجر بجسدها وكأنها سلعة رخيصة وليست شرفاً ولا عرضاً يجب أن يصابن...

ولكن الكاتب يتجنب حتى الإشارة إلى مسؤولية نظم الحكم في بلادنا عن ذلك كله.

سر قوة المسلمين وهو الإسلام بعد أن فشلوا في تحطيمه بالقوة العسكرية في الحروب الصليبية وذلك من خلال إقناعهم بأن قوتهم في ماضيهم قبل الإسلام وليس في الإسلام نفسه، ثم ينبه إلى الدعوات العصبية والقومية التي أثارها الغرب في العالم الإسلامي ونجح بواسطتها بتمزيقه إلى كيانات قومية فوطنية هزيلة، ثم يشير إلى ما تركز عليه الدراسات الغربية لبلادنا وثقافتنا للتسرب إليها وتشويهها من الداخل

وتمزيقها إلى نطف لا تقوى على الحركة المتكاملة ونجاحه في ذلك عندما تولى أثناء احتلاله لبلادنا فرض ثقافته علينا محل ثقافتنا، وعندما ألحنا بالتمسك بقشور نهضته العمرانية من الأخذ بالأشكال الظاهرية دون أن يمكننا من تملك ناصية العلوم والصناعات التي أنتجت ذلك كله.

وينتهي الكاتب إلى ترديد مقولة غريبة ثقافتنا، وأخذ ما يناسب للعصر الحاضر وطرح مالا يصلح، ولا ندري ما هذا الذي يناسب والذي لا يناسب مادام الأصل أن معالجة المشكلات تحتاج للالتزام بالقرآن والسنة كمصدرين وحيدتين للتشريع، ومادام مما بين أيدينا من الثروة الفقهية الهائلة سجد الحلول لكثير من مشاكلنا إن لم يكن لجمعها ونحتفظ بالباقي منها لدينا فكرياً وثقافة لبيان كيف كان يحصل الإبداع في التفكير في حل مشاكل الحياة لدى امتنا في ماضيها، فلا مجال لطرح شيء منه، اللهم إلا إذا كانت تلك الفرق والنحل والملل التي ظهرت في خضم الصراع الفكري بين الفكر الإسلامي والأفكار المهاجمة له طيلة العهود الإسلامية، والتي كانت سبباً لتمزيق الأمة إلى فرق متخاصمة سهلت على أعدائها التسرب داخل البلاد وثقافتها، إذا كانت تلك الفرق هي الواجب طرحها بعيداً من حيث أفكارها وثقافتها التي يكثر فيها الغريب عن الإسلام، الأمر الذي يفرض طرحها بعيداً بالفعل، والعودة بالتالي إلى صفاء الثقافة الإسلامية بمنابعها النقية الأصيلة.

ومع موضوع (تأكيد الذات) يضيف المؤلف عدة جوانب للذات من (الاعتماد عليها كطريق للتقدم) ويضرب مثلاً باليابان فيرى فيهم عبرة للمسلمين في هذا المجال، كما يضرب مثلاً بالشعوب الأوروبية وكيف حافظت على ذاتيتها، ويعرج على تركية وكيف أضاعها مصطفى كمال بالتخلي عن ذاتيتها والسير في التقليد للغرب الذي يجب التصدي له لما يتركه من آثار مدمرة على أمتنا.

فبعد أن يؤكد الكاتب على أن المعركة بيننا وبين الغرب الآن هي معركة حضارية فكرية يلفت النظر إلى أن الطريق الذي نجح به أسلافنا في هذه المعركة عندما هاجمتهم تيارات فكرية عديدة فتغلبوا عليها بوسائلها نفسها، تلك الطريق يجب أن تسلكها أمتنا اليوم ضد الغزو الثقافي القادم من بلادهم بوسائل الاتصال الهائلة، وأنا يجب أن نحذر من النفوس القابلة للاستعمار لأنها مازالت تحمل عقدة الخوافة الغربي وترى فيه المثال للتقدم وتحط من قيمة حضارتنا وثقافتنا.

وعند حديثه عن (الاعتماد على الذات كطريق للتقدم)، يؤكد بأن التصنيع هو القضية الأولى في التقدم، وأنه يحتاج إلى المال الكثير الذي لا نملكه، والذي يفرض علينا الصبر والتقشف حتى نوفره، وأن لا ننظر للغرب وأمواله بل أن نرضع أطفالنا كراهية الغرب...

ولكن المؤلف يقع للأسف في تجاهل أن التصنيع لا يأتي إلا من سياسة صناعية تضعها وتتابعها وتضحى من أجلها دولة ونظام مؤمن بها... فأين هو؟!

وعندما يقول (العبرة للمسلمين بتقدم اليابان) يقف مع محتويات رسالة وردت من صحيفة جورنال دو جنيف في ٢٠/١٠/١٩٣١ أرسلها مراسل أوربي لصحيفته عن اليابان، وذكر فيها بأن اليابان بعد أن كانت مغلقة على نفسها فتحت حدودها للاتصال بالعالم الخارجي لتأخذ منه كل ما يفيد شعبها وبلادها، وسدت أبوابها أمام كل فرجة وتغريب أي حافظت على تقاليدها الأسرية والدينية أشد المحافظة، وأنها بهذا استطاعت أن تقفز من دولة إقطاعية متخلفة إلى دولة عصرية تفوق الدول الأوربية، المهم أن نعرف ما نأخذ من الغرب وما نترك وليس مجرد الإعجاب بالغرب هو الذي يجعلك تعمى عن التمييز بين النافع والمضر فتضيع وتضيع بلدك وأمتك.

ويذكر بعدها (سبب تقدم اليابان في مؤلف لامازليير) والذي كفرنسي لا يتهم بالتعصب لليابان وهو يصف طريقة نهضتها عندما يذكر بأنها أخذت عن أوربة وأمريكا كل ما رأته صالحاً لشعبها في عملية تجديد وبناء سريعة وفانقة، فاستطاعت أن تفوز حتى في الميدان العسكري عندما انتصرت في الحرب الصينية اليابانية على الصين، مما يثبت كيف استطاعت بالفعل أن تميز في كل ما أخذته وتأخذ عن الغرب بين ما يتناسب مع مصالحها وتقاليدها.. فأكدت بذلك ذاتيتها وفي نفس الوقت تقدمها على الآخرين.

ثم يتحدث عن (كيف حافظت الشعوب الأوربية على ذاتيتها؟) مستعرضاً بشكل سريع كل تلك الشعوب الأوربية التي تأبى إلا أن تحافظ على جنسها وأصلها وترفض الذوبان بعضها في بعض وأن قبلت في كثير منها، وهاهي تقبل كلها تقريباً العمل في إطار الاتحاد الأوربي، لتشكل كياناً سياسياً واحداً قوياً...

وفي هذا الصدد يذكر المؤلف على عجل مثل هذه الكيانات السياسية التي ضمت عدة أجناس أو شعوب ولكنه لم يحاول أن يعطي هذا الموضوع حقه وأهميته في إذابة الكيانات الصغيرة التي لا تقوى على العيش وحماية نفسها في خضم هذا الزحف العالمي للقوي على الضعيف تحت اسم العولمة. كما نسي الكاتب أن الإسلام قد أذاب كل تلك الأجناس في كيان واحد عندما صهرها في بوتقة الثقافة الإسلامية الواحدة، وأن ذلك من السهل تحقيقه في العصر الحاضر عصر المعلومات وانتقال المعلومات بأسرع من الخيال... والمهم وجود الدولة الصادقة في تطبيق الشريعة الإسلامية وحملها للثقافة الإسلامية كدعوة إنسانية مخلصه لإنقاذ شعوب الأرض مما هي فيه من شقاء المادية والأديان المنحرفة والنظم المستغلة للإنسان.

ويأتي إلى ضرب مثال فيقول (تركيا مثال على التقليد الأعمى) إذ كيف فرض مصطفى كمال عليها العثمانية الغربية وقلد أوربة في كل شيء ولكن أوربة كما قال إسماعيل مظهر قبل أكثر من تسعين سنة لم تقبلهم لأن دين الشعب هو الإسلام، (والملاحظ أنها اليوم تتظاهر بقبولهم للدخول في الاتحاد الأوربي وذلك بعد أن اطمانت لحكومتهم بأنها تحارب الإسلام في كل شيء أشد مما يحاربونه هم).. وينتهي الكاتب

مع هذا المثال من تركية بالقول بأن رفض أيديولوجية الغرب هي أول الطريق لإتقان تكنولوجيايته بحجة أن ذلك يضعك على نفس المصاف معه، ويجعلك بنفخة قوية في جماهيرك تستثير عزتها وكرامتها فتنجز ما تريده من ثورة صناعية تفوق غيرك. فالمهم أن تحرر نفسك من قيود الغرب وتتمسك بعقيدتك ودينك وقيمك وسلوكك...

وينهي الكاتب الحديث عن تركية بما قاله الآخرون عنها: فكاتبة تركية قالت: كنا أول دولة في الشرق فأصبحنا آخر دولة في الغرب. وقال المستشار الألماني بصراحة بأن تركيا تنتمي إلى حضارة غير حضارتنا. وقال توينبي في محاضراته المشهورة (الإسلام والغرب): إننا ظللنا نخرج المسلم التركي حتى يتخلى عن إسلامه ويقلدنا، فلما فعل ذلك احتقرناه لأنه لم يعد عنده شيء يعطيه.

ويعود الكاتب إلى (المحافظة على الذات عندهم) فيكرر الحديث عن حملة وزير الثقافة الفرنسية السابق ضد الغزو الثقافي الأمريكي بمناسبة أسبوع الفيلم الأمريكي في باريس، ويطالب بإيقاع عقوبات مالية قاسية على كل من ينشر إعلاناً أو يجري معاملة بغير اللغة الفرنسية.. وأن مثل هذا التصرف نحن الأمة الإسلامية الأولى في التعامل به ومحاربة الغزو الثقافي الغربي بكل قوة...

ثم يأتي إلى (التصدي للتقليد) ممثلاً بالذات أو الشخصية المستقلة الصلبة التي مهما تفتحت على الآخرين فإنها تحافظ على نوعيتها الثقافية الحضارية.

وعند ذكر (من آثار التقليد) يورد نتيجة ما يعانيه المسلمون من شك في ذاتهم وثقافتهم ودينهم، وأنه لا بد من العودة إلى الإسلام لا بالانتقاء والتشهي وإنما بالإيمان والشمول، بإعمال العقل ورفض التقليد، وبالاعتزاز بالماضي والإكبار له لا شتمه، فنأخذ من علوم المختبرات لدى الآخرين ونرفض التشريعات والثقافات، ونحرص على ما ينفع الحياة الدنيا ولا ننسى الأخرى.

والكاتب محق في ذلك... فهل من متدبر ومعتبر!؟

ويستنطق المؤلف عشرة من العلماء والمفكرين عن التقليد وآثاره:

١- محمد إقبال ذلك الشاعر والمثقف الهندي المسلم الذي نهل من علوم الغرب دون أن يسمح لها أن تؤثر عليه قيد أنملة، إنه يدعو المسلمين وبالذات الشباب منهم للحفاظ على شخصيتهم الإسلامية نقية من تأثيرات الغرب، إنه يصرخ بالمسلمين أن اقبلوا إليّ فإن مفتاح حل المشكلات الذي استعمله المسلمون الأوائل بيدي، إنه الإسلام وثقافته وتشريعاته، فاقبلوا عليّ بصدق وحرص وإخلاص لتجدوا حلول جميع مشكلاتكم ومشكلات البشرية طراً، إنه يدعو المسلمين ليحافظوا على هويتهم وذاتيتهم ليعلوا على أنفسهم وعلى غيرهم...

٢- محمد أسد الذي تسمى بهذا الاسم بعد أن اسلم وكان قبلها ليوبولد فايس، هذا العالم يحذر من هذا التقارب النكد بين المسلمين والغرب على حساب ثقافتهم

وإسلامهم، إنه يحذرهم من السقوط في وثنية التقدم المزعوم فيصبحون في ذيل الأحداث يحتقرهم عدوهم قبل صديقهم، إنه يدعوهم للاستفادة من علوم الغرب التجريبية والصناعية لأنها لا تعرف شرقاً ولا غرباً، لا تعرف عقيدة ولا ديناً، فلا علاقة لها إلا بالمخبر والمعمل فهي ملك مشترك بين الشعوب، إنه يدعوهم للمحافظة على شخصيتهم ودينهم.

٣- محمد عبده المعروف من طلائع المفكرين الإسلاميين في العصر الحديث، إنه يشير إلى تحطيم الإسلام للتقليد في مجال العقيدة والإيمان، ودعوته التي ملأت صفحات الكتاب المنزل باستخدام العقل في ذلك، والنعي على المشركين في اتباع آباتهم وأجدادهم في إيمانهم، إنه الذي أطلق سلطان العقل بفهمه لنداء الكتاب للعقل للتدبير والتفكير إنه الذي رأى نهضة الغرب في الاعتماد على الحقائق العقلية وعلى ما أخذوه من الآداب والمعارف الإسلامية.

٤- محمد سعيد رمضان البوطي الأستاذ الدكتور يتحدث في كتابه فقه السيرة النبوية عن التقليد بأنه أمر منبوذ في الإسلام من عدة جوانب: أحدها لأن العقيدة لا تقوم فيه إلا على العقل السليم وليس على التقليد السقيم، والثاني لأن التقاليد تعني العادات التي شاعت بين الناس بفعل التعايش والاحتكاك، وهي لا تحتاج لأكثر من النقل من إنسان لآخر أو جماعة لآخرى ودون تدبير ولا تفكير، بينما الإسلام في عقيدته وأحكامه يرفض أن يكون تقاليد وإنما أوامر ونواه منزلة لا تبقى أو تزول من بين الناس تبعاً لأهوائهم أو رغباتهم كالتقاليد، ولذلك فإن تعبير (التقاليد الإسلامية) مرفوض ويبقى الإسلام أحكاماً وعقائد يعتنقها الناس بالعقل ويتدبرونها فهماً وتطبيقاً بالعقل.

٥- مالك بن نبي يتحدث عن التقليد في كتابه (تأملات في الحياة) وكيف يخرج المسلمون من هذا المأزق الذي أوقعوا فيه أنفسهم، ذلك أن المسلمين قد أفاقوا على خطر استعمار يخيم على بلادهم فاندفعوا للتخلص منه فظنوا بأن تقليده في تفكيره وثقافته هي السبيل للخلاص المقصود فكانوا (كما يقولون ممن يهرب من الدلف إلى تحت المزارب) أو كالمستجير من الرمضاء بالنار. فالاندفاع للحياة الكريمة دون روية وتفكير جديين بأسباب المأزق الذي هم فيه مع احتلال الاستعمار، ولعوامل التخلص من هذا المأزق، قاد هذا الاندفاع للسقوط في هوة التقليد السحيقة، وهيئات أن تخرج منها الأمة الإسلامية وفيها المستغربون ينعقون في كل واد بل على رأس كل شجرة. وحتى يتحقق الخلاص الحق لا بد من العودة إلى ما بأيدينا من قوة، فنشد عليها ونطلق عقالها ونطلق خلفها... إنه قوة الإيمان بالإسلام المنقذ الوحيد.

٦- مصطفى صادق الرافعي يتحدث في كتابه (من وحي القلم) عن التقليد فيدعو المسلمين أن يقتبسوا بالتحقيق عن الغرب لا أن يقلدوا، فيقبلوا ما يتفق مع شريعتهم ويرفضوا ما يخالفها، وأما إنتاج الفكر الإنساني للعلوم التجريبية فهو ليس ملكاً لأمة دون

أخرى ولذلك يمكن أخذه سواء بالتقليد أو بالتعليم. وأما العادات الاجتماعية فالشرق شرق والغرب غرب فلا يجوز فيها التقليد ولا الأخذ بأي حال لأننا بقدر ما نتبعهم في ذلك بقدر ما نمكنهم منا للسيطرة علينا...

٧- الشيخ محمد مصطفى المراغي يرى أن القرآن قد جعل العقل حكماً في كل شيء في الدين وفي الإيمان نفسه، ويرى مع محمد عبده بأن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكفار وأن المرء لا يكون مؤمناً إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به. ويرى مع المتكلمين أن أول واجب على المكلف هو معرفة الله بل هو الشك ثم البرهان كطريق للمعرفة ويرى مع الغزالي أن الإيمان لا بد فيه من تجنب التقليد والاعتماد على البرهان والدليل.

٨- المؤرخ أرنولد توينبي يهاجم الشعوب التي تحررت من الاستعمار لأنها تقلد الغرب في كل شيء مع أن الواجب عليها ألا تأخذ إلا النافع لها لأن الغرب عنده النافع كما عنده الضار. ثم يستغرب كيف تفعل ذلك تلك الدول المستقلة مع أن الاستعمار لا يجرؤ على تطبيق كل شيء عليهم بينما هم كأهل بلاد يفعلون ذلك وبحماسة. ويؤكد أنه من سوء الحظ أن تفعل الشعوب ذلك لأن المستوى المادي للمعيشة يجب أن يكون وسيلة لرفع المستوى الروحي ولأن رأس المال الإنساني هو الهدف من المادي.

٩- ابن خلدون يرى في مقدمته بأن المسلمين في الأندلس الذين دأبوا على تقليد الفرنجة في ملابسهم وأخلاقهم وعواندهم ولغتهم هم لا محالة صانرون إلى أن يكونوا تحت إمرتهم، ويعلل ذلك بقوله (لأن الأمة إذا تركت أخلاقها وعواندها اندمجت في الأمة التي تقلدها) وبالفعل فإن هذا قد حصل وتحققت نبوءته واستولى ملوك الأسبان على الأندلس وطردهم من ديارهم.

ولاشك أن الأمر ليس مجرد تقليد في الأخلاق والعادات وإنما سقوط فكري جعل من الأمة الأخرى محل تقدير يفضل على الآخرين فكانت هذه النتيجة السلوكية في الأخلاق والعادات.

١٠- غوستاف لوبون، المفكر الفرنسي المشهور والذي كثيراً ما يستشهد به كمؤيد للإسلام والمسلمين وما هو في الحقيقة إلا مستغفل للمسلمين وهو يدس السم في الدسم، فها هو يقول هنا بأن سبب انحطاط الشرق هو تركه روح الدين وتشبثه بالعقائد الباطلة، فأى روح للدين يقصدها؟ إنه دس للتفكير الغربي الفرنسي في الفكر الإسلامي الذي لا يعرف مثل هذا القول، ويعرف الدين بنصوصه في القرآن والسنة، وتركها هو الذي أدى للانحطاط وليس ترك روحها! ويقول أيضاً بأن الدين قوة لا يستهان بها.. فما هذا الوصف؟ ثم يقول ناصحاً للمسلمين مما يتجلى فيه الخبث والمكيدة: ومن الواجب عليكم أن تأخذوا من دينكم ما يوافق روح العصر.. أي تتركوا ما لا يوافق العصر وروحه، وما هذا الذي يوافق والذي لا يوافق روح العصر!!

صور من التقليد

إنها صور لا تحتاج إلى التعقيب لأنها ناطقة صريحة بذاتها...

فيبدأ بالتقليد في الجانب الاقتصادي، فيذكر كيف تستقدم بلد إسلامي كبير مثل إندونيسية الدكتور شيخت على أساس شهرته في ميدان الاقتصاد ليضع لها خطة للتطوير الاقتصادي فيضعها بناء على خبرته في بلده ألمانية أو ما يماثلها من البلدان الأوربية، فيحاولون تطبيقها فتكون النتيجة الفشل المحتوم ناهيك عن خسارة الزمن من حياة الأمة الذي لا يقدر بثمن.

ثم إن النظم الاقتصادية الأخرى من رأسمالية إلى ماركسية لا تقيم وزناً إلا للجانب المادي وأما الجانب الروحي والخلقي فلا قيمة ولا اعتبار لهما فكيف تنجح في بلد إسلامي يراعي أهله هذه الأمور في حياتهم اليومية!؟

أما هذه البلدان الإسلامية التي لا تملك لضعفها بعد أن تمزق العالم الإسلامي بمكيدة الاستعمار إلى هذه الكيانات الهزيلة فإنها لا تستطيع أن تقلد الغرب في خطط التطور الاقتصادي لا من حيث قدراتها المالية ولا ارتباطاتها الفكرية بالإسلام.. فالاقتصادي الغربي مهما كان عبقرياً لا يمكنه وضع مشروعات لتطوير اقتصادنا لأنه يفكر من منطلقات غربية ولأنه لا يراعي الإمكانيات الاقتصادية للبلد ناهيك عن سوء النية إذ لا يهمه إلا الكسب المالي بالخداع من أنه كفيل بنجاح ما يخطئه وهو يعلم فشله ولو بعد حين...

وهنا يأتي المؤلف لذكر أربعة أسباب لرفض تقليد المسلمين لمذهب الغرب الاقتصادي:

١. الشك بالاستعمار وبكل ما يأتي من رجاله وأنه لن يأتي منه إلا المعارض لمصلحة البلاد الإسلامية.
٢. التناقض بين مذهبهم الاقتصادي وبين المنهج الاقتصادي في الإسلام ومع العقيدة الإسلامية التي تفرض سلوكاً وخلقاً تختلف عما لديهم.
٣. أخلاقية الإسلام في الاقتصاد تناقض أخلاقية الاقتصاد الغربي.
٤. تاريخ الغرب ونظرتهم لبلادنا وحرصه على بقائها متخلفة.

وبالمقابل يعطي الكاتب ما أسماه (نظرات في الاقتصاد الإسلامي) التي تؤكد صلاحيته الفائقة لحياة بلادنا وأمتنا بما يمتاز به من بعد عن الربا والاستغلال كما يفعل النظام الرأسمالي وبعده عن الحجر على الجهد الإنساني وحرمانه من تمتعه بثمرة جهوده كما يفعل النظام الاشتراكي الماركسي، فهو يقوم على الدافع الروحي للحرص على خير الفرد والمجتمع المسلمين، كما يضع من القيود على المعاملات ما يحقق ذلك إذ يمنع الاحتكار والاستغلال والكنز ويمنع تصرف السفیه والمجنون ويحث على

الصدقة ويفرض الزكاة ويقرر نظم التعاملات في البيع والإجارة والمساقاة والشركات وغيرها من التبادلات الاقتصادية الجماعية والفردية كما يكفل المنافسة الشريفة لتحقيق الاقتصاد المتقيد بالشروط الشرعية مما يضمن صلاحيته لكل زمان ومكان حتى قال العالم الفرنسي الشهير جاك أوستروي في كتابه (الإسلام أمام التطور الاقتصادي) بأن الإسلام يتمتع بإمكانيات هائلة إذا وجد له الطريق الصحيح أمامه بحيث يستطيع حل الصعوبات الاقتصادية بمفرده وأنه أقدر في ذلك من غيره من مذاهب الاقتصاد الروسية والغربية.. وحتى مدح رئيس الوفد السوفييتي الاقتصادي ما رآه من قدرة الإسلام الاقتصادية على حل جميع المشاكل في هذا المجال وتساءل عن سبب عدم تحقيق تقدم ونهضة اقتصادية والإسلام يملك هذا النظام الاقتصادي مما جعل الدكتور عبد الحميد الغزالي أستاذ الاقتصاد المصري يسكت عن الجواب أمام الوفد الزائر في أغسطس عام ١٩٩٠م.

ثم يعطي المؤلف صورة أخرى من تقليد الغرب في المجال الأدبي فيذكر كيف سارع الأدباء العرب إلى تقليد المدارس الأدبية من وجودية أو رمزية أو رومانسية أو واقعية بمجرد ظهورها مع أن بقاءها بشكل مزدهر كان يمر في فترات قد تنتهي إلى جمودها وزوالها، وبالرغم من ذلك فإن الأدباء العرب يواصلون تقليدها وكأن شيئاً لم يحصل في مسار تطورها أو حتى جمودها.

ثم ينبه المؤلف إلى تميز التصور الإسلامي للفن عن الغربي بشمولية نظرتة واتساعها ودقتها في نظرتها للحياة المتسقة مع ناموس الكون في جماله وتوازنه ودقة صنعه وإبراز ذلك في خلق الله تعالى له بشكل ينسجم مع فطرة الإنسان في كيانه الفكري والروحي والجسدي الذي يتلاءم مع قيم الحق والخير والجمال فيبرز الجمال بجانب الفضيلة والقبح بجانب الرذيلة.. بينما تضيق آفاق الفنون الغربية بمدارسها المختلفة وفلسفاتها المتنوعة حتى نجدها لا تتجاوز الفردية والخصوصية.

ويشير إلى الفرق الكبير بين تصور الإسلام للفن بشموليته وإنسانيته وبين نظرة الهندوكية والبوذية مثلاً وهي تنادي بالرهانية والمثالية التي ترددت لدى أفلاطون وهيجل، أو نظرة الداروينية التي تؤمن بمادية الإنسان وحيوانيته، أو الماركسية المادية التي حصرت كل شيء في الجانب الاقتصادي، أو الرومانسية التي سيطرت على النزعة الفردية وعشق الطبيعة بعيداً عن إيجابية الإنسان المسلم في تفاعله مع مجتمعه وتصديه لإصلاح عيوبه وتقويم اعوجاجه، أو الواقعية التي هاجمت كل فنون الخيال وأصرت على الواقع كما هو لا كما يجب أن يكون فجعلت الإنسان سجين الواقع بكل موروثاته وأوضاعه مهما كانت فاسدة، وشتان بينها وبين واقعية الإسلام التي تداركت سلبيات الإنسان ودفعت به للسيطرة على الكون مهما ضعف أو عجز... فكان كل فن ينضبط بهذا التصور الإسلامي جاداً ومستحقاً للاحترام والتقدير والقبول بينما كان الفن الغربي من الابتذال والهبوط بحيث يفسد الأذواق ويشوه المفاهيم ويهدم القيم.

وينتقل المؤلف لإعطاء صورة أخرى من صور تقليد الغرب: إنها في الجانب الثقافي والفكري فيذكر بأن الثقافة هي تراث الحضارة، وهي غير صحيح أنها بلا وطن كما يقول المؤلف، لأنها من خصوصيات كل عقيدة ودين فهي مثل الحضارة خاصة ولا يجوز التقليد فيها وإنما يجوز الاطلاع عليها لإغناء الفكر الثقافي الحضاري الإسلامي، فالقرآن كما يتحدث عن المسلمين وصفاتهم وأحوالهم وعاقبتهم يوم القيامة وكيف تكون يتحدث بصورة واضحة عن الكافرين والمنافقين بجميع أحوالهم ومآلهم.. والثقافة الإسلامية فكر يحرك صاحبه للمزيد من العطاء المتجدد الروحي الغيري، وشتان بينها وبين الثقافات الغربية والماركسية... والمستشرقون بكيدهم لم يعرفوا إلا كيف يحاولون التهجم عليها فلم يجدوا بداً من التشويه المتعمد للغة العربية بإشاعة تعقيد قواعدها وحروفها، وتشويه التاريخ الإسلامي وجغرافية بلاد المسلمين من القول بفقرها وندرة مواردها وهم كمستعمرين يتعمدون إخفاء كنوزها، وتشويه منهاج الدين في التعليم بتقدمه مبتوراً وضعيفاً.. بينما كانوا يبرزون جاذبية ثقافتهم وحضارتهم لنرى فيهم المثل الأعلى ونشتم أنفسنا.. فماذا كانت نتيجة ذلك التوجيه الثقافي المشوه المتعمد؟ لقد خرجوا أجيالاً تقلدهم فعلاً مما يجب الحذر من استمرار ذلك وعودة أبناء هذه الأمة الإسلامية إلى منابع ثقافتها الصافية بعيداً عن عبثهم وتشويههم.. ويكفيهم العلم بحقائق هذا التشويه الذي جعلهم يخدعون بالغرب وثقافته وحضارته لينخلعوا من هذا اللباس المسموم الذي ألبس لهم.. وهناك العديد من المراجع النزيهة الحقة يجدون فيها ما يزيل عنهم كل أسباب هذا التقليد للفكر والثقافة الغربيين فليرجعوا إليها وسيجدوا الحق ناصعاً أمام أعينهم.

صحيح أن المستشرقين كان لهم الدور الأساسي في تشويه ثقافتنا عندما وجدت أكثرية طلائع مفكرينا لشيء غير ما يعرضونه عليهم من لغتنا وشعرنا وفقهنا وتاريخنا، فأخذوه كعلم صادق مع أنه كان محشواً بالسموم فتلوثت أفكارهم بكل ما يتصل بالإسلام وتراثه وتاريخه عندما افتتنوا بكل ما هو غربي وتشككوا بكل ما هو إسلامي وعربي... كل هذا صحيح ولكن النفوذ الاستعماري من خلال تطبيقه لقوانينه والترويج لأفكاره وثقافته في مناهج التعليم حتى قال جون وستر الإنجليزي بعد أن أسلم بأن الغرب المسيحي قد تأمر منذ الحروب الصليبية على السكوت عن محاسن الإسلام وتعتمد تشويه أفكاره في جميع أحاديثه، وكرر ذلك السير عبد الله هاملتون الإنجليزي بعد أن أسلم عندما قال (لا يوجد دين أسوء فهمه وكثر الهجوم عليه من الجهلة والمتعصبين مثلما أسوء فهم الإسلام وهوجم)، وما أكثر مثل هذه الأقوال والاعترافات من مفكرين ومسؤولين كانت من بينهم وزيرة الثقافة اليونانية التي هاجمت الغزو الثقافي الأمريكي لليونان، ودعت إلى مقاومته بحزم لكي تحافظ أمتها على تراثها وتاريخها وتمنع ذوبانها في متاهات التقليد الأعمى... ألسنا نحن المسلمين أصحاب الثقافة المتميزة أولى بذلك؟!

وينعطف المؤلف إلى الاستشهاد بمفكرين غربيين يدعوننا إلى الأصالة فيذكر الدكتور لويلاي الذي يرى بصراحة أن للمسلمين في ثقافتهم ما يعلمون أوربة لا ما

يتعلمون منها. ثم يذكر الدكتور غريسيب مدير جامعة برلين ورئيس كلية الطب عندما دعا الطلاب المسلمين في حفل أقامه بمناسبة ذكرى المولد النبوي لكيلا ينسوا تاريخهم ويعملوا لإعادة مجدهم طالما القرآن بينهم وتعاليمه لديهم وفيه علم وثقافة ونور ومعرفة...

ثم يذكر مجموعة من المقلدين كيف رجعوا إلى أصالتهم بعد أن اتصلوا بها وعرفوها، ومنهم الأستاذ إسماعيل مظهر الذي انتقل من الداروينية عام ١٩٦٠ إلى الإسلام الحق كما ظهر في كتابه (الإسلام أبداً)، ومنهم الدكتور مصطفى محمود الذي انتقل من الماركسية الإلحادية في كتابه (الله والإنسان) إلى الإيمان والإسلام في كتب عديدة، ومنهم الدكتور زكي نجيب محمود الذي انتقل من الفكر الأوربي إلى الفكر الإسلامي... ومازال الفكر الإسلامي يكسب كل يوم من أنصار التغريب الحلفاء من مدارسه المادية أو العلمانية.

وقبل أن ينتقل الكاتب إلى صورة أخرى من صور التقليد يقف مع ما يقولونه عن التقليد بين التقدمية والرجعية كما يصفونهما، فيقول إذا كان كل ماض رجعياً مهما كان فاضلاً، وكل حاضر تقدمية مهما كان سيئاً، فإن العمل بالقيم النبيلة القديمة رجعية وبالقيم الخسيسة الحديثة تقدمية، وأن التزام الدين لأنه قديم رجعية والتزام الإلحاد لأنه حديث تقدمية، والحرص على العقل لأنه قديم رجعية وتركه لتبصير مجانين تقدمية!! فما التقدمية غير تقليد الغربيين أو الاشتراكيين الشرقيين بحيث إذا كشفوا العورة كان سترها رجعية، وإذا جاهرُوا بالزنى كان تقدمية، وإذا.. وإذا.. مما في ثقافتهم كان تقدمية ومما في ثقافتنا كان رجعية!! فيا حسرتاه على هذه التقدمية وعلى أبنائنا المخدوعين بها!!

وبعدها يأتي المؤلف إلى الصورة الأخرى من صور التقليد، إنها الدمغة الإفرنجية أو الماركة الأجنبية.. فإذا قلت أمام أحد من هؤلاء الناس الذين يسمون بالمجددين وهم في الحقيقة مستغربين أو مضبوعين بالثقافة الغربية كلمة بالأجنبي استقبلوها وصفاً مرضياً لما تعرضه عليهم وإذا سبقت ذلك الوصف الإفرنجي بالكلمة العربية قلبوا شفاهم وأشاحوا بوجوههم.. إنه الإعجاب والإكبار لكل شيء إفرنجي.. ولو نقلت إليهم قاعدة شرعية عن مشاهير فقهاءنا يابونها، ولو قلت لهم أن الفقيه الإفرنجي فلان يقول بها قبلوها.. كأن الخير هو ما يقول به الإفرنج والشر ما يرفضه الإفرنج.. يا لضعف النفوس وهزالها!! ما هذه الألسن التي تلتوى ذات اليمين وذات الشمال لتأتي بكلمة فرنسية أو إنجليزية تطعماً للكلام أثناء الحديث ليظهر الواحد منهم بالمتعلم أو المثقف!! هل لغتنا العربية عيبة أم أسنتهم وعقولهم هي العيبة!! لنا أن ندرس لغاتهم وآدابهم لنتعرف عليهم ولنتقي شرهم وليس لنا أن نتنكر للغتنا وآدابنا فهي جانب من مظهر شخصيتنا.

وانظر إلى صورة تقليد تشبه النساء بالرجال حتى كدنا لا نعرف الرجل من المرأة والرسول عليه وآله السلام يُروى أنه لعن الرجل يلبس لباس المرأة والمرأة

تلبس لباس الرجل. كما رُوي أنه عليه وآله السلام لعن المسترجلة من النساء، ولعن المتشبهات من النساء بالرجال والمتشبهين من الرجال بالنساء، وأنه كان يقول: (ليس منا من تشبه بالرجال من النساء) ويقول عن المترجلات (أخرجوهن من بيوتكم) ونفى إلى البقيع رجلاً تشبه بالنساء بوضع رجله في الحناء، وفعل مثل ذلك أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. وقال عليه وآله السلام لأسامة وقد أهدى إليه قبضية فأعطاهها أسامة لامرأته: (مالك لا تلبس القبطية؟ فقال: يا رسول الله كسوتها امرأتي. فقال عليه وآله السلام (مرها أن تجعل تحتها غلالة فإني أخاف أن تصف حجم عظامها) مما يوجب على المرأة أن تلبس ثوباً يستر بدنهما ولا يصفه، وأين ذلك من الثياب الإفرنجية الضيقة التي تصف أعضاء الجسم؟! وقال صلى الله عليه وآله وسلم لأم سلمة رضي الله عنها وهي تختمر: (لية لا ليتين) فأمرها بلوي الخمار لية واحدة بدلاً من ليتين حتى لا يصبح شبيهاً بعمامة الرجل.

فتشبه الرجل بالمرأة خسة تأباها الرجولة، وتشبه المرأة بالرجل جنوح لا تقبله الأنوثة...

وتقليد آخر للغرب في شرب المسكرات: فقد كان المسلمون يعدون تناول الخمر جريمة فلا يفعل ذلك أحد إلا سراً، وإذا علموا به احتقروه لأنه حط من تمسكه بدينه... ومع احتكاك المسلمين بالغرب تبدلت نظرة الناس إلى الأشياء فصاروا يستهينون بفعل الشر وهم يأتون منكر شرب الخمر علناً في المناسبات وفي البيوت دون رادع من خلق أو دين... لقد جاء هذا المنكر إلى بلادنا مع الجنود المحتلين الأجانب أولاً ثم تسلل إلى أبنائنا في غفلة من المسلمين بالرغم مما يعرفون لها من مضر على العقل والمال والخلق... فهل من رادع يردعهم غير نظام الإسلام يأخذ على أيديهم؟!

وتقليد آخر للغرب في الاحتفال برأس السنة الميلادية: فبعض المسلمين يشاركونهم في ذلك حتى لو أدى ذلك لتحمل تكاليف باهظة أسرته وأطفاله أولى بها، فإن هذا الاحتفال طقس ديني من طقوسهم والله تعالى يقول محرمًا ذلك ﴿لكل أمة جعلنا منسكاً﴾ فما هذه الزينات والزخارف الأخرى التي تستمر حتى الفجر تصاحب بالرقص والغناء الفاجرين وتناول المسكرات! إنه تقليد الغرب الضال عن هدى الله تعالى...

فإذا كان للمسلمين أن يحتفلوا فهو برأس السنة الهجرية، فيتذكرون بالحدث العظيم الذي حصل ويسترجعون ليعيشوه... إنه هجرة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم من مكة إلى المدينة لينقل الدعوة الإسلامية من مرحلة الدعوة والفكر إلى مرحلة الدولة والجهاد.

إن اللهو والمجون لن تأتي بعزة ولا كرامة ولكن طاعة الله ورسوله يأتيان بهما، فهلا تذكر المسلمون نداء الله تعالى لهم {يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم على أعقابكم خاسرين. وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله، ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم}.

ويعود ويقف المؤلف ملياً مع تقليد الغرب في الأزياء فيقول: نظرة واحدة للمجلات النسائية نجدها مجلات أزياء للملابس والحقائب والأحذية، فالمرأة عندها جارية من جوارى ألف ليلة وليلة: ماذا تلبس للبحر؟ ماذا تلبس للصباح؟ ماذا تلبس للمساء؟ وبأي تسريحة شعر للظهر؟ ماذا تلبس للرياضة وأي عقد وقرط وأحمر شفاه ينسجم لهذا الفستان؟ بل أي حذاء وحقيبة يد؟ إنه جنون ما يسمونه الأناقة، فماذا بعد هذا؟! إنه تبديد الوقت وهدر المال وقتل النفس!! فهل هذا ما كانت وما يجب أن تشغل به المرأة المسلمة الحرة الكريمة؟! متى كان الجمال بكل هذه المظاهر الكاذبة؟! إنها لن تطمس وتزور الحقيقة البشعة وراءها...

ما الجمال إلا جمال الخلق الكريم، والنفس العزيزة، والذهن المتوقد، والقلب الدافئ، والعين الحية والحركة الخاشعة... إنه جمال البساطة الحقة والفترة الربانية النظيفة والكلمة اللطيفة والمعاملة البرينة... إنه البعد عن التأنق الكاذب والاصطناع الخادع... إنه جمال الروح والخلق... إنه جمال العلم والمعرفة... إنه ليس مظاهر التبرج وحركات التنجج... ليس الملابس القصيرة والثياب الضيقة... إنه جمال العقل والفكر لا مظهر السرف والتأنق... إنه جمال العزة والأنفة لا تكسر الذلة والبريكة...؟

أما أن لكن يا بنات المسلمين أن تعين ذلك وتعرفن أن اللحم المعروض مهما كان شهياً فهو رخيص؟! وأن تقليد الغرب في ذلك مهما كان ممتعاً فهو مبتذل؟!

لنتظر الواحدة منكم كيف تضيع وقتها في الركض وراء توفير المال لشراء أدوات هذه (الشيكاكة) ثم في استخدامها! وكيف تسمح لنفسها أن تسلم شعرها ووجهها لرجل يتولى إعدادها وتزيينها للحفلة أو للسهرة؟! هل هانت على نفسها فلم تخجل من استمتاع الرجال الأجانب جهاراً نهاراً بالكثير من جسدها؟! وكمن من الوقت تستنزف في العناية بالأظافر والكفين والقدمين؟ كم من الوقت يلزمها لتمرارين الرياضة اللازمة لتتحيف الخصر ومنع تجعدات الوجه؟ بل كم من الوقت تحتاج لتمرارين الاسترخاء وحمامات البخار؟!

إن ذلك كله لا يستهلك فقط وقتها بل نفسها وشعورها وعقلها لتتحول بعد ذلك إلى دمية أنيقة لا روح فيها!! كان يمكنها أن تصرف جزءاً من هذا الوقت بجانب شيخ مريض أو زوج مرهق أو طفل صغير أو كتاب مفيد...

إن الوقت ليس ثروة ثمينة للفرد فقط بل لأمته، فلنتقن الله يا نساء المسلمين في ذلك كله! وأعلمن أن العبودية أنواع منها هذه الأناقة التي تسلبك كل مقومات حريتك وإرادتك إلا حرية الركض وراءها وإرادة الركوع أمامها! فإنك مسلوبة الإرادة أمام ما تصممه دور الأزياء ومصانع الأحذية ومعامل الحقائب وقصات الحلاقين!

هل علمت أن وراء الكثير الكثير من ذلك أعداؤك بل ألد أعدائك اليهود الذين قرروا منذ زمن بعيد في تلمودهم بأن إفساد النساء هو سبيل إفساد الأمم والمجتمعات؟! يكفي أن أذكرك بأنهم يستخدمون كل الدراسات النفسية لا أقول النسائية فقط وسنوياً

ليفرضوا عليك الاختيار، إذا جاز القول بأن لك اختياراً، مما صمموه لك... فأبي عبودية في هذا العصر الذي يسمونه عصر النور والحرية أكثر من هذا؟!!

وهل فكرت في الملايين من القطع النقدية التي تنفقها نساء المسلمين في كل عام في شراء الثياب والأحذية والمساحيق؟! إنها تفوق المليار مما يكفي إيقاع الهزيمة في العدو الصهيوني، تكفي لبناء عدد من المصانع ليكون سلاحنا من أيدينا ولا يتحكم به شرق ولا غرب...

وهل فكرت كيف تعبت معامل النسيج في الغرب بالعقول وهي تنتج الأنواع والنقشات الجديدة كما تعبت دور الأزياء وهي تنتقل من طويل إلى قصير إلى طويل، ومن ضيق إلى واسع إلى ضيق... مع كل عام لتلقي بعيداً تلك الأقمشة القديمة، والله القديمة لأنها (موديل) السنة الماضية! لتحل محلها الجديدة، هل تعرفن مهمة هذه المجلات اليهودية للأزياء، مثل مجلة (بردة) وسواها، وهذه العروض للأزياء التلفزيونية التي تستولي على العقول؟! وهذه الفتيات الجميلات اللاتي يتحركن كالدمى لعرض الأزياء لهذا البيت أو ذاك من بيوتاتها؟! إنهن والله لمثل تلك الجوارى وهن يعرضن الأزياء بل الأجساد على العيون كما كانت جوارى سوق النخاسين المعروفة في العهود الماضية؟

ها هي وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة وقد أصبحت كفيلة بغزو البيوت المسلمة إلى عقرها، فلن يسلم منها إلا من عصمه الله تعالى بقوة إيمانه وسلامة عقله وصلابة تفكيره وحسن تصرفه!!

ما الذي يريدونه من المرأة المسلمة غير التردد على (الكوافير) والتغنج بين يدي أصحاب معارض الأزياء، والتكسر للإغراء في الأسواق؟

إن المرأة المسلمة إذا انهارت بالكلية بعد هذا الانهيار الجزئي أمام هذا الغزو الصهيوني والصليبي الفاضح فإنها تصبح أخطر معول هدم لبيتها وأمتها ومجتمعها واذكروا قوله تعالى {إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون}.

فهلأ سمعت أيتها المرأة المسلمة هذه الصرخة المدوية واستجبت لها فساعدت على إنقاذ أمتك مما يراد لها من الدمار بفعل المضللين المخدوعين من أبنائها في الداخل وأعدائها في الخارج!!؟

ويكفي بأن أذكرك ببعض المواقف الشديدة الدلالة في مضمار الملابس وارتدائها:

فقد منع الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه غير المسلمين من أهل الذمة من لبس نفس الزي الذي كان يلبسه المسلمون الذين كانوا هم الجند والجيش وذلك من أجل الضرورات الحربية والأمنية.

وقد غير مصطفى كمال، هادم الخلافة، الزي الإسلامي في تركية ليتجه إلى العلمانية والقومية الطورانية فينتهي المسلمون من مظهرهم كمرحلة كان يرجو أن يتبعها مرحلة الانخلاع من جوهرهم ولكن هيهات!!

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: (صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا).

وصدق رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام: فهاهم الجلادون في الأقبية والدهاليز يضربون الناس، وهاهن النساء الكاسيات العاريات... يملأن الشوارع والأزقة!! ولا رقيب ولا حسيب، ولا من يأخذ على أيديهن ولا من يمنعهن!! فأين أنت يا خليفة رسول الله القائل: إن الله ليزع بالسلطان ما لايزع بالقرآن!!؟

وقد نصحت المذيعة الأمريكية المشهورة والكاتبة المعروفة هيلين الآباء المسلمين عندما زارت مصر عام ١٩٧٧ لعدة أسابيع رأت خلالها حتى مراكز الأحداث والأطفال في دراسة لمشاكل الشباب والمرأة في المجتمع، ثم زارت الكويت لنفس الغرض، فنصحت والله أعلم بصدق نصيحتها الآباء والأبناء بالتقيد في التقاليد! في حدود المعقول! وقالت: عندكم تقاليد موروثة تقيد المرأة وتحترم الأبوين وتمنع الإباحية الغربية... هكذا إسلامنا مجرد (تقاليد موروثة)... وقالت بأن القيود على المرأة دون العشرين صالحة ونافعة (لهذا انصح بأن تتمسكوا بتقاليدكم وأخلاقكم، امنعوا الاختلاط قبل سن العشرين فقد عانينا منه في أمريكا الكثير...) وأشارت إلى ما لديهم من إباحية وخلاعة نتيجة الاختلاط والحرية قبل سن العشرين، وما أنتجته من عصابات المخدرات والرقيق والمسكرات باسم المدنية والحرية وأن ذلك لم يجلب سوى المزيد من الشقاء والاضطراب في المجتمع الغربي.

فهلأ سمعت بناتنا وفتياتنا هذه النصيحة ممن لا يؤمن بإسلامهن ولكنه يؤمن بفساد ما هم عليه في الغرب، وكسون أجسامهن من العري، وابتعدن عن أماكن اللهو والفساد والاختلاط، لأن في ذلك سعادة الدارين؟

وينتقل المؤلف إلى صورة أخرى من صور تقليد الغرب، إنها كذبة أول نيسان:

فقد عرف في فرنسة بأنها حين أبدلت تقويمها في منتصف القرن السادس عشر، فجعلت السنة تبدأ بأول يناير بدلاً من أول إبريل، فأصبح أول إبريل موسم التمازح بتبادل الهدايا الكاذبة بدلاً مما كان عليه من الهدايا الحقيقية، فقد صار بذلك أول إبريل/نيسان موسماً للكذب واعتاد الناس ذلك من حينه.. فهل يا مسلمون، يا دعاة التفرنج من المسلمين المخدوعين تركتم مثل هذا الكذب في نيسان أو في غيره؟! إن إنسان الغرب، يا مسلمون، يحاول ملء فراغه بهذه الدعايات المحرمة غير آبه إلا بالبحث عما يسليه عن مرارة الحياة عنده ولو على حساب سعادة الآخرين

وطمأنينتهم... فكيف يقلدهم المسلمون في ذلك وهو محرم عليهم؟! أم أنها تقدمية تقليد الغرب التي بدونها يصبح المسلم رجعياً؟! فإلى متى يستمر المسلم في تجاهل نفسه والتكرار لدينه والتقليد للأجنبي المخالف لعقيدته؟! ومتى يعود ويحافظ على شخصيته المتميزة الفريدة الفاضلة؟!

ألم تسمعوا وتطيعوا قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (ويل بالذي يحدث بالحديث ليضحك منه القوم فيكذب، ويل له ويل له) وقوله (أنا زعيم بيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً)، وهل هذا الكذب بالكثير من نتاجه السيئة يحقق حديث الرسول عليه وآله السلام: (نرى المؤمنين في توأدهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد...)

وينهي المؤلف كتابه بالحديث عن تكوين الشخصية القوية غير المقلدة كهدف من أهداف التربية الإسلامية، ثم بالإشارة إلى أنماط من التقليد الطيب المفيد سواء للآباء أو الأئمة العلماء دون أن ينسى أول وأهم تقليد ألا وهو الاقتداء بالرسول عليه وآله الصلاة والسلام، ودون أن يهمل من باب المقارنة لأن الشيء يعرف بضده تقليد الحق والباطل... فيقول:

فالقرآن الكريم عندما ينبه المسلمين ويذكرهم {وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون} (١٥٣- الأنعام) فإنه يأمرهم بوحدة الطريق إلى الله تعالى في هذه الحياة الدنيا من خلال التزام أمره ونهيه، مما يجعل شخصية الواحد منهم لا تتوزع في اتجاهات مختلفة بل تتوحد بقوة في اتجاه واحد مما يقيهم ويحميهم من التشتت في الفرد وفي المجتمع.. ومما يمنعهم من تقليد غيرهم في كل ما يخالف إسلامهم {واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوه}، ومما يحرم عليهم الاعتصام والتمسك بغير كتاب الله وسنة رسوله، ومما يفرض عليهم أن لا يتفرقوا بالاختلاف على هذين الكتاب والسنة... فأيمانهم بالله الواحد، وقبلتهم واحدة، وطريقتهم في هذه الحياة الدنيا إلى تلك الأخرى واحدة، وهكذا فشخصية الواحد منهم كشخصيتهم جميعاً واحدة... وما أقوى هذا الإنسان المسلم وما أسعده بذلك!!

وفي تقليد الأبناء للآباء نجد أمامنا قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (كل مولود يولد على الفطرة، وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) إنه التقليد في إبعاد الفطرة السليمة التي تستشعر الضعف والحاجة لخالق مدبر عن سلامتها إلى شرك اليهودية أو النصرانية أو المجوسية تبعاً لمعتقد الآباء ودينهم... فاليهودية التي تقول العزيز ابن الله تقع في الشرك، والنصرانية التي تقول المسيح ابن الله تقع في الشرك، والمجوسية التي تقول بباله للخير وإله للشر تقع في الشرك... والإسلام الذي يعلن وحدانية الله يرفض الشرك ويدعو لمراعاة الفطرة التي فطر الله الناس عليها بعيداً عن تلويثها بالشرك... فيقف الأب المسلم، وتقف الأم المسلمة لتصلي فيقلدها الأبناء في

الصلاة، كما يقلدونها في الصيام. حتى في الحج وغيرها... إنه التقليد الطيب الخير المطلوب (مروا أولادكم للصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع)، {وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها}.

وأما التقليد الخبيث الشرير فانظر إليه مع الأبناء وهم يكفرون تبعاً لوالديهم، ويشربون الخمر تبعاً لوالديهم، ويرتكبون الكثير من الفواحش والمنكرات تبعاً لوالديهم... وأما تقليد الممثلين والممثلات والمغنين والمغنيات فهو الضياع المتعمد المرسوم الذي يراد بالشباب ليبتعدوا عن تقليد أبطال تاريخهم الإسلامي في الإيمان والجهاد والاستشهاد، فينشأون ولاهم لهم إلا متع الجنس والمال ومباهج الحياة وملذاتها... وأين ذلك مما يريد لهم له ربهم ودينهم؟! فالله تعالى يدعوهم لتقليد رسوله المصطفى الأمين {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً} (٢١ الأحزاب) والإمام علي رضي الله عنه يذكرهم: إذا لم تكن حليماً فتحلم، فإنه قل أن تشبه أحد بقوم إلا أوشك أن يكون مثلهم... إنه التقليد الإيجابي الكريم الذي يستدعي من كل مسلم أن يتذكر أن الطبع قد يغلب التطبع مما يجزم أن طبيعة الإنسان وميوله وغرائزه قد تتغلب على تطبعه وسلوكه وأخلاقه إذا كانت هذه الأخلاق هشة وتلك الغريزة قوية وذلك تبعاً لقوة وضعف تمسكه بأحكام دينه.

فاحرصوا أيها الآباء على التأسي برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في كل أوامر الدين ونواهيه، وعلى تربية أولادكم على ذلك لينشأوا وقد أصلب عودهم على هذا فلا يؤثر فيهم وعليهم تيار تقليد غير المسلمين فيما يخالف إسلامهم بل يتولوا هم بفكرهم النير وسلوكهم القويم الأخذ بيد الناس إلى الصراط المستقيم.

صحيح انه لا بد من حملة فكرية ضد التقليد من حيث الأصل، وبيان إيجابياته وسلبياته حيث يلزم بالأمثلة التاريخية والحية من المسلمين وغيرهم، وأن تتولى وسائل الإعلام المختلفة ذلك باستمرار، ولكن أتى يكون ذلك إذا لم يكن سياسة مرسومة تمنع السلبيات وتأخذ بيد الإيجابيات؟!

وذكروا أيها الشباب المسلم أن الإيمان لا يحرسه إلا العلم اليقين، وأن مجرد تقليد الآباء فيه لا يغني شيئاً أمام الشكوك والظنون التي تثيرها كتب ووسائل نشر الكفر المختلفة، فبدون حجة ساطعة وبرهان أكيد لا يحمي الإيمان من كل ذلك، فإذا تعرض لهزة من هذه الهزات فما أصعب تخليصه منها، والشباب المؤمن هو الذي يحرص على التزود بالفكر الإسلامي الواضح المنير، والأب المؤمن هو الذي يحرص على تزويد أولاده بذلك... وأما أن يترك الشاب نفسه أو يتركه والده نهياً لوسائل الكفر والعهر والفجور وبالذات من وسائل الإعلام التي لم تعد ترحم بيتاً من البيوت فإنها المهلكة التي دونها كل مهلكة...

واعلموا أن إسلامكم قد رتب القيم لكم لتضعوها نصب أعينكم في جميع أعمالكم فوضع القيمة الروحية بالإيمان بالله ورسوله والطاعة في كل ما أمر وبلغ

رسوله عليه وآله السلام هي القمة في القيم، ثم تأتي بعدها القيمة الخلقية بالتزام كل خلق سليم أمر به رب العالمين ورسوله الكريم، ثم تتلوها القيمة الإنسانية بالحرص على كل عمل يتصل بالإنسان في طلب منفعة أو درء مضرة، ثم أخيراً تأتي القيمة المادية بالمعاملات المالية والتجارية... وأن من الواجب التذكر بعدم فصل هذه القيم عن بعضها البعض، فلا تحقيق للقيمة الخلقية لذاتها بل لأمر الله ورسوله بها، فخلفها ومعها تسير القيمة الروحية، ولا تحقيق كذلك للقيمة الإنسانية أو المادية دون ربطها بطاعة الله ورسوله: فتتخذ غريق ابتغاء مرضاة الله لا طمعاً في مكافأة مالية، وتوفي الكيل والميزان طلباً لرضى الله لا سعياً وراء رضى الناس. وهكذا لا يغيب عن بالك وتفكيرك ذكر الله تعالى فتكون ممن {وذكر الله كثيراً} ولن تكون ممن سيطرت عليهم لا شهواتهم الرخيصة ولا رغباتهم الثمينة في عالم الجشع المادي ولكن ممن طوعوا كل متع الحياة ولذاتها لطاعة الله فتكون في أعلى العليين.

وأما تقليد المذاهب الفقهية وأئمة العلوم الشرعية فهذا مما لا خلاف عليه حيث يعذر المسلم ولا سيما في بداية حياته لقلته اطلاعه على العلوم الشرعية ومصادر الفكر الإسلامي، ولكنه لا يعذر متى استطاع إلى ذلك سبيلاً حتى يكون إيمانه عن بينة ودليل وبرهان كما أسلفنا وحتى تكون ثقته بالإسلام عن معرفة وبيان، الأمر الذي يحقق له الاطمئنان في نفسه والقدرة على دعوة وإعانة غيره.. ولكن أن تؤدي تلك الاختلافات في الاجتهادات الفقهية إلى مشاحنات وعداوات بين المسلمين أنفسهم، مع أن من قلدوهم من الفقهاء والأئمة كانوا يقولون: إن الاختلاف في الرأي لا يجوز أن يفسد للود بين الناس قضية، فإن جهل المقلدين والمتبعين الذي يسبب ذلك يجب التخلص منه ومن آثاره تلك حتى يبقى الونام بين المسلمين، ولا يتمكن أي عدو أن يتسرب بينهم، كيف لا والمولى سبحانه يحذرهم وينذرهم من عاقبة ذلك {ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم} {واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا}.. إنها مسئولية الأمراء والعلماء، فهل يهبون للوفاء بها!؟

وأما مسئولية الفرد المسلم فعليه بتجاوز تقليد والديه بسرعة بالاطلاع على أدلة ما قلد فيه ليصبح متبعاً، ثم على أدلة المذاهب الأخرى والترجيح بينها ولو في المسألة الواحدة ليسير في طريق الاجتهاد بعد أن يحيط بعلمه اللازمة. وأما إذا بقي على التقليد فهو ملزم بما قلد دون أن يعيب على غيره فيما قلد وخالفه لأن أئمة المذاهب كلهم من كتاب الله ورسوله يأخذون، فلا حرج في تقليد أي منهم وإن كان هناك من يشترط عدم التنقل بين الأحكام في التقليد بالهوى والاشتفاء وليس بالحجة والدليل، وهذا ما يفرض معرفة الدليل قبل الانتقال وخاصة أن الأئمة يدعون المسلمين للتعلم لمعرفة الأدلة وإلا اعتبر المقلد دون دليل جاهلاً وغير عالم لأنه قلد في الحكم دون العلم بدليله، وهذا ما قاله ابن عمر رضي الله عنهما بأن المقلد ليس معدوداً من أهل العلم، وأن العلم معرفة الحق بدليله.

وينهي المؤلف كتابه بعد كل هذا الحديث عن التقليد بإشارة مختصرة (حول صحة صلاة الجمعة وعددها) فيذكر حديث الرسول عليه وآله السلام (الجمعة حق واجب على كل مسلم في جماعة) وحديثه عليه وآله السلام في تحديد الجماعة (الاثنان فما فوقهما جماعة) فيأخذ بالرأي المرجح بأن صلاة الجمعة تصح في اثنين وأكثر، وتحقق للمسلم إذا لحق ركعة واحدة منها وأكملها بالركعة الثانية طالما كانت ركعتين فقط لا غير...

ثم يتبع تلك الإشارة بالخاتمة التي لخص فيها كتابه إذ نعى على التقليد والمقلدين للغرب في باطلهم وليس في علومهم وصناعاتهم، وشدد على أن الإيمان لا تقليد فيه بل البيان والدليل، وختم بالحث لكل مسلم ليقدر نفسه ورسالته ويدرك مكانة دينه وأنه وحده المنقذ للبشرية واستشهد بكلمة لمحمد إقبال نضعها هنا في النهاية كما وضعها هو (إن المسلم خلق لا ليقلد البشرية الضالة إنما ليوجهها نحو الخير، وأن موقعه موقع التوجيه والإمامة والإرشاد)...

وبذلك انتهت دراسة كتاب تقليد الغرب

والحمد لله رب العالمين.

القسم الخامس

سطة أمريكا على العالم

في

١. الطريق إلى جهنم
٢. وصدام الحضارات
٣. والإختيار

تقديم

إن مخططي السياسة الباغية في الأرض يستعدون ويدعون أقوامهم ليستعدوا للصدام مع الحضارات الأخرى، مؤكدين أن من الوهم التعايش فيما بينهم وبين المسلمين ناهيك عن الحضارات الأخرى!

وإن دعوة أحد قادة التخطيط الاستراتيجي لديهم بأن يختار طواغيتهم في طريقة ابتلاع العالم بين القيادة الواعية والسيطرة الغاشمة! وإن هذه الطريق التي يصرون على السير فيها بمحض إرادتهم واختيارهم إلى جهنم لهي الطريق التي يدعوكم إليها شيطانهم الأكبر أمريكا..
فأين أنت يا شعوب الأرض!؟

بل أين أنتم يا مسلمون، يا أصحاب الرسالة الحقة، الرسالة التي برهنت على مدى التاريخ أنها وحدها الحق!؟ هل اخترتم الطريق إلى جهنم بدلا من تلك إلى الجنة أم هانت عليكم أنفسكم فلم تعودوا يعينكم مصيرها!؟

المؤلف

١ - دراسة كتاب الطريق إلى جهنم

لمؤلفه الدكتور مصطفى محمود

تقديم

«كتاب اليوم» يصدر عن دار أخبار اليوم المصرية في مطلع كل شهر ميلادي، وهذا الكتاب (الطريق إلى جهنم) للدكتور مصطفى محمود قد صدر في تشرين أول / أكتوبر من عام ١٩٩٤م.

لقد لفت نظري عنوان الكتاب فظننت أنني أمام جحيم دانتي ولكنني ما أن تصفحته أولاً حتى لمست فيه شيئاً آخر تماماً.. إنه لا يتحدث عن جهنم أو الجحيم إلا من باب نفثة صدر محموم بعد أن لمس صاحبه بعينه الناقدة البصيرة كل هذا الكيد والتآمر على الإسلام والمسلمين في كل مواقف دول الغرب والشرق وعلى رأسها هذا الخنجر المسموم المدعو بإسرائيل.

لقد وضع المؤلف كتابه بخمسة عشر عنواناً رئيسياً، وفي عناوين فرعية كثيرة يكاد لا يخلو منها موضوع من الخمسة عشر.. وكم جاء المؤلف موفقاً وهو يجد الشواهد بين يديه حية ملموسة على ذلك التآمر وهو يسخر من نظرية الرافضين، النظرية التي ترفض القول بالتآمر علينا نحن أمة العرب، كما يحلو للقوميين أن يسموها أو أمة العرب والإسلام، كما يحاول أن يسميها المجاملون لهم من الإسلاميين، أو الأمة الإسلامية، كما هو الحق والواقع لهذه الأمة التي بدأت بالشعب العربي الذي حمل الإسلام رسالة للشعوب الأخرى لتنتهي إلى الشعوب الأخرى التي اعتنقت الإسلام، ديناً، وعاشت عليه حكماً وشرعية، مشكلة بذلك هذه الأمة الإسلامية المكونة من عدة شعوب ليست كلها عربية الأصل وإنما العرب شعب واحد منها ليس غير. هذه النظرية التي ترفض القول بأن ما نحن عليه من التأخر والتمزق هما نتيجة صنع أيدي أبناء هذه الأمة بدءاً من الحكام وانتهاء بالمحكومين الذين ارتضوا ويرتضون بهم، وبأن القول بالتآمر ما هو إلا «شماعة» نعلق عليها مشاكلنا كلها من باب التبرير السهل لكل شيء وليس أكثر..

فقد رفض الكاتب الدكتور مصطفى محمود هذه النظرية الرافضة وأصر في كتابه من أول موضوع تعرض له حتى آخر موضوع على النظرية المعاكسة لها ألا وهي نظرية التآمر..

إنني أجدّه موفقاً تماماً في تبنيه لهذه النظرية القائلة بأن كل أعداء الإسلام منذ ظهوره في الأرض وحتى يومنا هذا بل وحتى يوم القيامة يتآمرون عليه وسيبقون كذلك على أمل أن يتمكنوا من القضاء عليه كياناً وحكماً، كما كان في الماضي منذ

الدولة الإسلامية، دولة الخلافة في عهد النبي عليه وآله الصلاة والسلام وخلفائه الراشدين، والتي استمرت رغم ما تعرضت له من مطبات الصعود والهبوط عبر تاريخها الذي استمر أربعة عشر قرناً.. ثم على أمل القضاء عليه ديناً وشرعية كما هو الحال عليه منذ أن نجحوا في هدم خلافته على يد مصطفى كامل عام ١٩٢٤م، ثم على أمل القضاء عليه عقيدة وإيماناً، كما يحاولون سواء تحت عباءة التبشير أو الغزو الثقافي أو العسكري أو الاقتصادي، كما تحاول أمريكا ورببيتها إسرائيل أن يفعلاه..

إن الكاتب يرفض تلك النظرية التي كاد يكون دعائها، بالرغم من صدق نوايا بعضهم، منسجمين مع مخطط التآمر الرهيب ضد الإسلام والمسلمين، إن لم نقل أكثر من ذلك.. طالما كانت محاولاتهم تحرص على إسكات الأرقام المختصة في البحث عن أساس هذا الترددي في واقع الأمة الإسلامية ومنع العاملين لإنقاذها بكل الوسائل القمعية التي وضعت بين أيديهم..

ولنتابع الشواهد الملموسة المحسوسة التي استند إليها المؤلف في كتابه في هذه (الوقفات)، لنقول بملء الفم لأولئك الرافضين لنظرية التآمر بأنكم على خطأ:

ها نحن نجد مع العنوان الأول (سلام أم التهام؟) المؤلف يورد تصريحاً لوزير الدفاع الأمريكي وليم بيرى في ١٣ / ٨ / ٩٤ بأن أمريكا لن تستخدم القوة العسكرية إلا في ثلاث حالات: أولاً تعرض أمن إسرائيل للخطر، وثانياً ضمان تدفق البترول من الشرق الأوسط، وثالثاً ضمان أمن كوريا الجنوبية..

فلماذا تعطي أمريكا أمن (إسرائيل) الأولوية القصوى؟ ولماذا تضع قواتها في خدمة ذلك؟ إنها تعلم وتعمل دائماً لجعل الميزان العسكري في هذه المنطقة مختلاً لصالح (إسرائيل)... بل ترخص لها لتكون ترسانتها النووية والكيميائية والبيولوجية متخمة بذلك وتحرمه على غيرها.. بل ها هي تعلن الحرب المدمرة على العراق لتزيل كل أثر لهذه الأسلحة فيه ولتمنع إيجادها..

وها هي تغري كلاً من العراق وإيران بمواصلة الحرب فيما بينهما حتى ينتهيا إلى الدمار، وتغري العراق بضم الكويت فيقدم لها الخليج بأرضه وسكانه ونقطه هدية على طبق من فضة..

وها هي تضغط على الدول العربية لقبول مشروع السلام مع (إسرائيل) وتلوح لها بالجزرة والعصا، بالترغيب والتهديد، إن لم تقبل بذلك فتبدأ مصر بذلك وتنتهي سيناء لتكون مجردة من السلاح، بل مركزاً للمخابرات الأمريكية، ثم يجد الفلسطينيون، بل قيادة منظمة ياسر عرفات وزلمه الذين فرضوا عليهم، في اتفاق أوصلو بداية السلام الموهوم الذي رأوا فيه الراحة بعد التعب، والتجمع بعد التشرذم، أو هكذا ظنوا كما أوحى إليهم أمريكا وزبانيته في المنطقة.. ثم تجد الأردن، المحمية الإسرائيلية، السلام في اتفاقية وادي عربة.. وما زالت سورية ولبنان تصارعان معاً وكل بطريقته للوصول إلى السلام المنشود مع هذا الخنجر المسموم!!

ومع هذا الضغط الأمريكي لتسويق مشروع السلام الإسرائيلي في المنطقة يلاحق صندوق النقد الدولي، بل الصندوق الأمريكي، المنطقة بالوعد والوعد، بالوعد بالقروض لتنتقد دول المنطقة اقتصادها من الأزمات المفتعلة التي كانت الأعباء أميركية السبب الأول لها، وبالوعد بمنع الصندوق من إعطائهم هذه القروض وتوقفها هي عن المنح لهم بملايين الدولارات سواء بالعطاء أو بإسقاط شيء من القروض والديون التي في ذمتهم لها.. وينتهي الكاتب هذا الموضوع الأول بعبارة: ويا ويل العرب المساكين من عدالتك.. يا أميركة!!

وها هو الكاتب تحت العنوان الثاني (الخطوة الأولى) يجد في اقتتال المسلمين في أفغانستان، وفي ما يجري في السودان من صراع وقتال، وفي ما جلبته الثورة الإيرانية من سلطة فردية مطلقة لإيران، ولم يذكر الجزائر لأن مأساتها قد جاءت بعد صدور كتابه، كما لم يذكر ما يجري في مصر نفسها لتأخر اشتداد ذلك عن موعد صدوره... إنه يجد في ذلك كله أمثلة محسوسة على هذا «الذعر المفتعل من خطر اسمه الإسلام..» فيسمع الناس ويرون كيف يصنع أولئك الأذكياء بمكر ودهاء الأخبار، ويسخرون لها وسائل إعلامهم المسيطرة على طول المعمورة وعرضها، فتترسخ في العقل والوجدان الغربي ضرورة القضاء على الظاهرة الإسلامية في مهدها كسياسة أمنية وقائية قبل أن يصل هذا (الطاعون القاتل) إلى بلادهم!!

وهنا يقع الكاتب في غلطة شنيعة وهو يفصل بين الإسلام كدين وبين الحكم الإسلامي كشكل سياسي، ويرى أن ذلك ليس ضرورياً من باب أن الإسلام يقوم في الأرض بدون حكومة إسلامية..

إنه يقع في خطأ مزدوج بهذه المقولة التي أراد بها كما يوضح في مقالته وجود المسلمين كأفراد بالملايين في كل مكان، فينسى أن العداء المنصب على الإسلام ليس في وجود الملايين المسحوقين من المسلمين ولكن في وجود حكم ودولة للإسلام نفسه ولو في بقعة صغيرة من بقاع الأرض، كما وجدت بصدق في المدينة المنورة، ثم تتسع لتشمل الشرق والغرب تحت رايتها.. هذا الذي يخشى منه الغرب بكفره واستعمار القديم/الجديد..

وأما الخطأ الآخر في هذه المقولة فهو القول بالفصل بين الدين والحكم، وهو مستحيل أن يقول به عالم بل مطلع بصدق على مسيرة الإسلام من مكة إلى المدينة.. من دعوة إلى دولة.. وعلى مكانة تلك الدولة طيلة القرون الأربعة عشر التالية..

وانظر أيها المؤلف إلى تشجيع الغرب للإسلام الفردي البعيد عن فكرة دولة الخلافة والمركز على فكرة الروح والعبادة، فكرة التصوف والروحانية، فكرة تفرغ الإسلام من شريعته والاكتماء بجانب العبادة منه، فكرة أن الدين لله والوطن للجميع، فلكل دينه في صلته بالله مهما اختلفت الأديان، وأما الوطن فلا علاقة له بهذه الأديان بل كلها يجب أن تعيش عليه في لقاء واحد: فالإسلام الناسخ لليهودية والنصرانية مثلها على أرض الواقع!

وأما أن تصرخ أيها المؤلف في (الحكومات الإسلامية) الموجودة على الأرض الآن لتثبت وجودها في نصرة إخوانهم من أهل البوسنة الذين يذبحهم صباح مساء أهل الصرب، ويتعاون معهم جميع الدول الغربية والشرقية.. فإن هذا الصراخ في غير محله ما دام لا يوجد حكومة واحدة إسلامية، أي تحكم بالإسلام وتتقيد في علاقاتها مع الخارج بشريعة الإسلام..

والقول بأن (الكلام في الحكومة الإسلامية) وارد في المقام الثاني بحجة إن (المسلم نفسه) هو المقام الأول، هذا القول خطأ من وجهين أيضاً:

الأول: المخالفة لما فعله الرسول عليه وآله الصلاة والسلام الذي بويع البيعة الكبرى في العقبة لإقامة الدولة، وهذا ما فعله بمجرد أن وضع قدمه الشريفة في يثرب.

والثاني: لأنه لا يجوز أن يفصل في إعداد المسلم كفرد عن كونه عضواً في المجتمع الإسلامي المقبل، وذلك ليقف بقوة وتضحية كما وقف المهاجرون والأنصار مع الرسول عليه وآله السلام أولاً ومع خلفائه أبي بكر وعمر وعثمان في سنوات حكمه الثمانية الأولى تانياً..

وكم هو رائع قول المؤلف (لأن الله يعلم أن الدولة الإسلامية لن تقوم إلا بقيام المسلم أولاً، وأن سياسة الأنفس هي الطريق الوحيد إلى سياسة المجتمعات) لو كان يقصد (بقيام المسلم أولاً) إعداده فكرياً ليكون عضواً في المجتمع الإسلامي، مجتمع الدولة الإسلامية القادمة، بشكل فاعل ومؤثر، وأما أن يعد بهذا الشكل الفردي ليكون ولو ما يشبه الملاك في روحانيته مع الفصل التام بينه وبين مجتمعه والعمل لتغييره واستبداله بالمجتمع الإسلامي الكامل.. فإن هذا لن يقيم الدولة الإسلامية ولن يحميها ويثبتها لو قامت بشكل من أشكال الابتلاء الرباني في أي بقعة من بقاع الأرض..

وأما القول (وقد بدأت الدولة الإسلامية أول ما بدأت بعد تربية ثلاث عشرة سنة في مكة في مدرسة النبوة وفي مدرسة الابتلاء الرباني، وأقامها نبي عظيم وصحابيون كرام، بلغوا الذروة في الكمالات الخلقية) فإن فيه خير الوعي على ما حصل من الإعداد بشرط أن يقصد بالتربية ما أشرنا إليه من إعداد الفرد المسلم لا ليكون مسلماً ولو نموذجياً في فرديته وإنما ليكون عضواً فاعلاً في المجتمع الإسلامي المنشود.. وبشرط أن يقصد بأن للمسلمين القدوة الحسنة في الرسول عليه وآله الصلاة والسلام، الواجب الاتباع، وفي صحابته الكرام الذين تخرجوا من مدرسة النبوة، وأنه لم يقصد أن ذلك النموذج لن يتكرر وبالتالي لن يجد المسلمون من يقتدون عملياً به..

ويجد المؤلف في العودة إلى ما جرى في مدينة جوراشدا في قلب البوسنة من ذبح المسلمين من قبل الصرب وتحالفهم مع دولة الجبل الأسود على ذلك أكبر دليل على التآمر على المسلمين تحت سمع الأمم المتحدة (راعية حقوق الإنسان) والتي كما قال وقعت على قرار بتقييد أيدي الضحية وحظر السلاح عنها بينما أطلقت أيدي الصرب بالسير في المذبحة علانية بما ورثوه من ترسانة الجيش اليوغسلافي.. ووقفت روسية

في نفس الوقت تساند هذه المذبحة، وأخفت بريطانية رأسها وراء الحائط الأمريكي، وأطلقت فرنسا تصريحات جوفاء، وفعل كلينتون مثل ذلك.. ولم يتحرك أحد من السبع والأربعين دولة التي توصف بالإسلامية، وكان ذلك كله لا يعينهم.. حتى قال رئيس وزراء البوسنة (الكل خانونا.. الجميع تواطنوا علينا)..

وللتعقيب على ما جرى في كوسوفة بقيادة أمريكا واستخدام حلف الأطلسي من حرب جوية تمطر الصرب وجميع مرافق يوغسلافية بالصواريخ فإنه استخدام الوجه الإنساني لتركيع أوربة كلها للإرادة الأمريكية ولا سيما بعد أن خطت في وحدتها الاقتصادية خطوة عملية بإصدار عملة اليورو المنافسة للدولار، وبعد أن أخذت بحرب الموز كما سموها وغيره تتحدى الإرادة الأمريكية..

فالكاتب يؤكد، وله الحق كل الحق في ذلك، نظرية التآمر في ذلك كله، ويدعو مثقفي هذه الأمة للنظر بعين نزيهة متبصرة للواقع والتخلص من عملية غسل الدماغ التي تلاحقهم بها وسائل الإعلام الغربية.

ثم يلخص بحثاً طويلاً عن الإسلام نشرته مجلة التايمز اللندنية والتي تؤكد فيه أن أكثر من عشرين ألفاً من الإنجليز يتحولون كل عام إلى الإسلام، وأن عدد المسلمين من الإنجليز سيزيد في العشرين سنة القادمة عن عدد المسلمين المهاجرين الموجودين حالياً في إنجلترا.. وأن سنة ملايين مسلم جديد سيضاف لهذا العدد في أمريكا في العشرين سنة القادمة.. وأن هذا التحول يجري في أوربة كلها وأن ذلك يجري رغم الأحوال القاتمة التي يعيشها المسلمون.. وينتهي إلى القول بأن وراء ذلك كله العناية الإلهية الخفية وكل ذلك وأكثر كان يمكن أن يكون دون إعلان هذه الحرب على الإسلام باسم الإرهاب.. فلم هذه الحرب المعلنة من أمريكا ضد (الإرهاب الإسلامي) في العالم كله!؟

لاشك يا دكتور مصطفى أن سنة الله تعالى في خلقه هي كما تردد في مضمون قوله تعالى {إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم}.. فقد جعل سبحانه وتعالى نظام مخلوقاته في التغيير والتبديل قائماً على أساس وقاعدة السبب والنتيجة..

ويؤكد الكاتب تحت عنوان فرعي حول السينما وما تعرضه من أفلام الجنس والعنف نظرية التآمر على الإسلام والمسلمين بين الرقابة المتساهلة جداً في ذلك وبين أمريكا وحضارتها السانرة في طريق الشيخوخة والموت كما يقول..

وتحت العنوان الثالث (الصراع الدائر) يتحدث الكاتب عن حالة الانبهار التي يعيشها المسلمون من المخترعات الغربية والرقي المادي الذي وصلوا إليه، وأن ذلك ليس ما أرادته الإسلام منهم لأنه يرى الدنيا كلها جسراً للآخرة، وأنهم مسافرون فيها ونصيبهم منها العبرة والفكرة، وأن الله تعالى قد حملهم أعظم رسالة لإنقاذ البشرية، مما يفرض عليهم التخلي عن هذه الدنيا وتسخيرها والتحكم بها لخير البشرية فيها وفي الآخرة من بعدها، وأنه لا بد من رفض موقف المصريين على بقاء المسلمين على

هذه الحال وعدم عودتهم إلى إسلامهم ليعيشوا عليه بحجة أنه يدمر وجودهم وحضارتهم... وأن ما قاله نكسون قبل موته: (لقد انتهت الشيوعية ولم يبق لنا عدو سوى الإسلام) لهو خير معبر عما في نفوسهم وما يتأمرون به ضد الإسلام وأهله..

وتحت عنوان فرعي (العداوة عالمية وشاملة) يؤكد الكاتب بأن الكنيسة الأرثوذكسية في الشرق والكاثوليكية في الغرب تلتقيان مؤقتاً فيما بينهما وبين اليهود على عداوة الإسلام والمسلمين، والكل يسعى رغم اختلافهم فيما بينهم للقضاء على الإسلام وأهله، ولكن علمانيتهم، كما يرى المؤلف، أعمتهم عن رؤية حماية الله تعالى ونصرته لدينه وللمخلصين له، مما يؤكد أن (الخاتمة لنا وإن طال الأجل.. أما متى وكيف تكون تلك الخاتمة فهذه أمور عند الله، وهي مقدرة بمقدار ما يرى الله من أمر صحتنا وهمتنا ونهضتنا وعودتنا إليه حقاً لا شكلاً.. واختياراً لا إرهاباً..) فما أروعها من كلمات يا دكتور مصطفى.. فإن (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) يؤكد هذا القول الرباني حقنا بالنصر إن صدقنا في الإيمان والعمل له..

وتحت عنوان فرعي آخر (الجدل البيزنطي) يؤكد المؤلف أن ما يسعى لتحقيقه ذلك الثلاث المتكبر من إيجاد الإمبراطورية البيزنطية في نظر الجناح الأرثوذكسي، كما يسعى الجناح الكاثوليكي إيجاد إمبراطورية رومانية، ويتسابق معهم اليهود للسيطرة من خلال المال والأعمال على العالم، فإن ذلك ليس مجرد وهم وجدل بيزنطي وإنما هي مخططات يسعون بكل طاقاتهم ومكاندهم لإيجادها، وما فعلته الدول الكبرى وعلى رأسها أمريكا من زرع إسرائيل في هذه المنطقة، والدماء التي مازالت تسيل حولها وليس فيها فقط لهدف قريب لتحقيق ذاك الهدف البعيد، وها هي أمريكا تطلب من رئيسة وزراء تركيا آنذ تانسو شيلر أن يقرروا جعل جنسية بطريك الروم الأرثوذكس غير تركية لإنجاح زيارتها لأمريكا، وما ذلك إلا لكي تكون نواة (فاتيكان) أخرى برفع يد تركية عن هذا الرمز البيزنطي وجعله أجنبياً يسهل عليهم التدخل والتحكم وتحقيق ما يهدفون إليه.. وما العلمانية التركية وهجتها الرهيبة ضد الإسلام والمسلمين فيها إلا جانب ضروري من هذا المخطط.. وما هذا التحالف بين تركيا العسكريين العلمانيين وبين إسرائيل إلا بمباركة من أمريكا لتحقيق هذا الهدف..

وتحت عنوان فرعي آخر (الموساد الإسرائيلي) يؤكد الكاتب هذا التعاون القدر بين المخابرات الأمريكية و الإسرائيلية في زرع الفتن والتخريب في مصر وغيرها (بهدف تشويه الإسلام وتبرير هدمه) كما يقول المؤلف وقوله حق وفقاً لما جرى ويجري من تعاون بينهما..

وهنا لنا وقفة مع الكاتب وهو يستطرد فيضع جميع الجماعات الإسلامية في خانة لعبة الموساد و-CIA (لتشويه الإسلام وتبرير هدمه) وأنها جميعها لن تأتي بحكم إسلامي وإنما بتخريب البلاد لتبقى مراحاً مستباحاً لأعدائها، وأن ما تسعى تلك الجماعات الإرهابية الأصولية، كما يحلو للمؤلف أن يصفها كلها تبعاً لما يصفها به

أعداؤها اليهود والصليبيون، فإنه مجرد مظاهر إسلامية شكلية لا تقدم ولا تؤخر لأن مصر كما يقول حطمت خط بارليف دون أن تنقلب إلى حكومة إسلامية، ولأنها هزمت قبل ذلك التتار وهي دولة مماليك، ولأن صلاح الدين الكردي قد كسر الموجة الصليبية وهو رئيس دولة مدنية لا إسلامية، ولأن الدولة الإسلامية لم تقم بالمعنى المفهوم إلا في عهد الخلفاء الراشدين ثم تحول الحكم الإسلامي إلى ملك عضوض يتوارثه الخلفاء الطغاة الظلمة الفسقة في أكثريتهم، وأن الإسلام يتوفر في الأرض بدون حكم إسلامي، وهو الآن موجود على طول الدنيا وعرضها وليس بحاجة إلى هذه الشكلية السياسية التي تسعى الجماعات الإسلامية لتحقيقها والتي من خلالها يدخل الانتهازيون والمتآمرون والماكرون والكذبة البيت الإسلامي لينسفوه من الداخل كما حصل في حصان طروادة.. وأن (كل ما نحتاجه هو رأي عام إسلامي قوي وفاعل ومؤثر يهدي الحكومات الموجودة إلى الخط الصحيح)..

فيا دكتور مصطفى، لقد اشتط بك القلم فأبعدك عن بديهيات المؤامرة التي تتحدث عنها في ثنانيا كتابك هذا وما ذلك إلا بسبب هذا الخروج للجماعات الإسلامية عن الصراع الفكري والكفاح السياسي اللذين تقيد بهما الرسول عليه وآله الصلاة والسلام في دعوته في العهد المكي حتى نصره الله بالهجرة إلى يثرب وأقام الدولة الإسلامية فيها وأخذ يمارس أعمال رئيس الدولة جنباً إلى جنب مع تلقي الرسالة من ربه وتبليغها للناس..

تأكد يا دكتور مصطفى أن هذا الخروج من الجماعات الإسلامية هو في أكثريته اجتهاد محصور في النصوص الشرعية والتي في رأسها قول الرسول عليه وآله السلام (الجهاد ماض إلى يوم القيامة تحت راية كل أمير برأ كان أو فاجراً) وقوله عليه وآله السلام (ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا) .. فأرأف بنفسك يا دكتور مصطفى وبهذه الجماعات ولا تتعجل بهذا الحكم القاسي عليها، ولا تسمح لحالها في كل ما سببته للحركة الإسلامية من ضياع الجهود وإجهاض الأعمال والتبرير لأعدائها للبطش بها وبكل الحركات الأخرى التي ترفض هذا الخروج أصلاً.. لا تسمح لذلك أن يخرجك عن الخط القويم الذي رسمه لنا الرسول عليه وآله السلام في العمل لإعادة الحياة الإسلامية بإقامة دولة الخلافة من جديد بالتركيز ابتداءً على ما ذكرته وهو إيجاد «رأي عام إسلامي قوي وفاعل ومؤثر» ولكن بدلاً من استهداف ما قصده الرسول عليه وآله السلام من هذا (الرأي العام) عندما أرسل مصعب بن عمير إلى يثرب ليطمئن الرسول عليه وآله السلام بأنه (لم يبق بيت من البيوت إلا وفيه ذكر الإسلام) مما نسّميه الرأي العام في الوقت الحاضر، والذي بناء عليه عقد مع الثلاث والسبعين رجلاً وامرأتين من الأنصار بيعة العقبة الكبرى، بيعة النصرة والقتال، متى هاجر إليهم وأقام دولة الإسلام في ربوعهم.. فأحذر يا دكتور مصطفى من الخضوع للواقع وجوره وتمزقه في حكومات تبطش بكل من يقوم لتغييرها وتبديلها من دول تابعة في نظامها وسياستها للدول الديمقراطية الغربية إلى دولة الخلافة الراشدة.. فأحذر من التخلي عن طريقة الرسول في العهد المكي وجعل الرأي العام بدلاً من الخميرة

لإقامة الخلافة بدلاً من حكومة أو أكثر من هذه الحكومات لتتسع وتشمل بقية الحكومات بدافع من هذا الرأي العام الذي توفر قبل قيامها في بقعة أو أكثر ابتداء وبعد قيامها.. فاحذر من القول المبعد عن طريق الرسول عليه وآله السلام الواجب الاتباع وتسخير هذا الرأي العام الذي وصفته بـ (إسلامي قوي وفاعل ومؤثر)، تسخيرها لما وصفته (يهدي الحكومات الموجودة إلى الخط الصحيح) بدلاً من تغييرها إلى دولة الخلافة الراشدة، لأن مثل هذا القول بتسخير ذلك الرأي العام الإسلامي.. لهداية أو توجيه هذه الحكومات غير الإسلامية في نظام كل منها وسياساتها لن يؤدي إلا إلى خطأ مزدوج: الأول هو البعد عن (الخط الصحيح) الذي رسمه الرسول عليه وآله السلام بأمر من ربه {وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى} {ولكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر}.. هذا (الخط) الذي يبدأ بالدعوة وينتهي بالدولة، والخطأ الثاني هو إطلاق يد الحكومات القائمة للقضاء على الحركات الإسلامية الأصولية كلها ما دامت لم تعمل تحت إمرتها وتوجيهها..

وها هي (الحكومات الموجودة) تبتطش بالجماعات الإسلامية التي خرجت عن العمل الفكري والتي لم تخرج عنه، والدافع لذلك كله معروف لديك يا دكتور مصطفى وواضح بيانها في كتابك هذا..

وإذا أردت أن أذكرك بما يجري في البلاد الإسلامية فالأردن واليمن مثال حي للجماعات التي لم تخرج للعمل المادي ولكن الحكومة في كل منهما لم ترحمها..

ثم تأكد يا دكتور مصطفى أن تطبيق الشريعة الإسلامية في دولة الخلافة هو الفرض الجامع لفروض كثيرة إذ لولاه لما وجدت هذه الفروض طريقها للحياة ولبقي الناس يتعاملون في علاقاتهم فيما بينهم وفقاً للنظم المستوردة من الغرب، ولبقي المجتمع غير إسلامياً وإن كان أفراده في أكثريتهم مسلمين لأن المجتمع يوجد بنظامه المنظم لعلاقاته وليس بأفراده الذين مهما كانوا مسلمين لا يوجد المجتمع أي إلا بالعلاقات والنظم والتشريعات التي تنظمهم.. فليست الحكومة الإسلامية كما تقول يا دكتور مصطفى إلا مجرد شكل سياسي وإنما هي هذه العلاقات الداخلية والخارجية التي توجد بتطبيق التشريع الإسلامي في الداخل وبتنظيم علاقات هذا المجتمع الذي طبقها مع الدول والشعوب الأخرى في الخارج.

وأظنك تعلم أكثر من غيرك معنى حرب التحريك التي حطم فيها السادات ولا أقول الجيش المصري خط بارليف والتي انتهت إلى ما رسم لها أن تنتهي له مع (الصديق العزيز) هنري كيسنجر وزير خارجية أمريكا آنئذ.. فلا حاجة بك يا دكتور مصطفى للانفعال والاندفاع بسبب ما يحصل من أخطاء الجماعات الإسلامية في اجتهاداتها و خروجها عن الخط الفكري إلى العمل المادي وترى بأن المسلمين ليسوا بحاجة لحكومة إسلامية كالتى تسعى لها هذه الجماعات (الإرهابية الأصولية) كما تقول تبعاً لفرية الدعاية العدو للإسلام والمسلمين..

ثم ها قد وصل بك الانفعال إلى درجة أن رأيت في الحكم الإسلامي في عهد المماليك كأنه لا علاقة له بالإسلام وكأن المماليك لم يكونوا مسلمين ولم يحكموا بالإسلام! وها أنت تستطرد فتري في حكم صلاح الدين حكماً مدنياً لا إسلامياً، ولا أدري معنى هذا الفصل في الحكم في عهد صلاح الدين مع أنه كان حكماً إسلامياً بكل معنى الكلمة، وكانت الأجهزة كاملة لجميع مرافق الحياة مما يلزم الإدارة، والإدارة يا دكتور مصطفى كما تعلم وسيلة لتسيير الأعمال بالنظام المطبق في الدولة، فلا حرج أن يأخذها الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه كإدارة في نظام الدواوين من فارس أو يأخذها غيره من الروم أو نأخذها نحن غداً في دولة الخلافة من أوروبا أو أمريكا أو روسية أو الصين أو اليابان، فهي إدارة لا علاقة لها بوجهة النظر في الحياة وإنما هي وسيلة لتحقيق وجهة النظر هذه ودون أن تتضارب معها في شيء..

وها أنت يا دكتور مصطفى تعترف أن دولة الخلافة كانت في عهد الخلفاء الراشدين، وأضيف لمعلوماتك بأنها قد بدأت في عهد الرسول عليه وآله السلام وسار عليها الخلفاء الراشدون، وكانت في قمة نقانها في عهد أبي بكر وعهد عمر والسنوات الثماني الأولى من عهد عثمان، أي قبل المشاكل والفتن التي انتهت باستشهاد ذي النورين رضي الله عنه وعنهم أجمعين.

فهل ما حصل ميرر لمنع العمل لإعادة دولة الخلافة بنقانها الراشدي أم أن بين أيدينا من الوسائل والتقنيات ما يبسر علينا إيجادها بذاك النقاء؟

وها أنت يا دكتور مصطفى ترى الإسلام يوجد دون حكم إسلامي وذلك من باب الأفراد المسلمين الذين يزيد عددهم في الأرض عن الألف مليون فهل أنت مؤمن بهذا القول وأنت تعلم أن الأفراد المسلمين مهما كثروا لا يمكن أن يوجدوا مجتمعاً ولا دولة دون نظام الإسلام الذي يطبق في دستور الدولة وقوانينها في جميع مناحي الحياة الداخلية وفي تنظيم العلاقات الخارجية.. فيا دكتور مصطفى ليس الإسلام في الحياة بالأفراد المسلمين ولكنه بالتشريع المطبق في علاقات هؤلاء الأفراد المسلمين..

وأما رفضك لهذا الشكل السياسي بحكومة إسلامية من باب كونه باباً لدخول المتأمرين والماكرين والكذابين لهدم البيت الإسلامي من الداخل.. فلا أظن أنك ترى كل هذه الجماعات الإسلامية التي أخطأت في الاجتهاد وخرجت عن العمل الفكري والسياسي إلى العمل المادي والحربي بأنها عميلة لأعداء الإسلام والمسلمين، وبالتالي لسنا بحاجة لها ولا للحكومة التي تسعى لإيجادها لأن رفض الحكومة الإسلامية التي يسعون لإيجادها من باب أخطائهم خطأ آخر منك عالجت به الخطأ الأول منهم، والمفروض أن تدعو للالتزام الخط الشرعي الصحيح في إقامة الحكومة الإسلامية لتبرأ وتبرأ معك هذه الأمة الإسلامية التي ابتليت بهذه الاجتهادات الخاطئة والمدمرة..

وتحت العنوان الرئيسي الرابع (استعراض لإنقاذ كلب) يرى الكاتب أن في إنقاذ الكلب والقطعة من عنبر البضائع في طائرة البوينغ ومن ثلاث درجات تحت الصفر

ليستضيفهما الطيار الشهم على كوب من اللبن في صالون الدرجة الأولى الدافئ بلوغ عصر التنوير في أوروبا منتهاه، هذا بشأن الرأفة بالحيوان وأما بشأن مئات الألوف من مسلمي البوسنة فليموتوا في درجة عشرين تحت الصفر لأنهم مسلمون، ولتمطرهم صواريخ وقنابل الصرب لتجهز بالنار والحديد على من لم يمت بالثلج والجليد.. إنه سن الرشد الإنساني الأوروبي !! إنها أخلاق العلمانية التي يفتدي بها التقدميون في بلاد الإسلام كلها ويتعبدون على قبلتها!! إنه الخزي والعار في حق ٤٧ دولة توصف بالإسلامية وهي تكتفي بالمشاهدة والفرجة إلا من بعض العون الذي يؤخر موتهم الذي يستعجلونه إذا كان في ذلك تأخير! ولهم في مجازر فلسطين أشنع خزي وعار!!

إنه ٨٥ ٪ من المال العربي الذي ينعش اقتصاد أوروبا وأمريكا لترسل الأسلحة بطرقها الخاصة لتقتل بها المسلمون في كل مكان!

فمتى يفيق أولو الأمر من سباتهم ويقولوا كلمتهم!! وليعلموا أن طوفان نوح القادم سيأخذ بآبائه الذي رفض للجوء إلى الله واستعصم من الماء برأيه، فليعيدوا لعقولهم الرشد والحق، وليجدوا النذير لهم من بعيد قبل أن يحل بهم.. وعندها لا ندم!

وفي عنوان فرعي (حركة التفاف) يرى المؤلف أن حركة التبشير في جنوب السودان التي أعلن كلينتون دعمها في تقرير المصير، وهول أسقف كنتربري لدعمها قد أوشكت على تحقيق هدفها بفصل الجنوب السوداني عن شماله، وبالتحكم في منابع النيل، وأن العبث في الصومال بقوات دولية بالاسم أمريكية بالفعل يوفر لأمريكا السيطرة على القرن الإفريقي من الجهة الأخرى، وأن صفقة التصالح بين إسرائيل والفاتيكان تجري ولو على حساب المعتقدات والأديان ولكنها لتحقيق سيطرة المصالح وتهديم الإسلام وتركيب بلاده لنفوذهم.. فمتى تفيق هذه الأمة وتنتهي هذه العداوات بينها وتتوحد وترفض أن تكون لقمة سائغة لأطماعهم?!

وتحت عنوان فرعي آخر (ماذا جرى للفن؟) يؤكد الكاتب بأن هذه الأغاني التي تردنا من أوروبا وأمريكا لا تمت إلى الفن الجميل بصلة، فمع صوت المغنية عن الحب تظهر كل مظاهر القرف والابتذال مع مئات من الشبان والبنات وهم يصفقون ويرقصون في نشوة وإعجاب، وهم يصرخون مع المغني كأنهم مجموعة شياطين.. إنه الدعوة الصريحة إلى الفساد والعنف والجنس والفوضى..

فأي عقول إجرامية تخطط لهذا التدمير؟! وما معنى السكوت عليه?!

ومع العنوان الرئيسي الخامس (الذين يأكلون على كل الموائد) يؤكد المؤلف أن من يطلق عليهم بالعلمانيين لا صلة لهم بالعلم وإنما هم طلاب هذا العالم الدنيوي المادي، وهم ينتقلون على موائد العهود المتعاقبة: فمن الصنم ستالين في الخمسينيات، إلى اشتراكية عبد الناصر في الستينيات، إلى التطبيل والتزوير للسلطة التي جلسوا على كراسيها وباركوا الانفتاح وتعدد الأحزاب في السبعينيات، إلى خلع الجدل الاشتراكي في الثمانينيات وركب موجة الرأسمالية واقتصاد السوق، إلى التغزل بالحرية الأمريكية

وحقوق الإنسان في هذا العقد.. وإلى المركب الصهيوني الذي بدأوا يروجون للسلام معه في إطار السوق الشرق أوسطية الجديدة متى غرق المركب الأمريكي ولم يبق إلا هذا الصهيوني..

إنه الحقد على الإسلام والمسلمين، إنه القول بالطبيعة بديلاً عن الله تعالى، إنهم نفس الدهريين في الأزمنة القديمة..

ويستنكر الكاتب بأسلوب لطيف موقف وزير الثقافة المصري فاروق حسني الذي يقول مع العلمانيين: ما شأن الدين بالثقافة؟ فبيِّن له ولهم أن الذات المصرية طيلة تاريخها الطويل ذات إيمانية وأن مسؤوليته عن الآثار تؤكد له ذلك فكيف يتساءل متحيراً مثل هذا التساؤل!؟

وتحت عنوان فرعي (وماذا وراء هذا الغلط؟) ينقل عن CNN خبرها بان المخابرات الأمريكية CIA. قد أمدت حكمتيار أفغانستان بألف مليون دولار في حربه ضد السوفييت.. ثم يقول بأنها أمدت صدام حسين بالمال والسلاح ودفعته ضد إيران أولاً ثم أغرته بالكويت.. ثم يذكر نورتيجا، بارون الكوكابين في بنما، وتشاوشيسكو السفاح في رومانيا الذي كانت تدفع له المخابرات الأمريكية راتباً شهرياً، وماركوس وزوجته إيميلدا في الفلبين، والكثير غيرهم ممن تجنب الكاتب ذكره في عالمنا العربي المحدود والإسلامي الواسع، وأن ذلك هو دأب تلك المخابرات لتحقيق مصالحها، وأما في بلادنا فلن نتحقق مصالحها إلا على جثة إسلامنا.. ولذلك اخترعت هذه الحركات الإرهابية وألبستها لبوس الإسلام، وحولت أفغانستان إلى مذبحه بين أخوة الجهاد والسلاح لتنفّر المسلمين من التفكير في أي حكم إسلامي بعد ذلك..

صحيح أن للكاتب الحق بالجرأة في الطعن على هذه الحركات التي تقاوم بعضها باسم الإسلام وتتأول الاستعانة بالعملاء لأمريكا بل بأمريكا ومخابراتها في حريها التي رأت شرعيتها، وهي أبعد ما تكون عن الشرع كحركات ودعوات، ناهيك عن اصطياها من أمريكا وعلانها.. ولكن لماذا يستطرد المؤلف ويعتبر العمل لإقامة حكم إسلامي في مصر أو غيرها غير وارد في أذهان كل المفكرين الإسلاميين المصريين بالذات؟ وهل أخطاء الآخرين يجب أن تفرض مثل هذا الوقوع في الخطأ الكبير المؤدي للإثم الكبير بالقعود عن إعادة الخلافة الراشدة في مصر قبل غيرها من خلال (رأي عام إسلامي مستنير ومؤثر) كما يصفه المؤلف؟

إنني أربأ بك يا دكتور مصطفى أن يكون حكمك على الأمور الشرعية، وبالذات المصرية في حق الإسلام والمسلمين بل البشرية جمعاء، مجرد رد فعل للأعمال الخاطئة ولو كانت باسم الإسلام وأنت صاحب القلم الإسلامي الغزير..

وهل لي أن أذكرك بقوله تعالى {أفحكم الجاهلية يبغون. ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون؟} وقوله تعالى {وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك..} وأمثال هذه الأوامر الإلهية بالحكم

الإسلامي كثير يا دكتور مصطفى ولا أظنها تغيب عن ذهنك وقلمك وأنت تجد كل صباح ومساء الأدلة الكثيرة الصارخة من تواطؤ الكفر بجميع ملته ومذاهبه ضد الإسلام وأهله.. وترى في نفس الوقت كيف ينتشر الإسلام حتى في عقر دار أعدائه برعاية الله تعالى وتوفيقه..

وتحت عنوان فرعي آخر (والعلم غير العلمانية) يوضح الكاتب أن العلم عالمي يأخذ عنه المسلمون كغيرهم نتائج اختراعاته واكتشافاته دون خوف لأنه (خلاصة ما أنتجه المعمل والمختبر والذهن البشري من حقائق الطبيعة والكيمياء والأحياء وطبقات الأرض والصوت والضوء وعلوم الطقس والوراثة والكمبيوتر..) ويجدوا فيه أساس من أسس التقدم، بينما العلمانية مذهب فلسفي وموقف من الكون والمصير والأديان ترفض الغيب والآخرة والحساب، ترفض وجود الله تعالى وتقول تأديباً: هو فكرة غير مطروحة أو غير واردة.. وتجعل للإنسان سيادة مستقلة متفردة مسنولة ومحكمته ضميره ولا شيء وراء ذلك إلا ضمانات الآخرين وقوانينهم.. ولا اعتبار عندها للدين وقيمه وشرائعه في شئون الحكم والسياسة والتعامل.. إنها فلسفة هزيلة كالوجودية والعبثية والماركسية والاشتراكية.. وأن العلمانيين في بلادنا هم مجرد «بقايا شيوعيين» أو متسلفين على الشيوعية، وأن شعارهم القديم: الدين أفيون الشعوب قد استبدلوه بشعار جديد: الدين فكرة غير مطروحة!!

فأين رشد عقولكم يا دعاة العلمانية؟!

وتحت عنوان فرعي آخر (عندما تغضب الطبيعة) يسخر الكاتب بأسلوب الناقد الأديب من مذيع أوربي يصف ما وقع من أعاصير وسيول في أوربة وأمريكا بأنه غضب الطبيعة.. فيتساءل عما إذا كان الإيدز الذي اكتسح لوس أنجلوس وسان فرانسيسكو هو من غضب الطبيعة، وأن فشل الطب في ابتكار علاج للمرض هو غضب آخر؟! ويتساءل كيف تغضب الطبيعة فتتجاز مرة لطرف ومرة لآخر مع أن علماء أوربة أنفسهم يقولون أن الطبيعة مجموعة قوانين محايدة ولا عواطف ولا محاباة لها؟!

إنه سذاجة المذيع وعبط العلماء الذين يرون أن الطبيعة العمياء العشوائية كما يصفونها هم أنفسهم تنتج من النملة شكسبيراً ومن الميكروب سقراطاً ومن الأعمى بصيراً ومن الناقد كاملاً..؟!

وتحت عنوان فرعي آخر (قداسة الأنبا شنودة) يعبر الكاتب عن إعجابه بموقف شنودة بابا الأقباط في مصر عندما أصر على عدم دخول القدس إلا وأيديهم في أيدي (إخوانهم المسلمين)، وذلك لما رآه في ذلك من حرصه على وحدة الشعب في مصر من مسلمين وأقباط، وأنه لا يقيم وزناً لاتفاق الفاتيكان مع (إسرائيل)، ويصرح بأن ما فعله بابا الفاتيكان لا يلزمهم، وأن الكنيسة في مصر لا تخضع لكنيسة روما.. وأنهم قد حاربوا مع المسلمين الغزوة الصليبية.. فهل قد أصاب الدكتور مصطفى في

نظرته هذه ولم يعلم شيئاً عما أصدره أقباط مصر من نشرات سرية تعمل لتجميعهم وكيدهم ضد الإسلام والمسلمين!!

لاشك أن فقط المسلمين في مصر وتكاتفهم يخيف غيرهم..

وأخيراً يرى الكاتب في عنوان فرعي صغير (الكعبة الثانية) بأن سرايفو ستكون الكعبة الثانية للمسلمين بما روته من دماء الشهداء.. وما أكثر الكعبات يا دكتور مصطفى!! بل أين أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين!؟

وتحت العنوان الرئيسي السادس (اللعب على المكشوف) يبين الكاتب تهافت نظرية من يرفضون منطق التآمر علينا، ويدعوهم لقراءة خطاب هلموت كول الرئيس الألماني السابق الذي ألقاه على مخططي الاستراتيجية العسكرية الألمانية في ٢٩ يناير عام ١٩٩٤ في ميونيخ، وأعلن لهم فيه بملء الفم بأن الحركات الإسلامية الأصولية في شمال إفريقيا تثير قلقاً متزايداً في بون وباريس ومدريد، وأنه يتم رصدها ودراستها بدقة، وأن خطط الأمن الأوربية وحوض المتوسط بحاجة إلى إعادة نظر في ضوء ما يجري في الجزائر والمغرب ومصر وتونس.. وأن المتطرفين المسلمين يمكنهم الحصول على صواريخ يصل مداها إلى ألف كيلومتر، وأن على الخبراء الاستراتيجيين أن يعدوا أنفسهم لمواجهة التطرف الإسلامي جنوب المتوسط، وأن خبرة إسبانية في هذا المجال مفيدة لهم (لأنها صاحبة تجربة في طرد المسلمين من الأندلس)، وأن الحرب العقائدية سوف تنتسح لتصل إلى عمق أوربية.. فهذه الخطوط العريضة في خطاب كول تشكل كما يقول المؤلف الوسواس المرضي المسيطر على العقل الأوربي، والذي يفسر هذا التضامن الإجرامي بين دول أوربية على مسلمي البوسنة لمحوهم من خريطة أوربية.. فما بالك يا دكتور مصطفى بهذا الحلف الأمريكي العالمي ضد الإسلام باسم الإرهاب والذي ظهر جلياً في أفغانستان وفلسطين!؟

ويتساءل أمام هذه الوقائع لمن يرفضون نظرية التآمر ليسموا الأشياء بأسمائها والصرب يذبحون المسلمين وهم قلة محرومة من أي سلاح تدافع به عن نفسها وبقرار من الأمم المتحدة.. فماذا يسمى ذلك؟

وتفتح الترسانة الأمريكية (إسرائيل) لتكون مدججة بكل أنواع الأسلحة ذوات التدمير الشامل والمحدود بينما يحظر ذلك على جميع الدول العربية وتلاحق بكل أنواع التفتيش والمراقبة والتجسس.. فماذا يسمى ذلك؟

ولحساب من هذه النزاعات المحدودة بين الدول العربية حتى تكاد لا تخلو دولتين متجاورتين من ذلك إلا لتكون طعماً سهلاً وهدفاً يسيراً للدول الكبرى التي تخطط لتجعل منا (أسواقها وحميرها وتتآمر علينا ولها كل العذر في تأمرها فمن ذا الذي يجد دابة سائبة ولا يركبها!؟)

ويقول المؤلف: وصحيح أن الكبار هم الذين يوجبون تلك النزاعات بيننا ولكنهم ما كانوا ليفلحوا لولا تخلفنا..

وأضيف إلى ذلك: ولولا عمالة جميع الحكام لهم، وإن كان هذا القول مما يؤكد المؤلف في موضوع آخر يذكره فيما بعد.

وينهي الكاتب هذا الموضوع بالتعبير عن مدى استغرابه لهذه النومة الغارقة فيها الأمة الإسلامية أمام ما ينزل بها من كوارث وإهانات فلا تصحو منها.. فيقول: وأي مخدر نتعاطاه كل يوم لنتبدل كل هذا التبدل ونموت هذا الموت؟!

وينتهي إلى الدعاء: اللهم إنا نسألك بعثاً يخرجنا من هذا العدم.. ونحن ندعو معه بذلك بكل صدق وإخلاص..

ويأتي المؤلف بعدها إلى عنوان فرعي (والقتل على المكشوف) ليصرخ في وجوه العلمانيين والأمة كلها وباروخ جولدشتاين يحصد المسلمين برشاشه وهم سجد في المسجد الإبراهيمي بالخليل تحت عون ورعاية الجيش الإسرائيلي..

فأى حقد صهيوني هذا؟! وأي سلام تسعون لتحقيقه يا دعاة السلام مع هذا الحقد الذي يستوي فيه اليهودي اليميني واليساري، حسب تسمياتهم، على حد سواء وإن اختلفوا في وسائل الوصول لأهدافهم.. ولكنه الهزال والضعف والعمالة والهوان تجعلنا نسكت عن دعاة السلام وتهديد حكوماتنا بأنواع من الخسف والاضطهاد وهي مرفوعة فوق رؤوسنا.. وعند سؤال الـ CNN لعدد من اليهود كانوا مجتمعين على المطالبة بالمزيد من القتل..

والموضوع كما يقول المؤلف أكبر من مجرد مذبحه في مسجد.. إنه سياسة العالم الغربي كله وبقايا العالم الشيوعي في أننا خطر حضاري يجب محاصرته وتحجيمه، و(إسرائيل) هي هذا كله وأمريكة تتولى حمايتها لتقوم بذلك كله.. فهنيئاً لحماة السلام معها!!

وعلى العرب بخاصة والمسلمين بعامة أن يتحدوا ويفهموا ويعقلوا قبل أن يحقق عدوهم هدفه فيهم، ولتفهم ذلك الحكومات قبل الشعوب.. وإلا فليمت الكل جزاء تقاعسهم وهوانهم.. وستكون تلك عدالة الله تعالى فيهم..

وتحت العنوان الرئيسي السابع (لنتكلم بصراحة) يؤكد المؤلف أن الغرب هو الذي يفتعل خطر الإسلام والمسلمين على الحضارة مبيناً أن دول العالم الإسلامي (لا يجمعها رابط ولا يضمها لواء، بعضها تابع وبعضها عميل وبعضها محتل وبعضها يضرب بعضها وأكثرها يعيش تحت خط الجوع ويتسول خبز، وكلها إسلامية بالاسم فقط ولكنها علمانية بالهوى، لم يبق من أصوليتها إلا لحى مطولة وجلابيب مرسلة ومساح مزوقة ومصاحف منمقة وأكثرها شكليات غير ذات موضوع لأمضون).

وللتعقيب نقول: صدقت يا دكتور مصطفى في وصف دول العالم الإسلامي، ولا نقول الدول الإسلامية وأنت تؤكد هذا الواقع في كونها كلها إسلامية (بالاسم فقط) ولكنها علمانية ليس فقط بالهوى بل بالنظم والأحكام والتشريعات..

وكم تمنيت عليك يا دكتور مصطفى أن تقول بأن هذه السنن من تطويل اللحية وإرسال الجلباب لا تؤثر كالفروض في تطبيق الإسلام في دولة إسلامية، وأما تزويق المسابح وتمييق المصاحف فليست وأمثالها من السنن ولا من الفروض في شيء..

وأعود إلى تأكيد المؤلف إلى أن المقصود من التهجيم على الإسلام والمسلمين هو الذات الإسلامية فعلاً، لأنهم يرونها بتأثير تاريخهم المليء بالأحقاد خطراً على حضارتهم..

وكم كان حرياً بهم أن يروها إنقاذاً لهم من هذا التمزق والضياع الأسري والفردي الذي بات يسيطر عليهم تحت سيطرة فكرة الحريات الديمقراطية التي لا تعبد إلا العقل البشري ومنجزاته..

فقد نهبهم الكثير من حكماهم وعقلائهم ممن اعتنقوا الإسلام وممن لم يعتنقوه إلى أن الحضارة الإسلامية لا تحمل للبشرية إلا كل الخير والسعادة..

وأما قولك يا دكتور مصطفى بأن ديننا وحضارتنا تفرض علينا بأن ندعهم ودينهم ومعتقداتهم، وأن نصبر على أذاهم .. فهذا كان شأن الإسلام في العهد المكي وهو دعوة لما تنتقل إلى دولة وشريعة وحضارة مطبقة في الأرض تدعو الأمم والشعوب الأخرى لترى نورها وتقبل على عدلها وتتخلص من الجهالة والظلم والظلام التي تعيش فيها..

ولذلك جاء قوله تعالى في العهد المدني {ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا} وقوله {ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم} مع أن محاولاتهم لإعادتكم للكفر لم تنقطع طيلة العهدين المكي والمدني، بل طيلة القرون الماضية وبالذات بعد أن وصل حكمه وحضارته إلى عقر دارهم، إلى أسوار فيينا وجبال برينيه بفرنسة، وها هو دون دولة إسلامية حقة ودون وسائل تقنية يملكونها ولا يملكها ينتشر في بلادهم وبين مواطنيهم ولا يجدون أمام ذلك، والحد يعمي أبصارهم عن الحق، لا يجدون بداً من قذفه بكل التهم، وافتعال كل الأزمات، لتبرير ضربهم له ولأهله ومحاوله منع مواطنيهم من اعتناقه والإبقاء على سيطرتهم على مقدرات أمته من المحيط إلى المحيط. فبعد أن كانت محاولاتهم لردة المسلمين عن دينهم تركز على الفرد، انتقلت إلى الجماعة، ففشلت، فانتقلت إلى الذاتية الإسلامية نفسها.. ولكنهم ما زالوا يجدون في هوان أمة الإسلام مشجعاً لجهودهم الفردية، من خلال حملات التبشير المتنوعة، جنباً إلى جنب مع جهود دولهم المتكبرة..

صحيح إنني معك يا دكتور مصطفى بأن قوله تعالى «لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا..» بأن اليهود كل اليهود وليس الصهيونية الوجه السياسي لهم فقط هم أشد الناس عداوة للمسلمين، وهم في ذلك كالمشركين عبدة الأوثان أو ما في حكمها على حد سواء في هذه العداوة..

ولكن الآيتين السابقتين اللتين استشهدت بهما تشملان كل أهل الكتاب من يهود
ونصارى كما تشمل المشركين وإن تفاوتت نسبة أو مستوى عداوتهم، وما أوروية
النصرانية الصليبية اليوم ببعيدة في حروبها الصليبية للقضاء على الإسلام وذاتيته
وكيانه ودولته عن الأذهان..

وصحيح أن اليهود قد تسللوا من جميع المنافذ الفاعلة المؤثرة في العالم
الغربي وروسية أيضاً، ولكنه الغرب أو الشرق الذي يجد فيهم خير خدمة لحماية
مصالحه وتحقيق أهدافه.. فلماذا لا يدفعون لهم كل هذه المليارات من الدولارات،
ويوفرون لهم كل هذه الأسلحة المدمرة، ويحمونهم في المحافل الدولية؟!

إنه هوان هذه الأمة الإسلامية، بدءاً من ولاة الأمور فيها، وانتهاء بشعوبها،
في التخلف عن مجابتهم، كما تقول يا دكتور مصطفى، وأنهم إن لم يسارعوا في ذلك
فإن الله سوف يستبدل بهم من هم أشد منهم إيماناً وولاءً.. والله يقول لهؤلاء الحكام:
{وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم}..

فمتى يفيق أولو الأمر من سباتهم، وتفيق الأمة معهم فتقول قولتها فيهم وفي
هذا الذل والتمزق والضياع التي جلبوها لأنفسهم ولأمتهم؟

وفي عنوان فرعي (حكاية السلام) ما أروع العبارة بل الصرخة التي جاءت في
نهايته: يا حكام العرب.. لا تضيعونا معكم.. وأن هذه الصرخة ما جاءت على قلم الكاتب
من فراغ وإنما نتيجة هذا السوء في الظن المبني على ألف سبب وسبب في نيات
اليهود أو كما يسمونها النيات الإسرائيلية سواء في جشعهم في قطف ثمار السلام
بانتهاء المقاطعة وفتح الأسواق وتطبيع العلاقات قبل أي اتفاق، أو في هذه السوق
الشرق أوسطية التي تريدها (إسرائيل) سوق هيمنة واستغلال، أو في هذه الترسانة من
السلح النووي والكيميائي والميكروبي التي تتفوق بها على جميع أسلحة الدول
العربية وترفض التخلي عنها وتجد في أمريكا حامية لها ومدافعة عنها في ذلك كله..

فما هذا المشروع من السلام الأمريكي اليهودي إلا (عملية مكياج مفضوحة)
كما تقول بحق يا دكتور مصطفى..

ولكن أين عقول المثقفين والمفكرين وحسني النوايا وأصحاب الكراسي؟!

وتحت عنوان فرعي آخر (الرياضة اليوم) يقارن المؤلف بين ما رآه أفلاطون
في جمهوريته المثالية منذ ألوف السنين في الموسيقى والرياضة من وسيلة لتربية
الذوق وتنمية الحس الرفيع في الموسيقى، ووسيلة لكمال الجسد وتنمية الشجاعة
والخلق الكريم في الرياضة.. وبين ما نراه اليوم في الموسيقى المستوردة من هوليود
وباريس ولندن وغيرها من تدمير لكل ذوق وحس.. إنها مجرد زار وصراخ وضجيج
وعجيج.. إنها راقصون وراقصات وتصفيق وطبل وزمر يفتقد معها العقل والذوق..
وإن الرياضة قد تحولت إلى (تجارة مفترسة) بسماستها وأبطالها الذين لا يترددون

عن أي غش أو تدليس للوصول إلى الملايين من الدولارات .. صحيح أن القليل السليم موجود ولكنه النادر..

وينهي المؤلف هذا الموضوع بصرخة أخرى في رجال هذا المجال ليتوقفوا عن التوجه إلى قبلة واشنطن وباريس ولندن ويتوجهوا بدلاً منها إلى ذاتية أمتهم.. إلى جذورهم.. إلى تاريخهم وروحهم المتميزة بالفضائل وكريم الأخلاق.. إلى جوهرهم وماهيتهم التي (ضاعت في الطوفان) فهل من سميع لهذه الصرخة؟ أم أن هذا الطوفان كما يسميه الكاتب قد أخذ العقول قبل الأجساد فأصبحت مجرد أشباح.

وتحت العنوان الرئيسي الثامن (الموتى والأحياء) يورد المؤلف خبيرين الأول عن إذاعة لندن بأن طائفة تعطلت في مطار لارنكة بقبرص تبين أنها تحمل شحنة أسلحة إسرائيلية إلى أوغندا، وأنها كما علق المذيع مرسلته في الحقيقة إلى متمردي جنوب السودان، وأن وراء الصفقة دولة عربية ضالعة مع الغرب..

ويقول بأن الخبر اختفى تماماً من جميع النشرات بعدها وتم التعقيم الكامل عليه.. فهنيئاً لمن يتعاون مع (إسرائيل) من الدول العربية؟!!

والخبر الثاني أن مندوبة أمريكية مادلين أولبرايت في ذلك العام ووزيرة خارجيتها فيما بعد عدت إلى تأجيل تلو تأجيل لصياغة قرار مجلس الأمن ضد مذبحه الحرم الإبراهيمي، ورفضت ذكر القدس كجزء من الأرض المحتلة وكأنها من أرض (إسرائيل) مناقضة لموقف بوش الرئيس الأمريكي السابق..

ويعلق الكاتب فيما إذا كانت الدول العربية قد أصابها الصمم واليكم أمام هذا الموقف الأمريكي الذي سجل عمرو موسى وزير خارجية مصر السابق الموقف الوحيد عليه بقوله بأن مصر تختلف تماماً حول هذه السياسة إذا كانت هي الجديدة لأمريكا. ولكن يا دكتور مصطفى: هل سياسة التقية كما تصفها من الدول العربية من دول العالم الثالث كله ومن العربي هي التي لا تعجبك (في مواجهة البلدوزر الأمريكي الذي انفرد بالدنيا)، وأن تهديدها بفتح ملف حقوق الإنسان، والتفتيش عن الأسلحة النووية، وأن تواطؤها مع (إسرائيل) بل مع كل من يضرب الإسلام والمسلمين باسم الإرهاب والأصولية والتشدد، ما هي إلا وسائل للتدخل وفرض السيطرة على الدول الأخرى..

فيا دكتور مصطفى إن ما سبق لك أن وصفت به جميع دول العالم الإسلامي من التبعية أو العمالة.. هو السبب الذي ألحق بنا كل هذا الذل والهوان سواء أمام أمريكا أو ربيبتها (إسرائيل)، وأنه في الوقت الذي يصبح لنا دولة عزيزة الجانب، لا تلتين لتهديد ولا غطرسة من أمريكا أو أوروبا فإن الدنيا كلها ستأتينا تطلب رضانا.. ونحن في الحق والحقيقة لا نطلب إلا أن يصبح الإسلام مهاب الجانب عزيز المنال من كل من تحدثه نفسه بالكيد والتأمر عليه وعلى أهله..

فهل يكون ذلك يا دكتور مصطفى دون دولة الخلافة الراشدة؟

وتحت عنوان فرعي (الإرهاب) يعود المؤلف ليؤكد بالفتوى التي أصدرها كبير حاخامات مستوطنة (كريات أربع) المجاورة لمدينة الخليل، والتي تقول بشرعية قتل العربي ولو كان بريئاً، وبتعليق صور السفاح باروخ جولدشتاين في جميع المتاجر اليهودية.. بأن هذه العقلية العنصرية المتعالية على من يزعمون أنهم يريدون السلام معهم لا يمكن أن تكون صادقة، وأنهم إرهابيون وموزعو الإرهاب في العالم كله، وأنه لا يصح التعامل معهم إلا وفقاً لما هم عليه في حقيقتهم وليس بصور نرسمها لهم في خيالنا فتعامل معهم كالأطفال السذج وهم كتلة من اللوم!!

وتحت عنوان فرعي آخر (للذكرى) يتمنى الكاتب أن يظهر رجل مخابرات آخر في ذكاء رفعت الجمال (أو رأفت الهجان كما سموه) ليفضح شبك التخريب الرهيبة التي تديرها المخابرات الإسرائيلية والأمريكية ضد كل من يقف في طريقها كما فعل ذلك الرجل في مؤتمرات الموساد عام ١٩٥٣ التي كانت تستهدف ضرب عدة منشآت أجنبية في مصر لتظهر من فعل المصريين أنفسهم، فكشف مخططهم وأعدم اثنين منهم وبقي إيلي كوهين الذي أعدم فيما بعد في سورية بعد أن كاد يصل إلى أرفع المراكز فيها لخدمة الموساد.

وهل ننسى ما فعله الموساد بخالد مشعل الممثل السياسي لحركة حماس في الأردن عندما كادوا يغتالونه برصاصة سامة لولا أن أنقذه الله تعالى رغماً عنهم بعد أن فضح أمرهم واعتقل رجالهم.. ولكن انظر يا من لديه شيء من العقل والشهامة: ماذا فعل الأردن بمكتب مخابراتهم بعد تلك الفضيحة؟! لقد أقفل مؤقتاً أو شكلياً ليعود يمارس عمله بعدها كالمعتاد!!

أهذه هي الدول التي تريد السلام.. وأي سلام.. مع (إسرائيل)؟!

وتحت عنوان فرعي آخر (الآيات الشيطانية) يستنكر الكاتب بشدة هذا الموات الذي يلف ما تسمى بالدول الإسلامية أمام أفك مثل سلمان رشدي يشتم في روايته (آيات شيطانية) الإسلام ونبي الإسلام، فلا نتحرك بعزة المسلم على إسلامه، مما لا يجرؤ مع تحركها أحد من أمثال النمسة التي تعلن عزمها على منح جائزة أحسن رواية في الأدب الأوروبي لهذا الكاتب الهندي الأفك الأثيم بالرغم من إجماع النقاد الأوروبيين على ضعفها من الناحية الفنية والأدبية حتى وصفها أحد أعضاء مجلس العموم البريطاني بأنها أضعف عمل أدبي قرأه، وأنها ثقيلة ومملة ولا يستطيع القارئ أن يكمل نصفها..

هذا وقد أعلنت أكثر من دولة أوروبية على حماية ذاك الأفك الأثيم إذا جاءها من مخبئه في بريطانيا بعد أن تراخت قبضة التهديد الإيراني بتصفيته جزاء فعلته تلك.

وتحت عنوان فرعي آخر (الإرهابي التائب) يوجه الدكتور مصطفى الحكومة في مصر بل كل الحكومات في العالم الإسلامي إلى طريقة تستطيع بها أن تمتص نقمة الشباب وتوجههم إلى السير معها لا ضدها، إلى البعد عن الاستجابة لتلك الجماعات

الإسلامية التي خرجت عن العمل الفكري إلى العمل المادي والقتالي ضد حكومات بلادها، بحجة أنها كلها جماعات تعمل مع الماسونية اليهودية والموساد والمخابرات المركزية الأمريكية.

إنه يدعو الحكام ليصنعوا للشباب (ثورة إصلاحية من القرآن) لأنهم يؤمنون به ويقدمونه، وأنهم بذلك يحولون طاقة الغضب التي تعتمل في داخلهم إلى أعدائهم الحقيقيين بدلاً من أن يوجهوها إلى أبناء بلدهم..

إنه يدعو لتحويل جهاز التلفزيون إلى جامعة ومنتدى للحوار المفتوح، وتحشد له كل المواهب لتبعث هذا الموات العقلي في الناس بعامه وفي الشباب بخاصة ليستقيم تفكيرهم ويصح مسارهم ويتخلصوا من إعوجاجهم.

إنه ينبه الحكومة في مصر لتجعل للشباب قضية يعملون من أجلها كما جعل عبد الناصر لهم من الاشتراكية والقومية قضية، وكما جعل السادات من العبور والتحرير والانفتاح والتصحيح قضية.. وأن (الشباب تستهويه القوة والعزة والأنفة ولا يحب أن يرى بلاده ضعيفة خاضعة مقودة يسحبها الكبار إلى كل منعطف)..

ويقول الكاتب في نهاية موضوعه بأن (قوة الشباب من قوة قياداته) وأن (الضعف هو بداية الانحدار وهو بداية التآكل..).

وللتعقيب على هذا الموقف الانفعالي، والبعيد عن مضمون كل ما أورده ويورده الكاتب في كتابه من ضرورة التغيير والتبديل لا أجد غرابة فيه بالرغم من تلك الصرخات المدوية التي يطلقها هنا وهناك ضد الحكومات والحكام في عرض العالم الإسلامي وطوله.. فكتاب من أمثال الدكتور مصطفى يجد في الإسلام سبيلاً للإصلاح مجرد إصلاح وليس للتغيير والتبديل الحقيقيين اللذين تشير إليهما الآية {إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم} التي يستشهد بها كثيراً.. كاتب من هذا الفهم للتغيير في الإسلام وبالإسلام لا يستغرب عليه مثل هذه الدعوات للحكام ليمتصوا نعمة الشباب والأمة معهم ضد الفساد والهوان اللذين تعيشهما أمتهم في كل مكان، وذلك من باب الخوف أن استجابتهم للحركات الإسلامية هي مجرد عبثية مدمرة للإسلام أولاً، وللبلاد أخيراً، ما دام يرى كل تلك الحركات عميلة ومأجورة لأجهزة المخابرات العدو..

فلندع الكاتب واعتباره هذا لتلك الحركات ما دام قد ثبت تعامل بعضها أو بعض رجالها مع العدو ومخبراته فعلاً، ولنأت إلى طريقة الإصلاح التي يراها معنى للتغيير المنصوص عليه في القرآن الكريم فنحتكم وإياه إلى التغيير الذي قام به الرسول عليه وآله السلام في العهد المكي ثم العهد المدني بأمر من ربه، فهل قام عليه وآله الصلاة والسلام بهذا النمط من الإصلاح الترقيعي التي تمتص به الحكومات طاقات الغضب المتأججة في صدور شبابها وأمتها أم غير الواقع والنظام والعلاقات في المجتمع تغييراً انقلابياً جذرياً؟

إنك يا دكتور مصطفى جانببت الصواب في دعوتك للحكام والحكومات للإصلاح باستخدام القرآن كوسيلة لذلك، فوقعت في خطأ فادح كما وقع به غيرك وأنت ترى القرآن مجرد وسيلة تبقى في ذلك الحكومات والنظم بكل مآسيها ومفاسدها وطغيانها وما تلحقه بالأمة من الاضطهاد والذل والهوان.. تبقىها على صدر هذه الأمة بدلاً من أن تدعوها للتغيير إلى الإسلام وأحكامه، فتجد في الشباب خير طاقة تضحى معها ..

وأنتك إذ تدعوها لاستخدام جهاز التلفزيون لامتناص هذه النعمة بجعله جامعة ومنتدى مفتوحاً للحوار فإنك تقدم أعظم خدمة وإن لم يغب ذلك منذ أمد بعيد عن خطط الحكومة في مصر قبل غيرها، تقدم أعظم خدمة لاستمرار هذه النظم الفاسدة المفسدة في الوجود كابوساً على كاهل البلاد والعباد.. فهل هذا ما تريده يا دكتور مصطفى من دعوتك للتغيير على صفحات أخرى من الكتاب!؟

وأنتك عندما تنبه الحكومات لتجعل للشباب قضية يعملون لها فإنك تعلم من صلتك الوثيقة بالإسلام في مصدره الكتاب والسنة أن القضية المصيرية للأمة الإسلامية وهي ترفل في هذا الذل والضياع هي في عودتها للحياة الإسلامية الحقة في ظل خلافة راشدة حقة، وأن ذلك يقتضي من الحكومات الموجودة التغير والتغيير لتصبح كذلك وليس لتمتص طاقات الشباب التي تتطلع لذلك وتبخرها في أعمال جزئية لا تنفذ الأمة ولا الشباب أنفسهم من هذا الفساد والتشتت والهوان..

وأنتك يا دكتور مصطفى عندما ترى بأن قوة الشباب من قوة قياداته فإنني أضيف لكلامك هذا بأن قوة القيادات من قوة الدولة التي تحكمها وتديرها والتي لن تكون إلا من قوة العقائد والتشريعات التي تؤمن بها وتطبقها وتعيش أمتها عليها في حياتها وتستعد للتضحية في سبيل بقائها في حياتها، ولا تكون مستعدة مهما تعرضت للإغراء لبيعها لأي عدو لأنها مفروضة عليها بقوة الحديد والنار، ولأنها تتمنى ولو بجهل قاتل أن يخلصها منها ولو الشيطان..

وتأكد يا دكتور مصطفى أن المسلمين والأمة الإسلامية كلها قد وصلت إلى أبعد مستويات الضعف في الوقت الحاضر بالرغم من كل ما تملكه من القدرات المادية، وذلك لضعف قياداتها الناشئ عن تسليمها نفسها ومقدراتها لأعدائها وجعل قضيتها في بقائها في الحكم..

وتحت العنوان الرئيسي التاسع (الحرب المطلوبة) يبين الكاتب أنه يريد من الأمة الإسلامية اليوم، ومع تمزقها وضعفها، أن تحارب أعداءها بالمقاومة السلمية والمقاطعة الاقتصادية، كما فعل غاندي وليس بالعنف والقتال، بالحرب النفسية ومقابلة اللؤم باللؤم وليس بالقتال والسلاح الدموي، بالوعي الشعبي الذي يجهض الإرهاب ويقاطع الأعداء مقاطعة اقتصادية شاملة..

والكاتب يعنى على خطباء مذبحه الحرم الإبراهيمي خطبهم العاطفية وانفجاراتهم الحماسية ومناداتهم بالحرب.. لأن الأمة ممزقة وضعيفة ولا تملك وهي

مرهونة الإرادة إن لم تكن السيادة أيضاً لأعدائها أن تخوض أي حرب فعلية.. وأن العقل يفرض عليها أن تحارب بمقابلة اللوم باللوم، وأن ذلك (أفضل من القنبلة والدبابة).. وأنه متى جاء أوان تلك الحرب، وأذن الله تعالى بها، فإن الله تعالى سيقدم للأمة وسائلها وأسبابها..

ويستشهد الكاتب بقاعدة (علامة الإذن التيسير) أي متى أذن الله تعالى بالحرب فإنه سبحانه ييسر وسائلها وأسبابها..

فيا دكتور مصطفى إن حكومات تحكم هذه الأمة الإسلامية المستضعفة في كل مكان، وبهذا الشكل والسياسة، لن ينتظر منها أكثر مما هي عليه من التفريط بكل شيء إلا بكراسيها ونفوذها ومنافعها، وقد أشرت لذلك أكثر من مرة، وأنه لا بد من حكومة ودولة تعيد كل مقدرات هذه الأمة إليها، وتنطلق من جوهرها الإيماني وأصالتها الفكرية في بناء كيائها أولاً ثم في فرض هيبتها على العالم أجمع ثانياً وأخيراً، وأن (الوعي السياسي الشعبي) الذي تراه الأداة والوسيلة والسلاح سيكون بحق كذلك متى كان على إسلام هذه الأمة، وعلى كيفية تطبيقه بحق في دولة خلافة راشدة، وعلى إحسان هذا التطبيق وحمايته لبقائه في تصاعد وسلامة دائمين..

وأما أن يكون هذا الوعي الشعبي لمجرد سند لهذه الحكومات الضالة المضلة فلن يزيد الأمة إلا قهراً وذلًا وضياًعاً وهي تستسلم لليأس من كل تغيير..

وانظر إلى الأمة اليوم وهي تستجيب لأجهزة التحريك الرسمية ليجري تنفيس مخزون حقدنا على العدو، وليحقق بذلك هدفاً تريده الحكومة منها..

إن ذات الاستجابة، وبقوة تأثير قد يتخطى الحدود المرسومة لها، دليل على حيوية هذه الأمة وقدرتها على الفعل المؤثر بشكل سليم وطيب إذا أحسن التوجيه.. وأما أن يسخر لخدمة الأهداف الرسمية الآتية فهذا من دواعي المزيد من الخضوع والاستسلام للخوف من أجهزة القمع والاضطهاد التي لا تترك وسيلة لتبرير أعمالها إلا وتستخدمها ضد كل من يخالف سياستها..

فأي وعي شعبي تريده يا دكتور مصطفى مع هذه المأساة التي تعيشها هذه الأمة الإسلامية مع حكامها ودولها الضالعين في الكيد بل التآمر عليها لبقائهم هم وأزلامهم في الكراسي العالية إن لم يكن لتزيد وتتضاعف أرصدتهم في البنوك الأجنبية؟!!

فليكن الوعي بالإسلام وعليه ولإيجاد خلافته في الأرض وعندها ستجد تيسير الله تعالى لأسباب النصر ووسائله ما دام هو سبحانه الذي يقيد إعطاء النصر لمن ينصر دينه {ولينصرن الله من ينصرون}.

وتحت عنوان فرعي (الانسحاب) يبين الكاتب ما حصل من انسحاب إسرائيلي جزئي من غزة وأريحا أولاً، ونضيف إليه ما حصل من بعض المناطق الأخرى من

الضفة، ما هو إلا (خطوة محسوبة لامتناص الغضب بعد مذبحه الحرم الإبراهيمي وإطفاء الغليان بين أفراد الشعب الفلسطيني.. وللتعجيل بالمصالحة والتطبيع وفتح الأسواق والشروع في السوق الشرق أوسطية..) لأن رابين الذي صرخته رصاصة يهودي متدين جاهل يعلم أن الغزو الاقتصادي أهم من غزو الأرض بعد أن رأى كيف سقط العملاق السوفيتي بضربة واحدة اقتصادية على رأسه ولم يسقط بالحرب..

وتحت هذا المفهوم يدعو الكاتب بحرارة (حافظ الأسد) ألا يخضع لابتزاز إسرائيل الرخيص ويصر على استرجاع الجولان كاملاً مع إزالة المستوطنات المزروعة فيها، ويتعامل معهم بدهاء ومكر لا يقل عما لديهم..

ولا أظنك يا دكتور مصطفى تجهل أن (إسرائيل) تتعامل مع أهل المنطقة كلها، بدءاً من الفلسطينيين وانتهاء باللبنانيين، من منطلق ما تسميه الأمن، منطلق الخوف من التحرك الصحيح، التحرك الإسلامي الذي تدرك أنه قادم بعد أن علت هذا العلو الكبير الثاني، وأنه وحده الذي سيقتلعها من المنطقة ويظهر الدنيا منها، ومن خداعها ومكرها وإرهابها واستغلالها بل استغلالها لكل مغفل..

وتحت عنوان فرعي آخر (حكاية جيرانفسكي) يكشف لكل جاهل من المسلمين بأن هذا الرجل الروسي الحاقدي يهودي ومولود في كازاخستان في ١٩٤٦/٤/٢٥ واسمه في سجلاتها ايدلشتين، وأنه غير اسمه إلى فلاديمير جيرانفسكي عام ١٩٦٤..

هذا الرجل اليهودي الحاقدي يعلن بأنه يريد إعادة الإمبراطورية السوفيتية إلى حدودها الأولى، بحيث تعود تركية وإيران كجزء منها، وأنه يرى أن يعود المسلمون البدو الأجلاف إلى خيامهم في الصحراء لرعي الأغنام وتربية الماعز، وأنه سيعمل لتحقيق ذلك...

إنه الحقد اليهودي يا دكتور مصطفى الذي لا ينفصل عن الصهيوني في شيء.. وهل بعد ذلك يدعى للسلام مع هؤلاء!؟

وتحت عنوان فرعي آخر (الأرقام تتكلم) يستنطق المؤلف أرقام تقرير **Euromoney** الصادر في ١٩٩٤/٤/٦ والذي يضع اليابان في رأس القوة الاقتصادية في العالم وتأتي أمريكا بعدها..

وتحتل مصر المرتبة ٨٥ ومرشحة إلى المرتبة ٧٦ في نهاية ١٩٩٤، وسنغافورة تحتل المرتبة ١٤ ومرشحة إلى المرتبة الأولى في نهاية ١٩٩٤..

فأين انتهت مصر وسنغافورة في هذه الأيام!؟!

لقد دمرت أمريكا سنغافورة بل النور الآسيوية السبعة كما وضعت مصر وغيرها على القائمة الدائمة للتبعية الاقتصادية وبالتالي السياسية.. وكما صدقت يا دكتور مصطفى وأنت تقول (والديكتاتوريات في القارة الإفريقية هي أس البلاء وسبب

النكبة لأنها كانت الحامية الحقيقية للجريمة والفساد والنهب والتخلف.. وكانت اليد الباطشة بكل إرادة تنهض للإصلاح..).

فإن الحكم الديكتاتوري لن يحكم إلا أمة مقهورة مسلوية الإرادة، ولن يسمع إلا صوته وصوت كل مطبل ومزمر له، سواء كانت الديكتاتورية باسم هذا النظام أو ذاك ولو كانت باسم الإسلام.. وانظر إلى كيف يكون السلطان للأمة وأول خليفة راشدي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعتلي المنبر في أول يوم من حكمه فيخاطب الأمة قائلاً: أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم.. بعد أن يعلن ما لا يمكن أن يعلنه حاكم في الأرض: وليت عليكم ولست بخيركم..

ولندع أذكوبة الديمقراطية التي تروج لها أمريكا جانباً، بحجة أنها حكم الشعب، وبها تقرير المصير لكل شعب، ولنقف مع جوهر أمتنا، وعقيدة ديننا، وشريعة إسلامنا ولنقلها بملء الفم: ها هو حكم الإسلام القائم على السيادة للمشرع والسلطان للأمة.. يرفض تحكّم أهواء البشر في البشر {وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم..} ويحكم شرع الله تعالى في كل شيء، بحيث لا اجتهاد حيث يكون النص صريحاً وإلا فالاجتهاد وبذل الوسع لاستنباط الحكم من النص المحتمل لأكثر من فهم.. وتقف الأمة ممثلة بنواب مجلسها محاسبة على كل شيء.. على تطبيق الشريعة وحسن تطبيقها.. عندها لن يكون هناك ذل الديكتاتورية ولا تسلطها..

وتحت العنوان الفرعي الأخير في هذا الموضوع (التعليم) يعود المؤلف فيؤكد بأن (التعليم في بلادنا هو الكارثة التي تداعت بسببها كل الكوارث) لأنه يخلق جيلاً ضائعاً من الشباب الذي (يتصرف بلا عقل وبلا حس نقدي وبدون لغة عربية سليمة..) (والتعليم الديني مصيبته أكبر..) لأنه لا يتجاوز فقه العبادات إلا لترديد بعض السور القصيرة والأحاديث التي لا يعرف ضعفها من قوتها، وأما جوهر الإسلام وعالميته وشموله وإنسانيته فلا علم له بها.. كما لا علم له ببقية جوانب الفقه في العلاقات الداخلية والخارجية، ولا علم بمتى يطاع الخليفة ومتى لا يطاع.. لا علم بمفهوم الاقتصاد في الإسلام بل بكل ما يتصل بالحكم في الإسلام.. فالطالب والمعلم يجهلان ذلك كله..

والتعليم العلمي من كيمياء وفيزياء وأحياء وغيرها لا وجود للتجربة في المخبر لها كلها.. وطالب الطب يتخرج بحفظ بضعة ملخصات دون معرفة بالتشريح ولا بالفرق بين العصب والوريد والشريان..والنتيجة لا تعليم ولا متعلمين بل جهل وجاهلين..

وينهي الموضوع بقوله (التعليم في بلادنا في غرفة الإنعاش، ولا يعالج بعمليات تجميل وإنما بإصلاح جذري..

لقد أصبت يا دكتور مصطفى كل الإصابات في هذا التشخيص المختصر لمأساة التعليم ليس في مصر فقط، بل في العالم الإسلامي كله.. وأنه إذا لم يقدم الإسلام على حقيقته وشموله.. فإنه لا يقدم العلوم التجريبية كما يلزم..

ولا بد كما قلت يا دكتور مصطفى من التغيير الجذري كما هو الحال في جميع مناحي الحياة..

وتحت العنوان الرئيسي العاشر (موضع القدم) يريد المؤلف أن يتفاعل مع المتفانين لاتفاق غزة – أريحا بأنه لن يكون فقط موضع لقدم ومكتب بريد يرتاح فيه عرفات بعد طول المشوار وإنما هو بداية تشمل كل فلسطين، إذا وجد من يفندي بالمهج والأرواح..

فأقول له وأين هؤلاء ما دام عرفات وزلمه يوقعون الاتفاق تلو الاتفاق، وبشهود على رأسهم أمريكة الحامية (إسرائيل).. أما كان الأولى بالمتعب عرفات أن ينتحي ويرتاح حيث يشاء ليكمل المشوار الطويل من يرفض المساومة على الأرض المقدسة وليس على جزء منها ولو كان دولة أريحا؟! أما هذه المجزرة التي يرتكبها شارون فإنها مجرد فصل من فصول حرب الإرهاب الأمريكية ضد الإسلام!!

وتحت عنوان فرعي (اليمن وأفغانستان) رأى المؤلف أن مصير الاحتكام إلى العشائرية والقبلية هو هذا الاقتتال بين من يزعمون أنهم مسلمون في اليمن وفي أفغانستان، وأنه في الوقت الذي يفهمون إسلامهم ويحتكمون إلى أفكاره وأحكامه فلن يفعلوا من ذلك شيئاً..

وتحت عنوان فرعي (المرأة) يهاجم المؤلف إلزام المرأة بيتها لأنها كانت في صفوف الرجال في عهد الرسول عليه وآله السلام، وعهود الإسلام الأولى، سواء في ساحات الجهاد أو تلقي العلم أو مساجد العبادة أو حقول العمل..

ولكن ليسمح لي الدكتور مصطفى لتذكيره بأن الخطأ لا يعالج بخطأ أعظم، فكيف ترد على مخالفك في الرأي بالخروج عما تراه هو المرجع الوحيد لك وللمسلمين والحياة إلا وهما الكتاب والسنة، وذلك عندما تقول (والديمقراطية أدواتها السياسية)؟

إنك تعلم يا دكتور مصطفى أن الديمقراطية نظام حكم كامل يقوم على فكرة الحريات: حرية العقيدة، وحرية الرأي، وحرية التملك، والحرية الشخصية.. وهي كلها مرفوضة في الإسلام لأن حكم الإسلام الذي تعرفه (من بدل دينه فاقتلوه) لمن يعمل بحرية العقيدة ويرتد عن الإسلام، ولأن حكم الإسلام لمن يشتم الله أو رسوله هو القتل لمن يستخدم حرية الرأي، وها أنت تقول بذلك في حق الأفك الأثيم سلمان رشدي، ولأن حكم الإسلام لمن يملك أو يتصرف بماله وفقاً لحرية التملك ومخالفاً للإسلام من غش أو ربا أو قمار أو غيرها فالإسلام يعاقبه على ذلك، ولأن حكم الإسلام في حق من يستخدم الحرية الشخصية سواء في التمتع بشهواته بغير السبل المشروعة أو في ممارسة الشذوذ مثلاً حكمه معروف أنت نفسك يا دكتور مصطفى ترى ضرورة تطبيقه لحماية المسلمين أفراداً وجماعات منه، ومن آثاره..

والديمقراطية كما هو أساسها تلك الحريات المحرمة في الإسلام فإن شكلها السياسي يقوم بالتمثيل النيابي في مجالس الأمة أو الشعب أو غيرها من التسميات (البرلمانية) التي تمارس التشريع بدلاً من شرع الله في كتابه وسنة رسوله.. فهل هذا ما تريده من جعل الديمقراطية (أداتك السياسية)؟

لا أظن أنك تقصد ذلك وإنما تقصد مجرد الشكل الإيجابي النيابي المقيد بالمرجعين: الكتاب والسنة..

وأما وسيلتك كما تقول (والحكم المدني وسيلتنا) فأبي حكم مدني تقصد؟ هل هو الوزارات والإدارات التي تشمل جميع مجالات الحياة تحت نظام جمهوري أو ملكي؟

لا أظنك تقصد ذلك وإنما تريد الكتاب والسنة مرجعين في ذلك فيكون للمسلمين رئيس، ولكن بشرط ألا يكون رئيس جمهورية لأن الجمهورية نظام ديمقراطي يخالف الكتاب والسنة، وإنما رئيس كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما له الطاعة ما دام يلتزم الكتاب والسنة وله العون من كل من يقدر عليه ما دام ملتزماً للكتاب والسنة، وعليه المحاسبة بل عدم الطاعة إذا خرج وأصر على الخروج عن الكتاب والسنة.. ولن يكون ذلك إلا رئيس دولة إسلامية.. خليفة دولة خلافة راشدة..

كما لن يكون ملكاً لأن الملك والملكية نظام توارث للحكم، وهو مرفوض في الكتاب والسنة، وإلا لحدد الرسول عليه وآله السلام من يخلفه بشكل قاطع لا لبس فيه ولم يتركه للاجتهد والاختلاف الذي كاد يعصف بالحكم الإسلامي في سقيفة بني ساعدة عندما التقى المهاجرون والأنصار والرسول عليه وآله السلام لما يدفن جثمانه بعد ليحدوا من يخلفه عليهم.. فهذا أمر مصيري يجب فيه النص الصريح حتى لا يتمزق الإسلام في نظام حكمه وما زال في الخطوة الأولى إلى البناء..

ثم إن وزير التفويض ووزير التنفيذ كانا منذ البداية مما سار عليه الخلفاء الراشدون والخلفاء الآخرون من بعدهم عندما رأوا وسمعوا الرسول عليه وآله السلام يقول (وزيري من أهل الأرض أبو بكر وعمر) فكانا بمفهوم معاون وليس بمفهوم الوزير الحاكم في الديمقراطية..

وأما الإدارة وأجهزتها الكثيرة والعديدة فكما سبقت الإشارة إليها في مقام سابق فهي مما يؤخذ كوسيلة لتسيير الأعمال سواء من دواوين الفرس أو صك العملة كالرومان..

فيا دكتور مصطفى، إنني أراك لشدة ألمك على هذه الأمة الإسلامية، ولكثرة المكائد والمؤامرات التي تحاك ضدها في الليل والنهار.. يأخذك الانفعال الذي ترفضه أنت بعيداً عن الكتاب والسنة، وهما المرجع الوحيد الذي تراه لهذه الأمة.. ولك عذرك في الانفعال ولكن ليس ذلك لك في العلم والفهم..

وتحت عنوان فرعي آخر (تطور مهنة الطب) يشير المؤلف إلى ما نشرته شاشة الـ CNN لمدة نصف ساعة من جراحة جديدة في أمريكا لتكبير العضو الذكري للرجل بطول خمس سنتيمترات أخرى وقطر سنتيمترين آخرين.. وكيف اعتري الجنون الآلاف المؤلفة من الرجال لإجراء هذه الجراحة بالرغم من التحذير من مخاطرها واحتمال عدم نجاحها وما قد تؤدي إليه من طول شكلي مع عجز وظيفي.

فيهاجم المؤلف هذا التطور لمهنة الطب الذي بات ينصب على إرضاء مثل هذه النزوات الجنسية في إطالة العضو أو تصغير الثدي أو تكوير المؤخرة.. ولكل فائورته، والجيب وما فيه هو الهدف . والأبشع من ذلك تبديل وجه المجرم ومحو بصماته حتى لا تعرفه مباحث أو مخبرات..

والأبشع الأبشع من ذلك صرف الأدوية السامة للمرضى من مضادات حيوية وكورتيزون دون اعتبار لأكثر من الجيب..

وينتهي المؤلف إلى لزوم تقيد مهنة الطب بالقيم والفضائل، بتقوى الله وما يفرضه من رحمة في العلاج وعدل في المعاملة.. لا أن تتحول إلى بازار وسوبر ماركت على طريقة الحضارة الأمريكية.

إن صرختك هذه يا دكتور مصطفى من الصرخات العديدة التي لا يمكن أن تجد لها أذاناً تسمع وعقولاً تعي وأيد تلتزم إلا بعد بناء الفرد والمجتمع الإسلامي، وعندها من لم ينفعه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باستشارة تقوى الله تعالى ومخافته سينفعه الحساب والعقاب الجابرين الزاجرين..

وأما هذه الحكومات التي يتواطأ فيها المتنفذون مع صانعي الأدوية ومستورديها لتتخم جيوبهم وتتضاعف أرصدتهم .. فلن تقيم أي وزن لتلك القيم والفضائل التي تحد من أرصدتهم ومدخراتهم..

وتحت عنوان فرعي آخر (المتهمون دائماً) يشير المؤلف إلى ما قالوه بأن الطائرة الإيرانية التي هبطت في زغرب بشحنة من المعونات الغذائية لمسلمين البوسنة ما هي في نظر الوشنطن بوست إلا أسلحة وذخائر..

ويقول بأن المسلمين في كل مكان.. في سورية وليبية والعراق والسودان .. هم المتهمون دائماً بكل ما يخالف ما يسمونه بحقوق الإنسان، هذا السيف الذي باتت أمريكا تشهره في وجه كل من يخالف أو يتكأ في الانصياع لسياساتها.. وينتهي إلى القول بأنه يتمنى على جميع الدول الـ ٤٧ في العالم الإسلامي أن تهب في وحدة واحدة لنجدة إخوانهم المسلمين حيث يلزم.. وعندها كما يرى سيفرضون احترامهم على هذا العالم الجديد القائم على الظلم والتحيز والسياسة المزدوجة..

وتحت العنوان الحادي عشر (الذين اختلفوا) يتحدث المؤلف عن الاقتتال الذي نشب بين أكراد البرزاني وأكراد الطالباني، ثم عن الاقتتال في أفغانستان بين جماعة

حكمتيار وجماعة رباني، وعن الاقتتال بين جماعة عيديد وجماعة مهدي في الصومال، وبين الشمال والجنوب في السودان..

ويقول: وليكن وراء ذلك كله تأمر الأعداء ولكن لماذا نستجيب لمؤامراتهم ولا نجد لدينا حصانة ضدها؟

وهنا يربط حديثه هذا بسنة الله تعالى في خلقه وأنه لن ينتصر المسلم الجاهل بالأسباب على الكافر العالم بها، والله تعالى قد رتب عليها النتائج..

وأن على المسلم ألا ينتظر فضل الله تعالى ورحمته إلا بعد أن يعد لكل عدته المناسبة اللازمة، ولا يلومن إلا نفسه أمام حكم الله تعالى العادل في حقه بهزيمة أمام الكافر الذي أخذ للأمر عدته بينما هو تخاذل أو أسلم زمام قيادته للشيطان.

وتحت عنوان فرعي آخر (ملوك الأفيون) يربط المؤلف بين تجارة الأفيون وملكها الجنرال كون سا في المثلث الذهبي بورما ولاوس وتايلاند التي تدر عليه وعلى عصابته ملايين الدولارات .. وبين أفيون من نوع آخر، إنه العنف والجنس اللذان يدران على شبك تذاكر السينما الملايين من الدولارات أيضاً لا خفية عن الحكومات ولكن برعايتها وترخيصها.. ويتساءل: هل مدينة السينما التي بنيت في مصر بأكثر من ألف مليون جنيه هي من أجل زراعة هذا الأفيون في عقول الناس؟

فيا دكتور مصطفى، لاشك أنك عالم بحقيقة تجارة هذا الأفيون السينمائي، وأنها السياسة الحكومية الرسمية التي يراد لها أن تنجح في إبعاد الشباب عن التفكير الجاد في واقعهم وواقع أمتهم والعمل على التغيير.. وأنت عالم بذلك وبأفيون الرياضة أيضاً..

وتحت عنوان فرعي آخر (لهم الأوسكار ولنا الضرب بالأحذية) يصرخ المؤلف صرخة ألم وحسرة على ما هي عليه الأمة الإسلامية اليوم.. ففيلم (قائمة شندلر) ينال جوائز الأوسكار العديدة لكل ما فيه من بشاعات وعري واغتصاب تنسب للنازية ضد اليهود ليظلوا هم وحدهم المضطهدين والمظلومين..

وفيلم عن مذابح المسلمين في البوسنة يضرب مخرجه في قاعة العرض وهو جالس بجوار وزير الإعلام الفرنسي في مهرجان (كان) ويشتم ويتهم بالتزييف والكذب والخيانة وتلفيق التاريخ..

وهنا يتساءل المؤلف مستنكراً: خيانة من.. أهي خيانة المعتدين من الصرب القتلة أم خيانة التآمر الصليبي على شعب أعزل؟

فاليهود ومن يؤيدهم من الصليبيين يعتبرون كل استثارة للعطف على غيرهم وبالذات المسلمين هو خيانة وتزييف..

وينتهي الدكتور مصطفى للتساؤل: أين صوتنا.. أين رواياتنا.. وأين أفلامنا وأين مسرحنا؟

لاشك يا دكتور مصطفى أنك تعلم حق العلم أين ذلك كله والحكومات والحكام هم هؤلاء الذين يحكمون البلاد والعباد..

وتحت عنوان فرعي آخر (الغزو الثاني) يؤكد المؤلف أن الغزو الثاني من قبل الإسلام للأرض يجري على قدم وساق بدون سيف ولا حرب.. فهذا هو بطل الملاكمة تاييسون يعتنق الإسلام، وها هو أشهر وأحب نجوم السينما أميتاب باتشان يعتنق الإسلام.. وها هم الألوفا في أوروبا وأمريكا يدخلون الإسلام في كل عام..

إنه الجذب النوراني، كما يقول المؤلف، الذاتي للإسلام بالرغم من تخلف أهله، وضراوة خصومه، إنه {والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون}..

فقر عيناً يا دكتور مصطفى لهذا الغزو الثاني للإسلام دون حرب ولا قتال..

ولكن لماذا نسيت أن هذه الاعترافات للإسلام ما هي إلا بشائر لا بد لتعميمها من الأخذ بسنة الله تعالى في خلقه بالأخذ بالأسباب لتحقيق النتائج.. وأن الغزو الحقيقي الإسلامي للأرض دون حرب ولا قتال لن يكون إلا مع رؤية أهل الأرض بهذه التقنية الهائلة في الإعلام والاتصال لتطبيق الإسلام في دولة خلافة راشدة يبرز فيها عدل الإسلام وعظمة تشريعاته.. وأن هذا ما حصل في سابق التاريخ، وما سيحصل بعون الله وتوفيقه في مستقبله..

وتحت عنوان فرعي أخير (الكوميديا الإعلامية) ينقل المؤلف عن الناقد الفني الغيور إيهاب الأزهرى شيئاً مما أورده في كتابه «الكوميديا الإعلامية» بأن كل ما يجري على الشاشة الصغيرة والكبيرة والمسرح والأغنية والكورة والمسلسل هو لقطات (تتسلل في لطف لتغسل مخ الشباب، وتمحو منه كل ما هو أصيل وفاضل، وتضع بدله كل ما هو تافه ومنحل) .. إنه ما يسميه (الإفساد بالتنقيط) كأنه ري بالتنقيط .. إنه إفساد للعقول ببرمجتها على التفاهة والكسل والتبذل والانحلال وعبادة الإله الجديد.. السلع الاستهلاكية ومناظر الكاسيات العاريات، إنه حرب الأفيون الجديدة.. إنه صناعة الجيل الجديد المنشغل بأعضائه التناسلية.. المنشغل بالحب والجنس والكرة..

فمن المسنول عن ذلك يا دكتور مصطفى؟ لا شك أنك على علم تام بذلك ولكنك تتجنب وضع النقاط على الحروف.. إنها السياسات الحكومية الإعلامية والترفيهية كما يسمونها والفنية والبدنية التي لا تريد من هذا الجيل أن يجد فرصة لتشغيل عقله في الأمور الهامة والجادة، وللعمل على إيجاد البديل عن كل هذا الطوفان من الفساد والانحلال والضياع..

إنهم يعلمون حق العلم أن مثل هذا التفكير الجاد سيصل بالشباب إلى الحل ، الحل الذي لن يكون إلا في إسلامهم، في شريعتهم، في قرآنهم وسنة نبيهم.. وهذه هي الطامة الكبرى في نظر هذه الحكومات الكرتونية وحكامها المصنوعين .. فاللهم لطفك وعونك ونصرك..

وتحت العنوان الرئيسي الثاني عشر (الأحضان القاتلة) يؤكد المؤلف أن حادث تفجير كنيسة سيدة النجاة في لبنان الذي اتهم فيه سمير جعجع وخططت له الموساد ما هو إلا جزء من لعبتهم الفذرة في التعمية على مذبحه الحرم الإبراهيمي و (جر لبنان إلى مستنقع الدم من جديد)..

إنها (إسرائيل التي تصافح الفلسطيني بيد وتطعنه بالأخرى..) إنهم يتظاهرون بالسلام ويغتصبون الأرض في نفس الوقت.. إنها حاميتهم أمريكية التي تقيم الدنيا على صناعة كورية الشمالية النووية وتمد يد العون (لإسرائيل) لتكون أقوى من الدول العربية مجتمعة.. إنه «عقد الإذعان» من الضعفاء للأقوياء..

ويتساءل المؤلف بعدها مستكراً: فلماذا نخدع أنفسنا ولا نسمي الأشياء بأسمائها؟ فلنقلع عن الارتداء في الأحضان القاتلة وتبادل القبلات المميته وتناول الشاي مع الزرنوخ.. ولنعلم أن هذه المعونات والقروض التي تجعلنا نغمض أعيننا كما يقول عما يجري وراء ظهورنا في الخفاء من تخريب اقتصادي وصناعي وزراعي وتعليمي وثقافي في بلادنا.. ما هي إلا أيد تأخذ بالشمال أضعاف ما أعطت باليمين.. وإلا فبلادنا من المحيط إلى المحيط قادرة على الاكتفاء الذاتي بل التصدير لكل ما تحتاجه منهم لولا هذا التخريب المنظم الذي يمارسونه علينا لا رغباً عنا ولكن بإرادتنا واختيارنا..

فيا دكتور مصطفى.. إنه رضى من، واختيار من، وإرادة من؟ هل للأمة في أي بقعة من أرضها الإرادة والاختيار والرضى بذلك؟

وتحت عنوان فرعي آخر (اللعب) يطلق الكاتب صرخة مدوية أخرى.. إنها لقد حولتم حياتنا كلها إلى لعب في لعب في لعب.. فبمناسبة أولمبياد أمريكا أصبحنا نرى كيف أصبح اللعب تجارة وملايين بل مليارات.. كل شيء مسخر لمباريات كرة القدم، واللعب هو السلطان، والمحكمون يصدرون أحكامهم فوراً، والقضية في المحاكم تنام سنوات ولكن في الملعب يبت فيها في لحظات.. فاللعب مقدم على كل شيء.. دخول الكرة إلى شبكة الخصم أهم وأمجد من دخول جيش عربي منتصر إلى القدس.. مات بالسكته القلبية من مات لدخول الكرة شبكة الزمالك أو الأهلي ولم نسمع عن أحد مات لهزيمة الجيش المصري عام ١٩٦٧م!!

(فقد اللعب صفة البراءة وأصبح صناعة مفترسة، وبين هلوسة الكورة وهلوسة الحب وهلوسة الجنس لم يبق من طاقة الشباب شيء نافع). ويواصل الكاتب بث مرارة الشكوى فيقول: (وإذا كان هناك من يريد لنا أن ننسى.. فقد نسينا بالفعل..

نسينا أنفسنا ونسينا لماذا نحن هنا.. وماذا يراد بنا وماذا يراد منا.. وشربنا الكأس
لآخرها وأسكرنا البريق وأرقصنا التصفيق.. ودمتم) ويقول:

لقد أصبح الغرب يحلم ليس باللعب بالكرة في الملعب بل بالكرة الأرضية في
المعمل.. معمل التكنولوجيا والعلم الذي أصبح لا يؤمن إلا به وسيلة للسيطرة على هذا
العالم.. ويقول:

..ولن تشفع الكؤوس لرؤساء الحكومات ولا لوزراء الشباب في وزارات
اللعب.. فاللعب هو اللعب.. واللعب لا يصنع مجداً لأحد..

لقد باعوا ثلاثة ملايين وستمائة ألف تذكرة وكسبوا أربعين مليار دولار باللعبة
نهم لم يكونوا يلعبون ولكننا نحن الذين كنا نلعب وخسرنا كل شيء وما زلنا نلعب..

ففي التعليم الذي نزعم أنه مجاني يدفع الطلبة الألوف للدروس الخصوصية،
وفي الكيمياء يتعلم الطلبة بلا معامل، وفي الاقتصاد نعيش على وهم أن الاقتصاد
المصري أصبح أقوى من الاقتصاد الأمريكي.. ثم نفاجاً بضعف الجنيه فنفكر بتخفيض
قيمته.

وصندوق النقد يضغط، فنطلب مهلة، (والصندوق يطاردنا ليحبس أنفاسنا
داخل الصندوق).. والوزارات تعلن على الجرائد، وتهنى نفسها، وتمجد وزرائها
لإرضاء المحاسيب الكبار.. فمن يدفع الملايين لهذه الإعلانات؟

فيا دكتور مصطفى.. ها أنت ترى كيف تحول كل شيء إلى لعب .. فالبيت
يلعب، والمصنع يلعب، والديوان يلعب، وقاعة المحاضرات تلعب.. (والكل متهم والكل
مسئول..)

صدقت يا دكتور مصطفى.. فمتى يسمع الكل هؤلاء مثل هذه الصرخة المدوية
فيصيحون من سباتهم قبل فوات الأوان!!؟

وتحت العنوان الرئيسي الثالث عشر (العقول المحتلة) يطلق المؤلف صيحة
أخرى لهؤلاء المثقفين المضبوعين بالثقافة الغربية بشقيها: الإنجلو سكسونية
والفرانكفونية، والذين وصلت بهم الجرأة أن يستدلوا على وجود الألكترون لصغره
بآثاره ويرفضون أن يستدلوا على وجود الله تعالى لعظمه بآثاره..

ويؤكد أن ذلك هو (التماكر والعناد والكبر) ولكن لماذا؟

لأنهم يرفضون الاعتراف بوجود الله تعالى لما يترتب على ذلك من تكاليف،
فالغرب العلماني مشغول (بهذه الدنيا.. يشيد بها ليل نهار..) إنه يريد (الاستنثار بهذه
الدنيا وحيازتها دون الآخرين.. ودول الغرب تتسابق إلى تلك الحيازة وتتقاتل عليها)..

ويقول: فقد (سبقنا الغربيون، واستعمرونا، واستغلونا، وما زالوا)..

ويقول: (والمؤمنون منا يرون الدنيا مزرعة الآخرة، وأنها فرصة لا يجب أن نفوتها بل يجب أن نملأها بصالح الأعمال..) ويقول:

(فلا حياة بحق إلا حياة الآخرة.. ولا قادر بحق إلا واحد هو الله الذي خلق كل الكائنات. وخلق الكون وخلق الدنيا، وخلق الموت والحياة.. وإننا بالله نحيا وبه نموت وبه ننجو وبه نثاب.. فلا أمل ولا فلاح إلا بأن نتقرب إليه ونبتغي وجهه في كل فعل).

ويواصل المؤلف التأكيد بأن المثقفين الذين انبهروا بالغرب وانهزموا أمامه وفقدوا أنفسهم وهويتهم، وخلعوا ما فيهم وأنكروا تاريخهم، هم الذين لا يرون إلا علمانية الغرب طريقاً للنجاح والفلاح.. فقد عميت عقولهم عن إدراك ما في علمانيتهم من (انحلال وفوضى جنسية وجريمة وأمراض نفسية وجنون وانتحار وخواء روحي وتفكك أسري..) ذلك لأنها (قد شبت البطون وماتت الأرواح عطشاً)..

بمعنى أنه الركض وراء الشهوات والمتع الجسدية والمادية ودون أدنى ملاحظة للحلال والحرام ولا الصلة بالله تعالى، مما يجعل علمانيتهم خلوة من أي روح وروحانية.. ويجعلها لا تتفق مع فطرة الإنسان وتناقض العقل.. الفطرة التي تقر بحاجة الإنسان للمخالق المدبر، والعقل الذي يدرك هذه الحاجة ويلتزم بطريق الإيمان المحققة لها بشكل سليم..

وهنا يقارن المؤلف بين بضاعة العلمانية (الردينة) كما يقول ولكنها ممتازة العرض على المستهلك، وبين بضاعة المسلمين (الجيدة) ولكنها سينة العرض، وذلك بحكم ما يملكه أصحاب العلمانية من القوة والسيطرة على تكنولوجيا الإعلام والاتصال، بينما لا يملك المسلمون إلا الضعف والهوان واللهاث وراء أصحاب القوة... وهنا ينبه المؤلف العلمانيين بما يقوله تعالى عنهم: {يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون} مؤكداً أن علمهم محدود بظاهر الدنيا وما فيها ولا يرى أبعد من ذلك، فهو علم غافل عن أهم قضية.. (قضية المصير).

ويقول المؤلف بأن إسلامنا يحض على الأخذ بالعلوم الدنيوية في مجالاتها ولكنه لا يراها كافية إلا لأغراضها الدنيوية، ولهذا فإنه يضيف علوماً أخرى ضرورية لنجاة الفرد والجماعة... إنها علوم عرفانية، كما يسميها، وهي العلوم النقلية كما يسميها الفقهاء والمفكرون الإسلاميون الآخرون.

ويقول: (وكلمة الله.. ممسوحة من العقلية الغربية تماماً.. وهناك فراغ ديني وخواء روحي في أوروبا وأمريكا).

ويقول: (والإسلام مدعو لملء هذا الفراغ بدعوة راقية متحضرة..)

ويقول: وأما (أصحاب العقول المغسولة (بالأومو) العلماني.. لم يعد فيهم خير لأنفسهم ولا لغيرهم.. إنهم ضمن فئة العقول المحتلة..

ويقول: (والتحليل الؤوم أصبح الصيحة المطلوبة من البداية.. من مبدأ كلمة لا إله إلا الله.. حيث لا حاكمة إلا الله.. ولا خضوع ولا تسليم لحاكم سواه).

ويقول: (والإسلام وإن كان يتضمن التسليم الكامل لله.. إلا أنه وبنفس القدر يتضمن التحليل الكامل لكل ما عداه.. التحرر من الجبارين والطواغيت ومن غواية المال وغواية السلطان وغواية الشيطان).

ويقول: (ومن أجل هذا تحرص جميع الأطراف الأجنبية على إطفاء شعلته والقضاء عليه لأن المال والجبروت هما الطريق إلى سطوة تلك الأطراف)

ويقول: (ولن تستطيع.. لأن الخصم هذه المرة ليس المسلمين وحدهم.. بل الله ذاته، ولا قبل لأحد بالله ولا بجنده.. وقديماً قال ربنا: {وإن جندنا لهم الغالبون}.. وهو قول ممتد من الأزل إلى أبد الأبد).

ولا يملك معقب أي تعقيب على ذلك يا دكتور مصطفى، كيف لا وأنت في النهاية تؤكد أنه لا حاكمة إلا الله، أي لا يجوز الاحتكام لإنقاذ هذه الأمة إلا لشريعة الله بمصدرها الكتاب والسنة، وأن ذلك يقتضي التسليم الكامل لكل أوامر الله تعالى ونواهيه وفي نفس الوقت التحرر الكامل من الجبارين والطواغيت الذين يعيشون فساداً بهذه الأمة وبلادها شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً..

وتحت عنوان فرعي (تجارة الموت) يتحدث المؤلف عن هذا الصراع الدامي الذي نشب في روانده الإفريقية بين فرنسة التي ورثت تجارة الموت البلجيكية بعد رحيل بلجيكة عن روانده وحلت محلها في بيع الأسلحة لها وفي مساندة حكامها حتى مقتل آخر طاغية منهم في حادث الطائرة المعروف.. مما فجر بركان الدماء بين الهوتو والتوتسي الذي قيل بأنه أتى على مليون قتيل.. والذي أبرز حرص فرنسة على مصالحها لدرجة أنها أنزلت قواتها (تحت شعار المساعدات الإنسانية) بالرغم من تهديد روانده بقتل أي رجل فرنسي يضع قدمه في أرض المعارك، وما ذلك إلا لأن فرنسة كانت تدعم ذلك الحاكم الطاغية المعزول المقتول.. وأن تدخلها المكروه الآن من باب الحرب المستترة بين المصالح الفرنسية والإنجليزية.. وأن الأفارقة ما هم إلا حجارة شطرنج يلعب بها الطرفان.

وهنا يلاحظ أن ورقة كاملة قد نزعت من الكتاب، ويظهر لما تكشف معلوماتها من فضائح في حق تلك الدول الإفريقية الكرتونية، مما جعل سلطة الرقابة تنزع هذه الورقة من باب المجاملة الدبلوماسية..

ويظهر من الصفحة التالية وحديث الغدر والخيانة اليهوديين أن هناك عنواناً فرعياً قد ورد عليها حول ذلك..

فها هو المؤلف ينبه دعاة القومية إلى ما انتهوا إليه من الكفر بالعروبة والارتداء في حضن أمريكا، وإلى أن الصحوة الإسلامية وإن بدأت شكلية، كما يقول،

وتسارعت إلى التطرف والتشنج والانقسامات العديدة، فإنها ستبقى هي صاحبة الكلمة في النهاية، وأنه يجب أن يكف متهمو إيران عن الاستماع لوشايات الغرب ضدها، كما يقول، وأن تنامي القوة العسكرية الإيرانية هي خير مظلة من الخوف يمكن أن تقابل ترويع الغرب للمسلمين، لأنه لاشيء يرعب الغرب الآن إلا الإسلام، وأي إخراج له من الميدان يعني ضياع المسلمين..

وأن الشيء المؤكد (هو أن تمثيلية السلام هي استراتيجية مرحلة.. وليست الغاية النهائية التي انعقدت عليها همة هؤلاء الناس). يقول: ونظرة إلى الخريطة الإسرائيلية التي رسمها تيودور هرتزل عام ١٩٠٤ م تكشف عن مطامعهم وهي توضح أن إسرائيلهم الكبرى تمتد من النيل إلى الفرات..

فأي سلام هذا الذي يوقعون على اتفاقياته مع دول موجودة على أرض إسرائيلهم الكبرى التي يغذون أجيالهم بالسعي لتحقيقها!؟

وللتعقيب:

لقد أصبت يا دكتور مصطفى بأن أي اتفاقية سلام مع إسرائيل الآن لا تساوي الحبر الذي كتبت به، وأنها إن ألزمت حكام الدول الذين وقعوها فلن تلزم أحداً من بعدهم.. ولكن يا دكتور مصطفى، هناك فرق كبير بين أن تستثير الدنيا بغربها وشرقتها عليك عندما توقع مثل هذه الاتفاقيات وتقوم بنقضها وبين أن تماطل وتماطل تحت ضغط الرأي العام الدولي، كما يسمونه، حتى تحين الفرصة للقول الفصل والعمل الحسم..

وأما أن يرتمي هؤلاء الحكام، كما أشرت يا دكتور مصطفى، في أكثر من موضع، بحجة ضعفهم وقوة خصمهم، فلن يأتي إلا بمزيد من التضحيات وإن لم يقف ضدها أصلاً..

وتحت العنوان الرئيسي الرابع عشر (أنا لا أكذب ولا أتجمل) يقدم المؤلف قصة الغرب مع أعداء الإسلام في كتاباتهم ابتداء من الأفاك سلمان رشدي، وكيف تقدم له بريطانيا كل الحماية وهو الذي سب الإسلام ونبي الإسلام، ومروراً بالبنغالالية نسرين تسليمه التي رفضت القرآن والشريعة ودعت إلى وجوب إعادة كتابة القرآن من جديد، وكيف يقدم لها الغرب كل الحماية والرعاية والدعاية، و(عبد البهاء نبي البهائية) الذي قال بإلغاء الجهاد الإسلامي وأبطل الشريعة الإسلامية ورأى أن التوراة هي المنقذ للبشرية، وكيف احتضنه الإنجليز أولاً ثم (إسرائيل) في مركزه بمدينة عكا أخيراً، وجماعة شهود يهوه التي تصول وتجول في المنطقة كأنهم فرقة من الفرق النصرانية وهم عصابة من عصابات الصهيونية تحت اسم الكتاب المقدس الذي يروونه وما هو بالإنجيل، وزعيم القاديانية الذي بث حقه على الإسلام فدعا لإبطال الجهاد والشريعة معاً فنال بركات الحاكم الإنجليزي للهند في ذلك الوقت، وما زالت القاديانية تفتح لها أبواب الغرب على مصراعها لتشكك بالإسلام الحق وتشريعه الحق..

وبعد أن يقدم المؤلف هذه النماذج الخارجة على الإسلام والحاقدة عليه يقول مدافعاً عن نفسه، وكأنه يشعر أنه بات مستهدفاً لهجوم الصهيونية بتهمة اللاسامية، يقول (وأنا لست ضد اليهودية كدين، ولا ضد اليهود، فاليهودية شأنها شأن المسيحية والإسلام دين سماوي عظيم، وموسى في القرآن من الأنبياء الكبار من أولي العزم.. واليهود هم أشقاؤنا وأخوتنا في العائلة الإبراهيمية.. ولكني ضد الصهيونية لأنها مبدأ عدواني توسعي يقوم على مزاعم كاذبة وصك ملكية توراتي مزيف يهدف إلى إقامة (إسرائيل) كبرى على أشلاء دول عربية لها وجود وحرمة ومصداقية في هيئة الأمم المتحدة).

كم كنت أتمنى يا دكتور مصطفى عليك لو تجنبت كتابة مثل هذه الكلمات التي تخطت حدود التجمل الذي رفضته وأنكرت نسبته إلى قلمك، وأنت تعلم أنه لا يوجد أدنى فصل بين اليهودي والصهيوني في (إسرائيل)، كما تعلم أنهم يرفضون هناك هذا الفصل وأن من يسمون منهم باليساريين ليسوا إلا الوجه الآخر لنفس العملة الصهيونية/ اليهودية التي يشكل اليمينيون الوجه الأول منها سواء سموا بالليهود أو غيرهم.. كما تعلم أن الإسلام يقرر الأخوة الإيمانية {إنما المؤمنون إخوة} وأن ابن نوح قد انتهى لبيئته الطوفان عندما رفض هذه الأخوة، كما سبق لك أن ذكرت في كتابك هذا، فكيف ترى في اليهود، ولا ندري أي يهود تقصد ما دام اليهود كل اليهود هم صهاينة حاقدون على كل إسلام ومسلم؟ وأين هذه العائلة الإبراهيمية التي داس عليها اليهود ومزقوا أجساد أنبيائها، وحرفوا تعاليمها؟

وما هذا القول يا دكتور مصطفى بأن (إسرائيل) الكبرى تقوم على أشلاء دول عربية وجودها محترم ومعتمد لدى الأمم المتحدة؟

إننا إذ نرى كيف تحترم الأمم المتحدة الوجود الصناعي للكيانات المسخ والهزيلة، تبعاً لمصالح الدول الكبرى والمهيمنة على تلك الهيئة، فإننا لن نسمح لجعل هذه الهيئة المسخرة للكبار ولا نظامها أن يتحكم في قراراتنا، قراراتنا التي نريدها أن تنتهي إلى إزالة كل هذه الكيانات التي أسميتها يا دكتور مصطفى بالدول المحترمة وإذابتها في كيان وحدة، في دولة واحدة تحتكم كما قلت يا دكتور مصطفى للكتاب والسنة، إذ لا حاكمية إلا لله تعالى.. والصهاينة لا يعنوننا بشيء، سواء آمنوا بالله أو لم يؤمنوا، فهم محتلون لأرض فلسطين الإسلامية المقدسة، وسيبقون مجرد محتلين مهما طال الزمن، ويجب أن نحررها منهم ومن كيانهم وحكمهم ونعيدها كما نعيد بقية البلدان الإسلامية إلى كيان دولة الخلافة الراشدة الواحدة..

وتأكد يا دكتور مصطفى أنك لست بحاجة لمثل هذا التآدب في الخطاب الرباني عندما تتحدث عنه ابتغاء مرضاة الله تعالى، سواء قامت منظمتهم المعادية للتشهير بالهجوم عليك بحجة أنك ضد السامية أو لم تقم ما داموا {ولن ترضى عنك اليهود ولا النصرى حتى تتبع ملتهم}، وما دمت لا تتبغي من هذه الحياة إلا جسراً لتلك الآخرة، ولن تتبع تلك الآخرة بهذه الدنيا مهما دفع لك من أثمان مغرية..

فليرض من يرضى، وليسخط من يسخط ما دام رضى الله تعالى هو مقصدك!

وتحت عنوان فرعي (ورقة الإرهاب) يتحدث المؤلف عن الممارسات الأمريكية في تهديد الأفراد والشعوب والدول بتهمة الإرهاب، ليركع كل من يحاول الخروج عن إرادتها، وهي إرادة تضع (إسرائيل) الربيبة المدللة في المقام الأول طالما بقيت الحامي الأول والرئيسي لمصالحها في هذا العالم النائم والهزيل والذليل أمام الأطماع الصهيونية والمصالح الأمريكية.. والآن جاء دور الحرب ضد الإسلام باسم الإرهاب!!

ثم يذكر ما يراه من تفسير علو اليهود في الأرض الذي أشارت إليه الآية الرابعة من سورة الإسراء {وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً}.. وتفسير الآية السادسة من نفس السورة {ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً} وأن هذا العلو الكبير هو هذا الإمداد بالأموال والمهاجرين من أمريكا بشكل خاص ومن الغرب بشكل عام تحت أي مبرر من تعويضات ما يسمونه المحرقة اليهودية إبان النازية أو الأموال التي نهبت في ذلك الوقت من اليهود، كما نسمع دائماً، والذي يصاحبه هذا النفير الإعلامي المدوي في كل أصقاع المعمورة بالتضليل والخداع..

وأن معنى هذا أن المصير المحتوم قد بات ينتظرهم.. كما يفهم من قول الدكتور مصطفى.. وبالطبع فإن ذلك لن يكون بهذه الأيدي العربية والإسلامية الهزيلة وإنما بالبديل، بالخلافة الراشدة المنتظرة..

وتحت عنوان فرعي آخر (حينما يستوي الجاني والضحية) يشير المؤلف إلى هذه التسوية بين مسلمي البوسنة الذين يضربون بأحدث الأسلحة الصربية، كما كان في ذلك الوقت، تحت سمع وبصر هيئة الأمم المتحدة والمتحكمين بها وعلى رأسهم أمريكا ومن لف لفها من الدول الأوروبية، وبين الصرب الذين يتولون ذاك الضرب..

ولما صمد (أي مسلمو البوسنة) ولبثوا يحاربون بالبنادق القديمة، وحققوا انتصارات في وسط البوسنة وشمالها... رفعت الأمم المتحدة تهديدها لتضربهم وتدمر أسلحتهم إذا استمروا في الدفاع عن أنفسهم أمام رصاص الصرب.. بمعنى أن عليهم أن يكتفوا بتلقي الضرب حتى يفنوا عن آخرهم..

إنها الأمم المتحدة بتحيزها الواضح.. فلا هي ولا أحد فيها (يريد للإسلام أن ترتفع له راية في أوروبا، والمسلسل منذ سنين، أي منذ عام ١٩٩٢، يجري ضد المسلمين).

فمن هو هذا (الأحد) في الأمم المتحدة الذي لا يريد راية الإسلام أ في أوروبا؟

كأنك تشير يا دكتور مصطفى حتى لـ ٤٧ دولة إسلامية، كما يسمونها؟

لاشك أنك مصيب تماماً إذ الكل يغط في نومه تحت الهيمنة الأمريكية وسيطرتها..

وتحت العنوان الرئيسي الخامس عشر والأخير (لحظات السكر) يتحدث الدكتور مصطفى عما يراه الصوفية من محاولات الفناء كما يسمونه في الشوق إلى الله تعالى أو كما يقولون في الذات الإلهية..

ولولا قوله: (وهي ليست سعادة السلبية والعزلة والانقطاع بل سعادة إيجابية فاعلة، فالكاملون منهم مثل سيدي أبو الحسن الشاذلي وعبد القادر الجزائري ونجم الدين كبرى حاربوا الصليبيين والتتار وقاتلوا الاستعمار في الشمال الإفريقي وفي السودان وتصدوا للباطل حيث كان ولم يركنوا للعزلة ولا للتواكل).

ولولا هذه العبارة لسقط الدكتور مصطفى في هذه العزلة الرهيبة التي باتت الحركة الصوفية مغرقة فيها، لا لأن هذه الحركة في جميع عهودها كانت هكذا ولكن لأنهم باتوا يأخذون بالنقية كما يأخذ الكثير من الإسلاميين، وكان التحرير من كل هذه المذلة والهوان والتبعية والضياع والتخلف.. التي تعيش فيها هذه الأمة تم أو يمكن أن يتم بهذه الطريقة.. وكان التصدي لكل هذه الأمراض لم يفعل شيئاً منه الرسول عليه وآله الصلاة والسلام ولم يطلبه ويأمر به رب العالمين في كتابه العزيز..

فيا دكتور مصطفى، إن (الإيجابية الفاعلة) في الاتصال الروحي بالله تعالى لا يمكن أن تتم بالقول بأنك لست رجل سياسة، ولا رجل دولة، وإنما أنت رجل قلم.. لأن السياسة كما تعلم هي صميم كل كلمة وردت في هذا الكتاب وأنت تكشف هذه المخازي والمآسي التي تعيشها الأمة الإسلامية أفراداً وجماعات، وحكاماً ومحكومين..

أليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدءاً بالعمل ومروراً بالقول وانتهاء بالقلب، هو ما ورد مع كل كلمة في هذا الكتاب سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة؟

أليس ما يشير إليه الرسول عليه وآله الصلاة والسلام من وجوب الرعاية لكل من يتولى مسؤولية، بدءاً من الحاكم ومروراً برب الأسرة وربتها وانتهاء بالخادم، لمن هو تحت مسؤوليته هو السياسة؟

وأما القول بأن السياسة ميكافيلية من قمة رأسها إلى أخمص قدمها فهذا ما لا أظنك تؤمن به يا دكتور مصطفى وأنت ترى الحاكمية لله.. لكتابه وسنة رسوله، وإلا كان مصدراً لهذه الميكافيلية؟

صحيح أن الحرب خدعة ولكن السياسة ليست هي الحرب ولا أس الحرب ولا نتيجة الحرب وإنما كما يقولون الحرب وسيلة لخدمة السياسة، وفي الإسلام الجهاد هو الطريق المادي لنشر الإسلام في الخارج، خارج الديار الإسلامية.. ولكن الحرب لا بد من الإعداد لها {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة..} ولا بد أن تكون هذه القوة هي الرمي بجميع أشكاله وأنواعه، وتبعاً لنوعية العصر، وأن هذا لا بد أن يسبقه إذن هذا الرقي المادي المصحوب بالرقي العلمي القائم على الرقي الفكري والرعاية السياسية الحقة، والاقتصادية السليمة..

أليس كذلك يا دكتور مصطفى؟

وإلا ما معنى أن أكابر الصوفية ورجالها كانوا رجال سياسة وحرب وجهاد.. رجال إيجابية فعالة؟!

وتحت عنوان فرعي (والتجلي الآخر) يؤكد المؤلف مفهوماً إسلامياً رائعاً ألا وهو أن النصر بيد الله تعالى، وأنه قد يعطيه تعالى لمن ليس لديهم قوة ولا عدة كما حصل مع المسلمين في بدر {ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أنهلتم}، وأن كل ما يلزم وجوده في من يطلبه أن يكون مستحقاً له، ولن يستحقه أي قوم بمجرد طلبه ولكن {إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم} {وكان حقاً علينا نصر المؤمنين}..

فليوجد من ينصروا الله تعالى بالتقيد الكامل بكتابه وسنة رسوله وليأخذوا نصره تعالى..

وليوجد المؤمنون حقاً، العاملون بإيمانهم حقاً، وليأخذوا النصر.. وأما هذا الابتلاء الذي يقتضيه الإيمان الحق فلا شك أنه نوع من الغرلة الربانية، إن جازت التسمية، لمن ينتسبون لأهل الإيمان لا لكي يعلمهم الله تعالى، وهو العالم بهم قبل أن يخضعهم لذلك، ولكن ليكشفوا أمام أنفسهم وأمثالهم من البشر، فلا يعود أحد يزعم لنفسه مكانة ليست له..

وها أنت يا دكتور مصطفى ترى أن (واليوم استدار الزمان دورة كاملة، ونوشك أن نقبل على معركة بدر أخرى.. ويتكاثر علينا الأعداء من خارجنا ومن أنفسنا، ونراجع حتى يصبح ظهرنا إلى الحائط.. ويجثم علينا مستقبل مظلم.. ونعود أحوج ما نكون إلى الإيمان الصحيح والمعرفة الصحيحة بالله.. فلا سلاح حقيقي إلا هو ولا حصن إلا حصنه.. وتتجمع النذر والبشارات في الأفق.. فهل نحن في مستوى الامتحان؟

وهل نحن مؤمنون حقاً؟!

فهذه النظرية الثاقبة لواقع ما عليه الأمة الإسلامية اليوم، وحاجتها للإيمان الصحيح للخلاص من هذا الواقع جنباً إلى جنب مع الوعي الصحيح على ما يأمرنا به هذا الإيمان، وأن ذلك هو السلاح الحقيقي المحقق للنصر بعون الله، وأن كل ما يلزمنا كأمة إسلامية هو أن نكون مؤمنين حقاً وفي مستوى هذا الامتحان..

فهل تصدق هذه النظرية منك يا دكتور مصطفى ويتحقق النصر في بدر أخرى؟

ولكن السؤال الموجه إليك يا دكتور مصطفى هو: من هو من حكام المسلمين الذي يقترب ولو بأيمال إلى الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله في حكمه حتى نقول أنه مؤمن حقاً وعلى مستوى الامتحان ويستحق النصر ولو كان ومن معه من قلة العدة والعدد ما كان عليه الرسول عليه وآله السلام في موقعة بدر؟

وإذا كان الجواب بالسلب فمتى يتحقق وجود مثل هذا الحاكم؟

صحيح إنك يا دكتور مصطفى قد جهرت بالقول الحق بأن الحكام إذا تولوا ولم يلتزموا بالكتاب والسنة فإنه يستبدلهم بغيرهم ممن يلتزمون ولا يكونون مماثلين لهم، ولكن مثل هذا القول يحتاج إلى ترجمة شرعية عملية، يحتاج إلى وجوده في واقع حياة هذه الأمة الإسلامية تماماً كما أوجده الرسول عليه وآله الصلاة والسلام، وأن ما ذكرته يا دكتور مصطفى من أن هذه الأمة لا تحتاج إلا إلى وعي عام مستنير على الإسلام أولاً وعلى ما في الحياة من مشاكل يعالجها الإسلام معالجة صائبة ثانياً وعلى كل مكاند ومكر ومؤامرات أعداء الإسلام والمسلمين للتخلص منها ثالثاً..

فهل تحقق وجود مثل هذا الرأي العام الإسلامي المستنير في الأمة اليوم أو أنها ما زالت بحاجة للمزيد منه ولو كان في أسسه وبذوره الموفورة الآن لا يقل عما جاء به مصعب بن عمير رضي الله عنه من خبر عما آل إليه الرأي العام في يثرب بهمته ونشاطه طيلة تلك الفترة التي قضاها هناك قبل بيعة العقبة الثانية؟؟

وللحق يقال، يا دكتور مصطفى، أنه لولا هذا الابتلاء والتصفية والغربة الربانية التي تمر بها الصحو الإسلامية في مختلف الأقطار الإسلامية وغير الإسلامية، وبالذات تلك الحركات التي أخذت على نفسها عدم الخروج عن الصراع الفكري والكفاح السياسي الذي سار فيهما الرسول عليه وآله الصلاة والسلام في العهد المكي إلى التطبيق المادي في الواقع للشريعة وحملها بالقتال الحربي لإزالة الحواجز المادية التي كانت تقف في طريقها، فتعرضت هذه الحركات بالذات للكثير من الابتلاء والامتحان، من الداخل والخارج، لا شك أن لها فيه الكثير من الخير لتكون على مستوى المسؤولية عندما تحين ساعة النصر، ساعة الاستبدال بهم عن الحكام الموجودين ليتولوا قيادة الأمة في بدر أخرى..

أليس كذلك يا دكتور مصطفى؟

وتحت عنوان فرعي آخر (حرب المياه) يحذر المؤلف من هذا التسارع الشديد في شح المياه في المنطقة كلها والحرب المحتملة الوقوع بسببها، وأنه لا بد من ترشيد استهلاكها بتعويد أبناء الأمة كلها عادات جديدة في الاستهلاك مع تجديد وسائل الصرف من حنفيات وري بحيث لا يستهتر الفرد في الصرف ويستبدل الري بالغمر بالري بالتنقيط وإن لم يفعل ذلك فسيأتي اليوم الذي سيجد فيه سعر الماء أعلى من لبن العصفور..

فيا دكتور مصطفى، إنك تعلم كم شدد الإسلام على التوفير في استخدام الماء حتى في الوضوء للصلاة.. ولكنه الاستخفاف الذي تعاون فيه الحاكم والمحكوم ولم يعد أي منهما ينظر إلى الماء النظرة الإسلامية الحققة..

وفي عنوان فرعي آخر (مغالطة) يكشف المؤلف مكر شمعون بيريز في ترويجه لمشروعه الشرق أوسطي، وأنه لا هيمنة فيه على أحد وإنما هي منافسة لا غير.. فيقول:

إن هذا القول هراء ومغالطة عندما يقارن مثل هذا المشروع بروج السلعة اليابانية في باب المنافسة، لأن اليابان لا تملك وسائل الضغط والتهديد والإكراه التي تملكها وتمارسها (إسرائيل) على المنطقة، ناهيك عن مساندة أمريكا لها بل مساندة أوروبا والغرب كله، ووقوع دول المنطقة كلها تحت هذا الكابوس الرهيب من التهديد والوعيد..

ويقول: (والهيمنة الإسرائيلية حقيقة تفرض نفسها على المتابع للأحداث.. و(إسرائيل) تتصرف (كإسرائيل) كبرى من الآن رغم أنها ما زالت صغرى من ناحية الجغرافية والمساحة)

ويقول: (وكلام بيريز تجميل ومكياج لهذا الواقع المرعب ولكنه ينقصه الإقناع)..

ونقول: ممن تريد الإقناع يا دكتور مصطفى؟ أمن (إسرائيل) ويهودها وصهيونيتها أم من أمريكا والغرب كله الذين يقفون وراءها بدافع شيء واحد هو الحقد الموروث ضد الإسلام والمسلمين؟

ها أنت يا دكتور مصطفى ترى حقيقة الهيمنة الإسرائيلية في المنطقة، وأن (إسرائيل) تتصرف (كإسرائيل) الكبرى وهي ما زالت صغرى في المساحة..

فمن الذي جعل لها هذه الهيمنة على العالم العربي؟

وهل مجرد ملكية هذه الترسانة من الأسلحة المتطورة بجميع أنواعها وأشكالها تفرض لها مثل هذه الهيمنة؟

أم سيطرة هذا الهوان والهزال على حكومات هذه المنطقة وكل العالم الإسلامي هي سبب تمكن مثل هذه السيطرة من رقاب أبناء هذه الأمة الإسلامية كلها؟

لقد قلت يا دكتور مصطفى بأن قوة الأمة من قوة قادتها، ونقول ولاشك أنك توافق مع قولنا:

إن قوة القادة من قوة الأمة.. ولكن لماذا هانت هذه الأمة على نفسها فأصبحت تستسيغ الهوان؟ هل لأنه انطبق عليهم قوله تعالى وتحذيره: {ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم} أم لأنهم يدركون معنى الخبرية على الأمم الأخرى في قوله تعالى: {كنتم خير أمة أخرجت للناس: تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله}.

فاللهم لطفك بهذه الأمة ونصرك لمن يستحقه.. يا رب العالمين..

وتحت عنوان فرعي آخر (الفرس والروم) يذكر المؤلف بزوال دولتي الفرس والروم، يذكر أمريكا بذلك رغم كل سطوتها، يذكر أوروبا وعلى رأسها إنجلترا وفرنسة بذلك لعل في ذلك ما يدعوها لتقدير مصلحة كل منهما الحقّة..

(إن التحيز هنا – أي في سقوط قتلى من بوليس الأمن الدولي برصاص الصرب – واضح، وموقف مجموعة الاتصال «روسية وأمريكية وألمانية وفرنسية وإنجلترا» معيب وشائن..)

ويشير إلى توزيع الأدوار بينهم عندما تتظاهر أمريكا بأنها مع مسلمي البوسنة بالقول برفع حظر السلاح عنهم، ولكن إنجلترا وفرنسة يرفضان ذلك بحجة كاذبة، حجة أن ذلك يزيد من نار الحرب ويوسعها لتشمل البلقان كله..

فماذا حدث (لو أن أمريكا فعلت ذلك) في الحرب العالمية الثانية فرفضت تسليح الإنجليز والفرنسيين في مواجهة النازي.. بحجة أن إمدادهم بالسلاح سوف يشعل النار في أوروبا ويزيد أمد الحرب؛ ويقول مجيباً على سؤاله:

(لو أنها فعلت هذا.. لما كان هناك الآن «أي عام ١٩٩٤» جون ميجور ولا ميتران ولا حتى إنجلترا ولا فرنسة..).

ويواصل الكشف عن حقيقة موقفهم فيقول: (ولكنها العداوة للإسلام والرغبة في كسر شوكته والتآمر عليه.. هي الحقيقة المؤلمة).

ويقول: (والكل يتبجح بحقوق الإنسان.. ولكن لا حق للمسلم في أن يدافع عن نفسه ربما لأنه ليس بإنسان في نظرهم).

ويشير بعدها المؤلف إلى القنابل التي تفجرت في مؤسسات يهودية في الأرجنتين ولندن، وكيف أن قيامة أمريكا قد قامت بسبب ذلك وأخذت تضغط على حكومة البلدين لتديننا إيران بذلك.. ولكنهما يعلنان عدم وجود أي شبهة في الانفجارات ضد إيران.. ولكن أمريكا تصر بنفسها في هذه الإدانة استرضاء لربيبتها (إسرائيل)..

ويقول بحق: إنه (الوسواس القهري الملازم للنفسية الإسرائيلية.. أنه لا أمان لإسرائيل إلا بالقضاء على أي قوة إسلامية في المنطقة).

وأمريكا جاهزة لخدمة هذا الوسواس تبعاً لمصالحها وما تؤديه لها (إسرائيل) من خدمات لا تقدر بثمن في ذلك..

والنتيجة: إنه (الظلم المستمر والفادح لمسلمين لا ذنب لهم إلا أنهم مسلمون..).

ويمضي المؤلف قائلاً بحق: (هل هو نظام عالمي جديد.. أو هو عودة قديمة إلى جبروت الفرس والروم?!?)

وينهي المؤلف تذكيره وتحذيره بقوله تعالى: («لكل أمة أجل..!!؟») فأين هم
الفرس وأين هم الروم..!!؟)

وفي عنوان فرعي أخير لهذا الموضوع وللكتاب كله (لماذا يتردد حافظ
الأسد؟) أمام هذا الطعم الأمريكي الإسرائيلي في الإلحاح لتوقيع اتفاقية سلام؟؟
ويقول: لقد (رأى ما فعل السلام الإسرائيلي بعرفات، وكيف دق إسفيناً قاتلاً
بينه وبين الأردنيين، وإسفيناً آخر بينه وبين حماس والمنظمات الفلسطينية الأخرى
المنافسة..).

لقد رأى كيف حوله (إلى متسول شحاذ يمد يده إلى أعداء الأمس طالباً مرتبات
الشرطة ونفقات الحكم الوهمي الجديد..).

ويقول بحق وحقيق: (والذين يدفعون الأسد إلى تقديم التنازلات يدفعونه إلى
الانتحار، وسيكون انتحاراً بلا جدوى فلن يثمر حتى سلاماً..) ويقول: (وطبيعي أن يطلب
الأسد انسحاباً كاملاً من الجولان قبل أي خطوة من جانبه، فهو يعلم أنه يقف على حافة
جرف، وأن أي خطوة إلى الوراء سوف تسقطه وتسقط مستقبل سورية في هوة بلا
قرار).

ويقول: (وهو يرى ما جرى للشعب العراقي سجين العقوبات الأمريكية، وما
جرى للعقيد القذافي بعد تلفيق لوكربي، وما جرى لعرفات بعد أن ألبسوه تاج السلام
الوهمي..).

ونضيف لذلك: (.. وما جرى للأردن بعد اتفاق وادي عربة وبعد أن تحول إلى
وكر للموساد، وأصبح يعمل المستحيل لتدجين شعبه ليسير بالتطبيع المطلوب
إسرائيلياً، وأصبح يساوم على ما أسموه بحصة الثمانية ملايين متر مكعب من الماء
التي قررتها تلك الاتفاقية للأردن.. وأصبح.. وأصبح..)

فأي سلام هذا الذي تطالب بالتوقيع عليه حكومة (إسرائيل) سواء كانت
حكومة حزب العمل أو حزب الليكود وهما وجهان لعملة إسرائيلية واحدة؟!)

وعودة إلى الكثير من الأعمال التي نفذتها وما زالت (إسرائيل) تسعى لتنفيذها بسند
من أمريكا والغرب كله تحت اتفاقيات السلام التي وقعتها مع مصر أولاً ومع الفلسطينيين
ثانياً ومع الأردن ثالثاً، والتي أشار إليها المؤلف في هذا الكتاب، يرينا ما تريده (إسرائيل) من
مثل هذه الاتفاقيات مع سورية ولبنان...

وإذا كنا نريد أن نضع هذه الاتفاقيات في ميزان المكاسب المصلحية وخسائرها
فإننا سننتهي إلى ميدان المساومات السياسية والحلول الوسط التي يؤمن بها الغرب
كله وعلى رأسه أمريكا ويسعى لفرضها علينا في سورية ولبنان بعد أن نجح في
فرضها على مصر وفلسطين والأردن..

وأما إذا كانت مثل هذه الاتفاقيات لا يجوز أن ينظر إليها بالمنظار العقائدي الأيديولوجي: تجوز أو لا تجوز مع عدو صهيوني لا أمل في انتهاء عداوته ضدنا إلا إذا رضي عنا، والله تعالى يذكرنا ويصرخ في وجوهنا بقوله: {ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم.}}

مؤكد أنه لا أمل في رضاهم عنا مهما امتد بنا الزمن في المستقبل اللهم إلا إذا تنازلنا لهم ليس فقط عن الأرض، كما فعلت اتفاقية أوسلو مع الفلسطينيين، وإنما عن الملة، عن الدين، عن المعتقد، عن الشريعة التي نؤمن بها ونريد أن نقابل الله تعالى غداً بها..

فهل نحن فاعلون ذلك ليرضوا عنا؟

وإذا كان بنس ما فعل غيرنا فلماذا بنس ما نفعل؟

وإذا كان هناك بقية من مروءات الرجال وشهامتهم.. فلماذا لا تكون لدينا بعد أن فرط بها من فرط وتنازل عنها من تنازل!!؟

لنتوقف عملية السلام، كما يسمونها، مع الليكود بل لتذهب إلى الجحيم معه أو مع غيره، فنحن لسنا طلاب سلام مع هذا الذل والهوان والتمزق والضعف الذي نحن فيه من المحيط إلى المحيط، لأنه ليس بسلام في هذه الحالة التي نحن فيها مع عدو ماكر حاقد لا يرضى إلا بالقضاء على جوهرنا وأصالتنا وإن رضي بأقل من ذلك في هذه الاتفاقيات التي ولدت ميتة منها كمرحلة أولى لمطامعه ومكره وخداعه..

وإنما هو الاستسلام بعينه..

وإذا كان المولى عز وجل يأمرنا بقوله: {ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين}...}

فكيف نجيز لأنفسنا مجرد التوقيع على مثل هذه الاتفاقيات ونحن في الواقع العملي لا العقائدي الأذنون لا الأعلون!!؟

إنه مرفوض منا إذا كنا مؤمنين بالله ورسوله، بكتابه وسنة نبيه، بشريعته، لأن الخيانة كل الخيانة هي التفريط بشبر من أرض الإسلام والمسلمين أينما كانت ناهيك أن تكون مقدسة، لأن بلاد الشام كلها وليس فلسطين وحدها مقدسة مباركة بنص القرآن الكريم: {سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله.}}

(وحوله) هي بلاد الشام كلها كما قال مفسرو القرآن الكريم..

فإذا كنا مؤمنين حقاً بذلك كله فكيف نسمح لأنفسنا أن نوقع أي استسلام بل حتى مايسمونه تزويقاً وتلفيقاً بالسلام ونحن نعلم أنه خيانة للمقدسات المباركات!!؟

وإذا كان ما نحن فيه من الذل والضعف والهوان يسمح لذوي النفوس الضعيفة أن تستسلم لضغط الطغاة العتاة المتكبرين في الأرض.. فلنرفض أن نكون منهم وليمتد الزمان وليتطاول حتى يأتي الله بنصره.. ونصره جاهز للمؤمنين الصادقين ما استقاموا معه ومع رسوله.. وكفى.

تمت دراسة كتاب الطريق إلى جهنم والحمد لله رب العالمين

٢ - دراسة كتاب صدام الحضارات

للبروفسور صموئيل ب. هانتنتون
والردود منه وعليه

تقديم

نشرت مجلة الشؤون الخارجية في صيف عام ١٩٩٣م هذه الدراسة كنتيجة لبحث تولاه معهد جون أولين حول (البيئة الأمنية المتغيرة والمصالح الأمريكية) الذي يرأسه كاتب هذه الدراسة للدراسات الاستراتيجية والذي يرأس أيضا أكاديمية هارفرد للدراسات المحلية والعالمية.. وهذا يؤكد أن لهذه الدراسة قيمتها الاستراتيجية لدى صناع القرار الأمريكي.

وقد جاءت الدراسة موزعة على ثمانية عناوين فرعية كما يلي، ثم تبعها ردود من نفس الكاتب على من عقب على دراسته، ومن غيره من أجنب وعرب، مسلمين وغير مسلمين، وردوده، مما جعل (المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق) اللبناني يصدر الدراسة وما لحقها من ردود في كتاب باسم (صدام الحضارات - نصوص نقدية في المنهج والمضمون لمقولة هانتنتون) في طبعته الأولى / ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

وفيما يلي تلخيص ذلك الكتاب والتعقيب عليه وعلى الردود المتعلقة به :

الدراسة الأصلية: صدام الحضارات

١- طرح الكاتب فرضيته بأن مصدر نزاعات العالم الجديد لن يكون أيديولوجيا ولا اقتصاديا في الأساس وإنما ثقافيا حضاريا، وأن السياسات الدولية بعد الحرب الباردة قد تحركت في ما سماه بالمرحلة الغربية وأصبح مركزها هو تفاعل الحضارات الغربية وغير الغربية بعد أن انتهى استهداف هذه الأخيرة كما يقول الاستعمار ...

لقد تجاهل الكاتب الإشارة الصريحة للأديان هنا وفصل بين العقائد المبدئية، أي الأيديولوجية، وبين الثقافة والحضارة مع استحالة وجود هذه الأخيرة بدون تلك، كما يذكر فيما بعد من دراسته هذه.. وكان الأولى به أن يقول بالمرحلة الأمريكية الحالية بدلا من الغربية لوجود الصراع المصلحي الخفي بين أمريكا وبقية دول الغرب.. كما كان الأولى به أن لا يرى ما سماه بمرحلة التفاعل بين الحضارات بقدر ما هو بين السياسات لرفض الشعوب والأمم لهذا التفاعل المفروض عليها من فوق، والأجدر به تجنب هذا الخداع بأن أمريكا والغرب كله لم يعد يستهدف استعمار غير الغرب لأن تغيير النمط الاستعماري لا يعني عدم وجوده...

٢- تحدث الكاتب عن طبيعة الحضارات ورآها الكيانات الثقافية الواسعة كالعرب والصينيين والغربيين، ورأى لكل منها أقسامها، وأن التاريخ الإنساني كان وما زال تاريخ الحضارات التي تقلصت إلى ست في التاريخ المعاصر، ثم يقول بأنها سبع أو ثماني حضارات كبيرة هي: الغربية، والكونفوشية، واليابانية، والإسلامية، والهندية، والأرثوذكسية، واللاتينية، وربما الأفريقية، ويقرر بأن النزاعات المستقبلية ستكون على خطوط التقسيم الثقافية بينها، ويعلل ذلك بستة أسباب هي:

- (١) الاختلافات أساسية فيما بينها من حيث اللغة والتاريخ والثقافة والتقاليد والدين، وأنها سببت نزاعات طويلة وعنيفة.
- (٢) تفاعل الحضارات الحالي زاد من وعي الشعوب على تمايزها في هويتها عن بعضها البعض، فبرزت العداوات.
- (٣) أخذت الحركات الأصولية الدينية من مختلف الأديان تبرز في العالم لتوفر أساساً للهوية يتجاوز الحدود الوطنية ويوحد الحضارات.
- (٤) يبرز وجود كيانات غير غربية في العالم الغربي إذ أصبح المثقفون يرجعون لجذورهم الثقافية وإن شاعت الثقافة الأمريكية بين الناس.
- (٥) الفروق الثقافية لا تتبدل بسهولة، فمن المستحيل أن يكون المرء نصف مسيحي ونصف مسلم.
- (٦) تشير النزاعات الإقليمية الاقتصادية المتنامية في العالم الوعي بالحضارة، فتجذب الأقطار المتماثلة حضارياً للمزيد من النمو الاقتصادي المشترك وإن حصلت اختلافات جزئية في داخل كل حضارة.

لاشك في صدق هذه الأسباب أو العوامل الستة التي أوردها لنزاع الحضارات المستقبلية وإن كان لا بد من ملاحظة أن النزاعات الداخلية قد تكون من دوافع خارجية أهمها الغربية للحفاظ على السيطرة والنفوذ...

٣- وعند حديثه عن (خطوط التقسيم بين الحضارات) يؤكد المؤلف أن الحدود الحضارية قد أخذت بالظهور في جميع أنحاء العالم محل الحدود السياسية والأيديولوجية على أثر انتهاء الحرب الباردة سواء كان في أوروبا أو آسيا أو

أفريقية. ويشير إلى هذا النزاع منذ ١٣٠٠ سنة بين الحضارتين الغربية والإسلامية، وأنه لن ينحسر بل قد يصبح أكثر خطراً نتيجة ما يشعر به العرب من إذلال وسيطرة بسبب سيطرة الغرب الأمريكي على دول الخليج... ثم يؤكد أن تعزيز الديمقراطية في العالم العربي يخدم القوى السياسية المعادية للغرب ناهيك عن النمو السكاني المذهل هناك، وتضييق الخناق على الهجرة من شمال أفريقية إلى أوروبا... مما يبرز صدام الحضارات بين الإسلام والغرب ليس في الشرق الأوسط فقط بل أفريقية سواء في السودان أو نيجيرية أو غيرها... وكذلك في أوروبا في ما حصل في البوسنة وما يجري في روسية والقوقاز... وكذلك في الهند بين المسلمين والهندوس، وفي الصين ضد الأقلية التركية المسلمة، وفي فلسطين بين اليهود والمسلمين... وينهي المؤلف كلامه في هذا الموضوع بأن للإسلام حدوداً دموية...

لو تتبعنا بدقة تقسيم العالم الذي يرسم خطوطه هذا الكاتب بين الحضارات لوجدنا كل الحضارات الأخرى لا يقف عندها ولو بجزء من المائة بالنسبة لمتابعته لما بين الإسلام والحضارات الأخرى، الأمر الذي يجعل القارئ يشعر بأن هذا الكاتب وهو يتحدث عن الحدود الدموية للإسلام يستثير كل الشعوب والأمم الأخرى في العالم ضد الإسلام والمسلمين...

٤- وهنا يتحدث عن (تعينة الحضارات: ظاهرة البلدان ذات القرابة) مبيناً أن ما حصل في حرب الخليج الثانية قد وفر لصدام حسين التأييد الشعبي من العرب ضد حكاهم، وكذلك في إيران، مما جعل التحالف ينحصر بين الغرب والكويت فقط عام ١٩٩٣، وأما ما حصل في البوسنة فقد تكرر بمساندة المسلمين ضد الغرب، وكذلك ما حصل في بلدان الاتحاد السوفييتي السابق بين أرمنية وأذربيجان عندما ساند الشعب التركي الهجمات الأخيرة ضد أرمنية التي تحولت روسية لمساندتها بعد أن كانت ضدها عندما كان حكم أذربيجان شيوعياً مثلها... فالنزاع بين حضارات...

ما زال الكاتب يسلط الضوء على المسلمين أينما وجدوا، ويجد في تعاطفهم ضد الغرب أو روسية أو غيرها هو بدافع القربى الحضارية التي تجمعهم عندما يتعرض بلد مسلم للاضطهاد...

٥- وهنا (الغرب ضد الباقي) يبين الكاتب أن الغرب بقيادة أمريكا قد أصبح يسيطر على العالم بمؤسساته الأمنية والاقتصادية والعسكرية، فيوجه البنك الدولي وصندوق النقد الدولي كما يوجه مجلس الأمن للمحافظة على مصالحه وبالذات الأمريكية، وأن كل هذه النزاعات تخفي الجانب الحضاري خلفها مما يجعل العالم يسير في طريق المواجهة بين الغرب من ناحية والباقي من ناحية أخرى...

وهذا بالرغم من التنافس على المصالح العسكرية والاقتصادية بين دول الغرب وإن كان يلتقي هذا الغرب في مجموعه ضد جميع الدول الأخرى، مما يجعل حكومات الحضارات الأخرى إما أن تجد الحماية بالانضمام للغرب أو بتحمل تكلفة العزلة أو بالموازنة مع الغرب...

٦- وهنا (البلدان الممزقة) يتحدث الكاتب عن المكسيك وتركيا وروسيا في محاولاتها لتصبح غربية: فالمكسيك يريد مثقفوها والرأي العام فيها أن تصبح كأمريكا الشمالية وهذا ممكن تحقيقه، وأما تركيا وروسيا فلا يمكن للانقسام الحاد بين النخبة والرأي العام فيهما ناهيك عن القوى المسيطرة على الحضارة في كل منهما...

لقد كان الغرب الأوروبي والأمريكي يستبعد غربنة تركيا منذ سنوات خلت، ولكنه بعد النجاح في البطش بالإسلاميين وإصرار الحكام عسكريين وسياسيين على ذلك جعل أروبة ترشح تركية لعضوية الاتحاد الأوروبي... إنها محاولة جادة لدعم السفاحين ضد الإسلام والمسلمين... ولكن هل تنجح؟! وكذلك بشأن روسيا: الغرب كله يدعمها ضد الشيشان لأنها في حرب ضد الإسلام ولكن ما زالت تتظاهر كذبا ونفاقا بالخلاف معها على حقوق الإنسان هناك!!

٧- وعند الحديث عن (الصلة الكونفوشية الإسلامية) يشير الكاتب إلى محاولات الكثير من البلدان الإسلامية من باكستان وإيران والعراق وسورية وليبيا لتطوير أسلحتها والتزود بالأسلحة النووية من الصين وكورية الشمالية بالذات، وأنها من منطلق حضاري تفعل ذلك بينما نجد الغرب يحاول منعها ويقتل من قدراتها العسكرية بنفس الوقت.

لا يشير الكاتب لا إلى مصر ولا تركيا ولا غيرهما من البلدان الإسلامية التي يعرف سيطرة الغرب على سياستها بينما يستثير الغرب على الصين وكورية الشمالية التي تزود تلك البلدان الإسلامية بالأسلحة...

٨- وينهي الكاتب حديثه بالقول (بالآثار الضمنية بالنسبة إلى الغرب) فيؤكد بأن ما يكتبه هو مجرد فروض يجب رسم سياسات بها إذا صحت على المدى القريب في الغرب وأخرى على المدى البعيد: فيدعم التعاون على المدى القريب داخل حضارته، ودمج معه أروبة الشرقية وأمريكا اللاتينية، ويحافظ على بقاء التعاون مع روسيا والبلقان وعلى حصر النزاعات المحلية في الحدود الضيقة والحد من تسليح البلدان الإسلامية والكونفوشية ويقتل من تخفيض تسليحه هو ويستغل الخلافات بين البلدان الإسلامية والكونفوشية، ويدعم الدول المتعاطفة مع قيمه ومصالحه والمؤسسات الدولية التي تحافظ على تلك القيم والمصالح... وأما على المدى البعيد فلا بد من منع الحضارات غير الغربية من الحصول على الثروة والتكنولوجيا والمهارات والآلات والأسلحة ويحتفظ بالقوة العسكرية والاقتصادية اللازمة لحماية مصالحه، ويطور فهما أعمق للفروض الدينية والفلسفية في الحضارات الأخرى، ويحدد العناصر المشتركة بين حضارته والحضارات الأخرى لا لتكون هناك حضارة عالمية، لأن هذا من المستحيل، بل ليتعلم الكل التعايش فيما بينهم.

وهكذا يضع هذا الكاتب والمفكر الاستراتيجي الخطة القريبية المدى والبعيدة للتعامل مع غير الغرب حتى لا يهزم في المستقبل بل يبقى هو المسيطر... والملفت

للنظر في خطته على المدى البعيد هو (تطوير الفهم الأعمق للفروض الدينية والفلسفية التي تقف خلف الحضارات الأخرى) مما يعني العبث والتحريف والتشويه لها من خلال زبائنه المتغربنين من أبناء المسلمين...

وتحت عنوان (إذا وقعت حرب عالمية فستكون حرب حضارات) يلخص الكاتب مقاله كله بنقاطه الثمانية ليؤكد أن اشتغال الحضارة الغربية على مكونين رئيسيين هما أوروبية وأمريكية الشمالية يقتضي وضع خطط على المدى القريب وأخرى على المدى البعيد ليديم سيطرته على العالم إلى الأبد، وأنه في الوقت الذي تفلت منه حضارات أخرى من السيطرة وفق خطتها فلا بد من محاولة الفهم الأعمق لها والتكيف معها ليتحقق التعايش...

إنه إذ ينطلق من منطلق المحافظة على سيطرة الحضارة الغربية على العالم فإنه يحتاط ليدعو للتعايش مع أي حضارة أخرى يخشى منها.

رده الأول: إن لم تكن الحضارة فماذا يكون؟

نماذج من عالم ما بعد الحرب الباردة:

خلال العقدين الماضيين كان نموذج الحرب الباردة هو النموذج الذي بواسطته يجري تفسير كل ما يجري بين المجتمعات الغربية الغنية بقيادة أمريكا وبين المجتمعات الشيوعية الأفقر بقيادة الاتحاد السوفييتي. وكان أكثر النزاعات بين المجموعتين يجري في العالم الثالث... وتحول ذلك النموذج إلى ملف للتاريخ بعد انتهاء الحرب الباردة وأصبحت خريطة العالم الجديد بحاجة إلى نموذج جديد، فجاء صدام الحضارات هو هذا النموذج الذي يمكن كالنموذج السابق أن تخرج عنه بعض الأحداث ولكنه يستطيع أن يفسر السياسات العالمية على المستوى الكلي وعلى المستوى الجزئي: فتفكك الاتحاد السوفييتي ويوغوسلافيا والحروب فيها، وصعود الأصولية الدينية في العالم، والصراعات داخل روسيا وتركيا والمكسيك، واحتدام المنازعات التجارية بين أمريكا واليابان، ومقاومة البلدان الإسلامية للضغط على العراق وليبية، ومحاولات البلدان الإسلامية والكونفوشية الحصول على الأسلحة النووية... وغيرها من الوقائع التي حصلت بعد كتابة الدراسة كلها يمكن بسهولة تفسيرها بنموذج صدام الحضارات بغض النظر عن شذوذ بعض الوقائع كالاتفاق بين (إسرائيل) والفلسطينيين الذي لن ينهي النزاع بين اليهود والمسلمين، ونجد أن القضايا الحضارية التي تشمل انتشار الأسلحة، وحقوق الإنسان، والهجرة، يمكن لهذا النموذج أن يفسرها بسهولة...

بالفعل يستطيع نموذج صدام الحضارات أن يفسر ذلك كله وإن كان قد نسي الكاتب فكرة الديمقراطية التي بات الغرب يضعها في مطلع القضايا الحضارية التي

يحاسب الغرب نفسه عليها الشعوب الأخرى وبنفس المعيار الذي يتعامل به من خلال مصالحه ألا وهو المكيايلين، وهو نفس المعيار الذي يقاضي الغرب أو يحاسب الشعوب الأخرى على مدى محافظتها على حقوق الإنسان، والذي به يتعامل مع الهجرة إلى بلاده كما يتعامل مع الأسلحة... ويكفي أوضح مثال لبيان هذا المعيار من (إسرائيل)...

وتحت عنوان (هل تتفكك أمريكا؟) يذكر الكاتب بأن أمريكا قد قامت على دعامين أساسيتين هما الثقافة الأوروبية والديمقراطية السياسية التي تعني الحقوق المتساوية للأفراد، مما جعل السود مثلا لا يكتفون بالمطالبة بنفس الحقوق المدنية وإنما بحقوق خاصة تناسب ثقافتهم الأصلية، وأن هذا عندما يشمل جميع عناصر المجموعات السكانية في أمريكا يعني أن لا يأتي عام ٢٠٥٠م الذي يفوق عدد غير الأوروبيين عدد الأوروبيين مما ينذر بصدام الحضارات الداخلية في أمريكا الذي تتمزق بنتيجته أمريكا وتنتهي كدولة عظمى وحيدة إلى (كومة من رماد التاريخ).

ولكن الكاتب الذي يدعو لفهم الحضارات الأخرى الصاعدة المنافسة لتحقيق التعايش معها لن يغيب عنه المخرج من مثل هذا الصدام الداخلي الحضاري في أمريكا نفسها التي يخطط ليس فقط لحمايتها من مثل هذه النتيجة بل للإبقاء على سيطرتها على العالم...

وتحت عنوان (هل يمكن التوصل إلى فكرة أفضل؟) يرد الكاتب على نموذج فواد عجمي الذي يرى أن الحضارات لا تسيطر على الدول وإنما العكس بأن هذا لا معنى له عند النظر إلى الدول والحضارات من زاوية السيطرة، وأن من طبيعة توازن القوى للرد على التهديدات المتصورة أن يحصل التنازع ضمن الحضارة الواحدة، ولكن الوعي المتزايد الآن لدى الغرب الأوربي أن خطر الجنوب الثقافي قد حل محل الشرق الشيوعي، كما أن عزلة الدول لم يعد لها وجود في عالم التجمعات المتداخلة بحضاراتها المختلفة. وكذلك القول بنموذج العالم الواحد بحضارة عالمية شاملة بحجة السمات المشتركة بين الشعوب هو قول غير واقعي النموذج للأسباب الآتية:

(١) لم يكن البديل للشيوعية المنهارة كما توقع الليبراليون هو الديمقراطية الليبرالية بل ظهرت نماذج كثيرة منها القومية والاستبدادية والشركات الضخمة والمؤسسات الدينية، فكان القول بذلك محض غرور أجوف.

(٢) إن التفاعل المتزايد بالاتصالات والمواصلات التي سادت في عالم اليوم لم ينتج حضارة مشتركة بل دعم هذا التفاعل للهويات القائمة أنتج مقاومة ورد فعل .

(٣) إن القول بأن التحديث والتنمية الاقتصادية يبعثان على التجانس الثقافي غير صحيح لأن التحديث لا يرادف التغريب، ومجتمعات كاليابان وسنغافورة وهونج كونج في قمة الحدثة ولكنها ليست غربية.

والهند التي يستشهد بها عجمي تتصاعد فيها الروح الهندوسية بشكل كبير ضد الأقلية الإسلامية، فهي لا تحافظ لا على غربيتها ولا على علمانيتها. وها هو انهيار

القوة الغربية يؤدي إلى انسحاب الثقافة الغربية، وهذا ملاحظ في دول شرق آسية التي أخذت تؤكد هويتها تبعا لزيادة قوتها العسكرية والاقتصادية والسياسية حتى تشعر بغيظ شديد ضد الزعم بانتصار القيم الغربية، هذا ناهيك عن العودة إلى اللغة الأصلية بمجرد انهيار النفوذ الغربي في مستعمراته السابقة، كما عادت الشعوب القوقازية إلى لغتها التركية وأسقطت الروسية بعد سقوط الاتحاد السوفيتي.

وهكذا يظهر أن نموذج صدام الحضارات هو القادر على تفسير ما يجري الآن في أوربة وروسية وآسية، وأن الواجب على الغرب أن يفهم الأفكار الدينية والفلسفية الخاصة بالحضارات الأخرى ليتعايش معها ويحافظ على مصالحه، وأن الاعتراف بهذه الحضارات هو السبيل الوحيد لاحتوائها عندما يعترف بالقوى التي تثير الصدام بين الحضارات، وعندها يمكن التعايش بين الحضارات، وأن هدف الإنسان النهائي ليس هو الأيديولوجية أو المصالح الاقتصادية وإنما الإيمان والأسرة والدم والعقيدة..

فالكاتب هانتنتجتون وهو يرد على فؤاد عجمي من أن نموذج الدول العالمية والحضارة العالمية اللتين يتصورهما هما مجرد تصور خيالي لا واقع له لا في العالم اليوم ولا في عالم الأمس.. والكاتب على حق فيما يقوله لأن الدول الأوربية ممثلة بأمين عام حلف الأطلسي قد أعلنت أن عدوها البديل بعد سقوط الشيوعية واتحادها السوفيتي هو الإسلام القادم إليهم من الجنوب، ولذلك بادرت كل من إيطاليا وفرنسة وألمانية بوضع قيود مشددة على هجرة شمال أفريقية إليهم، كما يلاحظ حتى الآن كيف يفقد جهاز التعليم الفرنسي أعصابه أمام رؤية حجاب طالبة مسلمة تدخل المدرسة وهي تلبسه.. إنه الرعب من الحضارة الإسلامية.. وما حصل من ظن بعضهم بأن ديمقراطية الغرب قد تفردت بالعالم بعد انهيار الشيوعية كان مجرد خداع وهم رفضهما مفكرو الغرب وهم يرون هذا التمايز والتصاعد للهوية الثقافية في جميع أقطار العالم الإسلامي ولو بمؤثرات مختلفة..

رده الثاني: الغرب متفرد لا كوني: إنه رد صريح بل في منتهى الصراحة في كيفية المحافظة على الغرب أمام الحضارات الأخرى وبالذات الإسلامية التي يذكر الكاتب عنها بأن الإسلام سيكون السابق للمسيحية في التعداد السكاني للعالم..

صحيح إن الكاتب لا يتحدث بنفس المستوى من الصراحة عن كيفية دعم الدول أو الحكومات غير الغربية للمحافظة على الغرب وحضارته الفريدة كما يصفها ولكنه يشير إلى ذلك إشارات مفهومة من ضرورة تخلي أمريكا عن فكرة الحضارة العالمية والدولة العالمية، وأن تحرص على التعاون مع أوربة لتحقيق ذلك، وأن تعمل لضم أمريكا اللاتينية المشاركة لها في نفس الحضارة، وأن تعمل بسياسة الاحتواء مع آسية وأفريقية وبالذات الشعوب الإسلامية بالاعتراف بالتمايز بين حضارتها الإسلامية والغربية، فتحقق من خلال هذا الاعتراف عملية التعايش بين الحضارتين الإسلامية والغربية بدلا من التصادم العنيف...

بعد هذا التعقيب السابق للتلخيص للرد نأتي لنلخصه بما يؤكد كل ما ورد في التعقيب وأكثر:

بعد الإشارة التحذيرية للغرب بأن غير الغرب ينظر إليه وبالذات لأمريكة نظرة الاستعمار الاستهلاكي من جهة ونظرة الزاعم بأن التحديث هو ملك له من جهة أخرى، يتحدث الكاتب بعد هذه الإشارة عن الفرق بين الثقافة الغربية الأمريكية الاستهلاكية وبين الثقافات غير الغربية ولو حصل شئ من التجانس أثناء عملية التحديث ولكنه لا يعني الغربية مطلقاً... ثم يحدد الملامح التي تجعل من الغرب غريباً عن غيره أو متفرداً بميزاته فيراها في:

١. الإرث الكلاسيكي من الفلسفات والعقلانية الإغريقية، والقانون الروماني، واللغة اللاتينية، والمسيحية وأن أحداً غير الغرب لم يتحقق له شيء من ذلك كما تحقق للغرب سواء المسلمين أو الأرثوذكس...
٢. المسيحية الغربية من كاثوليكية وبروتستنتية التي تميز الغرب عن غيره وبخاصة بعد حركة الإصلاح الديني التي انتهت بتقسيم الغرب بين كاثوليك وبروتستنت.
٣. اللغات الأوروبية التي اتخذت شكلها النهائي في القرن السادس عشر لتتحل الفرنسية محل اللاتينية في الغرب ثم لتحل الإنجليزية محل الفرنسية في هذا القرن
٤. فصل السلطة الدينية عن الدنيوية مع أنهما كانا ثنائية سائدة قبل الفصل الذي بات يمثل الحضارة الغربية المعاصرة.
٥. قاعدة القانون التي حلت محل فكرة القانون الطبيعي ثم الحكم الاستبدادي فكان الحكم الدستوري وحماية حقوق الإنسان وحقوق الملكية المرتكزات الرئيسية لها، وإن وجدت مثل هذه القاعدة لدى غير الغربيين كالقرآن والشريعة لدى المسلمين.
٦. التعددية الاجتماعية الذي امتاز به المجتمع الغربي بجماعات الأديرة ونظم الرهبانية والطوائف منذ القرنين السادس والسابع ثم تطورت إلى الأرستقراطية الطبقية ثم البيروقراطية في شكلها الحالي تلتقي في شيء مع غيرها.
٧. الكيانات النيابية التي أفرزتها عملية التحديث في النظم الاجتماعية للديمقراطية الحديثة مع وجودها بأشكال أخرى سابقاً.
٨. الفردية التي تصاعد نمو الحس بها بدءاً من القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وأصبحت مميزة للغرب في حضارة القرن العشرين. وهنا يتحفظ الكاتب على هذه السمات المميزة للحضارة الغربية بأن العديد منها قد وجد في الحضارات الأخرى، ويقول: بأن الغرب إنفرد بها مما جعل حضارته فريدة ونفيسة...

ولكن هل يمكن للأخريين نسخ الغرب؟ يقول الكاتب تحت هذا العنوان بأن ذلك قد جرت محاولات له سواء في روسية بطرس أو تركية مصطفى كمال ولكنها أنتجت مجتمعات متفسخة، ذلك أن كل المجتمعات اللاغربية تسعى للتحديث وترفض الغربية وإن كان التفاعل فيما بين الحضارات أمراً دائماً الحدوث ولكنه بدلاً من استجابة

المجتمعات اللاغربية للغربية من خلال التحديث فإن رد فعل ثقافيا مضادا ينشأ ضد الغربية مما يؤدي إلى نشوء نوع من مشاعر الاغتراب واللامعيارية، وتخلق أزمة هوية لا يحلها إلا اللجوء إلى الدين بالذات قبل أي عنصر من عناصر التراث المحلي. وقد ظهر رد الفعل حادا في العالم الإسلامي ضد ما أسموه التسميم التغريبي لمجتمعاتهم، كما ظهر ذلك في أقطار شرق وجنوب شرق آسية عندما أخذوا يرون في فكرة حقوق الإنسان بأنها إمبريالية جديدة.. وهكذا كان الكثير من دول العالم أقل غربنة وأكثر حداثة، وذلك من خلال نفس الجيل الذي تخرج من الجامعات الغربية والذي أنشأ في بلدانه جامعات على نفس الطراز، ولكن الجيل الثاني المشبع بالتراث المحلي لتخرجه من جامعات محلية وقف ضد الغربية فأخذ بالانتخابات الديمقراطية ولكنه رفض غيرها مما يتناقض مع الحضارة الغربية التي تعتمد على الثقافة المتمثلة باللغة والدين، فأخذ يعود للغة الوطنية ويتخلى بالتدريج عن الإنجليزية كما أخذ يعلي من شأن أصوليته الدينية، وإن انهيار الشيوعية بدلا من احتضان الحضارة الغربية قد ضاعف من التفاوت بين النظرة الغربية والنظرات المحلية.

ويشير الكاتب بعدها إلى ما يتطلعه الغرب وبالذات أمريكا من الشعوب اللاغربية من الالتزام بالقيم الغربية من ديمقراطية، وسوق حرة، وحكومات محدودة السلطة، وفصل بين الدين والدولة، وحقوق الإنسان، والفردية، وقاعدة القانون. ولكن الموقف الحاصل عكس ذلك إذ تشتد المعارضة وتتنظر تلك الشعوب إلى أن استعمارا جديدا يطلب منها الخضوع له بدلا من أن تعتبر تلك الأمور مجرد نزعة عالمية، كيف لا وهم يرون الفرق بين النظرية والتطبيق الغربيين إذ المكيايين والنفاق هي التطبيق المختلف من بلد إلى آخر حسب المصالح الغربية.

ثم يقول الكاتب معترفا بأن دعوة الشعوب اللاغربية للالتزام بالقيم الغربية في حقيقته لا أخلاقي، وأنه لن تحصل إعادة تشكيل المجتمعات اللاغربية بواسطة الثقافة الغربية إلا نتيجة لتوسع واحتشاد القوة الغربية ولو بالإكراه العسكري الوحشي كما يرى بعض أنصار النزعة العالمية.

وينهي الكاتب رده ببيان كيفية (تعزيز الغرب) بأن يتخلى عن وهم العالمية، ويدعم قوة وتماسك وحيوية حضارته في عالم الحضارات، لأن السلطات المحلية بكل صراعاتها فيما بينها أصبحت هي المهيمنة على العالم، ولأن الغرب عليه أن يفكر بدعم مصالحه وليس بدعم سلطة محلية على سلطة أخرى إلا إذا كان ذلك كوسيلة لتحقيق المصالح الغربية. ثم بالنظر لأن سيطرة ونفوذ الغرب في العالم الآن يعتمد على وحدة دوله وتماسكها للحفاظ على مصالحها فيمكنها أن تضم أمريكا اللاتينية إليها لأنها من نفس الحضارة فيتشكل الثالوث الأمريكي الشمالي مع أوروبا وأمريكا اللاتينية، ولا تفكر بأسية وأفريقية، وتعتمد على حلف الأطلسي كمنظمة تحمي أمن الحضارة الغربية في القارات الثلاث وكفى...

حوار معه أجرته مجلة التايم الأمريكية

قال فيه بأن للإسلام دوراً خطيراً في صراعات المستقبل الثقافية لا الأيديولوجية، فتسألته المجلة عن الدافع لهذا القول، فيجيب لأن زوال الحرب الباردة جعل الشعوب توسع دائرة الصراعات لتصبح ثقافية أو حضارية، ويوضح ذلك لأن الصراع الأيديولوجي أو العقائدي بين الغرب والاتحاد السوفيتي قد زال وأخذ يحل محله بروز الحضارات والثقافات المختلفة لكون الصراع القريب بينها من خلال بين الغرب والإسلام، وبين الإسلام والهندوس، وبين الإسلام والأرثوذكس، وبين الصين واليابان. ويعلن بصراحة لماذا بين الغرب والعالم الإسلامي بأنه لأن (الإسلام أكثر الأديان صراحة، ولا توجد الآن فوارق بين السياسة والدين) ولأنه الثأر من الغرب المستعمر، وأنه ليس بالضرورة على شكل حرب عالمية بين الطرفين. ثم يحدد موضع هذا الصراع مع الغرب الآن بأنه في يوغوسلافية السابقة، وعلى مناطق الحدود بين الشعوب المسيحية الأوروبية والآسيوية، وبين مسيحيي أفريقية في الجنوب ومسلمي الشمال، ثم يحدد الخطر المحتمل ضد الغرب بأنه من البلاد الإسلامية التي تضاعف من تسليحها وهي إيران والعراق وسورية وليبية والسودان بالرغم من تناقص الغرب من تسليحه. ويكشف عن سر زعمه هذا بحماس الاستشهاد لدى المسلمين غير الموجود لدى غيرهم، ولكنه يلجأ لأسلوب المخادعة بدعوة (الغرب أن يتعلم كيف يعيش داخل حدوده الثقافية والحضارية) وأن (يعرف كيف يتعايش مع الحضارات الأخرى دون الاضطرار لمواجهتها!)

ما زال الكاتب يفصل بين الصراع الأيديولوجي والعقائدي والصراع الثقافي الحضاري مع أنه يؤكد في جميع أحاديثه وكتاباتاته بأن اللغة والدين، أي العقائد، هي أساس الثقافة والحضارة.. فلماذا هذا الفصل وقد أعلن بصراحته المطلقة أن الإسلام، ولو خففها بقوله بالعالم الإسلامي، هو صاحب الدور الخطير في هذه الصراعات، وحدد مواضع الخطر وأسبابه وكأنه يتجاهل أن أحداً من تلك الأقطار باستثناء السودان لا يقول بالتزامه بالإسلام، وإن كان من الممكن أن يقصد عدم قدرة الحكومات في تلك الأقطار على الوقوف ضد سكانها المسلمين عندما يجد الجد وينتقل الصراع إلى الشكل الدامي. وأما أنه يحدد ثلاثة مواطن لدور الإسلام في هذا الصراع الحضاري مع الغرب، ومع الهندوس، ومع الأرثوذكس، فكأنه يحرض أصحاب تلك الأديان لتهدد للبطش بالإسلام وأهله قبل أن يبادر إلى حد زعمه بهجوم الإسلام المسلح ضدهم؟! فهل ما يجري في الشيشان الآن مبادرة من المسلمين ضد الروس الأرثوذكس أو العكس؟! وهل ما يجري في جنوب السودان هو مبادرة من المسلمين ضد المسيحيين أو العكس؟! وهل ما يجري في أندونيسية ونيجييرية والفلبين وغيرها من الأقطار هو تعدي من المسلمين ضد المسيحيين أو العكس؟! وهل ما جرى ويجري في أفغانستان ويجري بين باكستان والهند هو من المسلمين ضد الآخرين أم

العكس؟! ثم ما هذه الضرورة التي يبرر سلفا بها العنف الغربي ضد الإسلام؟! بل ما هذه الحرب التي تعلنها أمريكا ضد الإسلام باسم الإرهاب في كل مكان؟!

حوار آخر معه أجرته مجلة (المجلة)

تشير المجلة إلى أن الكاتب قد قرر بسبب نجاح دراسته عن صدام الحضارات بما لاقتته من ضجة عالمية تحويلها إلى كتاب أسماه (صدام الحضارات والنظام العالمي) والذي لم يظهر بعد في الأسواق رغم ما تكتبه دار نشر الكتاب عنه من أنه أصبح بأهمية كتاب جورج كينان عن نظرية احتواء الشيوعية من خلال (أحلاف عسكرية تحيط بالاتحاد السوفيتي، ووضع خطط لمنع انتشار الشيوعية في الدول الغربية ودول العالم الثالث).

وهذا بالفعل ما حصل بإنشاء حلف الأطلسي ضد الاتحاد السوفيتي، وتحويله الآن إلى ضد العالم الإسلامي، الخط الجديد كما يراه مخطوطو الاستراتيجية الغربية وعلى رأسهم هانتنتون هذا، كما بالفعل وضعت الخطط في أوربة وأمريكا وما كان يسمى بالعالم الثالث لمنع انتشار الشيوعية فيها..ولكن كل ذلك لم يكن العامل الحاسم في (نظرية احتواء الشيوعية) عند تطبيقها بأسلوب الصراع الحضاري السلمي وإنما بالحروب المحدودة هنا وهناك، مما يؤكد مقولة هانتنتون هذا الذي يضع (نظرية احتواء الحضارة الإسلامية) وإن ذكر الحضارات الأخرى ولكنه لا يرى فيها خطرا كما يرى بمنتهى الصراحة في الإسلام من خلال ما نلمسه في هذا الحوار الثاني..

إنه يجيب على تساؤل (المجلة) بأنه لا يفرق بين المعتدلين والمتطرفين من المسلمين بقوله بأن (تاريخ الإسلام خلال أربعة عشر قرنا يؤكد بأنه خطر على أية حضارة واجهها خاصة المسيحية)، ثم يوضح جوابه بأن المسلمين المعتدلين أيضا يهاجمون الغرب، ويضرب مثلا بالجزائرية فاطمة مرنيسي المعتبرة ليبرالية بأنها هاجمت الغرب في كتابها (الإسلام والديمقراطية) بأنه مادي انحلاي وعنجهي وعنيف، وواصل تأكيده لما يعتقد من استحالة اللقاء بين الإسلام والغرب وأنه (سيظل الصراع قائما بينهما كما ظل قائما لأربعة عشر قرنا)، وأكد أنه مواجهة وأكثر من صراع لأربعة أسباب هي:

١. الزيادة الهائلة في عدد المسلمين في العالم،
٢. التمرد على ثقافة الغرب وسيطرته،
٣. زيادة النفوذ العسكري والثقافي للدول الغربية،
٤. سقوط الاتحاد السوفيتي ونهاية الشيوعية.

وأكد بأن الغرب قد تحول من مسيحي إلى حضاري ولذلك فهو يتحدث عن الحضارة الغربية في الدول الغربية كما يتحدث المسلمون عن الإسلام والمسلمين وتوحيد صفوفهم والقضاء على (أعدائهم)

وأما عن مصير الملايين من المسلمين في أمريكا والغرب فقال بأنهم أقلية مثل المسيحيين في البلاد الإسلامية، وله اعتباراته وظروفه الخاصة، وإن كان مصيرهم يعتمد على نظرتهم لأنفسهم وهل هم مع الغرب أو مع المسلمين، ووضح قوله بأنهم إذا تأقلموا مع البلاد الغربية وأصبحوا متكيفين معها فلن يكونوا مع المسلمين في الخارج..وأوضح بجلاء بأن البضائع الاستهلاكية الأمريكية وأفلامهم وفنادقهم وسياراتهم ليست هي الحضارة الغربية، وإنما هذه الحضارة أوسع من ذلك وأكمل..

وفي رده على سؤال (المجلة) التالي صرح بأنه لم يكتب دراسة اجتماعية عن كيفية التعايش بين الحضارات والثقافات وإنما كتب سردا تاريخيا يؤكد بأن العالم في (نهاية القرن العشرين على أبواب مواجهة بين الحضارات)، وأنه عندما أبرز هذا الصراع بين الحضارة الغربية والإسلامية ولم يبرز اللاتينية ولا الإفريقية فذلك لأن الأولى جانب من الغربية والثانية في بدايتها..

وعندما تساءلت (المجلة) عن اعتذار الغرب لليهود ودفع تعويضات لهم، ولماذا لا يعتذر عن حروبه الصليبية أعلن الاختلاف بين اليهود لتقدمهم في أوروبا وتعدي هتلر عليهم، ولأن المسلمين لن يعتذروا للغرب المسيحي لأنهم غزوا أوروبا...

ثم عاد وأكد بأن زيادة السكان المسلمين وبخاصة الشباب خلال العشرين سنة القادمة ستكون من العوامل التي ستهدد الدول الغربية...

وعاد وكرر تأكيده في نهاية الحوار بأن أمريكا ستحقق مصالحها إذا تجنبت المصالح المتطرفة وتبنت بدلا منها سياسة أطلسية بالتعاون الوثيق مع أوروبا لتحمي بها وتدعم (المصالح والقيم والثقافة الخاصة بالحضارة النفيسة والفريدة التي يشاركون فيها).

لقد كان الكاتب صريحا جدا رغم أنه من المفترض ككاتب بل مخطط استراتيجي أن يتجنب مثل هذه الصراحة... صحيح أن كتاب الاستراتيجية الغربية قد اعتادوا على الحديث العام الذي يقود الخصم للوقوع في الفخاخ السياسية والعسكرية والاقتصادية التي ينصبونها له مدفوعا بظنه أنه قد عرف تماما ما يريدونه وما يخططون ضده، ولكن قد تنبته دولة الاتحاد السوفييتي السابقة لذلك ونجت من فخاخهم وهي تسارع برد الفعل العسكري بإنشاء حلف وارسو مقابل حلف الأطلسي؟! ثم ما هذا الانجرار وراء كل ما كان يفعله الغرب بفعل ما يقابله في العالم الثالث دون أي تفكير بعواقب ذلك حتى انتهوا إلى الانهيار التام بعد أن لعب الغرب لعبته في داخل بلدان الاتحاد السوفييتي وأخذ يستثيرها بلدا تلو الآخر ضد الشيوعية حتى جاء الانهيار الاقتصادي في روسية عقر دارها الأصلي؟! لنندع صراحة هذا الكاتب جانبا ونذكر منها أنهم منذ لحظات سقوط الشيوعية وانهيار الاتحاد السوفييتي وهم يخططون لاحتواء العالم الإسلامي، سواء في حروب الخليج أو مع (إسرائيل) أو بالصلح الآن أو بعون أوروبا وروسية وتركيا وغيرها أو بالحرب الصليبية التي

أعلنها الرئيس الأمريكي ج. بوش لتحطيم وبالتالي احتواء العالم الإسلامي... فهل تنبه المسلمون لذلك أم أن المسلمين شئ وحكوماتهم شئ آخر؟!!!

والآن جاء دور الردود على الدراسة في الفصل الثاني بستة ردود أجنبية، وفي الفصل الثالث بتسعة ردود عربية وإسلامية إذا دمجنا ردود الرئيس الإيراني محمد خاتمي الثلاثة في رد واحد. ولنأخذ فكرة عن كل رد:

الرد الأول:

١ - ج. جون أيكبري - الغرب نفيس... لا متفرد، حضارات تتجه نحو نموذج فقير. إنه يهاجم هانتنتغتون لأنه استبدل عالم التوترات العظمى للقوة بعالم الصراع الثقافي والديني الذي يلوح في الأفق بعد أن أخذ يضمحل... وأن على الغرب المتعقل أن يقبل هذا الواقع الجديد الخطر ويحشد قواه ضده ويستعد للأسوأ.

ويهاجم مفهومه للحضارة وأن ما ذكره من مكوناتها ما هو إلا نظم اجتماعية...

ويهاجم دعوته للغرب ليستعد ضد الصدام الآتي، وأن كل ما يقصده هو تقوية التماسك بين الحلفاء الأطلسيين المتنافسين تحت قيادة أمريكا...

لا تعقيب وإن كان مفهوم هانتنتغتون للحضارة هو الصائب.

٢ - طوني سميث - حدس خطر : يهاجم تقسيمه للعالم بخطوط حضارات جاهزة للصراعات فيما بينها بينما كان الأولى به أن يبين كيف يقيم الغرب توافقاً معها.

ويهاجم الصورة غير الدقيقة التي يرسمها للحدود السياسية المتطورة للعالم وللتهديدات الحقيقية للأمن.

ويهاجم عدم تحديده السليم للغرب عندما يخرج أمريكا اللاتينية واليابان (وإسرائيل) وحتى روسية منهم بحجة أنها أرثوذكس...

ولكن هذا الرئيس للعلوم السياسية في جامعة تافت لا ينفي وجود هذه الحضارات ولا الصدام فيما بينها.

٣ - ديفيد هاول - شرق يتجه غرباً. يهاجم القول بأن القضية هي غرابة الشرق، ويقول بأن الصحيح هو شرقنة الغرب بما تسعى دول الغرب إليه من تعزيز اقتصادياتها وتشكيل تحالفات مع عمالقة آسيا المتحالفين...

ويهاجم الحديث عن البحيرة الأطلسية المتفردة، وهو حديث قديم، ويرى الأولى الاستفادة من ديناميكية الشرق...

ولكن صرف الصدام الحضاري إلى الاقتصادي، وجعله تنافسا بدلا من الصراع هو تقزيم للمشكلة...

٤ - بروس نسباوم - رأسمال لا ثقافة. يهاجم تفسير هانتنتغتون لواقع العلاقات الدولية بصدام الحضارات والثقافات، لأنه يعتبر كل النظم الاجتماعية والتقنية جزء من محتوى المنظومة الاقتصادية.

ويرى أن التنافس الرأسمالي هو الذي يجري الآن بين الدول وليس الثقافي. ويعتبر دراسة هانتنتغتون تبريرا زائفا للقوميين في كل مكان لأفكارهم وأفعالهم القبيحة.

إنه التفسير الماركسي للحياة بالقول بسيطرة الاقتصاد على كل شيء، وهو تفسير مقلوب إذ الاقتصاد من نتاج الثقافة والحضارة وليس العكس...

الرد الثاني: أخطار التفسخ / كيشوري محبوبياني

يهاجم قول هانتنتغتون بصدام الحضارات المتوقع في المستقبل القريب لأن هذا يضاعف من عدم ثقة الغرب بنفسه ومن الخشية المتنامية بين الغرب وباقي العالم، ويدعو لانسحاب الغرب وبالذات أمريكا من مساندة حلفائها في الشرق الأوسط والمحيط الهادي مما يعرضها للدمار.

ويهاجم قوله بتحدي الحضارتين الإسلامية والكونفوشية للغرب مع أن الغرب يرى ما تتعرض له بلدان تلكما الحضارتين من خسائر أمام الغرب، ويدرك سلوكه اللاأخلاقي بمعيار المكيالين في البوسنة وفي تعامله مع الصين في ظروف مختلفة، وكيف يستثير ملياري نسمة بالقول بهذا الصراع بينهم وبين الغرب!؟

ويغمز من انتهازية أمريكا في بيعها الأسلحة للسعودية، وانتهازية الصين في بيعها الأسلحة لإيران... ويقول بأن ذلك دليل فشلهم في وضع استراتيجية صالحة للتعامل مع الإسلام أو الصين لدى الغرب... وأن ما يقوله هانتنتغتون من إعداد الشعوب غير الغربية لتكون أهدافا للاستعمار الغربي بل تكون محركا له، كما أن الغرب يستخدم جميع المؤسسات الدولية والمالية والعسكرية ليبقي الهيمنة الغربية على العالم ويروج لقيمه السياسية والاقتصادية... هذا القول أعظم وأوضح دليل على العقلية الغربية الاستعمارية ضد غيرهم.

ويلفت نظر هانتنتغتون وأمثاله إلى أكذوبة الديمقراطية عندما ينادون بها ويقبلون أن يسيطر ١٥% من سكان العالم وهم الغرب على الـ ٨٥% منهم وهم الباقون!!

ثم يدعوهم للاستفادة من العالم النامي الذي يستقبل صادراتهم فينمي اقتصادهم بدلا من خلق حواجز معها بالقول بصدام الحضارات معهم.

وأخيراً يدعو الغرب للحذر من تخريب نفسه بنفسه عندما تسيطر عليه عنجهية الحرية الغربية والديمقراطية كضمانة لبقاء حضارتهم مع أن يمثل هذا الإفراط بالثقة بالنفس يجري التدمير الذاتي... فأين هي مصارحة السياسيين للعمال على مستقبلهم الذي يزداد ضيقا مع الأزمات الاقتصادية التي يعترف الأمريكيون بأنها تكمن في الديمقراطية الأمريكية نفسها... وأن هذا التفسخ الاجتماعي الذي يتضاعف في المجتمع الأمريكي نتيجة عبادة الحرية الفردية لا يشجع أحدا على الاقتداء بهم... وأن هذه الإنجازات العلمية الفائقة لديهم لا تعمي العيون عن رؤية مخازي القيم الاجتماعية التي يعيشونها...

لا تعقيب اللهم إلا ضرورة الغرب أن يفهم الإسلام كدين وشريعة قبل وضعه موضع العداء الصليبي القديم...

الرد الثالث: الحضارة الغربية دمج أحداثات،

والإسلام أول من سعى إلى العالمية/برنارد لويس

يهاجم نظرية صدام الحضارات، ويرى بدلا منها نظرية التواصل الحضاري، ويؤكد التأثير الكبير لدور الإسلام (في إثراء الحضارة الغربية المهيمنة اليوم)، ويرى أن ما يفعله المسلمون اليوم عند دخول أي (سوبر ماركت) هو لاختيار بين المقبول ثقافيا عنده وبين غير المقبول وهو يرى قيم الغرب الخاطئة والحياة الفاسدة المتصلة بها.

ويقارن لبيان نظريته في تواصل الحضارات بين صعود الغرب في العلوم والإصلاح في مختلف المجالات ومحاولات العثمانيين المتعثرة في ذلك والتي انتهت إلى ضرورة وجود صناعة حربية خفيفة وليس شراء أسلحة حديثة من الغرب، ولكنهم أبقوا على الاستعانة بالغرب وتقليده حتى في ملابس الجنود والضباط مما أضر سيطرة الغرب عليهم مبكرا وإن لم يمنعها أخيراً.

وحاول مفكرو الشرق أن يعرفوا سر التفوق الغربي عليهم فطرحوا عدة نظريات كانت آخرها بما في المجتمع الغربي من حرية فردية وحقوق الإنسان والحكم المحدود، ولكن الحداثة لا تفرض الغربنة كما هو في نمور آسية، والإسلام معروف بالحكم المحدود بغض النظر عن هذه الديكتاتورية في بلاده اليوم، وفكرة فصل الدين عن الدولة تركزت في أمريكا وغرب أوروبا ولكنها مازالت محدودة في ديمقراطيات أخرى، كما أنها فكرة تختلف من دين إلى آخر، والقول بأن كل هذه الاختراعات بدأت

غربية غير صحيح لأن الكثير منها جاء من الشرق حتى الطباعة والكثير من أصول العلوم المختلفة، فعملية التحديث انطلقت من الغرب ولكن بأصول شرقية كثيرة لها، والمسيحية والإسلام على السواء قاما بالبداة بمهمة عالمية والإسلام وحده هو الذي سار فيها وحققها بالاستفادة من الحضارات القديمة وهضمها وتوصيلها للغرب، وما في علومنا حتى الآن أكبر شاهد على ذلك، ولكن تفاوت النمو في التقدم هو الذي جعل الغرب يتفوق على الشرق عموما وجعل بعض بلدان الشرق الأقصى تتفوق على الأوسط.

فقد هيمنت حضارات في الماضي كما تهيمن الحضارة الغربية التي تشتمل على أحداث سابقة عديدة في الحاضر لتترك إرثا ثقافيا لحضارات ستأتي... إنه تواصل الحضارات لا تصادمها...

بلا ريب إن لهذا المؤرخ الشهير وجهة نظره السليمة لو تخلصنا من الأحقاد الصليبية والصهيونية ضد الإسلام والمسلمين، وأقبل الغرب على معرفة نزيهة وموضوعية للإسلام، وتخلص من هذه السياسات التي توجهها تلك الأحقاد، وعندها سيجد المسلمون سباقين له بأسلوب الحوار والجدال بالأحسن... ويظهر أن ذلك لن يتحقق إلا بوجود كيان إسلامي تشريعي يزيل أسباب تلك الأحقاد ويكون قدوة حسنة...

الرد الرابع: فلسفة ما بين الثقافات في عالم اليوم/ديتر شتاينغهااس

يرى هذا المفكر الألماني ذو التأثير الكبير في نقد ثقافة الحداثة ضرورة المقارنة بين الثقافات في عالم اليوم وعما كانت عليه في الماضي ليظهر مدى تأثيرها في انتقال المجتمعات من التقليدية إلى الحديثة، فيشير إلى كيف تحول العالم بنزع الطابع الفلاحي عن المجتمع إلى الطابع (المديني) سواء من حيث النتائج الفكرية أو العملية، فتعلم الناس أن يتعاملوا بأسلوب سلمي بعيد عن العنف ومنضبط بالعقل والفكر لحل مشاكلهم، فأخذت المجتمعات بدافع الحراك الاجتماعي تغير مؤسسات الجماعة أو السلطة من موطن الصراع والتنافس أو الاضطراب إلى التمدين المفروض رغم الإرادة الفردية والموجه بعدالة التوزيع والنزاهة.

وأن هذا التحول لم يكن مقصورا على أوروبا، ولكن للبلدان غير الغربية كان موقفا من تقليد الغرب: فمنها من اتخذ الغرب قدوة تحتذى، مثل كوريا وتايوان، ومنها من رفض التحديث كما فعل غاندي في الهند، ومنها من سعى للحصول على التقنيات الغربية دون ثقافتها كسنغافورة، ومنها من اجتمع لديها المحافظة التقليدية مع التحديث كما يقول عن الشورى في الإسلام...

فأين نقد ثقافة الحداثة في هذا الرد؟! إنه يصنف الدول حسب سياستها في قبول الثقافة الغربية مع التحديث أو التفريق بينهما... والمهم يبرز في هذا الرد المعنى

الحقيقي للتحديث وأنه الأخذ بالعلوم والتقنيات بينما الغربية هي الأخذ بالثقافة، وهذا فهم دقيق.

الرد الخامس: الاستدعاء/فؤاد عجمي

يهاجم هانتغتون لأنه يعتبر تلك الحضارات السبعة أو الثمانية التي تحدث عنها في دراسته قد عادت للحياة رغم الحداثة ورغم اعترافه بتأثير الدول الفاعل في الشؤون الدولية.

ويهاجمه لخوفه من عودة هذه الحضارات الخاصة رغمًا عن الحضارة الغربية والحداثة التي سادت هي والعلمانية مواطن تلك الحضارات، وإن مثل الهند لن تعود للهندوسية وتتخلى عن الحداثة العلمانية، وأن القول بالأصولية الإسلامية ما هو إلا رد فعل ضد خطايا الغرب في حقهم، وأن ظهور الدولة الإسلامية في طهران لم يكن إلا تمردًا على الطرق الأمريكية في الغواية، وأن ما يجري في الجزائر ما هو إلا رد فعل ضد فشل قواعد جبهة التحرير الجزائرية وليس عودة للإسلام، وأن ما يجري في مصر ما هو إلا شبيه قريب بالجزائر، وأن تركية حريصة على مواصلة السير مع الغرب، وأن هانتغتون يبخص قدر الحداثة والعلمانية في تركية.

ويجزم أن الصراع بين الدول هو على حصصها في السوق والاقتصاد العالمي وليس هو على الحضارات وثقافتها، وذلك ظاهر في دول جنوب شرق آسيا التي تحاول أمريكا أن تمنعها من الازدهار الاقتصادي دون أي تفكير بحضاراتها، كما أنه ظاهر في محاولات كورية الشمالية والصين لتصدير السلاح لإيران وسورية وليبيا كسرا للحرمان الأمريكي من سوق السلاح العالمي لغيرها.

ويهاجمه لأنه يعزو ما حصل في تاريخ البحر المتوسط الماضي والحاضر للصراع بين الحضارتين الإسلامية والمسيحية، مع أنه لم يكن إلا بحثًا عن الأسواق وإن ذهب للبوسنة متطوعون من الشباب المسلم بدافع عقيدتهم الإسلامية، ولكن أوروبا وأمريكا لن تترك كل ذلك دون كبح في الحدود التي يريدونها، وأن ما فعله صدام في حربه ضد إيران ثم في احتلاله للكويت ما هو إلا مجرد فعل سلاب نهاب يسيل لعبه على ثروة الخليج فأعيد إلى حجمه الحقيقي، فلا إسلام ولا حضارة إسلامية في ندائه بالجهاد، ولا في قرار مجلس العلماء السعوديين بمساندة تدخل الحلفاء لإنقاذهم من طمع صدام، ولا في نداء مفتي مصر ضد تدخل صدام وتظاهره نفاقًا بالإسلام، ولا في موقف إيران مما حصل إلا الطمع في ميل ميزان القوى لصالحها بعد تحطيم صدام... فالعالم الإسلامي منقسم على نفسه بصورة أساسية، فلا صراعًا حضاريًا فيه ضد الحضارات الأخرى ولا منه ضد البعيد وإنما كل ما يجري هو صراع مصالح الدول.

ويؤكد له بأن الدول تسيطر على الحضارات وليس العكس، وأن ما تفعله الدول بالجوء إلى روابط الأخوة والعقيدة والقربانية ما هو إلا مجرد غطاء مؤقت للحفاظ على

مصالحها... وأن ما يجري الآن من احتكاك بين فرنسا وأمريكا ليس بأكثر من عدم قبول الهيمنة الأمريكية...

إن هذا الرد التحليلي لفؤاد عجمي كأستاذ كرسي مجيد خدوري لدراسات الشرق الأوسط في مدرسة الدراسات الدولية المتقدمة في جامعة جون هوبكنز الأمريكية قد جاء متناسبا مع مهمته وتفكيره في الدراسات التي تجد فيها دوائر القرار الأمريكي خاصة والغربي بعامة الرأي الآخر عند وضع خططها الاستراتيجية ضد ما يسمونه بالشرق الأوسط أي مركز العالم الإسلامي. إن هذا الكاتب وهو يسفه تصوير هانتنتغتون للصدام الخفي الآن في العالم والظاهر غدا كصدام حضارات، ويركز على تصويره الخاص بأنه صراع نفوذ ومصالح بين الدول محتجا بفهمه بأن الحضارات قد ماتت ودفنت ولا يلجأ إليها أو إلى شئ منها أحد من الدول إلا لاستخدامها بصورة مؤقتة من أجل المصالح وتوازن القوى... فإلى أي مدى كان هذا الرد موفقا؟ إنه قد جانب الصواب تماما، ولو قال بأن من يحدد المصالح والسيطرة والنفوذ في عالم أمس واليوم والغد هو أفكار وثقافات وحضارات الدول، وأن الدول تحاول أن تخفي ذلك الآن حتى لا تنتهم بالعودة لعصر (الرجعية والتقاليد) التي حلت محلها الحداثة لكان صانبا... ولكن نوعية أفكار هذا الكاتب في هذا الرد وفي الدراسات الأخرى تجعله بهذا الفهم المقلوب للأشياء...

الرد السادس: خطر جديد يريد صموئيل هانتنتغتون أن يخلقه (١ من ٢)

كتاب صدام الحضارات دليل لا يعتمد عليه للنظام العالمي الجديد، وبرنامج عمل خطير - ستيفن والت

يهاجم دراسة هانتنتغتون لأنه يستغل ثلاثة عوامل لشهرتها هي: لتبسيطه الظواهر المتنوعة بمهارة كبيرة، ولاستغلاله لموضة التفسيرات الثقافية الشائعة الآن في كل شئ، ولاستخدامه للفروق الثقافية وما تخلفه من سوء فهم وشك بين الأمم كما هو حاصل الآن في كثير من مناطق العالم... ولكنه لم يوضح سبب التحول المفاجئ للولاءات من الأمم والدول إلى الحضارات، ولا سبب التحول المزعوم إلى صراع حضارات، كما أنه يهمل دور القومية في أي نزاع، مما يجعل دراسته لا يعتمد عليها لهذا النظام العالمي الجديد وهي تقدم برنامج عمل خطير للسياسة.

ويهاجم قوله بقرب أفول نجم الهيمنة الغربية لتبرز قوى كبرى بديلة ترفض القيم الغربية لصالح مصالحها الخاصة، بدلا من تأثير التحديث في التقارب الثقافي، فيكون عالما متعدد الأقطاب تبعا لتعدد الحضارات.

ويهاجم زعمه بأن الغرب يواجه خطرين بارزين بشكل خاص هما الإسلام والصين، والإسلام بسبب انفجاره السكاني وانبعائه الثقافي، ولو ليس له دولة مركز

قوية، والصين وما حولها من الأقطار الآسيوية التي اكتسبت بنجاحها الاقتصادي ثقة بنفسها، مما جعل هانتنغتون يدعو لتوسيع حلف الأطلسي، ولمنع تلاقي اليابان مع الصين، ولهيمنة روسية على البلدان الأرثوذكسية، ولمنع التقليديين من تفويض الثقافة الغربية، ولتجنب التدخل الغربي في شؤون الحضارات الأخرى لأنه يثير عدم الاستقرار في العالم.

ويهاجم تحليله لما كان قبل انتهاء الحرب الباردة بأنه صدام حضارات لأن الدول بصورة قومية هي التي كانت تتصارع خلال المائتي سنة الماضية، وأن الحروب لم تكن داخل الحضارة الواحدة بقدر ما حصل ضد اليابان وروسية.

ويهاجم قوله بأن اختلاف الثقافات كان سبب المنازعات لأنه كان بدافع مصالحها الخاصة ضد آخرين من نفس الحضارة، وأن الدول ستبقى كذلك ولن تعود لجذورها وقيمها الثقافية وتنسى صراع المصالح.

ويهاجم زعمه بأن نهاية الحرب الباردة قد أدت إلى أزمة هوية في العالم أجمع مع أن كل أزمات الهوية قد نشأت من حركات قومية أكثر من صلة حضارية.

ويهاجم ادعائه بأن الصدام سيكون بين الحضارات المختلفة وليس داخل الحضارات نفسها، لأن هذا الاحتمال لا يستقيم مع التأسيس القسري للأنظمة السياسية والاجتماعية.

إن أستاذ علم السياسة هذا في جامعة شيكاغو لا ينقض في رده هذا نظرية (صدام الحضارات) بقدر ما يؤيدها سواء برفضه فكرة قرب زوال السيطرة الغربية على العالم التي يرى إمكانية استمرارها إذا احتوتها واعترفت بإمكانية التعايش معها، أو بتجديده لخطر الإسلام والصين على الغرب إذا سار بحذر في عدم إثارة تلك الحضارات وحول صدامها بدلا معه لتكون داخلية بين أهلها، أو بقوله بقومية الصراعات وليس حضاريتها ما دام الفكر الثقافي واحدا وإن ضاق أو اتسع، أو بتفسير الصراع بأنه كان على المصالح وليس بين الحضارات لأن المصالح تحدها الأفكار الحضارية في الأصل، وكذلك الأمر بالنسبة لتنازع الهوية، والصدام داخل الحضارة الواحدة الذي ينشأ عن ضيق في النظرة الحضارية...

الرد السابع: سقطت الاشتراكية فهل انتصرت الرأسمالية وانتهى التاريخ وتحققت أحلام العولمة؟

أسوكي ساكاكيبارا، المدير العام لمكتب التمويل الدولي في وزارة المالية اليابانية :

يهاجم قول هانتنغتون بأن الصراع قبل انتهاء الحرب الباردة كان بين أيديولوجيات وليس بين ثقافات وحضارات لأنه بالفعل كانت أيديولوجية الاشتراكية والأيديولوجية الرأسمالية في السعي وراء التقدم كل على طريقته، وأن الصدام بعد

الحرب الباردة قد أراح العالم من ذلك النوع من الصدام ليحل محله مواجهة كل أمة مشاكل التلوث والتعايش السلمي بين الحضارات المختلفة المتنافسة المتفاعلة، وأن هذا هو بالفعل الذي كان في الماضي.

بالتسامح والاعتدال بين الحضارات المتنافسة يحافظ كل مجتمع على مكتسباته من الحداثة مع الحفاظ على تقاليده خاصة.

ويهاجم النظام الرأسمالي الذي يفرض طريقة واحدة للتقدم هي نظامه وسوقه الحرة بينما نجد الأزمات تعصف به وبكبار سياسيينه من كل جانب سواء في أوروبا أم أمريكا أم اليابان... بينما نجد الصين قد سارت في طريق آخر.

ويشير لزعم الغربيين بأنه لم يبق إلا الحضارة الغربية المهيمنة على العالم، وأن أمريكا قد ملكت زمام النموذج الإرشادي الجديد غيرها البديل للاشتراكية بعد الحرب الباردة والنقيض لها بعد الحرب العالمية الثانية ولكن هل حل المشكلات المرافقة للرأسمالية، فقد خلقت أسواق استهلاكية جماهيرية واسعة، وأصبح المستهلكون هم الطبقة الوسطى المسيطرة على استقرار النظام... كما توفرت حالة الرفاه للمواطن الأمريكي فالأوروبي فالياباني ولكن الاستهلاك الجماهيري في توسع مذهل... فأين ذلك كله من الحضارة الغربية!؟

ويهاجم الظن بأن هذا الازدهار الاقتصادي أبدي مع أنه غير ذلك لعيبين اثنين: الأول للظن بأن عاملي الإنتاج وهما العمل ورأس المال لا يعبران الحدود مع أن عولمة رأس المال النقدي مع التحرك الحر نسبيا ينسفان ذلك لأن العولمة تؤدي للاحتكار مما يجعل التجارة الاستراتيجية تحل مكان التجارة الحرة، وتفترق مصالح الشركات متعددة الجنسيات مع مصالح العمال والمستهلكين، فيبدأ تفكك الدولة القومية. والثاني ضعف القيود البيئية فانفجر استهلاك الطاقة مع الانفجار السكاني المتصاعد فتعرضت طبقة الأوزون للتدمير وإن كان التقدم التكنولوجي يعوض جزئيا فيؤجل عملية التدمير لوقت قصير جدا... فهل هذه هي الحضارة الغربية!؟

ويهاجم القول بحتمية النجاة بالتقدم والتجديد التكنولوجي لأن مشكلات التفاوت والتلوث تتفاقم ناهيك عن تضاعف تقسيم السكان بين موسرين وفقراء... ويقر هانتنتون تماما بقوله بأن الهوية الحضارية ستزيد أهميتها في المستقبل، ولكنه يشدد على تفاعلها وتعايشها كما حصل في العهود الإسلامية مع الشعوب الأخرى والتي لم يحصل فيها تصادم إلا عند تدخل الحضارة الغربية... فما على الحضارات إلا أن تأخذ بالتحديث وتحافظ على البيئة في جو من التسامح والاعتدال وليس الدعوة للتصادم.

ويدعو أصحاب الحضارة الغربية للاستفادة في عولمتهم الحديثة من عولمة الإسلام مع الهند والصين التي قامت على التسامح، وذلك بأن يتخلى الغرب عن إفراطه في ادعاء التقدم باحترام البيئة والتسامح مع الحضارات الأخرى بغض النظر عن سرعة التطور التكنولوجي المذهل، فتسير العولمة جنبا إلى جنب مع التنوع الثقافي والحضاري فينطلق التاريخ من جديد بدلا من أن يموت...

يأخذ هذا الكاتب الياباني من درس المعيشة بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى المختلفة في العهد العباسي بالذات مثالا يطلب الغرب بالاحتذاء به بأن يتخلى عن نزعة التعالي بالتقدمية على الآخرين ولا يقيم أي وزن للبيئة، وعندها يمكن للعولمة أن تنجح بالجمع بين الحداثة والتنوع الحضاري القائمة على التسامح والاعتدال والمحافظة على البيئة معا... فالكاتب يوافق هانتنتغتون بنزايد أهمية الحضارة في المستقبل ولكنه كمن يذكره بما أنهى به دراسته بضرورة التفاعل والتعايش السلمي بين مختلف الحضارات...

الرد الثامن: في نقد «صدام الحضارات»/روي ب. متحدة

صحيح أن الدراسة قد أعادت للثقافة مكانتها في نظريات التنمية بعد أن انتقصت ذلك في الستينيات ولكن لا تستطيع أن تثبت تجريبيًا بأن الثقافة ستكون الباعث الرئيسي للانقسامات الكبرى بين الشعوب ومصدر الصراع الدولي السائد. ثم إن دعوته لأمريكا لتقيم تحالفات مع ثقافات مماثلة، ولدمج الغرب بمجتمعات أوروبا الشرقية وأمريكا اللاتينية، وبالحد من توسع العالم الإسلامي والصيني في التسليح، وباستغلال الخلافات والنزاعات بين الدول الكونفوشية والإسلامية، وأخيراً بأن تتعلم الحضارات كافة التسامح مع بعضها... فإن هذه الدعوة تكشف عن قصد هذا الكاتب الحقيقي الكيدي لغير الغرب.

والأمثلة عن العالم الإسلامي مبهمة جدا بل تدخل ضمن قصده المعهود، فمثلا إشارته بأن المسيحية في الحروب الصليبية قد نقلت للأراضي المقدسة، هذه الإشارة بعيدة عن حقيقة ما حصل إذ لا نقل للمسيحية لموطنها الأصلي ولا شيء غير التسامح مع المسيحيين وحتى اليهود في الشرع الإسلامي... وإشارته إلى أن الحرب بين العرب والغرب قد بلغت ذروتها سنة ١٩٩٠م غير صحيحة، فأى حرب وأي ذروة بين العرب يقصد المسلمين وبين الغرب قد حصلت في تلك السنة؟! وإشارته إلى أن الحركات الإسلامية المعادية للغرب هي التي استفادت من توسع الحكومات في تطبيق الديمقراطية... فأى استفادة هذه وقد استدرجت بل استغفلت تلك الحركات للقضاء عليها أو على تأثيرها في القطر الواحد؟! وخلطه بين العرب والمسلمين في إشارته للصراع في حوض البحر المتوسط بين العرب والغرب يتجاهل فيها المسلمين غير العرب كما يتجاهل غزو بريطانيا للهند وهولندا لإندونيسية! وما هذه الصراعات في أفريقية بين الحضارة الإسلامية العربية وغير الإسلامية التي يشير إليها غير تلك الفتن التي يشعلها الغرب بحفده ضد المسلمين؟! وإشارته إلى العنف بين الصربي والألباني تتجاهل من يحرك هذا العنف ومن يتفرج عليه حتى يأخذ مدهاء! وإشارته إلى الصراع في الفقاس بين الأرثوذكس والمسلمين يتجاهل فيها من يحرض عليه ويغذيه!

صحيح ان الحضارات كما تقول الدراسة تختلف جوهريا في الدين أولا فاللغة والتاريخ والثقافة والتقليد ولكن ترابط هذه العناصر الأساسية تختلف من حضارة إلى أخرى حتى أنه هو يلاحظ ما يقوله مكتب الإحصاء الأمريكي بأن سكان أمريكا سيتوزعون عام ٢٠٥٠م إلى ٢٣% لاتيني و١٧% سود و١٠% آسيويين، ويتساءل فيما إذا كان هذا النمط الأمريكي سيبقى سائدا عندما يصبح ٥٠% من السكان غير بيض؟! وبالتالي تنزع الغربية عن أمريكا نفسها لأنها تصبح متعددة الثقافات ويجري فيها صدام حضارات داخلي فنتتهي من الوجود إلى مزبلة التاريخ...

وزعمه بأن فكرة الأسواق الحرة ملك للحضارة الغربية ولا علاقة للحضارة الإسلامية بها غير صحيح لأن الإسلام يأمر بعدم التسعير ولو سمرت بعض الدول... ومدى التزام الغرب بهذه الفكرة المنسوبة لحضارتهم محدود جدا... مما يؤكد عدم صحة القول بترابط الحضارة الرئيسية بشكل دائم أو مؤثر دائما...

فان هذه الأمثلة وكثير غيرها ولا سيما أن تنسب مظاهر الحكم الديمقراطي وهو الانتخابات بالذات كميزة للغرب تؤكد مدى تجاهل هذه الدراسة لحقيقة عناصر الحضارة الإسلامية إن لم يكن نسبتها لغربهم... وأما دعوته لأمريكا بالذات للحذر من فقدان نقاتها الغربي باستيعاب غير الجنس الأبيض فهو مما لم يستطع الكاتب إخفاء عنصرته فيه، وأما زعمه بأن الحركات الإسلامية هي المستفيدة من ديمقراطية الدول التي توجد فيها فهذا عكس ما يجري الآن!! إذ الديمقراطية شكلية بانتخاباتها والبطش يجري على قدم وساق بالحركات الإسلامية!!

الرد التاسع: أي حوار مع الغرب؟

علي فياض، عبد الحليم فضل الله، محسن صالح

يحاول هؤلاء الكتاب الثلاثة في هذه الورقة التي ألقاها رئيس المكتب الاستشاري للدراسات والتوثيق علي فياض في مؤتمر حوار الحضارات الذي انعقد بمشاركة دولية في طهران يومي ١٢ و١٣/١٢/١٩٩٨م، يحاولون أن يحددوا كيف يمكن للمسلمين أن يعرفوا بل يعوا الغرب وذلك من خلال ثلاثة مفاهيم واتجاهات رئيسية حصلت في الغرب المعاصر وهي: مقولة نهاية التاريخ، للكاتب الأمريكي الياباني الأصل فرنسيس فوكوياما، ومفهوم العولمة، الذي لم يقف الحديث عنه لكاتب واحد، ومفهوم الطريق الثالث، لـ أنطوني غيدنز. فلا بد لتحقيق وعينا كمسلمين بالغرب المعاصر من عدم الاكتفاء بأطروحة صدام الحضارات رغم أهميتها في تمثيل إشكالية العلاقة مع الغرب، وتجاوزها لتحقيق الكفاية المعرفية والسياسية لوعينا إذ هي واحدة من مثيلات لها.

فبالنسبة لمقولة نهاية التاريخ نجدها تمثل أيديولوجية التفوق والاستعلاء عندما أعلن في صيف ١٩٨٩م بأن نهاية الحرب الباردة هي نهاية التاريخ المتمثلة في

الليبرالية الديمقراطية الغربية كشكل أخير لإدارة المجتمعات البشرية، متأثراً بروية هيغل بأن التاريخ يصل الذروة في لحظة ينتصر فيها شكل المجتمع والدولة العقلاني النهائي الذي يحمي حقوق الإنسان العامة بالحرية والديمقراطية، ويرى بأن هذه الليبرالية قد واجهت الفاشية وأسقطتها ثم واجهت الشيوعية وهزمتها، وأنه بالتالي لم يبق هناك منافسون إيديولوجيون إلا الدين والقومية، وأن الإسلام هو التحدي السياسي الذي ظهر بديلاً للماركسية لأن القومية لا تقدم برنامجاً متكاملًا من البناء الاجتماعي الاقتصادي كبديل، ولا يبقى إلا البناء الحضاري والسياسي الغربي لأن الدين يصعب ظهور أهمية شاملة له... ففوكوياما يطرح فلسفة جديدة للتاريخ منطقتها كما قال نيتشة التفوق والقوة، وهو يعمم فيها هزيمة الاتحاد السوفييتي والاشتراكية لتشمل كل النماذج الأخرى خارج الحضارة الغربية مما يشطب كل الحضارات الأخرى ويجمد مسيرة التاريخ بأسلوب تعسفي...

كيف لا وقد استبعد ديناميكية الدين الإسلامي فيما يجري من تغيير سياسي في معظم المجتمعات في العالم الإسلامي، الأمر الذي سيجعلها تقف في طريق جموح الليبرالية الديمقراطية والحضارة الغربية، وفوكوياما في ذلك يعيش وهم قدرة الليبرالية في حل تناقضات أسس مجتمعاتها الناتجة من تطور الرأسمالية نفسها من مثل ارتفاع معدلات البطالة، وازدياد حدة التفاوت الطبقي، وتنامي معدلات الجريمة، وانتشار المخدرات، وتفكك الأسرة، وازدياد العزلة الفردية، ويقظة الانقسامات العرقية، مما جعل جون غراي يتساءل: هل هي نهاية التاريخ أم نهاية الليبرالية؟ وجعل طوني بليز رئيس وزراء بريطانية يلقي خطاباً بهذا الشأن.

وأما بالنسبة للعولمة والبيئة التي تكتنف الحوار العالمي فهي تكشف عن تدهور المعايير في ذلك وتردي مناخات الثقة بين المتحاورين، لأنها تمر في فهم الغرب للآخر من خلال مراحل استعمار لهبلدانه ثم صراعه الأيديولوجي معه وأخيراً مرحلة الجذب والاختراق في عصر العولمة هذا...

فهو مجموعة قيم وشروط تجعل من يلتزم بها غربياً فكونياً، وإن كان مركزها قد بدأ في أوروبا ثم ورثتها أمريكا لتعيد تنظيم الزمان والمكان بشكل مغاير للقائم دون تحديد مستقر بسبب التقدم المستمر في المعلوماتية والاتصالات وزيادة تدفق الأموال عبر الحدود وإزالة الصبغة الوطنية/القومية عن العمليات الاقتصادية مما يجعل السلطة بيد الأقلية المالكة للرأسمال والمعلومات، فهي تتصف بـ:

١. الفرض بالقوة واستخدام مبدأ التغريم والاستبعاد لمن يرفضها وإيقاعه في وضع غير مريح.

٢. فرض مبدأ مركزية الغرب مع نقله من أوروبا إلى أمريكا التي تفرض نموذجها على العالم بشكل يحقق مصالحها ويكرس سيطرتها بتكوين الإنسان المستهلك بدلاً من العامل، ومع جعل هذه المركزية بيد أسياذ العالم الجدد وبعيدة عن رقابة الديمقراطيات المحلية لصالح الانخراط في الرأسمالية العالمية.

٣. لا تعمم العولمة قيما ولا نماذج حضارية بل ظواهر سلوكية سطحية، فثقافة السوق هي العالمية المقبلة رغم كل الثقافات العميقة الأخرى ومعاداة لها في ظروف عالمية غير متكافئة ولا عادلة.

٤. فهي على المستوى الجيوسياسي عودة إلى نظرية ملء الفراغات رغم أن عالم ما بعد الحرب الباردة لم يستقر بعد... فالعولمة تفسد بيئة الحوار بين الحضارات للمعوامل التالية:

- تعرف العولمة الغرب بنفسه بأنه السوق والديمقراطية اللذان يظن بأنهما متضامران لتشكيل حضارة مستقلة ولكنهما في الحقيقة متناقضان لأن السوق لا يحتاج إلى حدود بينما الديمقراطية تحتاجها فيسيطر رجال السوق على سير الحياة وتهبط قيمة الدولة، وتزداد الفروق الاجتماعية فيقل الاستقرار وتظهر عنصرية ضد الآخر.

- تقسم العولمة العالم إلى شرائح اقتصادية لا إلى حضارات وثقافات لأنها تهرب من السيطرة السياسية على السوق، فتختفي مصطلحات الاحترام والكرامة والمساواة والعدالة ليصبح جو الحوار مشوشا بإبعاد قيمة الثقافة عنه وإحلال التعامل مع الحواس الذي يلغي الوعي البشري ويضع قيمة إنتاج المعلومات في القمة.

- تثير المزيد من عدم الثقة على مستويات الأمم والشعوب وبين فئات المجتمع الواحد وكبار الرأسماليين يسيطرون على كل شئ تخطيطا وتنفيذا ونتيجة مما يضاعف من عدم الاستقرار ولا سيما ١٥% ينقسمون ٨١% من الدخل العالمي والسوء في ازدياد.

- تثير مخاوف الأمم والشعوب الأخرى وهي ترى سيطرة الهوية والسيادة الوطنية والقومية في المقابل مما يرتد التمسك بالهويات والثقافة في الجنوب ضد الشمال مهما حاول تخفيف ذلك.

- تجعل الفرد والنزعة الفردية أكثر تأكيدا من قبل مع تحسن قدرة الفرد على استخدام وسائل وتقنيات الاتصال المختلفة مما يوصله بالثقافات الأخرى ويجعله يعتمد على التكنولوجيا الحديثة لقضاء حاجاته مهما الاتصال البشري، وبذلك يسيطر حق الفرد والفردية على حقوق الإنسان والشعوب في تقرير المصير والحفاظ على الثقافة الخاصة.

- تكرر قاعدة الغرب المنتصر وغيره المنهزم وأن النظام العالمي الجديد هو هيمنة المنتصر المفروضة فرضا على المنهزم ليبقى يملأ الفراغ ويحقق السكون والاستقرار المزعوم في العالم ولذلك فإنه لا يسمح بمنافس له بل يدبر الحروب والحصار وسفك الدماء ليبقى منفردا مما يفقد كل اطمئنان وأمان في العالم ويمنع بناء جسور التعاون والتفاهم مع الشعوب والحضارات الأخرى ويهيئ لعودة حرب أيديولوجية ضد الغرب كمحاولة لإعادة الندية والمساواة والعدالة في النظام العالمي الجديد.

وأما بالنسبة لاتجاه الطريق الثالث الذي طرحه أنطوني غيدنز، المستشار الأيديولوجي لرئيس وزراء بريطانيا، فهو الحل الوسط بين الرأسمالية المتوحشة والشيوعية الهدامة، هو برنامج عمل للدول الأوروبية وبالذات بريطانية وألمانية وفرنسية لتسعى لتحقيق ما فقده الغرب الرأسمالي بعد هزيمة الشيوعية وانكشاف عيوب الرأسمالية من مساواة وحماية الضعيف والحرية للجميع وتوازي الحقوق مع الواجبات وترابط السلطة مع الديمقراطية والمحافظة على التعددية والعالمية... فهذا الطريق الثالث كما يقول صاحب فكرته (تغيير جذري في الفكر المعاصر في ميادين السياسة والاقتصاد) بعد أن ظهر ضعف الاشتراكية والرأسمالية معا وذلك لأن الاشتراكية لم توفر مجالاً للمشاريع والمبادرات الفردية، والرأسمالية لا تعترف بالحاجة إلى العدالة الاجتماعية.. إنه اتجاه جديد بدأ في صيف عام ١٩٩٨م..

وهكذا يظهر أن مقابل أيديولوجية التفوق في (نهاية التاريخ) والصراع في (صدام الحضارات)، ومقابل الهيمنة والاستتباع الملازمين للعلومة، جاء الطريق الثالث كمؤشر إيجابي لخلق بيئة سياسية واجتماعية أكثر ملاءمة للحوار المطلوب بما توفره من استقرار وتعاون بين الشعوب والأمم مع أن هذا الطريق الثالث في حقيقته ليس إلا محاولة لمعالجة التحديات الغربية الداخلية ولكنها لن تخلو من تأثير على العلاقات الدولية.

وأمام هذا الواقع الأيديولوجي الجديد التي تحاول أوربة أن تتصدى فيه أميركة علينا نحن المسلمين مهمة كبيرة تفتح بها لنا الطريق الثالث بابها على مصراعيه لنقدم للعالم النموذج الحضاري الإسلامي بأبعاده الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والإنسانية كطريق ثالث تفتش عنه البشرية ولكنها لم تعرفه بعد، ولا بد أن ننتبه إلى أن التركيز على الجانب السياسي لا يكفي لهذه المهمة ليعطي للإسلام الجاذبية الدولية كخيار أيديولوجي شامل.. ولكن أنى لهذه المهمة أن تتحقق دون قيادة شرعية راشدة فاعلة للتأثير في العالم الإسلامي!؟

وعلينا أن نقول لفوكوياما وللغرب بأن التاريخ المعاصر قد بدأ مع ولادة الجمهورية الإسلامية في إيران لتصنع الحضور الحضاري الإسلامي العالمي.. فهل يتحقق ذلك ونصيب في نظرتنا وتقديرنا؟

وختاماً ندعو للمبادرات الأربعة التالية لتتجنب الصدام بين الشعوب والحضارات ويحصل التعايش والتعاون:

أولاً - أن يراجع الغرب وسائله المتبعة لفرض نموذج على العالم مراعي التعاون الثقافي الدولي بين الثقافات والقيم الأخرى التي من حق كل منها أن تنمو كغيرها ليشكل التراث الإنساني منها جميعاً.

ثانياً- أن تسبغ الشرعية على حق التنوع بين الدول وفي داخلها نظرياً وواقعياً حتى تسهم كل الثقافات في إثراء التوجه العالمي على قدم المساواة والمنافسة والندية.

ثالثاً- أن يدعم تشكيل تعاون عالمي قائم على التعددية كأساس للعلاقات الدولية من خلال الحوار والتبادل الثقافي بدلاً من هيمنة السوق والمواجهة فيطور التفاهم الدولي ويبعد الصدام والحروب الكثيرة.

رابعاً- أن يؤكد على أهمية الآداب العالمية لتعزيز قدرة الشعوب والأمم على حل خلافاتها بغير عنف..

علما بأن هذه القيم جميعها ذات مصدر إلهي، وتلتقي عليها جميع الأديان مما يرفع من مستوى سلوك التعامل بين البشر..

كم هي رائعة فكرة صياغة النموذج الحضاري الإسلامي العالمي ووضعه من خلال قيادة إسلامية تتصف بتلك الصفات المذكورة للوصول مع جميع الشعوب والأمم في العالم ومع حضاراتها إلى وضع الطريق الثالث البديل لما يعرضه أنطوني غيدنز!! ولكن هل ظنكم يا كتاب هذا الموضوع في محله عندما ظننتم بأن الجمهورية الإسلامية الإيرانية هي القيادة الراشدة للعالم الإسلامي بفعالية ملفتة لنظر العالم كله وهو يعيش مرحلة الاضطراب الفعلي بعد بروز وحشية الرأسمالية على أثر هزيمة الاشتراكية، وأن ترقيع الرأسمالية باتجاه غيدنز لن يكون البديل عن الإسلام الحق؟! لنسمع ما يقوله الرئيس محمد خاتمي في ردهه الثلاثة ونرى مدى الظن الصادق به وبجمهوريته

الرد العاشر - الرئيس الإيراني السابق محمد خاتمي يقول:

١- هذا هو موقفنا من الحضارة ونقدنا لحدائثة الغرب،

٢- فلنحاول صيغة أخرى لوجودنا الحضاري،

٣- ولنجر حوار الحضارات ونرى صعوباته.

١- لقد رافقت الحضارة الحديثة إنجازات مدهشة لجميع بني البشر مع مساوئها الكثيرة التي سببت أزمات الغرب الاقتصادية والاجتماعية والفكرية، ولا بد من الوعي على الغرب وروحه المتمثلة بالحدائثة وعطيته المتمثلة بالتنمية وتحكم عليه الحكم السليم.

إن حضارتهم بشرية نسبية ممكنة الزوال ما دامت قد جاءت استجابة لتساؤلات الإنسان عن الوجود والإنسان، وما دامت هذه التساؤلات قد تظهر عجز تلك الحضارة مع مسيرة التاريخ عن إجابة التساؤلات والحاجات الغربية.. فحضارتهم تبقى غير ثابتة ولا خالدة وهي كحضارات أخرى تبقى ظاهرة إنسانية ترتفع وتنخفض تبعاً لقدرتها على إجابة التساؤلات بشكل ناجح.

لقد استطاعت الحضارة الغربية أن تتجاوز الأزمات المعاصرة التي تعرضت لها سواء في الحربين العالميتين أو مواجهة خصمها الاشتراكية ولكن الضعف قد

أضحى يعصف بها بشكل أشمل وأكثر جدية منذ أن انفردت بالعالم محل الاشتراكية، فأصبحت أصولها الفلسفية والأخلاقية والقيمية محل اعتراض أوسع وأعمق مما كان في السابق بعد أن لجأت للقهر والاضطهاد والضغط الروحية والجسمية لخلق تلك التساؤلات ومصادرة الاحتياجات مما كان سببا لانتهيار حضارتهم في القرون الوسطى وظهور الحضارة الحديثة التي حاولت أن تجيب بشكل ناجح على التساؤلات والاحتياجات وذلك من خلال ما طرحوه من أفكار وأحكام كرد فعل على ممارسات القرون الوسطى المتمزمتة فتخلصوا من سيطرة الكنيسة ورجالها، ومن خلال دور المفكرين والبورجوازيين في التخلص من سلطة الكنيسة والإقطاع والبحث عن تحقيق آمالهم وأحلامهم في الحياة المادية ومزاياها فجعلوا من ثلوث (الحرية والأخوة والمساواة) الشعار الجماهيري المركزي الذي قامت عليه الثورة الفرنسية، فسارت البشرية الغربية في طريق التقدم الفكري والمادي الذي حاولت أن تحتفظ به لذاتها، وبالمقابل أنزلت من الاستعمار والاضطهاد والقمع الدموي بحق غير الغربيين الشيء الكثير.. الأمر الذي يفرض على كل إنسان أو شعب أو أمة يملك الإرادة والاختيار أن يرفض هيمنة الغرب ولكن دون إنكار إنجازاته مما يساعد على وعينا للغرب ومعرفته بصورة صحيحة.

ما دمت يا سيد محمد خاتمي تتولى رئاسة جمهورية إيران التي توصف بالإسلامية فأين دورك ودور قيادتك ودولتك وأنت تترك من خلال هذا الرد الأول القصير حقيقة حضارتهم، أين دوركم في وضع صياغة لنموذج الحضارة الإسلامية كطريق ثالث بديل طرحوه عليكم!! أم أنكم ما زلتم تفكرون في الأمر، أم لا ترون أنفسكم ولا دولتكم أهلا لذلك، أم أن الصراع الداخلي عندكم يمنعكم من ذلك!؟

٢- في هذا المقال القصير الثاني لمن كان مرشحا في حينه لرئاسة الجمهورية الإسلامية في إيران السيد محمد خاتمي يحاول أن يدفع بعملية التغيير من التقليد المتحجر إلى الحداثة الواعية لا السطحية، فيركز في جميع فقرات مقاله على ضرورة استناد التغيير على التراث والانطلاق منه إلى حضارة جديدة دون أن يذكر كلمة إسلام أو الإسلامي ولو مرة واحدة مكتفيا بكلمة التقليد وكلمة التراث على اعتبار أن التقليد مرتبط تماما بالأعراف التي تجذرت في المجتمع من الأفكار والأحكام الإسلامية، وأن التراث هو مجموعة تلك الأفكار والأحكام الإسلامية...

إنه إذ يريد ويدعو للتغيير يرفض البقاء على التراث والتقليد الإسلاميين السابقين على اعتبار أنهما من صنع البشر، مما يستدعي تجاوزهما ليس بالغانها بل بالاتكاء عليهما والسير إلى الأمام بإبداع الجديد والحديث ليضاف إليهما بدلا عما لا بد من تغييره فيهما، ويحافظ على أن يكون التغيير مستندا على الماضي والحاضر والتطلع للمستقبل فيأتي مأمون البنين سليماً من العثرات أو الهنات الغربية عنه...

انه يضرب المثل بالتغيير الذي حصل في الحضارة الغربية عندما تضافرت جهود رجال الفكر والدين الراضين لما كانت عليه أوربة في العصور الوسطى، فحصل الجمع بين الإصلاح التراثي والتقليدي معا، فخطت أوربة بنجاح إلى حضارة جديدة أخذت في طريق التقدم وإن وقعت في مطبات هزتها من الأعماق... ولذلك فإنه يدعو رجال الفكر والحدثة الذين يريدون المشاركة في التغيير أن يفهموا بعمق ما فعلته أوربة لكي لا يروا الظاهر السطحي لها فيندفعوا وراء كل ما لدى الحضارة الغربية دون وعي لحقيقة مرتكزاتها، كما يدعو رجال الفكر والدين أن يتقدموا بجرأة للمشاركة في التغيير بعدم التحجر على ماضي التراث وحاضر التقاليد بل الاعتماد على المرتكزات الأساسية فيها والانطلاق إلى المستقبل...

ويخاطب الطرفين ليفهموا بأنه ليس معنى التغيير هو الذوبان في الحضارة الغربية، ولا الانخلاع من الحضارة الإسلامية المتمثلة بما بين أيديهم من تراث الماضي وتقاليد الحاضر، وإنما هو أن يضعوا التراث كما يضعوا الحدثة تحت مجهر النقد ليخرجوا بروية جديدة تقيم حضارة جديدة مستفيدين من الحضارة الإسلامية الماضية ومعطيات الحضارة الغربية الحديثة، بحيث لا نعود لنقف عند الماضي، لأن ذلك هو الرجعية بعينها، بل لننطلق من قاعدة موثوقة إلى الأفق البعيد في العصر الحاضر...

إذن السيد الرئيس محمد خاتمي جاد في التغيير مستنداً إلى التراث الإسلامي ومستفيداً من الحدثة الغربية، ولكنه يجد من طرفي المجتمع: دعاة التحديث ودعاة التقليد، عقبة في سبيل ذلك فيحاول أن يشرح لهم ما يقنعهم به لمساعدته في تحقيق هذا التغيير... لقد تكلم بذلك في ١٩٩٧/٧/٢٤م فماذا حقق بعد ثلاث سنوات؟! عسى أن يساعده انتصار جماعته ممن يسمون بالإصلاحيين في مصطلح الغربيين في الانتخابات النيابية الأخيرة ١٩٩٩م على صياغة النموذج الحضاري الإسلامي للعالم...

٣- في هذه الكلمة الثالثة التي ألقاها الرئيس محمد خاتمي في المؤتمر الدولي لإحياء الفكر الديني للإمام الخميني ونشرت في جريدة الحياة في ١٩٩٧/٧/١١م يطرح الصعوبات التي تجابه الحوار بين الحضارات في الوقت الحاضر.

فبعد الإشارة إلى التشكيك الواسع الذي يعم العالمين الإسلامي والمسيحي بل العالم أجمع بشأن الاعتماد على عوامل إنتاج العقل البشري من علم وتجربة ونمو وتطور، تطلع الكل للبعد المعنوي كما يسميه، وهو يقصد القوة الروحية، ليملا هذا الفراغ الذي تعيشه البشرية، وأن البشرية قد حاولت عمليا أن تحقق ذلك، وتشعبت طريقها إلى سبيلين أحدهما ابتعد عن الدين وإن وجد فيه عاملا من العوامل، والآخر اقترب من الدين أكثر من السابق، فظهرت الحركات السياسية والدينية على ممر التاريخ الإسلامي وغير الإسلامي، وظهر الإقبال على الدين بشكل أكثر تركيزا بعد فشل الماركسية والقومية في الوقت الحاضر.

وهنا يعرض الصعوبتين اللتين تقفان في طريق الحوار بين الحضارات بعد أن يذكر أثر الثورة الإسلامية في إيران على صعيد مباشر في ظهور أنشطة داخلية وحركات إسلامية في بلدان العالم الإسلامي وإعطاء زخم جديد للحركات الموجودة، وعلى صعيد التأثير في انطلاقة جديدة في العالم المسيحي لتتصدى مجتمعاته للبحث عن المستقبل السياسي والاجتماعي والاقتصادي لمسيحيي العالم... فبعد ذكر تأثير الثورة على هذين الصعدين يذكر العالم بأن الثورة كانت ثورة الكلمة كما كانت دعوة أعظم رسالة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قائمة على البلاغ، وأنها ارتكزت وما زالت على الأسس المعنوية والأخلاقية في المجتمع، ثم يعرض الصعوبتين في طريق الحوار مع الحضارات الأخرى غير الإسلامية فيرى الأولى تاريخية والثانية عصرية، أما التاريخية فتتمثل بالإرث التاريخي المروع عقب الحروب الصليبية التي شكلت حالة من عدم الثقة والتشكيك بين المسلمين والمسيحيين، ولكنها تبقى سهلة التجاوز في نفوس المسلمين لأنهم يؤمنون برسالة كل من موسى وعيسى عليهما السلام ولكن الصعوبة تبقى لديهم لأنهم لا يؤمنون برسالة محمد عليه وآله السلام. هذا بالإضافة للخلافات الكلامية بين المذاهب الإسلامية مما أوجد صراعات دموية تركت أحقاداً سياسية. وأما العصرية فتتمثل في عبء الاستعمار الذي جعل من ظهور الحضارة الغربية بأيدي أصحاب المصالح الاقتصادية والسياسية والعسكرية بصورة السيطرة على العالم بجميع الأدوات والوسائل مما رسب في النفوس خلافات بين المسلمين والمسيحيين يصعب تجاوزها، هذا بالإضافة لإثارة المستعمرين للخلافات بين المذاهب الإسلامية ليتمكنوا من بسط نفوذهم على البلاد الإسلامية... فلا بد من العمل بالحوار الفكري والعقائدي لإزالة هذه المعوقات بين المسلمين أنفسهم وبينهم وبين المسيحيين وغيرهم من أصحاب الأديان في العالم للتوصل إلى سلام عالمي دائم...

مازال الرئيس خاتمي يتحدث عن الحوار بين الحضارات وما يقف في سبيله من معوقات، أما ما هو النموذج الحضاري الإسلامي المطلوب عرضه منه على العالم فما زال ينتظر الوصول لاتفاق كما يبدو من هذه الكلمة... ولكن بالنسبة للمسيحيين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى فليكن النموذج هو الذي يجري الحوار حوله إذا كنا نريد الإسلام أن يكون هو الطريق الثالث البديل... أليس كذلك يا رئيس خاتمي!!؟

الرد الحادي عشر: رياح السلام البارد ستتحول إلى عاصفة بين الإسلام والغرب د.أحمد الحاج

يعتبر هذا الرد مجرد قراءة لكتاب صموئيل هانتنتغتون الذي صدر بعد مقالته وبنفس عنوانها (صراع الحضارات). فيذكر القارئ د.أحمد الحاج بأن الكتاب يقع في ٣٦٧ صفحة من القطع المتوسط وفي اثني عشر فصلاً موزعة على خمسة أقسام كان القسم الأول بفصوله الثلاثة نقطة انطلاق مشروع هانتنتغتون الطموح، لأنه يرى أن

السياسة العالمية قد أصبحت متعددة الأقطاب، وأن عملية التحديث لم تنتج حضارة عالمية بل مشاعر إيجابية وأخرى سلبية، وبعد أن ظهر العالم بعد انهيار الشيوعية بأنه يتجه ليكون عالماً واحداً قد عاد لينقسم إلى عالمين: عالم الشرق وعالم الغرب...

وأما القسم الثاني بفصله فإنه يتحدث فيه عن انحطاط واضمحلال الغرب وانبعث وتحدي الشرق، مؤكداً أن ميزان القوى بين الحضارات في حالة انتقال إلى الشرق مع الصعود الاقتصادي والعسكري والسياسي في أقطاره، وأما الإسلام فالانفجار الديمغرافي في سكانه سيعصف باستقرار مجتمعاته المجاورة للغرب.

وأما القسم الثالث فهو يعقد فيه مقارنة بين تركيبات الغرب السياسية وما يوازيها في العالم الإسلامي فيرى أن الولاء في الغرب يتمحور حول الدولة ولكنه في العالم الإسلامي يبدأ بالأسرة فالعشيرة فالقبيلة ليتجاوز الوطن إلى الأمة الإسلامية التي لا تعترف بالحدود، وهذا هو المخيف الذي يصفه بالوعي غير المتماسك.

وأما القسم الرابع بفصوله الثلاثة عن الغرب وانتشار السلاح وحقوق الإنسان والديمقراطية والهجرة فلا جديد فيه غير حديثه عن الهجرة كمحرك للتاريخ وأن موقف الغرب متناقض معها فهو يشجعها عند حاجته للعمالة، ويحد منها عند خوفه من البطالة، وأن ثلثي المهاجرين إلى أوروبا منذ بداية التسعينيات صار من المسلمين فوضعت أحزاب اليمين المتطرف برامج سياستها على معاداة الإسلام والمسلمين.

وفي القسم الأخير من الكتاب تظهر لهجة تصالحية وهو يتحدث عن (مستقبل الحضارة) ويؤكد أن بقاء الغرب يعتمد على قدرة أمريكية في تأكيد الهوية الغربية وقبول الغربيين بتميز هويتهم ولكنها ليست عالمية.

ويؤكد الكتاب أن صراع الحضارات صراع قبلي يجري على الساحة الدولية، وأن رياح (السلام البارد) ستهب على كل بلاد العالم ولكنها ستكون عاصفة بين الإسلام والغرب. ويؤكد الكاتب أن الخطر ليس في المتطرفين الإسلاميين كما يقول الآخرون وإنما في الإسلام نفسه...

فها تنتهتوني الذي عمل مديراً للتخطيط الأمني بمجلس الأمن القومي في عهد كارتر، ويعمل الآن كمدير لمعهد الدراسات الاستراتيجية ورئيس لأكاديمية هارفارد للدراسات الدولية، يجد إشادة من أمثال هنري كيسنجر وبريجنسكي مما يدل على أهمية كتابه كخطة عمل لأمريكا بل الغرب كله ضد الإسلام والمسلمين وإن كان يتظاهر في آخره بأن الخيار السليم للغرب ليس باحتواء انتقال النفوذ وإنما في التعايش مع الآخرين مع المحافظة على ثقافة الغرب...

بالفعل يظهر أن هذا الكتاب بالرغم من الردود الغربية ضده يشكل خطة عمل لأمريكا بالذات ضد الإسلام والمسلمين... وكنا نتمنى لو أنه تجنب نبش الأحقاد التاريخية بين المسيحيين والمسلمين، ودعا للحوار بين العالمين الإسلامي والمسيحي

في حوار حضارات لا صدام حضارات ليتحقق هذا التصالح أو التعايش الذي يأتي كنغمة نشاز في نهاية الكتاب.

الرد الثاني عشر: في نهاية التاريخ وصراع الحضارات

د. عبد الوهاب المسيري

يحاول الأستاذ الدكتور عبد الوهاب أن يقف وقفة فكرية تحليلية مع كتاب (نهاية التاريخ) لفوكوياما وكتاب (صراع الحضارات) لهانتنتون ملقيا الضوء على مفهوم وحقيقة هذا النظام العالمي الجديد الذي تسوقه أمريكا للعالم في إطار ما تدعو له من مفاهيم الديمقراطية وحقوق الإنسان والأهم من ذلك كله سياسة السوق، تلك السياسة التي تريد أن توجد بل تفرض الإنسان الصناعي جنباً إلى جنب مع الإنسان الطبيعي الذي طالما روج له الغرب، وكان الإنسان في نظرهم ليس أكثر من سلعة إنتاجية أو استهلاكية أو هو مجرد ظاهرة طبيعية خالية من التاريخ والثقافة، فهو كصناعي خاضع لاحتياجات الاقتصاد المادية كما يخضع الطبيعي لاحتياجات الطبيعة وقوانين الطبيعة المادية...

فأين إنسان الحضارة والثقافة من هذا كله يا حضارة الغرب!؟

وأنت يا فوكوياما تريد أن تقول للبشرية بمقولتك (نهاية التاريخ) أن التاريخ بكل ما يشتمل عليه من تركيب وبساطة، من سيرورة وثبات، من شوق وإحباط، من نبل وخساسة، سيصل إلى نهايته في لحظة ما ليسكن عن الحركة تماماً: فلا تدافع ولا صراع ولا ثنائيات ولا خصوصيات... إنه سيصبح ملكاً لمبدأ عام واحد، مبدأ طبيعي مادي يفسر كل شيء دون تفريق بين الطبيعي والإنسان الذي رآته معرفة صهيون العلمية أو العلموية، أنه يوتوبيا تكنولوجية تكنوقراطية تلغي التاريخ ليحل القانون الطبيعي الذي لا علاقة له بالقوانين الاجتماعية والتاريخية والإنسانية محل التاريخ الإنساني بكل ما فيه من قيم وأفكار ومقدسات... إنه النموذج الكامن وراء جميع الأيديولوجيات العلمانية-الصهيونية الشاملة من نازية وماركسية وليبرالية وصهيونية ذات التطور الأحادي الخط أي السائر وفقاً لقانون عملي وطبيعي واحد للتطور، فتخضع له جميع المجتمعات والظواهر البشرية كافة، فيكون الواقع مجرد مادة استعمالية بسيطة يكون الإنسان فيه مجرد كائن وظيفي أحادي البعد، فيسير التقدم العالمي وفقاً لنموذج العولمة فتلتقي فيه المجتمعات البشرية على نموذج واحد وقانون واحد وفقاً لنظرية التلاقي المتجانس التي تظهر مع نظرية السوق التي تسيطر محل النظرية الماركسية في العالم بأسره والتي فيها يصبح العالم في حالة المصنع حيث يفرغ فيها الإنسان طاقاته وتوتراته في أماكن الترفيه المعدة له ليستمر في دورته كإنسان اقتصادي ينتج ويستهلك ليس غير إنه الإنسان الذي تحكمه الديمقراطية الليبرالية الخالية كما يزعمون من تناقضات الماركسية وغيرها من النظم السابقة بغض النظر

عن احتمال عدم قدرتها على إسعاد الإنسان بجانبه المادي وغير المادي فأنت يا فوكوياما تعلن بمقولتك هذه نهاية التاريخ الإنساني وبداية التاريخ الطبيعي فهل هذا صحيح؟!

وأنت يا هانتنتغتون تريد في (صراع الحضارات) أن تعكس إعلان صاحبك فوكوياما بان الصراع بين الحضارات في تصاعد وليس في انتهاء بسبب تشويش دخول حضارات جديدة غير غربية ضد الغربية، وأن هذا التشويش لا قيمة له في حقيقة نظرتك إذ العالم كله يتجه نحو الغرب وحضارته وحدائته وديمقراطيته وسوقه الحرة وفرديته، وأن الحضارة الغربية هي الحضارة العالمية التي تناسب كل الناس، كما تقول، ومن يخرج عنها فهو شاذ غير طبيعي، فأنت لم تختلف عن فوكوياما بالقول بالنموذج الأحادي الخط بالرغم من كل كلامك عن التعددية والصراع... فانظر إلى أمثلك في كتابك تجدها كلها تؤكد هذا النموذج سواء من مثال المكسيك التي تسعى لتكون جزءاً من حضارة أمريكا الشمالية، أو من تركية مصطفى كمال وحتى أوزال التي تصر على غربيتها، أو غيرها، فأنت تصر على أن قيم الحضارة الغربية وهي الديمقراطية والاقتصاد الحر وفصل الدين عن الدولة هي الموجه الوحيد للعالم، وأنت على نفس الخط وأنت تقتبس كلمات المستشرق الأمريكي اليهودي العنصري برنارد لويس عن نشوب ثورة من الحضارة غير الغربية ضد التراث اليهودي المسيحي وضد الحاضر العلماني وضد انتشارهما العالمي، وأنت ترى هذا التمزق بين الحداثة والغربنة في دول كالهند وتركيا وبين تراثها وهويتها وقيمها... فالثنائية لديك الغرب وغير الغرب هي نفس ثنائية فوكوياما وفواد العجمي، وإن اختلفت عنهما في سرعة الوصول أو العودة أو البقاء تحت الهيمنة الغربية... فهذه المقاومة التي ظهرت مع الحضارات غير الغربية لسيطرة الغربية هي العائق أمامها لعدم إيصالها مع العالم كله لفردوس الغربنة الأرضي، كما تراه، وتأسف لتأخير الوصول السريع للعيش في ظله، وإن كنت لا تتردد في القول بلزوم تقويم كل من يشارك في هذا التأخير ولو بإسقاط الحكومات التي تتمسك بخصوصيتها ودك العواصم المقاومة واستباحة المدن والقرى العاصية لقانون الطبيعة والتطور الغربي!!

وأنتم يا دعاة (ما بعد الحداثة) ماذا تريدون للبشرية أن تكون غير إعلان نهاية التاريخ والإنسان ككائن اجتماعي قادر على الاختيار الأخلاقي الحر ليحل محله إنسان بعيد واحد، بعده الطبيعي، فيقطع عن ذاته وتاريخه ولا يرى إلا اللحظة القائمة... ويصبح جزءاً من مسيرة الحضارة الغربية المباركة!!

وأنت يا أيها (النظام العالمي الجديد) ما صلتك بهذه المقولات من نهاية التاريخ وصراع الحضارات وما بعد الحداثة؟! صحيح أنك ترى أن العالم مادة استعمالية بالدرجة الأولى، وأن الإنسان جزء من هذه المادة الاستعمالية إذ تحركه فقط كما تقولون دوافع مادية اقتصادية وجنسية في سلوكه كله، وأن القيم الغربية الشاملة تسري عليه وعلى الطبيعة في الشرق والغرب جميعاً لأن الكل مادة استعمالية، مما يؤكد مقولة نفس الثنائية: الغرب وغير

الغرب، ولكن ماذا فعلت طيلة عقود تاريخ غربك مع غير الغرب في آسيا وأفريقية وأمريكا اللاتينية غير سيطرتك وتوسيع مجالاتك الحيوية هناك؟! فأنت ترى القداسة لقيمك فقط وتنزع كل قداسة عن قيم غيرك ولو بدك المدن والقرى كما فعلت وتفعل في فلسطين والجزائر وفعلت في فيتنام وتفعل الآن في كل مكان تمد إليه أصابعك (القدرة)! وللحقيقة نسال: ما هي أسباب ظهور هذا (النظام العالمي الجديد)؟ لنجدها في:

١. إدراك الغرب لأزمته العسكرية والثقافية وتفككه الداخلي وتراجع قدرته على فرض سيطرته وسياساته بالقوة،

٢. إدراك الغرب تراجع مركزيته الغربية وظهور مراكز أخرى غير غربية،

٣. إدراك الغرب استحالة المواجهة العسكرية والثقافية والاقتصادية لغير الغرب بعد تنامي وعيه على الأعباء الدولية،

٤. إدراك الغرب لزوم خلع التخلف عن شعوب آسيا وأفريقية بالذات لتصبح قادرة على استهلاك صناعاته،

٥. إدراك الغرب وجود فئة من صحوة الغير متغربة فيمكنه التعاون معها وتجنيدوا ليحقق من خلالها السلام والاستسلام لغير الغرب حيث فشلت المواجهة العسكرية...

فماذا كان مردود كل هذا الإدراك الغربي؟ لقد رأى ضرورة تحويل العالم بأسره إلى ساحة كبيرة لقانون العرض والطلب وتعظيم المنفعة المادية واللذة الجنسية ليصبح ثلوث: المصنع، والسوق، والملهى الليلي أو الشركة السياحية، وذلك من خلال عملية الإغراء والإغواء التي بات يمارسها في كل مكان بدلا من القمع والقسر لأن ذلك أجدى وأرخص من التدمير والمواجهة، فتنبى مركزيته غامضة وهيمنتها غير معلنة... فمشاركة النخب المحلية الحاكمة في الاستثمار ونهب الشعوب مع إفساد تلك النخب بالرشوة وطرق اللذة الكثيرة، وإغواء الشعوب نفسها بوسائل الإعلام الموصوفة بالعالمية... كل ذلك يحقق تفكيك القوى الشعبية لخطورتها ضد هذا الغزو الاستعماري الرهيب والهيمنة الغربية، كما يحقق إثارة الأقليات وأزمات الحدود، وتفكيك الأسرة، ونشر الإباحية، ويخفي أهدافه الاستغلالية تحت مزاعم الإيمان بالديمقراطية والعدالة وحقوق الإنسان والمساواة... فيسقط العبء عن الرجل الأبيض بتولي ذلك من قبل النخبة المضللة بل الشعوب المستغفلة... تلك النخب والشعوب التي تمنع أي خطر داخلي يمكن أن تتعرض له الهيمنة الغربية وقيمها التي تصبح المثل الأعلى والقدوة المتبعة!!

إن نظرة صادقة فاحصة لكل هذه الآليات والأهداف الغربية تكشف عن هدف واحد ونهائي يستهدف الغرب تحقيقه ألا وهو ضرب الخصوصيات والمرجعيات لكل الأمم والشعوب غير الغربية لتصبح مجرد آلة إنتاجية استهلاكية مستمرة... وهكذا يتكشف معنى نهاية التاريخ والنظام العالمي الجديد المرتبط بالحاضر ويرفض التفكير

بالماضي... يرفض الخصوصية ويرفض فكرة القيمة وفكرة التاريخ، ويصر على أن الإنسان هو ابن يومه بل ابن ساعته ولحظته، إنه إنسان عالم الاستهلاكية العلمية المنتج بكفاءة والمستهلك بكفاءة والمعظم للذته بكفاءة تبعاً لإرشادات وتوجيه سيده الغربي، وبذلك يتحقق الحل النهائي في عصر التسوية والتعايش الذي يدعو له هانتنتون ويصوره فوكوياما ويخطط له دهاة النظام العالمي الجديد، هذا الحل الذي يعتمد على التفكير من الداخل بدلاً من الإبادة من الخارج...

إنه تشخيص رائع، يا دكتور عبد الوهاب، لمفهوم وواقع وآليات وأهداف هذه المقولات والبرامج والنظم التي تظهر علينا من شخصيات الفكر والخطط الاستراتيجية في الغرب من أمثال فرنسيس فوكوياما وبرنارد لويس وهانتنتون وأنطوني غيدنز، ولكن هل من قارئ يملك السلطة والقدرة على الحركة في عالمنا الإسلامي بالذات يقرأ ما يقولونه ويخططونه وينفذونه صباح مساء لا بأيديهم ووسائل إعلامهم فقط بل بأيدي ووسائل إعلام بلدان العالم الإسلامي كله في شرقه وغربه وشماله وجنوبه؟! إلى متى يستمر نجاح خطط الغرب باغراء وإغواء النخب الحاكمة والمنتفعة في عالمنا الإسلامي بعد أن باتت جميع خططهم القائمة على إدراكهم لجميع جوانب القوة والضعف فيهم وفيها معاً مكشوفة معروفة بالرغم من جميع وسائل التضليل الرهيبة التي تدعمهم في عالمنا ومن جميع الفخاخ الدولية التي ينجحون بها في اصطيد الحكام والشعوب فتظن بأنها ممتنة للسيد الغربي وهو يضحى من أجل سلامتها وسواد عيونها?!!

الرد الثالث عشر: «فرق تسد» في ثوب جديد دصلاح قنصوة

يحاول كاتب هذا الرد أن يبين بأن هانتنتون مجرد مخطط استراتيجي أممي جاهل بحقائق التاريخ أو دعنا نقول مع الكاتب أو متجاهل لها، وأن ذلك واضح في الخصائص الثمانية التي خص بها الغرب عن غيره ليكون متميزاً وفريداً، والتي أوضح الكاتب خطأ هانتنتون في استخدامها كمميزات للغرب، ثم بالهجوم على جراءة ذلك المخطط الاستراتيجي الأمني في الضحك على عقول القراء بأن جعل من تلك النتائج أسباباً لتمييز الغرب، ثم بالهجوم على استخدام الغرب لسياسة السوق والعولمة للسيطرة على العالم، ثم برده بأن الصراع هو صراع حضارات وإنما الحضارة العالمية واحدة وإنما الصراع صراع ثقافات، فيميز الدكتور صلاح بين الحضارة على أساس أنها الجانب المادي من الثقافة، فيجعلها عالمية، وبين الثقافة ذات البعد الروحي، وينتهي إلى التأكيد بأن نشوء حركات الأصولية الإسلامية ما هو إلا رد فعل لهيمنة الغرب لإشغالهم في الماضي، وإبعادهم عن التفكير في قادة العالم الفعليين وهم الغرب، وتقديمهم المساعدة السخية للغرب بضرب مخالفيهم في الداخل وتخريب اقتصاد بلدانهم، مما جعل الغرب يجد فيهم العون لضرب بلادهم وإضعافها أمام منافسة الغرب نفسه، كما يجد فيهم الذريعة لمقولته في الصدام المعروفة نتاجه لصالح الغرب سلفاً، كما يجد فيهم العامل المعبى لجماهير الدول الأوروبية والأمريكية في موقف موحد يخدم مصالح أصحاب الاحتكارات الغربية...

ولكن كيف رد هذا الكاتب مرتكزات هانتنتغتون تلك، وما الهدف الذي رآه لمقولته تلك؟ لقد عرض ما زعمه هانتنتغتون من القول بأن حضارة الغرب يجب أن تكون حضارة العالم بناء على تفريقه الصارم بين التحديث والتغريب، عندما جعل التحديث يشمل الغرب وغيره، وعندما أعطى للغرب سمات خاصة تميزه عن غيره هي:

- التراث الكلاسيكي من الإغريق والرومان، وكان هذا التراث من خصوصيات الغرب ولم يكن للشرق فضل في فهمه وتنقيحه ونقله للغرب،

- المسيحية الكاثوليكية والبروتستنتية الغربية، وكان الحروب الطاحنة بين الفريقين لا وجود لها في التاريخ أو كأن المسيحية من ابتكار الغرب ولم تأت منهم من الشرق،

- اللغات الأوروبية، وكان الكثرة في اللغات هي السمة المميزة للشعوب بدلا من اللغة الواحدة،

- الفصل بين الكنيسة والدولة، وكأنه لم يأت من العصور الوسطى الذي يصفها الغربيون بالظلامية بما فيها من محاكم التفتيش،

- حكم القانون، وكان الاستبداد والقهر في العصور الوسطى لم يكن له وجود في الغرب، أو أن الماغنا كارتا لم ترد في التاريخ لتسجل حقوق النبلاء الإقطاعيين لدى الملك دون الشعب،

- التعددية الاجتماعية والمجتمع المدني، وكان المجتمع الرأسمالي ليس هو منشأ ذلك أو مثل تلك التعددية في وجود جماعات أو فئات أو طوائف في مختلف المجتمعات لم تكن موجودة،

- الهيئات التمثيلية، وكأنها ليست بضاعة حديثة في بلدان مختلفة بعد صراعات دموية،

- النزعة الفردية، وكأنها سمة أجنبية للغرب وليست من نتاج الصراع بين الكنيسة والمفكرين والعلمانيين...

وبنظرة موجزة تظهر كل تلك السمات بأنها محصلة عصر النهضة وما تلاه في الغرب على أثر صراعه مع الخلافة الإسلامية في الشرق والغرب والذي انتهى بازدهار الرأسمالية واستعمار الشرق...

وعند قلبه للنتائج بأن جعلها أسبابا يهاجمه د.صلاح لأنه فسر التاريخ كلعبة بيد الحكام وليس نتيجة المتغيرات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي تحدد اتجاه الصراع ونوعيته، هذا في المرحلة الأولى من التاريخ، وأما الثانية عند حديثه عن صراع القوميات أو الشعوب أو الدول متجاهلا بأن منشأ القوميات كان نتيجة المنافسة على أسواق العالم والسيطرة على المواد الخام واستغلال الأيدي العاملة الرخيصة من قبل الفئات التجارية والصناعية التي ظهرت مع الرأسمالية الغربية، وأن ذلك كان وراء الحربين العالميتين الأولى والثانية عندما استغفل قادة تلك المصالح الجنود بإثارة مشاعرهم القومية.

وأما حروب الأيديولوجية فلم تكن إلا أثرا من آثار الرأسمالية لحماية مصالحها في العالم وأنها استخدمت الخطر الماركسي كمهدد لأيديولوجية الغرب لتبقي على سيطرتها الرأسمالية في بلدان العالم، وأن مصطلح النظام العالمي الجديد لا يعني إلا (السطوة العالمية المنفردة الجديدة) من الغرب على العالم، وأن مقولة فوكوياما من نهاية التاريخ ما هو إلا غلبة وانتصار الليبرالية الرأسمالية الديمقراطية على العالم، وأن ما يسمى بالعولمة ما هو إلا سيطرة الشركات العابرة للقارات (المتعددة الجنسية كما يسمونها لأنها غير مرتبطة بقارة معينة دون غيرها) على العالم من خلال إشعال النزاعات الداخلية في الدولة الواحدة لتضعف أمام زحف سيادة السوق العالمية الواحدة التي تريد أن تحول العالم إلى قرية مالية واحدة خالية من العلاقات الفردية والتقاليد الإنسانية...

وأن هذه الأصولية كرد فعل قد جاءت نتيجة محاولات الغرب لتفكيك الدول من الداخل كجزء من إثارة تلك النزاعات الداخلية... وهنا يتهم الدكتور صلاح جميع الحركات الإسلامية التي يسمونها بالأصولية بأنها من هذه النوعية، ويحاول أن يدعم رأيه بالتفريق بين الثقافة فيجعلها تشمل الجانبين المعنوي والمادي من حياة المجتمعات وبين الحضارة فيجعلها تنحصر في الجانب المادي فقط، ولا ندري على أي قاعدة أقام هذا التفريق مع انه لن يجد لا في اللغة التي تعطي معنى للكلمتين، ولا في المصطلحات الحديثة عربية أو غربية التي تجعل الحضارة جزءا من الثقافة ولكن ليس للجانب المادي بل المفاهيم التي يعيش الناس عليها عن الأشياء في حياتهم بينما تبقى الثقافة تشمل ذلك وكل الأفكار والآراء ووجهات النظر المتصلة بشئون الحياة المختلفة. ويظهر أن الدكتور صلاح أعطى الحضارة مفهوم المدنية فخلط بينهما لأن المدنية بالفعل هي الجانب المادي في الحياة وهي نتاج العلم التجريبي والصناعات، فهي عالمية بينما الحضارة والثقافة خاصة. ويقف الكاتب مع ما يراه من فوائد تقدمها الحركات الإسلامية للغرب كما أشرنا سابقا ثم ينهي رده بتوضيح كيف أن مقولة صدام الحضارات ليست بأكثر من ممارسة عتيقة جدا هي (فرق تسد) المطلوب منها استخدام سياسة القمع في كل البلدان ضد أعدائها لتبقى الهيمنة الأمريكية دائمة على العالم، وأن استنفار الشعوب ضد أخطار يصنعونها لها هي السبيل لذلك لتبقى تلجأ لهم...

تمنيت على الدكتور صلاح ألا يقع في نفس الفخ بتهمته على (الأصولية) الذي نصبه هانتنتون للنزاعات الداخلية بغض النظر عن أخطائها... فتحليله في كثير من نقاط رده رانع ولكنه متأثر بالتفسير الماركسي لوقائع التاريخ إذ يجعل الصراع على المصالح الاقتصادية هو محرك التاريخ فكان الإسلام كما يقول أعداؤه من مفكري الغرب الرأسمالي والشرق الماركسي حركة اقتصادية ليس غير!!

الرد الرابع عشر: الحضارات بين الصراع والصدام

قراءة في الفكر السياسي الأمريكي والإسلام بالمنهج الحضاري/د.سمير

سليمان

يحاول الدكتور سمير سليمان، عضو الهيئة العلمية في المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق في هذا الرد أن يقرأ مقولتي فوكوياما (نهاية التاريخ) وهانتنتغون (صدام الحضارات) قراءة في ضوء الإسلام الحضاري، فيرى بأن القلق والاضطراب الفكري والسياسي والاقتصادي قد فرض على المفكرين الغربيين البحث عن جواب سؤال تكرر طرحه مع الأزمات العالمية دون أن يطمئنون لصحة الأجوبة عليه، إنه: ما طبيعة (الصراع) بين الأمم والشعوب بما يؤدي إليه من تحول شمولي؟ لقد كانت التساؤلات الغربية: ديني أم أثني أم أيديولوجي أم اقتصادي أم سياسي أم خليط من بعضها أم من كلها؟

لقد كان آخر مظاهر الأزمة الفكرية والمنهجية في الغرب ما جاء من أمريكا كوريث للتركة الأوروبية بما ذكرته من تفسير للتطور التاريخي والفكر السياسي وفلسفة التاريخ في الغرب من خلال ليبرالية نفعية تسخر كل شئ لخدمة المصالح القطبية أو الفئوية كما تجلى ذلك في مقولتي فوكوياما وهانتنتغون المشار إليهما أعلاه.

أما فرنسيس فوكوياما فإنه يرى (أن الديمقراطية الليبرالية... تشكل فعلا منتهى التطور الأيديولوجي للإنسانية والشكل النهائي لأي حكم إنساني) بعد انهيار الاتحاد السوفييتي ليشكل النموذج الحضاري الغربي الخيار الوحيد لمستقبل الإنسانية مع عدم وجود أي منافس آخر وإن كان الإسلام، كما يقول، (يشكل نظاما أيديولوجيا متماسكا...) وبأنه (هزم الديمقراطية الليبرالية في أجزاء متعددة في العالم الإسلامي) ويشكل حاليا (تهديدا كبيرا للممارسات الليبرالية) لوجود مليار من المسلمين، ولكنه (لم ينشئ بذاته مجتمعات حرة) ولا ينتظر أن يتمكن المسلمون من منافسة الديمقراطية الليبرالية في دارها في مجال الأفكار وسيبقى العالم الإسلامي أكثر عرضة للأفكار الليبرالية بسبب العدد الكبير (من المؤيدين) لها هناك منذ أكثر من مائة وخمسين سنة. ثم يقول بأن عالم المستقبل سينقسم إلى جزء (ما بعد تاريخي) يضم الدول الديمقراطية الليبرالية وجزء آخر يبقى ضمن دورة التاريخ المفتوحة ويشمل الدول غير الديمقراطية الليبرالية، والخط الفاصل بينهما يتغير بسرعة من معسكر إلى آخر. وأما الجزء الـ (ما بعد تاريخي) فسينتهي الصراع لمصلحة التفاعل الاقتصادي بين دوله وتنتهي الحروب بينها بينما الجزء التاريخي سيبقى في انقسامه وصراعاته الدينية والقومية والأيديولوجية حتى يلتحق بركب الديمقراطية الليبرالية!! كما أن العلاقات بين الجزئين ستبقى في تصادم بدافع حب السيطرة من الشمال على الجنوب... إنه يؤكد هذه الصدمات بين الأقوياء والمستضعفين حتى يلتحقوا بالليبرالية وإلا فليتحملوا مسؤولية عنادهم!! أو يلتزموا (الحياد السياسي النهائي) كما هو حال القومية المنتظر زوالها أو تحييدها نهائيا... إنه يرى أن مصير المجتمع الأمريكي القائم على (مبدأ قرار النخبة) هو السيطرة على كل المجتمعات بذريعة أنه صاحب النظام الأصلح والوحيد للعالم ملغيا بصورة متعطرة الغير حضاريا وسياسيا...

وأما صامونيل هانتنتغتون فإنه يرى أن (المصدر الرئيسي للنزاعات في العالم الجديد لن يكون مصدرا أيديولوجيا أو اقتصاديا في المحل الأول لأن الانقسامات الكبرى بين البشر ستكون ثقافية... سيسيتر الصدام بين الحضارات على السياسة الدولية لأن الخطوط الفاصلة بين الحضارات ستكون خطوط المعارك في المستقبل)... فيرى سبع أو ثماني حضارات كبيرة هي الغربية، والكونفوشية، والأرثوذكسية، واليابانية، والإسلامية، والهندية، والأمريكية اللاتينية، وربما الأفريقية. ويلاحظ أن هذا المخطط الاستراتيجي يفترض أن الدين هو القوة المركزية التي تحرك الناس وتحشدهم أكثر من العرق الأثني لخوض حروب بين أصحابها ونزاعات دموية وبالذات بين الإسلام والمسيحية.

كما يلاحظ عدم الدقة في مطابقة مفهوم الحضارة عند هذا الكاتب مع الحدود التي وضعها لها، وجعل الإسلام مسنولا عن النزاع بينه وبين المسيحية حتى قال بصريح العبارة (ويبدو الإسلام ديننا عدائيا ذاتيا) وقال (إن للإسلام حدودا دموية) ولكن لماذا لا يكون هذا القول بحق المسيحية... إنه يخطط ليحتمي الغرب من الأخطار المحدقة به سواء بتدعيم التعاون والوحدة داخل الحضارة الغربية ولا سيما بين أمريكا وأوروبا بضبط الهجرة إليهما وتوسيع حلف الأطلسي ليشمل شرق أوروبا باستثناء البلدان الإسلامية الأصل ليكون المنظمة الأمنية للحضارة الغربية، ودمج أمريكا اللاتينية، وتعزيز التعاون مع روسيا واليابان، وحصر الحروب داخل الحضارات بالحروب الصغيرة، والحد من توسع القوة العسكرية في البلاد الإسلامية والصينية مع استغلال الخلافات بينهما، وتخفيض القدرات العسكرية الغربية باعتدال مع التفوق في شرق آسيا وجنوبها الغربي، ودعم الحضارات الأخرى المتعاطفة مع القيم والمصالح الغربية، وتقوية المؤسسات الدولية المحافظة على المصالح والقيم الغربية...

ولكن هانتنتغتون يخطط لإجراءات أخرى غير تلك أهمها:

- اعتماد الغرب على سياسة التراخي مع الحضارات الحديثة المقاربة له في قوتها ولو اختلفت قيمها ومصالحها عما لديه،
- احتفاظ الغرب بقوة عسكرية واقتصادية لحماية مصالحه تجاه تلك الحضارات الحديثة،
- تطوير الغرب لفهمه لأفكار ومعتقدات تلك الحضارات الأخرى للوعي على طريقة تلك الحضارات لرؤية مصالحها،
- تحديد العناصر المشتركة بين الحضارة الغربية وتلك الحضارات.

وبهذا يضمن هانتنتغتون هيمنة الحضارة الغربية على الحضارات الأخرى كما ضمن فوكوياما قبله وإن تظاهر بنبرة المصالحة (ينبغي أن يتعلم كل منها -أي الحضارات المختلفة- التعايش مع غيره) ولكنها عبارة لا قيمة لها أمام تلك التدابير الهجومية الوقائية... اللهم إلا إذا أذعننا للحضارة الغربية وهيمنتها واعترفت

بالمصالح الحيوية الاستراتيجية للغرب وإلا كانت شريرة ومثيرة (لعدم الاستقرار) ومهددة (السلم العالمي)، وعندها لتنزل عليها العقوبات الجاهزة سلفا... إنه مشروع قرار سري بالحرب يعلن في الوقت المناسب... أليس هذا هو الإرهاب بعينه؟!

وهكذا يظهر جليا أن فوكوياما وهانتنغتون وجهان لعملة واحدة! فكلاهما اعتبر سقوط الماركسية تحولا استراتيجيا وتاريخيا، وأن التاريخ لا يحركه العامل الاقتصادي وحده، وأن الأخلاق تابعة للسياسة، وأن على الغرب أن يعزز وحدته بكل الوسائل الممكنة بما فيها الإرهاب المادي والحضاري ضد الدول والحضارات الأخرى، لأن النزاعات الداخلية لديه مستبعدة ولكنها متوقعة لدى الخارج، ولأن سياسة الهيمنة والكيل بمكيالين مبررة، ولأن الإسلام عامل تهديد لسلم الغرب وحضارته الصالحة وحدها لتنظيم الحياة بقيمها الأفضل والقادرة على تجاوز مشاكلها وليس الانهيار أمامها كما حصل مع غيرها... فكلاهما شطب الإسلام حضاريا ودعا للالتفاف عليه والتصدي له، لأنه يجمع بين الدين والدولة ويرفض العلمانية الغربية التي لا تقبل (سلطة الدين) ولو جاءت بالاقتراع الديمقراطي كما حصل في الجزائر... فهما قد أجابا على السؤال المنهجي عن حقيقة الصراع باعتبار الحضارة/الثقافة هي الجوهر والأصل في العلاقات بين الأمم والدول والشعوب، وفي العلاقات الدولية المعاصرة... إنهما يعترفان ممثلان للغرب بالمنهج الحضاري مرجعا لكل تلك العلاقات بعد أن لمسا الصحوة الإسلامية وميل الغرب المتنامي لاعتبار الإسلام خطرا يهدد العالم الحر، بل المشاغب الوحيد الباقي الذي يزعزع السلام على الأرض كما قال فريتز ستيفارت الباحث الألماني، وكما أكد ذلك ريتشارد نيكسون الرئيس الأمريكي الأسبق في كتابه (انتهاز الفرصة) مخوفين شعوبهم من الإسلام وحضارته بحقد مسبق، وساعدهم في ذلك بعض المسلمين المضللين بعد أن رأوا ما تملكه هذه الصحوة الإسلامية من مشروع سياسي واجتماعي واقتصادي في شريعته وعقيدته وحضارته، مما أصبح عصيا على الشطب السابق والتغيب المتعمد...

وهكذا كان المنهج الحضاري بمقولة هانتنغتون لتفسير التاريخ والذي اكتشفه متأخرا هو المنهج الأصح بالمنظور الإسلامي، بالرغم من أخطائه الفظة والناشزة التي وقع فيها... فماذا لدى الإسلام من هذا المنهج الحضاري للإجابة على حقيقة الصدام بين الشعوب والأمم والدول؟

إن الإسلام لديه التصور الكامل للوجود وما وراء الوجود، لفهم الإنسان والقيم، لحل القضايا الحياتية وأصول تنظيمها، لكل منظومات العلاقات الاجتماعية، لكل نظرة إلى العالم ووعي للتاريخ... فكل هذا له أصول حضارية في الإسلام تعطي تفصيلات دقيقة لكل شئ وتنظيم وعلاقة بمنهج واحد وعقيدة واحدة تنضبط كلها في دين توحيدي واحد هو دين الله سبحانه يقنع العقل ويستجيب للفطرة وينظم الحياة بجميع جوانبها، هو الدين الذي بدأ بأول رسول وأب للبشر وانتهى بخاتم الأنبياء والرسل، هو دين الإسلام، دين التسليم والخضوع لمقام الربوبية في المعارف والأحكام، مبتدئا بدافع واحد وسائرا بمنهج واحد ومستهدفا غاية واحدة هي الله تعالى...

فلا وسيلة منفصلة عن غايتها ولا عن أداة تحقيقها، فالفكر والقول والعمل منضبطة بمصدر واحد وهدف واحد وغاية واحدة وكلها في إطار الحضارة الإسلامية الواحدة، إنها حضارة التوحيد التي تقابل الحضارة المادية الدنيوية حضارة الطاغوت، إنه التدافع والتصادم بين حضارة القرآن الروحية وحضارة الطاغوت المادية، إنه الصدام بين الصراط المستقيم باتجاه الله وصراط المغضوب عليهم والضالين باتجاه الطاغوت، إنه الجهاد والاستشهاد في سبيل قيم مثلى ضد الموت والهلكة في سبيل قيم دنيا، إنه حضارة التغيير بالله ومع الله والله ضد حضارة الثبات والتقليد الأعمى للأباء والأجداد على الباطل والطغيان والاستكبار، إنه حضارة الالتزام بالعقيدة والشريعة الإلهية العالمة بالإنسان والمحقة لسعادته في الدنيا والآخرة ضد حضارة الالتزام بالعقائد المادية والشرائع الوضعية الجاهلة بالإنسان والمشقية له، إنه الحضارة القائمة على الدعوة إلى الله ودفع ما يقف في سبيل ذلك بالحجة والجدال الأحسن إذا لم يفرض الآخر عليها الإزالة بالقوة والقتال ضد حضارة تدعو للشيطان وتشهر كل أسلحة الخراب والدمار قبل الفكر والبيان... وشتان بينهما...

كادت هذه القراءة بما لدى الغرب الأمريكي من فكر حضاري ومقارنته مع ما لدى الإسلام، ولو جزئيا أو بخطوط عامة أن تعطي منهجا و(كلمة سواء) تدعوهم للحوار الحضاري عليها... ولكن أين الدولة الإسلامية الحقبة التي تصوغ هذا المنهج وتسخر جميع طاقاتها الفكرية والإعلامية والدعوية والدعائية له؟! نرجوه تعالى أن يكون ذلك قريبا...

الرد الخامس عشر: هل الممانعة صدام بين الحضارات؟

هل المتحدثون عن النزاع قصدوا القطيعة؟ للمؤرخ اللبناني وجيه كوثراني

لقد رأى هذا الكاتب المؤرخ بأن هانتنتون قد تعجل في استخدام مفهوم الحضارة في وصفه لما عدده من عناصر الصدام، وأنها مجرد أزمة نظام عالمي، حتى أن ما يدعو به بتعايش الحضارات ليس بأكثر من سياسة إدارة الأزمات في كوكب الفقراء، وأن مقاله كله ليس بأكثر من إدارة النقاش الفكري حول مركزية الخطاب الاستراتيجي الأمريكي، فهو نوع من إدارة الأزمة أيضا، ومن باب الاستخفاف التام بالمقال كله قال بأنه (في انتظار خطاب جديد بعد أن ينتهي الدور الاستهلاكي لخطاب هانتنتون كما انتهى قبله خطاب فوكوياما).

هذا هو مختصر رأي هذا الكاتب في رده، فبماذا دعم رأيه هذا؟ لقد بدأ بالقول بأن الحديث عن صراع الحضارات في التاريخ ليس جديدا، إذ كثر في القرن التاسع عشر الحديث عن الصراع بين حضارة غربية متمدنة ومسألة شرقية كاد أن يذكر حضارتها كنفقيض لتلك وإن تجنب ذلك، ثم عقب على ذلك بأن الأمر لم يكن كذلك بل صدام بين رأسماليات غربية تريد السيطرة بآلتها العسكرية على كل شيء وبين دولة

عثمانية تحمل في ذاكرتها الحضارة الإسلامية وتحن إليها كما يحن الوجدان إلى الماضي الذي (يتداخل فيه المعتقد الديني مع أنماط من العيش والسلوك والعقلية) ليوجد تلك (الممانعة في ركانزها الاجتماعية والسياسية والتعبيرية والتنظيمية الأولى).. فما كانت أفكار أصحابها من النخب إلا نتاج عصر النهضة والتنوير الأوربي وخطه مع القومية والديموقراطية وخلط ذلك كله بما في الذاكرة عن عصر الازدهار الإسلامي وما كان فيه من شورى.. الأمر الذي أدى إلى فشل تلك التركيبة في العالم الإسلامي لأسباب كثيرة أهمها تركيز السياسات الاستعمارية على إعطاء الأولوية لأنظمة الاستبداد المحلية والحكام (الأعيان) في البلاد الإسلامية، مما أدى كما يقول إلى فشل التجارب القومية والسياسية والاشتراكية لاحقاً، ومما أثار هذه الممانعة الإسلامية الحالية بجميع أحزابها وحرركاتها في العالم الإسلامي، والذي يسميه هانتنتغتون بصدام الحضارات وهو لم يخلط بين الحضارة بمفهومها الفكري الواسع، والثقافة بمفهومها المحدود، دون أن يحاول هذا الكاتب التفريق بينهما وإنما مضى ببيان خطأ صاحب مقولة الصدام الحضاري لتأثره بآراء آخرين من أمثال شبنغلر في كتابه (انحطاط الغرب) وتوينبي في نظريته لتردي تاريخ الحضارة الغربية بعد أن رأيا الدمار الذي تسببه النزعة العسكرية في سيطرتها على قرارات الحرب مما أدى إلى هدم الحضارة بدلاً من فسح المجال للسلام ليثيرها، وبالذات لما حصل في الحربين العالميتين وسياسة (توازن الرعب) بعد الثانية التي انتهت بالدمار الذري في اليابان، وحرص على أن تكون الحروب المحلية بعيدا عن الغرب، مما جعل المفكرين الغربيين يعودون للتعمق في قراءة الحضارات القديمة وأنماط حياة الشعوب والجماعات فكان منها كتاب (الإسلام كقوة عالمية متحركة) الذي صدر عام ١٩٦٢م عن الكاتب الألماني هربرت غوتشال، ثم كتب روجيه جارودي المعروفة والتي تمثل دراسات في (تحول العقلية الغربية من داخل معايشة أزمة الحضارة الغربية نفسها) ودون أية صلة بمصادمة حضاراتهم مع غيرها لأنه لا يوجد أي حضارة عدوانية من داخلها بل إذا تلبستها سياسات توسعية خارجية أو شكلت ممانعة في وجه سيطرة خارجية..

ثم يستدرك الكاتب بذكر ما قاله المؤرخ الفرنسي فرناند بروديل في كتابه الشهير (المتوسط والعالم المتوسطي) من وجود ثلاث حضارات حول المتوسط هي الإسلامية واليونانية والغربية، وأن ما تداخل تلك الحضارات قد أنشأ الصليبية في الغرب مقابل الجهاد في الإسلام بدافع (الحس الديني) الذي كما يقول يؤثر في تحريك الشعوب لتحقيق مصالح مثيري الحروب الاقتصادية. ويستشهد لتأكيد رأيه بكتاب بروديل (الاقتصادات والتجارة والنقل) الذي يتحدث فيه عن ارتفاع وانهايار الإمبراطوريات بنزاعاتها التي (تتحكم بها مصالح الدول والتجارة والطرق ومصادر الثروة والتوترات الاجتماعية) وإن كانت الحروب الداخلية حول المتوسط تختلط فيها الحروب الدينية بحروب الفقراء وانتفاضاتهم.. والتي تشكل مرحلة التأسيس بين الغرب والشرق ولا سيما بعد أن تغيرت أسس وطرق السيطرة في العالم وضعفت قيمة المتوسط أمام عالم المحيطات..

ويعود الكاتب ويؤكد دور (الحس الديني) في الحضارة وفي الصراع وفي الحروب، وأنه كان قائما وفاعلا، ولكن كما يقول كعنصر (تغيير لا كعنصر ثبات)، فغير الحضارة الغربية من اللاهوت والأخلاق إلى الرأسمالية التي بدورها غيرت أدوات فهم التاريخ والاجتماع مما جعل ماكس فايبر يلاحظ دور الحس الديني في بروز التحولات الاقتصادية.. والكاتب هنا يركز على المفاهيم الماركسية في فهم التاريخ التي ترى الدين كعنصر مساعد للمؤثرات الاقتصادية في مراحل التاريخ البشري.. ولكنه يرجع ويؤكد على أن المشروع الحضاري الغربي قد جاء تعبيرا عن مصالح القوى والدول الرأسمالية الصناعية المهيمنة على العالم التي يبتلع فيها منط السوق والتنافس على الأسواق كل ثقافة وتفاعل ثقافي ونفع حضاري ليركز على ثقافة الاستهلاك التي تسيطر على العالم المعاصر والتي تجعل لثقافات المقاومة والممانعة مجالا للظهور وتجعل هانتنتغتون يدعوها بتسرع وخفة بالحضارات.. إنها مجرد أشكال من (الممانعات الثقافية وحركات الاحتجاج والحروب الأهلية الناتجة عن عجز الحضارة الغربية عن أن تصبح عالمية مستوعبة لتنوع العالم) لأنها منسجمة مع (مشروعها الرأسمالي) في الربح والسيطرة والاستهلاك.. إنها احتجاج ورفض (المغلوب الذي يلجأ إلى الذاكرة الجماعية الثقافية للاحتماء..)، فهي ليست حضارة بمفهوم الأنساق (الفكرية والفلسفية والإبداعية) والإنتاج (للمعرفة على المستوى الإنساني والعالمي كما كان شأن الحضارة الإسلامية سابقا).. فهي مجرد نمط من ثقافة فرعية لحضارة تراثية تاريخية، ومجرد (مشروع استلهم لحضارة إسلامية جديدة) لأن المسلمين اليوم، كما يقول لا ينتجون وسائل الحضارة الحديثة وإنما يعودون إلى (معالم الحضارة الإسلامية إبان ازدهارها، فهي عودة إلى التاريخ واسترجاع لذاكرة أو دراسة لمرحلة) ولذلك لا يوجد عنصر تصادم بين الحضارة الإسلامية والغربية، وكل أمثلة هانتنتغتون مجرد نماذج طائفية دينية وإثنية وقبلية كانت موجودة قبل وأثناء الحرب الباردة، والأنسب القول بأن ما نجده في (الجنوب) هو صراعات أهلية بسبب الفقراء وسوء توزيع الثروة وفقدان العمل وتسلط السلطة، وأن ما نجده في (الشمال) هو تفاقم الأزمات الاقتصادية والبطالة ومشاكل الهجرة الوافدة من الجنوب.. فهو صدام اقتصادي وإن ظهر كأنه ديني وثقافي وعرفي..

بالرغم من اعتراف هذا الكاتب بأثر ما سماه (الحس الديني) في الصراع، وأكدته بما حصل من صراع حضارات حول البحر المتوسط لكنه لوى عنق الأحداث التاريخية لتتناسب مع مفهومه الماركسي لتفسير التاريخ، واعتبر كل الصحوة الإسلامية مجرد استلهم لحضارة تراثية إسلامية أي أنها ذهبت مع التاريخ وأنها عاجزة عن تشكيل حضارة إسلامية كالسابقة لتصادم الحضارة الغربية، طبعاً مما يجعله يؤكد عدم صحة مقولة هانتنتغتون بصدام الحضارات.. فيا للعجب لهذا الفهم للحضارة وهذا التسفيه للصحوة الإسلامية!!؟

الرد السادس عشر - نظرية صدام الحضارات أو (جيوسياسية العالم الراهن) - برهان غليون

إن هذا المفكر والأكاديمي بجامعة السوربون بباريس يقر بوجود صراع بين الحضارات ولكنه يراه بعيدا عن توجيه السياسات والاستراتيجيات المتصارعة لا في الشمال ولا في الجنوب، ويراه كخطاب أيديولوجي يهدف إلى (التغطية على حقيقة وأهداف الإستراتيجيات العالمية واللائقافية في الشمال والجنوب معا، وأنه مجرد عنصر أساسي في إعادة إنتاج العالم الراهن والأزمة الطاحنة التي يعيش فيها)... ولكن كيف يفسر هذا المفكر وجود الصراع هذا مع عدم أهميته في التوجيه من جهة وأهميته في التغطية على تلك السياسات والإستراتيجيات؟

إنه يرى أن الرأي العام العالمي منقسم (على أسس ثقافية/حضارية) بعد أن كان في السابق منقسما (على أسس سياسية/اقتصادية)، وأن ذلك قد حصل نتيجة انهيار العقائد الاجتماعية التي سادت في فترة الحرب الباردة من شيوعية واشتراكية وديمقراطية ورأسمالية وطنية لتحل محلها التمايزات الطبيعية الوطنية والقومية أو التاريخية التي تنتمي (إلى مرجعيات حضارات واحدة)، فمع موت العقائد نشأت فكرة صراع الحضارات، كما يقول. ولكن صراع الحضارات لا يمنع الصدام بين جماعتين أو شعبين ينتميان إلى نفس الحضارة كما حصل بين العراق والكويت وبين العراق وإيران.

ولهذا، كما يقول، فإن التجمعات الإقليمية والعالمية، أو الجيوسياسية العامة، لا تخضع لمعيار واحد، والمعيار الحضاري موجود بينها في التوجهات العامة والحساسيات وأشكال التعاطف بين شعوب الحضارة الواحدة، ولكنه يخضع في الدول الكبرى لمعايير المصالح الإستراتيجية والوطنية معا، ومنطق الدولة وحاجات استقرارها هو معيار المصالح الوطنية وليس الحضارة، ومنطق العلاقات الإقليمية والقومية هو معيار التجمعات الإقليمية وليس الحضارة، ومنطق التوزيع الحضاري على المستوى العالمي لتحقيق انتماءاتها العامة الحضارية هو المعيار على المستوى العالمي وليس الحضارة... صحيح أن منطق الصراعات بين الحضارات هو المتحكم بالصراعات الوطنية، والإقليمية، وأن المصالح الوطنية خاضعة للمصالح العامة للحضارة الواحدة، ولكن العولمة تضعف العمل الوطني وخدمة المصالح الوطنية مما يفرض، كما يقول، بناء سياسة ثقافية أو اقتصادية أو اجتماعية على مستوى إقليمي، وإن كانت النظم الحاكمة غير مستعدة لقبول ذلك لأن الدول الصناعية الكبرى تسعى لإعمال المنطق الإقليمي بينما الدول الفقيرة تقف عند الرؤية الوطنية وتعجز عن تجاوزها إلى إقليمية بين-دولية لأنها لا تريد أكثر من المحافظة على نظامها السياسي القائم، وهذا لا يتمشى مع ما تريده العولمة من إعمال منطق التكتل الإقليمي كرد على التنافس بين التكتلات الصناعية الأمريكية والأوروبية والآسيوية... وهذا يعني مع انغلاق الدول في الجنوب يجري الصراع في المستوى الإقليمي، وما حصل في حرب الخليج الثانية هو صراع على النفط،

وسيستمر الصراع بين الإستراتيجيات الثلاثة الرئيسية طويلا وستبقى فكرة صراع الحضارات أيديولوجية توظف لمساعدة الإستراتيجيات الإقليمية الصناعية وإن كان للعوامل الوطنية دورها في ذلك ولكن دول الجنوب ستبقى مهمشة أمام سيطرة القوى الصناعية الكبرى على العالم وتنافسها عليه...

بغض النظر عن الإقرار بوجود الصراع الحضاري واستخدامه في الشمال والجنوب كل لمصلحته، ولكن أين المخرج لجعل الحضارة الإسلامية قادرة على قيادة العالم الإسلامي على الأقل؟ هذا ما لم يعن الكاتب نفسه بالحديث عنه...

الرد السابع عشر: سيناريو صراع الحضارات-

الفلسفة والسياسة ومستقبل المنطقة العربية - صبري مصطفى البياتي

إن هذا الأستاذ المساعد في كلية آداب جامعة بغداد يصور أن كتاب ومقولة هانتنغتون ليسا أكثر من سيناريو وضعه لصالح دوائر الإستراتيجية الأمريكية صيف عام ١٩٩٣م، وإن كان بريجنسكي مستشار الأمن القومي الأمريكي في عهد جيمي كارتر وغيره قد سبقه إلى مثله ليوضع قيد التنفيذ في السياسة الأمريكية القادرة بما تمتلكه على قوة التنفيذ وإن كانت لا تملك الحق ولا الحقيقة في فعلتها، ولكن، كما يقول (معظم صفحات التاريخ قد كتبتها القوة الغاشمة العمياء ولم تكتبها الحقيقة المجردة العزلاء) فلماذا إذن لا تستند أمريكا في وضع هذه السياسة وتنفيذها على (حقيقة أن الفائز يأخذ كل شيء)... فما هذا السيناريو الذي يراه هذا الكاتب؟

بناء على معنى الحضارة، كما يراه، بأنها تشمل البيئات المادية والاجتماعية والفكرية من حياة الإنسان، وعلى طبيعة الحضارة التي يراها تشمل المفهوم العضوي، كالمؤسسات الاجتماعية، والمفهوم الثقافي لتلك المؤسسات، فإنه يؤكد أن أي حضارة لا يمكن أن تكون بدون تاريخ حتى يتميز الإنسان عن باقي الكائنات من خلال صراعه الطويل مع الطبيعة ومع النفس فيصمد وينتصر بمؤسساته الاجتماعية والفكرية واللغوية...

ولكن ازدهار الحضارة الحديثة، كما يقول، لم يحصل إلا بتزاوج حضارات الأمم المختلفة على مر التاريخ، فلماذا القول بالصدام فيما بينها؟ ويجب على السؤال بما أورده هانتنغتون من حقائق منها:

- أن الحضارات تتمايز عن بعضها البعض ولا سيما تبعا للدين فتنتج أطول الصراعات وأعنفها،

- أن تزايد التفاعلات بين الشعوب تزيد الإحساس بالفروق بين الحضارات،

- أن عمليات التحديث الاقتصادي والاجتماعي تفصل الناس عن ذاتيتهم وهويتهم وبالذات بفعل الدين والحركات الأصولية،

- أن الفروق الثقافية الدينية تميز بشدة بين البشر فيكون الإنسان نصف فرنسي ونصف عربي عرقيا ولكنه لن يكون نصف مسلم ونصف كاثوليكي،
- أن الوعي الحضاري يعزز الإقليمية الاقتصادية عندما تنشأ عن حضارة مشتركة...

وقد اعترض كثير من المفكرين على هذه النظرية، ولكن التدقيق يؤكد مع بريجنسكي في كتابه (بين عصرين) بأن هذه الصراعات ستقع في العالم بسبب عدة متغيرات هي:

- عمل التقدم في وسائط الاتصال على تفتيت القوميات في نفس الوقت،
- زاد التعاون في السياسات العالمية التداخل لتندثر الولاءات الأيديولوجية،
- إن العالم يفتت ليصبح كل شئ انتقاليا،
- إن العالم يفضل التطور التكنولوجي والإلكتروني ينتقل من مرحلة القرية العالمية إلى مرحلة المدينة العالمية،
- إن الجماعات العرقية والدينية تزداد انغلاقا على نفسها طلبا لرغبة الأفراد في الحماية والانتماء أمام هذا الاتجاه نحو العالم الواحد...

فهاننتغتون لم يضع هذا السيناريو بدون جذور، وكل ما فعله هو إعادة صياغة الأفكار لتكون أساسا لأشكال جديدة من الصراعات... وهو إذ يقر باستمرار الحياة في الحضارة الإسلامية مع أن غيره من مفكري الغرب قد حكم عليها بالموت، ومنهم شينغلر الذي رأى أنها ماتت على يد المغول عند سقوط بغداد عام ١٢٥٨م، وتوينبي الذي رآها قد انحلت منذ نهاية العصر العباسي، فإنه يرسم لها دورا في سيناريو الصدام الذي يضعه للتنفيذ في العالم...

ذلك أن أمريكا تريد دائما أن تخيف أوروبا لتضمن سيطرتها العسكرية والاقتصادية عليها عندما يقول لها بأن الصدام القديم بين الغرب والإسلام (سيصبح أكثر شراسة) لتعيش تحت هاجس الخطر الإسلامي (الإرهاب الإسلامي) الدائم بما يكون لها من أصابع في تحريكه هنا وهناك في داخل أوروبا نفسها، كما تستخدم مقولة التحالف الإسلامي الكونفوشي ضد المسيحية ضدها إذ يحذر الصين واليابان في نفس الوقت من أي تعاون وتفاهم اقتصادي مع المسلمين بأنه اتهام لهما ضد المسيحية...

وأما اليهودية فلا يشير إليها مطلقا لأن (النظام الشرق أوسطي الجديد) يسير الحضارة الإسلامية ضمن الدور المحدد لها في قبضة الهيمنة الأمريكية بحيث لا تخرج مشكلات المنطقة العربية من حدود ومياه وثروات عن المسار المرسوم لها في السيناريو...

ولكن الكاتب يتساءل عن مدى مصداقية فلسفة التاريخ مع منفعية سيناريوهات السياسة؟ ويجب على هذا التساؤل بأن الانفصال بينهما قطعي في هذا

السيناريو عندما نعرف دوافع ومبررات أمريكا في العمل بهذه النظرية، لأن الأخلاقية لم يعد لها وجود في مشروعية أعمالها وإنما فقط المبررات السياسية والمنفعة المتوقعة هما الاعتباران كما يظهر فيما يلي:

- لأن التمايز الفكري والاجتماعي والمادي لأي مجتمع معين لا يوجد حضارة له بدون تاريخ، كرجال الفضاء مختلفي الجنسيات الذين تتوفر لهم البيئات الثلاثة ولكنهم بدون حضارة لأنه لا تاريخ لاجتماعهم في الفضاء، وكذلك أمريكا ليس لها تاريخ لأن كل من هاجر إليها ترك حضارته خلفه، ومن كان فيها من أهلها الأصليين لم يبق منهم شئ يؤثر في حاضرها وحضارتها الحالية. لهذا نجد سيناريو صراع الحضارات لا يذكر إلا الحضارة الغربية ولا يذكر ولو مرة واحدة حضارة أمريكية مستقلة عن الحضارة الأوروبية مما يجعلها تأخذ به ليوفر لها لحضارتها الحالية بعدا تاريخيا تحتاجه.

- لأن أمريكا ليست دولة قومية، كما يقول ويعترف هانتنتغتون، ولم تعد قادرة على قيادة أجزاء من العالم كأوروبا واليابان بعد أن اختفى الصراع الأيديولوجي الذي كانت تستخدمه للسيطرة على العالم بل أصبحت أوروبا تطالبها بتحديد قواتها في أقطارها حتى جرو من يطالب بالغاء حلف الأطلسي وخفض الإنفاق العسكري في أمريكا نفسها، مما يعطي مثل هذا السيناريو غطاء تسكت به كل هذه الأصوات ولا سيما أمام الخطر الإسلامي الكونفوشي المصمم كما تقول على تدمير الآخرين.

- لأن الصراع ضرورة تفرضها تركيبة المجتمع الأمريكي ومعتقداته، وأي إلغاء لهذا الصراع الخارجي ينقله لداخل المجتمع الأمريكي نفسه.

- لأن هذا الصدام يغطي على صورة صراع الشمال مع الجنوب، الشمال الغني بكل شئ والجنوب المفروض عليه الحرمان من كل شئ إلا ما يلزم لاستغلاله من الشمال وإبقائه تحت راية حضارته الغربية.

- لأن هذا الصدام يحرم الاتحاد السوفييتي السابق من العودة للحياة وهو يضعه كحضارة متصارعة أرثوذكسية - سلافية - إسلامية - كونفوشية.

ولكن هناك ما يجهله الإنسان مهما وضع من سيناريوهات مما يسمى بإرادة الله ومشينة القدر ولعنة التاريخ مما يخرج عن سيطرته وتوجيهه وإن كان ذلك لن يمنع أمريكا عن تطبيق ولو جزئي لهذا السيناريو على أمل السيطرة الكاملة على العالم من خلال:

- ما تحقق لها من نجاح في نشر ثقافتها في العالم بما لديها من وسائل لذلك،
- إشراكها لأوروبية واليابان في إدارة النشاط الاقتصادي العالمي مضطرة لتخفف من الخلل الهيكلي الداخلي والسيطرة الرأسمالية الخارجية لتدعم اقتصادها وقوتها العسكرية في دوام سيطرتها على العالم...

- استغلال ما يقع من أحداث، مهما كان وصفها، ضد ظلمها في الداخل والخارج، لحشد الرأي العام الأمريكي ومحاولة قيادة أورها الحذرة المتربصة والدول في العالم العربي الإسلامي كما فعلت في حرب الخليج الثانية، لتبقي العالم كله تحت سيطرتها بذريعة أن (الإرهاب الإسلامي) بالذات من بين الحضارات المختلفة هو الموجه ضد الحضارة الغربية!!

ولكن كيف تتخلص شعوب وأمم الأرض من جيروتها وسيطرتها؟! كأن الكاتب يقول لا مناص من الركوع لأمريكا وهي بهذه القدرات الاقتصادية والعسكرية إلا أن تأتيه النجاة من (إرادة الله)؟! وهل يأتي النصر من الله تعالى لمن لا يستحقه!!؟

وبذلك انتهت دراسة كتاب صدام الحضارات - والحمد لله رب العالمين.

٣ - دراسة كتاب الاختيار : السيطرة على العالم أم قيادته

لمؤلفه : زبيغنيو بريجنسكي

ترجمة: عمر الأيوبي

الناشر: دار الكتاب العربي - لبنان

تقديم

إن أهمية هذا الكتاب من أهمية كاتبه، فقد كان منذ مدة قريبة مسئولا عن الأمن القومي الأمريكي، وهو بهذه الآراء الذي يقدمها لصناع القرار الأمريكي يريد أن يؤكد لهم كيف تستطيع أمريكا أن تكون سيدة العالم غير المنازع على المدى الطويل .. إنه يبين الفرق بين الهيمنة والقيادة فيدعو أمريكا لتجنب الهيمنة والسيطرة التي تمثل استمرار الاستعمار القديم المكروه والعمل بأسلوب القيادة التي تمثل التراضي بين الحاكم وكل من يتعاون معه وبين المحكوم الذي يهمله بقاء حكمه ..

والكتاب بصفحاته القليلة وعناوينه الناطقة بمضمونه يكفينا عن تقديمه للقارئ الكريم . والأمل كبير أن يقدم القارئ على الإهتمام بقراءة هذا الكتاب بقدر ما اهتم الكاتب بكتابه بل أشد لأنه كتب من أجل نقل الهيمنة والسيطرة عليه وعلى بلاده بشكل خاص إلى قيادة وإن كان توجهه عالميا ..

الكاتب

المقدمة

يرى المؤلف في المقدمة بأن الدور الأمريكي الحالي في العالم قد أصبح متمثلاً في القوة الأمريكية البارزة والتي تدعو للسيطرة على العالم، وفي الديمقراطية الأمريكية المشهورة والتي تحفز العالم لإيجاد مجتمع عالمي تجمعهم مصلحة مشتركة.

فقوة أمريكا العسكرية والاقتصادية والتكنولوجية والثقافية أعطتها نفوذاً سياسياً عالمياً لا مثيل له، إذ بعد أن خرجت اليابان وروسيا من المنافسة بقي دور أروبة الضعيف ودور الصين الأضعف للمنافسة.

وإنه لا بديل لهيمنة القوة الأمريكية العالمية اللازمة للأمن العالمي، وإن كانت الديمقراطية الأمريكية تدفع التغييرات الداخلية في البلدان الأخرى بشكل يزعزع الاستقرار الذي تسعى القوة الأمريكية لفرضه وضمانه، كما أنها تولد العداء لأمريكا .

فأمريكا أمام مفارقة عجيبة : فهي القوة العظمى والوحيدة في العالم، وهي تواجه في نفس الوقت تهديد قوى ولكنه أضعف منها، وهو يزداد كراهية لها من باب الحسد وإن كانت تثيره القوى المنافسة لأمريكا والتي تحذر التصادم مع أمريكا .

فأمريكا مطالبة بالمزيد من الأمن لها، مما يفرض على قادتها التوفيق بين حاجتها لهذا الأمن أكثر من غيرها وبين المحافظة على مجتمعها الديمقراطي دون أن يجرها ذلك إلى العزلة الذاتية المتزايدة، ذلك أن الهوس بالأمن قد يحول أمريكا إلى دولة قلعة عسكرية منعزلة عن العالم، ولكن انتشار أسلحة الدمار الشامل بسبب اتساع معرفة التقنيات الحديثة قد جاء مع هذا الواقع الذي فرض نفسه على أمريكا، مما جعل الأمريكيين يشعرون بالخطر لأن دولتهم القوة الأعظم في العالم قد أصبحت مستهدفة من أخطار خارجية على العكس مما كانت عليه الإمبراطوريات السابقة التي كانت لا تتأثر بأخطار خارجية، الأمر الذي يجعل أمريكا في وضع فريد .

والسؤال الآن: هل تستطيع أمريكا أن تسير على سياسة خارجية فعالة وبعيدة عن العزلة ومنسجمة مع دورها التاريخي الفريد كأعظم قوة في العالم ؟ إن العولمة يجب أن تجمع بين دول تختلف في مكانتها في العالم كما تختلف في حاجتها للأمن، فالكل معرض للعنف ولكنه بحاجة لبعضه البعض .

فهل على أمريكا أن تسعى لتحقيق نظام عالمي يقوم على المصالح المشتركة أم تقف بقوتها المتفوقة عند حراسة أمنها الخاص ؟ فالمؤلف يدعو أمريكا لتحديد استراتيجية تشمل الجوانب التالية :

- ١- ما يواجه أمريكا من تهديدات كبرى ،
- ٢- ما تحتاجه أمريكا من أمن زائد على غيرها يراعي هيمنتها ،
- ٣- ما يواجه تهديدات الأعداء الأضعف ،
- ٤- كيفية إدارة العلاقة مع العالم الإسلامي المعادي لأمريكا ،
- ٥- حل النزاع العربي الإسرائيلي ،

- ٦- إيجاد الاستقرار السياسي في البلقان ،
- ٧- شراكة حقيقية مع أروبة البطينة في الوحدة السياسية ،
- ٨- ضم روسية لحلف الأطلسي تحت نفوذ أمريكا ،
- ٩- دور أمريكا في الشرق الأقصى رغم تنامي قوة اليابان العسكرية،
- ١٠- احتمال ولادة العولمة لمذهب منافس لأمريكا ،
- ١١- تهديد الهجرة وكثافة السكان للاستقرار العالمي ،
- ١٢- توافق ثقافة أمريكية مع هيمنتها العالمية ،
- ١٣- الموقف من عدم المواساة في القضايا الإنسانية، ودور العولمة في زيادة حدة ذلك تبعاً للثورة العلمية الحالية ،
- ١٤- توافق ديمقراطية أمريكا مع هيمنتها السياسية مهما جرى لها من تمويه، وتأثير الأمن على الحقوق المدنية .

فلا بد لأمريكا من الاختيار بين دور الهيمنة بقوتها المتعددة المتنوعة على العالم وبين دور القيادة للتخلص من الفوضى العالمية التي قد تقع إذا اعتزلت أمريكا دورها في قيادة العالم وتركته لآثار التقدم العلمي ونتاجه من أسلحة الدمار الشامل .

إن المؤلف يدعو أمريكا كرئيس سابق لمجلس الأمن القومي الأمريكي لوضع استراتيجية عالمية تحقق الجمع بين هيمنة أمريكا على العالم بقوتها المتفوقة وبين ديمقراطيتها التي تسعى بطرق مختلفة لإيجاد مجتمع عالمي تجمعه مصلحة مشتركة.

إنه يخشى من ضياع هيمنة قوة أمريكا على العالم إذا لم تصاحبها ديمقراطية توجد مجتمع المصلحة المشتركة بعد أن أصبح لا يوجد بديل لتلك الهيمنة كما يقول من أجل الأمن العالمي.

فمن أين أتى المؤلف لأمريكا بهذه الصورة؟

لا شك أنه جاء بها من باب الواقع، وباب التحيز لهذا الواقع : أما الواقع فلأن أمريكا تملك الآن هيمنة القوة على العالم، وأما التحيز له فلأنه حريص على أمريكا كأحد مفكريها ورسمييها السابقين ليس فقط لهيمنتها على العالم ولكن لبقاء هذه الهيمنة خالدة ودون أن ينتزعها أي منافس حالي أو مستقبلي.

فهل من الواقع أي واقع أن يفرض نفسه ولا يقبل مناقشة مدى صحته وخطأه ؟ إن أي واقع سواء ينحصر في حدود صاحبه أو يتعداها إلى غيره فيه قابلية التعرض إن لم يكن الخضوع لتلك المناقشة، وبالتالي مراعاة التقرير بصحته أو خطأه بشكل تام أو جزئي والتزام ذلك التقرير.

فإن كان التقرير بأن الواقع هو هيمنة القوة فالمناقشة قد تظهر أنها قوة غاشمة كلياً أو جزئياً أو عادلة كلياً أو جزئياً. والأولى تقتضي عدم الالتزام بها والحرص عليها ما دامت غاشمة كلياً أو جزئياً لا تقبل الإصلاح، والثانية تقتضي عكس ذلك .

ولكن من أين يأتي هذا التقرير؟ هل هو من الواقع نفسه أو من خارجه ؟

إن أي معالجة لتصحيح الواقع أي واقع لا يقدم عليها المصلحون أو الإنقلابيون إلا إذا كان هذا الواقع يحتاج للإصلاح أو الانقلاب، وإلا لما أقدموا على المعالجة . ولذلك لا يمكن أن يستقيم الأمر بحاجة الواقع للعلاج وفي نفس الوقت بأخذ العلاج من الواقع بحجة أن يكون واقعياً .

وعليه فالواقعية الحققة تقتضي في جميع الأحوال العلاجية أن يدرس الواقع جيداً حتى يعرف ما فيه من خلل أو خطأ ثم يؤتى بالعلاج المناسب لإزالة الخطأ أو إصلاح الخلل .

فالواقع لا يأتي منه العلاج ليكون المصلح واقعياً ولكنه يدرسه ويطبق عليه العلاج اللازم لتغييره أو لإصلاحه .

وعليه فقول المؤلف بأن واقع هيمنة القوة الأمريكية بأنواعها يعطيها النفوذ السياسي العالمي، وأنه لا بديل لها لتحقيق الأمن العالمي، هذا القول إقرار للواقع بذلك، ولكن الواقع يقتضي ليس فقط الإصلاح وإنما أيضاً التغيير ما دام واقعاً ظالمًا باحتلال البلاد الأخرى وفرض الهيمنة عليها بوسائل القوة المتعددة، والزعم بأنه يريد تحرير البلاد وتوفير النظام الديمقراطي لأهلها كما يحبه لأمريكا نفسها .

وأما أن ديمقراطية أمريكا تزعزع الاستقرار في البلدان التي تريد فرضها فيها، لأنها تريد إحداث هذه التغييرات بالفرض، فإن هذا القول اعتراف برفض الشعوب الأخرى لديمقراطيتها .

وأما أن أمريكا لا تسبب عدم الاستقرار في البلاد الأخرى إلا مضطرة لأنها تعرف بأن ذلك يجر العداة لها، فإن هذا القول إقرار بكرهية الشعوب لها .
وأما أن القوى الضعيفة تكره أمريكا من باب الحسد فهذا كذب وافتراء لأن الحسد لا يصاحب الظلم ولكن الكراهية تصاحبه .

وأما أن أمريكا بحاجة لأمن أكثر من البلاد الأخرى، بحجة أنها القادرة على المحافظة على أمن الآخرين، وأنها لذلك بحاجة للمحافظة على ديمقراطيتها التي تلزم للآخرين، فإن هذا القول ليس أكثر من تبرير لإجراءاتها الظالمة، وإلا فمن أعطاها مسؤولية المحافظة على الآخرين وأمنهم ؟ إنه بالطبع ليس أكثر من المحافظة على نفسها .

وأما أن المؤلف يخشى أن تبالغ أمريكا في استخدام الأعمال العسكرية بحجة المحافظة على الأمن فتتقلب إلى دولة عسكرية، فله الحق في ذلك وقد أصبح الأمر كذلك لا لأن الجيش وضباطه الكبار قد أصبحوا بعقليتهم العسكرية يحكمون أمريكا ولكن لأن طاقم المحافظين الجدد الذين يحكمونها قد ساروا على هذا الطريق العسكري دون أن يكونوا عسكريين .

وأما أن أمريكا مضطرة لاستخدام القوة العسكرية بهذا الشكل الكبير بسبب ما تتعرض له من أخطار خارجية، كما حصل في ١١ سبتمبر، فهذا أيضاً تبرير لمواصلة الهيمنة العسكرية على العالم ولو من باب الاضطرار الموقت، ولا سيما أن في ما تهدفه

من إحلال ديمقراطيتها محل النظم الأخرى ما ينهي هذا الاحتلال كما تقول، بالطبع بعد أن تظمن على توفر الكيانات التابعة لها والميسرة لها نهب خيرات تلك البلاد .
وأما تساؤل المؤلف عن مدى قدرة أمريكا في تفرد قوتها في العالم بتحقيق نظام عالمي يقوم على مصالح مشتركة بدلاً من استغراقها في حراسة أمنها الخاص، فإنه بما يذكره من ١٤ نقطة تالية يحاول أن يرسم استراتيجية أمريكية بعيدة المدى لسيطرتها على العالم بحجة المصالح المشتركة التي يستطيع نظام العولمة أن يوفره عند العمل به تحت قيادة أمريكا، وإلا فماذا تعني استراتيجية بتلك النقاط التي لم تترك زاوية من العالم دون اعتبار بغض النظر أن هناك عداً لأمريكا وكراهية..
فالمؤلف يريد تخليد الهيمنة الأمريكية على العالم بجعلها قيادة لتخليص العالم مما أسماه بالفوضى العالمية إذا تخلت عن القيادة .

القسم الأول

الهيمنة الأمريكية والأمن العالمي

يرى الكاتب بأن ألمانية وروسية قد حاولتا السخرية من قوة أمريكا المهيمنة على العالم، والتي تحدث عنها كتاب المؤلف السابق عام ١٩٩٧ (رقعة الشطرنج الكبيرة)، ولكنها كما يقول عادت وأيدت أمريكا في حادثة ٩ / ١١ كما فعلت بريطانيا بلير من أجل جني المكاسب .

كما حاولت روسية والصين بناء استراتيجية التعددية القطبية ضد هيمنة أمريكا وكذلك كان الحال من فرنسا في أروبة .

ولا شك في زوال هيمنة أمريكا في المستقبل ولكن قد تطول لأن الزوال المفاجئ يحدث فوضى عالمية وثورات شاملة، ولا ينقذ من ذلك إلا التعاون مع أمريكا، وذلك لبناء مجتمع مصالح مشتركة مع جميع الدول في العالم.

هذا وإن زوال الهيمنة الأمريكية لا يعيد تعددية الأقطاب، ولا يفرد غير أمريكا في الهيمنة، لأن قوى السيطرة المعروفة متعبة ولن تستطيع أن تلعب دور الهيمنة الأمريكية . فأروبة وروسية والصين والهند لا تملك القدرة على ذلك لا منفردة ولا مجتمعة ولا سيما أنه من غير الوارد اجتماعها وذلك بسبب صراع المصالح فيما بينها .
فالاستقرار العالمي بحاجة للقوة الأمريكية في العقدين القادمين، وإن كانت

القوة الأمريكية تتعرض لتحدي الداخل برفض الديمقراطية فيها للقوة أو سوء استخدام أمريكا لها في العالم، ولكن بالرغم من ضيق الأفق الفكري والثقافي لدى المجتمع الأمريكي إلا أنه معاً ضد الإرهاب الدولي، وسيبقى التزام أمريكا المستمر هو عامل الاستقرار العالمي، وعندما يتعب الشعب الأمريكي أو يفقد الإحساس بهدف مشترك ينهي دور أمريكا، وكذلك الحال عندما تسيء استخدام القوة، الأمر الذي يدفعها للعزلة

ولما كانت قوة أمريكا الاقتصادية تساعد على تحمل ميزانية الدفاع الضخمة، وكانت العولمة تساعد المجتمع الأمريكي على التشابك مع بقية دول العالم، فإن نجاح القيادة السياسية يتحقق بصياغة الإجماع الشعبي في استراتيجية بعيدة المدى تجمع الناس حولها بإشغال النزعة المتطرفة أو إشاعة الذعر، ويصهر البراغمية الواعية بحقائق الأمن العالمي مما يجعله جزءاً جوهرياً لأمن أمريكا .

لقد أشار المؤلف في كتابه السابق (رقعة الشطرنج الكبيرة) الذي نشره عام ١٩٩٧ إلى عودة ألمانية وروسية إلى تأييد أمريكا على أثر أحداث ٩ / ١١ وكأنه يشير إلى افتعال وضعية هذه الأحداث التي فرضت على كل الدول الأخرى العودة إلى التأييد بعد أن كانت تسعى لبناء استراتيجية تعددية.

وها هو يؤكد أن هيمنة أمريكا إلى زوال، ولكنه يتبرر طول بقائها بالخوف من الفوضى العالمية كما يسميها إذا زالت فجأة.. إنه يرى تحرر الدول من هيمنة أمريكا وسيرها في طريق التعددية من الفوضى.

ويرى أن بقاء هيمنة أمريكا منوط بنجاحها ليس في الانفراد في الهيمنة وإنما في التعاون لإيجاد مجتمع عالمي بمصالح مشتركة.. إنه بذلك يقرر أن المجتمع تكونه المصالح المشتركة، وهو بذلك يمهد للعولمة الاقتصادية الأمريكية قبل غيرها من جوانب العولمة، والإفأي مجتمع لا تكونه مثل هذه المصالح فقط وإنما مجموع العلاقات البشرية التي تقوم بين أي مجموعة من الناس، كبرت أو صغرت، مما يشمل الاقتصاد والاجتماع والحكم والثقافة..

وهو إذ يرى قدرة أمريكا على الهيمنة لا يماثلها غيرها فإنه يبرر لأمريكا هيمنة القوة وغيرها الرضى بالتعاون معها لا بالصراع معها لأنه كما يرى أن الاستقرار العالمي مرتبط بقوة أمريكا طيلة العقدين القادمين، وكأنه يتوقع أن تزول هذه الهيمنة المبنية على القوة لنشوء غيرها بديلاً لها أو نداءً .

وأما قوله بأن ديمقراطية أمريكا ترفض هيمنة القوة، أو سوء استخدامها في العالم، فإنه يؤكد مدى التضارب بين هيمنة القوة وتطبيق الديمقراطية، وما يجري في أمريكا اليوم بعد أحداث ٩ / ١١ يبين مدى إخضاع الديمقراطية الأمريكية في الداخل لهيمنة القوة من خلال الزعم بالخوف على الأمن الداخلي، وكأن كل تلك الأحداث ليست من فبركتهم للإبقاء على السيطرة على الشارع الأمريكي لتحقيق أهداف النخبة الحاكمة، وإلا فما معنى نجاح تلك الإدارة بتعبئة الشعب ضد الإرهاب الدولي بالرغم من ضيق تفكير المجتمع الأمريكي.. إنه الإشارة إلى أهمية مثل هذه اللعبة للتعبئة لتحقيق الهدف الاستراتيجي من فرض التعاون مع أمريكا .

وأما خوف المؤلف على أمريكا من العودة للعزلة، وتركها العالم لهيمنة غيرها، فإنه يسنده لموقف الشعب الأمريكي من حكومته، الأمر الذي يقتضي دائماً شحن الشارع بأسباب إثارة الإحساس بهدف مشترك مهما كان في ذلك من إساءة استخدام القوة التي يدعو للحرص على عدم الوقوع فيها خشية من إتعاب الشعب.. إنها دعوة رجال النخبة الحاكمة للحرص على توفير أسباب الإثارة على المدى الطويل .

وعندما يرى المؤلف بأن قوة أمريكا الاقتصادية، مدعومة بمردودات العولمة، تيسر ميزانية الدفاع الضخمة، فإنه يربط ذلك بمدى نجاح أمريكا على القيادة بالإجماع الشعبي، ذلك الإجماع الذي لا يوفره إلا إشعال النزعة المتطرفة لدى الشعب أو إشاعة الذعر والخوف لديه، وهو ما تفعله النخبة الحاكمة في الشعب الأمريكي ضيق الأفق في التفكير والثقافة كما يرى هو نفسه.

وعندما ينتهي تحت هذا العنوان من كتابه إلى القول بأن البراغماتية أو العملائية الواعية بحقائق الأمن العالمي تجعل الأمن هذا جزءاً جوهرياً للأمن الأمريكي، فإنه يدعو العالم لمزيد من التعاون مع أمريكا والعمل معها والمحافظة على أمنها هي، واستقرارها هي، وذلك لكي تكون بقوتها المهيمنة قادرة على حماية أمن العالم .

فالمؤلف يحرص على أمن أمريكا من أجل أمنها هي، إنه الحرص على بقاء هذه السيطرة الأمريكية على العالم من خلال تعاون العالم معها لا من خلال التنافس معها أو السخرية من قوتها أو نقد تصرفاتها السياسية في العالم .

فكتاب المؤلف هذا الذي يدعو أمريكا لحسن الاختيار بين هيمنة القوة وبين حسن القيادة في سيطرتها على العالم، وتعاونها مع الدول الأخرى يكشف عن مدى حرصه على بقاء تلك الهيمنة وليس زوالها

معضلات الأمن القومي

فبعد أن أصبح انعدام الأمن هو كما يقول المؤلف الحقيقة الثابتة لدى أمريكا وذلك بسبب العولمة والدعوة لها فقد أصبح المدى المقبول للتعرض للخطر هو قضية مركبة لسياستها كقوة مهيمنة على العالم، بالإضافة لكونه مشكلة ثقافية لدى المجتمع .

ويقول : وبعد أن كانت السيادة الوطنية تعني الأمن القومي، وبشكل مطلق لكل دولة، فقد انتهكت من قبل الدول القوية .. ولكن الدول الكبرى المنتصرة عام ١٩٤٥ تكيفت مع الحقائق العالمية لتلعب دورها في هيئة الأمم المتحدة سواء الجمعية العامة أو مجلس الأمن، الأمر الذي جعل السيادة الوطنية وهمية لجميع الدول باستثناء الدول العظمى .

وقد تضامن الأمن القومي كما يقول مع سيادة الدولة في أمريكا أكثر من غيرها، مما جعل صناعات القرار فيها الذين يطلق عليهم (النخبة الثورية) تسعى لعزلها عن صراعات أروبة الداخلية لبعدها أولاً عنها ولأنها ثانياً في نظرهم النموذج لتنظيم الدولة .

ويقول : بأن جغرافية أمريكا ببعدها وإحاطتها بمحيطين عززت نظرة العزلة تلك حتى أنها هي التي عبرت المحيطين لتذهب لميادين الحرب ولم تأت إليها الحرب .

ويرى بأن انفراد أمريكا بالسلح النووي بعد الحرب الثانية جعلها تشعر في البداية بالحماية ضد المعسكر السوفييتي، فكان جنودها في ألمانيا واليابان يحمون تلك البلاد كما يحمون أمريكا نفسها في آن واحد .

ويذكر بأنه بعد أزمة الصواريخ الكوبية في بداية الستينيات انتهى ذلك الشعور بالحماية، وأصبحت سياسة الردع النووي هي أساس سقوط المناعة أمام الصواريخ الباليستية .

ويقول : بأن ذلك الردع لم يستقر إلا باتفاقيات الحد من انتشار الأسلحة النووية في السبعينيات، وخفض الأسلحة النووية في الثمانينيات .. وهكذا كما يقول أقرت أمريكا أن أمنها ليس بيدها بشكل كامل وإنما يعتمد على التكيف مع خصم مدمر، وهو نفس الحال لدى الخصم، مما جعل أمريكا تطمئن نسبياً .

ولكن بعد انهيار الاتحاد السوفييتي عام ١٩٩١ تحقق كما يقول الاطمئنان التام لدى أمريكا وإن بقي أمنها مرتبطاً بأمن مستودعات الترسانة النووية السوفيتية السابقة .

ولكن الأمن الأمريكي تعزز كما يقول أكثر بحربي أمريكا عامي ١٩٩١ و٢٠٠٣ ضد العراق، الأمر الذي أبرز التفوق العسكري الأمريكي الهائل ضد الخصم، ووفر لأمريكا الشعور بالمنعة التامة .

فبعد الحرب ضد العراق عام ١٩٩١، وفي كوسوفة عام ١٩٩٩ تأكدت كما يقول صدارة أمريكا العسكرية والتكنولوجية والاقتصادية، وأقل منها الاجتماعية الثقافية، وإن كان انتشار الإنترنت السريع للاتصالات قد أعطى أمريكا الريادة الاجتماعية للعالم .

ويرى المؤلف بأنه قد برز دور أمريكا أثناء هذه الفترة في الربط بين هيمنتها بالقوة الساحقة والعولمة على العالم حتى وصل الأمر بالكونغرس أن يفوض وزارة الخارجية الأمريكية تقرير سلوك الدول الأخرى ودون أي مبالاة بسيادة الآخرين ولا سيما بعد أن أخذت التكنولوجيا الحديثة تزيل تأثير البعد الجغرافي، وإن كانت العولمة قد أخذت تعرض أمريكا لخطر العداء في العالم.

ومن ناحية أخرى يقول المؤلف بأن وسائل الاتصالات الحديثة، وتطور نوعية الأشعة التدميرية قد اخترقت وسائل الحماية التقليدية للدولة، وأخذت الأسلحة تتسرب إلى خارج الدولة حتى المنظمات السرية، كما أن دولة فقيرة مثل كوريا الشمالية قد توفر لها ذلك، مما يسهل وقوع نهاية إرادية للعالم إذ بات العلم يسهل تحقيق تدمير الآخرين .

ولذلك فقد تعددت كما يقول احتمالات التدمير من تقليدية إلى متطورة كما يلي :

١- فمن حرب تدميرية مركزية استراتيجية، كاحتمال بعيد بين أمريكا وروسيا، أو أمريكا والصين، أو روسيا والصين،

٢- إلى حرب إقليمية كبيرة بأسلحة فتاكة، كاحتمال بين الهند وباكستان، أو إسرائيل وإيران ،

٣- إلى حروب عرقية تقسيمية، كاحتمال في أندونيسية أو الهند ،

٤- إلى حركات التحرر الوطني ضد هيمنة عرقية، كما في أمريكا اللاتينية أو الشيشان أو فلسطين ،

٥- إلى هجمات دول ضعيفة بأسلحة تدمير شامل ضد أمريكا ،

٦- إلى هجمات إرهابية تكرر ٩ / ١١ أو تستخدم أسلحة الدمار الشامل ،

٧- إلى هجمات إلكترونية لشل بنية الدول المتطورة وإغراقها في الفوضى .

ويقول : لقد أصبحت الأسلحة اللازمة لذلك كله متوفرة ولا سيما مع وجود الدول الفقيرة أو المجموعات المضطهدة، الأمر الذي يجعل مشكلات أمن مطلع القرن الـ ٢١ تختلف عن الـ ٢٠ من حيث النوعية، إذ انفصلت السيادة الوطنية عن الأمن القومي، وهذا كما يقول يفرض على أمريكا متابعة تطوير أسلحتها والحرص على تفوقها التكنولوجي ،

ويقول : وإن كانت الحروب الكبرى العامة قد انحسرت بعد تبني أمريكا وروسية سياسة الردع المتبادل، ولكن ذلك لا يمنع من وقوع حرب شاملة بين الهند وباكستان .

ويقول : وأما أسلحة الحرب المحتملة فإنها ستكون شديدة الدقة وذلك لنزع أسلحة الخصم وإخضاعه وليس لتدميره، وهذا ما حصل ضد طالبان وضد العراق عندما استهدفت أهداف عسكرية أو اقتصادية مهمة .

ويقول : بأن النزاعات المحدودة قد حلت محل تلك الحروب الكبيرة، كالحروب الثلاثة بين الهند وباكستان، وهجوم إسرائيل الاستباقي عام ١٩٦٧ .

ويقول : وقد أصبح ينظر للحروب بأنها عمل شاذ وجريمة، ولا تعلن وتنتهي رسمياً كالسابق، مما يعتبر تقدماً، ومما يجعل عصر العولمة يعتمد على النزاعات غير الرسمية، كالعنف الذي حصل عقب سقوط الاتحاد السوفيتي، أو النزاعات العرقية أو الدينية كرواندة والبوسنة، أو إثارة إيديولوجية الاستياء والكراهية بسبب عدم المساواة العالمية ضد أمريكا .

فمعضلات الأمن الأمريكي تصبح كما يقول كالأعمال الإجرامية ضد مراكز التحضر الكبيرة كما يجري الآن ومنذ سنوات، ولكن الخطر في مساعدة التكنولوجيا لهذا العنف غير محدد المصدر مما يجعله خارجاً عن السيطرة، ومما يدعو أمريكا للتخلص من ذلك وليس العودة للعزلة كما حصل في القرن ١٩ وذلك بالتعامل مع هذه اللامنعة العالمية، وهذا ما حصل بعد ٩ / ١١ عندما تزايد سعي أمريكا لتحقيق مزيد من الأمن القومي الأمريكي ولا سيما وهي تتولى القيادة الاجتماعية الثقافية في العالم، مما يفرض تقدير تطور الأمن الذاتي والمشارك .

إن القول بأن انعدام الأمن الأمريكي سببه العولمة فيه مبالغة لأنه في الحقيقة بسبب افتعال الذعر للشعب الأمريكي ليبقى سندا قويا لسياسة أمريكا الاستراتيجية في الهيمنة على العالم .

وأما أن السيادة الوطنية قد أصبحت وهمية لجميع الدول غير العظمى فهذا تبرير شرير لعدوان أمريكا وأمثالها من حلفائها كبريطانية على الدول الضعيفة كما هو جار الآن .

والقول بأن حربي أمريكا ضد العراق عام ١٩٩١ و ٢٠٠٣ قد عززا أمنها فيه مغالطة كبرى لأن الحرب الأولى كانت للسيطرة على الكويت والخليج بأكمله كمنابع نفط ضرورية لأمريكا، وأما الثانية فكانت للسيطرة على العراق بالذات لاستكمال السيطرة على الخليج ونفطه، وفي نفس الوقت لحرمان المنطقة حتى من العقول المنتجة للأسلحة التي تحمي البلد من التدخل الأمريكي، وتمكن البلد من المشاركة إن لم تكن قيادة المنطقة للتخلص من الثعبان الصهيوني الحليف الاستراتيجي لأمريكا في المنطقة.

وما تفويض الكونغرس للإدارة المحافظة الحريصة على الهيمنة على العالم للتدخل في سياسات الدول الأخرى، دون أي اعتبار لسيادتها، إلا نتيجة لذاك الذعر الذي أوجدته وغذته سياسة الإدارة الأمريكية، وذلك من أجل دعم استراتيجيتها في الهيمنة على العالم .

وأما القول بأن العولمة قد أخذت تعرض أمريكا لخطر العداء العالمي فهذا وصف حقيقي لمن يريد تطوير العولمة لتشكّل نتاج أو مظهر مجتمع المصالح المشتركة كما يسميها المؤلف الذي يحرص على التعامل وليس العداء مع أمريكا .

وبعدها يقف المؤلف ملياً مع ذكر احتمالات الحروب التدميرية فيراها ضعيفة بين أمريكا والدول الكبيرة الأخرى، ولكنه يراها أكثر احتمالاً لحروب محدودة إقليمية أو عرقية أو إرهابية أو إلكترونية، مما يبرر وقوعها ولا سيما مع توفر تسرب الأسلحة اللازمة إليها، ولكن المؤلف يتجاهل أن أمريكا نفسها هي التي ترعى الكثير من تلك الحروب المحدودة أو تثيرها ضد بقايا الاستعمار الأروبي لتحل محله .

وأما أن يجعل تلك الحروب مدعاة لتطوير الأسلحة الأمريكية وتفوقها التكنولوجي فإنه كمفكر استراتيجي ينبه أمريكا وصناع القرار فيها لذلك ولا يركنوا لضعف الدول الأخرى.

وأي دقة شديدة كما يقول راعتها الأسلحة الأمريكية في أفغانستان والعراق وهي تدمر المنشآت المختلفة إن لم نقل المدن والقرى المتعددة !!

وعندما يرى في عدوان إسرائيل عام ١٩٦٧ شكل من الهجومات الاستباقي فإنه الآن وقد شاع هذا المصطلح وأصبح مبرراً يقول به في حق إسرائيل التي لم تكن وما زالت تدرك أنها ككيان منبؤ مرفوض في هذه المنطقة بالرغم من تواطؤ بعض الحكام معها .

وأما قوله بأن الحروب لم تعد رسمية لا في الإعلان ولا في الإنتهاء، وأن ذلك قد حقق تقدماً في التعامل البشري، فإنه يدعو إلى ذلك في الحروب ما دامت لا تعرض أمريكا لخطر الحروب التدميرية، و تحافظ على هيمنتها العالمية .

وأما رأيه بأن عصر العولمة الحالي قد أصبح يعتمد على النزاعات غير الرسمية فإنه يصف أفاعيل أمريكا وحلفائها في تغيير النظم والحكومات، وأن ما يورده من أمثلة على ذلك من العنف الذي اجتاح الدول التي كان الاتحاد السوفيتي يسيطر عليها بعد سقوطه، ومن النزاعات العرقية، أو الدينية في رواندا والبوسنة، ومن إثارة الكراهية ضد أمريكا بسبب ما يسميه عدم المساواة العالمية التي هي في الحقيقة صناعة أمريكية لهيمنتها وفي طريق هيمنتها على العالم .

وعندما يرى أن الخطر على الأمن القومي الأمريكي منشأه من عدم تحديد مصدر التكنولوجيا الحربية المتطورة، فإنه يدعو أمريكا للسيطرة على كل بلد يحتمل أنه يريد تطوير أسلحته لحماية سيادته وإلا كما يقول فلتت من السيطرة .

وينتهي المؤلف تحت هذا العنوان لدعوة أمريكا للتعامل مع هذه اللامنة العالمية وليس بالهرب منها بالعزلة لأن بالتعامل تحقق أمريكا مزيداً من الأمن القومي لها، وتمكن من القيادة الاجتماعية الثقافية للعالم، إنه الحريص على بقاء الهيمنة بجعلها قيادة مهيمنة غير منافسة وذلك من خلال ما يسميه تحديد أمن أمريكا الذاتي والأمن المشترك .

السلطة الوطنية والنزاع الدولي

في عصر العولمة يرى المؤلف بأنه لا يوجد أمن شامل ولا دفاع شامل، بل تحديد مقدار انعدام الأمن الذي تستطيع أمريكا التعايش معه . فلا بد لأمريكا المسؤولية كما يقول المؤلف عن الاستقرار العالمي من مزيد من الأمن أكثر من غيرها، ذلك لأن أي انسحاب أمريكي من مناطق وجود جيوشها في أوروبا والشرق الأقصى والخليج العربي سيؤدي إلى الفوضى السياسية في أوروبا، وإلى اندلاع حروب في الشرق الأقصى، وإلى هيمنة إيران في الخليج، الأمر الذي يفرض على أمريكا تحويل تفوقها لنظام دولي ذاتي الدعم أو عزل نفسها عن تلك الفوضى الدولية، مما يجعل الأمريكيين يردون بالجمع بين الأحادية والدولية، فيحافظ المحافظون التقليديون على التوجه الدفاعي للمحافظة على مصالحهم التقليدية، وأما العناصر الليبرالية فتفضل بناء نظام أممي عالمي يحقق العدالة في الداخل والخارج .

وهنا يرى المؤلف أنه لا بد من التذكّر بأن القوة لا تفعل كل شيء، مما يجعل أمريكا بحاجة لمسح المناطق الحيوية لأمنها ومصالحها، وتحديد مدى الاضطراب المسموح به .

ويقول : إن أولى التهديدات لأمريكا هي الحرب الاستراتيجية المركزية، مما يفرض المحافظة على ردع نووي مستقر ومتبادل بين أمريكا وروسيا الآن والصين

فيما بعد، ومما يجعل صناع القرار الأمريكي يحرصون على بذل الجهود الكبيرة والمكلفة لتحسين قدراتها الاستراتيجية، مع التشديد على تعددية الأشكال القتالية مع تقليل مركزية الأسلحة النووية، وهذا ما يجعل أمريكا تشرك روسيا والصين وحلفاءها التقليديين في السعي للاتفاق على سبل الوقاية من الهجمات الصاروخية الهامشية مما يطمئن تلك الدول نحو سياسة أمريكية .

ويرى بأن تدخل أمريكا في الحروب المحلية يحتاج لتوفر قوات تدخل سريع وحاسم وذلك من أجل أمن أمريكا، وهذا يحقق منع انفجار حروب في محل آخر، وهو أفضل من حربين محليتين في وقت واحد . أما كيف يتم ذلك فبالجمع بين الأسلحة المتطورة وبين النقل الجوي السريع، وهذا متوفر لدى أمريكا وليس لدى غيرها مما يجعلها متفوقة على غيرها .

ويقول بأن ما تواجهه أمريكا من تحديات أمنية على أراضيها غير واضحة وشديدة التعقيد، فكان الاهتمام القوي قبل ١١ / ٩ منصباً على احتمال إقدام دولة (شريعة) مثل كوريا الشمالية على شن هجوم بالصواريخ الباليستية، وأن ذلك سيكون محتملاً بعد خمس سنوات أي عام ٢٠٠٠، ولكن تبين أن ذلك لن يكون قبل عام ٢٠٠٥، مما جعل إدارة بوش تقرر بناء نظام دفاع صاروخي قومي متين، وكانت إدارة كلينتون قبلها قد رأت ذلك، ولكن الجمع بين مزايا الدفاع الصاروخي والصناعة الفضائية دقيق جداً إذ كانت قدرة العراق وإيران على تهديد إسرائيل ترجح الدفاع الصاروخي في مجال الإنفاق، ولكن سيبقى التنسيق لازماً بين الأسلحة الدفاعية والهجومية، وإن كانت دولة محددة لن تجرؤ على الهجوم المكشوف على أمريكا لأنها تعلم الرد الدفاعي المدمر ضدها .

ويقول بأن ضربة انفجار نووي من سفينة مجهولة تفني مدينة من الوجود، كما يمثل صاروخ باليستي عابر للقارات دقيق الإصابة صورة مرعبة لأمريكا، ولا سيما بسبب ازدحام المدن بالسكان، مما يثير الهلع بين السكان كما حصل مع رعب الجمره الخبيثة بعد ١١ / ٩، وبالمثل لو حصل هجوم إلكتروني يشل نظم الاتصالات والطاقة والخطوط الجوية في أمريكا، مما يؤدي إلى انهيار المجتمع اجتماعياً واقتصادياً .. ذلك أن الاعتماد الشديد على التكنولوجيا في المجتمع الحديث يوفر هدفاً مغرياً للهجمات المجهولة المصدر، مما يفرض وضع خطط طوارئ لهذه الأخطار بحيث تكون الجهوزية على مستوى عالٍ لخارج الحدود، ولكن بشرط عدم استبعاد أي خطر، فكما تراقب الحدود بدقة لمنع دخول مكونات الأسلحة الشاملة الدمار للبلاد توضع خططا أمنية لحماية النظم الحاسوبية اللازمة على المستويين الاقتصادي والعسكري .

ويرى أن ذلك لن يتم بنجاح إلا بجهاز استخباراتي فعال، وإن كان ذلك لن يحمي كل مرفق من الهجمات الإرهابية، هذا بالإضافة لإمكانية اللجوء للإنذارات الزائفة .
ويقول بأن تحسين تكنولوجيا المراقبة لكشف النشاطات المشبوهة بسرعة كفيل مع نشاط العناصر البشرية باختراق الحكومات الأجنبية لإحباط المخططات التخريبية ضد أمريكا ولا سيما مع جهوزية عالية للأمن القومي .

عندما يقول المؤلف بأن انسحاب أمريكا من مواطن جيوشها في العالم تقع الفوضى السياسية في أروبة، والحروب في الشرق الأدنى، وهيمنة إيران في الخليج فإنه يصير للعالم أجمع بأن أمريكا هي حامية الاستقرار في العالم، فيجب أن يعطوها من الأمن أكثر من أنفسهم، ويحرصوا على مكانها في بلادهم.. يالمصيبة الجرأة في طلب جيوش المحتلين وبقائها في البلاد المحتلة !! لقد تشققت المقاييس والقيم في عصر العولمة !!

وأما قوله بأن تلافى الفوضى العالمية لا يتم إلا بالتوافق بين أحادية أمريكا ودولية حلفائها، فهذا دعوة لاستمرار الركوع للمحتل !!
وعندما يدعو أمريكا لمسح المناطق الحيوية لأنها ومصالحها في العالم فإنه يريد ألا يقلت من هيمنة أمريكا أي قسم من العالم لتخلد هيمنتها !!
وها هو يحرص على بقاء التفوق العسكري والتكنولوجي الأمريكي على العالم كله من أجل تلافى أي خطر قد يهدد استراتيجية السيطرة الأمريكية ولا سيما عندما تشرك كل منافسيها من روسية والصين بالذات في الوقاية من كل أنواع الهجمات المحتملة .

وأما تدخل أمريكا في الحروب المحلية فإنه يرى ذلك ضرورياً وذلك من خلال قوات تدخل سريع وحاسم، مما لا يعرض أمن أمريكا للخطر، فلا هم للمؤلف غير ذلك للمحافظة على أمنها وسيطرتها !!

ولكنه من شدة خشيته على أمريكا وأمنها وما يتعرض له من تحديات فإنه يرى الجمع بين الأسلحة الدفاعية والأسلحة الهجومية بالتنسيق بينها، ويرى ذلك من أجل منع العراق وإيران من تهديد إسرائيل أيضاً، فإنه يدخل الحرص على إسرائيل كالحرص على أمريكا، لأنها جزء جوهري من أمريكا وسياستها في المنطقة أو أبعد!!
وعندما يشير إلى ما حصل من هلع ورعب الجمرة الخبيثة بعد ٩/١١ فإنه ينبه إلى مثل هذه الانفجارات المفاجئة، والتي يشبهها الهجوم الإلكتروني لشبكة الاتصالات والطاقة والخطوط الجوية الأمريكية التي تعتمد عليها، وأن ذلك من الأهمية بمكان، مما يستدعي إعداد وتحسين تكنولوجية المراقبة مع قوة الاستخبارات الضخمة لمنع التسلل وتوفير ما يراه لازماً لحماية الأمن القومي الأمريكي ..

تعريف الخطر الجديد

ويرى بأنه قد دار جدال عند استقلال أمريكا حول بناء جيش فيدرالي، فتم ذلك دفعا لأي خطر، ولكن عند انزغال أمريكا عن السياسة الدولية بعد الحرب الأولى تعرضت أمريكا لخطر ثان عندما رفضت الدخول في عصبة الأمم، وأما الآن فبعد انخراط أمريكا في حلف الأطلسي بعد الحرب الثانية جاء الخطر الثالث وهو مسؤوليتها في حماية أمن أروبة للدفاع عن نفسها هي .

وبعد ٩ / ١١ اشتد الجدل حول هذا الخطر الجديد، فبعد أن رأته إدارة ريغان في الثمانينيات في مبادرة الدفاع الاستراتيجي، لأنه لم يكن غير خطر الاتحاد السوفيتي تغير الوضع الآن وبعد عشر سنوات من ذلك ليصبح انتشار أسلحة الدمار الشامل هو الخطر على السلم العالمي وسلم أمريكا معاً، وانتهى بذلك القول بالأمن الشامل، فلا أمن لأمريكا يحقق الأمن لغيرها ولا العكس، كما أن الأمن المحلي والدولي لن يوفر الأمن الدائم، فلا بد بتوفير أعلى مدى منه من تعزيز القدرة العسكرية الشاملة مع القدرة المحلية، مع التخلص من أسباب العنف السياسي وتقوية النظم السياسية برعاية حقوق الإنسان والإجراءات الدستورية بحيث لا تكون الديمقراطية في موقف دفاعي .

فتحديد الخطر الجديد يوفر التعبئة القومية السليمة الفورية والبعيدة المدى، ويستدعي ذلك التمييز بين الحلفاء التاريخيين وأولئك الانتهازيين، وبين المعارضين السريين والمكشوفين

وبهذا التعريف للخطر يمكن للشعب في أمريكا كما يرى المؤلف تحمّل التضحيات المادية اللازمة للمواجهة، كما أن ذلك يسهّل التعبئة الاجتماعية على مدى طويل، ويوضح الدوافع السياسية والتاريخية بغض النظر عن الكراهية والتحيز التي تؤثر في سلوك الأمم والجماعات الإرهابية .

ويقول بأنه قد لوحظ في ميل الخطاب السياسي والإعلامي التركيز على الإرهاب، وأبرز قبج شخصية ابن لادن بعبارات دينية بأن الإرهاب صراع بين الخير والشر، وقد استجاب المزاج الشعبي الثائر لمقولة: (كل من ليس معنا فهو علينا) وإن جرى تجاهل الظلال الرمادية بين الأبيض والأسود .

ويرى بأن إدارة بوش قد تجنبت اعتبار الإرهاب صنو الإسلام، ولكن بعض مؤيدي الإدارة شنوا حملة ضد الثقافة الإسلامية بصفتها معادية للغرب، وأنها أوجدت تربة خصبة للعنف ضد أمريكا، كما بقيت التحليلات العلمية لأحداث ٩ / ١١ تشير إلى العقلية الإسلامية كمعادية دينياً وثقافياً للمفاهيم الغربية للحدثات وخاصة الأمريكية منها ويقول بأن بوش قد نجح في مخاطبة الشعب بطابع ديني وسياسي تعبوي عندما حدد محور الشر في كورية الشمالية والعراق وإيران، واحتمال أن يملك الأسلحة النووية التي ستهدد أمن أمريكا والعالم أجمع .

ولكن رضى الشعب الأمريكي بعبارة محور الشر لا يكفي لتعاون خارج أمريكا معها في الحملة ضد الإرهاب، كما أن عرض الإدارة للإرهاب بأنه أفعال شريرة بدوافع شيطانية لم يحدد الإرهاب لتتوجه ضده الحرب .

ويوضح فيقول بأن الإرهاب جزء من الحرب، فلا يستخدم إلا لأغراض سياسية، إذ لا يقدم عليه الضعفاء لدوافع سياسية، فهو استمرار للسياسة بوسيلة أخرى .

ويقول بأن ذلك يستدعي تدبير حملة للقضاء على الإرهابيين وللتخلص من دوافعهم السياسية معاً، ذلك بأن الإرهاب إن كان جديداً بالنسبة لأمريكا فهو ليس كذلك في غيرها، إذ انتشر في أوروبا وروسية منذ القرن التاسع عشر، وكان قتل الأرشيدوق

النمساوي فرانز فرديناند في سراييفو شرارة اندلاع الحرب العالمية الأولى، وإن كان ما فعله الجيش الجمهوري الإيرلندي في بريطانية نمطاً آخر، وما يجري في إسبانية مع ثوار الباسك، وإيطالية مع المافية هما نموذجان آخران، وما يجري في أمريكا اللاتينية من الأجنحة اليسارية واليمينية هو نموذج ثالث .

ويرى بأن الإرهاب المتجذر عرقياً أو قومياً أو دينياً يتخذ طابع الدوام، ولذلك من الصعب استئصاله، ولكن عدم تبني المجتمعات له يجعله سهل الزوال، وأما إذا دعمه المجتمع، ولو من فئة منه كالفلاحين كفئة محرومة، فإنه يدوم ويستمر ولا سيما إذا كان نابعاً من عرقية تستند إلى التاريخ وتذكية الحماسة الدينية، وهو الأشد .

ويقول بأنه إذا كان يصعب إصلاح الإرهابيين لكن يمكن إصلاح الظروف المساعدة على ظهورهم، مما يفرض لاستئصالهم من اجتثاث عوامل نشأتهم مع القضاء عليهم معاً ولكن مع مراعاة العوامل السياسية .

وهنا يرى بوجود الاعتراف بأن تدخل أمريكا في الشرق الأوسط هو سبب تعرضها للإرهاب، كما حصل مع تدخل بريطانية في إيرلندا، ذلك لأن الشرق الأوسط يجد في تاريخه السياسي سبب الغضب على أمريكا بعد أن كان على فرنسة وبريطانية اللتين أوجدتا إسرائيل ولكن أمريكا تولت رعايتها ومساندة أعمالها ضد الفلسطينيين، وهذا أوقد الحماسة الدينية ضده، فوقعت أحداث أيلول وقبلها الهجوم على مركز التجارة العالمي وكلها بدوافع سياسية، وعليه لا بد لأمريكا أن تتعامل مع هذا الإرهاب على الصعيد السياسي والعسكري، فلا تتجاهل الأبعاد السياسية له، فاستئصال الإرهابيين يجب السير فيه مع التصدي للظروف التي أوجدتهم بعملية سياسية .

ويقول بأن هذا ما فعلته بريطانية في إيرلندا، وما تفعله إسبانية مع الباسك وهذا ما تحاول عمله روسية مع الشيشان، ولهذا فإن عدم ربط أحداث ٩ / ١١ بتاريخ الشرق السياسي إنكار في غير محله لن يحل مشكلة الإرهاب ولا سيما مع رعاية القمع الإسرائيلي للفلسطينيين، الأمر الذي يصعب معه الرد الاستراتيجي في الشرق الأوسط .

ويقول بأن العالم أخذ يرى في مفهوم أمريكا للإرهاب بأنه مسار محور الشر بأنه بعيد عن السياق السياسي للإرهاب بعد أن تعاطف مع أمريكا كثيراً عند أحداث ٩ / ١١، وهكذا انحسر التأييد العالمي لأمريكا وأصبح التشكيك هو الأساس، مما يعرض أمريكا لخطر الوقوع في العزلة بعد أن أصبح خطر التهديد بالأسلحة المدمرة في متناول الدول والمنظمات السرية، مما يجعل احتمال ذلك الخطر كبيراً ولا سيما أن سجل أمريكا في مجال انتشار الأسلحة النووية ليس نظيفاً . وقد ساعدت بريطانية وفرنسة وإسرائيل في امتلاكها كما غضت الطرف عن الصين والهند وباكستان، مما جعل اتهامها بذلك قد جاء متأخراً، كما أن تشددتها ضد العراق وإيران يقابله تساهل بالنسبة لإسرائيل، ثم إن تظاهرها ضد كورية الشمالية هو لمجرد حجب انشغالها ضد الشرق الأوسط ليس غير وبشكل خاص .

ويقول بأن الدول الأخرى قد وجدت فرصة في ربط أعمالها بالحرب الأمريكية على الإرهاب مما ساعدها على اختطاف تلك الحرب، فما تفعله حكومة شارون وحكومة

بوتين وحكومة الصين هو استغلال للمفهوم الأمريكي المبهم عن الإرهاب العالمي في حربهم ضد الفلسطينيين والشيشان والإيغور.

ولهذا، كما يقول، يجب الاعتراف بأن الإرهاب وانتشار الأسلحة المدمرة مرتبطان بقضايا إقليمية معينة، فلا محو لذلك إلا بالتصدي للإرهاب وأسبابه معاً، سواء مما في شمال شرق آسيا من ظروف وأسباب أو في كوريا الشمالية، مع اعتبار مصالح الدول المجاورة هناك من كوريا الجنوبية والصين واليابان، مما لا بد من مراعاة مصالحها .

ويرى بأن الحرب على الإرهاب لن تنحصر بأمريكا، بل لا بد من أن تفقد المنظمات الإرهابية في الشرق الجاذبية الاجتماعية بحيث لا تعد قادرة على تجنيد الأفراد، وتجف مواردها المالية، كما لا بد من التحكم بانتشار الأسلحة بالرقابة الدولية أو بابقائها بضغط دولي خارجي ولا يملك ذلك إلا أمريكا ولكن لا بد لأمريكا من الدعم الدولي الحقيقي في ذلك .

ويقول : بالرغم من أن أمريكا قادرة على سحق كوريا الشمالية وأي دولة شرق أوسطية، وعلى ردع أي عمل عدائي ضدها أو ضد إسرائيل، وعلى ضرب إيران بشكل انتقائي، إلا أن ذلك لن يعالج دوافع الإرهاب بل سيزيد من الاستياء ضدها، وسترفض ذلك أوروبا بالذات وكل العالم الإسلامي فتصبح الحرب على الإرهاب محصورة في أمريكا وموجهة ضد الإسلام فتتحقق نبوءة هنتجتون بصراع الحضارات وبهذا الأسلوب يشتد كما يقول حرص الدول الأخرى على حيازة الأسلحة المدمرة، كما يشتد ذلك لدى المجموعات الإرهابية بمساعدة الدول التي ترفض التخويف، مما يعرض أمريكا لهجوم ينتهي لسيادة قانون الغاب العالمي، إذ يتدمر الأمن القومي الأمريكي على المدى الطويل، مما يجعل القول بتقليل أهمية حلف الأطلسي لصالح الحلفاء مضللاً جداً، وهذا ما تردده مجموعة مندفعة في إدارة بوش من المحافظين جداً وذلك لتغيير أولويات أمريكا السياسية الأساسية، إذ أن حلف الأطلسي كان التعبير الحاسم عن المؤيدين الأمريكيين ضد الاتحاد السوفييتي، مما جعل انهيار الاتحاد السوفييتي عام ١٩٩١ نصراً تاريخياً لذلك التحالف، ولكنه أثار مسألة مهمة الأطلسي الذي توسع ليشمل أوروبا كلها وتوسعت مهماته لخارج أوروبا فأصبحت بعد ٩ / ١١ كل الدول التي تصارع المسلمين في روسيا أو الصين أو إسرائيل أو الهند شركاء طبيعيين ورئيسيين لأمريكا، ورأى بعضهم أن على أمريكا أن تعيد صياغة الشرق الأوسط بالقوة باسم الديمقراطية وذلك لتخضعه لها وتستأصل التطرف الإسلامي وتؤمن إسرائيل، وهذا كما يقول ما تراه كل الفئات المحافظة والأصولية في أمريكا، ولكن نجاح ذلك في جذب الدول الداعمة مستبعد لأن الشراكة الانتهازية لن تحقق أكثر من عملية قصيرة المدى تنتهي بتدمير حلف أمريكا الذي مضى عليه أكثر من أربعين سنة .

ويرى بأن مخاطر ترتيب الشرق الأوسط ستزداد عندما تقدم أمريكا على الإجراء الاستباقي كما أعلن بوش عند الضرورة دفاعاً عن حرية أمريكا وأرواح

الأمريكيين في خطابه في ١ / ٦ / ٢٠٠٢ في وست بوينت حين أعلن عن نقل المعركة إلى أرض العدو قبل تنفيذ مخططاته، ولكنه لم يعرف العدو فأبقى مجال الحركة مفتوحاً بشكل تعسفي، وبدون تحديد الإرهاب ولا الظرف الشرير لانتشار الأسلحة المدمرة التي تبرر قيام أمريكا بعمل عسكري وقائي .

ويقول بأن أمريكا قد ادّعت الحق في تحديد العدو وخبرته دون إجماع دولي على التحديد، ولكن الجمع بين مفهومي الاستباق والوقاية لم يسهل الأمور، كما لم يخفف شيء من سير أمريكا في متابعة الاستباق في الضرب ولو قبل الحصول على المعلومات الأكيدة قبل الهجمة .

ويقول بأن التمييز بين الاستباق والوقاية ضرورة أولية لأنه يظهر الفرق بين حرب حزيران عام ١٩٦٧ لاستباق إسرائيل العرب في الهجوم عليها وبين غارتها على مفاعل العراق النووي لمنعها من حيازة أسلحة تدميرية، كما أن هجوم أمريكا على العراق عام ٢٠٠٣ الاستباقي ضد تهديد مستقبلي ليس استباقياً لضربة عراقية قريبة .

ويقول بأنه لا بد من الحذر من استخدام المصلحة الوطنية العليا كمبرر للعمل الاستباقي وذلك من خلال تحديد هذا العمل وتمييزه عن العمل الوقائي حتى لا يقع الفشل وتقتنع أمريكا بعدم تكرار الحروب الوقائية تحت لباس الاستباقية .

ويرى بأن الضرر سيلحق بأمريكا عندما تتحول من منارة للحرية إلى قائد حلف مقدس لا نظام ولا عدالة فيه، فتقع في عزلة مفروضة لا تبقي لها صديقاً حقيقياً .

وينتهي المؤلف للقول بأن الاضطراب السياسي العنيف هو التهديد الذي بات يواجهه العالم أجمع، مما قد يؤدي إلى فوضى عالمية يكون الإرهاب أحد مظاهرها، و تكون الأسلحة المدمرة أحد أخطارها، وعندها لن تنجح أمريكا في التقليل من انعدام أمنها إلا باستراتيجية عالمية تتصدى لأسباب الصراع العالمي، وهذا يفرض تعبئة دعم عالمي واسع، ولكن ستبقى القوة الأمريكية الواسعة هي أساس هذه الاستراتيجية بغض النظر عن مسؤوليتها التاريخية في ذلك .

يخشى المؤلف من عودة أمريكا للعزلة كما فعلت عقب الحرب الأولى وخاصة بعد أن أصبحت عليها مسؤولية حماية أروبة بعد الحرب الثانية في إطار الأطلسي، فهو مخطط أو مفكر استراتيجي يبنه أمريكا والعالم على الخطر الفعلي على السلم العالمي من خلال انتشار أسلحة الدمار الشامل التي لا تبقى أمناً لأحد .

وها هو يدعو أمريكا للجمع بين قدرتها العسكرية المتفوقة والتخلص من أسباب العنف السياسي وذلك كما يقول لكي لا تصبح الديمقراطية في موقف دفاعي .. إنه الحرص على نظام الحكم الغربي ليبقى مسيطراً في العالم .

وهو عندما يدعو لتحديد الخطر الجديد الذي يتهدد أمريكا فإنه يريد من ذلك أن تتمكن أمريكا من معرفة حلفائها وأعدائها، كما تتمكن الإدارة من حشد الشعب وراءها ليكون مستعداً للتضحيات المادية والبشرية في سبيل الأمن العالمي الذي يصب في النهاية في مصلحة أمريكا نفسها .

وها هي الإدارة الأمريكية قد نجحت في إعلامها بالتركيز على الإرهاب واستجاب الشعب لها عندما ردد معها مقولة : من ليس معنا فهو ضدنا، إنه التعمية والتضليل .

وها هو عندما يذكر بأن أمريكا قد نجحت في إبعاد الإسلام عن صنو الإرهاب يؤكد بأن هناك من هاجم الثقافة الإسلامية على اعتبار أنها عدو الغرب، وأن العقلية الإسلامية معادية للغرب وبخاصة أمريكا ..

فمن الذي أثار من جديد هذا العداء بين الغرب والإسلام غير أمريكا بالذات في عدوانها واحتلالها لبلاد المسلمين ومناصرة إسرائيل ضدهم في فلسطين؟

وها هو يؤكد ذلك عندما يؤكد بأن تحديد العراق وإيران مع كورية الشمالية ما هو إلا الاحتمال إن تملك الأسلحة النووية، فهل وجدت أمريكا تلك الأسلحة في العراق عندما احتلتها؟! أنها أذوبة احتلال المناطق الاستراتيجية لمصلحة أمريكا ..

وها هو يعترف بأن الحرب على الإرهاب جزء من لعبة أمريكا السياسية على مستوى العالم من أجل الهيمنة العالمية، وما دعوة المؤلف للجمع بين استخدام القوة لاستئصال من يعادي أمريكا باسم الإرهاب وبين العمل على استئصال أسباب وجودهم إلا من أجل القضاء على كل من يعادي أمريكا ليدوم احتلالها وسيطرتها على العالم .
وعندما يدعو أمريكا من أجل تلك السيطرة أن تتقصد إصلاح أسباب العداء لأمريكا مع القضاء عليهم جسدياً وتنظيمياً فإنه يفكر استراتيجياً لخلود الهيمنة العالمية الأمريكية .

وعندما يدعو أمريكا للاعتراف بأن دعمها المطلق لإسرائيل هو سبب العداء لها في الشرق إذ أثارت الحماسة الدينية ضدها، مما يفرض عليها كما يرى أن تتصدى لأسباب هذا العداء وتعالجه وإلا كانت تنكر الواقع وعلاجه .. إنه التفكير الاستراتيجي لمصلحة أمريكا .

ويزداد تحذيراً لأمريكا من خطأ سيرها في الشرق الأوسط بالتزام الحرب ضد الإرهاب بصفته محور الشر دون الاهتمام بالسياق السياسي في ذلك، والذي جلب لهم عدم استمرار التعاطف مع أحداث ٩ / ١١ ، وأنه قد يخشى من عودة أمريكا إلى العزلة بعد أن ينفذ الكل من حولها ولا سيما وهم يرون موقفها من كورية الشمالية يختلف عن العراق وإيران وإسرائيل، حتى أنه يصرح بأنه مجرد لعبة لصرف النظر عن أفعالها في الشرق الأوسط .

وأما استغلال الدول الأخرى والتي تجيء إسرائيل وروسية والصين في رأسها، لحرب أمريكا للإرهاب فأخذت تحارب المسلمين من سكانها تحت هذا الاسم، فإن هذا يبعد العمل السياسي عن مجراه الحقيقي والذي يجب أن يتناول معالجة أسباب الإرهاب مع محاربة الإرهابيين ولا يترك للدول الأخرى لتستخدم هذه الورقة ضد المسلمين من رعاياها .. فهل منعتهم أو احتجت أمريكا عليهم؟ بالطبع لا لأنها تعرف أنها هي متورطة في ذلك .

وعندما ينبه أمريكا إلى ضرورة محاربة المنظمات الإرهابية بعزلها عن مجتمعاتها والقضاء على مواردها فإنه يدعوها للمشاركة مع الدول الأخرى في هذه الحرب والإفشلت، وأثارت العالم الإسلامي عليها، وأصبحت هي وحدها المحاربة في الميدان .

وعندما يتحدث عن الشركاء الطبيعيين لأمريكا في الحرب ضد الإرهاب فإنه يراهم في كل من يصارع المسلمين، كما يرى أن تستخدم أمريكا القوة في صياغة الشرق الأوسط وفقاً للديمقراطية الأمريكية، وهو بذلك لا ينسى أمن إسرائيل من بين كل دول العالم فيخصصها بالذكر لأهميتها كجزء مغرور في المنطقة لصالح أمريكا وهيمنتها .

وعند الحديث عن ضرورة الجمع بين الحرب الوقائية الاستباقية وبين الهجومية فإنه يدعو للتمييز بينهما وبالذات بين الاستباقية والوقائية، كما يحذر من استخدام المصلحة الوطنية العليا كمبرر للاستباقية لأن ذلك يقود إلى فشل أمريكا في السياسة الخارجية وتنتهي إلى عزلة إلزامية لعدم وجود حليف أو صديق لها.

وأخيراً يحذر من الوصول إلى الفوضى العالمية التي يكون الإرهاب مظهراً لها، كما يكون غيره من الأسلحة المدمرة من مظاهرها، وعندها لن يكون مهدناً غير أمريكا بقوتها ونفوذها.. فلم يعد يرى هذا المؤلف إلا أمريكا وسطوتها وكيف يديم ذلك

معضلات الاضطراب العالمي الجديد

لقد أصبح الصراع في أوراسية كما يرى الكاتب منذ العقد الأخير من القرن العشرين هو الشاغل الأمني المركزي في العالم لكثرة السكان إذ يزيدون عن نصف سكان العالم، وبسبب الهجرة المضطربة، وبسبب الصراعات العرقية والدينية فيها، وبسبب رغبتها لحيازة الأسلحة التدميرية .

فبعد أن كانت أمريكا، كما يقول المؤلف، تجابه خلال الحرب الباردة الإيديولوجية الشمولية السوفيتية بما تكده من الأسلحة النووية، وبالتخطيط لحرب نووية وذلك من أجل ردع نووي لتجنب الحرب، ومن أجل احتواء الآخرين للوقاية من زحف تلك الإيديولوجية للسيطرة على أوراسية، أصبحت تجابه حرباً جديدة تثير الاضطراب في العالم أجمع .

ويقول بأن الاضطراب العالمي الجديد يحتاج لمرونة أكثر من السابق لتخطي الحرب على الإرهاب ولتحديد العدو بالتصدي للأسباب الأساسية له حيث يتركز ما بين أوروبا والشرق الأقصى مما يدعى أوراسية، والتي أصبحت منطقة البلقان العالمي الجديدة لكثافة المسلمين فيها .

ولذلك يجب أن تدرس أمريكا، كما يقول، بشكل هادئ علاقتها بالعالم الإسلامي الشديد التقلب من أجل تهدئته والتصدي للإرهاب وانتشار الأسلحة في آن واحد، ولكن

دون نسيان الحرب الاستباقية وذلك بسبب تنامي العداء الديني والسياسي ضد أمريكا بسبب تدخلها الأحادي في المنطقة .

وبعد أن ذكر تحرك الشعوب ضد الظلم الاجتماعي والسياسي، بعد أن كانت تعتبره قدرها، ولأنها كانت في عزلة عما يجري في العالم، تغير هذا الحال جذرياً لانتشار التعليم وتأثير الاتصالات الحديثة التي وفرت وعياً سياسياً عاماً، فاجذبت الجماهير للعاطفة الوطنية والراديكالية الاجتماعية والأصولية الدينية، وأخذت تثير الحسد والعداء ضد المرفهين والأثرياء بين الضعفاء والفقراء.

قوة الضعف

ولقد أصبح على أمريكا بعد أحداث ٩ / ١١ التي قامت بها مجموعة الـ ١٩ المتعصبة وهزتها بها بعنف، أن تعسكر سياستها الخارجية، و تجذب روسية للغرب، وتحدث انقساماً بين أمريكا وأروبة لأنها هزت الاقتصاد الأمريكي وغيرت مفهوم الحقوق المدنية لدى أمريكا، مع أن تلك المجموعة لم تستخدم إلا سلاح التضحية بأرواحهم .

ويقول : فقد أصبح على أمريكا العمل للتغلب على واقعهم، وإلا استمرت بل زادت الكراهية ضد أمريكا ولا سيما أن إرهاب الحماسة الدينية يجد التعبير الحاد عنه في الوضع الفاسد لأهله، مما يجعل الناس مولداً للحماسة .. الأمر الذي يربك الأقوياء ويوقعهم في زعر مبالغ فيه فيصبح المجتمع رهناً لإرادة الضعفاء..

ويقول : والذي يزيد خوف القوي من الضعيف هو أن الضعيف أصبح قادراً على الوصول للأسلحة المدمرة، وإيقاع الأذى الاجتماعي الكبير بالقوي وذلك بعد أن يسرت حركة الهجرات المتزايدة ونظم الاتصالات والحديثة التنسيق بين الخلايا السرية، وبعد أن وفرت الديمقراطية سبل الاختراق والإغراق في المجتمعات المفتوحة، وأصبح من السهل حدوث اضطراب اجتماعي عام إذا أصيب عنصر أساسي واحد ..

ويقول: وهذا كله يؤكد قدرة الضعفاء على نشر الذعر بين الأغنياء بتكلفة زهيدة . وما تضخيم تنظيم القاعدة حتى أصبح قادراً على الضربات المنسقة والمدمرة في العالم إلا نمط من ذلك، مع أن القاعدة من حيث التقدير الدقيق مجرد تنظيم فضفاض لخلايا أصولية بدأت ضد السوفييت ثم تحولت ضد أمريكا بسبب مساعدتها لإسرائيل وللأنظمة الاستبدادية، وبسبب تدنيسها الأراضي المقدسة بجيوشها ..

ويرى بأنه بالنتيجة فقد قامت القاعدة بعدة ضربات ضد المصالح الأمريكية كانت ضربة ٩ / ١١ أخطرها، ولكن عدم وقوع هجوم آخر مماثل، مثل قنبلة قذرة في مركز عمراني، أكد ضيق قدرتها المادية والتنظيمية ولا سيما بعد حرب أمريكا ضد مركزها في أفغانستان .

ويقول : ولولا أحداث ١١ / ٩ لما أقدمت أمريكا على حربها ضد العراق واحتلاله عام ٢٠٠٣ إذ غيرت تلك الأحداث دور أمريكا في العالم بعد أن رأت قوة الضعف بسبب الكراهية ضدها.

ويرى أنه عند المبالغة في الأعمال المضادة ضد الضعيف، وبالذات العسكرية منها، فإن أمريكا تقع في مخاطر التركيز على مظاهر التحدي السطحية وتهمل الجذور التاريخية لذلك .

وينتهي للقول بأن تشابك معضلات الاضطراب العالمي لا تجعل السلطة والقوة كافيتين للمحافظة على الهيمنة الأمريكية في العالم، لأن الأعداء يستطيعون استغلال الديمقراطية الأمريكية، والتسرب من خلال ثغراتها وضربها من الداخل..

ويقول : وهذا يفرض على أمريكا للمحافظة على حياتها وحريتها التفوق في الخارج، والتعاون الأكيد من حلفائها معها بجهد مشترك مدرك لمفهوم الاضطراب العالمي المعاصر، ومدرك بأن تبسيط جوهر الصراع يساعد الضعيف، وهذا مما يفرض فهم تعقيدات الصراع ومواجهتها جميعاً .

إن المؤلف لا يخفي أن الخطر الجديد هو المسلمون عندما يتحدث عن تركيزهم في أوراسية حيث كثرتهم الساحقة فيها، فهو بخبث يتجنب التركيز على الإسلام وذكره كإيديولوجية جديدة بدلاً من الشيوعية المنهارة، ويتجنب التصريح بذلك مع أنه يذكر المسلمين ويذكر إيديولوجيتهم الجديدة القديمة المعادية .

وأما كيف يمكن التصدي لهذه الإيديولوجية فيرى ذلك بفهم العالم الإسلامي بشكل هادئ للقضاء على المسلمين الذين يجابهون أمريكا تحت مسمى أنهم إرهابيون، وفي نفس الوقت لمنع الأسلحة المدمرة من الوصول إليهم .

ولا ينسى هذا المفكر الاستراتيجي أن ينبه أمريكا لعدم نسيان الحرب الاستباقية حيث يلزم من منطقة أوراسية، ولذلك أقدمت على احتلال أفغانستان والعراق وما زالت تهدد باحتلال غيرها .

وكما يرى من آثار انتشار الوعي السياسي بين المسلمين بسبب التعليم والاتصالات الحديثة فإنه يدعو أمريكا للتنبه لذلك وتحويل التعليم إلى الوجهة التي تخدم أمريكا مما جعلها تتدخل في أنظمة التعليم وتأمّر البلدان الإسلامية بإلغاء كل النصوص الإسلامية الصريحة في بيان عداة الإسلام للغرب وعداء الغرب للإسلام، وكذلك ينبه لأسباب الاضطراب بأنها الحسد والأصولية الإسلامية مما يفرض التصدي .

ويلجأ لتبرير عسكرة سياسية أمريكا الخارجية بأنها أحداث ٩/١١، وكأن ذلك لم يكن مخططاً له من قبل كما تتحدث المعلومات الأكيدة عن ذلك، إنها لم تكن بسبب تلك الأحداث وإنما كانت تلك الأحداث بسببها .

ويدعو أمريكا إلى التغلب على الروح الاستشهادية لدى المسلمين وإلا زادت الكراهية ضد أمريكا وأصبح المسلمون الضعفاء عنصر الذعر في أمريكا، ولكنه لا ينسى أن يحذر من هذه المبالغة المصطنعة في إثارة الذعر بين الشعب الأمريكي لأن ذلك يجعله كما يحذر رهناً لإرادة الضعفاء أي المسلمين .

ثم يشير إلى تضخيم تنظيم القاعدة كجزء أساسي من إثارة الذعر المرعب، وهو بصراحة يعتبر ذلك من المبالغة التي ساعدت الضعفاء المسلمين ضد الأقوياء الأمريكيين، ثم إنه يربط احتلال أمريكا للعراق بأحداث ٩ / ١١ التي بنيت في الظاهر على وجود الأسلحة المدمرة فيه مع أنها كانت أكذوبة تكشف للعالم زيفها..

وأخيراً يدعو أمريكا للتفوق العسكري في الخارج مع تعاون حقيقي معها من حلفائها بشرط أن يقوم ذلك على إدراك أسباب الاضطراب العالمي العميقة وليس مظاهره السطحية لتتمكن من التخلص منه .

فيرى الكاتب بأن العمليات الإرهابية، وعداء الثورة الإيرانية الصريحة لأمريكا أدتا لجعل الأمريكيين ينظرون للمسلمين كما ينظر المسلمون لأمريكا عندما يصفونها بالشيطان الأكبر . وفي نفس الوقت عندما جسدت شاشات التلفاز الشر في أسامة بن لادن بمظهره وملبسه حتى اعتبر الأمريكيون العرب الأمريكيين كمشبهين رئيسيين، ولا سيما عندما شجعت وسائل الإعلام على معاقبة المسلمين حتى وقعت نحو ٢٠٠ حادثة اعتداء بشعة ضد المسلمين .

ويقول بأن أمريكا نظرت كرد فعل للعالم الإسلامي واضطرابه الأمني بصورة مبسطة وسريعة لا تصلح للثبات على المدى الطويل وذلك لعدم دقتها ولتحيزها، مما يفرض على أمريكا إعادة تقييم الأمور للتعامل مع القوى المعقدة والمتنوعة في العالم الإسلامي وذلك للتصدي للحقد الديني ضد أمريكا .

ويرى بعملية إحصائية بأن هناك ملياراتاً ومائتا مليون مسلم في العالم الإسلامي منهم ٨٢٠ مليون في آسيا، و٣١٥ مليون في أفريقية، و٣٠٠ مليون في شرق المتوسط والخليج وآسيا الوسطى .

وينبه إلى أن أكثرية هؤلاء المسلمين ليسوا عرباً، كما تحاول وسائل الإعلام الأمريكية تأكيده، ويقول بأنه لا بد من تذكر بأن هناك ٤١ بلداً أكثرية سكانها من المسلمين، وكلها لا تعتبر حرة لعدم احترامها للحقوق السياسية والحريات المدنية، ومنها ٨ حرة جزئياً، والباقي غير حرة ومنها ٧ قمعية . وهناك ١٩ دولة فيها مسلمون بنسب متفاوتة، كالهند وفيها ١٢٠-١٤٠ مليون مسلم، والصين وفيها ٣٥ مليون مسلم، وروسية وفيها ٢٠ مليون مسلم، وأروبة وفيها ١١ مليون مسلم، وأمريكا الشمالية وفيها ٨-٥ ملايين مسلم، وأمريكا اللاتينية وفيها ٢ مليون مسلم، ومعدلات الولادة أكبر من غيرها مما يضاعف عددهم ويصعب استيعابهم في النظام الاقتصادي العالمي بسبب نظرهم السياسية.

ولا ينسى أن ينبه إلى أن البلدان الإسلامية تواجه تحدي المطالبة بتطبيق الشريعة، الأمر الذي يوقع البلدان العلمانية مثل مصر والجزائر وأندونيسية في اصطدام مع الإسلاميين

ويرى بأن هناك ركوداً اجتماعياً في معظم بلدان العالم الإسلامي وذلك بسبب العلمانية الهشة، وبسبب ضعف المجتمع المدني وخنق الإبداع الفكري، وأن ذلك كله يرجع جزئياً لارث الاستغلال الحديث، ولربط الدين بالسياسة، ولفشل التطلعات الاجتماعية والاقتصادية، والصراعات الإقليمية والعالمية، الأمر الذي لا يُسمح معه بإصدار أحكام مسبقة بشأن المستقبل السياسي للعالم الإسلامي.

ويقول بأن الفساد وتوزيع الثروة غير العادل تثيران الاضطراب السياسي في بلدان العالم الإسلامي، فمن ٢٠٠ دولار الدخل السنوي في أفغانستان إلى ٢٠.٠٠٠ في الكويت، ومن فقر شعبي مدقع إلى تكديس الثروة لدى البعض، الأمر الذي يتنافى مع الشريعة الإسلامية ويجذب الناس للدعوة الإسلامية التي تسعى لاستئصال ذلك كله .

ويتحفظ المؤلف فيقول : ولكن الفساد ليس محصوراً بل يشمل معظم العالم النامي وبخاصة البلدان النفطية، فنيجيرية في رأس قائمة الفساد، وتليها أندونيسية فالباكستان التي تلتقي مع روسية في نفس المستوى ثم الهند وبعض دول أمريكا اللاتينية .

ويرجع ويصدر قراراً بأن الاحتمال الأكيد أن غالبية البلدان الإسلامية ستبقى ضعيفة بسبب اضطراباتها السياسية، وستبقى مشغولة بمشاكلها الداخلية ونزاعاتها مع الجيران، مما يزيد في انعدام الأمن الدولي والإرهاب .

ويقول : ومع الضعف يشتد الضيق الاجتماعي وتتأجج مشاعر العداء لأمريكا دينياً ووطنياً، ويقول : بأن أبرز عوامل العداء هو دعم أمريكا لإسرائيل، مما عم المسلمين العرب وغير العرب، كما أن مسلمي آسيا الوسطى قد أخذوا يدركون دعم أمريكا لروسية لمنع الانتشار الإسلامي في البلدان المجاورة لروسية، وهذا يضعف هناك العداء الإسلامي لأمريكا

ويرى بأن هنا تطرح تساؤلات حول مستقبل الأصول الدينية، وحول عجز البلدان الإسلامية في التحول للديمقراطية بسبب تعاليمها الدينية، وحول تناقض الإسلام مع الحدائث العلمانية التي تقودها أمريكا وأروبة والشرق الأقصى.

ويقول بأنه منذ استيلاء رجال الدين في إيران على السلطة انشغل الغرب بالأصولية الإسلامية، ومع تراجع إرهاب السلطة الفلسطينية العلمانية برز إرهاب المنظمات الشيعية المدفوعة من إيران، والسنية المدعومة من السلفيين أمثال ابن لادن، وأصبحت وسائل الإعلام الغربية ترى في تنامي الأصولية الدينية سبباً للاضطراب الداخلي ولا سيما أنها تسعى لتستولي على الحكم في بلدانها .

ويرى بأن الأصولية قد ظهر تراجعها في إيران قبل احتلال أمريكا للعراق عام ٢٠٠٣ وذلك عندما برز الإصلاحيون في كل مؤسسات الدولة، وأصبحت أيام الأصوليين معدودة كما في الباكستان والسودان وأندونيسية .

ويقول بأن ما يجري التركيز عليه في لبنان والعراق من الاحتلال الأجنبي ينقصه الزخم والجذور التاريخية اللازمة للجاذبية السياسية .

ويرى بأن الأصولية الإسلامية هي حركة انتكاسية بالضرورة لأنها مصدر لجاذبية قصيرة الأمد وضعف طويل الأمد معاً .

والشباب العربي ليس محصناً ضد إغراءات التلفاز والأفلام، ولن يعتزل العالم الحديث إلا بعض المتعصبين كمدى قصير لأن الأكثرية تريد فوائد الحداثة وترغب في التغيير الذي يحقق الطموحات .

ويقول بأن الكراهية للغرب هي مصدر حيوية الأصولية الإسلامية، ولا بد لأمريكا من الحذر والإلا وقع ما حل في إيران وجنوب لبنان وأفغانستان والسودان وكذلك العراق . هذا وقد نجحت بلدان مسلمة مثل مصر والجزائر وأندونيسية في إحباط جهود الأصولية في الاستيلاء على السلطة في حين نجحت المغرب في احتوائها .

ويرى بأن التحدي السياسي الدائم في البلدان الإسلامية السنية يصدر عن محركات شعبية تنادي بالإيديولوجية الإسلامية السياسية الشاملة، وهي تعارض الأصوليين وتنتقدهم صراحة، ولكنها تلقى صدى واسعاً لدى الشباب المتململ .

ويقول بأن العصريين القادمين من الغرب يناقشون علاقة الإسلام بالديمقراطية والحداثة بروح إسلامية، ولكن دون أن يكتمل النقاش ويتناقض مع الناحية السياسية، ويرتبط في الغالب مع الاستياء المزمن من السيطرة الغربية، كما يشكك المنفتحون على الغرب بمفاهيم (صراع الحضارات) لأنها تمثل تفوق الآخرين على المسلمين، وأن معظم العالم الإسلامي لم يستقل إلا حديثاً. ويرى بأن الإسلاميين يلجئون للديمقراطية كموضة شائعة في الوقت الحاضر، كما يلجئون إلى التقليل من أمر المعضلات الاقتصادية في بلدانهم، وأصبحوا يرون الملكية الخاصة وآلية السوق كشرط أساسي للنمو الاقتصادي . ويقول بأن الديمقراطية العلمانية الغربية مفهوم مثير للإسلاميين، لأنهم بالفصل بين الكنيسة والدولة ألغوا الدين، وجعلوا الأخلاق محصورة في كل ما يتنافى مع القانون فقط، وبذلك بقيت مسألة الفصل بين الحرية المدنية والدين في الإسلام أمراً محيراً .

ويرى بأن ما تقوم به الحركات الإسلامية اليوم يشبه ما قامت به الحركات الراديكالية الدينية في أروبة قبل قرن ونصف، والتي انتهت بالتوافق مع الشعب بوضع نظام قيم دينية أذعن له الأحزاب المسيحية بسبب خضوع الدولة والمجتمع لهذا

النظام، ولكن الحركات الإسلامية ترى خضوع المجتمع لأحكام الشريعة ليكون أظهر من الناحية الأخلاقية، وستبقى تلك الحركات تمثل تحدياً قوياً للحكومات بجميع مظاهرها .

ويرى بأن الاتجاه في الغرب يركز على المظاهر الرجعية والعنيفة في الأصولية الإسلامية سواء مما في إيران أو أفغانستان طالبان، ويجهلون ما يجري من نقاشات سياسية وفكرية بين المثقفين الإسلاميين والتي ترفض القوالب المتحجرة المتوارثة من القرون الوسطى والمعادية للحدثة والديمقراطية.. وإن كانت تلك النقاشات لم تبق هادئة بل تطرفت حتى العنف وسفك الدماء وتصدير الإرهاب إلى أروبة .

ويقول بأنه لابد أن يحدث تغير سياسي سلمي تترسخ معه الثقافة السياسية المعتدلة لدى الجماهير المضطربة سواء الإسلامية أو الأصولية، إذ تستوعب الإسلامية الحدثة بينما الأصولية ضد الغرب المسيطر والعلماني، ويرى بأنه سيحصل المزج بينهما بتأثير الاتصالات العالمية والتعليم الواسع بشكل تدريجي يؤدي لتكليف أحكام الإسلام مع السياسات المعاصرة، ذلك لأن الإسلامية كما يقول ليست إيديولوجية شاملة لجميع جوانب المجتمع وأنها خالية من التوجه الاقتصادي، تنتهي بمرور الزمن لإقرار الحقوق المدنية وفصلها عن الدين .

ويقول بأنه ليس من الصحيح أن الإسلام أكثر عداء للديمقراطية من المسيحية أو اليهودية أو البوذية لأن كلاً منها له تجاربه الخاصة مع الأصولية فيه، والتي في النهاية تصل للتعددية السياسية، بالتوفيق بين العلماني والديني .

ويدعو أمريكا أن تتخلص من الانطباع بأن الإسلام مختلف جداً بحيث يمكنه التطور السياسي الذي به تطور المسيحيون والبوذيون . ويذكر بأن ألمانية واليابان لم تتحولوا إلى مجتمعين ديمقراطيين بسهولة، وكذلك كورية الجنوبية وتايوان وأندونيسية

ويرى بأنه لابد لدعوة وحدة الأديان من التغلب على المشاعر المعادية للغرب، وعلى التصور النمطي العام للإسلام في أمريكا لتحقيق أمنها القومي، إذ لابد أن يرى المسلمون أنفسهم بأنهم جزء من المجتمع العالمي الناشئ، وأن أمريكا ليست عقبة في طريق بعث الحضارة الإسلامية .. وأن يعزل المعتدلون المتطرفين ليشترك المسلمون في بناء العالم، وأن أمريكا وحدها القادرة على تشجيع ذلك وتحقيقه عند استجابتها ومراعاتها لتنوع المجتمعات الإسلامية وإن كان هذا الهدف ما زال بعيد المنال . إنه لولا وسائل الإعلام الأمريكية وتصريحات المسؤولين لما حصل هذا الربط بين المسلمين والشيطان الأكبر الإيراني، ولولا ارتباك المسؤولين والإدارة الأمريكية على أثر ٩ / ١١ لما حصل هذا الارتباك في نظرهم للعالم الإسلامي، ولذلك ليطمئن هذا المؤلف بأن نظرهم له لا تحتاج لإعادة نظر لولا هذا الحقد الديني المتوارث والدفين لدى صليبي وصهيوني أمريكا نفسها.

وما هذه الإحصائيات للمسلمين وأعدادهم في جميع أنحاء العالم؟ هل يريد الكاتب أن يحذر أمريكا من عدم الدقة في حساباتها نحو العالم الإسلامي وملايينه؟

وها هو المؤلف يعرف أن نظم الحكم في البلدان الإسلامية تتعرض للتحدي الأكبر من مطالبتها بتطبيق الشريعة الإسلامية بغض النظر عن ما يسميه بالاصطدام فيها مع الإسلاميين.

وأما ما يصفه من أسباب الركود الاجتماعي في العالم الإسلامي من إرث الاستقلال وربط الدين بالسياسة وغيرها فإنه يظهر من تعليقاته أن الإسلام هو المقصود من بين كل تلك الأسباب لأنه بشكل من الأشكال يكمن وراء كل منها.

صحيح أنه يرى الفساد وسوء توزيع الثروة بين بلدان العالم الإسلامي من أسباب الاضطراب السياسي فيه، إلا أنه يعترف أن ذلك يسبب مناقضة مع الشريعة الإسلامية وأنه من دواعي جذب المسلمين للدعوة الإسلامية. وأما حكمه على أن معظم البلدان الإسلامية ستبقى ضعيفة لاضطراباتها ومشاكلها فإنه يتجاهل أن وراء ذلك كله تختفي أصابع الغرب كله وبالذات أمريكا وعميلتها الصهيونية.

وأما اعترافه بأن دعم أمريكا لإسرائيل هو أبرز عوامل عداة المسلمين لأمريكا فهو نوع من التضليل إذ تستخدم إسرائيل كمخلب قط في العالم الإسلامي كله وليس في المنطقة منه الموجودة فيها .

وها هو يكرر الاعتراف بأن دعم أمريكا لروسية ضد انتشار الإسلام فيما جاورها من البلدان الإسلامية هو من باب صرف العداة لروسية بدلاً من أمريكا في تلك المنطقة من آسية الوسطى.

وأما هذه التساؤلات التي يطرحها حول مستقبل الأصولية الإسلامية وعجز البلدان الإسلامية عن التحول إلى الديمقراطية فإنه يربط ذلك كله بالإسلام وأحكامه التي يذكرها ضمناً في تساؤله عن تناقض الإسلام مع حداثة أمريكا وأروبة.

ويتجاهل المؤلف أصابع أمريكا بخاصة والغرب كله بعامة التي تقف وراء الثورة الإيرانية والسلطة الفلسطينية والمنظمات الشيعية والسنية التي دفعوها للأعمال العسكرية ليسهل القضاء عليها.

وأما قوله الذي يخفى فرحته من أن أيام الأصولية في إيران قد أصبحت معدودة، وأن ذلك كذلك في بلدان أخرى إسلامية، فإنه نوع من التحذير والتنبيه لأمريكا والغرب من سوء الحكم والتقدير.

ويجراً المؤلف بالحكم الدال على جهله بالإسلام وهو يحتم على الحركة الإسلامية الداعية للعودة للإسلام وأحكامه في الحياة بأنها انتكاسة مؤقتة أو كرد فعل ضد كل تلك الأسباب، ويبرر قرب زوالها بعدم تحصن الشباب المسلم ضد تأثيرات

التلفزيون والأفلام الأمريكية بحجة أنه يريد فوائد الحداثة ويسعى لتغيير بلدانه لطموحاته، فإن هذا المؤلف يقع في الخلط بين ما يؤخذ من نتاج التكنولوجيا وعلوم الاتصالات وشبكاتهما، وبين ما لا يؤخذ من آثارهم الثقافية التي تبث على تلك الأدوات إذ الإسلام يفرق بين نتاج العلوم والصناعات وبين الثقافة والفكر، فيأخذ ذلك، ويرفض هذا... وأما زعم المؤلف بأن كراهية الغرب هي مصدر حيوية الأصولية الإسلامية، فهو افتراء كبير إذ حركة الإسلام للعودة للحياة آتية من أحكامه وليس معه عداء الآخرين له، ولو فتحت بلدان العالم الإسلامي صدرها للدعوة لاستئناف الحياة الإسلامية لتحقق لها الوصول للعالم كله في أقصر مما يتصوره الخيال، ولكنه التوجيه الكاذب لصرف الحركات الإسلامية عن عملية الدعوة ذاتها للانشغال بالعداء للغرب.

ويعود المؤلف فيقع بعملية خلط وهجس كبيرة عندما يقسم رجال الحركات الإسلامية إلى قسمين: أصوليين وإسلاميين، ويرى النقد و المعارضة فيما بينهما. إن الأمر لا يتعدى المسلمين الإصلاحيين الذين يدعون لترقيع الواقع القائم بالأعمال الجزئية، والمسلمين الجذريين الذين لا يقبلون إلا التغيير الكامل للواقع القائم ليحل محله واقع جديد من صنع الإسلام وأحكامه كاملة، أي لجميع جوانب الحياة.

وأما أمنيته لو يكتمل النقاش بين من يسميهم بالعصريين العائدين من الغرب حول علاقة الإسلام بالديمقراطية والحداثة، فإنه ينسى أنه لن يكتمل إلا بالناحية العملية عندما ينتقل الإسلام إلى التطبيق في الحياة.

وأما موضة الديمقراطية فلا ينادي بها إسلاميون واعون على حقيقة الديمقراطية وإنما ممن يسايرون الغرب عن خوف أو جهل، ولذلك فلا إسلامي واع يمكن أن تصدر عنه الدعوة إلى الديمقراطية التي تلغي إسلامه من الحياة.

وأما أنه يشبه الحركات الإسلامية بالأوروبية في منتصف القرن الثامن عشر فهو غافل عن الفرق الكبير بين الإسلام ورجاله وبين الكنيسة ورجالها، وأنه إذا انتهى رجال الكنيسة إلى التوافق مع العلمانيين، والإنزواء في كنائسهم راضين بما ادعوه من (أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله) بالفصل بين الكنيسة والدولة، فإن الإسلام لا يوجد مثل هذا الزعم بل الإصرار على الحكم لله ورسوله أي للقرآن والسنة.

وأما تحول وانتقال النقاش في الغرب إلى أصولية إيران وحكم طالبان مع جهل ما كان يجري من نقاشات سياسية وفكرية بين المثقفين المسلمين الذين يعادون الحداثة والديمقراطية، فإنهم استمروا يجهلون تلك المناقشات وكيف أنها انتقلت إلى النطرف وسفك الدماء..

وهنا يدعو المؤلف الغرب وعلى رأسه أمريكا بلزوم ترسيخ ثقافة سياسية معتدلة لدى الجماهير الإسلامية، أصولية أو غير أصولية، على حد تقسيمه، فإنه يأمل أن يحصل المزج بين الفئتين بتأثير التعليم والاتصالات العالمية لتتكيف أحكام الإسلام مع السياسات المعاصرة ولو بالتدرج.

وأما زعمه بأن الإسلامية ليست إيديولوجية كالأصولية فإنه يريد التفريق بين المسلمين بهذا التقسيم العبيث وخاصة وهو يدعو أمريكا في هذا المخطط للتطوير الإسلامي السياسي وذلك من خلال دعوة وحدة الأديان التي تفرض أن يرى مسلمو أمريكا أنفسهم كجزء من المجتمع العالمي الناشئ، وأن أمريكا ليست ضد نمو الحضارة الإسلامية، وأنها القادرة على تحقيق بناء المجتمع العالمي وإدماج المسلمين فيه وإن بعد مناله.

الرمال المتحركة للهيمنة

يرى الكاتب بأنه من الضروري بسبب احتمال انفجار البلقان الجديد، حيث يمكن أن تصادم أمريكا العالم الإسلامي، وبسبب اضطراب حلف الأطلسي للخلافات بين أروبة وأمريكا، مما يعرض هيمنة أمريكا العالمية للخطر، من الضروري النظر إلى اضطراب العالم الإسلامي بشكل إقليمي لا عالمي، وسياسي لا ديني، لأنه غير موحد سياسياً أو دينياً، وغير مستقر سياسياً وضعيف عسكرياً.. ولا سيما أن العداء ضد أمريكا متفش فيه بسبب مظالم سياسية معينة ترتكبا أمريكا، كحقد العرب لدعم إسرائيل، وحقد الباكستان لدعم الهند.

ويقول: بأن التحدي ضد أمريكا في العالم الإسلامي معقد جداً، وكان بالنسبة للسوفييت لحماية أروبة من الزحف الاشتراكي، وأما الآن فقد كسبتهم أروبة كحلفاء يقاسمونهم نفس القيم، وحولت أمريكا حلف الأطلسي من دفاعي إلى أممي موسع، كما أيدت توسيع الاتحاد الأوروبي.

ويقول: وأما في العالم الإسلامي فإن مهمة أمريكا بسبب تركيز الظلم السياسي والاجتماعي والاحتقان السكاني مهمة صعبة جداً ولا سيما لاحتمال وقوع عنف شديد، ولاشتمال المنطقة على معظم النفط والغاز في العالم، إذ فيها ٦٨% من احتياطي النفط العالمي، و٤١% من الغاز، وهذا عام ٢٠٠٢ وأنتجت ٣٢% من نفط العالم و١٥% من الغاز.

ويرى بأنه من الضروري لتحقيق مستوى معين من الاستقرار في هذه المنطقة المتفجرة من أن تواجه أمريكا التحدي الرهيب وذلك لاختلافها ثقافياً، واضطرابها سياسياً وتعقيدها عرقياً، الأمر الذي لا يسمح بتجاهل قدرتها على زعزعة الأمن العالمي.

ويقول: ولكن أمريكا لا تعرف لا مع من ترتبط ولا كيف تساعد في التهينة والتنظيم لأن المنطقة لا تشبه أروبة عندما وجدت في مشروع مارشال وحلف الأطلسي العلاج لأروبة، ولأنه لا يوجد في المنطقة حلفاء تربطهم بأمريكا الثقافة والتاريخ كما كان مع أروبة، وإن كانت دول تركية وإسرائيل والهند وروسية شركاء أساسيين

بالرغم من العراقيل التي تمنع كلاً من المساهمة في الاستقرار العالمي، كما أن لها أهدافاً خاصة تتعارض مع مصالح أمريكا في المنطقة.

فيرى: بأن تركية الحليف الموثوق لأمريكا منذ نصف قرن تساعد بعد سقوط الاتحاد السوفياتي في تعزيز استقلال جورجيا وأذربيجان، كما تعطي نموذجاً لتطور دول آسيا الوسطى التي تلتقي فيها في الثقافة والتقاليد، ولكن دورها الإقليمي يبقى محدوداً لسببين داخليين:

الأول: الشك في التحول إلى دولة أوروبية علمانية مع أكثرية سكانها من المسلمين، مما يجعل عضويتها في الاتحاد الأوروبي موضع شك، ومما يدفعها كرد فعل لرفض عضويتها التوجه الإسلامي السياسي، وهو السبب الذي يدفع الأوروبيين لإدخالها في عضوية اتحادهم، وذلك على أمل منعها من ذلك التحول إلى الإسلام، وإن كان هناك من الأوروبيين من يريد منعها من الدخول للمحافظة على الطابع المسيحي لأروبة، وهو السبب الذي يزيد من دوافع تركية للتحول إلى دولة إسلامية حاقدة.

والثاني: المسألة الكردية، لأن عدد الأكراد الأتراك قد يصل إلى أكثر من عشرة ملايين، وأنهم يتطلعون للاستقلال في كردستان، فهذان السببان، كما يرى، وهما المسألة الكردية والانبعاث الإسلامي، يجعلان تركية من معضلات المنطقة الأساسية.

ويرى بأن إسرائيل هي الحليف الإقليمي البارز في المنطقة لأمريكية لكونها تلتقي معها في الثقافة والديمقراطية، فتدعمها سياسياً ومالياً بشكل مكثف حتى وصلت الـ ٨٠ مليار دولار منذ عام ١٩٧٤، كما تحميها من كل قرارات الاستنكار والعقوبات في الأمم المتحدة، وهذا مما جعلها تسيطر عسكرياً على الشرق الأوسط، وجعلها قاعدة عسكرية أمريكية تساعد في التدخل العسكري في المنطقة .

ويقول: ولكن مصالح أمريكا لا تلتقي مع الإسرائيلية، فأمرية يلزمها فقط المنطقة، وسيطرتها عليها مما يعطيها نفوذاً سياسياً على اقتصاديات أروبة وآسية، ولكن ما تبنيه من علاقات طيبة مع السعودية والإمارات يضر بمصلحة إسرائيل في حاجتها لدعم احتلالها للأراضي، وتثير مظالم القضية الفلسطينية الحساسة لدى أمريكا ضد إسرائيل، مما يعرقل بناء أي تعاون اقتصادي وسياسي بين أمريكا وإسرائيل، ولا يجعل أمريكا تعتمد على إسرائيل وقدرتها العسكرية كسند إقليمي كبير في المنطقة.

ويرى بأن الهند قد برزت منذ ٩/١١ كشرريك استراتيجي إقليمي لأمريكية بالرغم من التنوع العرقي والديني الكبير فيها، ولكن ذلك لم يؤثر على ديمقراطيتها وعلمانيتها، وما زالت في صراع مع جارتها المسلمة باكستان بسبب كشمير، وهذا ما جعلها تعلن نفسها كشرريك لأمريكية في الحرب على الإرهاب منذ ٩/١١، ولكن

هناك عائقان ضد هذا التحالف:

الأول: تنوعها الديني والعرقي واللغوي، فهناك ١٢٠-١٤٠ مليون مسلم من بين سكانها، وهي محاطة بجيران مسلمين مما يثير الدين والقومية معاً، ومزيد من الوعي بين الهندوس والمسلمين يعرض العيش المشترك للخطر ولا سيما إذا تحددت الحرب على الإرهاب بالإسلام كما يصورها الساسة الهندوس.

والثاني: اهتمام الهند بجارتها باكستان والصين، سواء في كشمير أو في التنافس على النفوذ في آسيا بينها وبين الصين، الأمر الذي يجعل أمريكا لا تعتمد على الهند كحليف على المدى الطويل لتعزيز استقرار البلقان الجديد.

وأما روسية فيرى أنها تستطيع المساعدة في السيطرة على الاضطراب الإقليمي في أوراسية، لما لها من خبرة ونفوذ في دول الجنوب من الهند وإيران بالذات، ولأنها ترى في جيرانها المسلمين خطراً مهدداً لها حتى وجد الكرملين في ١١/٩ دافعاً لدفع أمريكا في الحرب ضد الإسلام باسم الحرب على الإرهاب. ثم إنها كما يرى شريك عاجز لأنها بالأمس دمرت أفغانستان، والآن تدمر الشيشان، ودول آسيا الوسطى ناقمة عليها، ولكنها بالرغم من ذلك تحاول استرجاع دورها الاستعماري الأروبي القديم وإن عجزت عن المشاركة الدولية بقيادة أمريكا لتعزيز استقرار المنطقة وتطويرها ونشر الديمقراطية فيها.

وأخيراً يرى بأنه نتيجة ذلك كله لا يبقى أمام أمريكا إلا شريك واحد حقيقي للتعامل مع البلقان الجديد ألا وهو أروبة، وإن كانت تحتاج لمساعدة اليابان والصين، وبالذات للدعم المالي والعسكري من اليابان.

ويقول: بأن أروبة باتحادها وحلف الأطلسي تستطيع مشاركة أمريكا في تلك المهمة ولا سيما أنها صاحبة ماضٍ استعماري يسعى لتعزيز مصالحه الاقتصادية الخاصة إن لم يكن استعدادتها.

ولكنه يرى بأنه من المشكوك فيه مشاركة أروبة لأمريكا لانشغالها في صياغة وحدتها، ولعدم استجابتها للتبعية الأمريكية لا في تعريف الإرهاب ولا في المشاركة الكاملة في مسعى الاستقرار في البلقان العالمي الجديد. ويرى بنتيجة ذلك بأن مشاركة اليابان لأمريكا ستبقى حاسمة مع أروبة، وأن أمريكا بذلك تتمكن من تجنب الغرق بمفردها في رمال المنطقة المتحركة وهي تحرص على الهيمنة عليها.

فمن أجل الإبقاء على هيمنة أمريكا على ما أسماه بالبلقان الجديد يدعو أمريكا للنظر إلى العالم الإسلامي لا كوحدة واحدة وإنما كأقاليم، ويعمل ذلك لأنها غير موحدة سياسياً ولا دينياً.. إنه على حق في هذه النظرة التي تحقق انفراد أمريكا في كل بلد على حدة، مما يفرض على أهل هذا العالم الإسلامي إدراك ذلك والعمل للتخلص منه.

وانظروا إليه وهو يعلن بأن حلف الأطلسي قد انتهى بعد سقوط السوفييت من حلف دفاعي وأصبح حلفاً أمنياً، ها هي أمريكا تسخره للحفاظ على مصالحها في كل مكان باسم الأمن العالمي.

وعندما يخطط لأمريكة كيفية التعامل مع العالم الإسلامي فإنه ينبهها إلى أسباب تعقيده من الظلم السياسي والاجتماعي ومن كثرة سكانه، وأن أهميته لأمريكة نابعة من النفط والغاز فيه مما تحتاجهما مصالح أمريكة ليس فقط لاقتصادها وإنما لسيطرتها على أروبة واليابان.

ويغوص إلى الأعماق وهو يذكر أمريكة بأن العالم الإسلامي لا يشبه أروبة لتناقضه الثقافي والديني معها. وهنا يقف مع أقوى أربع دول فيه، ويحاول أن يبين لصناع القرار الأمريكي ما هي عليه من التحالف مع أمريكة، وما يعرقل ذلك،

فيقول : إن تركية رغم تحالفها القديم مع أمريكة فإنها لا تلتقي معها كأروبة لا في الثقافة ولا التقاليد، مما يجعلها يشك في تحولها لدولة علمانية لكثرة سكانها المسلمين، ومما يجعل المسألة الكردية تقف في طريق ذلك لتطلع الأكراد للاستقلال، وكان هذا التطلع صنيع ذاتي وليس أجنبياً!

وينتهي المؤلف لا اعتبار تركية من معضلات المنطقة في طريق أمريكة لذلكما السببان.

ثم يقول بأن إسرائيل بالرغم من لقائها كحليف بارز لأمريكة في المنطقة في الثقافة والنظرة الديمقراطية، فندعمها لذلك مالياً وسياسياً بشكل مكثف، وتجعل منها القاعدة العسكرية الأمريكية والمساعدة للتدخل العسكري في المنطقة، إلا أنها بالرغم من ذلك تختلف مصالح أمريكة معها سواء في علاقاتها الطيبة مع السعودية والإمارات التي تطالب بإنهاء احتلالها للأراضي الفلسطينية، أو في غير ذلك مما لا يجعل أمريكة تعتمد عليها كسند إقليمي كبير في المنطقة، وهذا ما تدركه إسرائيل فتحاول اللعب دائماً في الانتخابات الأمريكية على الحبلين، وهذا ما يؤكد مدى تطلع أمريكة للحفاظ على مصالحها على الحلفاء الحقيقيين.

وأما عند حديثه عن الهند فإنه لا يراها أيضاً ذلك الحليف وإنما هي مجرد مستغل لحرب أمريكة على الإسلام باسم الإرهاب، فالملايين الكثيرة من المسلمين فيها، وتنوعها العرقي والديني واللغوي البعيد عن أمريكة وثقافتها، واهتمامها بجارتها باكستان والصين المنافستين لها على النفوذ فيآسية، لا تجعلها معتمدة لأمريكة على المدى الطويل لاستقرار البلقان الجديد.. فالرجل ينبه أمريكة لواقع الهند كجزء من التخطيط الاستراتيجي الذي يحفظ هيمنتها على المدى الطويل.

وعند الوقوف عند روسية فإنه يراها تلتقي مع أمريكة في الثقافة والمشاركة في الحرب ضد الإسلام سواء بسبب الشيشان أو دول آسية الوسطى التي ينتشر فيها الإسلام المخيف لروسية، ولكنه ينبه أمريكة بأن روسية شريك عاجز عن مشاركة أمريكة الدولية للسيطرة على العالم الإسلامي باسم تعزيز استقرار المنطقة ونشر الديمقراطية فيها.

وينتهي المؤلف للتقرير لأمريكة بأن شريكها الوحيد للسيطرة على العالم الإسلامي هي أروبة، على أن تساعدنا في ذلك اليابان والصين وبالذات اليابان التي سبقي هي وأروبة كما يرى الشريك الحاسم لأمريكة للسيطرة على العالم الإسلامي دون أن تنفرد هي فيه فتغرق في رماله المتحركة.. مسكين هذا العالم الإسلامي كيف يخطون له وكأنه لا سكان فيه إلا من باب استغفالهم والجرأة عليهم!!

تعهد استراتيجي ليس أحاديا

ويرى بأن هناك ثلاث مهمات أساسية في تحديد أولويات أمريكة في التحرك الشامل في المنطقة:

١- حل الصراع العربي الإسرائيلي،

٢- تحويل استراتيجية النفط من الخليج إلى آسية الوسطى،

٣- ترتيبات مشاركة إقليمية لاحتواء انتشار الأسلحة المدمرة والإرهاب.

أن المهمة الأولى هي الأساسية للأخريين، لأن بإنهاء هذا النزاع تتخلص أمريكة من الاعتداء عليها، ولأن به تتعاون إسرائيل مع الفلسطينيين فيقبلها العرب ككيان دائم في المنطقة، ولأن علاقة أمريكة مع أروبة تستقر بإزالة الخلاف بينهما بعد إنهاء ذلك النزاع.

فبعد ١١ / ٩ نجحت العناصر المحافظة في الإدارة الأمريكية المتعاطفة مع الليكود في فرض نظام جديد على الشرق الأوسط كرد على ذلك التحدي، فأنهوا وجود صدام في العراق، وقد يكررون ذلك في سورية وإيران، وأخذوا بالضغط على حكام السعودية ومصر لإحلال الديمقراطية من الداخل.

ولن تبقى أروبة متفرجة على السياسة الأمريكية وإنما تسعى للمشاركة في رسم استراتيجية مشتركة شاملة، وفي حل قضية الصراع الإسرائيلي الفلسطيني، إذ وضعوا صياغة محددة لتصورهم للحلف بإعلان إشبيلية في ٢٢ / ٦ / ٢٠٠٢ يختلف عن التصور الأمريكي، وكذلك هم على خلاف مع أمريكة بشأن الحرب على العراق والإصلاح في إيران.

فبالرغم من قدرة أمريكة على إهمال أروبة في هيمنتها على المنطقة إلا أنها بحاجة لها لحل قابل للبقاء. فالشرق بالنسبة لأروبة مهم كأهمية المكسيك بالنسبة لأمريكة، وفيه تفرض أروبة مكانتها ومعارضتها لأمريكة ولا سيما بعد إجماعها على معاهدة سلام تتخطى خارطة الطريق.

ويرى بأنه باتفاق أمريكة وأروبة على عملية السلام سيتحقق الحل بسرعة بإقامة دولتين على حدود ١٩٦٧ مع شيء من التعديلات المتبادلة، مع عاصمتين في

القدس نفسها، وحق اسمي لعودة اللاجئين وإسكان معظمهم في فلسطين، وتكون دولة فلسطين منزوعة السلاح مع قوات حفظ سلام دولية واعتراف كامل من العرب بإسرائيل.

ويقول : بهذا الحل تتحقق فوائد عديدة:

- ١- تقليل تركيز الأعمال الإرهابية على أمريكا،
- ٢- نزع فتيل الانفجار الإقليمي المرجح،
- ٣- تنسيق أروبة وأمريكا لمساعدتهما في التعامل مع مشاكل المنطقة الأمنية بدون معاداة للإسلام،
- ٤- تعزيز جهود أمريكا في الإصلاحات الديمقراطية في الدول المجاورة.

وبالمثل فإن استقرار العراق بعد التدخل العسكري عام ٢٠٠٣ أمر شاق وطويل، ولا يسهله إلا التعاون بين أروبة وأمريكا. فالمشكلات الحدودية، والمشكلة الكردية، والعداوة بين السنة والشيعية، ووعي العراقيين القومي الكبير تحتاج كلها للتعاون وذلك لتنظيم برنامج طويل ومكلف لتحقيق الاستقرار في بيئة متقلبة عدائية.

ويرى أنه بهذا التعاون تتوفر شروط التعامل مع منطقة إنتاج النفط والغاز لتصل لمناطق الاستهلاك المتطورة، سواء في أمريكا أو أروبة أو شرق آسيا وذلك بأسعار معقولة.

ويقول بأن في منطقة مصادر الطاقة لا تتأمن المصالح الأمريكية بشكل تام وذلك أولاً لضعف السعودية والإمارات السياسي، وثانياً لعدم استقرار العراق، وثالثاً لمعاداة أمريكا لنظام إيران وسياسته في عملية السلام في الشرق، ولسعيه لامتلاك أسلحة الدمار الشامل..

ويقول: بأن منطقة آسية الوسطى وجنوب القوقاز ما زالت هشة في أنظمتها وسياستها، ومعزولة عن أسواق الطاقة العالمية لأن أمريكا تمنع مرور أنابيب النفط من الأراضي الإيرانية للوصول إلى الخليج، ويحتاج استكمال خط أنابيب أذربيجان الخاضع لأمريكا إلى عدة سنوات.

ويرى بأنه مع قدرة أمريكا في التفرد في العمل العسكري إلا أن نتائجه بعيدة المدى ما زالت تحمل الاضطراب العنيف، فهي تستطيع أن تضرب إيران كما ضربت العراق ولكن ذلك يوجج المشاعر الدينية لدى ٧٠ مليون إيراني مع المشاعر القومية بعد أن أخذت تخبو مؤخراً.

ويقول: أن انهماك أمريكا في اضطرابات العراق، والتوترات مع إيران قد يدفع موسكو لعودة الضغط على جورجيا وأذربيجان لكي تتخليا عن الانضمام للمجموعة الأروبية الأطلسية ولكي تعوض الوجود العسكري الدائم في آسية الوسطى، الأمر الذي

يعرقل الجهد الإقليمي لمحاربة الأصولية الإسلامية في أفغانستان وباكستان، ويبعث بالتالي التطرف الإسلامي.

ويرى بأنه ليس من السهل الاتفاق والتعاون بين أمريكا وأروبة في العراق وإيران، ولكنه يحقق فوائد كبيرة للطرفين بتحقيق نظام مستقر ديمقراطي يخلف نظام صدام، كما يساعد في السيطرة على النتائج الإقليمية لاضطراب العراق، ويزيل فكرة التحيز لإسرائيل عند حل النزاع، ويسهل على تركيا بقاء ولائها لأمريكا في سعيها لعضوية الاتحاد الأوروبي، وتتحول إيران إلى عامل استقرار في المنطقة بدلاً من هذه التشريعات الأمريكية المعقدة لتجاريتها والتي زادت حدة مشكلاتها الاقتصادية الاجتماعية، وباستقرارها عند دمجها في المجتمع العالمي لا تحتاج إيران لتشريعات مضادة بل إن ذلك يخدم مصالح أمريكا بشكل أفضل عندما تتبع أروبة في سياستها مع إيران، لأن الحكم العقائدي سيتآكل لتحل محله الحداثة والديمقراطية.

ويرى أنه بهذا التبدل في الاستراتيجية النافذة في المنطقة يجري تطبيق ميثاق استقرار القوقاز الذي اقترحه تركية عام ٢٠٠٠ ليفتح الطريق لنماذج متعددة للتعاون مع المنطقة، وبالذات عندما تشترك فيه تركية وروسية وإيران، فتسير عملية تمديد خطوط أنابيب النفط في جميع الاتجاهات بسهولة، ويستفيد الشرق الأقصى مع دول جنوب آسيا الوسطى، وبذلك سيسهل احتواء انتشار أسلحة الدمار الشامل والإرهاب.

وأما النزاع بين الهند وباكستان فإنه يرى بأنه يزيد من بناء ترسانتهما النووية، لأن باكستان تشعر بالمعادلة مع الهند، والهند تأمن الصين صديقة باكستان وتتعاقد معهما.

ويقول: بأن مصلحة أمريكا تكمن في منع نشوب أي حرب نووية بينهما، وفي منع انتشار الإسلام في المنطقة، لأن أي صدام سيحول باكستان إلى دولة إسلامية أصولية، ويحول الهند لسيطرة العواطف الهندوسية المتعصبة. ويقول: بأن قضية كشمير قد عادت للواجهة الدولية بعد إهمال بسبب امتلاك الهند وباكستان للأسلحة النووية، فأصبحتا جزءاً من استقرار البلقان العالمي، مما يفرض جهداً خارجياً وضغطاً دولياً من أجل حل تلك المشكلة ولا سيما مع التضامن بين أمريكا وأروبة ومساعدة روسية والصين لأن أحداً لن يستفيد من حرب نووية بجواره.

وعليه، كما يرى، لا بد من تنسيق الجهد الدولي لمنع امتلاك أسلحة الدمار الشامل، وذلك بحل نزاعات المنطقة وترتيب إقليمي يحظر الأسلحة النووية عنها أو بضمانة الدول النووية ويتعاون مشترك بين أمريكا وأروبة.

ها هو يحدد لأمريكا كيف تهيمن على المنطقة، فيراه في حق ما يسميه بحل النزاع بين العرب واليهود، كأول مهمة لأمريكا، بحيث تقوم معه بتحويل الاعتماد على النفط من الخليج إلى آسيا الوسطى، وفي نفس الوقت تسيطر على منع انتشار الأسلحة التدميرية وعلى ما يسميه بالإرهاب،

انه لا يفكر بالطبع بفكاك العالم الإسلامي من الهيمنة الأمريكية بل يخطط ويدعو أمريكا لتخلد في هيمنتها عليها.. مسكينة هذه المنطقة أليس لها مفكرون يخططون لها ولا يتسابقون على استرضاء أمريكا !!!

فها هو يرى أنه لابد لأروبية من أمريكا ولا بد لأمريكا من أروبة للسيطرة على هذه المنطقة، وأنهما بحق ما يسميه بحل النزاع العربي الصهيوني يتمكنان من النجاح في الأمرين الإستراتيجيين الآخرين معا.

فهل علمتم يا حكام الخليج و النفط الخليج كيف يخطط هذا وأمثاله لأمريكا لتحويل استراتيجية النفط عنكم إلى أسية الوسطى؟! وكيف يخطط لمنع وصول الأسلحة التدميرية إليكم رغم قدرتكم على امتلاكها وحاجتكم لها للردع عنكم وعن أمة الإسلام عامة؟!!

أنه يخطط لاستقرار العراق بل لاستقرار هيمنة أمريكا على العراق و نفطه استكمالاً للهيمنة على الخليج و نفطه، فهل هذه هي الحماية الأمريكية التي تريدونها لكراسيكم؟!!

ها هو يدعو أمريكا لتجنب ضرب إيران منفردة خشية من مستنقع ٧٠ مليون إيراني بمشاعرهم الدينية والقومية المعادية، كما أنه يخشى على أمريكا أن تجر روسيا وتشجعها للعمل ضد وجودها العسكري في أسية الوسطى وهي تراها غارقة في هذه المستنقعات، فيضعف الحرب ضد الإسلام في تلك البلدان فيزداد التطرف الإسلامي!

وها هو يتبرر صعوبة التعاون بين أمريكا وأروبية في العراق وإيران ولكنه يؤكد أهميته القصوى لمصلحة الطرفين.. ويذكر المصالح تلك بصراحة تعوز عقول مفكري وحكام تلك البلدان ليسمعوها ويدركوها.. ولكن أنى لهم ذلك؟!!

وحتى استقرار القوقاز يدعو من أجله للتعاون في المنطقة تحت هيمنة أمريكا، ويغري دول المنطقة بما ستوفر لها من تسهيلات تمديدات أنابيب النفط في جميع الاتجاهات.. إنه هو ونخبة التفكير الاستراتيجي الأمريكي لا يرون إلا الإغراء بالمال أولاً ثم التهديد بالقوة ما دام من اللازم ترتيب الأولويات بهذا الشكل للمحافظة على الهيمنة.

وعندما يتحدث عن النزاع الهندي الباكستاني بشأن كشمير وما بناه كل من البلدين من القوة النووية لمواجهة الآخر ينسى أو يتناسى بأن أمريكا كانت وراء ذلك كله من أجل أن تنتهي بالبلدين إلى الركوع لنفوذها، وهذا ما حصل بالفعل إذ فتح حاكم كل من البلدين بلده على مصراعيه للنفوذ الأمريكي وإن تفاوت ذلك النفوذ في باكستان عنه في الهند لأنها بلد مسلم يخشى فيها ومنها من الإرهاب الإسلامي على مصالحهم ووجودهم..

وها هو يرى في التعاون بين أمريكا وأروبية بمساعدة روسيا والصين الحل الأمثل لقضية كشمير بين الهند وباكستان.

والمهم لديه وهو يخطط لأمريكا أن تحرص على التعاون الدولي لمنع امتلاك أسلحة الدمار الشامل، كما يحقق ذلك حل النزاعات الإقليمية في المنطقة مما يجعلها لا تتحرك ضد النفوذ والهيمنة الأمريكية التي تستخدم حلفاءها لمجرد معاونتها على بقاء هيمنتها.

إنه يركز في مقالته على ضرورة تعاون أروبة مع أمريكا في جهد مشترك في حل كل النزاعات الإقليمية.. هل بقي مفكر إسلامي ومحلل سياسي ومخطط استراتيجي وصاحب كرسي في منطقة العالم الإسلامي، يجهل هذا التخطيط وأهدافه!؟

معضلات إدارة التحالف

يرى الكاتب بأنه لا بد لأمريكا من إجماع استراتيجي مع أروبة وشرق آسية من أجل إدارة البلقان العالمي، إذ أن حوادث ٩ / ١١ عجلت الاتجاهات الدولية الجارية، سواء بشأن الفجوة العسكرية بين أمريكا وحلفائها، أو وحدة أروبة السياسية من خلال تكاملها الاقتصادي، أو شراكة روسية للغرب للمحافظة على أراضيها، أو تحول الصين المحلي الصعب، أو تحول اليابان إلى قوة عسكرية دولية، أو الخوف من أحادية أمريكا كتهديد للجميع.

ويقول بأن على أمريكا عدم الإفراط في حرب الإرهاب، والاهتمام بالمصلحة الأمريكية بديمقراطية حقيقية لا بمجرد إعلان، فتضع ذلك كجزء من العمل الاستراتيجي مع جاني أمريكا، ولا تساير حلفائها التقليديين المترهلين.

ويرى أن ذلك يتم باعتبار الإسلام عدو للغرب وللديمقراطية كأصل وفلسفة وثقافة وليس مجرد أحداث تاريخية لأنه تهديد للحضارة الغربية.

ويقول بوجوب ترتيب الاستراتيجية بشكل جدي ودائم مع حلفاء مقتنعين بذلك ومقرين بقيادة أمريكا كشرعية دائمية وليست عابرة مؤقتة.

فيشير إلى روسية بأنها ما زال ينقصها من أجل التعاون الوثيق مع أمريكا الوسائل الاقتصادية والمالية والتقنية، وذلك من أجل التصدي لأخطار الاضطراب في البلقان العالمي الجديد أي العالم الإسلامي، وفي الهند، ويدعوها كأروبة واليابان للتعاون مع أمريكا للقيام بتلك المهمة.

وينتهي للقول بأن موقف أمريكا الأخلاقي معرض للخطر لأنها تعاونت مع حلفاء يدعون ويتظاهرون بالحرب على الإرهاب وفقاً لنظرتهم الخاصة، ولكنهم في نفس الوقت يمارسون القمع العرقي أو الديني، مبيناً أن ذلك يعرض أمريكا للحرمان من شركائها الأغنياء في أروبة واليابان، مما يفرض الحرص على أروبة بصيغة شراكة أمنية فعالة تستوعب روسية والصين واليابان والهند والجزيرة الكورية في إطار عمل متماسك للعمل ضد الاضطراب العالمي الجديد.

فبعد أن يذكر ما أثارته أحداث ٩/١١ من اتجاهات يدعو أمريكا أن تهتم بمصلحتها وليس بالحرب على الإرهاب، فتحرص على حلفاء حقيقيين وليس تقليديين مترهلين، ويقصد بهم دول الخليج لأنه يدعوها لتعتبر الإسلام هو عدو الغرب والديمقراطية، فهو يكشف عن وجه مفكري الغرب ونخبهم السياسية المعادي للإسلام بصراحة.

وعندما يشير إلى روسية والهند فإنه يراها أضعف من أن تحل محل أروبة واليابان في مشاركة أمريكا ضد الإسلام كعدو استراتيجي للغرب.

ويحذر أمريكا ممن تحالف معها ظاهرياً لأنهم في واقعهم يخالفون ما تتمسك به أمريكا من منظومة القيم الأخلاقية.. فأي أخلاق وأي قيم أمريكية يتحدث عنها وقد ملأت روائح أعمالها العفنة والإجرامية الأفق كله سواء في أفغانستان أو غوانتانامو أو العراق!

إنه إذ يروج للأخلاق الأمريكية التي يزعمون أنها الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان فإنه يحذر أمريكا من فقدان شركائها الأغنياء من أروبة واليابان،

فلا بد أن تحافظ عليهم في صيغة شراكة تستهدف الحفاظ على أمنها بصورة فعالة وتشارك معهم في ذلك جميع الحلفاء المقتنعين وليس المتظاهرين..

فانتظروا يا حكام العالم الإسلامي المصير المشؤوم الذي ينتظركم من سيدكم ومفكرها ومخططي استراتيجيتها!!

قلب العالم

إنه يرى أن أمريكا وأروبة هما لب الاستقرار السياسي والثراء الاقتصادي في العالم، وأنه لا بد من عملهما معاً ليصبحا قادرين على فعل أي شيء في العالم، ولذلك لا بد من إزالة الاختلاف بينهما الناشئ عن الشكوى بأن أروبة لا تفعل ما يكفي في الدفاع الجماعي، والشكوى بأن أمريكا تتبالغ في التصرف المنفرد.

إنه ينبه إلى أن الناتج المحلي القومي لكل من أروبة وأمريكا قد بات متعادلاً، مما يفرض عليهما عدم الاستمرار في النظر الخاص لمصلحة كل منهما لأن ذلك لن يجمع بينهما.

ويصرح بأن أروبة تعتبر سياسات أمريكا الأمنية تهديداً كبيراً لسياساتها، والأوروبيون يرغبون في التخلص من اعتماد أمنهم على أمريكا، وبروز عسكرية أروبة منافس مخيف لأمريكا وهيمنتها العالمية، وهذا يفرض عدم حصر التفوق على أمريكا لكي يلتقيا في شراكة متساوية في صنع السياسة العالمية وإن كان ذلك صعباً للطرفين.

ويرى أن تنقص السيطرة الأمريكية سياسياً واقتصادياً وعسكرياً في الشرق الأوسط وأمريكا اللاتينية، فتخسر إسرائيل مكانتها المتميزة، وبذلك يحصر التفوق الأمريكي في المحيط الهادئ فقط.

ويقول بأن تحقيق هذا التنافس المؤثر بين أروبة وأمريكا يفرض تحقيق وحدة أوروبية وقوتها العسكرية الكبيرة، وأن ذلك حتى يتحقق سيبقي التصادم بينهما. فلا بد كما يقول أن تتخلص أروبة من التفاخر الثقافي، وتقلص أمريكا نهجها الأحادي الدولي.

ويحذر أمريكا من أن دعوتها أروبة للشراكة الفعلية ستكون مجرد خدعة ما دامت تسن تشريعات اقتصادية أحادية، وتقدم مساعدات لمزارعيها ضد رغبة أروبة، وتفرض رسوم جمركية على واردات الصلب الأروبية.

وأما رفض أمريكا لاتفاقية كيوتو بشأن تغير المناخ فإنه يجعل زعمها بالدعوة لمراعاة حقوق الإنسان وهمية، وكذلك الحال بشأن رفضها للمحكمة الجنائية الدولية، فإنه يتناقض مع الحرص على حقوق الإنسان، ويتناقض مع ضغطها لإجراء محاكمات دولية لجرائم الحرب في يوغسلافية، وينظر بالتالي لعقوباتها الاقتصادية ضد إيران والعراق وليبية وكوبا مجرد إذعان لضغط سياسي محلي مما يجعلها سياسة اعتباطية.

ويذكر بأن مجالات ألمانية وجهت انتقادات شديدة لسياسة أمريكا الأحادية، وأنها نابعة من اختلاف في القيم، وفي فرض قوانين العولمة الأمريكية على العالم، مما يوجد تضارب بين مصالح أروبة وأمريكا.

ويصرح بأن أمريكا في إطار الادعاء بقيم الفضيلة والصلاح تتظاهر ولكن دون أن تسمح بنمو القوة الألمانية المرعبة مجدداً في أروبة.

ويقول بأن أروبة لن تنسى بسبب ذلك دور أمريكا الأمني الفريد بغض النظر عن تداخل الدوافع الاقتصادية والقانونية والأخلاقية والأمنية معاً. ويرى بأنهم يدركون أن أمريكا لو بالغت في احترام القوانين الدولية فلن تستطيع أن تمنع من حدوث فوضى عالمية.

ويرى بأن الدرس الأخطر من هذا التنافس الأمريكي الأروبي هو ما سيلحق مسعى أروبة من امتلاك قوة عسكرية مستقلة من تدمير لحلف الأطلسي إذا دعم ذلك الوحدة السياسية، ومثل هذا التنافس الخطر يحتاج لمدة طويلة، ويعلل ذلك لكون وحدة أروبة السياسية بطيئة التدرج ومعقدة الإجراءات، وأنه لا بد لأروبة من الاستقرار العالمي لتبني كيانها الموحد، الأمر الذي يجعلها بحاجة للعسكرية الأمريكية وليس منافستها، وهذا مما يجعلها تندفع نحو التعددية المسؤولة في المستقبل.

ويقول بأن أروبة الغنية وأمريكا القوية يقدران على فعل كل شيء في العالم، فلا بد من الزواج بين الطرفين للنجاح في فرض الاستقرار العالمي، فلا بد من التعاون في منطقة الشرق الأوسط في سياسة مشتركة كأهم شيء، ثم أن توسيع أروبة هو مصلحة مشتركة لهما لأنه يوسع منطقة السلام في العالم ويستوعب روسية، ويشرك أمريكا وأروبة في جهود تؤدي لتعزيز الأمن العالمي، ولا سيما أن توسع الاتحاد الأروبي وحلف الأطلسي نتيجة حتمية لزوال الحرب الباردة، وهو احتواء لدول يخشى من اضطرابها بين أروبة وروسية، وتنتهي مقولة أروبة القديمة والجديدة بإسناد دور أولي لألمانية وفرنسة للنطق بلسان أروبة ريثما تصبح قوتها الاقتصادية بارزة أكثر من السياسية.

ويقول بأن حلف الأطلسي يسهم في تطوير قوة رد فعل سريع وفعال في الخارج بعد أن انتهى دوره في الدفاع عن أروبة ضد الاتحاد السوفييتي. فتوسع الاتحاد الأروبي وحلف الأطلسي يزيد من التعاون العسكري والسياسي ويعزز الأمن الإقليمي لأنه ينهي تطلع روسية للسيطرة على أكرانية ويحد منها في شمال القوقاز الذي تتنافس عليه روسية مع تركية وإيران، مما يجعل لحلف الأطلسي دوراً في مساندة تركية، ويفرض على روسية التعاون مع الاتحاد الأروبي لتوفير الأمن والاستقرار في المنطقة بغض النظر عن حربها الوحشية ضد الشيشان.

ويرى بأن نجاح الأطلسي في استقرار البلقان يفرض دوراً مماثلاً في القوقاز بعد أن لمست روسية أهمية ذلك التعاون ولا سيما في هندسة الأمن العالمي، مما جعلها توافق على توسيع الحلف المستمر وتشكل المجلس المشترك للحلف وروسية، وتقر تبعاً لأحداث 9/11 بدور أمريكي العسكري في دول آسية الوسطى ضد الإرهاب، مما جعلها تسكت انتقاد نخبها السياسية بالإذعان لأمريكا ولا سيما مع تنامي الصين في الشرق وعداء أكثر من 300 مليون مسلم في الجنوب.

ويرى بأن روسية لن تنضم قريباً للحلف وذلك لنقص المعايير الديمقراطية لديها، ولصعوبة السماح لمراقبي الحلف بدراسة ميزانيتها العسكرية، ولكنها كما يقول سنقتنع أخيراً بأهمية عضوية الحلف لأمنها الإقليمي ولا سيما مع تطور الصين، كما أنها بحاجة لوقت أطول لعضوية الاتحاد الأروبي وإن كانت التسويات المؤقتة من زيادة التجارة والاستثمارات وحرية حركة اليد العاملة تسهل دمج روسية في الاتحاد ولا سيما مع إحاطة أعضاء الحلف والاتحاد بمناطق كلينيغراد من روسية.

فيقول بأن روسية تكسب كثيراً من التكيف مع أمريكا لأن موقفها يقوى تجاه الصين، ويجلب لها الاستثمارات ويوسع نفوذها في مجالها السوفييتي السابق، ويبعد عنها الصراع مع الإسلام لأن أمريكا ستتورط به بدلاً منها، وإن كان ذلك يوسع نفوذ الغرب لديها، فيساعدها في المحافظة على ثروتها الهائلة في سيبيريا من خلال التعاون مع أروبة، وإن كان لا بد لأروبة من الحذر من جنوح روسية للاستبداد، فتوفر لها

شراكة الطاقة الفرصة لبسط نفوذها السياسي على الجيران، فحرص أروبة على تثبيت التعددية السياسية في روسية ينقذها من ذلك، كما أن انضمامها في النهاية للمجموعة الأوروبية الأطلسية يشركها في التعامل مع أمن البلقان العالمي.

ويرى بأن تعرض أمريكا للخطر يزيد من تعرض أروبة له، فلا بد من الرد المشترك من خلال الأطلسي مع مراعاة حسابات مصالح كل منهما. وقد برز التضامن الجماعي مع أمريكا على أثر ٩/١١ ولكنها اعتمدت على قوتها الخاصة في حملتها على أفغانستان وإن كانت قوات حفظ السلام الآن هناك تغلب عليها قوات الحلف.

ويرى بأن أروبة شاركت أمريكا في وجهة نظرها بأن الإرهاب وانتشار الأسلحة هما أهم خطرين على الأمن العالمي ولكنها انفصلت عنها وتوقفت عند التعاون الحقيقي معها لاختلاف نظرتها في تحديد طبيعة التهديد ومدى الرد المطلوب، فأروبة ترى الإرهاب نتيجة للسياسة، ولا بد من أجل التخلص منه من التخلص من جذوره السياسية والاجتماعية، كما لا بد من عمل الحلف داخل أروبة وفي محيطها وليس خارجها كما ترى أمريكا، وأما قضية الشرق الأوسط فإنها تفرض العمل خارج القارة لقربها منها، وإن كانت ترى أنه لا بد أن تشارك في ثمن تحقيق السلام وتعزيزه.

ويرى أخيراً أن تنسيق الاتحاد الأوروبي مع أمريكا من خلال الحلف يوسع مهمته الأمنية ويعزز دور أروبة في المنطقة.

أن الرجل يصر في كتابه على إزالة أسباب الشكوى بين أمريكا وأروبة لتفعلا كل شيء في العالم، وأنه على كل منهما أن يتوقف عن النظر إلى مصلحته الخاصة سواء التفوق العسكري أو النفوذ السياسي أو القوة الاقتصادية.

ولا ينسى أن في ذلك إضاعة إسرائيل مكانتها المتميزة وخسارة السيطرة الاقتصادية على أمريكا اللاتينية، وحصر التفوق الأمريكي في المحيط الهادئ.. إنها النظرة إلى العالم وأين تتوزع مناطق النفوذ بين أمريكا وأروبة !! مسكين هذا العالم، ماذا ينتظر غير تقاسمه بينهما كمناطق نفوذ؟!

وأروبة لا بد لها من الوحدة أن تكتمل ومن القوة العسكرية الكبيرة حتى تقف نداءً منافساً لأمريكا، وتتخلص من تفاخرها الثقافي على أمريكا، وتتوقف أمريكا عن إبراز النهج الأحادي الدولي وعن تشريعاتها الاقتصادية الأحادية وغيرها بالإضافة إلى لزوم إبرامها لاتفاقية كيوتو للمناخ والمحكمة الجنائية الدولية.. وإلا كانت مزاعمها للحفاظ على حقوق الإنسان مجرد دعوات وهمية! إنه يفكر استراتيجياً لتأخذ أمريكا مكانتها العالمية بالتنسيق مع أروبة!

ولا ينسى أن يشير لمنع أمريكا لألمانية من استرجاع قوتها العسكرية المرعبة، مما يعطي للألمان مبرراً لنقد أمريكا من المفكرين الألمان والأوروبيين.

ويصر على حاجة أروبة لأمريكة وقوتها العسكرية لتوفير الاستقرار العالمي اللازم لتبني وحدتها.. فهو يرى في أمريكة القوية وأروبة الغنية ما يمكنهما من فعل كل شيء في العالم.. وعندها الويل لهذا العالم منهما معاً!

ويرى في حلف الأطلسي عاملاً مساهماً في بناء قوة رد سريع وفعال في البلاد الأخرى ضد مصالحهما للقضاء على ذلك وإبقاء هيمنتها على العالم كله!

ويبين أن توسيع الاتحاد الأروبي وحلف الأطلسي زيادة تعاون عسكري وسياسي وتقوية للأمن الإقليمي، لأنه ينهي تطوع روسية للسيطرة على أكرانية، وتطلعها لشمال القوقاز إذ يساند تركية هناك، ويعين روسية ضد الشيشان، ولذلك وافقت على توسيع الحلف وبناء مجلس مشترك للحلف وروسية معاً، وأقرت بدور أمريكة في الحرب ضد الإرهاب على أثر ٩ / ١١ / ٩ وخاصة لتنامي الصين في الشرق وزيادة عداء ٣٠٠ مليون مسلم في الجنوب! إنه اتساع دائرة الصفقات الأمريكية لتحفظ نفوذها وهيمنتها!!

ولا بد من الكثير من الإصلاحات في روسية وزيادة الاستثمارات.. لدمجها في الاتحاد الأروبي وإقرارها بأهمية الأطلسي.. إنها الطعم الذي تقدمه لروسية لمنعها من التفكير في الخروج عن هيمنة أمريكة!! سواء من خلال تقويتها ضد الصين أو اتساع نفوذها في مناطق الاتحاد السوفييتي السابق أو في صراعها مع الإسلام..

ويحذر الغرب من ميل روسية للاستبداد فتدخلها في شراكة الطاقة مع الغرب وتحرص على التعددية السياسية فيها مما ينقذها من ذلك الميل، كما أن تعاونها مع أروبة والأطلسي يشركها في عملية أمن البلقان العالمي!

صحيح بأن قوات الحلف قد تزايدت في أفغانستان بعد انفراد أمريكة في ضربها ولكن الضمان الجماعي يفرض الحركة معاً من أولها.

ويرى أن أروبة عليها عدم الانفصال عن أمريكة في تقدير خطر الإرهاب وانتشار الأسلحة، لأن في ذلك يقرران مدى الرد المطلوب معاً.

وهو يرى أن نظرة أروبة للإرهاب بأنه نتيجة السياسة، ولا بد للتخلص منه من التخلص من جذوره السياسية والاجتماعية، هذه النظرة تجعلها تختلف مع أمريكة وإن كانت ترى مع أمريكة أن قضية الشرق الأوسط تدعوها للعمل خارج القارة الأروبية وليس حصر الحلف في أروبة كما كانت ترى وتخالف أمريكة في ذلك.

فالرجل يرى قلب العالم ممثلاً في التعاون الحقيقي بين أمريكة وأروبة الذي يحفظ مصالحهما في العالم كله..

شبه الاستقرار في منطقة شرق آسيا

الوضع في هذه المنطقة شبه مستقر لأن حالتها صلبة إلا إذا تعرضت لصدمة مفاجئة مدمرة بسبب القوى المتنامية فيها، ولأنها تفتقر إلى التعاون الجماعي السياسي والاقتصادي والأمني كأروبة الآن أو أمريكا اللاتينية، فهي ناجحة اقتصادياً ومتفجرة اجتماعياً وسياسياً.

فالصين تنافس اليابان، وكورية مقسمة متفجرة، وتايوان مصدر نزاع، وأندونيسية متفجرة من الداخل، والهند تشعر بتهديد الصين وهما قوتان نوويتان، وكورية الشمالية واليابان مستعدتان لتكونا نوويتين، فالصين تتعاون مع أمريكا، وتثيرها اليابان، وتحتقر الهند، وتهمل روسيا.

وما زالت دول المنطقة تشعر باستياءات تاريخية وإقليمية وثقافية فيما بينها، مما يعرض الأمن فيها للخطر ويعرض الأمن العالمي للخطر، وضعفها الاستراتيجي يثير الخصومات فيما بينها إذ أن كلاً منها تعتمد على مرفأ أو اثنين في اقتصادها، وحاجاتها للنفط الضرورية تعتمد على ذلك، ومضيق ملقة المجاور لسنغافورة مهم جداً لتجارتها جميعها ولوصول النفط إليها، مما أثار التنافس البحري الشديد فيما بينها فسعت لحياسة الأساطيل البحرية بجميع أسلحتها من غواصات وغيرها كقوة رادعة، وهذا بارز بين الصين والهند واليابان بالذات..

ويرى بأن الصين مع سرعة تخليها بعد ٩/١١ عن العقائدية وسيرها البراغماتي مع أمريكا، تخلت عن إنشاء حلف روسي صيني ضد الهيمنة الأمريكية، وتخلت عن نقدها اللاذع لها، ولكن تحالفها مع اليابان يقلق الصين، ولكنها تستثمر التقدم الياباني في شحن عواطف الجماهير القومية دون إزعاج لأمريكا التي يتوقف النشاط الاقتصادي فيها على العلاقة الطيبة معها أي أمريكا، وإن كانت وسائل إعلامها تعمد لإثارة نخبها السياسية بقوة اليابان العسكرية المتعاضمة ولا سيما في البحر والجو، وفي تطوير الصواريخ العابرة القارات بالتعاون مع أمريكا، مما يثير التشاؤم لدى الصين، ويثيره أكثر عندما تصبح قوة نووية عظمى لأنها جاهزة لذلك مع امتلاكها لـ ٤٤ مفاعلاً نووياً تجعلها ثالث أكبر دولة منتجة للطاقة النووية في العالم، وتجعلها على عقبة دخول النادي النووي، مما يحمل احتمال صدام عسكري مع الصين عند انسحاب أمريكا من الشرق الأقصى، ومما يجعل علاقات التحالف الصامت بين اليابان وتايوان ضد الصين مثيرة جداً وخطرة، الأمر الذي يجعل الصين تحرص على علاقات مستقرة ولو متنافسة مع اليابان مباشرة ومن خلال العلاقة مع أمريكا، ولا سيما أن أمريكا تعتبر اليابان الشريك المفضل لاحتواء التهديد الصيني، ولذلك لا بد من تحسين العلاقة الصينية مع اليابان ومع أمريكا معاً، ودعم المثلث الصيني/الأمريكي/الياباني.

ويرى بأن الصدام بين الصين وأمريكا لن يتم إلا بعد انفصال اليابان عن أمريكا، وبعد أن تعلن تايوان تقدمها الكبير لإعلان الانفصال عن الصين، فتتدخل هذه فيحصل الصدام الأمريكي الصيني.

ويقول بأن القدرة العسكرية اليابانية ستبقى محل تحسس شديد لدى الصين إلا أن تكبحها علاقتها بأمريكا التي لا ترى في الصين خطراً، وسيبقى تحسس اليابان من مخاوف الصين موضع اعتبار، مما يجعلهم متعقلين في تدبير عجزهم عن الدفاع عن النفس إذا انسحبت أمريكا، ومما يجعل اليابان كديمقراطية دستورية مواطناً عالمياً صالحاً.

ويقول بأن ذلك لا يدفع اليابان لإنشاء قوة عسكرية مستقلة تفك صلتها بأمريكا، ولكن مع تنمية القدرة العسكرية كعضو مسؤول في المجتمع الدولي يسهل عليه الحفاظ على التحالف مع أمريكا اللازم للمحافظة على توازن عسكري شامل في شرق آسيا.

ويرى بأن هذا الأمر قد نقل اليابان فعلاً من موقف سلبي مسالم إلى مشارك في حفظ السلام العالمي ومشارك في تعزيز السلام كما هو الآن في العراق. كما أنهم والصينيون يدركون حقيقة قدرة كل منهم بالنسبة لأمريكا ومشاركتها في الاستقرار العالمي، ولا سيما والصين ترى قدرة أمريكا على أن محاصرتها متيسرة في أي وقت وخاصة أن وارداتها النفطية أصبحت تتزايد حسب تطورها الاقتصادي، مما يؤكد أن الأفضل للصين هو المحافظة على قوتها، وتطوير اقتصادها، والصبر على ربط اقتصاد تايوان بها، ورعاية مجموعة اقتصادية آسيوية تغري اليابان للانضمام إليها، وبشكل لا ترتبط بأمريكا التي عليها أن تقدر ذلك، ولا سيما أن ذلك يحتاج للسلام في الشرق الأقصى، مما يجعل الصين المصنع العالمي المنافس لجميع الاقتصادات في العالم حتى أمريكا واليابان، ومما يجعلها القوة التجارية المسيطرة والقائد السياسي لآسيا.

ويرى بأن الألعاب الأولمبية عام ٢٠٠٨ ستكون مهمة جداً لنجاحها الاجتماعي والاقتصادي، فلا تعرضها لأية أزمة دولية لا هي ولا تايوان ولا كوريا الشمالية.

ويقول: بأن هناك عاملين يسببان تصاعد التوترات السياسية والاجتماعية في الصين وهما:

١- تزايد استخدام الشباب للإنترنت،

٢- تصاعد انعدام المساواة الاجتماعية،

إذ الأول يكسر احتكار الحزب الشيوعي للمعلومات، والثاني يوسع الفجوة بين الأغنياء والفقراء لتصبح خطيرة، مما يعطي أمريكا فرصة خلال العقد القادم لبناء علاقة أمنية أساسية بينها وبين اليابان والصين، وذلك بأن تشارك اليابان كحليف لأمريكا وغير خطر على الصين في المسؤولية الأمنية الدولية، وذلك من خلال سلاح

الجو والبحرية بصورة خاصة لتكامله مع مؤسسة أمريكية الدفاعية، ومن خلال قوة ضاربة خاصة للمشاركة في عمليات خارج الوطن لتعزيز السلم العالمي، وتسير هذه الدول الثلاث معاً في مشاوراتها المنتظمة حتى تبني الثقة فيما بينها لتتصدى للأمن الإقليمي الشامل لدول آسيوية أخرى.

ويرى بأنه لا بد من هذه المشاورات بين الكوريتين ثم بمشاركة غيرهما من دول الجوار مما يحقق تعاون بينها لا ينتظر موقف أمريكية من كورية الشمالية بحيث لا يستهان بالقومية الكورية المتنامية التي تؤيد أمريكية وتعاوي اليابان، وإن كان الوجود العسكري الأمريكي في كورية الجنوبية يثير النزاع، مما يفرض على أمريكية حل مشكلة التحدي النووي الكوري الشمالي، لأن الفشل فيه يزعزع الموقف الأمريكي في شمال شرق آسيا، والنجاح فيه يدفع الصين واليابان وروسية لتعاون أمني أوسع على مستوى أوراسية، قد ينتهي إلى تحول منظمة الأمن والتعاون الأوروبية إلى هيئة تضم أوراسية كلها، وتستطيع التعامل مع الإرهاب وانتشار الأسلحة، إذ أن هذا المنتدى قد يوجد نظاماً أمنياً أراسياً عبر القارات مع توسع الناتو وانضمام الصين واليابان له ثم الهند.

ويقول بأنه سيكون من المفيد ليس فقط ضم روسية لمجموعة السبعة المتقدمة وإنما الصين والهند أيضاً لتصبح مجموعة العشر المهمة للتشاور بشأن الشؤون الاقتصادية والسياسية، مما يمهد لحل قضية تايوان والمسألة الكورية عندما ترجع بإرادتها للصين المتطورة، وعندما تلمس الكوريتان مصلحتهما في الوحدة بينهما، وعندما ترى الصين أن أمريكية واليابان ليسا خطراً عليهما.. ولذلك على أمريكية التدخل الاستراتيجي المستمر في الشرق الأقصى وذلك حتى يتحقق التعاون الأمني الأكبر الذي ينهي الأخطار القديمة والجديدة هناك، إذ بإعادة صياغة قيادة أمريكية استراتيجية عبر الأطلسي والهادئ بشكل معتدل وأساسي فإنه يثير التفاؤل في أوراسية وإلا واجهت خطر الاستياء وخسارة التفوق الاستراتيجي هناك.

ويقول: بالرغم من دور أمريكية المحوري في الشؤون الدولية في نصف القرن الأخير، حتى بات الأوروبيون والآسيويون يحتاجون لها لعقد أية اتفاقية دولية، ورأت الصين تطابق أهدافها مع السياسة الأمريكية، إلا أنه لو اجتاحت أروبة أو آسيا حركة شعبية مناوئة لأمريكية لتغير الوضع وإن كان ذلك بعيد الاحتمال الآن، وأما لو نجح لخفض أو ألغى الوجود الأمريكي في كلا المنطقتين. فالتحالف الفرنسي الألماني قد ينشط الاستياء من الهيمنة الأمريكية، والصين ترى نفسها قائدة للشرق بعقد منظمة تعاونية بينها وبين كورية الجنوبية واليابان ابتداء وإن كانت اليابان تحذر منه.

فيرى ختاماً بأن هذه الحركة الجامعة الأوروبية الآسيوية المعادية لأمريكية قد تمنع تشكيل إطار أمن عالمي وقد تخرج أمريكية من أوراسية، الأمر الذي يفرض عليها تعميق روابطها مع أروبة وآسية وتوسيعها لتتلافى ذلك.

فيرى أن منطقة شرق آسيا ناجحة اقتصادياً ولكنها متفجرة سياسياً واجتماعياً، ويعبر عن خشيته من ذلك، لأن الصين تنافس اليابان، وكورية مقسمة متفجرة، وتايوان مصدر نزاع، وأندونيسية متفجرة من الداخل، والهند تحت تهديد الصين، وهما نوويتان، وكورية الشمالية واليابان على استعداد ليكونا نوويتين، وبينها كما يقول استياءات تاريخية.. مما يعرض أمن العالم للخطر ولا سيما لضعفها الاستراتيجي في الاقتصاد والنفط والموانئ مما أثار التنافس البحري بينها فسعت لامتلاك الأساطيل البحرية كما هو بين الصين والهند واليابان..

فالرجل يحاول أن يضع النار على النفط لتخويف تلك الدول من بعضها وضرورة تعاونها مع أمريكا للتخلص من ذلك وللمشاركة العالمية في السلام العالمي والحفاظ على مكانتها ومصالحها..

ويذكر بما حصل للصين بعد ٩ / ١١ من التعاون مع أمريكا والتخلي عن نقدها، وإن كانت اليابان تثير تشاؤمها بما لديها من قدرة لتطوير قواتها العسكرية مما يثير التنافس الصامت بينهما، مما يفرض كما يقول تحسين العلاقة الصينية مع اليابان وأمريكا معاً، وذلك حتى لا يقع صدام بين أمريكا والصين ولا سيما إذا أعلنت تايوان الانفصال عن الصين..

إنه يعلن مواعيد هذه الاصطدامات ليحذر أطرافها من الوقوع فيها وهو في الحقيقة يحذر من عدم التعاون مع أمريكا !! ثم إن تحسس الصين من القدرة العسكرية اليابانية لا تكبحها إلا العلاقة مع أمريكا، فبيت القصيد في كل مشاكل شرق آسيا ودولها لا تنتهي إلا بالتعاون مع أمريكا لأن كلاً من الصين واليابان يدرك قدرته بالمقارنة مع أمريكا من أجل ما يسميه الاستقرار العالمي، أي رضى العالم بهيمنة أمريكا !!

وبعدها ينفخ الرجل في الصين لتطوير اقتصادها، وربط تايوان به، والسير في ذلك بإغراء اليابان للانضمام بمجموعة اقتصادية آسيوية تشكلها فتصبح القوة التجارية المسيطرة والقائد السياسي المسيطر على آسيا !!! ويزداد نفخا عندما يدعوها لترى في الألعاب الأولمبية عام ٢٠٠٨ عاملاً مهماً في نجاحها الاجتماعي والاقتصادي، أي بعد أربع سنوات !!

ويذكر الصين بأن الإنترنت وزيادة الفجوة بين الأغنياء والفقراء لا مجال للتغلب عليهما إلا بالتعاون مع اليابان كحليف لأمريكا، فتكون المشاورات بين الدول الثلاث سبباً لبناء الثقة بينها لتحقيق الأمن الإقليمي والآسيوي، فلا أمن لأحد من تلك الدول ولا لآسيا كلها دون الارتباط بأمريكا !!

كما يحذر من فشل أمريكا في حل مشكلة التحدي النووي مع كورية الشمالية، لأنه سيزعزع موقف أمريكا في تلك المنطقة كلها، ويدفع نجاحه التعاون بين الصين

واليابان وروسية مع أمريكا على مستوى أوراسية، ويحقق نظاماً أمنياً عبر القارات مع الناتو وبعدها مع الهند..

إنه لا يريد أن تفلت بلد من تفكيره الاستراتيجي لهيمنة أمريكا!! فهذا هو يدعو أمريكا للتدخل الاستراتيجي المستمر لتهيمن على الشرق الأقصى بل أوراسية كلها، ولكن لا ينسى التحذير من حركة شعبية مفاجئة تقلب كل توقعاتهم وتطرد أمريكا من آسيا، وأنه لا ينفذ من ذلك إلا التعاون مع أوروبا وآسيا معاً!!

القسم الثاني

الهيمنة الأمريكية والصالح العام

تعتمد أمريكا في دورها العالمي اليوم على أمرين: قوتها الأحادية القطبية، وتفاعلها بالعولمة الشاملة، مما يؤدي إلى نزع السيادة عن الدول وولادة مجتمع عالمي غير رسمي لا يقوم على المساواة في السيادة بسبب تفرد السيادة الأمريكية وبالذات في بضع مبان من واشنطن عاصمة العالم، هي البيت الأبيض والبنتاغون والكابيتول والبنك الدولي وصندوق النقد الدولي ومنظمة الدول الأمريكية.

ويقول بأنه قد أصبح الحدث السياسي الأبرز لمعظم الدول هو زيارة رئيس دولة لواشنطن، أو قيام رجال السياسة التقليدية في الدول بالاتصال بواشنطن للتشاور سواء بمحادثة هاتفية أو بتلفاز مقفل الدائرة، وأصبحت الروابط الشخصية بين القادة وأمريكا من خلال الدراسة في جامعاتها شرطاً أساسياً اجتماعياً لطبقة النخبة.

ويقول: وكذلك النخبة العالمية من الشركات ذات التواجد العالمي فإنها تركز على أمريكا معترفة بوضعها الخاص من خلال قوتها المفردة وعولمتها الشاملة المتجاوزة للقوميات، مما يتضمن عامل التوتر الأول وهو الجمع بين العولمة ومصالحة أمريكا في المحافظة على سيادتها السياسية، وأما العامل الثاني فهو الجمع بين دوافع أمريكا للديمقراطية ومستلزمات القوة لديها.

ويرى بأنه عندما كان الاتحاد السوفييتي هو الخصم كان سهلاً تعريف دور أمريكا، وكان الائتلاف بين الخصمين غير واضح في البداية، ولا سيما بعد انحطاط بريطانية الإمبراطورية إذ بقي بين نزاع مفتوح أو شراكة.

ويقول: بأن أمريكا تحرص منذ عام ١٩٥٠ على ردع الاتحاد السوفييتي من التوسع المسلح، فركزت على حلف الأطلسي حتى انتصرت بعد ٤٠ سنة أي عام ١٩٩٠ حين أعلن بوش الأب النظام العالمي الجديد بعد أن فشل ائتلاف الحرب العالمية الناشئ كما فشل تركيز النظام العالمي الجديد في الاستناد إلى الشرعية والديمقراطية،

وفشل كلينتون في دينامية العولمة الحسنة.. حتى ماتت رؤية النظام العالمي الجديد والتعاون العالمي الحسن في ١١ / ٩ عندما أعلن بوش الابن الهيمنة العالمية في الحرب ضد الإرهاب وحلت تحالفات الراغبين محل العولمة، وأعلن مجلس الأمن القومي عزم أمريكا على التفوق العسكري الدائم على أية قوة أخرى، مع ادعائه بحق الحرب الاستباقية.

ويرى بأنه كان على الرئيس أن يعترف بأن المجتمع العالمي بدائي، وأنه لا بد من التكافل الاجتماعي، ولا بد من التوازن بين الهيمنة السيادية والمجتمع العالمي الناشئ، ولا بد حل التناقض بين قيم الديمقراطية وما يلزم القوة العالمية.

وهنا يورد المؤلف أن اعتماد أمريكا على قوتها الأحادية واستخدامها للعولمة الشاملة بحيث يوجد مجتمع عالمي جديد لا مساواة ولا سيادة فيه للدول بل تنفرد أمريكا في السيادة والهيمنة.. إنها غطرسة القوة وعمى التسلط!! فلا شيء إلا الحج إلى أمريكا، وطلب الرضى من أمريكا، وتوجه الشركات الكبرى إلى أمريكا!!

وعندما يرى بأن في الجمع بين العولمة الشاملة والمصلحة الأمريكية يُبقى هيمنة أمريكا ذلك لأن مزاعم الديمقراطية الأمريكية ولو ازمت القوة الأمريكية هما السبيل لفرض الهيمنة الأمريكية اليوم على العالم وذلك بعد أن أعلن موتى الأب النظام العالمي الجديد عام ١٩٩٠ عند سقط الاتحاد السوفييتي، وبعد أن أعلن بوش الابن الهيمنة الأمريكية على العالم بعد ١١ / ٩ / ٢٠٠١ وأعلن عزم أمريكا على الانفراد بالتفوق العسكري واستخدام الحرب الاستباقية، وكان أمريكا وإدارتها كانت ترسم الطريق للوصول إلى هذا الهدف..

وهنا يحذر الرجل أمريكا من تجاهلها لبدائية المجتمع العالمي الجديد، وأنه بحاجة ماسة للتكافل الاجتماعي والتوازن بين الهيمنة ومن هذا المجتمع العالمي الناشئ.. ثم يتحدث عن :

معضلات العولمة

فيرى أن مضمون العولمة متناقض بالنسبة لأمريكا، فهو بداية عصر الاتصالات والشفافية والتعاون من جهة ورمز بلاذة الأخلاق والتسليم بالظلم الاجتماعي من جهة أخرى.

فيقول : بأن كلمة العولمة كانت في الأصل وصفاً لتأثيرات الثورة التكنولوجية، واقترح عام ٢٠٠٠ البروفسور شارلز دوران تعريفاً لها بأنها تفاعل تكنولوجيا المعلومات والاقتصاد العالمي. فكانت في البداية تعني إعادة هيكلة الاقتصاد الكلي، فتعكس الخبرة المركزية للثورة الصناعية على مستوى قومي، مما جعل الصين دليلاً مفضلاً لذلك.

فيرى بأن الدول إما أن تدعن لضغط العولمة لما تحتاج من اقتصادات غير مفيدة، وإما أن تقاومها، كما أنها وإن كانت تدفع النمو الاقتصادي وتزيد رأس المال الأجنبي وتخفف بالتدرج الفقر الشائع ولكنها تسبب النزوع الجماعي والاستغلال الاجتماعي وسيطرة سياسية للنخبة.

فيقول بأن مفهوم العولمة يقدم تشخيصاً للظروف العالمية، ويطوي أولوية عقائدية تقابل بعقيدة تعاكسها ويقدم نقداً سياسياً ثقافياً لتغيير هرمية القوى العالمية الحالية، فهي تجزئ القائم، أو تحدد ما يلومها أما لا يكون، أو ما تقدم في نفس الوقت. فهو يرى تناقض العولمة التي تجمع بين عصر الاتصالات الثقافية والتعاون وبين بلادة الأخلاق والتسليم بالظلم الاجتماعي، ذلك لأنها تجمع بين الاقتصاد المفتوح والهجرة الجماعية جنباً إلى جنب مع الظلم الاجتماعي وسيطرة النخبة، فلماذا هذا الجمع إذا كان هناك ما ينظم من توزيع الثروة، وهو أمر مفقود في نظام العولمة ورأسماليتها! فليكن الاقتصاد مفتوحاً حيث يلزم، ولتنظم التجارة جنسية التاجر، وليترك للتجارة تسير بالقيود المحدودة، ولكن ليحسن توزيع الثروة في الداخل مع تلك السياسة الاقتصادية في الخارج، وأما أن العولمة تلغي أولوية العقائد والهويات الثقافية فهذه ليست عولمة اقتصادية وإنما عولمة ثقافية أيضاً، وهذا ما تقصده أمريكا، وبالذات إلغاء كل هوية غير الرأسمالية الديمقراطية!!

المذهب الطبيعي للهيمنة العالمية

فيقول: بأن العولمة قد حلت محل الشيوعية وذلك بسعيها للتكافل العالمي المتزايد بدافع تكنولوجيا الاتصالات الحديثة حتى زالت حدود الدول من الواقع وبقيت مجرد خطوط على الخرائط أمام حركة التجارة الحرة والرساميل المالية مع أن ذلك كان موجوداً في العالم قبل عام ١٩١٤م.

ويرى بأن العولمة لدى النخبة السياسية والاقتصادية الأمريكية هي برنامج عمل وليس مجرد أداة تشخيصية، مما يجعلها مذهب أخلاقي إذ تجاوزت قيود عصر القوميات المعاصرة وظهرت فوائدها الاقتصادية والسياسية، فتطورت في التسعينيات من نظرية اقتصادية إلى عقيدة قومية، فأصبحت إيديولوجيا نخبة رجال الأعمال والسياسة في أمريكا.

ويقول بأن الحماس الشديد قد ظهر على الرئيس كلينتون في تبشيره بالتحتمية التاريخية والاجتماعية والسياسية لقيادة أمريكا للمسيرة الإنسانية نحو عصر العولمة، وتحدث عن ذلك في مجلس الدوما الروسي وجامعة فينتام الوطنية والمندى الاقتصادي العالمي والحشود الأمريكية.

ويرى بأن العولمة ليست عقيدة معقدة كالماركسية في ردها على تعاضم الرأسمالية الصناعية، فهي إيديولوجيا عصر ما بعد الإيديولوجيا لأنها تجسد جميع مكونات الإيديولوجيا، وقد استهوت جميع النخب الحاكمة صاحبة المصالح المشتركة، وفقدت غير ذلك مسلمة بالغد الأفضل.

ويقول بأن العولمة الأمريكية قد وفرت الشرعية الاجتماعية اللازمة للسيد والمسود، السيد في ثقته بأهدافه ومصالحه، والمسود في إذعانه وخضوعه، مما يقلل من استخدام القوة بإزالة الاستياء ضدها.

فيقول: وهكذا أصبحت العولمة العقيدة الطبيعية لهيمنة أمريكا العالمية، ولكن كراهية المجتمع الأمريكي لسياسة القوة الدولية المستمرة وفرت ثقلًا سياسياً موازناً لتحفظات معظم العمالة المنظمة في أمريكا إذ تخشى من انتقال الوظائف المحلية إلى الخارج مع اتجاه أمريكا إلى اللاتصنيع، مع أن الانتقال الجاري هو استكمال عصر التقنية الإلكترونية لما بعد العصر الصناعي.

وهذا ما يؤكد قصر نظر نقابات العمال لعالم بلا حدود ومدفوع بالنشاط الاقتصادي بقوى السوق التي تجعل الدولة الأمريكية ذات السيادة صاحبة هذه العولمة مفهوم السيادة لغيرها من الماضي.

ويقول: لإبراز مثالية العولمة ترفض الشركات الكبرى استغلال عمالة الأطفال المنتشرة في البلدان المتخلفة، كما أنها تدفع أجوراً عالية فتساهم في خفض مستوى الفقر في تلك البلدان ولا سيما في الصين حيث الاستثمارات الأجنبية الكبيرة المباشرة، وبعض تلك الشركات تبنت نشاطات اجتماعية واهتمت بالبيئة، ولكن النسبة ما زالت ضئيلة، ولكن عدم المساواة في تراجع الفقر وفوائد البلدان المتخلفة مع الغنية تثيران النزاع بين الطرفين، وأن العولمة كنعمة ونقمة هي مذهب أمريكا الاستغلالي المحض ومعها الغرب كله للبلدان المتخلفة. ويرى بأن العولمة توفر المذهب المرجع لتحديد العالم المعاصر وعلاقة أمريكا به، وهي توفر الفرصة المفتوحة للاقتصاد العالمي من خلال منظمة التجارة العالمية والبنك الدولي وصندوق النقد الدولي حيث تكون السوق الحرة عالمية في حجمها حيث يتنافس المجدون، حيث تقيم الدول ليس فقط بما فيها من ديمقراطية بل بمستوى العولمة فيها أيضاً.

فيقول: أن روسية مثلاً بمقدار أخذها بالاقتصاد العالمي التكافلي المحرك من قوى السوق تقترب من المعايير العالمية لدى التجربة الغربية، حتى أن الديمقراطية تصبح نتيجة لقوى السوق وليس لفلسفة معينة حتى وصف انتخاب بوتين بأنه برهان قوي على ديمقراطية روسية، ولكن للأسف كما يقول تراجع هذه الديمقراطية عندما عادوا وربطوها بصيغ جاهزة بدلاً من معايير الغرب المنفتحة...

ويقول: وأما الصين فإنها تمثل عولمة من نوع آخر إذ هي في المجال الاقتصادي فقط دون الديمقراطية إذ تعيش تحت دكتاتورية مستنيرة أكثر منه عولمة،

والمهم هو الفرصة التنافسية لكافة الأطراف كمصدر للشرعية التاريخية للعولمة المذهب الجديد.

ويرى بأن التطابق بين الهيمنة العالمية والعولمة الاقتصادية متوفر لدى أمريكا التي تعزز بذلك النظام العالمي الجديد، والذي تختار منه لنفسها القواعد التي ترغب بها، إذ حجم السوق الضخم في أمريكا هو أضخم سوق استهلاكية في العالم مما يقوي مساومتها، كما أن إبداع الاقتصاد الأمريكي يجعله الأكثر منافسة في العالم، كما أنها سوق التكنولوجيا المتقدمة في العالم بانفاقها العالي على البحث والتطوير، كما أن الشركات الأمريكية متعددة الجنسيات تملك معظم الأصول الأجنبية، ما يجعل الاقتصاد الأمريكي محرك الاقتصاد العالمي.

فيقول: ولهذا كله فأمريكا غير ملزمة بتعويض أحد من الدول الأجنبية أو بتعديل قوانينها أو خفض حواجزها الجمركية، وهذا ما جعلها تصر على حماية المنتجات الزراعية وتحديد وارداتها من الصلب والأقمشة الأجنبية بالرغم من منافسة الدول النامية لها لترفع حواجزها التجارية... ولكن من أنى سماع كلامها الذي ينقض التأثير السياسي؟!

ويرى بأن ميدان التنافس بين أمريكا وأروبة يبقى متعادلاً، لأنهما عند الاتفاق يفرضان القواعد المسيرة للتجارة والتمويل العالمي، وعندما يختلفان تجرى بينهما مباراة الوزن الثقيل، فمثلاً عندما هددت أروبة بفرض تدابير معاكسة ضد قيود الواردات الأمريكية لجأت أمريكا لتحكيم منظمة التجارة العالمية، وتستطيع أن تقوي صلتها مع شركاتها الآسيويين لتفرض تسوية خلافها مع أروبة.

ويقول: ومن ناحية أخرى فإن ما تملكه أمريكا من قدرات عسكرية متفوقة يوجد تأثيراً سياسياً لا مثيل له، مما يسمح لأمريكا بتجاوز المساواة مع أمريكا في المجال الاقتصادي أيضاً. وكذلك الحال في قضية التعددية فهي انتقائية حسب المصلحة الأمريكية، حتى أنها رفضت تطبيق بروتوكوك كيوتو بشأن ارتفاع حرارة الأرض، ووقعت بتحفظ على اتفاقية محكمة جرائم الحرب الدولية، ثم رفضها بوش، فكانت كل اتفاقية تحد من الهيمنة الأمريكية والتزام أمريكا بالعولمة والتعددية محدوداً.

ويرى بأنه قد أصبح ينظر للعولمة كنتاج لانهايار حواجز الزمان والمكان بفعل التكنولوجيا الحديثة أكثر من كونها مذهباً أمريكياً، وأصبحت ظاهرتا العولمة والأمركة تنصران معاً سيطرة أمريكا السياسية والاقتصادية والثقافية على العالم.

فيرى بأن العولمة صنع أمريكا بكل وضوح، وهي تبرز الهيمنة الأمريكية على العالم، وتصيح مذهباً سياسياً مثيراً للجدل على الصعيد الدولي كما كان الدين مع الكنيسة القوية والشيعوية مع الاتحاد السوفيتي القوي.

يرى الكاتب بأن العولمة قد حلت محل الشيوعية، إذن هي مبدأ وإيديولوجيا كاملة، والحقيقة أنها تطبيق لمبدأ الرأسمالية الديمقراطية المطورة إذ تستخدم التكافل العالمي الناتج عن تكنولوجيا الاتصالات الحديثة التي ألغت الحدود بين الدول أمام حرية التجارة وتقل الأموال.

والملفت للنظر أن الكاتب يعترف أن ذلك كان موجوداً في عالم ما قبل ١٩١٤م، أي فترة الدولة العثمانية الإسلامية ويقابلها الدول الغربية بسيطرتها الاستعمارية الإنجليزية الفرنسية بالذات.

وعندما ترى النخبة السياسية الاقتصادية الأمريكية بأن العولمة برنامج عمل ترسم للإنسان والمجتمع السلوكيات تصبح في نظرهم مذهب أخلاقي لأنها تجاوزت السياسة والاقتصاد، أي أنها تحدد ثقافة المجتمع وحضارته، وأصبحت كما يقول عقيدة قومية.. فكيف تصبح بهذه الصفة وتصبح عالمية اللهم إلا إذا كانت عقيدة كل القوميات وبالتالي البشرية كلها.. فكيف ذلك؟ إنها مجرد توفيقات لهيمنة أمريكية وقوتها واقتصادها وديمقراطيتها وثقافتها محل ما لدى الأقوام والشعوب الأخرى!

وعندما يقول بأنها إيديولوجية ما بعد الإيديولوجيا فإنه يراها كما ذكر آنفاً عقيدة مبدئية، ولكنه لا يراها بتعقيدات الشيوعية، فهذا صحيح لأنها مجرد تطبيق لعقيدة الرأسمالية الديمقراطية على المستوى العالمي من خلال التوافق بين مصالح النخب الحاكمة.

وعندما يراها العقيدة الطبيعية لهيمنة أمريكا العالمية فإنه يخلط بين العقيدة المبدئية والفكرة المبدئية إذ هي من أفكار الرأسمالية الديمقراطية التنفيذية ليس غير، والتي تلغي حدود الدول وسيادتها أمام هيمنة أمريكا وسيادتها العالمية.

وها هو يتحدث عن حسنات الشركات الكبرى التي لا تستغل عمالة الأطفال وتدفع الأجور العالية فإنه يغفل ما تفعله تلك الشركات في البلدان المتخلفة من استغلال الكبار قبل الصغار والتمييز في دفع الأجور المزعوم أنها عالية بين أهل البلاد المتخلفة وتلك المتقدمة والتابعة هي لها!

وها هو يصرح بأن أدوات التنفيذ الأمريكي للعولمة هي منظمة التجارة العالمية والبنك الدولي وصندوق النقد الدولي في سوق حرة فإنه يعلن مهمات هذه المؤسسات في عولمة أمريكا عندما تسيطر اقتصادياً عليها وتفرض عليها التخلي عن هوياتها لتتال من رحمة أمريكا هبة التنازل عن فوائد أو بعض فوائد ديونها!!

وها هو يقول بأن الديمقراطية تصبح نتيجة لقوى السوق وليس لفلسفة معينة فإنه يفصح عن سيطرة الاقتصاد والمال على الحكم حتى يصبح أصحابه هم الحكام، مستخدمين جميع أنواع الخداع للشعوب لتختارهم.

وعندما يستنكر ويتأسف لربط ديمقراطية روسية بأفكارها السابقة المخالفة للانفتاح والحرية الغربية فإنه يقرر بأن معايير الديمقراطية الغربية هي الأساس ومخالفتها يعتبر انعكاساً!

وعندما يشير للصين فإنه يراها قد دخلت في مجال التنافس الاقتصادي دون الديمقراطية، وأنها دخلت في دكتاتورية مستتيرة وليس عولمة، فإنه يرى التقارب بينها وبين الغرب ولو على الأقل في الاقتصاد، وأما في الديمقراطية فهي في الطريق إليها لدكتاتوريتها التي وصفها بالمستتيرة لأنها أخذت تخفف منها باتجاه الديمقراطية..

وها هو يشير إلى عظم السوق الأمريكي الاستهلاكية إذ تفوق كل ما غيرها في العالم أجمع فإنه يعطيها أيضاً مع الإتفاق العالي على البحث والتطوير، يعطيها صفة المحرك للاقتصاد العالمي دون أن تلزم بأي تعديلات لصالح غيرها.. إنها امتيازات القوي على الضعيف!

وعندما يذكر تعادل التنافس بين أمريكا وأروبة فإنه يؤكد أهمية الاتفاق بينهما في التجارة والتمويل العالمي، وبالعكس عندما يختلفان فإن أمريكا تلجأ لمنظمة التجارة العالمية ولصلتها مع شركائها الآسيويين..إنها أمريكا بنفوذها واحتياها!!

ويصرح باستخدام القدرات العسكرية لتفرض أمريكا بتفوقها سياستها مهما كانت غير متوازنة في المجال الاقتصادي على غيرها.

وعند ذكر التعددية فإنه لا يتردد في نقدها إذ هي انتقانية وحسب المصلحة الأمريكية، فهي تعلق فترفض اتفاقية كيوتو للمناخ لأنها تفرض رقابة على مصانع أمريكا، وهي ترفض اتفاقية محكمة جرائم الحرب الدولية لأنها تقود لمحاكمة حكامها وقادتها كمجرمي حرب في كل الحروب الحديثة التي خاضتها في أفغانستان والعراق أكثر من غيرها.

عندما يقول بأن العولمة صناعة أمريكية ولكنه يذكر بأنها لفرض هيمنة أمريكا على العالم مستخدمة فرض البدائل أو تطوير الموجود في الثقافة ومناهج التعليم.

أهداف الترميز المعاكس

إن معاداة أمريكا، كما يقول، آتية من أنها تريد التغيير الاجتماعي والاقتصادي جنباً على جنب مع الثقافي والسياسي، فيظهر من ذلك عقيدة معاكسة معادية لتفوق أمريكا السياسي وللعولمة المتمثلة في تأثيرها الاقتصادي والثقافي.

ويقول: بأن النظام الأمريكي قد هيمن ثقافياً منذ الحرب الباردة عندما سقطت مقولة الحتمية التاريخية نحو الشيوعية بسقوط الاتحاد السوفيتي وظهور الرأسمالية

أكثر إنتاجية من الاشتراكية حتى جعلت الصين الشيوعية تمارس الرأسمالية مع الحكم الشيوعي.

ويقول: بأن العولمة قد وصمت بالمذهب العالمي الجديد لاستغلال غموضها أخلاقياً ولفراغها روحياً، وأنها إيديولوجية المادية القسوى أكثر من الماركسية، وأنها مذهب النفعية لمجالس إدارات الشركات.

ويقول: بأن أعمال العنف ضد اجتماع منظمة التجارة العالمية في سياتل، وضد اجتماع البنك الدولي في واشنطن، وضد اجتماع صندوق النقد الدولي في براغ وغيرها كانت تحذيرات لبداية ظهور تلك العقيدة المعاكسة للعولمة.

ويرى بأن الترميز المعاكس ظاهرة معروفة في السياسة عندما يتبنى الفريق الضعيف ظاهرياً مبادئ لعبة القوي ليستخدمها ضده، فينجح في ذلك كما حصل مع المهاتما غاندي عندما تبنى العصيان المدني السلمي لتحرير الهند من بريطانية، وعندما تبنت حركة الحقوق المدنية أساليب تتلاءم مع الدستور الأمريكي، وعندما تبنت حركة التضامن البولندية تعبئة العمال لصالح حقوقهم لتصل للتحرر الوطني، وعندما فشلت منظمة التحرير الفلسطينية في تبني ما تكسب به عطف الإسرائيليين لتحرير الفلسطينيين من إسرائيل.

ويقول: بأن الحركة المعادية للعولمة تتطور فكرياً لتصبح عقيدة معاكسة يقويها عاطفياً العداء للأمركة، فتملاً فراغ انهيار الشيوعية إذ تركز التفكير على السياسة والاقتصاد العالمي بالهجوم على الهيمنة والعولمة، وتوجه الكره نحو أمريكا خاصة بسبب الفارق بين مناصري العولمة ومناوئهم ولا سيما مع التركيز على الظلم الاجتماعي أكثر من المادي.

ويرى بأن منتقدي العولمة قد استغلوا تحفظات البابا ضد الرأسمالية عندما أشار بحلول الاشتراكية محلها في ستينيات القرن الماضي، وعاد ودعا لضرورة أن تكون العولمة لخدمة الإنسان مع احترام نوع الثقافات.

وعليه كما يقول فإن تلك العقيدة المعاكسة للعولمة تعتبر إيديولوجية في طور التكوين بعد أن دعا عالم الاجتماع الفرنسي الشهير بيير مورديو الذي توفي عام ٢٠٠٢ إلى تنظيم وجهات نظرها عندما رأى أن أمريكا تسعى لمنفعتها بالربط بين الديمقراطية والسوق بتعميم خصائص تركيبتها الاجتماعية والتاريخية على العالم.

ويصرح قائلاً: أن العولمة عقيدة جديدة يسعى مصمموها لهدف معين هو أولوية الشركات على القيم الأخرى، فهي الإمبريالية الشاملة لأمريكا الأقدر اقتصادياً وسياسياً في العالم. ويقول بأن الاستياء لا يقف عند أمريكا بل يتجاوزها إلى الأقوياء وأصحاب الامتيازات في العالم النامي كله وذلك لتركز الثراء في أقيان معينة تتوجه الكراهة والحسد إليها من الأكثرية الفقيرة.

ويقول: أن الهجوم على العولمة يوجد حافزاً ثقافياً إذ يرى نقاد العولمة بأنها ترادف الأمركة التي تسعى لفرض طريقة عيشها على الأمم الأخرى، مما يوحد الإيديولوجيات المعارضة للعولمة. فالنخبة الثقافية والسياسية الفرنسية ترى في رجحان كفة أمريكا هيمنة ثقافية على العالم من شأنها أن تقوض التراث الوطني لغيرها وإن كانت فرنسا تلتقي في صداقتها مع أمريكا في الالتزام بقيم الديمقراطية وإن كان انهيار الماركسية قد خلف توترات ثقافية بين الطرفين إذ ترى فرنسا أن ديمقراطية أمريكا العالمية لا تتسجم مع احترام التنوع الثقافي الدولي، لأنها فرض النسخة الأنكلو أمريكية للسوق على العالم.

ويقول: أن النخبة الروسية تهاجم أمريكا ولو مع موقفها الضعيف ضد الهيمنة الأمريكية والتفوق الاقتصادي باتهامها بالتفاهة الثقافية والجشع المادي والخواء الروحي، الأمر الذي يجعل روسيا مناوئة بقوة للعولمة ولا سيما وهي ترى نفسها العاصمة المسيحية الثالثة في العالم بعد سقوط قيمها الإيديولوجية المتجاوزة للقوميات مع سقوط الاشتراكية، الأمر الذي جعلها تحتضن العقيدة المعاكسة المناوئة للعولمة وتعارض الهيمنة العالمية الأمريكية، كما أن نخبة السياسة المنتفعة من المركزية تعارض العولمة لأنها تعرض منافعها للزوال.

ويقول: أن الصين الرسمية التي تعادي العولمة الأمريكية بحجة أنها ضد الديمقراطية التي تحابي القوي، الأمر الذي يفرض الدفاع عن تعدد الأقطاب. ثم أن الصين تجد في مفهوم الآسيوية المشترك نداءً للعولمة الأمريكية وبدلاً لها ولا سيما المتمثلة في الهيمنة السياسية والثقافية الأمريكية، ثم أنها ترى في الاستثمارات المالية الجذابة ما يجعلها المحطة الصناعية الأولى في العالم مما يدمر الصناعة في أمريكا.

ويرى بأن الاقتصاد الأمريكي هو قاطرة التنمية العالمية، وأن القوة الأمريكية هي أساس الاستقرار العالمي، ولذلك فإن أي أزمة اقتصادية تضعف التأثير العالمي لأمريكا وتفصل العولمة عن مصالح أمريكا الأمنية.

ويقول: أن العولمة في الخلاصة مرفوضة لأنها أمريكية في الأساس، وإن كانت العقيدة المعاكسة لم تنجح في وضع إيديولوجية شاملة بديلة للنظام العالمي الاقتصادي السياسي، وإن كان من الممكن ظهور تلك العقيدة المناوئة بشدة عندما تحشد الجماهير مع دول لمقاومة الهيمنة الأمريكية.

ويرى بأن هذا العداء لأمريكا سيبقى صادراً عن رفض سلوكها أكثر من رفض طريقة عيشها أو رفض العولمة، وذلك لأن التفاؤل الذي ظهر في استطلاع شمل ٢٥ بلداً بشأن تأثير العولمة على مستقبلهم كان مبهماً وبرز معه القول بتأثير العولمة على إثارة المزيد من عدم المساواة العالمية، مما جعل الكثير ممن شملتهم استطلاعات الرأي يؤيدون الحركات المناوئة للعولمة، ومما يحول العولمة إلى مؤامرة عالمية ضد الإرادة الشعبية أكثر منها نتيجة طيبة للتكنولوجية، فهي ستبقى نعمة ونقمة معاً، وعلى

صناع السياسة الأمريكية أن يصهروها مع محتوى سياسي أخلاقي واضح يركز على رقي الإنسان وإلا جاءت بنتائج عكس المرجوة، وأن ذلك المحتوى لن يكون إلا بمزيد تطبيق الديمقراطية وتقليل دوافعها الذاتية والتركيز على الصالح العالمي، فتبرز القول بأن العولمة فرصة لتحسين حالة الإنسان، وتخفف الميل الإيديولوجي الأمريكي نحو العولمة وذلك بإبراز أن الأسواق المفتوحة وسيلة لتحسين اقتصاد العالم أجمع وليست غاية أمريكية، فتراعي القيود المحلية لجميع البلدان الأخرى ولا تطلب من الآخرين ما ترفضه لنفسه فتخفف من شرور العولمة التي تحقق الفوائد لأمريكا، فتتحمل بعض التكاليف دون عائد فوري لتفتق العالم بأن تفوقها العالمي ليس خطراً على غيرها ولا سيما عندما تتصدى للمظالم التي تثير الأحقاد العادية لأمريكا.

ويقول: إن كيفية ممارسة أمريكا للقيادة، وحالة الاقتصاد في العالم هما أساس جاذبية العقيدة المعاكسة للعولمة، فإنها قد تعبى العالم ضد أمريكا، الأمر الذي يفرض عليها رؤية الأمن وأنه لا يتوقف على القوة العسكرية فقط بل أيضاً على الرأي العام وتحديد المشاعر العامة المعادية ومراكز الكراهية.

فيرى بأن على أمريكا والاتحاد الأوروبي التعاون الوثيق في المسائل الاقتصادية والسياسية للوقوف في وجه العقيدة المعاكسة، لأن أي نزاع بينهما سيهدد اقتصادهما وجهودهما لتوفير عولمة منصفة وديمقراطية فعلية.

إن صراحة هذا الكتاب ناطقة بأسباب معاداة الشعوب لأمريكا عندما تريد أن تغير واقعها الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والسياسي معاً، فهي تريد أن تجعلها نسخة مطابقة لما عندها هي فتلغي هويتها الثقافية والحضارية..إنها تريد ذلك باسم العولمة الاقتصادية والثقافية، فبئس هي عولمة أمريكية..

إن سقوط الحتمية التاريخية على حد زعم الشيوعية بسقوطها هي لا يعطي الحق أن يسري هذا الحكم على المبادئ الأخرى وبالذات الإسلام، لأنه إذا كان ما سرى بحق حتمية بشرية فكيف تقاس على الحتمية الربانية؟! لن يسري ما يصيب ما صنعه المخلوق ما صنعه الخالق إذ شتان بين الطرفين والأميرين!

وها هو يصرخ الكاتب بأن العولمة ليست أكثر من مذهب النفعية ليس فقط في حق الشركات الكبرى ولكن في حق الدول الكبرى وعلى رأسها صناعة هذه العملية الشيطانية في تطبيق الرأسمالية الديمقراطية، وبالذات الأمريكية، على العالم!

ولا ولن يلجأ المظلومون للترميز المعاكس، لإتباع أساليب الخصم القوي، للتغلب عليه إلا إذا كانت تلك الأساليب مما يقرها مبدأها فكرة وطريقة وأساليب، وإلا فال؟؟ المدني لا يمكن أن يؤخذ به إلا من يراه مطابقاً لفكرة وطريقة مبدئه، فالإسلام مثلاً لا يلجأ إليه إلا إذا رأى رجال حركته ودعوته أن الأسلوب المناسب في المرحلة المناسبة منها.

وما نجده من حديث الكاتب حول تطور العداء للعولمة ليصبح عقيدة معاكسة، وما يقوله عن مواقف المناوئين لها بأنها تريد فرض الشركات وقيمها على العالم بإمبريالية تشمل الاقتصاد والسياسة كما تشمل جميع جوانب الحياة، وما يذكره حول الكراهية لكل الأقوياء والأغنياء الذين يمارسون مختلف أساليب الظلم الاقتصادي والاجتماعي تبعاً لكرههم للعولمة ودعاتها، وما يشير إليه من مواقف النخب الثقافية الفرنسية والألمانية ضد تلك العولمة الأمريكية كواسطة لفرض الهيمنة الأمريكية، وما تفعله النخبة الروسية من هجوم عليها أيضاً، وما تردده الصين ضد العولمة بغض النظر عن الاستثمارات الأجنبية الدافعة لاقتصادها بقوة إلى الأمام، وما يذكره بأن العولمة مرفوضة لأنها صنعة أمريكية، ومما يذكره بأن العداء لها هو من رفض محاولاتها بفرض طريقة عيشها على الآخرين، وما يشير إليه من تأييد الشعوب للحركات المناوئة للعولمة لأنها تزيد في عدم المساواة العالمية، كل ذلك وغيره لأدلة قوية على نوعية هذه العولمة الأمريكية في الهيمنة على الشعوب وظلمها ونهب خيراتها ومحاولة طمس هويتها.

وما هو ينصح صناع القرار الأمريكي أن يعطوا عولمتهم محتوى أخلاقياً سياسياً أي أنها تهدف لرقى الإنسان وإلا فشلت ورفضت.

وأما قوله بأن ذلك المحتوى سيتحقق بمزيد من تطبيق الديمقراطية والتركيز على الصالح العالمي وليس المنفعة الذاتية، فإنها دعوة لصناع القرار الأمريكي ليحسنوا وجهها القبيح حتى لو زعموا بهذه الدعوة للديمقراطية التي باتت ممجوجة لكثرة ألوانها وافتراءاتها ناهيك عن أخطائها.

وأما عندما يحذر أمريكا من التركيز عن الأسواق المفتوحة دون جعلها وسيلة لتحسين الاقتصاد العالمي وليس غاية أمريكية فإنه ما زال يدعو لتحسين وجهها القبيح!

وفي النهاية يربط شكل القيادة الأمريكية للعالم بحالة الاقتصاد في العالم ليحذرنا من تعبئة العالم ضدها ولاسيما عندما لا تراعي إلا هيمنة القوة، ولا تتعاون مع أروبة في الاقتصاد والسياسة لتقف في وجه المناوئين.

عالم تسقط فيه الحدود إلا في وجه الشعوب

فالمال والمنتجات لا حدود لها في العولمة، وأما الناس فإن ضغوط الهجرة والنمو السكاني وشيخوخة المجتمعات تؤثر كثيراً في الواقع السياسي العالمي. فالمدافعون والمنتقدون للعولمة يرون الحدود والدول القومية لحماية النشاط الاقتصادي لكل أمة كما تحمي سلامة صحة المواطنين، وإن كان تشجيع الانتقال والهجرة قد اختلف من عصر لآخر ومن مكان لآخر غير أروبة، وقد جاء جواز السفر

في القرن العشرين ليلحق خسارة بالبشرية بشأن حقها في السكن المشترك دون قيود كنتيجة للقومية والحدود التي فرضتها بين الناس ومجتمعاتها.

ويقول: إن رفع الحدود بين دول الاتحاد الأوروبي قضية صعبة جداً ظهرت عند انضمام عشرة دول أخرى عام ٢٠٠٢ للاتحاد. وأمريكية تواجد معضلة الهجرة العالمية لوجود ربع المهاجرين في العالم ولا سيما مع ثقافة الهجرة غير الشرعية من المكسيك وخاصة مع نموهم الثقافي واللغوي.

ويقول بأن الهجرة نتيجة حتمية للثورة التكنولوجية العالمية، ولا سيما مع نمو السكان المتفاوت بين القارات، وخاصة لضعفه في البلدان الغنية وزيادته الكبيرة في الفقيرة، فقد كان التعداد السكاني عام ١٩٠٠ لأروبة وأمريكة ٣٠% من سكان العالم ثم هبط إلى ١٤% فقط عام ٢٠٠٠. ولو لاحظنا تزايد نسبة المسنين في البلدان الغنية لرأينا وجوب الهجرة كضرورة اقتصادية وسياسية من البلدان الفقيرة إلى الغنية.

ويقول: ومع تنامي العداء للغرب وأمريكة في العالم الفقير يظهر التفاوت الكبير بين دخل الفرد السنوي بين الطرفين، فهو يفوق ٣٠ ألف دولار في أمريكة، ويصل إليه في الاتحاد الأوروبي، بينما يقل عن ألف دولار في العديد من بلدان أفريقية.

ويقول: ومع هذا التفاوت الاقتصادي يحصل التفجر السكاني في العالم الفقير من آسية وأفريقية، مما يوجد عدم استقرار في أقطار ذلك العالم وتوفير جموعاً كبيرة من المجندين للحركات المعادية للغرب، ولا سيما مع غلبة فئة الشباب على مجتمعاتها مما يثير الاضطراب الاجتماعي والسياسي إذ لا تقل نسبتها عن ٤٧% في آسية، و ٥٧% في شمال أفريقية، بينما لا تصل ٤٢% في أمريكة و ٣١% في أروبة، مما يهدد الاتحاد الأوروبي لقبهم منه، ويثيرهم ضد النظام الدولي الذي تسعى أمريكة له ولا سيما مع توفر الوعي بسبب وسائل الإعلام وخاصة التلفاز.

ويقول: ومع تأثير الهجرة على تركيبة أروبة الاجتماعية الثقافية فقد ظهرت التوترات السياسية والاجتماعية بحركات معادية للمهاجرين ولكنها ستبقى بحاجة للهجرة لحاجة اقتصادها للعمالة الشابة ولا سيما مع شيخوخة مجتمعاتها، وسيزداد الضغط على ميزانية الإنتاج مع متطلبات الرعاية الاجتماعية المتزايدة، وإن كانت البلدان الغنية مضطرة لاستقبال المزيد من المهاجرين الشباب وبالذات الأكثر تعليماً منهم، مما يعرض بلدانهم لمزيد من الخسائر. فهناك ١.٥ مليون مهاجر ماهر في أمريكة وأروبة وأسترالية واليابان، منهم ٣٠ ألف دكتور من أفريقية هاجروا في العقد الأخير.

ويرى بأن شيخوخة المجتمع ظاهرة عالمية إذ يتقلص حجم السكان في البلدان الغنية كإسبانية وإيطالية وتزداد نفقات كبار السن، وأما أمريكة فإنها تعتمد على نسبة الولادات العالية لدى المهاجرين إليها، ولذلك فإن نمو السكان فيها يسير بشكل عادي

بحيث تتجدد قوتها العاملة. وأما أروبة واليابان فإنهما حافظتا على مستوى المعيشة وعلى دفع نفقات كبار السن مما يجعلهما بحاجة إلى عدة ملايين من المهاجرين.

ويرى بأن أروبة يمكن أن تخفف المشكلة بالتوسع شرقاً، ولكن صعوبة التمازج بين الثقافات المختلفة كشمال أفريقية وتركية لا يسهل الهجرة والتوسع وإن كان لا بد من زيادة الهجرة، ولكن لا بد للعولمة من إعادة تحديد المفهوم التقليدي للدولة القومية. ولكن إذا أمكن ذلك بحق أمريكية وكندا وأسترالية فليس من السهل بحق فرنسة وأكثر منها اليابان.

ويقول بأنه مع تكاثر كبار السن يقل عدد المتطوعين للخدمة العسكرية ويزداد رفض الإنفاق العسكري، مما يفرض الاعتماد على القوات ذي المهارة التكنولوجية، وعلى تجنيد المحترفين من المهاجرين.

ويرى بأن أمريكية بسبب عدم تعرضها لمشكلة الشيخوخة فإنها تحافظ على قدرتها في القيادة العالمية، بينما شركاؤها الأغنياء فإنهم سيقون بحاجة للاعتماد عليها لأمن العالم.

ويرى بأن مجتمع أمريكية متعدد الثقافات يقدم نموذجاً مطمئناً للآخرين المتمسكين بالقومية، كما أن منظمة التجارة العالمية تبقى ضرورية لتنظيم عالمي معقول.

وأخيراً يقول: إن العولمة التي تحابي الأغنياء حتى في تنظيم الهجرة تعطي المبرر لمنقديها، ولكن الوعي الاجتماعي العالمي المشترك، مع حركة البضائع والأموال الواسعة، مع حركة الأشخاص المنظمة تقدم للعولمة الإمكانيات الإيجابية.

إن العولمة التي تسقط الحدود أمام حركة المال والمنتجات تجد نفسها وجهاً لوجه مع ضغوط الهجرة والنمو السكاني وشيخوخة المجتمعات التي تؤثر في الواقع السياسي العالمي. وحتى يتغلب عليها يجد العالم الهجرة نتيجة حتمية للتكنولوجية الحديثة، كما يجد تفاوت في نمو السكان بين القارات الغنية والفقيرة، وبالتالي التفاوت الهائل بين دخل الفرد السنوي.

ها هو يرى في هذا التفاوت سبباً في عدم الاستقرار وتوفير مجندين للحركات المناهضة للغرب ولا سيما لكثرة الشباب بينهم، ولا بد من التخلص من ذلك باستقبال المزيد من المهاجرين وخاصة لما في ذلك من التخلص من شيخوخة المجتمعات في أروبة بالذات لأن أمريكية تتغلب على ذلك بكثرة ولادات المهاجرين إليها.

وعندما يرى بأن في توسع أروبة شرقاً سبيلاً للتخلص من ذلك فإنه يقرر صعوبة التمازج بين الثقافة الإسلامية في تركية وشمال أفريقية دون أن يذكرها بصراحة وبين أروبة،

وعندما يجد أن أمريكا لا تتعرض لمعضلة الشيخوخة فإنه يرى ذلك من أسباب قدرتها على القيادة العالمية، فماذا يقول إذن عن المجتمعات الدائمة الشباب كالمجتمع المسلم؟

ويربط حاجة شركاء أمريكا لقيادتها لهم بسبب عدم شيخوخة مجتمعها بينما يرى حاجتهم بقيادتها. وعندما ينتهي إلى أن الوعي العالمي المشترك، مع حركة البضائع والأموال، وحركة الهجرة المنظمة توفرت الإمكانيات الإيجابية للعولمة فإنه ينسى أن يوضح ما يقصده بالوعي العالمي المشترك، وماذا يجري إذا لم يكن مشتركا؟

وهل البضائع والأموال يترك لها أن تتحرك بحرية دون قيود لا من قيد المنشأ الجاري الآن، ولا من هوية التاجر الواجب مراعاتها في نظر الإسلام؟

وهل الهجرة المنظمة للتغلب على شيخوخة المجتمعات الأروبية وتزويدها بالأيدي الشابة الماهرة دون أي اعتبار لأسباب هذه الهجرة ولا للمجتمعات التي تهاجر منها ولا لمحاولة الإبقاء عليها في بلدانها لتشارك في نهضتها؟

معضلات الديمقراطية المهيمنة

تجمع أمريكا اليوم بين القوة المهيمنة عالمياً والديمقراطية معاً، وهي تهدد الديمقراطية لعدم مراعاة طموحات الآخرين وحقوقهم، ولإطلاق شعارات الديمقراطية الثقافية، ولعدم التفريق بين لوازم الأمن القومي وأسباب الذعر الاجتماعي.. إنها تسعى للتوازن بين الديمقراطية الأمريكية والهيمنة الأمريكية لتجنب البشرية النزاعات العالمية، فكيف يمكن تحقيق ذلك والمجتمع الأمريكي يتهدده الدور الخارجي المهيمن؟

إن إغراء أمريكا الثقافي العالمي يؤثر على تقاليد المجتمعات وقيمها الثقافية فتقبل على المنتجات الأمريكية من أفلام ومسلسلات وموسيقى و.. لتستخدمها في حياتها، ذلك لأن بلداً منيعاً على ذلك لم يعد له وجود، وتهافت الضوابط الإيديولوجية أمامها كما ظهر في الاتحاد السوفيتي وخاصة لعدم وجود بديل إيديولوجي ..

إن هذا القول من الخداع والتضليل للمسلمين الذين يعرفون بديلهم ولا يأخذون المنتجات الأمريكية إلا كلباس أو أدوات لا تؤثر على إسلامهم وعقيدتهم، وإذا تأثر أحد بثقافة هوليوود فإنه إلى زوال أمام الزحف الإسلامي..

وأى ثقافة وحضارة في شكل تناول الطعام كوجبات سريعة؟ وأما أن ذلك كله من إفراز النظام الديمقراطي الأمريكي بقوته المهيمنة اللينة، وأن ذلك لا مثيل له في التاريخ ولا منافس له في الحاضر والمستقبل، فهذا زعم مرفوض أمام تمايز المجتمعات الثقافي والحضاري .

وأما أن يظهر سيطرة العلامات التجارية الأمريكية في أي استطلاع فهذا بدهي لضغط الدعاية لها، ولكن ما قيمة ذلك في الميدان الثقافي والحضاري؟

وأما أن تصبح أمريكا وجامعاتها مقصداً لكسب المهنة والعلم والمال والخبرة فهذا لتقدمها في ذلك وليس لثقافة معينة ؟

وعندما يرى النفاعل بين الثقافة الأمريكية في العالم وبين قوتها المهيمنة، فإنه يتجاهل الكراهية لأمريكا والاستياء من سياستها في العالم الإسلامي بسبب انحيازها لإسرائيل، مما يوجد اصطدام بين ثقافة أمريكا وسياستها، فينظر العالم لها بإعجاب واستياء معاً حسداً، وأي حسد هذا والشعوب تريد الخلاص من الهيمنة الأمريكية لأنها تتغلق حول طموحاتها ولا تبالي بطموحات الشعوب.

وعندما يرى بأن ضرر التحول الثقافي بآثاره عدم الاستقرار في البلدان يوقع سياسة أمريكا الخارجية في مأزق لأن ذلك يكشف عن التناقض بين هيمنتها وديمقراطيتها مما يضر بالمصالح الأمريكية الاستراتيجية كما أن النظرة الضيقة المحصورة في المصالح الأمريكية تجعلها تعتمد على قدرتها في الحفاظ على أمنها هي، وعلى الوعي على مصلحة عالمية مشتركة ..

إنه يربط بين محاولات التقرب الأمريكية من الشعوب لكي تقنعها بإرادة مصلحة لها تشترك مع أمريكا، وأن في ذلك المصلحة للشعوب وليس لأمريكا وحدها. ولكن أي مصلحة مشتركة مع العالم الإسلامي وهي ترعى الاستبداد فيه ولا تبالي إلا بمظاهر ديمقراطية زائفة لمصلحتها هي!؟

التعددية الثقافية والتماسك الاستراتيجي

ويرى أن الديمقراطية هي إجماع جمهور الناخبين وليس النخبة فقط مما لا يجوز التلاعب بها عند الأزمات، فهو بهذا يرسل رسالة إلى الإدارة الأمريكية الحالية التي جنحت إلى الاستبداد وإلى كل حكومة استبدادية.

ويدعو صناع القرار الأمريكي للتنبيه لصعوبة التماسك الاستراتيجي في أمريكا بسبب تعدد الثقافات فيها، ويحذر من سيطرة النخبة على الإدارة وهي بإحساس متعجرف، وأن كان الاندماج بين الكاثوليك والبروتستانت يزيل هذا التفريق بين الفئتين، مما يشير إلى نجاح انتخاب أو لرئيس كاثوليكي عام ١٩٦٠م، كما أن اليهود تجنبوا إبراز هويتهم إلا عندما عين كيسنجر مستشاراً للأمن القومي ثم وزيراً للخارجية أواخر السبعينيات.. ثم أدخل الأفارقة في المشاركة في الحياة الأمريكية، وتضاعف الاهتمام بحكومة إسرائيل.. إنه يشير إلى دواعي التغيير في السياسة الأمريكية.

ومع بداية القرن العشرين أخذ المجتمع الأمريكي يقبل مزج الثقافات المتعددة من اثنية لاتينية وآسيوية تهتم بمصالحها الخاصة في السياسة الخارجية، مما يؤثر عليها بعد أن أصبح لكل منها ثقلها في قضايا السياسة الخارجية، وأنه سينضم المسلمون كغيرهم إليهم فيما بعد. فاللاتينيون والأمريكيون السود والإيرانيون

والصينيون والهندوس كما المسلمون سيكون لهم كما كغيرهم نفوذ وتأثير على سياسة أمريكا الخارجية.

وقد أصبح لليهود في فترة جيل واحد القدرة على إزالة التحامل ضدهم وفرضوا تأثيرهم في الميادين العلمية والإعلامية والترفيهية وجمع الأموال السياسية، وتفوقوا على المسلمين لعدم التنظيم لدى هؤلاء..

إن ذلك يضلل المسلمين بأن التأثير في أمريكا وسياستها يكون كما فعل اليهود، ويتجاهل وجود الدولة الفاعلة إسرائيل في خدمة مصالح أمريكا أو التأثير عليها، وأن مثل ذلك عند وجود الدولة الإسلامية المؤثرة سيكون للمسلمين من الأثر ما يفوق اليهود.

ويتحدث بعدها عن تنقل أهداف الخارجية الأمريكية من الانعزال في القرن ١٩ إلى نحو أروبة في القرن ٢٠ لتمنع الشيوعية من ابتلاعها، ولكنها بعد الحرب الباردة لم يعد هناك مجموعات ضغط تؤثر بشكل حاسم على السياسات الأمريكية الإقليمية حتى جرى التساؤل عن يحدد سياسة أمريكا تجاه إسرائيل والعرب، والصين وتايوان، والهند وباكستان، مما سبب تضارباً في سياسة أمريكا الخارجية، إذ وجد التأثير على الكونغرس، وأن ذلك في ازدياد مع إقرار التعددية الثقافية المقبولة في أمريكا..

إنه ما زال يضلل المسلمين في أي الطرق يتبعونها للتأثير على السياسة الأمريكية الخارجية.

وعندما يتحدث عن وجود تحديات قومية خطيرة كما حصل في ٩ / ١١ فإنه يرى رسم سياسة متماسكة عالمياً بالتزام رأي الرئيس، وإن لم يكن له رأي نجحت اللوبيات الضاغطة أكثر من المصلحة القومية، مما يضطر الرئيس للجوء لتسويق منهج ميداني...

إنه يشير هنا إلى ما حصل بعد ٩ / ١١ مما يبرر به العمل برأي الرئيس الألمعي أو التابع لمستشاريه ..

وفي نهاية هذا البحث ينبه إلى أن تعددية كندا لا تصلح لأمريكا لأنها محدودة بها وأما أمريكا فتخرج عنها للعالم كله مما يفرض عليها مراعاة المصلحة القومية في إجماع مشترك مع حلفائها لا تسلمها إرادتها تحت ضغوط اللوبيات مما كما يقول يضر بقيادة أمريكا للعالم.. إنها نظرية الاستراتيجية لأمريكا وقيادتها للعالم.

الهيمنة والديمقراطية

فالهيمنة العالمية تهدد الديمقراطية الأمريكية في قيادتها للعالم، مما يفرض خضوع ممارسة الهيمنة في الخارج للمراقبة العامة. وبعد تأييد الشعب للتعددية في

العالم منذ انتهاء الحرب الباردة عاد وانعكس الأمر بعد ٩ / ١١ على النخبة والطبقة العليا ولكن الشعب بقي يرى الحرب في إطار الأمم المتحدة ومراعاة الحلفاء ولكن الرئيس خالف ذلك فأرى قوى الخير فيمن مع أمريكا وقوى الشر فيمن ليس معها، وأخذ يدعو الشعب للدفاع عن الحضارة الغربية بالحرب وضد الإرهاب العالمي، فاختلطت الأمور وتوترت بين الديمقراطية الأمريكية والهيمنة العالمية..

إنه يحذر من الاندفاع في هذا الطريق حتى لا تضع القيادة الديمقراطية تحت هيمنة القوة.

وعندما يتحدث عن دفع النخبة العسكرية المسؤولة عن الأمن في الخارج للإدارة في هذا السبيل فإنها تبرز في جهاز الاستخبارات الضخمة التي شكلته مع الإدارة للتدخل الشامل في العالم، وأن مراقبة الإنفاق تخفف من تأثير تلك النخبة المهيمنة، ولا سيما مع قوة الصحافة الحرة، وبقي الأمر بيد الرئيس وحده ليحدد المصلحة القومية في الخطر وليس الكونغرس الذي يشارك للإبقاء على الانسجام بين السياسة وقيم الديمقراطية، وأن كيفية ذلك تتم بما يفعله الرئيس، فهو الذي أثار الشعب ضد العراق، فتنازل الكونغرس عن حقه في الرأي، فانحرف التوازن بين القوة التشريعية التنفيذية بسبب ذلك، مما يفرض وجود جهاز مركزي للتخطيط يحاور الكونغرس سواء كان تابعاً للبيت الأبيض أو مجلس الأمن القومي.

إنه ينبه ويحذر من عدم وجود مثل هذا الجهاز للمحافظة على النظام الديمقراطي حتى في ظروف الأمن الطارئة.

وما هو يذكر كيف حصلت الحرب الاستباقية باحتلال العراق من خلال نجاح الدوافع الخاصة، ومصالح المجموعات المعينة، والحسابات السياسية في تشكيل حركة سياسية مفاجئة تتخذ الحرب الاستباقية وسيلة لذلك مع عدم النظر للأمن المحلي والديمقراطية في السياسة الخارجية لتنفيذ ذلك.

فهو يبرر ما فعلته أمريكا في حربها الاستباقية، ولو كان للعراق قوة مخيفة في ذاتها وحلفائها لما جرأت عليها أمريكا بتلك الحرب المصطنعة الأسباب.. ويصرح بأن ذلك ألغى التوازن بين المحافظة على الديمقراطية والحقوق المدنية في أمريكا، إذ طغى الأمن الشخصي عليها، واستمرت ردود الأفعال لتثبت الدور الأمريكي العالمي الجديد.

وهنا يرى لزوم احترام أكثر للاجماع الدولي للتخلص من الاستياء ضد الهيمنة الأمريكية، ومن التهديد لأمن أمريكا، فانتقلت الحقوق المدنية بالقانون الوطني لعام ٢٠٠١ بأحكامه المؤقتة التي تسقط بالتصويت بعد أربع سنوات.

مما يحذر منه، وينبه لضرورة إسقاطه في وقته ليدوم التنسيق بين الديمقراطية والأمن المحلي.

وبعدها يذكر جوانب سينة من تطبيقات ذلك القانون من اعتقالات وتوقيفات وترحيلات كلها على الشبهة ودون دليل، مما شوه صورة أمريكا وزاد العداء لها

وتساءل الأصدقاء عن ديمقراطيتها.. إنه التحذير الشديد من استمرار ذلك، وخاصة أنه ينتهي بأمريكا إلى العزلة وسيطرة الحكم العسكري بسبب الهاجس الأمني كما حصل في إسرائيل..

وينهي الكاتب هذا الجزء من بحثه بالإشارة إلى أثر التطورات العلمية للدراسات الجينية والهندسة الطبية الحيوية والتعديل الوراثي فإنه يؤدي بأمريكا والدول الغنية من تحسين الصحة وتوسيع الذكاء.. مما يزيد في التباين العرقي بين البشر ويعرض بالتالي ديمقراطية أمريكا للخطر، فيزيد العداء للعولمة وأمريكا ذاتها، وخاصة أن بوش قد دعم الثورة العلمية القادمة التي لا يعرف مصير البشرية معها لأنها تتحدى الأديان والديمقراطية عندما تحل ترابط الحرية مع المساواة محل تفوق بعض الأفراد على الآخرين، وعندما تستغل هذه التطورات كما حصل مع النازية، فتتعرض وحدة الإنسانية للخطر والديمقراطية للزوال.

إنه يحذر من السماح لهذا التطور البشري الذي يعرض الإنسانية لأشد الأخطار في حاضرها ومستقبلها، وينسف التوازن بين الديمقراطية والأمن القومي، ويعطي الحق لمن حاز تلك الطفرات من الهيمنة العالمية.

نظرة في الخاتمة والخلاصة:

السيطرة أم القيادة ؟

يبدأ بتحذير أمريكا من ترك الهيمنة خشية من خطر الفوضى العالمية كما يقول، فما أجرأه على أهمية بقاء الهيمنة على العالم! وللحفاظ على تلك الهيمنة يدعو أمريكا لتحديد شكلها حتى لا تزول، فدعا إما البقاء على سيطرة القوة الحازمة المكلفة جداً وإما الإجماع الدولي لدعم قيادتها وإصباح الشرعية عليها، ولكن اضطرار أمريكا لاستخدام قدرتها العسكرية القادرة على أي بقعة في العالم الحق ضرراً كبيراً في موقفها العالمي .

وهنا يحذر أمريكا من ذلك ويدعوها لتوضيح التحدي الاستراتيجي ضدها وتعبئة العالم معها ضده في المدى البعيد حتى تبقى قوة عالمية فائقة كما يقول وليست ناقصة.

ويتحدث بعدها عن تشديد أمريكا بعد 9/11 على الإرهاب وربطه بالإسلام، وتحالف شركاء معها يشاطرونها تفكيرها ويعيشون هذه الحرب، ويذكر بأن هذه الحرب جذابة في المدى القصير لاستغلال المخاوف الغامضة الشعبية ولكنها تبعد الآخرين عن أمريكا على المدى الطويل وهي تشغل في شؤونها الخاصة، فيزداد العداء لها، فلا بد من تعريف الإرهاب ولا يبقى غامضاً بحيث يجمع بين التهديد المركزي لأمن أمريكا، ويبرر الحرب الاستباقية، ويدعو للتحالفات الخاصة، مما يعطي قوة أمريكا شكلاً

اعتباطياً. وللتخلص من ذلك لابد من التركيز على الاضطراب العالمي كما يقول والذي يكون الإرهاب عنصراً عارضاً منه، وبهذا تتمكن أمريكا من قيادة حلف دائم من الديمقراطيات المتشابهة وتتجح بتعريف العولمة الإنساني في قيادتها للعالم ..

إنه بدهاء المفكر السياسي ينبه إلى كيفية تحويل الحرب على الإرهاب إلى تسميتها على الاضطراب !! حتى أنه يرى في الفقر والظلم الاجتماعي والاثنين والصراعات الدينية والعرقية كلها أسباباً لذلك الاضطراب !!

ثم يتحدث عن خطأ التركيز على أسامة بن لادن كصورة شيطانية مثيرة للشعب، وتجاهل وعي البشر السياسي العالمي، ونبه لاستغلال الكراهية والعداء لأمريكا، أو عدم تلاقي الرؤية الدافعة لمجتمع عالمي يقوم على المصلحة المشتركة تحت دور أمريكا العالمي، فتتحول القوة الأمريكية المسيطرة إلى هيمنة تعاونية تحقق قيادة بقناعة مشتركة وتحالف دائم.

إنه يكرر تحذيره من النظرة الضيقة للإرهاب، ويدعو لتشكيل المجتمع العالمي القائم على مصلحة مشتركة..

ويرى بأن المجتمع العالمي بمصلحة مشتركة مطلب عالمي بدأ بالظهور مع العولمة وتعاون أمريكي وأروبي، وأن أمريكا مؤهلة لقيادة هذه العملية لقوتها وديمقراطيتها.. فهو يربط بين الجانبين للقيادة، فكيف إذا كان الإسلام هو البديل عن الديمقراطية؟

فهو يؤكد أن الآخرين لن يقبلوا القيادة الأمريكية إلا بالجمع بين القوة والتعاون التي تنفذ العالم من الاضطراب والفوضى وذلك بالجمع بين سياسة تعاونية متوازنة، والجهد الصبور لتهدئة مناطق التفجر، والجهد المستمر لإشراك المناطق الحيوية في عمل مشترك، والاعتراف بالعولمة كبعد أخلاقي أعمق من التجارة والأرباح، والتربية الثقافية السياسية للوعي على مسؤوليات التكافل العالمي. إنه بذلك يركز على عاملي القوة والتعاون للقضاء على الاضطراب العالمي حتى في مناطقه المتفجرة، فهو لا يقيم وزناً للعقيدة والإيمان التي لا تهدأ إلا بانتصارها.

ويواصل التنبيه للشعب والرئيس بالتعاون في تثقيف سياسي ديمقراطي لا يتاجر بالشعارات والخوف حتى لا يحبذ العزلة ويمكن من قيادة العالم طويلاً بالتوازن بين الأمن الأمريكي والأمن العالمي وبتحمل أعباء التفوق العالمي والتحالفات الديمقراطية لأن استراتيجية أمريكا تتطلب شراكة عالمية أمريكية أوروبية شاملة بتحالف أطلسي، فتبقى أمريكا القوية مكتملة بأروبة الغنية، وتطمئن بأن توحيد أروبة يفيد أمريكا، فبقوة أمريكا العسكرية تتعزز وحدة أروبة، فيحرص الطرفان على الروح الوقائية لتطوير استراتيجية مشتركة وسياسة عالمية دائمة.

فهو يحرص بتثقيف الشعب على القيادة العالمية وتحمل نفقاتها، إنه يدعو للحرص على الشراكة الأطلسية المصلحية المسيطرة على العالم سيطرة يسميها بالقيادة، وتتفرد دائماً فيها بحيث لا يسمح بمنافس لها ..

ويضغط على دعاة فصل المجهود الإداري الدفاعي عن أمريكا بأن سير وحدة أروبة الاقتصادية والسياسية لا تستغني عن القوة الأمريكية الغالبة في الأطلسي، فلا يجوز لهم الاستمرار في دعوتهم لمشاركة أمريكا وأروبة في قوة حلف الأطلسي القادرة على فعل كل شيء، سواء في أفغانستان أو العراق أو فلسطين، إذ لا يستطيع فعل شيء دون الرؤية المشتركة بين أمريكا وأروبة.

فلا يجوز الاستمرار في تلك الدعوة لأنها تضعف الطرفين.. فهو يريد القوة التي لا تضعف فيها أمام أي خطر عالمي. وعندما يرى ضعف الغرب في قدرته على التخلص من المصالح الضيقة التي تظهر عجزه في القيادة الفكرية للعالم فإنه يأمل أن يجدد العالم سياسياً بجدال استراتيجي واعي بحيث يشمل أوكرانيا والفوقاز وحتى روسيا في توسع الأطلسي والاتحاد الأروبي.

إنه يدعو الغرب بالجمع العالمي في إطار الأطلسي وأروبة بحيث لا يقهره أحد، ولا يتخلص من سيطرته أحد حتى في الشرق عندما يتعاون الطرفان لحل قضاياها، فلا يصطدما بالإسلام ويدمجا المنطقة في العالم الديمقراطي المتحضر!!

ثم ينبه الغرب لسبيل تحقيق ذلك الهدف وذلك بفهم القوى المتصارعة في العالم الإسلامي، وكيف أن أروبة متفوقة في ذلك، مما يبسر الجمع بين أمريكا وأروبة على حل نزاع العرب واليهود، وعلى تشجيع الديمقراطية في هذه المنطقة، ولكنه يخشى من ظهور متعصب يتجاهل الإسلام فيحتاج لفرض الديمقراطية على المنطقة فرضاً كما حصل في ألمانية واليابان بعد الحرب الثانية. فهو يحذر من الغطرسة الأمريكية في العالم الإسلامي وضرورة تعاونها مع أروبة الخبيرة أكثر منها فيه ليعيش على الديمقراطية ولا يحتاج أن تفرض عليه فرضاً لو ظهر معارض قوي لذلك.

ويشير إلى إمكانية نجاح الغرب في ذلك من خلال ما يجري في تركيا والمغرب وإيران بحيث يلزم أمريكا أن تتجنب فرض الديمقراطية بالتصادم مع الإسلام، فتسير بالتدريج في التغيير العفوي في المنطقة نحو الديمقراطية.

إنه الحرص على ديمقراطية العالم الإسلامي وبشكل يدوم من خلال التنقيف السياسي المركز.

ثم يتحدث عن مجال الأطلسي الواسع، وأنه يشمل أمريكا النشطة سياسياً، وأروبة الموحدة اقتصادياً، والشرق الأقصى المتحرك تجارياً، وذلك للتصدي للاضطراب الأمني، ولا سيما لنووية الهند والباكستان، ولا اعتماد اليابان والصين على نفط الخليج العربي وآسية الوسطى بحيث لا تقفان متفرجتين على التحدي المشترك في هذه المنطقة المتفجرة، مما يفرض عليهما التعاون مع أمريكا لتعزيز الاستقرار السياسي الاجتماعي في المنطقة.

إنه توسيع حلف الأطلسي في إطار التعاون الأمريكي الأوروبي المسيطر على العالم ولا سيما مع مزيد من التحمل العسكري لليابان والتعاون بفعالية للتخلص مع كل تلك المعضلات من خلال الجمع بين القوة الأمريكية والتكافل العالمي.

ويعود للعولمة ودعم أمريكا لها بحيث تستطيع التصدي للاضطراب العالمي على السلطات في الدول الفقيرة، وهذا في رأيه ينجح بمراعاة أمريكا للتكافل المتساوي مع الآخرين وليس بفرض الأهداف الأمريكية الضيقة والمباشرة.

إنه يعود إلى بيان كيفية تأويل العولمة لتكون أداة طيعة في يد السيطرة الأمريكية على العالم وإن سايرت باسم التكافل أروبة ودول الشرق الأقصى، فالكل خاضع لهيمنة القوة الأمريكية.

ويعود وينبه أمريكا للعواقب السياسية غير المتوقعة لأثرها الثقافي العالمي لأن قوة أمريكا تثير مطالب عالمية وبالذات ممن يتوقعون منها أكثر من الدول الأخرى، فإنهم يعادونها لأنها لا تقوم بما يساعدهم على تصحيح أوضاعهم الخاصة.

فهو تحذير من الأثر الثقافي العالمي المصحوب بالقوة الأمريكية لأنها تززع الاستقرار العالمي، مما يفرض ربط مكاسبها السياسية الثقافية بقضية عالمية مشتركة.

وأخيراً ينبه على ضرورة التوازن الدقيق بين الحقوق المدنية ولوازم الأمن القومي، والحذر من إثارة الردود الشعبية الحادة كما حصل في أحداث ٩/١١ بصورة متعمدة لأن في فقدان ذلك التوازن تدمير للديمقراطية، إذ الأمن المحلي يجب أن يعزز القوة السياسية والشرعية العالمية، وذلك لأن دفاعها الوطني مبني على منع انتشار أسلحة التدمير الشامل وعلى العمل لإنقاذ العالم من الاضطراب والإرهاب بالربط بين أمن أمريكا والعالم، وإن كان كما يقول لأمريكا الحق في الأمن أكثر من غيرها لأن غيرها يعتمد عليها، مما يفرض قوة استخباراتها وتفوقها التكنولوجي الشامل، ولكن بشرط مساعدة الآخرين في سعيها لبناء مجتمع عالمي لمصلحة مشتركة لما في ذلك من جاذبية للآخرين.

إنه تكرر التوازن بين القوة والأمن، بين القوة والديمقراطية وإن تميزت أمريكا بمسؤوليتها عن غيرها، ولكن استهداف المجتمع العالمي القائم على مصلحة مشتركة يبني التلاحم والتجاذب لا الكره والتنافر.

انتهت دراسة كتاب الاختيار

وبذلك انتهت دراسة كتاب ولوج المعرفة

والصلاة والسلام على سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين

والحمد لله رب العالمين

ولوچ المعرفة

فخذوها بثقة واطمئنان



ISBN 978-9957-05-172-3 (ردمك)

المنهج